عدد ٩ — يونيه ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٣



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصري



رجب ١٣٦٥ — يونيه ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ٩

من القاهرة إلى بيروت

أرأيت إلى الظلمة الحالكة التي تغمر السكون، وتطبق على الفضاء، وتجثم على كل شيء، ويومض مع ذلك بين طبقاتها المتراكبة المتكاثفة برق ضئيل نحيل خاطف لا يكاد يظهر حتى يستخفي ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة العميقة المتكاثفة، التي تلح على كل شيء حتى تضطر كل شيء إلى سكون متصل طويل هو النوم، أو شيء يشبه النوم، وحتى تكون كل حركة فيها حلماً، أو شيئاً يشبه الحلم ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة البغيضة التي توشك أن تكون صورة للعدم الأبدى، إن أمكن أن تكون للعدم الأبدى صورة، والتي يجاهد فيها هذا البرق الخاطف ليمس الأشياء والأحياء بشيء من نور، كما تجاهد القوة الخفية فى هذا العدم السرمدى لتشيع فى الأشياء شيئاً من وجود ؟

تصور هذا النحو من الظلمة كما تشاء أو كما تستطيع، وقدّر أنها هى التى كانت تكتنف نفسى فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل حين كنت أتهيأ للسفر. ولم أكن أعرف علة لهذه الظلمة التى كانت تكتنف نفسى وتملأ ضميرى، وتأخذ عقلى من جميع أقطاره. فلم يكرهنى أحد على هذه الرحلة، ولم يفرضها علىّ ظرف من الظروف، وإنما أقبلت عليها عن رضا، وأزمعتها عن اختيار. وهمّ المتصلون بى أن يصرفونى عنها، فلم الق إليهم سمعاً ولا بالا. وإنما مضيت فى الاستعداد لهذه الرحلة، لا أتردد ولا أقف عند عقبة من

العقبات ، أو مشكلة من المشكلات ، حتى إذا أصبحت أمراً واقعاً لا سبيل إلى العدول عنه أو التردد فيه ، ضاقت بها نفسى أشد الضيق ، وامتلأ لها قلبي حزناً ، وأقبلت عليها كارهاً لها أشد الكره ، مكرهاً عليها أشد الإكراه .

كان حزناً كاملا شاملا عميقاً ، يتخلله بين حين وحين ، شعاع ضئيل سريع ، من أمل أجده ولا أحققه . وكنت على ذلك أتهيأ للسفر ، نشيطاً عظيم النشاط ، آمر وأنهى ، وأسمع وأقول ، وأستقبل وأزور ، وأخضع فى أثناء هذا كله وعلى رغم هذا كله ، لهذا الحزن العريض العميق، ولهذا الأمل الضئيل السريع ، كأنما كانت حياتى الشاعرة حلماً من هذه الأحلام التى تقطع راحة النوم . حتى إذا انتصفت الساعة الخامسة ، وانطلق القطار بعد هذه اللحظات الحلوة المرة ، التى يبسم فيها الوجه ويعبس فيها القلب ، ويكون فيها وداع المودعين وشكر المشيعين ، أويت إلى نفسى فى زاوية من زوايا « البولمان » ، أريد أن أفكر ، وأن ألتمس علة لهذه الظلمة القاتمة التى كانت تأخذ نفسى من كل وجه ، فلم أجد سبيلا إلى التفكير ولا إلى التعليل . وهممت أن أشارك من كان معى فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، فلم أجد سبيلا إلى القول ، كما لم أجد سبيلا إلى احتمال الصمت ؛ فقضيت هذه الساعات القصار الطوال ، بين القاهرة والإسكندرية ، فى قلق غريب ، لا أمنح نفسى ولا أمنح من حولى من العناية ، إلا أقلها وأيسرها ؛ لأنى لم أكن قادراً على تدبير إرادتى ، وتنظيم سيرتى مع نفسى ومع الناس . وكذلك دخلت الإسكندرية مع الليل ، وشاركت فى بعض الحديث ، وفى الجلوس إلى المائدة ، وفى الإصابة من الطعام ، وأنفقت الليل لا أدرى أكنت فيه نائماً أم يقظان ؛ فلم أفقد الشعور بنفسى لحظة ، ولم أتبين مع ذلك جلية نفسى لحظة ، وإنما كنت شيئاً يشبه الأداة المسخرة المسيرة التى تعمل فى دقة ونظام ، دون أن تحقق عملا أو دقة أو نظاماً . وكذلك أنفقت وجه النهار من غد ، وكذلك خلصت من هذه الجماعات التى كانت تزدحم حول السفينة ازدحاماً منكراً ، وتصطخب اصطخاباً بشعاً . وكذلك قلت وسمعت ، ورضيت وسخطت ، وابتسمت وعبست ، دون أن أحقق من هذا كله شيئاً ، ودون أن أجد لشىء من هذا كله ذوقاً ؛ حتى إذا تأذن صائح السفينة فى المودعين أن قد آن لهم أن ينصرفوا ، لأن السفينة مبحرة بعد حين ، ثابت إلىّ نفسى كلها ، أو ثبت أنا إلى نفسى كلها ، وإذا أنا أجد ما كنت أفتقد ، وأعلم ما كنت

أجهل ، وأتبين أن مصدر هذه الظلمة العريضة المتكاثفة ، ومبعث هذا الحزن الثقيل الملح ، ليس إلا شيئاً واحداً ، هو أني أفارق مصر في وقت لم تكن النفس تطيب فيه عن فراق مصر . في وقت يحتاج المصري فيه إلى أن يشعر بوجوده الوطني قويًّا كاملا مسيطراً على عقله وقلبه ، مدبراً لعمله ونشاطه ، ملاحظاً لكل ما يقال ، ولكل ما يعمل ، ولكل ما يتناوله النشاط الفردي والاجتماعي . أليس كل شيء في مصر يفرض على المصريين في هذه الأيام ، هذه الملاحظة الدقيقة اليقظة التي لا يفوتها شيء ، أو التي تحاول ألا يفوتها شيء ؟ أليس مصيرها السياسي موضوعاً للأخذ والرد ، معرضاً لأن يقرر في وقت قريب أو بعيد إلى أجل طويل أو قصير ؟ أليس مصيرها الاجتماعي موضوعاً للخصام والجدال ، معرضاً لأن يخطو إلى أمام خطوات تقصر أو تطول ، أو لأن يرجع أدراجه أمداً بعيداً أو قريباً ؟ أليست الحياة المصرية كلها تُمْخَضُ في هذه الأيام مخضاً عنيفاً كما يمخض اللبن في القربة ، دون أن يتحقق أحد النتيجة الممكنة لهذا المخض العنيف ؟ أليس طبيعيًّا مع هذا كله أن يقيم المصري في مصر ، متنبهاً يقظاً ، ملاحظاً ما استطاع الملاحظة ، عاملا ما استطاع العمل ، محاولا ما وجد إلى المحاولة النافعة سبيلا ؟ بلى ! ولكنه السأم الذي يصيب بعض النفوس حين تضيق بما حولها من هذا السخف الذي لا ينقضي ، ومن هذا الكلام الكثير الذي لا يغني ، ومن هذا الخصام العنيف الذي لا يجدي ، ومن هذا النشاط المختلط الذي لا يفيد ، ومن هذا المكر الخفي الذي يفسد كل شيء ، ومن هذا الإخلاص الجلي الذي لا يُصلح شيئاً ، ومن هذا الكيد اليقظ الذي يستأثر بالخير ، ومن هذه الصراحة النائمة التي تورِّط في الشر وتعرِّض للأذى ، ولا تغني عن أصحابها ولا عن الوطن شيئاً . أجَلْ ! هو هذا السأم الذي يجده بعض النفوس من هذه الحياة المصرية التي يمكر بها الماكرون ، ويعجز عن إصلاحها الناصحون ، والتي يقاد فيها الشعب إلى غير ما يريد ، ويساس فيها الوطن على غير ما يحب . هو هذا السأم الذي يملأ النفوس في بعض الأحيان ضيقاً وسخطاً ، ويدفعها إلى أن تود لو تجد من هذه الحياة الثقيلة مخرجاً يتيح لها الراحة الموقوتة من هذا العناء الثقيل البغيض ، الذي يشقى به أصحابه اعظم الشقاء ، دون أن يكون شقاؤهم هذا مغنياً عنهم أو عن غيرهم شيئاً

هو هذا السأم الذى كان يأخذ نفسى بين حين وحين، ويدفعنى إلى أن أتمنى الراحة من هذه الحياة الثقيلة الفارغة، أتيحت له الفرصة ذات يوم، فبلغ بى ما أراد. تمنيت فى ذات يوم أن أستريح قليلا من هذه الحياة الجوفاء الممضة، ولم ينقض النهار حتى كنت أدعى إلى فرنسا. فشككت غير طويل، ثم أجبت إلى ما دعيت إليه، ثم صممت، ثم مضيت لا أقبل مشورة ولا أحفل بصعوبة. حتى إذا لم يبق فى القوس منزع، ولا إلى التردد سبيل، تمادت نفسى تذكر الواجب، وتذكر الحق، وتذكر العمل، وتأسى على ما قدمت، وتتمنى أن تستأنف التفكير، وتنقض ما أبرمت. ولكن هيهات! سبق السيف العذل، ولا بد مما ليس منه بد. وهذه السفينة تترك الإسكندرية موجهة إلى بيروت لتتوجه بعد ذلك إلى مارسيليا؛ فلنصبر النفس على ما يجب أن نصبرها عليه، ولنَحْيَ مع أهل السفينة حياتهم هذه الجديدة التى قد نجد فيها شيئاً من سلو وفضلا من عزاء.

ولكن حياة السفينة على ما فيها من جدّة وطرافة، وعلى ما فيها من اضطراب واختلاط، لم تتح للنفس سلوًّا ولا عزاء، وإن كانت قد جلَتْ بعض هذه الظلمة المتكاثفة، وألقت بين نفسى وبين الحزن العريض البغيض حجاباً رقيقاً، لا أكاد أفكر فيه حتى يزول، وإذا أنا أستحضر مصر كما تركتها: مفاوضات تجرى من وراء ستار؛ وانتخابات تجرى ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب؛ وخصومات تتصل حول ما كان وحول ما هو كائن وحول ما يمكن أن يكون وحول ما يجب أن يكون؛ وبؤس يلح حتى يضيق بنفسه ويبتئس بطبيعته، وحتى يشقى الشقاء نفسه لشدة ما يمعن فى طبيعته؛ ونعيم ينتشر وينتشر حتى يضيق به أصحابه، وحتى يلتمسوا الراحة منه، بين حين وحين، بتكلف شىء من هذه الحياة الخشنة التى تريحهم بالجوع من التخمة المتصلة، وبالظمأ من الكظة المهلكة، وبالشظف من اللين الذى يفسد النفوس ويضنى الأجسام. وأستحضر مصر كما يراها الطارئون عليها والزائرون لها من الأجانب بلداً غريباً غير مألوف، له وجهان: وجه باسم يغرى ويدعو إلى الفتون، ووجه عابس يملأ النفوس ضيقاً وسخطاً وإشفاقاً: رخاء يثير حسد الحاسدين وطمع الطامعين، وشقاء يثير الرحمة فى القلوب التى لا تعرف الرحمة، والرثاء فى

النفوس التى لم تتعود الرثاء . ترَفٌ وشظف يسعيان فى طريق واحدة ، ويمشيان فى شارع واحد ، ويبتسمان للحياة ابتسامتين تتشابهان فى ظاهر الأمر ، وتختلفان فى حقيقة الأمر : إحداهما تستقبل الحياة ساخرة منها مزدرية لها ، والأخرى تستقبل الحياة راغبة فيها متهالكة عليها . والنيل يجرى مع ذلك للناعمين والبائسين جميعاً ، لم يخلق لفريق منهم دون فريق . والشمس مع ذلك ترسل ضوءها وحرارتها للناعمين والبائسين جميعاً ، لم تؤمر بأن تؤثر بهما فريقاً دون فريق . والهواء مع ذلك يملأ الفضاء ويتنفس فيه الناعمون والبائسون جميعاً ، لم يُكلَّف أن يبيح التنفس فيه لفريق دون فريق . الأرض وحدها هى التى خرجت عن هذه القاعدة ، وامتنعت على هذا النظام ، فآثرت بما تحمل من الخير فريقاً من الناس دون فريق ، ولكنها رضيت آخر الأمر أن تكون كالماء والهواء والشمس ، حرة عادلة ، مسوية بين سكانها حين يدركهم الموت : تمنح كل واحد منهم هذه الحفرة الضئيلة التى يأوى إليها ليستريح ويريح ، لا تفرّق بينهم فى ذلك قليلاً ولا كثيراً . نعم ! كان أيسر شىء يكفى لأن يرفع هذا الحجاب الرقيق عن نفسى فأستحضر مصر كما هى ، وأذكر أنى راحل عنها فى وقت لا ينبغى أن يرحل فيه المصريون عن وطنهم ، وإذا أنا أعود إلى تلك الظلمة العريضة المتكاثفة وإلى ذلك الحزن البغيض العميق . على أنى كنت أتجنب ما استطعت رفع هذا الحجاب ، وأمعن ما استطعت فى مشاركة السَّفْر فى حياتهم هذه الضيقة المختلطة الفارغة .

وقد كانت هذه الحياة غريبة حقًّا ، لم أعرفها من قبل على كثرة ماترددت بى السفن بين الشرق والغرب . فنحن فى أعقاب الحرب لم نصل بعد ، ولست أدرى متى نصل ، إلى الحياة اليسيرة المألوفة . ولا يكاد أحدنا يستقبل النهار أو يستقبل الليل متى خرج عن حياته التى ألفها ، حتى يرى ما يثير فى نفسه العجب حيناً ، والسخط حيناً ، والرضا حيناً آخر . وقد كان أول عهدنا «بالشمبوليون» فى هذه الرحلة مثيراً لهذه العواطف جميعاً ، ولعواطف أخرى لا تكاد تحصى ، فضلا عن أن يفكر كاتب فى تسجيلها . فهذه السفينة التى ألفناها أنيقة مترفة ، قد فقدت كل أناقة وكل ترف ، لكثرة ماعملت فى البحر والمحيط أثناء الحرب ، ولكثرة ما تعرضت له من تغيير لتصبح ملائمة لنقل الجند ، بعد أن كانت مقصورة أو كالمقصورة على نقل المترفين من أصحاب الثراء . قد فقدت زينتها كلها

أو أكثرها ، وأصبحت سفينة كغيرها من السفن ، حسبُها أن تقل المسافرين لتنقلهم من ثغر إلى ثغر ، وهى مع ذلك قد احتفظت بشيء ضئيل ، ضئيل جداً ، من بقايا هذه الزينة ، فأصبحت أشبه شيء بالأطلال ، ولكنها أطلال حية متنقلة ليست ثابتة ولا مستقرة . وكانت زينة « الشمبوليون » من الطراز المصرى القديم ، أليس اسمها يكفى للدلالة على ذلك ! فقد ذهب كثير من هذه الزينة وبقيت منها ملامح ضئيلة ، وأصبح هناك ائتلاف موسيقى بين هذه الأطلال المتحركة المتنقلة بين الثغور ، وهذه الأطلال الثابتة المستقرة فى المعابد والقبور . كل شيء هنا وهناك يصور البلى ، ويدل على عبث الزمان بالأشياء والأحياء ، ويعيد فى الذاكرة قول الشاعر العباسى القديم :

يا دارُ غَيَّركِ البِلَى ومَحَاكِ   يا ليتَ شِعْرِى ما الذى أبلاكِ !

ونحن نعلم أن المعابد المصرية وغيرها من الآثار قد أبلاها مر الغداة وكر العشى ، وأن زينة الشمبوليون قد أبلاها نقل الجند على ما يكون بينهم من اختلاط واضطراب ، وأبلتها ضرورات الحرب التى لا تحفل بالعرف ولا تحفل بالزينة ، وإنما تحفل بشيء واحد هو التغلب على المصاعب والإفلات من الموت .

وفى الشمبوليون كما فى كثير غيرها من السفن روعة مؤثرة ، تأتى من هذا التناقض الغريب بين هذه الزينة البالية المهملة التى كأنها الأطلال ، وبين هذه القوة العظيمة التى تملؤها حياة ونشاطا وتمكنها من مغالبة البحر والريح ؛ لأن أدواتها متينة كل المتانة ، رصينة كل الرصانة ، شديدة البأس عظيمة المراس ، قادرة على مغالبة الطبيعة ، والثبات للعواصف والأنواء . زينة بالية تنمحى شيئاً فشيئاً ، وأداة قوية تزداد بين حين وحين قوة وبأساً ، والناس يضطربون بين هذين المتناقضين ، يأسون لهذا الجمال الشاحب الذى يوشك أن يزول ، ويُعجَبون بهذه الأداة القوية التى تغالب الموج والريح . على أن هؤلاء الناس أنفسهم يثيرون فى النفس كثيراً من الخواطر المتناقضة ، ففيهم الغنىّ الذى لا يستطيع أن يحصى ثروته ، وفيهم المعدم الذى لا يجد ما ينفق ، وفيهم متوسط الحال ، كما يقال . وأولئك وهؤلاء سواء حين يصطخب الموج ، وحين تعصف الريح ، وحين ترقص السفينة بين اصطخاب الموج وعصف الريح . وهم سواء كذلك فى الخضوع لهذه الضرورات التى فرضتها الحرب من الاكتفاء بالقليل والخضوع للنظام والإذعان

لما لم يتعودوا أن يذعنوا له . هذا الرجل المترف الذى تجرح خديه خطرات النسيم ويدمى بنانه لمس الحرير مضطرٌ إلى أن يقنع بحياة خشنة كلها شظف وغلظة، ليس له غرفة يستأثر بها ، وليس له سرير يأوى إليه ، قد يسعده الحظ فيظفر بمضجع رقيق يعلقه فى السقف هنا أو هناك ، ويأوى إليه إذا جنه الليل فينام فيه نوماً متقطعاً ، مترجحاً فى نظام إن سكنت السفينة ، مترجحاً فى اضطراب إن لعبت الأمواج بالسفينة أو عصفت بها الريح . حتى إذا أرسل الفجر سهمه الفضى الضئيل تدلى من مضجعه ذاك الرقيق وضمه إليه كما يضم إليه مايحمل من متاع . وقد لا يتاح له هذا المضجع الرقيق ، وإذا هو هائم فى السفينة يصعد حيناً ويصوب حيناً، يلتمس لنفسه أشباراً يمد عليها جسمه حين يجهده الإعياء . وقد يلتمس شبراً أو شبرين يجلس فيهما ، أو قل يُقْعِى فيهما إقعاء قد عطف أعلاه على أسفله واستسلم للقضاء وانتظر أن يزوره النوم ، وجعل النوم يداعبه مداعبة بغيضة يدنو منه لينأى عنه ، وإذا هو كما يقول الشاعر القديم :

لايذوق النوم إلا غرارا مثل حسو الطير ماء الثِّماد

وليس كل الناس فى السفينة قادراً على أن يصيب حاجته من الطعام؛ فقوم يتاح لهم الجلوس إلى المائدة ، وقوم يسعون بآنيتهم إلى حيث يلقى لهم فيها خليط من الطعام يقيمون به الأود ويصدون به عن أنفسهم ألم الجوع. وقسمة الحظوظ بين هؤلاء الناس لم تجر على نظام مقرر ولا على قاعدة مألوفة ، وإنما هى قوة غريبة عمياء قد قسمت الحظوظ بين هؤلاء الناس كما أرادت هى لا كما أراد المنطق ، ولا كما أراد النظام ، ولا كما أراد ما دفعوا من المال . وليس لهم خيار بعد أن أبحرت السفينة ، فهم مضطرون إلى أن يقبلوا ويذعنوا . لهم أن يجهروا بالسخط وأن يضمروه ، ولكن إعلان السخط أو إسراره لا يغير من حظهم شيئاً. وهم قد قبلوا ذلك وأذعنوا ، وهم قد جهروا بالسخط وخافتوا به وأسروه فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم جميعاً سمعوا وأطاعوا ، ولم يخطر لواحد منهم أن يخالف عما كان يصدر إليه من أمر .

وقد كانت الأوامر تصدر إليهم جملة وتفصيلا ، لا من طريق المنشورات التى تعلق مكتوبة هنا وهناك كما ألفنا فى أوقات السلم ، ولكن من طريق الصائح العام الذى يعلن الأوامر بواسطة مكبر الصوت ، فيسمعها المسافرون جميعاً على اختلاف

طبقاتهم ومنازلهم فى وقت واحد ، ويأخذ كل واحد منهم بين هذه الأوامر ما يعنيه ، فيسمع ويطيع راضياً أو ساخطاً ، ولكنه سامع مطيع على كل حال. وكذلك أنفق المسافرون يوما كاملا مضطربين فى هذه الحياة المضطربة بين هذه العواطف المختلطة ، إلا السفينة فإنها لم تضطرب ولم تتردد ، وإلا عمال السفينة فإنهم لم يضطربوا ولم يترددوا ، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمروا أن يمضوا لا يحفلون بأحد ولا يحفلون بشئ إلا بالواجب الذى ينبغى أن يؤدوه . حتى إذا بلغت السفينة «حيفا» من الغد كان المنظر الذى يبعث فى النفس ألماً أى ألم وغضباً أى غضب ورثاء أى رثاء وبغضاً أى بغض وحبًّا أى حب أيضاً . فقد كانت السفينة تحمل ألفاً أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين : من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم ، ومن النساء الأيامى ، منهن من فقدت كل شئ ولم تحتفظ حتى بهذا الأمل الضئيل الذى يرسم على الثغور هذه الابتسامة الحزينة ، ومنهن من فقدت كل شئ ، ولكن بين أحشائها حياة تثير فى قلبها الحزين المكلوم أملا ويأساً، ورضا وسخطاً ، ولذة وألماً . وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم رسل من الحلفاء إلى فلسطين ليجدوا فيها أمناً بعد خوف وراحة بعد عناء . ولكن أهل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين ، ولكن فى الأرض أوطاناً كثيرة أقدر على إيوائهم من فلسطين . وهؤلاء الجنود البريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعدد والعُدّة وبالبأس والقوة ، ليحموا هبوط هؤلاء البائسين إلى هذه الأرض التى تُكرَه على إيوائهم إكراها . وهؤلاء البائسون يهبطون من السفينة فى نظام ، ترتفع أصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدرى أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين ، أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين ، أم كان يصور هذا كله فى وقت واحد . لست أدرى ! ولكنى أعلم أنه كان يملأ النفوس غيظا وحنقا ورحمة ورثاء ، حتى عمال السفينة أنفسهم كانوا ينظرون إلى هذا كله ساخطين عليه ضيقين به مبغضين له ، يجهرون بالشكوى من تحكم المنتصرين الذين يسخّرون سفينة فرنسية لشئ يملأ صدور العرب حرجا وضغينة دون أن يستطيعوا إباء وامتناعاً . أليست فرنسا مضطرة إلى أن تصانع المنتصرين من البريطانيين والأمريكيين لتستطيع أن تعيش !

وقد انجلت هذه الغمرة آخر الأمر ، ورفع هذا الحمل الثقيل عن الصدور ، وأبحرت السفينة من حيفا إلى بيروت ، وقد شاع فيها وفى أهلها شئ من المرح

يشبه مايجده النائم حين يزول عنه الكابوس أو حين تؤمنه اليقظة من حلم بغيض منكر مخيف .

ولم تشرق الشمس من غد حتى كانت الحياة كلها ابتساماً رائقاً رائعاً حين أقبلت السفينة على بيروت ، فإذا السماء الصافية تبسم للأرض المشرقة، وإذا الجبل الشامخ الرصين يبسم للبحر الهادئ الرزين ، وإذا الأحياء المستقرون على الأرض يبسمون للأحياء المقبلين من البحر ، وإذا هؤلاء السَّفْرُ أنفسهم قد امتلأت قلوبهم غبطة وفاضت وجوههم بهجة وبِشْراً . أليسوا مقبلين على الراحة بعد الجهد ، وعلى النعيم بعد البؤس ، وعلى اللين والخفض بعد الشدة والشظف ! كل شيء كان رضا ، وكل شيء كان ابتساما ، إلا هذه القلوب الخبيثة التي لا تعرف الصفو الخالص ولا النعيم النقي البريء ، وإنما تفسد كل شيء بما تدبر من كيد ، وما تضمر من شر ، وما تنظم من مكروه . فلم يكن جميع الذين هبطوا من السفينة يستقبلون حياة نقية بقلوب نقية . كان فيهم من يفكر تفكيراً بريئاً في راحة بريئة ، وكان فيهم من يفكر تفكيراً خبيثاً في راحة خبيثة كان فيهم من يبتغي حياة هادئة وادعة في لبنان الهادئ الوديع ، وكان فيهم من أعد للشر عدته فهو يريد أن ينتفع هنا وهناك ، يريد أن يبيع ويشترى ، يريد أن يسرق ويختلس ، يريد أن يغير نقداً بنقد ، وأن يفيد من هذا التغيير قليلا أو كثيراً ، يجهر بذلك حيناً ويخافت به حيناً ويخفيه في أعماق نفسه في أكثر الأحيان . وكذلك اندفع أهل السفينة إلى الأرض ، وتلقاهم أهل بيروت ، وجرت الأمور بين أولئك وهؤلاء كما تجرى بين الناس حين يلتقون في كل مكان .

مزاج من الخير والشر ، وخليط من الطهر والإثم . والأبرياء والغافلون يرون هذا كله ولا يستطيعون له تغييراً ، بل لا يستطيعون حديثاً عنه أو خوضاً فيه ، وإنما يرون وينكرون ، ويقول بعضهم لبعض أو يقولون لأنفسهم إنما هي الحياة تجرى كما تستطيع ، وإنما هي طبيعة الإنسان لا تستطيع أن تخلص للخير وحده ، ولا أن تخلص للشر وحده ، وإنما هي مضطرة إلى أن تضطرب بين هذا وذاك ، يدفعها العقل إلى الخير فترغب فيه وقد تصيب منه ، وتدفعها الغريزة إلى الشر فتتورط فيه وقد تغرق فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان .

وقد زرت بيروت مرات كثيرة ، ولكني لم أر أهلها يبسمون للحياة في

صراحة ، ويسعدون بها في صراحة ، ويستقبلونها في رضا وأمن وأمل ، كما رأيتهم هذه المرة . ولم لا ؟ ألم يظفروا بما لم يظفر به كثير غيرهم من هذه الحرية السياسية، ومن هذا الاستقلال التام الذى تحلم به الشعوب المستضعفة وتتحرق قلوبها شوقا إليه ؟ لم لا يستقبل اللبنانيون سفينتنا هذه مرحبين بها باسمين لها ؟ ألم تلمّ بثغرهم العظيم لتجلى المحتلين عن أرض لبنان ؟ ومع ذلك فقد كان ابتهاج اللبنانيين على عمقه وقوته هادئاً كل الهدوء وقوراً كل الوقار متوثباً مع ذلك، يشعر بأن القوم لا يستقبلون استقلالهم على أنه نعمة سيقت إليهم ، ولا على أنه فوز كسبوه بعد الجهد والجد والعناء ، ولكن على أنه المرحلة الأولى من طريق طويلة طويلة جدًّا ، عسيرة عسيرة جدًّا ؛ لأنها طريق الواجب الذى يفرض على الشعب المستقل أن يثق بنفسه وأن يعتمد عليها في احتمال التبعات الثقال التى لا تحصى . فليس الاستقلال لعباً ولا لهواً ، وليس الاستقلال منحة تهدى ولا نعمة تتاح ، وليس الاستقلال إخلاداً إلى الراحة واستمتاعاً بالحياة ، وإنما الاستقلال ثقة بالنفس واعتماد عليها، وبذل للجهد ونهوض بالعبء ، وإقدام على العمل في غير أناة ولا تباطؤ ولا كسل : إقدام على العمل لإسعاد البائس وإطعام الجائع وتعليم الجاهل ، وإنصاف المظلوم ، وإقرار العدل، وتحقيق المساواة . واللبنانيون يشعرون بهذا كله ، ويقدرون هذا كله ، ويروضون أنفسهم على النهوض بهذا كله . وهم من أجل ذلك لا يكاثرون ولا يفاخرون، ولا يتحدثون عن الاستقلال حديث الغافل المتهاون ، وإنما يتحدثون عنه حديث الرجل الذى يملأ قلبه الرضا ويملأ قلبه الحزم والعزم والثقة ، ويملأ قلبه في الوقت نفسه الحذر والاحتياط . فهم يتحدثون إليك حديثاً فيه حلاوة الرضا ، ولكن فيه مرارة الصرامة والجد . وهم من أجل ذلك يلقون في نفسك صوراً جديدة غير التى ألفتها منهم حين كنت تزورهم قبل هذا العام .

آنست ذلك عند صفوتهم من الشيوخ والشباب ، كما آنست ذلك عند عامتهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ؛ فلم أملك أن تمنيت للبنان كل ما يتمنى لنفسه ، وأن تمنيت لمصر كما يتمنى لها لبنان هذا اليوم الذى تشعر فيه بالسعادة الراضية الحازمة ، وبالأمل الواثق المطمئن .

وقد أنفقنا في بيروت يومين لقينا فيهما من أهل لبنان ما تعودنا أن نلقى من هذه الضيافة الحلوة المرحة الخصبة التى تشعر الضيف بأنه ليس ضيفاً ، وإنما هو

رجل يعيش فى وطنه وبين أهله ، لا يجد فى ذلك مشقة ولا جهداً ، ذلك إلى هذا المتاع العقلى الذى يجده المصرى المثقف حين يلقى اللبنانيين المثقفين . وقد كادت هذه الزيارة تكون صفواً كلها ، لولا أنى سألت عن صديق لبنانى أديب كانت له فى نفسى كما كانت له فى نفوس الأدباء الشرقيين جميعاً مكانة ممتازة . سألت عنه لأنى كنت أريد أن أسعى إليه . قلت لصاحبى : كيف حال الأستاذ عمر فاخورى ؟ فقال فى هدوء حزين : لقد دفناه أمس يا أستاذ . هنالك أخذ النَّدِىّ كله وجوم طويل لم تقل فى أثنائه شيئاً ، وإنما قالت قلوبنا فى أثنائه كل شئ . وما عسى كنا نستطيع أن نقول ، وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من أن نملك أمامه شيئاً غير السكوت والإذعان ، وهذا الحزن الذى يفنى القلوب ، ويضاعف ثروة العقول . لم أقل شيئاً ولم يقل أصحابى شيئاً ، وإنما اتخذت لهذا الأديب اللبنانى العظيم قبراً فى ناحية من نواحى قلبى ، كما اتخذ اللبنانيون له قبوراً فى قلوبهم ، وكما احتفروا له قبراً فى مكان ما من أرض لبنان .

طه حسين

بريطانيا وحوض البحر المتوسط

لم يكن الإنجليز السكسون يوما من الشعوب التى سكنت حوض البحر المتوسط ، وليس لهم فى هذا البحر مصالح تفوق مصالح الشعوب الأوربية أو الشرقية التى لها سواحل تلامس مياه هذا البحر ، ومع ذلك فقد حرصت بريطانيا منذ صار لها ممتلكات واسعة فى الهند على أن تكون لها السيادة فى هذا البحر . وليس معنى السيادة هنا أن تكون للدولة جيوش وأساطيل وقواعد ومطارات فحسب ، فقد توافر لفرنسا من هذه الوسائل فى البحر المتوسط أكثر مما توافر لبريطانيا ، وكان لإيطاليا منها فى بدء الحرب الأخير شئ كثير ، ولكن الدولتين لم تفيدا من ذلك فتيلا . ذلك لأن للبحر المتوسط بوابتين رئيسيتين تحكمان إغلاقه ، إحداها عند قناة السويس شرقاً ، والأخرى عند جبل طارق غرباً . وإنما تكون السيادة للدولة التى تملك مفتاحى البوابتين أو أحدهما على الأقل . ولكن بريطانيا لم تكتف بالقبض على مفتاحى البوابتين ، بل أنشأت على طول طريق البحر محطات أو نقطاً بوليسية للحراسة تشرف منها على حركة الملاحة فى البحر وتلوذ بها عند الحاجة . وفى امتلاك انجلترا لكل من هذه المحطات دلالة على تطور خاص فى سياسة بريطانيا إزاء الموقف الدولى العام .

أما معقل جبل طارق فاحتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة «أترخت» التى انتهت بها حرب الوراثة الأسبانية . وكانت انجلترا قد خشيت عاقبة انضمام قوات فرنسا وأسبانيا ضدها ، بعد أن صار فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على أسبانيا فسارعت باحتلال هذه النقطة الحصينة ، إمعانا فى إيلام عدوتها أسبانيا من جهة ، ولكى تشرف منها من جهة أخرى على طريقى الملاحة إلى الشرق : طريق البحر المتوسط ، وطريق رأس الرجاء الصالح . وكانت انجلترا فى ذلك الوقت قد بدأت تنشر نفوذها فى الهند ، فأنشأت شركة الهند الشرقية وباتت الملاحة بين انجلترا وأملاكها فى الشرق تتطلب الحماية والتأمين .

وأما احتلال مالطة فكان فى سنة ١٨٠٠ وكان نابليون بونابرت قد لفت بحملته على مصر أنظار الدول إلى أهمية موقع مصر الحربى والجغرافى ، وإلى عظم شأن الطريق البرى إلى الشرق . فرأت انجلترا أن تكون لها قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر ، ولم تجد صعوبة فى الاستيلاء على الجزيرة من يد الفرنسيين ، وكانوا قد احتلوها وهم فى طريقهم إلى مصر . وقد تأيد امتلاك انجلترا لمالطة فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ .

ولما افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٦ وتحولت إليها طرق الملاحة المهمة بين الشرق والغرب ، لم تر انجلترا بدًّا من إنشاء محطة قريبة من منطقة القناة تشرف منها على أملاك تركيا فى شرقى البحر المتوسط . وكانت روسيا تعمل جاهدة فى ذلك الوقت على إضعاف تركيا وطردها من أوربا ؛ فانبرت انجلترا للذود عنها فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وكان نصيب انجلترا فى مقابل ذلك أن نزلت لها تركيا عن جزيرة قبرص .

ثم وقعت الأزمة المالية فى مصر فى أواخر عهد الخديوى إسماعيل ، وقامت الثورة العرابية ، فدخلت انجلترا فى شؤون مصر المالية أولاً ، واشترت نصيب مصر فى أسهم قناة السويس ، ثم ما لبثت أن انفردت باحتلال البلاد سنة ١٨٨٢ وظلت من يومئذ تسيطر على القناة .

ولما ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بوادر الوعى القومى فى شعوب الشرق الأوسط العربى ، رأت انجلترا أن تحتفظ بفلسطين وشرق الأردن باسم الانتداب ، لتقوى مركزها فى الدفاع عن القناة من جهة ، ولترقب من جهة أخرى حركة التقدم العربى عن كثب .

والسياسة التقليدية التى سارت عليها انجلترا فيما يخص حوض البحر المتوسط أن تحول دون قيام دولة بحرية قوية تناهض النفوذ البريطانى فى ذلك البحر . وعلى هذا الأساس ظلت انجلترا طوال القرن التاسع عشر تعرقل مساعى روسيا فى التسلط على المضايق والتسرب منها إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط . ولم تفتر عزيمة انجلترا وتسترخ قواها إلا فى إبان الحرب العالمية الأولى حين أراد الحلفاء أن يضمنوا بقاء روسيا إلى جانبهم ، فمنتها انجلترا وفرنسا بالقسطنطينية والمضايق إذا ما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها ، وكان ذلك بمقتضى

معاهدة سرية عقدت فى لندن بين الدول الثلاث سنة ١٩١٥ . وقد جاءت الثورة البلشفية بعد ذلك فمحت فيما محت هذه المعاهدة وكل أثر للسياسة القيصرية العتيقة .

وعلى هذا الأساس أيضاً حالت انجلترا دون تسلط فرنسا على الجزء الشمالى الغربى من مراكش ، حتى لا يتعرض مركزها فى جبل طارق لأى خطر ، وفضلت أن تكون أسبانيا الدولة الضعيفة نسبياً هى صاحبة النفوذ فى تلك المنطقة التى تواجه جبل طارق ، وفيها ثغران خطيران ، هما سبتة وطنجة . وقد أفلحت انجلترا فى جعل طنجة ميناء دولياً محايداً لا يجوز تحصينه أو تسليحه . وتطبيقاً لهذه السياسة أيضاً كانت وقفة انجلترا فى الماضى إلى جانب تركيا ضد محمد على الكبير حين آنست منه رغبة فى محالفة فرنسا ، وكان لمحمد على من القوة البحرية ما يجعله عاملا خطيراً فى تهديد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط لو انضم إلى فرنسا . واقتضت هذه السياسة أيضاً أن تعمل انجلترا قدر طاقتها على إضعاف النفوذ الفرنسى فى مصر والقناة ، حتى لا يفلت من يدها مفتاح البوابة الكبرى التى اصطنعتها الهندسة الفرنسية وتحكمت بها فى الملاحة بين المحيطين الاطلنطى والهندى . وما فتئت انجلترا تعمل والظروف تؤازرها حتى أبعدت فرنسا عن الميدان ، وما لبثت هذه أن ارتبطت مع انجلترا فى سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى الشهير . ولو أن اتفاقاً مثل هذا كان قد تم فى القرن التاسع عشر بين فرنسا وروسيا بدلا من انجلترا لتعرضت سيادة انجلترا فى البحر المتوسط لأعظم خطر .

وكانت هذه السياسة التقليدية التى اتبعتها انجلترا فى حوض البحر المتوسط إنجيلا آمنت به جميع الحكومات الانجليزية التى تعاقبت على الحكم على اختلاف آراء رجالها ومذاهبهم السياسية . ففى عهد حكومة « الهويج » أو الأحرار القدماء أيام الوزير بالمرستون استولت انجلترا على ميناء عدن وعلى جزيرة بريم ، وكلاهما تتحكمان فى مدخل البحر الأحمر من ناحية المحيط الهندى ، وما البحر الأحمر فى حقيقة الأمر بعد شق القناة ، إلا امتداد للبحر المتوسط . وفى عهد حكومة المحافظين أيام الوزير دزرائيلى (بيكنسفيلد) احتلت انجلترا جزيرة قبرص . وفى عهد وزارة الأحرار برياسة غلادستون احتل الانجليز مصر ، وأخذ المصريون يجلون عن السودان تمهيداً لإعادة فتحه بأيدى المصريين والانجليز معاً .

وظلت انجلترا معتزة بمركزها فى البحر المتوسط ، لا يؤرقها همٌّ فاشى ولا يقضّ مضجعها كابوس نازى حتى أوشك فجر القرن العشرين أن ينبلج ، وعندئذ اختفى الخطر الروسى الذى كان وحده الشغل الشاغل للسياسة الانجليزية . فقد انهزمت روسيا أمام اليابان برًّا وبحراً فى سنة ١٩٠٥ وانعقدت المحالفة الروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧ وبدأت ألمانيا تتحدى انجلترا وتحل محل روسيا فى مناهضاتها للسيادة البريطانية . وحاول الإمبراطور وليم الثانى أن يمكن لألمانيا فى جزء من مراكش أسوة بفرنسا أو إيطاليا التى كانت تنصب شباكها وقتئذ لاحتلال طرابلس ، ولكن السياسة البريطانية كانت واقفة بالمرصاد ، فخبطت مساعى ألمانيا ولم تفد شيئاً من زيارة الإمبراطور لميناء طنجة عام ١٩٠٥ ، ولا من إرسالها إحدى سفنها الحربية أمام ميناء أغادير سنة ١٩١١ . وكادت الحرب تنشب فى هاتين الأزمتين بين ألمانيا وفرنسا لو لم تسارع انجلترا إلى نجدة فرنسا وإعلان عزمها صريحاً على منع ألمانيا من النزول بقواتها فى أى جزء من أرض إفريقية الشمالية . ولما أخفقت سياسة ألمانيا فى البحر المتوسط اتجهت نحو الشرق وركزت جهودها فى إنجاز مشروع الزحف إلى الشرق من برلين إلى بغداد ومنها إلى الخليج الفارسى ، وكادت ألمانيا تصل إلى مبتغاها لو لم تنشب الحرب العالميه الأولى .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن يهدد مركز بريطانيا فى البحر المتوسط سوى خطر سلاح الغواصات الألمانية ، وكان خطراً داهماً حقًّا فاجأت به ألمانيا العالم لا فى البحر المتوسط وحده بل فى المحيط الاطلنطى أيضاً ، وحيثما وجدت الغواصات مسالك لها فى عرض البحار والمحيطات . وقد اضطرت انجلترا أمام هذا الخطر أن تحول ملاحتها من البحر المتوسط والقناة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وأن تشدد النكير على ألمانيا وحلفائها بما فرضته من الحصر البحرى على موانيها .

وكان خطر سلاح الغواصات من جانب ألمانيا وتنفيذ مبدأ الحصر البحرى من جانب بريطانيا على المحاربين والمحايدين جميعاً من أهم المسائل التى استرعت اهتمام ولسون رئيس الولايات المتحدة ، فما كادت بشائر النصر تلوح فى جانب الحلفاء على أثر انضمام أمريكا إلى صفوفهم حتى أعلن على رءوس الملأ مبادئه

الأربعة عشر الشهيرة . وكان مما أعلنه فى النقطة الثالثة أن حرية الملاحة مكفولة للجميع فى الحرب وفى السلم إلا إذا كان الحصر البحرى نتيجة قرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولى .

ومع أن هذا المبدأ لم يواجه أى نقد أو اعتراض من جانب الحلفاء عند ما كانت رحى الحرب تدور ، فإن شروط الصلح قد أغفلته فلم تشر إليه بشىء ؛ وذلك لتمسك انجلترا بذلك الحق الذى تستمده من تفوقها البحرى الذى يتيح لها فى زمن الحرب فرصة مضايقة أعدائها بعدم توصيل المؤن والذخائر التى ترد إليهم من حلفائهم أو من الدول المحايدة .

ولما كانت انجلترا حريصة على التمسك بهذا الحق ، لاعتمادها الكلى فى موارد غذائها على واردات مستعمراتها والبلاد الأجنبية ، ولاضطرارها فى مقابل ذلك إلى تصدير مصنوعاتها إلى الخارج ، ولأن الأسطول هو الوسيلة الوحيدة لربط شتات أجزاء إمبراطوريتها الواسعة — فإن الدول المجتمعة فى مؤتمر السلم لم تجد مسوّغاً لإثارة الخلاف بين بعضها وبعض بسبب النص على مبدأ حرية البحار لا سيما أن تقرير مبدأ حرية البحار لا يهم الدول إلا فى أثناء الحرب ؛ وعلى ذلك وضعت معاهدة فرساى وليس فيها قيد يحد من سيادة بريطانيا البحرية لا فى البحر المتوسط ولا فى غيره من البحار .

وخرجت انجلترا من الحرب العالمية الأولى وقد زادت مسئوليتها فى البحر المتوسط زيادة كلّفتها دماً غالياً ونفقات طائلة فى سبيل صيانته والذود عنه ؛ فقد حملت على عاتقها مهمة الانتداب على فلسطين رغم تعقد شؤونه بسبب مشكلة الوطن القومى لليهود ، وجعلت من ميناء حيفا وطرابلس نهايتين لأنابيب البترول الذى تنتجه العراق من آبار الموصل وكركوك — الأولى لإمداد السفن الانجليزية ، والثانية لإمداد السفن الفرنسية ، وكان هذا أهم ما أفادته انجلترا من انتدابها فى المشرق .

أما فيما عدا ذلك فلم تجن انجلترا من فلسطين سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام مشكلة قومية تعد من أعقد وأشد ما واجهه العالم من مشكلات الشرق الأوسط . ولو قد برّ الحلفاء بوعودهم للعرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى فأقاموا اتحاداً عربياً مستقلا يجمع بين فلسطين وغيرها من الدول العربية المجاورة ، لما تفاقم خطر مشكلة الصهيونيين إلى الحد الذى نراه الآن ؛ لأن

اليهود الذين عاشوا مع العرب جيراناً وأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون أن يتفاهموا مع العرب رأساً على شروط إقامتهم دون حاجة إلى حشرهم حشراً فى ذلك الإقليم الضيق المجدب من الأرض، حتى أضحت فلسطين أضعف وأخطر حلقة فى مجموعة دول الشرق الأوسط.

وظلت الحال كذلك فى حوض البحر المتوسط حتى اكفهر جو السياسة الدولية سنة ١٩٣٥ وقامت إيطاليا الفاشية تتحدى بريطانيا وعصبة الأمم بهجومها على أثيوبيا، وباتت الحرب متوقعة بين إيطاليا وبريطانيا. ولكن موسلينى كان على يقين بأن بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لإثارة حرب أوربية لم تتخذ لها عدتها، وبأن الرأى العام البريطانى الجانح إلى السلم لا يرضى أن يخوض غمار حرب طاحنة من أجل سبب ثانوى فى أهميته كالحبشة.

وعلى ذلك مضى موسلينى فى مشروعه غير مكترث بتوقيع العقوبات الاقتصادية ولا بالتهديدات الجوفاء التى كانت تتناقلها الصحف إذ ذاك، كحشد الأسطول الإنجليزى فى ميناء الإسكندرية، وإمكان إغلاق القناة فى وجه إيطاليا. وقد اضطرت بريطانيا وسائر الدول فى النهاية إلى الاعتراف بالأمر الواقع وقيام الإمبراطورية الإيطالية فى الحبشة.

ولكن الأزمة الحبشية قد فتحت عيون الإنجليز على الهاوية التى تردت فيها سياسة التأمين الجمعى التى ابتدعتها عصبة الأمم، فأدركوا أنه لا سبيل إلى تفادى الحرب المقبلة حتما إلا بالاستعداد لها؛ فقد كشفت الأزمة الغطاء عن ضعف بريطانيا وعظم استعداد إيطاليا وخاصة فى الجو والبحر؛ إذ تضاعف عدد غواصاتها إلى أربعة أمثاله، كما تضاعفت عدد مدمراتها، هذا فضلا عن السفن الحربية الصغيرة الخفيفة التى أنشأتها إيطاليا بكثرة خصيصاً للعمل فى البحار الضيقة، وفضلا عن تحصينها جزيرة بنتللاريا بين مالطة وصقلية وساحل تونس.

وزادت الحال حرجا فى البحر المتوسط عند ما قامت الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الوطنيين تؤيدهم إيطاليا وألمانيا، والجمهوريين تشد أزرهم فرنسا وروسيا، وكان البحر المتوسط مسرحا لعبت فيه القوى البحرية دوراً هاما، فاستطاعت إيطاليا أن تحتل جزيرتى ميورقا وابيزة من جزر البليار التابعة لأسبانيا. وقيل فى ذلك الوقت إنها تعتزم الاحتفاظ بميورقا حتى تقطع على فرنسا

خط مواصلاتها مع أملاكها فى إفريقية الشمالية . وكذلك احتلت ألمانيا ميناء فرول فى شمالى أسبانيا الغربى ، وحصنت ميناء سبته على ساحل مراكش الأسبانية فى مواجهة جبل طارق .

وعلى ذلك لم يبق شك فى أن توازن القوى فى البحر المتوسط قبيل الحرب الأخيرة قد اختل ، وأن سيادة بريطانيا فى هذا البحر أو على الأقل فى القسم الغربى منه قد أصبحت مهددة بأعظم الأخطار . ولم يعد ثمة شك فى أنه إذا قامت الحرب، فإن فرنسا ستشغل بمصيرها فى أوربا وتترك بريطانيا وحدها تضطلع بمهمة الدفاع عن مراكزها فى البحر شرقا وغربا . وهيهات للأسطول البريطانى وحده أن ينال من قوى المحور مجتمعة فى بحر ضيق كالبحر المتوسط .

وفعلا ما كادت تندلع نيران الحرب وتنضم إيطاليا إلى حليفتها ألمانيا بعد كارثة فرنسا حتى أصبح حوض البحر المتوسط فى عزلة شبه تامة وخاصة فى قسمه الغربى ، واضطرت بريطانيا أن تحول خطوط ملاحتها حول رأس الرجاء الصالح ، واستمرت كذلك حتى خرجت إيطاليا من نطاق المحور فى صيف سنة ١٩٤٣ ولقد كان لانهزام فرنسا ، وقيام حكومة ڤيشى بالاتفاق مع ألمانيا أثر كبير فى ضياع النفوذ البريطانى فى حوض البحر المتوسط ؛ إذ خسرت بريطانيا أسطول حليفتها القديمة فرنسا وأصبح الطريق إلى مصر واليونان ممهداً أمام إيطاليا . وما لبثت ألمانيا أن انقضت على البلقان فاكتسحت أمامها يوغوسلافيا واليونان ، ثم هاجم جنودها كريد من الجو واستولوا عليها فجأة بفضل تفوقهم فى الطيران ، وباءت بريطانيا بخسائر فادحة رغم انتصارها البحرى الموقت على الأسطول الإيطالى فى موقعتى تارنتو وماتپان .

واستغل الألمان تفوقهم الظاهر فى البحر المتوسط فأنزلوا على سواحل ليبيا طائراتهم ودباباتهم وجيوشهم وعتادهم ، وزحفوا شرقاً مطاردين أمامهم القوات الإنجليزية . وكانت آلهة النصر فى ذلك الوقت تؤثر الألمان وترفرف فوق رءوسهم وتقودهم من فتح إلى آخر حتى وقف هتلر وسط هالة من المجد يفاضل بين خطتين كلتاهما تدفعه إلى عرش السيادة العالمية ، إذ كان عليه أن يختار بين اختراق تركيا إلى آسيا ، ومهاجمة روسيا من الغرب .

وشاءت الأقدار التى لا تغلب أن يختار روسيا — تلك التى أذلت نابليون من قبل ، فأمر فى ٢٢ يونيه سنة ١٩٤١ أن تضرب روسيا على جبهة يبلغ طولها ألف ميل .

ثم لم يمض بعد ذلك إلا أشهر حتى دخلت أمريكا الحرب ودارت معركة العلمين ، وكانت الحد الفاصل بين الهزيمة والنصر ، فنزلت جيوش الحلفاء فجأة على سواحل إفريقية الشمالية من كاسا بلانكا ورباط على الأطلنطى ومن وهران والجزائر على البحر المتوسط ، وضاعفت أمريكا وانجلترا عملهما فى إنتاج الطائرات والدبابات وفى مكافحة الغواصات حتى فاق إنتاجهم ما كانت تستطيعه ألمانيا وأتباعها ، وكانت الحرب قد سلخت قرابة أربعة أعوام .

ثم جاءت فترة خشى معها الحلفاء أن تضع ألمانيا يدها على الأسطول الفرنسى الرابض أمام ميناء تولون فى البحر المتوسط . وفجأة انقلب أمير البحر الفرنسى دارلان على حكومة فيشى فأمر بضم الأسطول إلى جانب الحلفاء ، ولكن الضباط البواسل ترددوا بين سياستين كلتاهما شر ، فآثروا الموت على العار والاستسلام ، وأغرقوا الأسطول .

وبذلك استطاع الحلفاء أن يوالوا انتصاراتهم على طول ساحل إفريقية الشمالية ؛ فكان إيزنهور الأمريكى القائد الأعلى لجيوش الحلفاء يقف من مراكش شرقاً وألكسندر ومومنتجمرى يطوبان فيافى طرابلس غرباً ، حتى قضوا فى النهاية على قوات المحور عند تونس وبنزرت ، وأصبح الوثوب إلى جزيرتى بنتلاريا وصقلية ومنها إلى إيطاليا حقيقة متوقعة ، وقد كان منذ شهور قليلة حلماً لا يصدقه العيان .

وقد كشفت الحرب الأخيرة عن أمرين على جانب عظيم من الأهمية : أولهما أن الجزر فى البحر المتوسط معاقل وحصون لا تغلب ، وأن إخضاعها أمر محفوف بأشد الأخطار وبالغ منتهى الصعوبة ؛ فقد ثبتت جزيرة مالطة أمام هجمات الأعداء المتوالية ، كما ثبت الألمان فى جزيرة كريد ، والطليان والألمان فى جزر الدوديكانيز ، ولم يستطع أحد الجانبين بلوغ مأربه حول هذه القلاع الرواسى . أما الأمر الثانى فاستخدام الطائرات لتكمل عمل الغواصات ؛ فقد ظهر أن تنسيق الجمع بين السلاحين فى بحر ضيق المسالك كثير الخلجان كالبحر المتوسط لا بد أن يتيح لصاحبه تفوقاً ظاهراً بدت آثاره جلية فى أثناء الحرب . وكان تفوق انجلترا فى شرق البحر المتوسط من أهم العوامل التى ساعدت الحلفاء على الاحتفاظ بسواحل بلاد الشرق وإحباط مساعى الألمان فى آسيا .

من ذلك كله يتضح أن القول بأن البحر المتوسط مع قناة السويس هو بمنزلة

الشريان للإمبراطورية البريطانية وصف مبالغ فيه كثيراً ؛ فالشريان إذا انقطع أو بتر انعدمت الحياة . وقد برهنت الحربان العالميتان الماضيتان على استطاعة الإمبراطورية البريطانية أن تعيش وتقوى رغم استغنائها عن استعمال هذا الشريان مدة بلغت فى الحرب الأخيرة أكثر من أربع سنوات . ذلك لأن هناك طرقاً أخرى تربط انجلترا بأملاكها وحلفائها ، وأهمها طريق رأس الرجاء الصالح ، وهو لا يستغرق من الوقت الآن أكثر مما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط فى بدء افتتاح القناة .

وتتلخص الصعاب التى تواجهها بريطانيا فى حوض البحر المتوسط ، عدا ما ذكرنا ، فى أن أسبانيا لم تنس جبل طارق ، وأنه رغم مرور أكثر من قرنين ونصف قرن على احتلال انجلترا لهذه القلعة الحصينة ، فإن الشعور الوطنى فى أسبانيا لا يستسيغ الاحتلال الأجنبى لجزء من أرض الوطن . ولا بد أن تظهر آثار هذا الشعور يوماً ما .

أما قناة السويس فإن عقد الشركة سينتهى فى سنة ١٩٦٨ وحينئذ تصبح القناة ملكا لمصر صاحبة الفضل وسيدة الأرض التى حفرت فيها . ومع أن القناة طريق بحرى حر لجميع الدول فى السلم وفى الحرب ، فلا بد من تقرير هذه القاعدة فى معاهدات الصلح التى ستبرم قريباً حتى يزول أثر المعاهدة المصرية الانجليزية المنعقدة سنة ١٩٣٦ والتى انفردت فيها بريطانيا بميزة الدفاع عن القناة إلى جانب مصر . على أنهم مع ذلك يزعمون أن بريطانيا تفكر فى حفر قناة أخرى تصل بين العقبة فى شرق الأردن وغزة فى فلسطين ، حتى لا تتعرض مصالحها للخطر متى آلت القناة لمصر . وإنا لنستبعد إمكان تحقيق هذا الزعم ، لا لضخامة المشروع وطول القناة وعظم نفقاته من غير مسوغ ، بل لأن الحلفاء مقيدون بتنفيذ المادة السابعة من ميثاق الأطلنطى التى تقول إن الصلح كفيل بأن يمكن للناس جميعاً أن يجتازوا البحار والمحيطات بدون عائق . ومعنى هذا أن تكون المضايق والمسالك المائية جميعاً تحت رقابة مجلس الأمن ، فلا يعقل أن تحفر قناة عالمية جديدة لتكون تحت سيطرة دولة بعينها . على أن مصر ستكون متى آلت إليها القناة حارسة لها بتوصية من مجلس الأمن وبرضاء بريطانيا وسائر أعضاء هيئة الأمم المتحدة .

وليس فى مالطة الآن أثر للحركة التى كانت ترمى إلى الانضمام إلى إيطاليا . وأما فى جزيرة قبرص فالسكان موالون للإنجليز ، ولكن الكثرة العظمى منهم تود الانضمام إلى اليونان أمهم الكبرى . وكذلك الشأن فى رودس وجزر الدوديكانيز التى كانت تابعة لإيطاليا ، ففيها أقليات من الأتراك ، ومعظم السكان يونانيون جنساً ولغة وديناً .

ولكن يبدو أن روسيا منذ اختل التوازن السياسي فى حوض البحر المتوسط بخروج الطليان من مضمار التنافس البحرى ، قد بدأت تحاول تصحيح الميزان وتطالب لنفسها بقواعد فى البحر المتوسط ؛ فقد ضاقت روسيا ذرعا بتجمد مياه البحار المحيطة بها فى معظم شهور السنة ، وتريد أن يكون لها منفذ إلى البحر المتوسط وقواعد فى مختلف أنحائه باسمها أو باسم حليفاتها . فإذا تشبثت تركيا بمفتاح البوابة الجانبية عند الدردنيل وصمم الحلفاء على إقصاء روسيا عن الوصاية فى ليبيا أو رودس أو جزر الدوديكانيز ، فأكبر الظن أن روسيا ومعها أمريكا والدول الصغرى لن تهدأ لها ثائرة حتى ترى مفاتيح بوابات هذا البحر قد حطمت ، ومنافذه جميعاً قد أصبحت محايدة وحرة للجميع فى السلم وفى الحرب .

محمد رفعت

المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

ميثاق الأمم المتحدة هو الدستور الجديد للعلاقات الدولية الذى صدر بمدينة سان فرنسيسكو فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه لسنة ١٩٤٥ بتوقيع مندوبى إحدى وخمسين دولة بعد مناقشة دامت ثلاثة أشهر لمقترحات دمبارتون أوكس التى كان قد أعدها ممثلون للولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين خلال مباحثات جرت قرب مدينة واشنطن بين الحادى والعشرين من أغسطس والسابع من أكتوبر لسنة ١٩٤٤ .

وهو مكون من مئة وإحدى عشرة مادة ، وزعت على تسعة عشر فصلا تتقدمها ديباجة . وقد تضمنت الديباجة تقرير إنشاء هيئة دولية تسمى « الأمم المتحدة » كما تضمنت عهوداً قطعها الموقعون عن « شعوب هذه الأمم » على أنفسهم إنقاذاً للأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، وتوكيداً للإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية ، ودفعاً بالرقى الاجتماعى قدماً ، ورفعاً لمستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح ، وأخذاً للأنفس بالتسامح والعيش معاً فى سلام وحسن جوار ، وضما للقوى فى سبيل الاحتفاظ بالسلم والأمن الدولى ، وكفلا لعدم استخدام القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة ، وتوحيداً للجهود فى سبيل ذلك جميعاً . وعالجت الفصول مقاصد الهيئة ومبادئها ، وعضويتها ، وفروعها ، وجمعيتها العامة ، ومجلس الأمن ، وحل المنازعات حلا سلمياً ، وما يتخذ من الأعمال فى حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان ، والتنظيمات الإقليمية ، والتعاون الدولى الاقتصادى والاجتماعى ، والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ، والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى ، ونظام الوصاية الدولى ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة ، وأحكام متنوعة ، وتدابير حفظ الأمن فترة الانتقال ، وتعديل الميثاق ، وتوقيعه والتصديق عليه .

وينطوى الميثاق فى عمومه على فكرة التضامن العالمى فى سبيل إقرار الطمأنينة واطراد التقدم عن طريق التزامات ترتبط بها أعضاء الهيئة الدولية الجديدة. وقد قام نقاش فى لجنة المشاكل القانونية بمؤتمر سان فرنسيسكو حول الاسم الذى يطلق على «الأدوات» التى تحدد تلك الالتزامات، وإن كان الأمر قد أصابها عن طريق غير مباشر؛ لأن النقاش كان قد دار لمناسبة تسجيل المعاهدات ونشرها، وكان قد دار حول تحديد المعاهدات التى يجب تسجيلها. فأشار البعض إلى وجوب قصر التسجيل على المعاهدات السياسية. وأخذ على ذلك أن كثيراً من المعاهدات التى تبدو فى ظاهرها اقتصادية محضة تنطوى على أغراض سياسية. وانتهى رأى اللجنة إلى الاطلاق فى وصف المعاهدات، وفضلت اللجنة عبارة «المعاهدات والاتفاقات الدولية». وهذا الشمول فى التعبير هو الذى سنأخذ به نحن أيضاً فى هذا البحث.

ولقد ورد ذكر المعاهدات والاتفاقات فى أكثر من مادة من مواد الميثاق، وفى أكثر من فصل من فصوله؛ لأنه نظر إليها من عدة نواح؛ فلاحت فيه متنوعة، وأصبحت دراستها بالنسبة لأحكامه محل تنسيق وتبويب أوثر أن تكون طريقة عرضى لها هى طريقة التمييز بالموضوع.

والواقع أن ميثاق الأمم المتحدة قد ميز بين المعاهدات والاتفاقات الدولية من حيث مواضيعها ووزعها على ستة أنواع —: الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية، والاتفاقات الخاصة بأعمال أزاء الدول المعادية، واتفاقات الوصاية، واتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى، واتفاقات التنظيمات الإقليمية ومعاهدات الدفاع عن النفس.

أما الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية، فهى التى يضعها المجلس الاقتصادى والاجتماعى مع التوكيلات التى تدعو هيئة الأمم المتحدة ذاتها إلى إجراء مفاوضات بين الحكومات التى تضطلع بمقتضى نظمها الأساسية بتبعات دولية واسعة فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة والتعليم والصحة وما يتصل بذلك من الشؤون قصد إنشائها تهيئة لشروط الاستقرار والرفاهية الضرورية لقيام علاقات سلمية ودية بين الأمم تقوم على احترام المبدأ الذى يقضى للشعوب بحقوق متساوية ويجعل لها تقرير مصيرها، وذلك بتحقيق مستوى أعلى للمعيشة، وتوفير أسباب الاستخدام المتصل لكل فرد، والنهوض بعوامل التطور والتقدم الاقتصادى

والاجتماعى ، وتيسير الحلول للمشاكل الدولية الاقتصادية والاجتماعية والصحية وما يتصل بها ، وتعزيز التعاون الدولى فى شؤون الثقافة والتعليم ، ونشر احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا .

وقد قضت المادة السادسة والخمسون من الميثاق بتعهد جميع الأعضاء بأن يتخذوا ما يجب عليهم من عمل مفرد أو مشترك بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة لإدراك المقاصد التى تعقد تلك الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية لأجل العمل فى سبيل تحقيقها ، كما نصت المادة الستون على أن مسئولية تحقيق هذه المقاصد إنما تقع على عاتق الجمعية العامة كما تقع على عاتق المجلس الاقتصادى والاجتماعى فى ظل سلطان هذه الجمعية العامة بمقتضى أحكام واردة فى الفصل العاشر من فصول الميثاق .

وأما الاتفاقات الخاصة بأعمال إزاء الدول المعادية فهى تلك التى تقرر إجراءات أو تدابير تتخذ ضد أية دولة كانت فى الحرب العالمية الثانية من أعداء أية دولة موقعة على الميثاق . والواقع أن أحكام الميثاق قد أطلقت هذه التدابير من القيود الحظرية ، فنصت المادة السابعة بعد المئة على أنه « ليس فى الميثاق ما يبطل أو يمنع أى عمل إزاء دولة كانت فى أثناء الحرب العالمية الثانية معادية لإحدى الدول الموقعة على هذا الميثاق إذا كان هذا العمل قد اتخذ أو رُخِّص به نتيجة لتلك الحرب من قِبَل الحكومات المسئولة عن هذا العمل » ، كما استثنت المادة الثالثة والخمسون من عدم جواز قيام التنظيمات الإقليمية بأعمال القسر بدون إذن مجلس الأمن « التدابير التى تتخذ ضد أية دولة من دول الأعداء أو التدابير التى تكون فى التنظيمات الإقليمية قد قصد بها منع سياسة العدوان من جانب دولة من تلك الدول » ، وإن كان هذا الاستثناء قد قيد باعتبار التوقيت ؛ إذ مضت المادة تقول : « وذلك حتى يحين الوقت الذى قد يعهد فيه إلى الهيئة بناء على طلب الحكومات ذات الشأن بمسئولية منع أى عدوان آخر من واحدة من تلك الدول » .

واتفاقات الوصاية هى التى تخضع بمقتضاها أقاليم معينة لنظام الوصاية الدولى الجديد الذى يهدف أساسيا إلى العمل على ترقية أهالى تلك الأقاليم فى شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم واطراد تقدمها نحو الحكم الذاتى أو

الاستقلال حسبما يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التى تعرب عنها بكل حريتها وطبقاً لما قد ينص عليه فى شروط كل اتفاق من تلك الاتفاقات ، وكذلك إلى كفالة المساواة فى المعاملة فى الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والتجارية لجميع أعضاء «الأمم المتحدة» وأهل الأقاليم المشمولة بالوصاية . على أن تكون هذه الأقاليم واحدة من ثلاث فئات : المشمولة الآن بالانتداب ، والتى قد تقتطع من دول الأعداء نتيجة للحرب العالمية الثانية ، والتى تضعها فى الوصاية بمحض اختيارها دول مسئولة عن إدارتها ، وعلى ألا يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة ؛ إذ يجب — على حد نص المادة الثامنة والسبعين — أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة فى السيادة .

ويجب أن يشمل اتفاق الوصاية ، فى كل حالة ، الشروط التى يدار بمقتضاها الإقليم المشمول بالوصاية وأن يعين السلطة التى تباشر الادارة فيه .

ويجوز أن يحدد فى أى اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذى ينطبق عليه نظام الوصاية بعضه أو كله ؛ على أن تحقق الأهداف الأساسية لهذا النظام بالنسبة لشعب هذه المساحة ، وعلى أن يباشر مجلس الأمن ذاته جميع وظائف « الأمم المتحدة » بالنسبة للمناطق الاستراتيجية بما فيها الموافقة على شروط إتفاقات الوصاية وتغييرها أو تعديلها مستعيناً فى ذلك بمجلس الوصاية . أما فيما يختص بالمساحات التى لم ينص على أنها مساحات استراتيجية فإن الجمعية العامة هى التى تتولى مباشرة وظائف « الأمم المتحدة » بالنسبة لها مستعينة بمجلس الوصاية فى ظل سلطانها .

ولعل أهم أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية بالنسبة لميثاق هيئة الأمم المتحدة هو نوع اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى . وهيئة الأمم المتحدة إنما تتميز عن « عصبة الأمم » بتنظيمها الوسائل الفعالة لحفظ السلم والأمن الدولى الذى عهدت به لأهم فرع من فروعها وهو مجلس الأمن .

وقد نصت الفقرة الأولى من المادة الرابعة والعشرين من ميثاق « الأمم المتحدة » على أن أعضاءها يعهدون إليه « بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقون على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته

التي تفرضها عليه هذه التبعات » . كما نصت المادة الخامسة والعشرون على تعهد أعضاء «الأمم المتحدة» بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها . وحرمت المادة الثانية عشرة على الجمعية العامة ذاتها أن تقدم أية توصية فى شأن نزاع أو موقف يكون منظوراً أمامه إلا إذا طلب هو منها ذلك .

وقد نظم الميثاق التبعات الملقاة على مجلس الأمن ، إذ جعله « مسئولا بمساعدة لجنة أركان حرب عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح ، وإذ جعل له أن يفحص أى نزاع أو موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعا لكى يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع أو الموقف أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولى ، كما جعل لكل عضو من الأمم المتحدة أن ينبهه إلى أى نزاع أو موقف من هذا النوع ، بل جعل « لكل دولة ليست عضواً فى الأمم المتحدة أن تنبهه إلى أى نزاع تكون طرفا فيه » ، وإذ خصه بأن يوصى بما يراه ملائماً من الاجراءات وطرق التسوية فى أية مرحلة من مراحل النزاع أو الموقف الشبيه به ، كما ترك له هو بنص المادة التاسعة والثلاثين من الميثاق أن «يقرر ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملا من أعمال العدوان» ، وخوله بمقتضى المواد التالية دعوة المتنازعين للأخذ بما يراه ضرورياً أو مستحسناً من تدابير مؤقتة ، أو تقرير ما يجب اتخاذه من التدابير التى لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته ، أو أن يتخذ كما ورد فى نص المادة الثانية والأربعين — إذا رأى أن هذه التدابير لا تفى بالغرض أو ثبت أنها لم تف به — «بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولى وإعادته إلى نصابه » ؛ على أن يكون وضع الخطط اللازمة لاستخدام هذه القوات المسلحة من نصيبه هو بالذات بمساعدة لجنة أركان الحرب « وهى لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن — الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا والصين — ومسئولة تحت إشراف المجلس عن التوجيه الاستراتيجى لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرفه ، ولها فى سبيل هذا التوجيه الاستراتيجى أن تنشىء لجانا فرعية إقليمية إذا خولها ذلك مجلس الأمن بعد التشاور مع التوكيلات الإقليمية صاحبة الشأن » .

وهذه القوات التى توضع تحت تصرف مجلس الأمن هى محل هذا النوع من

المعاهدات والاتفاقات التى سميناها «اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى» ، وقد نظمت ملابساتها وأوضاعها بمقتضى أحكام المواد الثالثة والأربعين والتاسعة والأربعين والخامسة والأربعين والرابعة والأربعين والسادسة بعد المئة

وقد قررت الفقرة الأولى من المادة الثالثة والأربعين مبدأ تعهد «جميع أعضاء الأمم المتحدة فى سبيل المساهمة فى حفظ السلم والأمن الدولى أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن طبقاً لاتفاق أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولى ، ومن ذلك حق المرور» . وفرضت المادة الخامسة والأربعون أن يكون «لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القسر الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوتها ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفى الحدود الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين » وقد نصت الفقرة الثالثة من هذه المادة الثالثة والأربعين على أن « تجرى المفاوضة فى الاتفاق أو الاتفاقات المذكورة بأسرع ما يمكن بناء على طلب مجلس الأمن ، وتبرم بين مجلس الأمن وبين أعضاء « الأمم المتحدة» أو بينه وبين مجموعات من أعضاء «الأمم المتحدة» ، وتصدّق عليها الدول الموقعة وفق مقتضيات أوضاعها الدستورية» . كما وضعت المادة السادسة بعد المئة نظاماً مؤقتا يعمل به «إلى أن تصير الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين معمولا بها على الوجه الذى يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء فى احتمال مسئولياته» ، وهو نظام التشاور يجرى فيما بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين وفرنسا ويجرى بينهن وبين سائر أعضاء الأمم المتحدة ، كلما اقتضت الحال للقيام نيابة عن الهيئة بالأعمال المشتركة التى قد تلزم لحفظ السلم والأمن الدولى » .

وإلى جانب هذه الأحكام فإن المادة التاسعة والأربعين تنص على أن « يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التى قررها مجلس الأمن » ، كما تنص المادة الرابعة والأربعون على ما يتعادل مع مبدأ التضافر هذا من ضرورة دعوة العضو ، الذى يطلب إليه مجلس الأمن — إذا ما قرر استخدام القوة — تقديم القوات المسلحة وفاء بالالتزامات التى ارتبط بها عن طريق اتفاق من اتفاقات حفظ السلم والأمن العالمى ، إلى أن يشترك فى القرارات

التي يصدرها المجلس في ذلك الصدد إذا لم يكن العضو المذكور ممثلا فيه .

ثم تجيء التنظيمات الإقليمية ، ولا يحول الميثاق دون معالجتها ومن الأمور المتعلقة بحفظ السلم والأمن الدولي ما يكون العمل الاقليمي صالحا فيها ومناسبا مادامت هذه التنظيمات وأنواع نشاطها متلائمة مع مقاصد « الأمم المتحدة » ومبادئها . ولكن الميثاق حدد هذه المعالجة التي يعترف للتنظيمات الاقليمية بالقيام بها ، إذ قصرها على « تدبير الحل السلمي للمنازعات المحلية » قبل عرض هذه المنازعات على مجلس الأمن ، سواء أصدرت تلك المعالجة من تلقاء نفس المنظمة أو بناء على طلب المجلس ، وإن كان قد احتفظ لنفسه بحق استخدام تلك التنظيمات في ظل سلطانه كلما رأى ذلك ملائما في أعمال القسر ، مع حرص المادة الثالثة والخمسين من الميثاق على النص على أنه « لا يجوز القيام بأى عمل من أعمال القسر بمقتضى التنظيمات الاقليمية أو على يد التوكيلات الإقليمية بدون إذن مجلس الأمن » إلا في حالة التدابير التي تتخذ ضد دولة من دول الأعداء على حد ما أشرنا إليه من قبل ، وذلك كله على أن « يحاط مجلس الأمن في كل وقت إحاطة تامة بما يجرى من الأعمال أو يزمع القيام به منها بمقتضى تنظيمات إقليمية أو بواسطة توكيلات إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولي » كنص المادة الرابعة والخمسين .

على أن الاتفاقات الاقليمية التي أورد الميثاق بخصوصها تلك الأحكام الواضحة الدقيقة في مواده لا تحظى بتعريف يحددها ويعين معالمها . وقد لاحظت مصر هذا النقص ، فضمنت ملاحظتها على مقترحات دمبرتون أوكس مطالبة بإيضاح ما يجب أن يتوافر في التنظيمات الاقليمية من عنصرى التجاور الجغرافي واشتراك المصالح ، وتقدم وفدها في مؤتمر سان فرنسيسكو فعلا باقتراح إضافة فقرة جديدة إلى فقرات المادة ٥٢ من الميثاق يكون نصها :

« تعتبر اتفاقات إقليمية الهيئات الدائمة التي تضم في منطقة جغرافية معينة عدداً من الدول تجمع بينها روابط التجاور والمصالح المشتركة والتقارب الثقافي واللغوى والتاريخي والروحي ، وتتعاون جميعاً على حل ما قد ينشأ من منازعات حلا سلميا وعلى حفظ السلم والأمن في منطقتها وحماية مصالحها وتنمية علاقاتها الاقتصادية والثقافية . »

ولكن لم يحظ هذا التعديل بموافقة اللجنة المختصة . . وحتى دول أمريكا

اللاتينية التى كانت قد قدمت اقتراحا فى نفس المعنى نزلت عنه وصوتت ضد الاقتراح المصرى . وكانت حجة الولايات المتحدة فى دفع هذا التعديل أن كل تعريف تضييق ، وأنه مع التسليم بما فى التعريف المصرى من الضبط ودقة الوصف فإنه يخشى أن يخرج من التنظيمات الإقليمية ما قد يجب أن يدخل فيها .

ويتصل باتفاقات حفظ السلم والأمن الدولى وباتفاقات التنظيمات الاقليمية أوثق الاتصال نوع أخير من أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية ، هو نوع معاهدات الدفاع عن النفس التى ورد ذكرها فى المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق ونصها :

« ليس فى هذا الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعى للدول ، فرادى أو جماعات ، فى الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى . ويبلغ المجلس فوراً التدابير التى اتخذها الأعضاء بمباشرة حق الدفاع عن النفس . ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فى سلطة المجلس ومسئولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولى أو إعادته إلى نصابه . »

وقد كان هذا النوع من المعاهدات هو الآخر محل مناقشة فى لجان مؤتمر سان فرنسسكو ، وكان لمصر موقف بصدده كذلك .

ذلك أن حق الدفاع الجماعى قد بسط أثناء المناقشات على مواثيق المعاونة العسكرية وبوجه خاص على المعاهدات المعقودة بين الاتحاد السوفيتى وكل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا . فطلبت مصر إيضاح مدى حق الدفاع الجماعى ، وبينت أنه إذا كان هذا الحق يشمل المحالفات العسكرية فإن من الضرورى ن يقصر نطاقه على مواثيق المعاونة العسكرية التى تعقد بين دول متجاورة ليصح عليها وصف التنظيمات الاقليمية . وهنا صرحت الولايات المتحدة بأنه كان المقصود أصلا أن حق الدفاع الجماعى لا ينصرف إلا إلى التنظيمات الإقليمية بالمعنى الصحيح . إلا أنه أثناء المفاوضات بسط نطاقها بحيث شمل المحالفات العسكرية التى تقرر الهيئة الجديدة أنها تتلاءم مع الميثاق .

وبتقريب هذا البيان الذى نقلناه حرفيًّا من تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولى المنعقد فى سان فرنسسكو والمقدم للبرلمان المصرى فى شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ ، بتقريب هذا البيان من نص المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق تكون معاهدات الدفاع عن النفس خاضعة صحتها لتوافر الشروط التالية :

أولا — أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .

ثانياً — ألا تكون أحكامها نافذة إلا فى حالة الاعتداء الفعلى بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .

ثالثاً — أن يكون تنفيذ أحكامها عند نفاذها موقوتاً إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى .

رابعاً — أن يبلغ المجلس فوراً التدابير التى يتخذها المتعاهدون دفاعاً عن النفس .

خامساً — أن تقرر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تتلاءم مع الميثاق .

تلك هى أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية المتصلة بهيئة الأمم المتحدة ، وتلك هى أحكام ميثاق الأمم المتحدة فى صدد قيامها ونفاذها . وإن هذه الأحكام لتنطق بالاتجاه الدولى الجديد ، اتجاه التعاون العالمى والتضافر فى سبيل المشاركة السلمية عن طريق الهيئة الجديدة وتحت إشرافها ، وإخضاع العلاقات بين الشعوب والأمم فرادى وجماعات لاعتبار التفاهم المتبادل الخالى من كل ضغط فى الحظيرة الدولية ، وعدم الانفراد فى معالجة غير الشؤون الداخلية البحتة ، أو على حد تعبير الفقرة السابعة من المادة الثانية من الميثاق « عدم تدخل الأمم المتحدة فى الشؤون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما » ، وكذلك عدم السماح لدولتين أن تحددا بينهما علاقات تتصل بالسلم والأمن الدولى فى غير نطاق الميثاق ودون علم مجلس الأمن ، وبعض الأحايين دون إذنه . وهى لا تعترف مثلا بمساحات استراتيجية تتصل بها أكثر من دولة واحدة إلا فى الأقاليم المشمولة بالوصاية ليس غير ، وهى أقاليم يطبق عليها نظام دولى تشرف عليه « هيئة الأمم

المتحدة » . ومنصوص على عدم تطبيقه على أعضاء هذه الهيئة المتساوين في السيادة .

وقد شاء الميثاق أن يؤكد ذلك الاتجاه الجديد ويقضي على ما قد يقوم بين الالتزامات الناشئة عنه والتزامات غيره من الأدوات الدولية من تعارض ، كما حرص على أن يراقب ما قد يعقد بين بعض الدول من اتفاقات تخالف أحكامه ، فنص في مادته الثالثة بعد المئة على أنه « إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام الميثاق مع أي التزام دولي آخر يرتبطون به ، فأبعده بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق» . ونص في مادته الثانية بعد المئة على أن كل معاهدة وكل اتفاق دولي يعقده أي عضو من أعضاء الأمم المتحدة بعد العمل بالميثاق يجب أن يسجل في أمانة الهيئة وأن تقوم بنشره بأسرع ما يمكن. وليس لأي طرف في معاهدة أو اتفاق دولي لم يسجل أن يتمسك بتلك المعاهدة أو ذلك الاتفاق أمام أي فرع من فروع الأمم المتحدة» .

وكانت مصر قد تقدمت في صدد تعارض الالتزامات باقتراح النص في صلب المادة المتعلقة به على «أن المعاهدات السابقة التي تتنافى مع الميثاق تعتبر ملغاة أو واجبة التعديل» . واحتدمت المناقشة في هذه المسألة وطالت أكثر مما حدث في غيرها من المسائل ، وانتهى الأمر بصياغة المادة الثالثة بعد المئة على ذلك النحو الذي يؤدي في عموم أسلوبه إلى تحقيق الاقتراح المصري في خصوصه « وما دامت العبرة بالالتزامات المترتبة على الميثاق فإن ما يتعارض معها من التزامات سابقة أو لاحقة لا يكون له شيء من الاعتبار » .

على أن مصر لم يفتها عند مناقشة اختصاصات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة أن تثير الموضوع عن طريق اقتراح تخويل هذه الجمعية حق التوصية بناء على طلب أي عضو لاعادة النظر في المعاهدات التي أصبحت غير قابلة للتطبيق . وانقسمت الآراء أزاء الاقتراح المصري بين مؤيد ومعارض ومحايد . وحاولت الولايات المتحدة إقامة التوازن بين اتجاهي التأييد والمعارضة ، وأعلنت أن النص على تسوية أي موقف تسوية سلمية أياً كان منشؤه يجب ألا يحمل على معنى نفي حق الجمعية في إعادة النظر في المعاهدات ، بل إذا نشأ عن قيام معاهدة ما موقف ترى الجمعية أنه يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم فللجمعية أن تشير بما تراه في هذه الظروف . وطلبت بلجيكا إثبات هذا

التفسير فى المحضر ، وأيدتها مصر فى هذا الطلب الذى يحقق ما طلبت على اعتبار أنه يكفل إعادة النظر فى المعاهدات .

وبعد ، فلعلنا بهذا البحث أن نكون قد ساهمنا فى إنارة الطريق أمام الذين يتلمسون الآن فهم القواعد التى تقوم عليها معاهدة فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة .

محمود عزمى

أحلامي الضائعة

أين أحــلامي التي أبدعتُها ... من هوى نفسي ، وأشواق فؤادي ؟
قــد تهاوت كورود غضّة ... ألقتِ الريح بها في كل واد !
فإذا الدنيا — وكانت جنةً — ... أصبحتْ صحراءَ غرقى في السواد
يا لها من محنــةٍ قاسية ... أذهلتْ قلبي وألْوتْ برشادي !

أنظري أحلامَ قلبي . . . إنني ... صرت أحيا بين آلامي وحيدا
في ربيع العمر . . . في فجر الصِّبا ... قد دفنتُ الأُنس في قلبي وليدا
وأصاب العقمُ نفسي ! ويحها ... لا أراها تُبدع اليوم جديدا !
ليت شعري ما بقائي ، وأنا ... لم أزل أحيا على الدنيا شريدا ؟

كيف أحيا بعد أن ضاعت سُدًى ... هذه الأحلام من عمري الحزينِ ؟
إنها صورة دنياي التي ... تحلم النفس بها في كل حين
صاغها الشوق ، وجلاَّها الهوى ... فإليها أبدَ الدهر حنيني
ليت شعري كيف أرجو بعدها ... فرحةَ الباكي ، وآفاقَ السجين ؟

رُبَّ ليل قد طواني موجه ... مثلما يطوي مُنَى النفس الفناء
لم أجد لي عاصماً من أمره ... غير أحلامي بآفاق السماء

فتســـاميت إليهــا شاكياً وحشةَ الليــل ، وأحزانَ المساء
فإذا دنيــا كما شاء الهـــوى كلهـــا نور ، وأنس ، وغنـاء

ونهــارٍ ترتمى ضــــوضاؤه كغبار يرتمى فوق الزحامْ
لذْتُ منـــه بمكانٍ مُفردٍ يتســـامى عن ضــلالات الأنام
فهفــا قــلبى إلى أحـــلامهٌ وهْــو للحب مشــوق مستهام
فإذا دنيــا كما شـــاء الهوى كلها صــفو وأمن وســـلام

أعْـوِلِى يا روحَ أيامى كما تـعْـوِلُ الريح ، وضجّى بالنحيبِ
وارفعى شــكواك لله الذى جمّــل الدنيــا بأحــلام القلوب
غُلِبَ القــلبُ على أحـــلامه فهْــو يحيــا فى ضلوعى كالغريب
كيف يحيا الجسم فى فجر الصِّبَا إذ يعيش القلب فى ليــل المشيب ؟

آهِ كم يغلبنى الحزن ! وكم تستبدُّ الوحشــة الكبرى بحسّى
حينما أمضى مع النــاس سُـــدىً وإذا أبقى وحيــداً مع نفسى !
ومقيماً بين أهـــلى هاهنــــا وغريبــــاً بين آلامى ويأسى
ليتنى أجْـرَعُ حــزنى مرةً ثم ألقِى فى مهاوى العمر كأسى

إيه أحــلامى ! وداعاً ، وغــداً نلتقى ... لكن متى؟... بعدالحصاد !
حين يبــدو حقل عمرى مقفراً باردَ الأينفاع ، مقرورَ الوهاد !
فتلفّــتُّ بقـــلب مُرْعَشٍ أبتـغى دفئاً لروحى وفؤادى
وتراءيتِ رماداً دافئــــاً فتهــاويتُ بقلبى فى الرماد !

وسألقاكِ إذا حان الردى   فغدا يُحصر بالأنفاسِ عمرى !
وإذا الناسَ — وأهلى فيهمو —   أصبحوا — فى الموت — يُعنَون بأمرى
ففريقٌ عند رأسى جازعٌ   وفريق فى الثرى يَحفر قبرى !
وتراءيتِ خيالاً شاحبا   فكأنى لا أرى إلا بفكرى
فهفا قلبىَ ، وامتدّتْ يدى   علّها تُدنيك من خفّاق صدرى
ثم حالت بيننا أيدى الردى   ثم ماذا ؟ لست أدرى ! لست أدرى !

ابراهيم محمد نجا

رسالة لم تنشر للجاحظ

هذه الرسالة التي يراها القارئ بعد مظهر واضح جلي من مظاهر التطور الذي أتيح للنثر العربي، وتم تمامه على يد الجاحظ في القرن الثالث للهجرة؛ إذ اقتحم على الشعر أبوابه، وشاركه في ميادينه، وجعل ينافسه عليها منافسة قوية رائعة. وقد ظل الشعر زماناً مستأثراً بالمعاني الفنية، منفرداً بالتعبير عنها؛ إذ كان اللغة الغنائية الوحيدة التي يتغنى بها الرجل في آلامه وآماله، وفي حبه وبغضائه، وفي نشواته العصبية المختلفة، لا تشركها في ذلك لغة غيرها، حتى تم للنثر ذلك التطور.

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور، وكيف انتهى إلى غايته؛ فلسنا هنا إلا بصدد التقدمة لهذه الرسالة، والإشارة إلى بعض وجوه الخطر التي تمثلها — هي ونظائرها — في تاريخ «العبارة الفنية» في اللغة العربية، وكيف استطاع الجاحظ أن ينقل موضوعات الشعر إلى النثر، وأن يتيح — بذلك — لهذه الموضوعات أفقاً أرحب، وعبارة أسمح، وتجاوبا مع النفس العربية الجديدة — التي صقلتها الحضارة وأرهفها الترف ومدت من جوانبها المعرفة — أدق وأصدق. وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربي حين لم تعد تكفيه وتقنع رغباته الواسعة تلك المعاني المقصورة، وتلك الصور المركزة، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة، فاستطاع أن يستجيب لهذا الاتجاه ويعبر عنه، حين أمكنه أن يقيم ذلك النحو من «العبارة الفنية» المتوسطة بين الشعر والنثر: تقف بينهما، وتصطنع خصائصهما، على النحو الذي نراه في هذه الرسالة التي كتبها في «رثاء» صديق له.

والرثاء فن شعري، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة. ولكن الرثاء في هذه الرسالة متأثر — بطبيعة الحال — بروح النثر، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منه في قصائد الشعراء. فهو يجيء هنا في سياق صورة مفصلة لشاب اخترم في عنفوان شبابه، يصور فيها الجاحظ «الموت» في جميع حالاته وملابساته، منذ أخذت بوادره تندس عليه إلى أن غيب في قبره. ومن ذلك كانت إثارته «الحزن» بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت، وهي تنطوي بطبيعتها على العناصر الأصيلة للحزن. أما رثاء الشعراء فهو — في كثير من حالاته — أشبه شيء بندب النوادب ونواح النوائح، وكذلك ما يثيره من الحزن، إنما يجيء من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر. وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء في الشعر، في ناحية «التأبين» أو تمجيد الميت. فالجاحظ إنما يصور مآثره وفضائله في خلال تلك الصور، فيجيء بها متسلبة، اتشحت بالحداد والتفت بالسواد، لا مستقلة منتزعة من ذلك الجو، كما هو الشأن — كثيراً — في الشعر، مما حمل بعض النقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء، بأن الأول ذكر المآثر حاضرة، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة المضي.

وقد أخذنا هذه الرسالة من كتاب: «المختار من كلام أبي عثمان الجاحظ»، وهو مخطوط محفوظ فى مكتبة برلين. وقد وردت فيه غير معنونة، كما هو الشأن فى محتويات هذا الكتاب، وقد تكون هى الرسالة التى يذكرها ياقوت فى فهرست كتب الجاحظ باسم: «رسالة فى موت أبى حرب الصفار البصرى».

وها هى ذى، بعد أن صححنا نصها جهد الطاقة. وقدر ما تأذن الروح العلمية فى النشر والتصحيح.

طه الحاجرى

ورد علىّ — أسعدَك اللهُ — كتابُك، تذكر فيه بُرءك من شَكْوِك، وتَسْتريبُنى فى ترك الكتاب إليك، وأنت غافِل عما جرت به الأقدار، وأصاب به الدهر، وقرعت به المنون، وطرَقت به الحوادث. ولم أبطئْ بكتابى عنك — أكرمك الله يا أخى — إغفالا لحقك، ولا قلّةَ منازَعة من نفسى لمحاورتك؛ ولكنه شغلُ البال، ورَيْب الحدَثان، وتقلُّب الأزمان. فإنى قد أصبحت كما قال الشاعر:

لم يترك الدهر لى عِلقاً أَضِنُّ به إلا اصطفاهُ بموت أو بهجران

وقد هاجنى على الكتاب إليك مُعتلجات الهموم، مُبِثّا لك بعض ما فى صدرى، استراحةَ المكروب، ونفثَ المصدور؛ فقد أصبحت رَصَداً للمهلك، وبمدرَجة العطَب، وبمشرب السُّمُوم، وبِحسْى الموت. وأحسب هُلْكَ أبى فلان — رحمة الله عليه ورضوانه، وآتاه الله الرفعة والشرف الأعلى لديه — قد نَمى إليك وبلغك. وإنا لله وإنا إليه راجعون؛ تأدّباً بأمره، وتعرُّضاً لمَوْعوده. ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

وقد رأيت تعريفك كُنه خبَره، فافهم — رحمك الله — واجتهد فى أن تكون السعيد الموعوظ بغيره.

وقد كنت عاينت شَكْوَه، وفارقته عليه فى غرّة شهر رمضان. ثم تزيّد فى جَهد العلّة وفى حِدّتها، وكان اليأسُ منه والخوف عليه، أقوى من الرجاء له والطمع فى سلامته. ثم انحدرت العلّة، وأطمع فى الإفاقة، وتزيّد فى الإطماع، وتحلَّل السُّقم وشدّة المرض، واستبشر مؤمّلوه العافية له ببرئه. فلم يزل يتزيّد فى صلاح الحال، ورجوع القُوى؛ حتى إذا أكل ما اشتهى، وركب ومَشَى، وخرج إلى البستان، وثابت نفوسنا من الإشفاق، وزال

عنه القلَق والحذَارُ ، وعاوده الأمل والاغترار ، وقال لى فى بعض مناجاته ، واستجلابه العافية ، واستلذاذه مُعاودة الصّحة : « إخالُنى قد نجَوت ، وأرانى قد أقلبت » مبتهجاً مسروراً ، كما قال الشاعر :

إذا بلّ من داءٍ به خال أنّه نجا ، وبه الداءُ الذى هوَ قاتلُهْ

على أنه — يرحمُه الله — فى ذلك كَمِد اللون ، نحيف الجسم ، مضطرب المزاج ، متغيِّر عن الاعتدال ، وهو مع ذلك يخرج إلى مسجده ، ويجلس بفنائه .

ثم تغيّرت به العلة ؛ فدخلتُ عليه ، فاذا نفسُه قوية ، وطبيعته جيّدة ، وعلّته غير منكرة ؛ فسألته ، فردّ جواب فسيح الأجل ، قوىّ الرجاء ، بغير انكساف بال ، ولا وَجَلٍ من وَشْك ارتحال . وظلّ يومَه ذلك على حاله من الصلاح . فلمّا أصبح دعا بسواكه ، فاستنّ به ، فبينا هو يمرّ بالسواك على ثغره أنكرت أمه ضعف يده ، فقالت : « مالك ؟ » ، فقال : « ما أدرى ! إنى لمنكرٌ نفسى . بادرونى بالنزول » ، فبودر به . فلما صار على الدَرَج منحدراً على قدميه ، عنّ له الموت مُطلاً ، وطرقه ما كان يهرُب منه طويلا ، وفاجأه الذى راغ منه مجتهداً ، وبغَته ما لم يجد عنه مَوْئلا . فسقط سَقطة لم تكن بعدها إقالة ، فشخَص لها بصره ، واضطربت جوارحه ؛ واحتُمِل إلى قَرار منزله على تلك الحالة الهائلة ؛ لا يسمع الدعاء ، ولا يحفل بالبكاء ؛ ولا يردّ الجواب ، ولا يعبأ بالأحباب . فدخلت عليه ، وهو كما قال مطيع بن إياس :

وينادونه ، وقد صمّ عنهم ثمّ قالوا — وللنساء نحيبُ — :
« ما الذى عاق أن تُجيب جوابا أيها المِقوَل الخطيب الأريبُ ؟ »

فبُعث إلى أهل الطبّ والمعرفة ؛ فأتوا ، فرأوْا حالاً فاتت التلافى ، وخرجت من العلاج ، وسبَقت الاستدراك ؛ فعلّلوهم وانصرفوا ، ولم يقضوا فيه قضاء !

وهو فى ذلك مشغول بجهد نفسه ، وكرْب غيره ، ونَزْعه وشدّة نفَسه ، والموت يقبضه ويبسُطه ، كالثوب عند الطىّ والنشر ، صَريعاً مُستسلماً ، أسيراً منجدِلا ، قد خذله الولَد والوالد ، والحميم والصديق ؛ فأكثر ماعندهم

الحسرة والتلهُّف ، والاستكانة والنشيج . فمكث يومه ذلك ؛ ثم حُمّ حمَّى مُدْفِية ، وفاظ فى آخرها ، وورد حيث وُعِد ، وزَهق الباطل . فعَجُّوا وضَجُّوا ، وهتفوا وولولوا . جهدٌ لعمرك قليل الردّ .

ولَنْ يرجع الموتى حنينُ المآتِم

فيالله معتبَطا ما أغضّ وأطرى ، وأىّ فتى رحل عنا ، كما قال الهُذَلىّ :

فِراقٌ كقَيْص السِّنّ ، فالصبرَ ، إنّه لكلّ أناس عَثرة وجُبورُ

ثم دخلنا لنغسله ، وهو شِلْوٌ على سريره ، طريح على مُغْتَسَله ، لَقًى لوجهه ، تقلِّبه الرجال بأكفِّها ظهراً لبطن ، كما قال يزيد بن خذّاق :

ورجّلونى ، وما رُجِّلت من شعَثٍ وألبسونى ثياباً غيرَ أخلاقِ
ورَفّعونى . وقالوا : أيما رجلٍ ، وأدْرَجونى كأنى طىّ مِخراقِ

ثم أخرج — والله — من طارفه وتليده صِفرا ؛ ولو ردّوه ما كان له فيه غِنًى ، ولا قُبِل عنه فِدا . ثم أدرِج فى لفائفه ، وحُمِل على نعشه ؛ ينقله إخوانه وخُلْصانه ، وأحِبّاؤه وأصفياؤه ، وأنا أحدهم يا أبا محمد ؛ فما رأيت كذلك المنظَر منظرا ، لو اعتبر به الناس جميعاً لكان عندى عِىّ ، فكيف بنا ونحن أهل خاصّته ومودته .

ولو رأيت أمّه البائسة مرفوعةَ الحجاب ، ظاهرةً للرجال ، قد عزّها الجزَع فما أبقى ، ورماها فما أشوَى ، وجلّ الخطب أن تتعزّى ، حَيْرى ثكلى ، أمّ واحد ، ومفجوعةٌ فاقِد ؛ لأنه — رحمه الله — كان من أشدّ الناس عليها حنوّا ، وألطفهم بها برّا ؛ حتى لو عددته لملأ الكتاب ، ولما استكثر معه برّ طاق بن حبيب ، ولا بر محمد بن طلحةَ السجّاد بأبيه .

ولو رأيت حُرَمه اللائى كان يستُرهنّ : من جارية نفيسة ، وأمة محبوسة ، وحُرمة مقصورة ؛ قد هتكن أستارهن ؛ وبدت خِدامهن ؛ كقوم حلّ بهم السِّباء ، وكُتب عليهم الجلاء ؛ كما قال الربيع بن زياد :

قد كن يخبأن الوجوه تستّراً فالآن حين برزن للنظار

ولو رأيت ابنته بها ذلُّ اليُتم ، وخشوع الاستكانة ، مبتَذلةَ غير مصونة ، مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرةَ الوجه والقدَمين .

ولو رأيت أباه ، وإنّ دموعه لمراقة ، وإنّ يديه لترعد ، كأن به أفْكَلاً من شدّة الجزع ؛ فأما علّة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غابرَ الأيام : ولو لم يكن ذلك للولد ، لكان للقائه والحزم فى أمره ، والصيانة والبرّ به .

ولو رأيت ابنَه لرأيت عَبرة لا ترقأ ، ودموعا لا تغيض ، سَخين العَين ، حرّان الصدر ، فائض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يُخالِس دموعه ، ولا يتجلّد للشامتين .

ولو رأيت ندَاماه ومُؤمِّليه حيارى لا يدرون على أيّ خِلاله يأسفون : أعلى حُسن عِشرته وكرم مَجلِسه ، أم على طيب خلُقه وصدق صفاته ، أم على نجدته وشهامته ، أم على مُداراته ومُروءته ، أم على حِلمه ومودّته وأدبه .

وما رأيت سريا شيّعه من المترحِّم والباكى ، والمتفجِّع والداعى ، والمؤبِّن والمُثْنى ، ما صحبه ؛ حتى أسهل علىّ بعض الحزن ما سمعت من حسن الثنا ، وطيب النثا ؛ فمن باكٍ على شبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ، وامتلاء جسمه ، وحداثة سنّه ؛ ومن مُلتَثٍّ بالحنين ، مكروب بالأسف ، مُشْجًى بالغصّه ، غصّان بسرعة الاختِرام ومعالجة المنية .

وما سمعت مُراجَعاً خبرُه بعد موته فى مثل سنِّه ، أجمعَ لكلّ مكرُمة ، وآخَذَ لكلّ صالحة ، وأضمَّ لكلِّ شاردة ، وأحفظ لكلِّ ضائعة ، وأرعى لكلِّ مُهْمَلة ، وأضبط لكل منفلتة ، من الأخلاق البوارع الفواضل ، والأفعال النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان ـ رحمة الله تعالى عليه ـ فمضى .

كأنْ لم يقل يوماً مقالا فَتَنْثَنى إلى قوله الأسماعُ وهى رَوازِمُ

ثم وُضع سريره بفِناء مسجد الوَصِىِّ ، فصلّى عليه جعفر بن القاسم ، ومن حَضَره من النسّاك والعبّاد والأشراف ، تحفزهم علل غير واحدة ، أصغرها الرحمة له . ثم انطُلِق بنعشه الى حفرته ، خوّار العود ، قليل الامتناع ؛ كما قال مالك بن الريب :

تُخذانى فجرّانى بِبُردى إليكما فقد كنتُ قبلَ اليوم صعباً قياديا

ثم نُضِدَ عليه اللَّبِن، وسُدّت خِلاله، وأهيل من جوانبه التراب، بعين الشفيق، ومحنة الوادّ، وحسرة الصديق، ومحضر الوامق؛ ثم لم يلبثوا أن ودّعوه وانصرفوا.

وقال قائلُهم حتّى متى نقفُ.

وأنا أقول قولا أخرج من النوح به، ولا أخشى الكذب من الإغراق فيه:

لئن كانت المنايا جعلته غَرَضاً للانتضال، لقد جعل القيامة غرضاً لصالح الأعمال. ولئن أصبح شمله مبدّدا مقسّما، لقد أصبح شمل حمده مجموعا. ولئن كان ابْتكَرَهُ الإزعاج، لقد ابتكر الهِمَم الرفيعة بالاتهاز والابتدار. ولئن شُهِر موتُه فى المصر، لقد شهرت مَكارِمُه فى الجمع. ولئن خَفِى جسمه فى التراب، لقد خفِى نظيرُه فى الأرض. ولئن اعْتَبطه الموت، لقد كان وُدُّه لصديقه غضّا. ولئن واثبه الموت مُغافِصاً، لقد واثب المعالى مفترساً. ولئن انقطع أثرنا من زيارته، لقد بقى عندنا من أثر نعمته. ولئن كان على قلب الصديق خفيفاً، لقد كان على كاهل عدوّه ثقيلا. ولئن خربت مجالسنا من شخصه، لقد عَمَرت قلوبنا بذكره. ولئن انقطعت مَسائلُنا له، ما انقطعت مسائلنا فيه. ولئن بكيتُ عليه لأجدَنَّ مَبكَىً، ولئن احتسبتُ لفى مثله يُحتسب.

ولو شئت أن أبكى دماً لبكيتُه عليه، ولكنْ ساحةالصبر أوسعُ

ولئن قصُرت مدّة الإمتاع به، ما قصرت مدة الحزن فيه. ولئن ارتحلَ عنّا وَشيكا، لقد أثوى فى قوبنا الأسف طويلا. ولئن كان عرّضنا للصبر بموته، لقد عرّضنا للشكر بحياته. ولئن دَنوتُ من الناس بعده، وقَرُبتُ من جنابهم، تسلّياً عن بعض الكمد، وتَنْفيساً عن حرارة الغَلَل، إنى فى ذلك لكما قال الأوّل:

فإن أغْشَ قوماً بعده أو أزورُهم فكالوَحْش يُدنيهامن الأنَس المَحْلُ

ولئن أشر الباغى، وفرح العَدوّ، وسُرّ الحاسد، وطفر الشامت، وجذل المُبغِض، واسْتَبْشر القالى، ما تعزّينا فى ذلك إلا بقول عدىّ بن زيد:

أيها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ـرِ، أأنت المبرَّأ الموفورُ؟

ولئن تجلدت للشامتين ، وتزيّنت للعيون ، وأصلحت من شعرى وثيابى ، وركوبى ولباسى ، فكما قال الأول :

وإنى ، وإن أظهرت صبراً وحسبة وصانعت أعدائى ، عليك لموجع

ولئن رمينا من الدهر بالجلى ، لقد سهلت علينا مؤونة الصغرى ؛ فنحن فى فقدنا له كما قال الأول :

وكنت أعير الدمع قبلك من بكى فأنت على من مات بعدك شاغله

ولئن قلت : إنه قص الجناح ، وجذم اليد ، وقطع الظهر ، وقصم الناب ، وحطم الصلب ، وفل الحد ، وأوهن المنة ، وأضرم الأحشاء ، وعقل اللسان ، وأهاج المتبلد ، وأعاش الحيرة ، وأمات الذكاء ، ونزع الرغبة ، وأورث السلوة ، وبرى اللحم ، وهاض العظم ، وأورث الكمد ، وأعقب الأسف ، وهاج الكآبة ، لأصدقن ، بل لأقصرن عن نهاية ما بلغ .

فالحمد لله ثم الحمد لله على نوائب الدهر ، ومكاره الأيام ، ومرارة العيش ، وتجرع الثكل ، واعتراض الشجا ؛ اصطبارا واستسلاما ، ورجوعاً الى أمر الله ، وتمسكا بمراشده .

فإن تكن الأيام فرّقن بيننا فقد بانَ محمودا أخى يومَ ودّعا

يا أبا محمد أصلحك الله ففيم التربص والانتظار ، وعلامَ الفرجة ؟ إنما الدنيا كأهل دار متى نفر أولهم تلاحقوا ، فلم يبق بها أنيس . أفما تعلم أن الركب وقوف : من أتته دابته ارتحل ، غير أن الإياب إلى الله ! أو ما تعلم أننا رهائن بأنفسنا ، فكيف لانسعى فى فكاكها ! أوَ ما تعلم أننا منتدبون لحلبة التشمير فما الونى والتأخير ! فنشدتك الله تعالى وتفسى فى التشدد والتخوف .

فما نحن إلا مثلهم ، غير أننا أقمنا قليلا بعدهم وترحّلوا

بين العلم والأخلاق ؟

اشتدت الحملة على العلم فى عصرنا هذا بين كثيرين من المفكرين من غربيين وشرقيين . ولعل السبب فى تلك الحملة العنيفة هو ما شاهده الناس من آثار العلم فى الحربين الأخيرتين : ذهبت ملايين النفوس ضحية فى ميادين القتال ، وفى معسكرات الاعتقال ، فى المراكز الصناعية ، وفى المدن الآمنة ، فى الجو وفى البحر ، وأخيراً بالقنابل الذرية التى تحمل إلى الناس أضمن موت فى أوسع مدى ، من غير تمييز بين المحاربين وغير المحاربين ! فكان طبيعيًّا أن يتساءل الناس عن المسئول عن تسليح الشعوب بأسلحة الفتك هذه . وكان طبيعيًّا أيضاً أن يكون أول ما يخطر ببالهم ، جواباً عن هذا التساؤل ، أن القتل والدمار على اختلاف أنواعه ، إنما تم بفضل العلم وببركة جهود العلماء .

فإذا اعترض البعض بأن الحرب أمر شاذ فى تاريخ الانسانية ، وأن زمان السلم مبرأ من ويلاتها ، نهضت الوقائع لتفنيد هذا الرأى : فهذه الآلات التى تزيدها جهود العلماء كل يوم دقة وابتداعاً لم تقدم إلى المجتمع الإنسانى حياة السعة والرفاهية والاطمئنان التى طالما وعدوه بها . ويظهر أن فى وضع السؤال نفسه سخرية مرة . فالعمل فى المصانع ، ذلك العمل الذى لا يكاد يترك للعامل وقتاً للتنفس ، إنما يعقب ، فى الآونة الحاضرة ، التشرد والبؤس والبطالة فى أرجاء العالم ، حتى ليخطر ببال من ينظر فى حال بعض العمال فى الغرب أن الانسان أصبح ، بفضل التقدم العلمى الصناعى ، عبداً للآلة ، بدلا من أن تسخر الآلة فى خدمة الإنسان . ولم يفت حكماء الشرق والغرب أن يلاحظوا هذه الظاهرة العجيبة ؛ فهذا رابندرانات تاجور يقول : « إن الحياة المادية القائمة على العلم تحلو لبعض الناس ؛ لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ، ولكنها خلو من العمق ، وهى لا تحسب للطبيعة الانسانية العالية حساباً . » وهذا أينشتين لا يقل قسوة فى الحكم على العلم عن حكيم الهند ، إذ يقول :

« لم يستخدم العلم حتى اليوم إلا فى استعباد الناس : ففى زمن الحرب يستخدم العلم فى تسميمنا وفى تشويهنا ، وفى زمن السلم يجعل حياتنا قلقة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم للانصراف إلى الأعمال العقلية ، فينالوا بذلك أكبر قسط من الحرية . ولكن بدلا من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة . إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالى من البهجة ، وهم فى أشد حالات التبرم والضجر ، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفاً على أجورهم الضئيلة . »

ذلك هو الاتهام فى قوته . وخلاصته أن العلم مخالف للأخلاق ؛ لأنه يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآلة ، ويزوّد الحماقة والبغضاء بأخطر سلاح .

إننا جميعاً نكره هذه الآثام التى تقترف باسم العلم ، ونمقت آثار الحرب والموت التى تجهز فى ظل المعامل والمختبرات العلمية ، ونشعر بمضض شديد كلما فكرنا فى تلك المدنية المادية المنسوبة إلى العلم ، تلك المدنية التى تجعل غاية الإنسانية أن تظفر بالمتع المادية ، وأن توفر لها وسائل الراحة الرخيصة والترف الغليظ . ولكن هل العلم مسئول عن كل ما ينسب إليه ؟

إن الآثام التى اقترفت باسم العلم حق لا ريب فيه . ولكن العلم ليس مسئولا عنها . والذى يوقع الناس فى الخطأ بهذا الصدد هو أنهم يخلطون غالباً بين العلم ذاته وبين التطبيقات المستفادة من العلم . ولكن العلم ، لحسن الحظ ، شىء آخر غير التطبيقات العلمية .

العلم الصحيح هو البحث عن الوقائع والقوانين بحثاً بريئاً منزها عن كل غرض سوى المعرفة . ومهمة الباحث ، فى علم الطبيعة أو فى علم البيولوچيا أو فى علم الاجتماع ، مقصورة على جودة التمحيص للوقائع وإقامة القوانين منها . فمهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له من قصد إلا تقدم الذهن الإنسانى تقدماً غير محدود . وجماع حياة العالم فى كلمة المعرفة ، والمعرفة لا أكثر ولا غير .

صحيح أن الغالب فى مجال العلم أن يكون الرجل الذى يعرف هو نفسه الذى يعمل ، وأن الذى يكتشف هو عين الذى ينتفع من الاكتشاف . ولكن الحقيقة أنه متى تم للعالم أن يركب جهازاً أو آلة من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة ، فقد

خرج من مجال العلم ولو لم يخرج من المعمل ؛ لأنه إذا تغير قصده تغيرت عقليته أيضاً ، وأصبح إنساناً له أهواؤه وآراؤه ومصالحه ؛ فليس عجيباً أن يسخر معرفته لخدمة هذه الأهواء والآراء والمصالح !

لكن مما يؤسف له أن الكشوف العلمية التي يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة ، إنما بزغت في مجتمعات لم تؤت من الحكمة إلا حظاً يسيراً ، فنتج عن ذلك أنها لم تسخر تلك الكشوف دائماً في غايات سليمة كريمة ، وإنما استخدمتها في الخير حيناً ، وجعلتها في خدمة الشر والعدوان أحياناً . ولكن ليس الذنب في ذلك ذنب العلم ولا ذنب الكشوف العلمية ، وإنما هو ذنب المجتمع الإنساني الذي يحمل في نفسه جراثيم السوء . قد يستكشف البيولوجي أثر مادة ما في بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك في العلاج ، ويستخدمه المجرم في القتل . ويستكشف عالم الطبيعة القوانين التي تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والخير والجمال ، ويستخدمها بعضهم لنشر الأكاذيب والآثام والحماقات . وقد استكشف العلماء وسيلة لتحطيم الذرة وحبس طاقتها ، فاستخدمها بعضهم لصنع القنبلة الذرية ، وقد يستخدمها آخرون غداً لرفع مستوى الحياة الإنسانية .

وإذن فليس من الإنصاف أن يُرمى العلم بما رُمي به من اتهام ، وأن يحمَّل عبء ما اقترف باسمه من آثام ، بل الأقرب إلى الانصاف أن تلقى جميع هذه التبعات على الإنسان .

الحق أن العلم الصحيح يحمل في نفسه مثلاً أعلى ومذهباً أخلاقيًّا رفيعاً ، لو اهتدينا إليهما ، واستوحيناهما في حياتنا ، لأوتينا نبلاً وسعادة .

يتضمن العلم ثلاثة معان أخلاقية جليلة هي قانونه وحياته : الأول هو أن إقدام الفكر وجرأته الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية . ذلك لأن العالم الصحيح باحث مبرأ من الأغراض كما قلنا : لا يعنيه ، حين يواجه مشكلة ما ، أن يعرف هل يكون لحلها نتائج عملية أو لا يكون ، ولا يبالي إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم . ولعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها في علم الفلك . فهذه الكشوف نماذج للانتصار العلمي ؛ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل في مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول . ومع ذلك فلم

ينتج عن هذه الكشوف الفلكية تطبيقات عملية من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا .
ومتى كانت الكرامة الإنسانية فى ذلك الجهد الموصول للمعرفة فإنّ مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعاً نصيب فى هذه الكرامة ؛ فنيسِّر لهم أن يتعلموا فى كل سن ، وفى كل طبقة ، وفى أى جنس ، ونهيئ لهم السبيل إلى أن يتذوقوا الأمور الروحية واللذائذ العقلية ، وأن يقدروا الحقائق التى قام عليها الدليل .

والمعنى الثانى الذى ينطوى عليه البحث العلمى هو العمل على جمع الكلمة والائتلاف من طريق ذيوع الحقائق العلمية ، وقبول الناس إياها لا باعتبارها حقائق خاصة بطائفة من الطوائف ، أو بوطن من الأوطان ، أو بجنس من الأجناس ، بل باعتبارها نورا يهدى جميع أفراد الإنسان فى هذه الدنيا . ذلك أن للعلم ميزة انفرد بها ، وهى أنه واحد فى كل مكان وعند جميع الناس ؛ فمجموع ٢ و ٣ = ٥ سواء كنا فى القاهرة أو فى لندن ؛ ولا يخطر ببال عاقل أن ينازع فى هذه الحقيقة الرياضية . وكذلك فى العلماء إسرائيليون ، وفيهم مسيحيون ، وفيهم مسلمون . وفى العلماء عرب وأمريكان وروسيون . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم أن تكون هنالك هندسة إسرائيلية مخالفة للهندسة المسيحية أو الاسلامية ، ولا علم طبيعة عربى متميز من علم الطبيعة الامريكانى أو الروسى ... ذلك أن الحقائق العلمية يمكن أن يقوم عليها البرهان . والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذى يخلق الوحدة والاتفاق بين الناس ، ويدعو إلى الائتلاف عفواً ومن غير إكراه .

مما يؤسف له أن الناس لم يتفقوا إلى الآن إلاّ على قليل من الحقائق العلمية المتصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحال أنهم فيما عدا ذلك يجدون أنفسهم مضطرين إلى البت فى مشكلات لم يمسها العلم إلاّ مسًّا رقيقاً . ومن أجل هذا أصبحوا متفقين فى بعض الأمور ، ومختلفين أشد الاختلاف فى أمور أخرى . ولكن أقل ما يقال إن المثل الأعلى الذى يترسمه العلم يدلنا على الطريق الذى ينبغى أن نسلكه لتلطيف حدة هذا الاختلاف ، وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها فى الناس ، وأن نطلب إلى العقل فى جميع المناظرات مبدأ الوئام والاتفاق .

والمعنى الثالث الذى يتضمنه العلم هو احترام حرية الفكر ، والاعتقاد بأن

الحرية هى الشرط الضرورى لكل تقدم . وطرافة العلم أنه بقى دائما بعيداً عن روح الضغينة والاضطهاد ، وأنه جعل الحرية قانونه ، واعترف بها للجميع من غير استثناء . كثيراً ما نرى من أصحاب العقائد الدينية أو المذاهب السياسية من لا يترددون فى استعمال العنف فى الدعوة إلى آرائهم أو النيل من خصومهم . كم من نفوس أزهقت من أجل « الصليب » أو من أجل « الهلال » ! ولكن هل أزهقت نفس واحدة من أجل نظرية فيثاغورس أو قانون الأجسام الطافية؟ وكم من دماء أهدرت من أجل « الفاشية » أو من أجل « الديمقراطية » ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل قانون الجاذبية أو قانون النسبية .

ذلك أن بين العلم والحرية وحدة لا تنفصم عراها . فبينا نرى العقائد والمذاهب تعتمد فى الغالب على العنف والاكراه ، نرى العلم يظل دائماً نقى اليدين من الدم المراق ، ونراه مستغنياً عن تأييد السلطات أو مناصرة الأغلبيات ؛ لأن له من فضائله الخاصة ما يكفل له الغلبة والذيوع ولو بعد حين . وإذن فكرامة الفكر والوئام والحرية هى المبادئ الثلاثة التى تقوم عليها أخلاقيات العلم . ولو أنصتت الإنسانية لهذه المبادئ لذهبت الحروب ، والمظالم الاجتماعية ، واستغلال الإنسان للإنسان ، ولقضى على عهد البؤس والجهل ، ولانتهت جميع ضروب الطغيان التى تزهق حياة الأفراد وحياة الشعوب .

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : أنمضى فى استخدام العلم فى محاربة العلم ؟ أم ننصت إلى ما يقدمه لنا العلم من هداية أخلاقية ؟ ويجب علينا أن نختار الآن ؛ فقد اهتزت أرجاء العالم ولطخ بالدم أديمه فى زلزال هو أشد هولا من كل ما عرف من قبل . وما كادت الإنسانية المكروبة تتنفس من هذه الغمة حتى أخذت تتلمس السبيل إلى درء كارثة جديدة ، وهى عالمة أنه لا بد لتثبيت السلام الدائم ، وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يدين لها الناس جميعاً بالقبول . والعلم يكفل للناس هذه المبادئ التى توجههم إلى أرفع ضروب النشاط ، وتدعوهم إلى التسامح ، وتجعلهم إخواناً متحابين .

عثمان أمين

جان پول سارتر ومواقفه الفلسفية

الخيال وموضوعاته

نشر سارتر فى أبريل عام ١٩٤٠ أى بعد خمس سنوات من ظهور كتابه « الخيال » بحثاً جديداً سماه « الخيالى[1] » . ويلاحظ مطالع هـذا الكتاب اختلافا واضحاً بينه وبين الكتاب السابق مع أنه جاء مكملا له : الأول يثير مشكلة والثانى يحلها . والاختلاف ظاهر لا فى الأسلوب وحده بل فى طريقة العرض أيضاً : فى الأسلوب ، إذ بينما كان سارتر يعبر فى «الخيال» كغيره من الفلاسفة تعبيراً فيـه دقة عقلية وجفاف منطقى ، نجد اسلوبه فى « الخيالى » اقل دقة من الناحية المنطقية وأكثر تـكلفاً من الناحية الفنية ، يعمد إلى التشبيهات الجميلة وإلى ألوان مختلفة من الجناس والاطناب . ثم فى طريقة العرض : فى نوع الأمثلة التى يختارها ونوع الحجج التى يدلى بها سواء لدعم موقفه أو لزعزعة مواقف الآخرين ، وفى نوع الـكتب التى ينتقدها أو يثنى عليها : فبينما كان « الخيال » يظهر إلماما دقيقاً بالمواقف الفلسفية الرئيسية قديمة أو حديثة إذا بالـكتاب الجديد يهمل تاريخ الفلسفة إهمالا تاما . وبينما كان سارتر فى « الخيال » يسوق القارئ إلى نتائج نقده سياقة عقلية منظمة ، نجده فى « الخيالى » يصل بالقارئ إلى نتائج لا يعده لها إعداداً كافيا .

اتضح لسارتر ولغيره من الفلاسفة المعاصرين أن ثمة ميدانا جديداً للبحث اكتشفته المدرسة الألمانية المعاصرة التى يتزعمها هوسرل : عمل ممثلو هذه المدرسة ، بعد تخطيط عام لموضوع الفلسفة ومنهجها ، على الدخول فى تفاصيل دقيقة طريفة أهمها ما يتعلق بفعل الإدراك الحسى ومشكلاته المختلفة . ولا شك

(١) *L'Imaginaire* (N.R.F., 1940).

أن هذه الدراسة كانت خير ما يعد البحث فى الخيال ، سواء لتقارب مشكلاته من مشكلات الإدراك الحسى أو لما يبدو من التعارض الصريح القائم بين موضوعيهما . ولكن بالرغم من إشارات قيمة وردت بهذا الصدد عند هوسرل مؤسس « الفنومنولچيا » ، يلاحظ سارتر أننا لا نجد عنده بحثاً مستفيضاً فى مسألة الخيال ، يمكن موازنته بالدراسة التى قام بها للادراك الحسى ، والتى جعلته جديراً عند المحدثين باسم فيلسوف الادراك الحسى ، بل نجده بالرغم من الإشارات السابقة لا يتعدى فى نتائجه تلك التى وصل إليها المحدثون من ديكارت إلى برجسون ، وهى نتائج لا يظهر فيها بدقة كافية التمييز بين الادراك الحسى والخيال ، مما يترتب عليه كما وضحنا ذلك فى مقال سابق أن تبقى مسألة الحقيقة الخارجية بين المسائل المتعذر حلها . ويخلص سارتر فى كتاب « الخيال » إلى أنه من الضرورى القيام بوصف جديد لفعل الخيال وموضوعاته ، يحاكى فى دقته وتفاصيله الوصف الذى قام به هوسرل للإدراك الحسى . هذا الوصف الجديد هو موضوع كتابه « الخيالى » الذى ظهر شهراً واحداً قبل الهدنة .

نلاحظ أن سارتر فى سبيل توضيح خصائص الخيال ، يعمل من ناحية على مقارنته بغيره من أفعال الشعور ، سواء ما كان بينها أدنى منه أو أسمى فى مراتب الحياة العقلية ، ويعمل من ناحية أخرى على تعيين الكيفية التى تمثل بها الموضوعات للخيال ، أو بتعبير آخر ، يعمل على وصف خروج فعل الخيال عن الذات ، واتصاله بالموضوعات ، وتأثيره فيها ، وتغييره من معالمها ، بحيث تصبح متميزة تميزاً تاما عن الموضوعات الخارجية المحسوسة بالمعنى الدقيق .

وقبل أن نتتبع سارتر فى وصفه هذا يحسن بنا أن نقول كلمة عامة عما يعنيه بالخيال وموضوعاته ، لما كان لموقفه من الطرافة والجدة بالنسبة لمواقف الفلاسفة بهذا الصدد وعلماء النفس .

ثمة شبه إجماع عند الفلاسفة على اعتبار الخيال فعلاً تظهر فى الذهن بمقتضاه نسخ الموضوعات المحسوسة ، ثم ترجع هذه له مرات كما لو كانت ترجع للذهن الموضوعاتُ المحسوسةُ ذاتها . أما سارتر فيعارض هذا أشد المعارضة ، وهو فى معارضته قريب جداً من موقف شائع عند الناس وخاصة بين رجال الفن والنقد الفنى ، وهو أن الخيال يبعدنا أشد البعد عن الحقيقة الواقعية ، وأن موضوعاته غير موجودة على الاطلاق ، تصدر فى الذهن وحده ، عن قدرة الذهن ذاته ،

وإن كان لها من الخصائص ما يجعلها تحاكى موضوعات العالم ، ومن التأثير فى النفس ما يجعلها تفوق تأثير هذه الموضوعات فى النفس .

وإذا كان سارتر كما ذكرنا فى المقال السابق يعرّف الخيال بأنه فعل يقصد الموضوعات المحسوسة من حيث إنها غائبة عنا ، فهو لا شك أقرب لهذا الموقف منه إلى موقف الفلاسفة ، ولا شك أنه يعنى بالخيال تحرراً من الواقع ، وبالخيالى موضوعا لا يختلف فى شىء عن موضوعات القصص والأحلام . ولكن لا شك أيضاً فى أنه يصل فى وصفه إلى نتائج إن كانت متنافرة مع مواقف الفلاسفة ، فهى بعيدة أيضاً عما يصل إليه أو يتصوره عامة الناس . والخيال مركب فى نظره من جملة عوامل تتحد فيما بينها على نحو غريب . ووصفُ سارتر لكل من هذه العوامل لا شك مبالغ فيه ، ولا يتفق تماما مع ما نشعر به فى حياتنا النفسية المعتادة . ويفترض الخيال موضوعات غريبة أيضاً . وأقل ما يمكن أن يقال عن الخيال أن له منطقاً غير منطق انفعالات الشعور التى نعرفها سواء كانت إدراكات حسية أو تصورات أو أحكاماً ، منطقاً يدخلنا فى عالم جديد غريب نعامل فيه الموضوعات معاملة غريبة شاذة ، بقدر ما كانت معاملتنا للأشياء الواقعية عادية خاضعة لمنطق هذه الموضوعات .

ولا شك أخيراً فى أن وصف سارتر إن كان غير متفق مع ما نعرفه فى أنفسنا أو عن الفلاسفة من الخيال ، فهو من ناحية وصف شائق له قيمته ، قيمة فنية أكثر منها علمية ، وله ما يبرره فلسفيًّا من ناحية أخرى ، من حيث إنه جزء لا يتجزأ من فلسفة لا يعرض لها سارتر فى بحر « الخيالى » وإن كان يلمّح لها تلميحاً فى صفحاته الأخيرة .

وسنعرض الآن بإيجاز لمراحل وصفه هذا ، تاركين لفرصة أخرى التكلم عما يرتبط بهذا الوصف من النتائج الخاصة بطبيعة الفن أو بمشكلات الفلسفة العامة .

الخيال والمعرفة

من البديهى أنه لا يمكن لنا تخيل ما نجهله بالمرة ، بل لا بد من أن يكون لدينا عن موضوع ما ، علمٌ معين قبل أن يصبح موضوع خيالنا . ولكن لا بد

من ناحية أخرى أن يكون هـذا العلم بحيث نبنى عليه خيالا ، أو بتعبير آخر بحيث ينتقل الذهن فيه إلى مرحلة يصبح فيها خيالا أو على باب الخيال . وليس من الأمر الهين أن نلمس حالة مثل هذه ، حالةَ انتقال لا يكاد يقف عندها الذهن ولا يكاد يشعر بها ، ويعجز الوصف السيكولوجى عن البلوغ إليها . وربما كنا أسعد حظًّا لو عملنا على مقارنتها بما نعرفه عن أحوال أخرى تماثلها ، وهذا ما يقوم به سارتر فى هذا الصدد عندما يقارن بين العلم الذى يسبق الخيال ويُعِدُّه له ، وبين حالة من يطالع مثلا قصة جديدة ممتعة تملك مشاعره .

نجد أن ما يرويه لنا القصصى من الحوادث ، له علاقة وثيقة بعالم لا يصفه لنا مباشرة ، وإن كان يشير إليه إشارة مستمرة . ويُشْعِرنا المؤلف لا بما يحدث لشخصيات القصة فحسب بل بتطورهم فى عالمهم ، وما يعملون فيه من الأحداث مما يسبب فى هذا العالم من تغييرات طفيفة أو جسيمة . زد على ذلك أن ألفاظ القصة وتعبيراتها تعنى فى الغالب حوادث واقعية لا ممكنات فحسب ، كما هو الأمر فعلا فى ألفاظ وعبارات منشور دورى وما شابه ذلك من الأوراق الرسمية : فلفظة «منزل» مثلا لها دلالة مختلفة إذا ذُكِرَت فى منشور لوزارة الداخلية خاص بأصحاب المنازل وحقوقهم وواجباتهم أمام القانون ، وإذا ذُكِرَتْ فى بحر القصة فى جملة مثل هذه « غادر المنزل فى الساعة العاشرة » . فالاسم يشير فى الحالة الأولى إلى علاقة أو علاقات كثيرة مختلفة ممكنة ، على حين ينطبق معنى الاسم فى الجملة الأخيرة على شىء واقعى ، وإن كنا عاجزين عن إدراكه أو تصوره . ثمة فارقٌ واضح إذن بين العلم الذى ينقل من الاسم إلى دلالته العامة ، والعلم الذى يعطى مباشرة للاسم دلالةً واقعية .

ثم نلاحظ عند قارئ القصة أنه غالباً لا يكتفى بدلالة الاسم ، حتى دلالته الشخصية الواقعية ، فنجد الاسم يمثل له شيئاً معيناً فى قيامه الوجودى . أعنى أنه يلتقى أثناء مطالعته ببعض عبارات تقوم دون غيرها بخاصة محسوسة جزئية . فمثلا عند ما يقرأ « امرأة جميلة » فكأنه يرى بالفعل امرأة جميلة ، وكأن الكلمة المطبوعة رسمٌ يدعو القارئ إلى توقع امرأة جميلة .

هذا شىء عن العلم الذى يسبق الخيال فى نظر سارتر ، أو بتعبير أدق الذى يُعِدّ الفكر فى نظره لتصور الموضوعات تصوراً خياليًّا . ولكنه ينبهنا إلى أن هذا العلم الكامن ، أو على حد تعبير أرسطو هذا العلم «بالقوة» ، ليس مانسميه

بالضبط خيالا ؛ إذ قلما تقوم فى ذهن المطالع المنتبه لقصة صورٌ خيالية على النحو المألوف ، ولا تطرأ له صور الخيال إلا فى الفترات القائمة بين مطالعات القصة . أو عند من يطالع القصة بقليل اهتمام . وأغلب الأمر أننا إذا عمدنا أثناء مطالعتنا إلى تصور ما يحدثنا عنه القصصى تصوراً خياليا ، فلابد لنا من ترك الكتاب جانبا والاسترسال فى الخيال . أما الذى يطالع بانتباه فهو يعلم ما يقع من الحوادث علماً معيناً ، ويقف عند مرحلة معينة من هذا العلم ، ولو أنه قد ينبثق العالم عنده بعد ذلك فى صورة خيال رائع أو حلم بعيد القوة .

وما ذكرناه الآن عن مُطالع القصة ينطبق على حالات أخرى نعرفها ، مثل تلك التى تكون عند ما نطالع جريدة أو عند ما يقص علينا صديق حدثاً وقع له ، أو عند ما نفكر فيما يجب عمله لتأدية مهمة ما . وحياتنا العقلية والعملية تحمل ألوانا من هذا العلم الواقعى الذى يختلف كل الاختلاف عما نجده فى كتب الرياضيين أو الفيزيقيين من ناحية ، وفى منشورات الحكومة وقوانينها من ناحية أخرى . ولكن هذا العلم إن اختلف عن علم كله دلالات جبرية أو منطقية فلم يصبح بعدُ خيالا بالمعنى الدقيق ، بل نحن فيه كما يقول سارتر « على حافة الخيال » أو كما يقول سباير Spaier فى « فجر الخيال » . ولابد إذن من عامل جديد ينتقل بنا إلى التصور الخيالى الصحيح .

العاطفة

ما العامل الجديد ؟ ما الحد الأوسط بين العلم والخيال ؟ يرى سارتر أن ما يجعل من موضوع معلوم فحسب موضوعا حاضراً للذهن بقوته وحيويته دون أن يكون محسوساً ، لهو عامل عاطفى . وليس بالأمر العجيب أن نقرر أن العاطفة تقوم بدور هام فى تصورات الذهن المختلفة وتكسبها حرارة ونشاطاً غير عاديين . ولكن يذهب سارتر إلى أبعد من ذلك فهو يفترض أن العاطفة ذاتها تصور ، لها ما للتصورات الذهنية المختلفة من الاتجاه نحو الموضوعات ومن التعلق بالموضوعات .

نظر علماء النفس حتى السنين الأولى من القرن العشرين إلى العاطفة على أنها هزة داخلية فحسب ، قد تنتابنا أحيانا تحت تأثير تصورات خارجية ، وتنتابنا

فى أغلب الأوقات تحت تأثير عوامل باطنية جسيمة أو غير جسيمة . العاطفة حال فردية داخلية ، إن دلت على شىء فعلى طبيعة الشخص لا على أى موضوع خارج عنه . وقد قامت الفلسفة الألمانية المعاصرة مع هوسرل وشيلر وغيرهما ضد هذا الرأى ، فاعتبرت أن العاطفة من حيث إنها مظهر من مظاهر الشعور تحمل ضرورةً ما للشعور من الخصائص الجوهرية ، أهمها أن كل شعور متعلق بموضوع ما ، وأن هذا التعلق ، أو هذا القصد intentionnalité يتغير حسب أفعال الشعور المختلفة . فالإدراك الحسى إدراك لموضوع محسوس ، والحكم متعلقٌ بموضوع محكوم عليه ، والرغبة بمرغوب فيه ، والإرادة بمراد . ومن ثمَّ فالحب أيضا موجه إلى موضوع محبوب ، والبغض إلى شىء نبغضه . ولا ينحصر بحث الفيلسوف فى التمييز بين أفعال الشعور المختلفة ووصف ما تحمله من الخصائص الجوهرية ، بل عليه أن يصف مع فعل الشعور المقصود ، إدراكا حسيًّا كان أو حكما ، كيفية اتجاهه نحو موضوعاته وخصائص موضوعاته من حيث تعلقها بالشعور ، أى كيف تمثل له وما يظهر له من خصائصها .

عُنِى سارتر بدراسة العاطفة على ضوء المبدأ السابق ، فخصص لها كُتَيِّبا(١) ظهر فى سنة ١٩٣٩ ، سنة واحدة قبل « الخيالى » ووضح فى البحثين أوجه العلاقة بين العاطفة وموضوعاتها ، وضرورة التمييز بين هذه العلاقة وبين المعرفة الجلية المتميزة للموضوعات . فالعاطفة تتطلب أن يمثل موضوعها لا من حيث إنه هذا الموضوع أو ذاك فحسب ، بل من حيث إن الموضوع يؤثر فى الشعور على نحو معين يجعله يحمِّل الموضوع ذاته ألوانا مختلفة من العاطفة يعبِّر عنها بألفاظ كالجميل أو الرشيق ، أو الجذاب أو المخيف . وتبدو لنا علاقة الخيال بالعاطفة وثيقة إذا نظرنا على ضوء ما ذكرناه الآن إلى بعض أحوال خاصة : قد نستيقظ فى الصباح وبنا حاجة قوية لشىء لا يمكن أن نقول ما هو بالضبط : هل هذه الحاجة جوع أم ظمأ أم رغبة فى رؤية شخص ؟ غير أن هذا العجز لا يمنعنا من توجيه ذهننا توجيها خاصا . وبينما نحن شاعرون أن ما نرمى إليه ليس أمامنا ولا يمكننا الحصول عليه بالفعل ، نجد أننا نعمل على الحصول عليه بطريقة أخرى تحاكى وتنافى فى الوقت ذاته طريقة الحصول على موضوعات

---

(١) *Esquisse d'une Théorie des Emotions.*

الحس الخارجية . يقوم إذن فى مثل هذه الرغبات مجهودٌ نحو الحصول على موضوع خارجى ، مجهودٌ يقوى ويشتد بقدر ما يضعف أملنا فى إدراكه على النحو الواجب ، أى فى إدراكه إدراكا حسيًّا ، ويتضمن إذن هذا المجهود لاستحضار الموضوع غياب الموضوع . وإن فكّرنا فيما عرّفنا به الخيال من أنه حضور موضوع مع غيابه وفى غيابه ، تحقّق لنا أن العاطفة من حيث ذاتها ومن حيث هذه القوة الداخلية التى تحملها وتجسمها وهى الرغبة ، هى دون شك عامل أساسى فى قيام خيال فى الذهن .

والأمر بديهى إذا فكرنا فى أن موضوعات الإدراك الحسى عند حضورها ، بالفعل أمامنا ، كثيراً ما تكتسب ألواناً عاطفية تبقى ملازمة لها فى الذهن بعد غيابها عن حواسنا ، حتى إن عودة العاطفة وحدها تبدو بشيرة بعودة الموضوع ، بل تحمل الموضوع ذاته دون أن يتبينه الشعور فى وضوح تام . وإذا كان رجوع العاطفة الأصلية على نحو لا يعوق انتباهنا لما فى النفس من أحوال ولما يظهر فيها من موضوعات ، انكشف لنا الموضوع الغائب ودخلنا من ثم فى مرحلة الخيال ، بالرغم من أن ما يحضر لنا من الموضوعات فى هذه الحالة ليس من الوضوح بحيث تتميز عناصره وتنفصل أجزاؤه أمام الذهن ، أو بحيث يتميز خيال معين عن غيره من الخيالات . وقد يبقى الكثيرون فى هذه المرحلة الخيالية تتحد فيها تصوراتهم بعواطفهم ، دون أن يشعروا بشبه ما بين موضوعات خيالهم وبين موضوعات العالم الواقعى التى تظهر لهم وللآخرين على حد سواء . ويقول ستندهال فى هذا المعنى : « أرى صوراً وأتذكر تأثيرها فى قلبى ، أما عن عللها وشكلها فلا أعرف شيئاً . أرى سلسلة من الصور دقيقة جدًّا ، ولكن لا شكل لها غير ما ظهر لى ، بل لست أرى هذا الشكل إلا عن طريق ما أحدثت ذكراه من الآثار فى نفسى . »

منطق الخيال

إن أعملنا التفكير فى الخيال وفى كيفية مثول موضوعاته فى الفكر ظهر كأنه يتضمن تناقضاً صريحاً : يبدو من ناحية أن موضوعاته لا تحمل إلا خصائص حسية ، ويتضح من ناحية أخرى أن ما نتخيله لا ندركه الآن بحواسنا . بديهى

أن موضوعاً ما إما حاضر أو غائب ، ولكن الموضوع الخيالى حاضر غائب ، ماثل أمام الذهن بالرغم من غيابه بل فى غيابه . إن أعملنا البحث فى معنى هذا التناقض وجدنا أنه يرجع إلى ما ذكرنا عن العاملين السابقين وإلى التفاوت القائم بينهما : عامل معرفة وعامل عاطفة ، ما يرمى إليه الذهن وهو على «حافة الخيال» ، ثم ما يحضر له بمقتضى الرغبة والعاطفة .

لنوضح ما نقوله هنا بمثالين أو ثلاثة : بناء « البانتيون » لمن يدركه بالحس مركب من عدة أجزاء لا يمكن الإنسان أن يدركها دفعة واحدة ، وتتطلب لا لحظات زمنية مختلفة فحسب بل تعدداً لمواقف المتفرج بالنسبة للبناء . وللبناء خصائص حسية كاللون مثلا تتطلب هى أيضاً تعدداً لمواقف المدرك ، وتحمل فى ذاتها اختلافاً بحسب تغير موقفه : فمثلا إن كانت أعمدة مقدم البناء تبدو للداخل ذات لون رمادى قاتم فهى تظهر له من الخلف رمادية ضاربة إلى البياض وهكذا . . . أما ما يمثل للخيال من البناء فغير هذا كله . نعم أريد تصور البناء المذكور كما أدركتُ ، لكن شيئاً من تفاصيل ما أدركته لا يمثل لى فى الخيال . نعم ، قد أتصور مقدم البناء وأعمدته ، ولكنى لا أعرف عدد هذه ، ولا أستطيع تقدير المسافة بين كل منها والآخر ، بل لا أستطيع أن أؤكد أن بينها مسافة . أما عن اللون فهو رمادى متجانس لا أميز فيه بين لون الأعمدة من الأمام ولونها من الخلف . ثم لا تتطلب العناصر المذكورة أفعالا خيالية متميزة ، كما تطلبت فيما سبق إدراكات حسية مختلفة ، بل المقدم والأعمدة والبناء كله خارجه وداخله ، الخلف والجوانب ، كل هذا يظهر للذهن خالياً من التفاصيل ، فقيراً فى المميزات ، ولكنه يظهر دفعة واحدة وكُلاً متكاملاً .

أريد أن أتخيل صديقى فلان كما هو فى منزله الريفى ، ولكنى ألقاه فى ذهنى ، لا فى الريف ، ولا فى المدينة كما رأيته فيها منذ أسبوع ، ولا فى غرفته الخاصة ، إنما ألقاه جامعاً لما كان عليه فى الأمكنة الثلاثة ، حزيناً كما كان منذ أسبوع يتنزه فى حديقته الريفية ، وهو لابس رداءه الداخلى . هنالك إذن بين ما أريد تصوره فى الخيال وبين ما أتصوره بالفعل تناقض يفسره التفاوت بين علمى بالموضوع قبل الخيال وحضور الموضوع فى الخيال .

وقد تذهب غرابة الخيال إلى أبعد من هذا ؛ فكثيراً ما نتخيل شخصاً لا نستطيع تعرفه مباشرة : هل هو الموظف الكبير الذى قابلناه أمس بمكتبه

لأول مرة ؟ أم هل هو رجل البوليس الذى أوقف سيارتنا فى الطريق ؟ ألاحظ بعـد التفكير أن الموضوع الخيالى مزيج من الاثنين . وكثيراً ما نرغب تصور الأول فيتمثل لنا الثانى ، دون أن نرى لذلك سبباً ، وإن كان الأمر يرجع فى الحقيقة لعوامل عاطفية لا تنتبه لها فى حينها .

يتضح إذن من هـذه الأمثلة ومن غيرها أن الخيال يجمع على نحو لا يفهمه العقل بين خصائص منفصلة فى الحس لا يمكن إدراكها دفعة واحدة . فإن نظرنا إلى قمع الخياطة استرعى نظرنا قطاع من جسمه الأسطوانى أوباطنه المقعر ، ولـكن يتمثل القمع فى الخيال أسطوانيًا فى الظاهر والباطن ، عميق القاع فى الوقت نفسه .

ولـكن بين ما يعرض له سارتر مثالان أو ثلاثة على الأقل يذهب به تحليله لها إلى مقارنة موضوعات الخيال بموضوعات الفكر البدائى الذى كان وما زال يؤمن بقوى سحرية قائمة فى العالم . ونـكاد نلمس فى هذه الأمثلة أدلة قوية على أن العقل الإنسانى فى ناحية من نواحيه على الأقل لا يختلف عن العقل البدائى ولا يمتاز عليه . فإن كنا ننظر للوحة زيتية لمصور شهير تمثل رجلا عاش منذ قرون ، فسيتجه ذهننا أحياناً من الصورة إلى أنموذجها الشخصى ، وقد ننسى إذ ذاك أن هـذا الوجه وتقاسيمه وما ينبعث منها من قوة عجيبة ، وأن هاتين العينين اللتين تصوبان لنا نظرة حادة ، قد ننسى أن كل هذا يخص جسما قد ووری التراب منذ أمد بعيد ، فيبدو لنا أن أنموذج الصورة أمامنا رجل « يَزُورُ » صورته ويملؤها حيوية . ويذكرنا هذا الموقف بما كان يعمله أعداء المسيحية ، فى القرون الأولى من انتشارها ، من ضروب الشعوذة سواء بتدنيس الصور المقدسة أو بتكسير الأصنام ، ويذكرنا أيضاً بما يقوم به بعض قبائل الهنود الأمريكيين فى سبيل نجاح الصيد من أعمال غريبة كوخز صور الحيوانات المتوحشـة على جدران أكواخهم .

ويحدثنا سـارتر عن مسرح فى باريس يظهر فيه مقلد عجيب للمغنى والمهرج الفرنسى الشهير موريس شفالييه يخيل للمتفرجين عند رؤيته أنهم أمام شفالييه ذاته ، كأنه يستحضر شفالييه ، كما يستحضر السحرة أرواح الغائبين ، وكما لو كانت شخصية شفالييه قد «زارت» المقلد دقائق قليلة . موقف غريب للخيال لا يختلف كثيراً عن موقف البدائى الذى يعمد فى بعض الحفـلات إلى ضروب عدة من التقليد ، بغية أن يستحضر أرواح حماة القبيلة .

هذا شيء من طرائف الخيال يدلنا على أنه يختلف اختلافاً واضحاً عن أفعال الشعور الأخرى وعن الإدراك الحسى والتصورات العقلية ، له منطقه ، منطق أشبه بقواعد السحر والشعوذة منه بقواعد المنطق الذى يخضع له العقل السليم ، وبقواعد المنطق الواقعى الذى تخضع له موضوعات الإدراك الحسى . إن فعل الخيال على قول سارتر « رقية ينـادى بها الذهن موضوعاته فتنقاد له كما تنقاد الصبية لَعَبُها . »

نجيب بلدى

بين جيتي ونابليون

قال المتنبي فى القصيدة التى ودع بها ابن العميد بعد أن أضافه فى أرّجان :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

وكما تفضلت الأيام بالجمع بين شاعر العربية الكبير أبى الطيب المتنبى والوزير الكاتب الأديب ابن العميد ، فكذلك تفضلت مرة أخرى — على بخلها وشحها — فجمعت بين جيتى كبير شعراء الألمان والشخصية الشامخة المنيفة فى أدبهم ، ونابليون بونابرت أعظم عبقرية عملية عرفتها العصور الحديثة فى تقدير الكثيرين . ولم يسفر تلاقى هذين الرجلين العظيمين عن نتائج ذات بال ، ولم يأت بخير يذكر ، ولكن مجرد تماسّ هذين العالمين الضخمين من عوالم الروح : عالم الفكر الواسع ودنيا الخيال الرائع ، وعالم الواقع الحافل ودنيا الأعمال الجليلة ، مما يسترعى النظر ، ويثير الفكر ، ويحرك الخيال ، بل هو حادث لا تسخو به الأقدار إلا فى الفلتات النادرة ، وربما لم يكن له نظير منذ تلاقى الإسكندر وديوجانس .

كان جيتى حينذاك يهدف للستين وقد علت مكانته الأدبية وسارت شهرته مسير الشمس ، وكان نابليون فى الأربعين من عمره وقد بلغ ذروة القوة والنفوذ . وكان جيتى على شهرته وسمو مكانته الأدبية أحد أفراد شعب مغلوب على أمره ، مصدوع الوحدة ، ممزق الأوصال ، ولكن مجده الأدبى كان ثابت الدعائم موطد الأساس ، وكان نابليون فى ظاهر الأمر سيد الموقف ، ورجل الساعة ، قد انتصرت جيوشه المظفرة على الألمان ، وأذاقتهم ذل الهزيمة ، واستباحت حماهم ، ولكن برغم ذلك المظهر الخلاب ، والجاه العريض ، والنفوذ المترامى ، كان يساور نفسه قلق داخلى ، وكان يعلم فى أعماق سريرته أن إمبراطوريته قائمة على كثبان من الرمال ، وأنه يبتنى القلاع فى الهواء ، وأن القدر قد يستقبله بمعضلات

يعجزه علاجها . ولم يكن نابليون بحكم طبيعته العملية كثير الإعجاب برجال الأدب ، وكان يعرف صلفهم ، وفرط إعجابهم بأنفسهم . وقد كتب مرة إلى أخيه جوزيف ملك روما : « أنت تكثر من الاجتماع برجال الأدب والاطلاع ، وهم كثيرو الدلال ، ويجب على الإنسان ألا يحلم بأن يتخذ منهم زوجة أو وزيراً » . ولكنه كان فى موقف يستدعى الاستعانة برجال الأدب لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، وهكذا يستذل الحرص على الدنيا أعناق الرجال ولو كانوا من طراز نابليون . وكان جيتي يحترم الجندية ويكبر من شأن الرجال العمليين ، ولم يكن جيتي بحكم عمله فى ويمار من المنصرفين عن الدنيا ، المنقطعين لحياة الفكر والتأمل ، ولكنه برغم ذلك كان رجل دراسة واطلاع وتروية وتفكير ، فهو يحترم رجل العمل ويعتبره أسمى منه شأناً . وقد دفع المتنبي اعتزازه بنفسه الى أن يقول :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـــــظ كلانا رب المعانى الدقاق

أما جيتي فكان يرى أن شاعر المجد — وهو هنا نابليون — أجل شأنا من شاعر اللفظ ، وأن مكانة السيف أجل وأخطر من مكانة القلم .

وقبل أن أذكر رواية جيتي عن هذا اللقاء سأشير إلى بعض الملابسات الخاصة التى أحاطت به ، وسيعيننا ذلك على تبين حقيقته وتفسير غوامضه .

كان نابليون فى تلك الفترة يلقى الشدائد من مقاومة الإسبانيين له وتمردهم عليه ، وقد اضطره ذلك إلى الاحتفاظ بجيش جرار فى إسبانيا ، وكانت مقاومة الإنجليز له تزداد عنفاً واتساعا وإصراراً وعناداً ، وقد اجتذبوا الأتراك إلى صفوفهم ، وبدأت تنتقض عليه هولندة وإيطاليا وسويسرة ، وشرع النمساويون يستأنفون استعدادهم الحربى . وكان نابليون يشعر بأنه فى حاجة إلى الإمعان فى استرضاء قيصر الروسيا — الإسكندر الأول — والتقرب منه وتقوية اتفاق تلست ، وكان يرمى إلى هدفين : إخافة النمسا ، والاستيثاق من ولاء الإسكندر ، وقد عجم عوده فى تلست فوجده صلباً لا تلين قناته ، وكان يكفيه منه أن يلتزم الحياد فلا ينحاز إلى صفوف الأعداء . ولكن هل يصارحه بهذا الغرض المتواضع والمطلب اليسير ؟

استدعى نابليون تاليران قبل ذهابه إلى إرفرت — مسرح هذا اللقاء التاريخى — وقال له :

« إعقد لى معاهدة ترضى القيصر الإسكندر وتكون موجهة قبل كل شئ ضد انجلترا ، وعليك أن تذهب إلى إرفرت قبل قدومى بيوم أو بيومين ، وأن تزور القيصر مباشرة ، وعليك بوجه عام أن تكثر من زيارته أثناء وجودنا بإرفرت ، وأنت تعرفه معرفة جيدة ، وتفهم كيف تعامله ، وأطِلْ معه الحديث عن تحالفنا ، وكيف يمكن أن نلمح فيه أصبع العناية التى تعمل لإنقاذ الإنسانية . واجعله يرى أننا نحن الاثنين — الإسكندر وأنا — قد أعدّنا القدر لحفظ النظام فى أوربا . وعليك كذلك أن تتحدث إليه عن الرأى العام وكيف نوجهه حتى يرى أن اتفاقنا لا يثير الخوف بل يخففه ويلطفه . ثم قل شيئاً عن تحسين أحوال القارة عامة وعن بركات السلم ، وأشر فى خلال ذلك إلى اليونانيين الذين يتطلعون إلينا لتحريرهم . فهذه أفكار إنسانية يجب — كما تعلم — أن يسمعها . وأنا أفوض إليك الأمر ياتاليران تفويضاً تامًّا فقم به خير قيام . »

وأراد نابليون أن يظهر فى إرفرت بمظهر أخاذ الرونق بالغ أقصى حدود الفخامة والروعة ، وكان لا يفتأ يقول لمستشاريه : « يجب أن تكون رحلتى لماعة ألقة ، وأن أقيم فى كل مساء بإرفرت حفلة تمثيلية . وإنى أريد أن أبهر نظر ألمانيا وأخلب لبها بالروعة والجلال والفخامة . »

وجمع حوله قواده المعروفين الذين اشتهر أمرهم بين الألمان ، وسائر دعائم دولته وحملة ألويته . وكان يعتقد أنه متى وفق فى إحداث التأثير اللازم فإنه يستطيع بعد ذلك أن يفعل بأسبانيا ما يريد ، ثم يفرغ لمجاهدة الإنجليز وكسر شوكتهم .

وقد دخل نابليون إرفرت يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ فى الساعة العاشرة صباحا ، فاستقبلته المدينة استقبالا فخما ، ووقفت الجموع المتراصة فى الشوارع والطرقات وفى الميدان الذى كان به القصر المعد لنزوله ، وكان كل إنسان يريد أن يملأ عينيه ما وسعه الإمكان من هذا الرجل الذى ثلّ العروش ، ولعب بالتيجان ، وقهر الجبابرة ، ودوخ الجيوش ، والذى أصبح فى يده مصير أوربا وخيرها وشرها وسعدها وشقاؤها .

ولم يعجب هذا المنظر داهية السياسية الباقعة تاليران فكتب عنه فى مذكراته يقول : « لم أر فى إرفرت كيف يتملق الدهماء والأوشاب رجلَ القوة وصاحب السطوة ويزحفون أمامه فى التراب فحسب ، وإنما رأيت كذلك كيف ينزل الأمراء الذين لا يزالون على عروشهم عن كبريائهم ، ويسفّون ويهبطون إلى الملق الرخيص صوناً لعرشهم ، وإبقاء على سلطانهم ، وكيف يقبّلون اليد التى قد تمتد فى أى يوم من الأيام إلى تحطيمهم والقضاء عليهم . »

ومهما يكن رأى السياسى المتشكك الساخر تاليران ، فإن المنظر فى إرفرت كان باهراً بديعاً ؛ فقد اجتمع هناك إمبراطور فرنسا وقيصر روسيا وأربعة ملوك وأمراء مقاطعات الراين وكثير من الدوقات والكونتات ، وكان الجميع يرفلون فى وشى الدمقس ، ويخطرون فى أجمل البرود ، وقد ازدانت صدورهم بالأوسمة اللامعة ، وحفلت المدينة بالجند فى حللهم المدبجة ، وستراتهم البراقة المزخرفة ، وانتشر رجال الحرس الإمبراطورى وفرق الفرسان والخيالة ، وفتح مسرح إرفرت ، وكان يقوم الممثل المشهور تالما وفرقته بتمثيل أجمل المآسى الفرنسية فى حضرة العواهل والملوك والأمراء ، وكان لا يرى فى صحن المسرح سوى الأوسمة والنجوم والنياشين ، وقد وقفت على باب المسرح فرقة من الحرس الملوكى ، وكلما قدم أحد الإمبراطورين يقرع الطبل ثلاث مرات ، وكلما قدم أحد الملوك يكتفى بقرع الطبل مرتين . وقد اتفق أن حضر ملك وتبرج فى مركبة مطهمة فارهة ، فغر الحارس مظهره فأمر بدق الطبل ثلاث مرات ، فصاح به الضابط المشرف غاضباً : « اسكت فليس هذا سوى ملك ! » .

ولم يكن جيتى راغباً فى الذهاب إلى إرفرت ؛ فقد بلغه قبل ذهابه إليها بأيام نبأ وفاة والدته ، ولكن دوق ويمار الذى أظلت جيتى سماؤه وحاطه برعايته ، استدعاه . ورأى جيتى من واجبه أن يكون إلى جانبه فى أزمته الحازبة وظروفه الحرجة ، وقد وصل إلى إرفرت يوم ٢٩ سبتمبر وحضر فى المساء تمثيل رواية « أندروماك » .

وقال نابليون لتاليران بعد اجتماعه الأول بالقيصر فى إرفرت : كل شئ على ما يرام ، ولا يجب أن نتعجل ، ولا تنس يا تاليران أن التأخير فى مصلحتنا ، فتمهل جهد الطاقة ، ويجب أن تفتن عظمتى القيصر الإسكندر وتذهله ، وستسير المفاوضات بعد ذلك فى طريق سهل ممهد . وكان نابليون يؤمل أنه ربما استطاع

أن يستميل القيصر ويحمله على مؤازرته فى إرهاب النمسا . ولـكن مثل هذا الطلب المهين اللين لا يعبر عنه اللفظ ، وإنما يمكن تحقيقه بالمشاهد البارعة ، والمرائى الوضاءة فى إرفرت . وكلما طال العرض وامتد الوقت تكاثرت مخاوف النمساويين الذين أُبعدوا باحتقار مهين عن حفلات إرفرت ، واعتقدوا أن هناك محالفة جديدة بين الإسكندر ونابليون . وكان لا بد من إنفاق الوقت وتقطيعه ، وتحاشى نابليون فى الأيام الأولى الخوض فى المناقشات السياسية ، وكان يطيل مدة تناوله فطوره ، ويستقبل خلال ذلك مختلف الأشخاص البارزين ويجاذبهم الحديث فى عناية واهتمام .

وفى يوم ٢ أكتوبر استدعى جيتى للاجتماع بالإمبراطور نابليون . وقد روى جيتى عن هذا اللقاء ما يأتى : « دعيت إلى المثول بين يدى الإمبراطور حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا ، وطلب إلى خادم بولندى قوى البنية أن أنتظر ، ثم دعيت إلى الجناح الذى يشغله الإمبراطور ، وفى ذلك الوقت استأذن دارى وسمح له بالدخول مباشرة ، وكان علىَّ من أجل ذلك أن أنتظر ، ثم أذن لى بالدخول مرة أخرى ، فدخلت ورأيت الإمبراطور جالسا يتناول طعام الفطور على مائدة كبيرة مستديرة ، وكان تاليران واقفا إلى يمينه على مسافة قريبة من المائدة ، وكان دارى واقفا قريبا منه إلى اليسار ، وخلفه برتييه وسافارى ، فأشار إلىَّ الإمبراطور بالاقتراب فظللت واقفاً على مسافة مناسبة منه ، وبعد أن أثبت فىَّ نظره قال : « أنت رجل » فانحنيت شاكراً . فسألنى : « كم عمرك ! » فأجبته: «ستون سنة» فقال: «أنت لا تزال محتفظاً بوثاقة بنيتك». وسألنى: « هل كتبت مآسى ؟ » فأعطيته المعلومات الكافية فى إيجاز . وهنا تدخل دارى فى الحديث ليتملق الألمان بمعرفته لأدبهم ، وقد تحدث عنى كحديث أصدقائى فى برلين ، وشرع نابليون يتحدث عن ورتر ورواية محمد والدراما الفرنسية ، ثم سألنى هل أنت متزوج وهل لك أولاد ؟ وسألنى عن بعض تفصيلات أخرى شخصية ، ثم سألنى عن علاقتى بالبيت الحاكم وعن الدوقة آمالى وعن الأمير والأميرة وما إلى ذلك وأجبته الجواب الطبيعى ، وبدا لى أنه قد سر بحديثى » . وفيما يختص بحديثه عن ورتر قال جيتى : « بعد أن أبدى ملاحظات شديدة صائبة أشار إلى فقرات منها واستفسرنى لماذا كتبتها هكذا ، وإن ذلك مخالف للطبيعة ، وبسط رأيه فى وضوح تام ، وأصغيت إليه فى هدوء وأجبته مبتسما إنى لم أسمع هذا الاعتراض

من قبل ولكنى أراه حقا . والفقرات التى أشار اليها فى الواقع غير طبيعية ، ولكن ربما يتسامح مع الشاعر إذا احتال حيلة تمكنه من الوصول إلى غرضه بأيسر السبل ، ثم عاد إلى موضوع الدراما وأبدى عدم ارتياحه للأجزاء التى يلعب فيها القدر دورا » .

واستمر اجتماعهما حوالى ساعة ، ويقال إنه لما برح جيتى الحجرة التفت نابليون إلى برتييه ودارى وكرر قوله «هذا رجل» . ولم ينس نابليون فى خلال الحديث أن يقول له : « أظن يا مسيو جيتى أنك لا ترى بأساً فى حضور تمثيل المآسى الفرنسية أثناء وجودك هنا» ، وأعد له تاليران فى المساء محلا مناسبا خلف الصف الأول حيث كان يجلس حملة التيجان وعلية الأمراء

وتختلف رواية تاليران لهذا اللقاء الأول عن رواية جيتى ، ولم يرد بها ذكر لمسألة « هـذا رجل » التى أكثر من ترديدها الألمان مستدلين بها على قوة شخصية جيتى وفراسة نابليون وألمعيته . وتاليران يقول : « فى ذات صباح تناول الإمبراطور قائمة الأجانب الذين قدموا ووقع على اسم جيتى ، فأصدر أمرا باستدعائه . فلما دخل جيتى دعاه الإمبراطور قائلا : « يسرنى أن أراك يا مسيو جيتى » . فأجابه جيتى : « يدهشنى أن جلالتكم وأنتم مسافرون تجدون متسعاً من الوقت للالتفات إلى هذه الأمور الصغيرة» . وقد روى جيتى أن تاليران انسحب قبيل انتهاء الحديث . وربما يرجح هذا الرواية القائلة إن قول نابليون « هـذا رجل » كان فى خاتمة الحديث لا فى أوله . ومن الغريب أنها لم ترد كذلك فى رواية ولهلم فون همبولدت ، وقد أفضى إليه جيتى بما دار من الحديث بينه وبين نابليون عقب انصرافه من حضرته . ويرى ورنر هيجمان — فى كتابه القيم عن نابليون — أن نيتشه وجندلف وإميل لدفج قد حمّلوا هذه الكلمة أكثر مما تحتمل ، وتأولوها تأويلا بعيدا ، وإذا كانت قد قيلت حقًّا فهى ليست أكثر من قولنا « هذا رجل طيب » أو — إذا أردنا المداعبة فى الثناء — «هذا رجل شقى» أو «هذا عفريت !» ويرى بعض الخبثاء أن نابليون قال هذه الكلمة قبل أن يولد له ولى عهد بعامين ، وكان حينذاك حريصاً على أن ينفى عن نفسه تهمة ضعف الرجولة !

وخرج جيتى من لدن نابليون فرحا مسرورا ، فكتب إلى كوتا مباشرة يقول: « يسرنى أن أقرر أنه لا شئ أجل وأسمى أو أبعث على الرضا والارتياح

يمكن أن يحصل لى أكثر من المثول بين يدى إمبراطور الفرنسيين . وبدون أن أذكر تفصيلات ما دار بيننا من الحديث أستطيع أن أقول إن الإمبراطور قد تلقانى بحفاوة لم أحظ بمثلها من أى أمير ، وكأنه كان يعطينى ما أستحق إذا اجترأت على أن أقول ما فى نفسى » .

وبعد ذلك بأيام قلائل دخل نابليون ويمار وأقيمت له احتفالات باهرة ، ومثِّلت على مسرحها رواية « موت قيصر » وقام بتمثيل دور بروتس الممثل تالما ، وفى أثناء حفلة الرقص تحدث الإمبراطور طويلا إلى جيتى وويلاند الناقد الألمانى المعروف ، وعرض نابليون للأدب القديم والحديث ، ولمس موضوع شكسبير لمساً يسيراً ، ولم يكن يميل إلى أدبه ، وقد قال لجيتى: « يدهشنى أن رجلا راجح العقل مثلك لا يميل إلى أصحاب الآراء الحاسمة والألوان الواضحة » . ولم يرد جيتى على ذلك ، واسترسل الإمبراطور بعد ذلك فى الحديث عن المأساة وحث جيتى فى النهاية على أن يكتب مأساة عن « موت قيصر » يكشف فيها عن الخطط العظيمة التى كان يريد قيصر تنفيذها لو مد فى عمره ، واقترح على جيتى أن يصحبه إلى باريس ، وذكر له أن مجال المشاهدة بها أوسع ، وأنه سيجد هناك مادة عظيمة لخلقه الشعرى .

ولم يكن جيتى قد رأى عاصمة كبيرة مثل باريز ولندن ، وكان فى دعوة نابليون له ما يغريه بقبولها . ويروى المستشار فون ميللر أن جيتى سأله عن النفقات اللازمة لهذه الرحلة ، وعن العادات المتبعة فى باريز ، ولكن مشقة مثل هذه الرحلة — فى تلك الأيام الخالية — وسنه المتقدمة حالتا دون الاستجابة لهذه الرغبة .

وفى يوم ١٤ أكتوبر تلقى هو وويلاند الإنعام عليهما بوسام الشرف الفرنسى ، وبرح الإمبراطور والقيصر إرفرت .

وقد التزم جيتى الصمت التام بخصوص ما دار بينه وبين نابليون . ولما سجل المحادثة بعد ذلك بأعوام طويلة سجلها موجزة ، وكان كلما سئل عن الفقرات الواردة فى ورتر التى أشار إليها نابليون وزعم أنها مناقضة للطبيعة الانسانية أجاب إجابة ماكرة عابثة ، وطلب إلى السائل أن يستعمل ذكاءه ، ويجرب براعته ، فى الكشف عن هذه الفقرات ، ولم يكشف النقاب عن هذا السر البائع حتى لصاحبه وصفيه إكرمان . وكان يروق جيتى فى شيخوخته أن يحيط نفسه بالخفاء

والغموض ، ويجد متعة فى الإشراف على المعجبين به وهم يحاولون حل ألغازه وجلاء مسأتيره . وقد رفع الغطاء عن حقيقة المسألة المستشار فون ميلر ، والنقد الذى وجهه نابليون إلى ورتر هو نفسه النقد الذى أثاره هردر حينما راجع ورتر ، ومضمونه أن حزن ورتر الذى تأدى به إلى الانتحار لا يبدو فى القصة أنه منبعث من الحب الخائب وحده ، وإنما قد اشترك معه الإخفاق فى الطموح . وقد ذهب هردر إلى أن هذا عيب فنى ، وظن نابليون أن ذلك مخالف للطبيعة الإنسانية ، وقد وافق جيتى الرجلين على ما ذهبا إليه . ويرى لويز مترجم حياة جيتى المعروف أن الثلاثة لم يصيبوا مقطع الحق ، فإن ورتر كان يشقى من الطموح الخائب المعطل وكذلك من الإخفاق فى الحب ، وورتر صورة منتزعة من الواقع ، وقد صوّره جيتى على مثال المدعو جيروسلم الذى كان يألم من الطموح المخفق ومن الحب الخائب ، وقد نقل جيتى ما رآه فى عالم الواقع إلى عالم الفن . وأنا أشايع لويز على هذا الرأى ، وهو يرينا القيمة الحقيقية للنقد فى بعض الأوقات ؛ فهنا ثلاثة من علية الرجال ندّ عنهم الحق ، وأخطأهم التوفيق فى النقد .

ويزعم كتاب الألمان أن جيتى ترك فى نفس نابليون أثراً عميقاً . وأرجح أنهم يبالغون فى ذلك ؛ فقد استدعاه نابليون نزولا على حكم الضرورات السياسية التى كان نابليون يجيد معرفتها . ونابليون على ما يظهر قد نسى الشاعر الكبير بعد ذلك نسياناً يكاد يكون تاما ، ولم يحرص على استدراجه إلى باريز كما حرص فردريك الأكبر على اجتذاب فولتير إلى برلين . وفى مايو سنة ١٨١٢ — قبل غزو روسيا — جمع نابليون حوله الأمراء الألمان فى مدينة درسدن ، وحضر للاجتماع به من برلين ملك بروسيا فردريك وليم وجاء من فينا الإمبراطور فرانز ، وكان الاحتفال باهراً مشرقاً ، وحضر هناك شارل أجطس مع جيتى ، ولكن نابليون لم يكن فى حاجة إليه هذه المرة ، فلم يجتمع به ولم يجاذبه الحديث . وفى عودته من روسيا خائباً مدحوراً مرت به العربة بويمار ، فلما أخرج رأسه من المركبة وسأل : «أين نحن ؟» وقيل له : «فى ويمار يا سيدى» قال : «كيف حال الدوقة ؟ وكيف حال الهر جيتى ؟» ولعله قال ذلك ليثبت لمن معه معرفته المحلية لويمار كما يقول السائح الأمريكى لزوجته إذا مر بفرانكفورت : «هذه مدينة فرانكفورت المشهورة بالمقانق !» وقد أقام نابليون فى سنت هيلانة سنوات وكان الملل يجعله يتحدث عن أشياء كثيرة ويكرر ذكرها ، ومع ذلك لم يذكر جيتى !

أما جيتى فكان شديد الإعجاب بنابليون كثير التحدث عنه ، وكان مزهوا بالوسام الذى أنعم به عليه نابليون ؛ ففى سنة ١٨٠٩ كتب وليم فون همبولدت إلى زوجته يقول : « لا يظهر جيتى إلا حاملا وسام الشرف الفرنسى ، وهو يقول فى حديثه عن الشخص الذى حباه به «إمبراطورى» . ولما اضطر إلى أن يخلع هذا الوسام بعد هزيمة نابليون فى ليبزج سعى فى الحصول على وسام من الحكومة النمساوية ليحمله بدلا من الوسام الفرنسى! » ، وهو مظهر ضعف فى هذا الرجل العظيم يؤسفنى أن أقرره . وقد كان فى جيتى تعلق غريب بالرسميات ، وحرص شديد على ترضى أصحاب السلطان . وقصته مع بيتهوفن ذائعة معروفة لا ينقض حقيقتها الدفاع المتهافت الذى رأى لويز كاتب سيرته ومؤرخ حياته أن يلزم به نفسه إلزاماً ليس له ما يسوغه ؛ فإن علينا أن نفهم الناس كما هم لا كما يجب أن يكونوا . والحياة أعرف منا بأبنائها ؛ فهى تخلع عليهم ما تشاء من الصفات والمواهب ، وتجردهم مما تشاء لحكمة قد نجهلها . وقد ذهب مرة لزيارة جيتى لفيف من صغار الضباط الناشئين ، فتلقاهم بحفاوة بالغة كادت تسف إلى الملق والعبودية . ولما تفضل بزيارته ملك باڤاريا كاد يجن من نشوة الفرح حتى قال : « يلزم الإنسان مجهود لكى يحتفظ بتوازنه ولا يأخذه الدوار» . ولم يكن هذا الرجل سوى الملك لويز المعروف بالشذوذ وغرابة الأطوار ، والذى كان دريئة لسخرية الشاعر هينى . وقد تلقى الملك لويز هذا عرشه من فتات مائدة نابليون ، فليس كثيراً على جيتى الذى كان يفخر بتنزله إلى زيارته أن يفرط فى الإعجاب بنابليون ويمعن فى الولاء له وهو قاهر بلاده وسالب حريتها . والواقع أن جيتى كان فى حاجة إلى جرعة من كبرياء المتنبى واعتزازه بنفسه تلقاء أصحاب السلطان وحملة التيجان ، وقد صحبهم وكاد يفنى فيهم . أما المتنبى فقد قال بعد صحبته لهم فى شىء كثير من المرارة والغضب :

صحبت ملوك الأرض مغتبطاً بهم　　　وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

على أدهم

الملكة شجرة الدر (1)

٨

كانت تولية شجرة الدر الملك حركة جريئة ولكن خطرة فى نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ما عُرف عن الملكة الجديدة من أصالة فى الرأى ، وقوة فى الخلال ، ومقدرة فى تدبير الشئون ، وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات ، وما أحرزته من نجاح فى إجلاء الفرنج ، فان فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء فى مصر والشام لم يَرُقْ لهم أن يستظلوا بلواء امرأة ، وسرعان ماظهرت بوادر الانتقاض الأولى فى الشام حيث أبى نائب السلطنة فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبى يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر . وكان لهذه الأنباء فى بلاط القاهرة أعمق صدى ، فجدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك ، وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام .

ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف وبضعفها كامرأة ، ورأت أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة ، وتدعم عصمتها وهيبتها كامرأة ، وتم هذا الزواج بالفعل فى ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ . ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها فى تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين . فعندئذ رأت شجرة الدر أن تُقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ؛ فاتفقت مع الأمراء المماليك على أن تخلع نفسها ، وأن يتولى العرش

---

(1) الكاتب المصرى عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) ، عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك . ونفذ هذا المشروع فى نهاية ربيع الثانى ، وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ، ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى المماليك فوق ذلك إرضاء لبنى أيوب وتهدئة لثورتهم ، أن يضموا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل فى نحو السادسة ، وأخذت له البيعة فى اليوم الثالث من جمادى الأولى . وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتى : « رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ ثائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بنى أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول عرش مصر على اضطرامها ، وسيّر الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من المماليك . فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاى فى قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة ، وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨) . ولكن هذا الإخفاق لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواده مرة أخرى ، وسار بنفسه إلى مصر ، ومعه عدة من أمراء بنى أيوب ، وذاع خبر مسيره فى القاهرة ، فاضطربت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وأنصار بنى أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاى للقاء المهاجمين ثم تبعه المعز فى بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة ، رجحت فيها كفة الشاميين أولا ، ولكن المماليك ثبتوا ودارت الدائرة فى النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ، ووقع عدة من أمراء بنى أيوب فى الأسر ، وكان ذلك فى أوائل ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزما بفلوله إلى دمشق واعتصم بها . واستقر الملك المعز فى ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه ، واستقرت الأمور نوعا ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوى الملك الناصر فى سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز

بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقى من أراضى المملكة المصرية فى الشام والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر ، وسائر الأمراء الأيوبية المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعا بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجا فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً عاقلا حصيف الرأى والخلال ، طاغية ظلوما فى الوقت نفسه ، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك ، ويذعن لأمرها ووحيها ؛ وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحمى عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش فى توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه . وكان الخطر ماثلا فى الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء ، وفى مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاى وبيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى ، يتربصون به ويتحدونه بلا انقطاع ؛ وكان فارس الدين أقطاى يتزعم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز ويناوئه كلما سنحت الفرص ؛ وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها فى موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن خطب فارس الدين أقطاى ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها فى القلعة فى جناح من القصر الملكى ، لأنها من سلالة ملوكية ، فخشى المعز عاقبة هذا الطلب ، وتظاهر بالموافقة عليه ، ولكنه اعتزم فى الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطير ؛ وبينما كانت العروس فى طريقها إلى مصر فى موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاى ذات يوم إلى القلعة ، وأعدّ له فى الوقت نفسه كمينا لقتله ، وجاء أقطاى إلى القلعة مطمئنا ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتلة ، وفى مقدمتهم المملوك قطز الذى تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ، وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم ، وتفرق بذلك جمعهم ، وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذى أراد أن يتدرع بتوليته فى وجه بنى أيوب وأنزله من القلعة ورده إلى منزله السابق بين أهله ، واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم .

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئا فشيئا ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم ، بيد أن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هى الروح المسيطر على كل شئ فى البلاط والدولة ، وكان الملك المعز يعانى من هذا الطغيان الأدبى المرهق ، ولا يرى سبيلاً للخلاص منه . وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر تجيش بكل ما تجيش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما[1] بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة ، فى نظر الملك المعز جحيما لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر فى ازدياد . ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر فى أن يضع لها حدًّا ، واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن . ولعله لم يكن فى الوقت نفسه بعيداً عن التفكير فى التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية فى هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجِّم أخبره أنه سيموت قتيلا على يد امرأة ، فلم يشك فى أنها هى شجرة الدر ، وفكر فى أن يكون البادئ بالفعل . ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه . وحدث حادث

(١) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم فى « الجب » وعلى رأسهم أيدكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر ، وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيدكين احتراماً ، وصاح بالتركية « والله ياخوند ماعملنا ذنباً يوجب مسكنا ، ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ماهان علينا لأجلك ؛ فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ماترين » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه : « قد سمعت كلامك » . ولما زج أيدكين وزملاؤه إلى الجب قال لهم : « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص منها .

وأرسلت شجرة الدر سرًّا إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعتزمت التخلص من الملك المعز ، وتعده بالزواج منه وتمليكه عرش مصر ؛ فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب ، فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ؛ فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يتربص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب . وأخيراً اعتزم أن يخرجها من القلعة مبالغة فى الاطمئنان ، وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به ، وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والاخلاص . فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صبابة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ما كان

يخالجه من ريب فى نياتها الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقًّا إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأساً من أن يستجيب لدعوة زوجه المغرية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ [1] وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة مع بعض خاصته ، وما غربت الشمس حتى غادر المعز فى ركبه ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة ، وغمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم المعز إلى حفاوتها الغادرة ، ولم يتخذ لنفسه أى تحوط . وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكانت قد رتبت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزى ومحسن الجوهرى ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة . فاستراح المعز قليلا ، ثم قصد إلى الحمام ليلا ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكن ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة ، فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه فى نفس الوقت حتى زهق ، وفى رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه . وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه ، وأن شجرة الدر تأثرت بتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه ، فصاح بها محسن الجوهرى مغضباً : « إذا تركناه فانه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجته الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ ابريل سنة ١٢٥٧ م) .

وبادرت شجرة الدر فى الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة ، فأرسلت

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم وهو اليوم الذى قتل فى مسائه الملك المعز كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٣) ويقول لنا أبو الفدا (ج ٣ ص ١٩٢) وكذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٧٥) إن ذلك كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول . وقد رأينا بعد مقارنة التواريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

ليلا إلى القاضى ابن مرزوق واستشارته فى الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز، فاعتذر ولم يبد رأياً. وأرسلت فى نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيبك الحلبى، وجمال الدين العزيزى، فلم يرضها أحد منهم رهبة وروعاً. وهكذا أخفقت شجرة الدر فى محاولتها أن تقيم على وجه السرعة فى السلطنة أميراً تستتر وراءه فى الحكم. وأذيع فى صباح اليوم التالى أن الملك المعز مات بالليل فجأة، فحدث أيما هرج واضطراب، ولم يصدّق معظم الناس هذا النبأ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب. وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفى مقدم الحلقة وحاصروا القصر، وقبضوا على الخدم والحريم، فأقر بعضهم بحقيقة ما وقع. وفى الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفائزى (١) ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور علىّ ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه، وكان يومئذ صبيا فى نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتقاء الفتنة، وأخفقت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش.

وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر، وكانت قد امتنعت بجناحها فى القلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها. وفى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكى واعتقلت مع بعض جواريها فى البرج الأحمر أمنع أبراج القلعة يومئذ، وكان يقع فى الناحية الجنوبية منها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا فى الجريمة، وفى مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزى الذى استطاع الفرار إلى الشام، وقُتل عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين حنًّا وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك فى الجريمة، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل. وأما شرف الدين الفائزى فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك

---

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى، وكان قبطياً فأسلم وتقدم فى وظائف الدولة حتى ولى رئاسة الوزراء للملك المعز، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل، ثم قبض عليه وتوفى قتيلا فى جمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ.

الجديد أياماً ، ثم قتل فى سجنه بعد ذلك بقليل . وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطانى ، ووضعوا أيديهم على جميع ما فيه ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت فى القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

١٠

ولبثت شجرة الدر فى معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهى تعانى أمر ضروب التوجس والروع . وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم . وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت فى أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للفرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يخشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محنتها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم فى العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود . وكان الملك الفتى المنصور وأمه يضطرمان ظمأ للانتقام من الزوج القاتلة . وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أثمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قلائل حتى وهنت معارضتهم وانحنوا امام العاصفة . وفى يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثانى [1] نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكى تتولى عقابها بنفسها . وهنا يقول لنا المقريزى : « فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت فى تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقريزى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعنى بعد مقتل المعز بثلاثة أيام وفقاً لرواية (السلوك ج ١ — ٢ — ص ٤٠٤) . ويقول صاحب النجوم الزاهرة نقلا عن أكثر من رواية إن مقتل شجرة الدر كان يوم السبت ١١ ربيع الثانى . وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا إنها قتلت فى يوم ١٦ ربيع الثانى . ويقول ابن إياس إنها قتلت فى يوم ٢٥ ربيع الثانى (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن برواية صاحب النجوم الزاهرة باعتبارها أقوى وأرجح .

وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت فى الخندق أياماً ، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها. ثم دفنت بعد — أيام وقد أنتنت وحملت فى قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى .(1)» وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة وحطمتها وسحقتها فى الهاون حتى لا تقع فى أيدى أعدائها (2) .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التى لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصرى ، وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروّع الذى زهق به زوجها الملك المعز ، وكان القصاص مثيراً ولكن عادلا ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحى ، بدأت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة .

وكانت شجرة الدر ، بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة ، شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية . وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامرأة وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع فى حسناء وافرة السحر ؛ فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش فى جو من

---

(1) دفنت شجرة الدر فى التربة التى أنشأتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة فى سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) وما تزال هذه التربة قائمة حتى اليوم ، وهى توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة ، وتعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة . وعلى التربة قبة من طراز عباسى كتب فى جنباتها ما يأتى :

«بسم الله الرحمن الرحيم . عز الستر الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والدة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه ، التى خطبت الأقلام بمناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شموس المملكة بها طالعة ، وآراء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجعل النيرين فى الملأ الأعلى خدامها ، ولم تزل مؤيدة منصورة على مر الليالى والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الاسلامية فى العصر الأيوبى للاستاذ حسن عبد الوهاب ونشر بمجلة العمارة عددى ٧ — ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(2) السلوك ج ٢ ص ٤٠٤ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

المهابة والجلال ، ولم تكن فقط جارية القصر الأثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكائها وروحها . وقد لبثت مذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية فى البلاط وفى الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ . ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى إلا عنوان الذروة فى هذا المجد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثابت جنانها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر فى إنقاذ مصر من كارثة مروعة ، وتحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف ، وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدئ ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة . فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق ، وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة ، تعشق أعمال البر وتقف عليها الكثير من مالها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسية .[1]

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع ، هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلح من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش . ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرامها . وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها . وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو الشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . وبلغ الخطر المروع ذروته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً

لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر ؛ لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . وسرعان ما كشف هـلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسـل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ، وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو الشرق ، ولم يك ثمة شك فى النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء .

ففى تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية فى ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملـكة ، وكان يرقب سير الحوادث فى المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى هـذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ، فانتهز أول فرصـة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملـكا (٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) ، وأعلن إلى زملائه الأمراء فى صراحة أنه لا يبغى الملك لذاته ، ولـكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ؛ فإذا تم القضاء على هـذا الخطر فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم . ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنبات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هـلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل . وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة فى حشد الجند وإتمام الأهبة . فلما وصل رسل هـلاكو أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رءوسهم على باب زويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين ، وبادر بلقاء الغزاة فى عزم وثقة . وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم فى معركة عظيمة حاسمة فى عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك فى منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفى عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام . ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المظفر

قطز أن يستخلص الشام من التتار ، وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين . وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار ، كما كان لها من قبل فضل القضاء على سيل الغزوات الصليبية ، وكانت فى عين جالوت تقوم برسالتها التاريخية فى حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

محمد عبد الله عنان

عودة الاسير

كنت على موعد مع الطبيعة ؛ فإنها تربطني بها صلات ووشائج ، وبيننا ألفة ومودة . وحين تضطرب الأمور وتلتوى أو يضيق الصدر مني ، ألجأ إليها كالمثقل بالخطايا حين يفزع إلى معبده وقد بهظه حماها . وهناك أبثها شجوني وأحكي لها آلامي ، فتخفف عني وتهدئ من رَوْعى وترد إليّ ثقتي . والطبيعة تهب سرها لمن يحبها ، فتكشف له عما يستغلق على غيره من معان خفية تكمن خلف مظهرها ، وتفسر له مايدق ، وتوضح مايستبهم .

وذهبت فى ذلك اليوم الى حيث ألقاها وأنفرد بها ، واستلقيت على ظهرى أتأمل السماء وكانت غائمة ، وأنا أحب السماء الغائمة ، فكأني إذ أشهدها أقرأ فى سفر الحياة وأستطلع أسرار الكون ، وأتزود بالحكمة والمعرفة . وكانت الغيوم تتباعد وتتدانى ، وتتجمع وتتفرق ، وتقبل وتدبر ، وتسرع وتبطئ ، وتكبر وتصغر ؛ وهى فى كل ذلك منسجمة متسقة مؤتلفة ، وكأنها تعرض أشتاتاً من الصور وألواناً من القصص . وكانت تصاحبها موسيقا الطبيعة ذات المعانى العميقة والرموز الغامضة ، صاخبة متفجرة تارة ، وهادئة وادعة أخرى ، فتضفى عليها حلة من الرهبة والخيال ، وتَسِمها بطابع الشعر والفلسفة .

ورأيت فيما رأيت « مارس » العنيد وهو عائد من رحلته الدموية فى مركبته الرهيبة وسط الحرائق والأنقاض والأشلاء . وساد السكون فترة ثم خرجت الملائكة تنفخ فى الصور ، مبشرة بالأمان ، ناشرة ألوية السلام

ورأيت أبواب السجون وهى تنفرج فى بطء وتثاقل ، وجموع الأسرى وهى تنطلق من بينها ، بوجوه مكفهرة عليها غبرة ، ورءوس حاسرة وثياب خلقة ، وكانوا يسيرون بخطوات وئيدة ، كأن أقدامهم تنوء بهم ، وكانت أبصارهم شاردة وتقاطيعهم جامدة لا تنم على شئ

إن ضوء الحرية ليبهر بعد ظلمة الأسر . وإن الرئتين لتعجزان عن الامتلاء بالهواء الذى كانتا محرومتين منه . وكأنما ثابوا الى أنفسهم بعد حين ، وأدركوا أن كل شئ قد تغير : منظر الشمس والضوء والوجوه ، وكذلك مظهر الأشياء والأشخاص والحيوان ، والأصوات والألوان . . . فكل شئ زاد . وكل شئ رق .

وبدءوا يشعرون بالدعة والراحة وقد توسدوها فجأة ، وأخذت الأجساد تعيش والأرواح تتنبه . وهم يستطيعون الآن وبدون أن يخشوا شيئاً ، أن يرفعوا أصواتهم وأن يبتسموا ، وأن يشاهدوا وأن يستمعوا ، وأن يفكروا كما يروق لهم ، وأن يكتبوا مايسنح فى خاطرهم ، وأن يتلقوا الرسائل ولا يشاركهم أحد فى قراءتها . وها هم أولاء يتنفسون ، وها هى ذى قلوبهم تنبض ، وها هى ذى أرواحهم التى أعتقت تستطيع أن تنطلق فى الأفق الواسع حيث تحلق وترفرف .

ورأيت كلا منهم يتجه إلى أهله وذويه بجسده وقلبه وروحه ، وهؤلاء يستقبلونه بأجسادهم وقلوبهم وأرواحهم . وقد كانوا منذ أشهر قانطين من أوبته لا يستقرون من القلق عليه ، تنتابهم الهواجس وتشجيهم الأحزان . هم أيضاً كانوا سجناء ، وكان سجنهم تلك الفكرة الواحدة الثابتة ، تلح عليهم وتأخذ بخناقهم . وها هم أولاء قد أرخى خناقهم ، وفُكّ أسرهم معه . هم أيضاً تغير الحاضر حيالهم ، وأضاء المستقبل أمامهم ، واستعادوا ثقتهم ، وصار كل شئ يبدو جميلا أمام أعينهم . فهذا التحرير بدء لسيرة جديدة ، وهو إذ ينبئ بانتهاء الساعات المريرة يكاد يمسح ذكرى الآلام الماضية .

وطفقت أتأمل وجوه العائدين من هناك وقد اقتربوا من أرض الوطن . وخيل الىّ أنهم يتهيبون هذا اللقاء ويشفقون منه بقدر ما كانوا يرغبون فيه ويتلهفون عليه . لقد كان يدور فى قلوبهم التى طالما هفت الى هذه اللحظة ، صراع مرير أشد هولاً من كل المعارك التى خاضوا غمارها . وكانت عيونهم تنطق بهذا الاضطراب الذى كان يعصف بهم ، ويملأ بالرهبة جوانحهم . . . كيف يجد بعضهم بعضا ؟ هل القلوب تغيرت ؟ والأجساد ، الأجساد التى قاست

وتعذبت . . . والوجوه ، الوجوه العزيزة الطيبة ، التى كانت لكل منهم الأفق والسماء والوطن . . . ماذا أصابها ؟ ماذا فعلت الحرب بها ؟ ترى هل أضحت كالأرض التى يطوونها ، أو الأقطار التى يجاوزونها ، وهى قد دكت آثارها ، وذهبت بمعالمها .

وسمعت أحدهم يسائل : « ألا زالت أعين طفلى جميلة كما كانت ؟ وابتسامة امرأتى . . . »

وكان للأسرة صديق أريب رأيته يسارع مستبقا هذا اللقاء الرهيب ويقول للعائد المسكين : « خذ حِذْرَك ، فستجد أمك وقد تغيرت قليلا . لقد ضعف منها البصر . واضبط نفسك فان أباك لا يقدر على الحراك وقد بانت عليه نهكة المرض . »

ورأيته يعود سريعا أيضاً وينذر الأسرة الشقية : « ستجدونه وقد تغير قليلا . لقد وخطه الشيب . وإياكم وإظهار جزعكم ، فقد ترون له ساقاً من خشب بدلا من التى فقدها . ولكن هذا أمر هين ، فستصنع له أخرى ، ويثوب إلى حالته الأولى . ثم لا تنسوا اضطراب النفس ووعثاء السفر . »

وأخيراً حلت اللحظة القاسية ، ورأيت الزوجة تشخص ببصرها وتسائل فى ارتياب : أين هو ؟ ولم يطل هذا الارتياب لحظة ، ولكن من يدرى كم سيبقى أثره ، وكم سيدوم عنفه ؟

ولقد جرف الفرح باللقاء كل شئ أمامه كالعاصفة ، فتبددت الحيرة أمام نشوة الحوزة ، وانقشع الذهول وتلاشى الذعر أمام الشعور بالحياة والتحقق من استمرارها . ورأيت كلا منهم يحتال ليظهر بمظهر المبتهج ، ويتصنع الاغتباط ، ويحمل نفسه على الضحك . وكانوا يتبارون جميعاً فى النوادر والفكاهات والملح . ورأيت الرجل يرفع عكازه فى الهواء ويرقص به على قدمه الواحدة لكى يطرب منه الآخرون .

لشدّ ما كذبوا جميعاً . . . ولكن ما كان أروعه من كذب !

والتفت الزوج إلى زوجته وقال : « هه ! لقد عدت حطاما ! هذا كل ما بقى منى ! » . فقالت له : « صه ! إنك لازلت كما كنت » . والتفت الأب إلى ولده العائد من الأسر وقال : « ونحن يا ولدى ، لقد انتهينا . . . » فقال الابن : « حاشا . . . ما كنت أتوقع أن أراك بهذه الصحة والعافية » .

يا للأكذوبة السامية ! ويا للمهزلة الفائقة !

ورأيت مثل هذه الأكاذيب وهذه المهازل تؤدّى فى كل الأسر التى عاد أبناؤها ، على هذا النحو من البسالة والنبالة والسمو والكرم . ولقد عرف بعضهم بعضاً فى لمح البصر ، ولكن هذه اللحظة التى كانوا يصبون إليها جميعاً ، كانت تختزن لهم الآلام والهموم . كانت تبدو على جميع الوجوه — المقيم منهم والعائد — آثار العذاب وسمات الشقاء وشواهد الهم وعلامات الهرم ؛ لأن الجميع حتى الذين لم يبرحوا مكانهم ، حاربوا حربهم وعانوا مرارة الذل والأسر . ولم يقر أحد منهم بشئ فى مبدأ الأمر ، بل كانوا يكبتون آهاتهم ، ويحجزون أناتهم ، ويخفون لوعتهم بالعناق ، ويخنقون غُصَصَهم تحت سيل من القُبَل .

بيد أن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذ لم يكن هناك مناص من الاعتراف بما أحكم إخفاؤه من الأسقام والعلل ، والبوح بما كان يدارى بالصمت والكتمان : بالعمى والصمم والجراح التى شوّهت والأعضاء التى بُترت ؛ وكل ما كانوا لا يجرءون على الكشف عنه أو الاعتراف به . وهو الآن لا يمكن أن يبقى مستوراً أو خافياً ، فالحقيقة تأتى ، وها هى ذى تقترب وتلح وتصرخ ثم تنفجر .

رباه أى محنة كانت ! وأى شقاء !

نعم لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة سريعاً ، ولكنها حين غدت سافرة بدت بشعة . وعندئذ أخذ سيل الحكايات يفيض ، والاعترافات تتدفق ، والدموع تنهمر ، والزفرات تتصاعد . وعندئذ فقط بدت آثار الضيق الجسمانى وأمارات الانكماش الذاتى والانقباض المعنوى . تلك الآثار والأمارات التى لم تُرَ فى مبدأ الأمر أو لم يبغ أحد رؤيتها . بدا التغير فى المظهر والتقاطيع : فى الجباه التى تغضّنت وتقبضت ، والخدود التى غارت وشحبت ، والعيون التى خمد نورها وذهب بريقها ، والصوت الذى تبلدت نغمته وانثلمت رنته ، والشعر الذى اغبر واصفر ، والجلد الذى قَحَل وذبُل . . . ظهر التبدل فى الحركة والنظرة : فى ذلك التراخى والفتور اللذين يستوليان على الشخص بأكمله ، وذلك الذهول العجيب المشابه للتأمل الدائم عند من أصابتهم الحرب برضتها ، وتلك النظرة الغريبة الخاوية التى تنبئ بانقشاع الأوهام لدى العائدين منها . وكُشف عن الجروح المخفاة تحت الأغطية ، والندوب المستورة تحت الأردية . وأظهرت البسمات مكان الأسنان التى سقطت ، وبان الهزال وزاد تحت الملابس التى اتسعت .

ورأيت الزوجة تحدق فى الزوج وتقول : « يا إلهى ! أى آخر أعدته إلىّ ! » وأخذ الزوج يقابل بين الصورة الجميلة التى رحل بها ولم تبرح مخيلته ، وبين الصورة الماثلة أمام عينه وقد زايلتها ميعتها ، وأثر فيها الجوع والخوف والحرمان والسقم .

ولقد اشتد الحنان لهم والشفقة بهم ، وزاد الإحساس بالإكبار وبالاحترام تجاههم . ولكننى رأيت فيهم من وجد أن القلوب تحولت ، وأن الحياة تبدلت ، وأن صروفها عصفت بكل ما كان يعتز به ويغار عليه . فأسف لعودته ، وتمنى لو أنه كان لقى حتفه كخلانه فى ساحة الشرف . ولكن واسفاه ، حتى الموت لم يظفر به كل من يطلبه !

ورأيت فيهم من لا يجد له عزاء عن تركه السلاح ؛ فقد راض نفسه على الكفاح ، وصارت الحياة عنده تبدو بدونه تافهة . وفيهم من بدأ ينسج خيوط حياة جديدة أجمل وأفضل ؛ والإنسان لا يبدأ التفكير فى حياة جديدة إلا من فوق الخرائب والأنقاض . وفيهم من وجد أن أحب الناس إلى قلبه وأقربهم إلى نفسه ، قد أودى بهم فعل الإنسان بأخيه الإنسان ، فأخذت مراجل العداوة تغلى فى صدره من جديد ، وامتلأت نفسه بالسخائم والأحقاد ، وتملكته الرغبة فى الأخذ بالثأر . وفيهم من استسلم للقضاء وتذرع بالصبر وخضع . وفيهم من تمرد على كل القيم المعنوية العزيزة على الإنسانية ، كحب الوطن ، والدفاع عن المثل العليا ، والتضحية . وفيهم من دب إليه دبيب الشك فى الحضارة القائمة وفى عظمة الفكر الإنسانى الذى لم يبدع شيئاً إلا كان له شأن فى كل ما نزل به . وفيهم من استبد به اليأس ، فهو لم يعد — واحسرتاه — يصلح لأمر . . .

وولى النهار ، واختلطت الظلمة بالنور ، وتعاقبت أمام ناظرى هذه الصور الكئيبة والبقايا المحطمة ، كأنها أرواح معذبة ، أو خيالات حائرة ، تومض فى لوحات معتمة ثم تنسل وتختفى . وأسبل الليل ستره على الكون ، ولم أعد أرى شيئاً . وخفتت الأصوات ، وهجعت الأطيار ، وهدأت الأشباح ، وهمدت الأشياء . ولم يكن يُسمع غير رذاذ لا يرى ، كان يتساقط على أوراق الخريف الميتة وكأنه يهمس إليها ، وكان كل شىء يبدو كأنه ينصت .

هل كان ذلك وحي قصة ؟ هل كان حلما ؟ هل كانت تخيلات وتصورات ؟ أم كان ذلك صدى لإحدى مقطوعات موزارت أو أثر لوحة من لوحات رافائيل . . . ؟ لست أدرى ! ولكني شهدت وسمعت . وقمت أتعثر في خطاى ، شارد اللب ، ذاهل البصر . وطرقت مسمعي زقزقة عصفور صغير ضعيف كصوت الحق ، كان يرتعد مبتلا على فنن ، وكأنه هاتف يهتف : « ليت من يدفعون بهذه المخلوقات التعسة إلى كل هذا الهوان ، يدركون أن الإنسان لا تشفى آلامه ، ولا تؤسى جراحه ، عندما ينقشع دخان البارود أو تتعالى أهازيج النصر . »

عبد القادر السماحي

أريتريا

مشاهدات وآمال

٣ (١)

الثقافة : يبهر المتنقل بين ربوع أريتريا ما قام به الطليان من أعمال إنشائية ومبان جميلة ومدن جديدة وطرق ممهدة . ولكن المتطلع إلى ما وراء ذلك يرى عجباً : يرى أمة أوربية قد استعمرت بلاداً طيلة نصف قرن دون أن تؤثر ثقافتها فى الشعب ، أو ترفع إدارتها مستوى المعيشة إلى الدرجة التى تناسب تلك المدة . فالثقافة الإيطالية لا تعدو كثيراً لغة إيطالية يتكلمها الناس لقضاء حاجاتهم . وقد يثار ضحكك وإعجابك عند ما تسمع هؤلاء الناس وقد بسّطوا اللغة تبسيطاً مخلاً ؛ فهم يعبرون مثلا ، فى تصريفهم الأفعال ، بضمائر الرفع المنفصلة مع إسنادها إلى المصدر فيقولون : « أنا ذهاب ، أنت ذهاب ، هو ذهاب الخ » . وقد سألت بعض الأريتريين عن السبب الذى من أجله لا يعلمهم الطليان ، فكان ردهم أن الطليان كانوا قد بدءوا فى تعليمهم ، ولكنهم وجدوا أكثر الذين يتعلمون من الأريتريين يهربون إلى أتيوبيا ويستقرون فيها ، فرأى الطليان أن المجهود الذى يبذلونه لتعليم الأريتريين يعود بالفائدة على أتيوبيا . وكذلك لاحظ الطليان أن تعليم هؤلاء الناس ، يحيى فيهم النزعة القومية ، ويثير فيهم حب الاستقلال والرغبة فى التخلص من العبودية . وعلى هذا كف الطليان عن تعليمهم وقصروا جهودهم على التعليم الذى يسمح باستغلال هؤلاء الناس لمصلحة إيطاليا فحسب ، سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الدينية . وليس من السهل أن يصدق الإنسان هذا القول ، ولكنها الحقيقة الملموسة . فكأن

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦)

هؤلاء الطليان فى مأدبة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشهية فى قصر فخم يقف خارجه بعض الأطفال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت نفسى عن السبب الحقيقى فى تلك الظاهرة الغريبة ، فعللت ذلك بأن الإيطالى المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب الأريترى ولم يقدّر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مر الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته ممتهناً عقلية الشعب الأريترى ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تحث على حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير فى الكنيسة عليه المسيح مصلوباً فى صورة رجل أسود ، وما إلى ذلك .

وأما الناحية الاجتماعية فقد نزل الايطالى إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريترى ينظر إلى الأوربى بعين الاحترام انقلب شعوره إلى ضد هذا حين رأى الأوربى يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحمل وجر العربات وغير ذلك . هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الايطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالى فعمدت فى سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم للطليان وقسم للأريتريين ، سقطت هذه القيود ، إذ سقطت أريتريا وأتيوبيا من يد الطليان ، فكنت ترى الأتيوبى أو الأريترى يستخدم الايطالى . وقد انقلبت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكمين ، والحاكمين إلى محكومين بين عشية وضحاها ، والطليان راضون بهذا قانعون . بل كنت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أتيوبيات أو أريتريات أو اتخذوا منهن خليلات ونزلوا إلى المستوى الذى يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهن وسكنوا مساكنهن .

وقد كنت أذكر هذا لصديق من الفرنسيين ، فدهش وقال إن هذه الحال وما يماثلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً فى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالى شمال أفريقيا من العرب يعنون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أى اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلا عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر فى أخلاق هذا الشعب المستعمر جعلته يخفق فى حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب

الأريترى الذى يحفظ بين طياته ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التى جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التى ركزها الطليان فى الدعاية لحب إيطاليا أو التى ركزوها فى الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتى كان مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكى . وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدنيــة التى تراها فى أريتريا فهى لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال .

الدين : دخلت المسيحية أريتريا على يد فرومنتيوس فى القرن الرابع الميلادى حين رست به السفينة فى ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية فى المراكز التجارية أولاً حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومنتيوس إلى مصر حيث رسمه البطريرك القبطى مطراناً على تلك الجهات (أى الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجرى تقريباً . ويقيم المسيحيون فى أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ فى القداس استعمال السيسترم والطبل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية . وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية فى أريتريا ولكنهم أخفقوا فى ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعــد أن استولوا على أتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية فى ديسمبر عام ١٩٣٧ ، فعينوا بطريركا حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك . ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعــد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الدينى لأريتريا المطران القبطى الموجود فى أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والأتيوبية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس فى مصر على أن يُرسم على أتيوبيا مطران أتيوبى ، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التى بين مصر وأريتريا . ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحرية بها . ومما يذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده فى تأدية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الايطالى لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافى . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة فى أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسى من جهة والتأثير

فى الناس بالمظهر الخارجى للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا فى ذلك . ويبدو لى أنه قد حان الوقت الذى يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفا مصريًا يكون تابعاً للبطريرك القبطى مباشرة أو للمطران الأتيوبى ، ويحسن أن يصحب هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة فى نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إخفاق الثقافة الايطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الاسلامى منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطىء أريتريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى وفى جزء من قبيلة البلين وفى معظم البجه وكذلك فى كل القبائل المتفرقة المسماة جبرت وقبيلتى الدناكل والساهو . ومسلمو أريتريا من السنيين ، وهم على المذهب المالكى أو الشافعى . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركزها مصوع وكيرين ، والقادرية وهى منتشرة بين القبائل البدو ، والسمانية فى جبرت ، وكذلك الأحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرفاعية والحدادية والتيجانية . وقد حمل المسلمون فى أريتريا ثقافة مصرية أتتهم عن طريق اختلاطهم بالسودان وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون فى رواق الجبرتى فى الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم .

ولكن جهود مصر فى تنظيم هـذه الثقافة التى استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتى مثلا فى حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإنك لتلمس استعدادهم فى هذا لمساً يدعو إلى الاطمئنان .

العادات : يسترعى نظر المصرى فى تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه . فما يستوقفه تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثانى — حج أول — حج ثانى — شفر — ربيع أول — ربيع ثانى — جماد أول — جماد ثانى . وهم لا يتزوجون فى رجب ومداجن ورمدان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة فى هـذه الأشهر على ألا يكون له إخوة .

ولا يكون الزواج إلا فى الأشهر الزوجية وهى الأفاطر والحاجاج والأربعات والأجمدات ، كما يسمونها .

والختان معروف عندهم ، فهو للذكور والاناث عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

وترى الصبيان يحلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إما فى وسط الرأس وإما على جانبيه وإما مثل عرف الديك أى من مقدم الرأس إلى آخره ، ولكل شكل منها اسم فى لغتهم ، وهذا يماثل ما نسميه فى مصر بالشوشة والقصة والزعرور وغيرها . ويحلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أوعلى السوالف أوحول الرأس أوفى مقدم الرأس وفى آخره معاً ، وتعرف الأبكار بترك هالة من الشعر على رءوسهن بعد حلقه .

وللأريتريين معتقدات فى قوة الشعر السحرية ، لذلك يجمعون شعرهم بعد قصه أو حلقه فيخفونه تحت شجرة أو فى مكان أمين ، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيقف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله «ينشعر» أو تتشتت أسرته كما تشتت شعره . ويعتقدون أن الحظ يأتى من الشعر فيقولون فى تعبيرهم : هذا شعره سعد وذاك شعره نحس .

وهم يحتفظون بأظافرهم بعد تقليمها فيدفنونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر .

وترى الطفل إذا سقطت سنه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفحم ورماها مع سنه وهو يقول : أيها الضبع خذى سنى الجميلة وأعطنى سنك القبيحة . وهذا يذكرنا بما يقوله الأطفال فى مصر : «ياشمس ياشموسه ، خذى سنة العروسه ، وهات سنة الجموسة » . ولهم فى مأكلهم عادات غريبة . لا يأكلون الأرنب ولا قلب الحيوان ، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رئته أو معدته . ويختلف المسلمون والمسيحيون فى ذبح الحيوان ، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون فى صلاتهم ، ولا يأكلون ذبيحة المسلمين كما لا يأكلون لحم الجمل أو الجراد .

أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقى أى جهة القبلة ، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير . وقد قلت لأحد فقهائهم إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الاسلامى ، وإن الآية صريحة فى سورة المائدة

«أليوم أُحِلَّ لكمُ الطيبات وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم » فقال إننا نعتبر المسيحيين هنا مسلمين قد ارتدوا ؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم .

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير بدون خميرة على الطريقة المعروفة عند البدو فى مصر ، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب . وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير .

ولهم تقاليد معقدة فى حالات الموت : فهم يندبون الراحل بالطبل والرقص ويعددون صفات الميت ، ويختلف المأتم باختلاف مركز الميت وسنه . وقد ذكر لى بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بمقابر يلقون عليها بعض الطعام واللبن على ثلاث دفعات ، وإذا مروا على مقابر أقاربهم يحلبون البقرة ويلقون ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل ثم يشرب الأطفال ما تبقى من اللبن. وهم يكررون حلب البقر على حسب عدد الراحلين ثم يذكرون فى كل مرة اسم الراحل . ولست فى حاجة هنا أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين فى الأحجبة والسحر والسحرة .

ومما يلفت النظر أسماء الناس فلكل اسم معنى ، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكرة : « حوار شيك » أى حمار الشيخ ، و «اتجاوها» أى أتى فى الفجر ، و«هامرا باى» أى أضعف الأعداء ، و«هارابا» أى أطعم الغريب ، و« جبب » أى غطاء (الأم) و «هاداما» أى هرّب (الأعداء) و « بديهو » أى لقيا . ومن بين الأعلام المؤنثة « أرهبت » أى أراحت « وقبربا » أى سعيدة . وقد ذكروا لى أن الأم تطلق عادة على كل من أولادها إسماً ثانياً يكون صفة .

والشعب الأريترى على اختلاف قبائله شعب فيه أمانة مشهورة ، وتقوى فى العبادة ، وهدوء فى الطبع ، وصدق فى المعاملة ، وإخلاص فى العمل. وأشكالهم فى جملتها لطيفة : وجوههم سمحة ، ولون بشرتهم أسمر مشرب بحمرة ، وأجسامهم مستوية . وقد اشتهرت نساء قبيلة بلين بجمالهن ، وتراهن يسترن النصف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممنها حول خصورهن . وتسير المرأة من نساء البلين بخطوات هادئة رزينة متناسقة ، وهى تخور بجسمها النحيل السمهرى المستقيم كالتمثال المنحوت ، وذراعاها سبطتان ، وخصرها لايتحرك فى سيرها ولكنه بعيد عن الجمود . وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم

سر الجاذبية غير المتكلفة . وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك إن ممثلات السينما فى هوليود يمكنهن أن يتعلمن من نساء البلين الكثير من سر الجاذبية الجنسية .

الأدب الشعبى : يغرم أهل أريتريا بالأحاجى «والفوازير» . وهذا يندر فى لغات أتيوبيا ، ولكنا نعهد مثله فى مصر . ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوانات أو بشرح الأمثال على ما هو معروف فى الأدب العربى . فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطىء اسمه جادام . ويقول أهل أريتريا إن الجبال أرادت أن نعقد مجلساً فقالت لنذهب إلى الشاطىء ، ولما هموا بالذهاب سبقهم إلى ذلك جبل جادام ، فوصل بمقدمه إلى البحر فطغى عليه وكان مؤخره لا يزال ثابتاً فى الأرض ، فلم يتمكن الجبل من الحركة ، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم فى مكانه فوقفت حيث تراها إلى اليوم ؛ ولذلك تجد جبل جادام يسبق الجبال الى الشاطىء. ويقولون فى الأمثال :« لا ترتكب خطأ فإنه يجب أن يقف كل فى مكانه كما قال جبل جادام » ويقال أيضاً :« أخطأنا كما أخطأ جادام » .

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعى أو سياسى . وإليك مثلاً قصة قصيرة : « يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية ، وسرعان ما وضع حمار كل منهما فمه على فم الآخر ، فاستغرب أحد الرجلين وسأل الآخر عن سبب ذلك ، فقال له إن الحمير أرسلوا حماراً قويا إلى الله عز وجل ليحمل شكواهم ويخلصهم من نير الانسان ، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرجع رسولهم أم لا . المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية » . وأما غرامهم بالشعر فعظيم ، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية . وإليك بعض ما قاله شعراؤهم فى المصريين .

فهذه مقطوعة شعرية نظمها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس ألولا وقد قبض عليه الرأس ووضعه فى الأغلال ولكنه هرب ، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الأحباش أم المصريين ، فقال يناجى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« يا موسى يبحثون عن أبيك كل يوم
يقولون لك هو سجين يصفد فى الأغلال

يقولون لك قد قتل وطعن بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهباء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأمجاد . »

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجرى موزعة بين الأحباش والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل فى حصن كيرين ، وكان له صديق انضم إلى الرأس ألولا ، فقال الشاعر القصيدة يخاطبه ، وهو يمتدح المصريين ويذم الخصم ، ثم يشير إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يثأر من أهله ويناقض شاتمه ثم يرد التهمة الموجهة إلى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)
أما سيدك فحدأة على الشجرة
إذا طارت خلفت المصارين والأحشاء
قد تركتم لنا من الفزع قبائل المنسع والهيجات
وكل من تركهم « ألولا » خلفه نحكمه نحن
ما ذا يعطيكم لتأكلوا سوى الخبز وحده !
يقوم بينى وبينكم بحر واسع
فسيدى يعطى الكساء الجديد إذا بلى القديم
ويجزل العطاء فيملأ يدى بالنقود
متى قلت إنى عريان أو إن لباسى ممزق .
هل آخذ ثأرى منكم أو أتركه ؟
تعالَ إلينا فنحن أثرياء
فحماية سيدى لا تقدر فضلا عن سخائه
إن ثأرى جائع لكنه لا يرغب فى الطعام
إن ثأرى ظمآن لكنه يأبى الارتواء
لا يخرج ثأرى إلى أبعد من الكلام إلى الناس
ثأرى ضعيف لا تقوم له قائمة
فالضعيف يتكلم حين لا يسمعه أحد

يقولون (أى أصحاب الرأس ألولا) إنى سكران كأنى ثمل من الخمر
يقولون إنى مجنون كأنى اقتحمت منازلهم
ولكنهم خاطئون فلم أشرب الخمر ولا طرقت منازلهم .
بلغ سلامى يا صديقى إلى الحبيبة إذا مررت بها
ليس جمالها الذى أعلنى وأسقمنى
بل كما لها فى قولها وتمامها فى فعلها
ليست عبدة بشعر مجعد سلاحها الكذب
ليست بغيًّا تجلس أمام كل بيت
إذا أحبت رجلا أنفت مطاردته
وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله
هم يقولون إنها بغى كذبا وظلماً
إنها قابعة فى دارها فى عيش رغد
أنا مطمئن اليها واثق بها
لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملى فى الحصن حيث الضباط . »

مراد كامل

ليلة فى ڤرسوفيا

فى إحدى ليالى شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة فى القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويجثم على قلوب الناس هم من السعير الملتهب ، وفى تلك الأيام الخالية حين كان اسم هتلر يتلألأ فى سماء ألمانيا ، بل فى تلك السنة التى استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعنى سنة الألعاب الأولمبية ، كان أربعة رجال من بنى البشر يخرجون مسرعين فى جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بثكنة ، لكنه كان فى الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى غاية يعلمها اثنان منهم على الأقل ؛ لأنهما كانا واثقين فى سيرهما ، ويسير اليها الآخران واثقين فى الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يبللها المطر ، فى تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أفئدتهم ، فهم لم يكونوا فى القاهرة ، ولا فى برلين ، بل فى ڤرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة فى سماتهم مزيجا عجيبا من بنى البشر . ثلاثة قصرت قاماتهم على تفاوت فى القصر ، وامتلأت أبدانهم على تفاوت فى الامتلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخم الوجه ذا لون أبيض أوربى مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشئ من حب الفكاهة والطيبة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقى من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متكورا . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضا ولكنه ذو شعر غزير ، أو أن الشعر كان غزيرا ؛ فهو حليق اللحية ، ولكن الشعر ترك أثراً أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة . أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الكثير من لمعته وحيويته . والشعر فى هذه المرحلة يستجيب الى الهواء

فى سرعة أو فى صعوبة ، فهو إذا عبث به الهواء فقد تلك الاستجابة المتناسقة التى هى دليل الشباب .

أما الرجلان الآخران فسحنتهما تدل دلالة كافية على أنهما غريبان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون —أجل— ولكن فى بياضه حمرة عميقة قلما تشاهد فى أهل الشمال من أوربا ، وهى إن شوهدت هنالك ، اتخذت بريق طيف من أطياف اللون الأحمر التى نراها فى الخمر الأوربية وفى النبيذ بنوع خاص ، ودلت على أن صاحبها يكثر من الشراب حتى تأثرت به بشرة وجهه . أما هذا اللون فى هذا الرجل فكان فيه شئ آخر يميزه ويدل على أنه من لفح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعناب الخضراء الزاهية التى تجدها ممتدة إذا سار بك القطار من نابولى إلى روما ، أو تلك الأراضى الساحرة القائمة حول خليج سورنت حيث تجتمع زرقة الماء بزرقةالسماء تغشى الاثنتين غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلا الأرض الأرجوانية . ويزيد فى جمالها ذلك الدخان الأبدى المتدفق من المارد الرابض فى جوف الأرض . أو ربما كان ، إذا لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربى فى الجنوب من أوربا أيضاً ، إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذى عرف العرب فترة طويلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربى إذا ما رأى شخصا قريبا إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر الى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان أصلع الناصية وكان بياض الشيب قد طغى على البقية الباقية من شعره ، وقد وضع على عينيه منظارا يخفى لونهما المائل إلى خضرة ، خضرة زيتية عميقة . أما الرجل الرابع فلا يجهل الناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التى عرفت الفراعنة ، فلونه الأسمر مزيج من اللبن والبن وجسده الممتلئ يوحى بفكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون فى ضوء مصابيح خافتة ، يتقدم البولونيان الجماعة ، وركبوا سيارة أجرة ، فسارت بهم تشق طريقها بين شوارع بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت أمام بناء فخم شاهق ، أول ما يلفت النظر إليه باب كبير من الحديد المذهب . وأمام هذا البناء ساحة كبيرة مرصوفة يحيط بها سور

قصير ، وفى هذه الساحة صفت موائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مائدة منها على مقربة من السور فى الجانب الآخر وتبعهما المصريان ، فإذا النهر يجرى تحت تلك الساحة ، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة ، وأسرع المضيفان فطلبا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا » ؛ فقد ألفا هذه الكلمة منذ وطئت أقدامهما تلك المدينة التى تكاد تكون روسية فى مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا ، وأربعة أقداح ، وجلس الأربعة الى الشراب ودار بينهم الحديث .

كان هذا البناء الفخم ناديا لرجال الجيش يسمرون فيه ويرقصون ، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء . ولم يلبثوا إلا قليلا حتى كانت أنغام الجاز تترامى إليهم بطيئة ساحرة أحيانا ، فإذا هى تانجو أو رومبا ، أو سريعة أخاذة فإذا هى فوكس تروت . وأخذت الفودكا تتمشى فى مفاصلهم سريعا ، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شئ بدفء إفريقية ، ولمعت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم ، وبدآ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة ، غابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الانسان ساعات أسعد من تلك التى ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعا ؛ إذ لم تكن لديهم رغبة فى البحث العميق ، ولم ينتظم غير ملء الأقداح كلما أفرغ أحدهم فى جوفه تلك النار المذابة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين: هيا بنا. وقام المصريان — فى شئ من التردد — من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد أعجف ، فسارت بهم على مهل فى الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة ، وربما سارت فى ذات الشوارع التى اخترقوها . ولكن كيف يعرفها الأجنبيان ! إذ لم يقيما فى العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام . ولو أنهما عملا على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ملأت الفودكا رأسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولهما غلالة شفافة لا تكاد تتميز منها الأشياء ، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من الظلمة هى بناء شامخ له باب ضيق عليه حارس ، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا فى طرقة طويلة سلموا فى آخرها معاطفهم إلى فتاة جميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة .

كانت الردهة غاية فى الإناقة ، وقد صفت حولها موائد للجالسين ، وفى وسطها مكان فسيح من الخشب يستعمل ساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الردهة مضاءة بنور أبيض ضئيل يحاكى ضوء القمر فى هدوئه وفى خفوته ، وكان هـذا النور الخافت يترامى من مصابيح رسمت على شكل أقمار ونجوم ، فى قبة الردهة التى كان لونها أزرق صافيـاً يحاكى لون السماء . وكانت الموسيقا تعزف رقصة تانجو ، فى حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان بعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست فى الصف الأول من المتفرجين ، فجميع الموائد فى ذاك الصف كانت مشغولة ، وجاءت فى الحال زجاجة الفودكا الـكبيرة والأقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسيا فوق طاقتهما من هـذه الخمر الشديدة ، ولـكنهما فى سبيل مجاراة مضيفيهما ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجره الخمر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا .

امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يجيلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال فى ثياب السهرة الأنيقة ، ومجموعة من النساء فى أغلى الثياب وأبدعها زيـّا ، غير أن العجيب فى هذا الجمع أن أجمل السيدات وأكثرهن فتنة كن يجلسن عادة مع رجال متقدمين فى السن ، ابيض شعر الرأس منهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الطامعات فى الزينة والثراء . إن من حظهن أن يبذلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغبـاتهن فى المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا زهرة شبابهم فى جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابهم قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصحبوا هؤلاء الفتيات الجميلات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور . وستجد دائماً رجالا أثرياء يتمتعون بشـباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمراً بحيث غشيت أبصارهم غشاوة من أثر الخمر ، وكأنهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للمزيد من الشراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على عبارات تافهة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه بقية من قوة الملاحظة ،

ولم يكن ليستطيع أن يحول نظره وبقيــة أفكاره عن اثنين جالسين بحيث لا يرى منهما غير الظهر ، إلا إذا التفتا قليلا إلى الخلف . كان الرجل بديناً ذا رأس أملس إلا من رِحفَــاف من الشعر الأبيض ، على أنه يرتدى ثياب السهرة السوداء من خير الأقمشــة ، وقميصه وياقته غاية فى النقاء ، وهو حليق اللحية والشارب ، وقد غضّنت وجهه التجاعيد من كل جانب ، ولا سيما فى أسفل الرقبة . وإلى جانبه فتاة شقراء هيفاء أنيقة ، وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق ، وتعرى ظهرها إلى ما يقرب من الخصر . من وهو ظهر جميل فى تكوينه جمالا يفوق التصور . وقد فكر المصرى لعل هذا الظهر هو الذى سلب لب صاحبها ، ثم ابتسم لفكرته .

كان الرجل يدخن سيجاراً غليظاً ورأسه إلى الوراء وأمامه الكأس اللامعة ، أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلا ، وقد وضعت رجلا على رجل وأخذت تدخن سيجارة ، وأمامها الكأس .

ولقد كان ظهرها فى جماله وانحنائه القليل كأنه يتكلم . إنه لا شك يعبر عن سأم ، سأم قليل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هــذه الحياة ، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المنتديات الليلية ؛ فهى مُسكن يقيها شر التفكير فى حياتها . ومن قال إن المسكن من الأدوية يُشعِر بالصحة ! إنه يخفى الألم الكامن .

كانت المناظر تتتابع ، من راقصة تكاد تكون عارية تعرض فنها ، إلى مغن هرم حسن الصوت ! كل منهما يعرض فنه ثلاث مرات ، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين . غير أن هذا السيد لم يقم بمراقصة زوجته أو صديقته ، واستمرا جالسين : هو يدخن سيجاره ، وهى بظهرها الحلو الجميل المنحنى قليلا تدخن سيجارة ، أو ترتشف جرعة من الكأس . وليس ثمة شك فى أنه لو طلب إليها المراقصة لانتصبت بقامتها الهيفاء ، ولخاصرت هذا الجسد البدين . إنه جزء من واجبها !

عاد دور العرض ، وكان الرجل المخمور لايزال ينظر إلى الجسد البــدين ، وإلى جانبه الظهر الجميل المنحنى قليلا ، يمثل السآمة والملل ، فإذا بهذا الظهر ينتصب فجأة ليرقب شيئاً ، وإذا بصوت يحدثه الحرير من تغير أوضاع الجلسات بين مئات من النساء ! لا ريب فى أنهن أخذن ينتبهن باهتمام إلى العرض .

التفت الرجل فإذا فتى قوى الجسم ذو شعر أصفر غزير ولـكنه قصير ، يرتدى ثيابا زرقا على مثال شباب الفلاحين الروس ، ولـكنها من الحرير الأزرق الفاتح البراق ، وهو جميل الصورة جدا ، غير أن كل حركة فى جسمه تنم عن رجولة .

وعزفت الموسيقا فى قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينثنى على ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعاً رشيق الحركة ، وكانت الموسيقا خاطفة وقصيرة ، وانتهى الرقص سريعاً ، وخرج الفتى بين تصفيق حاد ، أغلبه من النساء الجميلات .

لم تمض فـترة حتى عادت الموسيقى الى عزف رقصة روسية من نوع « الجوپاك » وعاد الفتى الى الرقص ، وكان سريعا ورشيقا وقويا ، وكان اهتمام النساء واهتمام الظهر الجميل باديا للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئاً من غشاوة الخمر .

وعلى حين فجأة وإثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى فى أرجاء المكان صرخة امرأة وشهيق .

وهب الجالسون الأربعة ، إذ قال أحد البولونيين منهم : « هيا بنا » . وهرول الأربعة إلى الخارج يترنحون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان والخمر إلا أن صاحبة الظهر الجميل لم تكن هى الصارخة .

محسن محمود

الكنيسة الشرقية

إنه لمن دواعى الاغتباط وآيات التوفيق أن تتشعب الحركة الثقافية فى الشرق الأدنى فتتناول كل يوم ناحية جديدة من الفكر الانسانى . ولما كان للأبحاث التاريخية القدح المعلى فيما يتوفر عليه قادة الرأى من مواضع النظر رأينا الإدلاء بكلمة عن الكنيسة الشرقية وتطورها على مر الأجيال .

نقول الكنيسة الشرقية ، وسرعان مايدفعنا الحرص على نفى اللبس أن نعرفها بأنها ليست مقصورة على كنيسة معينة من حيث العقائد والطقوس والمذاهب والادارة إلى غير ذلك من شتى العناصر الجوهرية أو الثانوية ، بل هى الكنيسة الشرقية فى أعم معانيها ، أى مجموعة الكنائس المسيحية التى نشأت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فنمت وشبت على سواحله ثم امتدت إلى العراق وفارس والحبشة ثم إلى أوربا الشرقية وحتى إلى الهند والصين . تلك الكنائس التى بقيت ، مع اختلافها فى بعض المناحى المذهبية أو مناط الإمامة الروحية ، متحدة اتحاداً تامًّا فيما يتصل بنواة العقائد المسيحية

من خصائص البحث العلمى فى القرن التاسع عشر الرجوع إلى المصادر التاريخية والعناية بدرس التيارات المذهبية فى نشأتها . ولا غرو أن الوقوف على العوامل الأولى التى تأثر بها مذهب من المذاهب الروحية وطبيعة البيئة الاجتماعية التى أسلست له قيادها ثم وسمته بعقليتها خيرُ معوان على تميز عناصره الفعالة وتحديد علاقته بما تقدمه من المذاهب التى تفرع عليها . فى رأى « تين » أن العبقرى وليد جنسه وبيئته وزمانه ليس إلا . ويزعم هيجل أن تاريخ الفكر سلسلة متصلة لتفاعل مذهبين متناقضين يأتلفان فى مذهب جامع الأضداد . وجلىّ أننا مع نبذنا ما يطبع هذه الآراء من الجبرية المتطرفة يحق علينا درس الكنيسة الشرقية فى نشأتها لنستوعب بعض خصائصها الحاضرة . وقد جلت أبحاث لفيف

من المؤرخين مثل دوشين Duchesne وهرنك Harnack وباتيفول Batiffol وفستجيير Festugière ما تميزت به هذه النشأة ؛ ونورده ملخصاً فيما يلى :

أولا أن المسيحية — أو بالأحرى المسيحية المطلقة — قد نشأت فى القدس (الجليل واليهودية) . تلك ملاحظة بليغة المعنى على سذاجتها ، فهى تنبئ عن ارتباط المسيحية بعقائد العهد القديم . فلا ننسى أن تعليم المسيح جاء مكملا لتعليم موسى وسائر الأنبياء ، وأن العهد الجديد ليس فى نظر المسيحيين إلا اكتمالا لتطور العهد القديم أو تحقيقاً لأمانيه على صورة واقعية عملية لا مجرد مثالية . كانت هناك الكتب المنزلة ، كانت النبوءات المدوية ، كانت الصلوات القائمة والطقوس الصارمة . وعاش المسيح طوال السنين فى ذلك العهد يدين بدينه ويلتزم كل فريضة من فرائضه . فالكنيسة الشرقية منذ نشأتها مشبعة بهذه الروح الشرقية التى طبعت العهد القديم بطابعها الخاص . ولا تبرح ذاكرة سلالتها معتزة بشرف نسبها .

غير أن هذا النور الذى انبلج فى الشرق قد فاض على عالم ساده نظام روما فترعرعت الكنيسة الشرقية فى محيط رومانى . سيطرت الإمبراطورية الرومانية على العالم المتحضر ولا سيما إقليمه الشرقى وفيه سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى . ولم تكن هذه البلاد الرومانية أشلاء لجسم عديم الحياة بل كانت تؤلف وحدة جغرافية اقتصادية سياسية متماسكة الأطراف . وحسبنا دليلا على انتظامها فى تلك الوحدة الحية ما بقى إلى يومنا من شبكات الطرق الرومانية التى كانت تجتاز العالم المتمدن منتهية إلى روما قلبه النابض . فلم تكن الكنيسة الشرقية منعزلة عن الغرب ، بل ظلت متصلة به أوثق اتصال توفد إليه أعلامها وتبادله بأسباب الحضارة . فقد انتشرت التجارة بين مختلف الأقطار ، وكانت الجيوش الرومانية تحتل حواضر البلاد الشرقية ، والموظفون الرومانيون يتقاطرون إليها يزودونها بالنظم الاقتصادية والسياسية . فلا عجب أن تتأثر الكنيسة الشرقية بتلك النظم وما يسمها من الحزم والدقة .

وهناك عامل آخر جدير بالاعتبار ، هو البيئة اليونانية التى درجت فيها الكنيسة الشرقية . وقد أفرد الأستاذ فستجيير Festugière فى تحليل

هذه البيئة ومقارنة روحها بالنفسية الجديدة صفحات ممتعة تجلو سر الحقبة الممتازة من تاريخ الثقافة العامة. وفى الواقع أن إسكندر الكبير ضرب بسهم وافر فى خلق روح شاملة تعلو الفروق الجنسية والنزعات القومية، روح وئام وإخاء انتشرت فى القرون الثلاثة السابقة لعهد المسيح وسميت بالهلنية hellénisme لما يطبعها من الثقافة اليونانية. وإذا شئنا إجمال خصائصها بكلمات معدودة قلنا إن قوامها تحقيق المثل الأعلى للإنسان من حيث هو إنسان فى حمى النظام الذى تصطنعه المدينة اليونانية. ولا يخفى أن الشخص والمدينة كانا محورى الهلنية. ولا يتسع المقام هنا للإفاضة فى تحليلها. فنجتزئ بالاشارة إلى أن المسيحية على العموم والكنيسة الشرقية على الخصوص قد تلقت هذا التراث القديم وأفرغته فى قالب جديد أو نفثت فيه روحاً جديدة هى رسالة المسيح الفائقة الطبيعة. وقد غرّ هذا الاصطباغ بالهلنية بعض الباحثين فتوهموا أن الثقافة المسيحية مجرد طور من أطوار الثقافة اليونانية، ولا سيما من الناحية الفلسفية. ولا يخلو هذا الحكم من تحيف لأصلية الرسالة المسيحية وتفوقها فى جوهرها على كل ما سبقها من المبادئ النظرية. غير أنه يجب الاعتراف بالأثر اليونانى فى الكنيسة الشرقية بل فى الكنيسة جمعاء. وفى الحق أن المدن التى طافها الرسل لنشر الرسالة الجديدة كانت مدناً يونانية ولغة التخاطب والفكر كانت اليونانية. وقد ظل التعبير بهذه اللغة شائعاً حتى أوائل القرن الثالث، وكان جميع آباء الكنيسة الأولين حتى أكليمنضس الرومانى Clément de Rome يكتبون بها. فلا يغب ذلك عن ذهننا حين ننظر إلى كنيسة الإسكندرية فى القرنين الثالث والرابع بل إلى بعض الكنائس الشرقية فى أيامنا هذه وما يتخلل أدعيتها من العبارات اليونانية.

ويجمل التنويه فى هذا المقام بأمرين: أولا، ما عانته الكنيسة الشرقية كشقيقتها الكنيسة الغربية من ألوان الاضطهاد فى نشأتها الأولى إذ كانت الوثنية فى عنفوانها. ولئن تأتى للمسيحية أن تخلع الأصنام من معابدها وتبث الروح الجديد فى مجتمع يدين بأديان من طقوسها ما يندى لها الجبين فلم يتم لها هذا النصر إلا بما سفك شهداؤها من دمائهم فى كل بقعة من الإمبراطورية الرومانية. وكان للشرق فى هذا الاستشهاد نصيب مجيد: ثانياً، أن الرسالة المسيحية لم تظهر على صورة فلسفة نظرية لايدركها إلا الخاصة من أعلام الفكر

بل كانت موجهة إلى عامة الشعب من جهلاء وبؤساء، تبعث فى قلوبهم النور مع الرجاء. ولا أدل على تأثيرها فى تلك النفوس الساذجة من رسائل القديس بولس ولا سيما رسائله إلى أهل كورنتيا.

ذلك شأن الكنيسة الشرقية من حيث نشأتها. أما نموها وانتشارها على سواحل البحر المتوسط فصفحة مجيدة من تاريخ الفكر فى الشرق الأدنى. كانت الكنيسة الشرقية حلقة الاتصال بين التعاليم المسيحية والثقافة القديمة من يونانية ولاتينية. وقد تركزت هذه الحركة الفكرية والدينية معاً فى بعض مراكز هامة، أخذ كل منها يوجه الفكر وفقاً لمزاياه الاقليمية والتاريخية. فأولى الكنائس شأنا من حيث النظر فى مضمون الوحى والرسالة المسيحية هى دون مراء كنيسة الإسكندرية. ولا غرو فقد كان للإسكندرية قبل المسيح تاريخ مجيد من الناحية الدينية نفسها؛ إذ تلاقى فيها الوحى الإلهى والحكمة اليونانية بأعمال المثقفين من اليهود ولا سيا فيلون الإسكندرى. والواقع أن ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحها شرحا رمزيا على نمط التفاسير اليونانية القديمة مما أنهج السبيل إلى قبول المسيحية فى معشر المثقفين. وتاريخ مدرسة الاسكندرية القديمة أشهر من أن يحتاج إلى التعريف. فلا يخفى أن الإسكندرية كانت فى القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقى للثقافة العامة فى البلاد المتمدنة. أما ما يخلق بنا الاشارة إليه فهو أن الإسكندرية أصبحت أيضاً فى القرون الأولى بعد المسيح مركزا هاما للتفكير الدينى. ولا نعنى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فحسب، بل كذلك تعاليم كنيسة الإسكندرية والجامعة Didascalée التى أنشأها أكليمنضس الإسكندرى، وكان نبراسها أورجينس Origène. وقد بلغت أوج المجد فى القرنين الرابع والخامس على عهد القديس أثناسيس Athanase وكيرلس Cyrille. فما أحرانا أن نتعمق تاريخنا الثقافى والدينى فى هذه الحقبة وهى حافلة بمفكرين، مجددين ذوى رأى وإقدام يقدرون الحق قدره ويرتضون الاضطهاد فى سبيل الدفاع عن عقائدهم مضحين بحياتهم إخلاصا لإيمانهم. فمن ذا الذى يتتبع القديس أثناسيس مثلا فى نضاله عن العقيدة التى قررها مجمع نقية Nicée ولا يأخذه العجب.

لقد ذاع صيت الإسكندرية بشهدائها وعلمائها، وتمجدت الكنيسة المصرية

قاطبة برهبانها وأديارها . فهناك القديس أنطونيوس الشهير ، وهناك مئات بل ألوف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر كانت معيناً لا ينضب للحياة الروحية الحقة . ولقد أثرت هذه الروح الدينية المصرية فى النصرانية بأسرها ؛ إذ تلقت المسيحية عمن أسمتهم « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك مازالت مثالا يحتذى . وما الأديرة القائمة فى مصر حتى الآن إلا آثار لما كانت عليه الحياة الروحية فى الـكنيسة المصرية طيلة القرون الستة الأولى . وعلى الـكنيسة القبطية اليوم ، وهى وريثة كنيسة الإسكندرية ، إحياء هذا المجد ورده غرة فى جبينها .

وإذا انتقلنا إلى سورية ألفينا مركزاً آخر للـكنيسة الشرقية فى مدينة أنطاكية ، تلقت كالاسكندرية التراث اليونانى بتغذيتها بالثقافة اليونانية . وقد اتخذها أباطرة الرومان مقرًّا لهم حيناً بعد حين . وفى هذه الحاضرة بدأ المسيحيون نشر دعوتهم بين الأمم غير الإسرائيلية ، وفيها لقبوا لأول مرة بلقب « أتباع المسيح » christianoi . وقد طارت شهرة أنطاكية لإقامة القديس بطرس زعيم الحواريين فيها قبل انتقاله إلى روما حيث استشهد . وامتازت أنطاكية من الجهة الفكرية بصبغتها الوضعية ؛ فكانت أشد ميلا إلى التعليم الأرسطى . فبينما كانت الاسكندرية متشربة بروح الأفلاطونية ، نازعة إلى التفسير الرمزى ، تمسكت أنطاكية بالتأويل الحرفى الأقرب إلى النص ، وأنعمت النظر فى إنسانية المسيح وميزاتها البشرية على نقيض الإسكندرية ومدرستها اللاهوتية . وهذا التباين فى الاتجاه العقلى من الأسباب التى أدت إلى الخلاف الذى نشب بين الـكنيستين . وأشهر ممثل لـكنيسة أنطاكية القديس يوحنا فم الذهب ، فهو أعظم خطباء القرن الرابع ؛ فقد توفر على إلقاء المواعظ طيلة حياته الأسقفية واضطهد لصراحته فى الرأى وثباته على العقيدة .

أما كنيسة أورشليم فلم تنل من الشهرة الثقافية ما نالته الاسكندرية وأنطاكية . نعم كانت أورشليم مصدر الدعوة المسيحية ، وفيها أخذ الرسل ينشرون الدعوة بين اليهود . بيد أنها لم تكن من المدن الهيلـينية الأصيلة لتمسكها بتقاليدها اليهودية ونفورها أشد النفور من كل محاولة لصبغها بصبغة يونانية . فمع ذيوع الديانة المسيحية فيها ظلت ردحا من الزمن ترنو إلى اليهودية

بشيء من العطف حتى اكتمل تطورها النفسانى من حيث إخلاصها للرسالة المسيحية الصرفة .

ولسورية والأصقاع المجاورة فضل آخر على الكنيسة الشرقية ، هو إنماء ثروتها الفكرية بثقافة اللغة الآرامية السريانية ، تلك الثقافة التى أنجبت أعلاماً من طراز افرهاط وأفرام ويعقوب . والقديس أفرام هو الإمام الأكبر للكنيسة السريانية ، شرقيها وغربيها ، فسّر الكتاب المقدس وألقى المواعظ ووضع الأناشيد إلى غير ذلك من الأعمال الروحية . ويقترن بذكره اسم ناسك آخر تضوّعت تقواه فى الأقطار السورية هو القديس مارون أبو الطائفة المارونية .

وأخيراً نتوجه بأنظارنا إلى الكنيسة التى أصبحت بعد القرن الرابع مركز الدائرة من الكنائس الشرقية قاطبة أى كنيسة القسطنطينية. استظهر قسطنطين الكبير على أعدائه فاعتنق الدين المسيحى ، وشاء أن تكون روما رأس المسيحية . فغادرها ليؤسس مدينة جديدة تصبح رمزاً للإمبراطورية الحديثة . فبنى القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، وانتقل إليها مع حاشيته . وكان لهذا الحدث خطورته فى تاريخ الكنيسة الشرقية ؛ إذ تحولت به نقطة الارتكاز الثقافية من الغرب إلى الشرق . كان قسطنطين يحاول أن يفصل الشؤون الروحية عن الشؤون المدنية على ما يقتضيه المذهب المسيحى . ولكن السلطة المدنية أخذت من بعده تفتات على حقوق السلطة الروحية مما أنزل أحيانا الكنيسة ورؤساءها منزلة التابع للإمبراطور البيزنطى ، فأدى هذا الاغتصاب إلى اعتقاد أن الدين والجنسية قد توحدا ، فعانت الكنيسة الشرقية — ولا تزال بعض أقسامها تعانى إلى اليوم — صعابا جمة من جراء هذا الاعتقاد الفاسد .

أصبحت القسطنطينية أعظم مدينة فى الإمبراطورية ودعيت روما الثانية . فكما أصبحت خليفتها من الوجهة السياسية ، حاولت شيئاً فشيئاً أن تصير أيضاً خليفتها أو على الأقل نظيرتها من الوجهة الروحية ؛ فوفقت فى ذلك بعض التوفيق إذ أصبحت فى القرن الخامس إحدى البطريركيات الشرقية الأربع (وهى أورشليم وأنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية) .

ولابد من الإشارة فى هذا الصدد إلى النزاع الذى شجر بين الكنيسة الشرقية

والـكنيسة الغربية فى القرن التاسع وأدى إلى انفصال الجزء الأكبر من الـكنيسة الشرقية عن الـكنيسة الغربية لأسباب لاهوتية فى معظمها — منها الخلاف على الإمامة الدينية التى أنكرها «الأرثوذكس» على بطريرك روما أى البابا. وعلى كل حال يجب الاعتراف بجلال الثقافة البيزنطية، وكان مصدرها كنيسة القسطنطينية. فقد عاشت هذه الـكنيسة فى كنف الإمبراطورية أحد عشر قرنا (من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر) بثت فيها روح حضارة مكينة، لها مزاياها الفنية وخصائصها الأدبية والروحية. فهناك كنائس من الطراز البيزنطى قد انتشرت فى سورية وفلسطين ومصر. وهناك أدب بيزنطى متشعب الأطراف، حافل بألوان الفـكر. وهناك تصوير بيزنطى تزكيه الروح الدينية البيزنطية. وهناك شرع محكم الوضع من وحى بيزنطى يرقى عهده إلى جوستينيان. وهنـاك موسيقا بيزنطية تتجلى إلى اليوم فى أناشيد القداس وسائر الترانيم الكَنَسيّة، وهناك على الأخص كنيسة شرقية بين ظهرانيها تعد سليلة الـكنيسة البيزنطية. وقد احتفظت بلقب «الروم» لا تمسكا منها باللغـة اليونانية — فـكثير من الصلوات الآن تتلى بالعربية — ولـكن إشارة إلى مصدرها واتصال طقسها وروحيتها بالـكنيسة البيزنطية. إنه، والحق يقال، مما يثير العجب أن نرى فى القرن العشرين كنيسة مثـل كنيسة «الروم» قد أصبحت عربية من حيث اللغة والمشارب والعقلية وهى تحتفظ مع ذلك فى غيرة فائقة بطقس مجيد عريق متشبع بالشرقية البيزنطية يردد فى نغمات ألحانه شعور الملايين من المؤمنين الذين استوطنوا الإسكندرية أو القسطنطينية أو ضفاف العاصى أو ربوع لبنان ...

هذه لمحة سريعة لم نعرض فيها لاتصال الـكنائس الشرقيـة بالعرب الفاتحين أو لنشاطها فى محيط الخلافة الإسلامية. وكان بودنا لو يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عن حالة الـكنيسة الشرقية عند الفتح الإسلامى فى الشام ومصر، وعن آثار الـكثيرين من أبنائها فى عصر الأمويين والعباسيين، ولا سيما من نقلوا العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية، وتوفروا على الأبحاث التاريخيـة. وخير ما نختتم به هذا العرض الموجز أن الـكنيسة ولدت ونمت فى محيـط رومانى، واستوحت الثقافة اليونانية وارتوت من منهل إسرائيل مع اهتدائها بالنور

الذى تشعه رسالة المسيح الفائقــة الطبيعة . فهى فى قسميها الشرقى والغربى كنيسة واحدة تمُتّ إلى أصل واحد وتستمد الحياة من مصدر واحد .

على أن كنيسة الشرق الأوسط صارت عربية بترعرعها فى بلاد عربية . وهى فوق تشبعها بالروح الشرقية والعقلية الشرقية مصرية فى مصر ولبنانية فى لبنان وسورية فى سورية وفلسطينية فى فلسطين ، ومن ثم كانت الوسـيط الطبيعى للتفاهم بين هــذه الأقطار الشرقية والبلاد الغربية على اختلاف ما يفرق الشرق والغرب من أساليب التفكير .

الأب قنواتى

تمـــــرّد . . .

أنا صَبٌّ بعـــذابي أنا صب باكتئابي
أنا صَبٌّ بلظى سُـخطي ، حَفِيٌّ باصـطخابي
أنا مرتاح إلى ثورة نفسي ، واضــــطرابي
أنا راض بانفــرادي مستخفٌّ باغــترابي
أنا مسرور بتجديفي ، وشـكـي ، وارتيابي
أنا جذلان بما أسـقاه من سُمٍّ وصاب
أنا هيمان بآلامي ، وجُرحي ، واحترابي
إنها مبعث إقدامي ، وهزئي بالصـــعاب
إنها ترياق إحساسي وفـكري وشــبابي
إنها زاديَ ، في الصحراء ، إن شحَّ سرابي
أنا لا أسأم إنشاديَ ، في القفر اليَبَاب
أنا لا يرعبني الليـل ، وإن طال السُرَى بي
أنا لا تفضحني الشـكوى ، ولو فاض مصابي
إن شكوايَ بنُشّابي ، وشُهبي ، وحرابي

*

أنا للـكوخ ، وللسرداب ، لا للقصر ، فنّي
ولخفْق الريح ، في الأسمال ، ترجيعي ولحني
لاحتضار النور ، في ليل المساكين ، أغنّي
ولخُلف القوت ، في بطن الفقـير المتمني

ولأنّات الحـزانى أهدم الدنيـا وأبنى
لابتسام اليائس المسلول ، إشـفاق وحزنى
لا لتكشير الذى يألم من عجزٍ وجُبْن
للهاث المرهق المكدود ، تسبيحى ويُمنى
أنا للبؤس ، وفى البؤس ، أعاصيرى ومزنى
وعلى الغَبْن ، وفى الغَبن ، نصالى ومجنّى
أسكب القلب ، بأقداح المُعَنَّى لا المُعنِّى
أخلع الروح على المضنى ، وأرمى المتجنِّى
قلمى منى ، ولن يُشتقَّ ، إلا البأسُ ، منى
أصيدٌ ، فى الحق يمشى لم أخنه أو يَخنِّى

*

أنا عِربيد ، على البـاطل ، كالسيف الأغرّ
لا يَفُلّ الظلمُ من حدّى ، ولا يُطفِئ جمرى
مِشْحَذى مقرعة الباغى الذى يوغر صدرى
وبريقى بسمةُ الحقّ ، دجى الظلماء تغرى
أنا لا أبكى ، من العبءِ الذى يقصمُ ظهرى
لا ولا أكسر جفنىّ لمن يغصب زهرى
بل أعدّ العُدّة الكبرى لمن يعنيه قهرى
وترانى ألطم الجانى ، ولا أوليه عذرى
أنا غِرّيد ، وإن لحت غراباً وسط قفر
وترٌ حرّ ، فلن أطرب إلا كلّ حر
أنا نايٌ ، فى فم المظلوم ، لا يبطل سحرى
ترتمى أشجانه الحرّى ، بأضلاعى ، وتسرى
وهى ، فى مجرى دمائى ، حرة حمراء تجرى
فأزجّيها ، إلى الدنيا ، زئيراً من هزبر

تمرد

أنا بحر أترع الآفاق ، من سيبي ورفدي
أحبتك السحبَ ، وأرويهن ، من برقي ورعدي
وأريها كيف تطغى الثورة الهوجاء عندي
ألتقي البرّ ، وأسقيه أجاجي دون شهدي
إن هـذا البرّ قد أنتن ، فليغسله قدّي
إن هذا البرّ موبوء بما يضني ويردي
لم يكن مستوطن الأزهار : من رند وورد
إنه مستنقع الأفّاك ، والطاغي الألدّ
ويل هذا الآسن المغلول ، كم يحفز حقدي
سوف يهتزّ ، على طمْي عُبابٍ غير وغد
هو جاري ، ولقد أصدق ، للجيران ، عهدي
سوف أغزوه ، بتياري ، وأبني فيه مجدي
وسأحيي ، فيه ، برّ الناس : من قِنٍّ وعبد
مرحباً بالبرّ ، لم يحكمه سوطُ المستبدّ

[حمص] منير الحسامي

ESQUISSE D'UNE PSYCHOLOGIE DU CINEMA

André MALRAUX

خلاصة من بسيكولوجيا السينما

[نلفت إلى هذا المقال الممتع جميع القراء الذين يعنون بدقائق السينما لا سيما من النواحي التي عني بها الكاتب الكبير وهي نواحي الانشاء والاخراج والعرض] .

١

لو أن جيوتو أو حتى كلويه جاب المعمورة من طرف إلى طرف ، لما صادف تصويراً ينكره أو يجده — رغم كل الفوارق — غير مألوف لديه ، ولسهل التفاهم بينه وبين مصوّرى الفرس والصينيين ؛ فإن مشاكل التعبير عن المرئيات بالتصوير كانت واحدة بالنسبة للجميع .

ولو حذا حذوهما روبين أو ديلاكروا لبدا له كل تصوير يصادفه عتيق الطراز ، ولاستعصت لوحاته هو على فهم المصوّرين من غير الأوربيين ؛ فإن وسائل تعبيره عن المرئيات تباين وسائلهم . ذلك أن مصورى الفرس والصينيين كانوا لا يأبهون ترفعاً بأصول الرسم المنظور من حيث وجوب إظهار العمق ، واتساق الأبعاد ، وتوزيع الضوء ، وتعبير الظاهر عن الباطن ، وكانت أوربا وباقى العالم المتمدن قد أقلعت عن مثل هذا الفهم لوظيفة التصوير . وما أوفى عهد طراز « الباروك » على نهايته حتى استتب فرق أساسى بين فن الغرب وفنون باقى العالم ، المعاصرة منها والسابقة ، فإن التصوير فى الغرب أصبح وليد عالم له أبعاد ثلاثة .

وقد تضافرت أسباب عدة على إحداث مثل هذا التحول ؛ فلم يكن الناس جميعاً قد ألفوا إلا تصويراً يحتال — بقدر ما — على التعبير عن المرئيات بالرمز

المستتر ، فجاءت المسيحية واستحدثت أسلوباً لم يكن معروفاً من قبلها وهو أسلوب التعبير الدراماتيكى . حقًّا أن طقوس البوذية تعرف المناظر التمثيلية ، ولكنها خالية من عنصر الدراما . وأمريكا قبل كشفها كانت تقتصر فى الدراما على تصوير أشخاص فرادى لا يضمها معاً منظر تمثيلى . ولم يؤد الضعف الطارئ على المسيحية إلى إضعاف معنى الدراما عند الغرب ، بل — على العكس من ذلك — عمل على تقويته ، كما عمل فى الوقت ذاته على أن يخصّها بمعنى أرقى وأكثر تعمقاً ، وهو الأساس الكامن للمظاهر التالية : هذا الشعور بعالم الروح ، وهذه الرغبة فى إبراز أجسام المرئيات وأحجامها ، وهذه الحاجة الشديدة إلى الاستناد على دنيا الواقع المحسوس ، وإنها لحاجة أصبحت من خصائص الغرب الأصيلة ومرتبطة بغزوه السياسى للعالم كله . فقد جعلت أوربا إبراز أجسام المرئيات بديلا عن اتساق ألوان اللوحة ، والتاريخ عن سرد الوقائع ، والدراما عن التراجدى ، والقصة عن الحكاية ، وعلم النفس عن الحكمة ، والعمل عن التأمل ، أو بكلمة عامة ، جعلت الإنسان بديلا عن الآلهة .

ولا جرم أن تقديرنا اليوم لهذه المسائل يدفعنا إلى الزلل ؛ فإن التصوير فى العصر الحاضر ، أغلبه أيضاً وليد عالم من بعدين اثنين . وهذه مشكلة غير مقصورة على عالم الفنون الجميلة وحده ، بل هى أعمق من ذلك بكثير ؛ فإنها مشكلة المدنية ذاتها ، فى مساسها بالإنسان والكون كله . فوسائل البشر فى التعبير تتراوح بين قطبين ، نجد فى إحدها التمثيل الصامت الذى لا ينطق فيه إلا ملامح الوجه والحركة ، ورقص أهل الصين وجاوا ، وتمثيل قدماء اليونان ، وترتيل المنشدين فى المعابد ، ووجوههم تتخفى وراء قناع . وفى القطب الآخر نجد أدباً لعلّ حروفه إشارات الاختزال ، وقلمه آلة كاتبة ، وجوّه ضجيج الليالى الصاخبة ؛ إذ روحه يظهر كالمهجة الغابرة ، ويملأ شاشة مساحتها خمسة أمتار : إنه هو الفيلم .

والرجل الذى لا يتذوق جمال فن التصوير لذاته ، إذا دخل اليوم أحد متاحفه ، شعر بأنه يستعرض سلسلة من محاولات تشابه محاولات العلم فى إدراك كنه الأشياء وتصويرها ، ولألفى نفسه أكثر فهماً وتصديقاً لروبين منه لجيوتو ، ولبوتشللى منه لسيمابو ، ولوجد التصوير وسيلة لخلق العالم من جديد كما تدل عليه حواسنا . وقد ظلّ فن التصوير من القرن الثالث عشر إلى عصر الباروك يجدّد

وسائل تعبيره ؛ فقد كان للتصوير الأوربى منذ أقدم العصور إلى عهد الباروك غرض مزدوج ؛ فهو بجانب ما يقدمه إلينا ونراه فيه ، يجاهد فى التعبير عن الأشخاص والأشياء والمناظر الخيالية بوجه أخص بطريقة تحملنا قوتها واقتدارها على تصوّرها وتصديقها . وهذا المزج بين ما نسميه اليوم فن التصـوير وبين وسائل التعبير ، هو الذى يحدو بزائرى المتاحف فى أيام العطلة إذا ما تأملوا لوحة من اللوحات (إذا كانت قد رسمت بعد عصر النهضة) أن يقولوا عن أشخاصها « يا لله ! كأنهم يهمون بالكلام وينطقون ! » . وهذا هو أيضاً ما كان يدفع سكان فلورنسا إذا ما تحدثوا عن لوحات بوتشيللى إلى القول عن أشخاصها بأنهم « أقرب إلى الصدق من الأحياء أنفسهم ! » . ولعل روعتهم من رؤية صور العذراء كما رسمها خلفاؤه لا تقل عن روعة أهل العصر الحاضر إذا ما طلع عليهم التلفزيون وعمّ بينهم فجأة .

ولكن حينما أوشك عصر الباروك على أن ينتهى ، حدث فى تاريخ الفنون حادث جديد لم يسبق له مثيل من قبل ؛ ذلك أن التصوير كف عن ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وأصبح — كما نعرفه اليوم — فنًّا غايته التصوير لذاته ، وتختص به طائفة من الفنانين . فلم ير العالم منذ ذلك الحين ولن يرى تقاطر النـاس إلى لوحة وهم يتلهفون على رؤيتها ، ومالت الخطوط والألوان يوماً بعـد يوم إلى التعبير عن روح المصوّر وحده . وبينما أخذ التصوير الحديث يزدهر ازدهاراً لا تلحظه العيون ، إذا بالتطلع إلى ابتكار وسائل جديدة للتعبير يُمْسَخُ شغفاً محموماً مسلوب القياد بالحركة وأوضاعها . ولم يكن الانتباه إلى الحركة وأسرارها وليد كشف فنى . وإذا عيب على عصر الباروك أنه رسم أشخاصه جامدين كالغرقى ، فإن التطور الذى استحدثه العصر الحديث لا يمس طريقة تصوير الأشخاص فى ذاتهم ، فإنما هو أشبه ما يكون بتصوير الشخص الواحد فى حركات متتابعة . وإذ أصبح فن التصوير يهيم بالحركة والعواطف ويستلهم المسرح فلا غرو إذا انتهى به المطاف إلى السينما .

٣

ولما اخترعت آلة التصوير فى منتصف القرن التاسع عشر تخلّى التصوير الأوربى بصفة صريحة قاطعة عن ميدانين كان يختص بهما من قبل وحده : أولهما

ميدان التعبير عن العواطف ، وثانيهما الاستعانة بالخيال ، وأصبح من جديد فنًّا همه الوحيد فى التعبير عن المرئيات إبرازهيئة أجسادها ، وغلب عليه مرة أخرى الخضوع لمقتضيات عالم من بعدين اثنين . فحياة الفرد منا اليوم ، وما تتضمنه من أحداث ، كالولادة والزواج وغير ذلك ، أصبح تسجيلها وقفاً على آلة التصوير . وهذه الآلة وهى تتصدى لتصوير الحياة قد تطورت فى الثلاثين سنة الماضية من آلة بدائية جامدة لها عين واحدة إلى آلة متوثبة يقظة لها ألف عين . وإذ كان هذا شأنها أصبحت تواجه — واحدة بين أخرى — نفس المشكلات التى عاناها فن التصوير ، إلى أن انتهت هى حيث انتهى هو أيضاً . ومما يزيد فى غلّ يدها أنها عاجزة عن الخيال ؛ فهى قد تلتقط قفزة سريعة لراقصة فى الهواء ، ولكن هيهات لها أن تصوّر لنا مثلا دخول الصليبيين إلى بيت المقدس . هذا مع أن البشر دائبون على التخيّل ، ويهيمون بأن يصوروا لأنفسهم كل شىء ، من أوجه القديسين إلى أسخف مشاهد التاريخ ، وسواء لديهم أكانت هذه الحوادث التى يجرى وراءها خيالهم مما يعلمون أو مما لم يروه قط .

فهذه المجهودات التى تتابعت طيلة أربعة قرون لاقتناص الحركة وقفت بالآلة حيث وقفت بريشة المصوّر من قبل . ومع أن السينما قادرة على تصوير الحركة ، فإن الخطوة التى خطتها فى هذا السبيل لم تزد على إبدالها الإشارات الثابتة بإشارات متحركة ، ولم يكن مفرّ إذا ما أريد أن يستمر بذل الجهد فى ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وإطلاقها من قيد العصر الباروكى ، من أن تتمتع آلة التصوير باستقلالها عن المنظر الذى يراد رسمه . وليست المشكلة مبعثها حركات شخص ممن يظهرون فى هذا المنظر ، بل مبعثها وجوب تتابع اللقطات . (واللقطة هى الوحدة السينمائية ، وتتغير كلما غيرت آلة التصوير مكانها أو زاويتها ومن تتابع اللقطات تنشأ عملية تقطيع الفيلم إلى أجزاء بحيث لا يكمل إلا إذا ضم بعضها إلى بعض . ومتوسط زمن اللقطة الآن هو عشر ثوان) . وهذه المشكلة لم يتسن حلها فى ميدان الصناعة بإبدال آلة التصوير العاجزة بأخرى أكثر منها قدرةً ، بل كان حلّها فى ميدان الفن ، حينما ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم .

وحين ظلت السينما لا تخرج عن كونها وسيلة لإظهار أشخاص وهم يتحركون فإنها لم تزد فى عين الفن عن الفونوغراف وآلة التصوير البسيطة ؛ فقد كان عمل السينما مقصوراً على تصوير منظر لا يتعدى حيزاً محدوداً ، هو فى الغالب أرض

مسرح ـ فى الحقيقة أو فى الوهم ـ يتحرك فيــه الممثلون ويؤدون أدوارهم فى مسرحية عاطفية أو هزلية ، وتكتفى آلة التصوير بتسجيل كل ما يقع أمامها .

- وحين تم القضاء على قيد الحيز المحدود ولدت السينما باعتبارها وسيلة للتعبير لا لأظهار المرئيات فحسب . فلما حــدث أن جال فى أذهان صانعى الأفــلام تقطيعها إلى لقطات إذا بهم يعدلون عن تصوير القصة كما تتوالى حوادثها من البداية إلى النهاية ، إلى تصوير أشكال سريعة متتابعة لمنظر واحد ، فتقترب آلة التصوير أحيانا من الممثل فتملأ صورته الشاشة ـ إذا دعت الضرورة لذلك ـ ثم تبتعد عنه وهــكذا . وأهم من ذلك كله أنهم استغنوا عن المسرح الثابت بتخصيص مجال محــدود للممثل ـ وهذا المجال مرتبط بمساحة شاشة العرض ـ فيدخل الممثل هذا المجال ويخرج منه ، ويكون مخــرج الفيلم حراً فى اختيار هذا المجال دون أن يفرض عليه فرضاً ؛ فوسيلة السينما فى تصوير المرئيات هى آلة التصوير المتحركة ، ووسيلتها فى التعبير هى تتابع اللقطات .

وتزعم إحدى الروايات التى لا يعلم صدقهــا إلا الله أن « جريفث » هام بجمــال ممثلة وهى تؤدى دورها فى منظر من أحــد أفلامه ، فلم يسعه إلا أن يصور من جديد ـ وعن قرب ـ المنظر الذى خلب لبه ، وأثبته فى الفيلم مكان الآخر ، وهكذا ولدت على يديه « اللقطة المــكبّرة » . وهذه الرواية التى تثير الابتسام تبين كيف كانت تعمل موهبة أحد كبار المخرجين فى طفولة السينما ، وكيف أنه لم يكن يعنى بالتأثير فى الممثل (كأن يطلب منه تغيير طريقة تمثيله) عنايته بابتــكار طريقة جديدة تزيد الصلة بين الممثل وجمهور النظّــارة بتكبير وجهه على الشاشة . ومن هذه الرواية نفهم مسألة نحن نعلمها وننساها ، وهى أن أبسط آلة تصوير ثابتة كانت منذ زمن غير قصير قد ألفت التحايل على رسم الأشخاص ، فتصورهم تارة وهم وقوف ، إذ تصوّر منهم نصفهم الأعلى ، وتارة أخرى تقتصر على تصوير الوجه فحسب . وهذه الخطوة الجريئة فى تصوير النصف دون الــكل ، كانت ذات أثر حاسم فى السينما ؛ لأنها كانت إذا أرادت اتباعها وجدت نفسها مقيدة بآلة تصوير ثابتة ، ومجال مرسوم للممثل ثابت هو أيضاً ، فلم يكن لها مفرٌّ من أن تصوّر المنظر كله على هذا النسق ، ولــكنها خرجت من هذا المأزق حين ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم وتتابع اللقطات .

فلما استتب تقسيم الفيلم إلى لقطات متتابعة أو ـ بمعنى آخر ـ حين توافرت

للمصور السينمائى حرية العمل واستقلاله عن المنظر الذى يراد تصويره ، تيسر للسينما أن تصبح هى أيضاً من وسائل التعبير ، وهكذا ولدت السينما باعتبارها فنًّا من الفنون . ومنذ ذلك الحين أصبح فى إمكانها التعبير عن المعانى بالتصوير ، وفكّ تتابع الصور التى تختارها جمودها القديم .

٣

لم يكن مفرّ للسينما الناطقة أن تجد لهذه المشكلة علاجاً جديداً ، ليس هو ــ كما يقال ــ وصولها بالفيلم الصامت إلى درجة الكمال ؛ فبطلان الادعاء للسينما الناطقة بكمال السينما الصامتة ، بطلانَ الادعاء للمِصْعَد بكمال ناطحات السحاب . فان ناطحات السحاب لم تر النور إلا بفضل اختراع الأسمنت المسلح والمصعد معاً . وكذلك السينما الحديثة ، ليست وليدة الفوز بإسماع النظارة حديث الممثلين فى السينما الصامتة ، بل هى وليدة القدرة على التعبير بالصورة والصوت معاً . فما أهون شأنها ــ مثلها فى ذلك مثل السينما الصامتة من قبل ــ إذا ما هما اقتصرا فى وظيفتهما ــ كآلة التصوير الثابتة ــ على تسجيل المرئيات . ولا تصبح السينما الناطقة فنًّا من الفنون إلا إذا أدرك مخرجو الأفلام أن الأصل الذى يجب أن ينتسب اليه الصوت فى أفلامهم هو الراديو لا اسطوانات الفونوغراف .

فإذا كان موضوع تمثيلية الراديو هو حكاية محاكمة جان دارك ، أو جلسة مجلس النواب الفرنسى التى شهدت سقوط روبسبير مثلا ، لزم أن يفهم المذيعون أنهم يمثلونها كأنما هى قصة جديدة موضوعة ، وأن نصها تتحكم فيه الشروط الواجب توافرها فى فن الاذاعة . فليس الغرض إذن اختيار ممثلين لتلاوة ماورد فى محضر الجلسات ، بل الغرض استخلاص بعض المواقف من هذه المحاضر ، والتحايل على نظم أجزائها معاً فى وحدة متماسكة وإخراجها إخراجا فنيّاً ؛ فان المحضر الأصلى للجلسات لو تلى علينا كما هو لأملّنا طوله وانصرفنا عن سماعه ، كما يملنا كل حديث غابر إذا ما تلى علينا نصه الكامل .

ونحن أميل إلى الظن بأن بعض الحوادث تولد فإذا هى دون غيرها محط أنظار الناس واهتمامهم كرهاً لا اختياراً ؛ فان فى حياة روبسبير منذ الليلة التى سقط فيها ، لحظات فذة ، ينتفع بها كل فن على طريقته . والنظرة الأولى لهذه

المسألة تحملنا على الاعتقاد بأنه ما من شيء وما من حياة إنسان إلا وجدنا فيها جزءاً يصلح لأن يكون المادة الأولية التي ينتفع بها كل فن من الفنون في عمله ، وأجزاء لا تصلح ، فهي بالتالي تولد ميتة إلى الأبد . ونحب ألا نخلط هنا بين تلك اللحظات التي لها وحيها ومعانيها والتي يمكن أن نسميها لحظات فنية ، وبين تلك الكلمات المأثورة التي يسجلها التاريخ لأصحابها ويتناقلها الناس . والحوادث إذا اختلطت وتشابكت وغابت معالمها الفردية في لجة صاخبة ، لا تخلو من لحظات فذة يتولى كل فن تحديد ما يهمه منها إذا ما أراد التعبير عن تلك اللجة الصاخبة . فما هي اللحظة الفذة في سقوط روبسبير ؟ هذا سؤال تختلف الفنون في الإجابة عليه . فقد تكون تلك اللحظة الحاسمة — في نظر الراديو — هي صوته ، وهو يخفت حين خرّ منهزماً . وقد تكون في نظر السينما . ما عساه يكون شعور أحد الحرّاس وهو واقف شارد الذهن ، منصرف في اللحظة الرهيبة ذاتها إلى طرد بعض النسوة البدينات عن حجرة الجلسة أو إلى البحث عن قدّاحته .

وقد شاهد القرن العشرين لأول مرة مولد فنون لا غنى لها عن آلة تعبر بها . وليست العبرة فيها أنها قادرة على أن تقدم للناس صوراً معينة تنقلها عن مصدرها ، بل إنها في الأصل لم تنشأ إلا لهذا الغرض ذاته وله وحده . وقد أصبح من المستطاع نقل بدائع الرسم واستنساخها ، وقد لا يشرف هذا القرن على نهايته حتى يصبح في الإمكان أيضاً نقل الصور الفنية واستنساخها دون أن تفقد جمالها . ولكن لا الرسم ولا اللوحات الفنية قُصدَ فيها إمكان استنساخها ؛ فليس لها من غاية إلا أن توجد هي بذاتها ولذاتها . فاذا تضمنت المسرحية مثلاً منظرا ووجدته السينما يصلح لها لو قام ممثلوه الأصليون بتمثيله لها ، لكان في هذا وحده القضاء على قيمته الفنية ، بل هذا المنظر أقلّ قيمة من اللوحة المعدنية التي تبلى نقوشها من استعمالها في طبع صور منها على الورق . فكأنما هذا المنظر خلق لأن تسجله السينما ، ولا غرض له سوى ذلك ، شأنه في هذا شأن مسرحية الراديو فإن الحوار يقصد فيه إلى تسجيله أولاً على أسطوانة ، ثم إذاعته بعد ذلك .

ولكن مقدرة الأصوات المسجلة على التعبير ، وهي ضعيفة ما اقتصرت على الفونوغراف والراديو ، تصبح لها قوة فائقة ، إذا ما ارتبطت بالصورة وعادلتها . وإذا اخترعت السينما المجسمة فلن تأتي بحدث جديد ، بل سيكون

فيها خطوة تخطوها السينما فى طريق تطورها إلى الكمال . ولا جرم أن مكان السينما الناطقة من السينما الصامتة ، كمكان اللوحة الفنية من الرسم التخطيطى .

ولم يدرك الناس فى مبدأ الأمر حق الإدراك أن الصوت هو أيضاً وسيلة للتعبير قائمة بذاتها ، وبدت السينما — حينما استعانت بالصوت — كأنما قد رجعت بفن السينما كله إلى عهده البدائى . فكما كان قدماء المخرجين لا يحاولون إلا تصوير المناظر المسرحية ، فكذلك السينما الناطقة سارعت وهى متلهفة إلى تصوير المسرحيات . فالحوار فيها مُقرّ ، وطولها مناسب ، ولكن كل هذا لم ينتج إلا أفلاماً هزيلة لا تسر ولا تُرضى .

٤

وفى البلاد التى لا يزال فيها المسرح متمتعاً بتأثيره وحيويته (كروسيا وألمانيا والولايات المتحدة) نجده لا ينفك فى العشرين سنة الماضية من استهواء السينما وجذبها إليه . ونجد كبار المخرجين السينمائيين يحاولون فى مبدأ الأمر تحوير المسرحيات بحيث لا تصبح سلسلة من حوار متصل ، بل المسرحية أشخاص يتبادلون أطراف الحديث ؛ فكانت موهبة المخرج ميرهولد ، ترمى إلى ابتداع عالم وجو يحيط بحوار أبطال المسرحية ، وقد استعانت السينما الناطقة بهذه الأحاديث فوجهتها إلى خير وجهة ، وأحاطتها بإطار زخرفى « الديكور » لا يعجز عن تصوير السماء والبحر وكل ما يجول بخاطر المخرج .

والمسرح يستمد حياته من قدرته على التعبير عن العواطف ، ولا يتوسل فى عمله إلا بالحديث والاشارة . فلما دهمه خطر السينما الناطقة إذا به ينقلب إزاءها إلى فن أشل كما كانت السينما الصامتة من قبله . فالممثل المسرحى ما هو إلا رأس صغير تائه فى ردهة فسيحة . ولعمرى إنها مزية لا تقوم ؛ وإن هذه اللحظات التى لم يستطع المسرح إلا التعبير عنها بالصمت ، قد تلقفتها السينما الصامتة هى أيضاً من قبل واستخدمت وجه الإنسان وصوره المختلفة المتباينة فى التعبير عنها .

وتكبير الأحجام على شاشة العرض يتيح للممثل أن يقلع عن المبالغة فى الحركة والإشارة ، وعن هذه الإيماءات الرمزية التى لا مفر للمسرح من التمسك بها إن

أراد أن يظل قريباً إلى أفهام النظـارة . فإذا قارنت بين المسرحية والسينما الناطقة وجدت المسرحية لاالسينما أقرب شيء إلى التمثيل الصامت الذى يعتمد على الحركة والإشارة . ومكبر الصوت رغم وجوده ، أو إن شئت فقل بفضل وجوده ، هو الذى يجعل صوت الممثل إذا أسرع فى حديثه أو هبط إلى حدّ الهمس أقرب إلى إقناعك والتأثير فيك من صوت أبرع الممثلين فى المسارح الفسيحة .

فأهم مشكلة تواجه مؤلف فيلم ناطق هى أن يعرف متى يجب أن يتكلم أبطاله . أما المسرح فلا يعرف هذه المشكلة ، ولا تنس أنه يجب أن يتصل فيه الحديث دون انقطاع .

ويستمر الحوار فى المسرح إلى أن تأتى فترة الاستراحة . ولعمرى إن هذه الفترات من النعم التى يمتاز بها المسرح ؛ فإسدال الستار يوحى بأنها تخفى وراءها وقوع حوادث أخرى فى المسرحية . وينقل المؤلف المسرحى خبر هذه الحوادث إلى النظارة بالتلميح إليها . وكما نجد القصـة المطبوعة حين تصل حوادثها إلى طريق مسدود ، تلجأ إلى ترك صفحة بيضاء لتفصل بين الفصل السابق واللاحق ، كذلك تلجأ المسرحية إلى فترة الاستراحة . أما السينما فمحرومة من أمثال هذا التحايل .

ولعل محترفى السينما يجيبون على ذلك بأن لهم وسائلهم أيضاً فى الانتفاع بهذا التحايل ؛ وذلك لأن يدهم مطلقة فى ترتيب المنـاظر ، والمنظر لا ينقطع فجأة بل «يذوب» أمام النظارة شيئاً فشيئاً . وهذا «الذوبان» وحده يوحى إلى النظارة بمرور الوقت بين المنظر السابق واللاحق . وهـذا حق ، ولـكن لا يتم به كل المعنى الذى نقصده ؛ فهذا «الذوبان» يوحى بمرور وقت لا تقع فيه حوادث . (ولا ينطبق هـذا القول على فيلم الملاك الأزرق الذى يجب دراسته بعناية) .

وإذا كانت فترة الاستراحة فى المسرح توحى بمرور وقت تقع فيه حوادث ، فإن «ذوبان» المناظر — على العكس من ذلك — لايفلح كثيراً فى التلميح بمرور وقت تقع فيه حوادث ، إذا كانت هـذه الحوادث تفيد تحولا طارئاً على حياة أبطال الفيلم .

ولـكن من جهة أخرى نجد المسرح عاجزاً عن الارتداد إلى ما سلف من زمن . فهيهات للبطل أن ينتقل أمام النظارة من عهد الرجولة إلى عهد الصبا ، فى حين أن هذا الارتداد لايستعصى على السينما . وقد لاتكون هذه الحيلة آمنة من

التعثر أو قاصرة عن بلوغ غايتها ، ولـكنها على كل حال لا تستعصى على السينما .

والخلاصة أن المناظر المتتابعة فى السينما هى بمثابة الفصول فى القصة المكتوبة ، ولـكن السينما لاتعرف الفواصل العريضة التى نجدها بين فصول القصة المكتوبة أو المسرحية .

أما الفيلم الصامت فلم يضره انقسامه إلى فصول ، على حين أن السينما الناطقة لا يتأتى لها هذا الانقسام ولا تعرفه . ووجوب إحكام الصلة بين مناظر الفيلم الناطق هو من أهم العوائق التى تصادف عمل المكلفين بضم أجزاء الفيلم بعضها إلى بعض . فالفيلم الناطق يستنكف من الفراغ الخالى من الحوار ، ويضع اتصال الحديث فى المحل الأول من عنايته .

وإذا أصبحت الرواية أهم عناصر الفيلم الناطق ، فإن غريمه الأول ليس هو المسرح ، بل القصة المكتوبة .

٥

والرواية لاتستعصى على السينما ، وهذا هو سر قوتها ، شأنها فى ذلك شأن القصة المكتوبة . وكان الفيلم الصامت كثيراً مايستمد موضوعاته ، قبل اختراع السينما الناطقة ، من القصة المكتوبة .

وفى استطاعتنا أن نحلل الأسلوب الفنى الذى يتبعه كبار الكتاب فى إخراج قصصهم . فمنهم من يهتم برواية الوقائع ، ومنهم من يعنى بتصوير الشخصيات وتحليلها أو التنقيب عن أسرار الحياة . وسواء عمد الكاتب إلى توليد المعانى والإسهاب فى التفاصيل — كبروست — أو إلى تركيزها وبلورتها — كهيمنجواى — فإن الرواية لاتنفك عملهم وهمهم الأول . والمعنى الفنى للرواية هو تلخيص الوقائع وإخراجها ، أو بمعنى آخر ، تجليتها للقارئ حتى يراها كأنها تحدث أمامه . وإذا ذكرتُ هذا الأسلوب الفنى الذى يتبعه الكاتب فى إخراج قصصه فإننى أعنى به طريقة اختياره — سواء جاء هذا الاختيار عفواً لأنه وليد طبع الكاتب ، أو جاء عمداً لأنه وليد التأمل والدراسة — أقول : طريقة اختياره لوقائع الحياة التى تثير اهتمامه دون غيرها ، ووسائل التعبير التى يستعملها ليضفى على هذه الوقائع ماينسبه إليها من أهمية خاصة .

وأدل بينة على الأسلوب الفنى عند أكثر الكتاب هى طريقة انتقالهم من الرواية إلى الحوار.

وحوار القصة له أغراض ثلاثة:

أولها هو العرض والشرح. وهذه هى طريقة الأدب الانجليزى فى نهاية القرن التاسع عشر، وزعماؤها هنرى جيمس وكونراد. وهى ترمى إلى القضاء على سخف الكتّاب الذين يدّعون لأنفسهم رأياً قاطعاً فى فهم أسرار الحياة كلها، ويفرضون رأيهم على القارئ، وقلما تلجأ السينما إلى حوار هذه المدرسة الانجليزية، كما تشيح عنها القصة الحديثة أيضاً.

وثانيها إبراز شخصية أبطال القصة وملامحهم. فنجد ستاندال فى تصويره لشخصية بطله چوليان سوريل يستعين فى الإبانة عنها بأفعاله أكثر من استعانته بمدلولات صوته وأنغامه. فلما حلّ القرن العشرون زادت مدلولات الصوت وأنغامه أهمية فى نظر القصة، وأصبح بيان نغمة الصوت من وسائل وصف الشخصية، بل إن وجود الشخصية ذاتها أصبح مرتبطاً بها. فلعل قصصه ونحن نستسيغ قراءتها - تصلح للإذاعه، حيث لا يرى السامع وجه الممثل، أكثر من صلاحيتها للمسرح.

وإذا كانت القصة تُعنى بأنغام الصوت فى حوار أبطالها فإن السينما والمسرح أقل منها عناية بها، ذلك لأن الممثل يجب أن يكفى وحده لإبراز الشخصية.

وأخيراً نجيء إلى الغرض الأساسى للحوار، أعنى به الحوار الذى تنهض بفضله مناظر القصة. وليس لتطور هذا الحوار أصول مرسومة، بل هو يتشكل طبقاً لما يريده منه كل فنان موهوب؛ فهو تارة درامتيكى، وتارة إشارات توحى بالمعانى، وتارة ألغاز مستترة، قد انبتّتْ صلتها فجأة بالعالم أجمع كشأن دستويفسكى، أو يكون مرتبطاً بالكون كله، كشأن تولستوى، ولكنه مهما اختلفت صوره — يرمى إلى أن يحس القارئ بالمنظر إحساساً عميقاً حتى كأنه يراه أمام عينيه فى عالم له أبعاد ثلاثة.

وقد انتبه الفيلم لهذا الحوار وأدرك خصائصه وشدة تأثيره، فاستمدت منه السينما اليوم بعض قوتها. فنحن نرى مخرجى الأفلام الحديثة ينتقلون — بعد أن يلتزم الفيلم فترة طويلة من الصمت — إلى الحوار، كما يفعل القصصى حينما ينتقل إلى الحوار بعد أن يفيض فى روايته بالوقائع والتحدث عن الأبطال.

وللقصصي وسيلة أخرى للتعبير ، وهي ربطه للحظات الحاسمة في حياة أبطاله بالجو الذي يعيشون فيه أو ربطها بالكون كله . وهذه هي خَلَّةُ كونراد التي لا يحيد عنها في قصصه . وقد انتفع بها تولستوي في تصوير منظر من أروع مناظر الأدب القصصي في العالم كله ، حين وصف إصابة الأمير أندريه بجرح في موقعة استرليتز (في قصة الحرب والسلم) . وقد استعانت بها السينما الروسية خير استعانة إبان ازدهارها . ولكن هذه الوسيلة تتضاءل وتختفي كلما زادت أرباح السينما . . .

على أن القصة المكتوبة لا تزال تحتفظ — فيما يبدو — بمزية تفوق بها الفيلم ، عني مقدرتها على الانتقال إلى تحليل نفسية أبطالها . ولكن يبدو على القصة الحديثة — من ناحية أخرى — أنها تنصرف شيئاً فشيئاً عن الاهتمام بتحليل نفسية أبطالها في اللحظات الحاسمة عند الأزمات . وقد لا يقلّ عن التحليل النفسي في قوته الفنية وإفصاحه عن الضمائر ، هذا التعبير الدرامتيكي عن لواعج النفوس ، الذي نجده عند شكسبير ، كما نجده ، بقدر كبير ، عند دستويفسكي ، حين يستعين في تلميحه إلى الأسرار ، إما بأفعال أبطاله ، وإما باعترافات يفضون بها ، مترددة بين الإفصاح والكتمان (ومثل ذلك تصويره لسمردياكوف وستاڤروچين) .

وأخيراً فإن روح كل حيّ تنطوي على سرّ خفيّ يستعصي سبر غوره وإدراكه ، وقد تستطيع السينما استدراجه على الشاشة بفضل تكبيرها لوجه الإنسان حتى تستبين كل خوالجه . ولكنه مع ذلك لو بقي هذا السرّ الخفي مجهولاً ، فقد يساعد على أن تصبح القصة الفنية مناجاةً يتوجه بها العبد إلى ربه يسأله — في حيرته — أن يكشف له عن سرّ الوجود . فهذه القصص تصوّر الفكر البشري وهو غارق في التأمل ، وهذا هو سر عظمة قصص تولستوي الكبرى .

وقد غزت السينما منذ طفولتها الساذجة إلى الأفلام الصامتة الأخيرة ، ميداناً فسيحاً وانتزعته لنفسها . فما الذي كسبته بعد ذلك ؟ حقًّا إنها ارتقت بالإضاءة وطريقة الرواية والصنعة ، ولكن ما الذي كسبته من الفنّ ؟ وأعني بالفن هنا التعبير عن الروابط التي قد تكون خفيّة ولكنها بادية الأثر ولا مفرّ من الإيمان بها — هذه الروابط التي تربط بين الأحياء بعضهم وبعض ، أو بين الأحياء والأشياء ، ولم تتهيب السينما الصامتة ، إبان ازدهارها ، من النزول

إلى هذا الميدان ، ولـكن السينما الأمريكية فى العصر الحاضر — وتهتدى بهديها السينما فى البـلاد الأخرى — تعنى قبل كل شىء — ولهذا العذر فقد أصبحت هى أيضاً صناعة كسائر الصناعات — بزيادة مقدرتها على توفير التسلية واللهو للنظارة. فهى ليست أدباً ، بل صحافة . ولـكن عمل الصحافة التى قنعت به السينما الأمريكية يدفعها ، شاءت أو لم تشأ ، إلى ميدان لا يخلو من الفن أبداً ، أعنى به ميدان الخرافة والأوهام . وحياة السينما فى العهد الأخير تستند كلها على التحايل فى الانتفاع بهذه الخرافة والأوهام ..

وأول مظهر لهذا التحايل هو فى العلاقة التى تقوم اليوم بين قصة الفيلم وبين نجوم السينما ، رجالا ونساء ، بل النساء هن أفضل فى الدلالة على أغراضنـا من الرجال ؛ فكل حسناء أصبحت نجما سينمائيا لا يفرض فيها أن تكون ممثلة تؤدى دورها فى فيلم سينمائى ، بل لايلزم عليها إلا أقل قسط من المقدرة الدراماتيكية ، ويكفيها أن وجهها يصلح للتعبير عن إحدى الغرائز العـامة بين البشر والرمز إليها وإبدائها . فلك أن تقول عن سارة برنارد إنها ممثلة ، ولـكن لايصدق هذا القول على مارلين دتريش ، فما هى إلا من شخصيات الأسـاطير التى أحيطت بالخرافة والأوهام .

وقد استقر هذه الوضع حتى إن نجوم السينما — رجالا ونساء — يدركون إدراكا خفيا تلك الشخصية الأسطورية التى حلّت فى كل واحد منهم ؛ ويصرون على تمثيل قصص سينمائية تعين على بقاء هـذه الأسطورة ودوامها . وأصبح الجمهور بفضل الصورة المـكبرة ، يعرفهم معرفة لم يفز بها ممثلو المسرح من قبل. وأخـذت المقدرة الفنية تسير فى اتجاهين متضادين ؛ فالممثلة الـكبيرة هى التى تحسن أداء عدة أدوار لشخصيات متباينة ، أما النجم السينمائى لحسـناء تنفخ الحياة فى عدة أفلام متشابهة متلاحقة .

وفى التمثيل الصامت فى المسرح الإيطالى القديم نجـد الشخصية الواحدة يتكرر ظهورها فى عدة أدوار متباينة . أما رواد السينما الهائمون بها فيعلمون اليوم أنه ، رغم المحاولات التى تبذل لتحوير الشخصيات المألوفة لديهم ، وتصويرها بصورة جديدة ، فان الممثل هو الذى يطغى بشخصيته المعهودة لديهم على الفيلم . فهم يرون جريتا جاربو ملـكة ، وجريتا جاربو محظية ، وجريتا جاربو جاسوسة وهكذا ، ومثلها فى ذلك مثل سائر النجوم .

وشارلى شابلن أصدق دليل على قولى . فقد رأيت فى بلاد الفرس فيلماً لا أصل له ، اسمه حياة شارلو . والأفلام فى بلاد الفرس تعرض فى الهواء الطلق ، وأبصرت على الجدران التى تحيط بالنظارة قططاً سوداء جاثمة تصوّب أنظارها . وقد مكر أصحاب السينما وضموا أفلام شارلو القصيرة بعضها إلى بعض وقدموا لنا فيلماً طويلاً أثار الدهشة ؛ إذ رأينا أمامنا الشخصية الخرافية على حالتها الصافية الناصعة لا تشوبها شائبة .

وقد استحدثت السينما خرافات عدة كفيلم نبلونجن لرينيه كلير الذى أعجب به العالم كله ، وفيلم المليون ، لرينيه كلير أيضاً ، وهو يروى خرافة الفتاة الفقيرة سندريلا فى ثوب جديد أكثر نضوجاً ، وفيلم الملاك الأزرق ، وأنا هارب من السجن وغيرها . ولكن لا يزال أمامها مجال كبير لدراسة خرافات أخرى كتصوير العدالة الاجتماعية ، والفردية ، والغريزة الجنسية فإن السينما لم تنفد مواضيعها بعد .

إن السينما تخاطب الجماهير ، والجماهير تهيم بالخرافات والأساطير إن خيراً وإن شراً . وإذا أردنا نحن نسيان الخرافات فكفى بالحرب تذكيراً بها . فإن رواد المقاهى الذين يرسمون الخطط الحربية أقل عدداً من هؤلاء الذين يؤكدون بأنهم علموا من مصدر ثقة أن العدو ينكل بالأطفال جوعاً . وما كذب الصحافة الصفراء إلا نوع من انصياعها لاستهواء الخرافة .

والخرافة تبدأ بالكلام عن الجن والعفاريت ، وتنتهى بالتحدث عن القديسين . وإن الجماهير لتؤثر أن تصم أذانها عمن يحدثها عن الجانب الطيب فى حياتها ، ولكنها لا تعمى عنها فى أحوال كثيرة . وهذا سؤال يجول فى خاطرى : ترى كم كان مبلغ فهم الجماهير لمواعظ القديس سان برنارد ؟ وهل فهمت منها غير ماقاله ؟ ربما ، أو إن شئت فقل : حتما . ولكن كيف يكون لنا أن نبخس من قيمة مافهمته فى اللحظة التى كان يتغلغل صوت هذا الواعظ المجهول إلى أعماق قلوبهم ؟

ولا تنس من جهة أخرى أن السينما صناعة كغيرها من الصناعات .

أندريه مالرو

نقلها عن الفرنسية يحيى حقى

المـــــــلوك

المملوك لفظ لا يحتاج إلى إيضاح — فهو عبد يباع ويشترى — إلا أنه اصطلح على إطلاقه على فئة من العبيد كان الحكام يشترونهم لتكوين فرقة خاصة من جيوشهم. وأول من أقدم منهم على ذلك هو الخليفة العباسى محمد المعتصم بالله من سنة ٢١٨ إلى ٢٢٧ هـ (٨٣٣ — ٨٤٢ م)، فقد أولع باقتناء المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم عند وفاته ثمانية آلاف، وقيل ثمانية عشر ألفا، وبنى من أجلهم مدينة سُرَّ مَنْ رأى — أو سامرا — ثم أخذ الملوك منذ ذلك العهد، فى معظم البلاد الإسلامية، يعززون جيوشهم بالمماليك الأجانب، بل يكونونها جملة منهم.

فاذا كان الملك الصالح أيوب لم يحدث بدعة فى التاريخ، فإن جيش المماليك الذى كونه فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر وخصص له جزيرة الروضة هو أساس قيام حكم تلك الدولة التى انتزعت الحكم من أسرته، والتى تتابع منها على تبوء عرش الديار المصرية سبعة وأربعون سلطانا، كان اثنان وعشرون منهم أرقاء، قبل أن يرقوا إلى السلطنة، والخمسة والعشرون الآخرون من ذراريهم.

وأصل كثرة هؤلاء المماليك من بلاد القبجاق أو القفجاق، شمالى البحر الأسود والقوقاز، وهى بلاد كان أهلها فى ضيق من العيش، وكانت قاعدة مملكتهم، «فرصة عظيمة للتجار ورقيق الترك». وقيل عن هؤلاء الأتراك إنه «ليس لهم تمسك بدين ولا رزانة فى عقل، ومع ذلك فهم من خيار الترك أجناسا، لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر مع تمام قاماتهم وحسن صدورهم وظرافة شمائلهم».

ومن هؤلاء الأتراك أكثر الصالح أيوب شراء عبيده حتى أصبح منهم معظم الجيش المصرى. فلما انتهى الملك إليهم «مالت الجنسية إلى الجنسية ووقعت

الرغبة فى الاستكثار منهم ، حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم ، وحمد الاسلام مواقفهم فى حماية الدين حتى إنهم جاهدوا فى الله أهليهم » .

غير أنه لما قام السلطان الملك الظاهر برقوق وكان من جنس الجركس أكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند ، وقلّت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم فى أواخر هذا العصر إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

وتجارة الرقيق فى ذلك العهد كانت تجارة رائجة ، وكان اقتناء الرقيق أمراً منهــلا ، وكانت مراكز هذه التجارة منتشرة فى جميع البقاع ، فلم تقتصر على بلاد الشرق وبلاد الترك والشركس والمغول والأروام والأكراد والفرس وغيرها من بقاع آسيا الصغرى والقرم والجزيرة ، بل تعدتها إلى بلاد الغرب ، حتى إن التجار الأوربيين كانوا ينافسون تجار البلاد الآسيوية أشد المنافسة ، فكان يباع بمصر رقيق أتى التجار به من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، ومن الصرب وصقلية وألبانيا وهنغاريا .

وكانت هذه الجموع تخفى بينها قوما جبلوا على الشر ، أو تشربوا بالمطامع والجشع ، أو أضمروا الحقد ، أو ألفوا المغامرة ، أو تطلعوا إلى الوثوب . وكانوا على كل حال مرتعاً للفساد ، سواء فى ذلك أولئك الذين حكم عليهم بالبقاء أجناداً ، وأولئك الذين كتب لهم أن يرقوا من الرق إلى الإمارة أو إلى السلطنة .

وقد انتشرت الفوضى فى أيامهم ، بل إن النظام الذى وضع لهم كان مبعثاً لهذه الفوضى . إذ كان الأمير منهم يعمل جهده لزيادة عدد مماليكه ، حرصاً على نفسه ودفاعاً عن سلامته . وكثيراً ما كان الأمير يترك هؤلاء المماليك يسلبون الناس أقواتهم ، عوضاً عن الأجور التى كان يجب عليه دفعها لهم ، أو استغلالا لمركزه فى وظيفته ، ليستولى على الأموال أينما تيسرت له ، وكيفما أختار الوسائل الى ذلك ، إما طمعا منه فى الوصول الى وظيفة أعلى مركزا وأوسع ايرادا ، عن طريق الرشوة أو عن طريق الشراء ، وإما ادخارا ليوم تفرض عليه الضرائب الباهظة ، أو المغارم الفادحة . وكان مما يشجع هؤلاء المماليك على أعمال السلب والنهب والدس والقتل ، أنهم كانوا يعيشون عيشــة عابرة مخيفة لا ثقة بغد فيها ولا أمان ، فلم يتركوا فرصة تمر دون استغلال طباعهم وإرضاء أطماعهم . وكثيراً ما قاسى سكان القــاهرة الأهوال من اضطرابات المماليك

وأعمالهم الوحشية ، وكثيراً ما كانت شوارع القاهرة ميداناً لمعاركهم وحروبهم عند ما كانوا يستضعفون سلطانها ، أو عند ما كانت تقع المنافسة بين عظيمين من أمرائها . وكل هذا أحاط عصر المماليك بسلسلة ممتدة من الفوضى ، وجعل القاهرة أشبه ببلد رزئ بالهزيمة ، وتدفق فيه الغزاة ، فاختلطت الجماهير فيه بالأجناد ، وأعملوا السلب والنهب فى الحوانيت والمتاجر والبيوت .

والغريب أن هؤلاء المماليك كانوا يستطيعون الجمع بين القسوة والوحشية ، والعطف الانسانى ، وبين الجبروت التعسفى ، والخضوع الربانى ؛ وذلك إما عن عقيدة راسخة ، أو عن سياسة كمينة ، كما كانوا يتصفون على السواء بالجد والفكاهة ، وبالنظام والثورة ، وبالخوف من الحكام والشجاعة الفائقة أمام العدو .

كانت أطماع هؤلاء المماليك لا تقف عند حد . والمدهش أنهم حققوا هذه الأطماع جميعاً وجعلوا من مصر عاصمة إمبراطورية شاسعة الأطراف ، وزعيمة البلاد الاسلامية ومقر خلافة المسلمين . وقد حق لسلاطينهم إلى حد كبير أن يحملوا تلك الألقاب الخلابة التى كانوا يتخذونها فى مكاتباتهم ، ومن بينها « السلطان الأعظم ، وسلطان الاسلام والمسلمين ، سلطان العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، فاتح الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، ملك البحرين ، سيد الملوك والسلاطين ، ولى أمير المؤمنين »

أما كيف أن المملوك كان يثب إلى السلطنة ، فقصته فى تسلسل درجات رجال الجيش ونظمها .

كان للأمراء كما كان للسلاطين مماليك . أما مماليك الأمير فكانوا عرضة لأن يختار السلطان أحدهم أو بعضاً منهم فيشتريه . وأما مماليك السلطان فكانوا ملكا خاصًّا به ، يتوارثهم خلفه ، أو خلفاؤه من السلاطين ، وكتب على الواحد منهم أن يظل فى عبودية الرق مدى الحياة ، ما لم يعتقه السلطان ، ويدخله فى إحدى طائفتى المماليك السلطانية ، أو المماليك البحرية ، ويقطعه اقطاعا من الأراضى يتصرف فيها تصرف المتنظر عليها ويستغلها لنفسه .

وكان الجيش المصرى مكوناً من ثلاث طبقات أو طوائف : طائفة أجناد الحلقة ، وهم كثرة الجيش وعامته ، وكان لكل أربعين نفساً مقدم منهم ،

ليس له عليهم حكم ، إلا إذا خرج العسكر، فهم أشبه باحتياطى الجيش أو بالجيش المرابط . والطائفة الثانية طائفة البحرية ، وكانوا أشبه بحرس السلطان وأولى الحظوة عنده . ثم طائفة المماليك السلطانية ، وهم أعظم الجند شأناً ، وأشدهم إلى السلطان قربا ، وأوفرهم إقطاعا . ولهؤلاء أمراؤهم أو ضباطهم ، يختارون منهم ، أو يؤمّرون عليهم ، أمراء المئين ، وأمراء الطبلخاناه ، وأمراء العشرات ، وأمراء الخمسات .

أما أمراء المئين ، فكانت عدة كل منهم فى الغالب مائة فارس على الأقل ، وكان للأمير منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة كانت أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم كان أكابر أرباب الوظائف والنواب ، وكانوا فى الغالب أربعة وعشرين أميراً مقدّما .

وأما أمراء الطبلخاناه (والطبلخاناه ، ومعناه بيت الطبل، يشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات) فكانت عدة كل منهم فى الغالب أربعين فارساً على الأقل ، ومنهم كانت المرتبة الثانية من أرباب الوظائف ، والكشاف بالأعمال ، وأكابر الولاة .

وأما أمراء العشرات ، فكانت عدة كل منهم عشرة فوارس على الأقل ومن هذه الطبقة كان صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف .

وأما أمراء الخمسات فكان عددهم قليلا ، وكانوا فى الغالب أولاد المتوفين من الأمراء ، رعاية لسلفهم ، وكانوا فى الحقيقة كأكابر الأجناد .

وهكذا كان الجيش المصرى مقسما الى فرق من ألف فارس ، عليها مقدّم أو أمير ألف ، وكل فرقة مقسمة الى طوابير من أربعين فارساً ، أو عشرين ، أو عشرة . ولم تكن زيادة عدة الامراء سبباً لارتفاع مرتبتهم ، فكثير منهم كانت عدة فوارسه أكثر من المصطلح عليها ، ولا يعد إلا فى أمراء طبقته ، إلا إذا رفعته الحظوة أو الإقدام أو الظروف ، الى إمارة أعلى من إمارته . وكان الباب مفتوحاً للارتقاء ، لا إلى إمارات الجيش فحسب ، بل كذلك إلى وظائف الدولة إذ كانت الحكومة حربية ، ووظائفها تسند الى أرباب السيوف .

وأجلّ وظائف السلطنة ما كان يعبر عنها بالنيابة ، وعن صاحبها بالنائب الكافل ، أو بكافل الممالك الإسلامية . وكان يرجع اليه فى جميع أمور المملكة ، ويحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعين أرباب الوظائف ، ما جل منها

وما صغر ، وكان يكاتب نواب الممالك ، فيما كانوا يكاتبون فيه السلطان ، فكان النائب الكافل هو السلطان الثانى للمملكة ، بل إنه كثيراً ما كان السلطان الفعلى لها . وقد مر أكثر سلاطين المماليك — ممن لم يرثوا الحكم عن آبائهم — بهذه الوظيفة أو بوظيفة الأتابك ، أو أتابك العساكر ، التى كانت تلى وظيفة النائب مباشرة فى الرفعة وعلو المقام ، وكان صاحبها أكبر الأمراء المقدمين من بعده ، وكان له قبل إنشاء وظيفة النيابة ، ما للنائب الكافل من الشأن فى تدبير أمور المملكة .

وكان الأمراء المقدّمون يقلّدون وظائف الدولة الهامة ، التى كان من بينها رأس النوبة ، والامير أخور والدوادارية ، والحجوبية ، والامير جاندار ، والاستادارية ، والجاشنكيرية ، والخازندارية ، وغيرها من وظائف الشرطة وولاة الأقاليم ، ووظائف الممالك التابعة لمصر وولاياتها ، فى دمشق وصفد وحلب وحماة وطرابلس والكرك .

ولكل من هذه الوظائف اختصاصات محدودة ، ومزايا عديدة ، وإقطاعات واسعة ، كما أنه جرت العادة أن يكون لكل منها نواب من أمراء الطبلخاناه ، وأتباع كثيرون من أمراء العشرات ، وجند لا حصر لعددهم .

وكان للسلطان دواوين عدة ، تموج بطبقات من الموظفين ، ممن كانوا يسمونهم حملة الأقلام ، وتتبعهم طبقات عدة أخرى من الخدم أو الجند أو الحاشية . وأهم هذه الدواوين تسعة، وأجلها وأرفعها رتبة ديوان الوزارة، وكان ناظرها يلى السلطان مرتبة ، حتى أحدثت النيابة والأتابكية ، فتأخرت مرتبتها ، واقتصر اختصاص الوزير على النظر فى أموال الدولة ، وصار يتبعها كبراء من الموظفين ، منهم ناظر الدولة أو الصاحب الشريف ، وكان مشاركاً للوزير فى هذا الاختصاص المالى . ومستوفى الصحبة ، وله ديوان تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية فيه . ومستوفى الدولة ، الذى كان يتولى مراجعة أبواب مصروفات الدولة وإيراداتها .

أما الدواوين الأخرى فكانت تختص بكتابة السر ، ونظارة الخاصة السلطانية ، ونظارة الجيش ، ونظارة الخزانة ، ونظارة البيوت والحاشية ، ونظارة بيت المال ، ونظارة الإصطبلات ، ونظارة دور الضيافة والأسواق .

ولا شك أن أهمية هذه الوظائف كانت تتغير بتغير السلاطين ، ومنها ما لم

تمكن حددت اختصاصاته ، ولكنها استقرت على هذا النظام تقريباً ، بتولى المماليك الشراكسة سلطنة مصر .

وترتسم من درجات هـذه الوظائف صورة واضحة لما كانت تستند عليه حكومة المماليك ، وتبين كيف أن النظم الحربية جعلت لأمراء الجنـد سلطة تامة على جميع مرافق الدولة ، ومهدت لصغارهم سبل الترقى فى درجات الوظائف ، وهيات لبعضهم فرصة الوثوب الى السلطنة .

وقد جرت العادة أيضاً أن يكون لكل أمير من كبار الأمراء ، أمراء المئين او امراء الطبلخانات ، بيوت خدمة ، مثل بيوت خدمة السلطان ، من طشت خاناه ، وفراش خاناه ، وشراب خاناه ، وركاب خاناه ، وزرد خاناه ، ومطبخ وطبلخاناه . وبينما كانت البيوت السلطانية تسمى بالبيوت الشريفة ، كانت بيوت الأمراء توصف بالكريمة .

ولكل بيت من هذه البيوت مهتار ، أى كبير ورئيس مسئول عنه ، وتحت يده رجال وغلمان ، ولكل منهم وظيفة تخصه . وللأمير فوق هذا موظفون من حاشيته العساكر تشبه وظائفهم وظائف السلطان نفسه ، وتتخذ ألقابها مثل رأس نوبة ، ودوادار وأمير مجلس وجمدار وأمير أخور وغيرها .

وكذلك كان لكل أمير ، مثل ما كان للسلطان ، حواصل من إصطبلات وخيول ومناخات الجمال ، وشون الغلال . وكان الأمير منهم اذا خرج يخرج فى موكب حافل ، تتقـدمه أكابر عساكره من أرباب الوظائف عنده ، وتسير من خلفه مماليكه وغلمانه . واذا جلس نُصِبَ خلف ظهره ستار أو بشتميخ من الجوخ الأحمر المزهر بالألوان والمطرّز عليه رنك ذلك الأمير وألقابه .

والرنك ستار الأمير وعنوان المجد ، تنوعت أشكاله ، وجرت العادة أن يكون دائرة تحصر فى داخلها رسم صقر أو أسد أو سيف أو دواة أو فرنسيسة ، وهى زهرة اللوتس شعار ملك فرنسا ، وكان الأغلب رسم الكأس أو الدواة . وقد تكون منقسمة إلى قسمين أو ثلاثة ، بكل منهـا رسم خاص . وهذه الرنوك مختلفة الألوان ، يجعل الأمير ما يختاره منها ، دهاناً على أبواب بيوته واملاكه أو طرازاً على أقمشة خيوله وجماله ، أو نقشاً على سيوفه وأقواسه ، أو طبعاً على أوانيه من زجاج وفخار .

وحياة الأمراء المماليك كلها مظاهر خلابة . كان من عاداتهم فى القاهرة ،

أنهم يركبون فى مناسبات مختلفة فى مواكب طنانة ، مع النائب الكافل او مع حاجب الحجاب ، أو فى حاشية السلطان ، وكانوا يلبسون الملابس الثمينة الظريفة ، ويتحلون بالعدد والسيوف الفائقة الثمينة ، فالملابس مطرزة مزركشة ، والمناطق مطلية بالذهب أو الفضة مرصعة ، ولا يركبون إلا الخيل المسومة ، أما البغال فلا يركبونها بحال ، بل يركبها غلمانهم خلفهم .

وإذا استعرضنا الألقاب التى كانوا يتخذونها ، أو التى كانت تطلق عليهم فى المكاتبات الرسمية ، زدنا اقتناعا بما كان يربط المملوك بالسلطان ، من صفات مشتركة وصلات ممتدة .

فقد كان النائب الكافل تطلق عليه ألقاب رنانة منها : الجناب الكريم ، والعالىّ الأميرى ، عز الاسلام والمسلمين ، وسيف الأمراء فى العالمين .

وكان رسم المكاتبة للأمراء مقدّمى الألوف ؛ لا يختلف عن رسم المكاتبة للنائب الكافل ، إلا فى استبدال الجناب العالى أو المجلس العالى بالجناب الكريم وحسام أمير المؤمنين ، بسيف أمير المؤمنين .

وكان لكل طبقة من الأمراء ألقابها الخاصة ، فاذا وصلنا الى الجندى المملوكى نفسه رأيناه يلقب فى المكاتبات الرسمية بالأمير الأجل .

كان للجندى المملوكى إذن مرتبة جليلة ، تميزه عن سكان البلاد وأهلها ، بل تميزه عن طبقات عدة من موظفى دواوين السلطان ، من طبقات أرباب الأقلام . وبينما كان لهؤلاء كما كان لأرباب الوظائف الدينية مرتبات شهرية محدودة تصرف اليهم كان للمملوك ، منذ اليوم الذى يعتق فيه ، إقطاع من بلاد المملكة وأراضيها ، يستغله كيف شاء ، ويسخر فيه من عامة الشعب وفلاحيه من أراد ، ويتصرف فى ذلك تصرف المالك والسلطان .

وتختلف قيمة الإقطاع باختلاف مرتبة المملوك ، فكان للأمراء المقدمين إقطاعات ، يخص كل واحد منهم ما قد تبلغ قيمته مائتا ألف دينار أو تزيد . وكانت تبلغ قيمة إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألف دينار ، أو أكثر . وكان يقطع كل من أمراء العشرات أراضى تصل قيمتها الى تسعة آلاف دينار . أما مقدمو الحلقة فكان يبلغ إقطاع الواحد منهم ألفا وخمسمائة دينار وأخيراً كان الجندى المملوكى نفسه يفوز يوم إعتاقه ودخوله فى زمرة المماليك السلطانية ، باقطاع قيمته مائتان وخمسون ديناراً ، أى ما كان يعادل راتب

الوزير فى الشهر الواحد ، وذلك بخلاف ماكان يحق له من الرواتب الجارية ، من لحم وتوابل ، وخبز وعلف ، وزيت وكسوة وشمع ، وبخلاف ما كان يمنحه فى مناسبات زواجه أو مواليده ، وبخلاف ما كان ينتظره من حظوظ الانتقال الى مرتبة العشرة ، أو الطبلخاناه ، والفوز بما كان يخصها من الاقطاعات .

سردنا من أحوال المماليك ، وألقاب أمرائهم ودرجات وظائفهم ، وقيم إقطاعاتهم بعض ما يدلنا على أن المملوك كان فى الحقيقة سلطاناً مصغراً أو مختصراً ، أو أنه كان له فى حدود إقطاعه ووظيفته ، تلك السلطة المطلقة التى كانت للسلطان فى حدود مملكته ، كما كان له بعض ما كان للسلطان نفسه من ألقاب ومزايا وبيوت . غير أنه فى كل هذا ، ومهما بلغت مرتبة وظيفته من العلو ، كان رهن إشارة السلطان ، ومملوكا من مماليكه ، وعرضة لأن يفقد جميع ما كان حظى به فى إمارته ؛ فقد كان السلطان يستطيع اذا شاء أن يسترد منه إقطاعه ، أو يقصيه عنه ، ليتصرف فيه . وكان السلطان يستطيع فوق هذا أن يفتك به ، ويقضى على أسرته وخاصته وأتباعه . ولم يكن السلطان نفسه أسعد حالا من مملوكه ؛ فقد كانت الغلبة فى السلطنة لأشد الأمراء قوة وأكثرهم حيلة ، فكان السلطان فى هذا شبيها بمملوكه ، يعوزه الاطمئنان الى غده ، والثقة بالاحتفاظ بسلطنته .

وكان الإقطاع يتبعه الارتقاء الى الإمارة ، وكانت أهميته بنسبة درجة الأمير . ولكل منشور أو أمر باقطاع صورة يكتب بها ، كانت تختلف حالها ، باختلاف مراتب أصحابها . وكانت صيغة المنشور الذى يمنحه الجندى المملوكى والذى كان ينتظم به هذا الجندى فى سلك الأمراء ، تنص على أن هذه المنحة كانت الخطوة الأولى للترقى « فى درج السعادة » وللبلوغ بالمملوك الى « رتبة السيادة » فهى تعبر أصدق تعبير عما كان يخالج نفوس هؤلاء المماليك من الطموح الى أعلى المراتب ، وترسم الخطة التى أحكمها المماليك ، للتدرج من الرق والعبودية ، الى الحكم والسلطنة .

أحمد فكرى

زورق فى حجب الظلام

الشاطئان تناجيا والفرقدين
والموج يعبث جاريا بالضفتين
العاشقان تلاقيا فى زورقين
فتجافيا وتنائيا عن كل عين

فى مكمن بين الغصون
جمعا وإن أبت السنون
لم يرهبا حتى المنون
وتشاكيا رجم الظنون

وتراحما بعد الوطر فى زورق
والنهر يضحك والقمر فى المشرق
وإليهما مال الشجر بتشوق
غفت المدينة والقدر فلنلتق

فسرى التهامس فى الزهور
وجرى التناجى فى الطيور
قد فاز فى الدنيا الجسور
ومشى على هام الدهور

يامىّ هاتى قبلةً من وجنتيك
ولتمنحينى جذبة من معصميك
ألقى حنينى دمعة فى عارضيك
شعّت فظنت نجمة هبطت عليك

وضعت فيها المسجدا
لتزين خدًّا وردا
يغشى العيون إذا بدا
فتظنه متوقدا

فتمنت الأيام ليلا دائما
والنوم يرعى كل عين ساهما
فيظل طول الدهر حيًّا نائما
والساع لاتلقاه طيًّا هادما

إذ ذاك يصفو عيشها
تزهو على رغم المها
وتضمّه ويضمّها
صب يبيت موطها

(بغداد) ضياء الدخيلى

من هنا وهنالك

عمر فاخوري

كل شيء فيه كان يشف عن الرقة : نحيف ، ممشوق ، مقتضب الحركة ، ناعم الطرف ، خافت بصوته، ومن وراء « نظارته » كان اللحظ يثب إلى الدقائق من كل فن . كان شحذ حسه وبرى فهمه، وكان وسّع أفقه وكبّر قلبه وهو يتلقى لطائف العرفان في باريس ، في السربون خاصة : لطفٌ مكتسب وافق رقةً مستقرة ، فخرج من امتزاجهما ذوق رهيف وإدراك صحيح .

عرفته في بيروت ، ولكني لم أجلس إليه سوى مرات في كل رحلة . كان في شغل شاغل وهمّ لازم . كان الفنان الحيران القلق . يقرأ ويكتب أحسن ما تكون القراءة والكتابة . لمست فيه الفضيلة العظمى : الاخلاص للفن ، والمقدرة الكبرى : التعبير الفائر .

إسمعه يقول في « الفصول الاربعة » : « الأديب في بلادنا صورة رجل من ورق وحبر ، لا نكاد نجد فرقاً إلا في لون الحبر ونوع الورق » ، ثم : « يجب على الفنان أن يتصل بهذا الوجود فلا يعتمد على الحفظ والقراءة»، ثم : «لا يهم الأديب إلا أن يخرج آية فن باقية على الزمان» ، ثم : « إن الشعر لا يحتمل أوساط الامور ، فاما أن يكون بالغا مرتبة الكمال ، وإما ألا يكون البتة » .

بذكاء متلهب وعقيدة صادقة يثور عمر فاخوري على الجمود والدعوى وعلى التلفيق والارتجال . إنه لمثل الدراية والأمانة يضرب لأهل الغرور والزور .

ثم إن داعياً في نفس عمر دعاه إلى شؤون السياسة ، لا السياسة الصاخبة ولا المغرضة ، ولكنها السياسة التي يتذبها الايمان بحقوق الانسان . هل تسمع إلى قوله في كتابه « لا هوادة » : « الشباب البصير الواعي وعياً قومياً صحيحاً مادياً ، إذا أمكن القول ، لا يؤخذ بالترهات والأباطيل . . . هو ليس من المشتغلين بالسياسة مهنة أو تكسباً ، ولا تظرفا أو تزيداً ، بل ببساطة طواعيةً ، و «حياتياً» إذا صح التعبير . » . على هذا النهج نشط الفاخوري وعمل للشعب ووقف قلمه للديمقراطية ، للسواد الأعظم من بني وطنه .

وعى سليم في الأدب وكذلك في الوطنية، مع قلم متمكن متصرف ، يجريه فكر فطن مستحصف .

رحمك الله ، يا أخي في الفن الأسمى ! لقد كنت من أنفذ الكتاب بصراً وألمعهم بصيرة في لبنان، وفي غير لبنان .

بشر فارس

معرض الفكر الحديث الأول ببغداد

أقامت مجلة « الفكر الحديث » فى بغداد معرضاً واسعاً للرسم والنحت والعمارة اشترك فيه جمع من الفنانين العراقيين والأجانب من بولونيين وإنكليز . . .

وقد كان من أبرز العارضين فيه ، الأستاذ جميل حمودى صاحب مجلة « الفكر الحديث » ورئيس تحريرها ومنظم هذا المعرض الفخم ، برسومه وتماثيله التى نحا فيها نحو الانطباعية الحديثة post impressionism والسريالزم surrealism وقد كان فى بعض تماثيله الخشبية مثل « رأس فتاة » و « بحث » من الصفات الجديدة المبتكرة ما يجعله فى صف واحد مع الفنانين العالميين الحديثين ؛ فانه حقق فيهما أفكاره وآراءه الخاصة فى الفورم والصياغة الفنية المطبوعة بطابعه العميق . كما بلغ بتمثال أبى العلاء المعرى مرتبة رفيعة فى القدرة على الاخلاص للفكرة وإجادة العمل الفنى فى نفس الوقت ، مما يدل على سعة مقدرته واطلاعه ... ولا ريب فى أن الأستاذ جميل حمودى من أعمق الفنانين العراقيين تفكيراً واطلاعا على الموجات الفنية والفكرية فى العالم .

كذلك الأستاذة نزيهة سليم كانت فى هذا المعرض من الخارجين إلى أجواء ملونة أكثر انطلاقاً ، حتى لكأننى وأنا أتساوق مع صورتها « فى غرفة الصف » التى تمثل التلميذات إبان الدراسة ، أكتشف شيئاً جديداً من الاحاسيس وأسبح فى بحر خضم من الروح الطفولى الحبيب . والمسيو ماتوشاك (وهو رسام بولونى) قد أثار فى نفسى العجب ورسم على وجهى الاستفسار ؛ فقد كانت فى رسومه فلسفة يصعب أن يدرك كنهها إلا بالدرس والتعمق . وقد أظهر فى جميع رسومه تأثره العميق بالجو والحياة فى العراق . . .

وأما المستر كينث وود (وهو رسام إنكليزى) فقد أخرج فى هذا المعرض كثيراً من الصور التى تمثل انطباعاته عن العراق الذى عاش فيه حوالى ثلاث سنوات ، إلا أنه لم يستطع التحرر من إنكليزيته (من حيث الألوان) ولا من تأثره السطحى بأقاصيص ألف ليلة وليلة . . . فان العراقى حين يقف أمام صوره يعجب ويأخذه الذهول . . . ومع كل هذا ففى صور هذا الفنان انسجام وترابط يستحق عليهما التقدير . . .

وجواد سليم (وهو عراقى) لم يعرض إلا تمثالا خشبياً واحداً ، على حين عرض ما يقرب من أربعين صورة وتخطيطاً . . . وفى كلها يريد أن يخبرنا عن جهاده المتواصل من أجل خلق الشخصية العراقية بفنه دون الانهيار فى تأثير بيكاسو وماتيس ولوتريك ، إلا أنه ما يزال فى طريقه ، كما أعتقد ، غارقاً فى ذلك التأثير ...

وقد عرض بعض الانكليز والبولونيين والعراقيين الآخرين صوراً تختلف روحا وطريقة ، إلا أن أكثرها يميل إلى التجديد والابداع والانطلاق من القيود الأكاديمية (ما عدا الانكليز فهم ما يزالون ينقلون الطبيعة كما تنقلها الكاميرا) .

هذا وقد افتتح المعرض معالى وزير المعارف العراقية السيد نجيب الراوى الذى يدأب على تشجيع الفن والفنانين . . . وزاره عدد كبير من الشخصيات البارزة فى بغداد ممن يهتم بالفن ، ومن الجاليات الأجنبية . كما كان إقبال الجمهور على زيارة المعرض عظيما جداً ، مما دل على كثرة اهتمام الشعب العراقى بالفن ، وقد كتبت الصحف العراقية كلها تلهج بابداء تهنئتها للاستاذ جميل حمودى لنجاح معرضه الأول هذا .

وأخيراً أحب أن أسائل : لماذا لا يتفضل إخواننا الفنانون المصريون فيقيموا معرضاً لا نتاجهم فى بغداد . . . إن هذا العهد الجديد الذى نريده فصلا فى تاريخنا الحديث ليشجعنا على أن نتقارب نحن العرب ونزيد التفاهم بيننا . فليكن ذلك عن طريق الفن أيضاً !

[بغداد] صاحب الصباغ

الشاشة البيضـــاء فى مصر

بل هى السوداء إن لم يكن شر من السـواد ، فما استطاع الذين شاءوا تجنيب مصر ويلات الحرب وعملوا له ، أن يجنبوها ذلك البلاء المطبق فى سوق الأرزاق وسوء الأخلاق .

وبينما كان الناس هناك فى روع القتال وهوله ، كان عبيد المال من أشباه الناس يمسكون القوت ، ويرسلون العذاب على الناس ألواناً من العوز وفحش النلاء ، حتى اكتسوا من عرى الكريم وشبعوا من جوعه . ثم طاف بهؤلاء وهؤلاء طائف من أصحاب الوجوه المستعارة جاءوا برسالة الفن ، وعز عليهم ألا يكون للسينما فى مصر مكانة كما لها فى أخوات مصر من ممالك النور ، وعز عليهم كذلك أن تسير قنوات من الذهب والفضة بين الآكل والمأكول فلا يذهبون منها بنصيب .

وبعد ، فبأى خير جاء القائمون بالأمر فى صنـاعة السينما المصرية ؟ وماذا قدموا لهذا الشعب المسكين ، الصادى إلى المعرفة ، المتطلع إلى النور ؟ أتراهم بينوا للناس صوراً واضحة من الخير فى شتى مذاهبه ، يتأسى بها روادهم الكثيرون من صغار وكبار فى جميع الطبقات ؟ أم تراهم عمدوا إلى عقـد المجتمع ومشكلاته فتناولوها بأساليب مختلفـة : من التهويل والتهوين ، ووضـعوا لها حلولا حازمة ، صريحة ، حاسمة ، تقيم الأود وتثبت الايمان بالفضيلة وتذهب بأوهام الشك من العقـول الضئيلة والنفوس الخاوية ؟ إنهم ولا شك قد رغبوا فى هذا كله أوفى شئ من هذا كله وحاولوه ، وما ينكر أحد أنهم ينفقون كثيراً من الجهد والمال فيما يفعلون ، وأن فيهم كثيراً من أصحاب الرغبة الصـادقة فى أداء هذه الرسالة على وجهها ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يقول بحق إنهم كانوا موفقـين فى كثير مما اختاروا وقدموا للناس ، أو أن فى رواية السينما المصرية شيئاً يستحق أن يخرج له من البيت ، أو يدخل إليه من الطريق ، وفيها من صور المآسى والمهازل ما يقطر دماً ، وماء حياة .

وفى السينما المصرية حب وغناء . والحب جميل إلا أن يكون حب اللمس والتشهى ، وصناعة الأجساد ؛ فهو جميـل فى النيرية والايثار فتضفيه على أخيك وصاحبك وجارك والناس جميعاً ، وجميل فى الأثرة والأنانية فتضفيه على نفسك بكسب المحامد فى بذل النعمة وإسداء المعروف . والغناء جميل فى حلاوة الصوت ، وعـذوبة اللحن ، ولطف الأداء ، وشرف المعنى ، لا أن يكون غنـاء تمجه الأذن ، وتستحي منه العذارى ، ويعافه اللسان العفيف .

وفى السينما المصرية نقص وبها حاجة إلى الأناة فى الانتاج . ولست هنا فى مقام نقـد

رواية بعينها ، أو التعرض لشخص بذاته ، وإنما هى رغبة صادقة فى الاصلاح ، ونداء من قريب ، إلى هؤلاء الذين يتصدون لهذا الامر فى مصر ، أن يحسنوا الاختيار ، ويترفعوا عن الاسفاف ، وأن يقتصدوا فيما يأخذون عن الغرب ، إلا ما سبقوا إليه من عدة أو صناعة ، فهم يرون أن حضارة الغرب لم تجعل منهم أمة صالحة فاضلة ، وهم يعلمون أن حظ الشرق من الدين والفكر والادب عظيم ، وأن كل ما فى الغرب أو كثيراً منه هو بعض هذا التراث ، مطموراً فى الجليد أو تراب الفحم ، محروماً من ضوء الشمس ووضح النهار .

عبد اللطيف ابراهيم

« جناية »

سيدى عميد الأدب العربى

تحية واحتراماً . وبعد ، ما كدت أنتهى من تلاوة الشطر الثانى من قصة « جناية » للأستاذ حبيب الزحلاوى فى العدد السابع من مجلة « الكاتب المصرى » ، حتى تذكرت قراءة هذه القصة فى مجلة « الرسالة » . فرجعت من ساعتى لمجلدات « الرسالة » أبحث فى فهارسها ، ولكن دون جدوى ؛ إذ لم أجد لها أثراً فى الفهارس . وقد غلبنى حب الاطلاع ودفعنى الاستفسار ألا أكتفى بالفهارس فقط ، بل صرت أقلب صفحات مجلدات « الرسالة » واحدة بعد الأخرى ، مراعياً نظام التسلسل فيها . نعم بقيت أقلب الصفحات أكثر من ساعة متحملا الجهد والعناء ، حتى وجدتها منشورة فى عدد (٦٠٤) من المجلدة الثالثة عشرة ، تحت عنوان « الجارم البرئ » فعجبت لهذا التغيير فى العنوان ؛ إذ كيف أجاز الأستاذ الزحلاوى لنفسه أن ينشر قصة واحدة بعنوانين فى مجلتين لها مكانتهما فى الأوساط الأدبية . فلذا جئتكم برسالتى هذه مستفسراً عن هذا النمط من الأدب . هل الأستاذ الزحلاوى بعث بقصته لكم كما بعث بها لمجلة « الرسالة » ؟ أم أنكم نقلتموها من « الرسالة » بعد أن غيرتم عنوانها ؟ وهل يجوز هذا ؟ أما أنا — مع قلة معرفتى بالأدب — فانى أستنكر هذه الطريقة من « الكاتب المصرى » التى انفردت دون سواها بالأبحاث الجديدة . نعم أستنكرها من المجلة لأنها الوحيدة التى نقلت آداب الغرب إلى اللغة العربية قبل أن تقرأ بلغتها الاصلية . فكيف أجازت لنفسها نقل قصة أكل الدهر عليها وشرب ؟

هذا وتفضلوا بقبول فائق احترامى يا سيدى العميد ؟

[عراق نعمانية] على ابراهيم الخطاوى

يؤكد سكرتير تحرير المجلة أنه لا يزال محتفظا بأصل القصة التى كتبها الأستاذ حبيب زحلاوى ، وأنه كان له فيما مضى من الثقة بأدب الأستاذ ما جعله يعمل على نشر هذه القصة ، والأستاذ حبيب زحلاوى يحترف مهنة التجارة وهو على علم بأصولها ، فما رأيه فى التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟

شهريات

شهرية العلم

اختفاء البكتريا

كنت فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ ألعب بمكروب مرض عادى وهو ستفيلوكوك ، وهو الميكروب الذى يسبب الأخرجة والدمامل وأمراضاً أخرى ، ولم أكن مشغولا فى بحث عميق . فقد قال بعضهم إنه يمكنه بطريقة ما أن يغير مظهر مستعمرات هذا الميكروب فأردت أن أعرف أهذا حقيق . وتستنبت تلك الميكروبات فى أطباق زجاجية مسطحة على مادة زرع تشبه الجلاتين (الهلام) ، وتغطى الأطباق بغطاء لكى يدرأ عنها التلوث بميكروبات الهواء . وفى أثناء بحوثى اضطررت أن أنزع الغطاء لكى أفحص نموها تحت الميكرسكوب ثم غطيت الطبق ثانية أوأزحته جانباً لفحصه بعدئذ . فكان نزع الغطاء هذا السبب فى حدوث متاعب بسبب التلوث من الهواء . وفى الواقع حدثت المتاعب إلاأن البنيسلين نتج من أحدها .

وهذا هو ما حدث : كان لدى طبق منبت مغطى بمستعمرات من الستفيلوكوك ، وفى أحد الفحوص وقعت بذور *spores* من البنيسليم *penicillium notatum* من الهــواء فى الطبق وهذه وجدت وسطاً مناسباً فنمت . ولما رأيت المزرعة عقب ذلك بحوالى خمسة أو ستة أيام كان بها مستعمرة من العفن . ولم يكن هذا غريباً ، فقد تصادف كل بكتريولوجى مثل تلك المتاعب ، فكان يرى المزرعة مصحوبة بالنعوت اللائقة بها . إلا أن تلك المزرعة بالذات أظهرت شيئا آخر ، إذ أن جميع مستعمرات الستفيلوكوك حول العفن ، وكانت قد نمت جيدا قبل ذلك ، قــد اختفت . وبدا كأن شيئاً قد أذابها .

ولقد أثارت هذه الظاهرة اهتمامى أكثر من المشكلة التى كنت مشغولا بهــا ، وكنت رأيت قبــلا ميكروبات تذوب ، وقد كنت شرحت منــذ بضع سنوات أن أشياء بسيطة مثل دموع الانسان أو بياض البيض قد تذيب كميات كبيرة من الجراثيم فى بضع ثوان حتى إن ما كان من قبل شيئاً معتما معلقاً مثل الحليب صار شفافاً ، غير أن الميكروبات التى تذيبها الدموع أو بياض البيض لم تــكن من النوع الذى يسبب الأمراض . ولــكن هنا مع العفن وجدميكروب يسبب المرض فى طريق الذوبان ، وليس هذا أمراً يجوز تجاهله

ثم لمست سطح مزرعة العفن بسلك بلاتين معقم ، وأخذت بضعة بذور ونقلتها إلى أنبوبة مزرعة جديدة ، وهكذا توافر لى عفن ينمو نقياً وأمكننى أن أعبث به وقت الفراغ كما أريد .

وأول ما فعلت هو أنى نقلت بضعة بذور من مزرعتى الجديدة (العفن) إلى طبق مزرعة جديدة وتركتها تنمو مدة خمسة أيام ، ثم مددت من مستعمرة العفن إلى حافاته تشكيلة من الميكروبات المختلفة ثم أودعت الطبق فى جهاز التفريخ ولما نظــرته فى اليوم التالى كانت النتيجة تدعو لكثير من الاهــتمام ،

لبضعة ميكروبات لم تكن تنمو فى أية جهة بجوار العفن وميكروبات أخرى نمت لناية العفن .

والآن بدأنا معرفة شيء عن العفن ، وكان من الواضح أنه فى نموه أنتج شيئاً انتشر فى مزرعته .

فكان لهذا الشيء تأثير فى بعض الميكروبات دون بعضها الآخر . وهكذا أخذت أهمية المسألة تزداد أكثر فأكثر .

والشيء التالى الذى فعلته هو أنى زرعت العفن على مزرعة سائلة بدلا من الهلام الجامد فزرعت بضعة بذور على سطح السائل وفى بضعة أيام صار سطح السائل مغطى بنمو سميك متعرج من العفن يشبه اللباد ، واتخذ السائل الذى تحته لوناً أصفر فاقعاً . ثم أخذت بعض السائل الأصفر واختبرت خواصه بنفس الطريقة التى اتبعتها قبلا ، وذلك بأن نزعت قطعة من الهلام من طبق مزرعة وملأت الحفرة التى نشأت بالهلام المحتوى على سائل من مزرعة العفن ، ثم طعمت طبق المزرعة بميكروبات مختلفة بعدها من الحفرة المذكورة إلى حافة الطبق وكانت النتيجة مماثلة تماماً لما حدث فى المشاهدة السابقة ، فبعض الميكروبات لم تكن لتنمو بجوار الحفرة والأخرى نمت حتى وصلتها . وهذا يرينا أن المادة المطهرة أياً كانت التى كونها العفن لم تكن ضمن نفس مادة العفن بل وجدت فى السائل الذى نمت فيه .

وبالمصادفة أن الطريقة المذكورة هى المتبعة الآن عادة لمعرفة الجرثومة المسببة للعدوى فى مريض ما أهى حساسة للبنيسلين . فاذا كانت الجرثومة لا تنمو لغاية البنيسلين فهى حساسة لتأثيره ويصبح الأمل عظيما فى أن يكون العلاج بالبنيسلين ناجحاً . أما إذا كانت الجرثومة تنمو لغاية البنيسلين فان الأمل يكون قليلا فى العلاج بالبنيسلين .

ومما تقدم نكون قد حصلنا على مادة تمنع نمو بعض الجراثيم التى تنقل لنا العدوى عادة . ثم اختبرت منتخباً صغيراً من أنواع العفن الأخرى ولكنها لم يكن لها أى مفعول كهذا .

ثم اختبرت درجة قوته بعمل تخفيفات لأرى إلى أى حد يمكن أن يخفف قبل أن يفقد مفعوله فى منع نمو جرثومة حساسة . وقد اختلفت أنواع النمو ، إلا أن أحسن ما وصلت إليه أمكن تخفيفه ١٠٠٠ ضعف قبل أن يفقد قوته المنعية . ويمكن أن نقارن هذا بحامض الكربوليك وهو مطهر قديم نموذجى . فاذا خففنا حامض الكربوليك أكثر من ٣٠٠ ضعف فانه لن يمنع نمو الجراثيم . إذن فان العفن أنتج مطهراً كانت قوته ثلاثة أضعاف قوة حامض الكربوليك على كثير من الجراثيم .

وإلى هنا سئمت الكلام « عن سائل العفن » . لذا سميت الناتج « بنيسلين » لأن العفن الكامل التطور أو النمو يشبه قلماً أو فرشاة مما يسمى بنيسلين .

ثم حقنت بضعة حيوانات بقليل من البنيسلين فوجدت أنه على ما يبدو لم يكن له أى خواص سامة ، وهذا يختلف عن كافة المواد المطهرة المعروفة . وهذه نقطة فى غاية الأهمية .

لأنى قبل ذلك بحين كنت تقدمت بطريقة أثبت فيها أن المواد الكيماوية المطهرة المعتادة كانت أكثر تسمما لخلايا الدم منها للبكتريا .

ودم الانسان مهم فيما يختص بالبكتريا ، فهو يحتوى على خلايا الدم البيضاء leucocytes وهى مبيدة قوية للجراثيم ، وهى تتكون فى نخاع العظم وتسير فى الدورة وعند ما تنفذ الجراثيم إلى الجسم وتبدأ فى النمو تخرج خلايا الدم البيضاء من الأوعية الدموية إلى النقطة التى بها العدوى وتبذل جهدها فى أن تهزم الجراثيم بأن تأكلها وتهضمها .

فاذا كانت الجراثيم قليلة والخلايا لا تأكل منها الكثير أمكنها أن تهضمها جيدا ، إلا أن الخلايا نهمة — مثل الكثيرين منا — ، وهى على

استعداد لأن تأكل كمية أكثر جدا مما يمكنها هضمه ، وفى هذه الحالة تستمر بعض الجراثيم فى النمو فى الخلايا ، وعندئذ تباد الخلية لا الجرثومة . فاذا تغلبت الجرثومة على الهجوم الأولى للخلايا فحينئذ ينتج خراج أو دمل أو طلوع أو أردأ من ذلك ؛ لأنك إذا أخذت قيحاً من خراج ما ، وجدته عبارة عن تجمع من خلايا الدم البيضاء فى سوائل تحتوى على جراثيم .

إذا أخذت دما وفرخته فى أحوال مناسبة مع الستافيلوكوك (جرثومة الدمل أوالخراج) فان ٥ ٪ أو أقل من الجراثيم تبقى حية ، فاذا أضيف إلى هذا الدم المغذى بالجراثيم حامض كربوليك بنسبة ١ــ٦٠٠ فان جميع الميكروبات تظل حية ؛ وذلك لأن محلول حامض الكربوليك بنسبة ١ــ٦٠٠ سيميت خلايا الدم دون أن يعوق نمو الجراثيم . ووجدت نفس الشيء فى جميع المطهرات المستعملة ، وأول مادة جربتها وأثرت فى الجراثيم أكثر من خلايا الدم كانت البنيسلين ؛ وقد كان فى هذا خاصة ما أقنعنى أنه سيحتل المكان اللائق به فى علاج المرض الجراثيمى .

وفى ذلك الوقت كان لدينا بنيسلين خام ، بيد أنه يجدر بنا أن نوضح لكم مقارنة بين مفعول البنيسلين النقى فى خلايا الدم والجراثيم ومفعول المطهرات الأخرى المعروفة فيما يأتى :

التخفيف يؤثر فى

	كريات الدم البيضاء	الستربتوكوك جرثومة سبحية	النسبة
حامض الكربوليك	١ــ١٢٠٠	١ــ٣٠٠	١ــ٤
T. C. P.	١ــ٨	١ــ٢	١ــ٤
أكروفلافين	١ــ٥٠٠٠٠٠	١ــ١٠٠٠٠٠	١ــ٥
سلفانيلاميد	١ــ٢٠٠	١ــ٢٠٠٠٠٠	١٠٠٠
بنيسلين	١ــ١٠٠	١ــ٨٠٠٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠

وإنى أوجه التفات القراء إلى الرقم ١ــ٨٠٠٠٠٠٠٠ فانه بالطبع يمثل البنيسلين النقى (لا النوع الخام الذى كنا نتداوله منذ ١٥ سنة مضت) . ولكن هل تدركون ما هو المعنى الحقيقى لجزء من ثمانين مليوناً ؟ ولما كنت أسكتلنديا فسأقرب المسألة لأذهانكم فأقول : هذا يمثل نقطة من الماء فى ٦٠٠٠ زجاجة ويسكى ، ولو انه من الصعب فى يومنا هذا أن نتصور ٦٠٠٠ زجاجة ويسكى .

وهذا الجدول يبين أحد الفوارق بين المطهرات القديمة والمطهرات الحديثة ؛ فان المطهرات القديمة التى تتلف خلايا الدم بسهولة أكثر من إتلافها للجراثيم لم تكن ذات تأثير فى علاج العدوى داخل الجسم مع أنها قد تكون قوية جداً خارجه .

وثمة ملاحظة أخرى أبديناها فى تلك الأيام ولكنها لم تنشر إلا فى الوقت الحاضر وهى عبارة عن مقارنة أخرى بين البنيسلين وبعض المطهرات القديمة ؛ فقد ثقبنا أقراصاً من طبق به مزرعة هلامية ، وفى الثقوب الناتجة وضعنا أقراصاً من ورق النشاف منقوعة فى مطهرات مختلفة ، ثم ملأنا الثقوب بهلام جديد ، ولما تجمد الهلام زرعنا جراثيم على كل سطح الطبق .

ولكيما يؤثر المطهر فى الجرثومة يجب أن ينتشر مجتازاً حوالى $\frac{1}{4}$ بوصة من الهلام ، فكان البنيسلين هو الوحيد الذى فعل ذلك ،

بل المحلول الخفيف منه أوقف نمو الجرثومة فى مساحة قطرها بوصة ، وأجرى كل هذا فى سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ، وقد نتساءل لماذا لم تستمر تلك البحوث إذا كانت فائدتها بهذا المقدار ؟ ولكن الذى غلبنا فعلا هو عدم ثبات البنيسلين ، بحيث إذا أنمينا مزرعة منه لمدة عشرة أيام فانها تكون فعالة جدا . أما إذا تركت لمدة خمسة أو ستة أيام أخرى فربما اختفت فاعليتها تماما . ثم إنى بكتريولوچى فقط ولست كيميائيا ، ولم تنجح مجهوداتى ومجهودات زملائى البكتريولوچيين فى مستشفى سانت مارى فى تركيز أو تثبيت المادة الفعالة ، وقد كان ينقصنا كيميائيون ماهرون لمساعدتنا .

وعقب ذلك بحوالى سنة تناول مشكلة استخراج البنيسلين كيميائى ماهر جداً وهو الأستاذ ريسترك بلندرة ، فانه أنمى العفن فى سائل بسيط يحتوى على أملاح قليلة وقليل من السكر ، وقد أمكنه أن يبرهن على أن العنصر الفعال يمكن إذابته فى حامض الأثير . وكل التجارب عن البنيسلين كانت بكتريولوچية ، إلا أن معاونته البكتريولوچية لم تحقق أمله فترك المسألة واشتغل ببحوث أخرى .

وكنا فى مستشفى سانت مارى ينقصنا الكيميائى ، وكان ريسترك ينقصه البكتريولوچى وهكذا ظلت المسألة ساكنة ثمانى سنوات ، إلا أننا داومنا عمل المزارع طيلة ذلك الوقت فى مستشفى سانت مارى . وإنى أحتفظ فعلا بالمزرعة الأصلية التى لاحظنا فيها تأثير البنيسلين وما زالت عندى فى معمل ذلك المستشفى ، وفى خلال ذلك كنا نستخدم البنيسلين الخام فى معمل سانت مارى ، وهذا لغرض سهولة عزل جراثيم معينة من الجسم . وكان المعتاد أن عزل باسيل السعال الديكى هو من الصعوبة بمكان ، إذ أنه يكون فى الجسم غالباً مصحوبا بجراثيم أخرى . وباسيل السعال الديكى غير حساس للبنيسلين فى حين أن كل مسببات التلوث التى تصاحبه حساسة تقريباً له ، ولذلك فاننا إذا وضعنا قليلا من البنيسلين على المزرعة فان الجراثيم الملوثة لا تنمو ، على حين يستمر باسيل السعال الديكى فى النمو .

وقد قرر فلور وشين فى سنة ١٩٣٨ فى أكسفورد أن يقوما بأبحاث فى المطهرات التى تنشأ فى الطبيعة . وكانت أبحاثهما مبنية على lysozque وهى المادة المذيبة للبكتريا فى الدموع وبياض البيض التى وصفتها فى سنة ١٩٢٢ ، وبعد دراسة المراجع وصلا إلى أنه قد يكون من المفيد أن يحاولا تركيز البنيسلين ، وقد استخدما مزرعتى ومزرعة ريسترك وطريقة استخراج مثل ما اتبعه ريسترك تقريباً من قبل ، إلا أن كل الفرق كان فى طريقة الاستخراج ، فنجحا فى تركيز العنصر الفعال وتجفيفه فى شكل مسحوق أصفر ، وقد جربا مفعوله على البكتريا فأيدا نتائجى القديمة ، وحقنا به الحيوانات واثبتا أنه حتى المادة المركزة منه كانت بلا ضرر وكانت أيضاً لا تضر الدم .

ثم إنهم أعدوا الجرذان ببضع جراثيم معينة كالستربتوكوك والستفيلوكوك vitrion septique التى تسبب دائماً موت الحيوانات ، وقد عالجوا بعضها ببضعة مليجرامات من مسحوق البنيسلين والبعض الآخر لم يعالجوه ، فالتى لم تعالج ماتت كلها فى مدة سبع عشرة ساعة وعاشت كل الحيوانات التى عولجت ، فبرهن هذا على قوة البنيسلين الباهرة .

ثم جرب فى الانسان ، وإن لم تكن النتائج الأولى ذات حظ كبير من التوفيق ، فانها أظهرت بوضوح أن البنيسلين كان عاملا قويا ضد بعض أنواع العدوى العادية المعروفة .

وقد وسعوا مدى صناعته فى أكسفورد ولكن فى ذاك الوقت (سنة ١٩٤٠) كان صانعو الأدوية بانجلترا مشغولين جداً

بالمجهودات الحربية لدرجة لا تسمح لهم بالوقت الذى يحاولون فيه الانتاج على نطاق واسع، فطار فلورى إلى أمريكا ، وبفضل مساعدة الدكتور ريتشاردز اتصل بالدكتور كوجهل من بيوريا وبضعة مصانع أمريكية للأدوية فزودهم بجميع المعلومات التى توصل إليها ، وبقى بأمريكا أحد معاونيه الدكتور هيتلى ليساعدهم فى بداية تحضير البنيسلين .

وهنا كان أول ما ظهرت الولايات المتحدة فى منظر البنيسلين ، إلا أنهم شرعوا فى العمل فتطورت طرق الصناعة إلى أن صار الانتاج الآن موازياً تقريباً للطلب . وقد توصلوا أيضاً إلى تحسين المزارع التى ينمو فيها العفن حتى زاد الانتاج حوالى عشرة أضعاف . وحدث بالمصادفة أن جميع البنيسلين الموضوع فى ذلك الوقت حضر من نسل بذور العفن التى لوثت طبق مزرعتى فى مستشفى سانت مارى فى سنة ١٩٢٨ .

فأولا صنع كل البنيسلين بانماء العفن على سطح المزرعة فى زجاجات — ألوف منها — ولكن عقب ذلك ابتكرت طريقة بانمائه فى قاع مزارع فى أحواض . وأظن أن أكبر أحواض استخدمت لهذا الغرض كانت سعتها ١٥٠٠٠ جالون ، وهذا مما ساعد الانتاج كثيراً جداً وأمكن به معالجة كل مصابى الحرب على شاطئ المحيط الاطلانطيق فأنقذ حياة رجال كثيرين لولاه كانوا من الهالكين .

سير الكسندر فلمنج

نقلها عن الانجليزية دكتور عيسى حمدى المازنى بك

شهرية السياسة الدولية

شهر حافل

حفل الشهر الذى ينقضى ساعة كتابة هذه الشهرية فى العشرين من مايو بالحوادث الدولية، وقد عقدت خلاله الدورة الثالثة من دورات مجلس الأمن الدولى بمدينة نيويورك ، واجتمع مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة فى مدينة باريس ، وأذيع تقرير لجنة التحقيق الانجليزية الأمريكية عن فلسطين ، وجرت المفاوضات بين رئيس الوزارة الايرانية وزعيم الوطنيين فى أذربيجان.

فى مجلس الأمن

وكان جدول اعمال مجلس الامن متضمناً الموقف الايرانى السوفيتى ، ومسألة الحكم فى اسبانيا ، وكذلك النظر فى طلبات الانضمام إلى هيئة « الأمم المتحدة » ، واللائحة الداخلية .

وكان الموقف الايرانى السوفيتى معلقاً ، وكان تعليقه راجعاً إلى أن الاتحاد السوفيتى كان قد اعلن ان جلاء الجيش الأحمر عن الاراضى الايرانية سيتم فى السادس من شهر مايو من ناحية ، وإلى أن مندوب الاتحاد السوفيتى كان قد أعلن أنه لن يحضر جلسات يعرض فيها المجلس لذلك الموقف ما دام قد رفض رأيه فى عدم الاحتفاظ بالموضوع فى جدول الأعمال . وكان المجلس قد قرر الاحتفاظ به إلى أن تخطره الحكومه الايرانية بتمام الجلاء . فلما انقضى اليوم السادس قرر المجلس أن يعرض للموقف فانسحب الرفيق جروميكو المندوب السوفيتى من الاجتماع تنفيذاً لسابق إخطاره ، وقرر المجلس فى غيبته أن يؤجل عرضه إلى اليوم العشرين عسى أن تصل إليه خلال الأسبوعين ما يؤكد له الجلاء . واليوم ينتهى الأسبوعان ولم يلح فى الأفق شئ مادى جديد اللهم إلا ذلك الخطاب الذى ألقاه سفير إيران فى الولايات المتحدة ، وقد ذكر فيه أنه لم يتلق من حكومته أى نبأ يدل على تمام الجلاء . وإذن فالحال فى مجلس الأمن الدولى بالنسبة للموقف الايرانى السوفيتى لم يتبدل : يستمسك الاتحاد السوفيتى بأنه ليس للمجلس اختصاص النظر ، إذ لا خلاف بعد أن أعلن رئيس الحكومة الايرانيــة أن الأمور بين إيران وروسيا قد سويت ، ويستمسك المجلس بالاحتفاظ بالموقف ضمن جدول أعماله إلى أن تصل إليه أنبــاء رسمية من الحكومتين الايرانية والسوفيتية بتمام الجلاء . وأغلب الظن أن الدورة الرابعة ستشهد مثل ما شهدته الثالثة : كل متشبث بنظريته ، وكل راض بمواقعه .

أما الموقف الأسبانى وهو الذى نشأ عما تقدمت به بولاندا من اقتراح إعلان « النظام الفرنكى » — الذى تحكم به أسبانيا الآن — مهدداً للسلم والأمن الدولى ، بحيث ينبغى أن تتخذ قبله الاجراءات المنصوص عليها فى ميثاق الامم المتحدة من قطع العلاقات وتوقيع العقوبات الاقتصادية ، ثم الالتجاء إلى وسائل العنف

إذا اقتضتها الحال . وقد تغلب مجلس الأمن فى دورته المنقضية على صعوبة هذا الموقف الأسبانى بأن أحاله إلى لجنة دراسة وتحقيق قدمت إليها الأسانيد والمذكرات التى أخذت تكشف عن اتصالات وثيقة طوال الحرب العالمية الثانية بين فرانكو وهتلر وبين الادارة الأسبانية والسياسة الألمانية . لكن نتيجة تلك الدراسة وذلك التحقيق لم تبلغ بعد إلى هيئة المجلس ، وسيكون أمرها محل نظره بلا ريب خلال الدورة الرابعة التى بدأت منذ يومين .

وكان جدول الأعمال متضمنا كذلك مسألة قبول أعضاء جدد فى هيئة الأمم المتحدة ، وكانت ألبانيا بالذات محل طلب من طلبات القبول . ودخول ألبانيا تحبذه روسيا ، وتتأنى فيه — إن لم تعارضه معارضة — بريتانيا العظمى ؛ إذ لا ترضى عنه اليونان « الحالية » وثيقة الصلة بها . وقد أثارت أستراليا اعتراضاً شكلياً إذ رأت أن طلبات الانضمام يجب أن تعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل أن تعرض على مجلس الأمن . لكن مجلس الأمن قرر باجماع العشرة الأعضاء — غير أستراليا — أن الأمر من اختصاصه ، ولكنه أحال طلب ألبانيا بالذات إلى لجنة فرعية للدرس وتقديم التقرير . . .

وكانت اللائحة الداخلية هى آخر ما عرض له المجلس فنظرها وأقرها فى وقت قصير ، وقد كان فى حاجة قصوى إليها . إذ عمل طوال الدورات الثلاث الأولى دونها فكان حمل الرؤساء ثقيلا إذ كان عليهم أن يبتكروا الحلول من تلقاء أنفسهم ،

وقد تميزت تلك الدورة الثالثة بأن ألقى رئيسها — وكان هو مندوب مصر الدائم حافظ عفيفى باشا — خطابا ختامياً على غير العادة المتبعة . والعادة المتبعة هى أن يشكر أحد الاعضاء الرئيس الذى تنتهى دورته ، فيرد الرئيس بكلمات قليلة عامة ويسلم الرئيس الجديد زمام المجلس . وقد تقدم المندوب البريتانى يشكر الرئيس لمناسبة انتهاء دورة رئاسته ، لكن عفيفى باشا بدل أن يقتصر على مجرد الشكر وعموم التعبير ألقى خطابا سجل فيه الشعور بخيبة الأمل ؛ إذ تتطاحن الدول الكبيرة بعضها مع بعضها الآخر ، وإذ لا تزال تتنافس فى سبيل السيطرة دون عناية بمبدأ المساواة مع الدول الصغيرة ، وإن كان قد رجا آخر الأمر ألا ييأس الناس يأساً ، فالمجلس لا يزال مبتدئاً ، والمبادىء التى قامت الحرب العالمية الثانية من أجل تحقيقها قد تعود من جديد إلى الايمان . . .

مؤتمر وزراء الخارجية

وعقد مؤتمر وزراء الخارجية للولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا فى قصر لوكسمبور بباريس فى الخامس والعشرين من شهر أبريل وتتابعت اجتماعاته ثلاثة أسابيع سويا .

وكانت «المعاهدة الايتالية» هى أول المسائل الواردة فى جدول أعماله ، وكانت مشاكل المستعمرات والتعويضات وتريستا والحدود الايتالية والحدود النمسوية ، هى أهم ما يتصل بشؤون تلك المعاهدة .

فلما جاء دور المستعمرات ، وبدا الحديث لمناسبتها بطرابلس الغرب — برقة وطرابلس وفزان — تقدمت روسيا باقتراح منحها الوصاية على طرابلس مقابل منح انجلترا وأميريكا الوصاية على برقة ، ومع استعدادها لأن يكون إيتالى وكيلا لحاكم طرابلس

السوفيتى . فتقدمت بريتانيا العظمى باقتراح إعلان استقلال « طرابلس الغرب » دولة موحدة تضم طرابلس وبرقة . ولم يكن فى الواقع هذا الاقتراح البريتانى إلا اقتراحاً « مسرحياً » إذ لم تمض على إذاعته ساعات حتى عاد مستر بيفن وزير الخارجية البريتانية يستمسك بالوصاية على برقة ، ثم يقول إن انجلترا وعدت السنوسيين بعدم عودة الايتاليين إلى بلادهم بحال ، ثم راح يجمع بين برقة وطرابلس فى السنوسية والوعد بعدم الاعادة إلى إيتاليا . ولم يصل المؤتمر فى هذا الصدد إلى حل وأرجع الموضوع إلى مجلس وكلاء وزراء الخارجية يدرسونه من جديد ويتقدمون فى شأنه بمقترحات جديدة .

وكذلك كان الحال بالنسبة لتريستا التى تستمسك روسيا بضمها إلى يوجوسلافيا ، وتستمسك أميريكا بضمها إلى إيتاليا . ويلوح فى الأفق اتجاه جعلها ميناء حراً لايتاليا ويوجوسلافيا وأوربا الوسطى جميعاً .

أما التعويضات فقد أبدت روسيا تساهلا بالنسبة لما كانت تطالب به نصيباً لها واكتفت بثلاثمائة مليون من الدولارات ستدفع إليها من قيمة ما تصدره الولايات المتحدة لايتاليا من الاعانات ، حتى لا تثقل كاهلها فتحول دون نهضتها الاقتصادية التى تريدها لها أميريكا وبريتانيا العظمى .

وكانت مسألة الحدود بين إيتاليا وفرنسا هى التى أصاب حلها التوفيق دون عناء ، فأدخلت بعض المناطق الايتالية ذات الصبغة الفرنسية الواضحة من حيث اللغة ومن حيث الميول الشعبية فى الأراضى الفرنسية ، وكذلك بعض المناطق التى تصحح مواقع فرنسا الاستراتيجية .

وظلت مسائل الرور والادارة الألمانية ومعاهدات النمسا والمجر ورومانيا وبلغاريا دون عرض وبالتالى دون حل إلى أن يعود المؤتمر إلى الانعقاد فى الخامس عشر من شهر يونيه . لكن النمسا وإيتاليا قد دعيتا لا يفاد مندوبين عنهما للتقدم بوجهات نظرهما فيما يختص بالحدود بينهما إلى وكلاء وزراء الخارجية الذين يعملون هذه الأسابيع .

على أن أمراً جليا بالنسبة لايتاليا قد تم وهو تعديل شروط الهدنة القاسية إلى ما هو أقل قسوة وأكثر فسحاً لميادين النشاط والعمل خلال فترة الانتقال من الوضع غير العادى الذى نشأ عن الاستسلام إلى الوضع العادى الذى يتلو توقيع المعاهدة فى مؤتمر الصلح الذى لم يحدد بعد موعده .

تقرير فلسطين

أما تقرير لجنة التحقيق الاميريكية البريتانية عن فلسطين فلم يرض أحداً رغم صدوره باجماع الآراء . وهو لم يحقق للصهيونية حلم الدولة اليهودية من ناحية ، وهو لم يدع مجالا لأمل عند العرب من ناحية ثانية ؛ إذ اوصى بفتح باب الهجرة وبرفع القيود عن نظام بيع الأراضى ، وهما الوسيلتان اللتان يألم منهما العرب ويعتبرونهما أداة استيلاء الصهيونية على بلادهم وإخراجهم من ديارهم .

وقد كان لاذاعة ذلك التقرير اسوأ الأثر فى البلاد العربية جميعاً ، فقامت حكوماتها وهيئاتها تحتج وتضرب إعلاناً عن استنكارها ورفضها ، وتوج ذلك كله باجتماع لرؤساء الدول العربية يتلوه انعقاد دورة استثنائية خاصة لمجلس جامعة هذه الدول .

أذربيجان

وتبقى مسألة أذربيجان ، وقد بلغت من التطور أن دارت لمناسبتها مباحثات بين رئيس الوزارة الايرانية وزعيم الحركة الأذربيجانية ورئيس حكومتها الفعلية قصد الوصول إلى حل يوفق بين الأوضاع الدستورية الايرانية والمطالب القومية لأهل تلك المنطقة ، وهى — على حد ما عبر عنه الزعيم الأذربيجانى نفسه — غير انفصالية ، إذ تعترف بالبقاء فى نطاق الدولة الايرانية الكبرى على أن تحظى بالاستقلال الذاتى متميزة بلغتها فى مدارسها وفى جيشها وفى إدارتها .

وأغلب الظن أن الأمور متجهة إلى التغلب على الصعوبات والتفاهم ، رغم ما يقيمه «الرجعيون» فى نظر رئيس الوزارة الايرانية من عقبات ، وهم يذهبون فى إقامة هذه العقبات إلى حد الاستعانة بسفارات بعض الدول الأجنبية فى طهران ، فى حين أن قوام السلطنة يريد أن يعادل بين موقف إيران من انجلترا وأميريكا والاتحاد السوفيتى دون أن يكون لدولة أجنبية أى تدخل فى شؤون بلاده .

محمود عزمى

أول بختى تأليف سليمان نجيب بك

وسليمان نجيب بك فى غنى عن تقديمه للجمهور المصرى الذى عرفه منذ زمن بعيد ممثلا ومؤلفاً . وها هو ذا الآن يقدم لنا على مسرح دار الأوبرا الملكية مسرحية باللغة العامية من تأليفه أسماها « أول بختى » . ولا أرى مسوغاً لالتجاء المؤلف إلى اللغة العامية فى هذه المسرحية ؛ فإنها لم تساعده مطلقاً على إتقان الحوار اللهم إلا فى الفصل الثانى ، ولم تساعده على صبغ هذا الحوار بالفكاهة الحلوة أو النكات المستحبة . وقد ذهب المؤلف أحياناً إلى استعمال ألفاظ كنا نود ألا نسمعها على مسرح دار الأوبرا الملكية ومن الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى .

و«أول بختى» مسرحية فى ثلاثة فصول ، تزجى إلينا قصة رجل طلق امرأته بعد أن أنجب منها ولدين — أحدهما متزوج — ليتزوج هو أيضاً من امرأة لعوب لم يرق له العيش معها ، فأراد الطلاق منها ، ولكنها خلقت له مصاعب عدة لم تنقذه منها إلا زوجته الأولى . ولست أرى فى القصة شيئاً من الطرافة ؛ إذ أننا رأينا هذا الموضوع أو ما يشابهه فى كثير من الأفلام الأمريكية حتى مللناه .

وحوار الفصل الأول مفكك لا تربطه أية صلة . فالأشخاص يتنقلون من موضوع إلى آخر دون أن يدفعهم إلى ذلك أى دافع . ولم يكن هذا التنوع فى الحديث من مستلزمات القصة ، ولكنه نتيجة ضعف التأليف . من ذلك هذا الدرس الذى يلقيه الابن الأكبر على امرأته من وجوب الحضور إلى المسارح قبل رفع الستار ؛ لأن التأخير يقلق الجمهور والممثلين .

وجاء الفصل الثانى متقنا تمام الاتقان ؛ فالحوار لذيذ ممتع مطبوع بروح الفكاهة والمرح .

وبانتهاء الفصل الثانى كان لا بد أن تنتهى المسرحية ؛ إذ يتبادر إلينا منه أن الزوجة المطلقة لا بد عائدة إلى زوجها ما دامت تستجيب لدعواته إلى العشاء والذهاب إلى السينما . ولكن المؤلف أضاف فصلا ثالثاً ليس له شأن فى حوادث المسرحية مطلقاً بل يعتبر إطالة لا تستساغ .

وقد لاحظنا أن الممثلين والممثلات دائبون على الاستهتار بجمهورهم ؛ فلم يكن أحدمنهم قداستذكر دوره ، فزادذلك الحوار تفككا . لقد كانت تمضى بين السؤال وجوابه دقيقة يتمكن فيها الممثل من الاستماع إلى الملقن ، فليعلم أعضاء الفرقة المصرية أن الجمهور المصرى غير مشغوف بصوت الملقن ، وأنه لا يذهب إلى المسرح ليستمع إلى الملقن بل ليستمع إلى الممثلين أنفسهم . فعلى هؤلاء الممثلين التزامات نحو هذا الجمهور ، والاستهتار بهذه الالتزامات معناه الاستهتار بالفن نفسه . فالممثلون هنا يقترفون خطيئة مضاعفة نحو الفن والجمهور . وهذه الخطيئة المضاعفة لا تؤدى إلا إلى انهيار المسرح المصرى انهيارا لن تقوم له بعده قائمة .

ولا أجد مناصا من الثناء على اثنين من الممثلين هما فاخر فاخر ، والسيدة إحسان شريف ، فكلاهما قام بدوره خير قيام فلا تكلف

فى تمثيله ولا تصنع على الاطلاق . أما الآخرون فنهم من كان لا يمثل مطلقاً مثل سراج منير ، ومنهم من أثار سخطنا بصوته الذى تنفر منه الآذان مثل زينب صدقى ، ومنهم من لازم أسلوبا تمثيلياً لا يقبله الذوق لمنالاته فى التكلف مثل فؤاد شفيق .

رشدى كامل

شهرية السينما

زوار المساء (انتاج جاك هايك) (١)

تنفرد الآن الأفلام الفرنسية بتقديم آيات فنية رائعة ، فيها من الابتكار والتجديد ما يبوئها المكانة الأولى فى عالم التمثيل . وليس الابتكار والتجديد فى أسلوب القصة فحسب بل فى الاخراج والتصوير أيضاً . وفيلم « زوار المساء » هو البرهان القاطع على هذا التقدم الهائل الذى يحمل لواءه الفن السينمائى الفرنسى ، مما جعل الأفلام الامريكية تبدو الآن قليلة الشأن ركيكة الأسلوب ، متخاذلة باهتة .

و « زوار المساء » تجذب المرء بقوة تعبيرها وتفرده . فالفكرة فى القصة بسيطة جداً ، وهى أن الحب أقوى من كل شىء . فهو قوة لا تقهر مهما كان السلاح الذى يحارب به . فتاة أحبت فتى ما هو إلا رسول الشيطان إلى الارض ، وقد قطع على نفسه عهداً ألا يقع فى شراك الحب . ولكن الحب كان أقوى من عهده ، فأحب الفتاة وأولع بها حتى نسى عهده ونسى المهمة التى من أجلها أوفده الشيطان إلى الأرض . ولكن هذا الكلف الشديد أغضب الشيطان ، فحضر بنفسه إلى الأرض وفصل بين العاشقين بأن تسبب فى سجن الفتى . ولكنهما واصلا الحب واللقاء حتى فى السجن . والفتاة بائسة لأن عشيقها حرم الحرية والنور ، فيستنزل الشيطان بؤسها لينتزع منها العهد بأن تكون له إذا ما أطلق الحرية للفتى وأنساه عشيقته ، فعاهدته على ذلك . ويخرج الفتى من سجنه وقد نسى فتاته ، ولكن شيئاً خفياً يدفعه إليها ، وهو لا يدرى له كنها . وما تكاد الفتاة تلحق به حتى يعرف أنه يحبها . لقد أخفق الشيطان للمرة الثانية فى فصل العاشقين وإخماد جذوة الحب فى قلبيهما . وبينا هما متعانقان يحاول للمرة الأخيرة أن يخمد هذه الجذوة فيحولهما إلى تمثالين من حجر . ولكن ما هذا الصوت الذى يسمعه ؟ يقترب منهما فيتبين أنه دقات قلبيهما .

وقد أتى المخرج بأسلوب جديد فى إخراج الرواية يلائم صبغتها الخيالية تمام الملاءمة . عند ابتداء الشريط تكون الشاشة سوداء إلا ركنا صغيراً منها على هيئة دائرة تأخذ فى الكبر شيئا فشيئا حتى تملأ الشاشة . وهذه النقطة المضيئة ما هى إلا فارسان متجهان

---

(١) Les Visiteurs du Soir (*Production Jacques Haïk*) .

نحو قصر من قصور العصور الوسطى . وقد راقنا أيضا وقف الحركة فى المنظر الذى أراد فيه رسول الشيطان أن يستأثر بالفتاة التى أحبها ، فوقفت زميلته الحياة فى القصر — وقد كانت هناك مأدبة والمدعوون يرقصون على أنغام الموسيقا ، فترى الراقصين قد ثبتوا فجأة بيناهم يتحركون والموسيقا تقف فجأة كأن اسطوانة مسجلة وقفت وهى تدور . وأخيراً نذكر منظر المباراة الذى يظهره الشيطان على سطح جدول ماء فيبدو كأنه صور متحركة على شاشة دار للعرض .

وقد قام مسيو چول بيرى بدور الشيطان ، فأدهشنا برشاقته أولا ؛ لأن مسيو چول بيرى رجل مسن ، وما كنا لنتصور أنه يستطيع أن يأتى بهذه الحركات الرشيقة ، وهذا التلاعب فى نبرات صوته ، وهذه النظرات والضحكات الشيطانية التى كثيراً ما ارتعد لها النظارة . ولم نؤد حقه من الثناء إن لم نتكلم عن المنظر الختامى حينما يحول الشيطان العاشقين إلى تمثالين من حجر ، فيسمع دقات قلبهما فيجن جنونه ، ويأخذ فى الصياح : « إن قلبهما يخفق . . . . يخفق . . يخفق . . . » ويكرر كلمة يخفق على وزن دقات القلب . وهذا يدل على براعة فنية فائقة فى التمثيل .

ومدام مارى ديا والممثل الجديد ألان كونى أهل للثناء أيضاً . فقد وفقا كل التوفيق فى أداء دورى العاشقين اللذين انتصرا بحبهما على ألاعيب الشيطان .

وقصارى الكلام أن هذا الفيلم قد جاء آية فنية رائعة موفقة قصة وإخراجا وتمثيلا . ولا عجب فى ذلك فان فرنسا هى مبعث الفن والذوق المترف فى العالم بأسره . ونود لو أن الانتاج السينمائى الفرنسى يلازم دائماً هذا الأسلوب الرفيع .

لص غابة شروود (كولومبيا) (١)

من العبث أن يحاول مشاهد هذا الفيلم أن يبحث عن حقيقة تاريخية فى حوادثه أو أن يحدد العصر الذى تجرى فيه هذه الحوادث . فالمخرج حرص كل الحرص على أن يخفى اسم الملك أو الوصى ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وحرص أيضاً على ألا يذكر تاريخاً ما تيسر له ذلك . وكل ما أدلى به من حقائق هو أن الفيلم يجرى فى غابة شروود فى عصر وصى طاغية اغتصب الملك من ملك ما زال طفلا ، وعبث بالدستور الانجليزى المجنا كارتا عبثا جعل اللورد هنتنجدون يثور هو وأعوانه على هذا النظام الاستبدادى . واللورد هنتنجدون ما هو إلا روبين هود ، تلك الشخصية الخرافية التى تمثل روح الشعب الانجليزى وطموحه إلى الحرية وتمسكه بحقوقه . فينسحب اللورد إلى غابات شروود ويستدعى ابنه وهو شاب شجاع ماهر فى شؤون الحرب ، فهو فارس رشيق ورام حاذق . وفى هذه الغابات يدبرون حملة على الوصى لرد العرش إلى الملك الطفل وإنقاذه من مشروعات الوصى الشريرة . وتنجح المؤامرة فعلا ويصل ابن روبن هود إلى دخول القصر ويبارز الوصى ويقتله ويرد إلى الملك عرشه . والقصة لا تخلو من مغامرات غرامية . فوصيفة الملك تكلف كلفاً شديداً بهذا الشاب الباسل المخلص لوطنه وللملكة . وينتهى

---

(١) The Bandit of Sherwood Forest (*Columbia Pictures*) .

الفيلم بأن يأمر الملك العاشقين بالزواج .
والفيلم بالألوان الطبيعية ، وتجرى حوادثه فى الغابات . فكان من المتيسر على المخرج أن يستغل هذه الناحية ليقدم لنا صوراً جميلة فنية ، ولكنه أهمل هذه الناحية إهمالا تاماً ، ولم يوجه اهتمامه إلا إلى الحوادث دون الديكور ، فأهمل تصوير المناظر الطبيعية على حين صرف عنايته إلى تصوير المبارزات وعدو الفرسان فى الغابات ودهاء المغيرين على قصر الملك ، وما شابه ذلك من أعمال البسالة .

ولا يمكن الكلام عن التمثيل فى هذا الفيلم . فقد آثر المخرج أن يختار شابا وسيم الطلعة ، قوى البنية يتقن ركوب الخيل والمبارزة والغزل ، واختار فتاة جميلة لا مميزات لها إلا فتنتها فقط .

وقصارى الكلام أن هذا الفيلم إنتاج رخيص لم يكلف أى عناء أو مشقة فى اختيار الحوادث أو فى الاخراج أو فى التمثيل . فالسينما الأمريكية أنتجت مئات من الأفلام المماثلة . فما على المخرج إلا أن يسلك الطريق التى سلكها من قبله كثير من المخرجين . والقصة تافهة تعيد فى ركاكة حوادث قصة روبين هود أو غيرها من قصص البطولة والمغامرات .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

وحدة العالم وحرية الشعوب

الف الروائى الفرنسى جول فرن قصة فى أوائل القرن التاسع عشر وسماها « الطواف حول العالم فى ثمانين يوماً » . واعتقد المسكين أنه روى إحدى الأساطير العجيبة ، وأخذ قراؤه هذه القصة مأخذ الخرافة التى تدعو المرء عند المطالعة إلى ترك الأعنة للخيال الخصب يسبح فى عالم الأوهام . ونرى اليوم أن جول فرن أخطأ فى التقدير وأن أوهام بنى زمنه أضحت دون الحقيقة بمراحل ؛ إذ قام المستر وندل ويلكى فى شهر أغسطس من سنة ١٩٤٢ برحلة سياسية حول العالم استغرقت خمسين يوماً قضى منها ثلاثين يوماً على الأرض والباقى فى أجواز الفضاء .

أما وندل ويلكى فهو أحد الشخصيات الأمريكية المعروفة فى محيط السياسة ، وقد كان رئيساً للحزب الجمهورى فى أمريكا وتقدم لانتخابات رئاسة الجمهورية فى عام ١٩٤٠ فخذله فيها المستر فرانكلين روزفلت . على أن هذا الأخير كان يطمئن إلى كفاية خصمه ويقدر مواهبه ، ولذا وكل إليه مهمة سياسية دقيقة فى ظروف خطيرة جد الخطورة ، إذ كانت أمريكا وقتئذ مشتركة فى الحرب وكانت انتصارات اليابان تتوالى بلا انقطاع بسرعة فائقة لا سيما بعد كارثة « بيرل هاربور » كما أن زحف الألمان فى أوربا وأفريقية كان ينذر بشر مستطير .

غادر المستر ويلكى أمريكا مزوداً بارشادات الرئيس روزفلت قاصداً تقصى حقيقة الأحوال باتصاله الشخصى برجالات الحرب وقادة الشعوب فى مختلف الأمم الحليفة والمحايدة . فطاف بإثنتى عشرة مملكة ، وزار طائفة من الحكام والقواد . ثم عاد إلى وطنه وتوفر على تأليف كتاب يضم مشاهداته وملاحظاته ومخاوفه وآماله وآراءه واقتراحاته لتوطيد سلم دائم يقوم على دعائم راسخة تقى الانسانية وبال حرب عالمية ثالثة قد لا تبقى ولا تذر . تأمل المستر ويلكى طويلا فى مشاكل الدول المختلفة ، وأمعن فى فحص الأسباب التى تؤدى عادة إلى اندلاع نار الحروب منذ العصور الغابرة ، فتبين له أن طبيعة الانسان واحدة وغرائزه واحدة وأطماعه واحدة فى جميع بقاع المعمورة رغم بعد المسافات واختلاف الأمزجة والأهواء ، وتباين طبيعة الأصقاع والأقطار ، كما بدا له وهو يحلق فى الفضاء على متن طائرته . أن بلاد الله واسعة الأرجاء ، ولكنها متصلة الحلقات بعضها قريب من بعض ، لا يفصل بينها إلا طمع الانسان وبغضاؤه ، وأن العالم الذى نعيش فيه عالم واحد تقطنه شعوب مختلفة ولكنها كأعضاء جسم واحد إن سقم عضو منه تأثرت بهذا السقم بقية الأعضاء . لذلك خلع المستر ويلكى على كتابه عنواناً جيلا خلاباً « عالم واحد » One World وما كاد ينشر هذا الكتاب فى عام ١٩٤٣ حتى تهافت عليه جمهور غفير من القراء فى جميع أنحاء الأرض ، وقد نقل إلى بعض اللغات الأجنبية منها الفرنسية ، وبيعت منه ملايين النسخ فى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لمكانة واضعه وثاقب فكره ، وخطورة

المسائل التى تناولها بالبحث والتعقيب ، ورجاحة الحلول التى وفق لها بعد التمحيص والتنقيب . ومما يبعث على الأسف حقاً أن المنية لم تمهل المستر ويلكى طويلا بعد وضعه كتابه إذ توفى فى العام التالى — ١٩٤٤ — فلم يقدر له أن يحيا ليلمس بنفسه ما سوف تحققه الأيام من آماله وأحلامه التى كشفها فى كتابه بشأن عالم الغد. ولعل الله أن يكون قد أراد به خيراً .

والآن أعرض بعض مشاهدات المستر ويلكى عرضاً موجزاً ، وأبدأ بالقول إنه لم يوفق فى كل ما عن له من ملاحظات ، ولم ينج فى بعض الأحيان من الزلل ؛ إذ قد سرد بعض وقائع خاطئة ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه لم يطل المقام فى كل بلد حل به .

استهل وندل ويلكى رحلته بمصر ، فاتصل ببعض الشخصيات العظيمة وتحدث مع أولى الأمر من المصريين وزار بعض رجالات الانجليز والأمريكيين بين قائد ووزير مفوض. ولا تهمنا أحاديثه الخاصة أكثر مما ذكره عن الشعب المصرى وعن حالة البلاد الاجتماعية والصحية والثقافية كما بدت له ؛ إذ لم يخف عليه سوء الحالة الصحية فى مصر وتفشى الأمراض فيها تفشيا خطيراً بين بلهارزيا وتراكوما ، ولم تخف عليه حالة الفقر وما يجره فى أذياله من جهل ومرض ودعة وتمسك بأساليب عتيقة فى التربية والزراعة والصناعة يرجع بعضه إلى سوء توزيع الثروة العقارية وبعضه الآخر إلى الاستعمار وشعور الشعب أنه ليس سيداً فى بلده . ولكن المستر ويلكى أخطأ بلا شك حين ذكر أن ليس بمصر قاطبة مدرسة وطنية يمكن لمصرى أن يفخر بها عدا مدرسة للبنات تديرها سيدة أمريكية لتعليم اليتيمات . ولعل مرشده لم يفطن لدعوته إلى زيارة جامعة فؤاد الأول على الأقل . وقد عاب المستر ويلكى على مصر عدم وجود طبقة متوسطة فيها إذ لم ير سوى أقلية مفرطة فى الثراء وأغلبية مفرطة فى فقر مدقع .

ثم ذكر أن ما راعه فى بلاد الشرق الأوسط التى مر بها تهافت الناس على سؤاله : « هل تنوى أمريكا الدفاع عن نظام يجعل سياسة البلاد الشرقية خاضعة لرقابة دول أجنبية دون أى سبب اللهم إلا أنها نكبت بوقوعها فى نقط استراتيجية على مفترق الطرق الحربية والتجارية الهامة ؟ » وعلق المستر ويلكى فى كتابه على هذا السؤال قائلا : إنه يرى لزاما عليه من الوجهة المثالية الاعتراف بأن هذا النظام لا يستقيم مع المبادئ التى تدافع عنها أمريكا فى الحرب، وأنه كلما أمعنت الدول فى تقرير هذه المبادئ زادت حالة التوتر والهياج التى تهدد هذا النظام .

ثم غادر رحالتنا الشرق الأوسط ويمم شطر تركيا ، فراعه فيها تقدمها الاجتماعى والصحى فى فترة وجيزة لا تعدو العشرين عاما . وأعجب بقوة الشعب التركى وعزمه على الوقوف موقف الحياد التام من الصراع الدامى الذى أنهك الدول الأوربية ، ولكنه أظهر جهلا تاماً بعلم الجغرافيا حين ذكر أن عدد سكان تركيا ستون مليون نسمة .

وقد أفرد وندل ويلكى لروسيا السوفيتية ستين صفحة من كتابه ولذا لزم التحدث عنها فى شئ من الافاضة .

بدأ المؤلف وصفه بقوله إنه لم يمكث فى روسيا إلا خمسة عشر يوماً ، وإنه لم تتأت له فرصة زيارتها من قبل ، ولكنه قرأ عنها كثيراً ، وسمع عنها أخباراً كثيرة متناقضة كل التناقض متباينة كل التباين . ولذا سره أن يرى بعينى رأسه بعض الحقائق عن هذا البلد العجيب الذى جعل العالم بأسره فى حيرة من أمره ، وزاد سروره عندما علم أن الحكومة

السوفيتية منحته الحرية التامة فى التجول أينما يشاء وارتياد ما يشاء من الأماكن سواء فى ذلك المصانع الحربيــة ، ومصانع الغزل والعزب الزراعيــة والمدارس والمستشفيات والمكاتب ، وخطوط القتــال ، كما أتيح له أن يستفسر فى صراحــة تامة عن أية ظاهرة تثير دهشه ، وأن يلقى ما يروقه من الأسئلة لمرافقيه .

وقد أطـال المستر ويلكى الحديث عن شجاعة الجندى الروسى وبسالته وحسن بلائه فى فنون الحرب الحديثة ، كما أشاد بإخلاص الشعب وتفانيه فى الدفاع عن وطنــه رجالا ونساء وأطفالا ، وأظهر إعجـابه بالعمال الروس الذين يشتغلون فى المصانع الحربيــة والمدنية لإعداد الأسلحة والأغذية والملابس اللازمة لتزويد الجنود بكل ما يحتاجون إليه فى صراعهم الجبـار مع العدو . ونوه بفضل هؤلاء العمال الذين دأبوا على عملهم لا يأبهون لأخطار الغارات ولا يكلون ولا يملون ، كما نوه بفضلهم فى نقل بعض المصانع من أسسها بكامل عددها وآلاتها من مدينة إلى أخرى كلما أوغل الألمان فى غزوهم ، ومنها ما نقل مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتر .

وقد دار بينه وبين شــاب يافع يشغل مركز مدير الانتاج فى أحد مصانع الطائرات حوار طريف مفيد ، أنقله لأنه يلقى ضوءاً على النظام الاجتماعى فى روسيا السوفيتية وطرق المعيشة فى هذا البلد الذى ظل العالم فى جهل تام عما يحدث فيــه أعواماً طوالا . بادره المستر ويلكى بالسؤال الآتى :

— ما النسبة بين أجرك بصفتك مديراً لانتاج هــذا المصنع وأجر العامل العادى ؟

— أجرى عشرة أمثال أجر العامل .

— كنت أظن أن الشيوعية معناها المساواة فى الأجور !

— ليست المســاواة ضمن المبــادئ الاشتراكية المطبقة حاليا فى روســيا . ثم استرسل فى شرح هذه النقطة فذكر أن شعار الاشتراكية الستالينية هو : « من كل شخص حسب كفايته ، ولكل شخص حسب أعماله » وأن هذا الشعار سوف يتحول إلى : « من كل شخص حسب كفايته ولكل شخص حسب حاجاته » عند ما تتم المرحلة الشيوعية لتقدمهم . وأردف قائلا إنه حتى فى هذه المرحلة الأخيرة لن تكون المســاواة الكاملة لازمة أو مرغوبا فيها .

— لعلك تدخر جزءاً من إيرادك الضخم ؟

— نعم كلما أقلعت زوجتى عن الاسراف .

— وكيف تنتفع بما تدخره من المال ؟

— ابتعت منزلا جميلا بجزء من رصيدى

— وماذا تصنع بالجزء الباقى ؟

— اشـتريت أيضاً منزلا بسيطا فى الريف أقضى فيه مع أسرتى أيام العطلة .

— وماذا تفعل بما يبقى لك من المال بعد ذلك ؟

— أشترى به سندات الحكومة وهى سندات لا تعطى حاملها ربحا أو فائدة .

— ولماذا لا تستغل نقودك فى أوراق مالية تأتى لك بفوائد رابحة ؟

— اتقصد يا مستر ويلكى أن أســتغل رأس المال ؟ إن هذا محال فى روسيا ، وعلى كل فهو عمل ينافى مبادئى .

— إذن ما الذى يحفزك إلى العمل بهذا الجد ؟

— إنى أشرف على هذا المصنع ، وفى يوم من الأيام سوف أصبح رئيسا له . أترى هذه النياشــين ؟ إنى فخور بها لأن الحكومة منحتنى إياها لجودة إنتــاجى وربما يكافئنى الحزب فى يوم ما باسناد منصب حكومى رفيع إلى .

— ومن يعولك فى شيخوختك ؟

— إنى أعول على ما ادخرته من المال وإلا فالحكومة سوف تعولنى .

— ألا تتمنى ان تهيء لأبنائك بداءة خيراً من بداءتك فى الحياة ؟ ألا ترغب فى إبعاد شبح العوز عن زوجتك إذا ما توفيت قبلها ؟

— هذه أفكار رأسمالية يا مستر ويلكى إنى بدأت حياتى عاملا ، وسوف يبدأ أولادى حياتهم مثلى . أما زوجتى فهى تعمل وسوف تدأب على العمل ما مهدت لها صحتها ذلك أما إذا عجزت عن العمل فالحكومة تعولها .

وهنا وجه إليه المستر ويلكى سؤالا طالما رددته الدول الغربية لتثبت أن نظام السوفيت لا يمنح الفرد حرية القول والفكر :

— افرض جدلا أنك تخالف نظريات الدولة السياسية أو الاجتماعية فهل لك سبيل لابداء آرائك والدفاع عنها ؟

عندئذ أنكر الروسى إمكان حصول مثل هذا الفرض وهز كتفيه ولم يجب . فأردف المستر ويلكى :

— أستخلص من موقفك أنك لا تتمتع بأية حرية !

هنا احتد الشاب وأجاب فوراً :

— أنت عاجز عن الفهم يا مستر ويلكى . إنى أتمتع بحرية لم يرها والداى طوال حياتهما إذ كانا فلاحين استعبدتهما الأرض فلم ينالا أى قسط من التعليم ، وإذا مرضا لم يجدا من يعنى بأمرهما . أنا أول شخص من سلالة أجدادى العريقة سنحت له فرصة التعليم والتقدم والعمل لانجاز فكرة وهذا ما أسميه الحرية . قد لا يعنى هذا الحرية فى نظرك ، ولكن لا تنس أن نظامنا يجتاز مرحلة التطور وسوف نحظى فى يوم ما بالحرية السياسية أيضاً .

والآن أعود إلى رحلة وندل ويلكى لأروى زيارته لاحدى «العزب الاجتماعية» . لقد تغير نظام الزراعة فى روسيا إذ صارت الأراضى الزراعية ملكا للدولة . أما هذه العزب فعلى رأس كل منها مدير ، ولكل عزبة الحق فى أن تستأجر من مخازن الحكومة الآلات الزراعية الحديثة وجميع أنواع المعدات الميكانيكية اللازمة لفلاحة الأرض فلاحة علمية على أن تدفع قيمة الايجار للحكومة بتسليمها حصة من المحصول ، وأما باقى المحصول فيوزع على أعضاء العزبة كل حسب أيام عمله . ولكل فلاح الحق فى أن يستبدل بنصيبه من المحصول أية سلعة يريدها من متجر قريب من العزبة ، كما له الحق فى بيع نصيبه إن أراد ، إلا أن الحكومة تشجع الفلاحين على أن يكون البيع لها مباشرة . وقد لاحظ المستر ويلكى أن لدى الفلاحين رصيداً من المال غير قليل وأن الغذاء لديهم وفير ، فخطر له أن يسأل بعضهم أيتمنون امتلاك قطعة أرض لأنفسهم ؟ فلم يفقهوا لسؤاله معنى وأجابوه أن أجدادهم لم يملكوا أرضاً فى حياتهم .

ثم ختم وندل ويلكى جولته فى روسيا بمقابلة المارشال ستالين ، فألفاه رجلا بسيطا هادئ الطبع شديد المراس لا يأبه إلا للحقائق ولا يسبح فى الخيال والأوهام ، ملماً بكل تفاصيل القتال وبكل ما يحدث فى روسيا وفى العالم الخارجى . وقد قال له ستالين ذات مرة فى سذاجة مؤثرة : « يا مستر ويلكى إنى نشأت نشأة فلاح فى مقاطعة جيورجيا ولا أعرف الكلام المنمق ، وغاية ما أستطيع أن أؤكده لك هو أنى أميل إليك كثيراً » . ثم قابل الضيف الأمريكى رهطاً من رجال روسيا المسئولين ، ذكر منهم مولوتوف وزير الخارجية وفيشنسكى ولوزوفسكى مدير قسم الأخبار والمارشال فوروشيلوف وزير الدفاع الأسبق والسيدة ميكويان وزيرة التموين ورئيسة إدارة العلاقات الاقتصادية بين روسيا والبلاد الأجنبية ، وقد ألفاهم جميعاً رجالا مثقفين ملمين بالمشاكل الدولية إلماماً تاماً ، ولا يشبهون البتة لاشكلا

ولا لغة ذلك المظهر القبيح الذى يصوره الرسامون الهزليون للبلاشفة .

غادر وندل ويلكى روسيا الاوربية واستقل طائرته قاصداً أصقاع سيبريا — روسيا الأسيوية — المترامية الأطراف التى يغطيها الجليد فى أكثر شهور السنة لزيارة إحدى مقاطعاتها وهى جمهورية «ياكوتسك» الاشتراكية المستقلة الداخلة ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية . أما هذه المقاطعة فيقطنها قوم ينحدرون من المغول فروا إليها أيام غزو جنكيز خان . وكان معظمهم فى الزمن السالف يتعيش من صيد الفراء والبحث عن مناجم الذهب ، لا يسكنون إلا أكواخاً من الطين تشاركهم فيها بهائمهم ، وكانت المجاعات والأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً حتى انقرضوا تدريجياً أو كادوا . والجمهورية ياكوتسك فى عهد القياصرة شهرة بالزهرى والسل والفراء ولذا جعلوها مأوى للمجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وللسجناء المنفيين لجرائم سياسية .

قدم الضيف الأمريكى عاصمة تلك المقاطعة على متن طائرته ، فألفاها مدينة جميلة استهوته لغرابتها ، فسأل رفيقه رئيس مجلس قوميسيرى الشعب: هل بالمدينة مكتبة عامة ؟ فقاده إلى مكتبة نظيفة واسعة الأرجاء مضاءة بالكهرباء تحوى خمسمائة وخمسين ألف مجلد على حين لا يربى عدد سكان المدينة على الخمسين ألفاً . وقد دلت إحصائيات المكتبة على أن عدد مرتاديها خلال التسعة الشهور الأخيرة نيف ومائة ألف شخص جاء بعضهم من المدن الريفية المجاورة . ثم استفهم الزائر عن الملاهى بهذه المدينة ، فدعاه رفيقه الروسى إلى مشاهدة مسرحية غنائية راقصة من نوع الأوبرا على مسرح فخم كامل المعدات ، فأعجب الضيف بالرقص والغناء إعجاباً عظيما . وسأل مرة أخرى عن نصيب الشعب من التعليم فى هذه الجمهورية النائية فأجابه الرفيق موراتوف حاكم البلد أن اثنين فى المائة فقط من سكان هذه الجمهورية كان لهم إلمام بسيط بالقراءة والكتابة قبل عام ١٩١٧ وأما الآن فقد انعكست هذه النسبة تماماً . ثم أردف مبتسما: «إنى تلقيت أوامر من موسكو تقضى «بتصفية» هذه البقية الباقية من الجهلة وهى اثنان فى المئة » . ثم طاف المستر ويلكى بدار السينما وهى دار مشيدة بالأسمنت المسلح على أحدث طراز . كما طاف بدار مركز الحزب الشيوعى بهذه المدينة فأبدى إعجابه ببنائها ونظامها ، حتى لقد حدثه رفيقه الروسى متباهياً : « لا يغربن عن بالك يامستر ويلكى أن هذه الجمهورية أنشئت فى عام ١٩٢٢ بعد أن أخمدت الثورة ، واليوم أصبحت ميزانية هذه الجمهورية ثمانين ضعفاً لما كانت عليه فى عام ١٩٢٢ ويشعر بهذا البون العظيم جميع السكان بقلبهم ومعدتهم . كانت مقاطعة ياكوتسك فيما مضى بقعة بيضاء على جميع خرائط العالم ، وأما اليوم فان مناجم الذهب فيها بلغت لوفرة إنتاجها شأواً عظيما وضعها فى المرتبة الثالثة من مناجم روسيا التى تنتج معادن غير الحديد . وقد عثر المستكشفون فى أرض هذه الجمهورية على ثروات معدنية جديدة ، منها الفضة والنحاس والرصاص ، كما وجدوا فيها آباراً للبترول . »

ولم يفت المستر ويلكى أن يشير إلى أهمية الدور الذى سوف تلعبه روسيا فى السياسة الدولية بعد الحرب ، فألح فى التعاون معها كى يستقر السلم . وأظهر إعجابه بتلك الدولة الفتية المتوثبة منوها بنجاحها الباهر فى إقامة نظام رائع للصحة العامة جعل من الروس قوماً أصحاء أشداء يعدون فى طليعة الأمم فى هذا المضمار ، فضلا عن انتشار التعليم بينهم انتشاراً عم جميع طبقات الشعب بلا تمييز بعد أن كان يتخبط فى ظلام الجهل الحالك أجيالا عدة . وقد أشاد المستر ويلكى كذلك بحب الروس لوطنهم وتفانيهم فى الذود عنه والتضحية

بحياتهم فى سبيل توطيد أركانه وإعلاء شأنه . وختم حديثه عن رحلته قائلا إن روسيا أضحت اليوم أمة غنية قوية يجب أن يقام لها وزن فى عالم المستقبل . وشهد أنه رغم عدم ميله إلى النظام الشيوعى لا يسعه إلا الاقرار بأن هناك أشياء كثيرة فى روسيا تستحق الاعجاب ؛ ولذا فهو يحث الشعب الأمريكى على التقرب من الشعب الروسى لادراك عقليته إذ يرى أن أمريكا وروسيا فى الوقت الحاضر قوتان جبارتان لا تدانيهما فى قوتهما دولة ثالثة ، قوتان إن اتحدتا تمخض العالم عن سلم ثابت راسخ ، وإن تنازعتا تردى العالم فى كارثة فاجعة .

طال بى الحديث ولما أنته من سرد مشاهدات المستر ويلكى خلال رحلته حول العالم ، ويضيق على المجال لتناول جولته فى بلاد الصين الشاسعة التى عرج عليها وهو فى طريق الأوبة إلى الولايات المتحدة . ولئن فاتنى أن أتحدث عن الشرق الأقصى لا يفوتنى أن أشير إلى خاتمة الكتاب الذى أعرضه ، وهى خلاصة أفكار مؤلفه لما فيها من مغزى وعبرة ونصح .

عند ما أفاق العالم من ذهول الحرب العالمية الأولى ظن المتفائلون أنها آخر حرب يشهدها البشر فأغرقوا فى خيالهم الخادع ، ولم يعمل أحدهم شيئاً نافعاً للافاقة وقوع كارثة أخرى . واتضح لذوى البصيرة النافذة من المفكرين أن الحرب الأولى كانت نزاعاً بين دول مستعمرة لم تفد منها الانسانية فتيلا ، فهى حرب لم تحمل فى ثناياها أى مبدأ جديد من تلك المبادئ السامية التى تتمخض عنها المثالية والتى تدفع الأمم إلى التقدم الفكرى والتحرر من الأوضاع العتيقة البالية التى لا تتمشى مع تطور الأذهان ، كالاستعمار والاستغلال الاقتصادى ؛ وهما صورتان بشعتان من صور الاستعباد الحديث فى القرن العشرين ، إحداهما استعمار خارجى والأخرى استعمار داخلى . ومن المشاهد فى التاريخ أن الأمم تخطو خطوات واسعة إلى الأمام فى شتى الميادين العلمية والاجتماعية والطبية بعد الحروب أو الثورات أو القلاقل ؛ لما ينجم عن هذه الأحداث من انقلابات شاملة فى تحديد القيم الروحية والعقلية . لقد قال كارل ماركس عن الثورات إنها « قاطرات التاريخ » أى إنها تجر وراءها التاريخ وتقذف به مسرعة فى أحضان المستقبل . فاذا ما أخفقت الحرب أو الثورة فى تقريب الانسان من مثله العليا ذهبت جميع التضحيات التى تلازمها أدراج الرياح ، وأصبحت الحرب أو الثورة حدثاً تاريخياً أجوف لا طائل تحته .

والآن أعود إلى الكلام عن الأهداف التى يتوخاها وندل ويلكى فى الحرب العالمية الثانية والتى يأمل أن تحققها حتى لا تكون الملايين من ضحاياها قد فاضت أرواحهم عبثاً . أما هذه الأهداف فيمكن تلخيصها فى كلمة واحدة موجزة وهى « الحرية » . ومن الحقائق المرة المؤلمة أن شعوب العالم تتشدق منذ الأزل بهذه الكلمة البسيطة الخلابة . والجميع يتحدث عنها ، ولكن بعضهم يتحدث عنها ليسلبها ، وبعضهم الآخر ليستردها بقوة السلاح إن لم يكن من ذلك مفر ؛ إذ لم يسجل التاريخ على قدمه أن دولة غاصبة أهدت إلى شعب منصوب حريته على « طبق من الفضة » كما يقول الغربيون ليتناولها لقمة سائغة عذبة المذاق .

وقد جاء على لسان المستر ويلكى قول أرى أن أثبته لما فيه من سخرية . ولعل تلك السخرية حقيقة واقعة فيكون الأمر أدهى وأمر : « إنى لا أزال أخشى أن أرى هذه الحرب تدنو من نهايتها قبل أن تستبين الشعوب الأسباب التى دعتها إلى القتال

والآمال التي تعقدها على الفترة التي تعقب الحرب. » هذا ما يخشاه المستر ويلكي. وأما ما لا أخشى التصريح به فهو أن هذه الحرب الأخيرة إن هي إلا حرب استعمارية كسابقتها أفادت منها الدول المستعمرة كل الافادة، ولم تغنم منها الشعوب المهضومة أي غنم إلا ما حاق بها من خسائر مادية فضلا عن خسائر الأرواح في بعض الأحوال. وإلا فما الذي غنمته الهند مثلا من إقحامها في هذه الحرب رغم أنفها ؟

لقد أبرز ويندل ويلكي هذه الحقائق سافرة، وأثنى على الحريات الأربع أو الخمس وعلى ميثاق الأطلنطي وعلى كل العهود التي قطعتها على نفسها الدول الحليفة إبان المعمعة، وحذر تلك الدول من العواقب الوخيمة التي تحيق بالعالم إن هي نكثت وعودها، وقال تلك الجملة الرائعة «إن الحرية كلة لا تتجزأ». وذكر حديثاً أدلى به إليه أحد أرباب العقول الراجحة في الصين بصدد حبوط المفاوضات التي أجرتها انجلترا مع الهند أثناء الحرب توطئة لمنحها نوعاً من الحكم الذاتي — تلك المفاوضات التي قام بها وزير التجارة الحالي في بريطانيا العظمى السير ستافورد كريبس، قال هذا الصيني للمستر ويلكي: « يوم أجلت مطالب الهند الشرعية للحصول على الحرية لم تهو انجلترا وحدها في عيون شعوب الشرق الأقصى، وانما هوت معها الولايات المتحدة أيضاً ».

ثم تناول الكاتب الأمريكي الحديث عن طموح شعوب الأرض قاطبة لنيل حقها الشرعي في الحرية والاستقلال قائلا: « لقد أدرك العالم أن سيطرة شعب على شئون شعب آخر ليس هو الحرية ولا هو ما ينبغي الدفاع عنه بقوة السلاح. ففي أفريقية وفي الشرق الأوسط وفي كل العالم العربي وفي الصين وفي سائر بلدان الشرق الأقصى الحرية معناها إلغاء النظام الاستعماري، وسواء راقنا هذا الكلام أو لم يرقنا، فهذه هي الحقيقة التي لا مراء فيها ».

وليت المستر ويلكي استرسل في دفاعه عن الحرية إلى النهاية الطبيعية التي يقودنا إليها المنطق السليم، فيجزم بشدة أن الدول المستعمرة خليق بها أن تجلو عن البلاد التي تحتلها جيوشها على الفور أو بعد أن تضع الحرب أوزارها مباشرة. ولكنه وقف في منتصف الطريق المؤدي إلى الحرية الحقة — وكأنه ندم على اندفاعه في هذا التيار الحماسي الجارف — وعرض حلا لوضع حد للاستعمار لا يشبع ولا يقنع ؛ إذ اقترح أن تندمج الدولة المحتلة مع الدولة المستعمرة اندماج الماء بالراح أي اندماج بريطانيا العظمى مع البلاد المكونة لما يسميه الانجليز كومونولث. ولعله يخشى أن تخرج الأمم المحتلة فجأة من ظلام الاستعمار الموحش إلى نور الحرية الساطع فتبهر أنظارها أو يعلوها غشاء يجعلها تضل وتتنكب سواء السبيل؛ فلهذا استصوب أن تسندها الدولة المستعمرة لئلا تتعثر في حبوها وهي حديثة عهد بالإستقلال فتزل قدمها وتهوى إلى الحضيض. ومن الغريب أن المستر وندل ويلكي لم يلفظ كلة « الاستقلال » وإنما كل ما جادت به نفسه السمحة لم يعد لفظ « الحكم الذاتي ». وهناك، على ما هو معلوم، دول تتمتع بالحكم الذاتي دون أن تنفصم العرى بينها وبين الدولة الراعية — أو الدولة الوصية كما يقال الآن في لغة هيئة الأمم المتحدة — انفصاما كاملا. وما أبغض إلى النفس من أنصاف الحلول !

بعد أن فرغ المستر ويلكي من التحدث عن الاستعمار الخارجي ومجافاته للمثل العليا التي يأمل أن تحققها الحرب حتى لا يكتب لها الاخفاق كسابقاتها، تناول موضوع الاستعمار

الداخلى أو الاستغلال الداخلى الذى لايخلو منه دولة من الدول الرأسمالية ، وله نواح متنوعة ، منها ما هو خاص بأمريكا كمشكلة الزنوج فيها ومعاملة الامريكيين لهم معاملة شاذة قاسية لا مسوغ لها إلا اختلاف لون البشرة ، ومنها ماهو عام يشمل الدول كافة . وقد قال المؤلف فى سياق الحديث عن هذا النوع من الاستعمار أو الاستغلال: « نداؤنا بأهدافنا التى نرمى إليها من وراء هذه الحرب كشف لنا القناع عن ظلمنا . عندما نتحدث عن الحرية وتكافؤ الفرص لجميع الأمم تظهر لنا مفارقات مجتمعنا المضحكة ظهوراً جلياً لانستطيع معه سترها أو تجاهلها . إذا أردنا أن نتحدث عن الحرية وجب علينا أن ندرك هذا اللفظ على صحته، وهو أن لغيرنا أن يتمتع بالحرية كما نتمتع نحن بها سواء . فالحرية يجب أن تمنح للجميع داخل حدودنا وخارجها ، فنصون مثلا حقوق الأقليات التى لا غنى للكثرة عنها ؛ إذ تعد الحافز القوى الذى يدفع عناصر كل أمة إلى المنافسة والابتكار فى شتى الميادين . »

وهناك حرية لا تقل شأناً عن الحرية السياسية ، وهى حرية الدولة الاقتصادية ، فلكل دولة الحق كاملا فى توجيه اقتصادها الوجه الذى تراه ملائماً لمصالحها دون التقيد بشروط أو اتفاقات اقتصادية تملى عليها ودون ربط عملتها قسراً بعملة أجنبية بحيث يصبح كل الغنم فى كفة والغرم فى الكفة الأخرى من الميزان . ويقترح المستر ويلكى فى هذا الصدد إلغاء الحواجز الجمركية التى تشل التجارة الدولية أو تعوق ازدهارها الطبيعى .

على أن هناك نوعاً من الاستعمار الداخلى لم يشر إليه الكاتب ، ألا وهو استغلال بعض طبقات الشعب للطبقات الأخرى أو استغلال الطبقة المالكة للطبقة العاملة استغلالا فاضحاً . كما أنه لم يتناول موضوع تحرير الفرد من العوز والجهل والمرض والبطالة ، وهو الأمر المعروف باسم «الحريات الأربع» . ولعل مرد تجنب المؤلف هذه النقطة الشائكة ماجاء على لسانه فى سياق حديث آخر : أنه لا يميل إلى المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية . ولا غرابة فى ذلك إذ هو أحد الأثرياء المعدودين فى أمريكا ، وأمريكا حصن منيع للرأسمالية المتطرفة .

وخلاصة القول أن وحدة العالم توحى إلى المرء التضامن والارتباط الوثيق . وبلاد الارض قاطبة تصبو إلى الحرية التامة بعد أن أهدرت هذه الكلمة لفظا ومعنى أجيالا طوالا . والحرية إما أن تمنح للجميع أو تمنع عن الجميع ؛ إذ أصبحت الحياة لاتطاق فى عالم أقله سادة وأكثره عبيد . فان حققت الحرب هذه الأمانى التى تجيش بها الصدور ، ردد الناس قوله تعالى: « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »، وإلا فعلى الأرض العفاء .

فؤاد وصفى أبو الذهب

من وراء البحار

روسيا وسياستها الخارجية

يهتم مستر ڤويجت فى مقالاته التى ينشرها بمجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » بتتبع سياسة روسيا الخارجية وما تنطوى عليه من أخطار نحو الإمبراطورية البريطانية. ولقد ظل طوال سنى الحرب يكتب فى حماسة فى ذلك الموضوع حتى أثار عاصفة من النقد فى بعض الصحف فحملت عليه، وأدى ذلك إلى قضية قذف شغل بها الناس منذ سنتين.

وهو الآن يعاود الكتابة فى سياسة روسيا. ففى العدد الأخير من تلك المجلة (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) عاد يشرح خطر هذه السياسة على انجلترا، فهو يقول: إن انجلترا حاربت نابليون دفاعا عن سلامتها، وقد قال وليم پت رئيس الوزارة فى ذلك العهد إن انجلترا تحارب « مذهباً مسلحاً ». ولكن الواقع أن انجلترا لا تحارب من أجل المثل العليا، وإنما تقصد السلامة، ولو ضمنت سلامتها قبل التغلب على نابليون لما ترددت فى مصالحته. ولقد ضمنت السلامة بعد التغلب عليه مدة قرن كامل. وفى سنة ١٩١٤ دخلت انجلترا الحرب من أجل السلامة أيضاً. وفى سنة ١٩١٩ تدخلت فى الحرب الروسية الأهلية وقيل إنها فعلت ذلك من أجل المبادئ، ولكن الحقيقة أنها تدخلت إذ كانت تخشى اتفاق روسيا وألمانيا حين بدا لها أن ألمانيا ستنقلب شيوعية.

ومما لاريب فيه أن هنالك طريقين لضمان السلام: أولها توازن القوى، وهو الطريق الذى تسلكه انجلترا. وثانيهما تفوق القوى وهو الطريق الذى سلكته فرنسا مرة وألمانيا مرتين، وتعمل له روسيا الآن.

لقد تمكنت روسيا بفضل شجاعتها من جهة، وبفضل بعد نظرها ووحدة غرضها من جهة أخرى، وبفضل الكوارث السياسية التى حلت بانجلترا أثناء الحرب، من أن تكون العامل الأساسى فى طبيعة السلم، ولا تزال كذلك، فهى الوحيدة بين الدول الكبرى المنتصرة التى حصلت على ما هو أكثر من هزيمة العدو المشترك، فهى تهاجم الأعداء والحلفاء والمحايدين ــ الأعداء بالقوة الحربية وقد وصلت فى أقل من خمس سنوات إلى فتوح من أكبر ماعرف فى التاريخ. ولكن هذه الفتوح فى بداءتها ولا تنتهى حتى تكون لروسيا السيادة على أوربا، وحتى تحقق وحدة نفوذها فى آسيا، وحتى تبلغ من القوة مبلغاً تتدخل به فى أمور العالم بأسره.

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تنهى الحرب عن طريق الشرق، ولكن روسيا عارضت وأبت إلا أن يهجم الانجليز من الغرب، وبهذه الطريقة تمكنت من أن تفرض سلطانها على شبه جزيرة البلقان ماعدا اليونان، وهذه أيضاً لا تزال مهددة. وفى طهران كسبت روسيا السلم، وخسرته بريطانيا. ولقد صارت إحدى عشرة دولة خاضعة لروسيا، وهى فنلندا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر ويوغوسلافيا وألبانيا وبلغاريا. ولقد استطاعت روسيا أن تضم أراضى كبيرة من ألمانيا، وبلغت من النفوذ

فى النمسا أنها تستطيع من هذا البلد أن تكون لها الكلمة الدليا فى مستقبل أوربا .

لقد حققت روسيا أحلامها داخل بلادها كما حققتها فى الخارج ، ونحن نعلم أن الكثيرين من أبنائها ، منهم دستويفسكى الكاتب الشهير ، كانوا ينادون باتحاد الشعوب السلافية تحت زعامة روسيا ، ولقد أدت السياسة الحالية إلى تحقيق هذا الحلم . وليس الغرض الذى ترمى إليه روسيا هو تحقيق السلام ، ولا هو غرض أدبى كما يفهم فى غرب أوربا . وإنما قوة هذا الغرض ناشئة عن الحيوية الكبيرة فى الروس ، وما ينطوون عليه من ذكريات تاريخية . فروسيا فى عهد القياصرة فى ميولها الاستعمارية واعتقادها بأنها منقذة البشر ، وروسيا لينين التى تعتقد فى الثورة العالمية ، يتلاقيان الآن تحت ستالين فى صعيد واحد .

لقد كانت الثورة الروسية بعد انتصارها فى أكتوبر سنة ١٩١٧ تقاوم كل نوع من الاستعمار ، بما فيه الاستعمار الروسى نفسه ؛ فقد كان القائمون بها يعتقدون اعتقاداً قاطعاً بأن الثورة لا تلبث أن تشتمل العالم بأسره ، وكانوا يراقبون فى اهتمام أمرين : الثورة الألمانية ، والثورة على الحكم البريطانى فى آسيا .

وانتظر لينين فى لهفة نجاح الثورة فى ألمانيا ، ومعنى ذلك حدوث انقلاب شيوعى فى سائر انحاء أوربا . ولكن الثورة لم تنجح لأن العمال الألمان كانوا لا يرغبون فى دكتاتورية من أى نوع . وكذلك الثورة على الحكم البريطانى لم تنجح ، لأن الطبقة الحاكمة البريطانية أظهرت مرونة لم تكن متوقعة ، ومع ذلك ظل ستالين حتى سنة ١٩٢٥ يداعبه هذا الأمل .

لقد كان ستالين مخطئاً فى أنه ظن وتوقع هذا الحادث فى سنوات قليلة . ولكن هل يكون مخطئا لو توقع حدوثه فى عشرين سنة عند ما تصبح روسيا قوية بحيث يكون لها أصبع فى تسيير الأمور ؟

لقد حاولت بولندا فى سنة ١٩٢٠ أن تقضى على خطر الروس ، وكان من الطبيعى أنها لا تنجح . والآن قد عاد إليها الروس فاتحين ، وفرضوا عليها الثورة ، وروسيا عازمة الآن على ألا تقف بولندا فى سبيل أغراضها فى أوربا ، ولن تسمح روسيا لبولندا بقطرة من الاستقلال الحقيقى . ويمكن لروسيا الآن أن تسير فى الطريق الذى لم تنجح فيه من قبل وهو التحالف الثورى بين روسيا وألمانيا . وهى تستطيع أن تفرض إرادتها فى شرق ألمانيا وأواسطها ، ولكنها الآن لا تستطيع أن تفرض هذه الارادة فى غرب ألمانيا ، لذلك نرلها تنادى بالوحدة الوطنية الألمانية ، لأنها تريد أن تجعل من ألمانيا تابعة . وهذا التحالف الذى تسعى إليه روسيا ، ويفرض على أوربا الثورة ، يهدد الامبراطورية البريطانية بالزوال .

الحياة فى برلين

فى العدد الأخير من مجلة «هورايزن» الانجليزية (عدد مارس) رسالة كتبتها كلاريسا تشرشل تصف فيها الحياة فى برلين ؛ فقد كانت قادمة إليها من وستفاليا حيث منطقة الاحتلال الانجليزية . وكان القطار يقطع أحياناً جسوراً وضعت عليها لوحات بيضاء تدل على أنها مؤقتة . ولكن القطار يمر فى منطقة روسية وحينئذ يتغير منظر هذه اللوحات إذ كانت اللوحات الروسية مليئة بالعبارات التى تنتهى بعلامات التعجب ، وهى تحمل على

الغالب النداءات المألوفة لدى حكومة السوفيت وقد وضعت حولها رايات حمراء عدة .

والقادم إلى برلين من الضواحي قد يخدع فى منظرها ، فلا تزال البيوت قائمة ، يدل منظرها الخارجى على أنها سليمة ، ولكنها فى الحقيقة ليست الا مجرد قشور مجوفة من الداخل ، أما وسط المدينة فهو أشبه ما يكون بمنطقة جوية أخرى ، فكأنه جبل عال لاتعيش فيه الأحياء ، ويقل فيه الزرع حتى ينعدم .

ولقد اتخذت اللجنتان البريطانية والأمريكية مقراً لها ولرجالها فى المنازل السليمة بالضواحى . ويسمح لأصحاب المنزل من الألمان بان يقيموا فى الدور الأرضى اذا كانوا من المعروفين بعدائهم للنازيين ، أما غير هؤلاء فيطردون طردا . وكلما زادت أعمال اللجنتين وزاد عدد الموظفين فيهما زاد عدد الالمان الذين يطردون من منازلهم فينضمون الى الآلاف من الألمان الذين لا يجدون مأوى إلا فى المنازل المحطمة وتحت سلالم البيوت أو فى الخرائب .

ومن المشاكل الكبيرة لدى الألمان فى برلين أمر التدفئة . لذلك تجدهم يدورون فى الغابات المحيطة بالمدينة ليحصلوا على شئ من الوقود . ولقد أتى الالمان على الاشجار فى تيرجاردن ، حتى لم يبق من هذه الحديقة العظيمة غير التماثيل التى أنشئت تحيط بها الأشجار ، وهى الآن قائمة وسط ميدان كبير من الطين . ويحاول كل ساكن فى برلين لديه شئ من القوة أن يحصل على عمل فى تنظيف المدينة ، فان ذلك يضمن له بعض القوت .

ولقد نشأت فى كثير من بلدان أوربا السوق السوداء حيث يحصل فيها الناس على ما لا يستطيعون الحصول عليه من طعام ، ولكنها تكون عادة مستخفية ، اما أن يظهر المتعاملون فى السوق السوداء جهارا فى رائعة النهار كما فى برلين ، فتلك حال تدل على منتهى اليأس ، فانك ترى جماعات المتعاملين واقفة فى الساحة الفضاء التى كانت تيرجاردن فيما مضى ، يطل عليهم ذلك الأثر الذى أقامه الروس ليخلدوا ذكرى انتصارهم على برلين وأقاموا فوقه تمثالا من البرنز يمثل بطلا من رجال الجيش الأحمر ، فهذه الكتل البشرية لابد إذا ما أزيح الضغط عليها أن توجه نشاطها بعد اليأس ، الى أن تسلك أقرب طريق لاحياء ألمانيا كأمة من الأمم .

وبين هذه الخرائب نجد حياة ثقافية تحاول أن تقف على قدميها ويساعدها الحلفاء . فقد قامت فرق الممثلين وجوقات الاوركسترا ، تعمل بعد أن طهرت من العناصر النازية ، يساعدها المحتلون . فقد عمل الروس على تمثيل أوبرا «أورفيوس» للموسيقار جلوك فى الخريف الماضى بمعهد أوبرا الدولة ، كما مثلت الاوبرا الروسية «أوجين» أو «نجين» ومثلت كذلك أوبرا «ريجوليتو» .

وفى مسرح دويتش مثلت رواية «ناثان الحكيم» ، وقام الممثل بول فيجنر بالدور الرئيسى ، ومثلت كذلك رواية «فاوست» .

وتعمل فرقة الفلهارمونيك الشهيرة الآن تحت قيادة موسيقار رومانى شاب اسمه سليبيداك إذ أن رئيسها ليوبورخارت الذى خلف فورتفنجلر أصيب خطأ برصاصة من حارس قضت عليه . ولقد أقيمت عدة معارض فى التصوير والنحت ولكن لم يظهر فيها مايلفت النظر بنوع خاص .

وفى كل منطقة من المناطق المحتلة عدد من الصحف والمجلات ، منها ثلاثة تعنى بالأمور الأدبية أولها «ديراوث باو» التى تصدر فى المنطقة الروسية تحت رقابة الميجر شليجلوف الكاتب المسرحى الروسى ، وهى حرة الآراء وتدل آراؤها على نظر بعيد فى مشاكل ألمانيا

الحاضر، و المستقبلة من الوجهة الثقافية . والثانية نيوآوتليسى وهى تصدر فى المنطقة البريطانية . أما الثالثة فتصدر فى المنطقة الأمريكية .

وليس هناك حياة ثقافية بالمعنى المعروف إذ أن تبادل الآراء غير قائم . وقد ابعد جميع رجال الأدب والفن ذوى النزعة النازية ، وتتشدد بعض سلطات الاحتلال فى ذلك مثل الأمريكان مثلا إذ يعتقلون كل من يظنون فيه ميلا للنازية ، ويعهدون إليه بأعمال يدوية مهما يكن من مواهبه الفنية والأدبية .

موكب النصر فى لندن

تكلم ريتشارد جننجز فى ملاحظاته الطريفة بمجلة « القرن التاسع عشر » عن العرض العسكرى الذى يقام احتفالا بذكرى النصر فى لندن، فقال : لقد حذرنا بأنه لا يأتى الصيف حتى يكون ملايين من الرجال والنساء والأطفال الذين لاشك فى براءتهم فى مجاعة بجهات واسعة من أواسط وشرق أوربا ، ونحن نعلم أنه حتى الآن لا توجد أمة أوربية لم تسلم من الخوف وخيبة الأمل الذى يتبع تلك الحالة الشاذة التى نسميها الحرب الاجماعية . فملايين من الناس بلا مأوى ، وأولئك الذين نجوا من وبال الغزو يعيشون كنقط صغيرة من الثبات النسبى فى محيط من الفوضى هو فى احتياج إلى مجهود هائل ليعود إليه شئ من النظام . ففى كل مكان نرى الكراهية والارتياب . وقد تزيد صعوبات انجلترا نفسها وقد يزيد ما هى فيه من حرمان . فهل من المستطاع وهل من المتصور أنه فى مثل هذا المأزق الذى يقف فيه العالم يوافق شخص ذو تفكير أو شعور إنسانى أو يصفق لعرض النصر المقترح الذى سيحدث فى وقت يقام فيه عيد القديسين الذى هو من أجل وأهدأ أعياد الكنيسة ؟ وهل يرضى عن ذلك رجال الدين؟ وما رأى الناس؟ ولماذا لا نأخذ الرأى بطريقة جلوب لكى نتحقق من الرأى العام ؟ لقد احتج بعض أعضاء البرلمان على الضغط الذى ينشأ بسبب هذا العرض على النقل وإدارة الأمن وحال الطعام . ولاشك أن وجود عدد هائل من الناس فى مدينة كبيرة قد يسبب كوارث كثيرة كالتى حدثت فى حادثة بولطن منذ شهرين . الواقع أنه من الواجب أن يقضى هذا العيد فى التفكير والصلاة من أجل السلم ؛ لا أن يقضى فى عرض جدير بأن يطلق عليه — على طريقة القرون الوسطى — رقصة الموت .

باريس تستعد للصيف

ينتظر فى هذا الصيف كما تقول الأنباء الفرنسية أن تعرض خمسمائة من صور كبار المصورين الفرنسيين من القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر ، ويقام هذا المعرض فى القصر الصغير ، وذلك بمناسبة مؤتمر الصلح الذى يعقد فى قصر لوكسمبرج . وستبذل السلطات كل ما تستطيع كى تتخذ باريس مظهرها قبل الحرب ، وتكون الفنون عنصراً أساسياً فى هذه النهضة .

وتشترك المتاحف الباريسية فى شرف عرض

زهرة مجموعاتها الوطنية . وسيكون متحف اللوفر بطبيعة الحال هو المركز . وتجمع مجموعات القماش المصور النادر فى متحف الفن الحديث ، وتعرض فى متحف الأورانجرى الصور التى سرقها الألمان ثم أعيدت إلى فرنسا ، وفى متحف جى دى پوم تعرض صور المدرسة الفرنسية من عصر أصحاب مذهب اللمحة .

وستكون الصور التى تعرض فى القصر الصغير على نوعين : تلك التى تمثل الفن النبيل فتمثل الزارع والفرسان والقديسين وتلك التى تمثل الفن الظريف كصور الآلهات ونبات الناب .

فالقسم الأول سيحتوى على صور لكلوى وشاردان وداڤيد وآنجر إلى دى لاكرواء وكوربيه ، والقسم الثانى سيحتوى على صور ساحرة من فونتنبلى وصور لليزيد وليبران وينتهى إلى ڤاتو وفراجونار .

ظهر حديثاً

أرض البشر تأليف انطوان دى سانت إكسوپرى ترجمة مصطفى كامل فوده
(دار الكاتب المصرى)

عند ما أخذ انطوان دى سانت إكسوپرى ينشر قصصه ، واتخذ حياة الطيران ، والطائرة ، وعيشة العاملين فى الطيارة موضوعا لهذه القصص ، انتقل بفن الطيران إلى عالم الأدب . والواقع أنه من الصعب خلق أدب يدور حول المخترعات الميكانيكية ، فالأدب كالفن يقوم أولا على المشاعر والعواطف ثم يقوم على المؤثرات الطبيعية التى تحيط بنا وتتصل بحياتنا اتصالا لا يمكن تجاهله ، والعوامل الطبيعية هى جزء من المقدورات التى لامعدى للانسان عنها ، ولا يستطيع أن يتجاهلها فى حياته ، لذلك كان تأثره بها شديداً ، وهو أشد فى الأزمنة الأقل حضارة . ولذلك كان الأدب الذى نشأ فى تلك الأزمنة شديد الاتصال بالطبيعة ، وهو فى الأزمنة الأخيرة ، بعد أن سيطر الانسان على العالم الطبيعى أقل اتصالا بالطبيعة ، ولكن الطبيعة خلقت فى كل وقت أدبا ، أو كان لها فيه أثر .

أما الآلات فلم تخلق أدبا ، أو يصعب أن تخلق أدبا . على أن سانت إكسوپرى أحب العمل الذى اتخذه مهنة وعمل فيه فأخرج أول قصص يعد فى مضاف القطع الأدبية عن الانسان وهو فى جو الطيارة ، حيث يستنشق ذلك الهواء النقى الذى يرق كلما ارتفع الانسان فى الجو .

فما هى قصة «أرض البشر» التى نقلها الاستاذ مصطفى كامل فوده اليوم ، وأخرجتها دار الكاتب المصرى ؟ إنها قصة أولئك القوم الذين يعملون على خطوط الطيران ، فينقلون الناس والأثقال كل ليلة من قطر قريب إلى قطر بعيد ، فهى قصة معيشتهم وانقطاعهم إلى عملهم ، وارتباطهم بالمواعيد ارتباطا أشبه بالأسر ، وركوبهم متن الجو ، حيث لا مساومة فى الأخطاء ، فأقل خطأ يرتكبه الطيار معناه الفناء والعدم ، أو الأبدية إن شئت لذلك اسما آخر .

وهى قصة الآلة التى اخترعها الانسان فى صلفه غير مكتف بأن يسيطر على جوانب الأرض التى جعلت له ولغيره من المخلوقات ، وأن ينفذ إلى أقصى جوانب المعمورة ، حتى لم يكد يترك السبيل لهذه المخلوقات لتعيش فى أى جهة من الجهات إلا إذا ذللت له من قيادها ، ونزلت عن حريتها ، وغير مكتف بأن يركب متن البحار حتى صار الآلاف من بنى البشر يعيشون فوق ظهر البحر لا يكادون يعرفون اليابسة ، وحتى كاد الانسان يسخر أحياء الماء لأوامره ، فهو الآن يريد السيطرة على طبقات الجو . وقد ذهب فى ذلك شوطاً بعيداً فى السنوات الأخيرة .

ولكن قصة «أرض البشر» وكنت أفضل تسميتها «أرض الرجال» أى الرجال المتازين بالصلابة والقوة ، وهى أحب صفات الرجولة ، إنما هى قصة أولئك المغامرين الأوائل الذين كانوا يطيرون فى آلات لم تبلغ بعد ما بلغته آلات الطيران الحالية من الاتقان . فالانسان فى هذه المرحلة لا يكون قد سيطر على وسائله

كل السيطرة ، بل هو مسير إلى مجاهل ، باذل نفسه فى سبيل نفع الانسانية ، أو ما يعتقد أن فيه نفعاً .

ولقد وفق الأستاذ مصطفى كامل فوده فى نقل هذه القصة كل التوفيق ؛ فاختيارها دليل على سلامة الذوق ؛ إذ أنها تدخل إلى الأدب العربى عنصراً من أحدث ما ظهر فى الأدب الأوربى وهو أدب الطيران ، كما أنه نقلها فى عبارة جميلة وأنيقة فيها كل مزايا المؤلف ومميزاته .

وقد نشرتها دار الكاتب المصرى فى طبعة لا تقل إتقاناً عن خير الطبعات الأوربية . ولا ريب عندى فى أن الدار ترمى إلى أن يكون إخراج الكتاب العربى فى مستوى الكتب الأوربية . وإنى لأرجو مخلصاً أن تنافسها فى ذلك دور النشر الأخرى ؛ فان تلك المنافسة تعود بالخير على الكتاب العربى ، وتوجد فناً جميلا جديداً كان إلى وقت قريب غير قائم .

الفن ومذاهبه فى النثر العربى تأليف الدكتور شوقى ضيف (مكتبة النهضة المصرية)

ليس عندى ريب فى أن الدكتور شوقى ضيف أسدى إلى القراء والأدباء أيضاً ، بدأ بتأليفه هذا البحث الطريف بعد أن ألف كتابه فى « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ؛ فان هذه البحوث ذات قيمة خاصة فى هذه الايام التى ترى نهضة فى التأليف ليس لها مثيل فى الأدب العربى منذ مئات السنين ، وهو بهذا البحث يذلل للقارئ العصرى ، وللمؤلف العصرى دراسة النثر العربى فى أيام تراث الأجداد .

ولا ريب فى أن الشعر العربى قد ظفر بالعناية والبحث منذ قديم الزمن ، وبعض الكتب التى وضعت فى نقد الشعر فى زمن ازدهار الحضارة العربية ، لا يزال يقرأ حتى الآن ، ولا يزال من السهل على الكاتب المعاصر دراسة الآراء القديمة فى الشعر . أما البحوث فى النثر فقليلة لاتغنى ، وهى فوق ذلك عسيرة على القارئ المعاصر ؛ لذلك كان كتاب الدكتور شوقى ضيف هدية ثمينة للمكتبة العربية .

وهو على ما فيه من بحوث وآراء جديدة فى عدة مواضع منه قد قسم وبوب خير تبويب ، فهو يقسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام : مذهب الصنعة ، ومذهب التصنيع ومذهب التصنع . ثم يبتدئ بوصف مذهب الصنعة ثم يطبقه على النثر الجاهلى ثم النثر فى الصدر الاسلامى ثم النثر العباسى فيتناول زعماء النثر فى كل من هذه العصور واصفا حياتهم ، مبينا مميزات نثرهم ، فيتكلم عن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ .

ثم يعود إلى مذهب التصنيع فيصفه ويبين أثره فى الحياة العربية ودواوين الخلافة العباسية والامارات الفارسية ، ويتكلم عن ابن العميد وابن عباد وأبى إسحاق الصابى ، ثم يتكلم عن الخوارزمى وبديع الزمان وقابوس ابن وشمكير .

ثم يأخذ فى مذهب التصنع واصفاً حياة أبى العلاء ومؤلفاته والحريرى وتعقيداته والحصكفى .

وفى قسم آخر يتكلم عن مذاهب النثر فى بلدين إسلاميين لهما شخصية قائمة بذاتها وهما الأندلس ومصر .

وإنا لنعتقد أن هذا الكتاب جدير بأن يجد مكانا فى مكتبة كل أديب أو متأدب .

وكنا نود أن يكون إخراج الكتاب أنيقاً جديراً بأهمية موضوعه ؛ فانه مما يؤسف له أن أخرج فى حجم كبير متعب بحيث لا يسهل حمله لقراءته ، مع أن أكثر الناس يقتطعون من أوقات غدوهم ورواحهم للعمل ، أوقاتا للقراءة ، فيستفيدون من هذه الأوقات . وكان هذا الكتاب من أجدر الكتب بأن يكون دائما مع راغبيه فى غدوهم ورواحهم .

اللقاء تأليف ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر ببيروت)

عند ما ظهرت منذ عشرات السنين تلك المجموعة من النظم التى سميت « شعراء العرب فى القرن العشرين » اتجهت أنظار العالم العربى إلى ذلك الأدب الوليد الذى نشأ فى بلاد غريبة هى أمريكا بين نخبة من الشبان الذين هاجروا من أرض لبنان فى سبيل ابتغاء الرزق ، فلم يثنهم جهدهم المادى عن الاتصال الروحى ببنى وطنهم . ونفخت الحياة الجديدة والآفاق الواسعة التى رأوها فيهم روحا جديدة كانت نسمة حياة هبت على التقاليد الراكدة فأنعشتها ، ومازالت تعمل على إنعاشها .

وقد تلألأ فى طليعة هؤلاء المجاهدين اسم جبران خليل جبران ، وأقبل الشباب فى أقطار البلاد العربية ينهلون من أدبه . وثمة اسم آخر يقترن بهذه النهضة الادبية هو اسم ميخائيل نعيمة الذى نشر وقتئذ كتابه « الغربال » وهو مجموعة مقالات فى النقد ولكنها كتبت بأسلوب جديد وبروح جديدة ، وتناولت موضوعات شيقة مما يكتب فيها كتاب الغرب ، فكانت نبراسا للشباب العربى فى تناول موضوعات النقد .

وهو اليوم ينشر قصة « اللقاء » وليست هى الاولى بين ما نقرأ له من قصص ، فقد قرأنا له « الآباء والأبناء » من قبل .

وهاتان القصتان من كاتب فى مقدرة ميخائيل نعيمة لا يمكن إلا أن تكونا جديرتين بالقراءة . ولكننا نعتقد أن المقام الاول لتفوق الأستاذ ميخائيل نعيمة هو فى النقد قبل أن يكون فى القصص . وإذا كان قد أحسن كل الاحسان فى كتابه عن « جبران خليل جبران » فذلك لأن كتابة حياة شخص تتطلب قوة فى النقد أكثر مما تتطلب مقدرة فى الرواية .

ولسنا نريد أن نقول إن قصة « اللقاء » خالية مما يجذب القارئ ، فحسبه أنه لا يستطيع أن يتركها قبل إتمامها ، وإنما نريد أن نأخذ عليها شيئاً من الاغراق فى الخيال ، وقد تأخذ عليها كذلك أنه ليس بين أشخاص القصة من هو جدير بالحب أو بالعطف من القارئ ، حتى تلك الفتاة التى سحرت بألحان كنجة ولم تقم من نومتها إلا إلى القبر .

الأوثان بقلم ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر ببيروت)

أما كتاب « الأوثان » فهو تحفة من تحف الأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو مجموعة آراء له فى الأوثان التى يعبدها العالم الحديث . فقد تكلم عن المال والقوة والسلطان والرأى العام والقومية والكلمة السوداء والعلم ، كل ذلك فى أسلوب طريف وآراء مبتكرة .

ونحب ألا نترك هذين الكتابين دون أن ننوه بالمجهود الظاهر فى إتقان الطباعة والثوب الجميل التى ظهرت فيه قصة « اللقاء » بصفة خاصة وما فيها من صور جميلة متقنة .

التاريخ الانجليزى تأليف ا . ل . رواس ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة
(مكتبة النهضة)

قد تكون العناية بالاطلاع على تاريخ انجلترا بين جمهور القارئين فى بلاد الشرق أقل من العناية بتاريخ أمم كبيرة أخرى مثل فرنسا . وربما كان لدى القراء بعض العذر ، ففرنسا دولة تعيش قريبة من الدول الشرقية وعلى شواطئ بحر واحد ، وفرنسا تحتل قسما من أهم أقسام القارة الاوربية ، وفى تاريخها حادث واحد كان له رجة عالمية ولا يزال دويه يتردد فى أنحاء المعمورة ويؤثر فى الأجيال المتعاقبة من بنى البشر ، هذا الحادث هو الثورة الفرنسية . ولقد تدخلت فرنسا فى حياة الشرق فى الأزمان الحديثة تدخلا كبيراً وأصاب الشرق منها خير قليل وشر كثير . على أننا لو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أن انجلترا أكثر تدخلا فى أمور الشرق والعالم ، وشرها فى العالم أكبر ، فكان تاريخها جديراً بالعناية والدرس .

والواقع أن تاريخ انجلترا ، إذا كان للتاريخ قيمة ، حافل بسلسلة غير منقطعة من الحوادث ، يستطيع منها الباحث أن يقف على معلومات فى الاتجاه الذى يبحث فيه يصعب أن يعثر على مثلها فى تاريخ الأمم الأخرى .

ولعل تكييف تاريخها ناشئ من مركزها الطبيعى كجزيرة منفصلة قد تستطيع أن تتاقى تأثير الدول الاوربية الأخرى إذا رغبت فى ذلك وأن تؤثر فى دول القارة الاوربية إذا ما أرادت .

ولقد أراد المجلس البريطانى ، وهو الهيئة التى أنشئت فى السنوات العشر الأخيرة لنشر الثقافة الانجليزية ، أن يصدر كتابا باللغة الانجليزية من قلم مؤرخ معروف عن روح التاريخ الانجليزى ، فكان كتاب الاستاذ رواس ، وهو الذى رأى الاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الاول أن ينقله إلى اللغة العربية ، ليوفى ، كما قال فى مقدمته ، ديناً لانجلترا عليه هو دين تثقفه فى جامعاتها .

فالكتاب إذن فى ثوبه العربى خير مقدمة لمعرفة لا تاريخ انجلترا ، وإنما اللمحات من هذا التاريخ الذى لا يمكن أن يستوعبه هذا الكتاب الصغير . ولعل مؤلفه بالغ فى الاختصار ، أو لعل مؤلفه بالغ فى محاولة إظهار وجوه مختلفة من نواحى التاريخ الانجليزى ومميزات كل عصر من العصور المختلفة ، فأهمل النواحى الاخرى . فتاريخ انجلترا كما أشرنا يمكن أن يدرس من وجهات كثيرة متعددة ، وتوجد فى كل ناحية من هذه النواحى سلسلة غير منقطعة من الآثار والمستندات والوثائق تمتد إلى آلاف السنين . فقد تريد أن تدرس تجانس الشعوب التى تكون منها سكان الجزيرة واختلافاتها ، أو انجلترا فى القرون الوسطى وتأثير النظام الاقطاعى فيها ، أو استتباب الأنظمة الدستورية ، وتاريخ انجلترا خير تاريخ يدرس من هذه الجهة ، أو توسع انجلترا فيما وراء البحار ومحاولتها السيطرة على العالم ، أو تحولها الصناعى أو نمو الأدب والعلم فيها ، كل هذه الامور جديرة بالدرس ، وفى تاريخ انجلترا مجال متسع متواصل .

إذن نحن نرحب بنقل هذا الكتاب للغة العربية أكبر ترحيب وإن كان قطرة فى محيط من الدراسات الشيقة المفيدة . وقد أسدى الاستاذ يداً لقراء العربية بنقله ، بقدر ما أوفى بدينه . ولا ريب فى أن الثبت الذى وضعه تلميذه الاستاذ أحمد عيسى للرجوع إلى مواضع

الكتاب مفيد . وحبذا لو أضاف المترجم القائمة المختصرة من الكتب التى يرجع إليها والموجودة فى الكتاب نفسه . ولقد أشار المترجم فى مقدمته بأنه فسر بعض المواضع التى ظن أنها تكون غامضة على القراء بدلا من أن ينقلها إلى اللغة العربية . ونحن لا نوافقه على هذه الطريقة ، بل نرى أنه ليس من حق المترجم أن يفعل ذلك ، وعليه أن يحترم الأصل ويضع التفسير الذى يراه فى حاشية بسيطة فى ذيل الصفحة .

حسن محمود

الحكومة المحلية فى السودان للأستاذ محمد أحمد محجوب (مطبعة مصطفى البابى الحلبى)

هذا كتاب وضع فى سنة ١٩٤٤ ، وطبع فى سنة ١٩٤٥ ، وألقى إلى فى سنة ١٩٤٦ ، وإنما ذكرت هذه التواريخ المتعاقبة لما لها من الدلالة فى مثل الموضوع الذى يعالجه هذا الكتاب ، وهو موضوع يشغل بال المصريين والسودانيين على السواء فى الوقت الحاضر ، بل لعله الموضوع الأول الذى يشغل بال المصريين والسودانيين فى الوقت الحاضر ؛ لأنه يتناول طرفا مهما من قضية السودان التى تدور بشأنها المفاوضة فى الوقت الحاضر بين مصر وبريطانيا ، أو التى نأمل أن تدور بشأنها المفاوضة ؛ فهو إذن كتاب يظهر فى أوانه ، لأنه يلقى ضوءاً على بعض الحقائق ، أو بعض الأباطيل ، التى ينبغى أن يلم بها المفاوضون المصريون ، أو المصريون عامة ، حين تتناول مباحثهم نظام الحكم فى السودان إن قدر لهذا الموضوع أن يكون موضع البحث والمفاوضات فى هذا الأوان !

أما مؤلف هذا الكتاب فهو سودانى فيما يبدو ، وأحسبه من أهل الجنوب ، عرفت ذلك من طريقته فى عرض الموضوع ، وأسلوبه فى البحث ، ومنهجه فى الاستدلال ؛ وثمة استنتاج آخر وصلت إليه من طريقته وأسلوبه ومنهجه ، هو أن مؤلف ذلك الكتاب موظف فى حكومة السودان . . . وحسبى هذا تعريفا بالمؤلف ؛ لأنه كل ما بلغت إليه من المعرفة بالمؤلف ؛ وقد كنت فى غنى عن ذكر ذلك لولا أن له هو أيضا دلالته على موضوع الكتاب !

أما موضوع الكتاب فهو الحكومة المحلية فى السودان كما يدل عليه عنوانه ، وقد بدأه المؤلف بمقدمة يقول فى فاتحتها :

« إن الاهتمام بشئون الحكومة المحلية فى السودان فى السنوات الأخيرة ، وصدور القوانين واللوائح الخاصة بتنظيم عمل الحكومة المحلية وسلطاتها وواجباتها ، وإنشاء المجالس ذات الصبغة التمثيلية والسلطات التنفيذية ، جعلت اهتمام الناس بأمر الحكم « الذاتى » المحلى يتزايد يوما بعد يوم » .

ويمضى فى مقدمته ذاكرا الدوافع التى حدته إلى تأليف هذا الكتاب ، ونهجه فى البحث ، وطريقته فى تناول الموضوع ، ثم يقول :

« إنه عمل متواضع أتقدم به كلبنة فى أساس نهضتنا القومية وجهادنا فى سبيل ترقية بلادنا ونيل استقلالنا كشعب يحكم نفسه بنفسه . . . وإنى لأتمنى مخلصا أن يحفل به أبناء مصر حكومة وشعبا وأن يوليه إخواننا فى الشرق العربى عنايتهم . . . »

فاذا فرغ المؤلف من مقدمته مضى فى بحثه فوصف البلاد وسكانها ، ثم استعرض تاريخها

وتطور نظام الحكم فيها ، ثم انتقل إلى نظام الحكومة المحلية فى السودان ، وعقد فصلا للتعريف بنظام الحكومة المحلية فى انجلترا ، وقارن بينه وبين النظم المحلية فى بلاد أخرى ، ثم عرض صورة للحكومة المحلية فى السودان كما يود أن تكون ...

تلك هى خلاصة مباحث الكتاب ، لم يعرض فيها المؤلف لشئ من حديث السياسة العليا بقول صريح ، وإن لم يغفل عن الايحاء والتلميح والاستخفاء فى كثير من المواضع وراء الضباب ؛ وهو مسلك لعل له ما يفسره من موظف فى حكومة السودان الانجليزى ... المصرى ! وفى الوقت الحاضر !

ولكنه على كل حال كتاب فى أوانه .

بين العلم والأدب للأستاذ قدرى حافظ طوقان (المطبعة التجارية بالقدس)

يجمع إلى عنوان هذا الكتاب اسم مؤلفه تعرف موضوعه ؛ فهذا الكتاب عنوانه « بين العلم والأدب » ومؤلفه هو الأستاذ قدرى حافظ طوقان ، وهو أديب من أدبائنا القلائل الذين جمعوا بين العلم والأدب ، فكان إنتاجهم الأدبى بابا من أبواب العلم ، وكانت مباحثهم العلمية فناً من فنون الأدب ؛ وما أقل أهل البيان فى العلماء ، وأقل منهم الذين يعنون بالعلم ويتعمقون نظرياته من أهل الأدب !

هل كان ذلك لأن بين العلم والأدب عداوة فلا يجتمعان ؟ فكيف كان فى الأمة العربية أمثال الخوارزمى ، والبيرونى ، وابن سينا ، وابن الهيثم من أهل العلم وذوى البيان ؛ وكيف كان فيهم من مشاهير هذا العصر أمثال فلان وفلان وقدرى حافظ طوقان ؟

وهذا الكتاب الذى نعرضه اليوم هو برهان جديد على أن العلم والأدب قد يلتقيان فيكون كل منهما تماما لصاحبه وزينة له وزيادة فى معناه ؛ بل هو برهان — إلى براهين كثيرة — على أن العالم الذى لا يحسن البيان ليس حقيقاً بصفته بين أهل العلم ، وعلى أن الأديب الذى لم يأخذ بحظه من العلم هو أديب ناقص الأداة فارغ المعنى سطحى التفكير ؛ فقد تغلغل العلم اليوم فى كل ناحية من نواحى الحياة وكشف عن عللها المستورة وأبان عن غاياتها وما تنتهى إليه . فمن أين يبلغ الأديب منزلته فى التعبير عن صور الحياة إذا لم يلتمس من العلم أسبابه للنفاذ إلى عللها والاستشراف إلى غاياتها القريبة أو البعيدة ؟

وإنما كان توهم الخلاف بين العلم والأدب نتيجة لتلك الكتب الأعجمية التى يرمينا بها بعض الباحثين فى العلم فى لغة لا يكاد يسيغها من القراء غير أهل التخصص المنقطعين لفنها ، بل لا يكاد يسيغها المتخصصون المنقطعون لفنها إلا لأن عندهم من مقدمات العلم ما يتيح لهم أن « أن يستنتجوا » ما يريد كاتبها أن يقول ؛ ثم نتيجة لبعض الكتابات الأدبية التى كان يلتزمها كتاب العربية فى جيل مضى ويصرفون همهم فى إنشائها وتحبيرها إلى العناية بصقل اللفظ ورنين المقاطع ومحسنات البديع ثم لاشىء وراء هذه الموسيقى وذلك الرنين وتلك الزخارف مما يصح أن يسمى أدبا . من تلك الكتب الأعجمية لبعض الباحثين فى العلم ، ومن هذه الكتابات التى لا تصور حياة ولا تصف حقيقة ولا تنفذ إلى أعماق نفس إنسان ، نشأ توهم الخلاف بين العلم والأدب وليس ثمة خلاف .

ومعذرة إلى القارئ ، فلعلى قد بعدت عما قصدت إليه حين هممت أن أعرض هذا الكتاب ، ولكن فى بعض ما قدمت من بيان

الصلة بين العلم والأدب ماقد يغنى عن التعريف بكتاب الأستاذ طوقان ، فما هو إلا فصل من ذلك الباب ، وعنوان من ذلك الكتاب .

بضع وثلاثون مقالة أنشأها كاتبها فى فترات متباعدة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٤٥ تناول فيها بعض مباحث العلم بأسلوب الأديب وعقل العالم مع سلامة اللغة ودقة التعبير ، ونشرها فى مناسباتها فى مجلات مصر والشام أو أذاعها من محطة الشرق الأدنى ثم جمعها بين دفتى هذا الكتاب .

هو كتاب قديم إذن وإن لم تخرجه المطبعة إلا منذ بضعة أشهر ، ولكنه بطرافة موضوعاته وأسلوب كاتبه سيظل جديداً فى يد كل قارئ من قرائه فى كل بلد من بلاد العربية التى عرفت كاتبه الأديب العالم .

عصر المنصور الموحدى للأستاذ محمد الرشيد ملين (المطبعة المحمدية بالمغرب)

هذا الكتاب — كما يقول مهديه — هو أحد المؤلفات التى أخرجتها المطبعة المغربية فى هذه السنة ، وهو أثر من آثار النشاط الفكرى بالمغرب . وفى المغرب اليوم نشاط فكرى يرعاه بتشجيعه وعنايته صاحب الجلالة السلطان محمد بن يوسف ، وفى مطبعته المحمدية أذن جلالته بطبع هذا الكتاب ، وعن دار التأليف والنشر السلطانية كانت إذاعته .

وهو حلقة أولى من سلسلة بحوث يقصد منها إطلاع شباب البلاد العربية على المستوى النائق الذى بلغته المدنية بالمغرب فى عصوره الذهبية ، متدرجة مع التاريخ حتى تبلغ عصر السلطان محمد بن يوسف الجالس على عرش المغرب اليوم .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الأستاذ محمد الرشيد ملين مدير المطبعة المحمدية السلطانية .

وأما موضوعه فهو عصر المنصور يعقوب بن عبد المؤمن سلطان الموحدين بالمغرب والأندلس .

وقد تولى المنصور عرش الموحدين بعد أبيه يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٥ الهجرية ، ونزل عن العرش طائعاً لولده محمد الناصر سنة ٥٩٥ وسنه يومئذ ٤٨ سنة فانقطع للعلم ودراسة الفلسفة وصاحبه يومئذ الفيلسوف ابن رشد ، وكان عصر من العصور الذهبية فى المغرب والأندلس .

وقد قسم المؤلف كتابه بعد المقدمة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الحياة السياسية ، وفيه خمسة فصول ، بسط فيها المؤلف حروب المنصور وفتوحه فى المغرب وفى أسبانيا .

والقسم الثانى : الحياة الفكرية ، وفيه أربعة فصول ، بسط فيها بعض مظاهر الثقافة فى عصر المنصور ، وتحدث عن اللغة والنحو والأدب ، والشعر والشعراء ، والعلم والعلماء فى ذلك العصر .

القسم الثالث : الحياة الدينية .

ثم ألحق بذلك خاتمة فى بضع صفحات تصور آخر حياة المنصور .

وقد عنى المؤلف بذكر مصادر بحثه ، كما أثبت فى آخره طائفة من الفهارس الوافية للموضوعات والأعلام وأسماء المدن . فجاء وافياً بحاجة كل قارئ يريد أن يقف على تاريخ هذه الحقبة من تاريخ المغرب فى العدوتين .

وأسلوب المؤلف أدبى رشيق يمتع قارئه ويشوقه ، ولغته سائغة عذبة لا يكاد القارئ يشعر معها بمرور الزمن .

على أن أحسن ما ينبغي أن أنوه به حين أذكر هذا الكتاب ، هو دقة المؤلف في البحث وحرصه على التحري ، وهو إلى ذلك مغربي يؤرخ حقبه من تاريخ بلاده ، فهو قريب من مصادر البحث ومقيم في جوه ؛ فلا عجب أن يكون كتابه — كما أراه — شيئاً جديداً من تاريخ تلك البلاد ينبغي أن يعرفه كل عربي .

همزات الشياطين للأستاذ عبد الحميد جودة السحار (مطبعة مكتبة مصر)

هذا كتاب قصص ، أو هو كتاب في القصة ؛ فمن شاء فليتخذه لونا من ألوان الانشاء الأدبي يستمتع بما ساق مؤلفه من أقاصيص شائقة ليست بعيدة مما نراه حولنا من صور الحياة أو نحسه في ذات أنفسنا من صور العاطفة ، ومن شاء فليتخذه كتابا يعرف فيه من أوليات فن القصة ما يريد أن يعرف ، ليكون قاصا يلتزم القاعدة في هذا الفن كما يريدها مؤلف هذا الكتاب ، أو ليكون ناقداً يزن ما يقرأ من قصص المؤلفين بميزانه .

فقد صدر المؤلف كتابه ببحث مبسوط جعل عنوانه « بين الرواية والأقصوصة » تحدث فيه عن معنى الرواية في اعتبار أهل ذلك الفن ، والشروط التي يرى أن تتوافر فيها ، ومراحلها من حيث تبدأ إلى حيث تنتهي ، ثم عن الفرق بينها وبين الأقصوصة ، وغير ذلك مما قد يحتاج إليه القاص ، أو الناقد .

ثم أردف هذا البحث بطائفة من الأقاصيص لعله كان موفقا حين اختار أن يكون عنوانها على الجملة « همزات الشياطين » فكأنها تصوير لبعض ما يصطرع في عواطف الناس من نوازع الخير والشر وما يتجاذبهم من دوافع الهوى وعوامل الفضيلة . فالقصة الأولى وعنوانها « وسوسة الشيطان » تصور شابا قد نشأ على الخير والفضيلة ، ثم بدت في حياته امرأة فسولت له نفسه ما سولت حتى أزلته ثم فاء إلى الندم والتوبة .

والقصة الثانية عنوانها « على القبر » وفيها يصف كيف يتغلب الشيطان على عوامل الموعظة والعبرة فينفذ إلى سرائر المشيعين يداعب أمانيهم ويوقظ شهواتهم وواعظ الموت لا يزال ماثلا أمام أعينهم !

وعلى هذا النسق ترى صورا شتى من همزات الشياطين في كل ما تقرأ من الأقاصيص في ذلك الكتاب ، وعدتها اثنتا عشرة أقصوصة .

وقد يحس القارئ في بعض ما يقرأ من هذه الأقاصيص أن المؤلف قد أسرف في التحليل إسرافا فيه بعض الملالة ، وبالغ في وصف بعض البديهيات مبالغة لم تكن إليها حاجة ، ولكن ذلك لا يصرف القارئ عن متابعة الموضوع بشوق ولذة .

وقد يحلو لبعض القراء أن يحاول تطبيق ما قرأ في صدر الكتاب عن فن القصة على ما يطالع بعد ذلك من أقاصيص المؤلف فلا تستقيم له القاعدة ولا يستبين سبيل القياس ، ولكن ذلك لا ينقص كثيراً من قيمة البحث الذي صدر به المؤلف كتابه ، ولا يغض من قدره كقاص يحاول فنا من فنون الأدب لا يخضع دائماً للقواعد الموضوعة ولا يتقيد بالتقاليد !

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

بركة الوالدين !

في عدد مايو الماضي من مجلة « الأديب » — بيروت — مقال بقلم الدكتور نبيه أمين فارس عنوانه « رسالة الشباب العربي » يقول فيه :

« يعيش الشباب العربي اليوم في بيئة تعودت النظر إلى الماضي والتغني به دون أن يستفيد من وحي التاريخ شيئاً . وهو أشبه بجندي تجاوز السن فأحيل إلى التقاعد : لا عمل له سوى التحدث عن المعارك الحربية التي خاض غمارها ، وعرض الأوسمة التي نالها ، وانتظار الأجل ! وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد ، جميع حياته وراءه وليس أمامه إلا القبر . فعلى الشباب العربي أن يولي وجهه نحو المستقبل ، وأن يعقد النية على أن يكون مستقبل العرب خيراً من ماضيهم ، وإذا اقتضت الحال أن يخرج على الجيل القديم في بلده فليفعل ؛ لأن بركة الأجيال القادمة خير من بركة الوالدين . . . »

تعريب الأدب العربي !

ويمضي الدكتور نبيه في مقاله ذاك عن رسالة الشباب العربي حتى ينتهي إلى أن يقول :

« لقد حان الوقت لتعريب أدبنا ولانشاء رواية عربية حديثة منبعثة من الحياة العربية ، ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانو دى برجراك والبؤساء وغيرها من روايات الأجانب . ومن الصعب أن نرتجي من نشء لم يترعرع إلا على مثل هذه الروايات أن يشب على عقيدة عربية راسخة . ومن واجبنا أن نهيئ للنشء الجديد رواية من طينة عربية ... ويا ليت كتابنا وراء الترجمة والنقل يعنون بالرواية العربية ، لاسيما تلك التي تنسج لحمتها من حياة العرب في هذا العصر . وتاريخ العرب قديمه وحديثه مفعم بالوحي والالهام ، ينتظر مصطفى من أرباب الأقلام ليحطم الأصنام ، ويحرر أدب قومه من ربقة الأجانب وتفكير الأعجام ! »

كيف يكتب أندريه جيد . . .

زار الأديب الفرنسي الكبير أندريه جيد لبنان ، فاحتفت به الأوساط الأدبية تقديراً لمكانته في الأدب العالمي . وقد طلبت إليه اسرة مجلة « الأدب الجديد » الناشئة في بيروت أن يصف لقرائها طريقته في الكتابة .

فكتب إليها يقول :

« حبذا لو تنبسط فكرتى . . .

« أبقى فى غرفتى دون أن أعمل شيئاً وبودى أن أعمل كل شىء . . .

« أملك عشرين كتاباً ابتدأت فى مطالعتها جميعا وما انتهيت من أحدها . . . أقرأ ثلاثة أسطر ثم أفكر . . .

« فى غرفتى سرير واطئ وطاولة صغيرة مربعة وكرسى . . .

« أتخيل نائماً ، وأؤلف ماشيا ، ثم أكتب واقفاً ، وأنقل ماكتبته فى أوراق جالساً . . .

« الخيال عندى لا يستبق الفكرة فهو بدونها لا يعطى شيئا ، بينما الفكرة هى كل شىء . . . وكثيراً ما تتأخر تلك الفكرة فعلينا حينئذ أن نتمسك بالصبر اللانهائى ، لأنه يجب ألا ننتزعها انتزاعاً بل ندعها تأتى مختارة . . .

« فالفكرة المفضلة تأتى عند مايختفى غيرها .

« فى بعض الأحيان أنتظر مجيئها ساعة ، فان تخلفت أكون قدأضعت ساعة من الزمن .

« الأشياء القائمة بالجمال هى التى يوحيها الجنون ويكتبها العقل . . .

« يجب البقاء بين الاثنين : قريبين من الجنون عند ما نحلم ، ومن العقل عند ما نكتب ! »

روحية الشرق . . .

ويتحدث الدكتور قسطنطين زريق عن « علل التنظيم » فى الجزء السابع من السنة الثانية لمجلة « عالم الغد » التى تصدر فى بغداد فيجعل أول عوامل التنظيم فى الانسان هو العقل ، ولكن الشخصية الانسانية ليست عقلا كلها ، بل إنها تضم إلى جانب العقل عنصراً آخر ليس فى جوهره منظماً وإنما هو الذى يولد الدافع للتنظيم . هذا العنصر الذى يسمونه « الروح » . وحين ينتهى الكاتب من تحديده هذين العنصرين من عناصر التنظيم يقول :

« وقد يخطر للبعض أننا إذا كنا فى مجتمعنا العربى مقصرين فى العنصر العقلى من العنصرين الانسانيين اللذين يخلقات التنظيم ، فليست الحال كذلك فيما يختص بالعنصر الثانى ، أى الروح ؛ كيف لا وقد اعتدنا أن نصف أنفسنا كعرب أو كشرقيين بأننا أغنياء بالفيضان الروحى ، وأن نقابل روحيتنا هذه بمادية الغرب . على أننا إذا أنعمنا النظر وتفحصنا حالنا الحاضرة باخلاص وتجرد لم نستطع أن نقر لأنفسنا بهذا الفضل . لقد عرف أجدادنا الروحية العميقة ، وأنشأوا بما بعثت فيهم من قوى بناء شامخاً وحضارة مجيدة . أما اليوم فانك لن تجد لهذه الروحية فينا أثراً باقياً تستطيع الوقوف عنده ، بل ترانا بالعكس غرقى فى خضم من المادية واسع عميق ، وفى نوع من العيش الفردى والتعامل الاجتماعى هو أبعد مايكون عن خلوص الروح ونقاوة النفس . وأعظم دليل على ما أقول تأخرنا الشائن فى شتى الميادين ، هذا التأخر الذى ماكان ليسطو علينا ويمنعنا عن كل حيوية منتجة لو أننا نعمنا بنعمة الروح واهتدينا بقبسها الوضاء . فلنتضع إذن ، ولنسع إلى أن ننمى فى نفوسنا الخلق الكريم والجد ، وتقدير المسئولية ، وسواها من الصفات الروحية ، التى بدونها لا يكون أى تنظيم ، بل لا يكون أى خلق ؛ إذ ما التنظيم فى النهاية سوى نوع من الخلق وشكل من الابداع . »

السعادة فن

وفى العدد الثانى من مجلة « البطحاء » البغدادية يحاول الاستاذ دانيال يوسف أن يتحدث عن « السعادة والحياة » فيسائل أين يجد الانسان السعادة ؟ ولكنه قبل أن يجد جواب سؤاله يعود فيسأل : ماهى السعادة نفسها ؟ ويتردد بين السؤالين فى حيرة ينتهى بها إلى أن يقول : « السعادة فن : ليست السعادة فيما نملك ، او ما نرى ، أو ما يحيط بنا ؛ وإنما هى فى كيف نحسن استعمال ما نملكه ، ونحس بالجمال فيما نرى ، ونحظى بما يحيط بنا ؛ فقد يدخل اثنان حديقة ويرى كل منهما وردة جميلة على غصن شجرة صغيرة فيهم أحدهما ليقطفها فيخزه شوكها ، فيقول : ما أقسى الدنيا وما أتعسها حتى الورد قد أحيط بالشوك فلا نستمتع به ! وأما الثانى فيقول : لله در الحياة ! ما أبهجها وأحلاها ، لخفى الشوك قد وضع بينه الورد !

« وقد روى أن أحدهم مر بكلب ملق فى الطريق رث الهيئة قبيح الشكل ، وكان جميع المارة يشمئزون منه ، فنظر إليه وقال : ما أشد بياض أسنانه ! »

بين جيلين

ويعيب الاديب مارون عبود فى عدد ٣٠ أبريل من مجلة « الطريق » — بيروت — على الأدباء الشيوخ فى لبنان جمودهم بعد نشاط وفتورهم بعد حرارة ، ويعيب على أدباء الشباب ثمة عجزهم وضعف أداتهم وعدم إحسانهم استعمال « الكلمة » فى موضعها من الكلام ، فيقول :

« إننا لمقبلون على سنوات عجاف ، على قحط وجدب أدبيين ؛ فالمحاربون القدماء ألقوا سلاحهم ، والنازلون إلى الساحة فى أيديهم مخاريق لاعبين : ألفاظ معدودات ملمومات من هنا وهناك يرون كل الشعر فيها ، تعابير وألفاظ لا تتجاوز حبات المسبحة ، وهم يتسلون بها مستخبرين آلهة الشعر ، والفن لا يقوم على الخبرة ...

« أما الجيل الطالع — رجال اليوم وغد — فيتخبطون هم وأساتذتهم فى ظلمات المناهج ، يتعلمون ليحملوا شهادات لا ليسدوا فراغا ستتركه الباقية المناضلة حتى الساعة ، ولولا هم لخلت الساحة . يتعلم هؤلاء الناشئون ليجعلوا من شهاداتهم مفاتيح لأبواب « السراى » لا أسواراً تحمى ثقافتنا وتنميها ؛ فماذا يحل بنا متى خلت الجبهة من الأبطال ؟ إن الغد قاتم الأعماق خاوى المخترق : المشاتل خالية من الغرسات التى يعدها البستانى لتحل محل الشجرات التى تنقرض ! »

ويمضى الكاتب فيما يصف من إنتاج أدباء الجيلين ، وفى الجماعة الادبية التى يتوقع أن تحل بلبنان ، ثم ينشئ حواراً لطيفاً بينه وبين « الكلمة » التى نبا بها موضعها فى كلام أولئك الأدباء ، فلا هم وضعوها حيث أرادت اللغة أن تبين عن معناها صريحا ولا هى كشفت عما يريدون لها من معنى يقتسرونها على أدائه .

الأبوة حرفة !

وفى عدد أبريل من مجلة « المعلم الجديد » التى تصدرها وزارة المعارف العراقية بحث للأستاذ سيلى Seelye ترجمة الأستاذ محمد عزيز ، يتحدث فيه عن « سياسة الطفل فى مملكة البيت » وعن « تشجيع اللعب » و « المكافأة والعقاب » و « عوامل الافساد » و « تعويد الصدق » و « التدريب على الاستقلال » فيقول عما يسميه « البيت العلمى » :

« من أشد الأماكن افتقارا إلى مثل هذا العلم هو البيت ، ففيه الرجال والنساء ، وفيه الكبار والصغار ، وينبغى لهؤلاء جميعاً أن يتعلموا كيف يعيشون معا فى هناء وتعاون . والكثير من البيوت لا ينتفع بالعلم فى هذا الشأن ، على حين أن من الميسور لكل بيت أن يقتبس من العلم ما يشاء . . .

« وفى البيت العلمى يعنى بالأطفال خير العناية ، وما الطفل إلا مخلوق صغير عاجز يمكن لمستقبله أن يصلح أو يشوه تبعا لضروب العناية التى يتلقاها صغيرا . وقد تحب الأمهات أطفالهن بالغريزة ، ولكنهن لا يفقهن شيئاً بالغريزة عن علم العناية بالطفل . . .

« المحاماة حرفة ، والطب حرفة ، والرأى الحديث هو أن الأبوة أو الأمومة حرفة أيضاً . . . الأمهات العصريات النبيهات يدرسن حرفتهن ، والآباء العصريون الأذكياء يدرسون حرفتهم ، وإن المجلات لتنتشر ، والجمعيات لتؤسس ليزداد الوالدان علما بصناعتهما ، وبهذه الصورة ينساب العلم إلى البيوت بلا انقطاع . . . » .

دراسات عن المسرح العربى

توالى مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس « دراسات عن المسرح العربى » بقلم الأديب التونسى الأستاذ عثمان الكعاك . وفى عدد فبراير من هذه المجلة يتحدث الأستاذ الكعاك عن تاريخ المسرح المصرى الحديث وعن تمثيليات المؤلفين المصريين والقائمين على فن التمثيل فى مصر ، فيتحدث عن المرحوم محمد تيمور ، وعن جورج أبيض ، وزكى طليمات وروايات شوقى ، ومسرحيات توفيق الحكيم ومترجمات خليل مطران ، وعاميات ابراهيم رمزى ، كما يتحدث عن مجهود وزارة المعارف المصرية فيقول :

« إن مباريات القطع التمثيلية التى نظمتها وزارة المعارف المصرية بين سنتى ١٩٢٥ ، ١٩٣٢ قد أخفقت إخفاقا تاما ، فمن ذلك أن القطعة المسرحية التى فازت بالجائزة الأولى من الوزارة سنة ١٩٣٢ وهى مسرحية « سميرة » تأليف رشاد حافظ ، قد رفض تمثيلها عامة مديرى الفرق التمثيلية ، والمؤلفون الذين ظفروا بالجوائز الثانية لم يكونوا أسعد حظا . . . »

ويتحدث الكاتب عن معهد التمثيل الذى أنشأته وزارة المعارف فى وقت ما ثم أغلقه حلمى عيسى باشا لاعتبارات تتصل بالتقاليد .

وهو بحث ممتع طريف فيه رواية المؤرخ ورأى الباحث المدقق .



ليون دوديه

كليمنصو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه

٣٥ مليما والبريد ٢٤



Une traduction de mes livres en votre langue... A quels lecteurs pourra-t-elle s'adresser?

André Gide

ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ .. الى اى قارئ
عكنه أن تسادوه ؟ وأى الرغبات عكنها ان تلبى ؟
ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم
المسلم فيما يبدو لى ، انه وهو الانسانى الروح يحمل
من الأجوبة اكثر مما يثير من أسئلة ، أمخطئ أنا ؟

اندريه جيد

اجهدوا للدخول من
الباب الضيق
(انجيل «لوقا» : ١٣-٢٤)

اندريه جيد

الباب الضيق

تعريب
نزيه الحكيم

مقدمة لاندريه جيد وطه حسين

لم تخطئ انت ، دائما
دفعت الى الخطأ . لقد خالطت
كثيرا من المسلمين ولكنك لم تخالط
الاسلام ... فلو قد تعمقوا
الدين تعمقا دقيقا لأظهروك
على ما يثير القرآن من مسائل وما
يعرض لها من جواب .

طه حسين



١٨ قرشا والبريد ١٢ مليما

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الازهر

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الازهر

على حسن عبد القادر
دكتور فى العلوم الاسلامية
مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليما)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

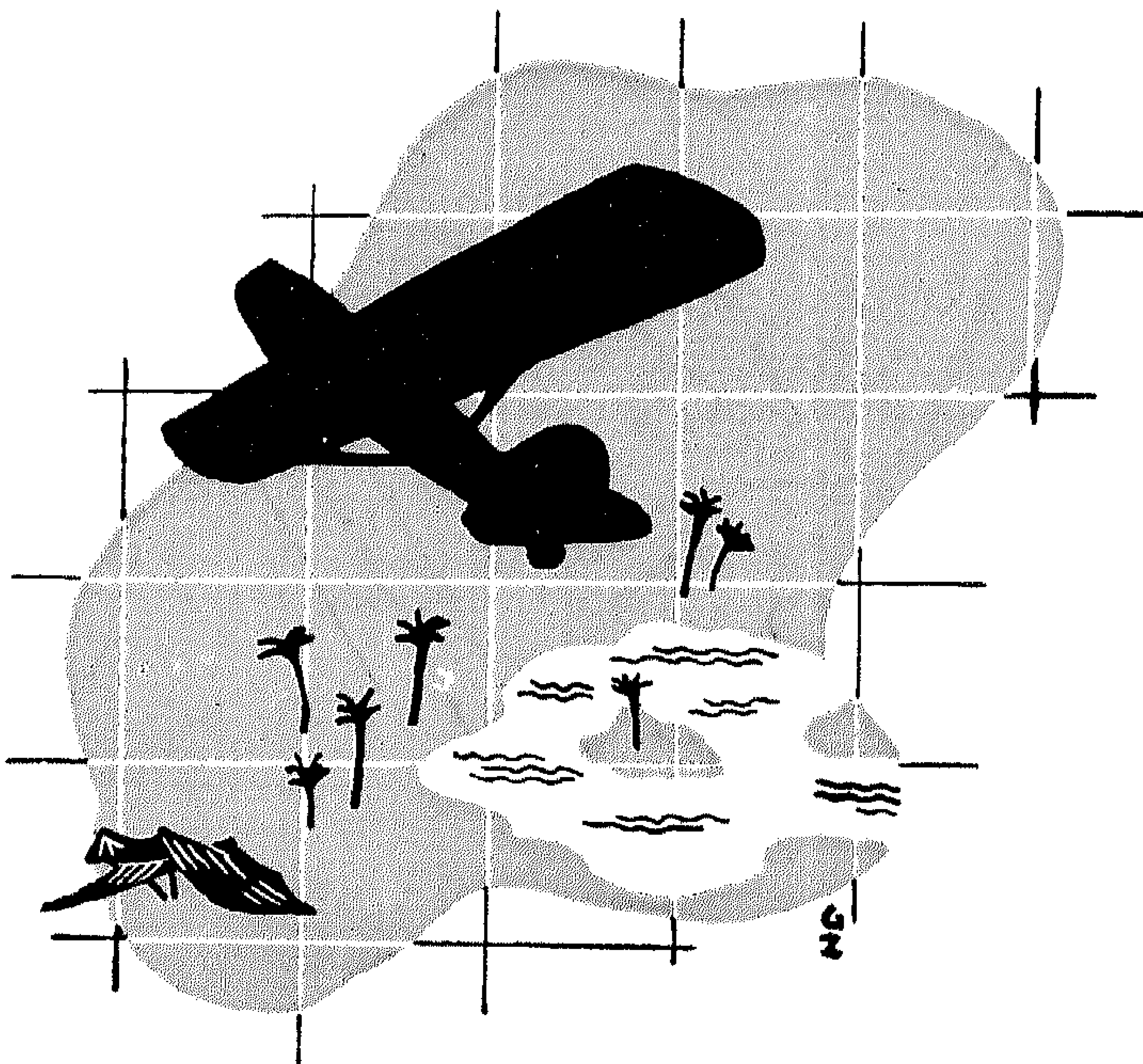
Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

انطوان دى سانت اكسوپرى

أرض البشر

تعريب مصطفى كامل فوده



الثمن ٢٥ قرشاً
(البريد ٢٠ مليما)



طبعة مزينة بالصور



في ارجاء العالم العربي

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية

مدونة جوستنيان
في الفقه الروماني

INSTITUTES DE JUSTINIEN

يتبعها

نظام للمواريث وضعه جوستنيان

ويليها

بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية

وبعض تقديرات أخلاقية

تعريب

عبد العزيز فهمي

رئيس محكمة النقض والابرام سابقا



تحت الطبع



ليون دوديه

كليمنصو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه

٣٥ مليما والبريد ٢٤





موريس بارس

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

جنة على نهر العاصى

تعريب

محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين



هل توجد الروح؟

وكم تزن؟..

هل يمكن الاحتفاظ بها؟

وهل يمكن أن تمتزج

بعد الموت روحان كانتا

مؤتلفتين أثناء الحياة؟

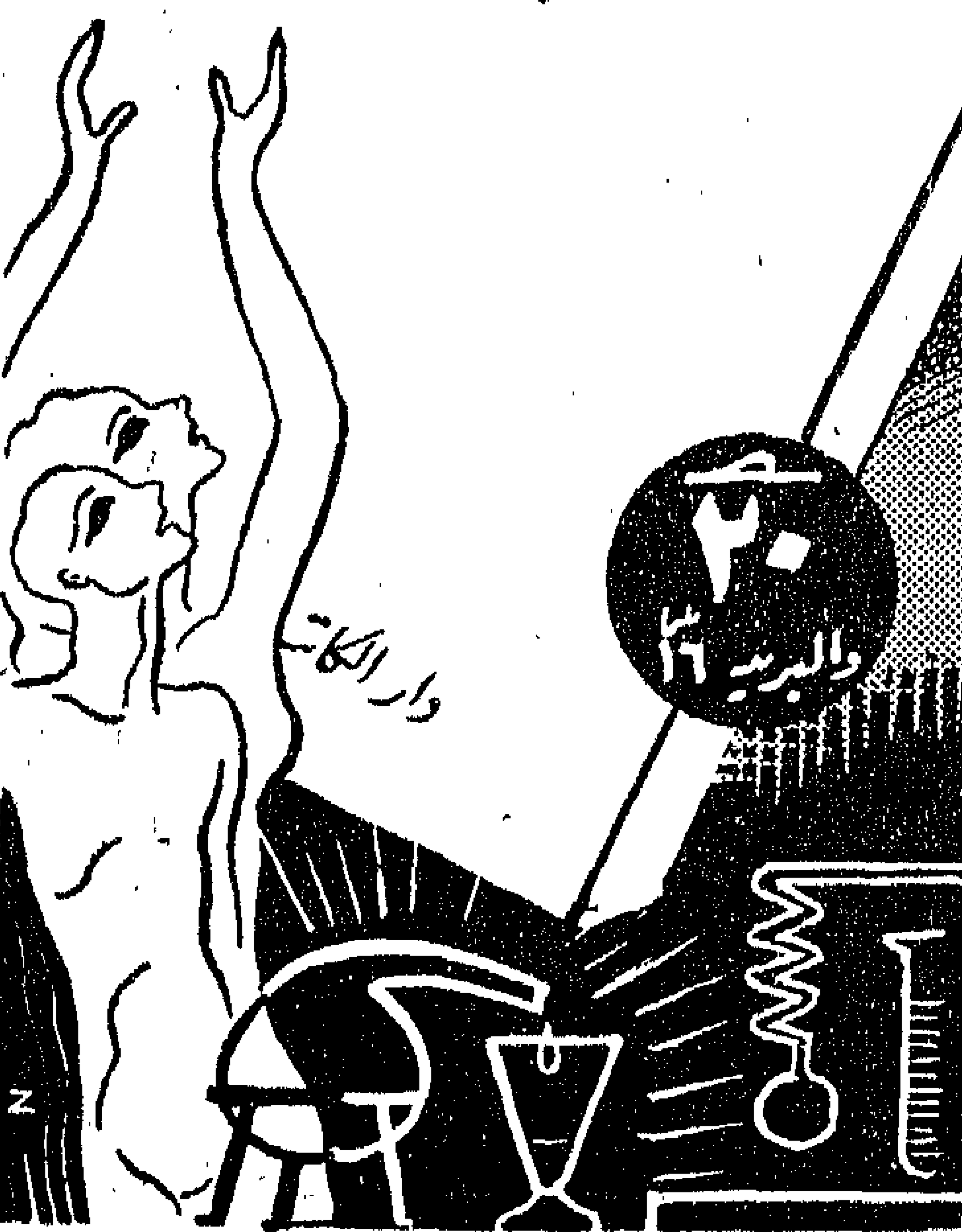


أندريه موروا

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

وزن الأرواح

تعريب عبد الحليم محمود





حكايات فارسية

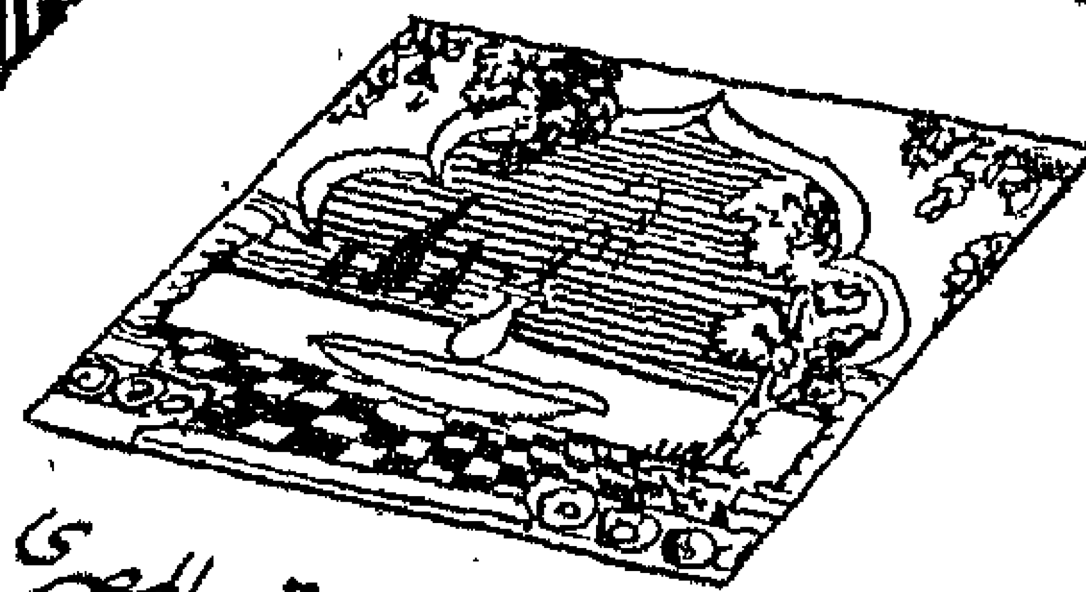
كتاب يحمل الى قراء العربية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
الممتازة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة

من حولنا

جيل من الناس فى أفراحهم وآلامهم ،
يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ،
أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى
رائع فى بيانه وفى فنه

يحيى الخشاب

حكايات فارسية



دار الكاتب المصري

٢٠

البريد ١٦ مليما

محمد سعيد العريان

من حولنا

قصص مصرية



دار الكاتب المصري



٢٥

البريد ٢٠ مليما



Une traduction de mes livres en votre langue... A quels lecteurs pourra-t-elle s'adresser?

André Gide

ترجمة كتبي الى لغتكم ؟.. الى اى قارئ يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبى ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما يبدو لى ، انه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أمخطئ أنا ؟

اندريه جيد

اجهدوا للدخول من الباب الضيق
(انجيل «لوقا» : ١٣-٢٤)

اندريه جيد

الباب الضيق

تعريب
نزيه الحكيم

مقدمة لاندريه جيد وطه حسين

لم تخطئ انت ، وانما دفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام ... فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب .

طه حسين



١٨ قرشا والبريد ١٢ مليما

الكاتب المصرى



شعبان ١٣٦٥ — يوليه ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ١٠

بين العدل والحرية

مسألة واحدة تلقى فى كل مكان متحضر وفى كل بيئة مثقفة، يلقيها بعض الناس على بعض، ويلقيها الأفراد على أنفسهم عن إرادة وتعمد واختيار حيناً، وعلى غير إرادة ولا شعور ولا اختيار حيناً آخر.

يلقيها بعض الناس على بعض ويلقيها الأفراد على أنفسهم، عامدين إلى الدرس والتحليل، محاولين أن يجدوا لها جواباً، شاعرين بذلك مريدين له؛ وتلقيها الحياة العاملة على الأفراد والجماعات فى كل لحظة وعند كل فرصة، ويعجز الناس فى كثير من الأحيان عن أن يجدوا لها حلا حاسماً حازماً، أو جواباً قاطعاً ساطعاً. وهم من أجل ذلك يضطربون فى حيرة متصلة، تظهر آثارها واضحة فى أقوالهم حين يتحدثون، وفى أعمالهم حين يعملون.

أيمضى العالم إلى تحقيق العدل أم إلى تحقيق الحرية؟ هذه هى المسألة، أو قل هى المشكلة التى ألقاها القرن التاسع عشر على بعض العقول فى أوربا، والتى جعلت تتسلط على هذه العقول قليلا قليلا حتى شغلتها واستأثرت بها، ثم تجاوزتها إلى عقول أخرى، ثم جعلت تتنزل شيئاً فشيئاً من الطبقات المفكرة الممتازة إلى الطبقات الوسطى ثم إلى الطبقات الدنيا، ثم استأثرت بالتفكير السياسى كله فى أواخر القرن الماضى حتى انقسمت لها أوربا شيعاً وأحزاباً. ثم عظم استئثارها بالحياة الأوربية فى أوائل هذا القرن، ولاسيما فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، حتى اضطربت لها أوربا اضطراباً شديداً، واضطرب

لها العالم خارج أوربا اضطراباً شديداً أيضاً كان من آثاره أن ثارت الحرب العالمية الثانية، وصبت على العالم ما صبّت من الشر والهول .

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية كما انتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تجد إحداها جواباً لهذه المسألة أو حلاً لهذه المشكلة، وإنما كانت نتيجة الحربين أن المسألة ظلت قائمة ولكنها ازدادت شدة وإلحاحاً، وأن المشكلة ظلت قائمة ولكنها ازدادت صعوبة وتعقيداً . والله وحده يعلم أيحتاج العالم إلى حرب ثالثة لتجيب على هذه المسألة وتحل هذه المشكلة، أم يستطيع السلام المنظم أو غير المنظم أن يخرج الإنسانية من حيرتها ويسلك بها إحدى الطريقين : طريق الحرية أو طريق العدل .

ومن الخطأ أن نظن أن هذه المسألة حديثة لم يعرفها الإنسان إلا حين ألقاها القرن التاسع عشر، وإنما هي مسألة قديمة عرفها الإنسان منذ عصور بعيدة جداً . وقد يستطيع الفلاسفة الذين يدرسون التاريخ ويحللونه أن يستقصوا أصل هذه المسألة، وأن يتتبعوا تطورها منذ فرضها العقل على الإنسان المتحضر فيما يسمونه فجر التاريخ . وليس من شك في أن الفلاسفة قد فعلوا فدرسوا الحضارة منذ نشأتها، واستقصوا أمر الصراع بين الحرية والعدل في أطوار الرقي الإنساني على اختلافها ، ثم انتهوا إلى ما انتهى إليه العالم الآن من هذه الحيرة المتصلة والاختلاط الشديد : فمنهم من آثر الحرية ؛ لأنها تحقق كرامة الإنسان وتتيح له أن يكمل نفسه ويظفر بشخصيته موفورة تامة، وفريق منهم آثر العدل لأنه يرضى حاجة الإنسان إلى المساواة، ويتيح له حظاً من الإنصاف يعصمه من استعلاء القوى على الضعيف، وتحكم الغنى في الفقير، وتفوق القادر على العاجز . وفريق آخر حاول أن يلائم بين العدل والحرية ، فلم يبلغ من هذه المحاولة شيئاً ذا خطر ؛ لأن العدل المطلق والحرية المطلقة لا يستطيعان أن يلتقيا إلا إذا قيدت الحرية وقيد العدل، وانتقص كلاهما من أطرافه فشوه خلقه تشويهاً ما . هنالك يستطيعان أن يلتقيا لقاء لا يخلو من تشويه تتأثر به الحياة الإنسانية نفسها، فتدفعها الحرية إلى العمل والنشاط ، ويدفعها حب العدل إلى الاختلاف والاختصام ، وتنتهي إلى هذا التطور الذي نشهده الآن كما شهدناه في العصور المختلفة، والذي يبث فيها العداوة والبغضاء ويملؤها شراً ومكراً وكيداً ، ثم يدفعها حيناً بعد حين إلى حرب من هذه

الحروب التي لا تبقى ولا تذر ، والتي تزداد على مر الأيام بشاعة ونكراً .

ومن الخطأ كذلك أن نظن أن هذا الصراع بين الحرية والعدل مقصور على بيئة إنسانية دون بيئة ، أو على مكان من العالم المتحضر دون مكان ، وإنما الواقع الذي نستطيع أن نلاحظه في كل وقت هو أن هذا الصراع قائم في البيئات الإنسانية المثقفة كلها ، وفي أجزاء العالم المتحضر كلها أيضاً ، يقوى ويعنف حيث ترقى الحضارة وتتفوق ، ويضعف وتخف وطأته حيث تركد الحضارة وتميل إلى الجمود ، ولكنه موجود دائماً ومتصل على كل حال . ويكفي أن ننظر إلى العالم المتحضر الذي نعيش فيه اليوم لنتبين أن الصراع بين الحرية والعدل عنيف إلى أقصى غايات العنف في أوربا وأمريكا ، وأن عنفه في هاتين القارتين أشد منه في القارات الأخرى ، وإن كان يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأمم والشعوب . وليس المهم أن ندرس هذا الصراع بين العدل والحرية درساً مفصلا مستقصى ، فذلك شيء لا سبيل إليه بل لا حاجة إليه الآن ، وإنما المهم أن نلاحظ مظاهر هذا الصراع في أوربا وأمريكا وفي بلاد الشرق الأدنى خاصة ، لنتبين إلى أي طريق نحن مسوقون ، وإلى أي غاية نحن مدفوعون . وليس من شك في أن إلغاء المسافات في الزمان والمكان قد جعل شرقنا الأدنى متصلا بأوربا وأمريكا اتصالا يومياً دقيقاً ، بحيث لا نستطيع أن نفلت مهما نحاول ذلك ، من التأثر بما يحدث في هاتين القارتين من الأحداث والخطوب ، وما يثار فيهما من المصاعب والمشكلات . ومن المحقق أن الشرق الأدنى لو استؤمر حين أثيرت الحرب العالمية الأولى لآثر العافية ، ولتمنى أن يلتزم هذه الحيدة التي تجنبه أخطار الحرب وأهوالها . ولكنه لم يستأمر ولم يكن من الممكن أن يستأمر ؛ لأنه كان ميداناً من ميادين الحرب وغرضاً من أغراضها . وهو كذلك لم يستأمر حين أثيرت الحرب العالمية الثانية ولم يكن من الممكن أن يستأمر ؛ لأنه كان ميداناً من ميادين الحرب وهدفاً من أهدافها . وأكبر الظن أنه لن يستأمر إذا أثيرت حرب عالمية ثالثة ؛ لأنه سيكون من أهم ميادين الحرب ومن أعظم أغراضها خطراً .

فينبغي للشرق الادنى إذن أن يوطن نفسه على أنه جزء من هذا العالم المتحضر الحديث الذي يضطرب أشد الاضطراب بهذا الصراع العنيف المتصل بين الحرية والعدل ، متأثر سواء أراد أو لم يرد بهذا الصراع وبما يكون له من

أثر فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والخير أن يوطن نفسه على ذلك وأن يعدّ له عدته ، وأن يقبل عليه مريداً لهذا الإقبال لامكرهاً عليه إكراهاً . ولم يخطئ الشاعر حين قال :

إذا لم يكن إلا الأسنَّةَ مركبٌ فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

وليس للشرق الأدنى بد من أن يركب هذه الأسنة ، فإذا أراد أن يحيد عنها أو أن يتجنب ركوبها ، فلن يجد إلى ذلك سبيلا . وحَسْبُه أن يعلم أن هذا ليس مقصوراً عليه ، وإنما هو المصير المحتوم لكل جزء من أجزاء العالم بعد أن ألغيت مسافات الزمان والمكان . والناس يقولون فى كثير من الصواب إن العالم الآن موضوع للنزاع بين قوتين عظيمتين تريد كل منهما أن تسيطر عليه وتنشر فيه سلطانها ، وتخضعه لما يقتضيه ذلك من مذاهبها فى السياسة ونظمها الاجتماعية المختلفة . وهاتان القوتان قد تعاونتا أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاتفقتا ما ظلّت الحرب قائمة حتى كسبتا النصر ، ثم لم تستطيعا أن تمضيا فى الاتفاق فعجزتا عن تنظيم السلم . وقد انتهت الحرب فى أوربا منذ عام وبعض عام وما زال المنتصرون عاجزين عن أن يقروا السلم وينظموه ؛ لأنهم عاجزون عن أن يتفقوا فيما بينهم . وليس الخلاف بينهم مقصوراً على تقسيم الغنائم وتوزيع الأسلاب ، ولكنه أبعد من ذلك مدى وأشد من ذلك عنفاً ؛ لأنه يتجاوز الدول المنتصرة نفسها لما تملك من حول وطول ومن قوة وأيد ، إلى الشعوب التى تمثلها هذه الدول . فالشعوب نفسها مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، يريد بعضها أن يسلك طريق الحرية على أن يكون العدل تابعاً للحرية لا متبوعاً . ويريد بعضها الآخر أن يسلك طريق العدل على أن تكون الحرية نافلة تتحقق إن سمح العدل بتحقيقها ، ويضحى بها إذا لم يكن بد من التضحية بها فى سبيل العدل الشامل والمساواة الكاملة بين الناس .

ثم تختلف الشعوب فى حياتها الداخلية نفس هذا الاختلاف بين الدول ، فتكون فيها الأحزاب المتباينة التى يذهب بعضها مذهب الحرية الكاملة ، ولا يتردد فى التضحية بالعدل إذا اقتضت الحرية هذه التضحية . ويذهب بعضها مذهب العدل الشامل ، ولا يتردد فى إهدار الحرية إذا اقتضى تحقيق العدل إهدارها .

وكذلك يشهد العالم هذا المنظر الرائع الغريب : دول تختلف فيما بينها تختصم حول الحرية والعدل ، وأحزاب تختلف فيما بينها تصطرع حول الحرية والعدل ، وأفراد يختلفون فيما بينهم يتمارون فى الحرية والعدل . والحياة تمضى متعثرة فى طريقها لا تكاد تخطو خطوات إلى أمام حتى تضطر إلى أن تنحرف إلى يمين أو إلى شمال ، وقد تضطر أحيانا إلى أن ترجع القهقرى ، وتعيد للناس نظما كانوا يظنون أنها قد ذهبت إلى غير رجعة ومضت إلى غير مآب . وقد يبلغ من اضطراب الشخص الواحد أن يذهب إلى مذهب الحرية إذا أصبح ، فلا يكاد يمسى حتى يذهب مذهب العدل . وقد يبلغ من اضطراب الشعب الواحد أيضا أن ينحرف اليوم إلى يمين ليؤيد الحرية ، فإذا كان الغد انحرف إلى شمال ليؤيد العدل ، وهو بهذا التذبذب بين اليمين والشمال لا يحقق حرية ولا عدلا ، وإنما يمضى فى الاضطراب ويغرق فى الارتباك إلى أذنيه ، وقد يُغْرِق معه أمما وشعوباً أخرى ؛ لأنها خاضعة له أو متأثرة به قليلا أو كثيرا .

هذه كلها حقائق يسيرة قريبة يلاحظها الإنسان حين يقرأ صحف الصباح وحين يقرأ صحف المساء ، وكل ما فى الأمر أنه ينظر إليها نظرة سريعة غير متعمقة ولا مستأنية ، ينظر إليها كما ينظر إلى أحداث الحياة اليومية التى يغيرها مر الغداة وكر العشى . فالشعب الإنجليزى مثلا حين تخلّص من سلطان المحافظين فى العام الماضى وألقى بمقاليد الأمر إلى العمال ، لم يزد على أن انحرف من طريق الحرية المحافظة إلى الشمال حيث العدل ، أو قل — إن شئت — حيث الطموح إلى العدل ، وحيث التضحية ، أو قل — إن شئت — حيث الاستعداد للتضحية بكثير من حرية الفرد والجماعة فى سبيل تحقيق هذا العدل . ولكن الشعب الإنجليزى نفسه حين يضطر حكومة العمال إلى أن تلتزم سياسة محافظة خارج بريطانيا العظمى ، فلا تفرط فى شىء من مستعمراتها ، ولا تتخلى عن قليل من مصالحها فى البلاد التى تخضع لنفوذها قليلا أو كثيراً ، وإنما تستمسك بالإمبراطورية كما تلقتها من حكومة المحافظين ، وتحافظ على مصالحها فى أقطار العالم كله على نفس النحو الذى كان يصطنعه المحافظون — أقول إن الشعب البريطانى حين يضطر حكومة العمال إلى أن تسلك هذه الطريقة لا يزيد على أن يتراجع فينحرف من شمال إلى يمين ، ويضحى بشىء من العدل ليستبقى حريته تلك التى أتاحت له أن يستذل ويستغل جزءا عظيما من الأرض . والشعب البريطانى

حين يتخلص من سلطان المحافظين ويجعل أمره إلى العمال ، ويتيح لرئيس وزرائه ووزير خارجيته أن يتحدثا عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعن حق العالم فى أن يخلص من الاستعباد والاستبداد ، يخطو خطوة إلى الشمال فى سبيل العدل الدولى ، ولكنه لا يلبث أن يعود أدراجه ويخطو خطوة إلى يمين فى سبيل الاحتفاظ بحريته القديمة التى كانت تتيح له أن يتحكم فى مصير الشعوب ، وإذا هو يذهب فى سياسته مع اليونان ويوجوسلافيا نفس المذهب الذى كان يذهبه المحافظون . وهذا الشعب البريطانى نفسه يخطو خطوة إلى شمال حين يعلن رئيس وزرائه ووزير خارجيته أنه يريد الجلاء عن مصر بلا قيد ولا شرط ، ثم لا يلبث أن يعود أدراجه بتأثير المحافظين ، وإذا هو يشترط للجلاء شروطا تلغيه ، ويقيده بقيود تمنعه من الحركة والنشاط ؛ لأنه يضحى بالعدل الدولى فى سبيل حريته التى تتيح له أن يتحكم فى مصير مصر ، فلا يجلو عنها إلا حين يريد وبالشروط والقيود التى يريد أن يعرضها . وهذا الشعب البريطانى نفسه يخطو خطوات إلى الشمال حين « يؤمم » طائفة من المرافق البريطانية ، ثم يتردد ويتراجع حين يعرض لتأميم طائفة أخرى من المرافق . يلغى حرية الأفراد والجماعات فى سبيل العدل ، ولكنه يلغيها بمقدار لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا ، ويحتفظ بهذه الحرية للأفراد والجماعات بالقياس إلى بعض المرافق الأخرى ؛ لأنه لم يؤمن بالعدل إيمانا كافيا أيضا . فهو مذبذب بين الطموح إلى العدل والاحتفاظ بالحرية ، وكل المصاعب التى يلقاها وكل المشكلات التى تأتلف منها حياته إنما تأتيه من هذا التذبذب بين العدل الذى يقتضيه التضحية بحرية التسلط على الأمم والشعوب والتحكم فى مصير الدول والأقطار ، وبين الحرية التى تحتفظ له بالقدرة على أن يتحكم فى مصير هذه الأمم والشعوب .

والشعب الفرنسى يذهب هذا المذهب نفسه ، فهو يتذبذب بين الحرية والعدل ، يُقبل على انتخاباته العامة فى أكتوبر الماضى فيندفع اندفاعا قويا إلى شمال ، ويؤلف الكثرة فى جماعته التأسيسية من الشيوعيين والاشتراكيين ، وإذا هو يؤمم طائفة من مرافقه ، ثم لا يلبث أن يأخذه الخوف ويملكه الذعر ، وإذا هو يرفض الدستور الذى وضعته له هذه الجماعة التأسيسية الشمالية ، فإذا طلب إليه أن ينتخب جماعة تأسيسية أخرى انحرف إلى يمين فألف كثرتها من المعتدلين

وجعل اليساريين لهم تبعا أو شيئا يشبه التبع ، ودل بذلك على أنه يريد العدل ولكن بمقدار ، ويحرص على الحرية أكثر مما يحرص على أى شئ آخر . وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى حديثين دار أحدهما بينى وبين رجل من عامة الشعب فى مارسيليا قبل رفض الدستور بيوم واحد . فقد قال لى هذا الرجل إنه سيرفض الدستور إذا كان الغد لأنه لا يريد دستورا يساريًا ، ولكنه سيصوِّت لليساريين بعد ذلك ؛ لأنه يريد الإصلاح الاجتماعى ، ولا يريد برلمانا رجعيا أو حكومة مسرفة فى الاعتدال . ودار الآخر بينى وبين أستاذ من أساتذة السوربون فى باريس بعد أن رفض الدستور بيومين . وهذا الأستاذ يسارىُّ الميل متطرف فى حبه لليسار ، ولكنه رفض الدستور مع أصحاب اليمين . فلما كلمته فى ذلك قال : نعم رفضت الدستور لأنى لا أريد أن أخضع للرقابة فيما أنشر من الكتب وما أذيع من الفصول وما ألقى من الدروس والمحاضرات . فهو إذن يريد العدل ولكن بشرط ألا يقيد هذا العدل حريته حين يكتب أو يقول . وصاحب الصناعة يستطيع أن يقول كما قال هذا الأستاذ ذاته ، رفض الدستور اليسارى لأنه لا يريد أن يخضع للرقابة فيما تنتج مصانعه وفيما تغل عليه من ربح . وكذلك يتردد الفرنسيون كما يتردد جيرانهم البريطانيون بين العدل والحرية : يطمحون إلى العدل ولكنهم يخافون منه إذا كمل وشمل كل شئ ، ويحرصون على الحرية ولكنهم لا يكرهون تقييدها حين تضطرهم الظروف إلى ذلك . وقل إن شئت إنهم يؤثرون الحرية على كل شئ ، ولا يضحون بقليل منها إلا ليحتفظوا بما يستطيعون أن يحتفظوا به . فهم يتحدثون عن العدل كما كان مستر تشرشل يتحدث عن استقلال الشعوب أثناء الحرب . يتحدثون عن العدل على أنه من هذه المُثُل العليا التى يتوق الإنسان إليها ويجدّ فى تحقيقها ، ولكنه لا يبلغها لأنها من الظرف واللطف والأناقة بحيث تحسن الدلال وتمتنع على الطامحين إليها والطامعين فيها ، تغريهم بنفسها وتدعوهم إلى محاسنها ، ولكنها تنأى عنهم كلما دنوا منها ، وتتركهم يتمثلون قول جميل لبثينة :

وَمَنَّيْتِنِى حتى إذا ما ملكتِنى ... بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سهلَ الأباطحِ
تناءيتِ عنى حين لا لِىَ حيلةٌ ... وغادَرتِ ما غادرتِ بين الجوانحِ

وهم يحبون من المثل العليا هذا التدلل والامتناع، وهم يستمتعون بلذة هذه النار التى تضطرم بين جوانحهم وتحرق قلوبهم شوقاً إلى العدل، وهم يكرهون أن تخمد هذه النار وأن تبرد جوانحهم، وأن يبلغوا العدل فيطمئنوا إلى أنهم بلغوه. وهم يحبون الحرية على نحو آخر، يحبون أن يأخذوها بين أيديهم ويضموها إلى صدورهم ويستمتعوا منها بأعظم حظ ممكن، لا ينالون منها حظاً إلا طمعوا فى حظ أعظم منه، ولا يفقدون منها شيئاً إلا تقطعت قلوبهم عليه حسرات. ذلك لأن هناك فرقاً خطيراً جداً بين الاستمتاع بالحرية والاستمتاع بالعدل. فالاستمتاع بالحرية يثير هذه اللذة المتعبة؛ لأنه يدفع إلى العمل والنشاط، ويغرى بالكد والجد، ويمنع الإنسان من أن يريح ويستريح. أما الاستمتاع بالعدل فمريح حقًّا؛ لأنه يقتل الطمع ويغرى بالرضا ويزين القناعة فى القلوب، أو قل يفرض القناعة على القلوب فرضا. فأى غرابة فى أن يكون الإنسان أشد إيثارا للحرية التى تملؤه قوة ونشاطاً وتدفعه إلى الأمل والعمل وتمسكه فى هذا القلق الحلو المتصل الذى لا يعرف الرضا ولا يحب الاطمئنان، منه للعدل الذى لا يثير قوة ولا نشاطاً، ولا يدفع إلى مزيد من أمل أو عمل، والذى يملأ القلوب أمنا ورضا ويعصمها من القلق والخوف!

والأمر فى سائر أوربا الغربية كالأمر فى فرنسا وبريطانيا العظمى: حب مؤكد للحرية، وحرص مصمم عليها، وطموح إلى العدل كما يطمح العشاق العذريون إلى من يعشقون.

وحَسْبُك أن تنظر إلى بلجيكا وهولندا، فهما كبريطانيا العظمى وفرنسا تمجدان العدل وتغنيان بمحاسنه، ولا تكرهان أن تحققا منه شيئاً فى الأرض البلجيكية والهولندية مختارتين أو مضطرتين، ولكنهما فى الوقت نفسه تؤثران الحرية أشد الإيثار: تؤثرانها فى السياسة الخارجية؛ فالعدل لم يُخْلَقْ لأندونسيا مثلا ولا للكونجو البلجيكية، كما أنه لم يخلق للمستعمرات البريطانية والفرنسية وللشعوب الضعيفة بوجه عام. وهو إن كان قد خُلِق لأوربا، فإنما خلق لها لتصيب منه بمقدار كالملح الذى يُصلح قليله الطعام، فإذا كثر فسد له الطعام فساداً شديداً. ولذلك تحتفظ بلجيكا وهولندا، كما تحتفظ فرنسا وبريطانيا العظمى، بحرية واسعة شديدة السعة للأفراد والجماعات، وتحاولان

تحقيق شئ من العدل ؛ لتُسكتنا هؤلاء الطامعين فيه المطالبين به الذين لا ينفكون يجأرون بطلب العدل الاجتماعى حين يمسون وحين يصبحون .

وليس من اليسير أن نتبين ميول ألمانيا المنهزمة ؛ فهى لم تظفر بعدُ بهذا القدر اليسير من الحرية لتعرب عما تريد فى مستقبلها القاتم ، ولكنها على كل حال قد قُسمت بين المنتصرين يحتل كل منهم جزءا من أرضها . وهؤلاء المنتصرون يهيئون الشعب الألمانى أو يحاولون تهيئته لما يحبون ويألفون من مذهب فى السياسة والاجتماع . فأوربا الغربية وأمريكا تهيئان جزءا من الشعب الألمانى او تحاولان تهيئته لهذه الديمقراطية التقليدية التى تؤثر الحرية على العدل ، وتتخذ الإصلاح الاجتماعى وسيلة إلى إرضاء الطبقات البائسة من جهة ، وإلى الدفاع عن نفسها والاحتفاظ بما بقى لها من السلطان والقوة من جهة أخرى . ولكن روسيا السوفييتية تحتل جزءا عظيما من ألمانيا ، وهى تهيئه أو تحاول تهيئته لمذهبها فى السياسة والاجتماع . ومذهبها واضح معروف ؛ فهى تؤثر العدل والمساواة وإلغاء التنافس والتزاحم والتفوق والامتياز على الحرية وما تستتبع من اصطراع بين الأفراد والجماعات واستباق ، إلى تحقيق المنافع واستئثار بهذه المنافع إذا تم تحقيقها .

وهذا الخلاف العنيف القائم بين هاتين القوتين : قوة الحرية فى أمريكا وغرب أوربا ، وقوة العدل فى روسيا ، هو الذى جعل حياة المنتصرين عسيرة منذ وضعت الحرب أوزارها فى الشرق والغرب ، وهو الذى حال بينهم وبين الاتفاق حين اجتمعوا فى أكتوبر الماضى ، وحين اجتمعوا فى أبريل ومايو ، ويوشك أن يحول بينهم وبين الاتفاق حين يجتمعون بعد أيام قليلة فى باريس .

وليس الستار الحديدى الذى يقال إن روسيا قد ألقته من دون جزء عظيم من أوربا الشرقية والجنوبية إلا سوراً منيعاً يحول بين الحرية والعدل ، وبين أن يلتقيا وجها لوجه ويصطدما فى ميدان واحد . فأوربا الغربية خاضعة للحرية وما تستتبع من تنافس وخصام ، وأوربا الشرقية خاضعة للعدل وما يستتبع من تسلط وقهر وكبح لجماح المنافع والأطماع . وإذا أجرت الأمة اليونانية انتخاباتها بأعين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين وكانت نتيجة هذه الانتخابات ميامنة لا مياسرة ، قال الروسيون : إن هــذه الانتخابات لم تجر حرة ولم تكن بمأمن من تدخل الديمقراطية الغربية ، وما يسندها من رأس المال . فاذا دبرت بلغاريا

ورومانيا والمجر ويوجسلافيا وتشكوسلوفاكيا شؤونها بالانتخابات أو بإقامة الحكومات المؤقتة ، وكانت نتيجة هذا كله انحراف هذه الأمم إلى اليسار ، قال الإنجليز والأمريكيون والفرنسيون معهم : إن هذه الأمم ليست حرة فى تقرير مصيرها ، وإنما هى متأثرة بالسلطان الروسى العنيف فى كل ما تعمل وفى كل ما تقول . وليس لهذا كله معنى إلا أن الشعوب الصغيرة فى أوربا قد اضطرت هى أيضاً إلى التذبذب بين مذاهب الأقوياء من أنصار الحرية والعدل ، فهى فى غرب أوربا منحازة إلى الحرية ؛ لأن الأقوياء من المنتصرين هناك ينحازون إليها ، وهى فى شرق أوربا وجنوبها منحازة إلى العدل ؛ لأن الأقوياء هناك ينحازون إليه. والواقع أن إرادة هذه الشعوب لم يتح لها ماينبغى أن يتاح لها من الفرص لتظهر جلية لا يشوبها لبس ولا غموض . وقد يكون الموقف الأسبانى من أوضح الأشياء دلالة على هذه الخصومة بين العدل والحرية . ويجب أن نلاحظ أن التسلط والقهر هما الأداتان اللتان يصطنعهما العدل كما تصطنعهما الحرية، يدافع بهما كل منهما عن نفسه، ويثبِّت بهما كل منهما سلطانه. فالجيش البريطانى هو الذى أيد الحرية فى اليونان على حساب العدل ، والجيش الروسى هو الذى أيد العدل فى شرق أوربا على حساب الحرية . وليس لأحد من المنتصرين جيش فى أسبانيا الفاشية ، ولو قد وجد هذا الجيش لانحازت أسبانيا الفاشية إلى مذهب الحرية إن كان الجيش بريطانيا أو أمريكيا ، وإلى مذهب العدل إن كان الجيش روسيا . ولكن أسبانيا ليست محتلة؛ ولذلك كان موقفها دليلا واضحا على اشتداد الخصومة بين هذين المذهبين . فأما أنصار العدل وهم الروسيون-والفرنسيون حين كان الأمر فى فرنسا إلى اليسار، فيريدون إلغاء النظام الفاشى فى أسبانيا وإن أدى ذلك إلى التدخل العسكرى فى الشئوون الأسبانية . وأيسرما يطلبونه أن تقطع العلاقات السياسية بين جميع الدول المنتصرة على اختلاف مذاهبها وبين أسبانيا الفاشية ، وأن تعترف الدول المنتصرة بالحكومة الأسبانية المنفية التى أقامت فى أمريكا اللاتينية حيناً وتريد أن تنتقل إلى فرنسا فى هذه الأيام . وهم يعتمدون فيما يطلبون على أن الديمقراطية المنتصرة لا ينبغى أن تسمح للفاشية بالبقاء ، وعلى أن نظام الأمم المتحدة وميثاق سان فرنسسكو يفرضان ذلك فرضاً، وعلى أن أسبانيا الفاشية قد ظاهرت ألمانيا وإيطاليا لأنها مدينة لهما بالوجود . ولكن البريطانيين والأمريكيين يؤمنون

هنا بحرية الشعوب إيماناً يوشك أن يكون تعصباً . فالشعب الأسبانى حر فى اختيار الحكومة التى تسيطر على أمره ، وما ينبغى للسلطان الخارجى أن يتدخل فى الشؤون الأسبانية الخالصة ، ولا أن يفرض على أسبانيا حكومة وإن كانت ديمقراطية ، ولا أن يخلص أسبانيا من حكومة وإن كانت فاشية قد حاربت الديمقراطية وأعانت عليها ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

ونتيجة هذا كله أن الشعب الأسبانى نفسه منقسم فى ظاهر الأمر على الأقل: فريق منه يريد أن يعود إلى النظام الجمهورى اليسارى ، وفريق آخر يريد أن يحتفظ بالنظام الفاشى الميامن . فأما قبل الحرب فقد أقبلت ألمانيا وإيطاليا فى غير تردد على تأييد النظام الفاشى فى أسبانيا بالسلاح ، وأما بعد الحرب وبعد انتصار الديمقراطية ، فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تأبيان حتى قطع العلاقات السياسية مع الفاشية الأسبانية التى أعانت على الديمقراطية ودبرت لها ألوان الكيد .

فالأمر كله إذن إنما يرجع ، قبل كل شىء وبعد كل شىء ، إلى الصراع بين هذين المذهبين : مذهب الحرية الذى يعتمد على رأس المال ، ومذهب العدل الذى يعتمد على الشيوعية .

وكما أن روسيا ألقت ستاراً حديديًّا من دون الشرق الأوربى والجنوب الأوربى، فإن بريطانيا العظمى وأمريكا تلقيان ستاراً حديدياً آخر من دون الغرب الأوربى . وكل هذا قد يكون له خطره فى مستقبل العالم ، ولكن هنالك ماهو أشد خطراً من هذا كله ، وهو أن الشعوب نفسها منقسمة فى حياتها الداخلية أشد الانقسام ، ينحاز فريق منها إلى الحرية فيتبع بريطانيا العظمى وأمريكا ، ويستعين بهما على خصومه إن احتاج إلى ذلك ، وينحاز فريق آخر إلى العدل فيتبع روسيا ، ويستعين بها على خصومه إن احتاج إلى ذلك . وينشأ عن هذا أن تصبح كلمة الاستقلال من الكلمات الجوفاء التى لا تدل الآن على معنى محقق فى حياة هذه الشعوب .

وقد كان من المضحك حقًّا أثناء الصراع الانتخابى فى فرنسا أن يتهم أنصار الحرية خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من موسكو ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلا لروسيا ، وأن يتهم أنصار العدل خصومهم بأنهم يتلقون الأمر من واشنجطون ويريدون أن يجعلوا فرنسا ذيلا لأمريكا . والواقع أن أولئك وهؤلاء كانوا يسرفون ، ويعلمون أنهم يسرفون . فقد أصبحت فكرة العدل أساساً

لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون دينا ، وأصبحت فكرة الحرية أساساً لمذهب من المذاهب يوشك أن يكون ديناً أيضاً . فالذين ينحازون إلى هذا المذهب أو ذاك ويؤمنون بهذا الدين أو ذاك ، مضطرون بالطبع إلى أن يظاهروا شركاءهم في الرأى وإخوانهم في الدين . فانحياز أنصار العدل في فرنسا إلى روسيا كانحياز أنصار الحرية فيها إلى أمريكا ، ظاهرة طبيعية يمكن أن تقاس إلى انحياز المسلمين في وقت من الأوقات إلى عاصمة الخلافة ، وإلى انحياز النصارى في وقت من الأوقات إلى عاصمة المسيحية في روما .

على أن هذا الاختلاف بين المذهبين لم يلبث أن تعقّد بعد الحرب العالمية الأولى بظهور مذهب وسط يريد أن يحتفظ بالحرية وأن يحقق العدل في الأرض ، ولكنه لم ينظر إلى الحرية من حيث هي ولا إلى العدل من حيث هو ، وإنما نظر إليهما جميعاً من ناحية خاصة هي ناحية الدين . فأنصار العدل من الشيوعيين والاشتراكيين يعتمدون قبل كل شيء على المادية التي تجحد الديانات جحوداً تامًّا ، وتنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها نتيجة لازمة لتطور تاريخي محتوم . وأصحاب الحرية ، ولا سيما منذ الثورة الفرنسية ، لا يكادون يحفلون بالدين ، ولا يكادون يلقون إليه بالاً . فإذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يلائم بين الحرية والعدل من جهة وبين الدين من جهة أخرى ، ويتخذ الدين أساساً لحياة إنسانية جديدة ترتفع عن المادة ، وترقى إلى المثل العليا ، وتؤمن بأن في الإنسان قوة لا تستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ولا أن تتيح للإنسان حظه من الرقى إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسى الأول من طريق الإيمان والثقة والأمل — أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان في نشوئه الخير كل الخير ؛ لأنه يصلح ما أفسدت الثورة ، فيرد إلى الدين مكانته في القلوب وسلطانه على النفوس ، ويعصم الناس من المادية الجامحة والإلحاد المتمرد ، ويكفل لهم في الوقت نفسه نصيباً معتدلاً من الحرية ، ويتيح لهم في الوقت نفسه سعيا متصلا إلى تحقيق العدل في الأرض .

وكذلك نشأت الاشتراكية المسيحية التي لا تقيم العدل على الجبر التاريخي ، ولا تجعل الإصلاح نتيجة للتطور المادى ، ولا تلغى حرية الفرد ولا حرية الجماعات ، وإنما تقيم أمور الناس على التعاطف والتعاون والحب ، وتجمع قلوبهم حول هذه المثل الإنسانية والإلهية العليا .

وليس من شك فى أن أهوال الحربين العالميتين كان لها أعظم الأثر فى إنشاء هذا المذهب وانتشاره وانتصاره فى بعض الأقطار . فهذه الأهوال التى صبتها الحرب على الناس، وهذه الكوارث التى تغلغلت فى حياة الأفراد والجماعات، وهذه القسوة التى قطعت ما بين النـاس من أرحام أمر الله أن توصل، كل هذا قد زهّـد الناس فى الإيمان بسلطان العلم وتفوقه، وصرفهم عن هذه الفتنة التى ملأت قلوبهم وملكت أمرهم فى القرن الماضى، واضطرهم إلى التفكير فى العلم أن ليس كل شىء وفى أن العقل ليس كل شىء، وفى أن الإنسان لا يأتلف من العقل والجسم فحسب، ولكن له ملكات أخرى لا ينبغى أن تهمل وحاجات أخرى لا ينبغى أن تزدرى . ومن أهم هذه الملكات ملكة الشعور، ومن أهم هذه الحاجات الحاجة إلى الإيمان بقوة قدسية مدبرة لشؤون الإنسان تسمو به إلى الخير، وتنهاه عن الشر، وتنأى به عن الموبقات . وقد أعان على انتشار هذا المذهب وانتصاره بعد الحرب العالمية الثانية، أن أتيح حق الانتخاب للنساء فى أكثر الشعوب الأوربية بعد أن كان هذا الحق مقصوراً على الرجال؛ ولذلك انتصرت الاشتراكية المسيحية فى فرنسا أخيراً بانتصار الحركة الجمهورية الشعبية على حساب الاشتراكيين الماركسيين، وانتصرت الديمقراطية المسيحية فى إيطاليا على حساب الاشتراكية الماركسية أيضاً، وأصبحت هذه الاشتراكية المسيحية الجديدة قوة لها خطرها فى الحياة السياسية لأوربا الغربية بوجه عام . ولست أدرى أيتاح لهذه الاشتراكية المسيحية فوز متصل أم هى أعقاب الحرب لا تكاد تمضى عليها الأعوام حتى تعود الحياة الأوربية إلى طبيعتها، ويستأنف الصراع عنيفاً بين هذين المذهبين : مذهب الحرية ومذهب العدل . ذلك أن هذا المذهب الاشتراكى المسيحى جميل رائع فى نفسه، مثله فى ذلك مثل مذهب العدل ومذهب الحرية، ولكنه لا يكاد يخرج إلى الوجود اليومى ويعالج مشكلات الحياة الطارئة حتى يصيبه ما يصيب المذهبين من هذه الأعراض التى تبغّضه إلى فريق من الناس وتحببه إلى فريق .

فالاشتراكية المسيحية لا تلغى رأس المال، وإذن فسيطمئن إليها رأس المال، وسينفر منها طلاب المساواة الخالصة والعدل المطلق . والاشتراكية المسيحية لا تنكر الإصلاح الاجتماعى وإنما تدفع إليه دفعاً وقد تتطرف فيه أحياناً، وإذن فسيستغلها المتطرفون لتحقيق بعض ما يريدون، وسيشفق منها المحافظون، لأنها

تكلفهم أكثر مما يريدون أن يتكلفوا . والاشتراكية المسيحية بحكم عنوانها واستمساكها بالدين مضطرة إلى مصانعة الكنيسة أو قل إلى طاعة الكنيسة وإرضائها ، وإذن فسينفر منها جمهور ضخم من الأوربيين ومن المفكرين الذين قطعوا ما بينهم وبين الكنيسة من الأسباب منذ وقت طويل . وخذ مثلا واحداً لهذا الموقف الوسط الذى يضطر الاشتراكية المسيحية إلى الحرج فى بلد كفرنسا ؛ فهذه الاشتراكية المسيحية تطالب بحرية التعليم التى يطالب بها المحافظون الغلاة . وحرية التعليم هذه ينكرها عدد ضخم من الفرنسيين الذين ناصروا الفصل بين الكنيسة والدولة ، والذين حملوا الجمهورية الفرنسية الثالثة على أن تجعل التعليم من شأن الدولة خاضعاً لسلطانها ملتزماً للحيدة الدينية الكاملة . فليس بدٌّ إذن من أن تجد الاشتراكية المسيحية كثيراً جدا من العناء حين تعالج هذه المسألة؛ لأن أنصار العدل الماركسى لم يضعفوا ولم يستيئسوا ، وإنما هم محتفظون بقوتهم التى تزداد انتشاراً وانتصاراً من يوم إلى يوم . فالاشتراكية المسيحية فى حقيقة الأمر توشك أن تكون طوراً من هذه الأطوار الانتقالية التى تطمئن إليها الشعوب حين تجهدها الحرب وتكلفها الأزمات من الجهد والمشقة ما لا تطيق . فإذا ما استجمت واستردت قوتها ونشاطها ضاقت بالمواقف المتوسطة واستأنفت الصراع بين القديم والجديد ، بين المحافظة والتطرف ، أو قل — إن شئت — بين الاستمساك بالحرية والطموح إلى العدل .

والشيء الذى ليس فيه شك هو أن طبيعة الإنسان تدفعه دائماً إلى الترقى ؛ فهو لا يبلغ من الرقى طوراً حتى يسمو إلى طور خير منه « وحاجة من عاش لا تنقضى » كما يقول شاعرنا العظيم . والحضارة الإنسانية المادية مسرعة إلى التطور وإلى تيسير الترف وإذاعته وجعله فى متناول الناس جميعاً . فليس للإنسانية بدٌّ من أن تلقى على نفسها دائماً هذا السؤال : لماذا يتاح النعيم لفريق من الناس ويحظر على فريق آخر ؟ لماذا يفرّق بين الناس فى الاستمتاع بالحياة على حين يسوّى بينهم فى الدخول إلى الحياة والخروج منها ؟ لماذا يعمل العامل ويزرع الزارع ويملأ كلاهما الأرض بأسباب الترف ووسائل النعيم لينتفع بنتيجة هذا العمل فريق من الناس لا يعملون ولا يزرعون ولا يبذلون جهداً ولا يحتملون فى الحياة عناء ؟ ولماذا يتاح الفراغ لقلة من الناس ويفرض العناء على كثرتهم ؟ هذه الأسئلة ألقيت على الناس منذ أقدم العصور ، ولكنهم لم يحققوها فى أنفسهم

كما يحققونها الآن ، وهم يعتقدون مصيبين أو مخطئين ، راضين أو كارهين أن العدل يجب أن يكون هو الغاية الأخيرة للحياة ، وأن المساواة الصحيحة فى تمكين الناس من أن ينتفعوا بهذا العــدل هى الوسيلة إلى تحقيق هذه الغاية الـكبرى . فإذا ذكرت لهم الحرية ومآثرها ومحاسنها — وما أكثر ما للحرية من مآثر ومحاسن ! —فسيقولون لك إن الحرية لن تطعم الجائع ولن تكسو العارى ولن تسقى الظمآن . وسيقولون لك إن الرجل البـائس لا يستطيع أن ينتفع بحريته ، لأن الحرية لا تغنى إلا مع الاستطاعة . وسيقولون لك إن الحرية خير ما فى ذلك شك ، ولـكن بشرط أن تمنح للناس بعد أن تتحقق بينهم المساواة ويستقر بينهم العدل ويصبح بمأمن من كل عبث ومن كل طغيان . وسيقولون لك إن الحرية إذا منحت للناس قبل أن يستقر بينهم العدل أثارت بينهم التنافس وأذاعت بينهم البغض وأشاعت فيهم الطمع والحسد والحقد وجعلت بعضهم لبعض عدوًّا . وسيستدلون بالتاريخ كله على هذا كله . وسيقولون يجب أن يتحقق العــدل أولاً وأن يتساوى الناس فى الانتفاع بالحياة كما تساووا فى الدخول إليها والخروج منها . فإذا تم لهم ذلك فامنحهم الحرية إن شئت . فلن تعرّضهم للشر ، ولن تثير بينهم كيداً ولا مكراً ولا غدراً ولا عداء .

وقد تعترض عليهم بأن تحقيق العدل الذى يريدونه ، والمساواة التى يطمحون إليها ويطمعون فيها ، يدعو إلى كثير من الشر ، وأول هذا الشر إلغاء الحرية وإنزالُ القوىّ عن قوته والمتفوق عن تفوقه والغنى عن غناهُ ، وحملُ الناس على ألوان من الحياة متشابهة بغيضة لتشابهها ، وأخذُهم بالعنف حتى يحملوا على الجادّة ويهتدوا إلى الصراط المستقيم . وقد تضرب لهم الأمثال بما يجرى هنا وهناك فى البيئات التى حاولت تحقيق العدل والمساواة من العنف المنكر والتسلط الذى لا يطاق ، ولـكنهم سيجيبونك دائمًا بأن الإنسانية مريضة ، وبأن شفاء المريض لا يكون بمداعبته وتدليله ، وإنما يكون بحمله على تعاطى الدواء مهما يكن مرًّا بغيضا ، وبحمله أحيانا على ما هو أشق مشقة وأجهد جهدا وأثقل ثقلا من الدواء المر البغيض .

فالإنسانية بين اثنتين : إما أن تريد الشفاء ، فتسلك إليه طريقه المستقيمة ، وإما أن تؤثر المرض ، فتشقى بآلامه وأثقاله حتى يدركها الفناء . وكذلك ستظل الإنسانية مضطربة بين هذين المذهبين : مذهب العدل وما يقتضى من وسائل قد تكون

منكرة فى كثير من الأحيان ، ومذهب الحرية وما يستتبع من نتائج ليست أقل من وسائل العدل نكرا . ومن يدرى ! لعل يوما من الأيام قريبا أو بعيدا يرى ذلك الفيلسوف الذى يبتكر للإنسانية مزاجا معتدلا من الحياة يتحقق فيه العدل من غير عنف ، وتتحقق فيه الحرية من غير ظلم ، ويذوق الناس فيه سعادة لا يشوبها بؤس ولا شقاء . ويرحم الله عمر ، فقد أراد أن يحمل المسلمين على ذلك ، ومضى بهم فى سبيله قُدُماً ، وحقق لهم منه شيئاً كثيراً . ولكن الشاعر الذى رثاه لم يخطىء حين قال :

عليك سلامٌ من إمامٍ ، وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزّقِ
فمن يَسْعَ أو يركب جناحَىْ نعامة ليدرك ماقدّمتَ بالأمس يُسْبَقِ
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها بوائقَ فى أكمامها لم تفتّقِ

طه حسين

باريس ، يونيه ١٩٤٦

فى أفق السياسة العالمية

مشاكل البلقان

تناول مستر بيفن وزير خارجية انجلترا فيما تناوله من الشؤون الخارجية فى بيانه الأخير الذى ألقاه فى مجلس العموم فى أوائل شهر يونيه ، مسألة تريستة ، وقال بشأنها إن أخشى ما يخشاه « أن تصبح تريستة بيدقاً تحركه أيدى اللاعبين على رقعة الشطرنج الدولية » . ولكن هل بقى إقليم أو ميناء فى شرق أوربا أو فى منطقة البلقان ليس للدول فيه أصبع ظاهرة أو خفية تحرك سياسته يميناً أو يساراً وفق الآراء والمبادئ التى تدين بها الدولة التى تحركه ؟

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقان ، ففرّقت بينهم فى الجنس واللغة والثقافة والمذهب الدينى ، كما فرّقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التى تقطع شبه الجزيرة طولا وعرضاً ، وجعلت المواصلات فيما بين البلاد أمراً بالغاً منتهى الصعوبة ، اللهم إلا البلاد التى جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة !

وإذا كان معظم سكان البلقان ينتمون إلى العنصر السلافى ، فإن فى هذه البلاد خليطاً عجيباً من مختلف الشعوب والنحل ، فمنهم الأتراك والأرنؤوط أو الألبانيون والإغريق والمقدونيون والرومانيون والصرب والكروات والسلوفين والبلغار ، ومن هؤلاء جميعاً الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود . وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والكراهية المحلية بين هذه الشعوب ، ثم كان تنازع الدول الكبرى فيما بينها لمد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم ، فأودى ذلك نهائيًّا بطمأنينتها وأمنها ، وجعل منها ، كما يقولون ، برميلا جافاً من البارود يوشك فى كل لحظة أن ينفجر ، فلا تقتصر ناره على الأرض المجاورة ، بل تتعدى الحدود وتتصل ألسنتها بالمحيط الدولى ، فتشتعل نيران حرب كبرى .

ولقد انفجر البارود فى صيف سنة ١٩١٤ فى سرايفو إحدى مدن الصرب ، فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى . ومن ألبانيا اندلعت فى ربيع

سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثانية حين هاجمها مسوليني فى يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام، وشرّد مليكها وأسرته، ووضع تاج ألبانيا على رأس ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتبعات. وإذا سارت الحال فى البلقان على النهج الذى تفضى إليه سياسة الدول الكبرى فى هذه الآونة، فأكبر الظن أن حربا بل حروباً أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد، وتأخذ سبيلها من هذه الأقاليم المنكودة.

ولقد يدهش الباحث إذ يعلم ان البارود الذى ينفجر فى البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان، ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التى يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية، ولكن الدول الكبرى هى التى تصدر البارود إلى هذه البلاد، حتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد، ونسبتهم إلى الشر والعدوان. والحق أنه لا عيب فى هذه الشعوب إلا فقرها المدقع، وجهلها المروع، وحبها الملتهب للحرية والاستقلال

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان، بل كانت تصدر إليها كذلك التيجان والملوك كلما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول فى التخلص من نير الأتراك، وأنشأ له حكومة وطنية. وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك چورچ الأول من أمراء الدانمرقة، وكانت زوجته أميرة روسية، وأخته زوجة ولى عهد انجلترا الذى خلف والدته الملكة ڤكتوريا باسم إدورد السابع. وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزلرن الألمانية. وجلس على عرش بلغاريا أمير ألمانى آخر باسم الملك فرديننـد. وكذلك اختير لألبانيا فى أول عهدها بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد الألمانى. أما مملكة الصرب، وهى يوغسلاڤيا الحديثة، فهى الدولة البلقانية الوحيدة التى لم تنتفع بهذه الواردات المتوجة، ورفعت إلى عرشها أميراً اختارته من بين أسرها العريقة. وكان آخر ملوكها بطرس الثانى الذى نحى عن العرش فى سنة ١٩٤٥.

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركى أو الحكم النمسوى مدة تتراوح بين أربعة قرون أو خمسة، فلما همت فى القرن التاسع عشر أن تتحرك للثورة وطلب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال ثم بالتيجان، حتى إذا ما تنسمت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانيها وظفرت

بالأستقلال السياسى ، بدأت تحس ثقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذى أحدثه زوال الحكم التركى أو النمسوى من محيطها ، فراحت تتخبط وتتعثر فى مختلف المشاكل والصعاب إما داخل حدودها وإما بين بعضها وبعض. ذلك أن كلا منها قد حرص فى عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ، ثم وطّن كل منها نفسه — فيما عدا تركيا واليونان طبعاً — على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد .

لذلك ما كادت تنتهى حرب الاستقلال البلقانى ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الأسلاب بين المنتصرين فى الحرب الأولى ؛ فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان ، وما لبثت رومانيا أن تدخلتا وتركيا فى الحرب ، فاستردت تركيا أدرنة ، واحتلت رومانيا دبروجة ، وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته فى الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والكراهية بين بلغاريا وسائر دول البلقان ، ذلك العداء الذى استحكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛ وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فكان جزاؤها أن حرمت المنفذ الذى طالما منّت به نفسها على بحر إيجه ، كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ، ومن مقدونيا ليوغسلافيا .

وكان من بواعث الأمل على استقرار الحال بعض الشئ فى البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى فى شغل شاغل عن البلقان وعن أوربا عامة ، وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى ، فنقلت عاصمتها من اسطنبول إلى أنقرة ، واشتغلت هى كذلك بنهضتها الكمالية . وبذلك أتيحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشؤونها الداخلية ، وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كلمة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية فى رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة ، حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحربية كبرى ، فارتفع مقام رومانيا إلى مصاف الدول المهمة ، وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتى موانى وقواعد حربية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان ، وسوّت الحكومتان ما كان بينهما من خصومات وعداء مستحكم بفضل السياسة التى انتهجها أتاتورك بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى ، وإنشائه تركيا الجديدة ؛ فقد قرّ رأى الزعيم التركى على

اقتلاع أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جدورها ، وذلك بتبادل الأقليات بينهما ، فتفتح اليونان أبوابها لمليون وربع مليون من الإغريق المتوطنين فى تركيا مقابل نصف مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان . وقد فعل هـذا التبادل — على رغم ما لاقاه المتبادلون من صنوف الآلام والمتاعب الجسمانية والعاطفية — فعل السحر فى تحسين العلاقات بين الشعبين ، حتى أصبحا كأنهما أسرة واحدة متفقة المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين فى سياسة البلقان الجديدة . وذلك أنه ما كادت تختفى روسيا من الميدان السياسى فى البلقان والبحر المتوسط عقب ثورتها ، حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا ، فتنشر نفوذها السياسى فى ربوع البلقان وشرقى البحر المتوسط . وفعلاً بدأت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولـكن سرعان ما بانت نيات إيطاليا التوسعية عند ما احتلت جزيرة كرفو التابعة لليونان فى سنة ١٩٢٣ على أثر حادث وقع على الحدود بين ألبانيا وإيطاليا ، وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية فى اللجنة التى كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل مجلس عصبة الأمم وقيام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا . وقد تحققت مخاوف البلقان من ناحية إيطاليا عند ما أذيعت شروط معاهدة تيرانا بين إيطاليا وألبانيا سنة ١٩٢٦ ، وكان فحواها أن تصبح ألبانيا فى حقيقة الأمر إحدى ملحقات إيطاليا ، فتنشئ فيها الطرق والقلاع والموانى لتثب منها عنـد الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، ولتستطيع أن تتحكم فى مضيق أترنتو عند مدخل البحر الأدرياتى ، فيبقى الأسطول اليوغسلافى الحربى والتجارى تحت رحمة إيطاليا .

عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان ، وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعتمد على نفسها ، فإنها ستستمر ألعوبة فى أيدى الدول الـكبرى تتقاذفها كيفما شاءت . وفجأة وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح تهمهم جميعاً ، وأنهم قد وصلوا من النضج السياسى إلى درجة خليقة بأن تجعلهم يقفون صفًّا واحداً أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم . وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعى تركيا واليونان الميثاق البلقانى سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيا ولم تشذ إلا ألبانيا وبلغاريا ؛ إذ كانت الأولى فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وكانت الثانية

تطمع فى إعادة النظر فى معاهدات الصلح، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة فى البلقان. وكان عقـد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة؛ فلأول مرة فى تاريخها وقفت دول البلقان على قدميها تنادى أن البلقان للبلقانيين.

وقد كان الميثاق خير درع لدول البلقان فى أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥، فوقفت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشى. وكذلك وقفت دول البلقان تناصر تركيا فى سـنة ١٩٣٦ عندما دعت مؤتمر الدول فى منترو ليقرر النظام الجديد للمضايق فى مصلحة تركيا. ولـكن وا أسفاه لم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية. فالتزمت دول البلقان الحيدة فى أول الأمر، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب، وحسب مسولينى أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غرباً وشرقاً، فسيّر قواته من ليبيا ضد بريطانيا فى مصر، وتحركت كتائبه من ألبانيا ضد اليونان، فوقف الإغريق أمام المعتدين وقفتهم التى استرعت إعجاب العالم. وتحرج مركز المحور فى البلقان، فحولت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأنزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تـكتسح دول البلقان واحدة بعد أخرى حتى لم ينج منها سوى تركيا. وافتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنـه فلم يفوزوا بطائل وسط جلجلة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات. وماذا يغنى الميثاق؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أبقت منه الحرب الخاطفة التى حالفت الألمـان فى سنى الحرب الأولى أى أثر، وهى التى داست المواثيق والمعـاهدات، وبددت المحالفات ومزقت الجيوش شر ممزق!

وبذهاب ميثاق البلقان وانتهاء الحرب، سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحا لأسباب الـكراهية المحلية والمنافسات الدوليـة. وقد تعقدت مشاكلها فى هذه المرة على أثر عودة روسيا أمهم السلافية الأرثوذكسية الـكبرى وظهورها على مسرح السياسة فى دور البطولة العالمية. وإذا ما اجتمعت الأم بفراخها فعسير عليها أن تدع لأحدمنها حريته أو استقلاله، بل إن غريزة الأمومة فيها لـكفيلة أن تدفعها يوما إلى احتضانهم وضمهم إليها وحمايتهم من الأيدى التى تمتد إليهم، ولو كانت تمتد لإطعامهم!

وفى هذه المرة لاتريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفات فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فهى تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقا وصدقا وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة . وقد نزلت أخيراً عن عدائها للكنيسة ورجالها ، فاستعادت زعامتها الأولى للأرثوذكسية التى تنتمى إليها الكثرة العظمى من سكان البلقان . وتريد روسيا أن يكون مقامها فى البلقان شبيها بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية ، مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها ، أما حكومات البلقان فتريدها روسيا على أن تكون وفق نظامها الشيوعى وعلى هواها .

وتحتاج روسيا إلى ألوف مؤلفة من عمال البلقان ؛ ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان فى الحرب الأخيرة ، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان فى التجارة كما كسبتها منهم ألمانيا قبل الحرب الأخيرة ، حتى بلغ ماتصدره ألمانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠ ٪ من وارداتهما . ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادى إلا إذا نهضت بصناعاتها وأنتجت مثل ما كانت تصدره ألمانيا للبلقان من عُدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة . ولا سبيل إلى هذه النهضة إلا إذا توافرت لروسيا الأيدى العاملة التى لايتم تدريبها إلا بعد سنوات طويلة . وفى هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لقيام مبدأ حرية التجارة فى البلقان ، وإما أن تأباه فتتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة .

وكما أن روسيا تريد أن ترث ألمانيا فى مركزها الاقتصادى فى البلقان ، فإنها تعمل كذلك جاهدة على أن تكون وريثة إيطاليا فى البحر المتوسط ، حتى يصحح التوازن الدولى فى حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تطغى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل . لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيجية ، فلم تكتف بالجلوس إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية كما تقرر فى العام الماضى ، بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز ، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضايق ، ويقولون إنها تطالب الآن بقاعدة حربية فى منطقة المضايق ، وبمقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس ، كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل .

وتحقيقاً لهذه السياسة أيضاً وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة

فى مطالبتها بضم تريستة ومنطقة فنيزيا جوليا على البحر الأدرياتى ، وقد احتلت منها ميناء فيومى وما جاورها من الأراضى . ويبدو أن ما نال الطليان من الخزى والهوان فى الحرب الأخيرة سيقلل من أمل إيطاليا فى الاحتفاظ بهذا الإقليم ، لاسيما أن الكثرة الطليانية فى هذه البقاع ليست فى الحقيقة إلا كثرة اصطناعية حديثة العهد غير متأصلة فى صميم البيئة ، وأن عدداً كبيراً من هؤلاء الطليان قد اعتنقوا أخيراً كغيرهم من العمال فى المدن والموانى فى أنحاء أخرى مبادئ الحزب الشيوعى ، وأصبحوا لا يرغبون فى العودة إلى الحكم الإيطالى الذى ناوأ الشيوعية فى الماضى . وقد أكد مستر بيفن فى خطبته الأخيرة أنه لا مناص من تحويل تريستة إلى ميناء دولى حر للجميع ، تستفيد منه يوغسلافيا وسائر دول أوربا الوسطى .

وتهدف حكومة السوفيت فى مناصرتها ليوغسلافيا إلى السيطرة على البحر الإدرياتى الموصل للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلافيا وألبانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعى .

وكذلك تقف حكومة السوفيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها . فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع ألمانيا ، فإن صلات الدم الوثيقة التى تربط بلغاريا بروسيا ، لم تنفصم عراها حتى فى أحلك ساعات الحرب عند ما كانت ألمانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا بتحقيق حلمها فى بحر إيجه وفى تراقيا ومقدونيا على حساب اليونان . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل البلشفية من جهة والرجعية من جهة أخرى ، فأبقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية فى البحر المتوسط . ومع أن الأمل كبير فى أن تحتضن اليونان جزر الدوديكانيز وردس فأكبر الظن أن انجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك فى أنه إذا انجلت القوات البريطانية عن اليونان بعد استفتاء الشعب فى موضوع الملكية ، فإن النفوذ الشيوعى سيطغى على البلاد ويصبح مصير البلاد مربوطاً بعجلة السوفيت . لذلك تعتبر مسألة نظام الحكم فى اليونان من أهم أسباب النزاع الدولى الحالى .

أما فى رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بسارابيا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوفيت ، وكذلك فى ألبانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برياسة أنور حجة ، بعد أن ألغيت فيها الملكية فى أوائل هذا العام .

وأخيراً تبقى روســيا وجهاً لوجه أمام تركيا ، وهى بحكم موقعها عند أهم النقط الاستراتيجية فى البحر المتوسط ، ولأن حكومتها الفتية الحالية تمثل أقوى شعوب البلقان وأشدهم مراساً وأكثرهم عدة وعدداً فى الحرب ، فضلا عن ارتباطها بأواصر الصداقة مع أمريكا وبريطانيا — لهذه الأسباب جميعاً تعتبر تركيا المحور الذى يدور عليه مصير البلقان والشرق الأوسط الذى «تبلقن» أخيراً ، وشاكل صنوه فى أخطاره ومنافساته . فإذا لم تسوَّ العـلاقات بين تركيا وحكومة السوفيت بشأن المضايق وحدود تركيا الشمالية الشرقية ، فإن برميل البارود قد يزود هذه المرة بمواد أشد فتكا وأعم خراباً من البارود ، وحينئذ يتاح للدول أن تجد حلاً نهائيًّا لمشاكل البلقان وغيرها .

ولعل للموضوع بقية فى فرصة أخرى .

محمد رفعت

القضية المصرية

وهيئة الأمم المتحدة

فى مصر وسائر بلاد العربية ، وفى بريتانيا العظمى وسائر أجزاء الإمبراطورية ، وكذلك فى تركيا واليونان ، وفى الهند وإيران ، اهتمام بمصير المفاوضات التى بدأت فى القاهرة بين ممثلى الحكومتين المصرية والبريتانية قصد الوصول إلى تسوية ما بينهما من خلاف على ما تريد مصر أن تحققه من « مطالب قومية » وما تريد انجلترا أن تحتفظ به من « مصالح » فى هذا الجانب من العالم .

ويُعنَى الساسة وأولو الرأى فى تلك البلاد وفى غيرها أيضاً بما قد ينشأ من إخفاق المفاوضات : هل ترفع مصر أمرها إلى هيئة الأمم المتحدة ؟ وهل تختص الجمعية العامة لهذه الهيئة أو مجلس الأمن الدولى بالنظر فى ذلك الأمر إذا رفع إلى واحدة من جهتيهما ؟

وقد رأيت فى طريقة تقديم بحثى هذا الموضوع أن أبدأ بتحديد الخلاف بين وجهتى النظر المصرية والبريتانية إلى القضية المصرية ، وأن أثنى بتكييف العلاقة بين هذا الخلاف وهيئة الأمم المتحدة ، ثم أعالج مسألة الاختصاص ونوع النظر عن الطريق العادى أو على وجه الاستعجال ، وأدلى بعد ذلك بالنصوص المستمدة من ميثاق سان فرنسيسكو ، والتى يستند إليها من يعرض للحكم فى الخلاف .

أما القضية المصرية فهى من وجهة النظر المصرية قضية استكمال لاستقلال مصر ، وحرص على مطلق سيادتها على أراضيها جميعاً . وقد انتهت مصر أفراداً وهيئات ، شعباً وأحزاباً وحكومات ، إلى التعبير عن وجهة نظرها بأبسط عبارة : « الجلاء ووحدة وادى النيل » ، جلاء الجنود الأجنبية جلاء ناجزاً لارجعة فيه عن البر والبحر والجو ، ووحدة الوادى بالنظام الذى يرتضيه أهله المصريون والسودانيون وحدهم .

وهى من وجهة النظر البريتانية قضية اعتبار مصر منطقة استراتيجية

بريتانية لحماية المواصلات الإمبراطورية وللمحافظة على السلم فى الشرق الأدنى أو الأوسط ، واعتبار السودان إقليما مفتوحاً مملوكا بحق الفتح المزدوج وخاضعاً للسيادة المزدوجة ، وإدارته مشاركة ثنائية لبريتانيا العظمى فيها حصة الأسد .

ومصر تصدر عن حق استقلالها وسيادتها المعترف بهما دوليًّا ، وبريتانيا تعتمد على واقع قوتها المسلحة واحتلالها العسكرى ، وتحاول الاستناد إلى أداة دبلوماسية هى معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تقول بالمفاوضة فى سبيل تعديلها ، ومصر تدفع هـذا الاستناد باعتبار تلك المعاهدة باطلة أو « غير ذات موضوع » ، وتلوح بأن الاتفاقية الدولية المعقودة فى أكتوبر من سنة ١٨٨٨ هى وحدها المقررة لنظام الملاحة فى قناة السويس والمحافظة عليها ، وبأن المحافظة على السلم لا فى الشرق الأدنى وحده بل فى العالم كله قد أصبحت من اختصاص هيئة الأمم المتحدة ، لا من شأن دولة واحدة مهما عظمت .

وهكذا يتحدد الخلاف بين وجهتى النظر المصرية والبريتانية إلى القضية المصرية .

أما تكييف العلاقة بين هذا الخلاف وهيئة « الأمم المتحدة » فيرجع إلى أن مصر وبريتانيا العظمى عضوان فى هذه الهيئة ، وهما مرتبطتان على حد سواء وبعديد الالتزامات الواردة فى ميثاق سان فرنسيسكو . وبين هذه الالتزامات تلك التى تضمنتها أحكام المادة الثانية من الميثاق من إقامة العلاقات « على مبدأ المساواة فى السيادة بين جميع الأعضاء » ، (فقرة ١) ، و « امتناعهم فى علاقاتهم الدولية عن أن يهددوا بالقوة أو أن يستخدموها ضد سـلامة الأراضى أو الاستقلال السـياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة » (فقرة ٤) ، و « عدم التدخل فى الشؤون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما » (فقرة ٧) ، وتلك التى تقضى بهـا الفقرة الأولى من المـادة الرابعة والعشرين من أن « يعهد الأعضاء إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقوا على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته التى تفرضها عليه هذه التبعات » . وكذلك ما أشارت إليـه الفقرة الأولى من المادة الخامسة والثلاثين من « تنبيه كل عضو من الأمم المتحدة مجلس الأمن أو الجمعية العـامة إلى أى نزاع أو موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعاً . » ثم ما نصت عليه المادة الثالثة بعد المئة من

أنه « إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق . »

وبهذا كله تتكيف العلاقة بين الخلاف المصرى البريتانى وهيئة الأمم المتحدة، وهى علاقة حتمية تفرضها النصوص التى تقضى بالمساواة فى السيادة والتنبيه إلى المنازعات ، وإنابة مجلس الأمن ، وجبّ التزامات الميثاق لسائر الالتزامات التى تعارضها . ويبرز حتمية هذه العلاقة ما يبـدو فى مصر من دلائل الجد لمنع الاعتداء على سيادتها ، والبلاد العربية متضامنة مع مصر فى موقفها معلنة هذا التضامن فى قرار لمجلس جامعة الدول العربية صدر عن اجتماع بلودان .

ونصل الآن إلى مسألة الاختصاص : وأمرها واضح جلى ؛ فقد نصت المادة العاشرة من الميثاق على أن « للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة أو أمر يدخل فى نطاق هـذا الميثاق أو يتصل بسلطات فرع من الفروع المنصوص عليها فيه أو وظائفه » .

والقضية المصرية — على حد تكييف العلاقة بين الخلاف المصرى البريتانى وهيئة الأمم المتحدة — أمر يدخل فى نطاق الميثاق ؛ إذ فيهـا مساس بسيادة عضو من أعضاء هذه الهيئة ، وفيها استخدام للقوة ضد سلامة أراضى هذا العضو واستقلاله السياسى على وجه لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة ، كما أن فيها اتصـالا بسلطات فرع من الفروع المنصوص عليها فى الميثاق ووظائفه ؛ وهو فرع مجلس الأمن ، ووظيفته سهره وحده على حفظ السلم والأمن الدولى .

ونصت المادة الحادية عشرة فى فقرتها الثانية على أن « للجمعية العامة أن تناقش أية مسألة تكون لها صلة بحفظ السلم والأمن الدولى يرفعها إليها أى عضو من أعضاء الأمم المتحدة » ، كما نصت فى فقرتها الثالثة على أن « للجمعية العامة أن تسترعى نظر مجلس الأمن إلى الأحوال التى يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولى للخطر » .

ولا شك أن للقضية المصرية صلة بحفظ السلم والأمن الدولى . وبريتانيـا تبنى وجهة نظرها إلى مصر على زعم أن لهـا هى حق حفظ السلم والأمن الدولى فى الشرقين الأدنى والأوسط . ولا شك كذلك أن القضية المصرية من الأحوال التى يحتمل أن تعرض السلم والأمن الدولى للخطر بما قد يترتب على جد المصريين

فى دفع الاعتداء على سيادتهم ، وتضامن شعوب البلاد العربية معهم فى جدهم .

وكذلك نصت المادة الرابعة عشرة على أن « للجمعية العامة أن توصى باتخاذ التدابير لتسوية أى موقف أيا كان منشؤه تسوية سلمية متى رأت أن هذا الموقف قد يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم ، ويدخل فى ذلك المواقف الناشئة عن انتهاك أحكام هذا الميثاق الموضحة لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها » . وقد سبق أن أوضحنا ما فى موقف بريطانيا من مصر من انتهاك لأحكام الميثاق ، إذ تعتدى على سيادة دولة هى عضو مثلها فى هيئة الأمم المتحدة ، وتتدخل بهذا الاعتداء فى شؤونها الداخلية ، وتزعم لنفسها حق حفظ السلم والأمن الدولى ، وحق اعتبار منطقة من دولة مستقلة منطقة استراتيجية .

وأحكام جميع تلك المواد التى ذكرناها ناطقة فى وضوح وجلاء باختصاص الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بالنظر فى الموقف الذى تقفه بريتانيا العظمى من مصر .

ومن ناحية أخرى فقد نصت المادة الرابعة والثلاثون من الميثاق على أن «لمجلس الأمن أن يفحص أى نزاع أو أى موقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو يثير نزاعا لكى يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع أو الموقف أن يعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولى » .

ونصت الفقرة الأولى من المادة السابعة والثلاثين على أنه « إذا أخفقت الدول التى يقوم بينها نزاع من النوع المشار إليه فى المادة الثالثة والثلاثين فى حله بالوسائل المبينة فى تلك المادة وجب عليها أن تعرضه على مجلس الأمن » .

وهما نصان صريحان ينطقان باختصاص مجلس الأمن فوق اختصاص الجمعية العامة ، بل إن النص الثانى منهما يقضى بوجوب اختصاص مجلس الأمن ، إذ حتم رفع الأمر إليه فى حالة إخفاق الأساليب الودية تحتيما .

على أن نظر مجلس الأمن للقضية المصرية الذى تنطق النصوص صريحة باختصاصه به يجب أن يجىء على وجه الاستعجال ؛ إذ أن مصر قد استنفدت وسائل الإجراءات التمهيدية التى كان يصح لمجلس الأمن أن يدعوها إلى اتخاذها وفقاً لأحكام المادة الثالثة والثلاثين من الميثاق ، وهى توجب « على أطراف أى نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدولى للخطر أن يلتمسوا

حله بادئ ذى بدء بطريق المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، أو أن يلجأوا إلى التوكيلات والتنظيمات الإقليمية أو غيرها من الوسائل السلمية التى يقع عليها اختيارها . ويدعو مجلس الأمن أطراف النزاع إلى أن يسووا ما بينهم من النزاع بتلك الطرق إذا رأى ضرورة لذلك : »

وقد سايرت مصر بريتانيا العظمى فى التماس حل نزاعهما بطريق المفاوضة . فتبين اتساع الهوة بين الطرفين ، بل صرخ سوء النية من الجانب البريتانى وتجلت استحالة المعالجة ، وهو يزعم أن منطقة قناة السويس أرض بريتانية ، وهو يقرر الجلاء ويعلقه فى الوقت نفسه على شروط يتفنن فى أوضاع ملابساتها تفننا يجعل ذلك الجلاء المقرر مجرد حبر على ورق . وقد قضى هذا الموقف العجب من الناحية البريتانية على استساغة الالتجاء للوسائل الأخرى الواردة فى تلك المادة ، وسائل التحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، فقد فقدت الثقة بإمكان الإنتاج ، ولم يبق إلا أن يتجه مجلس الأمن حين يرفع إليه النزاع الاتجاه المنطقى الوحيد المنصوص عليه فى الفقرة الثانية من المادة السابعة والثلاثين وهو اتجاه « التوصية بما يراه ملائما من شروط حل النزاع » .

وإذن فيكون مجلس الأمن الدولى مختصًّا بنظر القضية المصرية وبنظرها على وجه الاستعجال .

أما صميم الموضوع محل العرض على المنظمة الدوليـة الجديدة ، وهو النزاع الذى سبق أن رسمنا حدوده — والمنازع فيه انجلترا والمنازَع مصر — فيرجع إلى أن انجلترا تزعم أن لها فى هذا الركن من العالم حق حفظ السلم والأمن ، وتقول مصر بل إن حفظ السلم والأمن الدولى قد أصبح الآن من اختصاص هيئة الأمم المتحدة مجتمعة دون انفراد دولة مهما عظمت ، وتستند للتدليل على صحة ما تقول إلى نصوص قانونية صريحة واردة فى الميثاق .

فقد ورد فى ديباجة هذا الميثاق على لسان شعوب الأمم المتحدة قولها :

« وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى »

« وألا نستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة »

كما جاء فى صدر المادة الأولى من الميثاق : « مقاصد الأمم المتحدة هى :

١ — حفظ السلم والأمن الدولى »

وقد سبق أن ذكرنا نص الفقرة الأولى من المادة السابعة والعشرين التي تقول :

« رغبة فى أن يكون العمل الذى تقوم به الأمم المتحدة سريعاً فعالا ، يعهد أعضاء تلك الهيئة إلى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية فى أمر حفظ السلم والأمن الدولى ، ويوافقون على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم فى قيامه بواجباته التى تفرضها عليه هذه التبعات . »

ونضيف الآن نص المادة السادسة والعشرين وهو :

« رغبة فى إقامة السلم والأمن الدولى وتوطيدهما بأقل تحويل لموارد العالم الإنسانية والاقتصادية إلى ناحية التسليح ، يكون مجلس الأمن مسئولا بمساعدة لجنة أركان الحرب المشار إليها فى المادة ٤٧ عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح . »

ولا تحتاج هذه النصوص لأى تعليق ، وهى كلها ظاهرة صريحة ناطقة بأن إقامة السلم والأمن الدولى وحفظهما إنما تختص به الأمم المتحدة مجتمعة ويختص بهما مجلس الأمن نيابة عن أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، بل إن منهاج تنظيم التسليح فى العالم يُسأل عن وضع خططه مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب التابعة له ، وهى لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن : المملكة المتحدة ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وفرنسا ، والصين ، بالاشتراك ، لا باستئثار واحدة أو أكثر منهن دون الآخرين .

ولم يكتف الميثاق بتقرير ذلك المبدأ العام الذى يعهد بحفظ السلم للأمم المتحدة ومجلس الأمن بخاصة ، بل راح ينظم الوسائل التى يلجأ إليها وتلجأ إليها معه الدول المنضمة إلى هيئة الأمم المتحدة فى سبيل حفظ السلم والأمن الدولى . فجاء فى المادة الثالثة والأربعين :

« يتعهد جميع أعضاء الأمم المتحدة فى سبيل المساهمة فى حفظ السلم والأمن الدولى ، أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن ، بناء على طلبه وطبقا لاتفاق أو اتفاقات خاصة ، ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولى ومن ذلك حق المرور .

« ويجب أن يحدد ذلك الاتفاق أو تلك الاتفاقات عدد هذه القوات وأنواعها ومدى استعدادها وأماكنها عموما ونوع التسهيلات والمساعدات التى تقدم . »

وجاء فى المادة الخامسة والأربعين :

« رغبة فى تمكين الأمم المتحدة من اتخاذ التدابير الحربية العاجلة يكون لدى الأعضاء وحدات جوية أهلية يمكن استخدامها فوراً لأعمال القسر الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوة هذه الوحدات ومدى استعدادها والخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب ، وفى الحدود الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار اليها فى المادة الثالثة والأربعين . »

وجاء فى المادة السادسة والأربعين :

« الخطط اللازمة لاستخدام القوة المسلحة يضعها مجلس الأمن بمساعدة لجنة أركان الحرب . »

وجاء فى المادة السابعة والأربعين :

« تشكل لجنة من أركان الحرب تكون مهمتها أن تسدى المشورة والمعونة إلى مجلس الأمن ، وتعاونه فى جميع المسائل المتصلة بما يلزمه من حاجات حربية لحفظ السلم والأمن الدولى ، ولاستخدام القوات الموضوعة تحت تصرفه وقيادتها ولتنظيم التسليح ونزع السلاح بالقدر المستطاع

« ولجنة أركان الحرب (المشكلة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن) مسئولة تحت إشراف مجلس الأمن عن التوجيه الاستراتيجى لأية قوات مسلحة موضوعة تحت تصرف المجلس . »

وجاء فى الفقرة الأولى من المادة الثامنة والأربعين :

« الأعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الأمن لحفظ السلم والأمن الدولى يقوم بها جميع أعضاء الأمم المتحدة أو بعض هؤلاء الأعضاء ، وذلك حسبما يقرره المجلس . »

ونصت المادة التاسعة والأربعون على أن « يتضافر أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التى قررها مجلس الأمن » .

وليس أبلغ من ذلك كله فى الدلالة على حصر مهمة حفظ السلم فى مجلس الأمن وتضامن أعضاء الأمم المتحدة جميعهم فى سبيل تنفيذ ما يقرره هذا المجلس فى ذلك الصدد .

بل إن المادة الحادية والخمسين التى فتحت الباب لمعاهدات دفاع خاص قد أخضعت هذه المعاهدات لسلطان مجلس الأمن . وقد نصت المادة على أنه :

« ليس فى الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعى للدول ، فرادى أو جماعات ، فى الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى . ويبلغ المجلس فورا التدابير التى اتخذها الأعضاء لمباشرة حق الدفاع عن النفس ، ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فى سلطة المجلس ومسئولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم أو الأمن الدولى أو إعادته إلى نصابه . »

ومعنى هذا أن تلك المعاهدات يجب :

أولا — أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس ، لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .

ثانيا — ألا تكون أحكامها نافذة إلا فى حالة الاعتداء الفعلى بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .

ثالثاً — أن يكون تنفيذ أحكامها عند نفاذها موقوتا إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى .

رابعاً — أن يبلغ المجلس فوراً التدابير التى يتخذها المتعاهدون دفاعاً عن النفس .

خامساً — أن تقرر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تتلاءم مع الميثاق .

وحتى التنظيمات الإقليمية التى اعترف لها بحق تدبير الحل السلمى للمنازعات المحلية قد أخضعها الميثاق لرقابة مجلس الامن ؛ إذ نصت المادة الرابعة والخمسون على أنه :

« يجب أن يحاط مجلس الأمن فى كل وقت إحاطة تامة بما يجرى من الأعمال أو يزمع القيام به منها بمقتضى تنظيمات إقليمية أو بواسطة توكيلات إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولى . »

وهكذا يتداعى الأساس الذى تقيم عليه انجلترا دعواها المريضة فيما يتعلق بحفظ السلم فى الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط .

ثم تزعم انجلترا أن لها حق تنظيم الدفاع عن شريان مواصلاتها الإمبراطورية وأنها فى سبيل ذلك تعتبر منطقة القناة أو مصر كلها منطقة استراتيجية .

ولا ينص الميثاق على المناطق الاستراتيجية إلا فى صدد الأقاليم الخاضعة لنظام الوصاية .

وقد نصت المادة الثانية والثمانون على أنه :

« يجوز أن يحدد فى أى اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذى ينطبق عليه نظام الوصاية بعضه أو كله . »

ونصت المادة الثامنة والسبعون من ناحيتها على أنه :

« لا يطبق نظام الوصاية على الأقاليم التى أصبحت أعضاء فى هيئة « الأمم المتحدة » ؛ إذ يجب أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة فى السيادة . »

وحتى تلك المساحات الاستراتيجية التى لا يمكن قيامها إلا فى إقليم خاضع لنظام الوصاية يقوم عليها مجلس الأمن بحكم الفقرة الأولى من المادة الثالثة والثمانين التى تقول :

« يباشر مجلس الأمن جميع وظائف الأمم المتحدة المتعلقة بالمناطق الاستراتيجية . »

وإذن فلا سند لانجلترا فى هذا الزعم الثانى الخاص بالمنطقة الاستراتيجية بل إن كل النصوص صارخة بصفاقة القائلين به .

بقى أن انجلترا تذكر أنها ، إذ تحافظ على السلم فى هذا الركن من العالم ، وإذ تقيم فيه بمفردها مناطق استراتيجية ، إنما تعمل ذلك بصفة موقوتة ؛ لأن « هيئة اركان الحرب التابعة لمجلس الامن لم يتم تأليفها بعد ، ولم تنظم وسائل محافظتها على الأمن بعد » .

وقد نسيت انجلترا أن الميثاق قد احتاط لهذا الظرف فنص فى مادته السادسة بعد المئة على ما يأتى :

« إلى أن تصير الاتفاقات الخاصة المشار إليها فى المادة الثالثة والأربعين معمولا بها على الوجه الذى يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء فى احتمال مسئولياته وفقاً للمادة الثانية والأربعين ، تتشاور الدول التى اشتركت فى تصريح الدول الأربع الموقع عليه فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٤٣ هى وفرنسا وفقاً لأحكام الفقرة الخامسة من ذلك التصريح ، كما تتشاور الدول الخمس مع أعضاء الأمم المتحدة الآخرين ، كلما اقتضت الحال ، للقيام نيابة عن الهيئة بالأعمال المشتركة التى قد تلزم لحفظ السلم والأمن الدولى . »

ولكن انجلترا لا تعدم — على الرغم من ذلك كله — أن تحاجج مصر بقيام معاهدة ١٩٣٦ التى أغدقت عليها أحكامها العسكرية ما أغدقت مما تريد أن تستمسك به استمساكا . وتنسى انجلترا هذه المرة أيضاً أن المادة الثالثة بعد المئة من الميثاق قد قضت على هذه المعاهدة وهى لم تشمل إلا التزامات متعارضة التعارض كله مع الالتزامات الجديدة التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة . والمادة تقول :

« إذا تعارضت الالتزامات التى يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أى التزام دولى آخر يرتبطون به ، فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق . »

وإذن فالبست الملابسات والنصوص قاضية باختصاص هيئة الأمم المتحدة ، جمعيتها العامة ومجلس الأمن فيها بالنظر فى النزاع المصرى الإنجليزى ، وبنظره على وجه الاستعجال فحسب ، بل إن تلك الأساليب والنصوص لتقضى كذلك بالاطمئنان إلى أن قرار الأمم المتحدة إذا رفع إليها النزاع سيكون حتما فى صالح مصر .

محمود عزمى

سوانح الغروب

على النيل

ويحَ نفسى من طائفِ التذكارِ — ساعةَ الشجوِ عند موت النهارِ
ويحَ نفسى لدى الأصيل وقد أذ — كرنيكِ انطفاءُ هذى النار
ويحَ نفسى وقد جلستُ على النيـ — لِ وحيداً ، وكنتِ من قبلُ جارى
شدَّ ما كان من عبادتنا النيـ — لَ كأنّا فى غابر الأعصار
هُوَ هذا النهرُ العظيم الذى أسـ — لاكِ حبًّا عن سائر الأنهار
قد حُرمتِ الجلوسَ فى شاطئيـه — وسراجُ الظلام فى الأُفْق سار
وعلى شطّه البعيـدِ مصابيـ — ح تراءت فى لُجّهِ الموّار
تتقرّيْنَ فى حشاهُ تعاريـ — جَ سطورٍ مهتزّةِ الأنوار
وتُصيخين للخرير يناغيـ — ك بلحنٍ من عالمَ الأسرار
لا تملّين لو أقمتِ الليالى — أبداً ها هنا بذاك الجوار
ويحَ نفسى ، يا ويحَها ، ما على الأقـ — دار لو عشتِ — ما على الأقدار !
أرمق النهرَ ، لو يرى النهرَ ساهٍ — غائبُ الحسّ شاردُ الأفكار
كيف أمسيتْ زوجى؟ وفى أى حالٍ — أينَ صارتْ بعد امتناع المَزار ؟
ما أراها فى جنّة الخلد إلا — عند نيلٍ فى جنّة الخلد جار

عبد الرحمن صدقى

بين الحرب والجغرافيا

دوافع الحرب وأهدافها فى أوربا

أوربا قارة صغيرة ؛ بل إن كثيراً من الجغرافيين لا ينظرون إليها إلا على أنها شبه جزيرة كبيرة يمتد من قارة آسيا ويتفرع عنها . وهى فوق ذلك تقع فى منطقة متطرفة فى أقصى شمال غرب العالم القديم ؛ ولم يبرز شأنها وتتضح قيمتها بين القارات الأخرى إلا منذ عهد النهضة الحديثة . فهى فيما عدا أطرافها الجنوبية فى بلاد اليونان وإيطاليا وأسبانيا لم تلعب دوراً يذكر فى تاريخ العالم القديم أو الوسيط ؛ بل هى من حيث تاريخها الثقافى العام بقيت عالة على غيرها ، لاسيما بلاد الشرق التى ظهرت فيها الأديان السماوية وألوان الفكر والثقافة القديمة والوسيطة ، ثم انتشرت إلى أوربا . ومع ذلك كله فمنذ عهد النهضة الحديثة وظهور الصناعة التى تعتمد على الآلات والقوى المحركة برزت أوربا فجأة ، وقفزت إلى القمة ، فأصبحت القارة المسيطرة على الشئون العالمية ، بل القارة الأولى من حيث توجيه حياة العالم فى ميادين الحضارة المادية والعلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

وليس هذا مجال الإفاضة فى أسباب بروز أوربا المفاجىء ؛ ولكن يكفى أن ننظر نظرة عامة إلى تطور مدنية الإنسان على سطح الأرض ، فنجد أن المدنيات القديمة كانت فى جملتها قائمة على أساس الزراعة كما هى الحال فى مصر والعراق والصين ، أو على أساس التجارة كما هى الحال فى اليونان القديمة . ومع أن الصناعة كانت مزدهرة فى تلك الأيام ، فقد كانت كلها تقوم على المهارة الفنية والحذق الشخصى أكثر مما تقوم على استغلال قوى الطبيعة الآلية . وقد سخر الإنسان بعض تلك القوى الطبيعية فى العصور القديمة والوسيطة ، كالريح والمياه الجارية ومساقط الماء ؛ ولكنه كان تسخيراً محدوداً يقوم على استغلال القوى فى حالتها الطبيعية . أما فى عهد النهضة الصناعية الأوربية ، فقد تعلم الإنسان لأول مرة أن يحوّل الحرارة إلى طاقة ، وأن يستخدم تلك الطاقة كقوة محركة تدار

بها الآلات التى تعمل فى الإنتاج أو فى النقل والحركة . وقد وضع هذا الاختراع — أو السلسلة من الاختراعات — فى يد الإنسان سلاحاً سخّر به موارد الطبيعة والقوى الطبيعية على نحو لم يكن ميسوراً من قبل ، وفى نطاق تغير معه كل شىء فى الصناعة والإنتاج ، وفى الاتصال والتبادل ؛ بل تغيرت معه أسس الحياة الاقتصادية فى ميادين الصناعة والزراعة والتجارة جميعا ؛ وأصبح هذا العصر الجديد يسمى بحق « عصر الآلات » .

وكان من حظ أوربا أن كثرت بها موارد القوى ، وأهمها الفحم الحجرى ، وكذلك المعادن التى تستعمل فى الصناعة ، وعلى رأسها الحديد . وبذلك توافرت العناصر التى تقوم عليها المدنية الصناعية الحديثة ؛ وأصبحت أوربا بحق أسبق القارات وأولاها فى ميدان الصناعة ؛ وكان ذلك مصدر خير كثير بالنسبة لأهلها ، وإن كان قد أدى إلى انقلاب خطير فى حياتهم . ولكن الشىء المهم على كل حال أن النهضة الحديثة قد صحبها ونتج عنها نشاط خطير بين أمم القارة التى تسابقت فى ميادين الصناعة وما يتصل بها ويترتب عليها من توسع استعمارى وتكالب من أجل مناطق إنتاج المواد الخام التى تغذى المصانع بما لا تنتجه أوربا ، ومن أجل أسواق التجارة التى تصرف فيها المصنوعات . وهكذا اتسعت رقعة الإختلاف ، ولم تقتصر على أرض أوربا ، وإنما تعدتها إلى ما وراء البحار ؛ وانتهى ذلك إلى أن أصبح لعدد من أمم أوربا مصالح مادية فيما صار يعرف بالمستعمرات ومناطق النفوذ . وقد بدأت تلك المصالح فى كثير من الأحيان تجارية واقتصادية خالصة ، ثم صارت بالتدريج سياسية وعسكرية . وهكذا تشابكت المصالح ، وتعددت أسبابها بين المناطق المعتدلة الباردة فى أوربا والمناطق الحارة والدفيئة بل والمعتدلة فى غيرها من القارات ، واشتد اتصال تلك المصالح بحياة أوربا ومشكلاتها الدولية على مر الزمن ؛ حتى إذا ما بلغ التسابق من أجل التوسع الاستعمارى الأوربى ذروته فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، كان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر فى الحرب العالمية التى بدأت عام ١٩١٤ ، والتى نستطيع أن نقول إن العالم لا يزال فى أعقابها حتى اليوم .

والحق ان أوربا بنهضتها الصناعية ، ومواردها الغنية فى الإنتاج الآلى ، ومصالحها المادية المتشابكة فى أقصى الأرض ، وأطماعها الاستعمارية فيما وراء البحار ، ثم برغبتها الملحة فى إشباع هذه الأطماع ، وإضافة ثروة العالم إلى ثروتها

واستكمال مواردها من موارده . . . كل ذلك قد جعل أوربا المسئولة الأولى والأخيرة عن هذه الحرب التى استعر لهيبها فشمل العالم ، والتى اضطرمت نيرانها وامتدت ألسنتها فى فترتين ، إحداهما ما بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨ والأخرى ما بين ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ . وقد شبهناهما فى مقال سابق* بالجولتين فى عراك واحد عنيف ؛ لم تكن أولاهما حاسمة ، فى حين قضت الثانية على أحد الخصمين قضاء يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى سنوات عدة قادمة .

وقد عالجنا فى المقال السابق خطط تلك الحرب وآثارها ونتائجها فى إقليم من العالم يهمنا بصفة خاصة ، هو الشرق الأوسط ، الذى يربط إلى حد كبير ما بين أوربا ومصالحها الاستعمارية فى الشرق وحول البحار الدفيئة فى الجنوب . ويعنينا الآن أن نعالج دوافع تلك الحرب واتجاهاتها فى أوربا ذاتها . . . تلك القارة الصغيرة التى ساهمت بمواردها الطبيعية ونشاط سكانها فى تقدم المدنية المادية الحديثة مساهمة فعالة ، جعلت لها ولأهلها المكانة الأولى بين القارات وبين الأمم ، ولكنها مع ذلك كانت — ويغلب على الظن أنها ستبقى إلى جيلين أو أجيال أخرى قادمة — مصدر بلاء وحروب عالمية تكتوى بنيرانها الإنسانية حتى فى أبعد البلاد عن أوربا ، بل وفى الجزر النائية التى لا يكاد أهلها يعرفون عن أوربا أكثر من أنها موطن ذلك الرجل الأبيض ، الذى هبط عليهم من حيث لا يشعرون ، والذى أقحم نفسه فى شئونهم وحياتهم من حيث لم يدعه أحد .

ولكنا قبل أن نستعرض مختلف أجزاء تلك القارة وأممها المحاربة وميادينها العسكرية ، ينبغى من الناحية الجغرافية والبشرية العامة أن نميز بين جنوب القارة وشمالها . ففى الجنوب يسود مناخ البحر الأبيض المتوسط ، وهو مناخ معتدل منتظم يمكن التنبؤ بتقلباته فى غير كثير من العناء . ولا يفرض هذا النوع من المناخ على من يعيشون فيه أن يكونوا مكافحين بطبيعتهم ؛ إذ هم يستطيعون مثلاً أن يقضوا معظم أشهر الصيف فى العراء ، وهم يستطيعون بقليل من الجهد أن يتقوا برد الشتاء وأمطاره المتوسطة أو القليلة ، كما أن أشعة الشمس ودفء الهواء ورقته وجفافه تبعث كلها فيهم روح المرح وشيئا من روح الاستخفاف بالحياة . فأما شمال القارة وشمالها الغربى فمناخه بارد مطير

* الكاتب المصرى عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

كثير التقلب ، تتنازعه مؤثرات المحيط الملطفة ، ومؤثرات القارة المتطرفة . وقد ترتب على ذلك ، وعلى كثرة الزوابع والأعاصير بصفة خاصة ، أن أصبح ذلك المناخ قاسياً غير معتدل ولا مضمون ؛ فهو كثير التقلبات من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى أخرى . وقد علّم ذلك المناخ سكان الإقليم الحذر وبعد النظر ، كما علمهم الكفاح من أجل الحياة ؛ إذ لا يمكن أحداً أن يعيش فى العراء ، ولا أن يتقى أخطار الطقس وتقلبات الجوّ من غير مسكن صالح متين البناء ، ومن غير ملبس وغذاء كافيين ، فى ذلك المناخ الشمالى الذى لا يعرف حياة الكفاف ولا يسمح بها . لذلك استلزم قيام المدنية فى هذا القسم من أوربا أن تتعلم الشعوب هناك الكفاح والنضال ضد الطبيعة القاسية . وقد انعكس ذلك فى حياتهم وفى حروبهم بصفة خاصة. ولعل ذلك يتضح لنا فى صورة جلية إذا ما نحن قارنا ما حدث خلال هذه الحرب المنتهية فى حالة العناصر اللاتينية من جهة ، والعناصر الانجلوجرمانية والصقلبية الشمالية وغيرها من سكان شمال أوربا من جهة أخرى . فقد كان كفاح الأولى على الجملة فاتراً فى روحه محدوداً فى مداه ، وتمثل ذلك بصفة خاصة فى حالة الإيطاليين ، على حين صابر أهل الشمال وجاهدوا حتى النهاية المرة . ولو أن البريطانيين مثلاً كانوا من عنصر اللاتينيين وعجينتهم ما كابروا فى ساعة المحنة الكبرى ، عندما رقّ حبل الأمل حتىّ كادت شعرته تنقطع . كذلك لولا روح المغامرة وطبيعة الكفاح ما وقفت فنلندة فى وجه روسيا مرتين فى هذه الحرب ، وما ثابرت وصابرت حتى النهاية أو ما يقارب النهاية . بل لولا هذه الروح وتلك الطبيعة ذاتها ما كابر أهل بولندة وضحوا إلى آخر رمق ، ولما ثبت الروس أنفسهم فى كفاحهم الطويل ضد خصمهم المكافح وعدوهم الجبار العنيد .

وإذا نحن تتبعنا أثر العوامل الجغرافية فى مختلف أقطار أوربا وشعوبها ، لاسيما تلك التى كان لها دور خاص فى هذه الحرب ، فإننا نجد فى هذه الدراسة مايعين على تفهم كثير من أحداث الحرب واتجاهاتها الكبرى ، تفهما صحيحاً ، تبرز به علاقة الحرب بالميدان الذى تجرى فيه ، كما يبرز الدور الذى قام به كل شعب من الشعوب المحاربة الكبرى ، ومقدرته على النضال والمصابرة فى الكفاح. وقد يكون من المفيد أن نختار أمثلة من مختلف الأقطار والأمم ، حتى نخرج بصورة عامة تمثل القارة فى مجموعها تمثيلا صادقاً وشاملاً فى الوقت نفسه .

ويحسن أن نبدأ بالجزر البريطانية وسكانها ، لا لشىء إلا لأن هذه الجزر الصغيرة قامت بدور أساسى وخطير فى الحرب . وهى إنما كتب لها أن تقوم بما قامت به فى تاريخ أوربا الحديث، وفى صِلات القارة بالعالم الخارجى؛ لتوافر عدد من العوامل الجغرافية مكنت لبريطانيا من أن تلعب ذلك الدور الممتاز . فهى جزيرة أو جزر غنية بثروتها المعدنية لاسيما الفحم الذى قامت على أساسه نهضتها الصناعية ، ويفصلها عن القارة بحر الشمال وبحر المانش ومياههما الضيقة التى لم « تقطع » صلة بريطانيا بالقارة ، وإنما «نظمت» تلك الصلة ، وظهر هذا التنظيم فى نواح متعددة ؛ منها أن بريطانيا عند ما عُمرت بالسكان من القارة لم يهاجر إليها كل من هب ودب ، وإنما كانت موجات الهجرات تأتى من الشرق أو من الجنوب الشرقى إلى شواطىء القارة فى مقابلة الجزر البريطانية ، فلا يفكر فى استمرار المهاجرة بالبحر إلا العناصر المخاطرة ، لاسيما أن الملاحة فى مضايق المانش لم تكن سهلة على مدار العام ، وإنما زاد من صعوباتها شدة التيارات البحرية ووجود الأعاصير الشتوية . ولذلك كان البحر للهجرات البشرية بمثابة المصفاة ؛ فلم يصل بريطانيا على الجملة إلا العناصر التى لم يغلبها البحر ولم يحل بينها وبين أن تستكشف ما وراءه ، فتركت القارة إلى الجزر التى يحيط بها البحر من كل جانب . وهكذا وصلت هذه الجزر موجات متتابعة من الكلتيين القدماء والنرمانديين والأنجلوسكسونيين والنورس وغيرهم من مخاطرى البحار الذين تجمعوا فى تلك الجزر وأخذ بعضهم يخالط بعضاً ، حتى تألف منهم هذا العنصر البريطانى المختلط والمنوّع ، فى إنجلترا وبلاد الغال وأسكتلندة وإيرلندة وما يقع بين الجزيرتين الكبيرتين وحولها من جزر صغيرة . وكما كانت طبيعة هذا العنصر وحبه للمخاطرة عاملاً فعالاً فى تاريخه الحديث ، عند ما حانت الفرصة للتوسع والاستعمار فيما وراء البحار ، فانطلقت ذرية أولئك المخاطرين القدماء إلى أقاصى الأرض فى أميركا وأستراليا وجنوب إفريقية وغيرها على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ انتشار الشعوب ـ كذلك كان اختلاط السلالات فى بريطانيا عاملاً من عوامل القوة فى المجتمع البريطانى ؛ إذ أنه أدى إلى تنوع الملكات ونواحى الاستعداد الفطرى ، فتشعب نشاط سكان بريطانيا فى الصناعة والتجارة والحرب وغيرها من ميادين العمل والإنتاج والكفاح .

كذلك كانت الجزر البريطانية مدرسة بحرية تعلّم فيها السكان حياة البحر

خلال أجيال طويلة متعاقبة . فلما جاء العهد الحديث ، وبرزت أهمية البحار فى المواصلات العالمية، صارت بريطانيا سيدة هذه البحار وصاحبة الأسطول الأول فى التجارة والحرب على السواء . بدأت بهزيمة أساطيل الأسبان وغيرهم من العناصر البحرية الأوربية ، ثم تحكمت فى المواصلات البحرية بين أوربا وأمريكا بحكم موقعها الجغرافى بين الاثنتين من جهة ، ومقدرة ملاحيها وتجارها من جهة أخرى . ثم صارت بعد ذلك القوة البحرية الأولى غير منازعة ، حتى أخذت عنها أمريكا زعامة البحار وسيادتها بالتدريج خلال الجيل الأخير ، ولأسباب تتصل بموارد الولايات المتحدة وكندا فى المادة وعدد السكان ، أكثر مما تتصل بضعف بريطانيا أو انحلال قواتها البحرية .

وفوق ذلك فقد نظم البحر الذى يقوم بين بريطانيا واليابس الأوربى علاقات تلك الجزر بأوربا من ناحية الحرب ذاتها ، فجعل غزو تلك الجزر صعباً . ولذلك لا يذكر التاريخ إلا عدداً قليلاً من الغزوات إلى بريطانيا فى العصور القديمة والوسيطة ؛ منها غزوة يوليوس قيصر عامى ٥٥ ، ٥٤ ق . م ، وغزوة وليم الفاتح عام ١٠٦٦ م . كذلك شاركت بريطانيا فى العصر الحديث فى مشكلات القارة وحروبها الكثيرة ، ولكن الحرب كانت تقع دائماً خارج أراضيها ؛ فهى تلقى أعداءها إما على البحار وإما فوق أراضى القارة فى الأراضى الوطيئة وفرنسا وأسبانيا وغيرها . فأرضها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوربية ؛ لذلك لم يصبها ما يصيب تلك الميادين من دمار وتخريب . حتى فى هذه الحرب التى انتهت منذ عام لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومواصلاتها ومرافقها المختلفة فى الحياة المدنية . وهكذا استطاعت بريطانيا بفضل هذه الميزة أن تخرج من كل حرب سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ؛ على عكس غيرها من الأمم والأقطار التى اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب فى الميدان ، فكانت بريطانيا بذلك أسبق إلى النهوض فى السلم ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — دون أن تمس أرضها بشىء .

إلى هذه الأسباب جميعاً يمكن أن نرجع ما أصاب بريطانيا فى تاريخها الحديث من نجح وتوفيق فى حروبها الأوربية ؛ لا سيما أن عامل الزمن كان إلى

جانبها ؛ فهى قد سبقت غيرها من أمم أوربا الكبرى فى التوسع الاستعمارى ؛ وهى قد استطاعت أن تبنى إمبراطوريتها المترامية الأطراف قبل أن تظهر بعض الأمم الأوربية الكبرى إلى الوجود ، وقبل أن تبرز حاجاتها وأطماعها الاستعمارية. وقد ترتب على هذه الأسبقية فى الميدان الاستعمارى أن تجمع لبريطانيا من الموارد المادية والمواقع العسكرية العالمية ما كان لها عوناً وسنداً فى السلم والحرب على السواء. ثم إنها بتوسعها هذا فى آفاق الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ، قد قطعت الطريق على غيرها من أمم أوربا ، التى طلع عليها العهد الحديث بمواصلاته السريعة وعلاقاته الدولية المعقدة ومقتضياته الاقتصادية الملحة ؛ فألفاها — أو ألفى كثيراً منها — محصوراً داخل نطاق من الحدود السياسية التى لا تسمح بالتوسع إلا على حساب الأمم المجاورة ، وإلا فى مدى ضيق تراق من دونه دماء الألوف بل دماء الملايين . . . فأرض أوربا التى تقاس بالشبر ليست نهباً رخيصاً كما هى الحال فى أرض المستعمرات !

ولعل أظهر مثال لهذه الدول الأوربية التى جاءت متأخرة فى نشأتها القومية وتوسعها هي ألمانيا ، التى لم تستكمل وحدتها إلا أيام بسمرك . وقد دخلت بعد ذلك ميدان الاستعمار ، فنالت بعض الأراضى فى شرق إفريقية وغربها وبعض جزر المحيط الهادى ، ولكنها لم تكن لتناظر بذلك ما سبقتها إليه دول أوربا الغربية ، حتى الدول الصغيرة مثل هولندا والبرتغال ، التى وصلت الميدان مبكرة واحتفظت بما وضعت أيديها عليه من غنائم رخيصة . أما ألمانيا مع قوتها فى الموارد وتعدادها فى الرجال فقد جاءت متأخرة ، واضطرت من أجل ذلك إلى أن تناضل فى توسيع مجالها الحيوى فى أوربا ذاتها ؛ وكان عليها ، منذ أن حددت علاقاتها السياسية بالنمسا ، واتخذت كيانها السياسى البروسى المستقل ، أن تبذل جهد المستيئس لتدفع حدودها السياسية ومناطق نفوذها الاقتصادى ناحية الغرب أو ناحية الشرق . فأما فى الغرب فقد كان التوسع عسيراً ؛ فدول أوربا الغربية قد سبقت ألمانيا ذاتها إلى الاستقرار السياسى ، وإلى شئ كثير من التقدم الاقتصادى الذى لا يفيد معه أن تحاول ألمانيا السيطرة على مرافقها الحيوية . وأما فى الشرق فقد كان الميدان مفتوحاً أمام ألمانيا فى اتجاهات ثلاثة : الأول ناحية پروسيا الشرقية وسواحل البلطى حيث كان الفرسان التيوتون قد توسعوا من قبل ووطدوا نفوذهم الاقتصادى ، فامتلكوا المساحات الواسعة

من الأراضى وسخروا السكان الأصليين مأجورين فى تلك المزارع التى تذكرنا الحالة فيها بعهد الإقطاع. والاتجاه الثانى فى ناحية بولندة والروسيا؛ وقد استقر الألمان المتزايدون فى العدد فى كثير من بقاع بولندة الغربية، كما أن جماعات منهم رحلت إلى قلب الروسيا القديمة وجنوبها، واستقرت هناك تعمل فى الصناعة وغيرها من نواحى الإنتاج. ثم الاتجاه الثالث ناحية بوهيميا وبعض أراضى النمسا والمجر القديمة فى اتجاه البلقان. ومن الممكن اعتبار توسع الألمان فى هذه الاتجاهات الثلاثة جميعاً استعماراً بالمعنى الفعلى للكلمة، وإن لم يطلق عليه ذلك اللفظ تمييزاً له من حركة الاستعمار المعروفة فى خارج القارة الأوربية.

وهكذا حاولت ألمانيا أن تستفيد من موقعها الجغرافى فى قلب القارة الأوربية، ومن احتكاكها الاقتصادى والسياسى بالدول المجاورة، لا سيما فى الشرق والجنوب. ولكنها عندما عمدت إلى التوسع المسلح وجدت نفسها مضطرة إلى أن تحارب فى أكثر من جبهة واحدة؛ ففى الغرب كانت أمم قديمة ذات مقدرة تقليدية على الدفاع، ولا يمكن قهرها بصفة دائمة؛ وفى الشرق والجنوب كانت بلاد فسيحة وجبهات لا تحدها معالم واضحة، وإنما هى ذات شعب كثيرة تستنفد الجهود، ولا يسهل معها التركيز فى الهجوم، ولا حتى فى الدفاع.

فأما الروسيا، وهى ثالثة الدول الكبرى فى النضال الأوربى الأخير، فكانت تحتل شرق أوربا، وتمتد وراء ذلك فى آسيا. والروس كثرتهم من الصقالبة، الذين امتازوا فى كل تاريخهم بأنهم شعب برى لا يحب البحار ولا يسعى إليها إلا مكرهاً، قد تحاشى عندما انتشر وعمر شرق القارة أن يقرب البحار، ولم يحاول التسلط على المنافذ البحرية إلا متأخراً. فالصقالبة الجنوبيون فى يوجوسلافيا مثلا قد تجنبوا ساحل دلماشيا القديم وموانيه التى احتلها الطليان، مثل تريستا وغيرها. والصقالبة الشماليون قد ابتعدوا عن سواحل البحر البلطى التى تقدم إليها التيوتون والفنيون وغيرهم من سكان الولايات البلطية. والروس الجنوبيون وإن كانوا قد أطلوا على البحر الأسود، فهم لم يشتغلوا فيه كثيراً بالملاحة، ولم توفق جهودهم التاريخية فى أن يضعوا أيديهم على منافذه إلى البحر المتوسط. لذلك كله فإن هؤلاء الصقالبة لم يشاركوا بشئ يذكر فى توسع أوربا البحرى نحو المستعمرات، ولم ينشأ بينهم وبين أمم أوربا الغربية ذات الصبغة البحرية من الاحتكاك مثل ما نشأ بين هؤلاء الأخيرين

وبين الألمان . . . ذلك الاحتكاك الذى ترتب على محاولة ألمانيا تقوية أسطولها وتمكين مصالحها فيما وراء البحار ، بما انتهى إلى الحرب بينها وبين بريطانيا آخر الأمر .

على أن مجال التوسع البرى كان مفتوحاً أمام الروسيا نحو الشرق . وقد بدأت بمد سكة حديد سيبيريا المعروفة ، ثم انتشر القوزاق وغيرهم واستعمروا سهول سيبيريا وآسيا الداخلية ، حتى وصل الروس إلى منشوريا والولايات البحرية المطلة على المحيط الهادى حيث احتكوا باليابان فى مطلع القرن . وكذلك حاولت الروسيا أن تتوسع بالبر نحو الجنوب الشرقى إلى أرض إيران ، وفى اتجاه أفغانستان والهند ، حيث اصطدمت بالنفوذ البريطانى اصطداماً لم يلطف من حدته إلا اتفاق عام ١٩٠٧ على تقسيم مناطق النفوذ فى إيران .

وأما فرنسا ، وهى رابعة الأمم الكبرى فى أوربا ، فتقع عند الطرف الآخر من اليابس الأوربى من ناحية الغرب ؛ حيث تنتهى الطرق الآتية من البحر المتوسط ذى المدنية العريقة والحياة المستقرة القديمة ، وتلك الآتية من قلب القارة الذى لم تنفذ إليه المدنية إلا حديثاً ، والذى لم يكد يستقر بالحياة حتى فاجأته النهضة ، وما جاء فى أعقابها من اضطرابات وحروب وقلقلة فى الحدود السياسية والعسكرية بين الأمم . وتنتهى تلك الطرق جميعاً إلى الشواطئ المواجهة لبريطانيا التى تتحكم فى المداخل البحرية إلى اليابس الأوربى ، وفى صلات أوربا بما وراء البحار . وقد ساهمت فرنسا فى وقت متقدم فى حركة التوسع الأوربى إلى المستعمرات ، وحاولت فى ذلك أن تنافس بريطانيا حيناً ، وأن تجاريها حيناً آخر ، ولكنها لم تفز من توسعها إلا بنصيب أقل كثيراً من نصيب سيدة البحار . ذلك أن فرنسا كانت ، بحكم موقعها الجغرافى بين القارة والبحر ، تتجاذبها سياسة الاستعمار من جهة ، وسياسة المشاحنات القارية والارتباطات الدولية الأوربية من جهة أخرى . وهى فوق ذلك كانت بحكم موقعها الجغرافى أيضاً ميدان حرب سعت إليه جيوش الأعداء والحلفاء على السواء ، من الشرق أو من الغرب أو من وراء البحار . وتمثل ذلك على الخصوص عند ما بدأ الطموح يدفع بالعنصر الجرمانى إلى التوسع نحو الغرب ونحو البحار ، فاصطدم أولاً بفرنسا ذاتها اصطداماً ناجحاً فى عام ١٨٧٠ ، ثم بفرنسا وبريطانيا معاً اصطداماً غير ناجح فى الحرب العالمية الأخيرة بجولتيها فى أعوام ١٩١٤ — ١٩١٨ ثم ١٩٣٩

— ١٩٤٥ . ولعل الطريف فى هـذا الصدام الأخير بشقيه أن فرنسا ناءت منه بالحمل الأكبر من حيث التخريب ؛ فكانت أرضها ميـدان قتال عنيف خلال سنوات طويلة ، عند ما اكتسحتها جيوش الألمان فى حروبها الخاطفة وغير الخاطفة ضد الحلفاء ، وعند ما اتخذتها بريطانيا وحلفاء الغرب ميداناً يقاتلون فيه أعداءهم على القارة ، وينفذون منه إلى الأراضى الوطيئة وغرب ألمانيا من جهة ، وإلى حدود إيطاليا وشمالها من جهة أخرى .

تلك أهم أمم أوربا ، والعوامل الجغرافية والبشرية التى كيفت توسعها الحديث ، ووجهته توجيهاً كان له أبعـد الأثر فيما قام فى تلك القارة من مشكلات خلال النصف الثانى من القرن المنصرم ، وهذا القرن الذى نعيش فيه . ولـكن هناك أمماً أخرى أثرت فيها عوامل مماثلة أو مختلفة ؛ منها الأراضى الوطيئة التى كانت على الدوام حلقة الاتصال بين ألمانيا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فـكانت طريق التوسع العسكرى من جانب ألمانيا ، وجرت على أراضيها ، لا سيما سهل الفلاندر ، معارك تاريخية متكررة ؛ ولذا استمسكت بريطانيا باستقلالها ، ونادى بعض البريطانيين بأن حدود بلادهم العسكرية إنما تقع على ضفاف الرين .

وغير الأراضى الوطيئة هناك بلاد البلقان ، التى تتعقد فيها الطبيعة وتتعقد تبعاً لذلك حياة السكان وأحوالهم ، بحيث أصبح شـبه الجزيرة يعرف بمتحف الأجناس والثقافات فى أوربا . فهناك تختلط السلالات ولا يمتزج بعضها ببعض ، وتتكاثر الثقافات ولا يتسق بعضها مع بعض . وهناك تتشابك الحدود السياسية فلا تتمشى مع حدود الطبيعة ، ولا حدود الجنس ، ولا حدود الثقافة ، ولا حدود المصالح الاقتصادية . وهناك تتنازع تيارات النفوذ الدولى ، فتسعى كل من ألمانيا والروسـيا وإيطاليا وحتى دول الغرب لأن تكون لها يد وتوجيه فى شئون البلقان . ولذلك كله كان هذا الركن من أوربا موطن اضطراب دائم ومصدر مشاحنات ومنازعات ، كثيراً ما انتهت إلى إشعال الحرب بين الأمم الـكبيرة .

أما إيطاليـا فـكانت تمثل دولة حديثة ، بل آخر الدول الحديثة ظهوراً فى الميدان الأوربى . وكانت بحكم موقعها الجغرافى ذات أهمية خاصة فى كل كفاح ينشأ على القارة ، ويمتد إلى حوض البحر المتوسط . وقد جاء دورها فى الاستعمار الخارجى متأخراً ، فلم تصب إلا ما تبقى وزهد فيه الآخرون . ولـكنها فى العهد الفاشستى انتهزت بعض الفرص فوضعت يدها على الحبشـة ، وأحيت آمالها فى

التوسع نحو البلقان ، بل سرى الخيال بسادتها وقادتها إلى أن يفكروا فى استعادة مجدها الرومانى القديم . ومع ذلك كله فإن إيطاليا على الجملة لم تكن موفقة فيما ساهمت فيه من حروب حديثة على أرض القارة . وربما كان مرجع ذلك ، أو أحد مراجعه ، أنها حاولت أكثر مما تستطيع ، فحشرت نفسها بين جبابرة الحرب حشراً ، وكانت فى ذلك كالهر يحكى الأسد . وقد ينفعنا فى هذا الصدد أن نلحظ نقطة ضعف خطيرة فى تكوين هذه الدولة القومى ؛ فهناك فارق كبير بين شمال إيطاليا حيث الثروة الزراعية والصناعية ، وحيث مستوى المعيشة والثقافة لا يكاد يفترق عنه فى بقية أجزاء أوربا الغربية ، وبين جنوبها حيث الجفاف والفقر والمرض ، وحيث ينحط مستوى المعيشة إلى حد لا تعادله إلا حال أفقر أجزاء القارة . وقد أدى التفاوت بين الشمال والجنوب فى هذه الدولة الناشئة إلى عدم الاتساق والتكافؤ بين شطرى الوطن الواحد ، بل بين شطرى الشعب الواحد . وكان ذلك عامل ضعف خطير كامن فى كيان إيطاليا والأمة الإيطالية ؛ لعله أن يكون — إلى جانب فقر البلاد العام من حيث مقومات الحياة الصناعية الناهضة — مصدر ما انتهى إليه الأمر ساعة المحنة من تصدع وتفكك وانحلال .

من هذه الأمم جميعاً وغيرها من الأمم الصغيرة والمتوسطة تألفت قارة أوربا ، فجاءت قارة معقدة التركيب متنافرة التكوين من النواحى الطبيعية والبشرية على حد سواء ؛ فلا هى مؤلفة من أمم متمايزة ، لكل منها توجيهها الجغرافى ، وطابعها الثقافى والحضارى الذى تختلف به عن بقية الأمم ؛ كما هى الحال فى آسيا حيث الصين والهند وجنوب غرب القارة (العالم العربى) ، وهى كلها مناطق لكل منها حياتها وحضارتها وتاريخها واتجاهاتها العامة ؛ أو كما هى الحال فى أمريكا الشمالية حيث الولايات المتحدة وكندا من جهة والمكسيك من جهة أخرى . ولا هى مؤلفة من عدد من الأمم المتجاورة التى يسود بينها نوع من الرباط الثقافى والوحدة الفكرية ، وإن خالفت بينها الحدود والفوارق السياسية ؛ كما هى الحال فى أمريكا اللاتينية . وإنما هى قارة تزاحمت فيها القوميات ، وتنافرت الأهداف السياسية ، وتداخلت الحدود تداخلاً يندر معه أن يتمشى حد سياسى لإحدى الدول مع حدها الطبيعى العسكرى ، أو مع حدها الجنسى أو الاقتصادى .

وزاد من التشاحن وحدته أن التقدم الحديث قد صاحبه أمران متنافران أشد التنافر ترتبت عليهما نتائج متعارضة أشد التعارض : أحدهما نمو روح القومية

الضيقة التى تقوم على أساس الجنس حينا ، وعلى أساس الرباط التاريخى أو السياسى حيناً آخر ، والتى تدفع الأمم الناشئة إلى الأنانية والأثرة ، وإلى أن تنطوى على نفسها ، ولا ترعى إلا مصالحها الخاصة بصرف النظر عن مقتضيات الجوار أو حتى عن بعض المقتضيات الإنسانية التى تهذّب مراعاتها من نفوس الأمم كما تهذب من نفوس الأفراد . وثانيهما ذلك التقدم المادى وما صحبه من نمو فى وسائل المواصلات ، وازدياد مدهش فى سرعتها أدى إلى تشابك الأقطار وتداخل المصالح ؛ بحيث أصبح من غير الممكن لأمة أن تعيش داخل حدودها أو أن تنطوى على نفسها ، لا سيما تلك الأمم التى تقوم فى داخلية قارة كأوربا . والظاهر أن هذا التناقض والتنازع بين المصالح القومية والمصالح الدولية كان أكبر مما تستطيع النفس البشرية فى أوربا أن تتغلب عليه ؛ خصوصاً أن أوربا ، بل الأوربيين الشماليين كما نعرفهم ، كانوا ولا يزالون محدثين فيما يتصل بكثير من القيم الإنسانية الصحيحة ، وما تقتضيه من تهذيب للنفس ورياضة للروح ؛ فقد قفزت بهم المدنية المادية الحديثة إلى القمة فى بضعة قرون قليلة ، ووضعت فى أيديهم سلاحاً من المادة والعلم والمعرفة بأسرار الطبيعة لم يكونوا مؤهلين لأن يتحكموا فيه ، ولا أن يوجهوه الوجهة الإنسانية الخيِّرة . وكان مثلهم فى ذلك كمثل الصبى ، وضع فى يده سلاح خطير لا يدرك قيمته ولا يحسن استعماله ولا توجيهه وجهة الخير والحق . ولذلك فهم قد سخّروا العلم فى التدمير والتخريب كما سخروه فى البناء والتعمير سواء بسواء . . . ولعل السر الأول فى ذلك أن التقدم المادى فى الحضارة الأوربية الحديثة لم يكن له ما يناظره من ناحية الروح . فأوربا ذات المدنية المادية المزدهرة لم تطلع علينا فى عصرها الذهبى بوحى دينى جديد أو حتى بفلسفة إنسانية من ذلك النوع الذى يلهم الأرواح ويهدى النفوس ، بل يحد من طغيان المادة ، ويعاون على التحكم فيها بوازع من دين ، أو رادع من عقل أو من ضمير .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت النتيجة أن دخلت هذه القارة فى حروب متصلة منذ طلع فجر نهضتها الصناعية الحديثة . وكانت هذه الحروب من نوعين ظاهرين ، وإن لم يتيسر دائما فصل أحدهما عن الآخر : أولهما يتصل بتلك الحدود السياسية التى تفصل بين أمم القارة ، والتى قلل من قيمتها ما كان من تقدم فى المواصلات ، وزيادة فى الاحتكاك والاتصال ، وتشابك فى المصالح بين

الشعوب . ولم تستقر حدود أية دولة من دول أوربا الحديثة أكثر من جيل أو بعض جيل . وقد تتابعت الحروب سريعة فى معظم أنحاء القارة ، وترتب عليها ظهور دول واختفاء أخرى أو اندماج بعضها فى بعض . وأغلب الظن أن هذا النوع من الحروب التى تقوم من أجل تعديل الحدود بين دول أوربا لن ينتهى أمره قبل أجيال ، وأن أوربا لن تخلص منه حتى يجىء اليوم الذى يدرك فيه أهلها أن الحروب السياسية فى مثل هذه القارة التى تضيق بالسكان لا يجب أن تقوم عقبة فى سبيل تحقيق الاتحادات الاقتصادية التى تقضى بهـا طبيعة الأشياء ، وتحتمها مقتضيات الحياة المادية المعقدة فى هذا الركن المضطرب من العالم . وأما النوع الآخر من الحروب التى انتابت أوربا فى عهدها الحديث فذلك الذى يتصل بالتوسع الاستعمارى فيما وراء البحار ، والسيطرة على تجارة العالم والتحكم فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، لاسيما علاقات أوربا بغيرها من القارات . وقد تمثل هذا النوع بصورة واضحة فيما كان من نزاع بين الجرمان والبريطانيين خلال الأربعين سنة الأخيرة أو أزيد من ذلك . فقد ضاق مجال الحياة والنشاط بالألمان فى وسط القارة ، فوطدوا النية على انتزاع السيطرة العالمية من بريطانيا، أو مشاركتها فيها على الأقل ، وأخذوا فى بناء قوتهم البحرية استعداداً لذلك . ولـكن بريطانيا لم تكن من الغفلة بحيث تترك الأمور تسير إلى غير مصيرها المرسوم ؛ فقابلت خطة ألمانيا بمثلها ، حتى إذا ما جاءت الحرب كانت الظروف مواتية لبريطانيا من ناحية القوة البحرية على الأقل ، وانتهى الصراع المروع الذى بدأ فى عام ١٩١٤ بهدنة موقوتة فى عام ١٩١٨ ثم بنصر أكيد فى عام ١٩٤٥ . وبدت بريطانيا وكأنها قد احتفظت وحلفاءها الناطقين بالإنجليزية فى أمريكا بسيادة البحار والسيطرة على علاقات أوربا بالمستعمرات فيما وراء البحار . ومع ذلك فمن يدرينا ! فقد تكون هذه الحرب التى انتهت منذ عام خاتمة دور من أدوار التاريخ الأوربى بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية ، وفاتحة دور جديد بين الصقالبة والناطقين بالإنجليزية فى بريطانيا وأمريكا ! لقد استغرق الدور الأول أربعين عاماً أو تزيد بين استعداد للحرب ونضال مسلح دام زهاء عشرة أعوام فى الجولتين ، بل لقد انقلب هذا النضال بجولتيه إلى حرب عالمية مروعة شارك فيها أكثر من ٩٠ ٪ من سكان العالم ، وقضى فيها او بسببها ما يناهز خمسة وعشرين مليوناً من الأنفس .

أفيجيء القدر للعالم أن تبتليه أوربا بحرب عالمية جديدة يستغرق الاستعداد لها جيلاً آخر ، ويطول النزاع المسلح فيها إلى أكثر من جولة واحدة ؟ لعل أشد ما تهلع له النفوس أن النزاع الجديد — إن وقع — فسيكون بين قوتين مختلفتين فى الاستعداد تمام الاختلاف ؛ فإحداهما تستند إلى الأساطيل والقواعد البحرية ، وهى ضرورية للسيطرة العالمية والتحكم فى المواصلات ، ولكنها لا تكفى لاكتساح اليابس واحتلال ظهر القارات ، على حين تستند الأخرى إلى الجيوش البرية التى هى أداة ضرورية لاكتساح الميادين واحتلال المواقع ، ولكنها لا تستطيع بدون الأساطيل أن تسيطر على المواصلات العالمية . ومعنى هذا أن الحرب التى ينتظر أن تطالعنا بها أوربا فى المرة القادمة ستكون بين قوتين غير متناظرتين ولا متكافئتين ؛ ولن تستطيع إحداهما — بحكم تكوينهما — أن تتمكن من الأخرى دون استعداد شامل وتضحية بالغة . وإذا لم يلجأ المتحاربون فى نضالهم المقبل إلى أسلحة ذرية لا يمكن أن يتنبأ أحد بنتائج استخدامها بالنسبة لهم وللإنسانية جمعاء ، فإن الحرب لابد أن تطول . . . وهى لا ينتظر أن تنتهى بأحد الفريقين إلى نتيجة فاصلة فى جولة واحدة على أية حال !

سليمان حزين

النقـد والفن

١

نحن نعتمد على الألفاظ فى تصـوير خواطرنا، وإبراز المعانى التى تجول فى أذهاننا، والأحاسيس التى تختلج فى نفوسنا.

ويوماً ما كان أسلافنا يؤدون هذه الأحاسيس وتلك المعانى، بالإشارات والأصوات المبهمة، أو بالإشارات والألفاظ جميعاً.

وقد يصـل حفـدتنا إلى طريقة أخرى للتفاهم غير الألفـاظ المنطوقة أو المـكتوبة! فقد يتم التفاهم بينهم مثلا عن طريق الاتصال الشعورى والفكرى المباشر — وشىء من هذا يقع الآن فى التنويم المغناطيسى والإيحاء!

أردت أن أقول — بهذه المقدمة — إن الألفاظ التى نتخذها اليوم للتفاهم إنما هى وسـيلة لا غاية، وإنها رموز ظاهرة لمعان وأحاسيس مضمرة؛ وإنهـا تستمد قيمتها الحقيقية من قيمة ما ترمز إليـه، بقدر ما تستطيع الـكشف عما ترمز إليه.

والألفاظ — فى هـذا — كالعملة الورقية المضمونة برصيد من الذهب. ونحن نتعامل بها حسب ماترمز إليه من الرصيد. ولابد لكى نثق بها ونتداولها أن تكشف لنا عن هذا الرصيد الذى تساويه!

والألفاظ التى نتعامل بها الآن لم نضعها نحن، ولم نشترك فى وضعها، وقد تم هذا فى عصور سحيقة، تعد بالقياس إلينا، فى طفولة الإنسانية. فـكان من أثر هذا أننا نراها اليوم ألفاظاً غامضة، مجملة الدلالة؛ وكثير منها ليس له فى أذهاننا معنى دقيق محدد.

وقد لايظهر هذا فى «أسماء الذوات»؛ ولـكنه يظهر واضحاً فى «أسماء المعانى» حيث تصلح اللفظة الواحدة للدلالة على عشرات الصور والحالات المتعلقة بالمعنى الواحد، تختلف فى اللون والدرجة، ويبقى اللفظ الدال عليهـا واحدا فى جميع الأحوال.

خذ مثلا كلمة « الحب » . فانظر : كم من الصور تنطوى تحتها ، وكم من الأحاسيس تعبر عنها . وهى لفظة واحدة لا تفرق بين حالة وحالة ، إلا فى سياق معين تقاس به مقدرة القائل على الأداء ، وتكشف فيه اللفظة عن رصيدها المذخور من الحس والشعور .

ما مدلول لفظة « الحب » ؟

أولا — بالقياس إلى ما يُحَبّ : تراه حب الحياة ، أم حب الطبيعة ، أم حب الجمال الحى ، أم حب الوطن ، أم حب الأسرة ، أم حب الأصدقاء ، أم حب النفس ، أم حب المجد ، أم حب المال ، أم حب الجنس ، أم حب الفن ، أم حب الدين . . . الخ ما يصح أن يكون محبوباً فى الحياة ؟

وثانياً — بالقياس إلى نوع الحب : تراه الحب البرىء أم الحب المشوب ؟ وحب الألفة الوئيدة ، أم حب المفاجأة الهاجمة ؟ وحب الأثرة والغلبة أم حب التضحية والإيثار ؟ وحب الاستعلاء والسيطرة أم حب التفانى والامتزاج ؟ وحب الشهوة العارمة أم حب القداسة المتصوفة . . . أم هو الحب الذى تتداخل فيه شتى هذه الظلال والألوان ؟

وثالثاً — بالقياس إلى درجة الحب وحالته : تراه الحب الصاعد إلى الآفاق أم الهابط إلى الأعماق ؟ وهو المقبل يكسب كل يوم ويربى أم هو المدبر يخسر بالزمن ويذوى ؟ وهو الثائر العنيف أم الهادئ الراضى ؟ وهو المكروه المملول أم المتطلب المرجو ؟ أم هو الحب الذى فيه من هذا وفيه من ذاك ؟

كل هذا وعشرات من أمثاله تجمله لفظة « الحب » الواحدة ، ويفصله الإحساس الواسع ، المجرب لهذه الصنوف والأشكال .

ومثل الحب ، البغض ، والغيرة ، والحنان ، والقسوة ، والمروءة ، والنذالة ، واللذة ، والألم . . . إلى آخر « أسماء المعانى » التى تجمل مدلولاتها هذا الإجمال ، وتتسع بعد ذلك لعشرات من الصور والأحوال .

وبديهى أن واضعى اللغة الأوائل لم تكن خواطرهم تزدحم بكل هذه الصور ؛ لأن أحاسيسهم وأذهانهم لم تكن مرت بتجارب كالتى مرت بنا . فكانت اللفظة الواحدة تشع فى أذهانهم صورة واحدة ، أو عدة صور ، مقيدة على كل حال ، بمدى تجاربهم فى عالم الحس والخيال .

والذين جاءوا من بعدهم لم تحفزهم حاجة ملحة إلى وضع ألفاظ جديدة ،

مفصلة على قد كل حالة من الحالات ؛ لأنهم وجدوا فى إبهام الألفاظ الموضوعة من قبل وإجمالها ومرونتها مايساعدهم على تحميلها صوراً وأشكالا وحالات جديدة لم تخطر على قلوب واضعيها الأولين .

بل لعلهم — وبخاصة رجال الفنون — قد ارتاحوا إلى هذا الغموض المبهم ، ووجدوا فيه من الجمال ما يتسق مع خواطرهم وأحاسيسهم — وفيها قسط من الغموض والإبهام لا مفر منه بحكم أن مشاعرهم وأخيلتهم هى الأصل فى العمل الفنى وهى غامضة إلى حد ما — لا بل زادوا على هذا أن جعلوا كثيراً من « أسماء الذوات » « أسماء معان » على نحو من المجاز ، مثل كلمة « كتابة » وأصلها « القيد » . وكلمة « شرف » وأصلها « المرتفع » . كما جعلوا بعض أسماء المعانى ، لمعان أخرى اصطلاحية ، مثل كلمة « صلاة » وأصلها « الدعاء » وكلمة « زكاة » وأصلها « الطهارة » . . . وذلك — فيما يبدو — كان تفادياً من وضع ألفاظ جديدة !

ولعل القدرة على وضع الألفاظ كانت خاصة فى طفولة الإنسانية ، وفى الشعوب البدائية ، ثم ماتت أو فترت بعد عهد معين من الرقى والتطور ؛ فأصبحنا الآن نعانى صعوبة جدية فى وضع ألفاظ جديدة لما يعرض لنا من شؤون الحياة !

وأنا أزعم أن اللفظ الذى لم ينبعث من فم القائل إلا بعد وجود صورة معينة يرمز إليها فى ذهنه . . . هو كذلك لا ينشئ فى ذهن السامع صورة لا عهد له بها من قبل ، ولكنه يقتصر على استدعاء الصورة أو الصور الكامنة فى نفسه ، والتى يرمز لها هذا اللفظ عنده .

وقد يختلط علينا الأمر فى بعض الأحيان ، فنحسب أن لفظاً معيناً قد أنشأ فى أنفسنا إنشاء ، صورة لا عهد لنا بها البتة . وتفسير هذا أن هذه الصورة لابد أن يكون لنا بها صلة سابقة ، نتيجة لتجربة شخصية أو إنسانية ، ثم خفيت علينا وبعدت عن وعينا ، حتى استدعاها ذلك اللفظ حين سمعناه أو قرأناه .

فكلمة « الجبل » مثلا ، لا تدل على شيء البتة فى ذهن من لم ير جبلا أو مرئيًّا ما يقرِّب إلى ذهنه صورة الجبل . وقد تصور له شكلا من الأشكال ، هو أبعد ما يكون عن شكل الجبل المعروف ، كما يقع كثيراً للمكفوفين وللأطفال .

وهذه الكلمة نفسها تشع فى ذهن من رأى جبلا واحداً ، صورة واحدة هى صورة الجبل الذى رآه ، على حين هى تشع خمس صور لمن رأى خمسة أجبال مختلفة الأشكال ، وتشع عشر صور لمن رأى عشرة أجبال مختلفات . وهكذا .

ومثل هذا كلمات : قط ، وكلب ، وحصان ، وشجرة ، وزهرة ، ونبات . . . إلى آخر أسماء الذوات .

أما المعنى الذهنى المجرد ، المنتزع من جميع الأشكال ، والذى لا يتقيد بشكل من هذه الأشكال ، فلا يكاد يقيم فى الذهن لحظة ، ثم يأخذ الخيال فى استعراض الشكل أو الأشكال ، التى يستدعيها هذا اللفظ فى الحال .

وإذا صح هذا فى « أسماء الذوات » وهى قريبة الإدراك ، سهلة التصور ، والاختلاف فيها محدود ، لأنها موكولة — فى الغالب — إلى الحواس ، فكم يكون مقدار الاختلاف فى إشعاع ألفاظ المعانى : كالحب والبغض ، والمروءة والنذالة ، والذكاء والغباء ، واللذة والألم ؛ ثم كم يكون الاختلاف فيما تشعه — بعد ذلك — النصوص التى تتولى تصوير عاطفة من العواطف ، أو خيالا من الأخيلة ، أو حالة من الحالات النفسية على وجه الإجمال .

وقد يكون هذا الاختلاف نعمة جميلة فى عالم الفنون ، بما يجدد من أنماط القول وصور الأداء ، وبما يعرضه من عوالم النفوس ، وغرائب الشخصيات . ولكنه — مع هذا أو بسبب هذا — يخلق لنا عناء بعد عناء ، بتعارض الآراء فى الأثر الأدبى الواحد ، بل الأداء الفنى الواحد ، بالقياس إلى ما يشعه من الصور فى الأذهان ، وما يستحضره من الحالات فى النفوس .

وهنا يأتى دور الناقد الذى كثيراً ما يكون شاقًّا بسبب هذه الملابسات !

وهنا نصل إلى النتيجة الأولى من هذا البحث ، وهى مناقشة مدى حق القارئ فى نقد مايلقى إليه من الأعمال الفنية ، والحكم عليها حكما موضوعيا على قدر الإمكان .

ليس الناس سواء فى تجاربهم الحسية والنفسية فى الحياة . وبعضهم — ولا شك — أغنى من بعض فى رصيد هذه التجارب .

وأسباب الغنى والفقر فى هذا الرصيد كثيرة متنوعة ؛ فقد ترجع إلى سعة الطبيعة النفسية أو ضيقها ، وقوتها أو ضعفها ، وعمقها أو سطحيتها . . . وقد

ترجع إلى اللون الذى تصطبغ به هذه الطبيعة ، فتهش لهذا اللون من الإحساس أو ذاك وتتفتح لمظاهر من الحياة دون الأخرى ، كأن تتفتح لمظاهر الضخامة والعنف والجموح فى الكون ، وتنقبض عن مواطن الدعة والخفاء والهمس — وإن كان كل لون من هذه الألوان يختلف فى النفوس مع اتفاقها فى الأساس .

وتبعاً لهذا الاختلاف فى الرصيد النفسى المخزون ، تكثر الصور التى يشعها اللفظ أو التعبير عند القارىء أو تقل ، ويقوى أو يضعف استعداده لتلقى صور النفوس وأنماط الشخصيات ، ويتسع أو يضيق إدراكه لأطياف الجمال التى تموج بها الفنون كما تموج بها الحياة .

ونخلص من هذا إلى النتيجة الأولى التى أعنيها من مقدمات هذا البحث ، وهى : أن حق الناقد فى الحكم على صحة الحالات النفسية والصور الفنية ، رهن بالنسبة بين رصيده ورصيد الفنان من الآفاق النفسية ، والتجارب الفنية على السواء .

ذلك أن الفنان قد تزخر نفسه بصور وحالات ليست شائعة ؛ لأنها من خصوصياته أو امتيازاته ، وقد يختار من صور الأداء ما يتسق مع صور الإحساس ، فيجىء ناقد لم تتهيأ طبيعته لإدراكها ، أو لم يقرأ لها نظيراً فى الأنماط السابقة ، فيرى خطأ فى التصور والإحساس ، أو انحرافا فى التصوير والأداء ، فى حين هى من مطالب الحياة الأصيلة فى ذلك الفنان ، للتنويع فى الأنماط والألوان !

* * *

ونسمع أحيانا أن هذا الأثر الفنى أو ذاك صعب الفهم عند الكثيرين ، فيجب أن نقف هنا لنسأل عن نوع الصعوبة .

فهناك صعوبة منشؤها طريقة التعبير والأداء ، وصعوبة منشؤها طريقة التصور والإحساس .

والصعوبة الأولى سهلة ميسورة الحل ؛ وعلاجها هو المعجم والدراسة اللغوية ، والاطلاع على طرق التعبير المختلفة . أما الصعوبة الثانية فهى العسيرة حقًّا ؛ لأنها تتعلق بما هو أعمق من الألفاظ والعبارات .

ذلك أن خصوصية الصور النفسية والحالات الوجدانية قد تحتاج إلى طبائع خاصة ذات رصيد إنسانى وفنى ضخم ، يؤهلها لاستيعاب ما ترمز إليه النصوص ، التى قد تكون سهلة التركيب واضحة الأداء .

وهنا نصل بالحديث إلى النتيجة الثانية لمقدمات هـذا البحث ، وهى أن صعوبة الفهم أو سهولته ليست راجعــة فى الحقيقة إلى غرابة اللفظ ووعورة التركيب ؛ فهذه صعوبة سهلة ، حلها ميسور ، ومرجعها — كما قلت — إلى المعجم وإلى التمرس بالأساليب . إنما الصعوبة التى تحتاج إلى الطبيعة وإلى التجربة معاً ، هى صعوبة التصور والإدراك ، بسبب نقص الرصيد النفسى من التجارب الحسية والذهنية والروحية ، وفقر الطبيعة من الذخيرة الموهوبة ، التى تهيئها للفن الرفيع .

وإنك لتجد فى بعض الأحيان من يجادلك فى نص أدبى ، يقول لك : مامعنى هذا ؟ فإذا حاولت تفسيره له لم تجده قاصراً عن فهم ألفاظه وتراكيبه ، ولـكنه عاجز عن تمـلّى الحالة النفسية التى يرمز إليها هذا النص . فإذا حاولت أن تدله على موضع النقص فى استعداده الفنى لم يجد إلا أن يقول لك : إذا كنت أنا دارس اللغة وآدابها لا أفهم هذا القائل ، فمن يفهم !

إن المدى لبعيد جدًّا ، بين معرفة مدلول الألفاظ اللغوى فى النص الأدبى ، واستحضار الصورة النفسية التى يشعها . وهذا كهذا ضرورى للإدراك الصحيح .

وأضرب هنا مثالاً قد يكون ضروريا للإيضاح :

يقول القرآن الـكريم : « والصبح إذا تنفس »

فماذا تعنى هذه الألفاظ عند الـكثيرين من دارسى اللغة العربية ؟

إنها تعنى « استعارة تصريحية أصلية » فى الصبح ، الذى شبهناه بإنسان ، وحذفنا المشبه به ، ورمزنا إليه بشىء من لوازمه ، وهو « تنفس » ! أو هى تركيب جميل ذو إيقاع موسيقى ، حين نقرنه إلى الآية قبله : « والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . »

فأين هذا مما يشعه هذا التعبير فى النفس الشاعرة ، من الحياة المفاضة على الطبيعة ، والأنس بهذه الحياة التى تتنفس فى كل حى : من الزهرة المتفتحة للندى ، إلى الطير المتيقظ من الـكرى ، إلى الإنسان المتطلع إلى الضياء ؟

وأين هو من الحركة الوئيدة المستشرفة للضوء والحياة ، تصورها لفظة « تنفس » بجرسها الخاص ، ويصورها إيقاع التعبير كله ، وكأن كل كائن فى هذا الوجود يفتح رئتيه لنسيم الصبح البليل ، وينفض الـكرى عن عينيه فى استبشار وديع ؟

إن الفرق بين النظرة الأولى والنظرة الثانية ، لهو الفرق بين اللفظ الجامد والمعنى الطليق . وهو الفرق بين الدمية الميتة والحورية الراقصة فى سبحات الخيال . . . وهو نفسه الفرق بين تصور « البلاغيين » للجمال الفنى وتصور الفنان !

ويقول توماس هاردى فى خسوف القمر (١) :

ظلك — أيتها الأرض — من القطب إلى المحيط — يدب الآن على شعاع القمر الضئيل فى سواد لاشية فيه ، وسكينة لا يخالجها اضطراب . وإنى لأنظر إليه فأعجب : كيف يستوى هذا الظل المنسوق ، وذلك الجرم الذى أعرفه لك مؤاراً بالقلق والحيرة ، وكيف تتفق هذه الصفحة الراضية كأنها الطلعة الإلهية ، وأقطارٌ عليك — أيتها الأرض — تموج الساعة بالأحزان والكروب ؟

« وأسأل : أهذا الشبح الصغير كل مايطرحه الفناء الزاخر من الظلال على ساحة الفضاء ؟ حكمة الله أراد بها عالم الإنسان ، متجمعة كلها فى حيز هذا القوس المرسوم . كذلك يكون مقياس الكواكب لما تبديه الأرض ، ويكشفه عليها الزمان : من أمة تنحر أمة ، ورءوس تغلى بالهواجس ، وأبطال غالبين ، ونساء أجمل من طلعة السماء . »

وليس فى هذا الكلام — فى نصه العربى هنا — صعوبة فى اللفظ ولا فى المعنى . ولكن الصعوبة الحقيقية فى إدراك صدق هذا الكلام وجماله ولمحة السخرية العميقة البادية عليه فى هدوء ورزانة . . . السخرية من ضجة الحياة والأحياء فى هذا الكوكب الأرضى ، حتى ليحسبون الكون كله مشغولا بهمومهم الكبيرة لديهم ، الهينة لديه إلى حد ألا يحس بها ولا بهم إلا بمقدار ما يرتسم هذا الظل الضئيل للأرض على وجه القمر ساعة الخسوف . . . السخرية ببعد مابين « هذا الظل المنسوق ، وذلك الجرم الذى أعرفه لك مؤاراً بالقلق والحيرة » كما يقول الشاعر الساخر العظيم .

إن الصعوبة الحقيقية هنا هى هذا التصور النادر لصغر الكوكب الأرضى وما فيه ومن فيه ، وتصويره على هذا النحو فى قالب فنى يلقى هذه الظلال النفسية : ظلال السخرية العميقة ، والابتسامة الباهتة على شفتى فنان !

---

(١) ترجمة الأستاذ العقاد .

ويقول تاجور شاعر الهند العظيم :

« لقد أمسكت بيديها ووضعتهما على صدرى .
وحاولت أن أملأ ذراعىّ من وداعتها ، وأن أسلبها بسمتها العذبة
بقبلاتى . آه ! وأن أشفى هيمان عينى من نظراتها العميقة .
آه ! ولكن أين هى ؟
من ذا الذى يستطيع أن ينزع زرقة السماء ؟
وحاولت أن أمسك بالجمال ، فأفلت منى ، ليترك بين يدىّ الجسم وحده ،
وأعود حيران متعبا .
كيف ينبغى للجسد أن يلمس الزهرة التى لا يقدر على لمسها غير
الروح ؟ » (١)

وليس فى الألفاظ ولا معانيها هنا صعوبة ؛ إنما الصعوبة فى إدراك هذه الصوفية العميقة السمحة الشفيفة ، صوفية الروح الوديعة التى تسخر فى رحمة حنون من محاولة الملك العنيف والاحتجاز الغليظ ، للجمال الوديع والروح المشاع . صوفية الفناء السمح فى الروح العام بلا احتجاز ولا تملك ولا امتياز !

ولا يفوتنى أن أنوه هنا بطريقة الأداء ، وجمال تصويرها لهذا الشعور الفريد . فتاجور قد اختار هنا أن يصف لنا « التجربة » التى قام بها ، وأن يطلعنا على نتائجها ، واحدة واحدة ، وأن يقف معنا هو وتجربته ونتائجها ؛ لنشاركه فى كل خطوة فيها ، ولتمتلىء مشاعرنا بالحقيقة الشعورية التى اهتدى إليها ؛ حتى إذا وصل إلى الغاية ، فقال :

« كيف ينبغى للجسد أن يلمس الزهرة التى لا يقدر على لمسها غير الروح ؟ » كنا قد وصلنا معه إلى هذه الشفافية الروحية الصوفية . ولو أنه ألقى بها إلينا معانى مجردة لحرمنا لذة مشاركته فى هذه التجربة الفريدة .

ولطريقة الأداء قيمتها إذن فى تصوير الأحاسيس الرفيعة ، وإشاعة الشعور بها فى نفوس الآخرين بمقدار ما تطيق هذه النفوس تصور تجارب الآخرين .

---

(١) ترجمة الأستاذ لطفى شلش .

ونتيجة ثالثة أحب أن أخرج بها من مقدمات هذا البحث : إن الطبائع الفنية الممتازة ، والنفوس الفنية الموفورة الرصيد ، أقل عدداً فى هذه الحياة من الطبائع الشائعة المكرورة والنفوس المحدودة التجاريب .

وينشأ من هذا أن الفن العادى المريح ، الذى لا يكلف النفوس عناء فى التصور ، ولا جهداً فى الإدراك ، أشد سيرورة من الفن الممتاز — ما لم تتدخل فى الأمر عوامل أخرى غير العوامل الفنية البحتة ، كالعوامل السياسية والاجتماعية الخاصة ؛ لأن كثرة القراء فى كل جيل يعجبها الفنان المريح الذى لا يعلو على طبائعها كثيراً ، بل يشايعها فى تصورها وإحساسها بالحوادث والأشياء ، وتجد فى فنه صدى تجاربها النفسية المحدودة ، وطبائعها الشعورية الشائعة .

ولكن الخلود لا يكتب إلا لذوى الطبائع الضخمة الذين قد يلمون فى الطريق بما هو شائع مشترك فى النفس الإنسانية ، ثم يحلقون فى آفاقهم الخاصة ، حيث يرقبهم الناس ، كما يرقبون الأفلاك البعيدة ، يتلقون منها الحرارة والضياء ، وهى بعيدة عنهم فى أجواز الفضاء !

وحكم جيل واحد قد لا يكفى ؛ فلا بد من تتابع الأجيال فى كثير من الأحوال ، لتبين البهرج الزائف الرخيص ، من المعدن الأصيل الثمين .

وحين نستوفى الحديث عن أنماط النفوس ، ونماذج الأحاسيس نرتد إلى التعبير نفسه . ففى ميدانه كذلك تتفاضل المواهب ، ويكون للنقد مجال .

وقد أشرت فى تعليقى على مقطوعة تاجور إلى قيمة « طريقة الأداء » فى الفنون الأدبية التى قد تكون « الطريقة » فيها حاسمة فى تقدير قيمة العمل الفنى ومستواه .

ولكن هذا بحث آخر لا يتسع له هذا الفصل الآن .

سيد قطب

چيمس چويس

ولد چيمس أوجستين ألويسيوس چويس فى دبلين سنة ١٨٨٢ لأسرة إيرلندية كاثوليكية أصيلة ، وتلقى علومه الأولى بها فى كليتين من كليات الچزويت هما كلية كلونجوس وود ثم كلية بلڤدير ، وأتم علومه فى الجامعة الملكية القديمة. ومع أن أعوام الطلب الأولى عند الچزويت قد تركت فى نفسه وفى تفكيره آثاراً عميقة لازمته بقية حياته ، فإننا لا نعرف عنها ما يستحق السرد سوى أنه نشر وهو بعدُ فى التاسعة كتيباً عنوانه : « حتى أنت ياهيلى ! » دافع فيه عن الزعيم الإيرلندى الكبير پارنل ، واتهم فيه هيلى بالخيانة الوطنية والتآمر لإسقاط الزعيم . أما فى الجامعة فقد عرف چويس بسعة الاطلاع وشدة الصلف والتهتك الأخلاقى فى وقت واحد . والنوادر عن شدة صلفه لا تعد ، منها أنه التقى ذات مرة بالشاعر الإيرلندى العظيم و. ب. ييتس فاجترأ عليه قائلا : «لقد التقينا بعد أن فات الأوان ، فقد تقدمت بك السن ، ومحال أن تتأثر بأدبى». ومنها أن الكاتب آرثر سايمونز حدثه ذات مرة عن بلزاك فضحك چويس ضحكة الساخر وأجاب : « عجباً لكم ! ألا زلتم تتحدثون عن بلزاك ! » ومنها أنه أراد التردد على العلامة إدوارد داودن أستاذ الأدب المشهور ، فلما قال له قائل إن داودن قد لا يرتاح إلى صحبته أجاب هازئاً : « ومن يكون داودن هذا ! إنه مجرد أستاذ صغير ، أما أنا فشاعر ! لقد نظمت أحسن قصيدة غنائية منذ شكسپير. »

وبعد أن تخرج چويس فى كلية الآداب سنة ١٩٠٢ انتقل إلى باريس ليدرس الطب بها . ولا يعرف عن أيامه فى باريس إلا فقره المدقع . ثم جاءه أن أمه تحتضر فعاد إلى دبلين ليستأنف حياة الفقر والفجور ، واشتغل فيها بالتدريس قليلا ، ولكنه ما لبث أن نزح إلى القارة الأوربية عام ١٩٠٤ ومعه زوجة ، نزح إلى پولا ثم تريستا وفيهما اشتغل بتعليم اللغة الإنجليزية فى مدارس برليتز . وفى تريستا أقام نيفاً وعشر سنوات كتب فيها مجموعة من الأقاصيص هى « أبناء

دبلين» ، وقصة ترجم فيها لنفسه هى « صورة الفنان فى شبابه » ، ومسرحية هى « المنفيون » . وفى تريستا بدأ قصته الخالدة « يوليس » ، تلك القصة التى أتمها بين زيوريخ وباريس فى سنى الحرب العالمية الأولى وما بعدها . فلما أتمها ونشرها عام ١٩٢٢ هيجت عليه الخواطر وألّبت عليه السلطات . وأقام فى باريس فى عزلة عن الناس يقرأ ويكتب حتى حضرته الوفاة عام ١٩٤٤ .

وهكذا حكم چويس على نفسه بالنفى مختاراً طول حياته ، ولم يعد إلى دبلين ، مسقط رأسه ، إلا مرة واحدة عام ١٩١٢ لينشر مجموعة أقاصيصه « أبناء دبلين » فقد تحرّج الناشرون من نشرها ؛ لما بها من إشارات مسيئة إلى الملكة ڤكتوريا والملك إدوارد السابع ، ولما بها من وصف صريح لحوانيت دبلين وحاناتها ومطاعمها وذكر لها بأسمائها . ولقد طلبوا إليه أن يطهرها من كل ذلك فما رضى . فنشرها چويس أثناء زيارته تلك على نفقته الخاصة . ولكن الناشر الجبان أعدم النسخ الألف بعد طبعها ، ولم يبق إلا على نسخة واحدة أعطاها المؤلف ، فخرج چويس من إيرلندا بين الغضب والفرح لنجاته من « ضباب الحضارة الأنجلوسكسونية » معلناً فى أصدقائه أنه راجع إلى القارة الأوربية ، « راجع إلى المدنية » .

ولكن « أبناء دبلين » رأت النور عام ١٩١٤ حين توسط له الشاعر العظيم عزرا پاوند لدى الناشرين . وكذلك توسط له پاوند عند مجلة « الأيجويست » فنشرت له « صورة الفنان فى شبابه » تباعاً فى العام نفسه . أما « يوليس » فقد دخل چويس زيوريخ بجزء منها أثناء الحرب العالمية الأولى ، فحسبها الرقيب لغرابة أسلوبها نوعاً من الشفرة جديداً يحمل الرسائل الحربية ، وأوشك أن يصادرها ويستوقف صاحبها لولا أن توسط الوسطاء . وقد كان إتمامها بدء متاعب چويس الحقيقية ؛ فقد نشرتها له مجلة أمريكية تدعى « ليتل رڤيو » تباعاً ، ولكن مصلحة البريد فى الولايات المتحدة أمرت بإحراق جملة أعداد منها لما فيها من خروج على الآداب العامة . وقاضت المجلة « جماعة محاربة الرذيلة » فحكم على أصحاب المجلة بغرامة قدرها مائة دولار . وظهرت فى باريس الطبعة الأولى من «يوليس» عام ١٩٢٢ ، وتلتها طبعة فى لندن صودرت . وتولت جمارك ساوثهامپتون ونيويورك تفتيش المسافرين ، وجمع الداخل والخارج منها لإحراقها . أما الصحافة فلم تكن أقل نشاطاً من السلطات ؛ فكتبت عن « فضيحة يوليس » وحذرت

الناس من ذلك « الكتاب اللعين ». ولقد حسب الإنجليز فى مبدأ الأمر أن « يوليس » إن هى إلا كتاب جديد فى الأدب المكشوف لا وزن له ولا خطر حتى دلهم عليه ناقد فرنسى يدعى ڤاليرى لاربو فى مقال كتبه عام ١٩٢٢ .

هذا هو جيمس جويس الذى اختلفت فى وصفه الآراء : فمن قائل إنه إمام القصة فى القرن العشرين، ومجددها الذى استحدث قالباً ومادة وغاية للكاتبين، إلى قائل بأنه دعىٌّ متهوس، بل منحلٌّ متعفن، بل قرحة فى جسم المجتمع . هذا هو جيمس جويس الذى قال فيه ت. س. إليوت إنه أعظم من ملك ناصية اللغة الإنجليزية منذ ملتون . وقال فيه برنارد شو: « أنا لا أستطيع أن أسطر الكلمات التى استخدمها مستر جويس ، فقلمى المتزمت يمتنع عن رسم الحروف ، ثم إنى لا أجد فى وقاحاته الطبية الصبيانية أو فى تفاهاته التى يعتز بها ما يستحق الاهتمام». وقد ألقى شو بنسخته من « يوليس » فى نار المدفأة قائلا : « إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلين وغلمانها لا يزالون على ما كانوا عليه فى أيامى من قذارة فى التفكير لا سبيل إلى إزالتها ، هذا كل ما هنالك» . هذا هو جيمس جويس الذى أفسح له أرنولد بنيت مكاناً بين الخالدين ، واستجار منه د . ه . لورانس قائلا : « يا إلهى ! إن جيمس جويس لخليط متعفن لا انسجام فيه ، فما به إلا مقتطفات من الكتاب المقدس وغيره من الكتب طبخت معاً كما تطبخ بقايا الكرنب وحثالة المأكولات فى حساء قوامه العهارة المقصودة التى لا فن فيها ، فيا لأدبه من أدب غث مألوف قد أضنى تأليفه صاحبه فاستخفى فى زى أدب جديد ، بل استخفى فى زى الأدب الجديد . إن الملل يقتلنى حين أقرأ جيمس جويس ؛ فهو ملىء بالادعاء ، وهو ملىء بالافتعال والتبييت ، وهو خال تماماً من كل تلقائية أو حيوية حقيقية » . ولكن الجدل فى حقيقة جويس ومكانته رغم ذلك كله قد انتهى الآن إلى ما يشبه الإجماع على أنه صاحب منهج فى القصص جديد ، وصاحب أسلوب فى الإنشاء جديد . ولقد يكون منهجه فاسداً ، ولقد يكون أسلوبه أضعف من أن يثبت أمام عصف الزمان ، ولكن ما من شك فى أن منهجه وأسلوبه قد تركا أثراً ملموساً فى بعض من كتبوا بعده ، الشعراء منهم والناثرين . وما من شك فى أن أدبه ظاهرة من ظواهر النصف الأول من القرن العشرين . وقد يكون جويس نقطة تحول فى فن الكتابة كما يصفه ممجدوه ، وقد لا يكون، ولكنه مرحلة فى تطور الأدب على أقل تقدير .

ولقد تطور جويس ذاته كما يتطور كل فنان ؛ فهو من ناحيـة لم يهتد فجأة إلى منهجه وأسلوبه اللذين اشتهر بهما فى « يوليس » ، بل تعهدهما منــذ شبابه الأول حتى أينعا وأثمرا . وهو من ناحية أخرى لم يبدأ حياته الأدبيـة بذلك المنهج وذلك الأسـلوب بل بدأ كما يبدأ غيره من أصحاب المدارس بين القديم والجديد . فقد بدأ بمجموعته « أبنـاء دبلين » وهى مجموعة توشك أن تكون أقاصيص ، وتوشك أن تكون لوحات قلمية وصف فيها مسقط رأسه وصفاً مفصلا لايؤتاه إلا أصحاب المذهب الطبيعى فى القصة . ومنها يتبين أن جويس كان يعيش فى دبلين بروحه مع أنه قضى كل حياته فى الخارج ، فشارع من شوارعها الخلفية المهملة أقرب إلى فؤاده من الشـانزليزيه العظيم . أما قصته « صورة الفنان فى شـبابه » فهى قصة كتبها فى عشر سنوات ما بين ١٩٠٤ و١٩١٤ وترجم فيها لنفسه أيام كان حدثاً يتلقى العلم منتحلا لنفسه شخصية وهمية هى شخصية ستيڤن ديدالوس .

ولقد اختار جويس المتغطرس لنفســه اسم ديدالوس لأن ديدالوس كان فى أسـاطير اليونان أقدم الفنانين ومعلمهم جميعاً ، وهو الذى بنى اللبرنت ، قصر التيه . وجويس يناديه فى ختام « صورة الفنان » قائلا : « هأنذا أخرج للمرة الأولى بعـد المليون لأواجه حقائق الحياة ، ولأصوغ لقومى فى مصهر روحى ضميراً لا زال خاماً . فيا أبت القديم ، ويا سـيد الصانعين ، ألهمنى الآن وسدد خطاى إلى أبد الآبدين » .

فالقصة إذاً سجل لجميع الأطوار الأولى فى نموه النفسى والعقلى ، وهى وصف مجيد للصراع الذى نشب فى كينونته بين الشخصية الفنية والشخصية الدينية ، وهى رسم لبيئته الأولى أيام كان يعيش بين أبيه الغليظ الطبع الذى لا يحذق أمراً ما وأمه الوديعة الرقيقة الفؤاد التى عوضته عن جفوة أبيه شيئاً كثيراً ، وهى عرض للمؤامرة الكبرى التى كان يدبرها عميد كلية بلڤدير لاختطاف روحه وضمه إلى خدمة الـكهنوت ، وهى تحليل لنضوجه الداخلى فى طريق الدين من ناحية ، وفى طريق الفن من ناحية أخرى . ولقد كان جائزاً أن يقتل الدين الفن فى نفس جويس لولا أن عميد كلية بلڤدير كان مسيحيًّا أكثر من المسيح وكاثوليكيًّا أكثر من البابا . فجويس الصغير يكتب موضوعاً من مواضيع الإنشاء فيه تحرر وانطلاق ، فيتهمه عميد كلية بلڤدير بالـكفر ويلزمه بأن

« يعترف » بكفره . وچويس الصغير يخطئ خطيئة الجسد ، فيهدده عميد كلية بلقدير بالويل والثبور وعظائم الأمور ويلزمه بأن «يعترف» بخطيئته ، ويصف له فى خطبة جميلة رنانة أهوال الجحيم الذى ينتظره وصفاً تقشعر له الأبدان ، فتقضى هذه الخطبة على ما بقى فى نفس الفنان من حب للدين ويعصى ويستكبر كما عصى إبليس واستكبر ، ويصيح صيحته حين أبى أن يخدم عرش الله : «نون سر قيام ! نون سر قيام ! » « لن أخدم ! لن أخدم ! » . وهكذا قتل الفن الدين فى نفس چويس ، وهكذا تنطلق نفسه ويتحرر عقله فى الجامعة ، وهكذا يتمرد على ديانة أمته وثقافة أمته ، ويسعى إلى الفرار منهما بعد الجامعة ما استطاع إلى إلى ذلك سبيلا ، ويلتمس النجاة فى آفاق أرحب وثقافة لا تحد بلغة أو وطن أو جيل ، فيتعلم ثمانى عشرة لغة ، ويتمثل ثقافات وحضارات بائدة وحية . فخير ما يقال فى وصف « صورة الفنان فى شبابه » أنها مفتاح شخصية چويس ، كما أن « السونيتات » المشهورة مفتاح شخصية شكسپير .

ولكن هذه الثورة على الدين قد تركت فى نفس چويس آثاراً لازمته بقية عمره ؛ فهو رغم هذه الثورة كان يغضب أحياناً إذا امتهن الدين فى حضرته ، وكان يبالغ هو نفسه فى امتهان الدين أحياناً أخرى . فنفسه بعد هذا الصراع المشهود لم تخرج صافية كلها دين وقيود أو كلها فن وانطلاق ، بل خرجت مثلا فى الفوضى وتجلت فيها آثار المعركة من خرائب وأشلاء ودخان وعتاد مهشم وعتاد متروك . فحين زار ستيفن ديدالوس دبلن أول مرة بعد هجرته ، طلبت إليه أمه المحتضرة أن يجثو بجوارها ويصلى إلى الله من أجلها فأبى ، ولكنه أحس بعدئذ بأنه قد أخطأ ، وظل شبح أمه يطارده إلى يوم مماته . والعُقَد في نفس چويس كثيرة تنتظر من يحللها ويردها إلى ما عصف بطفولته ويفاعته وشبابه الأول من نقائض لم تتم تصفيتها ، وصراعات لم تنجل نهائيًّا .

ومن النقاد من يعدُّ « صورة الفنان فى شبابه » مقدمة لقصة « يوليس » ، ومنهم من يرى أنها عمل ذو شخصية مستقلة . وكيفما كان الأمر ، فإن ستيفن ديدالوس بطل « صورة الفنان » لا ينتهى بانتهاء سيرته بل يظهر مرة أخرى فى « يوليس » ، وهو فى « يوليس » ليس محور القصة بل أحد أشخاصها البارزين .

وقصة «يوليس» ليست قصة بالمعنى المألوف الذى تعوده الناس ، روعى فيها

التسلسل الزمنى والتتابع المنطقى ، بل قصة لم يراع فيها شئ من ذلك كله ، قصة اختفى فيها كل تقدير معروف للزمن ، واختلطت فيها حوادث الحاضر بحوادث الماضى اختلاطاً تاماً ؛ لأن كاتبها لم يفهم الزمن فَهْمَنا له بأنه ينقسم إلى أيام تنقسم إلى ساعات تنقسم إلى دقائق تنقسم إلى ثوان ، بل رفع كل هذه الحدود وجعل الوعى بالزمن مقياس الزمن ؛ وقدَّر الوقت بما يحدث فيه من حوادث وما يجرى فيه من أفكار ؛ فرب دقيقة لها مقام ساعة ، ورب ساعة لها مقام دقيقة . وهو لم يجد أن أحداث الحياة وخواطر الإنسان تتبع دائماً فى تعاقبها أو فى تولدها نهجاً منطقيا تخرج به النتائج من العلل خروجاً حتميًّا ، بل وجد أنها كثيراً ما تتبع نهجاً غير منطقى قد لا تتصل فيه النتائج بالعلل .

« يوليس » القصة الضخمة التى تربى كلماتها على ربع مليون كلمة (٤٣٠ و ٢٦٠ كلمة) ، « يوليس » التى كتبت فى سبع سنوات (١٩١٤ — ١٩٢١) تصف حياة ثلاثة أشخاص من أبناء دبلين فى يوم واحد بين يقظتهم فى الصباح ونومهم فى أعجاز الليل ، أو على التحديد فى ثمان عشرة ساعة وخمس وأربعين دقيقة . وهؤلاء الأشخاص هم يهودى مكتهل يشتغل بعمل الإعلانات يدعى ليوپولد بلوم وهو يوليس بطل القصة . ثم زوجته ماريون بلوم وهى مغنية محترفة شهوانية امتزج فيها دم اليهود الأسبان ودم الإيرلنديين . ثم مدرس إيرلندى شاب يدعى ستيڤن ديدالوس واسع العلم دائم التفكير . وذلك اليوم الذى تصفه قصة « يوليس » (١٦ يونيو ١٩٠٤) لم يكن يوماً حافلا فى تاريخ أحدهم أو فى تاريخ دبلين أو فى تاريخ إيرلندا ، بل كان يوماً عاديًّا كسائر الأيام لا يختلف عن سابقه أو لاحقه فى شئ مذكور . فهو يبدأ فى الساعة الثامنة صباحاً ، ونحو الضحى يدفن رجل من أهالى دبلين ، وفى الساعة الرابعة تحدث خيانة زوجية فى بيت مستر بلوم ، وقبل انتصاف الليل يولد طفل وتمطر السماء ويقعقع الرعد فيها . وفيما عدا ذلك يطعم أشخاص القصة ويشربون البيرة ويفكرون ويتأملون ويتذاكرون ويغنون ويتجادلون فى السياسة الإيرلندية وسواها من الموضوعات المألوفة ، ويراهنون على جواد خاسر . فهو يوم عادى كسائر الأيام لا يختلف عن سابقه أو لاحقه فى شئ مذكور .

ولكن يوليس هو أوديسيوس بطل ملحمة « الأوديسا » التى تركها لنا الشاعر اليونانى هوميروس . فما صلة هذه القصة التافهة بملحمة « الأوديسا » ؟ وما وجه الشبه بين مستر بلوم والبطل يوليس ؟

إن « الأوديسا » تبدأ بمغامرات تلماك فى بحثه عن أبيه يوليس . وهكذا تبدأ قصة « يوليس » ؛ فستيفن ديدالوس حين يعود من پاريس ليودع أمه المحتضرة فى دبلين يجد أن أباه الغليظ الفؤاد قد آلت حاله إلى ما هو أسوأ من غلظة الفؤاد ، فقد صار إلى رجل سكير لا نفع فيه ، فيتأكد فى نفس ستيفن ديدالوس إحساسه القديم بأن أباه هذا لا يصلح أن يكون أباً . وما إن يمضى على موت الأم عام واحد حتى تتفكك أسرة ديدالوس، فالأب يغشى حانات المدينة فى وقت لايجد أبناؤه وبناته فيه مايقتاتون به . وتشتد الجفوة وتكون القطيعة ، ويبدأ بحث استيفن ديدالوس عن أب له جديد . وهو فى كل ذلك يحس بأنه غريب بين قومه ، فهو تلماك الباحث عن يوليس . ولكن «الأوديسا» لاتحدثنا عن الولد الذى يبحث عن أبيه فحسب ، بل تحدثنا كذلك عن الوالد الذى يبحث عن ولده ، تحدثنا عن يوليس الباحث عن تلماك . كذلك نجد فى قصة چويس أن يهوديًّا مجرىّ الأصل بدبلين يدعى بلوم له زوجة تخونه بلا انقطاع ، تخونه بمناسبة وبغير مناسبة ، وهو يعلم بذلك حقا ولا يتدخل فى شؤونها ؛ لأنه لا يعاشرها معاشرة الأزواج . وهو لا يعاشرها معاشرة الأزواج، لأنها انجبت منه طفلا هزيلا مالبث أن مات بعد ولادته ، فثبت فى رُوع بلوم أنه ناقص الرجولة عاجز عن إنجاب الأبناء الأصحاء . فبلوم لا يحس بالغربة بين أبناء دبلين فحسب بل يحس بالغربة فى داره كذلك ، وهو يوليس الذى يبحث عن تلماك .

فكلاهما إذاً تعذبه مشاكل أسرته . ويبدأ يوم ستيفن ديدالوس فى الساعة الثامنة صباحا ويمتلئ خاطره بصورة أمه ؛ لأن الذكرى السنوية لوفاتها قد دنت ، ويعضه الندم حين يذكر ماكان من إبائه الصلاة من أجلها . ثم ينصرف إلى المدرسة حيث يلقى درساً فى التاريخ الرومانى ، وفى المدرسة يرى تلميذا غبيًّا يعجز عن حل مسائل الحساب، فيتذكر أيام صباه وماكان من حماية أمه له . وبعد المدرسة يبدو له أن يكفّر عن جريمته الماثلة أبداً فى خاطره فيعتزم زيارة خال له هو يزدريه ، لعل تلطفه مع خاله يمسح خشونته نحو أمه ويخفف عنه وزره . ولكنه يعدل عن تلك الزيارة الثقيلة بعد صراع نفسى شديد . ثم يحاول أن ينظم قصيدة ، ولكن الوحى لا يسعفه فينصرف إلى المكتبة . وفى المكتبة يتحدث طويلا عن الصلة بين شكسپير وأبيه ، وما هذا الحديث إلا إسقاط لشعوره النفسى .

كذلك يبدأ يوم بلوم فى الساعة الثامنة صباحا . فهو يخرج ليشترى كلية ليطهيها ويحملها إلى مسز بلوم لتفطر بها وهى فى فراشها . ثم يعثر على خطاب موجه إلى زوجته من رجل يدعى بويلان يحدد فيه موعداً لزيارتها فى الساعة الرابعة . وبلوم يعلم أن بويلان هذا عشيق من عشاق زوجته ، فتتبلبل لذلك خواطره طول اليوم . ويخرج ليدفن صديقاً ، وفى الشارع وفى المطعم وفى الفندق يسعى جهده أن يتجنب بويلان كلما لقيه ، وأن يصرف المتحدثين عن الكلام عنه . وفى بار الفندق يدخل عليه بويلان ويشرب كأساً من الخمر وينصرف ليفى بموعد الساعة الرابعة مع مسز بلوم ، وفى البار يسمع بلوم الناس يَلغُون فى عرضه ، وفى الحانة يدور حديث الشاربين حول بويلان مرة أخرى ، فيسعى بلوم إلى صرفهم عنه فلا يوفق ، فينشب بينه وبينهم شجار يفضى آخر الأمر إلى عراك . وفى المساء يقصد بلوم إلى مستشفى من مستشفيات الولادة ليعود زوجة صديق له ، وفى المستشفى يلتقى بستيفن ديدالوس بين جماعة من الأطباء يشربون ويتفكهون بالوضع وبالأمومة . ولقد كان ستيفن ديدالوس يجد فى سمرهم ذلك ما يؤذى نفسه ويذكره بخطيئته نحو أمه ، ولكن المكابرة تغلبه كالعادة فيمعن بالهزء من الولادة وتجريح الأمومة أكثر مما يفعلون . ثم يخرج الجمع إلى حانة ، ولكن ستيفن ديدالوس وصديقه بك موليجان يختلفان فى أمر مفتاح البرج الذى يسكنان . وينتهى الأمر بستيفن ديدالوس أن يجد نفسه بلا مأوى ، فيمضى مع صديق له إلى بيت من بيوت الدعارة ويتبعهما إلى الماخور بلوم . ويستبد السكر بيوليس وتليماك فيتمثل الأول صورة زوجته وعشيقها ، ويتمثل الثانى صورة أمه الميتة وقد عادت إليه فى أكفانها تستعطفه أن يصلى من أجل روحها ، ولكنه يأبى من جديد ، وتتملكه عاصفة هوجاء من العواطف المتضاربة ، فيهوى بعصاه على النجفة ويهشمها ثم يندفع إلى الخارج . وفى الطريق يتشاجر مع اثنين من جنود الاحتلال الإنجليز ، ويكون من ذلك أن يهوى على الأرض مغلوباً على أمره . ويلحق بلوم بستيفن ديدالوس ، وفيما هو منكب عليه يعينه على النهوض يرى فى صفحة وجهه صورة ولده المتوفى كما كان يرجو له أن يكون ، فتيًّا ، واسع الثقافة ، مصقول النفس ، مرهف الإحساس . وهكذا يتعرف الوالد على ولده ، وهكذا يلتقى يوليس وتليماك . ويستصحب بلوم ستيفن ديدالوس إلى داره ويلح عليه أن يقضى ليلته فى ضيافته ، بل أن يقيم معه نهائيا ، ولكنه يرفض . ويسترد

بلوم ثقته بنفسه وإحساسه برجولته بفضل لقائه مع ستيفن ديدالوس ، وبفضل ما كان من إنقاذه إياه ، فإذا هو يتبدل من حال إلى حال ، وإذا هو يأمر زوجته بأن تعد له طعام الإفطار فى الصباح بعد أن كان يعده هو لها ، وإذا هو يقبِّلها قبلة الزوج بعد نفرة دامت أعواماً وأعواماً . وهكذا يعود ليوپولد بلوم إلى ماريون بلوم بعد مغامرات مشهودة فى شوارع دبلين وأزقتها ، كما عاد يوليس إلى زوجته پنلوپ بعد غيبة طويلة جاب فيها الأقطار وذرع البحار .

ولقد استطاع بعض النقاد من أمثال ستيوارت جلبرت ولڤين ، وإدموند ولسون ، ولويس جولدنج ، بدرجات متفاوتة ، أن يجدوا لكل حلقة فى قصة « يوليس » نظيراً يقابلها فى « أوديسّا » هوميروس . فاشتراك بلوم فى دفن صاحبه يقابل نزول يوليس إلى حاديس ، مملكة الموت ، وشجار بلوم مع شانئيه يقابل صراع يوليس مع العمالقة ، وذهاب بلوم إلى البغيّ بيلا كوهين ونجاته منها يقابل مغامرة يوليس مع الساحرة سيرسيه التى تحول البشر إلى عجماوات وإفلاته من قبضتها ، وهكذا وهكذا . ولقد كان بعض النقاد يرون أن قصة « يوليس » مجرد قطاع من الحياة الواقعة ، ولكن هؤلاء لم يتنبهوا إلى ما فيها من تصميم محكم ترسّم فيه جويس خطى هوميروس مستخدماً الرمز فى تصويره لكل حلقة من حلقات «الأوديسّا» ، وحاول أن يبنى الحاضر على أساس الماضى ، وأن يوازن بين طبيعة الحياة وأبطالها فى واقع اليوم ، وطبيعة الحياة وأبطالها فى خيال الماضى .

ولقد احتار النقاد فى علة اختيار جويس لشخصية البطل الجوّال يوليس محورا لملحمته النثرية إن صح هذا التعبير ، فالملاحم لا تكتب نثراً ، ومنهم من ذهب إلى أن هناك شبهاً بين شخصية جويس وظروفه ، وشخصية يوليس وظروفه . فجويس فى غربة متصلة روحية وجسمية معاً ، وكذلك كان يوليس الهومرى ، والتجوال قوام الحياة عندهما جميعاً . كذلك احتار النقاد فى علة اختيار جويس لشخصية رجل يهودى ليقوم بدور يوليس فى هذه « الأوديسا » الجديدة ، فمنهم من وجد شبها بين هذا اليهودى التائه ، وبين ذلك اليونانى التائه . ومنهم من وجد شبها بين الغربة الروحية التى يعيش فيها جويس بين الإيرلنديين ، والغربة الروحية التى يعيش بلوم فيها بينهم . ومنهم من يشير إلى اهتمام كتاب القصة المعاصرين بشخصيات اليهود ، فمارسيل پروست الذى تعلم جويس منه شيئاً كثيراً كتب عن شخصية سوان ، وتوماس مان كتب عن شخصية جوزيف ، فلعل اختيار جويس

ليهودى ضدى لتفاقم المشكلة اليهودية فى أوربا . ومهما يكن من شئ ، فلاشك فى أن يوليس الهومرى هو أقرب أبطال الخيال إلى شخصية مستر بلوم ؛ فهو ليس كأخيل أو هكتور أو أنياس بطلا بالمعنى المألوف فى الأساطير ضارباً بالسيف فاتكا بالأعداء غازيا لقلوب العذارى ، بل هو بطل من طراز حديث ، بطل بطولته فى أصالة رأيه وفى مكره ؛ فكره وأصالة رأيه ينقذانه من كل الأخطار التى يستهدف لها . وهكذا الشأن مع بلوم فهو ماكر وأصيل الرأى . وما من شك فى أن قصة چويس التى نسج فيها الواقع على نول الخيال تفجعنا فى الواقع كما تفجعنا فى الخيال ؛ فهى تجرد الحياة من سحرها الذى أسبغه عليها الشعراء ، وهى تشككنا فى الخيال ومنطقه . هى تترجم تجوال البطل فى بلاد واق الواق وفى بلاد تركب الأفيال إلى تجوال اليهودى المشتغل بعمل الإعلانات فى شوارع دبلين . فما أبعد الواقع عن الخيال ! وپنلوپ امرأة صبور تطول غيبة زوجها يوليس أعواما طوالا ولكنها تثبت على وفائها له ، وينتهى إليها أنه قد مات فى بلاد الغربة فلا تصدِّق ما يقال ، ويأتيها الخُطَّاب عداداً فتصرفهم إن بالحسنى وإن بالمكروه ، وتتخذ من مغزلها تعلة لاستمهالهم ، فتغزل المطارف ثم تنقض خيوطها من جديد زاعمة أنها سوف تبت فى الأمر حين تفرغ من غزلها ولكنها لا تفرغ من غزلها أبداً . هذا فى خيال الشعراء . أما فى واقع القصصيين فمسز بلوم تخون زوجها خيانة متصلة ، وتصطفى العشاق فى إسراف يدهش أهل المدينة . ولقد نجد لماريون بلوم فى هجران زوجها إياها بعض العذر كما كان اليهودى نفسه يفعل ؛ ولكنها تعود إلى التفكير فى خيانته من جديد بعد أن رجع إليها وانتهت غيبته ، فما أبعد الواقع عن الخيال !

لكن كل ما تقدم لا يقربنا من فهم چويس الحقيقى ، چويس ذى المنهج الجديد والأسلوب الجديد . فلابد لفهم چويس من الكلام عن المنهج وعن الأسلوب اللذين استحدثهما فى الأدب الانجليزى ، فكيف أمكن لچويس أن ينفق ربع مليون كلمة فى سرد هذه القصة البسيطة المثلثة الأطراف ، قصة ليوپولد بلوم وماريون بلوم وستيڤن ديدالوس ؟ ومن أين له بكل هذه المادة إذا كان قد حدد لنفسه أربعاً وعشرين ساعة عادية فى حياة هؤلاء الأفراد العاديين ؟

الواقع أن الإجابة على هذا السؤال تلتمس فى منهج چويس وفى أسلوبه . أما المنهج الذى اتبعه فهو منهج « المنولوج الداخلى » كما يسميه النقاد ، أو منهج

« تيـار الوعى » كما يسميه علماء السيكولوچيا المشتغلون بالتحليل النفسى . وأما الأسلوب فيقوم على ما يسمونه « تحرير الألفاظ » .

وچويس ليس مبتكر منهج المنولوج الداخلى أو تيار الوعى بل مكمله . ومبتكره الأول كاتب فرنسى مغمور يدعى إدوار ديچاردان ، وهو أحد صغار الرمزيين ، وصاحب قصة « لقد قطعت أشجار الغار » التى ظهرت سنة ١٨٨٧ ، وهى قصة شاب پاريسى دعا إحـدى الممثلات إلى العشاء لا أكثر من ذلك ، وهى تسجل الخواطر التى جالت بذهن ذلك الشاب وبذهن تلك الممثـلة فى ذلك اللقاء. فهى إذاً قصة خالية من الحوادث كل الخلو ، قوامها الأفكار والذكريات ليس غير . وفى شرح منهجه كتب ديچاردان يقول : «المنولوج الداخلى يتصل بالشعر من حيث إنه ذلك الكلام الذى لا يسمع ولا يقال ، وبه تعبر الشخصية عن أفكارها المكنونة (أى ما كان منها أقرب إلى اللاوعى) دون تقيد بالتنظيم المنطقى ، أو بعبارة أخرى فى حالتها الأولى . وسبيل الشخصية إلى هذا التعبير هو الكلام المباشر الذى يكتفى فيه بالحد الأدنى من قواعد اللغة على نحو يدل على أن الخواطر قد سُجّلت كما ترد إلى الذهن تماماً .» فالإنسان حين يتكلم مع غيره من الناس يلتزم أصول اللغة حتى يفهم الناس ما يقول . ولكن الإنسان لا يتكلم مع الناس طول الوقت ، بل إن الكلام لا يشغل من حياتنا اليومية إلا جانباً يسيراً ، وما بقى لنا من الوقت نقضيه فى التفكير بجميع درجاته وألوانه ، من التأمل إلى الملاحظة العابرة ، ومن استحضار ذكريات الماضى إلى بناء صور المستقبل . فخواطر الإنسان لا تقل أهمية أو دلالة عن كلامه أو أعماله ، وتسجيلها واجب على الفنان محتم . والفنان الذى يتوخى الأمانة فى نقل الواقع يحتفظ لكل شىء بنسبته فى الحياة ، ولو قد فعل ذلك لوجد أن الخواطر وحدها تشغل تسعة أعشار قصته . أما الكلام والأفعال والحوادث فلا تستهلك إلا العشر الباقى . وهذه طبيعة الحياة ، فكل من يتصدى لوصف الحياة كما هى ينبغى أن يلتزم هذه القاعدة . وهذه الخواطر التى يحدث بها الإنسان نفسه ، هذا المنولوج الداخلى الصامت ، لا يَرِدُ إلى الذهن فى صورة مرتبة مبوبة تتبع فيها العلة النتيجة ، ويجرى فيها الكلام طبقاً لأصول الكلام ، ويسبق فيها الماضى البعيد الماضى القريب ، بل يرد متقطعاً مضطرباً أشبه شىء بشريط السينما إذا امتحن على مهل ، فهو خال من التتابع المنطقى ، متوقف على التتابع العاطفى أو الضرورات الآلية كالتداعى

اللفظى مثلا . وفى عالم الذكريات يتداخل الماضى والحاضر والمستقبل ، ويفقد الزمن معناه كذلك . وما يقال فى الكلام يقال كذلك فى الانفعالات والإحساسات والصور الذهنية ؛ فمن الأمانة أن تسجل كل هذه الأشياء على وضعها الأصلى فتعفى من الصياغة النحوية والصياغة المنطقية معاً . ولقد وصف الناقد الفرنسى الكبير ريمى دى جورمون قصة ديجاردان هذه بأنها « قصة نقلت إلى الأدب منهج السينما قبل أن تظهر السينما » . وهذا المنهج الذى اهتدى إليه ديجاردان سار عليه مارسيل پروست فى قصته « البحث عن الماضى » وأتقنه ، ولكن جويس هو الذى وصل به إلى حد الكمال . وأوضح مثل على هذا هو نهاية « يوليس » بعد عودة بلوم إلى زوجته روحيا وجسميا . فبعد هذه العودة نرى مسز بلوم مستلقية فى فراشها وقد زال عنها النوم ، نراها تسترجع حوادث الماضى وتستحضر ذكرياتها الداعرة ، وهى تفعل كل ذلك فى منولوج صامت واحد تتداعى فيه الأفكار بلا ترابط ولا نحو ولا منطق ولا تقيد بالترتيب الزمنى ، ويسجلها جويس فى اثنين وأربعين صفحة لا يستخدم فيها علامة واحدة من علامات الترقيم ، فهى نموذج من تداعى المعانى اللامترابط الذى كان الشغل الشاغل لعلماء السيكولوجيا من أتباع مدرسة فرويد فى التحليل النفسى . ولقد أخذ جويس عنهم شيئاً كثيراً أيام انتقل إلى زيوريخ مركز تلك المدرسة إبان الحرب العالمية الأولى . وماريون بلوم تستعرض الآن أيامها فى جبل طارق :

«وأنا أحب الأزهار وأتمنى أن يضيق البيت بالورود. يا إله السموات ما رايت كالطبيعة شيئاً : الجبال الوحشية ثم البحر وأمواجه المتدافعة ثم الريف الجميل بحقوله ذات القمح والشعير وسائر ضروب النبت والقطعان الكبيرة ، ينعش الفؤاد مرأى الأنهار والغدران والأزهار من كل شكل ولون ورائحة ، تتفتح فى كل مكان حتى فى شقوق الأرض البنفسج والأزهار الصفراء الباهتة . وهذه هى الطبيعة ، فمن ينكرون وجود الله فعلمهم الغزير لا يساوى خردلة. وكثيراً ما سألت الملحدين إن كان هذا اسمهم أن يخلقوا شيئاً إذا استطاعوا ، فاذا دنت وفاتهم يطلبون القسيس بإلحاح. ولم يفعلون ذلك؟ لأنهم يخافون نار الجحيم لفساد ضمائرهم. نعم أعرفه حق المعرفة أعرف الشخص الذى كان فى الكون قبل الخليقة.الشخص الذى خلق كل ذلك الشخص الذى هذا لا يعلمونه وما لا أعلمه أنا فالأمر هين

فليحولوا غداً دون إشراق الشمس إذا استطاعوا . إن الشمس تشرق من أجلك يا فاتنتى ، هذا ما قاله لى يوم كنا نرقد بين الأزهار فى هاوث ، وكان فى رأسه فى سترته الرمادية المصنوعة من الخيش وقبعته المصنوعة من القش ، فى ذلك اليوم أوحيت إليه أن يعرض علىّ الزواج ، نعم أعطيته أولا قطعة من الكعك كانت فى فمى وكانت السنة سنة كبيسة كهذه السنة ، منذ ستة عشر سنة يا إلهى ! بعد تلك القبلة الطويلة كدت أفقد وعيى ، نعم قال إنى زهرة الجبل ، نعم نحن كلنا أزهار الجبل نحن النساء ، فجسم المرأة زهرة ، وهذه هى المرة الوحيدة التى صدق فيها طول حياته ، والشمس تشرق من أجلك اليوم يا فاتنتى ، نعم هذا سر ميلى إليه ، فقد أدركت أنه يفهم قدر النساء أو يحس بحقيقتهم ، وأدركت أنى سأستطيع أن أنفذ مشيئتى فيه دائماً ، أعطيته كل ما أراد من متعة ، واستدرجته حتى سألنى أن أقول نعم، ولم أجب أول الأمر بل تطلعت إلى البحر والسماء أفكر فى شتى الأشياء ، لم يكن يدرى بملفى ولا بمستر ستانهوب ولا بهستر ولا بأبى وكابتن جروفز العجوز والبحارة الذين كانوا يلعبون القفزة وأنا أقول طأطئوا ويسمونها غسل الأطباق ، والديدبان الواقف أمام دار الحاكم وحول خوذته البيضاء ، مسكين شوته الشمس أو كادت ، والبنات الاسبانيات يضحكن لابسات الشيلان والذوائب الطويلة ، والمزاد فى الصباح يشهده اليونانيون واليهود والعرب وكل جنس وملة من أقصى أوربا إلى أقصاها ، وشارع الدوق وسوق الدجاج ولغط الدجاج أمام حانوت لاربى شارون ، والحمير المسكينة يكاد يغلبها النعاس والفتيان الذين لا تعرف لهم صناعة نائمين فى الظل على درج السلم ، والعجلات الكبيرة فى عربات الثيران والقلعة القديمة التى بلغ عمرها آلاف السنين ، نعم وأولئك المغاربة ذوو الوجوه الوسيمة كلهم معممون كأنهم الملوك يسألونك أن تشرفهم بالدخول فى حوانيتهم الصغيرة ، وروندا والنوافذ القديمة تطل خلسة وأخفت خشب النافذة حتى يقبل عاشقها الأسياخ الحديدية ، والحانات التى لا تفتح تماماً ولا تقفل تماماً أثناء الليل ، وصاجات الراقصات وليلة أن فاتتنا الباخرة فى الجسيراس والحارس يتجول بمصباحه منشرحاً ، والسيل المدرار . . . يا لى ويا لى البحر البحر آناً قرمزى كأنه النيران والشفق العظيم ، وأشجار التين فى حدائق ألاميدا ، نعم والشوارع الضيقة الغريبة كلها والبيوت الوردية والزرقاء والصفراء وحدائق الورد والياسمين والجيرانيوم والصبار وجبل طارق واقفاً

كالبنت هناك ، كنت زهرة الجبل ، نعم هناك كنت أضع فى شعرى وردة كما تفعل بنات الأندلس ، وهل ألبس ثوباً آخر ؟ نعم كم قبلنى تحت الحائط المغربى قلت لا فرق بينه وبين سواه فلأتزوجه ، ثم سألته بعينى أن يسألنى مرة أخرى نعم ثم سألنى مرة أخرى نعم سألنى أن أقول نعم يا زهرة الجبل وعانقته أول مرة وجذبته نحوى ليحس ثديىَّ وينشق عبيرهما وكان قلبه يركض ركض مجنون وقلت نعم قلت نعم سأتزوجك نعم . »

وكما حرر جويس المعانى من قيد النحو والمنطق والتماسك الزمنى كذلك حرر الألفاظ من قيد المعانى ومن قيد العرف ومن كل قيد معروف . فهو يبيح لنفسه أن يدغم كلمة فى أخرى وأن ينقل حروف كلمة إلى كلمة أخرى ، وأن يشتق ما شاء من الألفاظ التى يروقه جرسها سواء أكانت ذات معنى أم كانت ليست بذات معنى ، فالجرس عنده المقام الأول ، والمعنى عنده ليس ذهنيًّا فقط بل هو لفظى كذلك ، والبلاغة الموسيقية التى يتصف اللفظ بها تغنى عن كل بلاغة فى المعنى . وعلى الجملة فهو يجعل الألفاظ تقف على رؤوسها كما يقولون . ومن هنا كثرت فى أسلوبه الألفاظ الجميلة المنحوتة من أصل معروف أو من أصوات غير معروفة وأغلبها يشبه هذيان المجانين . وجويس ليس أول من أقدم على هذا الكلف بالأصوات المجردة فى الأدب ، فقد سبقته إلى ذلك مدرسة الرمزيين فى فرنسا ، وقد كان إمامها ستيفان مالارميه يقول : « إن الشاعر يستسلم لسلطان اللفظ » ، وكذلك كان ريمبو يقول : « لقد رضت نفسى على الهذيان الخفيف . ثم ذهبت أعبر عن هذا الهذيان السحرى بهذيان لفظى . . . وانتهى بى الأمر إلى تقديس خيالى المخبول . » أما جويس فقد التقى مرة بستيفان زفايج فى زيوريخ فأنكر أمامه كل صلة له بانجلترا وأصر على أنه إيرلندى صميم ، فهو يكتب بالإنجليزية حقاً ، ولكنه فى الواقع لا يفكر بها ولا يريد أن يفكر بها ، قائلا : « أتمنى أن تكون لى لغة أعلى من جميع اللغات ، لغة يضيف إليها كل شعب من عنده شيئاً ، فما من مرة فكرت فيها بالإنجليزية إلا وجدت نفسى حبيساً فى تقاليد الإنجليز » . وهذا وصف ما جرى فى غرفة النوم حين عاد بلوم يوليس إلى ماريون بنلوب أخيراً بعد تجواله ، وذهب يقص عليها ما صادفه فى غيبته من أمور . والسرد يبدأ بلغة الملاحين ، وينتهى بفقرة من «أوديسا» هوميروس :

« فى أى اتجاه كانت السامعة ترقد ، والسارد فى أى اتجاه كان يرقد ؟

« السامعة : الجنوب الشرقى مائلة نحو الشرق . السارد : فى الشمال الغربى، مائلا نحو الغرب : على خط عرض ٥٣ شمالا ، وعلى خط طول ٦ غرباً بزاوية قـدرها ٤٥ درجة بالنسبة إلى خط الاستواء الأرضى .

« أكانا ثابتين أم كانا يتحركان ؟

« كانا ثابتين كل بالنسبة إلى الآخر ، وكانا يتحركان معاً نحو الغرب وإلى الأمام وإلى الخلف على التعاقب تبعاً لحركة الأرض الدائمة فى مسالك تتغير أبداً فى فضاء لا يتغير أبداً .

« وكيف كان وضعهما ؟

« السامعة : ترتاح فى خط أفقى تقريباً على جانبها الأيسر ، يدها اليسرى تحت رأسها، وساقها اليمنى تمتد فى خط مستقيم وترتكز على ساقها اليسرى ، وهى محنية على طريقة جيا ــ تلـوس ، أمنا الأرض ، مسترخية بعد أن أخصبت .

« السارد : يرقد على جانبه الأيسر ، ساقاه محنيتان وسبابة يده اليمنى وإبهامها ترتاحان على وسط أنفه على طريقة ترى فى صورة فوتوغرافيــة صورها پرسى أيچون للرجل الطفل وهو متعب ، للطفل الـكامل النمو داخل الرحم .

« الرحم ؟ وماذا أتعبه ؟

« إنه متعب بعد طول السفر .

« مع رفاقه . ومن رفاقه ؟

« السندباد البحرى . السندباد البحار والصندباد الصياد والخندباد الخياط والنندباد النجار والحندباد الحداد والفندباد الفــلاح والبندباد البناء والهندباد الهجاء والرندباد الرقاص والـكندباد الـكشاف والدندباد الدســاس والطندباد الطحان والزندباد الزمار والسجندباد السجان والغنغباد الفثغاث .

« متى كان ذلك ؟

« حين مضى إلى الفراش المظلم فوجد مربعاً حول بيضة الفرخ ، فرخ الرخ ، رخ الســـندباد البحرى فى ليلة الفراش ، فراش كل فرخ ، فرخ كل رخ ، رخ مظلمباد النوار .

« وأين كان ذلك ؟

« وكانت هذه آخر كلمة فى قصته ، فقد عالجه النوم الجميل الذى تسترخى به أطراف الرجال ، وأبرأ النوم روحه من همومها » .

وهذا الأسلوب يفسر قول العالم السيكولوجى الكبير يونج : إن «يوليس» قصة لابداية لها ولا نهاية ، وإن فى الإمكان قراءتها من أولها إلى آخرها وقراءتها من آخرها إلى أولها . ولكن چويس وأنصاره لايرون هذا الرأى ، وإنما يرون «يوليس» عملا فنيًّا محكما يقوم على تصميم دقيق . وفى هذا يقول چويس لماكس أيسمان : «إن ما أتطلبه من قارئى هو أن يخصص كل حياته لقراءة أعمالى . »

وسواء اتفقنا على أن چيمس چويس إمام من أئمة القصة أم لم نتفق ، فلا جدال فى أنه ظاهرة اجتماعية لا يمكن تجاهلها ؛ فأدبه ينتمى فى صلبه إلى النصف الأول من القرن العشرين دون سواه ، وهو يدل على الطور الحضارى الذى تمر فيه أوربا الآن أصدق دلالة .

ولكن چويس من ناحية أخرى إيرلندى وكاثوليكى ، فالصراع الذى نجده فى أدبه صراع بين القديم والجديد فى بلد محلىّ الثقافة متأخر الاقتصاديات . وثورته على الكاثوليكية ثورة على ثقافة إقطاعية ، وثورته على إيرلندا ثورة الفنان العالمى الذى تمددت نفسه فتجاوزت تخوم الأقاليم . فبعض المشاكل التى اضطربت لها نفس چويس كل هـذا الاضطراب لا تمت إلى التطور العالمى فى جيلنا هذا ، وإنما هى مشاكل ثانوية محلية فرغت الإنسانية الكبرى من حلها أيام حركة الرنيسانس . وثورة چويس من هذه الناحية ثورة فاوستية، كما يقولون . والثورة الفاوستية فى جوهرها هى ثورة القوة الفردية الكامنة التى ترقى إلى النمو الفكرى والاجتماعى ، على القوة الخارجية المكبلة التى ترقى إلى الاستقرار الفكرى والاجتماعى ، وهذه ثورة البورچوازية الأوربيـة على الإقطاعية الأوربية ؛ وهى ثورة تمت منذ قرون ، وظهورها فى أدب الإيرلنديين المعاصرين لا دلالة له إلا أن إيرلندا متخلفة فى ركب المدنية . ولقد يثور الفرد المتحضر الآن فى صباه على الأفكار والقوانين الاجتماعية القائمة ، ولكن تلك الثورة لا تترك فى نفسه كل هذه الرواسب والعُقَد النفسية التى لازمت چويس مدى الحياة ، بل تنجلى عن تحرر تام يتبعه الاهتداء إلى مجموعة من القيم الإيجابية الجديدة . وكثرة هذه الرواسب والعُقد فى نفس چويس إن دلت على شىء فهو أن الصراع بين الداخل والخارج فيه كان صراعاً مخيفاً متلفاً . وهذا الصراع

المخيف المتلف إن دلّ على شيء، فهو أن البيئة الإيرلندية بيئة متحجرة تنوء على الفرد بكلكلها فتحطم شخصيته تحطيماً .

ولكن چويس فى صميمه يعبر عن الطور الحضارى الذى تمر فيه الإنسانية فى جيلنا هذا . فأدبه أدب فردى ذاتى انطوائى مسرف فى الفردية والذاتية والانطوائية . وهو لا يصور ما يحدث فى المجتمع من حوادث ، بل يصور ما يتولد فى نفس الفرد من أفكار . والخواطر الشخصية مهما بلغت تفاهتها أقدس عند چويس من الأفعال مهما بلغت خطورتها . فموضوع « يوليس » هو ذهن الإنسان بعد عزله عن المجتمع ، لا سلوك الانسان فى صلاته بالمجتمع . والمشاكل التى تشغل أبطال « يوليس » مشاكل شخصية لها أهميتها حقا ولكن ليس لها ما يقابلها فى الحياة العامة . وهى على خطورتها بالنسبة إلى أصحابها لا تتصل بمشاكل الرجل العادى فى حياته العادية أو فى تفكيره العادى . فهى مشاكل خاصة لنماذج بشرية خاصة ، مشاكل لا يشترك فيها إلا الأقلون . وانعدام حساسية چويس الاجتماعية أمر يلفت النظر ؛ فليس فى أدبه أى صدى للحرب العالمية الأولى ، وهو الذى عاش فى أتونها فلم تكتو روحه بشررها ، وهو الذى عاش بين قصف المدافع أصم لا يسمع الزئير ، بل ذهب يكتب، وكأنه يعيش على كوكب آخر ، عن مدير الإعلانات ومتاعبه الزوجية ، وعن زوجته المستهترة وعهارتها وعن ولدها المتبنى، وهو حالة مَرَضية أولى بها الأطباء النفسيون. وليس معنى هذا أن فردية چويس تغض من قيمته الفنية ؛ فهو فنان ضخم قل نظراؤه بين القدماء والمحدثين . وأقل ما يقال فى تقديره أنه الفنان بمعنى الكلمة ، الفنان الذى أخلص لفنه، فابتعد به عن الايديولوچيات وزعازعها، والفلسفات الاجتماعية ودواماتها ، فلم يمزج أدبه بوجهة نظر ، ولم يدس السم فى أعماله للجيل الجديد كما فعل عبقرى رجعى مثل ت . س . إليوت أو مشعوذ قدير مثل أولدس هكسلى ، أو محموم هائج مثل د . ه . لورانس . وإنما أخلص چويس لفنه وحده ، وهذا يجعله أهون الفرديين خطراً وأقلهم جناية على روح الإنسان . فاذا لم تكن للفنان رسالة بنائية فى الحياة ، فخير له وللناس أن يعفى المجتمع من الهدم . وصفحات « يوليس » مجرد سسموجراف يسجل الاضطرابات المرضية التى تعانيها البورچوازية الأوربية فى فترة اضمحلالها ، ويصور حطام مؤسساتها بعد أول زلزال .

وأدب چويس مظهر آخر من مظاهر الثورة على العقل التى شاعت فى ثقافة أوربا منذ نهاية القرن الماضى . وهو كذلك ؛ لأن فيه انسحاباً من الوعى إلى اللاوعى ، وهو انسحاب لا تلجأ إليه إلا النفس المهزومة . والإحساس بالهزيمة ظاهرة من الظواهر المألوفة بين فلول المفكرين والفنانين الفرديين . وما منشؤه إلا الشعور بأن عصر الفرد قد انتهى إلى غير رجعة ، وبأن القيم الاجتماعية الجديدة لا سبيل إلى قهرها . ومن لم يرض بحاضره عاش فى ماضيه ، ومن لم يرض بما يجرى حوله انطوى على نفسه . ومن لم يرض بواقعه دخل فى قوقعة اللاوعى واعتصم بها خوفاً وإشفاقاً . مفكرو البورچوازية وفنانوها اليوم واثقون من أن الأرض تسوخ تحت أقدامهم . ولقد فقدوا صفة الكفاح التى كانت لأسلافهم من المفكرين الفرديين والفنانين الفرديين ، فانفصلوا عن تيار الحياة وانزوى كل فى برجه العاجى ينعى حطام حضارته التى تنهار ، أو يكتفى بتصويره . وچيمس چويس بهذا المقياس نهاية حضارة تبيد ، لا بداية حضارة تنمو . ولعل خير ما قيل فيه هو حكم الكاتب الروسى ميرسكى عليه بأنه قد شيد لنا هرماً شامخاً جميلا حقاء ، ولكن العالم الجديد ليس بحاجة إلى أهرام ، بل إلى خزانات كخزان الدنيبر .

لويس عوض

كتاب اليتيمة

لابن المقفع

لا أقصد فى هذا الفصل أن أتحدث عن ذلك الكتاب الذى نشره الأمير شكيب أرسلان ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، باسم الدرة اليتيمة ، تبعا للمخطوطة التى نشره عنها ، ثم نشره الاستاذ كرد على ، بهذا الاسم أيضا ، فى مجموعة رسائل البلغاء ؛ فليس هنالك شك فى أن الاسم الصحيح لهذا الكتاب هو الأدب الكبير أو الآداب ، كما كان ابن قتيبة يسميه فيما ينقل منه فى كتابه « عيون الأخبار »

وإنما أعنى كتاب اليتيمة الذي كان يطلق عليه هذا الاسم فى العصر الذى وضع فيه ، والذى تعرّض لما تعرض له معظم كتب ابن المقفع من طغيان العصور وآفات الزمن ، فضاع فيما ضاع من ذلك التراث الأدبى ، ثم انفرد من دونها بكثير من الغموض والابهام ؛ إذ اختلفت فيه كلمة العلماء ، واضطربوا فى صفته ، وبيان موضوعه ووجهته . وفى هذا ما يضاعف شقة الباحث الذى يلتمس تبيّن صورة له ، ورسم شيء من خطوطه وملامحه ، ووضعه فى مكانه بين آثار ابن المقفع الأخرى ، وتعرُّف الصلات التى تربطه بالتيارات السياسية والأدبية والعقلية فى عصره ، ولا سيما إذا علمنا أنه كان من أجلّ كتب ابن المقفع خطرا وأكبرها منزلة ، وقد أتيح له من الشهرة وذيوع الصيت ما جعله حديث الأدباء ، ومضرب المثل فى البراعة وجودة الأداء ، كالذى نراه فى ذكر أبى تمام له فى إحدى مدائحه للحسن بن وهب ، إذ يقول :

ولقد رأيتك والكلام لآلئ ... تؤمٌ ، فبكر فى النظام وثيّب
فكأن قسّا فى عكاظٍ يخطبُ ... وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكُثَيِّر عزّة يوم بينٍ ينسب ... وابن المقفع فى اليتيمة يسهب

وكما نراه فى صفة أبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور له ، إذ يقول : « ومن الرسائل المفردات اللواتى لا نظير لها ولا أشباه ، وهى أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء ؛ لأنها نهاية فى المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، الرسالة التى لابن المقفع ، وهى اليتيمة ؛ فإن الناس جميعا مجمعون على أنه لم يعبر أحد عن مثلها ، ولا تقدمها من الكلام شىء قبلها » . وكذلك يجعله ابن النديم أحد كتب خمسة ، يقول إنها الكتب المجمع على جودتها .

وقد استطارت هذه الشهرة إلى القرن الحادى عشر للهجرة ، فنرى حاجى خليفة يصفه فى « كشف الظنون » بأنه كتاب لم يصنف فى فنه مثله . وسواء أكان حاجى خليفة يتحدث بهذا عن «اليتيمة» التى نعنيها والتى يذكرها طيفور ، أم يتحدث عن كتاب آخر من الكتب التى نحلت هذا الاسم ، ونسبت إلى ابن المقفع ، كما نرجح ، فأكبر الظن أنه بعبارته هذه يردد صدى تلك الشهرة التى استفاضت بين الناس .

وقد كان جديراً بهذا الذى أتيح لكتاب «اليتيمة» من ذيوع الصيت وارتفاع المنزلة وما يتبعهما من الحرص عليه ، أن يقيه عوادى الأيام . ولكنا نحسب أن هذا نفسه كان من أول الأسباب التى جنت على هذا الكتاب وعرضته للضياع ؛ إذ كان هو الذى زين للوراقين أن يستغلوا هذا الاسم الذائع الرفيع : « اليتيمة » فيطلقوه على غير مسماه من كتب ابن المقفع . بل لعلهم لم يكتفوا بذلك ، فذهبوا يطلقونه على ما شاءوا من الكتب التى يرجون لها الرواج . وأكبر الظن عندنا أن الكتابين اللذين يذكرهما حاجى خليفة فى سياق كلامه عنه : « عظة الألباب » و « التميمة » ويذكر أنهما مختصران له ، ويصف أحدهما بأنه « مشتمل على الحقائق والمعانى وأخبار السادة الصالحين » إنما جاءا من هذه السبيل ، وأنهما لا يمتان ليتيمة ابن المقفع بسبب .

وبهذا الذى صنعه الوراقون ، وهو أمر معروف فيهم ، إلى جانب ما سنشير إليه بعد قليل ، اختلط الأمر فى كتاب اليتيمة ، وتنكرت معالمه ، فلم يكن شىء أيسر بعد ذلك من أن تذهب «اليتيمة» الحقيقية فى غمرة الأيام والأحداث .

ويكفى أن نعلم أنه فى القرن الرابع وحده كانت «اليتيمة» تطلق على كتب ثلاثة مختلفة ؛ فابن النديم يصفها فى الفصل الذى كتبه عن ابن المقفع بأنها « فى الرسائل » . ويفهم من هذا الوصف ، ومن جعله الكلام عن ابن المقفع فى الباب الذى جعل

عنوانه : «تسمية الكتّاب المترسلين ممن لرسائله كتاب مجموع» أن اليتيمة هو الاسم الذى أطلق على مجموع رسائل ابن المقفع . ويذهب القاضى أبو بكر الباقلانى (من علماء ذلك القرن) إلى أن «اليتيمة» أو «الدرة اليتيمة» تطلق على كتابين : أحدهما فى الحكم والآخر فى الإلهيات ؛ وذلك حيث يقول فى كتابه : «إعجاز القرآن» فى الفصل الذى عقده للكلام «فى الدلالة على أن القرآن معجز» :

« وقد ادّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى «الدرة اليتيمة» وهما كتابان : أحدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شىء بديع من لفظ أو معنى . والآخر فى شىء من الديانات وقد تهوّس فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذى بيناه فى الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة . »

وإلى هنا نرى أن كتاب « اليتيمة » يوصف مرة بانه فى الرسائل ، على لسان ابن النديم ؛ وأخرى بأنه فى الحكم ، وثالثة بأنه فى الإلهيات ، على لسان أبى بكر الباقلانى .

وفى ذلك النص الذى أوردناه للقاضى أبى بكر ما لعله يشير إلى بعض الأسباب والملابسات التى كانت تدفع إلى الخلط ، إلى جانب ما ذكرنا ، وهى ترجع إلى نشاط « الزنادقة والملاحدة » فى توهين أمر الإسلام بالطعن على القرآن وإنكار إعجازه . وهو نشاط بلغ غاية بعيدة فى القرن الثالث والرابع ، فكان من سبيلهم إلى هذا أن يتلمسوا الآثار الأدبية التى يصح عندهم أن يقال إنها فى معارضة القرآن . فلعلهم وجدوا فى الكتابين اللذين ذكرهما الباقلانى ما يسد هذا الموضع ويغنى ذلك الغناء . وإن كان كتاب « اليتيمة » أولى باسمه وبذيوع صيته منهما فى ذلك ، فلم يكن لهم بد ، تماما على ما يقصدون إليه ، من أن ينزعوا عنهما اسميهما ويخلعوا عليهما ذلك الاسم ؛ إذ كان أليق بغرضهم وأكثر اتساقا مع الدعوى التى يدعونها . فهذا — فيما نحسب — سبب من أسباب الخلط فى شأن ذلك الكتاب ، على النحو الذى نراه فى القرن الرابع .

فإذا كان القرن الخامس وجدنا وصفاً رابعاً له عند أبى القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى ، فى كتابه « طبقات الأمم » ؛ فقد عرض لهذا الكتاب فى جملة عرضه لكتب ابن المقفع ، فقال : « ... وله تآليف حسان ، منها رسالة فى الآداب

والسياسة ، ومنها رسالته المعروفة باليتيمة فى طاعة السلطان ». وقد جاءت هذه العبارة بنصها أيضاً فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة (من علماء القرن السابع) . وإذن فكتاب اليتيمة عند صاعد الأندلسى ثم عند ابن أبى أصيبعة الدمشقى ليس بمجموع رسائل ، ولا هو كتاب فى الحكم أو فى الإلهيات ، وإنما هو كتاب آخر يعالج موضوعا معينا أدنى إلى أن يكون من موضوعات السياسة ، هو « طاعة السلطان » .

وهكذا نرى إلى أى حد تضطرب الأوصاف المتعلقة بهذا الكتاب ، حتى يكاد يضيع الحق بينهما .

وبعد فما عسى أن تكون الوسيلة فى مثل هذه الحالة إلى تحقيق هذه القضية والفصل فيها ، أو على الأقل ترجيح أحد هذه الأوصاف على سائرها ، إلا أن تكون محاولة الكشف عن بعض النصوص من هذا الكتاب ومقارنتها ؟

ونحن نملك حتى الآن — قدر ما أتيح لى معرفته — قطعاً ثلاثاً منسوبة إلى كتاب «اليتيمة» ، ترجع اثنتان منها إلى القرن الثالث فى المشرق ، وترجع الثالثة إلى القرن الخامس فى الاندلس . ونستطيع أن نطمئن إلى أن القطعتين الأوليين — على الأقل — صحيحتا النسبة إلى «يتيمة» ابن المقفع قبل أن تعبث بها أيدى المزورين من الوراقين وغيرهم ؛ فأولاهما جاءت فى كتاب المنظوم والمنثور لطيفور ، والثانية فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة . وكلا الرجلين عالم أديب صحيح البصر فيما يروى ، إلى جانب قربه —شيئاً ما— من عهد المؤلف . وسنرى أن القطعتين تتواردان على موضوع واحد ، مما يقوى رأينا فى الاطمئنان اليهما ، وصحة الاستشهاد بهما . كما سنرى بعد أيضا أن القطعة الثالثة — وقد جاءت فى كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى — بعيدة عن التهمة ومظنة الشبهة . ولعلنا نستطيع بهذه القطع ، إلى جانب الفصل فى قضية اليتيمة ، أن نتمثل شيئا ما ، صورة من هذا الكتاب .

أما القطعة التى أوردها طيفور فقد نص فى التقدمة لها على أنها من صدر كتاب «اليتيمة» ؛ فلنا بذلك أن نعتبرها نوعا من المقدمة له ، يشرح فيها غرضه ، ويبين فيها طرفا من الدوافع والملابسات التى حفزته إلى كتابته . وكذلك نجد الأمر فى هذه القطعة ، فلا نخطىء فيها هذين الجانبين ، كما لا نخطىء فيها أسلوب

ابن المقفع بأخص خصائصه . ويستطيع القارئ أن يرجع إليها فى مجموعة « رسائل البلغاء » .

وأول ما يلاحظ فى هذه «المقدمة» أنها قد بنيت بناء محكم الترتيب ، فأولها فى أخلاق الناس أو « الرعية » فى ذلك العهد ، ووسطها فى الكلام عن علاقة ما بين الراعى والرعية ، وآخرها فى الكلام عن راعى الناس فى ذلك الوقت ، أو الإمام . فهو قد جمع فيها أطراف النظام السياسى ، وتكلم عن كل طرف على النحو الذى يسوق الكتاب له .

فأما كلامه عن « الرعية » فهو وصف بليغ — وينبغى أن يكون صحيحا دقيقا أيضا — لأخلاق الناس وسلوكهم فى هذه الفترة المضطربة ، فى أول عهد الدولة العباسية . بل لعله من خير ما يوصف به الناس — بوجه عام — فى مثل هذه الفترة من فترات الانقلاب السياسى ، حين تتزايل الأخلاق ، ويشيع فى الناس الشك والقلق وسوء الظن ، وتزول من بينهم الطمأنينة ، ويكثر فيهم الإنكار والتوثب والجموح ، ويعيث فيهم الفساد فى جميع نواحيهم : « فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف ، ومستشيرهم غير موطّن نفسه على إنفاذ ما يشار به عليه ، ومصطبر للحق مما يسمع ، ومستشارهم غير مأمون على الغش والحسد وأن يكون مهتاكا للستر ، مشيعا للفاحشة ، مؤثرا للهوى . والأمين منهم غير متحفظ من ائتمان الخونة ، والصادق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة . يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدول ، ويعيبون بالهمز . يكاد أحزمهم رأيا يلفته عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السخط ، ويكاد أمتنهم عودا أن تسحره الكلمة ، وتسكره اللحظة . » إلى آخر هذا الوصف الذى يعتبر وثيقة من أحسن الوثائق التى تصور لنا حالة الشعب النفسية فى تلك الفترة .

وأما كلامه عن علاقة ما بين الراعى والرعية وصور هذه العلاقة ، فقد بناه على نوع من التقسيم المنطقى ، مداره هذان الطرفان مضروبين فى حالتى الصلاح والفساد ، على نحو يذكرنا بما هو شائع فى كثير من كتب المتأخرين ؛ فتكون الحالات أربعا مرتبة هذا الترتيب : فخيرها ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فيؤدى الراعى إلى الرعية حقهم فى الرد عنهم وتدبير شؤونهم ، وتؤدى الرعية

إلى الراعى حقه فى المودة والمناصحة والطاعة . ثم تلى هذه الحالة أن يصلح الإمام وتفسد الرعية . ثم عكس هـذا : أن تصلح الرعية ويفسد الراعى . ثم شرها جميعاً وهو ما اجتمع فيه فساد الراعى والرعية »

والذى يعنى ابن المقفع من هـذه الحالات الأربع هو الحالة الثانية . فأما النـاس أو الرعية فهم هؤلاء الذين تحدث عنهم ووصف الفساد الشائع فيهم فى أول هذا الفصل . وأما الإمام فقد خصه بالقسم الأخير منه ، وقد جعل يردد الـكلام فيه بين ناحيتين : سيرته التى يسير بها فى رعيته ، ومعدنه الذى يرجع إليه ويمت به . فيقول فى الأولى مثلا : « . . . قد رأينا حظه من الله عز وجل فى التثبت والعصمة ، فلم يبرح الله يزيده خيراً ، ويزيد به رعيته مذ ولاه ، فعندنا من هذا وثائق من عبر وبينات » . ثم ينتقل من هـذا إلى أسلوب من الرجاء ، ليكون له بذلك أسلوب آخر فى الإقناع ، فيقول : « ونحتسب من الله عز وجل ألا يزال إمامنا يسـارع فى مرضاة ربه ، بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلة المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبهم ويفتح له أسماعهم وأبصارهم ، فيجمع ألفتهم ، ويقوم أودهم ، ويلزمهم مراشد أمورهم ، وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين بأن يصلحوا له وعلى يديه ، فيكونوا رعيـة خير راع ، ويكون راعى خير رعية ، إن شاء الله وبه الثقة » . وأما الناحية الثانية ، وهى معدن الإمام « فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسـبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبى الرحمة ، وإمام الهـدى ، ووارث الـكتاب والنبوة والمهيمن عليهما ، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً . شرع الله به دينه ، وأتم به نوره ، ومحق به رءوس الضلالة وجبابرة الـكفر ، وخوله الشفاعة ، وجعله فى الرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم . »

فهذا تحليل الفصل الذى اعتبرناه « مقدمة اليتيمة » حاولنـا فيه أن نبرز خطوطـه الرئيسية وقسـماته البارزة . ومنه يتبين لنـا مبلغ ما فى ذلك الرأى السائد عن « اليتيمة » — وهو الرأى المستوحى من الباقلانى — من مجانبة للصواب ، وأن ذلك الوصف الذى وصفه صاعد الأندلسى به ، وهو « طاعة السلطان » ، وهو الوصف الذى لم يكد أحد يلتفت إليه ، هو الحق الذى لا ريب

فيه . كما تتبين لنا منه أيضاً بعض الدوافع التى حفزت ابن المقفع لكتابته ، وهى تلك الفتن والثورات التى غمرت العالم الإسلامى فى تلك الفترة ، والتى كانت تتربص بالدولة وتتوثب عليها ، ولا سيما فى مدينة البصرة حيث كان يقيم ، فكتب كتابه هذا — وهو يشعر بالخطر الذى يتهدد هذه الدولة الصديقة — مدافعا منافحا محتجا عنها خاصة وعن السلطان عامة ، يدعو الناس إلى الهدوء ، ويرغبهم فى الطاعة ، ويبصّرهم مغبة المعصية ، ويسلك فى هذا الإقناع السبل المختلفة ، بين اللين والشدة ، وبين مخاطبة العقل واستثارة العاطفة الدينية ، إلى غير ذلك مما نرى نحوا منه فى قطعة طيفور هذه ، ونحوا آخر فى القطعة الثانية ، وهى قطعة ابن قتيبة [1] .

وهذه القطعة مبنية على افتراض يدعو إليه الإقناع ، وهو أن فى السلطان شرًّا إلى جانب ما فيه من خير . ولعل هذا الافتراض كان من بعض نواحيه أثراً من آثار الدعوة التى كانت طائفة من الخوارج يبثونها ، منكرين وجوب الإمامة ذاهبين فى تأكيد رأيهم وتأييد دعوتهم المذاهب المختلفة ، من بيان الشرور التى صحبت الإمامة وما زالت تصحبها ؛ فكان لا بد لابن المقفع من أن يتأتى للرد على هذا فى ترفق وكياسة ، مستعينا ببلاغته وثنويته جميعا ، فكتب هذا الفصل الذى نقله ابن قتيبة فى أول كتاب السلطان ، وأخذ يضرب فيه الأمثال لقليل مضار السلطان فى جنب منافعه ، بامتزاج الخير والشر فى جميع ما أفاء الله على أهل هذه الدنيا . فالسلطان عنده نعمة من نعم الله التى أتاحها لعباده ، وقدَّرها لخيرهم كالغيث والرياح والصيف والشتاء والليل والنهار . وما قد يصحب السلطان من أذى وضر فإنما هو بقدر ما لابد منه فى سنن الكون ونواميس الخليقة ، على نحو ما فى «الغيث الذى هو سقيا الله وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها ، وقد يتأذى به السفْر ، ويتداعى له البنيان ، وتكون فيه الصواعق . وتدر سيوله فيهلك الناس والدواب ، وتموج له البحار ، فتشتد البلية منه على أهله .

---

(١) لا ريب عندنا فى أن هذه القطعة صحيحة النسبة إلى يتيمة ابن المقفع ، وإن كان ابن قتيبة قد أغفل فى إسنادها النص عليه ، إذ اكتفى فى ذلك بقوله : « وقرأت فى اليتيمة » إذ كان صاحبها فى ذلك الوقت متعيناً كما يظهر . ذلك أن الثعالبي يورد فى كتابه « ثمار القلوب » فقرات من هذه القطعة ، مع النص على أنها من يتيمة ابن المقفع . وهذا دليل مادى يضاف إلى ما يشهد به أسلوبها وموضوعها .

فلا يمنع الناس إذا نظروا إلى آثار رحمة الله فى الأرض التى أحيا ، والنبات الذى أخرج ، والرزق الذى بسط ، والرحمة التى نشر ، أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها ، ويبلغوا ذكر خواص البلايا التى دخلت على خواص الخلق » إلى غير ذلك من الأمثال التى يشرحها فى براعة وجمال . وإذا كانت هذه سنة الله فى خلقه ، فليس فى هذا الأذى الذى قد يحسه الناس فى السلطان ما يدعو إلى الشك فى أنه نعمة من نعم الدنيا ، أو يدعو إلى الخروج عليه أو التحلل من طاعته .

وأما القطعة الثالثة فقد أوردها ابن عبد البر فى سياق الأقوال المختلفة فى كراهية الرأى ووجوب الرجوع فى أحكام الدين إلى السنة والأخذ بالآثار الصحيحة ، وكان ذلك مذهب عامة أهل البصرة ، ووجها من أوجه الخلاف بينهم وبين الكوفيين . وقد يبدو أول الرأى أن هذه القطعة بعيدة عن موضوع اليتيمة الذى رأينا ، وملابساتها التى لاحظنا ، وذلك إذ يقول فيها :

« ولعمرى إن لقولهم ليس الدين خصومة أصلا يثبته . وصدقوا ، ما الدين بخصومة . ولو كان خصومة لكان موكولا إلى الناس يثبتونه بآرائهم وظنهم . وكل موكول إلى الناس رهينة ضياع . وما ينقم على أهل البدع إلا أنهم اتخذوا الدين رأيا ؛ وليس الرأى ثقة ولا حتما ، ولم يجاوز الرأى منزلة الشك والظن إلا قريبا ، ولم يبلغ أن يكون يقينا ولا ثبتا . ولستم سامعين أحدا يقول لأمر قد استيقنه وعلمه : أرى أنه كذا وكذا . فلا أجد أحدا أشد استخفافا بدينه ممن اتخذ رأيه ورأى الرجال دينا مفروضا . »

ولكن هذا لا يكفى فى حملنا على الشك فى نسبة هذه القطعة إلى اليتيمة التى يذكرها صاعد ، معاصر ابن عبد البر ومواطنه ؛ إذ ينبغى أن نلاحظ أولاً أنها مقتضبة من سياقها فى الكتاب ، وأنها لا يبعد أن تكون استطرادا . ومع ذلك فإنا نزعم أن الصلة بينها وبين « طاعة السلطان » ماثلة ، فإن دعاة الثورة وشق عصا الطاعة إنما يعتمدون فى دعوتهم على آراء فى الدين يرونها . فهذه القطعة — فيما أحسب — مفتلذة من فصل كتبه فى تهجين ذلك المذهب الذى يذهبون إليه . ومهارته تظهر فى اصطناع قول البصريين فيما يرمى إليه من الدعوة إلى الطاعة ، والبصريون هم فى ذلك الوقت أشد الناس مجافاة للدولة ومحادّة لها وإنكارا عليها . ولكن ابن المقفع يخالف البصريين فى شىء خطير ، وهو

أنه انما يسلب الناس حق الرأى لا إنكاراً للرأى فى ذاته ، ولكن ليهب ذلك الحق للدولة . فعنده أن للإمام وحده حق الحكم بالرأى فيما لم يكن فيه أثر .

وبعد ، فهذه صور من كتاب «اليتيمة» نرجو أن يكون فيها بعض البيان عنه ، وإزاحة لما تغشاه من غموض وابهام . على أنا نستطيع بجانب ذلك أن نتمثل نواحى أخرى منه ، إذا نحن نظرنا فى رسالة الصحابة له . فقد عرض فى خلالها لهذا الموضوع الذى بنى عليه كتابه هذا ، وهو طاعة السلطان ، فأورد الآراء التى كان الناس من الفقهاء ومن إليهم يقولون بها فى هذا الصدد ، كقول بعضهم : إن أمرنا الإمام بمعصية الله فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا بطاعة الله فهو أهل أن يطاع . وكقول الآخرين : بل نطيع الأئمة فى كل أمورنا ، ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسيبا ، هم ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم . ثم وقف بين هذين المذهبين يناقش كلا منهما ، ويبين ما يترتب عليه من توهين السلطان وتهجين الطاعة ، حتى ينتهى الى الرأى الذى يراه فى هذه المسألة ، وهو الفصل بين طائفتين مختلفتين من أمور الدين : أولاهما الفرائض والحدود كالصلاة والصيام والحج وحد السرقة ، وهذه أمور لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا ، فلا طاعة للإمام لو أنه نهى عنها أو أراد تعطيلها . والأخرى شؤون الدولة وتدبيرها ، كالغزو والقفول ، والجمع والقسم ، والاستعمال والترك ، فهذا مما جعل الله أزمّته بيد الإمام ، فمن عصاه فيها أو خذل له فقد أوتغ نفسه .

وأكبر الظن أن هذا الذى عرضه فى رسالة الصحابة كان من الموضوعات التى تناولها بالبيان والتحليل فى كتاب «اليتيمة» . فإذا صح هذا الفرض كان هذا الجزء من رسالته مما يزيدنا بهذا الكتاب معرفة ، ولا سيما إذا صح ما نفترضه أيضا ، وهو أن الظروف التى لابست رسالة الصحابة وأوحت كتابتها ، هى الظروف التى لابست كتاب «اليتيمة» ، ودفعت ابن المقفع إلى وضعه .

طه الحاجرى

العـــابد المثالى

« الفجر »

من وراء الظـلام أقبل يسرى عابد فى ثيـابه البيضـاء
وعلى وجهــه يرفُّ صفـاء مستمَـدٌّ من قلبه الوضَّـاء
أينما سار فالظـلام ضيـاء عبقرىٌّ الأطيـاف واللألاء
جاء يسرى، والبدر فى الأفْق يسرى كسُرى المستهام فى الظلمـاء
تارة يأمن العيون فيبدو فإذا خاف جـدَّ فى الاختفاء
ورياح المســاء تبعث نجوا ها لروح الطبيعة العــــذراء
فتثير الحنين فى كل قلب من قلوب العشاق والشــعراء
وأنا جالس على الربوة الخضـ راء ، والروح سابح فى الفضاء
ساهر أنظم الحياة بروحى فى قصيد يزهو بحسن الآداء
وأبث الوجود أشواق نفسى لعهود قد أمعَنتْ فى التنائى
وأغنىِّ ، وياله من غناء ! ثم أبكى ، وياله من بكاء !
ظلَّ يسرى حتى أتى الغاب فانسا ب إليه كالجــــدول المترائى
ومضى فى رحابه مستشِفًّا كل ما فيـه من بديع الرُّواء
وقفــــة عند أيكة تتجــــلى عن غرام محبب وغنـــاء
عند غصـــن يداعب النور عطفيـ ه ، فيغضى وينثنى فى حياء
وتريق الندى عليه النسيما تُ فيهــــتز هزة الحسناء
عند زهر يلوح كالشفق الحـــا لم بين السـحائب الشهباء

عند نهر كأنه الأمل البسّا (م) م يبدو في ظلمة البأساء
نام في روعة العروس تعرّت فبدا نور جسمها الوضّاء
وعلى الجدول الذي راح يصغي في ذهول إلى حديث المساء
وقف العابد التقيّ يصلي للإله العظيم رب السماء
ويناجيه في خشوع عميق كنبي في ساعة الإيحاء
قال : يا خالق الوجود جميلا لقلوب إلى الجمال ظِماء
إن هذا الجمال يغمر نفسي بضياء الهدى ، ونور الصفاء
إن هذا الجمال يسمو بروحي في رِجواء طليقة الأرجاء
فأراني بها هزارا طليقا لا يني طائرا صباحَ مساء
هزّ أشواقه نداء خفيّ فهفا هائما وراء النداء
عائدا للخفاء موطنه النا ئي ، وقد جاء من ضمير الخفاء
كسفين أضلّه البحر دهرا وهداه السُّرى إلى الميناء
وأراني بها شعاعا طليقا يتسامى بالشوق نحو العلاء
هائما سابحا إلى الشاطئ النا ئي على موجة من الأضواء
إن هذا الجمال لحن عميق ساحر الجرس ، فاتن الأصداء
أنت أبدعته فكان نشيداً هز روحي وخافقي ودمائي
هو بين السهول همس ونجوى وهتاف في القمة العلياء
كل ما في الوجود روح جميل رائع في الظلام أو في الضياء
ساحر فاتن خريفا وصيفا مشرق في الربيع أو في الشتاء
غير أن العيون لا تسبر الأ عماق . . . بل تستقر فوق الماء
وأنا أبصر الوجود بروحي فأرى كل ما به من بهاء
يا إلهي لأنت نبع حياتي وحياتي من أعظم الآلاء
فلك الشكر يا بديع البرايا ولك الحمد مبدعَ الأشياء
يا إله الوجود تلك صلاتي مِلؤها نشوتي ، وهذا دعائي
فتقبّلهما مناجاةَ روح برئت من نوازع الأهواء
واعف عني إذا تبينت عجزي فأنا من عبادك الضعفاء
واغتفر لي أن لم أحط بك علما أنت فوق النهى ، وفوق الذكاء
ووداعا يا أيها الغاب حتى يأذن الله بيننا باللقاء

ومضى العابد التقى من الغا   ب إلى أفقه العميق النائى
واختفى فى فضائه كشعاع   أدركته غياهب الظلماء
فاستفاق الوجود من نشوة الحبِّ (م) وهبَّت عناصر البغضاء
واستمرَّ الهدوء فى الضجة الكبـ   رى، وغاب السكونُ فى الضوضاء

ابراهيم محمد نجا

چان پول سارتر ومواقفه

الخيال والوجود

إن نظرة نلقيها على موضوعات الخيـال تدلنا على أن هذه الموضوعات ليست قائمة فى عالم الواقع الذى تدركه الحواس ويحوي ما يحيط بنا من أجسام وحيوان وأناس مثلنا. بل إن عالم الخيال لا يشترك فى حياة «الأنا»، ولا يشترك تطوره، إن صح التكلم عن تطور، فى تغير «الأنا». ولعل أقوى دليل على «عدم» موضوعات الخيال كونها لا تبدو قائمة فى زمن ما: فلا يمكننا أن نلحظ موضوع خيال فى تغير زمنى متصل، بل غاية ما ندركه لحظات تتصور فيهـا الحوادث الخيالية، وهذه اللحظات الخيالية، حتى إن بدت متقاربة فهى مع ذلك متفرقة متميزة، لا يربط بينها إلا اتجاه الفكر للحوادث المتخيلة، وربطه المستمر بين أجزاء الحادث الخيالى، وأقل تفكير فى حلم من أحلامنا يؤيد ذلك تمام التأييد. وقد يعترض بأننا نشعر عند مطالعتنا لقصة من القصص بأن حوادثها تقوم فى الزمن، وأن منها ما يعطينا شعوراً بالزمن شديد القوة والحيوية. قد يتعـذر الإجابة على الاعتراض إن لم نفكر فى أن القصصى لا يوحى إلينا بالزمن مباشرة بل يعمل على التأثير فينا، وعلى إثارة اهتمامنا بحوادث القصة، حتى ينتقل زمننا الشخصى إلى هذه الحوادث فيربط بينها، ويعطيها وحدة أو شبه وحدة. وليس من شك فى أننا عندما نطالع فصول قصة رائعة مثل إحدى قصص دوستويفسكى أو سارتر نفسه (فى الغثيان مثلا) نحس بكثافة زمنية للحوادث. وهذا الإحساس ذاته نتيجة اجتماع شعورين، شـعور المؤلف بالزمن وشعور المطالع به. وتقوم فى هذا الزمن المزدوج حوادث لها قوة، إن لم تحاكِ فى حقيقتها قوة الحوادث الواقعية، فهى قد تفوقها من حيث تأثيرها فى العواطف. وما ذكرناه فى المقال السابق عن صلة الخيال بالعوامل العاطفية يؤيد ذلك.

والموضوعات الخيالية غير موجودة فى المكان أيضاً ، أو أن مكانها غير المكان النسبى الذى تتعين فيه مواقع موضوعات الحس فى ثَبَاتها أو تغيراتها المتبادلة . مكان الموضوعات الخيالية مطلق ، أقصد أن تعييناته المكانية خاصة به ، جزء منه ، لا تنفصل عنه ، لهذا الموضوع «مكان» كما لموضوعات العالم رائحة أو لون أو طعم . ومكانه مطلق بمعنى أدق ؛ لأنه لا يتعين بالنسبة لموضوعات أخرى قريبة منه أو بعيدة عنه ، يتجه نحوها أو تتجه نحوه . فعندما أتخيل صديقاً لى أقرر أنه قصير أو طويل أو سمين ، على الإطلاق ، لا أقارنه بموضوع آخر أكبر أو أصغر ، أسمن أو أنحف ، كما لو كان الطول أو القصر أو غيره من الصفات المكانية منسوبة له كما يُنْسَبُ الأحمرُ للطربوش . وإذا كنت أتخيله سائراً فى الطريق ، فهو لا يتقدم فى تصورى ، ولا يتأخر بالنسبة لغيره من الناس أو الأجسام . وإن تخيلته فى غرفته فكأنه جزء منها ، أو كأن غرفته جزء منه تلتصق به ولا تنفك عنه .

هذا معنى قول سارتر إن موضوعات الخيال خارجة عن الوجود ، وأن لا زمن ولا مكان لها . ويرى سارتر بالإجمال أننا نلمس فى الموضوعات الخيالية شاهداً على أن ثمة عدما هو موضوع الشعور ، وأن الحوادث الخيالية هى هذا العدم ، أو مظهر واضح له ، إن أمكن وجود مظهر لما لا وجود له . وليس الخيال إلا فعلا يسجل الاعتراف بهذا العدم .

هل تحوى النفس إذن فعلين متناقضين : الخيال والإدراك الحسى ؟ وهل هناك موضوعات يكفى أن تتمثل للذهن حتى تختفى موضوعات الواقع ؟ وكيف يصح هذا التناقض ولا يحدث عنه فى النفس خلل وفى العالم اضطراب شديد ؟ ولكن ربما كان الخيال شيئاً غير أساسى فى النفس ، وفعلا طارئاً عديم الأهمية إذا ووزن بالإدراك الحسى ، وعرضاً فى جوهر النفس ليس له ما يؤثر فيها أو ما يخل بتوازنها . وربما كان الموضوع الخيالى أيضاً يعرض لنا دون أن يحدث بذلك فى العالم اضطراباً أو خللا ، هو على هامش الوجود ، تعرض له النفس وتقصده فى لحظات زائلة ، عندما تكون النفس ذاتها على هامش وجودها الشخصى تلهو به وتلعب فى لحظات فراغها ، كما تلهو الصبية وتلعب . أليس موضوع الخيال عدماً ، أى لا شئ ، أى ما ليس وراءه شيء — أى باطلا وعبثاً ، يجب ألا نقف عنده ، ولا نعيره أى التفات ، وألا نخلق منه مشكلات ؟

إذا كان الخيال على هامش النفس وكانت موضوعاته على هامش العالم ، أعراضاً طارئة لا أهمية لها ، فليس ثمة مايسوّغ قيام الخيال فى النفس ، أقصد أننا لسنا فى حاجة إلى مبادئ فلسفية تفسره . وليس صادراً عن جوهرها من حيث هى مدركة ، وليست موضوعات الخيال صادرة عن جوهر العالم من حيث إن العالم موجود ، وإن النفس تدركه . ويصح إذن فى هذه الحالة أن نهمله كفلاسفة وألا نَعْتَدّ به ، كما لا نعتدُّ من حيث نحن فلاسفة بأعراض النفس الغريبة وأمراضها . أما إذا كانت هناك شروط تسوّغ قيام الخيال وتفسر موضوعاته ، إذا كان هناك ما يجعل الخيال وموضوعاته أشياء « ممكنة » على حد تعبير كَنْت ، فيصبح ثمة مجال للسؤال كما فعلنا : كيف يمكن قيام الخيال وموضوعاته ، دون أن يؤثر فى النفس ، ويحدث فيها وفى العالم خللا أو اضطراباً ؟

نستدل من التفكير فيما بيناه من عوامل الخيال ومن طبيعة موضوعاته وكيفية مثولها للنفس ، أن ثمة شروطاً فلسفية تفسره وتجعله «ممكناً» بين أفعال الشعور ، وخاصة ما ذكرناه من أن موضوع الخيال غير قائم فى الوجود . وهذا معناه على الأقل شيئان : (أولا) أن الخيال يحمل عامل إنكار ، بل إنه فى ذاته فعل سالب إن لم يكن حكماً سالباً بالمعنى الدقيق . فنحن عندما نتخيل ننفى عن موضوع خيالنا خصائص الوجود كما تمثل لنا فى الإدراك الحسى . الخيال إنكار إذن أو تصور مقترن بإنكار . (ثانياً) الخيال يحررنا من شرائط الوجود العالمىّ ، فهو إذن شرط لحرية النفس ؛ إذ أننا عندما نفكر فى الخيال ، فنحن نقطع ارتباطنا بالعالم الموجود ، ومن ثمة لا نخضع لقوانينه . وفى الخيال نشعر بأن موضوعاته ، حتى ما كان من بينها قابلا لإدراك حسى فعلى ، تصدر عن النفس لا عن الخارج ، ثم تختفى فى النفس بإرادتها .

نصل إذن إلى تفسير الخيال تفسيراً فلسفيًّا ، وإلى وضع شروط « إمكانه » عندما نلاحظ أنه يقوم من ناحية على قدرة فى النفس على النفى ، ومن ناحية أخرى على حرية النفس ، وبتعبير آخر على قدرة النفس على إنكار العالم بجملته ، وعلى التحرر من العالم بجملته : يتطلب الخيال إذن استطاعة النفس الابتعاد عن العالم ، واتخاذ مركز تشعر النفس فيه بأنها فى معزل عن العالم ، مركز يمكنها منه أن تنكر العالم بالنسبة إليها ، وأن تنكر ذاتها بالنسبة إلى العالم . العالم فى هذا المركز

معدوم بالإضافة إليها ، وهى فى هذا المركز معدومة بالإضافة إلى العالم . وهذا معنى ما يقرره سارتر من أن الخيال فعل معدم ، للعالم والعدم يتطلب موضوعاً .

يبدو إذن أن التناقض بين الخيال وبين الإدراك الحسى أمر لا مفر من الاعتراف به . ولكن علينا أن نسأل مرة أخرى : كيف يصح الإقرار بهذا التناقض دون أن يحدث عنه فى النفس اضطراب وفقد توازن ؟ وكيف يصح قيام تناقض صريح بين فعلين ، مثل الإدراك الحسى والخيال ، يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما يفترض قيام الآخر ، وتحاكى موضوعاته موضوعات الآخر ؟ أظن أن الأمر يحتاج إلى مراجعة آرائنا عن الإدراك الحسى وعن الشروط التى يقوم عليها . الإدراك الحسى تقرير للواقع ، تقرير لموضوع فى العالم من حيث إن هذا الموضوع حاضر أمام الذهن حضوراً فعليًّا . ولكن كى يحتفظ هذا التقرير بقيمته ، وكى يقوم إدراك حسى بالمعنى العام ، يجب أن نفترض ، بين فعل الإدراك وبين الموضوع المدرك ، تميزاً دقيقاً . وواضح أننا فى إدراكنا الحسى لشىء واقعى لسنا مختلطين بالشىء ، وأننا نميز ضمناً ، عن الشىء ذاتَنا المدركة ، لا فى طبيعتها فحسب ، بل فى شرط وجودها أيضاً . ومعنى هذا أن الإدراك الحسى يتضمن إمكان قيام النفس بمعزل عن العالم الذى تدركه أو عن موضوع منه . ولكن ماهذا الشرط الضمنى للإدراك إلا ما ذكرناه بالذات عن الخيال ؟ يفترض كل من الخيال والإدراك عالماً واقعيا ، ويتخذ الإنسان لذاته فى كل منهما موقفاً إزاء العالم وموضوعاته ، ويُمَيِّزُ ذاته فى كل منهما عن هذا العالم .

لا يذهب إذن الاختلاف بينهما إلى حد يمنع اتفاقهما ومشابهة موضوعات أحدهما لموضوعات الآخر ، ولا إلى حد يحدث اضطراباً فى النفس وفقداً لتوازنها . وإذا كان الخيال يفترض العدم فى موضوعاته ، عدم العالم بالنسبة للنفس التى تتخيل ، فإلى حد ما يفترض الإدراك هذا أيضاً ، ولا يمكن كما ذكرنا ، إدراك العالم أو موضوع فيه إلا إذا كنا قادرين على اتخاذ حركة تراجع وانسحاب بالنسبة له ، وما معنى هذا التراجع إلا أننا فى الإدراك لانقرر على الإطلاق أننا والعالم شىء واحد ، بل إننا نعتبر العالم عدماً بالنسبة للنفس . وهذا بالضبط ما يقوله هيدجر إذ : « العدم قائم فى جوهر الوجود » .

ولكن واضح أن النفس لا تقرر هذا العدم تقريراً صريحاً فى الإدراك الحسى كما تفعل فى الخيال . وواضح أن النفس عند اتحادها بالعالم فى الإدراك الحسى ،

عند اتخاذها ، على قول سارتر ، الموقف الواقعي ، تقترب من العالم أشد الاقتراب . فتراجعها عن العالم فى الإدراك بالقوة لا بالفعل ، وتجاوزها له ، بالقوة لا بالفعل . وواضح أخيراً أن الخيال انقلاب النفس من حالة القوة إلى حالة الفعل ، فتتخلى النفس عن مقتضيات العالم ، عندما تطغى هذه على النفس وتفقدها حريتها .

إذا كان الخيال يعنى مجهود النفس للتخلص من مقتضيات الوجود ، ولإعطاء الحرية أتم معانيها ، فالفن دون شك هو أقصى مراتب الخيال ، وهو أكثر أفعاله استقراراً وانتظاماً . للفن على الأقل ما للخيال من خصائص ، ولآيات الفن ما لموضوعات الخيال من المميزات . فالفنان لا يعمل كما يدعى البعض على تحقيق فكرة مثالية أو على إنزالها إلى ميدان الواقع ، وصبغها بألوانه ، بل يجهد الفنان ، ما استطاع ، أن يخرج ذاته ومصنوعاته من الواقع . انظر إلى هذه اللوحة لماتيس المصور الفرنسى المعاصر ، تجد اللون الأحمر فيها يكتسب قيمته الفنية بقربه من صوف سجادة ، ثم لاحظ كيف يتخذ اللون الأخضر الذى يغطى الحائط فيها لمعاناً جافيا جامداً ، وذلك بمجاورته للأحمر المذكور . والحقيقة أن ألوان اللوحة تكتسب معناها ومغزاها من موقعها فى كلٍّ غير موجود أمامنا ، فى كلٍ قائم فى العدم . واللوحة التى أمامنا وألوانها وتركيب هذه الألوان فيما بينها تمضى بذهننا إلى كلٍّ فى العدم يوحى لنا المصور به ، ويريد منا أن نشاهده فى اللوحة .

أنت فى دار من دور الموسيقا تتوقع سماع السيمفونيا السابعة لبيتهوفن : قبل ما تبدأ الجوقة ، فأنت مثل غيرك من الناس تشعر بمرور الوقت شعوراً واقعيا يتفاوت حسب ملابسات خارجية أو حسب حالة نفسك ، ولكن ماتبدأ الجوقة بالعزف ، حتى تأخذك النغمة من الواقع ، وتنتقل بك إلى عالم آخر هو عالم السيمفونيا السابعه ذاتها وهذه السيمفونيا التى تنصت لها فى روعة وخشوع لا تبدأ بالمعنى الدقيق فى هذا الوقت أو ذاك ، ولا تمر أجزاؤها بلحظات الزمن الذى يقدره الناس بشعورهم أو بساعاتهم . وللسيمفونيا السابعة نهاية ؛ ولكن هذه النهاية لا تسبق لحظة أخرى هى التى ستجد نفسك فيها عند ما تترك مع المستمعين دار الموسيقا ، بل لا تقوم هذه النهاية إلا بالنسبة لابتداء السيمفونيا ولأجزائها المختلفة ، ولا علاقة زمنية لها بزمنك أو زمن الآخرين .

تأمل فيما تشعر به عند خروجك من المسرح من الاشمئزاز . كنت فى عالم آخر تملَّكَ نفسك حتى عجزت ، عند زواله ، عن اتخاذ ما يناسب العالم الواقعى من المواقف . هذه وأمثلة أخرى غيرها تؤيد فكرة سارتر فى أن الفن كجميع مظاهر الخيال يفترض انعدام العالم .

أخيراً يؤدي بنا التفكير فى الصلة الوثيقة بين الفن والجمال إلى القول بأن الجمال غير متحقق فى الوجود ، وأن العالم فى ذاته غير جميل ، وأننا لا نشعر بالجمال إلا بقدر ما نتراجع عن العالم ، وبقدر ما يدخل العالم بالنسبة لنا فى العدم . ويقول سارتر إننا لا نستطيع القول عن امرأة إنها جميلة إذا كنا نراها أو نلمسها ، بل جمال المرأة يصبح حقيقة لأيد لا تلمس ، ولأعين لا تبصر .

هذا بإيجاز ما يراه سارتر فى الخيال وفى صلته بالإدراك والوجود ، وهذا ما يخلص له من النتائج فى الفن والجمال . ولسنا نرمى إلى التعرض لهذه النتائج بالفحص والتمحيص ، ولا إلى تخطئة سارتر فيما يدعيه من انفصال قِيَمَ الفن والجمال عن الحياة والواقع ، ولا إلى مناقشة موقفه من الوجود والعدم بالرغم مما لهذا الموقف من الخطر والأهمية . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى المسألة الرئيسية التى يعالجها فى كتاب « الخيالى » . ويبدو لنا أنه إذا لمسنا ضعف موقفه من الخيال وضعف منهجه فى معالجة الخيال ، لمحنا ولو عن بعد ، موقفه إزاء المشكلات الأخرى المتعلقة بالفن وبالفلسفة البحتة .

نلاحظ أولاً أن سارتر لم يميز بين نوعين من الخيال : واحد يسترجع ما أعطاه الحس مرة أو مرات ، ويقرب من الذاكرة إلا فى أنه غير مصحوب بتعرف ولا بتعيين . وآخر يصنع موضوعاته صنعاً ، ويؤلفها تأليفاً . لا يميز بين نوعين من الصور ، صور راجعة وصور جديدة . وإن كان كثير مما يذكره سارتر ينطبق على الخيال المخترع ، فلا شك فى أن أغلبه لا ينطبق بأى حال من الأحوال على الخيال الآخر ، وهو صورة أو تصور طبق الأصل لما أعطاه لنا الإدراك الحسى . ولا شك أن سارتر بإهماله هذا التمييز يقنع القارئ الساذج بجدَّة ما وصل إليه من النتائج ، وباتساع الميدان الذى عملت بحوثه على اكتشافه .

هناك ثانياً نواح فى وصف سارتر لا نرى بالضبط صلتها بفعل الخيال . فما يذكره خاصة عن الشبه القائم بين مظاهر الخيال ، وضروب السحر والشعوذة أو تصورات البدائيين شىء قد كان يجدر به عدم الاسترسال فيه . وأغلب الظن

عندنا أنه طرقَ هذه الأبواب . لأنها من ناحية تسمح له بإنشاء أدبي يقبل عليه الجمهور ويحبه ، ولأنها متصلة من ناحيــة أخرى ببعض نظريات رائجة فى هذه الأيام ، يفترض صحتها دون أن يعرض لها بالتفصيل ، ودون أن يناقش قيمتها على الإطـلاق . !

يقول سارتر إن الخيال إنكار هو مظهر لحرية النفس ، وإن موضوعه العدم . ويدعى أن هذا التفسير قد أعانه فى حل المشكلة القائمة بصدد صلة الخيال بالإدراك الحسى . ولـكن لا يسعنا إلا أن نلاحظ هنا أن ما اعتبره سارتر شرطاً لازماً لفعل الخيال ، عاد فصرح بأنه لازم أيضاً للإدراك ، بل قبل ضمناً أنه شرط لازم لجميع أفعال الشعور أيا كانت : ففى كل فعل من أفعالهـا تنكر النفس أنها والعالم شىء واحد ، وفى كل فعل تقرر ضمناً أو صراحة حريتها . أى إن الشرط المذكور لا ينطبق على فعل الخيال فحسب ، بل هو عام مشترك بين جميع أفعال النفس . لا يميز سارتر إذن الخيـال عن غيره ، ولا يفرقه فى ذاته ، ولا يعيِّنُه بالمعنى الدقيق ؛ فهو لا يفسره من حيث هو خيال .

وجمـلة القول : عمـل سارتر على إعطائنا وصفاً سَيْـكُـولوُجِيًّا دقيقاً للخيال ، ووفق فى ذلك أتم التوفيق . ونجح سارتر فى معالجة المسائل المتصلة بالخيال بطريقة جـذابة مشوقة ، وعبّر عن آرائه بأسلوب جميل رائع ، ونظم أفكاره تنظيماً لبقاً دقيقاً : ثم إنه حاول إيجاد تفسير فلسفى للخيال ولموضوعاته ، فلم يوفق فى ذلك ، ولم يحصل بالفعل على شىء دقيق . وربما أمكن ردُّ عـدم توفيقه هذا إلى ما ينقص سارتر من مميزات الفيلسوف الحقيقى ، أى الدقة فى التحليل والتمييز ، والقدرة على رؤية الأشياء كما هى فى ذاتها ، وعلى الفحص عن المسائل فى أعماقها ، والجهد المتصل لبلوغ الحقيقة المجردة مهما كان السبيل إليها وعراً عسيراً .

نجيب بامى

مأساة بنى سراج

ألفى بعض كتاب الغرب المحدثين مستقى خصبا لأقلامهم وخيالهم فى بعض حوادث التاريخ الإسلامى التى تمتاز بروعتها ولونها المشجى، وهم يجدون فيها مجالهم بالأخص متى كانت تحتوى على عنصر نسوى او غرامى . فنجد مصرع البرامكة وقصة العباسة أخت الرشيد مثلا تقدم مادة طيبة لكتاب مثل لا هارپ(١)، ونجد حوادث سقوط غرناطة ومصرع دولة الإسلام فى الأندلس تقدم مادة غزيرة لطائفة كبيرة من الكتاب والشعراء الأسبان يصوغونها فى ألوان زاهية من الفروسية وفى أساليب شعرية وغنائية مشجية . ويقتفى أثر هؤلاء بعض الكتاب الغربيين مثل واشنطون إيرڤنج الكاتب الأمريكى، إذ يقدم لنا طائفة ممتعة من القصص المتعلقة بحمراء غرناطة(٢) وشاتوبريان الكاتب الفرنسى إذ يقدم لنا قصته المعروفة: «مغامرات آخر بنى سراج»(٣). ومن الغريب أن تجذب هذه الألوان المؤثرة الزاهية معاً كتاب الغرب قبل أن تجذب كتاب المشرق، فلا يتخذونها مادة للقصص التاريخى الرفيع، والمسرحيات الممتعة المليئة بالعبر .

وسوف نعرض فى هذا الفصل لصفحة من هذه الصفحات الإسلامية المشجية، وهى مأساة بنى سراج التى ألهمت قلم شاتوبريان . بيد أنه يجدر بنا، قبل أن نعرض لجانبها القصصى الذى غلب على كتاب الغرب، أن نحاول أن نلقى شيئا من الضياء على أصلها التاريخى .

ومن بواعث الأسف أن الرواية العربية لاتقدم إلينا فى هذا الموطن مادة تذكر، شأنها فى معظم المواطن والحوادث التى ترتبط بسقوط غرناطة . وكل ماهنالك أنها تشير إلى بنى سراج إشارة عابرة، فيذكر لنا المقَّرى عند حديثه عن

---

(١) فى مسرحيته *Les Barmécides* .

(٢) *Tales of the Alhambra.*

(٣) *Les Aventures du dernier Abencérage.*

أصول الأسر العربية القديمة التى نزحت إلى الأندلس أن بنى سراج ينتمون إلى مذحج وطيّء من البطون العربية العريقة التى وفد بنوها منذ الفتح إلى الأندلس وكان منزلهم بقرطبة وجنوبى مرسية[1]، ولا نجد بعد ذلك ذكراً بنى سراج خلال حوادث التاريخ الأندلسى إلا فى مرحلته الأخيرة، أعنى مرحلة الانحلال التى انتهت بسقوط غرناطة وسقوط دولة الإسلام فى الأندلس. فنى هـذه المرحلة تشـير الرواية غير مرة إلى الدور الذى لعبته الأسر القوية العريقة فى تاريخ مملكة غرناطة، وتخص بالذكر بنى سراج وبنى الزعزى، وتنوه بما كان بينهما من التنافس فى اجتناء السلطان والنفوذ، وما كان لذلك من أثر فى تطور الحوادث. وقد كان هذا التنافس طبيعيا بين الأسرتين؛ فبنو سراج يمثلون العصبية العربية القديمة، وبنو الزعزى من أصول البربر؛ والخصومة بين العرب والبربر شهيرة فى التاريخ الأندلسى. وكان بنو سراج فى أواخر أيام مملكة غرناطة يحتلون المقام الأول فى النفوذ، وينافسون بنى الأحمر مـلوك غرناطة فى البذخ والجود والبهاء، ولهم شهرة خاصة فى ميدان الفروسية. وكان بنو الأحمر يتوجسون أحيانا من منافسة هذه الأسر القوية ولا سيما بنى سراج. ولما ارتقى السلطان سعد الملقب بابن إسماعيل النصرى عرش غرناطة حاول أن يقضى على نفوذ بنى سراج بوسائل عنيفة سافرة فلم يستطع، لوجاهة الأسرة، ورسوخ مكانتها؛ ونشبت من جراء ذلك فتنة خطيرة فى غرناطة (سنة ١٤٦٢م) كادت تحتمل عرشه. وكان تنافس الأسر والعرش من نذر الانحلال والتفكك التى أودت غير بعيد بمصير مملـكة غرناطة.

وفى عهد خلفه السلطان أبى الحسن ظهر بنو سراج على مسرح الحوادث مرة أخرى. وكان السلطان أبو الحسن قد أقصى زوجه الشرعية الأميرة عائشة الحرة وولديها محمداً ويوسف وزجهم إلى أحد أبراج الحمراء نزولاً على تحريض زوجه الأسبانية الحسناء إيزابيلا دى سوليس التى تعرفها الرواية الإسـلامية باسم «ثريا». وانقسمت غرناطة عندئذ إلى فريقـين خصمين، يؤيد أحدهما السلطان وزوجه الأسبانية، ويؤيد الآخر الأميرة الشرعية وحق ولدها فى العرش. وكان بنو سراج فى مقدمة الفريق الثانى وقد اضطلعوا بأكبر دور فى مناصرة الأميرة عائشة ومعاونتها مع ولديها على الفرار من سجن الحمراء (سنة ١٤٨٢ م)؛ وبذا

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ .

استطاعت أن تحشد أنصارها فى وادى آش ، وأن ترفع لواء الثورة . ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط. ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير كمين مروع لإهلاكهم فى أحد أبهاء الحمراء ، وهو البهو الذى عرف فيما بعد ، وما يزال حتى اليوم يعرف ببهو بنى سراج .

بيد أن الرواية تختلف هنا ، فتنسب تدبير هذا الكمين وتنسب المأساة كلها إلى عصر السلطان أبى عبدالله محمد ولد السلطان أبى الحسن وخلفه فى العرش ، وهو الذى سقطت على يده غرناطة وانتهت دولة الإسلام فى الأندلس . وهنا تتخذ الرواية لون القصص المغرق ، وتقول لنا إن المأساة ترجع إلى أسباب غرامية خلاصتها أن محمد بن سراج (أو ابن حامد) عميد بنى سراج وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها. وتنسب بعض الروايات هنا هذا الحادث إلى عصر السلطان أبى الحسن أيضا ، وتقول لنا إن الأميرة التى هام بها ابن سراج كانت تسمى «فاطمة» وهى على الأغلب من بنات السلطان ، وأن السلطان دبر كمينا لهلاك بنى سراج بالاتفاق مع ولده أبى عبد الله . ولكن معظم الروايات تقدم إلينا القصة فى وضع آخر ، وهو أن آل الزعزى خصوم بنى سراج اللُّد حاولوا القضاء عليهم بمختلف الوسائل ، فوشوا بهم لدى السلطان أبى عبدالله واتهموهم بالتآمر عليه وسعيهم إلى خلعه وقتله ، واتهموا كبيرهم ابن حامد (أو محمد بن سراج) بتهمة أشنع وهى أنه يتصل بالسلطانة وهى الأميرة مريمة اتصالا غراميا ، وأنه رئى معها أكثر من مرة فى أحراش حدائق جنة العريف . فثار أبو عبد الله لهذا الاجتراء الصارخ على عرشه وعلى شرفه ، وقرر سحق بنى سراج جميعاً ، ودبر مع آل الزعزى كمينا محكما لإهلاكهم ، فدعا أكابر الأسرة ذات يوم إلى مأدبة أقامها بقصر الحمراء ، وأدخلوا إلى بهو الحفل واحداً بعد واحد بترتيب معين من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم اقتاده جماعة من آل الزعزى إلى الفسقية الرخامية التى بالبهو ، ونحروه على حافتها ، وأخفوا فى الحال جثته ، حتى هلك معظمهم على هذا النحو المروع . ولم يفطن فى النهاية لهذه الكمين الدموى سوى قلائل منهم أنبأهم وصيف لهم استطاع أن يتسلل داخل البهو ، وأن يخبرهم بما يقع . وبلغ من قتل منهم يومئذ ستة وثلاثين من أنجاد الفرسان والسادة . وهكذا سحقت الأسرة الشهيرة وفقدت كل نفوذها وسلطانها . وسمى المكان الذى تمت

فيه تلك الجريمة الشنعاء من ذلك الحين « بهو بنى سراج » وهو البهو المقابل لبهو الأسود الشهير. وما زالت ثمة بقع سوداء فى أرض البهو الذى وقعت فيه المأساة تزعم الرواية أنها بقع من دم القتلى، وأنها لن تمحى أبدا. وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع فى هذا البهو فى بعض الليالى أنات خافتة وقعقعة سلاح، وأنه حدث أكثر من مرة أن رأى حراس الحمراء فى جوف الليل بعض الجند المسلمين وقدلمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة يقطعون البهو جيئة وذهابا.

تلك مأساة بنى سراج كما تقدمها إلينا الروايات والأساطير والأناشيد الأسبانية. أما الرواية العربية فلسنا نجد فيها أثراً لهذه القصص المغرق، بل لسنا نجد فيها ذكراً لبنى سراج فى حوادث غرناطة الأخيرة، وهى أيضاً ضنينة علينا بتفاصيل هذه الحوادث المؤسية التى انتهت بذهاب دولة الإسلام فى الأندلس. ولكن الأدب الأسبانى يتناول هذه الحوادث فى كثير من الأقاصيص والملاحم المغرقة. وأشهر مصادر هذه التراث كتاب وضع فى هذا العصر وزعم كاتبه، وهو أسبانى من أهل مرسية يدعى جيتربيرز دى هيلا، أنه نقله من التواريخ العربية، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة، وكثير من القصص الخرافية، يدور معظمه على حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ومنافسات بنى سراج وبنى الزغرى وغيرهم من أمجاد غرناطة. وقد ذاع هذا المؤلف فى أسبانيا ولا سيا فى ريف الأندلس وترجم إلى لغات عدة. بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لروايات عربية، وكل ماهنالك أنه مزيج من الأساطير النصرانية والشعبية المغرقة التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة، وأذكاها خيال الأحبار والفرسان والشعراء، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة.

فى سنة ١٨٢٦ ظهرت قصة شاتوبريان « مغامرات آخر بنى سراج » التى وضعها قبل ذلك بأعوام عقب زيارته لأسبانيا. وقد وقعت حوادث هذه القصة بعد سقوط غرناطة بأربعة وعشرين عاما أعنى فى سنة ١٥١٥ م وبطلها فتى أندلسى يدعى ابن حامد، يصفه شاتوبريان بأنه سليل بنى سراج وآخر عقبهم. وقد نزح بنو سراج عقب سقوط غرناطة إلى أحواز تونس، وعاشوا هنالك على مقربة من أطلال قرطاجنة القديمة عيشة متواضعة فى غمر الحسرات والذكريات

المحزنة، واشتغلوا بالتطبيب بعد الفروسية، وهلكوا واحداً بعد الآخر حتى لم يبق منهم سوى ابن حامد. وكان فتى وسيم الطلعة جم الذكاء والفطنة والكرم، وهى الصفات التى بها عرف آله. توفى أبوه وهو فى الثانية والعشرين من عمره، فاعتزم أن يحج إلى غرناطة موطن آبائه القديم، فركب البحر إلى الأندلس وجاز إلى غرناطة واتخذ هنالك صفة طبيب عربى جاء ليبحث عن الأعشاب النادرة فى جبال الأندلس.

ففى ذات يوم أخذ يطوف بربوع غرناطة وحمرائها وحدائقها الملوكية، وقلبه يخفق بالذكريات المؤلمة. ولما جاء المساء لم يستطع أن يقاوم شعوره، فعاد يطوف بأحيائها طول الليل حتى ضل طريقه وأدركه الصباح. وبينما هو يسير هائم اللب إذ وقعت عيناه على فتاة أسبانية رائعة الجمال تخرج من منزلها ووراءها وصيفة فسحره جمالها أيما سحر، ودهشت هى لمنظره وثيابه العربية، فتقدمت منه بظرف وسألته: أهو غريب؟ وهل ضل طريقه؟ فأجابها بألفاظ وعبارات رقيقة أن نعم، فسارت أمامه بظرف حتى قادته إلى باب الخان الذى ينزل فيه.

وترك منظر الحسناء فى قلب ابن حامد أثراً لايمحى وشغف بها أيما شغف، ولبث أياما يطوف هائما فى غرناطة وهو يتصورها فى كل رؤية وكل مقابلة، حتى كان ذات يوما يجول على ضفاف نهر «حدارة» على مقربة من حدائق جنة العريف فسمع صوت قيثارة وغناء، فخفق قلبه واقتحم حرش الأشجار، فألفى نفسه بين جماعة من الفتيات ذعرن لمقدمه، وصاحت إحداهن: «هذا هو السيد العربى» وكانت هى فاتنة قلبه.

كانت دونا بلانكا — وهو اسمها — سليلة أسرة عريقة تنسب إلى السيد الكمبيادور، وأبوها الدوق سانتافى، ولها أخ فتى يدعى دون كارلوس. وكان الدوق قد استقر فى غرناطة فى بعض أملاك الأسر المسلمة التى وهبت لأبيه، وكانت بلانكا لفرط جمالها وذكائها وظرفها معبودة الأسرة، وكانت تمرح فى ذلك اليوم مع نفر من صاحباتها. فما كاد يراها ابن حامد حتى صاح أنه يبحث عنها كما يبحث الظمآن عن الماء. فأجابته بلانكا أنها كانت تنشد قصة بنى سراج وهى تفكر فيه. فخفق قلبه وكاد يصيح بها أنه «آخر بنى سراج» لولا أنه خشى أن يثير الكشف عن شخصه ريب السلطات.

وهنا قدم والد بلانكا الدوق، فبادرت إليه قائلة: «هذا هو السيد المسلم الذى حدثتك عنه ياأبت، وقد عرفنى وجاء يشكرنى على ماأسديت إليه». فرحب الدوق

بابن حامد ! وأنس الجميع بمقدمه ، وأخذوا يسألونه عن بلاده وأحواله، فكان يجيب بظرف وفصاحة ، وكان يتحدث القشتالية كأحد أبنائها ، ثم تناولوا الحلوى والشيكولاتة ، وانقضى اليوم فى غناء ورقص وطرب ثم عاد الجميع إلى غرناطة ، ووعد ابن حامد أن يلبى دعوة الدوق لزيارته .

سرى إلى ابن حامد وبلانكا حب عنيف متبادل . وكانت بلانكا تقول فى نفسها : « آه لو دخل فى دينى وكان يحبنى لتبعته إلى آخر العالم . » وكان ابن حامد يقول لنفسه : « آه لو أسلمت بلانكا ! » وأفضى إليها بحبه ذات يوم وهما يتنزهان فى أبهاء الحمراء ، فأجابته كيف يمكن ذلك وهو عربى كافر وهى أسبانية نصرانية ؟

واستدعى ابن حامد فجأة إلى تونس ؛ إذ كانت أمه على شفا الموت ، فاستأذن من حبيبته فى السفر ، وأقسم لها أنه سوف يحبها إلى آخر نسمة من حياته ، فأجابته باكية أنها سوف تنتظره كل عام ، وأنها سوف تذكره إلى الأبد ، وتقبله زوجا يوم يدخل دينها .

وعاد ابن حامد إلى تونس فألفى أمه قد توفيت ، وقضى بين أطلال قرطاجنة أشهراً وهو هائم اللب ، حتى جاء يوم السفر إلى غرناطة ، فركب البحر إلى مالقة وكانت بلانكا هنالك ترقب مقدمه خلال التلال المشرفة على الثغر . فلمحت ذات يوم مركبا عربيا منشور الشراع ، فهرعت إلى المرسى ولمحت عربيا يرتدى ثيابا فخمة ولم يكن سوى ابن حامد، فبعثت إليه تدعوه إلى مكانها، فهرع إليها ابن حامد وارتمى أمام قدميها ، وقدم إليها هدية طريفة هى غزالة وضعت فى سلة ، قائلا إنها تشبهها خفة ورشاقة . وسارت بلانكا ووالدها الدوق وابن حامد إلى غرناطة ، وهنالك أنفق الحبيبان أوقاتا سعيدة فى التجوال والرياضة وتبادل العواطف المضطرمة ، ولكن كلاهما لبث راسخ العزم على التمسك بدينه . فكلما دعته بلانكا إلى اعتناق دينها دعاها هو بدوره إلى اعتناق دينه .

وعاد ابن حامد إلى موطنه ، ثم سافر فى العام التالى إلى غرناطة وقصد إلى منزل بلانكا ، وكان والدها الدوق غائبا فى مدريد ، فلقى أخاها الدون كارلوس وكانت تعبده ويعبدها حبا ، ولكن تولته الدهشة وانكمش فؤاده حينما ألفى عند قدمى بلانكا فتى لم يره من قبل ، وهو أسير فرنسى من أصل نبيل يدعى لوتريك توثقت بينه وبين الدون كارلوس أواصر الصداقة منذ أسر فى موقعة بافيا ، وعاد معه إلى أسبانيا . ورحبت بلانكا بابن حامد وحياه دون كارلوس برقة ، فانحنى

ابن حامد أمام الفتاة وانصرف لفوره ، وساور لوتريك الشك فى نظراتهما فانصرف هو أيضا . وهنا أفضت بلانكا إلى أخيها بحقيقة الأمر وباحت له بحبها لابن حامد، فصاح بها ساخطا كيف تحب سليلة السيد الكنبيادور عربيًا ومسلماً، وقد كان يظن أنها تقترن بلوتريك. فأجابته أنها حرة فى أمرها وعواطفها ، بيد أنها لن تغدو على أى حال زوجة لمسلم .

وهرع دون كارلوس إلى ابن حامد ودعاه إلى البراز ، فأجابه إلى طلبه وتبارزا خارج غرناطة فغلبه ابن حامد ولكنه ترفع عن إيذائه . وهنا جاء لوتريك وبلانكا إلى مكان المبارزة مسرعين وانتهى الأمر بسلام واحتجب ابن حامد حينا نزولا على نصح بلانكا .

ولبث ابن حامد تفترسه مختلف العواطف والمشاعر. وجاءته بلانكا ذات يوم وهى شاحبة ذابلة وخاطبته بحدة وذكرت له كيف تذوى صحتها فى حبه ؛ فهجس بخاطره مدى لحظة أن يقبل التنصير وينتهى الأمر. وفى الغد كان إلى جانب بلانكا وأخيها الدون كارلوس ولوتريك فى حفل أنيق فى جنة العريف ، وأخذ كل من الفتيان الثلاثة يلقى بعض أناشيد الفروسية ، وأنشد ابن حامد قصة من وضع شاعر من بنى سراج ، وتبين من أناشيد دون كارلوس أن جد ابن حامد وهو فارس بنى سراج أيام حرب غرناطة قد لقى حتفه على يد أسرة حبيبته، وأن أسرتها هى التى استولت على تراث بنى سراج ، فعندئذ كشف ابن حامد عن شخصه ، وأعلن أنه آخر « بنى سراج » ، وقدم الدليل على نسبته خاتم بنى سراج معلقا فى عنقه بسلسلة من الذهب، وتضرع إلى حبيبته أن تنسى كل شىء ، وأنه يحلها من كل شىء وأنه يضع نفسه تحت تصرفها لتأمره بما يفعل . فعندئذ أشارت اليه بلانكا أن يعود إلى الصحراء ثم أغمى عليها .

فركع أمامها ابن حامد ثم غاب عن الأنظار . وفى نفس الليلة سافر إلى مالقة وركب البحر إلى وهران ، وهنالك انخرط فى سلك قافلة الحاج المسافرة إلى مكة ولم يعرف بعد ذلك مصيره قط .

ومرضت بلانكا حتى أشرفت على الموت، ثم تماثلت وعاشت فى حزن مقيم وعزلة مطبقة،تذهب كل عام إلى مالقة تحدج البحر فلا ترى أحدا، وتقضى أيامها فى التجوال فى أبهاء الحمراء. وقد توفى والدها من الحزن ، وقتل أخوها فى مبارزة ، واختفى لوتريك فلم يسمع به أحد .

يقول شاتوبريان : وهنالك فى تونس عند الباب الذى يؤدى إلى خرائب قرطاجنة توجد مقبرة ، وبها قبر منعزل ليست له أية علامة مميزة ، يصفونه بأنه قبر « آخر بنى سراج » .

تلك هى القصة التى ألهمتها ذكريات بنى سراج قلم الكاتب الفرنسى الكبير. ومن الواضح أنها لاتقوم على أصل تاريخى ، ولكنها تقوم كمعظم القصص المتعلق بحوادث سقوط غرناطة وأمجادها الأعلام ، وفروستها الأخيرة على تراث الأساطير والأناشيد الأسبانية المغرقة . على أنها تبدو بما يسبغه عليها شاتوبريان من بلاغته وفنه ، وبما يتخللها من ذكريات غرناطة والأندلس ، قطعة من الخيال المؤثر . وهى ليست إلا مثلا من أمثلة عدة استطاع فيها الخيال الأوربى أن يجد فى صفحات التاريخ الأندلسى الأخيرة كل عناصر الإلهام والفن الرفيع .

محمد عبد الله عنان

ذكريات

القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧

فى عام ١٩٠٣ اجتزنا امتحان الشهادة الابتدائية ، وكنا فى القطر كله لا نزيد على ثلاثمائة أو أربعمائة تلميذ . وعقد الامتحان فى القاهرة . ولم يكن بالقطر كله سوى ثلاث مدارس ثانوية كانت فى نظامها ثكنات يتسلط عليها الإنجليز بالأوامر العسكرية والعقوبات العسكرية . والتحقت بالمدرسة التوفيقية ثم بالمدرسة الخديوية . وكان الإنجليز يحاربون شيئين فى الأمة لا ثالث لهما . وكانوا يكفلون بقاءنا فى ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين، وهما محاربة التعليم، ومحاربة الصناعة. ونجحوا فى ذلك نجاحاً عظيما ؛ فلم يسمحوا طيلة إشرافهم على وزارة المعارف بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات فى أى مدينة من مدن القطر . وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة ، كأن القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدى. وكانوا يصرون على المحافظة على « تقاليدنا » . فكانت المدرسة السنية الابتدائية فى القاهرة ، وكانت ناظرتها إنجليزية ، تصر على البرقع للتلميذات وهن فى العاشرة أو الثانية عشرة من العمر . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكتة . وتقدمت الآنسة نبوية موسى لامتحان الشهادة الثانوية فى سنة ١٩٠٧ من بيتها . فرفض دنلوب المستشار الإنجليزى لوزارة المعارف قبولها فى الامتحان . ولكنها استمرت على الكفاح وأحدثت ضجة فى الجرائد ، وتقدمت فى السنة التالية فقبلت ونجحت ولكن الإنجليز تنبهوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ سنة ١٩٠٨ إلى ١٩٢٩ حين تقدمت الفتيات اللاتى أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية فى ١٩٢٥ أى بعد إعلان الاستقلال بسنتين .

وكانت التلمذة فى المدرسة الخديوية فيما بين ١٩٠٣ و١٩٠٧ سلسلة من التعذيب . فكان أحدنا يعاقب طيلة العام الدراسى بالحضور يوم الجمعة فى المدرسة حتى لا يهنأ بالإجازة الأسبوعية . وكان من العقوبات المألوفة أن يحضر

أخذنا فى منتصف الساعة السابعة صباحاً أى فى الظلام مدة الشتاء ، ثم لا يترك المدرسة آخر النهار إلا بعد الحبس ساعة أو أكثر . وقد يكون السبب الوحيد لكل هذه العقوبات أن المعلم الإنجليزى قد طلب من التلميذ أن يقعد فوقف ، أو يقف فقعد . وقد تكون هذه المخالفة محض التباس لا أكثر . ثم يتأخر المسكين فى الحضور فى الساعة السادسة والنصف صباحاً ، فيزاد عقوبة والزيادة تتراكم . وهذا إلى عقوبات أخرى مهينة مثل حرمانه من الغذاء إلا برغيف يأكله وهو واقف أمام زملائه .

وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان ، وكان يتأنق فى تعذيبنا . وحدث أن الجمعية الخيرية الإسلامية أرسلت على نفقتها بعض تلاميذها من مدارسها الابتدائية ، وكانت تشترى لهم ملابسهم فى شكة واحدة . وكان هؤلاء المساكين يخجلون من هذه الملابس الصفراء الرخيصة . واشتروا غيرها من الملابس المألوفة ، حتى لا يتميزوا بفقرهم أمام زملائهم . ولكن شارمان أصر على أن يلبسوا ملابسهم التى تصمهم بالفقر ، فلبسوها وكانوا ينزوون منا فى خجل .

ولست أشك فى أنه حين أعلنت الجرائد وفاة شارمان هذا غرقاً فى أواخر الحرب الكبرى الأولى عم الفرح جميع القارئين الذين كانوا تلاميذه . وقد يستنكر القارىء هذه العاطفة منا . ولكنى أؤكد أن التلمذة فى تلك السنين كانت عذاباً لا يطاق . وكان للمعلمين الإنجليز لذة فى تعذيبنا . وكانت العلاقة بيننا وبين هؤلاء المعلمين خالية من الإحساس البشرى ، حتى لقد كنا أحياناً نجهل اسم أحد المدرسين طيلة العام الدراسى .

وقضيت ثلاث سنوات بالمدرسة الخديوية لا أكاد أعد أسبوعاً واحداً فيها هنئت به . ولذلك تخلفت عن الدراسة . وكان من أسباب هذا التخلف أيضاً أنى مرضت بعينى واحتجت إلى إجراء عمليتين لا يزال أثرهما المشوه باقياً . كما أنى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العربدة الجنسية الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى ، وإزالة الكمد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة .

ولكن القاهرة فى تلك السنين (١٩٠٣ — ١٩٠٧) كانت حافلة بتباشير العصر الجديد . فقد رأيت فيها الأوتومبيل لأول مرة . ولكن الحياة القديمة كانت لا تزال راسخة . فكان السقاء يحضر الماء فى قربته لمنزلنا . وكنا أحياناً نركب الحمير من مكان إلى آخر لأن الترام كان فى شوارع قليلة . ولم يكن شىء

من المنازل قد بنى على الضفة الغربية من النيل، كما أن هليوبوليس كانت لا تزال صحراء. بل أذكر أن شمال المدرسة التوفيقية فى ١٩٠٣ كان خالياً من المبانى إلا القليل المتفرق.

وكنا نتحدث فى تلك السنين عن شيئين يحركان المجتمع المصرى هما الاحتلال الإنجليزى، وحركة قاسم أمين لتحرير المرأة، ولم أكن أهتم بالحركة الثانية كثيراً. وكان «الحزب الوطنى» أعظم قوة تكافح الاحتلال فى ذلك الوقت. وكان قد ألفه فى ١٨٩٧ ستة من الشبان المتنبهين هم: أحمد لطفى السيد (باشا) ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) وسعيد الشيمى. وكان «اللواء» جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة. ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينيـة فى الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية. وكان منطقهم يقول: «إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحقوق العثمانية فى مصر مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب بل إن تاريخهم يحفل بالمظالم فى مصر، فإن لنا الحق فى الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى.»

وقد انتهى موقفهم هذا إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينيًّا ساءت عواقبه واستغله الإنجليز أيام كرومر وجورست. ولم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السـيد حين أسس «الجريدة» ودعا دعوة مصرية بحتة ليس فيها شئ من الدعاية للأتراك أو للعرب أو للإسلام. ولكن حتى مصطفى كامل قبيل وفاته بخمسة أشهر أو ستة أعلن فى مقالات أن مصر يجب أن تكون للمصريين فقط، وكان لهذا يعارض الخديوى عباس فى ممالأته للدولة العثمانية. وبلغ من معارضته له أن جريدة «المؤيد» وصفته بأنه قد أصبح يشبه عرابى.

والواقع أن المجتمع المصرى فى بداية هذا القرن كان مجتمعاً تركيًّا أو كالتركى؛ فكان الاصطياف فى استانبول مألوفا، وكانت الحكومة المصرية تؤدى «الجزية» السنوية لتركيا. وكانت العائلات الغنية عائلات تركية خالصة أو خلاسية. وقلما كنا نجـد «مصريا» ثريا. ولذلك حين تتأمل العائلات المصرية الثرية فى ١٩٤٦ تجد أنها كلها حديثة العهد بالثراء. وهذه الحال تفسر لنا نفسية الحركة العرابية. فإن عرابى كان يتأمل وطنه فى ١٨٨٠ فلا يجد فيه

مصرياً صميماً يملك شيئاً يؤبه له . وكان جميع الأثرياء من الأتراك أو الألبان الذين كان محمد على قد اختصهم بالامتيازات ، وأقطعهم أرض المالكين المصريين الذين استولى على عقود امتلاكهم وأحرقها . ولذلك كنا لا نعرف رئيساً للوزارة إلا وهو تركى الأصل . بل أحياناً كانت تؤلف الوزارة وليس بين أعضائها مصرى صميم واحد أيام إسماعيل وتوفيق . وكنا نرى هؤلاء الأرستقراطيين على سخفهم ونذالتهم وهم فى عرباتهم يتنزهون على جسر قصر النيل . وكان يتقدمهم قوّاص أو قواصان وكل منهما فى سترة تهريجية يحمل عصا طويلة فى وضع عمودى ويعدو أمام العربة وهو يصيح : هيه ، هيه .

وكانت الجرائد المقروءة فى تلك السنوات ثلاثاً : «اللواء» الذى كان يحرك الأمة إلى المطالبة بالجلاء ويقرؤه جميع الشبان . و«المؤيد» الذى كان يؤيد الخديوى ويقرأه أبناء البيوتات التركية والمحافظون من المصريين . و«المقطم» الذى كان يؤيد الإنجليز ويقرؤه الموظفون . أما «الأهرام» فكان فى ركود يشبه الموت لا يقرؤه غير عدد صغير من التجار .

وكان الخديوى عباس محور الحركة الوطنية فى أوائل حكمه . وهو الذى أوعز بإيجاد الحزب الوطنى ، وكان يعاونه بالمال . ومما زاد الخديوى اتجاها نحو الحركة الوطنية تلك الإهانات الشخصية التى كان يجدها من كرومر ؛ فقد حصل هذا الرجل على تربيته السياسية فى الهند ، وكان يعامل المصريين كما كان يعامل الإنجليز الهنود قبل خمسين أو ستين سنة ، وكانت له فى ذلك أساليب طفلية . وقد رأيته ذات مرة وهو ينزل من عربته ، فلم ينزل مستوياً على قدميه كما يفعل البشر ، بل تقدم له خادم مصرى وحمله كأنه طفل من العربة فى عناية ورقة حتى حط جثته على الأرض . . . وقد فعل هذا فى ظنى كى يثبت أنه سيد مطاع أو ملك غير رسمى . وتشاجر مرة مع الخديوى لأن الحوذى الذى كان يسوق عربته إنجليزى . وحاول مرة ، عقب انتقاد الخديوى للجيش المصرى الذى كان كتشنر قائداً عامًّا له ، أن يعين وزيراً إنجليزيا . وكان كرومر هذا من عتاة الاستعماريين ، وهو الذى أحال القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، وقتل الصناعة المصرية قتلا تاما ، حتى إننا حوالى ١٨٩٢ أنشأنا مصنعا فى القاهرة لغزل القطن ونسجه ، وجئنا له بمدير إنجليزى ، فأصر كرومر على فرض الضرائب الباهظة عليه حتى أغلقه . ثم ، وهنا عبرة ، عين مديره الإنجليزى فى الحكومة المصرية .

وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل ، تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزيد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها ، فحمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى . فانتهز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين فى دنشواى إحدى القرى فى المنوفية ، وكانوا يصيدون الحمام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه، فاشتبك الريفيون مع الإنجليز فى مشاجرة انتهت بقتل بعض الإنجليز أو بالأحرى بوفاته . وعندئذ عينت محكمة « مخصوصة » كان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول باشا ، وكان المحامى عن الإنجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذلك عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين . وشرع فى محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب «المقطم» بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة ، فخجلت الحكومة وكذبت الخبر . ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً ؛ لأنه كان يتصل اتصالا تاماً بالإنجليز فى ذلك الوقت . وصدر حكم المحكمة بجلد البعض وبشنق الآخرين . وأنفذت الأحكام فى القرية ذاتها ، ورأى الأطفال آباءهم يشنقون أو يجلدون ، ورأت الزوجات والأمهات والشقيقات والآباء أعزاءهم وهم يتدلون من الحبال أو يصرخون من الجلد .

وأذكر أنى كنت فى الإسكندرية فى ذلك الوقت أتنزه مع أخى ، وكنا نأكل فى المطاعم . فلما قرأت الحكم عمنى جمود يشبه الغثيان ، فلم أستطع الأكل جملة أيام . ودارت فى رأسى خواطر جنائية عن هؤلاء المعتدين على بلادنا وأهلنا . وخجل الإنجليز أنفسهم من هذا الحادث الإجرامى ، فعزلوا كرومر عن وكالته فى مصر . وكان يرأس الوزارة الإنجليزية فى ذلك الوقت رجل من الحريين يدعى هنري كامبل بانرمان . ولكن وزير الخارجية المدعو جراى برر جريمة كرومر بأن وقف فى البرلمان يقول : إن التعصب الإسلامى قد تفشى فى إفريقية الشمالية كلها بما فى ذلك مصر . وكتب «المقطم» مقالا عنوانه « التعصب يمتد ويشتد » ما زالت كلماته ترن فى ذهنى ، ولا تزال «دنشواى» عندى من الذكريات النفسية الأليمة .

وقد وجدت تعزية فى شئ واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاما وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم ، فكنت أجد بعض الشبان يشترون «المقطم»

ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد ، وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية ، أصبحوا وطنيين يكرهون الإنجليز . وكان هذا الانفعال الجديد ملحوظاً فى أعضاء عائلتنا . ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسلامية من ناحية وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية ، فكانوا يشيحون عنها ويذكرون حكم الأتراك ومظالمهم أيام إسماعيل وتوفيق .

وشعرت فى ذلك الوقت بما لا زلت أشعر به الآن ، وهو أن الاستعمار البريطانى ليس هو العدو الوحيد لبلادنا ؛ لأن الرجعية بالتزام التقاليد ، وكراهة الروح العصرى فى السياسة والاجتماع والعقيدة ، كل هذا يتألف منه عدو آخر لعرقلة أمتنا عن التقدم . وكانت نظرية التطور التى تعلمتها من « المقتطف » قد جعلتنى ألمح بصيصا من الرؤيا الجديدة ، وأن أومن بأن العلم الذى حقق السيادة وان لم يحقق السعادة لأوربا ، جدير بأن يرفعنا من حضيض الفقر والجهل الذى وضعنا عليه الإنجليز ، وأن يحقق لنا استقلالنا . ولذلك وجدتنى من ذلك الوقت أدعو إلى أن نعيش المعيشة العصرية ، وأن أناصب الرجعيين المصريين العداء الذى أناصبه للإنجليز .

وكان على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » معدوداً بين كبراء الكتاب الصحفيين يحسن المناقشة ويلتزم المنطق والتعقل . وكان «المؤيد» قليل الانتشار يسبقه «اللواء» ويطغى عليه بمقالات مصطفى كامل النارية . ولكن «المؤيد» كان يثب فى الأزمات . ففى حادثة دنشواى مثلا أقبل عليه القراء ، وهم فى كمد وحزن وحيرة ، يقرأونه ويتعقلون ما يكتبه عن السياسة الإنجليزية المصرية وينظرون للمستقبل من خلال بصيرته .

ولكن علاقة الشيخ على يوسف بالخديوى جعلته يتجه صوب استامبول أو كما كانوا يسمونها « الأستانة العلية » حتى إنه عند ما أسس « مجلس المبعوثان » فى تركيا دعا المصريين إلى أن يرسلوا نواباً عنهم فيه ؛ إذ أن مصر جزء من الدولة العثمانية . . .

أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الألوف لسماعه . وكان فى شبابه وحماسته إغراء للشبان . وقد مات بالدرن ولما يبلغ الثانية والثلاثين .

وفى تلك السنين شبت الحرب بين روسيا واليابان ، فاتجه الرأى العام نحو اليابانيين باعتبار أنهم أمة شرقية مثلنا ، فكنا نفرح كلما قرأنا عن هزيمة روسية ؛ لأن روسيا كانت تمثل فى أذهان الجمهور أوربا التى تنتمى إليها بريطانيا ، كما أن اليابان كانت تمثل يقظة الشرق . حتى إن مصطفى كامل ألف عنها كتاباً باسم « الشمس المشرقة » .

وأحدث خليل صادق نهضة أدبية فى تلك السنين بسلسلة من القصص كانت تخرج كل شهر باسم «مسامرات الشعب» وهى قصص مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية اشترك فى الترجمة له فيها كتابنا المعروفون مثل حافظ عوض وعبدالقادر حمزة (باشا) ومحمود أبو الفتح وغيرهم. ولكن الأدب لم «يتمصر» فى ذلك الوقت؛ لأن كفاحنا للأمبيريالية البريطانية كان يستغرق كل مجهودنا . فكان الكاتب الذى يجد فى نفسه القدرة على التعبير الفنى يلتفت إلى السياسة قبل الأدب، ويجاهد فى إيقاظ الوجدان المصرى الوطنى . وما نقصنا نحن من هذه الوجهة سده إخواننا السوريون عنا ، وهم بالطبع كانوا أقرب إلى الثقافة العصرية الأوربية منا، لأنهم تعلموا فى الجامعة الكاثوليكية والجامعة الأمريكية فى بيروت . وهم أيضاً ، لأنهم كانوا مسيحيين ، لم يجدوا العائق السيكلوجى الذى كنا نجده نحن فى مصر إزاء الثقافة الأوربية العصرية .

وكنا فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ فى تبلبل سياسى وفى تبلبل آخر أدبى واجتماعى. فقد كانت تسود وجداننا السياسى نزعتان : الأولى والكبرى فى الاتجاه نحو الدولة العثمانية والدفاع عن استقلالنا المصرى ، بدعوى أننا جزء من هذه الدولة العثمانية . وواضح أن موقفنا هنا كان حائراً مقلقلا . ثم كانت النزعة الأخرى وقد بزغت ضعيفة تتلجلج بل لا تكاد تنطق، وهى الدعوة إلى الاستقلال المصرى التام والتخلص من بريطانيا وتركيا معاً .

أما التبلبل الأدبى فلم نكد نحس به فى تلك السنوات . وكان جميع الكتّاب ، باستثناء السوريين ، يعنون بالأدب دراسة القدماء من العرب لا أكثر . ولكن كان هناك تبلبل اجتماعى وضع خميرته محمد عبده وقاسم أمين ، ونمت وزكت هذه الخميرة فى الوسط الإسلامى : وأصبح لها دعاة وخصوم .

وكان الخديو عباس محبوبا إلى سنة ١٩٠٧ يجد فيه الشباب رمزاً للكفاح . وكانت شراسة كرومر ، الذى كان يرغب فى معاملته كما لو كان أحد مهرجاته

الهند ، تذ.ه فيه هذا الكفاح . وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية . ومما سمعناه فى تلك السنين أن ويصا واصف ومرقس حنا وعدداً آخر ، معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته ، فأصروا على أن يحلوا خيولها ويجروها هم . ولكن الخديو اتخذ موقفاً معارضاً لاتجاهات الشيخ محمد عبده نحو الأزهر ؛ فكان الخديو يصر على أن يبقى الأزهر كما كان منذ مئات السنين محافظاً لاتتسرب إليه تيارات الثقافة العصرية . وكان محمد عبده يصر على أن يتطور الأزهر إلى جامعة عصرية . واتجه المستنيرون من الأمة وجهة محمد عبده فازورّوا عن الخديو .

ولكن أعظم ما جعل الجمهور المصرى يتغير على الخديو هو ما كان يسمى بسياسة الوفاق . فإن الإنجليز ، بعد أن رأوا سياسة كرومر الشرسة مع الخديو قد أحالته إلى وطنى يدس لهم ويؤيد الحركات الوطنية ضدهم ، عينوا السر الدون جورست وكيلا لهم بالقاهرة ؛ فتحبب هذا إلى الخديو وزاد فى سلطته . وارتاح الخديو إلى هذا التغيير ارتياحا عظيما جدًّا ، وشرع يعارض الحركات الوطنية الدستورية ، ويسير مع الانجليز فى «سياسة وفاق» كان ضررها بالأمة فادحاً .

وكانت سياسة الوفاق هذه سبباً فى انقلاب مصطفى كامل ؛ إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح . ولم تمض سنوات حتى أصيب جورست بالسرطان ومات به فى انجلترا . وأعرب الخديو عن حبه له ، وتقديره لسياسة الوفاق بأن زاره خفية وهو فى فراش الموت .

ثم جاء كتشنر ، فأعاد سياسة كرومر ، ولكن فى فجاجة العسكرى وغشومته. وعاد الخديو إلى موقف المعارضة والمعاكسة للإنجليز .

ولو سئلت عن الفرق فى القاهرة بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ لقلت إن نبض القاهرة قبل أربعين سنة كان أبطأ ، كما أن الإيقاع كان شرقيًّا فى كل شئ تقريباً . فكان الناس يمشون أكثر مما يركبون . وكانت المدينة متجمعة متكتلة فى رقعة صغيرة لم تستفض بعد إلى صحراء هليوبوليس أو إلى الضفة الغربية من النيل . وكنا فى الملابس نعبر طور الانتقال . فإنى أذكر أنى لبست قفطاناً بحزام وأنا تلميذ بمدرسة الأقباط فى الزقازيق ، وكنت فى العاشرة من العمر . ثم لبست أيضاً وأنا فى الثانية عشرة بذلة رمادية من طراز الريدنجوت . أما نساؤنا وآنساتنا فمقين كلهن إلى سنة ١٩١٩ يتخذن البراقع والحبرات .

وكنا نقضي ليالي السرور عند الشيخ سلامة حجازي . والحق أن هذا الرجل كان ممثلا بارعا ، ولكنه لم يكن يمثل قدر ما يغني . فقد وجد إقبالا عظيما على أغانيه فكان التمثيل عنده ملحقاً بالغناء . وظني أنه كان يفعل هذا مضطرا ؛ لأن كفاءته المسرحية كانت عظيمة جدا . ولا بد أنه كان يتألم ؛ لأن الجمهور لا يقدرها ويؤثر عليها الغناء .

وكانت هناك إلى جنب مسرح الشيخ سلامه ملاهٍ أخرى كانت غاية في الفحش ، حيث كانت الراقصات يقمن بحركات وإيماءات هي في صميمها محاكاة غير فنية للتعارف الجنسي ، محاكاة فاحشة رخيصة دنسة متهتكة . وقد اضطررنا بعد سنة ١٩٢٢ ، إلى إلغاء هذا الرقص . ولكن بعض الأغاني القديمة الفاحشة لا تزال تغنى إلى أيامنا هذه .

وشرعنا ، بعد ذلك بسنوات ، نحس الوجدان المسرحي ، وندرك معنى الدرامة ومغزاها ، مما ترجمه فرح أنطون ومما مثله جورج أبيض من الدرامات عن اللغة الفرنسية .

سلامه موسى

آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية

العادات المصرية القديمة الباقية فى مصر إلى الآن

تنتشر فى كل أمة من الأمم مجموعة من العادات والتقاليد ، يزاولها الأفراد فى كل وقت كأمر طبيعى سهل ميسور لا يمكن أن يكون مجالا للبحث والمناقشة . وشأننا فى مصر شأن باقى الأمم ؛ فنحن نجد أنفسنا محاطين بطائفة من العادات نراها ونلمسها فى كل يوم منبثة بين طبقات مختلفة من الأمة هى السواد الأعظم من أهل هذه البلاد ، بحيث أصبحت هذه العادات والمعتقدات دستورا عند العامة فى المدن ، وجميع أهالى القرى من الفلاحين والمزارعين .

هذه العادات تترفع عنها تلك الأقلية من المتعلمين فى هذه البلاد ، فيصفونها بالخرافات ، وإذا ترفقوا فى الوصف والتعبير سموها بعلم « الركة » ، وهم يعنون بذلك فن الترهات والأباطيل والخزعبلات .

ولكن هل جشم أحد هؤلاء المتعلمين نفسه ، فبحث عن أصل هذه العادات والخرافات والمعتقدات بحثا علميا ردّها جميعا إلى أصولها القديمة ، طبقا لقواعد علم « الفولكلور » ؟

الواقع أننا لا نعرف شعبا فى العالم أجمع أشد محافظة من الشعب المصرى على تقاليده وعاداته . فقد مرت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيرت لغة البلاد ودينها عدة مرات ، ولكن الغزوات التى توالت على مصر لم تستطع أن تغير شيئا مما ورثه الشعب من التقاليد والمظاهر . قد يكون من المحتمل أن آلاف اليونان والعرب الذين استقروا فى البلاد قد تمكنوا من إحداث أثر ضئيل فى المدن الكبيرة التى استقروا فيها مجتمعين ، ولكن باقى البلاد التى تشمل آلاف القرى والدساكر بقيت محافظة على مصريتها الثابتة وتقاليدها القديمة دون أن يعتورها نقص أو تأثر . فالفلاح الحالى لا يزال يشبه أجداده

الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام المشابهة ، مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالى قد أصبح يتكلم العربية ويدين بالإسلام أو بالمسيحية ، أما ملامحه وطريقة معيشته وأدوات الزراعة التى يستعملها والمنازل التى يسكنها والعادات التى يزاولها والتقاليد التى يسير عليها ، فهى مصرية فرعونية فى روحها وشكلها . فما زال الفلاح يعيش هو وماشيته فى منازل مبنية من اللبن كما كان يعيش الفلاح فى العصر الفرعونى ، وما زال يستعمل فى فلاحة الأرض نفس المحراث والمنجل والمذراة وغيرها من أدوات الزراعة التى كان يستعملها أجداده الأقدمون ، وما زال يروى أرضه بنفس الشادوف الذى كان يروى الفلاح القديم أرضه به . فإذا جمع محصوله من الحبوب وضعه فى صوامع من الطين يقيمها فوق منزله كما كان يفعل الفلاح القديم تماما . وما زال هذا الفلاح الذى نراه اليوم خير خلف لسلفه العظيم فى صبره وجلده ، يعمل فى حقله طول ليله ويكد طول نهاره دون أن يدركه كلل ولا ملل . وهو فى وسط فقره يستعين عليه بروح المرح والدعابة . وما زالت السلال والمقاطف «والزكائب» التى تعرف «بالشنف» والحبال بل الأنوال التى يستعملها فى نسجه ، وكذا المنازل هى نفسها أدوات سلفه العظيم . وما زال فلاحنا قنوعا يكتفى من عيشه بالكفاف ، إذا جاع فكل ما يتمناه قطعة خبز يسد بها رمقه ، وهو كالفلاح المصرى القديم لا يختلف عنه فى مأكله ، لون الطعام الذى يوده ويهواه هو البصل والفجل .

فهذا الفلاح الذى وصفناه هو الذى حافظ على ما ورثه من تقاليد وعادات ظل يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة إلى خلفائه ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، حتى وصلت إلينا فى صور مختلفة من المعتقدات التى نطلق عليها الآن اسم علم « الركة » .

من المعروف أن قدماء المصريين كانوا يعبدون الشمس ، واستمرت عبادتها زمنا طويلا . ولكن الكثيرين سوف يدهشون عندما أقول إن أثر عبادتها لا يزال ظاهرا بيننا إلى اليوم . ففى بعض قرى الوجه البحرى لا يزال يقسم الأهالى بالشمس فيقولون : « وحياة الشمس الحرة » وفى جهات أخرى يحلفون بالشمس فيقولون : « وحياة البهيّة اللى تطلع من جبلها » . ومظهر آخر من هذه المظاهر يتضح فى عادة رمى السن إلى الشمس فيقول الصبى : « يا شمس

ياشمّـوسه ، خدى سن الحمار وهاتى سن الغزال . » أما البنت فتقول : « يا شمس ياشمّـوسه ، خدى سن الجاموسة وهاتى سن العروسة . »

وقد وحدت الشمس عند قدماء المصريين مع الجعل (الجعران) ، فسميت « خپرع » ، وإلى الآن نجد أهالى بعض جهات الصعيد إذا مرض أحدهم بالحمى المسببة عن ضربة الشمس ، خاط إلى طرف ثوبه جعلا ليأخذ الحمى .

وكما كان المصريون يعبدون الشمس ، فإنهم كانوا يعبدون أنواعا مختلفة من الأشجار ، كشجر الجميز والسنط والنخيل ، وكانوا يعتقدون أن الإلهـة «هاتور» أو « توت » قد حلت فيها . وفى كثير من الرسوم نرى الميت وقد وقف أمام شجرة برزت منها الإلهـة وهى تقدم له مائدة عليها قرابين مختلفة . فهذه العبادة لا تزال موجودة فى مصر إلى الآن يزاولها كثير من المسلمين والأقباط على السواء . فشجرة المطرية التى تعرف بشجرة العذراء هى بلا شك خلف لشجرة هليوبوليس المقدسة التى كانت تحل فيها الإلهـة ويعبدها المصريون القدماء . وفى إحدى قرى الفيـوم شيخ اسمه الشيخ صبر دفن فى مكان لاتقوم فيه سوى شجرة كبيرة يحج إليها كل ذى حاجة يريد قضاءها من أهالى البلاد المجاورة ، ويأتى لها المرضى من كل فج عميق آملين الشفاء من أمراضهم ، فيدق كل مريض فى جذعها مسماراً يلف عليه خصلة من شعره ، فإذا فعل هذا اعتقد المريض أنه سيشفى من مرضه لا محالة .

فهذه الأشجار ، وخاصة الجميز ، لا تخلو منها جبانة حديثة فى مصر أو ضريح من أضرحة الأولياء والمشايخ . وتعتبر الشجرة وأغصانها مقدسة ، أما أوراقها وفاكهتها فلها قيمة محترمة .

وللقطط الآن عند العوام منزلة خاصة ؛ فهم يرعون جانبها ويحسنون معاملتها ويتجنبون ضربها . وهم يعتقدون أن الأرواح والجان يتلبسون أجسام هذه القطط ويظهرون بأشكالها . وتفسير هذه الأفكار والمعتقدات الغامضة هو أن القطط كانت إحدى معبودات المصريين القدماء ، يعبدونها باسم الإلهـة «باستت» . .

ويعتقد العوام من الناس أن لكل منزل ثعبانا يحرسه ؛ فهذا الاعتقاد يرجع إلى أن المصريين القدماء كانوا يعبدون أحيانا ثعبانا كبيرا يظنون فيه الخلود ، ويعتقدون أنه يسكن حقلا أو غابة أو كهفا أو جبلا ويقوم على حمايته .

ولدينا بالمتحف المصرى تمثال ثعبان وجد بمعبد أتريب ، بنها الحالية ، ووضع هناك لحمايته .

أما ما نجده أحيانا معلقا على أبواب المنازل من تماسيح محنطة ، فإن هى إلا بقية من بقايا عبادة هذه الحيوانات فى عصر الفراعنة ، إذ كان التمساح إلهـا عبدوه وسموه « سبك » .

يعتقد العوام الآن أن لـكل شخص أختا تحت الأرض أو قرينة تولد معه . فهذا الاعتقاد ورثناه عن الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أن كل شخص له روح أو قرين أطلقوا عليها « كا » وكانت هذه الـ « كا » تعيش معه ، فإذا مات تبعته إلى المقبرة .

هذه كلمة عاجلة عن المعتقدات . أما العادات فكثيرة لا يدركها حصر ، فنقتصر على ذكر أهمها :

يحرص الفلاحون فى القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذرية ، وهم يبكرون فى الزواج بدرجة يستغربها الـكثيرون . فهذه عادة ورثناها أيضا عن المصريين القدماء . قال الحـكيم المصرى « آنى » فى وصية إلى ابنه : « اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك ، وتعيش حتى تراه وقد اشتد وأصبح رجلا . إن السعيد من كثرت ناسه وعياله ، فالـكل يوقرونه من أجل أبنائه . » أفليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هى التى نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟

نعيب على مواطنينا تمسكهم بوظائف الحـكومة وتعلقهم بأذيالها ونحتقر قولهم : « من فاته الميرى اتمرغ فى ترابه » ، ولـكننا ننسى أو نتناسى أننا ورثنا هذه العقلية عن أجدادنا . فقد ورد فى النصوص الفرعونية صورة خطاب كتبه أب لابنه يقول فيه : « بلغنى أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك ، فهل تريد أن تكون فلاحا تشق وتكدح ! لا تكن فلاحا ، ولا تكن جنديا ولا تكن كاهنا ، بل كن موظفا يحترمك الجميع ، ويمتلئ منزلك خدما وحشما وتتربع فى مجلس الثلاثين إلى جانب رجال البلاط . »

ولطالما هزأنا بآلاف الموظفين وما يبدونه من ضروب المداهنة والمصانعة

للرؤساء ابتغاء مرضاتهم ، ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الآباء والأجداد . ألم يقل الحكيم « بتاح حتب » الذى عاش منذ خمسة آلاف سنة : « انحَنِ أمام من هو فوقك ، أمام رئيسك فى شؤون الإدارة الملكية حتى يستمر بيتك مفتوحا ، ويستمر رزقك وراتبك جاريا ، ولا تعصه فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير . »

ننادى الآن بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا انتقل الموظف إلى جهة بعيدة ، ولكن يجب ألا نلام على ذلك ، فإن الاغتراب قد ولّد فينا كرهه حين ولدنا ، وورثناه ضمن التركة التى خلفها لنا الأجداد . ألم يَشْكُ هذا الموظف المسكين الذى نقل من بلده منفيس منذ أربعة آلاف سنة ، فكتب يقول : « إنى أجلس هنا بالجسم على حين تطير روحى إلى منفيس حتى تطمئن على الأحوال هناك وتستقر . إنى أجلس هنا ولست بمستطيع أن أقوم بعمل ، أى إلهى « بتاح » أحضر إلىّ وخذنى إلى منفيس ودعنى أرها ولو من بعيد . »

ثم إن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين . فتمسكنا بالمظاهر الكاذبة وما تحتمه من تبذير شديد عيب قديم فينا . ألا تخبرنا النصوص بأن الملك رمسيس الثالث الذى كان يعطى ١٨٥٠٠٠ كيس من القمح سنويا للمعابد ، هو بعينه الملك الذى كان لا يستطيع أن يرسل خمسين كيسا من القمح شهريا لعماله فى الجبانة ، وقد كانوا يتضورون جوعا !

أما كرم المصريين وإسرافهم فى الولائم والأفراح فهما موروثان أيضا . فلطالما شهدت قاعات منازل الأثرياء فى عصور الفراعنة ولائم رائعة كان يدعى إليها عشرات الصحاب والخلان وتتخللها الموسيقا والرقص والغناء . وكان المصريون لا يدخرون وسعا ، كما نفعل اليوم ، فى تقديم الكميات الوافرة من اللحوم وألوان مختلفة من ألذ أنواع الطعام ؛ إذ كانت تقاس عظمة الداعى بكمية ما يقدمه من طعام . فإذا حان وقت الطعام غسل كل مدعو يده قبل الأكل ، فكان يتقدم الضيف إلى رجل يصب على يده الماء من إبريق فى طست يشبه كلاهما الطست والإبريق اللذين نستعملهما اليوم كل الشبه ، فإذا فرغوا من أكلهم غسلوا أيديهم أيضا كما نفعل اليوم .

أما احتقارنا للفلاح فهو قديم . وقد وردت فى رسوم المقابر الفرعونية مئات الرسوم التى تهزأ به وتسخر منه ، وكان إذا تأخر فى دفع ما على أرضه من

ضرائب أتته جباة الأموال وطرحوه أرضا وأوسعوه ضربا بعصيهم حتى يدفع . أفلم يكن هذا هو النظام المتبع فى جباية الأموال إلى عهد قريب ؟

وهناك مئات من العادات الصغيرة نراها كل يوم دون أن نلقى إليها بالاً . فالمغنى البلدى لدينا والمقرئ وهو يتلو القرآن كلاهما يضع إحدى يديه على خده وهو ينشد . فهذه العادات وردت لها عشرات الرسوم فى الآثار المصرية القديمة. بل إن نفس الزمارة (المزمار) التى يستعملها المغنون فى القرى هى نفسها التى كانت تستعمل فى عصور الفراعنة .

ثم إن التصفيق بالأيدى لمصاحبة الغناء أخذناه عن المصريين القدماء . وكذا «الطرقعة» بأطراف الأصابع عند الرقص ورثناه عنهم أيضا . وكما كان يفضل المصريون القدماء من المغنين والعازفين من كان أعمى لا يبصر ، فإننا لا نزال إلى الآن نفضل من المقرئين من كان كفيف البصر . أما عادة وضع القلم على الأذن التى يزاولها كل يوم مئات من كتبة المحال التجارية والمحصلين وجباة الأموال (الصرافين) فى القرى والأقاليم ، فهى عادة انحدرت إلينا من كتبة قدماء المصريين الذين كانوا يضعون الأقلام على آذانهم .

بل إن عادة إظهار الإعجاب بحسن صوت المغنى أو المنشد أو إظهار الفرح العظيم بأن يلقى الشخص ملابسه أو طربوشه هى أيضا عادة مصرية قديمة . فقد ورد فى نصوص الأهرام وصف لوصول الملك بعد موته إلى العالم الآخر حيث « وجد الآلهة فى انتظاره متدثرين بملابسهم ومنتعلين نعالاً بيضاء ، فما كادوا يرونه حتى ألقوا بملابسهم ونعالهم من الفرح وصاحوا قائلين : « إن قلوبنا لم يدخلها الحبور والفرح إلا عند مقدمك » .

أما ما ندعوه الآن بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء . فقد اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بالسحر ، وإلى الآن لا تعدم قرية من قرانا ساحراً تغدق عليه خيراتها وتضع فيه ثقتها ويستمتع فيها بنفس النفوذ والثقة التى كان ينعم بها سحرة العصور القديمة .

كان المصرى القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدو . وتخبرنا النصوص أن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة وأشباح مرعبة وأصوات مستغربة ، بل إن الساحر كان يسلط عليه الأمراض فتنهك قواه وتهد بدنه . وكان الساحر قادراً على أن يجعل النساء يتركن أزواجهن

ويتعلقن بأذيال من يريد الساحر من رجال ، حتى لو كانوا موضع كرههن من قبل . وكان الساحر يطلب فى مثل هذه الأحوال لـكى ينجح عمله أن يُؤتى له بقليل من دم الشخص المطلوب أو قلامة من أظافره أو خصلة من شعره أو قطعة قماش من ثياب يكون قد لبسها ، فإذا حصل الساحر على ما طلب صنع تمثالا من الشمع بشكل الشخص المطلوب العمل له ، ووضع فى التمثال أو استعمل فى صنعه الأشياء التى أخذها . فإذا تم له ذلك ألبس التمثال ملابس كالتى يرتديها الشخص نفسه حتى يشبهه تمام المشابهة . ثم يبدأ فى أن يجرى على التمثال طائفة من الأعمال السحرية ؛ فكان إذا دق مسماراً فى التمثـال أصيب الشخص بمرض ، وإذا قرّب التمثال من النار أصابت الشخص حمى جنبية ، وإذا طعن التمثـال بسكين قُتل الشخص أو جرح . ويظل الساحر يزاول أعمـاله حتى يقضى على الشخص الذى يريده . وقد ورد فى النصوص أن هذا النوع من السحر قد استعمل ضد الملك رمسيس الثالث ، ولـكنه اكتشف الأمر فقبض على هؤلاء السحرة وصادر ماوجده لديهم من تماثيل الشمع التى صنعت بشكله (راجع ورقة هاريس البردية السحرية وورقة تورين البردية القضائية) . أفليس هذا النوع من السحر وعمل التمـاثيل من الشمع أو الطين وشكها بالإبر والدبابيس هو الذى يستعمله سحرتنا فى القرى والأقاليم الآن ؟

وليس الأمر مقصورا فى ذلك على القرى والأقاليم ، بل إن القاهرة نفسها وهى عاصمة البلاد تعج بمن يعتقدون فيها بالسحر وقوة فعـله . ونحن نورد فى هذا المقام فقرة نشرتها جريدة الأهرام فى اليوم السابع والعشرين من شهر ينـاير سنة ١٩٣٥ قالت فيها تحت عنوان : « تشكو من السحر » : « تقدمت فتـاة وطنية إلى البوليس تشكو شابًّا معيناً بأنه دأب على أن يستعمل لها السحر حتى أقض مرقدها ، وطلبت من البوليس أن يحول بين ذلك الشاب وبين أعماله السحرية » .

وكل ما لدينا من غرام بالتمائم والتعاويذ والأحجبة : كحجاب الحب والـكره والحفظ ، وآلاف التمائم التى تعلق فى رقاب الأطفال حتى تطول أعمارهم ، كل هذه إن هى إلا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء الذين كانوا لا يسيرون خطوة إلا والتمائم ترافقهم وتحميهم . وزيارة واحدة للمتحف المصرى ترينـا آلاف التمائم التى استعملها المصريون القدماء .

ويقرب من هذا اعتقاد العوام منا اعتقاداً جازماً بالعين وقوة أثرها . فأنت

إذا جلست إلى رجل من العوام حدثك كيف أن هناك فئة من الناس لا تكاد ترى شيئاً تعجب به حتى يحصل له حادث ما . ولنا فى ذلك تقاليد غريبة . فإذا توعك طفل عزت أمه انحراف صحته إلى عين الحسود ؛ فتذهب إلى أحد المشايخ وحينئذ يوعز إليها أن تلتقط «ريحة» الطفل ، ثم يكتب لها حجاباً ويعطيها قليلا من « الكسبرة » لتبخر بها طفلها ، ثم توضع « الشبة » الزفرة فى النار ويطوفون خلال ذلك بالمريض حول النار وهم يقولون : « من عين أمك لعين أبوك ، لعين الناس اللى حسدوك ، إن كانت عين مره ، يبتليها بشرشرة ، وإن كانت عين راجل يبتليها بشراشر . ياالمبة ، مساء الخير عليك ، فلان منكد رمى نكده عليك » . ثم تأخذ إحدى النساء النار بعد أن تلقى فيها ملليماً وترميها من وراء ظهرها إشارة إلى نبذ أذى العين .

وبسبب العين أيضاً نشأت فكرة تعليق الصحون على مداخل المنازل أو قرون الأغنام أو عروسة القمح على الأبواب ، وكذا طائفة من التمائم نراها معلقة على العربات بل على سيارات الأغنياء منا والمثقفين بشكل خرز أو قلائد توضع دفعاً للعين ؛ فهذه الخرافة ورثناها أيضاً عن مصر القديمة . فقد وجد فى مكتبة معبد الإله حوريس فى أدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة . كما أن هناك أنشودة معروفة للإله تحوت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، وقد ورد فيها ما يأتى : « أيها الإله تحوت إذا كنت تحمينى لم تبق بى حاجة إلى الخوف من العين » .

يعتقد العوام عندنا أن هناك ساعات من النهار بل أياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتى فيها عملا لأنها منحوسة . فهذا الاعتقاد فى الأيام سعدها ونحسها قديم أيضاً ؛ إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقاً لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة فى أساطيرهم الدينية ، فاليوم الأول من أمشير الذى رفعت فيه السماء ، وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذى عقد فيه صلح بين الإلهين حوريس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم ، كانا يومين كلاهما سعد وبركة . أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذى بكت فيه ايزيس دنفتيس على أوزريس فقد كان يوماً منحوساً . وكان هذا الاعتقاد من القوة فى العصر الفرعونى بحيث إن كثيراً من الأعمال كالبدء فى سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجل من أجل هذه الأسباب .

وما زلنا الآن بعد مضى خمسة آلاف سنة نؤجل أشغالا لهذا السبب عينه .

وقد اعتدنا فى ليلة شم النسيم أن نعلق البصل فوق الأماكن التى تنام فيها أو نضعه تحت الوسادة ، وفى الصباح نكسر البصل ونشمه ، وفى بعض القرى يعلقون هذا البصل على باب المنزل . فهذه العادة مصرية قديمة ؛ إذ كان الناس فى عيد الإله « سكر » إله الموتى فى مدينة منفيس يطوفون حول جدران هذه المدينة وقد علقوا البصل حول رقابهم ، كما كانوا يعلقون البصل أيضاً حول أعناقهم فى الليلة التى تسبق هذا الاحتفال .

كان الطب فى مصر القديمة يختلط اختلاطاً كبيراً بالسحر ، فالعلاج بالعقاقير والأدوية كان يسير جنباً إلى جنب مع العلاج بالرقى والتعاويذ . وقد ورثنا شيئاً كثيراً من قدماء المصريين فى هذا الباب . ففى القرى نجد الشخص إذا مرض لجأ إلى شيخ يزاول السحر ، فيكتب له تعويذة على طبق ، ثم يضع الماء فيه كى يختلط بالكتابة التى عليه ، ثم يكلف المريض بشرب هذا المنقوع لكى يشفى من مرضه . فهذه الطريقة نقلناها عن قدماء المصريين . ولدينا على ذلك الدليل : ففى المتحف المصرى يوجد تمثال من الجرانيت الأسود يقوم على قاعدة ، لكاهن ساحر يدعى زحر اشتهر بما كان يحفظه من الصيغ السحرية لعلاج مختلف الأمراض . فهذا الساحر المشهور الذى لا يشق له غبار فى فنه صنع لنفسه هذا التمثال وغطاه هو وقاعدته بالتعاويذ السحرية الواقية من عدد كبير من الأمراض لكى يستفيد به بنو جنسه بعد موته . فكان إذا أصيب أحدهم بمرض مما نصت عليه التعاويذ ذهب فصب الماء على التمثال فيصبح الماء بعد جريانه على التعاويذ المنقوشة عليه متشبعا بفضيلة التعاويذ . وما على الإنسان بعد ذلك إلا أن يغترف السائل الذى يجرى إلى تجويف القاعدة فيتناوله المريض ويشربه لكى يحصل له الشفاء .

أفليس هذا هو الأصل فى العادة التى ذكرناها ؟ أو ليست فكرة « طاسة الخضة » الموجودة لدينا الآن بما عليها من كتابات ونقوش وآيات ووضع الماء فيها لشربه هى شىء شبيه بما ذكرناه ؟ بل ما أشبه « طاسة الخضة » هذه بإناء من المرمر وجد فى مقبرة توت عنخ آمون حفر على حافته سطر من الكتابة الهيروغليفية يتضمن أدعية للملك وتعويذة لحفظه نقشت فى هذا المكان حتى

تختلط بما يشربه الملك عندما يضع شفته عليها وقت الشرب فتمنحه الصحة والسعادة .

ثم إن الأصل فى تلك الفكرة الغريبة المستهجنة التى تتملك فريقا من نسائنا والتى تتلخص فى أن فلانة عليها شيخ أو عليها عفريت ، لا يعدو الخيال الذى يدل على عقلية سقيمة معتلة من نسائنا أكثر من دلالتها على جسم سقيم أو مرض عضوى . والمسألة فوق هذا وذاك تقليد ورثناه انحدر إلينا ضمن التركة التى خلفها لنا المصريون القدماء . ألسنا نقرأ فى قصص المصريين القدماء قصة أميرة بختن وقد حلت فى جسدها روح شريرة لم يمكن إخراجها من جسدها إلا بعد أن ذهب إليها الإله خنسو بنفسه فأخرجها بقوة سحره ، أو لسنا نقرأ فى هذه القصة نفسها أن هذه الروح قد اشترطت قبل خروجها أن يقام لها احتفال فخم يشترك فيه الإله مع أمير بختن بحضور هذه الروح ، فأقيم الاحتفال وقدمت فيه الهدايا والقرابين والضحايا لهذه الروح أمام الإله خنسو ، فلما أخذت منها بأوفر نصيب ، وعند ما قاربت الحفلة الانتهاء « خرجت الروح ذاهبة إلى حيث تريد » كما تقول النصوص المصرية القديمة . والآن ألا نجد فى هذه القصة المصرية القديمة تفسيرا للمصدر الذى استقينا منه هذه الحفلات الهائجة المائجة التى ندعوها « الزار » ولأولئك « الأسياد » الذين يحلون فى أجسام سيداتنا المصريات .

وهناك صور كثيرة تقع تحت أنظارنا فى كل يوم تطابق أشد المطابقة صوراً مصرية قديمة بتفاصيلها كما وردت رسومها على جدران المقابر . فمنازل الفلاحين فى القرى هى كما قلنا شديدة الشبه بالمنازل المصرية القديمة ؛ فهى تبنى مثلها من اللبن الذى يضرب فى قالب من الخشب بنفس الطريقة التى كان يضرب بها الطوب عند قدماء المصريين ، ثم يرص فى الشمس ليجف . ونفس المصطبة التى نجدها أمام منازل الفلاحين الآن كانت توجد عند المصريين القدماء أمام منازلهم . بل إن الأخصاص التى نجدها الآن مقامة فى المزارع والحقول وفى جهات متعددة من القرى ، والمصنوعة من سقائف من البوص المطلى بالطين ، هى أيضا كانت ذائعة الانتشار عند قدماء المصريين .

والآن ننتقل إلى صورة أخرى نراها كثيراً مرسومة على جدران مقابر طيبة ، الأقصر الحالية ، وهى صورة حلاق القرية ، وقد جلس على الأرض وأمامه رجل

يحلق له فى الهواء الطلق ، أفليست هذه الصورة بعينها هى التى نجدها فى قرانا الآن ، بل فى كثير من مدننا ، بل فى العاصمة نفسها على إفريز الطريق بجوار سور حديقة الأزبكية .

ونحن إذا سرنا فى القرية رأينا فريقا من الصبية وقد حلقوا رؤوسهم ، ولم يتركوا عليها إلا خصلات متناثرة من الشعر للزينة ، فهذه العادة أيضا أخذناها عن أطفال قدماء المصريين .

والآن فلنقترب من حفلة عرس لنرى ما يدور فيها . فهنا نجد المغنين وقد وضعوا أكفهم على خدودهم عند الغناء كما كان يفعل المصريون القدماء . وعلى مقربة منهم نجد العازفين على الزمارة ، وهى قصبة من البوص طويلة الساق ذات ثقوب تشبه تمام الشبه ما كان يستعمله قدماء المصريين . وهناك نجد طائفة من الراقصات وقد أسرفن فى التكحل وغمرن الخدود بالأصباغ كما تعود أسلافهن من المصريات فى العصر الفرعونى أن يفعلن ، ونجد فى أيديهن نفس الطبلة والدربكة والرق والطار التى كانت تستعملها الراقصات المصريات فى عصور الفراعنة . كما نرى الجمع وقد انتشى بشرب نبيذ البلح ، وهو نفس النبيذ الذى كان يفضله المصريون القدماء فى أمثال هذه الحفلات .

ونحن إذا تركنا هذا كله جانبا ويممنا شطر الأراضى المزروعة والحقول الواسعة رأينا فيها ما يدهشنا . فالحقول تقسم الآن إلى مربعات صغيرة لتسهيل ريها بنفس النظام الذى كان يسير عليه المصريون القدماء منذ عصر ما قبل التاريخ . ونجد الحقول وقد انتظمت المحراث وتوارثته عن المصريين القدماء ولم تغير ، مع توالى العصور عليه ، لا من شكله ولا من طريقة استعماله . كما نراها تنتظم الشادوف بشكله المتعارف عند المصريين القدماء أيضا ، يقوم على استعماله الفلاح المصرى الحديث كما كان يقوم سلفه العظيم على استعماله منذ آلاف السنين . فإذا نما الزرع واشتد عوده وآن أوان حصاده ، فطريقة قطعه هى بالمنجل وهو نفس المنجل الذى كان يستعمله المصريون القدماء بشكله المعروف الذى أخذناه عنهم . وطريقتهم فى التذرية هى نفس الطريقة التى نستعملها نحن الآن ، كما أن الأداة التى نستعملها فيها ، وهى المذراة ، هى بعينها لم تتغير منذ عصور قدماء المصريين طبقا لما نراه مرسوما على جدران المقابر .

ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفا من الرجال والماشية والدواب

وهى تسير فى الأفق البعيد ، فتعيد إلى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المقابر والآثار . ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الإلهة المصرية القديمة نخبيت ترفرف على شكل عقاب . وهناك يطير الإله حوريس على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله أنوبيس على شكل ابن آوى ، فيختبئ فى الأودية والسهول . وعند موطئ أقدامنا نرى خپر يسير متمهلا فى شكل جعل صغير . وهناك تحت الشجرة المقدسة نرى الإله خنوم يرقد تحت ظلها فى هيئة كبش كبير . وهكذا فى كل جانب من جنبات الوادى وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجئ كأنها نقوش معبد فرعونى قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم .

وهكذا تتالى أمام أعيننا فى مصر الحديثة صور مختلفة يخيل إلينا معها أن رسوم جدران المقابر قد تحولت فى لحظات إلى رسوم حية و « تابلوهات » مجسمة تنبض بالحياة .

فنحن ، كما رأينا ، نعيش فى نطاق تركة خلفها لنا القدماء ، تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التى تربطنا بها ربطاً وثيقا لا نجد إلى فصم عروته سبيلا . فنحن كما كنا وسنظل دائما أبناء للفراعنة ، وإنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين .

محرم كمال

الطفلان العاشقان

[هو فى الثالثة من عمره ، وهى فى مثل سنه أو تنقص عنه قليلا ، نشأ بينهما الحب فصارا لا يطيقان الفراق فى ليل أو نهار .]

أفديهما من عاشقيـ ن تشاكلا حسًّا ومعنى
غصنان فى ظلّ الصِّبا بذّا غصونَ الرّوض حُسْنا
ما منهما بحبيبه إلا أخو وَلَهٍ مُعَنَّى
إنْ غاب عنه أنَّ مُشـ تاقاً ، وإنْ وافاه غَنّى
قرّت به عيناً — فلم تألفْ سِواه — وقرَّ عيْنا
يتعاطيان من الهوى كأساً زكَتْ غَرْساً ومَجْنى
من خمرةٍ لم تتّخذْ إلاّ حنايا الصّدر دَنا
وتراهما — تحت الكرى — يستقبلان الطّيْفَ وَهْنا(١)
مُتَبسّمين له كما ابـ تسم المَرُوع إذا اطمأنّا
إنْ يغضَبا فالقلبُ أبـ يضُ لم يُسئْ بالحبّ ظنّا
هى لحظةٌ تمضي وما حمَلا بها فى الصّدر ضِغْنا
كم من ودادٍ عاد بعـ د الهجر وهو أشدُّ رُكْنا
ولربما أبدى المُحِبُّ (م) تجَلُّداً والقلبُ مُضْنى
فنٌّ من الحب الرفيـ ع وقد عَرفتُ الحبَّ فَنّا

---

(١) الوهن : نصف الليل .

لله حين تراهما ... نَزلا من الأشجار رُكنا
والزّهرُ أيقظَه النّدى ... والوُرْقُ في الأوراق وَسْنَى
أمِنا الرقيبَ، وقلَّ أنْ ... يلقَى أخو الصَّبَوات أمنا
«رِخشْفَين»[1] يعانقُ مُستطا ... راً لُبَّه رِخشْفاً أغنّا
يتقارضان الهمسَ يسْ ... رِى في ثنايا النّفس لحْنا
لَبِسا الهوى العذريَّ ثو ... باً طاهراً ذيْلاً ورُدْنا
لم يَنْدَما يوماً إذا ... قَرَعتْ غُواةُ الحبِّ سِنّا

*

يأيُّها الفَنَنَانِ لا ... بَرِحَ الهوى بكما مُهنّا
ولقيتُما أيّامَه ... سَعْداً يُظلِّلكما ويُمْنا
لا تَسْمَعا قولَ الوُشا ... ةِ، ولا تُعيرا العَذْلَ أُذْنا
ولْيَرْعَ حُبَّكما العَفا ... فُ، فلم يَزَلْ للحُبِّ حِصْنا
لو كانَ يهوَى النّاسُ مثـ ... ـلكما جَنَوْا سَلْوى ومَنّا
مَثّلْتُما لى فى صَفا ... ءِ هواكما «قيْساً ولبْنَى»
سَقْياً لروضكما وحَيّا ... هُ رِعهادُ المُزْنِ عَنّا

علي الجندي

---

(١) الخشف : ولد الغزال.

عدى بن زيد

نشأ عدىّ فى أسرة كريمة بالحيرة ، وكان أجداده أصدقاء لملوكها الذين أولوهم ثقتهم وعطفهم . وكان جده حماد أول من تعلم الكتابة ، وكتب للنعمان الأكبر. وقد توثقت صلته بمرزبان الحيرة فرّوخ ماهان ، حتى عهد إليه بتربية ولده زيد من بعده ، وقد عمل المرزبان بوصية صديقه . وكان زيد الطفل يجيد العربية فوجهه المرزبان لدراسة الفارسية والتكلم بها ، ثم أوصى به خيراً عند كسرى ونصح بأن يجعله على البريد فى حوائجه ففعل ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة . وهلك النعمان، واختلف أهل الحيرة فيمن يولىّ من بعده إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد ، فكان ملكا على الحيرة إلى أن نصب كسرى المنذر بن ماء السماء .

ونشأ عدىّ بن زيد طفلا فى الوقتَ الذى كان أبوه ملكا فيه ، وكان رفيقاً لابن المرزبان ، يلعبان معاً ويتلقيان علوم الفارسية معاً فى الكُتّاب الفارسى ، وأصبح عدى وشاهان مرد ، ابن المرزبان ، كأنهما أخوان . ولما قويت الصلة بين كسرى والمرزبان عمل هذا على إلحاق عدىّ بخدمة كسرى كما فعل بأبيه من قبل ، فهو ينتهز فرصة إثبات كسرى له ولولده فى صحابته ، فيرجوه أن يلحق بأبنائه هذا الفتى العربى الذكى الذى تعلم الفارسية فأتقنها ، والذى يقول الشعر بالعربية . وكان عدى جميل الوجه — والفرس تتفاءل بالوجه الجميل — فلما كلمه كسرى وجده ظريف المحضر حاضر الجواب ، فأحبه وألحقه بديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية فى الديوان . وعلا شأن عدى عند كسرى فكان يؤذن له عليه فى الخاصة .

وبينما عدى ينعم بما حظى به من عطف كسرى إذا بأعراب الحيرة يثورون على المنذر ، فإنه يعتدى على حقوقهم ، ويأخذ ما يزيد منهم قسرا ، فهم يريدون خلعه ، وهو يحس ببغضهم له ، فيؤثر أن يتخلى عن عرشه ، وأن يعيش بقية

عمره فى أمن وسلام . ولكن زيداً والد عدى يصلح ما بين الملك وشعبه، ويرضى العرب برأى زيد على أن يكون له الحكم وللمنذر الملك . وأخذ عدى يتردد على الحيرة بين الحين والحين . والناس يرون فيه الرأى الناضج ويحسون نفوذه القوى عند كسرى، فيعرضون عليه الملك ، ولكنه يأبى أن يكون ملكا؛ لأنه لا يحب حياة الحكام بل يريد أن يكون حرًّا طليقاً ينعم بما ينعم به من نفوذ فى بلاط كسرى ويحيا الحياة التى يحبها بين الفرس ، فإذا حن إلى بلاده استطاع أن يزورها متى شاء فيلقى من حب أهلها وتقديرهم له ما يدخل على نفسه السعادة والغبطة والبهجة الحقة بالحياة . ويشعر المنذر بما لعدى من مقام عند كسرى ، وما له من حب فى نفوس العرب ، فيعمل على تقريبه منه ، ويتخذه صديقاً ويعهد إليه بتربية ابنه النعمان .

وكان للمنذر غير ابنه النعمان أبناء كثيرون يسمّون الأشاهب لجمالهم ، وأظهرهم الأسود الذى تربى فى حجر بنى مرينا . فلما احتُضر المنذر أوصى بأبنائه إلى قبيصة الطائى وملّكه الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه . ويفكر هذا فى أن يغضّ النظر عن هؤلاء الأمراء الصبية ، ويرغب فى أن يولى على الحيرة أميراً فارسيًّا . ولكن عدى بن زيد يذود عن العرب وهو فى بلاد كسرى . إنه يذكر للمنذر أنه منع الأعراب من أن يأخذوا ماأعطوه لأبيه من جمال الديات . ويذكر قوله : « لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد ثفروق وأنا أسمع الصوت . » ثم إنه يريد أن يحفظ للنعمان الذى تربى فى حجره ولاية عرش أبيه وأجداده . ويسأل كسرى عديًّا عمن بقى من آل المنذر وهل بقى فيهم أحد فيه خير؟ فيجيبه : « إن فى ولد المنذر لبقية ، وفيهم كلهم خير » . فقال كسرى : « إبعث إليهم فأحضرهم ؛ فبعث فأحضرهم ثم أنزلهم جميعاً عنده » .

ودعا عدى النعمان فوعده بأنه سيملكه الحيرة ، ولكنه سينتقص من قدره أمام إخوته وسيظهر لهم من المودة والاحترام مالا يظهر له ، لأنه يريد أن يغترهم بذلك حتى يمكّن له عند كسرى . وجمع الأشاهب فأوصاهم بالتأدب على المائدة . وقال : « إذا دعاكم كسرى للطعام فالبسوا من ثيابكم أحسنها ومن زينتكم أعلاها، وتباطئوا فى الأكل وصغروا اللقم ونزروا ما تأكلون فإن الفرس قوم ذو مدنية وحضارة، وهم لا يأكلون ما يأكل العرب، إنهم يتذوقون الطعام تذوقا ولا يزدردونه ازدراداً » . قال : « وإذا سألكم كسرى ، أتكفوننى العرب؟ قولوا

إنا نقدر عليهم ولكن لا نقدر على أنفسنا ، حتى لا يطمع فى أن يضرب بعضكم ببعض ، وحتى تظل مهابة العرب موفورة فى نفوس الفرس» . وخلا عدى بصاحبه النعمان فنصحه بأن يتجوّع وأن يدخل غرفة الطعام فى ملابس السفر، وأن يسرع فى المضغ والبلع ويكبر اللقم ويزيد فى الأكل ، وألا يحفل بما حوله من مظاهر المدنية الفارسية المترفة . قال : «وإذا سألك : أتكفينى العرب؟ قل نعم . فاذا قال وإخوتك؟ فقل إذا عجزت عنهم فإنى عن غيرهم لأعجز» . ودخل الأشاهب على هرمزد ابن كسرى وقدّمهم إليه عدى بن زيد ، فأعجبه جمالهم وحسن زيهم ، ولفت نظره هذا الأحمر الأبرش القصير الذى لا يحفل به عدى بن زيد كثيرا . ودخل هرمزد إلى غرفة الطعام ومعه الأشاهب فرآهم يأكلون كما يأكل أهل الحضر يتباطئون ويتأنقون ، عدا هذا الأحمر الأبرش القصير فقد جلس إلى المائدة وكأنه فى مخيمه ، فهو يُقبل على الطعام بشهية فيقطع اللحم بيديه ويزدرده ازدراداً ولا يكاد يلتفت إلى شىء إلا لما يتهيأ للانقضاض عليه . ونظر كسرى فأطال النظر إلى هذا الفتى ، والتفت إلى من حوله وقال بالفارسية : «هذا أصلحهم للملك» . ورفع الطعام وأخذ كسرى يسألهم فرداً فرداً عن العرب فيجيب كل منهم بما أملاه عليه عدى ، حتى إذا كان هذا الأحمر الأبرش القصير قال: «أكفيك العرب وإخوتى جميعاً» . فقام كسرى وألبسه التاج ونودى به فى البلاط ملكا على الحيرة .

وعاد عدى مع صاحب الملك وعاد الأشاهب ومن بينهم الأسود ووليه عدى ابن مرينا . وأراد عدى بن زيد أن يصفو الجو للنعمان وأن يزيل ما بالنفوس من ضغائن وأن ينزع ما فيها من غل ، فدعا ابن مرينا وأصحابه إلى طعام فى بيعة . وبعد الطعام قال له عدى بن زيد : «يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يَلُمْ عليه من كان مثلك ، وإنى قد عرفت أن صاحبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صاحبي النعمان، فلا تلمنى على شىء كنت على مثله . وأنا أحب ألا تحقد علىّ شيئاً لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطينى من نفسك ما أعطيك من نفسى ؛ فإن نصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك» . وقام إلى البيعة فحلف ألا يهجوه أبداً ولا يبغيه غائلة ولا يزوى عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عدىّ بن زيد قام عدىّ بن مرينا فحلف مثل يمينه ألا يزال يهجوه أبداً ويبغيه الغوائل ما بقى .

وتوثقت الصلات بين عدى بن زيد والنعمان ، وكان هذا يستشيره فى أموره ويعمل برأيه . وقد بلغ من تأثر الملك بعدىّ أن ترك الوثنية واعتنق النصرانية

بنصيحته [1] . ولكن عديا لم يكن يطيل الإقامة فى الحيرة ؛ فهو من أصحاب كسرى الأقربين ، وهو يؤثر البقاء فى فارس حيث الترف الذى ألفه منذ صباه . فينتهز ابن مرينا فرصة ابتعاد عدى بن زيد عن النعمان ليتقرب منه . وكانت السبيل إلى هذا التقرب ميسورة ؛ فقد كان ابن مرينا غنيا وكان يستعين بأموال الأسود ، فكأن يبعث بالهدية تلو الهدية إلى النعمان ويتردد عليه ولا يترك مجلسه ، فاتخذ النعمان منه صديقا أمينا . ولما أحس ابن مرينا بتمكنه من النعمان أخذ يدس لعدى بن زيد ، فصوره وقد استعلى على النعمان لأنه صاحب الفضل عليه . وأحس أهل مجلس النعمان بما لابن مرينا من منزلة وبما لقوله من أثر فكانوا يتملقونه بالموافقة على آرائه وتأكيد ما يصدره من أن عديًّا لا يؤمن شره . ومهما تكن طبيعة الوسائل التى تذرع بها ابن مرينا فى الوقيعة بين الصديقين فإنه نجح فى السعى بينهما والإيقاع بعدىّ .

وبعث النعمان إلى عدى عند كسرى يدعوه لزيارة الحيرة فاستأذن فأذن له . وما كاد يدخل الحيرة حتى أخذوه فألقوه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد . وأدرك عدى بن زيد أن خصمه ابن مرينا قد أفسد ما بينه وبين الملك . فكتب إلى النعمان يشكو إليه سعى أعدائه به ، ويذكّره بما كان من أمر نصره له والأخذ بيده حتى علا العرش :

سعى الأعداء لا يألون شراً ... علىّ وربِّ مكة والصليب
أرادوا كى تمهّل عن عدى ... ليُسجن أو يُدَهْدَهَ فى القليب
وكنت لزاز خصمك لم أعرّد ... وقد سلكوك فى اليوم الخصيب
أعالنهم وأبطن كل سر ... كما بين اللحاء إلى العسيب
ففزتَ عليهمُ لما التقينا ... بتاجك فوزة القِدْح الأريب

ثم شكا ما لقى من الحبس والقيد ومصادرة الأموال، وقد أصبح بيته مقفرا إلا من زوجات أرامل هلكن من النحيب :

أحَسِّظى كان سلسلةً وقيداً ... وغُلاً والبيانُ لدى الطبيب

(1) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ص ٧٤ .

أتاك بأنني قد طال حبسي ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتي مقفرٌ إلا نساءً أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عديٍّ كشنٍّ خانه خَرْزُ الربيب
يحاذرن الوشاة على عديٍّ وما اقترفوا عليه من الذنوب

ثم يستعطفه ويعتذر إليه عما قد بدر منه :

فإن أخطأتُ أو أوهمت أمراً فقد يَهِمُ المصافى بالحبيب
وإن أُظْلِمْ فقد عاقبتموني وإن أَظْلِمْ فذلك من نصيبي

وأخيراً يقول له إنه سيندم عليه إذا افتقده فى الشدة فلم يجده :

وإن أهلك تجد فقدي وتُخْذَلْ إذا التقت العوالى فى الحروب

وكان كثير الضيق بهذه الأغلال التى شدوه بها . وقد زارته أمه فساءه أن رأته وقد أوثقوه وهو ينصحها ألا تقترب منه وألا تحاول معانقته، فإن المصفَّد بالأغلال لا يروق له عناق :

ولقد ساءنى زيارة ذى قُر بَى حبيب لودنا مشتاق
ساءهُ ما بنا تبيَّن فى الأ يدى وإشناقها إلى الأعناق
فاذهبى يا أميمَ غير بعيد لا يُؤاتى العناق من فى الوثاق
واذهبى يا أميم إن يشأ اللـ ـه بنفسى من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهةٌ فتلك سبيل النـ ـاس لا تمنع الحتوفَ الرواقى

ثم يخاطب إخوته طالبا منهم أن يغيثوه ويخلصوه من سجنه :

وتقول العُداة أودى عديٌّ وبنوه قد أيقنوا بغلاق
يا أبا مُسهر فأبلغ رسولا إخوتى إن أتيت صحنَ العراق
أبلغَنْ عامراً وأبلغ أخاه أننى موثق شديد وثاقى
فى حديد القسطاس يرقبنى الحا رس والمرء كل شىء يلاقى
فى حديد مضاعف وغلول وثياب منضحات خلاق
فاركبوا فى الحرام فكّوا أخاكم إن عِيراً قد جهّزت لانطلاق

وأخذ عدى يرسل القصيدة تلو القصيدة للنعمان مستعطفاً ، والنعمان لا يأبه له ، ويكتب الشعر لأعدائه ناصحاً تارة ، ومهدداً تارة أخرى فلا يلتفت إليه أحد منهم . وكان له أخ اسمه أُبَيٌّ كان قد ألحقه بديوان كسرى ، فكتب إليه شاكياً ما يلقاه من سجن وقيد . ورفع أُبَيٌّ أمر أخيه إلى كسرى فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه . ولكن خليفة النعمان أرسل إليه بما كان من أمر كسرى ، ثم إن جماعة من خصوم عدى جاءوا يَعْدُون إلى النعمان وحدثوه بأنهم رأوا رسول كسرى يدخل السجن ويقابل عديًّا ، وأن الرسول فى الطريق إليه ، فخشى النعمان إن ترك عديا حيًّا أن يخرج من السجن فينتقم منه ، فأرسل إليه جماعة فغمّوه حتى مات . وجاء رسول كسرى فدخل على النعمان فأحسن وفادته وتلقى رسالته ثم أبلغه أن عديًّا قد مات .

ولم يكد ابن مرينا يتخلص من عدوه الأكبر عدى حتى أظهر النفور والبغض للنعمان ، فانه لم يكن يريده ملكا على الحيرة ، وإنما كان يسعى للأسود . وأحس النعمان بما كان من حقد ابن مرينا على عدى والإيقاع به عنده ، فندم على ما كان من قتله ، وأخذ ولده زيداً فأحسن رعايته، ثم بعث به إلى كسرى راجياً أن يكون خلفاً لأبيه .

وقبل ملك الفرس زيداً وولاه وظيفة أبيه . وكبر زيد وزادت منزلته عند كسرى ، وفى نفسه أن يكيد للنعمان انتقاماً لأبيه . وكانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم ، وكانوا يبعثون إلى الأطراف فى طلبها ، ولكنهم لم يفكروا فى بلاد العرب لظنهم أنها خالية منها . ودخل زيد ذات يوم على كسرى فوجده يتحدث فى ذلك القول ، فقال له : «إن عند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة» . وأراد أن يُحكم انتقامه فحدّث كسرى بأن شر شىء فى العرب ، وفى النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون عن العجم . والتمس من كسرى أن يذهب بنفسه إلى النعمان حتى لا يغيبهن أو يعرض غيرهن ، فبعثه كسرى ومعه رسول من عنده . وأقبل زيد والرسول على النعمان فأبلغاه الرسالة. فقال: «أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟» فسأل الرسول زيدا: «ما المها والعين؟» فقال له بالفارسية: «كاوان أى البقر» . واعتذر النعمان عن تلبية طلب كسرى . فرجع زيد ومعه الرسول فحدثا الملك برفض النعمان ، وقال زيد: «إنى خبرتك يا مولاى بضنهم بنسائهم على

غيرهم وأن ذلك من شقائهم ، وإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال » . فسأل كسرى الرسول فقال: «إنه أجابنا بقوله أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟» فغضب كسرى ووقع فى قلبه منه ما وقع ، وقال: «رُبَّ عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب» .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، فأصبح فى حيرة من أمره : أيحارب كسرى ذوداً عن الأعراض وهو لا يقوى على قتاله ؟ أم يبعث بزوجاته وبناته وأخواته إليه ، وهو ما يأباه الرجل الحر ؟ واستجار برؤساء العرب فلم يُجِرْه أحد منهم فليس منهم إلا خائف من كسرى طامع فى رضاه . فأودع أهله رئيساً من العرب ، ثم سار إلى كسرى الذى بعث يطلبه .

وقابله زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له : أَنْجُ نُعيمُ إن استطعت النجاء .

قال : أفعلتها يا زيد ! أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربى قط ولألحقنك بأبيك .

قال زيد : إمض لشأنك نعيم ، فقد والله أخّيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرن .

ولما بلغ كسرى أن النعمان بالباب أمر بقيده وإلقائه فى السجن ، فظل به إلى أن لقى حتفه .

وهكذا انتقم زيد لأبيه الذى مهّد للنعمان بلوغ الملك ، والذى قال له وهو سجين :

نحن كنا قد علمتم قبلكم عَمَدَ البيت وأوتاد الإصار

يحيى الخشاب

من هُنا وهُناك

عبد الحق حامد وأفكاره الفلسفية

قبل أن أدلي ببيان رأي نحو أفكار شاعر مفكر جليل القدر مثل عبد الحق حامد يحسن بي أن أورد نبذة عن شخصيته المعنوية وطبعه الشاذ ، فان هذه هي القاعدة المعتبرة والدأب المقبول لدى الناقدين .

ولكني آسف لعدم كفاية وقتي ، وهذا ما جعلني لا أقف منه موقف الناقد ، فأردت مع ذلك أن أضع بالاختصار تحت ضوء البحث في عدة صفحات شيئاً مما قد يثير الفضول مما درسته عن هذا الموضوع . وإني أؤكد للقراء المحترمين أن ما سوف أقوله إنما هو صورة صادقة لظني الغالب الذي سيطر على فكري نتيجة بحثي الذي قمت به بصبر ودقة .

إن شخصية حامد المعنوية معقدة جداً . وهي تكاد تضرب مثلا لفطرة متعددة الوجوه أعني أنها تجمع في نفسها نماذج من شخصيات متخالفة ومتنوعة . ولذلك أعتقد أنه لا يكون صحيحاً أن نعتبرها شخصية واحدة ، وإن كانت وحيدة في تاريخ أدبنا كآية للعبقرية .

إن حامداً للفظ مشترك ، بل إنه لاسم جامع ، وإلى هذا الاسم تنسب شخصيات معنوية مختلفة كلها على فطرة متفاوتة .

وهو ذاته قد أدرك هذه الحقيقة ، فقال للتعبير عن معنى التضاد الموجود في طبعه :

حقيقة ايكي شخصم بن ، اعتقادمجه : بري هميشه مبشر ، بري مكدر در !

[ما أنا إلا شخصان، وفي اعتقادي أحدهما أن مبشر والآخر مكدر .]

ولقد يفهم أن قائل هذا البيت يعرف — وهو ليس بطبيب — أنه يكون نموذجاً لتلك الظاهرة الروحية الغريبة المسماة « ثنائية الشخصية » ويعتقد أنه هكذا ويعترف ، هذا صحيح ! ولكنه يقوله من وجهة التشاؤم والتفاؤل . ولعله من المستطاع أن يقال إن المعنى الذي أقصده أنا لم يخطر قط بباله . إذن لا نبالغ كثيراً ولا نعد حالة الشاعر مطابقة للأعجوبة الروحية المشهورة عند الأطباء النفسانيين .

وفي الحقيقة قد يوجد في بعض الأشخاص الثنائية الشخصية . ونحن نعتبر هذه الثنائية لأسباب عدة حالة مرضية . ومثلا قد ظهر بعد البحث والاختبار أن بعض الناس يعمل بفعل الروحين ، أنهم يعملون كشخصين متفاوتين ليس بينهما أدنى تشابه، وأن أحدهما بعد أن يظل يظهر معنويته لمدة وبطابع معين يزول عن الوجود، أو على تعبير علماء النفس يغادر المسرح ثم يظهر كأنه متجرد من الروح الأولى ويعمل على فطرة أخرى ، هذا الشخص الثاني ليس بالشخص الأول وهو على نقيضه تماماً سواء أكان ذلك من حيث الفكر أم الاعتقاد أم الخلق . والغريب أن هاتين الشخصيتين المختلفتين ليستا على اتصال الواحدة بالأخرى ولكل منهما ذاكرة خاصة ، ولكل منهما حرم يحيط بمعنويتها ، كل منهما تمثل دورها على المسرح أي تعمل بحكم شخصيته وتتذكر أعماله السابقة وتواصل حياتها المعنوية بعد استئنافها من المرحلة التي تركتها فيها .

ولولا أن اعتقاد التناسخ باطل بالبداهة لكان الانسان يستطيع أن يدعى أمام هذا الحادث العجيب : أن روحين مختلفتين تترددان على قالب الجسم نفسه دون أن تشعر إحداها بالأخرى ، وتتصرفان فيه بالتناوب !

وهناك الظاهرة الغريبة التى نسميها بالثنائية الشخصية ولها أنواع ، والأطباء الاخصائيون يعدون هذا النوع منها مرضاً خاصاً ينهك الشخصية .

والشاعر المشهور الذى أتشرف بمعرفته جيداً ليس ولا شك شخصا عجيباً مثل هذا وأنا كفيل بذلك . وإذا قلت : إنه من ذوات الشخصيات العديدة فلست أتصد المعنى المذكور قطعاً ، فأرجو ألا يفهم ذلك خطأ . فكل ما أريد أن أقوله هو أن لروح حامد مظاهر متنوعة ولذكائه تجليات ولطبعه ميولا مختلفة . ولكنها تكون فى ذات حامد سجايا بذلك البروز والاستقلال ، بحيث إنها تكاد تكفى لتمييز شخص بشاكلته الخاصة . وهذا النوع من الانسان ليس نادراً ، وليست هذه الفطرة من شأن الشخصيات العظيمة بالضرورة ، وإن هى إلا فطرة جبلت عليها فحسب .

وإنى إخال أن لحامد شخصيات عديدة ، لا شخصيتين . أعرف منها ثلاثا ، وكتبت هذه الرسالة لتقدير إحداها حق قدرها .

أولا إن له روح طفل دمثة مرحة غير خاضعة النظام بل ثائرة فى بعض الأحيان . ولقد غمرها فيض إلهى فاحتفظت بشبابها ولم تعرف الهرم . وأصدقاؤه المقربون عاشروها مدة طويلة ورضوا عنها رغم مجونها ؛ لأنهم واثقون من أنها بريئة وليس من شأنها أن تكبر فهى فتية دائماً !

أليس الشاعر كالطفل فى فطرته ؟ وما الطفولة بضارة ما دامت لا تعكر صفو العبقرية . أو لم يكن كذلك لورد بايرون ، پول ڤرلين وروبرت لوئيس ستيوفنس وكثير من كبار الرجال ؟

وليست معنوية الطفل هذه لا تضر شاعرنا فحسب بل هى تفيده بحيث لا يمكن تقديرها حق قدرها . حينما تضيق روح الشاعر ذرعا بالافتراضات غير الجدية للعقل الذى يشعر بعجزه وينعقد لسانه أمام أسرار الغيب ، يلتجىء الشاعر المسكين إلى معتقدات الطفولة البريئة الخالصة فيجد فيها شيئاً من العزاء . هذا الرجل الذى تقلق باله فكرة الانعدام إلى الأبد ، يسليه عنها النظر إلى وجوه الأطفال ، فيخيل إليه أن الذين مضوا يعودون فيهم إلى الحياة ، فيتسلى برؤيتهم على محياهم . ومثلا أنه أوضح جيداً جداً كيف شعر بسرور مؤلم حينما لاحظ أن أما ماتت قد عادت إلى الحياة فى شخص بنتها .

والشاعر بعد أن خاطب أولاده ولا سيما ابنته ونبه عليها قائلا :

شاعر ده چوجوقدر ، أى تيزم ! بيل .

[اعلمى يا بنيتى أن الشاعر طفل أيضاً !]

برهن على ما أوردته بالأبيات الآتية :

جوق مسئله حل ايدر وجودك
بازيچه سى دراو دست جودك
سن سك فبلان اول مزارى تأويل
عمرم اوله جق سنكله تكميل .
بن سنجه او يونجاغم مسلم .
سن سه بكا برغريب تمثيل .
سندن بولورم بو دم تسلى
لكن اونه برألم تسلى ؟
برطرز بيا نله آكلا شيلماز ،
فريادو فغا نله آكلا شيلماز !

[إن وجودك لمفتاح لحل مسائل كثيرة
وهو لعبة بيد الخالق الكريم
وما وجودك إلا تأويل للقبر
وما أنت إلا تكملة لعمرى
وما أنا إلا لعبة فى يديك
أما أنت فآية عجيبة لى

وليس لى عزاء سواك الآن
ويا له من عزاء مؤلم !
لا أملك بياناً ولا نوحا لتبيينه .]

عندما تعجز كل الأفكار الفلسفية أن تسد فراغ القبر ييأس الشاعر من الاهتداء إلى وسيلة لشفاء آلام روحه العميقة القاسية ، فيجد النظريات الفلسفية والمعتقدات كلها عبارة عن أقوال باطلة لا غناء فيها ، وحينئذ يرجع إلى الطفولة ، ويرى اعتقادهم أولى بصفاء الضمير ؛ وفى قوله :

سزلرده كى اعتقاد ، خوشدر .
اك دوغروسى او ، بزمكى بوشدر .

[إن اعتقادكم أحسن وأصح .
أما ما عندنا فهو وله]

ما يثبت ما أسلفته ..

وإذا كان الانسان لا يدرك — كما يرى الشاعر — حقيقة الأشياء وعلة الكون وغاية الحوادث : أى سبب الحياة وسر الممات ، وقف موقف المتفرج من جريان الوقائع . وإذا لم تكن المعرفة سوى ذلك ، فان معرفة الأطفال وحكمهم الذى يصدرونه عفواً وبسذاجة لجدير بالرجحان ، إذ الأولى هو عدم المعرفة .

وهو يستمد من روح الطفل تلك عندما لا يجد فى جريان الحوادث نظاماً ، وفى الكون غاية معقولة ، أى حين يقع فى الشك وهو يمعن النظر فى مشكلة العلة النهائية . ولا غرو أنه تصور الله كالطفل الأكبر تحت تأثير هذه المشكلة . وهذا يعنى أنه عند ما لا يرى نظاماً فى العالم يتحرر من قبول عقدة الايجابية .

نقلها إلى العربية ابراهيم صبرى

توفيق رضا

جناية

كتب إلينا الأستاذ حبيب زحلاوى ردا على ما أثير حول القصة التى نشرت له فى أحد أعداد هذه المجلة ، وظهر أنه سبق أن نشرها فى إحدى المجلات الأدبية تحت عنوان آخر . ولسنا نحب أن نعود إلى ما كتبناه عن ذلك فى العدد السابق . غير أننا نقول إن ماذكره الأستاذ عن علم سكرتير التحرير بسابق نشرها لايمكن أن يطابق الواقع ، كما أن تغيير العنوان إنما كان بعمل الأستاذ مؤلف القصة وبخطه ، ويثبت ذلك أصلها المحفوظ فى الدار . وللأستاذ رأيه فى مبدئه الخطر عن حق المؤلف فى بيع المقال الواحد لأكثر من ناشر . ولم يبق بعد ذلك إلا أن ننشر خطابه بدون تعليق :

حضرة المحترم سكرتير تحرير مجلة الكاتب المصرى

رأت فى العدد التاسع من المجلة ، كلمة بعث بها أديب من العراق إلى رئيس التحرير يستنكر فيها نشر قصتى « جناية » التى نشرت بالعدد السابع من المجلة ، ويقول إنها نشرت من قبل ذلك بمجلة «الرسالة» بعنوان آخر .

وقرأت أيضاً تعليقك على تلك الكلمة .

وقد بدا لى أن أهمل الرد عليها تجاوزا عن الروح الذى أملى عليك ذلك التعليق ، واستخفافاً بالواقعة نفسها ؛ لأن طبيعة القصة تقبل النشر فى أكثر من صحيفة ، وفى أزمان

متفاوتة البعد ما دام فيها ما يكفل لها ذلك من عناصر الحياة وخصائص البقاء . ولكنى أتناول الرد على التعليق بالمقدار الذى يضع الامر فى نصابه ، ويجرد المسألة من الزوائد التى خشرها السائل بسؤاله ، والكاتب فى كتابه .

عرضت عليك — باتفاق بينى وبين رئيس التحرير — قصة « لقيط » (وقد نشرتها مجلة « الكتاب ») ، فأبيت أخذها بحجة أن فيها ما يمس فتاة مجندة فى الجيش البريطانى ، فعرضت عليك مجموعة قصصى المعدة للنشر وتركت لك حرية الاختيار ، فاخترت أنت القصة التى نشرتها لطابعها الشامى البديع . ولكن عنوانها « الجارم » لم يعجبك ، فاستبدلنا به عنوانها الجديد وهو « جناية » وكتبته فى رأس القصة بقلمك وحبرك ثم نشرتها . ولما تلاقينا بعد ذلك لقيتنى ببشاشة ظاهرة وابتسامة عريضة ، وقلت لى : « متى تتحفنا بقصة جديدة لم يسبق نشرها » فاعتذرت لك بانصرافى إلى كتابة القصة الطويلة ، وانتهى الأمر .

إذن كان المعلوم أنك اخترت قصة نشرت من قبل ، وكان المفهوم أنك تقرأ مجلة كمجلة «الرسالة» ، فما معنى أن تسألنى الرأى فى التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين؟ ولكن أليس من حق أن أبيع قصة لناشر سبق لى نشرها ؟

أقول : بلى ! هذا من حق وليس لمخلوق أن ينازعنى فيه ، وإلا فما رأى الأستاذ حسن محمود فى موضوع أو موضوعات أدبية يذيعها أديب بالمذياع فيأخذ عنها أجرا ، ثم ينشرها فى صحيفة أو أكثر فينال عنها أجرا ، ثم يجمعها فى كتاب ويقدمها للناشر فيأخذ عنها أجرا ، ثم تترجم إلى لغات أجنبية وتنشر فيقبض عنها أجراً ، فهل ينطبق تصرف هذا الأديب على تصرف التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟

اللهم كلا !

نشرت صحيفة « كانديد » الفرنسية قصة متسلسلة عنوانها « سيدة فى نافذتها » لقصصى يدعى دريبه لاروشيل ثم نشرتها بعد ذلك مجلة « باريس » فى عدديها ٢١ — ٢٢ الصادرين فى أول وفى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ من سنتها السادسة والعشرين ، فانهالت كتب القراء تحمل الشكر لقلم تحرير « مجلة باريس » التى يسرت لهم قراءة القصة دفعة واحدة . وهل فعلت سوى أنى نشرت قصة فى عدد واحد من « الكاتب المصرى » كانت نشرت فى مجلة « الرسالة » مسلسلة فى جملة أعداد ؟ وهل فى هذا الأمر الذى اتفقنا عليه معاً ما يستوجب اللوم ويستحق الانتقاد ؟

حبيب الزحلاوى

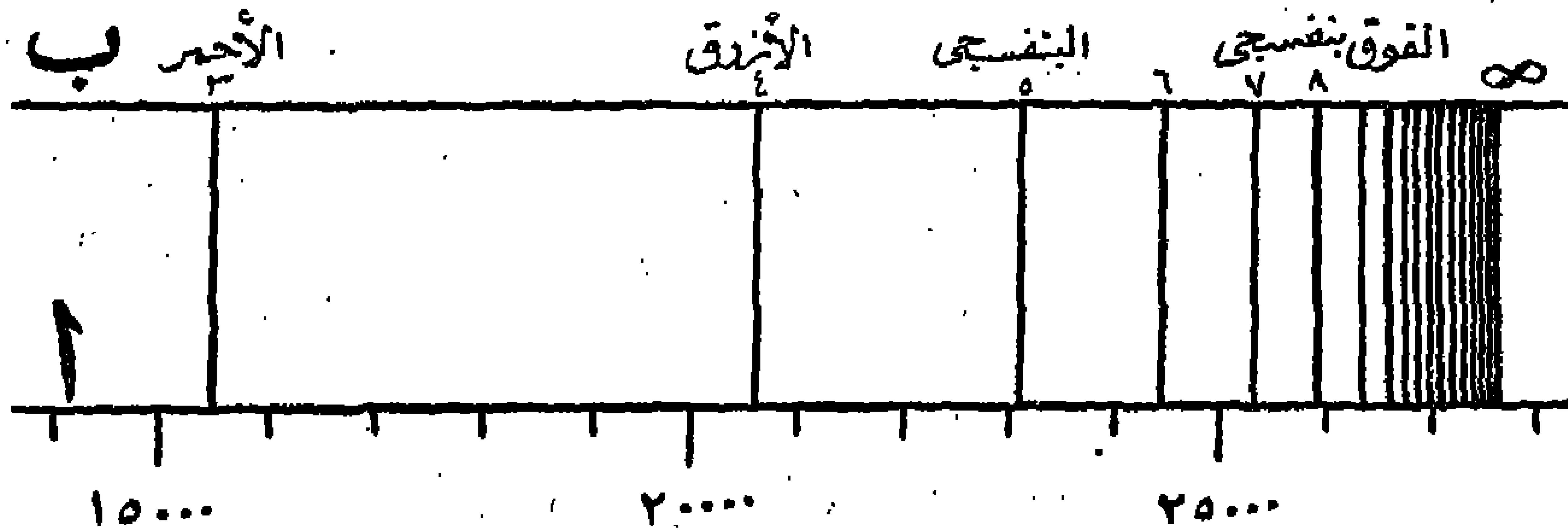
شهرية العلم

الألكترون الحائر وبوهر العظيم

فالآن : عالم ألكترونى عاش فيه البشر ملايين السنين، وأكبر خصائصه انبعاث الضوء والكهرباء ، وعالم نووى يشغل العلماء مرجعه نواة الذرة . وأظن آننا سنعيش فيه ملايين أخرى من السنين إن لم ينقطع بفعل الانسان حبل الحياة على الارض . ولقد تحدثت عن العالم الالكترونى فذكرت أن ذرة كل عنصر تتركب من نواة وسطى يدور حولها عدد من الالكترونات كما تدور الأرض حول الشمس . وإنى لا أدخل فى أصل الفكرة عند رذرفورد ومدرسته اللذين افترضا للمادة هذا النظام الشمسى ، ومع ذلك فانه لا يكفى أن يفترض رذرفورد ذلك ليكون افتراضه صحيحا ؛ فالعلم يتطلب التحقيق من طريقين طريق البحث النظرى وطريق العلم التجريبى . ويتلخص الموقف فى نظريتين ، إحداهما تعتمد على افتراض حركة بندولية لا حركة دورية للألكترون داخل الذرة ، وهذه تفسر الانبعاث الضوئى ولا تفسر مواضع خطوط الطيف . والثانية تفترض للألكترون حركة دورية حول النواة ، وهذه لا تفسر خطوط الطيف إلا على حساب حركة تقدمية للألكترون نحو النواة ، وهو ما ليس حادثاً ؛ لعدم تغير مواضع خطوط الطيف .

وهكذا لم يمكن الاحتفاظ فى بادئ الأمر بنموذج رذرفورد الشمسى ، وهو النموذج المحبب إلى العلماء ؛ مع تفسير فى الوقت ذاته للانبعاث الضوئى ووجود الخطوط الطيفية فى مواضع ثابتة . صعاب تتلوها صعاب لم يمكن التغلب عليها إلا فيما بعد . على أن مهمتى اليوم أن أشرح كيف تغلب العلم على هذه الصعاب ، وكيف ثبت للعلماء دوران الألكترون المستمر حول النواة ، وكيف أمكن مع هذا تفسير الانبعاث الضوئى وتحديد مواضع الخطوط .

ولعل بدء النجاح فى التغلب على هذه الصعاب يرجع إلى مجهود رجل متواضع ، مجهول الاسم فى زمانه ، له مكانته اليوم بين العلماء المحدثين ، هذا الرجل هو بالمير الذى ظل منزويا فى قاعات التدريس فى ثانوية بال بسويسرا . عكف بالمير عام ١٨٨٥ على دراسة طيف الهيدروجين الذى تظهر له



سلسلة بالمير للهيدروجين

خطوط رأسية تقترب بعضها من بعض ابتداء من خطوطه الأولى فى الأحمر نحو البنفسجى كما فى الشكل ، وقد اتضح له فى بادئ الأمر عدم وجود نظام معين بين أوضاع هذه الخطوط ، ولكنه وجد أن هناك ارتباطا بينها وبين بعض ، كما لمس مثل هذا الارتباط لطيف العناصر الأخرى . وهكذا أصبحنا بعمل بالمير أمام دالة رياضية تشمل متغيرين أحدهما طول الموجة والآخر ترتيب الخط الطيفى ، بحيث وجدت علاقة لأول مرة بين الأعداد الصحيحة وموضع هذه الخطوط .

ولسهولة علاقة بالمير ولشعورى باهتمام فريق من القراء ببحوثه ، بل ولأهمية هذه البحوث ، أذكر أنه إذا فرضنا أن :

أ عدد الذبذبات الضوئية فى الثانية أى التردد
و ب ترتيب الخط الطيفى فى الهيدروجين
و حـ عدد ثابت يسمى ثابت ريدبرج ومقداره :

$$١٠٩٦٧٧٫٧٦\ (\text{سم})^{-1}$$

فان علاقة بالمير تكتب كالآتى :

$$\text{أ} = \text{حـ}\left(\frac{١}{٢^{٢}} - \frac{١}{\text{ب}^{٢}}\right)$$

ويلاحظ أنه إذا عوضنا فى السلسلة المتقدمة العدد ب بترتيب أى خط ابتداء من الخط الثالث نحصل على التردد الخاص بهذا الخط ، وبالتالى على طول موجته ، وقد طابق هذا الواقع إلى حد كبير .

ظلت أعمال بالمير منذ سنة ١٨٨٥ لا تجد تفسيراً إلى أن قام عالم دانمركى يافع فى سنة ١٩١٣ بالخطوة الحاسمة فى هذا الموضوع ، وهذا التاريخ الأخير يجب أن يذكره الانسان بكثير من الاهتمام ، فقد عرف نايلز بوهر لأول مرة أن هذه السلسلة لبالمير تجد تفسيراً علمياً لو أننا استخدمنا فكرة الكم عند بلانك ، وهو الذى يقول إن الطاقة ظاهرة غير متصلة ، وإنها لا تحدث إلا بكم معين أى بوحدة معينة . وتطلع بوهر بثاقب فكره نحو الالكترون محاولا أن يعطيه نموذجاً يتفق وفكرة الكم السابقة ، نموذجا يفسر به الانبعاث الضوئى ، مع الاحتفاظ بنموذج رذرفورد السابق .

حدثنا العلماء أن المادة لا توجد إلا بكم ووحدة معينة هى حبيبات ذرة العنصر ، وأن الكهرباء لا توجد إلا بكم معين أى وحدة لا تتجزأ هى الالكترون . ويحدثنا بلانك أن الطاقة فى هذا الكون مهما كان نوعها لا توجد بدورها إلا بكم معين لا ينقسم إلى وحدتين . ولندرك ذلك أذكر أننا إذا أردنا مثلا أن ندعو عدداً من الناس لتناول الطعام ، فاننا مخيرون أن ندعو ثمانية أشخاص مثلا أو تسعة أو عشرة الخ . . . ، ولكننا لا نستطيع أن ندعو تسعة أشخاص ونصف شخص ، إذ الانسان موجود فى الخليقة بوحدات معينة ويستحيل وجوده بأنصاف هذه الوحدات — كذلك الحال فى الطاقة التى لا توجد فى الخليقة إلا بوحدة معينة وكم معين .

هذا الكم للطاقة تطلع إليه بوهر ليوفق بين أعمال جليلة لبالمير صاحب السلسلة ، وأعمال هامة لبلانك صاحب الكم ، وأعمال أخرى لرذرفورد صاحب النموذج الذرى المحبب إلى العلماء لانسجامه مع بقية الكون . وهكذا بدأ بوهر عمله محاولا تفسير الشفرة التى عثر عليها بالمير ، وكأن بوهر يقول : « ليست هذه الورقة لبالمير عديمة القيمة ، إنما هى ورقة تحتاج إلى من يطالعها » . وهكذا تشبث بوهر بهذا المستند ، وهو يقول للعالم أجمع : « أعطونى وقتاً كافياً لعلى أوفق لقراءة هذه الرسالة العجيبة » .

والآن دعونا نسأل لماذا نرى فى الصوديوم خطوطاً طيفية معينة ، ونرى للهيدروجين خطوطا أخرى ؟ دعونا نسأل هل هناك علاقة بين ما نراه وبين ما هو داخل الذرة ؟ إننا لم نر لهذه القطعة من الصوديوم هذه الخطوط إلا بعد أن هيجناها فى اللهب — ترى ماذا جرى فى عالمها الالكترونى ؟ وما هذا النوع من الاضطراب ؟ وما الذى طرأ على الالكترونات الدائرة داخل ذرات هذا الصوديوم؟ ترى ما الذى حدث للصوديوم أو للهيدروجين أو غيره من أحداث عالمية جعلتنا نرى لكل منها خطوطه المنتظمة ؟

هنا احتفظ بوهر العظيم بنموذج رذرفورد ولكنه لم يوافق على ميكانيكا لورنتز البندولية ولا على تلك الفكرة التى تفسر الانبعاث الضوئى تفسيراً خاطئاً ، من تقدم مستمر للالكترون نحو النواة عند دورانه حولها . وأصر بوهر على أن الالكترون يدور ، ولكنه يدور فى مدار ذى قطر معين أو مدار آخر محدد ، وحسب أن لكل مدار كمية معينة من طاقة ألكترونية تزداد بازدياد المسار ، وفى هذا ازدياد لطاقة الالكترون الكامنة ، وهى الطاقة التى يعطيها كاملة فيما لو وقع فى النواة مثلا . وهنا أدخل بوهر فرضاً جريئاً له علاقة بكم بلانك متقدم الذكر ، ففرض أنه لا توجد مسارات للالكترون إلا تلك التى تطابق التغير فى الطاقة بمقدار كم واحد . وهنا حسب هذا الكم الذى يرتبط بمقدار المسار وتتبع فى ذلك الأعداد الصحيحة ١ ، ٢ ، ٣ الخ وكأنه فرض فى الحيز حلقات معينة حول النواة لا يمكن للالكترون أن يدور إلا فيها . وأظن أنه يمكننا أن نفترض فى الحيز هذا النوع من عدم الاتصال بجوار المادة . بمعنى أنه يصح لنا أن نفكر أن وجود المادة تفرض على الحيز بجوارها أو عندها فرضية بوهر العظيمة المتقدمة . وهو رأى خطر لى أرجو أن ينال موافقة العلماء المعاصرين .

ولقد حاول بوهر بهذا أن يفسر عملية انبعاث الضوء التى لم يعزها إلى دوران الالكترون، وإنما عزاها إلى حادث عظيم وقع لهذا الكوكب الصغير ، حادث لم يقع على الأقل لكوكبنا الأرضى منذ دورانه حول الشمس ، وهذا الحادث الجسيم الذى وقع للالكترون هو وثبة له من إحدى المدارات إلى مدار آخر ليس له أن يتعداه إلا بحادث آخر مماثل للأول . على أن هذه الحوادث وأمثالها التى أحدثت تغييراً فى طاقة الالكترون هى التى سببت لنا على شبكة العين ما نراه من الأثر الضوئى الذى يرجع فى أصله إلى هذا الاضطراب الالكترونى ، فنرى للصوديوم هذين الخطين ، ونرى هذا أحمر وذلك أصفر .

هنا يحررنا بوهر من كل قيودنا العلمية السابقة ، ويباعدنا عن كل معارفنا وعن كل ماورثناه وورثه فيزيائيو هذا العصر من علوم . فمثلا كيف يمكننا أن نتصور مع بوهر ألكترونا دائراً فى مدار معين لا يرسل أمواجاً كهربائية وفق نظرية مكسويل ، تلك النظرية التى اضطر بوهر إلى هجرها . بل إننا نصادف بعد ذلك صعوبات جمة ، أولها أننا لاندرك لماذا تعطى وثبة الالكترون إشعاعا ؟ وثانيها لماذا يتبع نظام المسارات وحدة بلانك؟ وأخيراً يقصر بنا الفكر أن نفهم لماذا وثب الالكترون ؟

ومهما يكن من خطورة هذه الاسئلة ، فان بوهر لم يعرها انتباها ، وربما كان هذا سر عظمته . وهكذا كلما عارضته فكرة قديمة عمد إلى ترك القديم ، وظل شاخصاً إلى الطيف لا يعبأ بكل تاريخ الفيزياء ، مادام يجد بطريقته الخاصة تفسيرا لوضع الخطوط الطيفية ، وهكذا أحدث ثورة علمية كبرى .

على أن هذا النجاح لبوهر ، وإن تعارض

مع ما ذهب إليه الفيزيائيون فى عصره ، لفت إليه نظر جيش كبير من هؤلاء . وقد تمكن من وضع حساب دقيق لخطوط الهيدروجين ، بل تمكن من تفسير ثابت ريدبرج الذى ذكرناه فى سلسلة بالمبر المتقدمة ، والذى ظل العلماء يرون فيه عدداً بسيطاً لا يمت للذرة فى شئ ، فوجد أنه دالة لكتلة النواة وكتلة الالكترون وشحنته وثابت بلانك وسرعة الضوء .

ولم تكتمل هذه الصفحة المجيدة لبوهر دون أن يصادف صعاباً لا تعدلها صعاب ، فقد امتحن العلماء طيف الهيليوم فوجدوا أن العدد الثابت يختلف قليلا عما يحتمه حساب بوهر . وهنا أخذ بوهر فى محل الاعتبار أثر الالكترون المتحرك على النواة مسبباً لها حركة ضعيفة ، فصحح بهذا ما ظنه العلماء خطأ . وأخيراً عند ما يعثر فيزيائى من ذلك العهد على خطوط غريبة فى أنبوبة هيدروجينية لا تتفق مواضعها مع معادلات بوهر ، فان بوهر يؤكد له خطأه التجريبى ، ويذكر له فى جرأة أنه لا بد أن يكون هناك أثر طفيف للهيليوم مثلا فى هذه الانبوبة ، وهو أثر طالما اختفى عند تحضير الهيدروجين من جديد والحصول عليه بحالة نقية .

ومع كل ما ذكرت فقد تخلل عمل بوهر صعوبة علمية كبيرة . فبينما لا يشمل حساب مجموعتنا الشمسية إلا تسعة كواكب ، يصل عدد الكترونات نواة العناصر المختلفة إلى ٩٢ . هنا نرى صعوبة يعرفها أولئك الذين وهبوا حياتهم لتتبع رياضيات بوهر المتقدمة . وتنحصر صعوبة الحساب فى تحديد ما لهذه الكواكب (الالكترونات) ، من أثر بعضها فى بعض ، وفى ميل مسارات الواحدة منها على الأخرى ، بل فى اختلاف هذا الميل من كوكب إلى آخر .

كل هذا يجعل الموضوع عسيراً ، ومع ذلك اندفع جيش من الفيزيائيين النظريين فى كل جامعات الأرض محاولين تتبع أعمال بوهر وتطبيقها والاضافة إليها ، وذلك بالانتقال من عنصر إلى عنصر والتغلب على صعوبة الحساب ، وتوالت الرسائل العلمية فى هذا الباب سنين طويلة حتى إننى كنت لأصادف فى السوربون سنة ١٩٢٥ والعشر السنين التى تلتها إلا طلابا مشغولين بقضية الطيف ، وهم بالعشرات من جميع أجناس البشر ، بعضهم يتابع النظر إلى طيف العناصر فى المعامل ويحاول أن يقوم بتحسين فى المطياف ، وبعضهم يتابع الحساب ويقابل ذلك بما تحتمه التجارب . ومن هؤلاء وهؤلاء من يعكف على عمله أعواماً ليجد حلا موفقاً بين ما يصل إليه عن طريق الحساب وما يعثر عليه غيره من الطريق التجريبى .

وهكذا كان على بوهر أن يواجه فيزيائى هذا العصر ، يفسر ما هو معروف من ظواهر طبيعية ليس من اليسير هجرها ، وما قد يستجد من الظواهر . ألم يجد بوهر تفسيراً خالداً لظاهرة زيمان ، نسبة للفيزيائى الهولندى الذى كشفها ، وتتلخص فى أن للمجال المغناطيسى القوى أثراً فى الانبعاث الضوئى ، بحيث إذا وضعنا قطعة الصوديوم المتوهجة بين قطبى مجال مغناطيسى ، فان الخطوط الطيفية تنقسم فيما بينها ، فنرى للخط الواحد اثنين وثلاثة . ويطول بنا الشرح لو فسرنا كيف استطاع بوهر دون أن يتخلى عن فكرته أن يفسر هذه الظاهرة تفسيراً صحيحاً ، بل إنه وجد تفسيراً لظاهرة أخرى اسمها ظاهرة ستارك من اسم مكتشفها الألمانى ، وهى ظاهرة خاصة بأثر المجال الكهربائى فى الضوء .

هذا هو بوهر العظيم ، وهذه هى الالكترونات الحائرة تدور حول النواة كما

تدور الأرض حول الشمس، هذه الألكترونات التى ذكرنا أن النسبة بين كتلة إحداها وحبة المسبحة كالنسبة بين هذه الحبة والكرة الأرضية، أصبحت معروفة فى دورانها ووثبانها داخل العالم الذرى بقدر ما نعرف من حركة السيارات داخل العالم الشمسى .

لقد عز على نفسى أن أذكر نايلز بوهر فيما نشرته بالكاتب المصرى فى بضع سطور (١) بعد أن لمع اسمه فى سنة ١٩١٣ والسنين التى تلتها ، وبعد أن لمع اسمه من جديد فى الطاقة الذرية وما جرى بين صحراء المكسيك وهيروشيما .

هذا هو بوهر العظيم الذى فسر الانبعاث الضوئى من وثبة للألكترون من مدار بعيد فى النواة إلى مدار أقرب منه ، وجمع فى هذا التفسير بين فكرة الكم وبين نظام الطيف .

هذا هو بوهر الدنمركى الذى يرأس اليوم أعمال الطاقة الذرية بأمريكا، والذى أفاد أخيراً من أعمال أوتوهان فى برلين ، قد أطلعتك على جزء من أعماله الخالدة التى هزت العالم هزاً ، وها نحن أولاء تجولنا فى الذرة معاً بعيداً عن النواة وعن شمسها الخطيرة ، تجولنا معاً فى هذه السيارات التى تدور حول نفسها وحول النواة . وأغلب الظن أن جولتنا كانت متعبة لك وعسيرة على نفسى ، فقد أمعنت الفكرة فيما أكتب ، وأطلت النظر فيما تطالع . ولكنها الدنيا خلقت على نحو هذه الحلقات المعقدة .

والميراث العلمى يزداد على هذا النحو الذى تراه ، ومع ذلك فلم أعرض فى هذا المقال لأعمال ديراك الخالدة ، وما يحتمه من حالة مغناطيسية للألكترون ، ولم أعرض كذلك لدوران الألكترون حول نفسه ، وكلها أعمال متممة لأعمال بوهر .

ولقد تتبعت مع القارئ فى الجزء الأكبر من هذا العرض طريقتى الخاصة فى الكتابة والشرح ، واستعنت فى جزء منه بطريقة فى العرض لريشنباخ . وما هذا وذاك إلا محاولة منى لعرض آرائى وآراء غيرى . ومع ذلك فإن لقى القارئ مشقة فى هذه الجولة ، فأكبر ظنى أنه أفاد مما تعب من أجله ، وسأحاول أن تكون جولاتى القادمة أيسر عنده من جولاتى السالفة .

محمد محمود غالى

---

(١) « القنبلة الذرية وانعدام الذرة » ، الكاتب المصرى عدد ١ (أكتوبر ١٩٤٥) ، صفحة ٩٥ .

شهرية السياسة الدولية

كأنه ركود

كأن السياسة الدولية إذ تتلى مراجلها، فى ركود ؛ فهى لا تزال تعالج نفس المشاكل التى بدأت فيها من شهور : ومشكلة ايران لا تزال حتى هذه اللحظة التى نكتب فيها هذه الشهرية واردة فى جدول أعمال مجلس الامن وهى فيه منذ بدأ أعماله بلندن فى أواخر شهر يناير الماضى . ولا تزال كذلك المشكلة الأسبانية شاغلة أعمال المجلس ذاته منذ انتقل مقره إلى نيويورك . ولا تزال أنظمة الحكم والدستور فى فرنسا واليونان وبلغاريا وإيتاليا محل الاستفتاءات والانتخابات والمشادات داخل هذه البلاد، وموضع التأثير فى الاتجاهات الخارجية لها وللدول العظمى من ورائها كذلك . ولا يزال مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة يعقد جلسات فى قصر لوكسمبور يتلمس حلولا لمشاكل معاهدات الصلح مع إيتاليا والنمسا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا وما يتفرع عنها من تعديل التخوم وتقرير نظام المستعمرات .

ولكن

ولكنه ركود فى الظاهر ليس غير ؛ إذ الواقع أن العالم الدولى كان طوال الشهر المنقضى فى حركة دائمة يساورها شئ من القلق، ويحض عليها شئ من الحرص على الرغبة فى الاستقرار . وكان مظهر تلك الحركة خطبا يلقيها وزراء الخارجية فى انجلترا والولايات المتحدة وروسيا، ورسالات يوجهها الرؤساء إلى شعوبهم وهم يخرجون من ديارهم أو وهم يعودون إلى ميادين العمل فيها .

على أن الامر لم يقف عند حد الأقوال تلقى والعبارات تدون، بل إنه تجاوز الأقوال والعبارات إلى الاعمال والمواقف .

فى ايران

فبينما يستبقى مجلس الأمن المسألة الايرانية فى جدول أعماله، تتم المفاوضات بين حكومة طهران وزعماء أذربيجان الذين كانت قيامتهم سبباً مباشراً أو غير مباشر لعرض القضية الايرانية السوفيتية على هيئة الأمم المتحدة، وتصل إلى تفاهم بين الطرفين يسفر عن بقاء الاقليم المتحفز فى دائرة الامبراطورية الايرانية، على أن يستمتع بنوع من التميز فى الادارة المحلية ، إذ يكون له حاكم عام من أبنائه ، وإذ تخضع الادارة فيه لنظام المجالس الاقليمية والقروية ، وإذ يحظى أهله بنصيب وافر من العدالة الاجتماعية والهناءة البشرية .

والمنظور بعد هذا التفاهم فى سبيل الاستقرار أن تسحب القضية الايرانية بل تشطب من جدول أعمال مجلس الأمن وقد زال الخلاف الذى سبب رفعها إليه .

أسبانيا

لكن المشكلة الأسبانية ، أو «الفرنكوية» لا تزال معروضة على المجلس ، ولا تزال محل تنازع الاتجاه بين أعضائه . فنهم من يرى قطع العلاقات الدبلوماسية فى الحال مع تلك الدولة التى ينطوى نظامها الداخلى على مظاهر صريحة من مظاهر الفاشية التى قامت الحرب العالمية الثانية للقضاء عليها . ومنهم من يرى العرض للنظام « الفرنكوى » حراما فى ذاته ، إذ هو تدخل فى شؤون داخلية يمنعه ميثاق الامم المتحدة ذاته . ومنهم من يرى عدم اتخاذ المجلس قرارا حاسما فى المشكلة ، والاكتفاء برفع توصية منه إلى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة . وبين هؤلاء الأخيرين من يرى أن تكون التوصية مقصورة على اقتراح النظر فى قطع العلاقات الدبلوماسية مع أسبانيا ، ما دام نظام فرانكو هو السائد فيها . وبينهم من يرى التوسع فى الاقتراح بحيث يشمل قطع العلاقات بالنص ، كما يشمل فتح الباب أمام الجمعية العامة للاتجاه إلى أى اقتراح آخر تراه .

ويخشى الكثيرون أن يكون هذا التعدد فى المواقف وهذا الترجح بين الآراء معيدا إلى الذاكرة سوابق مؤلمة من سوابق الضعف التى كانت تلصق بعصبة الأمم البائدة !

فى فرنسا

وقد جرت الانتخابات العامة الثانية فى فرنسا خلال الشهر المنقضى وأسفرت عن بعض التحول فى الموقف السابق عليها . وقد كان الشيوعيون هم أصحاب المكان الاول فأصبحوا فى المكان الثانى ، وكان الاشتراكيون فى المكان الثانى فاصبحوا فى الثالث ، وكانت الحركة الجمهورية الشعبية فى الصف الثالث فطفرت إلى الصف الأول ، وإن كانت الفروق فى الأصوات لا تزال طفيفة كما كان شأنها من قبل .

وقد كان من شأن هذا التبدل أن حسب الجمهوريون الشعبيون — وهم المسيحيون الديمقراطيون السابقون — أن من حقهم أن تكون لهم رياسة الجمعية التأسيسية الجديدة وأن تكون لهم رياسة الحكومة أيضا . ولكن بعض المضاعفات جاءت تميل أول الامر إلى الاشتراكيين لتجعل منهم رئيس الجمعية التأسيسية فى شخص فرنسوا أوريول ، ورئيس الحكومة فى شخص مسيو جوان رئيسها الحالى .

وفى اللحظة الأخيرة ، بالنسبة لهذه الشهرية جد جديد ، بل حدث حدث : بدخول الجنرال ديجــول فى الميدان وإلقائه خطابا اعتبره الكثيرون خطاب ترشيح لرياسة الحكومة الجديدة .

ولتطور الأمور فى فرنسا على نحو أو آخر أثر كبير فى السياسة الدولية . والمعروف أن الاتحــاد السوفيتى يؤيد الشيوعيين الفرنسيين ، كما أن حكومة العمال فى انجلترا تميل إلى الاشتراكية ، والعناصر الكاثوليكية والرجعية فى كل مكان تدعو بالخير والاقبال للحركة الجمهورية الشعبية .

فى إيتاليا

وفى إيتاليا أسفر الاستفتاء عن فوز النظام الجمهورى على النظام الملكى ، وكان المصوتون خمسة وعشرين مليونا او يزيدون . فازت الجمهورية منهم باثنى عشر مليونا وفازت الملكية بأحد عشر مليونا وألغيت بطاقات مليونين . فكان هذا الالغاء مثارا للشك والطعن ولتأجيل الإعلان الرسمى للجمهورية من قبل محكمة النقض التى تشرف على فرز الأصوات وإعلان النتيجة النهائية . وقد انتهز الملك أمبرتو فرصة عدم إتمام هذا الاجراء واعتبر الملكية لا تزال قائمة ورفض مغادرة البلاد إلا مكرها وموجها رسالة للشعب يسجل فيها حقه فى المطالبة بالعرش .

فى اليونان

ولا تزال الأزمة النظامية قائمة فى اليونان بين الملكيين والجمهوريين . ولا يزال الملكيون يطالبون ببقاء الجنود البريتانية فى اليونان لحفظ الأمن الذى يخشون عليه من الجمهوريين اليساريين إذا خلا لهم الجو .

ويقوم الجدل فى أثينا حول الموعد الذى يجرى فيه الاستفتاء . وكان المفهوم أنه لن يكون قبل سنة ١٩٤٨ . لكن بعض العناصر اليمينية تحاول إجراءه من الآن أو على الأقل ترك الملك يعود إلى بلاده ويتولى سلطاته مادام النظام القائم هو النظام الملكى ، وما دام الوصى على العرش هو المتولى رياسة الدولة بالفعل نيابة عن الملك الأصيل .

لكن المسألة أعوص من أن تعالج بالسهولة . وعودة الملك الآن قد تكون إيذانا بقيام حرب أهلية واسعة النطاق . ولذلك فأغلب الظن أن الحال تستمر على ما هى عليه وقتا آخر إلى أن تجئ شهريتنا المقبلة على الأقل .

مؤتمر وزراء الخارجية

أما مؤتمر وزراء الخارجية فقد بدأ اجتماعه فى جو تفاءل به « الملاحظون » ، وقد رضى الرفيق مولوتوف أن يدع المسألة النمسوية ترد فى جدول الأعمال بعد الفراغ من معاهدات الصلح . لكن المواضيع الدقيقة فى المعاهدة الايتالية لا تزال قائمة ولا يزال الخلاف عليها ناشبا . ولم يتضح بعد أى اتجاه لاية دولة فى سبيل أية ناحية من نواحيه . ولو أن المتشائمين يخشون أن تكون تريستا مبعث شرارة جديدة ، أو أن يكون الخلاف على مصير برقة وطرابلس سبباً لاخفاق المؤتمر وإيذانا باتجاه حاسم جديد فى الميدان الدولى كله .

محمود عزمى

شهرية الفن

معرض مائة صـــورة
من عيون الفن لمدرسة باريس

إنه لمن أصعب الأمور اختيار مائة من خير الصور وجمعها فى صعيد واحـد بحيث تكون هـذه الصور فوق متناول النقـد . ولـكن متحف شار بنتيه قد تمكن من القيام بهذا العمل العجيب ، حين عرض ما سماه « مائة من أهم الصور التى أخرجتها مدرسة باريس » . وهذه الصور تظهر لمن يجهل حتى الآن ما أخرجته العبقرية الفرنسية فى فترة خطيرة من حياتها ، منذ مطلع هذا القرن فى مونمارتر مونبارناس وغيرها من أحياء باريس .

أكثر هذه الصور من عمل رجال توفوا ، وهى تنتمى إلى مدارس عدة من طرق الفن الحديث أطلق عليها أسماء غريبة مثل الأنبياء والوحوش والمدرسة المتجاوزة مدى الواقعية والمدرسة التعبيرية .

ومدرسة أصحاب الغريزة لا تنتمى إلى « البســطاء » ولا « الأوائل الحديثين » وليس هنــالك كلمة يمكن أن تعبر عن الصفة الأساسية لهذا النوع من المصورين ؛ على أن تسميتهم بالغريزيين تصفهم بما فيه الـكفاية ؛ إذ أن هذه الصفة تجمع بين أشخاص ذوى أخلاق متباينة وتكوينــات متعددة ومطامع أحيانا متعارضة . وهؤلاء الغريزيون يتركون الـكلام لقلوبهم وما فيها من الشعر وما تنطوى عليه من أحلام . وهــذه الأحلام تختلف عن أحلام المتجاوزين مدى الواقعية ؛ إذ أن الأخيرين يحاولون تصوير ماينطوى عليه العقل الباطن ، وإنما الحلم عند الغريزيين هو ذلك الذى يقوم فى نفس الأطفال والمحبين ، وغاية هذا الفن هو الهرب من هموم الحياة .

أما « الأنبيـاء » فقد نشأوا فى عالم الفن فى نحو سنة ١٨٩٠ تحت تأثير جوجان وجماعة الصداقة ، وتجمعهم اكتشافات واحدة ، وقد عملوا فى حماسة وتواضع على ربط أنفسهم بالتقاليـد المفقودة . ويعد بونار من أجرئهم وأكثرهم اختراعاً ، وهو يجدد رنوار وريدون على حين يرث فياركلا من شاردان وديجاس ويعتبر موريس دنى صاحب نظريات الجماعة . ويمت روسل وفالوتون بصلة إلى فرا أنجلـكو ودانجر وبوسان ؛ وكل منهم حاول أن يتخلص من حدود لوحة التصوير ، ونجح فى التصوير على الحوائط .

أما الوحوش فـكل همهم فى اللون . وقد ظهر فن هــذه الجماعة فى ســنة ١٩٠٥ وهم ماتيس وفلامنك وروو ومانجان وبوى وفالا ومازكيه وفان دونجن . وهم جميعاً يفتنون فى الألوان ومزجها وتنويعها . وتعنى الوحشية أيضاً بالنار : ففلامنك يصور حريق الشمس على حين يصور روو العالم وهو يحترق فى نار الجحيم .

أما المذهب التكعيبى فهو اتجاه جـديد فى التصوير الفرنسى المعاصر . فالوحشية ليست إلا نوعاً جديداً من المذهب التأثيرى ، أما المذهب التكعيبى فهو قطع لـكل صلة بالماضى ، ورفض لـكل ما أتى به المصورون منذ سنة ١٨٧٥ ، فأنت ترى شدة الحياة بدلا من لذة

الحياة التى نجدها عند رنوار ، وترى التناسق الجدى فى اللون الاسمر أو الرمادى بدلا من الألوان الحمراء الزاهية ، وترى الاشكال الهندسية بدلا من الخطوط المؤثرة لبيسازو وسسلى ومونيه ، ففى المذهب التكعيبي بأجمعه رفض للبحوث والاكتشافات السابقة . ولكن هذا الرفض ليس سلبيا ، إذ هو يعبر عن شىء آخر ولكنه يحذف ما لا يلائمه ؛ فأصحابه يريدون العودة إلى فن العظمة ؛ ولذلك يفرضون على أنفسهم نظام كبار المنشئين . فالصورة ليست مجرد لعبة ظريفة ، بل هى تعبير عن إرادة لا تتفق مع التساهل . ويجب ألا نخلط بين الجميل والظريف وبين الجد والرقة وبين العظمة والتأثير . وقد تمكن مخترعو هذه النظريات التى دهش لها الجمهور من أن ينشئوا تدريجياً عالماً فنياً لا يتخذ العالم الخارجى إلا ذريعة لينشىء فناً حسب حاجاته .

وفى العالم الذى شب سنة ١٩١٠ وظهرت فيه نخبة جديدة من رجال الفن ، كان التصوير عن طريق التكعيب من أوائل طرق التعبير عن ذلك النوع من المشاعر .

ثم جاء مذهب المتجاوزين مدى الواقعية على أثر التكعيب ، وقد انبعثت فى العالم هزة صامتة ، وكأن الأرض قد ثارت كتلا ، وكأن الحيوان قد دهش لنفسه ، وكأن الانسان قد قلق لقوته .

ثم جاء التعبيريون . وإذا كنا نستطيع أن نتكلم عن مذاهب الوحشية والتكعيب والمتجاوزين مدى الواقعية ، فانه لمن أصعب الأمور أن نحدد وصف المدرسة التعبيرية . وكثيراً ما سمى روو Roualt أبا المذهب التعبيرى الفرنسى ، وإلى جانبه جروميير .

ورسوم روو تدل على تطور متناسق ، ولم يسبق لفن التصوير أن بلغ من الثقة والجرأة مبلغه اليوم ، وإن كنا لا نجد فى رسومه الأخيرة ما كان فى الرسوم الأولى من عنف وتأثير ، إذ يغلب عليها الهدوء والحب والروحانية ، وهذا غير ما نألفه فى المدارس الأخرى . على أننا نجد فوق كل هذا ، تلك الروعة التى نجدها فى صور عظماء المصورين على اختلاف العصور .

ننتقل إلى الأجانب ؛ فان وجود المصورين الأجانب بين المدرسة الباريسية ظاهرة جديدة وهامة بالنسبة لعددهم وصفاتهم .

لقد ظهرت مواهب كثيرين من الأجانب عندما سكنوا باريس ، فكان لباريس الفضل فى أن أحيطوا بجو الحماسة وحب الانشاء والحرية ، وتعلموا كيف يعبرون عن رسالتهم ، وهم بدورهم زادوا مدينة النور ثراء .

وهكذا نرى بيكاسو فى تاريخ الفن الفرنسى يتأثر سيزان دون أن ينسى بلده أسبانيا . ولقد تأثر الفن الفرنسى بالحياة الاسبانية عن طريق جوان جرى وميرو ، وأدخل اليه كل من موديليانى وكيريكو شعور العظمة . ونستطيع أن نقارن فنهما حين كانا بايطاليا بفنهما وهما فى فرنسا ، فيتجلى لنا فضل باريس عليهما . ولكن أليس أنفع ما دخل الفن الفرنسى هو ما جاءه من شرق أوربا ؛ لأنه أبعد المؤثرات وأكثرها غرابة ؟ إن فن سوتين وتحليلاته للطبيعة ، وشاجال وتحولاته ، مما أدخل خميرة جديدة فى الألوان القديمة التى ألفها المصورون الفرنسيون ، ولم يظهر فى مجال الفن منذ ثلاثين سنة مثل هذا العنصر الجديد الذى بلغ مبلغ الثورة . فالفن الفرنسى المعاصر يحتوى على عناصر متعددة فيها حياة ؛ ولذلك كانت رسالته لا تزال فى انتشار .

معرض الستائر فى باريس

أقيم معرض عظيم فى المتحف الأهلى للفن الحديث بشارع الرئيس ولسن بباريس، وفيه نرى صوراً متتابعة لتاريخ الستائر الفرنسية. وقد نسق القسم القديم منهـا مسيو ڤرليه، والقسم الحديث مسيو جان كاسو، يعاونهما فى ذلك رجال المتاحف الأهلية.

ولقـد عادت الحياة إلى فن الستائر فى فرنسا منذ بضع سنوات، وبدأت الحركة متواضعة حين نسجت ستائر فى بوڤيه مطابقة لرسوم راؤول دوفى، ثم قويت فى عهد الاحتـلال الألمانى عند ما نسج جان أدنيه رسوم ساڤال وبريانشون وكوتو وروهنر وغيرهم.

وظهر فى هذه الأثناء مصور للستائر حديث هو مسيو لوركا، فأقيم له معرض فى متحف كاريه، وبلغ مسيو جروميير فى أوبوسون مبلغاً من الاتقان لا يدانيه فيه أحد، فلا زال الفرنسيون فى فن الستائر والسجاد يشغلون مركزاً هاماً.

ويشغل المعاصرون فى المتحف طابقاً بأكمله. ويعتبر كل من مسيو راؤول دوفى ولوركا وجروميير زعماء هذا الفن الفرنسى فى القرن العشرين، وهؤلاء الرجال الثلاثة لم يخترعوا مع ذلك شيئاً غير منتظر، وهم يمتون بصلة قوية إلى ما نشاهده فى الطابق الأسفل من فن للقدماء فى هذا الباب.

* * *

شهرية السينما

عودة القافلة (شركة أفلام التاج)

قيل إن قصة هذا الفيلم من وضع الأستاذ يوسف جوهر، وقيل أيضاً إنها حازت الجائزة الأولى من وزارة المعارف العمومية لمسابقة القصة. وقد تكون الجائزة الأولى من وزارة المعارف للقصة ضماناً كافياً لنجاح الفيلم، ولكنها في هذه المرة لم تكن كافية لهذا الضمان ؛ فقصة هذا الفيلم مفككة بها من التطويل ما يمل القارئ أو المشاهد. على أني أعترف للمؤلف أنه ذو خيال خصب جامح لم يحسن التحكم فيه فأوحى إليه مواقف وقصصاً كثيرة غير مرتبط بعضها ببعض. فعندما يتكلم عن أسرة حمدى وما بينها وبين الأسر الأخرى من ضغائن يخيل إليك أن محور القصة هي تلك الضغائن، ولكن سرعان ما يتضح لك أن تاريخ الأسرة ليس له علاقة بالحوادث القادمة مطلقاً بل إن كانت ثمة علاقة فلم يحسن المؤلف إظهارها. وعلى أية حال فقد غالى في سرد هذا التاريخ وأسهب فيه حتى أسأمك منه.

ثم ينتقل بك من الماضي إلى الحاضر: فيبتدئ حياة حمدى، وهي حياة كفاح كما قيل في البرنامج الذي وزع على النظارة، وهي حقاً حياة كفاح، غير أن كثرة الحوادث والشخصيات شغلت المؤلف عن إعطاء هذا الكفاح المرتبة الأولى في قصته. فأطال مثلا في دراسة شخصية هذا المحامي الشيخ إطالة لا مسوغ لها مطلقاً ؛ إذ أن شخصيته ليست ذات غناء في الفيلم اللهم إلا في حدود تأثير هذا الشيخ في صهره حمدى. وكان من اليسير جداً على المؤلف أن يظهر مدى هذا التأثير في منظر أو منظرين قصيرين، إلا أنه تمادى في ذلك، حتى إن نصف القصة أو ما يقارب النصف لم يكن الحديث فيه حول كفاح حمدى في الحياة بل حول حياة هذا الشيخ، وهي حياة هادئة متصلة الهدوء لا يعكر صفوها سوى حادث أو حادثين لا خطر لها مطلقاً.

ويموت الشيخ ولا يترك لحمدى وزوجه شيئاً من الثروة التي جمعها. فيعود الشاب إلى الكفاح في سبيل قوته وقوت أسرته، وتلم به محن كثيرة: منها أن زوجته التي تزوجته عن حب وأنجبت منه طفلا أوثق الرباط بينهما، والتي قبلت أن تكافح مع زوجها، هجرته هذه الزوجة لتعيش مع شاب كان أبوها يبغضه كل البغض، ولم تظهر له قبل زواجها أي ميل. فهل يمكن فتاة شريفة مثل التي صورها لنا المؤلف محبة لزوجها مخلصة له كل الاخلاص، هل يمكن هذه الفتاة أن تقبل دعوة شاب للتنزه معه؟ فهي تضحي بزوجها وبابنها وبسعادتها لترحل مع هذا الشاب الذي يسمعها عن زوجها ما يجرح شعورها وكبرياءها! ولو لم تكن بطلة القصة بالأخلاق التي اتصفت بها، لكان لهذه النزوة منها مسوغ.

ويواصل حمدى كفاحه في الحياة حتى يصبح محامياً مشهوراً تحقيقاً لرغبة حماه، وينتقل من العسر إلى اليسر. وهنا يمرض ابنه، فتسمع زوجه بهذا المرض فتذهب لعيادة المريض الصغير، ويتقابل الزوجان حول سرير ابنهما، فتكون التوبة ويكون الغفران، ويعاود الزوجان المعيشة معاً.

ونرى من هنا أن الجزء الأول أو مقدمة القصة قد أغارت على القصة نفسها وفاقتها طولا مع أن العقدة ونهاية القصة لم يحظيا إلا بقسط يسير ، وأن الابتعاد عن موضوع القصة طغى عليها حتى فقدت وحدتها وضاعت معالمها في هذا الطغيان .

ولم يحسن الأستاذ أحمد بدرخان في إخراج الفيلم إخراجاً سينمائياً . ولربما كان له في ذلك بعض العذر ؛ لأنه ليس من حقه أن يقتطع من الرواية ، مما جعل إخراجه مسرحياً أكثر منه سينمائياً . فقد أطال في تصوير المونولوج في الفيلم ومناجاة الشيخ لصورة امرأته أو ثوب المحاماة ، إلى آخر هذه المواقف التي طالت حتى سئمناها . ويبدو أنه لا بد من وجود مناظر راقصة في الأفلام المصرية ، ولو لم يكن لها مسوغ . وإذا كان المخرج يتهاون بفنه إلى هذه الدرجة ، فكيف يقبل المؤلف أن يدخل على قصته هذه المناظر التي ليس لها أي مسوغ ، بل تعد إطالة لا تستساغ ؟

وكان التمثيل مسرحيا أكثر منه سينمائياً . فالأستاذ حسين رياض — ونحن لا ننكر هنا أنه ممثل قدير — قد غالى شيئا ما في تمثيل المحامي الشيخ وفي إيماءاته وخطواته البطيئة كأنه يمثل على المسرح . فهذا التمثيل لا يصلح للسينما لكبر المناظر ، ومن ثم تبدو المواقف طويلة مملة . وقد أصاب الأستاذ حسين صدقي في تمثيله توفيقاً يجعله أهلا للثناء ؛ فهو يبدو طبيعياً في كل مواقفه . أما السيدة سميرة خلوصي فقد امتلأ جسمها إلى حد لا يسمح لها أن تقوم بأدوار الفتيات ، ولم تحسن في لبس سروال ركوب الخيل لأنه زاد من بدانتها . وعلى المخرج أن يختار لممثلته الأولى ما يلائم جسمها ويخفي ما به من عيوب . وقد قامت بدورها وأصابت نجاحاً وتوفيقاً .

غير أن نجاح الفيلم تمثيلا لم يمنعه من الاخفاق تماما . وكيف لا يكون ذلك نصيبه والقصة مفككة لا رباط بين أجزائها ، والاخراج رخيص لم يبذل فيه المخرج عناء . والسينما المصرية لن تعرف إلى النجاح سبيلا إلا إذا دققت في اختيار قصصها ، وأخرجت لنا من الأدب العربي الحديث والأدب الأوربي أيضا ما أنتج من قصص عالية متقنة . وليعلم الذين يعنون بشؤون السينما أن القصص الظافرة بالجوائز ، ليست هي أحسن القصص . والدليل هنا جلي واضح .

ڤولبوني (فيلم أيل دي فرانس) (١)

يبدو أن السينما الفرنسية تتجه إلى إخراج المسرحيات الخالدة على الشاشة البيضاء ، مع أن هذه المسرحيات غير صالحة للسينما مطلقا .

وقصة « ڤولبوني » التي عرضت علينا منذ قليل ماهي إلا مسرحية « ڤولبوني » أو « الذئب » التي ألفها بن چونسون سنة ١٦٠٤ واقتبسها عنه الكاتب النمساوي ستيفان زڤايج ، ثم تناول موضوعها الكاتب الفرنسي چول رومان فصاغها صياغة فرنسية خالصة محتفظا فيها بمعالم شخصياتها كما وضعها مؤلفها الانجليزي ، وبنقده اللاذع لعيوب المجتمع المعاصر له ، وبادراكه التام للطبيعة الانسانية البغيضة . وقد يكون الكاتب الانجليزي غالى في تصوير هذه الطبيعة حتى أصبحت شخصياتها غريبة كل الغرابة تبعث على البغض والكراهية . إلا أن الكاتب

(١) Volpone (*Isle de France Films*).

الفرنسى قد حرص كل الحرص ، وهو امين فى اقتباسه ، على الاحتفاظ بهذه الصورة التى تدعو إلى الاشمئزاز أكثر مما تدعو إلى السخرية . ولا ننكر أن الفيلم ما عدا الجزء الأول منه كان أيضاً أميناً فى أقتباسه لهذه المسرحية الفريدة .

وقصة ڤولبونى تصور تصويرا دقيقا أطماع الناس فى المال وفرض سلطانه عليهم . فهم عبيد له لايعيشون إلا لجمعه كلما وجدوا إلى جمعه سبيلا ، والاستمتاع بمنظره وهو مكدس فى خزائنهم كلما تيسر لهم هذا الاستمتاع . وهم فى سبيل هذا وذاك لا يبالون بالوسيلة التى تيسر لهم هذا الاستمتاع وهذه اللذة . فهم يضحون بأزواجهم وأولادهم وأعراضهم لينالوا حتى اليسير من المال ، يتفانون فى خدمة هذا الاله الطاغية وهذا السيد المستبد ، لا شباع أهوائهم وملذاتهم .

فڤولبونى تاجر شرقى يعيش فى البندقية وقد جمع من تجارته مالا كثيراً ، فأذاع بين الناس بوساطة موسكا تابعه أنه أشرف على الموت وأنه حرر وصيته ، ولكنه لم يذكر فى تلك الوصية اسم وريثه ، فأخذ الناس يهرعون إلى قصره طمعا فى أن ينالوا الميراث .

فهذا يقدم له كأسا من الذهب الخالص وذاك كيساً من القطع الذهبية . وحين يتضح لهم أن هداياهم ليست بذات غناء يلتجئون إلى وسائل أخرى ، فهذا يحرم أبنه ميراثه ليجعل ڤولبونى وريثه الوحيد ، وذاك يحضر له امرأته ليقضى معها ليلة فاجرة ثمنا لهذا الميراث الذى يود الحصول عليه . ولكن لايحصل على هذا الميراث أحد منهم ، فڤولبونى يفقد ثروته التى جمعها وحرص على إخفائها بفضل دهاء تابعه موسكا . فهذه صورة بشعة لنفسية الانسان ووضاعتها لا تخلو من التهكم والسخرية ، ولكنى أرى فيها من المغالاة بالرغم من طابعها الواقعى ما يجعل من شخصياتها صوراً « كاريكاتورية » .

وثمة فوارق بين السينما والمسرح تحد من نجاح أية مسرحية إذا أخرجت إخراجاً سينمائياً . فبينما ترتكز المسرحية على الحوار دون المناظر نجد أن الفيلم السينمائى يرتكز على المناظر دون الحوار . وبالرغم من هذا البون الشاسع بين أسلوبى هذين المظهرين للفن التمثيلى نرى الشركات الفرنسية تتزاحم على إخراج المسرحيات فى السينما . فهى لا تقتبس المسرحيات وتصلحها ولكن تعرض المسرحية فى أمانة تامة . أما ڤولبونى فقد أدخل المخرج على مسرحية چول رومان مقدمة للقصة ليكثر من المناظر الخارجية فى الفيلم . وعند انتهاء هذه المقدمة عادت إلى أساوب المسرح فى الاخراج . وعبثا حاولنا أن نتتبع موسكا فى غداوته وروحاته فى المدينة ، فالمنظر ظل واحداً طول الشريط ، لم ننتقل من حجرة ڤولبونى إلا مرة واحدة للذهاب إلى المحكمة . ولولا التمثيل وجمال الحوار لبدا مملا هذا الأثر الفنى . فهارى بور ولويس چوڤيه وشارل دولان كان لهم النصيب الأوفى فى نجاح هذا الفيلم باشتراكهم فيه بفنهم الرفيع . كان هارى بور يقوم بدور ڤولبونى وهو دور عسير ، إذ يحتوى على دورين فى آن واحد : ڤولبونى على فراش الموت ، وڤولبونى الصحيح البدن الذى يلعب بالرجال ويسخر منهم بوساطة ماله . والجمهور المصرى يعرف الممثل القدير لويس چوڤيه الذى ينفرد فى تمثيل مسرحيات چان چيرودو ، وقد أتقن القيام بدور موسكا ذلك الشاب المستهتر الذى قضى جزءاً من حياته عالة على ڤولبونى ثم نجح فى أن يستولى على مال سيده . ونذكر أخيراً شارل دولان وكان يقوم بدور كورباتشيو ذلك الرجل المسن الذى كان يقرض النقود بالربا الفاحش . وقد

قام بهذا الدور دون مغالاة : لقد غير من ملامحه وصوته وضحكته بما يلائم الشخصية التي كان يضطلع بها . ولا عجب أن ينجح شارل دولان في هذا الدور فهو يمثله منذ سنة ١٩٢٨ . ولا داعي أن نتعرض لجاكلين ديلوباك ولا لتمثيلها السخيف المزرى . ومن العجيب أن نرى هذه الممثلة تظهر في أفلام كثيرة بالرغم من مواهبها الضئيلة .

سيرانو دى برجيراك تأليف إدمون روستان (أفلام فرناند ريفيرز) (١)

من الخطأ أن نعد هـذا الفيلم إنتاجاً سينمائياً ، وأن نوجه إلى مخرجه الملامة على مافعل . فلم يرم مسيو فرناند ريفير عند ما أنتج هذا الفيلم إلى أن يغير على مسرحية خالدة ويشوهها بأن يقتطع من مشاهدها ما لا يصلح للسينما وأن يضيف إليهـا ما يراه ملائماً ليصل إلى النجـاح السهل الرخيص كما يفعـل بعض المخرجين المصريين . بل كان مقصده نبيلا كل النبل ؛ إذ أنه أخرج هذه المسرحية بأكملها كما كتبها إدمون روستان دون أن يغير فيها كلمة واحدة، وأهداها إلى هؤلاء الذين قرءوا شعر روسـتان وحالت الظروف بينهم وبين مشاهدة تلك المسرحية . وقد يوجد من بين النظارة من يرمى هـذا الانتاج بالاطالة وبساطة الاخراج وقلة المناظر . فليعلم هـذا الفريق من المشاهدين أنهم يبتعدون عن الأمانة في النقد ؛ لأن فيلم « سيرانو دى برجيراك » ما هو إلا تسجيل سينمائى لمسرحية خالدة مثلت وأخرجت على أنها مسرحيـة لا فيلم . ولا أرى في ذلك أى خطأ بل على العكس أرى أن فيه خدمة جليلة لعاشق الفن والمسرح الفرنسي أولئك الذين حرموا هذا النوع من المسرحيات والتمثيل منذ زمن بعيد .

وقصة « سيرانو دى برجيراك » خالية من الحوادث الكثيرة ، مع أنها متقنة حواراً وموضوعاً كل الاتقان . لما علم سيرانو دى برجيراك أن ثمة شاباً يدعى كريستيان يكلف كلفاً شديداً بحبوبته روكسان أخذ يمد له يد المساعدة في هذه المغامرة الغرامية . والدافع إلى ذلك هو أن سيرانو دميم الهيئة لم يجد إلى السعادة في الحب سبيلا بالرغم من لباقته وإتقانه لغة الهوى ، على حين كان كريستيان شابا وسيم الطلعة جذابا ولكنه لا يعرف كيف يتكلم إلى النساء . ويصل العاشقان إلى مرادهما ، وهو أن تهيم روكسان بالشاب كريستيان ، فتعشق فيه جماله ولباقة سيرانو . ويموت كريستيان أثناء محاصرة أراس ويحتفظ سيرانو بالسر الذى كان يربط بينهما ، ولم يبح به لروكسان إلا عنـد وفاته أى بعد أربع عشرة سنة .

وقد اجتمع في هذا الفيلم عبقرية رجلين : عبقرية الشاعر روستان الذى لشعره وقع قلما وجدناه في مسرحيات أخرى ، وعبقرية الممثل العظيم مسيو كلود دوفان . وشعر روستان في غنى عن تقديمه إلى الجمهور ، فقليل من الناس من لم يطلعوا عليه ولم يشعروا عند قراءته بهذه الموسيقا التى تنطلق منه . وروستان يمتاز بسهولة اللفظ : فشعره كماء جدول نقى شفاف . أما روحه المرحة ونكاته المستملحة ومواقف مسرحياته المتقنة وخياله الجامح ، فهذه العناصر كلها متجمعة ، مهدت لمسرحية سيرانو الطريق إلى الخلود . أما مسيو كلود دوفان فهو يمتاز ببساطة في التمثيـل

(١) *Cyrano de Bergerac* d'Edmond Rostand (*Films Fernand Rivers*).

وإلمام واسع للشخصية التى يمثلها . فقد أخرج لناشخصيةسيرانوكماعرفناها وكما رسمهامؤلفها : شخصا دميم الهيئة ، ولكنه يمتاز باللباقة فى الكلام ، وحب المخاطرة ، والافتخار ببنى مقاطعته وتطلعه إلى الحرية والاستقلال الفكرى مهما كلفه ذلك من عناء ، ومهما أوجد له من متاعب . كل نواحى هذه الشخصية كانت واضحة فى تمثيل هذا الممثل البارع .

وما نأخذ المخرج به هو إدخاله بعض الرسوم المتحركة على الفيلم ليصور قصةسيرانو عن صعوده إلى القمر . ولست آجد معنى لهذه الرسوم ، وقد أفسدت قليلا من وحدة الفيلم وطابعه المسرحى .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان(١) ألفه شاعر مصرى يسمى ابن سودون ، وقد كان يعيش فى القرن التاسع الهجرى ، وكان إماما ببعض المساجد ، إلا أنه اتخذ الهزل منهجاً له فى حياته، فطار اسمه وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب كله مذهب الضحك والفكاهة . وقد عنى أخيراً بجمع هذا الشعر فى ديوان وأضاف إليه طائفة من الحكايات والملافيق ، كما يقول هو فى مقدمة هذا الديوان ، وهو يملؤه بضروب من القصائد والموشحات والزجل والدوبيت وأنواع من المواليا مضيفاً إليها طائفة من الطرف العجيبة والتحف الغريبة .

وقد بنى أغلب الديوان من اللفظ العامى ، وهو من هذه الناحية يسجل جانباً له أهميته فى تاريخ لغتنا الشعبية ؛ فان من يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية المحلية الحديثة ، وإن فى هذا بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود؛ فكثير من أمثال هذا الديوان واصطلاحاته وألفاظه لاتزال ماثلة تحت آذاننا فى العصر الحديث .

ولكن الشئ الذى يلفتنا حقاً فى هذا الديوان هو أنه ألف كله فى ضروب من الهزل والدعابة ، ولسنا نعرف شخصاً قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر كله يأخذ مأخذ الفكاهة ، أو على الأقل لسنا نعرف فى مصر شاعراً احتكره الهزل هذا الاحتكار . حقاً أن فى الخريدة شعراء فاطميين يعتدون بالفكاهة فى شعرهم ، وكذلك الشأن فى العصر الأيوبى، ولكننا لا نجد شاعراً يخصص نفسه بالهزل هذا التخصيص الذى نجده عند ابن سودون .

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة فى تاريخ أدبنا المصرى ؛ لأنه يفصح إفصاحا واضحاً عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الذى تشتهر به مصر فى عصورها الاسلامية المختلفة . وإن من يقرأ هذا الديوان يلاحظ أن صاحبه كان يعتمد فى فكاهاته على المفارقة ، فهى المفتاح الذى ينصب منه جميع نغم الهزل فى الديوان . وقد كان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة ، هى أن يقف بين يديك موقفاً جاداً يريد أن يروى لك بعض العجائب ، ولكنه ما يبدأ فى ذكرها حتى تحس مفارقة ونبواً وشذوذاً عن منطق الحوادث ، وبذلك تسترسل فى الضحك لا لسبب إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك ، فقد كنت على أهبة أن تستمع لأشياء غريبة ، فاذا بك تستمع لأشياء كأنها بديهية لكثرة ألفتنا لها وصلتنا بها . ومن هنا يأتى الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى وكأنها تهوى من أمكنة عالية، هى أمكنة المنطق الواقع ، فنضطرب معها ولا نلبث

---

(١) طبع هذا الديوان فى القرن الماضى طبعة سقيمة . ولكن بدار الكتب المصرية نسخ مخطوطة منه مختلفة .

أن نضحك فى غير نظام ، بل فى فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه . وانظر إليه يقول :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما … تيقن أن الأرض من فوقها السما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل … وبينهما أشيا متى ظهرت ترى
وإنى سأبدى بعض ما قد علمته … لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم … ومنهم أبو سودون أيضاً وإن قضى
وأن أبى زوج لأمى وأننى … أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
وكم عجب عندى بمصر وغيرها … فمصر بها نيل على الطين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بله … وليست تبل الشمس من نام فى الضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائماً … بها الظهر قبل العصر قيل بلا مرا
وفى الشام أقوام إذا ما رأيتهم … ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه … بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
وتسخن فيها النار فى الصيف دائماً … ويبرد فيها الماء فى زمن الشتا
وفى الصين صينى إذا ما طرقته … يطن كصينى طرقت سواً سوا
بها يضحك الانسان أوقات فرحه … ويبكى زمان الحزن فيها إذا ابتلى
ومن قد رأى فى الهند شيئاً بعينه … فذاك له فى الهند بالعين قد رأى
وفيها رجال هم خلاف نسائهم … لأنهم تبدو بأوجههم لحى
ومن قد مشى وسط النهار بطرقها … تراه بها وسط النهار وقد مشى
وعشاق إقليم الصعيد به رأوا … ثماراً كأثمار العراق لها نوى
به باسقات النخل وهى حوامل … بأثمارها قالوا يحركها الهوى
وعندى علوم بعد هذى كثيرة … تدل على أنى من الناس يا فتى
وما علمتنى ذاك أمى ولا أبى … ولا امرأة قد زوجانى ولا حما
ولكننى جربتها فعرفتها … وحققتها بالفهم والحذق والذكا
فيابخت أمى بى ألا يا سرورها … إذا سمعت أنى أفوق على حجا

أرأيت كيف يغمس ابن سودون هزله فى ليقة المفارقات ، فاذا الفكاهة تستوى له على هذه الصورة المتناقضة ، فهو يبدأ حديثه بأن الانسان إذا سما عقله أخذت تدخل عليه هذه اليقينيات من مثل أن الأرض من فوقها السماء وأن السماء من تحتها الأرض ، وأن بين السماء والأرض أشياء متى انكشفت لنا رأيناها . وليس هذا كل ما يقف عليه الانسان حين يسمو عقله ، فانه يقف ايضاً على أن الناس من نسل آدم وأن أبا صاحبنا زوج لأمه . وماذا من الجدة فى هذه اليقينيات ؟ إنها لا تحتاج الى سمو فى العقل وما يشبه السمو ، غير أن ابن سودون يستغل ذلك نفسه ليحدث لك المفارقة حين تسمع وصف هذه الأشياء وأنها تحتاج الى عقل راق ، ثم تقرأ فاذا أنت أمام حقائق أولية . وإنه ليحاول أن يأتى بأبسط ما يمكن من هذه الحقائق ليجعلك تغرب فى الضحك . ويتطرق ابن سودون من هذه المقدمة إلى بيان ما رآه فى البلدان المختلفة من عجائب ، وهو يبدأ بمصر فيروى لك حقائق عامة مألوفة ، ولكنك ما تقرؤها حتى تضحك لأنه عرف كيف يعبث بمنطقك

هذا العبث الذى جعله يقص عليك أن الفجر بمصر يظهر قبل الشمس ، وأن الظهر يمر بنـا قبل العصر . وإنه ليؤكد ذلك كأنه شئ مشكوك فيه ، فيقول إنها حقيقة « بلا مراء » . وينتقل ابن سودون بسامعه من مصر إلى الشام فيروى له أن بها ناساً ظهر كل منهم وراءه ، كأن الناس على قسمين ، قسم هذا الذى يراه فى الشام ، وهو قسم غريب ، ولذلك وقف ليدلنا عليه وعلى مبلغ ما راى هناك من غرائب ، أما القسم الآخر فقد سكت عنه لأنه مفهوم ومعروف ، وهو إنما يروى المجهول غير المعروف . هذه قصـة الناس هناك ، أما بدرهم فان ضياءه يستتر حال الغيم وأما شمسهم فان ضياءها ينتشر حال الصحو ، وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء ، كأن ذلك كله شئ خاص بالشام . ويترك الشام إلى الصين فاذا هو يحدثنا أن بها صينيا يطن مثل ماذا ؟ « كصينى طرقت سوا سوا » . هل جاء ابن سودون بشئ ؟ إنه كما يقولون فسر بعد جهد جهيد الماء بالماء ، وهو يستمر فى هذه المفارقة ، فالناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم ، وينتقل من الصين إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئاً بعينه ، فقد رآه بعينه ! هل قال ابن سودون شيئاً أكثر من أنه غالطنا ، فاذا هو يعيد ما قاله فى الشطر الأول فى الشطر الثانى . وما من شك فى أنه حاول أن يغرب ما وسعه الاغراب حين أخذ يعرفنا بأن الرجال هناك يختلفون عن نسائهم اختلافاً بينا لما لهم من لحى ، كأن اللحى خاصة من خواص رجال الهند دون سواهم . وأعجب من ذلك وأغرب أن من يمشى هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى ، وهى مغالطة طريفة . ويعود ابن سودون إلى مصر أخيراً فيتكلم عن إقليم الصعيد ويعجب أن به تماراً كأثمار العراق لها نوى ، أرأيت إلى هذا النظير أو قل هذا القياس الدقيق؟ إنها علوم ابن سودون الكثيرة كما يقول ، تلك العلوم التى تجعله يقتنع بأنه من الناس ، ولقد تعلمها باجتهاده ورحلاته ، وما تعلمها من أم ولا أب بل ولا من زوج ولا من حما ، وإنما تعلمها من طريق تحقيقه وفطنتـه وذكائه ، وإنه ليهنئ أمه بنفسه مردداً أنه يفوق على جحا . وحقاً أنه كان جحا القـرن التاسع الهجرى ، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا ، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل الذى لانبعـد إذا قلنا إنه تفوق فيـه لا على جحا وحده بل على كل من سبقوه . وهو فن — كما رأينا — كان يعتمد على المفـارقات المنطقية . وربما كان من أطرف القطع التى تصـور ذلك قوله فى رثاء أمه :

لموت أمى أرى الأحزان تحنينى … فطالمـا لحستنى لحس تحنين
وطالمـا دلعتنى حال تربيتى … خوفا على خاطرى كيلا تبكينى
أقول نمم تجى بالأكل تطعمنى … أقول أمبو تجى بالمـاء تسقينى
إن صحت فى ليـلة وأ وأ لاسهرها … تقول : ها ها : بهز كى تنئينى
كم كحلتنى ولى فى جبهتى جعـلت … صوصو بنيلى وكم كانت تحنينى
وربما شكشكتنى حـين أغضبها … وبعد ذا كشكشتنى كى ترضينى
ومن فقيهى إن أهرب ورام أبى … مسكى وبعثى له كانت تخـبينى
وزغرطت فى طهورى فرحة وغدت … تنـثر الملح من فوق وترقينى
وفى زواجى تصدت للجلاء عسى … على المنصة تلقـانى بتزيين

وربت اولاداً ايضاً مثل تربيتى ... وبعـد ذلك ماتت آه وانينى
وخلفتنى يتيما إبن أربعـة ... وأربعين سنيناً فى حسابينى
يعظم الله فيهـا الأجر لى وكـذا ... لى فى من بعدها جودوا بآمين

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق فى الضحك ؛ لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذه الظروف اعتداء شديداً أو قل اعتداء صارخا. وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصاً يقف بازاء أمه — وقد لبت نداء ربها — ليرثيها وكأن كل كلة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه ، فاذا هو يترك ذلك كله وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لا يتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالفرح والسرور ، كأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى طرفه فتضحك ، وقد تغرب فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة . وهذه المخالفة فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى هذه القطعة . وارجع إلى مطلعها فانك تراه فى الشطر الأول من مقطوعته يكاد ينهد من حزنه انهداداً فقد قوسه الحـادث وحناه . ولكنك لا تقرأ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة ، فاذا هو يذكر كيف كانت أمه « تلحسه لحس تحنين » وكيف كانت « تدلعـه » خوفاً على « خاطره » . ونستمر فاذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكراً أنه كان حين يقول نمم تأتى أمه له بالأكل وحين كان يقول أمبو تأتى له بالماء . أرأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون؟ إنه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى فيها من ضحك فى موضع الرثاء وما يطوى فيه من حزن . ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن ها ها ونحو ذلك . ثم يسترسل فى الحديث عن حنو أمه عليه وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنيـه » ثم كيف كانت « تشكشكه » وكيف كانت « تكشكشه » . ثم يقص علينا كيف كانت « تخبيه » حين يهرب من الفقيه وأنها « زغرطت » يوم طهوره وزينته يوم زواجه . وأخيراً يعلن أنهـا خلفته يتيما ابن أربعة وأربعين سنينا ، كما يقول . وكل هذه مفارقات ؛ فهو يتيم وهو فى الوقت نفسه ابن أربعة وأربعين ، وهو باك وهو فى الوقت نفسه ضاحك ، بل إنه ليضحك حتى يخرج بضحكه إلى هذا الهزل وما يتصـل به من فكاهة . وفى أى موضع يصنع ذلك ؟ فى الرثاء أو بعبارة أخرى فى أكثر المواقف دعوة للحزن وأشدها استثارة للبكاء ، وهو بلا ريب يجرح هنا شعورنا ؛ لما اصطلحنا عليه فى مثل هذا الموضع ، لكنه جرح ينتهى بنا إلى أن نضحك بل إلى أن نغرق فى الضحك لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وإنه ليغلو فى ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته وجمال فكاهته . وارجع إلى ديوانه فستجده دائماً يعتمد على هذه المباينات بين ما تنتظره وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ما جاء من ذلك وصفه لحفـلة زواجـه إذ يقول :

حل السرور بهـذا العقد مبتدرا ... ونجم طالعـه بالسعد قد ظهرا
والكل كالى وجه الأرض فانعطفت ... أغصانه بالتهانى تنثر الزهرا

والطير من فرحها فى دوحها صدحت ... بكل عود عليه لا ترى وترا
تقول فى صدحها دام الهنا أبداً ... على العرايس كى يقضوا به الوطرا
وكنت عند زفافى قد وصلت إلى ... حد الأشد وعقلى فى الورى اشتهرا
فكنت أعرف من عقلى وكثرته ... أنى إذا نمت مع ظهرى يكون ورا
هذا وعقل عروسى كان أصغر من ... عقلى ولكن حوت فى عمرها كبرا
فى السن قد طعنت ما ضر لو طعنت ... بالسن من رمح أو سيف إذا بترا
فى لونها نمش ، فى أذنها طرش ... فى عينها عمش للجفن قد سترا
فى بطنها بعج ، فى رجلها عرج ... فى كفها فلج ما ضر لو كسرا
فى ظهرها حدب فى قلبها كدر ... فى عمرها نوب كم قد رأت عبرا
يا حسن قامتها العوجا إذا خطرت ... يوما وقد سبسبت فى جيدها شعرا
تظل تهتف بى : حسنا حظيت بها ... أواه لو حاشها موت لها قبرا

وأنت تراه يعمد فى هذه القطعة إلى المفارقة حتى يستخرج ما يريد من هزل وفكاهة . فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان من مشاركة الطبيعة والطير العروسين فى فرحهما ، وما نستمر حتى نراه يعمد إلى التباله بل إنه ليعلنه ، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به إلا أنه إذا نام كان ظهره من ورائه ، ومع ذلك فعقله أكبر من عقل زوجه . وقد ذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجه هذه فى صورة مشوهة لا تنسجم مع مطلع شعره ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يعمد إلى ضروب من المفارقة والتباين فى هزله ، فبينما هو فى مستهل هذه القطعة يملأ الجو بشراً وابتساما لهذا الزواج السعيد ، إذ هو يملؤه بعد ذلك كآبة وغما واكفهراراً ؛ لما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التى جمعت فنون القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة فى هذه الفنون حتى يستتم ما يريد من إضحاك وتفكه . وأمعن النظر فى القطعة فانك تجده يقف أثناء وصفه لقبح هذه الزوج المسكينة ليظهر إعجابه بقامتها على ما فيها من عوج وأمت ، بل على ما فى صاحبتها من بعج وعرج وفلج وحدب ! وهذا هو التباين أو هو المفارقة التى تنبع منها فكاهة ابن سودون ، وإنها لمفارقة تميزه من نظرائه الفكهين فى الشعر العربى ، بل فى الشعر المصرى نفسه ؛ فنحن لا نعرف أحداً سبقه إلى هذا التفنن الواسع فى استخدام المفارقة على هذا النحو فى شعره ، فاذا هو يتحول كله إلى هذه الطرائف الفكاهية . وقد كان ابن سودون يدمج فى هذه المفارقة ضروبا من التباله وإظهار الغفلة كما مر فى الأمثلة السابقة وعلى نحو ما نجد فى قوله :

البحر بحر والنخيل نخيل ... والفيل فيل والزراف طويل
والأرض أرض والسماء خلافها ... والطير فيما بينهن يجول
وإذا تعاصفت الرياح بروضة ... فالأرض تثبت والغصون تميل
والماء يمشى فوق رمل قاعد ... ويرى له مهما مشى سيلول

وهو لا يأتى بشىء غريب ومع ذلك فان شيئاً من الضحك يلم بنا ؛ لأن ابن سودون جمع لنا فى هذه القطعة أقرب الأشياء من حسنا وذهب يرويه فى هذا الضرب من البله والسذاجة .

وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل ما يتصل به حتى لغة الأطفال نجدها فى شعره كقوله :

ولما أن كبرت بحمد ربى | وصار لمنتهى عقلى ابتداء
بقيت أقول ننو تتو تاته | ودحوكخ وانبو مم آء

فقد حشد فى البيت الثانى كل ما يمكن من لغة الأطفال ، وله فى هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى فى ديوانه كثيراً من أصوات الحيوانات ، إذ نراه يقلد صوت الخروف والبقرة ، وقد قلد صوت الأوز مراراً . ومن طرفه قوله فى « كتكوت » :

شريت لى كتيكيت | قميصو بزيق
عشرين يصيح | من البرد زيق
لو حليق فيه زماره | وحنيك فيه نقازه
يزمر ينقر | دويحك رشيق
أقول لو كتكت | يكتكت يجى
يرفرف يزقزق | لحسو زعيق
لو جناح لاح من جنبو | كلما انشرح لولح بو
غليظ البطينه | ولو ساق رقيق
كبر صار شويطن | يناقر أخوه
ويعمل لأختو | قبيح فى الطريق

وما من ريب فى أن هذه قطعة خفيفة ، وإنها لتعبر عما امتاز به ابن سودون من حاسة الفكاهة التى لا نجد لها نظيراً بين من عاصروه ، فقد كان يعرف كيف يجمع الصفات والخصائص لكل شئ يعالجه ، وكانت تسعفه فى ذلك مخيلة لاقطة تعرف كيف تضم أشتات الصورة بعضها إلى بعض . وقد تعلق بجانب ذلك بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحدثا يشوبه الجشع بل تشوبه «الفجعة» . وقد أتى فى هذا الباب ببدع كثير . وله بعد ذلك مواليات كثيرة لعل من أغربها قوله :

التور والبقرا ذى العام ومن قبله | فى مصر والشام وف غزه مع الرمله
هديك تحبل وتولد عجل أو عجله | وذاك فى الساقيا ياكل بفرقله

وإن الانسان ليخيل إليه أن ابن سودون لم يترك شيئاً فى حياته يمكن أن يستخرج منه لوناً من ألوان الفكاهة إلا بعثه وعرضه أمام نظارته وقرائه . وقد ساق فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية ، وإنها لا تقل غرابة ولا إضحاكا وتفننا فى الاضحاك عما رويناه من شعره بل لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر . وقد نعرض لها فى مقال آخر ، أما الآن فحسبنا من شعره هذه النخب الطائرة .

شوقى ضيف

من وراء البحار

مصر فى المجلات البريطانية

رأى مجلة علمية

فى مجلة « العالم اليوم » ، وهى من أكثر المجلات الانجليزية تدقيقا فى أخبارها ، إذ يصدرها المعهد الملكى لدراسة الأمور الدولية فصل (فى عدد مايو) عن بريطانيا ومصر ، ووجهة النظر المصرية فى تعديل المعاهدة . ومما جاء فيه أن مشاكل مصر ناشئة إلى حد كبير عن مركزها الجغرافى الخاص . فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كان التسلط على مصر مفتاحا للسلطة على جميع المساحات التى هى مهد الحضارة الغربية . وفى العصور الحديثة صارت جميع المساحة التى نسميها عادة ، وللسهولة أكثر من التدقيق ، بالشرق الأوسط ، هى أهم مفتاح ستراتيجى ، لما لاحظ نابليون فى سرعة ؛ وصار امتلاكها أو المقدرة على منع الغير من امتلاكها هو وسيلة النصر فى الحروب العالمية .

ولا يوجد فى عصور التاريخ إلا القليل مثل التاريخ المصرى الحديث تراه واضحا وضوحا ظاهرا فى حوادثه . وهو لا يحتاج إلى فن المؤرخين . فسنة ١٧٩٨ ، وهى سنة الغزو الفرنسى ، هى أول سنة فى تاريخ مصر الحديث . وقد جاءت مع جيوش نابليون آراء الثورة الفرنسية وجميع مثل الحضارة الغربية ، وأدّى وجود العلماء الذين أتقل بهم مركز قيادته إلى اكتشاف أقدم مدنيات العالم ، بفضل شامبليون وتابعيه وتعريف الغرب بها . وبفضل مطابع الفرنسيين واحتذاء عاداتهم وتأثير طرقهم ، تأثرت عقول المصريين بطابع الغرب ، وصار للفرنسيين دور هام فى حياة الامة المصرية . وكانت محاولة الفرنسيين فتح العالم مما فرض على مصر الدور الذى ما زالت تقوم به على أنها مفتاح لتحقيق الكثير من مطامع الدول العظمى ، وظلت مسرحا لمنافساتهم ، وبقيت شديدة الاتصال بالحياة الاوربية فى سياستها وآرائها وآلاتها وفنها . واتصلت مصر بعدد كبير من أهل أوربا ، أكثرهم من العناصر غير المرغوب فيها ، وكان ذلك أيضا مما جاء بالبريطانيين .

لقد رأت حكومات بريطانية متتابعة أنها مضطرة إلى اعتبار التسلط على شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهو الذى تمكن منه الانجليز لاول مرة بانتصار نلسون فى موقعة النيل ، نقطة أساسية فى السياسة ، لا سيما أن للشرق الأوسط أهمية ستراتيجية وله علاقة بمصالح بريطانيا التى تمتد إلى جوانب العالم . وقوى هذا المظهر من السياسة الخارجية البريطانية منذ السنة السبعين من القرن الماضى بعد إنشاء قناة السويس . فمملكة مصر ليست كبيرة الأهمية فقط من الوجهة الجغرافية العسكرية العامة ، ولكن بين حدودها ممر يمر فيه الجزء الأكبر من السفن التى تربط المملكة المتحدة بالهند وممتلكات المحيط الهادى والشرق الأقصى . لذلك ظلت بريطانيا نحو مائة وخمسين سنة تلعب دورا هاما فى العلاقات بين مصر وسائر انحاء العالم . ومنذ احتلت الجيوش البريطانية مصر فى سنة ١٨٨٠ صارت مسألة هذه العلاقات على صورة ما أهم

ما في حياة مصر السياسية ، والآن صارت أداة الحكم فى العلاقات بين انجلترا ومصر هى معاهدة التحالف والصداقة التى عقدت بينهما فى سنة ١٩٣٦ .

ثم تكلم الكاتب عن العلاقات بين مصر وانجلترا بعد الاحتلال ، فذكر مركز مصر منذ عهد محمد على ثم الأسباب التى أدت إلى الاحتلال بما هو معروف فى الكتب الانجليزية التى تبحث فى سياسة بريطانيا نحو مصر، وانتقل إلى الحرب العالمية الأولى وما كان من تقدم الروح الوطنية فى مصر واهتمامها، لا سيما على أثر المبادئ التى أعلنها الرئيس ولسن ورغبة مصر فى تمثيلها بمؤتمر الصلح وعدم إجابتها إلى تلك الرغبة ، وتأليف الوفد تحت زعامة المغفور له سعد زغلول باشا الذى يعتبر أبا الاستقلال المصرى ، وأثر تصريح فبراير سنة ١٩٢٣ وعدم رضا الوطنيين عن مركز مصر السياسى الذى أوجده هذا التصريح ثم سوء الحالة الدولية الذى أدى إلى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وقال إن مساعدة مصر فى الحرب الأخيرة لها نصيب كبير فى الجدل السياسى الحالى ، فالبريطانيون ينتقدون رغبتها فى استرداد جميع ما لها من دين كبير نشأ عن نفقات الحرب البريطانية، لا سيما إذا نظرنا إلى الموضوع فى ضوء أن مصر لم تعلن الحرب رسميا إلا فى مارس سنة ١٩٤٥ ولكن الواقع أن تعاون مصر فى أثناء الحرب كان كاملا وذا قيمة كبيرة وأنه لا الرأى العام ولا السياسيون أظهروا أى ميل للاستفادة من المأزق الذى كانت فيه بريطانيا . ولو نظرنا إلى ذلك فى ضوء التاريخ العاصف للسنوات العشرين السابقة لوجدنا قصة العلاقات المصرية الانجليزية أثناء الحرب قصة تسترعى النظر .

ثم تكلم عن موقف الحكومة المصرية عند أزمة العلمين ، وانتقل إلى ما تلا الحرب من حوادث داخلية حتى وصل إلى مرحلة المفاوضات الحالية ، وذكر أنها تسير فى جو غير ملائم ؛ فإن هيئة وفد المفاوضات التى اختارها رئيس الوزراء المصرى قوية، ولكن تأثيرها ضعف لرفض الوفد الاشتراك فيها .

وقال إن المطلبين اللذين تطالب بهما الوطنية المصرية الآن هما جلاء الجنود البريطانية عن مصر ، والاعتراف « بوحدة وادى النيل » وهو ما يعنى وحدة مصر والسودان . ولقد كان للسودان دور مهم فى الآراء السياسية المصرية على مدى التاريخ ، وهذا طبيعى إذ أنه منبع النيل ، فهو يلعب دوراً حيويا فى حياة مصر أهم من الدور الذى تلعبه مصر فى حياة بريطانيا ومجموعة دول الامبراطورية . ومشكلة مستقبل السودان أكبر وأعقد من أن يبحث فيها الآن . ومن وجهة نظر العواطف المصرية يلاحظ أمران : أولها أن السودان ولو أنه اسميا تحت حكم ثنائى من انجلترا ومصر فقد ظل فى الواقع تحت إدارة موظفين انجليز وهم يسيرون به الآن إلى درجة متزايدة من الحكم الذاتى، وثانيهما أن قوة الارغام التى تكون بيد الدولة المستولية على السودان إذا هى أرادت الضغط على مصر هى قوة فى الواقع لا حد لها . على أن هذه القوة لم تستعمل قط ، ومن غير المعقول أن البرلمان البريطانى يوافق على هذا النوع من الضغط الاقتصادى على الحياة المصرية . ولكن الاحتمال موجود ؛ وقد أشار إليه انجليز غير مسئولين فى خطب عامة لهم. على أن الأمر يتعلق بالثقة، فاذا كانت الثقة متبادلة والتعبير عنها سخيا فليس ثمة سبب يحول دون ضمان مستقبل السودان ، بحيث يزيد نصيب أهله فى السيطرة على مستقبلهم ثم فى الوقت ذاته يجب أن تذهب مخاوف مصر . وربما كان مما يسترعى النظر ويبعث على التفاؤل فى الموقف بأجمعه هو عدم وجود أى نوع من العداء الجنسى أو الوطنى ، وندرة العداء الشخصى .

رأى فى مجلة محافظة

أشارت مجلة « ناشنال رفيو » ، وهى المجلة الشهرية التى تنطق بلسان المحافظين ، فى عرضها لحوادث الشهر (فى عدد يونيو) إلى المفاوضات المصرية ، وتصريح مستر أتلى بمجلس العموم البريطانى فى جلسة ٧ مايو حين أعرب عن نية الحكومة البريطانية فى الجلاء عن مصر . وقال محررها إنه مما لا يصدق أن حكومة تتخذ مثل هذه الخطوة دون أن تستشير غير مجرد أهوائها ، ودون أن تسأل المستعمرات المستقلة التى ساعدتنا على الاحتفاظ بالبحر المتوسط ، فى الحملة الافريقية العنيفة التى كانت فى سنة ١٩٤٠ — سنة ١٩٤٢ . هذا مما لا يصدق حتى من حكومة متقلبة قليلة التجربة مثل الحكومة البريطانية . ولكن هذا ما كان فعلا . ولقد وقف المستر تشرشل الذى يعرف ما هى مصر وما هو الدفاع عنها فى التو وطلب استمرار المناقشة . وقد نوقش الموضوع بأكمله فى جلسة كبيرة الأهمية فى اليوم ذاته ؛ إذ كان حزب المحافظين بأكمله يؤيد زعيمه، فان الدفاع عن مصر معناه الدفاع عن قناة السويس ، والدفاع عن القناة معناه الدفاع عن الامبراطورية البريطانية فى الشرق، وعن جنوب إفريقية واستراليا ونيوزيلاندة وفى هذه المناقشة صرح مستر أتلى وهو يقتصد فى صدق القول اقتصاداً باعثاً على الأسف أن المستعمرات المستقلة وافقت على هذا الانسحاب .

وفى اليوم التالى اى ٨ مايو خشى أن ينشر مارشال سمطس تكذيباً لذلك ، فاعترف بأن المستعمرات المستقلة أخبرت بأن بريطانيا ستتخذ هذه الخطوة الخطيرة جداً ، ولكن لم يؤخذ رأيها فى هذه الخطوة . وهذا التقلب المزدوج الذى قام به رئيس الوزارة ليس من المناظر السارة ، ولكنه كان ذا فائدة كبيرة ؛ فقد كشف عن الواقع وهو أن المستعمرات المستقلة ، فيما يسمى بالاستشارات، تخبر فقط بما تنوى الحكومة الامبراطورية عمله ، ولكنها لا تستشار فيما يجب أن تكون عليه السياسة الامبراطورية . والواقع أنه لا يوجد أية استشارات أو سياسة فى جميع الأمور المرتبطة بالامبراطورية ، أى الأمور التى لها مساس حيوى بالمستعمرات المستقلة ، بقدر مساسها ببريطانيا . وقد صرح مستر أتلى فى أحد ارتباكاته أن وزراء المستعمرات لا يطلب إليهم أن يبدوا موافقتهم فى مسألة خاصة بالمملكة المتحدة ، فما أغرب هذا القول ! إن الدفاع عن الامبراطورية والدفاع عن مصر حيوى للامبراطورية بأسرها .

رأى سياسى محافظ

وكتب اللورد الترنكهام فى هذه المجلة المحافظة مقالا عن « أمة النيل » ابتدأه بوصف ما حدث فى مصر من تطور ويقظة وطنية بفضل سعد زغلول . وقال إن هذه اليقظة ليست بمستغربة بل هى مثال آخر لليقظات الوطنية التى كانت من ظواهر تاريخ العالم فى القرنين الأخيرين . وبينما مسلك الشعب المصرى آخذ فى هذا التطور ، إذا بالمركز الجغرافى لمصر لا يزال هاما كما هو بل زاد أهمية ؛ فان التقدم الحديث فى الهندسة واكتشاف آبار

البترول والتغلب على الجو ، كل هذه الأمور زادت المثل القديم تحقيقاً ، وهو الذي يقول إن مصر هي المركز الاستراتيجي للعالم. وقد أشار إلى أن الامبراطورية البريطانية صارت مع الجمهورية الأمريكية والاتحاد السوفييتي اكبر الدول شأنا ، ولكنها في مركز أصعب من مركزي القوتين الاخيرتين ؛ فهما دولتان أرضيتان كبيرتان تحت حكومة مركزية واحدة تجرى مواصلاتهما داخل حدودها ، ولا يمكن أن تفصل هذه المواصلات عنهما إلا بغزو كبير . وهما من الوجهة السياسية والاقتصادية والحربية قادرتان على الاكتفاء بنفسيهما ، في حين أن بريطانيا مؤلفة من أمم متفرقة ذات سيادة ، ومواصلاتها تتوزع على العالم حيث يكون تأمين هذه المواصلات البحرية والبرية متوقفا على صداقة بعض الدول الأجنبية ومن أهمها مصر . وسلامة المواصلات الامبراطورية تتوقف على حسن علاقاتها مع جميع أمم الشرق الأوسط . فحسن النية في جميع تلك المنطقة شرط ضروري لسلامة استراليا وحريتها ، وكذلك نيوزيلندة وجنوب أفريقية ، وحلقة كبيرة من المستعمرات البريطانية والأراضي المحمية ، ولبريطانيا نفسها . ولذلك يتوقف الكثير من الأمور على الحكمة السياسية نحو مصر بعد أن تسلطت عليها نزعة الحماسة الوطنية الآن بحيث صار أعقل زعمائها غير قادرين على توجيه هذه النزعة في سهولة .

وقال إن البحث في هذه السياسة على أساس القواعد الحربية أو المادية وحدها معناه عدم فهم المشكلة القائمة . هذا ، مع أن مشاكل الامبراطورية نفسها لا يمكن تسويتها على هذا الأساس ، فكيف ببلد غريب عنها . فالوطنية لا تخضع للمادة . والواجب أن تقوم العلاقات على التعاون المتين العملي مع مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط .

وقال إن هذه الاعتبارات يجب ألا تغيب عن الأذهان . ثم أخذ يستعرض العوامل الاستراتيجية في الشرق الأوسط على ضوء أن مصر مفتاح له ، فقال إن المصالح المادية للامبراطورية البريطانية قد نمت نمواً كبيراً منذ موقعة النيل في أيام نلسون ، وهو نمو لم يكن يحلم به قواده ، فتسلطها وتجارتها على بلاد الشرق أمداها بقوة مالية تغلبت في آخر الأمر على محاولات نابليون بأجمعها .

وفي هذا القرن خاضت انجلترا غمار الحرب مرتين ، وكان المعتدى هو ألمانيا في المرتين مع انضمام تركيا إليها في المرة الأولى وإيطاليا في المرة الثانية ، ومع ازدياد المصالح زيادة هائلة ، فقد أنشأت المهارة الفرنسية قناة السويس واحتلت بريطانيا مصر بعد بضع سنوات من شرائها لأسهم الخديوى في القناة ، وأعادت بريطانيا (!) فتح السودان ، واكتشفت آبار الزيت في العراق وجنوب إيران . ولو أن الشرق الأوسط خرج من يد الأمم المتحدة لما تمكنت من الانتصار على إيطاليا ثم ألمانيا ثم اليابان . لذلك كان من حسن الرأي ومن الجرأة السياسية المحمودة أن أرسلت بريطانيا جيشها الوحيد المدرع إلى مصر إلى خريف سنة ١٩٤٠ في وقت كانت فيه في خطر الغزو من البحر . ومما يدل دلالة واضحة على أهمية الشرق الأوسط أن تيار الحرب إنما اتخذ وجهته الحاسمة بعد الانتصار البريطاني في العلمين . أجل ! إن هذه الموقعة لم تكن لتنجي الشرق الأوسط لو سقطت ستالينجراد ، إلا أن الانتصار في ستالينجراد لم يكن لينجي روسيا لو لم تجعل الجيوش البريطانية من المستحيل الزحف الجنوبي على حقول البترول الروسية ، بأن كسرت شوكة هجوم المحور على مصر والقنال .

ثم تكلم عن معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر وإخلاص الجانبين في تنفيذها مما أدى إلى خروج مصر من الحرب سالمة وغنية وحرة . على أن مظاهر الحرب غيرت من وجه

القـاهرة والاسكندرية ، وامتلأت مصر بالجنود والمنشآت العسكرية ، وصارت بلداً محتلا ، مع أن حكومتها قد ساعدت فى ظروف الحرب . ولقد أخذت الوطنية المصرية تنظر إلى هذه الحال بعين القلق . ولقد مضت ثلاث سنوات على معركة العلمين ، وصارت الحرب بعيدة ومع ذلك ظلت صعوباتها قائمة . وكان من الواجب الجلاء عن القاهرة والاسكندرية فى أسرع فرصة بمجرد زوال الظروف المقتضية لبقاء الجنود فيهما ، ولـكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فهاجت خواطر المصريين .

وقال إن حكومة المحافظين غير مسئولة عن ذلك ، لأنه نبه الحـكومة الحالية إلى هذا الأمر عند ما كان فى منصبه بمصر (فقد كان وزير دولة فى مصر واسمه سير ادوارد جريج قبل منحه لقب لورد) على أثر انتهاء الحرب اليابانية .

ومع ذلك فقد نقـد الـكاتب تصريح الحـكومة البريطانية بالجلاء ، وقال إنه لا ييسر للمفاوضات بل يزيدها صعوبة ، إذ يؤيد هذا التصريح الوهم القائل بأنه يمكن ضمان سلامة مصر بغير إقامة منشآت دائمة على القناة . وزعم أن مصر لا تحتمـل عبء الدفاع عن نفسها ، فان ذلك العبء يخـل بتنظيماتها الاقتصادية والاجتماعية . وانتقد القول بأنه يمكن ضمان القناة وما جاورها بالضمانات الدولية ، فان الضمانات الدولية تتطلب تبادل الثقة بين الدول الـكبرى التى تحتكر وسائل الحرب . ومما له مغزاه أن أكبر قوتين حربيتين مستقلتين بنفسـيهما لا تظهران أى ميل للاعتماد على الضمانات الدولية . فروسيا ترفض فكرة السيطرة الدولية على الدانوب ، وتطالب فى إصرار بميناء فى شرق البحر المتوسط ، وبقاعدة حربيـة فى الدردنيل ، فى حين لا يخطر على بال الولايات المتحدة أن تجعل قناة بناما تحت مسئولية دولية .

وهو يرى أن القوة الجوية والقنبلة الذرية لم تغيرا من أهمية الدفاع المحلى لقناة السويس ، ويؤكد أن أمريكا وروسيا يشاطرانه هذا الرأى فيما يتعلق بالدفاع عن الطرق المائية الهامة لديهما .

وهو يلوم الحـكومة البريطانية على تلـكئها فى الجلاء عن القاهرة والاسكندرية بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، وقال إن المعاهدات الدفاعية لا تمس حرية الأمم الصغيرة فان الأمم الـكبيرة نفسها تحاول عقد مثل هذه المعاهدات .

واختتم مقاله ذاكراً أنه بقلبه مع الوطنيين المصريين ، وأن علاقات مصر مع جميع الأمم يجب أن تكون علاقة الأمة ذات السيادة فى أرضها . ويبدى أسفه على أن السياسة البريطانية لم تظهر ذلك فى وضوح . ومع ذلك يعزو إلى المتطرفين من المصريين عدم فهمهم لمرامى بريطانيا .

ظهر حديثاً

نابليون لأميل لودفيج نقله عن الألمانية الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى — الجزء الأول
(دار الكاتب المصرى)

لا ريب فى أن كتابة سير العظماء قد اتخذت فى القرن العشرين اتجاها لم يعرف من قبل ؛ فقد كانت كتب السير ، لاسيما فى القرن التاسع عشر ، عبارة عن أسفار مطولة مملة لا يكاد يقتنيها غير أصدقاء الأسرة التى نجم منها العظيم . وكان أكثر هذه الكتب يوضع باتفاق بين الأسرة والمؤلف ، وفى هذه الكتب يحاول المؤلف أن يبرز المحاسن إن وجدت ، أو يعزو لصاحب السيرة ما يستطيع من فضائل ، ويخفى من الرذائل ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولكن هذا النوع الجديد من الكتابة صعد فجأة إلى مصاف الآداب، وأقبل عليه القراء حتى كان فى وقت من الأوقات وما زال ، إلى حد ما ، أحب ألوان الأدب إلى الجمهور . وكان الفضل فى ذلك لثلاثة أسماء : ليتون ستريتشى الأديب الانجليزى ، وأندريه موروا الأديب الفرنسى ، وإميل لودفيج الأديب الألمانى ، ومنذ أخذ هؤلاء الثلاثة ينقطعون انقطاعاً تاماً ، أو إلى حد كبير ، لكتابة السير ، برزت أسماء عشرات من الأدباء الذين يعنون بهذا اللون من الأدب عناية كبيرة ، ويجدون جمهوراً كبيراً من القراء فى جميع أنحاء العالم .

لعل ليتون ستريتشى (١٨٨٠ — ١٩٣٢) كان أول هؤلاء الثلاثة ، فهو عند ما نشر كتابه «عظماء من عصر ڤيكتوريا» ورسم فيه صور أربعة من العظماء بطريقة جديدة حية ، واصفاً فضائلهم غير مغرق فيها ، ومشيراً إلى نقائصهم فى غير قسوة وفى أسلوب فكه وانسجام بديع ، أقبل الناس على كتبه كما يقبلون على قصة ، بل أقبل بعضهم عليها أكثر مما يقبلون على قصة ؛ فكثير من الناس لا يحلو لهم الخيال الصرف ، وهم فى هذا الكتاب وأمثاله يجدون بغيتهم من خيال يستعمل لاحياء الحقيقة .

كان مما أتى به ليتون ستريتشى فى كتابة السير دقة الملاحظة مع جمع الخلال الصغيرة البسيطة التى تلازم المرء فى حياته ، كما جاء بروح الفكاهة العريضة والتسامح . أما موروا الفرنسى كما ترى فى خير ما وضعه من سير ، كأرييل التى هى حياة شللى ، ودزرائيلى ، فقد جاء بتلك الأناقة التى يشترك فيها كبار الكتاب الفرنسيين ، مع توضيح الشخصية بسوق مئات الشواهد التى تفوت الملاحظ العادى .

وجاء إميل لودفيج ، الألمانى ، بشىء آخر ، لا أستطيع أن أقول إنك تجد فيه روح الفكاهة ، فليست الفكاهة من صفاته البارزة ، ولا أستطيع أن أقول إنه أنيق فى كتابته واضح التحليل، فليس ذلك من صفاته البارزة ، وإنما ميزة أسلوبه هى تلك القوة التأثيرية الناشئة — فيما أظن — عن قلم اتجه نحو المسرح والدراما قبل أن يتجه نحو الأدب القصصى وكتابة السير .

والواقع أن إميل لودفيج كان فى مبدأ حياته لا يفكر إلا للمسرح ، ففى الثالثة والعشرين من عمره ألف دراما عن لورنزو دى مديسى ،

ظهر حديثا

وفى الخامسة والعشرين فكر فى مسرحية ينظمها شعراً لنابليون ، ولم يتجه إلى كتابة السير إلا حين درس حياة بسمارك ليخرج مسرحية ، ثم بدا له أن هذه المسرحية لن تمثل على مسرح ألمانى ما كان ولهلم الثانى غريم بسمارك جالساً على العرش . وعلى ذلك وضع صورة قلمية عن بسمارك ونشرها فى سنة ١٩١١ .

وفى نهاية الحرب العالمية الأولى كان لودفيج فى الثانية والثلاثين من عمره فقصد إلى منطقة البحيرات الايطالية حيث عاش فى تلك المناظر الساحرة ، وهو يضع مؤلفاً كبيراً عن حياة جيتى .

فاميل لودفيج إذن كان بميله الأول كاتبا مسرحياً ، ولذلك تجد فى كتبه قوة فى اللفظ ومحاولة للتأثير ، كما تجد فيه ميلا إلى استعمال طرق المسرح . ويفقد أحياناً السيطرة المسرحية — كشأنه فى كتابه عن بتهوفن — فيصبح الكتاب مجرد مجموعة من النوادر ، أما فى الكتب القوية ، فانك تجد قوة تأثير بالغة ، كما فى كتابه عن جيتى ، وفى سفره عن نابليون الذى نشره فى سنة ١٩٢٢ ، وأضافته دار الكاتب المصرى إلى المكتبة العربية فى هذه الأيام . فهو مجموعة صور متتابعة ومناظر رائعة تصور حياة ذلك البطل خير تصوير .

وقد وجد المؤلف خير من ينقله إلى اللغة العربية ؛ فقد نقله الاستاذ محمود ابراهيم دسوقى وهو خير من ينقل عن الألمانية فى أمانة ودقة ومحافظة على الأصل معنى ومبنى ، مع طلاوة أسلوبه ومحاولته الأمانة حتى فى نقل الأسلوب .

وقد أبت دار الكاتب المصرى إلا أن يظهر هذا الكتاب فى صورة بديعة ، فأخرجت الصور التى ازدانت بها الطبعة الألمانية خير إخراج ، كما أن غلاف الكتاب جاء آية فى حسن الذوق . وهذه أمور يهملها الناقدون عادة ولكن من الواجب أن ينوهوا بها حتى يزداد الاهتمام بالاتقان الفنى فى الكتاب العربى .

وإنا لنرجو ألا تتوانى الدار فى إخراج الجزء الثانى قريباً ، حتى يستطيع القارئ المتشوق أن يتابع قراءة هذا السفر بأكمله .

أسامة بن منقذ تأليف الاستاذ محمد أحمد حسين (مطبعة دار الكتب المصرية)

عندما عثر المستشرق الفرنسى درنبورج فى أثناء بحوثه وتنقيباته بمجموعة قصر الاسكوريال على النسخة الخطية الوحيدة لكتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، رأى أمامه صورة واضحة لحياة أمير من أمراء العصر الذى عرف نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى وغيرهما من سلاطين الاسلام ، وهم الذين وقفوا فى وجه الغزوات التى شنها الفرنج على البلاد الاسلامية ، وأرادوا بها استخلاص الأماكن المقدسة من يد المسلمين وأراد الأمراء منهم أن يحققوا مطامعهم ، وأن يقتطعوا لأنفسهم ملكا فى البلاد الاسلامية .

فلقد كان مولد هذا الأمير من آل منقذ الذى وضع هذا السفر ، قبل نحو ثلاثة أشهر من تلك الدعوة التى نشرها البابا إربان الثانى من أرض فرنسا ، حين انتقل إليها خاصة من روما ، لنشر دعوته إلى الحرب الصليبية فى مؤتمر كليرمون من أعمال أوفان ، ولقد ذهب من عاصمة عرشه الدينى مصحوبا بالكرادلة والأساقفة ، فى موكب كوكب منتصر ، وكان يخطب بفصاحة واقتناع الرسل .

نجحت دعوة البابا ، واجتمعت جيوش المتطوعين من أتقياء المسيحيين والأمراء ، وقامت هذه الجيوش إلى البلاد السورية حيث

استطاعت أن تستولى على الأماكن المقدسة وأنشأ بعض الأمراء المسيحيين لهم ملكا .
فى هذا العصر المضطرب نشأ وعاش أسامة ابن منقذ سليل بيت كانت له الإمرة على بلدة محصنة اسمها شيزر قريبة من مدينة حلب المعروفة ، وكانت إمارة مستقلة بين الامارات الاسلامية العديدة ، التى وجدت فى تلك الجهات من سوريا ؛ وكانت هذه الامارات لا تفتأ تتطاحن فيما بينها ، وبذلك وجد الأعداء من الفرنج سبيلا إلى الدخول . ولا ريب فى أن صغر هذه الامارات وضعفها ، مع حب الأثرة التى تملأ نفوس زعمائها جعلتها تسلك سياسة أقل ما يقال فيها ، إنها معوجة ، وإنها أحيانا تستحل الغدر والخديعة .
غير أن أسامة لم يتول إمارة شيزر فقد تولى الامارة بعد أبيه عمه ، وتوجس منه خيفة ، فاضطر إلى ترك وطنه ، وربما كان ذلك من محاسن المصادفات ؛ إذ بعد وفاة عمه تولى ابن عمه الامارة ، وحدث فى عهده زلزال مخيف هدم فيما هدم من مدن سوريا حصن شيزر وقضى على جميع آل منقذ وقد كانوا مجتمعين فى وليمة ، ولم ينج منهم إلا من كان خارج البلاد ومنهم أسامة .
عاش أسامة عيشة فارس من فرسان البلاد الاسلامية ، ورسم فى كتابه صورة حية لحياة الفرسان فى عصره ، وهى لا تختلف فى كثير عن صورة أمثالهم من فرسان الغرب ، فيها البطولة والشجاعة وجرأة الحياة وتقلبها ، وفيها الخديعة والدسيسة والغدر ، فهى صورة تجمع بين قوة السيف وقوة القلم . فقد كان أسامة محاربا قويا ، وكان كذلك أديبا له شعر وله رسائل ، بل كان أديبا متفوقا على كثيرين من أدباء عصره ، ويكفى أن تقارن نثره فى كتاب الاعتبار بنثر العماد الأصفهانى مؤرخ صلاح الدين فى كتابه عن حياة هذا العاهل الاسلامى ، لتعرف قيمة أسامة فى نثره السهل وحكايته الطلية على غير ما هو مألوف فى زمنه من استعمال السجع والمحسنات البديعية التى تكاد تخفى معالم المعنى .
على أننا قبل أن نحاول قراءة أسامة الذى عنى به الأوربيون عناية كبيرة يجب أن نعرف تاريخه وتاريخ زمنه ، ومن محاسن المصادفات أن وضع لنا الاستاذ محمد أحمد حسين كتابا عن أسامة ، وهو كتاب غزير المادة دقيق فى تحقيقاته ، وهو يصف لنا حياة أسامة بن منقذ وما كان فى زمنه من أحداث خير وصف . ويزودنا بكل المراجع التى يمكن أن يحتاج إليها الباحث فى هذا الباب . وهو كتاب يدل على نهضة حقيقية فى فن كتابة التاريخ قام بها مؤلف جدير بهذا العمل بفضل دراساته وثقافته .

اسماعيل وهو مجموعة وثائق نشرها باللغة الفرنسية الأستاذ چورج جندى بك والأستاذ چاك تاجر (مطبعة المعهد الفرنسى)

من أثمن المجموعات التاريخية القيمة التى ظهرت فى عالم الطباعة الفرنسية بمصر تلك المجموعة من الوثائق الرسمية عن المنفور له الخديوى إسماعيل ، وهى التى قام على نشرها كل من العالمين الفاضلين چورج جندى بك رئيس المحفوظات التاريخية وچاك تاجر بك امين المكتبة الملكية الخاصة بالقصر الملكى ؛ فان نشر مثل هذه الوثائق الرسمية مما يساعد الباحث فى تاريخ تلك الحقبة على تعرف الحقيقة فى عصر زاه يعد من أهم عصور تاريخ مصر الحديث ، ولا ريب فى أن مصر إذا كانت قد عرفت معنى الاستقلال فى عهد مؤسس الدولة العلوية

بعد أن فقدته فترة طويلة ، فان نهضتها الحقيقية ، ومجاراتها لتيار الحياة المدنية ، ودخولها معترك هذه الحياة على قدم المساواة مع الدول الاوربية ، واتجاهاتها إلى المدنية الحديثة ، كل ذلك قد تم فى عهد المغفور له الخديوى إسماعيل .

وهذه الوثائق تطلعنا على جوانب العظمة فى كثير من تصرفات هذا العاهل . وإنا لنرجو أن يصدر المؤلفان الطبعة العربية منها قريبا فيكون فضلهما على الباحثين فى تاريخ هذه الفترة مضاعفا .

ألفريد دى موسيه بقلم الأستاذ صلاح الدين الشريف (مطبعة المقتطف والمقطم)

هذا الكتاب من لواحق المقتطف الشهرية وأخشى أن يكون الحصول عليه صعب المنال . ولكنى رأيت فيه من أناقة الأسلوب وحسن السرد ما أحببت معه أن أنوه بمؤلفه الفاضل ، وأرجو أن ارى له فى المستقبل القريب من الكتب الادبية أو القصص ما يضيف به جديداً إلى المكتبة العربية . فان هذه اللواحق بطبيعة الحال محدودة الحجم لا تتسع للافاضة فى البحث .

حسن محمود

التعليم فى رأى القابسى للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)

نواة هذا الكتاب رسالة مخطوطة فى التربية وضعها الحافظ المحدث أبو الحسن على ابن محمد بن خلف القابسى فى القرن الرابع للهجرة ، وعنوانها على ما يرجحه الدكتور الأهوانى : «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » .

وهى مخطوطة فريدة ليس منها إلا نسخة واحدة فى المكتبة الأهلية بباريس ، كتبها ناسخها فى أوائل القرن الثامن للهجرة .

والقابسى فقيه محدث مكفوف البصر مغربى النسب والدار ، توفى فى أوائل القرن الخامس للهجرة ، وله مؤلفات عدة من بينها هذه المخطوطة التى وقع عليها الدكتور الأهوانى فجعلها نواة بحثه هذا الممتع الذى حصل به على الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول ، ثم جعله بين دفتى هذا الكتاب .

وعنوان الكتاب لا يدل على كل ما اشتمل عليه ، فما كان أجدره لو أراد المطابقة بين الاسم ومسماه أن يجعل عنوانه « التربية عند العرب على توالى العصور » . بل لعل هذا العنوان لا يدل كذلك على الكتاب دلالة الوصف على موصوفه ؛ فقد كانت نظرة المؤلف فى موضوعه شاملة محيطة تتجاوز الأبعاد والمسافات وتتناول الموضوع من أقصى مراميه ، فلم يقتصر فى بحثه على عرض رأى القابسى فى التعليم ونقده والموازنة بينه وبين آراء غيره من أهل النظر فى هذا الفن ، بل جعل هذا البحث نواة لحديث ضافى الذيول واسع المدى يتناول فنون التربية من قريب ومن بعيد ، فى أسلوب مرسل وعرض منطقى سليم .

وكانت القاعدة الأساسية التى انبنى عليها البحث بكل ما تناوله من الأصول والفروع ، هى « أن تفسير حالة التعليم فى عصر من

العصور يقتضي النظر إلى آراء المربين وصلة آرائهم بالمذاهب العقلية التي يعتنقونها، ويقتضي النظر إلى حالة المجتمع الذي تفرع عنه التعليم كمظهر من مظاهر الحياة العقلية » .

على هذه القاعدة راح المؤلف يفصل آراء القابسي في التعليم ، ويحاول تعليل أسباب الخلاف بينها وبين آراء غيره من أهل النظر في هذا الفن ، فيربط بين رأي كل منهم ومذهبه ، وبينه وبين الحياة الاجتماعية في عصره . وفي سبيل تأييد هذه الفكرة أورد ما أورد من آراء الغزالي وابن سينا وابن خلدون وإخوان الصفا وغيرهم من ذوي المذاهب الفلسفية أو النزعات الصوفية أو السلفيين أو أهل الفكر الحر ، وأوضح في جلاء كيف كان اختلاف مذاهبهم العقلية ذا أثر واضح في اختلاف رأيهم في التعليم ، وكيف كانت للحياة الاجتماعية في عصر كل من هؤلاء ذات أثر كذلك في تلوين آرائهم .

وقد قسم المؤلف كتابه فصولاً ؛ فكان الفصل الأول عن حياة القابسي ، والثاني عن بيئته وطريقته في التأليف ، والفصول التالية بعد هذين عن تاريخ التعليم ووسائله وأهدافه ومظاهره واختلاف أحواله عند المسلمين على اختلاف العصور ، ثم كان الفصل العاشر إجمالاً لآراء المسلمين في التربية والتعليم . وجاءت الخاتمة بعد ذلك تقرر القاعدة التي بنى عليها المؤلف بحثه ؛ فاذا انتهى مما أراد جعل رسالة القابسي ذيلاً لكتابه ، فنشرها مصححة مضبوطة مبوبة على ما وسعه الجهد . فهما إذن كتابان لا كتاب واحد ، فمن شاء فليلتمس النفع حيث أراد : من كلام الأهواني في صدر الكتاب ، أو من رسالة القابسي في ذيله ، فسيجد هنا وهنالك شيئاً يستحق أن يفرغ له وقتاً يطول أو يقصر ، ينشد أسباب اللذة والمنفعة جميعاً :

الرءوس بقلم مارون عبود (منشورات دار المكشوف — بيروت)

قلت لنفسي حين مضيت في قراءة الفصول الأولى من هذا الكتاب : هذا كتاب يستحق أن يقرأه كل أديب في العربية ؛ إنه كتاب جديد . . . جديد جداً . . . إنه « فن » لم يسبق إليه سابق — أعرفه — في العربية ! . . .

. . . ومضيت في قراءته ؛ إنني لا أريد أن يفوتني هذا « الجديد » .

هذا كاتب من كتاب العربية يعالج « علم الأدب » في أسلوب من أساليب « الفن » ، وللعلم أسلوب غير أسلوب الفن ؛ فلعله أراد أن يقتحم على غير « أهل التخصص » فيحملهم بلطف حيلته على الدخول من الباب حين يسوق إليهم « العلم » في هذا الأسلوب « الخطابي » الرشيق .

وكان عنوان الكتاب فناً من فن الكاتب ، فهو يسميه « الرءوس » ، والرءوس هي تلك الكرات القائمة على أعناقها بين أكتاف الناس وكواهل الحيوان ، ولكن لهذا اللفظ مع ذلك معاني جمة في أذهان قرائه ، وإنما يريد المؤلف معنى واحداً من تلك المعاني ، فهو إنما يريد أن يتحدث عن « رؤساء » الأدب في العربية منذ كانت العربية ، أو بعبارة أخرى : يريد أن يتحدث عن زعماء الشعر في العربية على اختلاف العصور . فذلك هو موضوع الكتاب كما يبدو لي ، وقد اختار أن يكون عنوانه «الرءوس» وليس بين كلمتي الرءوس والرؤساء كبير فرق في المعنى ولا في الاشتقاق اللغوي ؛ فهو عنوان صادق الدلالة على موضوعه ، ولكنه عنوان « خطابي » كذلك !

وليس من شأنى فى هذا الباب أن أنقد ، وإلا لوجدت مجال القول ذا سعة ، وإنما كل قصدى هو التعريف والبيان والعرض ؛ فليس من شأنى إذن أن أتتبع آراء المؤلف فأزعم أنه أصاب الرأى فى كذا وكذا واخطأه فى كيت وكيت ، وإنما لى شأن آخر ، ولكن ذلك لا يمنعنى — على كل حال — أن أصرح عن إعجابى بالكاتب وكتابه ، فان فى طبيعتى العنف والثورة ، وفى هذا الكتاب عنف وثورة ، وحسبه هذا إحساسا يستر ما وراءه .

والآن ما هى هذه الرءوس ، أو من هم أولئك الرؤساء فى الشعر العربى ؟

هذه فصول متتابعة ، يتحدث فيها المؤلف عن الأوائل فى الجاهلية ، فيأخذ فى نوع من الحديث عن امرئ القيس، وطرفة ، وزهير، وعنترة ، وغيرهم من الأوائل ، فى أسلوب طريف ورأى . . .

ثم يمضى فى الحديث عن الشعر بعد الاسلام، ويفيض فيما يصف من شعر عمر بن أبى ربيعة «أبى جوان» أو دون جوان العربى كما يريد أن يصفه ، وشعر جرير ، فيسمى العصر الأموى بهذين الشاعرين : عصر الهجاء ، وعصر الغزل . ولعله فيما كتب من هذا الباب لم يأت بجديد فى الرأى ، ولكن له أسلوباً وفناً جديدين ، وعلى مائدته كثير من التوابل!

ثم يتحدث عن عصر الترف أيام العباسيين ، ويتعقب أبا نواس شاعر الخمرة ، أو شاعر الخلاعة ، ثم يمضى فى آثار بشار بن برد ، زعيم الخلعاء ، فيصف من خبره ، ومن شعره ، ويصور نفسيته تصويراً بارعاً رشيقاً ، كأن قد رأيته وجلست إليه وعايشته وكشفت عن مكنون صدره . فاذا فرغ من بشار تحدث إليك عن المعاصرين الأربعة : أبى تمام ، ودعبل ، وابن الرومى ، والبحترى ؛ فاذا بلغ المتنبى سماه «الرأس الضخم» . وهنا نترقب ما يقول الأستاذ مارون عبود عن المتنبى ، ذلك الرأس الضخم الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، ولكنه لا يتحدث إليك عن المتنبى ، وإنما يتحدث عن طه حسين .

ويمضى فى الحديث عن طه حسين وقد خيل إليه أنه يتحدث عن المتنبى ، حتى يستغرق من الكتاب ما يقرب من مائة صفحة فى مناقشة كتاب طه حسين «مع المتنبى» . وحسبه حديثاً عن المتنبى أن يستغرق هذا القدر من صفحات الكتاب فى مناقشة كتاب ألفه طه حسين عن المتنبى .

ماذا قال ؟ لا أدرى ! ليس هذا شأنى ولكنه شأن الناقد ؟

وكأنما كان انقطاعه عن موضوع الكتاب فى هذه الصفحات التى تقرب من المائة سبباً إلى عدوله عن النهج الذى التزمه فى الفصول الأولى من الكتاب ؛ فلما هم أن يرجع نسى موضوعه وعدل عن طريقته ، فجاء حديثه بعد ذلك عن الشريف الرضى على أسلوبه فى الحديث عن المتنبى ؛ فلم يكتب عن الشريف وإنما كتب عن زكى مبارك والدكتور محفوظ ؛ ينقد كتابيهما عن الشريف الرضى ويغرقهما بفنه اللاذع .

ثم تأتى بعد ذلك فصول قصيرة عن بعض الرءوس الصغيرة ، فيتحدث عن البهاء زهير وابن نباتة وابن الفارض ، ويختم الرءوس بالحديث عن أحمد شوقى ، وفصل أخير عن الشعر بين الناقد والمعلم .

هذا هو الكتاب . وما أرانى قد وصفته كما هو فى نفسه ، وكما وقعت صورته فى نفسى ؛ وما يطيب لى أن أفرض على القراء صورة لعلها فى مرآتهم غير ما هى فى مرآتى ؛ فلست أنصحهم إلا بأن يقرءوا ذلك الكتاب ، فان فيه فناً جديدا . . .

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

دقيقة واحدة !

من مقال طريف للدكتور صبحى أبو غنيمة فى العدد ١١٨ من مجلة « الصياد » لبنان :

« جرب دوما قبل ان تعطى رأيا ، أو حكما ، أن تتمهل دقيقة ، دقيقة واحدة ، قبل الحكم ، فى المرض ، فى الأدب ، فى السياسة فى كل شىء ، وثق أنك لن تندم .

« أنت وأنا وذاك نمر فى حياتنا بمئات من المشاكل كل يوم ، فى الصنعة ، والناس ، والحياة ، « فنقرف » ، ونلعن ، ونمدح ، ونذم ؛ ولو تمهلنا دقيقة واحدة لتغير الأمر فى كثير من هذه ، ولكنا أقرب إلى الصواب وإلى . . . السعادة .

« تمهل دقيقة واحدة قبل أن تحكم على هذا المغرور الذى « يقرفك » ، وذاك السافل الذى تلعنه ، وهذا الطيب الذى تمدحه ، وذلك الشخص الذى تذمه ، فقد تنقلب معك الآية تماما . . .

« تمهل دقيقة واحدة قبل ؛ لقد جربت أنا ذلك فربحت . . . فجربها أنت ! . . . »

الحياة معرض

وفى عدد أبريل من مجلة « المنهل » التى تصدر فى مكة المكرمة — بقلم عبد القدوس الانصارى :

« ليس الأمر الذى ينجحك اليوم فى الحياة الاجتماعية الحاضرة ، أن تكون ذا ثراء عريض من العلم ، أو ذا ثراء موفور من الأدب ، أو من أى شىء آخر ذى قيمة معنوية فى الحياة ؛ فالعصر اليوم كما ترى « عصر المادة » فهى تسيطر على كل شىء . والذى ينجحك إذن فى هذا الجو المادى أن تستطيع « إحالة جوهرياتك » إلى « طاقة ماديات » يأنس الأفراد ويأنس الجمهور منها فائدة لمصالحهم . ووسيلة النجاح فى هذا الشأن أن تكون « صيرفيا » لبقا فى عرض مالديك من علم أو فن يمتاز فى « معرض الحياة العـام » . . .

« وإجادة العرض وحسن الاعلان يقومان على دعائم مركزة من إقناع الأفراد وإقناع الجماهير بأن معروضاتك قيمة تحوى الشىء الكثير من رفد مصالحهم الخاصة والعامة ، وبقدر ماتوفق فى هذا الاقناع تكون المتفوق الناجح فى الحياة ! »

رسالة الأمة العربية

وفى عدد يونية من مجلة « الأديب » — لبنان مقال للأستاذ أبى مدين الشافعى بعنوان « العناصر النفسية فى القومية العـربية » يقول فى جزء منه :

« تتفاوت الأمم فى عظمتها بتفـاوت اهدافها ؛ فبعض الأمم تعمل لهدف مادى

خاص بها ، وبعضها الآخر يعمل لهدف معنوى خاص به ، وأمم أخرى تحملت رسالة شاقة ، وجعلت رسالتها روحية تقوم على خدمة الانسان . . . وكانت رسالة الأمة العربية فى أن ترعى الحضارات فى العالم وتكمل نقصها وتؤديها بكل إخلاص مهما تحملت فى سبيل ذلك من تضحية . . .

« إن حروب العرب كانت دائما تنتهى إلى نتائج تضمن للانسان حريته وتضمن له الطمأنينة ، فلا يخاف على ماله وعرضه ، ويقاتل الرجل فى سبيل فكرة سامية لا فى سبيل أغراض مادية وتوسيع الحدود الحيوية والحصول على أرض غنية . ويقوم الايمان بدور كبير فى تنظيم الحياة الفردية والاجتماعية ويجعل الشخص يقف عند حد فى لذاته ، فلا يندفع الاندفاع المخيف الذى يجعل الحكومات مضطرة إلى خدمة الأفراد والتضحية بحق الجماعة لارضاء شهوات الفرد ، ويحد الايمان من الغضب الذى يدفع إلى الانتقام العنيف واستعمال القوة لاسكات الحق ، كما أن الايمان يحد من الغطرسة الناشئة عن غرور النصر ونشوته . . .

« إن الخطر الذى أحرق العالم يشتد ويهدد الباقى من الانسانية بالفناء . والآن نرى أنفسنا وسط المعمعة ، ومن الواجب أن نقوم برسالتنا إلى العالم ، وصوت البعث العربى يعبر عن هذا الاتجاه ، إذ يقول : إن الأمة العربية التى أظهرت فى الماضى شخصية قوية فذة وحملت رسالة كان لها أعظم الأثر فى تقدم الانسانية ، لا يزال الآن فى قدرتها ومن واجبها أن تؤدى رسالتها الضرورية بين مجموعة الأمم . . . »

هذا دمى !

وفى العدد ١٩ من مجلة « الرابطة » البغدادية ، للشاعر احمد الصافى النجفى :

أبعوضة حطت على قدمى ... وغدت تمص دماى مص ظمى
أمهلتها حتى ارتوت ، فهوت ... كفى عليها ، فعل منتقم !
كل شفى من وجد صاحبه ... غلا ، وأطفأ لوعة الضرم
أغنى ، إنك كالبعوض : دمى ... يجرى بجسمك ، فانتظر نقمى !
واعذر إذا عذر البعوض ، فلم ... أسفك دماءك ، بل سفكت دمى !

سيادة اللغة !

ومن مقال عنوانه « مبلغ حاجة اللغة العربية إلى الاصلاح » بقلم هادى محي الخفاجى فى العدد ١٧ من مجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف — العراق :

« نحن اليوم وكثير من الأمم أمثالنا ندرس اللغة الانجليزية ، لا تكريماً ولا تقديراً لها ، وإنما لأنها لغة « السادة » وكثير من رجالهم المستشرقين ، سياسيين وغير سياسيين ، يدرسون لغتنا ، لا تكريماً لها ولا تقديراً أيضاً ، وإنما لأنها لغة القوم « المسودين » ما فى هذا شك ، وإلا فلماذا لا ندرس غير الانجليزية ؟ ولماذا يدرس الانجليزى غير العربية : الفارسية والهندية والصينية وغيرها من لغات الأمم التى للانجليز

مصالح فى بلادها ؟ أتقديراً وتكريماً لكل هذه اللغات ، أم لنايات أخرى غير التكريم والتقدير ؟

أما كون اللغة العربية « سيدة اللغات » والأدب العربى « سيد الآداب » فهذا ما لم يكن ولن يكون مطلقاً ، فلكل لغة ميزة ليست للأخرى ، ولكل أدب فضل يفتقر إليه غيره . وإنما سادت اللغة العربية والأدب العربى وقتاً ما بسيادة أهلهما وقوتهم وسلطانهم ، شأنها فى هذا شأن الانجليزية اليوم والفرنسية قبل الحرب ، وإلا فلماذا لم تسد اللغة العربية فى الجاهلية ؟ ولماذا لم تسد فى القرون المظلمة ؟ ولماذا لا تسود اليوم ؟

كن معلما

ومن مقال بعنوان « الأزمة الخلقية » فى عدد مايو من مجلة « المعلم الجديد » — بغداد ، بقلم الدكتور محمد مهدى البصير :

« صديقى

« إنك تشكو من الشكوى من أخلاق هذا اليوم ، وتنكر على الناس ظمأهم إلى اللذة ، وتكالبهم على المادة ، وبعدهم عن الأمانة ، وتهالكهم فى سبيل المصلحة الخاصة ، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل .

« إننى أوافقك على هذا موافقة تامة . فلنبحث عن السبب الذى نشأت عنه هذه الأزمة فإنها لم تنشب فجأة ومن غير سبب . إنه من المفيد أن نقرر أن المجتمع الحاضر يعيش على خلقين مختلفين ، ويجرى فى حياته على مبدأين متناقضين ، يصطنع أحدهما فى الأقوال ، وهو أفضلهما ، وثانيهما فى الأعمال ، وهو أخسهما . إن الذين يعظون الناس ويرشدونهم فى كل فرع من فروع الحياة الأدبية والمادية ولا يعملون بشىء مما يقولون ، لا يقعون تحت حصر ! . . .

« أتقول إنه ليس لك إلا خلق واحد ، وإنك تعمل كل ماقى وسعك فى سبيل تنفيذ المبادئ السامية التى تدين بها مهما كلفك ذلك ؟ حسن جداً . إنك قدوة صالحة تستحق الاقتداء والاتباع ، ولكنك لم تفعل حتى الآن سوى نصف واجبك ، لأنه لا يجب فقط أن تسلك السبيل السوى ، وإنما يجب أن تحمل الآخرين على سلوكه أيضاً ، وأن تقدم لهم كل معونة ممكنة على بلوغ هذا الغرض ! »

أدب المغرب

أصدرت مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس عدداً ممتازاً فى شهر مارس الماضى للتعريف ببلاد المغرب ، لمناسبة زيارة محررها السيد نور الدين بن محمود لتلك البلاد . وفيما يلى كلمة من مقال فى ذلك العدد عنوانه « أدبنا المغربى كما أراه » بقلم الأديب المغربى السيد عبد الكبير الكتانى :

« أدبنا اليوم ينحصر فى أنواع ثلاثة :

« النوع الأول هو نوع الطبقة التى تكتب بالشكلية الأندلسية بحيث لا تبديل ولا تغيير ، ويمكننا أن نجعل زعيم هذه الطبقة الأديب الكبير السيد محمد بن المفضل غريط ، ذلكم المغربى الأندلسى الموهوب صاحب كتاب فواصل الجمان فى أدباء ووزراء الزمان ، وصاحب القصائد التى تتخذ شكلية التسبيب والتغزل على تلك الطريقة ، ومتشىء

المقامات على طريقة الحريرى وبديع الزمان الهمذانى .

« أما النوع الثانى فهو ليس بالأندلسي المحض ولا فيه من العناصر ما يجعله مغربياً محضاً ، و ليس هو بالأسلوب الجديد ، بل يعتمد على فخامة اللفظ وسمو المعنى وسبك الموضوع ، وأستطيع أن أجعل زعيم هذه الفئة فى النثر العلامة الجليل مولاى احمد التميشى ، وهو مؤلف كتاب الشعر والشعراء من عهد الحكم الادريسى السعيد إلى الآن ، ومؤلف كتاب ظريف فيمن قال كلمة فعرف بها — وأجعل زعيمها فى الشعر الشاعر المفلق الأستاذ الجزولى الرباطى . . .

« ثم هناك النوع الثالث ، وهو ذلك الأسلوب الصحفى الجديد ، وقد ظهر استعداد من سائر شبابنا للسير على طريقته ، وهو فى غالب أحواله يحاول تقليد كبار الكتاب المصريين ، خصوصاً الكتاب الذين ظهروا على مسرح مجلة « الرسالة » التى تتمتع بمقعد ممتاز عند شباب المغرب . . .

« على أننا لم نصل حتى الآن إلى تكوين اتجاه موحد لأدبنا الجديد ، ذلك لأن الثقافة فى المغرب كانت ، وربما لا تزال ،مقصورة على فئة مخصوصة ، ثم لانعدام أساليب النشر التى هى أكبر عامل على إيجاد الكاتب المجيد ، إذ لا يوجد كاتب أو شاعر خلقت معه عبقريته وإنما البيئة والعوامل والمشجعات هى التى توجد الكاتب والشاعر ! »

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

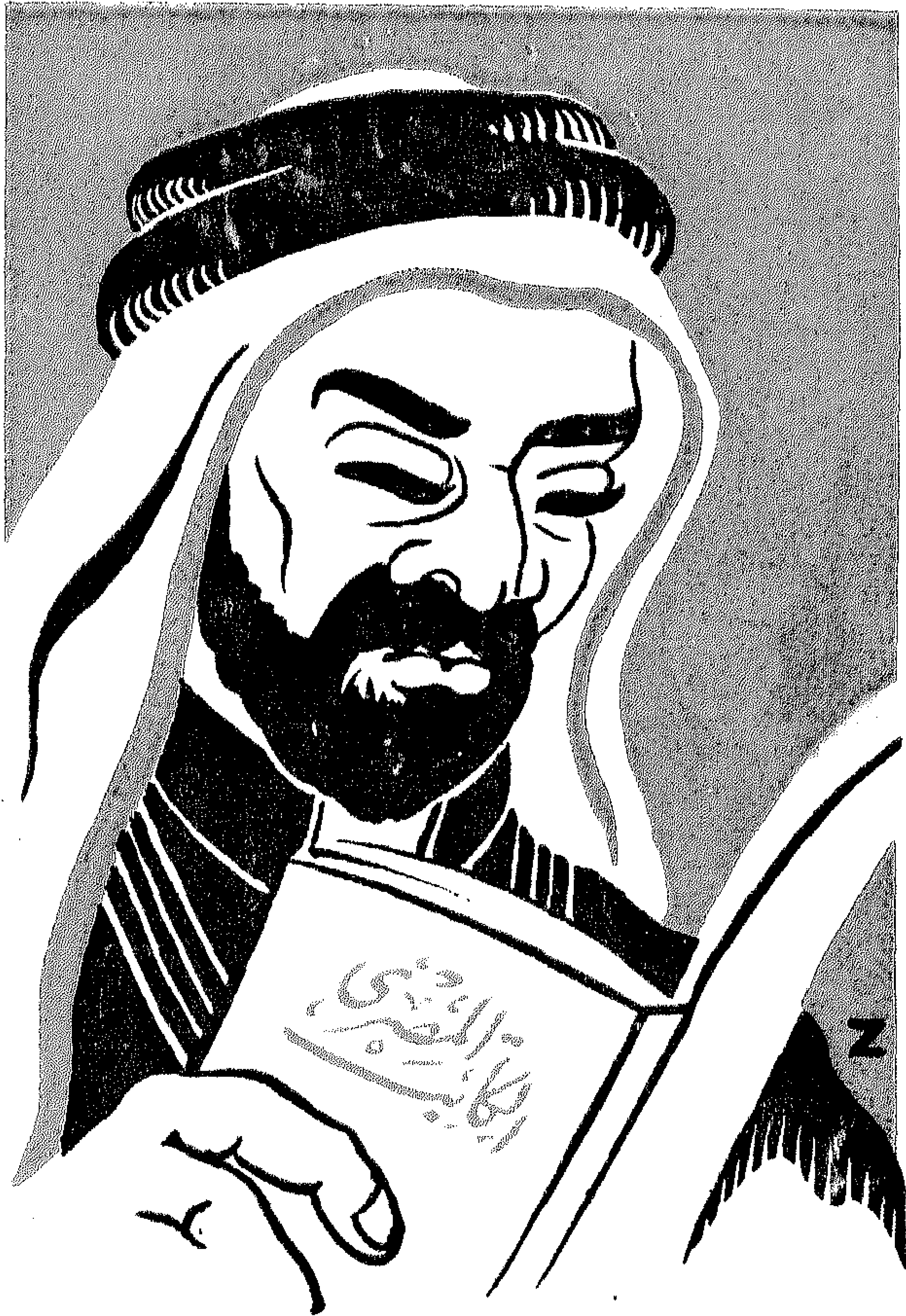
يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش



في ارجاء العالم العربي

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية

مجلد ٣ — عدد ١١ أغسطس ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

Une traduction de mes livres en votre langue... a quels lecteurs pourra-elle s'adresser?

André Gide

ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ .. الى اى قارئ
يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن ان تلبى ؟
ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية في العالم
المسلم فيما يبدو لى ، انه وهو الانسانى الروح يحمل
من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة . أخطئ أنا ؟

اندريه جيد

اجهدوا للدخول من
الباب الضيق
(انجيل «لوقا» : ١٣-٢٤)

اندريه جيد

الباب الضيق

تعريب
نزيه الحكيم

مقدمة لاندريه جيد وطه حسين

لم تخطئ أنت ، وانما
دفعت الى الخطأ . لقد خالطت
كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط
الاسلام ... فلو قد تعمقوا
الدين تعمقاً دقيقاً لأطلعوك
على ما يثير القرآن من مسائل وما
يعرض لها من جواب .

طه حسين



١٨ قرشا والبريد ١٢ مليما

رجل الأقدار

في هذا الكتاب الفذ، لمؤلفه الفذ، يبدو نابليون عظيماً في رفعته، عظيماً في محنته، يثير الاهتمام اليوم، كما أثاره قبل اليوم، ويثيره بعد اليوم: شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأي كل يوم.

فنابليون السائس، ونابليون القائد، ونابليون المفكر، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم، ومالكاً قديراً لناصية الكلام.

في هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه، ويعيش في حاضرنا كما عاش في حاضره، ويعرض صور عصره حية متحركة.

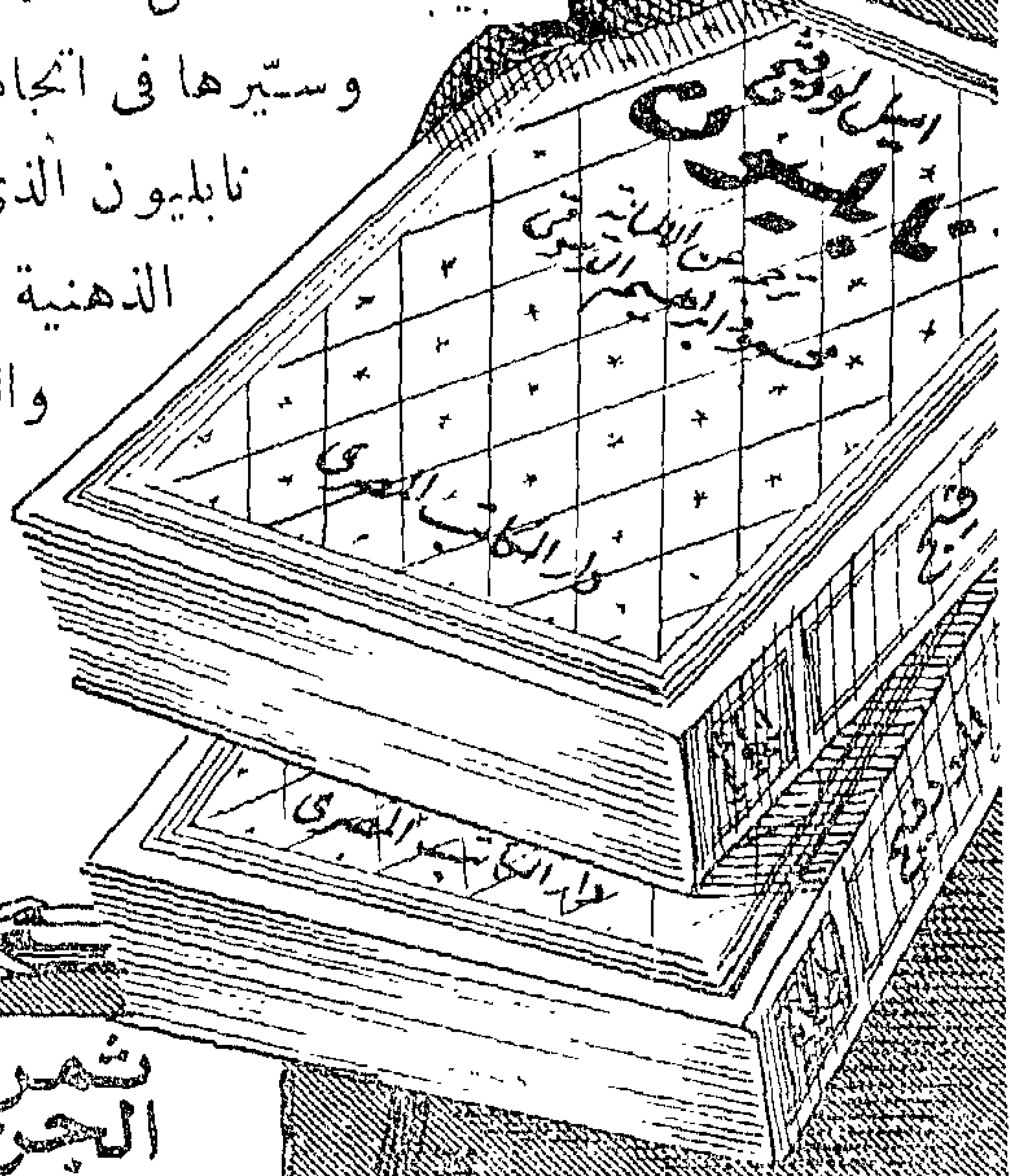
نابليون الواسع العلم، المحدق بالعالم، المحيط بتاريخه، وهو ما يزال غض الإهاب، في شرخ الشباب.

نابليون الذي وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص، لا المحب الواله، فعرف اتجاهها، وسيّرها في اتجاهه.

نابليون الذي تفوق في أعماله الحربية بصفاته الذهنية، وكان سلاحه النظر، والحساب، والتصميم، والفصاحة، ومعرفة الناس.

نابليون الذي اعتز بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح.

هل كان رجل جلاد، مبيداً للعباد، عاملاً لشخصه، بانياً لمجده؟



ثمن الجزء ٤٥ والبريد ٣٦ مليماً



ستری فی هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ، ومجّد إنسانيته ، وقدم صورة منوعة بديعة لعبقريته .

ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، وماحى الفوضى ، وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .

ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره هو عن نفسه ، فی ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانی ، وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعی ، بقلم مترجم إيفيچينيا وإجمنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ، وسودرمان ، وهانس أندرسن .



نابليون

لإميل لودفيج

ترجمه عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقی



طبعة فاخرة مزينة بالصور فی جزءين

آراء النقاد
فى كتاب « العروبة »
LE PANARABISME
تأليف جان ليجول
رئيس تحرير « لابورص اجيبسيين »

«Le nouvel ouvrage de notre rédacteur en chef, M. Jean Lugol, *LE PANARABISME*, a paru en librairie. Volume de 300 pages, enrichi de plusieurs illustrations et de cartes soignées, *LE PANARABISME* vient à son heure. L'auteur s'est efforcé de jeter une abondante lumière sur les problèmes historiques et actuels qui concernent les nations arabes.»

La Bourse Egyptienne, 3 juin 1946.

« ألف الأستاذ جان ليجول رئيس تحرير جريدة « لابورص اجيبسيين » كتاباً نفيساً عن بلاد الشرق العربى . . . وعنى المؤلف عناية فائقة بموضوع الكتاب ، فاعتمد فى تأليفه على وثائق تاريخية وزينه بصور متقنة لملوك الدول العربية ورؤسائها وبصور جميلة أخرى للمدن الكبيرة فى هذه البلاد . . . وصفوة القول أن كتاب الأستاذ ليجول خليق بأن يطلع عليه المهتمون بالشؤون العربية . »

المقطم فى ١٥ يونيه ١٩٤٦ .

«Dans les temps effervescents que nous vivons, voici un livre qui s'impose à notre attention de façon toute particulière. Ce n'est pas seulement un plaisir et un profit que de le lire, c'est un devoir.».

Le Progrès Egyptien, 23 juin 1946.

« عرف مسيو جان ليجول بأبحاثه القيمة التى يخرجها لنا بين الحين والحين فى صورة كتب وافية شاملة لدقائق الموضوع الذى يختصه بالبحث ... واليوم يخرج علينا المسيو ليجول بكتاب جديد قيم عن جامعة الدول العربية ... فالكتاب مرجع هام من مراجع التاريخ العربى يصلح لتنوير أذهان الأجانب بشأن كل ما يتصل بالعرب والجامعة العربية . »

الكتلة فى ٨ يوليو ١٩٤٦ .

«A tous les lecteurs de langue française qu'intéressent les problèmes du nouveau monde arabe, le livre de M. Lugol sera une lecture des plus utiles, celle d'un grand manuel d'introduction à la vie politique et morale d'Etats appelés à jouer un rôle capital dans la paix et la prospérité du monde. Nous ne pouvons que vivement le recommander.»

Le Journal d'Egypte, 9 juin 1946.

« هذا كتاب قيم أصدره بالفرنسية الأستاذ جان ليجول وصدره بكلمة لمسيو جورج بيكو يقول فيها : « إن العالم العربى فى حالة تطور وهو فى الوقت الحاضر قوة محدودة جداً بالنسبة لما سيصبح عليه فى مستقبل غير بعيد . » . . . وعلى الرغم من عدم اتفاقنا تماما مع المسيو ليجول فى جميع آرائه ، إلا أن الكتاب قيم ومكتوب بروح المؤرخ المطلع . »

آخر ساعة فى ١٩ يونيه ١٩٤٦ .

«Ceux qui se perdent encore dans la complexité des questions orientales liront avec profit *LE PANARABISME*: c'est là un guide simple et clair du monde arabe en pleine renaissance.»

Images, 16 juin 1946.

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٥٠٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.

5 Kantaret el Dekka Street

Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصري



رمضان ١٣٦٥ أغسطس ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ١١

الأدب بين الاتصال والانفصال

أى المذهبين أهدى سبيلا : مذهب الأديب الذى يؤثر العزلة لعقله وقلبه وفنه ، وينظر إلى الحياة الإنسانية الواقعة من برجه العاجى ، لا يحفل بها ولا يقف عندها ، ولا يلتفت إليها ، إلاّ أن تكون مصدراً لأثر من آثاره الفنية ، فهو حينئذ يستوحيها ويستقصيها ، ويصدر عنها فيما يرسم من الصور ، وما يحدث من الآثار ، يقف منها موقفه من الطبيعة غير الواعية ، يتخذها مادة لفنّه دون أن يشاركها بعقله وقلبه وشعوره فيما يختلف عليها من الأحداث ، وما يلم بها من الخطوب — أم مذهب الأديب الذى يأخذ بحظه من هذه الحياة الواقعة ، فيسعد حين تشيع فيها السعادة ، ويشقى حين يستأثر بها الشقاء ، ويجاهد مع المجاهدين ليكسب لنفسه وللناس ، أو قل ليكسب للناس ولنفسه حظّاً جديداً من سعادة ، وليدفع عن الناس وعن نفسه طائفاً عارضاً من شقاء ؟

هذه هى المسألة التى يلهج بها الأدباء الفرنسيون فى باريس منذ وضعت الحرب أوزارها ، بل قبل أن تشب الحرب نارها . فقد فرضت هذه المسألة نفسها على الأدباء الأوربيين منذ كان الاصطدام العنيف بين المذاهب فى تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية بين الحربين حين عظم أمر الشيوعية فى روسيا ، وأمر الفاشية فى إيطاليا وألمانيا ، واجتهدت الديمقراطية التقليدية فى أن تثبت بين هذين المذهبين من مذاهب السياسة والاجتماع ، وفى أن تدفع عن نفسها خطر الفناء الذى يأتيها من التسلط المطلق للجماعة ، ومن التسلط المطلق للفرد ، على دقائق الحياة الاجتماعية والفردية على السواء . فقد وجدت الشيوعية أدبا

٢٥

شاركوا فيها ، ودافعوا عنها ، وقاموا دونها يحمونها بألسنتهم وأقلامهم ، ويحاولون نشرها فى أقطار الأرض . ووجدت الفاشية كذلك أدباء أنفقوا مايملكون من قوة وجهد فى الذود عنها ، والقيام دونها . ونظرت الديمقراطية فإذا الساسة وحدهم هم الذين يناضلون ويجاهدون لحمايتها أول الأمر ، وإذا الأدباء لايحفلون بها ولا يتكلفون حمايتها ، وإنما يؤثرون أنفسهم بخيراتها ، ويستمتعون فى ظلها بما يتاح لهم من الحرية ليحيوا كما يحبون ، وينعموا كما يستطيعون ، ويكتبوا كما يشاءون ومتى يشاءون وفيما يشاءون من الموضوعات . وأكبر الظن أنهم كانوا خليقين أن يمضوا فى طريقهم تلك لايلتفتون إلى ما حولهم من الحياة الواقعة لو لم يحسوا الخطر يأتيهم من انتشار الشيوعية والفاشية فى بيئاتهم الخاصة التى يعيشون فيها ، ولو لم يشعروا بأن هـذا الخطر يتغلغل فى حياة أوطانهم تغلغلا مخيفاً ، ويوشك أن يخضعهم لأحد المذهبين اللذين كانا يتنازعان أوربا بين الحربين .

هنالك تبينوا أن حريتهم معرضة للخطر ، وأن ثقافتهم معرضة للزوال ، وأن فنهم معرض للفناء ، وأنهم مخيرون بين اثنتين : إما أن يفنوا فى الشيوعية أو الفاشية فيذهبوا مذهب غيرهم من الأدباء الشيوعيين والفاشيين ، وإما أن يمنحوا الديمقراطية التقليدية ألسنتهم وأقلامهم ، ويشاركوا أصحاب السياسة فى الدفاع عنها والقيام دونها وحمايتها من أن يجتاحها هذا الخطر أو ذاك . رأوا ذلك رأى العين وأحسوه إحساساً قويًّا ملحًّا ، فاضطروا إلى أن يشاركوا فى الدفاع عن الديمقراطية ، وذهب بعضهم مذهب الفاشية ، وذهب بعضهم الآخر مذهب الشيوعية ، وخرج الأدب من عزلته ، وانحدر الأدباء من بروجهم العاجية إلى أسواق السياسة وميادين الصراع حول المنافع العاجلة والمصالح القريبة ، ونشأت هذه الظاهرة الأدبية التى تسمى التضامن فى تبعات الحياة .

ثم كانت الحرب ، واضطر كثير جدًّا من الأدباء إلى ما اضطر إليه غيرهم من عامة الناس من مصانعة العدو أو مقاومته ، ومن الانحياز إليه أو التألب عليه ؛ ولم يبق أو لم يكد يبقى أديب أوربى يستطيع أن يقول إنه محتفظ بعزلته ، مستأثر بوحدته ، معتصم ببرجه العاجى ينظر إلى اضطراب الناس من حوله كما ينظر إلى ضوء الشمس حين تشرق ، وإلى ظلمة الليل حين تغمر الكون ، وإلى الأغصان حين يداعبها النسيم ، أو إلى ماء الجدول حين يداعب الحصباء ، وإلى الطير

حين تملأ الجو غنـاء وبكاء ، وإلى أمواج البحر حين تعصف بها الريح .

أكره الأدباء على أن ينزلوا بأدبهم إلى الحياة الواقعة ، وعلى أن يشاركوا الناس فى آلامهم وآمالهم ، وفيما يتاح لهم من سعادة أو شقاء . حتى الذين آثروا الصمت منهم لم يؤثروا الصمت ترفعاً عن المشاركة فى الحياة الواقعة ، ولا تمنعاً على التضامن الاجتماعى ، ولا حبًّا فى الاعتصام بالبروج العاجية ، وإنما اتخذوا الصمت سلاحاً لعلّه كان أمضى من الكلام أحيانا . فقد كان العدو المنتصرون يودُّون بجدع الأنوف لو ظفروا من هؤلاء الأدباء الصامتين بشىء من تأييد ، كما كان الصديق المتضامنون مع العدو عن رضا أو عن كره ، والذين كانوا يسمون بالكويسلنج يتمنون أيضاً بجدع الأنوف لو أتيحت لهم معونة هؤلاء الأدباء الصامتين . فقد اضطر الأدباء إذن إلى أن يشاركوا فى الحياة الواقعة ، وإلى أن يختاروا بين المذاهب السياسية والاجتماعية التى كانت تتنازع أوربا فى ذلك الوقت ، وأدوا ثمن هذه المشاركة غالياً : ضحَّوْا فيها بأنفسهم أحياناً ، وبراحتهم أحياناً ، وبحريتهم دائماً . ثم تضع الحرب أوزارها بين الجند المقاتلين دون أن تضع أوزارها بين الساسة المختصمين . فالناس لايقتل بعضهم بعضاً منذ حين ، وقد انهارت ألمانيا وإيطاليا واليابان ، واستسلمت بلا قيد ولاشرط ، ولكن الخصومة السياسية حول النظم المختلفة ما زالت قائمة كعهدها قبل أن تشب الحرب ، وكعهدها بعد أن شبت الحرب ، فما عسى أن يكون موقف الأدباء من هذا الصراع المتصل بين النظم السياسية والاجتماعية ؟ أيشاركون فيه بعد الحرب كما شاركوا فيه قبل الحرب وأثناء الحرب ، أم يستأنفون حياتهم تلك القديمة فينحاز إلى العزلة منهم من يحب العزلة ، ويصعد إلى البروج العاجية منهم من يحب الاعتصام بهذه البروج ؟ وبعبارة موجزة : أيباح للأديب أن يحيا حياة العزلة ، وأن يخلص لفنِّه المحض ، وأن ينظر إلى الحياة الإنسانية الواقعة كما ينظر إلى الطبيعة الصامتة يتخذها مادة لفنِّه ليس غير ، أم يُفْرَض على الأديب أن يحيا مع الناس ، فيألم حين يألمون ، ويأمل حين يأملون ، ويشاركهم مشاركة كاملة فيما يجدون من نعيم وبؤس ، ومن سعادة وشقاء ؟ وبعبارة أشد وضوحاً وإيجازا : أينبغى للأدب أن يكون لوناً من ألوان الترف ، أم يجب على الأدب أن يكون أداة من أدوات الحياة ؟

هذه هى المشكلة التى تقيم الأدباء فى باريس وتقعدهم منذ حررت فرنسا. وقد يخيل إلى كثير من الناس كما يخيل إلى الأدباء الفرنسيين أنفسهم أنها مشكلة جديده طارئة. ولكن نظرة يسيرة سريعة فى التاريخ الأدبى لأى أمة من الأمم الحيّة تكفى لإقناعنا بأن هذه المشكلة ليست جديدة، وبأن حظها من الطرافة ضئيل جدًّا يوشك ألا يكون شيئاً. فأنت تستطيع أن تنظر إلى أى عصر من عصور الأدب الفرنسى، مثلا منذ أوائل القرن السادس عشر إلى الآن، فسترى أن الأدباء قدانقسموا دائماً هذا النوع من الانقسام، فكان منهم المشاركون فى الحياة الواقعة، والمؤثرون للعزلة والانفراد. وكان أثر الذين يشاركون فى الحياة الواقعة دائماً أعظم خطراً وأجلّ شأناً من أثر الذين يحبون العزلة، ويعتصمون بالوحدة، ويلزمون بروجهم العاجية ينزلون منها وحيهم الأدبى تنزيلا.

فلست أدرى إلى أى حدّ يمكن أن يقال إن مونتنى ورابليه فى القرن السادس عشر كانا معتزلين يعتصمان بالبرج العاجى، مع أن الواقع الذى ليس فيه شك هو أن أدبهما يصوّر حياة الطبقة الفرنسية التى كانا يعيشان فيها أصدق تصوير وأبدعه. وقل مثل ذلك بالقياس إلى الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر؛ فهم قد عاشوا مع طبقتهم عيشة تضامن لا اعتزال، وهم قد صوروا طبقتهم تصويراً صادقاً؛ منهم من اتصل بالقصر فصور حياة القصر، ومنهم من عاش من الشعب فصور حياة الشعب. وكانت الحال كذلك فى القرن السابع عشر، فلم يكن كورنى ولا راسين ولا بوالو معتزلين يلقون وحيهم من بروجهم العاجية، كما كان أبُللون يلقى وحيه فى معبد دلف، وإنما كانوا يشتقون فنهم من الحياة الواقعة من حولهم، يتخذون مذهب القدماء فى الأدب وسيلة إلى تصوير هذه الحياة الواقعة بما فيها من ألم وأمل ومُثُل عليا. فأما موليير فأمره أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

أما القرن الثامن عشر فهو القرن الذى عرف تضامن الأدب مع الحياة الواقعة فى أوسع حدوده وأبعد آماده. فمن الخطأ كل الخطأ أن يقال إن ڤولتير ومونتسكيو وديديرو وروسو كانوا معتزلين أو مترفعين عن الحياة اليومية الواقعة. والثورة الفرنسية لم تأت من لاشىء، وإنما جاءت من تطور الحياة الواقعة نفسها من جهة، ومن تصوير الأدب لهذه الحياة وتطورها من

جهة أخرى ، ومن إشعار الأدب للشعب بأن الحياة التي كان يحياها لم تكن تلائم حقه في الحرية والإخاء والمساواة والعدل . فإذا تركنا هذا القرن فسنلاحظ أن القرن التاسع عشر كان عصر الصراع بين الأدب ، وبين الذين خاصموا الحرية ، أو حاولوا أن يضيعوا ما كسبه الشعب الفرنسي من ثورته الكبرى . وقد احتاج نابليون إلى أن ينظم حربه التي نصبها للأدباء الأحرار ، كما نظم حربه التي نصبها لخصومه من الإنجليز والروس والنمسويين ، وكانت له شرطته الداخلية ذات النظام الدقيق العنيف . وكان له صرعاه من الأدباء ، كما كان له جيشه العظيم وصرعاه من خصومه الخارجيين . وأكبر الظن أن نابليون لم يحارب الأدباء إلا لأنهم قاوموه ، وأن الأدباء لم يقاوموه إلا لأنهم خالفوه في الرأى ، ولم يخالفوه في الرأى إلا لأنهم تضامنوا مع الحياة الواقعة ، ولم يعتصموا بالبروج العاجية ، ولم يؤثروا العزلة وما تستتبعه من العافية على الجهاد مع المجاهدين . وقد كان للملكية الفرنسية بين الإمبراطوريتين أنصارها وخصومها من الأدباء ، وكان لها صرعاها وضحاياها ، كما كان لها أصدقاؤها الذين استمتعوا في ظلها بالسعادة والنعيم . وهذا كله لايدل إلا على أن الأدباء ، أو كثرة الأدباء ، لم يستطيعوا أن يؤثروا حياة العزلة . والثورة الفرنسية الثانية سنة ١٨٤٨ ، لم تأت من لاشىء وإنما جاءت من تطور الحياة الواقعة ، ومن تصوير الأدباء لهذا التطور ، ومن إقناعهم للشعب بأن سادته قد أضاعوا عليه ما جنى من الثورة الكبرى . وقد كان للإمبراطورية الثانية صرعاها من الأدباء . وما نظن أننا في حاجة إلى أن نذكر فكتور هوجو ، وما أظن أحداً يستطيع أن يقول إن فكتور هوجو ولامرتين كانا من أنصار العزلة وعشاق البرج العاجى ، حتى فلوبير الذى أبى أن يحفل بشىء غير الفن ، وفرض على نفسه حياة خالصة للأدب وللأدب الخالص ، حتى فلوبير لم يستطع أن يمتنع على المشاركة في الحياة الواقعة ، والتضامن مع الناس فيما كانوا يجدون من أمل وألم . ويكفى أن تقرأ قصته الرائعة « التربية الشعورية » *L'Education sentimentale* ، وأن تقرأ رسائله ، وأن تقرأ كتابه الخالد — *Bouvard et Pécuchet* — لتعلم أن برجه العاجى لم يكن إلا ملجأ يأوى إليه ليستعرض ماجنى من مشاركة الناس في حياتهم الواقعة ، ثم يعرضه بعد ذلك عليهم في صوره الرائعة التي تدفع إلى العمل ، وتملأ القلوب شوقاً إلى المثل العليا ، وإزورارا عن هذه الحماقة التي تعرّض الشعب لعبث العابثين .

فإذا كانت الجمهورية الثالثة فالكثرة الضخمة من الأدباء مشاركة في السياسة إلى أبعد حدود المشاركة . وليس من شك في أن جورس ، وليون بلوم ، وأناتول فرانس ، وموريس باريس ، وبيجى لم ينتظروا ظهور الشيوعية والفاشية ؛ ليشاركوا في الحياة السياسية الواقعة مشاركة تختلف عنفاً وليناً باختلاف أمزجتهم وما كان يحيط بهم من الظروف . وقد عرف الفرنسيون في آخر القرن الماضي أزمة دريفوس تلك التي أكرهتهم جميعاً على أن يشاركوا في السياسة مشاركة فعليَّة عنيفة لم يتخلف عنها عالم ولا أديب .

فإذا لهج الأدباء الفرنسيون الآن بالتضامن الأدبي مع الحياة الواقعة ، وإذا أسرفوا في ذكر الأدب المتضامن والأدب المعتزل ، فهم في حقيقة الأمر لا يأتون بشيء جديد ولا يواجهون مشكلة جديدة ، وإنما هي مشكلة قديمة خالدة : إلى أي حدٍّ يستطيع الأدب أن يعتزل الحياة الواقعة دون أن يصبح لغواً من اللغو ، وسخفا لا غناء فيه ؟ وإلى أي حد يستطيع الأدب أن يشارك في الحياة الواقعة دون أن يضطر إلى الإسفاف الذي يفسده ، وإلى الابتذال الذي يلغيه ؟ والشيء المحقق فيما أعتقد هو أن الفرنسيين كغيرهم من الأوربيين ، بل كغيرهم من الناس المتحضرين ، يمرون بهذه الأزمة العنيفة التي تمر بها الأمم بين حين وحين ، والتي تضطر المثقفين وقادة الرأي إلى أن يتجاوزوا عن عزلتهم أكثر مما تعودوا أن يفعلوا ، وإلى أن يأخذوا بحظهم من الجهاد اليومي ؛ لينصروا هذا المذهب أو ذاك ، وليحققوا هذا اللون أو ذاك من ألوان المثل العليا .

وقد صورت في العدد الماضي من هذه المجلة ذلك الصراع العنيف بين العدل والحرية . فهذا الصراع لا يمكن أن يتحقق ولا أن تظهر آثاره ، ولا أن يؤتي ثمره إلاّ إذا كان هناك مصارعون يديرون بينهم مايديرون من هذا الجدال العنيف . فالحرية ليست شيئاً قائماً بنفسه يمكن أن يلتزم خطة الدفاع ، أو أن يتخذ خطة الهجوم . والعدل كذلك ليس شيئاً قائماً بنفسه يمكن أن يتخذ هذه الخطة أو تلك . وإنما الحرية والعدل خصلتان قائمتان في أنفس الناس : هؤلاء يؤثرون الحرية ، وهؤلاء يؤثرون العدل ، وهؤلاء يؤثرون شيئاً وسطاً بين ذلك . وهم جميعاً يختصمون ويصطرعون ، ويجادل بعضهم بعضاً . والخصومة بينهم لا تكون بالعمل وحده ، وإنما تكون بالعمل والقول ، ولعلها أن تكون بالقول أكثر مما تكون بالعمل . وانتصار الحرية على حساب العدل يعرِّض الناس جميعاً ،

ومنهم الأدباء ، لحياة قاسية قوامها الظلم . وانتصار العدل على حساب الحرية يعرّض الناس جميعاً ، ومنهم الأدباء أيضاً ، لحياة قاسية قوامها المساواة وفيها شيء كثير من الخضوع . فالأديب مضطر إلى أن يدافع عن نفسه ، لأنه هو نفسه معرض بحكم هذه الأزمة لفقدان الحرية ، أو لفقدان العدل ، أو لفقدانهما جميعاً . فالعزلة الأدبية في هذا الوقت ليست إلا حكما بالموت على الأديب . ولولا أن هذه الأزمة العنيفة تثير الشهوات ، وتدفع الأهواء إلى الجموح ، لما اختلف الأدباء الفرنسيون كما يختلفون اليوم حول الأدب المعتزل والأدب المتضامن . فالحرية في حاجة إلى أن يدافع عنها أنصارها ، والعدل في حاجة إلى أن يدافع عنه أنصاره . والأديب الذى ينحاز إلى نفسه ويعكف عليها ويفرغ لها ، لا يزيد على أن يسجل أنه زاهد في الحرية والعدل جميعاً ، أى أنه زاهد في الحياة . أو قل إنه لا يزيد على أن يسجل أنه طفيلى يعيش من كسب غيره ، ينتظر أن ينتصر هذا الفريق أو ذاك ليعيش في ظله ، وينعم بما يلقى إليه من الفتات . وهذا الأديب فيما أعلم لا يوجد أو لا يكاد يوجد . وفى الحياة بعد ذلك أشياء أخرى غير الحرية والعدل ، والناس في حاجة إلى هذه الأشياء ؛ فهم يختصمون حولها كما يختصمون حول الحرية والعدل . والأديب مثلهم يحتاج إلى هذه الأشياء كما يحتاج إلى الحرية والعدل ، فهو مضطر إلى أن يخاصم ويجاهد ليحقق رأيه في كل مشكلة من المشكلات التى تمس الجماعة وتؤثر في حياتها . ومن هنا يمكن أن يوجد الأديب الذى لا يخاصم في العدل ، ولا في الحرية ، ولكنه يخاصم في الدين ، أو يخاصم في الإلحاد ، أو يخاصم في هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الدين ، أو يخاصم فيما شئت من هذه المشكلات الإنسانية التى لا تنقضى والتى تتجدد في كل يوم .

والأدب الفرنسى ليس وحده موضوعاً لهذا الخلاف حول التضامن والاعتزال ، فالمسألة كما قلت آنفاً قديمة لا تتصل بعصر دون عصر ، عامة لا تتصل ببيئة دون بيئة ولا بجيل دون جيل .

أكان الأدب اليونانى مثلا معتزلا أم متضامناً ؟ مسألة من شأنها أن تضحك الشعراء والفلاسفة ، والكتاب اليونانيين لو أنها ألقيت عليهم . فقد كان الأديب اليونانى بطبعه مواطناً يونانيًّا ، يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، ويؤدى واجباته الوطنية ، ويشهد الاجتماعات السياسية ، ويدافع عن هذا الحزب

أو ذاك ، ويجنى ثمر هذا الدفاع نعيما أو بؤساً وسعادة أو شقاء . والذين يقرءون الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية يعلمون ذلك حق العلم ويقدرونه حق قدره . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن التراجيديا اليونانية لم تكن تميل إلى المحافظة السياسية ، وإن الكوميديا لم تكن تعبث بالديمقراطية ، وإن سقراط قد شرب السم ؛ لأنه آثر الاعتزال الفلسفى على التضامن مع الحياة الواقعة ، وإن أفلاطون لم يغرق فى السياسة إلى أذنيه ، وإن أرسطاطاليس لم يضطر بحكم السياسة إلى أن يموت غريبا ! ولم يكن الأدب عند الرومانيين أقل مشاركة فى الحياة الواقعة من الأدب اليونانى . فربما كان أظهر شىء فى الأدب اللاتينى الخطابة وقد كانت كلها أو أكثرها سياسة ، والتاريخ وقد كان كله أو أكثره سياسة . فأما الشعر فقد حاول أن يتجنب السياسة فلم يبلغ مما أراد شيئاً ؛ لأن السياسة كانت تفرض نفسها على المواطن اليونانى والرومانى فرضا ، لا يعنيها أن يكون هذا المواطن أديبا أو حذّاء .

وأدبنا العربى أكان متضامناً مع الحياة الواقعة أم كان مترفعا عنها ؟ أهو الآن أدب متضامن أم أدب معتزل ؟ مسألة لا تخلو من عبرة وعظة . فقد كان أدبنا العربى حيًّا قويًّا حين تضامن مع الحياة الواقعة ، وكان فاتراً متهالكا حين اضطرته الظروف إلى الاعتزال . وما أريد أن أذكر الشعر العربى فى العصر الجاهلى ؛ فقد كان أمره أوضح من أن يحتاج إلى بيان . كان الشاعر العربى لسان القبيلة ، يسجل مآثرها ، ويذيع مفاخرها ، ويدافع عنها فى المواطن التى تحتاج إلى الدفاع ! وما كان أكثرها ! فقد كان أدبنا الجاهلى ، وهو كله شعر ، متضامناً لا يطيق الاعتزال ولا يسيغه ؛ لأن الشاعر كان فرداً من أفراد القبيلة يحيا بحياتها ويشارك فيما يصيبها من خير أو شر ؛ فإن خالف عن هذا التضامن فهو الخليع الذى يجب أن يعيش عيشة الصعاليك ، وهو بهذا يخرج عن التضامن مع القبيلة إلى تضامن آخر ليس أقل منه مشاركة فى الحياة الواقعة ، وهو التضامن مع أمثاله من الصعاليك .

كان أدبنا الجاهلى متضامناً إذن . فأما أدبنا الإسلامى فقد كان تضامناً كله: كان تضامناً حين كان الشعراء المسلمون والمشركون يتقارضون قصائدهم دفاعاً عن الإسلام أو دفاعاً عن حياة قريش قبل أن تسلم قريش . وكان تضامناً حين نشأت الأحزاب السياسية بعد موت النبى ، وحين انحاز كل شاعر إلى حزب من

الأحزاب يدافع عنه باليد واللسان . حتى هؤلاء الفحول الذين ظن الناس أنهم فرغوا للشعر وتجاوزوا عن السياسة ، لم يستطيعوا أن يفرغوا للشعر ولا أن يتجاوزوا عن السياسة ، وإنما انحاز الأخطل إلى بنى أمية ، وانحاز الفرزدق إلى العثمانية ، وعارض الحجاج وغيره من ولاة العراق ، وانحاز جرير إلى الزبيريين ثم باع شعره لبنى أمية . وفرغ بعض الشعراء للفن الخالص ، فادركهم الخمول على ما أتيح لهم من الجودة الرائعة ؛ ولعل ذا الرمة أن يكون مثلا صادقاً لهؤلاء الشعراء الذين أرادوا أن يعتزلوا فلم يصيبوا من الاعتزال إلا الإخفاق والخمول . وإنا لنبذل مانستطيع من الجهد لنرد إلى ذى الرمة وأشباهه شيئاً من الإنصاف ، فلا نكاد نظفر من ذلك بشيء على بعد العهد وتباين الظروف .

وقد ظل أدبنا متضامناً مشاركا فى الحياة الواقعة حتى بعد انقضاء العصر الأموى وتغلب الاستبداد الفارسى على القصر فى بغداد . والناس يظنون أن تغلب الفرس على العرب بعد الثورة العباسية قد اضطر الأدب إلى شيء من العزلة . وليس هذا بملائم للحق ؛ فإنى أجد الشعراء فى العصر العباسى يختصمون كما كانوا يختصمون فى العصر الأموى حول مذهب الشيعة ومذهب الجماعة ومذهب الخوارج . وليس الكتاب والفلاسفة والفقهاء بأقل تضامناً ومشاركة فى الحياة الواقعة من الشعراء . وقد كان تغلب الترك فى القرن الثالث على دار الخلافة وعلى السلطان كله خليقاً أن يبعد الأدب عن السياسة ، ولكنه لم يصنع شيئاً ؛ فقد كان الترك أقل مشاركة من الفرس فى الفن ، وأقل منهم احتفالا بهذا الذوق المترف والنحو الرفيع من الأدب ، وأشد منهم غلظة فى مواجهة المشكلات ومعالجة الخطوب ، ولكنهم على هذا كله لم يمنعوا البحترى وأبا تمام وابن المعتز وابن الرومى من أن يشاركوا بشعرهم فى السياسة العامة من جهة وفى السياسة الخاصة الطارئة من جهة أخرى . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن سينية البحترى وبائية أبى تمام قد صدرتا عن شاعرين معتزلين ! ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن رسائل الجاحظ قد صدرت عن أديب معتزل لا يشارك فى الحياة الواقعة ! ومن ذا الذى ينكر أن ابن الرومى قد حرض على الزنج واستحث أهل بغداد لنصر الموفق ! ومن ذا الذى لم يقرأ جدال ابن المعتز لأبناء عمومته من الطالبيين ! والمتنبى أكان معتزلا للحياة الواقعة أم كان مشاركا فيها ؟ أليس من المحقق أن افتتان الأجيال بشعر المتنبى إنما هو نتيجة طبيعية لما كان من تضامن

المتنبي في أكثر حياته مع العرب في خصومتهم للفرس والترك ، ومع القرامطة في سخطهم على النظام الاجتماعي ومحاولتهم تغيير هذا النظام ؟ وأبو العلاء الذي امتاز بالعزلة وانفرد بهذه الوحدة التي فرضها على نفسه في محبسيه أو في محابسه ، والذي ظن أنه قد حقق من هذه العزلة ما أراد مع أنه لم يحقق منها شيئاً ، أكان أدبه معتزلا أم متضامناً ؟ أيستطيع أحد أن ينكر أن أبا العلاء لم يخفق في شيء كما أخفق في محاولته للعزلة ؟ أما أنه نجح في عزلته المادية فشيء جائز ؛ لأنه لزم داره ولم يخرج منها إلا مضطراً . وأما أنه أخفق في عزلته المعنوية فشيء ليس فيه شك ولا يمكن أن يكون موضوعاً للنزاع . فلم تخل دار أبي العلاء من الطارئين عليه والملمين به يوماً من الأيام أثناء نصف القرن الذي لزم فيه داره . ولم ينظم أبو العلاء بيتاً من الشعر ، ولم يكتب فصلا من النثر إلا كان فيما نظم وما كتب متصلا بالحياة الواقعة أوثق الاتصال وأشده . فهذا الشاعر الفيلسوف الذي أنفق حياته طالباً للعزلة ، هو الذي أنتج في الأدب العربي أدباً أقل ما يوصف به أنه أدب اجتماعي متضامن بأوسع معاني هذه العبارة وأدقها . وقد أخفق أبو العلاء في كثير من الأشياء بحكم الظروف التي أحاطت به ، ولكنه لم يخفق في شيء كما أخفق في محاولة الابتعاد عن الناس . وأبو العلاء يستطيع أن يقول إنه إنسيُّ الولادة وحشيُّ الغريزة ؛ فغريزته هذه الوحشية هي التي ميزته من غيره ودفعت الناس دفعاً إلى أن يتهالكوا عليه ، واضطرته هو إلى أن يتهالك عليهم أشد التهالك وينكر ذلك على نفسه أشد الإنكار ، ويصور هذا في شعره تصويراً بشعاً رائعاً في هذا البيت :

كلابٌ تعاوت أو تغاوت لجيفة وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

من أشنع الخطأ إذن أن يقال إن أدبنا العربي في عصوره المزدهرة قد كان أدباً معتزلا مترفعاً عن الحياة الواقعة أو مهملا لهذه الحياة . وإنما الذين يقولون مثل هذا القول هم الذين غرتهم ظواهر الأشياء عن حقائقها ، فلم يروا في شعر الشعراء إلا مدحاً وهجاء ورثاء ، ولكنهم لم يتعمقوا هذا المدح والهجاء والرثاء ، ولم يفهموا هذه الفنون على وجهها ، ولم يدرسوا غيرها من الفنون التي طرقها هؤلاء الشعراء ، ولم يروا في نثر الكتاب إلا تنميقاً وتزويقاً وتأنقاً في اختيار اللفظ ، وتكلفاً في تحرير المعاني ، وتصنعاً في تعقيد الأسلوب ، ولكنهم لم

يتجاوزوا هذا إلى ما يمكن أن يكون وراءه من مشاركة فى الحياة الواقعة أو ترفع عن هذه الحياة .

والغريب أن الذين يدرسون تاريخ الأدب العربى لا يكادون يفطنون إلى أن أكثر كتابنا إنما كانوا يعملون فى المرافق العامة ، ويتصلون بالسلطان من قرب أو من بعد ، ويتأثرون بالخطوب التى يقتضيها الاتصال بالسلطان والاشتراك فى الحياة العامة ، ويصورون هذا كله حين يكتبون ، سواء أصدروا فيما يكتبون عما يقتضيه العمل أو عما يجدونه فى ذوات أنفسهم . وأنا ألتمس الكاتب العربى أو الإسلامى الذى نفض يده من الحياة العامة نفضاً واعتزل الحقائق الواقعة اعتزالا ، فلا أكاد أظفر به أثناء هذه العصور الأدبية العربية المزدهرة .

وواضح جدًّا أن اتصال الأدب بالحياة الواقعة ليس معناه أن ينقطع الأديب عن نفسه ، فلا يكتب ولا ينظم إلا فيما يمس هذه الحياة الواقعة . فتصور الاتصال بين الأدب والحياة الواقعة على هذا النحو ضرب من السخف لا غناء فيه ؛ لأن الإنسان ، ولا سيما حين يكون على ما ينبغى أن يكون عليه صاحب الفن من دقة الحس ورقة الشعور وصفاء الطبع واعتدال المزاج ، لا يستطيع أن ينسى نفسه ولا أن يجحد ما يختلف عليها من ألوان الشعور حين يتصل بظواهر الأشياء وحقائقها .

فإغراق الشاعر فى الغناء وإلحاحه فى وصف الجمال مهما يكن مظهره ، ليس معناه انقطاع هذا الشاعر عن الحياة الواقعة واعتزاله فى برجه العاجى ، وإنما معناه أنه لا ينسى نفسه كما أنه لا ينسى غيره ، وأن ذهنه مهيأ لتلقى الانطباعات مهما يكن مصدرها ، ثم لتصوير هذه الانطباعات فيما ينشىء من أثر منظوماً كان هذا الأثر أو منثوراً . فإغراق أبى نواس مثلا فى وصف الخمر وتهالكه على تصوير أهوائه الجامحة ولذاته الآثمة ، ليس معناهما أن أبا نواس قد اعتزل حياة الناس وارتفع أو اتضع بأدبه عن المشاركة فى هذه الحياة ، بل معناه أنه قد آثر نفسه بمقدار قليل أو كثير من إنتاجه الأدبى دون أن ينسى الحياة الواقعة ، وإنما هو يشارك فيها حين يمدح الخلفاء والوزراء والأمراء ، ويشارك فيها حين يهجو ، ويشارك فيها حين يصور الزهد . ومن يدرى ! لعله يشارك فيها أشد المشاركة حين يُغْرق فى وصف الخمر ، وحين يصور الأهواء الجامحة واللذات الآثمة . لأنه لم يكن يعاقر الخمر ولا يقارف الإثم وحده ، وإنما كان فرداً من طبقة

ألفت معاقرة الخمر ومقارفة الإثم . فهو إذن لا يصور نفسه وحدها، وإنما يصور طبقة من معاصريه . وهو من هذه الناحية مشارك فى الحياة الواقعة حين تكون جدًّا وكدًّا ومواجهة للمشكلات ، وحين تكون عبثاً وهزلا ومجونا ومقارفة للموبقات . وهو من هذه الناحية أيضاً مرآة للعصر الذى كان يعيش فيه ، أو مرآة ، إن شئت ، للون من ألوان الحياة فى العصر الذى كان يعيش فيه . ولولا أن الأدباء يشاركون فى الحياة الواقعة بأدبهم لما أمكن أن يلهج مؤرخو الآداب بهذه الجمل التى يلحون علينا بها من أن الأديب صورة لعصره ومرآة لبيئته ومن أن الأدب مصدر من مصادر التاريخ ، إلى آخر هذه العبارات التى لا تدل فى حقيقة الأمر على شىء إلا أن الأدب متصل بالحياة الواقعة مشارك فيها مصور لها ، حافظ بحكم هذا كله لخصائصها التى يمكن أن تنقل من جيل إلى جيل ، وأن تصبح بعد ذلك موضوعاً لدرس التاريخ .

من السخف إذن أن يقال إن أدبنا العربى قد كان معتزلا للحياة الواقعة منفصلا عنها فى تلك العصور . ومع ذلك فقد يمكن أن نلاحظ أن الشعر مثلا قد نأى عن الحياة الواقعة فى بعض عصوره حين غلبت العجمة على الحياة الأدبية ، وحين تسلط المستبدون من غير العرب على حياة الشعوب واستأثروا لأنفسهم وخاصتهم بالسلطان كله ، ولم يشركوا الشعب فى قليل أو كثير من هذا السلطان ، وإنما قدسوا سلطانهم ليقدسوا أنفسهم ، واحتكروا الأمور العامة وحظروا على غيرهم أن يشارك فيها أو يخوض فى ذكرها . هنالك تضاءلت الصلة بين الأدب والحياة الواقعة العامة ، وهنالك عكف الأدباء على أنفسهم وفرغوا لها ، وجعلوا يبدئون ويعيدون فيما ورثوا من معانى القدماء ، لا يجددون شيئاً ؛ لأنهم لم يكونوا يصنعون شيئاً . فرغوا لأدب لا حياة فيه ؛ لأنهم أنفسهم لم يكونوا يحيون ، وإنما كانوا مضطرين إلى لون من الحياة يشبه الموت ، فصوروا حياتهم كما استطاعوا أن يصوروها .

فالأدب العربى قد اتصل بالحياة العامة حين أتاحت الظروف للأدباء أن يشاركوا فى هذه الحياة ، وانفصل عن الحياة العامة حين اقتضت الظروف أن يتنحى الأدباء عن هذه الحياة . وربما كان هنالك مثل يبين ذلك فى غير غموض ولا لبس ، وهو هذا الذى نجده فى القرن الأول حين كان الأدب العربى مزدهراً أشد الازدهار ، وحين كانت الحياة السياسية قوية أعظم القوة ، وحين

اضطر فريق من أبناء المهاجرين والأنصار بحكم السياسة الأموية إلى الفراغ والعكوف على أنفسهم ولذاتهم . هنالك اعتزل عمر بن أبي ربيعة والعرجي وابن أبي عتيق وأمثالهم الشؤون العامة ، ولكنهم لم يعيشوا في بروجهم العاجية ، وإنما عاشوا مع الناس في الحجاز ؛ لأن الحجاز كله قد اضطر إلى اعتزال السياسة وتجنب الشؤون العامة . فكان هؤلاء الأدباء يشاركون في الحياة الواقعة من حولهم ؛ لأن هذه الحياة الواقعة كانت ابتعاداً عن السياسة واعتزالا للشؤون العامة وفراغاً للنفس وتهالكا على اللذات . وهؤلاء الأدباء مع ذلك لم يحتملوا هذه العزلة راضين عنها محبين لها ، وإنما احتملوها على كره منهم وتسلوا عنها بهذا الغزل الرفيع . وهل زاد العرجي على أن صور ألمه وألم أمثاله لهذه العزلة التي فرضت عليهم حين قال :

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسِدَادِ ثغرِ

على أن العرجي وغيره من شعراء الحجاز في ذلك الوقت قد حاولوا الثورة على هذا الاعتزال الذي فرض عليهم ، ولقوا في سبيل هذه الثورة ألوانا من العناء حفظها لنا التاريخ . والأمر لا يحتاج إلا إلى أن نفهم التاريخ على وجهه وإلى أن نقيس حياة القدماء بحياة المحدثين . فهناك مشكلة خطيرة هي التي أنشأت مسألة الاتصال بين الأدب والحياة الواقعة أو الانفصال عنها ، وهي أن حياة القدماء وحياة المحدثين إلى وقت قريب لم تكن تعتمد على الديمقراطية التي تعترف بحق الشعوب في الحرية والعدل والمساواة ، وإنما كانت تحتفظ بهذا الحق لطبقة ممتازة من الناس ، إليها وحدها السلطان ، وإليها وحدها الثقافة ، وإليها وحدها كل ما يكوّن الرجل الحر بالمعنى الدقيق ، فأما كافة الشعب فكانت أداة مسخرة تجدّ وتكد وتشقى لتنعم هذه الطبقة الممتازة بالحكم والسلطان وبالأدب والفن وبالفلسفة والعلم .

فما عسى أن تكون الحياة الواقعة العامة بالقياس إلى الأجيال التي جرت أمورها على هذا النحو : أهي حياة الشعب الذي كان أداة مسخرة ، أم هي حياة السادة الذين كانوا يستغلون هذه الحياة ؟ هذه هي المشكلة التي خيلت إلى كثير من الناس أن الأدب كان معتزلا للحياة العامة . ولكن حقائق الأشياء تدل في غير لبس على أن الأدب لم يعتزل الحياة العامة قط ، وإنما الشعوب هي التي أكرهت

على اعتزال هذه الحياة العامة ونحيت عنها تنحية . فالأدب اليونانى الذى كان ينشأ فى أتينا إنما كان يحفل بحياة المواطنين الأتينيين ، وهؤلاء المواطنون كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى سكان أتينا وما حولها من المدن والقرى . والأدب الذى كان ينشأ فى البصرة والكوفة وبغداد إنما كان ينشأ للذين يستطيعون فهمه وذوقه من هذه الطبقة التى أتيح لها الامتياز ، وهذه الطبقة ضئيلة جداً بالقياس إلى سكان العراق . والأدب الذى كان ينشأ فى باريس وفرساى فى القرن السابع عشر مثلا إنما كان ينشأ لهذه الطبقة القليلة التى كانت تستأثر بالحياة العامة فى القصر وخارج القصر ، وهى قلة ضئيلة بالقياس إلى سكان فرنسا . وما ينبغى أن تطلب إلى الأدب أن يتصل بالذين لايستطيعون فهمه ولا ذوقه ، وإنما ينبغى أن تطلب إلى الدولة أن تهيء الشعب للمشاركة فى الحياة العامة أولاً ولفهم الأدب وذوقه ثانياً ، ثم تلوم الأدب بعد ذلك إن اعتزل الحياة العامة ، وترفّع عن الاتصال بالشعوب . وقد طلب الأدب نفسه إلى أوربا فى القرن الثامن عشر تهيئة الشعب للمشاركة فى الحياة العامة ، والارتفاع به عن الغفلة والجهل والبؤس ، وجاهد فى ذلك حتى بلغت الشعوب منه ما أرادت فى القرن الماضى وفى هذا القرن ، واتصل الأدب بالشعب ما وجد إلى الاتصال به سبيلا . وبقيت هنا وهناك قلة ضئيلة جداً من الأدباء لم تفطن لما حدث حولها من التطور ، أو لم ترد أن تفطن لهذا التطور ، فظلت محافظة معتزلة متجافية عن الحياة الشعبية ، ولكنها لم تستطع أن تحتفظ بعزلتها وتجافيها ، أبت أن تهبط إلى الشعب فارتقى الشعب إليها ؛ لأن الشعب إذا أخذ فى الثقافة لم يقنع منها بالقليل .

وهذه المشكلة التى عرضت لأوربا وأثارت فيها هذا الخلاف ، قد عرضت لنا نحن وأثارت عندنا هذا الخلاف فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ؛ فقد أدركتنا الحياة الحديثة ونحن على ما كان عليه الناس قبل الثورة الفرنسية : طبقة ضئيلة تستأثر بالحياة العامة فتنعم بالسلطان والثقافة وما يلائمها من الأدب ، وشعب مسخر لخدمة هذه الطبقة الضئيلة ، لاحظ له من سلطان ، ولا من ثقافة ، ولا من أدب . فى ذلك الوقت كانت الصلة منقطعة أو كالمنقطعة بين الأدب والشعب . ولكن التطور الحديث لم يلبث أن نبه الشعب إلى حقه ، وأن يتخذ الأدباء أنفسهم وسيلة لهذا التنبيه ، وإذا هم يتجاوزون الطبقة الممتازة إلى الطبقات المسخرة ، وإذا هم يخرجون من تلك العزلة أو قل يوسعون الميدان

الذى كانوا يعيشون فيه ؛ ليستطيع أن يتلقى أفواجاً من الشعب تستمع لهذا الأدب الذى كان يلقى من وراء ستار . فاصبح يُلـْقى فى الهواء الطلق ، تسمع له الجماهير وتنشره الصحف ويسعى إلى القادرين على فهمه وذوقه فى الأقطار البعيدة من الأرض . وربما كان شوقى وحافظ رحمهما الله آية بينة على هـذا التطور ؛ فقد كان شعر شوقى ينشد فى القصور ، وكان شعر حافظ ينشد فى دور الأغنياء وأصحاب الجاه . ثم لم يكد القرن يتقدم حتى أصبح شعر شوقى وحافظ ينشد فى الملاعب وينشر فى الصحف ، وحتى ذاعت دواوين شوقى وحافظ ، فتجاوزت طبقة السادة ، ووصلت إلى أيدى قوم لم يكن لهم من أمور الحكم والسلطان شئ . ثم كانت الحرب العالمية الأولى والثورة المصرية ، وإذا الحواجز تلغى بين الطبقات ، وإذا الشعب يقتحم هذه الحواجز اقتحاماً ، وإذا الأدباء الذين كانوا يترفعون عن الشعب قد أصبحوا ألسنة لهذا الشعب يعبرون عن نفسه أكثر مما يعبرون عن أنفسهم ، ويصورون حياته أكثر مما يصورون حياة أنفسهم . وقد عرفنا حياة الأحزاب السياسية ، وانقسم المصريون بين هذه الأحزاب ؛ فعدنا إلى حياة العرب فى القرن الأول من جهة : أحزاب سياسية لها أدباؤها وشعراؤها ، ووثبنا إلى الحياة الأوربية الحديثة من جهة أخرى : أحزاب سياسية لها أدباؤها وشعراؤها كذلك . وحقق أدبنا العربى الحديث هذه الصلة الرائعة بين حياتنا القديمة وبين الحياة الأوربية الحديثة ، واستؤنف الاتصال بين الأدب العربى وبين الشعب وحياته الواقعة العامة . فأصبح الأدباء مرآة للشعب حقًّا ينطقون بلسانه ويصورون آلامه وآماله . وقد حاول أديب أو أديبان الارتفاع بالأدب عن الشعب والاعتزال فى البروج العاجية ، فلم تظفر هذه المحاولة إلا بالإخفاق الفاحش الشنيع .

وكذلك اتصل التاريخ وأصبحت الحياة الحديثة صورة مقاربة للحياة القديمة على ما بينهما من الفروق الهائلة . فأدبنا الحديث متصل بحياتنا الواقعة ، كما كان أدبنا القديم متصلا بالحيـاة القديمة الواقعة . والفرق بين الأدبين عظيم ؛ لأن الفرق بين الحياتين عظيم أيضاً . حياتنا الواقعة شعبية أو تريد أن تكون شعبية لا يستأثر بها فريق من الناس دون فريق ، وأدبنا الحديث شعبى أو يريد أن يكون شعبيًّا لا ينشئه قوم ممتازون لقوم ممتازين . والحياة الواقعة القديمة أرستقراطية قد استتبعت أدباً يشبهها . ومن هنا نلاحظ هـذه الظاهرة

الطريفة ظاهرة الأدب المزدوج فى الحيـاة الواقعة القديمة ، والأدب الفرد فى حياتنا الحديثة : فى الحياة الواقعة القديمة أهمل الشعب فعاش عيشته الخاصة ، وأنشأ أدبه الخاص ، فشاع كتاب ألف ليلة وليلة ، وما يشبهه من الأدب الشعبي. وفى حياتنا الحديثة عظم أمر الشعب وأصبح كل شيء ، فعُنى به الأدباء ، ولم يحتج إلى أدب شعبي خاص ، وإنما اكتفى بهذا الأدب الرفيع الذى كان ينظر إليه من بعيد فأصبح الآن يذوقه ، ويتخذه غذاء للعقول والقلوب .

هذه هى قصة الاتصال والانفصال بين الأدب والحياة الواقعة ، تظهر خطيرة كل الخطورة حين ننظر إليها نظراً سـطحيًّا ، فإذا تعمقناها وبلونا حقائقها ، رأيناها يسيرة قريبة تنحل إلى شيء يسير قريب ، وهو أن الأدب متصل دائماً بالحياة الواقعة . فإذا أصبحت هذه الحياة الواقعة شعبية ، فليس للأدب بد من أن يكون شعبيًّا أيضاً . وهذا هو الذى تتجه إليه حياة الآداب ؛ لأن هذا هو الذى تتجه إليه حياة الشعوب .

طه حسين

حق الاعتراض

فى هيئة الأمم المتـــحدة

ألفت لجنة من الخبراء الفقهاء لبحث مدى تطبيق حق الاعتراض droit de veto فى هيئة الأمم المتحدة ، وقد استعمله الاتحاد السوفيتى واستعملته المملكة المتحدة صراحة ، وتساءل المتسائلون هل كان انسحاب المندوب السوفيتى من مجلس الأمن كلما جاءت مسألة إيران بعد اليوم السادس من شهر مايو الذى أعلن فيه أن القوات الروسية قد تم انسحابها من تلك البلاد مظهراً من مظاهر ذلك الحق ؟ كما ذكر الذاكرون اقتراحا للمندوب السوفيتى ذاته بالنزول عن حق الاعتراض فى لجنة « الطاقة الذرية » إذا نزل عنه مندوبو سائر الدول المتمتعة به .

وحق الاعتراض هو الحق المقرر للخمس الدول صاحبات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن — وهن المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين وفرنسا — فى الوقوف من بعض القرارات موقفاً يبطلها ويجعلها كأن لم تصدر أصلا .

وقد قررت ذلك الحق الفقرة الثالثة من المادة السابعة والعشرين من ميثاق الأمم المتـــحدة ؛ إذ نصت على أن قرارات مجلس الأمن « تصدر بموافقة أصوات سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . ويرجع هذا النص إلى قرار من القرارات التى كان الأقطاب الثلاثة ، روزفلت وتشرشل وستالن ، قد اتخذوها فى مؤتمر يالطا وجعلوه واحـداً من الأسس التى يستمسكون بها فى مؤتمر سان فرنسيسكو . وكانت الحـكمة التى استندوا إليها فى اتخاذهم ذلك القرار أن دولهم — ومعها فرنسا والصين — هى التى احتملت العبء الأكبر فى الحرب ، وهى بحـكم قواتها ومعداتها التى ستحتمل أكبر العبء لا فى حالة قيام حرب جديدة فحسب ، بل فى حالات القسر

الذى يفرض على الدول المهددة لسلام العالم وأمنه منعاً للحرب العامة أو حصراً لويلاتها فى حدود ضيقة ؛ ولذلك فقد وجب أن يكون لها ذلك الحق الذى يتمشى مع ثقل تلك الأعباء .

ولقد قابلت الدول المتوسطة والصغيرة حق الاعتراض المقرر على هذا الوجه بعظيم المقاومة وشديد الاحتجاج أثناء المناقشات التى دارت حوله فى مؤتمر سان فرنسيسكو ، إذ اعتبرته ناقضاً لمبدأ المساواة بين الأمم كبيرها وصغيرها المقرر فى ديباجة الميثاق ، والمقول إنه المبدأ الأصيل الذى يقوم عليه النظام العالمى الجديد . وكان لمصر فى هذا الصدد موقف بل أكثر من موقف . والحق أن انجلترا والولايات المتحدة كانتا فى وقت من أوقات المناقشة فى سان فرنسيسكو قد أظهرتا من اللين ما بدا معه الأمل فى إلغاء ذلك الحق ، لكن تشدد الاتحاد السوفيتى وتأييد فرنسا لهذا التشدد قطعا حبل ذلك الأمل .

وعندما عرضت أحكام التصويت على اللجنة المختصة فى مؤتمر سان فرنسيسكو احتدم الخلاف فى شأنها على وجه لم يسبق له مثيل ، وهوجمت امتيازات الدول العظمى من جانب الدول الأخرى على أساس أن حق الاعتراض المخول لها لا وجه له ، وخاصة بالنسبة للقرارات الصادرة فى مرحلة الحل السلمى للمنازعات . وخشى فى هذا الشأن أن يؤدى استعمال هذا الحق إلى عجز المجلس عن السيطرة على النزاع ، فيفلت زمامه من يده ، ويتخذ مجراه خارج دائرته .

واقترحت مصر أن يعاد النظر فى أحكام التصويت ، فتصدر جميع القرارات سواء كانت متعلقة بالإجراءات أو بالمسائل الموضوعية بأكثرية ثمانية أصوات على أساس رفع عدد الأعضاء إلى أربعة عشر . ويكفى أن تصدر القرارات فى المسائل الموضوعية بأغلبية ثمانية أصوات وموافقة أربع من الدول العظمى الخمس متى لم تكن إحدى هذه الدول طرفا فى النزاع الذى يتعلق به قرار المجلس ، فإذا كان القرار صادراً بالقيام بعمل من أعمال القسر ، فللدولة العظمى التى لم توافق على هذا القرار أن تمتنع عن الاشتراك فى هذه الأعمال ، ولكن يقع عليها ألا تقدم أى عون للدولة التى تتخذ هذه الأعمال ضدها .

على أن الدول العظمى تمسكت بالصيغة التى أقرت فى مؤتمر يالطا ، ولم تجد اعتراضات الدول الصغرى ، فلم تقبل الدول العظمى أى تعديل فيها .

وفى أثناء المناقشة فى مسألة التصويت تقدمت الدول الصغرى باستفسارات

هتى فى شأن تطبيق أحكام التصويت ، وأحيلت المسألة إلى لجنة فرعية نظراً لما أثير من شكوك فى مدى هذا التطبيق ونطاقه ، وخاصة بعد أن أبدت المملكة المتحدة تفسيرات ثبت فى المراحل اللاحقة أنها تتجاوز ما اتفقت عليه الدول العظمى فى النهاية . وتقرر أن تعد تلك اللجنة قائمة بهذه الاستفسارات تقدم إلى الدول العظمى فى صورة أسئلة يطلب منها الرد عليها بجواب مشترك . وشكلت هذه اللجنة من أحد عشر عضواً ، ومثلت فيها الدول العظمى جميعاً وأستراليا وكوبا ومصر واليونان وهولندا وسلفادور . واشتملت قائمة الأسئلة على اثنتين وعشرين مسألة مختلفة أريد الاستفسار عن استعمال حق الاعتراض فى كل منها . ووعدت الدول الداعية إلى مؤتمر سان فرنسيسكو بإعداد تصريح مشترك منها ومن فرنسا .

وفى أثناء إعداد هذا التصريح — على حد ماورد فى تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولى الصادر فى سنة ١٩٤٥ والذى نستقى منه المعلومات المتصلة بتطور حق الاعتراض فى اجتماعات ذلك المؤتمر ولجانه — ثار الخلاف فى إحدى المسائل بين الدول الداعية نفسها . فمع أن هذه الدول لم تختلف فى أى وقت على ضرورة الأخذ بإجماع الدول العظمى عند إصدار قرارات المجلس فى مرحلة حل المنازعات حلا سلمياً فقد أثيرت مسألة حق دولة من الدول ذوات المركز الدائم فى منع نظر المجلس فى نزاع ليست طرفاً فيه وفى منع المناقشة بشأنه . واختلف الرأى بين هذه الدول فى تفسير صيغة يالطا ، وهل هى تجيز لمثل هذه الدولة هذا الحق أو لاتجيز . وقد سبق أن أصدرت وزارة الخارجية الأميريكية فى الفترة الفاصلة بين مؤتمر يالطا ومؤتمر سان فرنسيسكو تصريحا رسميا يتضمن تفسيراً لأحكام التصويت المتفق عليها فى يالطا على وجه يقضى بأن لاحق لمثل هذه الدولة فى منع المجلس من النظر فى مثل هذا النزاع ومن المناقشة فيه . ولم يخرج موقف الولايات المتحدة فى المؤتمر عن حدود هذا التصريح ، بل انضمت إليها فى هذا التفسير المملكة المتحدة والصين وفرنسا . أما الاتحاد السوفيتى فقد أبدى عند إعداد التصريح المشترك أن النظر فى أى نزاع فى مجلس الأمن والمناقشة فيه إنما يعتبر كل منهما مسألة تتعلق بالموضوع لا بالإجراءات ، وبهذا تنطبق عليهما الأحكام التى تنطبق على بقية المسائل الموضوعية كأعمال القسر وتدبير الحلول السلمية للمنازعات . وأصرت

الدول الداعيـة الأخرى على ضرورة تأكيد حق النظر والمناقشة فى أى موقف يعرض أمره على مجلس الأمن ، فيجرى هذا النظر وتلك المناقشة قبل أن تستعمل إحدى الدول ذوات المركز الدائم حقها فى منع المجلس من الانصراف إلى اتخاذ التدابير اللاحقة المفروض اتخاذها فى شأن النزاع .

وانتهى الخلاف بين الدول الكبرى بعدول الاتحاد السوفيتى عن وجهة نظره الأولى . وقد استغرق حل الخلاف وإعداد التصريح المشترك ثلاثة أسابيع تبين للجنة الفرعية بعد انقضائها أن هذا التصريح لم يتضمن الإجابة على جميع الأسئلة، فحاولت الحصول على زيادة فى الإيضاح . وإذ يئست من الحصول عليها أحيلت المسألة إلى اللجنة الفنية . وقد وجدت هـذه اللجنة نفسها مضطرة إلى قبول التصريح بالحالة التى أعلن بها .

« على أن الدول العظمى أكدت أثناء المناقشـة أنها فى استعمال حقوقها فى التصويت سيحدوها دائمـاً الإحساس بتبعاتها نحو الدول الصغرى ، وإنها لن تستعمل حق الاعتراض إلا فى أضيق حدوده . »

ومعنى كل هذا الذى أوردنا أن وجهات النـظر إلى حق الاعتراض لا تزال مختلفة ، إذ لم تصل اللجان ولم يصل المؤتمر إلى توحيدها ، وهذا الاختلاف الباقى هو الذى دعا إلى تأليف لجنة الخبراء وتكليفها بحث مدى تطبيق ذلك الحق .

على أن النصوص الواردة فى ميثاق الأمم المتحدة لا تجعل من حق الاعتراض المقرر للخمس الدول صاحبات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن حقـاً مطلقاً .

ويجب التمييز بادئ ذى بدء بين التصويت فى الجمعية العامة والتصويت فى مجلس الأمن . أما التصويت فى الجمعية العامة فيقوم على مبدأ المساواة بين الأصوات جميعاً ، وتصدر القرارات فيها بأغلبية الثلثين فيما سمتها الفقرة الثانية من المـادة الثالثة عشرة « المسائل الهامة » ، وبالـكثرة المطلقة للأعضاء الحاضرين على حد ماوردت به الفقرة الثالثة من المـادة المذكورة ، لـكن دون أى اشتراط خاص بأصوات الدول العظمى وضرورة وجودها بين الـكثرة المقررة .

أما مجلس الأمن فقد تولت المـادة السابعة والعشرون من الميثاق مسألة التصويت فيه فميزت بين المسـائل « الإجرائية » والمسائل « الأخرى » .

واشترطت للمسائل الإجرائية أن « تصدر القرارات فيها بموافقة سبعة من أعضاء المجلس » دون تمييز بين أصحاب المقاعد الدائمة فيه وأصحاب المقاعد الموقوتة ، ونصت بالنسبة للمسائل الأخرى كافة على أن تصدر القرارات فيها « بموافقة سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . ولكنها استثنت من هذه المسائل الموضوعية الأمور الخاصة بحل المنازعات حلاً سلمياً ، وهى أقرب إلى محاولات التوفيق منها إلى اتخاذ الخطط ، وقضت بالنسبة لها بأن « يمتنع عن التصويت من يكون طرفاً فى النزاع » وإن كان واحداً من الأعضاء الدائمين أنفسهم .

أما فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى وفى مجلس الوصاية ، فلا امتياز لصوت من أصوات الأعضاء على صوت سواء أكان صاحبه من أصحاب المقاعد الدائمة أم لم يكن .

وإذن فلا يستعمل حق الاعتراض إلا فى المسائل غير الإجرائية التى تعرض على مجلس الأمن وحده ولا يكون صاحب الحق طرفاً فيها ، وهو إذا كان طرفاً فإنه لا يستعمل هذا الحق فقط بل إنه لا يشترك فى التصويت أصلا .

أما الانسحاب من المجلس — وهو الذى تكرر صدوره عن المندوب السوفيتى فى اجتماعات نيويورك — فلا يمكن اعتباره مظهراً من مظاهر حق الاعتراض أصلا ؛ إذ يجب إعلان الاعتراض صريحاً حتى يكون هناك اعتراض . وقد جرى العرف فى لندن على هذه الوتيرة ، فجرت المناقشات فى المسألة الإيرانية وفى المسألة اليونانية والأندونيسية وجرت قدما ، وعرضت فى بعضها اقتراحات بقرارات ، فأعلن مندوب روسيا فى واحدة ، وأعلن مندوب بريتانيا العظمى فى ثانية أنه لن يوافق على قرار مستند إلى ما تقدم من اقتراح . فعرض المجلس إلى الاقتراحات أخرى تقدم أصحابها بها بعد التهديد بالاعتراض ، ووصل فيها إلى تسوية أو لم يصل ، فاعترض المندوب الروسى أو البريتانى ، وحال اعتراضه الصريح دون صدور القرار .

نعم إن عدم حضور مندوب إحدى الدول صاحبات المقاعد الدائمة يجعل حكم الفقرة الثالثة من المادة السابعة والعشرين غير قابل للتطبيق ؛ وهى تنص على أن القرارات تصدر « بموافقة سبعة أصوات يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . وفى غياب واحد منهم لا تكون هناك « أصواتهم »

ولاتكون أصواتهم «متفقة» ؛ وهذه هى المسألة الجدية التى تعرض على الخبراء. وهى المسأله الغامضة فى نظرنا بين سائر المســائل المتبينة خلال مواد الميثاق.

على أن الخبراء سيعرضون حتما لتلك القائمة من المسائل التى كانت قد أعدت فى اللجنة الفرعية التى ألفها مؤتمر سان فرنسيسكو، ولم تحظ «بزيادة الإيضاح» الذى كانت تتلمسه فى صدد موضوع التصويت وحق الاعتراض. ولعلهم يعرضون فى الوقت ذاته لمبدأ الاعتراض الذى تقوم القيامة من كل ناحية فى وجهه ؛ لاعتدائه على مبدأ المساواة التى يستند إليها الميثاق، وتستند إليها هيئة الأمم المتحدة والاتجاهات الدولية الجديدة كلها. ولعلهم إذ يعرضون له يوصون بإلغائه ولا سيما بعد ما بدا من جانب المندوب السوفيتى فى لجنة الطاقة الذرية استعداده للنزول عنه إذا نزل الآخرون.

محمود عزمى

جرائم الحرب

ومحاكمات نورنبرج

تجرى منذ أشهر فى مدينة نورنبرج الألمانية القديمة محاكمة الفريق الأول من مجرمى الحرب الألمان . وقد اختيرت نورنبرج لإجراء هذه المحاكمة لأسباب أدبية ، منها أنها كانت معقلا من أهم معاقل النازية ، وفيها عقد المؤتمر النازى الكبير سنة ١٩٣٥ وصدرت فيه قوانين نورنبرج الشهيرة لحماية الجنس الآرى وإقصاء الجنس اليهودى نهائيا عن حظيرة الأمة الألمانية . وهى الآن تشهد خاتمة المأساة النازية ودمغ زعمائها الأكابر بطابع الجريمة ، وربما شهدت غدا رءوس بعضهم تسقط فى ساحاتها تنفيذا لحكم المحكمة الدولية .

وهذه المحاكمة هى الأولى من نوعها فى ميدان القانون الدولى ، وقد سنت من أجلها أصول ومبادئ جديدة لم يعرفها القضاء الجنائى الدولى من قبل ، وصيغت أنواع جديدة من الجرائم الدولية لم يكن يسوغها العرف الدولى ، فغدت بذلك مستقى لطائفة من القواعد والسوابق التى تتصل أشد الاتصال بجرائم الحرب وتحديد تبعاتها ومعاقبة المسئولين عنها .

على أننا نستطيع أن نعتبر محاكمة نورنبرج ، بالرغم من كونها الأولى من نوعها ، مرحلة جديدة لمحاولة قديمة . ذلك أن مسألة جرائم الحرب ومعاقبة المسئولين عنها مسألة قديمة ترجع إلى الحرب الكبرى ، وقد كان الألمان فى الحرب الكبرى كما كانوا فى الحرب العالمية الثانية هدف الاتهام . ولم تدخر ألمانيا الإمبراطورية يومئذ ، شأنها فى الحرب المنقضية ، أية وسيلة من وسائل السفك المروع أو التدمير الشامل إلا استعملتها ضد أعدائها : فمن حرب الغواصات ، إلى استعمال الغازات الخانقة لأول مرة ، إلى قتل الرهائن والأسرى والفتك بالمدنيين بمختلف الوسائل والصور . ومن ثم فقد فكرت الدول المتحالفة يومئذ فى أن تحمل زعماء ألمانيا الإمبراطورية تبعة هذه الجرائم ، وأن تسعى إلى

معاقبتهم باعتبارهم « مجرمى حرب » يسئلون عما اقْتُرِف بأوامرهم من جرائم أو أعمال اعتبرت منافية لقوانين الحرب .

وجاءت معاهدة ڤرساى تحققت للحلفاء الظافرين ، وفى مقدمتهم انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ما أرادوا من النص على مسئولية مجرمى الحرب ووجوب محاكمتهم ومعاقبتهم على ما اقترفوا من جرائم . وأفردت المعاهدة لهذه المسألة قسما خاصا هو القسم السابع (المتعلق بالعقوبات) ويشتمل على أربع مواد ، من المادة ٢٢٧ — ٢٣٠ وقد نص فيها على اعتبار إمبراطور ألمانيا ولهلم الثانى « مرتكبا لجريمة عليا ضد المبادئ الأخلاقية الدولية ، وضد حرمة المعاهدات المقدسة » ، وعلى أن تنشأ لمحاكمته محكمة خاصة من قضاة يمثلون الدول المتحالفة تسترشد فى حكمها بالمبادئ والعهود الدولية والمبادئ الأخلاقية الدولية ، وتوقع على المتهم نوع العقاب الذى ترى تطبيقه ، كما نص على اعتراف الحكومة الألمانية للدول المتحالفة بحق إحالة الأشخاص الذين ارتكبوا أعمالاً تنافى قوانين الحرب وتقاليدها إلى محاكم عسكرية لمحاكمتهم ومعاقبتهم ، وعلى أن تقدم الحكومة الألمانية إلى الحلفاء جميع الأشخاص الذين ارتكبوا مثل هذه الأعمال ، وأن تقدم جميع الوثائق والمعلومات اللازمة لإثبات الجرائم المنسوبة إلى المتهمين والبحث عن المجرمين وتقدير التبعات .

ولكن نصوص معاهدة ڤرساى فى هذا الشأن لم يكتب لها التنفيذ العملى ؛ فقد عجز الحلفاء عن وضع يدهم على إمبراطور ألمانيا السابق ؛ إذ لجأ إلى هولندة وأبت هولندة تسليمه تمسكا منها بحق إيواء اللاجئين السياسيين ، ولأن ألمانيا لم تسلم أحد أبنائها الذين أريدت محاكمتهم ومعاقبتهم على ما ارتكبوا خلال الحرب من أعمال اعتبرها الحلفاء جرائم يجب العقاب عليها . وساعد ألمانيا على سلوك هذه الخطة تفرق كلمة الدول الظافرة ، ولا سيما انجلترا وفرنسا ، وانسحاب أمريكا قبل بعيد من ميدان الشؤون الأوربية .

وقد دار التاريخ دورته ، وعادت مسألة مجرمى الحرب لتتخذ فى الحرب العالمية الثانية أهمية خاصة ، وذلك نظراً لفداحة الأعمال الإجرامية التى ارتكبها الحزب النازى ، وما أنزلته القيادة الألمانية بالبلاد المفتوحة من ضروب التدمير والسفك التى لم يسمع بها . وأبدت الدول المتحالفة ، أو الأمم المتحدة ، منتهى الإصرار

والعزم على وجوب القبض على مجرمى الحرب الألمان ومحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم . وظهر هذا الإصرار فى صورة قرارات اتخذتها الدول المتحالفة الكبرى . أولا وقبيل هزيمة ألمانيا فى مؤتمر القرم فى فبراير سنة ١٩٤٥ حيث نص ضمن قراراته على وجوب معاقبة مجرمى الحرب الألمان عما ارتكبوا من جرائم . وثانياً فى وثيقة النصر الأولى التى تضمنت شروط التسليم التى فرضت على ألمانيا (٥ يونيه سنة ١٩٤٥) وفيها نص على وجوب تسليم جميع زعماء الحزب النازى وغيرهم ممن تعلق به ريبة الإجرام النازى . وثالثاً فى مؤتمر بوتسدام (يوليه — أغسطس سنة ١٩٤٥) حيث تضمنت قراراته نصاً جديداً فى هذا الشأن .

وأنشأت الدول المتحدة الكبرى — بريطانيا وروسيا وأمريكا — لجنة مشتركة للنظر فى جرائم الحرب ، ووضع الأصول والإجراءات التى يجب اتباعها فى محاكمة المسئولين عنها . وثارت فى البداية بعض صعاب قانونية دولية حول مركز رئيسى دولتى المحور ، أعنى هتلر وموسولينى ، وهل يحاكم كل منهما أمام محكمة خاصة أم يعاقب بمقتضى قرار سياسى على نحو ما اتبع فى شأن نابوليون بونابرت ، وهو المثل الوحيد من نوعه الذى يقدمه لنا التاريخ فى هذا الباب . ولكن سرعان ما حسمت هذه الصعاب بمصرع الرجلين واختفائهما من الميدان إلى الأبد ، وفيما عدا ذلك فقد استقر رأى اللجنة على أن يقدم إلى المحاكمة سائر الزعماء والقواد والساسة الذين تلحقهم التبعة مهما كانت أشخاصهم ومراكزهم .

وقد أنشئت « المحكمة الدولية العسكرية » أو المحكمة العليا لجرائم الحرب بمقتضى اتفاق عقد فى أغسطس سنة ١٩٤٥ بين بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا وفرنسا ، ووصف الغرض من إنشائها بأنه « إقامة الدعوى العمومية على كبار مجرمى الحرب من دول المحور الأوربى ومعاقبتهم » . ونص على أنها تختص بمحاكمة مجرمى الحرب الذين لا تتصل جرائمهم بمحيط جغرافى معين ، ويشمل هؤلاء بنوع خاص أكابر مجرمى الحرب . أما المجرمون الأصاغر فسيحاكمون فى البلاد التى ارتكبوا فيها جرائمهم . وجعل مقرها الدائم فى برلين ، وهى تعقد الآن أولى محاكماتها فى نورنبرج بصفة مؤقتة للبواعث الأدبية التى أشرنا إليها .

ويلحق بهذا الاتفاق دستور للمحكمة مكون من ثلاثين مادة ، يتناول إنشاءها واختصاصاتها وسلطاتها والإجراءات التى يتعين اتباعها فى التحقيق وفى إقامة الدعوى العمومية . وبالرغم من أن المحكمة قد وصفت بأنها « دولية عسكرية » فإنها تتألف من أربعة قضاة فنيين ينتمون إلى الدول الأربع ، ويتولى رآستها اللورد لورنس أحد أعضاء محكمة الاستئناف الإنجليزية ، ويقوم بمهمة الاتهام فيها أيضاً نفر من القضاة وأعضاء النيابة غير العسكريين .

ويؤلف دستور المحكمة من مزيج من الأصول الإنجليزية والأمريكية وأصول القارة ، سواء فيما يتعلق بالاتهام أو النفى والسماح للمتهمين بالاستعانة بالدفاع (المحامين) وتوجيه الأسئلة ، وأن يتقدموا بأى دليل للدفاع عن أنفسهم . بيد أن المحكمة منحت فيما يتعلق بالإثبات حرية العدول عن قواعد الإثبات الفنية ، ولها أن تنتفع إلى أقصى الحدود بالإجراءات والوسائل غير الفنية ، كما أن لها أن تقبل أى دليل ترى له قيمة مرجحة .

وكما عنى دستور المحكمة بالناحية الشكلية أو ناحية الإجراءات ، فقد عنى فى الوقت نفسه بالناحية الموضوعية ، وذلك بتعريف الأعمال التى يمكن أن تعتبر جرائم حرب وتدخل فى اختصاص المحكمة ويمكن أن تلحق تبعتها الأفراد العاديين ، وذلك على النحو الآتى :

أولا — التآمر والاتفاق الجنائى على ارتكاب أو على ما يتضمن ارتكاب جرائم ضد السلم أو جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية .

ثانياً — جرائم ضد السلم . وتشمل تدبير أو تحضير أو شهر حرب اعتدائية أو حرب يترتب عليها انتهاك المعاهدات الدولية أو الاتفاقات أو التأكيدات أو الاشتراك فى تدبير عام أو مؤامرة ترمى إلى إضرام مثل هذه الحرب .

ثالثاً — جرائم حرب . وتشمل كل الأعمال التى يترتب عليها انتهاك قوانين الحرب أو تقاليدها .

رابعاً — جرائم ضد الإنسانية . وتشمل جرائم القتل والإبادة والاسترقاق والنفى وغيرها من الأعمال غير الإنسانية ، والتى ترتكب ضد السكان المدنيين سواء قبل الحرب أو أثناءها .

وعلى ذلك فقد اعتبرت المحكمة الدولية العسكرية هيئة قضائية لها أصول وقواعد خاصة تسير عليها بمقتضاها ، وعليها وفقاً لدستورها أن تقدر إدانة

المتهمين وبراءتهم وفقاً للأصول والقواعد الموضوعة ، لا وفقاً لتقديرها الخاص ؛ كما أن عليها أن تدعم الحكم الذى تصدره فى حق أى متهم — بالإدانة كان ذلك الحكم أو البراءة — بالأسباب التى تستند إليها . ويتعين بمقتضى ذلك أنه إذا ثبت أن أحد المتهمين لم يرتكب جريمة من الجرائم التى عددها دستور المحكمة ، فإنه يجب الحكم ببراءته .

وقد وجهت إلى المحكمة الدولية العسكرية وإلى دستورها طائفة من الملاحظات والمطاعن الهامة، تتلخص فى كيفية تأليفها ، وفى شرعية دستورها ، وفى كونه يعتبر ذا أثر رجعى سواء من حيث التطبيق أو نوع الجرائم التى نص عليها .

فأما عن تأليف المحكمة ، فقد قيل إنها تتألف من قضاة من الأمم المتحدة الظافرة ، وإن تأليفها على هذا النحو لمحاكمة أبناء الأمة المهزومة لا يتوافر فيه ما يجب لتحقيق العدالة من النزاهة ، والبعد عن التأثر بالعواطف والميول الشخصية ، وإنه كان خيراً لو أنها ألفت من قضاة محايدين لا تحدوهم مثل هذه المؤثرات . ويردون على ذلك بأن المحكمة تؤلف من خيرة القضاة ، وأن لها دستوراً خاصًّا لاتستطيع الخروج عليه ، وأنها تجرى محاكماتها فى علانية تامة ، وهذا فى ذاته ضمان لرقابة الرأى العام الدولى على إجراءاتها ، وأنه ليس من المحتوم فى جرائم الحرب أن يتولى أمرها قضاة محايدون ، وإلا كان من المتعذر أن تقدم قضايا التجسس والتخريب أمام القضاء الوطنى لدولة ما .

وأما عن شرعية دستورها ، فقد قيل إنه فضلا عن كونه قد وضع على يد مشترعى الأمم الظافرة ، فإنه يتضمن من الناحية الموضوعية النص على جرائم لم يعرفها القانون الدولى من قبل ، ولم تصطلح الأمم على اعتبار مثل هذه الأعمال جرائم حرب يعاقب عليها . . . كما يتضمن النص على تبعات لم يصطلح من قبل على التسليم بها . وهذا ما حاولت هيئة الدفاع عن المتهمين أن تثيره فى بداية المحاكمة .

ويردون على ذلك بأنه قد يكون حقًّا أن هذه الجرائم مستحدثة فى القانون الدولى ، ولكنها على أى حال يمكن أن ترجع إلى بعض أصوله . فأما تهمة التآمر على السلم ، وهى التهمة العامة التى تنضوى تحتها سائر التهم الأخرى ، فلا شك أنها

تقوم على أسس ثابتة . وقد كانت نيات الحزب النازى نحو انتهاك السلم تتطور بتطور الحوادث وازدياد مقدرته على تنفيذ تهديداته بالقوة القاهرة ، وكان الغرض وهو غزو الأمم وضم الأراضى ، والوسيلة وهى شهر الحرب بأروع الأساليب والصور ، يتحدان معاً ليسبغا على المؤامرة لوناً إجراميا لا شك فيه .

وكذلك التهم المتعلقة بارتكاب جرائم ضد السلم ، وهى تتلخص فى تدبير وشهر الحرب الاعتدائية وانتهاك المعاهدات والاتفاقات الدولية ، فهذه ليست بعيدة عن روح الأصول الدولية . ذلك لأن الحرب الاعتدائية قد اعتبرت عملا خارجاً على القانون بمقتضى ميثاق كلوج . وإذا لم تكن قد سُنَّت لارتكابها عقوبة معينة ، فإن كثيراً من مبادئ القانون الدولى لم تسن لها فى حالة المخالفة عقوبات معينة . وهذا الاتجاه إلى اعتبار الحرب الاعتدائية جريمة دولية يقوى ويشتد منذ الحرب العالمية الأولى ، وهو يجد صداه اليوم بصورة عملية فى دستور المحكمة العسكرية الدولية . وهكذا تصبح الحرب الاعتدائية بالفعل جريمة دولية يجب أن يلقى الذين يدبرونها جزاءهم .

وأما عن التهم الخاصة بجرائم الحرب فقد اعتبرت الحرب الإجماعية ، بما تنطوى عليه من وسائل مثيرة فى القتال واحتلال الأمم المسالمة ، مخالفة لقوانين الحرب وعرفها ؛ وعلى ذلك فلا بأس من أن يقرر العقاب على جرائم دبرت ونفذت بشناعة باعتبارها جزءاً من السياسة العسكرية العامة .

ويمكن أن يقال مثل ذلك بالنسبة للنوع الرابع من الجرائم التى تقررت المحاكمة عنها ، وهى الجرائم التى ارتكبت ضد الإنسانية . نعم إن القانون الدولى لا يعنى بالأمور الداخلية لبلد ما ، ولكن الصورة التى ارتكبت بها هذه الجرائم فى ألمانيا النازية من إبادة الجماعات ، وقتل وتعذيب الألوف من الأبرياء فى معسكرات الاعتقال وغير ذلك مما يجعل أثرها يتعدى إلى الجماعة الدولية سواء من الناحية المادية أو الناحية الأدبية . وبذلك تغدو ذات لون دولى .

هذا ، وأما عن الاعتراض القانونى المتعلق بكون هذه الأعمال والجرائم قد وقعت قبل سن المبادئ والنصوص الجنائية التى تعاقب عليها ، وكونها تغدو بذلك ذات أثر رجعى وهو ماينافى أصول التشريع الجنائى ، فإنه يصعب علينا أن نجد حقيقة ما يدحضه من الناحية الفقهية . ولكن قيل فى ذلك إن هذه

الأعمال والجرائم كانت من الروعة والشناعة بحيث يستحيل أن نجد لها أى مسوّغ ، وإن التمسك فى مثل هذه الحالة بأصول التشريع التى وضعت فى الأصل لتحقيق العدالة يقضى بالعكس إلى إهدار العدالة فى مثل هذه الظروف الخاصة .

تلك هى النواحى الفقهية التى يمكن أن تثيرها محاكمات نورنبرج . على أن لهذه المحاكمات نواحى أدبية ونفسية وسياسية لا يمكن إغفالها .

إن الفريق الأول من مجرمى الحرب الألمان الذين يحاكمون اليوم أمام المحكمة العسكرية الدولية فى نورنبرج ، وهم أكابر المسئولين ، يضم معظم الذين بقوا على قيد الحياة من زعماء ألمانيا النازية من الساسة والقادة أمثال جورنج ، وفون ريبنتروب ، وهيس ، وروزنبرج ، وفون بابن ، وفون نويرات ، وشاخت ، وشتريخر ، والأميرال دونتز ، والجنرال يودل ، وفون كيتل ، وبراوختش ، وفون رونشتت ، وغيرهم من أعاظم هيئة اركان الحرب الألمانية . وهكذا يرى الشعب الألمانى زعماءه الذين سيطروا على أقداره وقادوه حيناً إلى النصر ، ثم ألقوا به أخيراً فى هاوية الدمار واليأس ، يدمغون بطابع الجريمة ، ويحطمون كما تحطم التماثيل الزائفة ، وتدمغ معهم الآثار الأخيرة للنظام العنيف الذى جلب على ألمانيا والشعب الألمانى أفدح كارثة عرفها فى تاريخه . وتمزيق الزعامة النازية السياسية والعسكرية ، واختفاء زعمائها من الميدان على هذا النحو ، يعاون فى التحوط للمستقبل ، وفى الحول دون قيام حركات رجعية جديدة فى ألمانيا المهزومة الممزقة ، على الأقل لأمد طويل .

ومن جهة أخرى ، فإن الأثر العميق الذى تتركه هذه المحاكمات فى الجماعة الدولية يبعث شيئاً من الأمل فى أن يتدبر المغامرون من الزعماء والساسة الذين تحفزهم عواطف التعصب القومى أمرهم . قبل المخاطرة بإثارة حرب اعتدائية لا يضمن فيها النصر المحقق . وسيذكر الرؤساء والقادة دائماً أن الهزيمة لن تنطوى على فقد المناصب والنفوذ إلى حين فحسب ، بل سوف تجلب معها تبعة الجريمة ، وعار المحاكمة ، والموت المشين .

محمد عبد الله عنان

ذكريات

اهتماماتى الأدبية فى لندن

عند ما أرجع بذاكرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . ففى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعلم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسن أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فإنى أجد ، بالاستبطان الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جراثيمه الأولى فى تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المألوف أيضاً فى سير التكشف الثقافى عند غيرى ، أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجدد شيئا ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا او تلقينا راغبين ، ثم يبعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك ؛ فإنى فى ١٩٠٩ ألّفت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٣٠ صفحة بعنوان « مقدمة السبرمان » ، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجراثيم الفكرية التى لاتزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع نجور فى التفكير . إذا كانت تدل على عقل خام ناشىء ، فهى أيضا تدل على عقل مستطلع واثب .

واندمجت فى المجتمع الإنجليزى الجديد . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعة المتسائلة فى « الجمعية الفابية » و « جمعية العقليين » وأمثالها . وكان كل شىء فى تلك السنين فى البوتقة فى سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار فى مجده يتوده كامبل بانرمان واسكويث ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر ، وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم ، فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم . فلم نعد نسمع عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت

جرائيم الاشتراكية تختمر فى كل أوربا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجينتها التى نمت فيها هذه الجرائيم .

ولم يمض علىّ عام فى لندن حتى وجدتنى أتجه نحو اليسار أى نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسيا فقط ، فقد وجدتنى اشتراكيا قبل أن اقرأ ماركس لقوة الجذب التى كانت عند الاشتراكيين فى ناحيتى العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين فى السياسة كانوا أيضا مجددين فى العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجنية أى إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسى ونيتشه وإبسن . ولذلك أدركتنى الاشتراكية عن طريق الأدب أكثر مما أدركتنى عن طريق السياسة . وكان «التطور» لا يزال مذهبا أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفق «العقليون» مجهوداً كبيراً فى المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلاً من أن ينيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه فى تلك السنوات طغى الأدب الروسى على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركى أو دستويفسكى . وأذكر أنى حضرت محاضرة عن تولستوى فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم فى معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضا أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعا من الانحرافات فى تفسير تولستوى ؛ لأن مقام تولستوى فى الفن كان أكبر جداً من تلك التطوحات الوعظية التى شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لأندرييف تدعى « السبعة المشنوقون » فسارت فى المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارئ على المكانة العظمى التى احتلها أدباء الروس فى لندن فى تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بقوله « العمالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . وطبعت منها على نفقتى جزءًا يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنى أخفقت فى نشره حتى بعت هذا الجزء بسعر مليم واحد للنسخة الواحدة . وثبطنى هذا عن المضى فى الترجمة لسائر القصة . ولكنى دأبت فى الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفى تلك السنوات عرفت إبسن ونيتشه وبرنارد شو وولز . وأذكر أنى

قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذنى سحر أسلوبه وجراءة تفكيره . ونيتشه لا يخطو ولا يعدو ، ولكنه يقتحم . ولكنى عند ما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهنى أجد أنى لم أتأثر كثيرا به أو أن أثره كان مقصورا على سنوات ، على الرغم من الحماسة التى كنت أتلقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلو أو كالخلو من المركبات الذهنية التى أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه . أما مؤلفات داروين مثلا فكنت أقرؤها فى عناء ومشقة ، حتى كنت أترك الكتاب أياما أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزنى إحساس الواجب لا الرغبة ؛ فلم يكن له فى صدرى حماسة . ومع ذلك هو الباقى الآن فى كيانى الثقافى . وكتابى « نظرية التطور وأصل الإنسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية ، وتحملنى على توسع وتعمق فى التفكير البيولوجى والسيكلوجى والاجتماعى .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديدا فى تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه فى نفسى كبيرا ، أكبر مما كان فى نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد فى مجتمع كنت أعده أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصرى الجامد ؛ إذ كنت أدمن التفكير فى حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الإعجاب بحريتها فى باريس ولندن وأنها تملك جزءا كبيرا من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت عروس » كشفت لى حقائق ، وبسطت لى آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها فى أوربا إنما هو فى نظر إبسن لم يكن سوى طلاء نراه يخفى حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطيقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدرامة أن المرأة يجب أن ترتفع من الأنثوية إلى الإنسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربى نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أمًّا .

وعندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة ؛ واتضح لى أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط ، أو هو فرق الدرجة فى الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحيانا عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة

التى تعمل كالرجل لا تحصل على أجره ، وفى أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة ، كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدرامة قيمة فى أوربا الآن ؛ لأن الحال تغيرت فى ١٩٤٦ عما كانت عليه فى ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جدًّا . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدرامة التى أهابت بالمرأة أن تكون إنسانا له شخصيته ومكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكانتها فى البيت .

وكنت فى تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرجه لنا سلامة حجازى من التمثيل الميلودرامى والأغانى الغرامية . فكانت الدرامة عندى لهواً فنيًّا لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدرامة اجتماعية بل أحيانا فلسفية . وقرأته فى انتباه وقلق وتفكير كثير . وأصبحت أصد ، فى اشمئزاز ذهنى ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة العاملة الكاسبة التى تصر على أن تحيا وأن تعرف وتختبر . وعندى أن إبسن كان محوريًّا فى ثقافتى ؛ لأن دراماته بعثتنى على دراسات أخرى متصلة بالموضوعات التى عالجها هو فى أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوربا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمته وعملت بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن ، فإن جميع دراماته اجتماعية وفلسفية . ولكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن الكمال الفنى الذى استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيرا ببرنارد شو . وعند ما أسائل : لماذا لم أؤلف كتابا عنه إلى الآن ؟ أعود بذاكرتى إلى محاولات فى هذا التأليف كان يصدنى عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتى هى صعوبة خراش ، بل هى أكثر . وهى أنى زيادة على أنى سأضطر إلى الاختيار مع الإسهاب والتفصيل فإنى أيضا سوف أواجه من المبادئ والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارئ رجعى أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصرى بل المستقبلى . فإن برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو علمى الذهن يفكر على آفاق فلسفية بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدى هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه . ولا أظن أنه فاتنى شىء مما كتب .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسم لنا من خطط واتجاهات . وبرنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويبعثنا على الاستطلاع العلمى للدنيا والإنسان والمستقبل . والنزعة العلمية فى برنارد شو قوية جدًّا ، ولكنها ممزوجة بنزعة فنية أيضا . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحيانا يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمية . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الإجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الإنسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصلح كما نراه فى عصرنا ؟

لقد ردَّ برنارد شو على دراوين بأن ذكَّره بأن المسيح لم يكن صالحا للبقاء . . . فى النظام البيولوجى الذى وضعه داروين للتطور .

وبرنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى؛ لأنه يبحث الهموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل. وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياتى الثقافية لا تزال إلى الآن مثار التفكير والتأمل .

وأحيانا حين أتأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنيــة هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على كل إنسان . وترك برنارد شو عندى طائفة من العُقَد ربما كان أهمها هو النظر البيولوجى للإنسان ، وأن التطور المستقبلى للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحث الوسائل كى تتطور الأمة .

ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبالى ، كما يقول نيتشه ، أن يكون فى رأس المفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤيا واحدة فى برنارد شو ، بل رأيت ثلاثا أو أربعا . والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الإنسانية . وهى بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس

العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكى مذهباً إنسانيًّا ، ودمغ بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لا يسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ؛ لأنه أثبت لهم أن أموالهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزيد لا لتفقر وتنقص .

والرؤيا الثانية هى ديانة برنارد شو ؛ فإن مشاجرته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أنى أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامّها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضاً أقول إنى عاجز عن بعض الإسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصاراى أن أقول إنها ديانتى وإن عمودها الفقرى هو التطور الذى يعد فيها أسلوبا وهدفا .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين ، وعلم بلا دين هو القنبلة الذرية وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك . ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

وبرنارد شو مثل جيته قد جعل من حياته كتابا آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فإن الناس يقرءون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن فى التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدمية نحو سبعة كيلومترات ، ويقرأ ويكتب كما لو كان فى الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التى تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى تسترشد بآرائه وتستنير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعليم أبتر فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عُدّ هذا تقصيرا أو قصورا فى النظام التعليمى وبرامجه ، فإنه يجب علينا أن نعدّ ارتقاء برنارد شو إلى القمة فى الثقافة العصرية برهانا على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء

والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا ما لا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . وإنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن الثقافة شائعة تفشو فى كل مكان بكل طراز الابتدائى والمتوسط والعالى . ولذلك سرعان ما يتعلم الأمى أو من هو فى مقامه ويتسلق إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى شخصية ه . ج . ولز . وظنى أنه الآن فى مرض الموت . وكل من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى ألفة ومعرفة على قريته . ولكن بينهما مع ذلك فرق ؛ فإن شو يتجاوز الأعماق والآفاق إلى ما وراءها . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ماوراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى رجل يعرف كل ما فيها ، ولكنا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج وقلما يحلق . أما شو فدأبه الطيران والتحليق .

والمغزى فى شو أن الإنسان سيتغير ، جسما ونفساً ؛ لأن التطور يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ؛ لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانا هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فإنه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب أن تتخذ لإيجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب فى آراء واتجاهات نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمى . أولها «خلاصة التاريخ» . وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة «الحرب لأنها الحرب» تجرى على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن نفهم أن الحضارة القائمة هى مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الأمم الكثيرة المختلفة إنما هى أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثانى : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمى لهذه الدنيا وسكانها من

الأحياء . وهى دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » هو بحث فى حاضر البشر وطاقتهم لحضارة قادمة .

وقد كان أثر ولز عندى نفسيًّا أكثر مما كان ذهنيا . أى إنه كسبنى مزاجا عالميا يكاد يكون مساوياً للحاسة الوطنية ، فإن اهتمامى بالحركة الوطنية مثلا فى الهند يحرك عاطفتى ويثير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عند ما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياسة الإنجليز فى زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من ولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتدائى إلى شو وولز عن طريق الجمعية الفابية حوالى سنة ١٩٠٧ . ولكنى واليت اتصالى بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا . وهما يدرسان السياسة العالمية على آفاقها العالية . ومفتاح دراستهما هو الاشتراكية والتطور .

وفى الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبى يرسمون لى معالم دراساتى فى المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهنى ، وكان تسلطه ناريا ثم عاد تحريريا ، أعنى به نيتشه . فقد التهمت مؤلفاته فى حماسة ولذة فعصفت بى . وكان ظنى وقتئذ أنه فتح لى أبوابا كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أنى كنت مأخوذاً بسحره فى الأسلوب وجرأته فى التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسى ، وإن كان كلاهما ينتهى إلى أن الأخلاق السائدة هى أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادى للمجتمع على حين وصل إليها نيتشه بالتحليل التاريخى اللغوى . أما أخلاق الأقوياء التى دعا إليها نيتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتنى سنوات ، بل انخدعت إليها وآمنت بها بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تقهقر نيتشه من وجدانى وتغير عندى مغزى التطور . بل تطورت عندى نظرية التطور ؛ فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يكن للإمبراطوريات مغزى التفوق البيولوجى الذى كاد نيتشه يوهمنى أنه كذلك .

وعرفت من ذلك ماركس وجيته وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العُقَد الذهنية التى أحدثها لى شو وولز وإبسن وداروين .

وفى تلك السنوات أيضاً كان فى لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الإنجليزى والأوربى . وكانت «ذى أثينيوم» ثم «ذى أكاديمى» أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان يحررها اللورد ألفريد دوجلاس صديق أوسكار وايلد . وكان شاعراً أنيقاً ، ولكن تاريخه الماضى وعلاقته بأوسكار وايلد جعلا الجمهور الإنجليزى المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تنزوى فى استحياء فى المكتبات يسأل عنها طالبها .

والعجب أنه ليس عند الإنجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذ استثنينا الملحق الأدبى للتيمس ومجلة جون أو لندن وهى تكتب للعامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكنى أعدّه تقدما . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجى ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعى بل السياسى والاقتصادى ، ولذلك فإن المجلات السياسية الإنجليزية تعالج الأدب فى عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره فى التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسى فى أوربا قد أصبح حافلا بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبيا يتحزب ويتشيع لآراء معينة فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء . وقد يقال حَسْبُ الأدب أن يكون إنسانيا . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشتبك فى المشكلات الإنسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟

ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجهة الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بأنى « كاتب اجتماعى » . وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقا أساسيا آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازا من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوربى وطرازهم عربى . وقد حملنى هذا الفرق أن أؤلف كتابى « اللغة العربية والبلاغة

العصرية » ؛ لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوبا آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة التفكير ثم التعبير العلمى . فإن معاجمنا العربية التى ورثناها عن الأدب العربى تقول مثلا إن الطب هو السحر . ولكننا فى القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علما تجريبيا اجتماعيا بيولوچيا . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصرى ، هذا الطب الجديد فتكون هى أيضا علما تجريبيا اجتماعيا بيولوچيا . وبكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أى إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فإذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

سلامه موسى

عودة الربيع

يا زوجتى فى وَحشة القبرِ ... عاد الربيعُ وأنتِ لم تدرى
عاد الربيع فحيثما التفتَتْ ... عينٌ رأته ضاحكَ الثغر
هذى معاهدنا مزيَّنةٌ ... منه بمثل بيارق النصر
والبيتُ عادت دَوْحه عَجَباً ... تزهو بأوراقٍ لها نَضْر (١)
وعلى ذوائب دَوْحه اضطرمت ... حُمْراً عناقيدٌ من الزهر (٢)
وتجاه مجلسنا بشُرْفته ... نيلٌ — ولا كالنيل — من تِبر
شمسُ الربيع كَسَتْهُ حُلَّتها ... وَهجاً يضاحك صفحة النهر
وكأنما مَسْرَى نسائمه ... نَسَمُ الحياة بأرضنا يسرى
عاد الربيع وذى مواكبُهُ ... سكرانةٌ باللون والعطر
عاد الربيعُ وذى مواكبه ... يحدو لها شَدْوٌ من الطير
ما هزَّنى للبِشْر موكبُه ... بل هزَّنى للحزن والذكر
هيهات تدعونى مفاتنُه ... ماتت دواعيهنّ فى صدرى
يا زوجتى مَرَّ الربيعُ هنا ... مَرَّ الربيعِ عليكِ فى القبر

عبد الرحمن صدقى

---

(١) نضر مصدر ويستعمل نعتاً يقال شىء نضر كقولهم شهود عدل (لسان العرب) .
(٢) الاشارة إلى شجر بوانسيانا ريجيا *Poinciana regia* وبه يزدان أكثر من شارع فى ضواحى القاهرة .

بين الحرب والجغرافيا

الخطط الكبرى فى الحرب العالمية الأخيرة

يميز العسكريون فى دراسة الحرب بين الخطط التكتيكية والخطط الاستراتيجية . وهم يقصدون بالأولى خطط الحرب التى تتصل بحركات الجند المحلية فى الميدان ، وتوجيهها حسبما تقضى به فنون الحرب ، وظروف الطبيعة ، وحاجات القتال من يوم ليوم ، أو من ساعة إلى أخرى ؛ ويتولى وضع هذه الخطط والقيام على تنفيذها قواد الميدان وضباطه المحاربون . أما الخطط الاستراتيجية فيقصدون بها رسم سياسة الحرب الأساسية ، وإدارة دفتها فيما يتصل بمناطق الارتكاز الكبرى ، والمواقع ذات القيمة العسكريه الحيوية ؛ ومن حيث خطوطها واتجاهاتها الأساسية فى توجيه الحركات الكبرى فى الهجوم أو الدفاع . ومثل هذه الخطط الاستراتيجية كثيراً ما يشارك فى وضعها رجال الدولة من غير العسكريين ؛ فرسمها يحتاج إلى أفق أوسع من الأفق العسكرى الخالص ؛ كما أنها تتصل بتنسيق أداة الحرب كلها تنسيقاً يشمل مختلف مرافق الحياة الإنتاجية ، ويوجه عمليات الحرب فى ميادين متباعدة أشد التباعد ، تشرف عليها — فى حالة الحروب العالمية الحديثة — أكثر من دولة واحدة ، ويتوقف النجاح فيها على عوامل كثيرة ، بعضها سياسى يتصل بالمعاهدات والمحالفات والاتفاقات السرية والعلنية ، وبعضها اقتصادى يتصل بالإنتاج والتموين والنقل وتبادل المعاونة ، وبعضها الآخر معنوى يتصل بالمبادئ والمُثُل العليا فى السياسة ونظام الحكم وفى الدين والاجتماع عند مختلف الأمم والشعوب .

ومهما تكن تلك العوامل التى تتصل برسم خطط الحرب الأساسية ، فإن العهد الحديث قد امتاز بأن العلم أصبح فيه يوجه حياة الإنسان ونشاطه بما فى ذلك الحرب ذاتها ، وهى لا تعدو أن تكون مظهراً عنيفاً من مظاهر النضال والكفاح من أجل بقاء الأصلح . ولذلك فقد اتصلت أداة الحرب

وإدارتها بألوان مختلفة من العلم والتنظيم العلمى ؛ وأصبح لزاماً لكى تنجح الحرب أن يسبقها ويصحبها تنظيم فنى دقيق يستند إلى أسس علمية وعملية فى الوقت ذاته . فالحرب الحديثة تعتمد على السلاح الذى لا ينتجه غير العلم والتطبيق الفنى للمعرفة العلمية ، كما تعتمد على دقة التنظيم وحسن التوجيه فى استخدام ذلك السلاح الذى لا يفيد مضاؤه إلا إذا استعمل فى اتجاهه الصحيح ، وفى حدود خطته المرسومة . وفوق ذلك كله فقد زاد من اعتماد الحرب والتسلح على العلم والمعرفة والمهارة الفنية وحسن التنظيم والتنسيق أن الحرب قد أصبحت فى العصر الحديث « شاملة » للحياة المدنية فى جميع مرافقها ، وأصبح المحاربون فيها لايقتصرون على أولئك الذين يقفون فى الصف الأول وفى جبهة القتال ، وإنما يشملون أيضا أولئك الذين يعملون فى الإنتاج والنقل وتنظيم الأداة والإدارة فى المدن والمصانع وفى الحقول والمناجم ، بل وعلى طرق البر والبحر والهواء . ولذلك كله فإن تنظيم الحرب أصبح معناه تجنيد الحياة القومية كلها . وفى هذا العهد الذى أصبحت فيه السلم استعداداً وانتقالا إلى الحرب صار لزاماً أن يشمل التخطيط والتنظيم والتوجيه حياة الأمم فى السلم والحرب على السواء .

على أن ما يعنينا فى هذا المقال إنما هو أن نحاول تتبع الحرب العالمية الأخيرة فى خططها الكبرى من ناحية التنفيذ وإجراء الحرب ذاتها ، وتوجيه حركات الهجوم والدفاع من الجانبين توجيها يتمشى مع ظروف الطبيعة والمواقع الجغرافية ، ويعين على كسب الحرب فى النهاية . ومن المتفق عليه بين العسكريين أن الحرب العالمية الأخيرة جاءت فى جولتين ، فصلت بينهما فترة استجمام واستعداد بين الهدنة فى عام ١٩١٨ واستئناف القتال فى عام ١٩٣٩ . بل إن من المتفق عليه أيضاً أن هذه الحرب بجولتيها إنما ترجع فى الأصل إلى دوافع تتصل بنهضة ألمانيا الحديثة وسعيها إلى أن تستكمل أسباب قوتها وسلطانها بين جاراتها الأوربية من جهة ، وإلى أن تتوسع فيما وراء البحار وتنتزع السيطرة العالمية من بريطانيا سيدة البحار من جهة أخرى . ولذلك فإن خطط الحرب فى الجولتين وما سبقهما وتوسطهما من فترات استعداد إنما هى خطط ترمى إلى غاية مرسومة ومحددة ، هى السلطان فى أوربا والسيطرة فيما وراء البحار ! ولذلك فإنه على الرغم من اختلاف ظروف الحرب فى الجولة الأولى عنها فى الجولة

الثانية ، فإن هناك عناصر مشتركة بين الجولتين لا يمكن إلا أنه يلمسها الباحث الذى يعنى بالأساس والجوهر قبل أن يعنى بالعرض والمظهر .

وقد بدأت ألمانيا استعدادها للحرب والنضال ضد بريطانيا فى مطالع القرن الحالى ، فدعمت مركزها فى القارة ، لا سيما قلبها وجنوبها الشرقى ، ووثّقت صلاتها بإمبراطورية النمسا والمجر القديمة وكذلك بإيطاليا ، وكونت كتلة قوية من دول الاتحاد الثلاثى وأنصارها . ثم سعت فى الوقت نفسه إلى تقوية أسطولها وإعداده للنضال المقبل من أجل سيادة البحار . ولكنها من هذه الناحية كانت أعجز من أن تعد أسطولا يعادل أسطول بريطانيا ، التى كان لها من التقاليد البحرية والخبرة بالملاحة وحرب البحار ما تجمّع خلال أجيال طويلة ، كما كان لها من أساطيل التجارة والحرب ما لا يمكن أن يبنى مثله ولا أن يعد رجاله إلا فى فترة طويلة من الزمن . ومع ذلك فقد أحست بريطانيا بمصدر الخطر والمنافسة الجديدة ، فضاعفت جهودها فى الاستعداد البحرى ، كما أخذت سبيلها إلى إنشاء محالفات أوربية تناظر ما سعت إليه ألمانيا فى قلب القارة . وكان أن حالفت بريطانيا فرنسا فى الغرب ، كما حالفت الروسيا فى الشرق ؛ وسعت الدبلوماسية البريطانية إلى أن تقطع السبيل على ألمانيا فى زحفها السياسى والاقتصادى نحو جنوب القارة الشرقى وأرض الإمبراطورية العثمانية .

تلاحقت الحوادث واقترب الخصمان الأصليان من أن يقفا وجها لوجه ؛ وتطاير الشرر وكاد يشتعل لهيب الحرب أكثر من مرة . وكان أبرز إنذار جدى بالحرب حادث أجادير فى عام ١٩١١ ، عندما شخصت قطع من أساطيل الطرفين إلى ذلك المرفأ الصغير على ساحل إفريقية الشمالية الغربية ، وظهر التحدى الذى لا يمكن أن يكون وراءه غير الشر ، ولا يمكن أن ينتهى إلى غير الصدام ! . . . وهكذا لم يعد إشهار الحرب الفعلية إلا مسألة زمن وانتهاز للفرص .

وجاءت الفرصة فى وقت أحست فيه ألمانيا وأنصارها ، أو خيل إليهم ، أنهم قد استكملوا الاستعداد ، وأن من الخير أن يبدءوا النضال قبل أن يتجمع لحلفاء الغرب أكثر مما تجمع لديهم من قوة ، بل قبل أن يتخذ هؤلاء الحلفاء عدتهم كاملة وحذرهم شاملا ، بعد أن تكررت عليهم النُّذر ، وتوالت قرائن الشر من المعسكر الجرمانى النمساوى . وهكذا شهرت الحرب ؛ وكان طبيعيا

أن تشتعل أول الأمر فى أرض البلقان ، تلك المنطقة التى تختلط فيها القوميات وتتنافر المصالح ، وتجرى تيارات السياسة الدولية فى كل اتجاه . كما كان طبيعيا أن الحرب متى بدأت واشتركت فى إثارتها دولة كبرى كإمبراطورية النمسا ، فلن يكون إلى حصرها من سبيل . ولا بد من أن تنتشر لتشمل أوربا كلها ؛ فالحدود السياسية بين الدول فى هذه القارة يصح أن يكون كثير منها مثار نزاع ؛ لأنها لا تتمشى مع الحدود الطبيعية ، ولا مع توزيع السلالات والقوميات ، ولا مع ما لكل دولة من مجال اقتصادى حيوى . وبذلك فقد كان الجو مهيأ لأن يشارك المتذمرون — وما أكثرهم ! — فى حرب أقل ما يقال فيها إنها تشبع رغبة نفسانية ، وتعلل الشعوب بآمال لم تحققها السلم ولا وسائلها السلمية ، فعسى أن تحققها الحرب وما تنتهى إليه من نصر يطمع فيه الجميع !

وتطورت الحرب سريعاً ، واتضحت خططها ، فصار لها ميدانان : أحدهما غربى والآخر شرقى . وفى الغرب اتجهت ألمانيا صوب أراضى بلچيكا فى السهل الجنوبى من الأراضى الواطئة ، رغم أن المعاهدات الدولية كانت تضمن استقلال تلك البلاد . ذلك أن طريق الأردن والفلاندر كان طريق الغزو التاريخى لمن يريد أن يأخذ فرنسا من أيسر سبيل ، ولمن يريد أن يقف فى مواجهة بريطانيا ، ويتخذ لنفسه قواعد بحرية لحرب الغواصات وحصار الجزر البريطانية وقطع طرق البحر التى هى كحبال الوريد بالنسبة لبريطانيا . ومع ذلك كله يظهر أن ألمانيا لم تكن مستعدة الاستعداد كله عند ما أقدمت على هجومها هذا ؛ فهى من ناحية البر لم تستطع أن تبلغ هدفها وهو باريس ، وإنما وقفت دونها من الشمال الشرقى ، حتى جاء چوفر وهزم طلائع جيوشها هزيمة منكرة فى موقعة المارن فى مطلع الحرب ، على بعد عشرات قليلة من الكيلو مترات من العاصمة الفرنسية ، ورد فريقا من الألمان على أعقابهم ، كما أجبر قواتهم الأساسية على أن تحفر خنادقها لتقيم فيها اتقاء للارتداد . وبالتدريج تحولت حرب الميدان الغربى من حرب متحركة على سطح الأرض إلى حرب خنادق ، ترابط فيها الجيوش تحت الأرض ، ولا تتحرك الجبهة إلا زحزحة من أحد الجانبين أو الآخر لمسافات قصيرة لا تذكر . فكأن الحرب فى هذا الميدان قد شُلّت حركتها ، وتقرر مصيرها أن تصبح حرب مناوشات طويلة الأمد ، تستنفد الجهد ولا تؤدى

إلى نتيجة سريعة . وقد بقيت كذلك بل بقى هذا الميدان الغربى أتوناً يلقى فيه الجانبان برجالهم الفرقة تلو الفرقة ، فيحصدها الموت دون أن يستطيع أحد الجانبين أن يحقق نصراً يذكر . ولم ينقذ الموقف آخر الأمر إلا انحلال الروح المعنوية ، ثم قيام الثورة الداخلية فى ألمانيا عام ١٩١٨ ، مما استتبع انسحاب جيوش الألمان عن مواقعها فى الغرب ، وتقدم الحلفاء فى نصر غير صريح من الناحية العسكرية الخالصة ، ولا مسلم به من جانب الجيش الألمانى وقادته على الأقل . وهكذا انتهى الأمر « بهدنة » ربما كان مرجعها ضيق النفوس بالحرب ، وسأمها من عدم الوصول إلى نتيجة فاصلة ، أكثر مما كان مردها إلى نصر حاسم من جانب الحلفاء . وقد ارتدت جيوش ألمانيا البرية إذ ذاك إلى ديارها فى نظام عجيب .

فأما من ناحية البحر فيظهر أن استعداد ألمانيا أيضا لم يكن كاملا . فقد حرصت بريطانيا فى الفترة السابقة للحرب على أن يكون أسطولها معادلا لمجموع أسطولى أية دولتين أوربيتين معا . ولذلك بقى الفرق كبيرا فى القوة بين أسطول بريطانيا وأسطول ألمانيا . ولم تستطع قوات ألمانيا البحرية أن تبلغ نتيجة فعلية أو فاصلة فى شل حركة الملاحة من حول بريطانيا ، وإجاعة أهلها أو إرغامهم على التسليم . ومع أن ألمانيا قد اتجهت منذ البداءة نحو إنشاء أسطول قوى من الغواصات وبثه حول بريطانيا ، فإن هجوم تلك الغواصات لم يبلغ ذروته من القوة إلا فى عام ١٩١٧ . ومهما قيل عن أن بريطانيا قد شارفت على الهلاك والتسليم فى ذلك العام ، فإن الشئ المهم أنها قاومت ، وأن عدم استطاعة ألمانيا أن تبلغ شأو هجومها البحرى على قوافل السفن وطرق الملاحة قبل ذلك اعطى بريطانيا الفرصة لإتمام الأهبة ومواجهة الهجوم بما انتهى إلى إحباطه . . . ولقد كان عامل الزمن على الدوام فى جانب البريطانيين !

كل هذا حدث فى الغرب ، وقد كان الميدان الأصلى والأهم فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . فأما فى الشرق فقد تقدم الروس سريعاً فى أرض بروسيا الشرقية ؛ ولكن الألمان مالبثوا أن هزموهم شر هزيمة على يد قائدهم هندنبرج ؛ كذلك تقدمت جيوش الروس ثم ارتدت فى أراضى غاليسيا وعلى حدود إمبراطورية النمسا والمجر ، ثم أصيبت تلك الجيوش بخسائر فادحة فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ ؛ وساعد ذلك على قيام ثورة البلاشفة . ومع أن ذلك كان مما يجوز أن

يطمع الألمان والنمساويين ، وأن يغريهم بجارتهم العتيدة ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بقدر ؛ فهم كانوا فيما يبدو مشغولين بالحرب فى الغرب والجنوب . وعلى كل حال فان الحرب فى الميدان الشرقى ما لبثت أن دخلت فى مرحلة ركود ، انتهت بانكماش الروسيا وانطوائها على نفسها ، بعد أن وجد البلاشفة أن من الخير أن يعكفوا على إصلاح الحال فى بلادهم ، وأن يدعوا الرأسماليين والاستعماريين يدق بعضهم أعناق بعض فى ميادين الغرب والجنوب .

وفى جنوب أوربا كان هناك الميدانان الإيطالى والتركى . ففى أرض إيطاليا كانت تلك الدولة ، إلى حد ظاهر ، عالة على حلفائها ، أكثر مما كانت عوناً لهم . فقد وقفت إيطاليا متذبذبة فى أول الأمر ؛ رفضت أن تحارب فى جانب حلفائها الأسبقين ، وهم الألمان والنمسويون ، بحجة أنهم بدءوا الحرب بالهجوم ، ولم يكن حلف الاتحاد الثلاثى المعقود فى عام ١٨٨٢ ليقيدها بمد يد المعونة إلا فى حرب الدفاع . ومع ذلك فهى لم تقف فى جانب حلفاء الغرب صراحة إلا بعد مداولات ومداورات وشروط تضمنتها معاهدة لندن السرية فى عام ١٩١٥ . وأخيراً دخلت إيطاليا الحرب فإذا بجيوشها تتذبذب بين النصر والهزيمة ؛ ثم إذا بها تحتاج إلى العون لدرء الهزيمة ، ولمنع النمسويين من الالتفاف وأخذ الميدان الفرنسى من الجنوب . وقد أدرك حلفاء الغرب ارتباط الميدان الإيطالى بالميدان الغربى من الناحية الاستراتيجية ، فأمدوا إيطاليا بالعون ، وساعدوها على حماية جناحهم ضد النمسويين حتى حانت ساعة النصر .

أما فى الميدان التركى فقد تعقدت الأمور ، واستمر النضال سجالا فى البر والبحر . وكان الألمان قد أدركوا قيمة الشرق الأوسط فأتوه من بابه فى القسطنطينية ، وسندوا قوات تركيا المتداعية . ولكن الحلفاء كانت لهم قواعد هامة فى ذلك الشرق ، لا سيما فى مصر التى ما لبث البريطانيون أن توسعوا منها إلى البلاد العربية ، حيث استغلوا ثورة العرب ضد الأتراك . وانتهى الأمر بانقشاع نفوذ العثمانيين وزوال سلطانهم ، وحلول نفوذ الحلفاء ، لا سيما بريطانيا محل الدولة العثمانية فى كثير من أرجاء العالم العربى . والمدهش أن الحرب الأصلية انتهت فى أوربا ، ومع ذلك فقد استمر الحلفاء الإنجليز والفرنسيون لعامين أو ثلاثة يحاربون لتوسيع نفوذهم وتثبيت أقدامهم فى أراضى العرب بعد أن أبرزت الحرب قيمة تلك البلاد ومواقعها فى ربط طرفى العالم .

وكان هناك ميدان آخر منعزل فى تلك الحرب هو ميدان المحيط الهادى . فقد ارتبطت اليابان ببريطانيا بمحالفة عسكرية منذ عام ١٩٠٢ ؛ وتعلم اليابانيون كثيراً من شؤون التجارة والاتصال بالعالم الخارجى من حلفائهم ومعلميهم البريطانيين ؛ وتعلموا منهم كذلك فنون الحرب البحرية وقيمة الأساطيل الحديثة بالنسبة لإمبراطورية من الجزر ، تريد أن تنشر نفوذها وأن تكون لها السيطرة على ما حولها من بحار . وقد بادرت اليابان بإعلان الحرب على ألمانيا ، ثم انطلقت بأساطيلها وقواتها البحرية فطردت الألمان من كثير من جزر المحيط ، وحلت محلهم فى مناطق النفوذ العسكرى والنقط الاستراتيجية الهامة فى تلك الجزر ؛ ثم احتفظت لنفسها بالانتداب عليها بعد الحرب ، واتخذت منها قواعد توثبت منها فى حربها الأخيرة ومحاولتها التوسع على حساب حلفائها السابقين .

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين أن خطط القتال فى الجولة الأولى من الحرب العالمية كانت تدور ، إلى حد كبير ، حول التنافس الأصيل بين بريطانيا وألمانيا من أجل السيطرة على اتصالات أوربا بالعالم الخارجى . ولم تخسر ألمانيا تلك الجولة لأنها انهزمت فى البر ؛ فجيوشها بقيت إلى النهاية منتصرة فى الميدان الشرقى ، انتصاراً سجلته معاهدة برست لتوفسك مع الروس فى عام ١٩١٨ ؛ وجيوشها لم تنهزم فى الغرب انهزاماً ماحقاً ، بل إن معارك الحرب البرية لم تدر فوق أراضى ألمانيا ذاتها ، وإنما كانت فى خارجها ، وبقيت كذلك حتى تراجعت جيوش الرايخ إلى أرض الوطن ، غير مطاردة ولا مختلة النظام . وقد خسرت ألمانيا الجولة لأنها لم تتخذ من قوة البحر وقواعده ما تستطيع به أن تخنق بريطانيا عدوها الأصلى ... بل عدوها الذى استطاع أن يؤلب من حوله الأنصار والحلفاء فى الغرب والشرق ، وفى العالمين القديم والجديد ، فاشتمل معسكر بريطانيا وحلفائها على حكومات تمثل ١٤٣٠ مليون من سكان العالم ، على حين لم يبق فى معسكر ألمانيا غير حكومات تمثل ١٦٠ مليون فقط . وهكذا لم يكن النصر غير مسالة زمن ؛ حتى إذا انهارت جبهة ألمانيا القومية فى الداخل جاء النصر كالثمرة هزتها الريح فسقطت ، وكان سقوطها فى الميدان الغربى .

وانقضت الفترة ما بين الهدنة فى عام ١٩١٨ وإعلان الحرب فى الجولة الثانية عام ١٩٣٩ . ولما كانت الحرب فى جولتها الأولى لم تصل إلى نتيجة فاصلة ، فإن

الدوافع الأولى والعوامل الأساسية التى أدت إلى الحرب فى عام ١٩١٤ ما زالت باقية . فأوربا قارة صغيرة ، تتزاحم فيها الأمم ، وتختلط الحدود ، وتتداخل القوميات ، وتتشابك المصالح والمواصلات ؛ فلا يمكن أن تستقر العلاقات بين الدول على حال واحدة إلى أجل طويل . وأوربا لها مصالح فيما وراء البحار ، تطمع ألمانيا ، وهى الدولة الكبرى التى تتوسط القارة ، فى أن تنتزع السيطرة عليها من بريطانيا التى تقف على باب القارة ، وتحتكر السيطرة على طرق البحار ، وموارد كثير من مناطق النفوذ والمستعمرات . وقد استغرقت ألمانيا بضع سنوات قبل أن تفيق من صدمة ١٩١٨ ؛ ولكن نهوضها كان أسرع كثيراً مما تصور أكثر الناس فى ذلك الوقت . وسرعان ما أدرك الحلفاء أن ألمانيا قوة لايمكن كبتها ، كما لايمكن تنظيم أوربا تنظيما مجدياً بدونها ؛ فكانت اتفاقات لوكارنو فى عام ١٩٢٥ ، ودخول ألمانيا فى عصبة الأمم . ومع ذلك فلم يكن من المعقول ولا الطبيعى أن ترضى ألمانيا بوضعها هذا ، وأن تقنع بما تركت لها معاهدة ڤرساى من مجال حيوى مبتور الأطراف مقصوص الجوانب ، وهى الأمة التى تستشعر ، من مواردها فى الثروة والرجال ، ومن موقعها الجغرافى ومكانتها فى النهضة الأوربية الحديثة ، مايؤهلها لأن تتزعم القارة . ولذلك كله ما لبثت خطط ألمانيا أن برزت من جديد ؛ وأراد قادتها هذه المرة أن يكون وضع خططهم على أساس من الدراسة والتقدير أكثر عمقاً وأبعد مدى مما حدث فى العهد القيصرى ؛ فرأينا النازية الحديثة تضع نصب أعينها عدة أمور : أولها حسن التنظيم والتربية فى الداخل حتى لا تتكرر مأساة الثورة الداخلية التى جلبت فى نظرهم هزيمة ١٩١٨ ، ثم توطيد نفوذ ألمانيا فى القارة ذاتها حتى لاتشغل الدولة نفسها بحروب محلية عند ما يحين وقت الكفاح العالمى ؛ ولذلك سعى الرايخ حثيثاً فاستعاد أراضيه فى السار ، ووحّد مابين ألمانيا والنمسا ، وضم جانباً من تشكوسلوڤاكيا ، وعمل جاهداً لاستعادة دانزج وأجزاء معينة من بولندة ، ولو أنه لم يوفق لكل ما يريد . كذلك رسم قادة النازى خطتهم على ألا يحاربوا فى جبهتين أو أكثر فى أوربا أو خارجها إلا مضطرين تحت قهر الظروف . ذلك أنهم قدروا أن قوة ألمانيا فى تماسكها كتلة واحدة تضرب فى اتجاه موحد . ومع ذلك فقد قدروا للظروف احتمالاتها ، فكسوا ألمانيا بشبكة من الطرق الجيدة ، وأعدوا عدتهم بل اتخذوا عتادهم من النوع الميكانيكى

السريع الحركة والذى يسهل نقله من ميدان إلى ميدان ، ووضعوا خطط ما أسموه بالحرب الخاطفة ، تلك التى تمكنهم من الضرب يميناً أو شمالا بأسرع ما يكون ، والتى يتحول معها القتال من حرب مواقع إلى حرب حركة . وهم فى ذلك كانوا قادة ومنظمين عسكريين من طراز جديد ممتاز . ولكنهم للأسف — أو لحسن الحظ — لم يقدروا عوامل أخرى ؛ منها أن هذا النوع من القتال السريع يقتضى الوصول إلى نتائج فاصلة وحاسمة فى أقصر وقت ممكن ؛ وأن الخطة الخاطفة إن أخفقت فى الوصول إلى غايتها كاملة كانت عرضة للانهيار ؛ لأن عامل الزمن يكون على الدوام فى الجانب الآخر وضد صاحب الحرب الخاطفة . وقد أدرك أعداء الألمان من البريطانيين والروس هذه النقطة إدراكاً عميقاً ، وإن قصر عن إدراكها الفرنسيون . فما إن لمح البريطانيون منفذاً إلى إطالة الحرب فى أية صورة حتى نفذوا منه ؛ وما إن رأى الروس وسيلة إلى تشتيت جهد الغزاة من الألمان والمصابرة لهم لإطالة النضال يوماً واحداً حتى عمدوا إليها . وهكذا كان الألمان مقامرين فى حربهم وفى خططهم ؛ قد ركزوا كل قواتهم فى اندفاعات خاطفة كان من الجائز أن تصل بهم إلى نتيجة فاصلة ، ولكنهم لم يقدروا أن أى تعطيل أو انحراف عن الوصول إلى الغاية المحددة فى الوقت المحدد معناه أن السهام تطيش . . . وويل لمن تطيش سهامه فى حرب حديثة يتكلف فيها إعداد السهم من القوى والموارد ما لا سبيل إلى تعويضه !

كذلك أخطأ الألمان وأنصارهم فى تقدير بعض العوامل الجغرافية الكبرى ، التى كان لها أعمق الأثر فى تحديد مجرى الحرب ، والتى كان ينبغى أن يحسبوا لها حسابها وأن يجعلوا لها من القيمة أكثر مما فعلوا . وأول هذه العوامل أن ما يقارب ثلاثة أرباع سطح الكرة يغطيه الماء ، وأن من يريد أن يتسلط على شؤون هذا الكوكب واتصالات سكانه بعضهم ببعض ينبغى أن تكون له سيادة البحر ، وأن يسيطر فوق ذلك على مواقع وقواعد بحرية حصينة على طول طرق المواصلات ؛ فإذا لم تتيسر له هاتان الميزتان وجب أن يرسم خطته على أن يحصل منهما على أكبر قدر مستطاع . وقد يظهر أن الألمان النازيين أدركوا هذه الحقيقة إدراكا ما ؛ ولكنهم على كل حال قصروا دون إدراكها على وجهها الكامل الصحيح ، وأرادوا أن يستعيضوا عن قصورهم من هذه الناحية

بقوة الجو ، التى أضافت عنصراً جديداً فى الحرب الأخيرة ، ولكنها لم تغير الحقائق الجغرافية الثابتة . وقد رأينا النازيين فى مطلع الحرب فى الجبهة الغربية ، أى فى صيف عام ١٩٤٠ ، يحتلون شواطئ أوربا الغربية على نطاق أوسع كثيراً مما فعلوا فى الحرب السابقة ؛ فهم قد احتلوا النرويج والدانمرك وسواحل هولندة وبلجيكا وسواحل فرنسا الغربية كلها حتى حدود أسبانيا الموالية . وكان قصدهم من وراء ذلك أن يقفوا فى مواجهة بريطانيا على طول الساحل ، فتتخذ غواصاتهم وطائراتهم قواعدها فى كل مكان ، تشن الغارة وتبعث الرعب فى البحار المحيطة ببريطانيا ، كما تضاعف الصعوبات أمام الأسطول البريطانى فى محاولته ضرب الحصار البحرى على القارة الأوربية . ولكن الألمان لم يدركوا أن هذه الخطة لا يمكن أن تنجح وأن تؤتى نتيجتها إلا إذا صحبتها — بل سبقتها — خطة أخرى ترمى إلى إنشاء أسطول بحرى يناظر الأسطول البريطانى المرابط حول الجزر البريطانية ويكون كفؤاً لمنازلته فى عرض البحر . فقد ثبت أن الأسطول الألمانى بتكوينه الذى كان عليه عند قيام الحرب كان مضطرا إلى الالتجاء معظم الوقت فى موانيه وقواعده أو قرب السواحل التى تحميها الطائرات ؛ وهو ، فيما دون الغواصات ، لم يساهم كثيراً فى ضرب الحصار وتضييق الخناق على بريطانيا ، التى تابعت قوافلها البحرية سيرها . وجاهد الألمان وكابروا طوال سنوات ثلاث كان عامل الزمن فيها حليف بريطانيا ، حتى انتصرت هذه الأخيرة فى موقعة الإطلنطى ، وهى الموقعة الكبرى التى امتدت بطيئة خلال عامين بل ثلاثة على سطح المحيط ، وتقرر فيها لمن تكون سيادة البحار وما يتبعها ويترتب عليها من سيطرة عالمية .

وقد يختلف العسكريون فى تقدير النتيجة لو أن هتلر تقدم وغزا بريطانيا عقب نصره الخاطف فى صيف عام ١٩٤٠ ، ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نعترف بها هى أن هتلر لم يكن له من أساطيل البحر وعدته ما يسمح له بغزو بريطانيا إذ ذاك ، وإلا لم يتراجع عن ذلك . ويظهر أنه جرب قوة الجو ، فكانت موقعة بريطانيا الجوية فى أواخر الصيف وأوائل الخريف من عام ١٩٤٠ ، فجاءت نتيجتها مثبطة للهمة مقعدة للعزم ، واضطر هذا الفاتح الذى كانت الطبيعة أوسع من أن يشملها حسابه ، وأفسح من أن يحيط بها تقديره ، اضطر إلى أن يتواضع تواضعاً لم يكن بد من أن يجر وراءه الهزيمة يوماً ما . فبريطانيا رأس

الحرب المدبر ، ومصنع الحرب الدائب على الإنتاج ، وقاعدة الحرب التى لا بد أن يتجمع فيها من القوة والسلطان ما يؤذن بغزو القارة من جديد . وسرعان ما انقلب الوضع فى الميـــدان الغربى من هجوم من ناحية ألمانيا ، إلى قعود ثم دفاع . وكان على ألمانيا إذ ذاك أن تحصن ذلك الشاطىء الطويل ، الذى امتد آلاف الـكيلومترات ، والذى انقلبت مزية الطول فيه ، فصارت الآن على الألمان بعد أن قدر النازيون أن تكون لهم .

وفى غزو الميـدان الغربى وإعادة فتح الجبهة الغربية تعلم البريطانيون من درسهم السابق فى الحرب الماضية ؛ فهم لم يعمدوا هـذه المرة إلى غزو القارة إلا بعد أن تأكدوا من أن قوتهم وقوة حلفائهم تبلغ أضعاف قوة العدو . ذلك أنهم لم يريدوا أن تفتح الجبهة قبـل أن يكمل الاستعداد ، فتنقلب الحرب فيها إلى حرب خنادق يصح أن تطول إلى ســـنوات ، كما حدث فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عندما كان الحلفاء يُعِدّون فرقهم ثم يبعثون بها إلى الميدان واحدة إثر أخرى فيحصدها الموت أولا فأولا ، وتلتهمها النيران قبل أن تصيب نجحا يذكر . ولقد تجلت شخصية تشرشل وواسع خبرته كرائد حرب وواضع خطة فى أنه مارس فى هذه المرة ضـبط النفس وقاوم إلحاح أعدائه بل حلفائه ، لا سيما الروس منهم ، فلم يفتح الجبهة الثانية فى عام ١٩٤٢ ، ولا فى عام ١٩٤٣ ، وإنما انتظر حتى تم استعداده ، واستعداد الأمريكيين بنوع خاص ، فى عام ١٩٤٤ وتمسك قبل ذلك بأن يكتفى حلفاء الغرب بحملة إفريقية الشمالية ، ثم بمناوشات الميـدان الجنوبى ، حيث كانت إيطاليا أضعف نقطة فى استحكامات المحور وقلعة أوربا المحورية .

فأما الحقيقة الجغرافية الثانية التى لم يقدرها النازيون حق قدرها (كما لم يقدروا قيمة الاستعداد البحرى الشامل) فهى أن مسافات اليابس ينبغى أن يحسب حسابها على وجه دقيق ، وأنه كلما طالت المسافات صعب الاتصال واستنفدت الطاقة البشرية . وأوربا كما نعلم قارة تضيق فى الغرب ولـكنها تتسع كلما اتجهنا نحو الشرق ؛ ولذلك فإن الألمان كانوا كلما توسعوا نحو الشرق فى الميدان الروسى اتسعت أمامهم المساحة وازداد طول الميدان ، حتى جاء وقت امتدت فيه جبهتهم من فنلندة فى الشمال إلى البحر الأسود والقوقاز فى الجنوب . واتساع الجبهة هذا معناه صعوبة التركيز فى الهجوم ، الذى بدأ قويًّا مركزاً ثم

وق فى قوته وتهادى فى سرعته وتراخى فى اندفاعه ، حتى أصبحت الجبهة « خطا » رقيقاً ، لا يصلح لمتابعة الهجوم ، بل لا يقوى على الثبات والدفاع . والواقع أن الطبيعة الجغرافية للميدان الروسى لم تكن لتعين على نجاح غزو يأتى من الغرب ؛ لأن جهود النازى تتشتت وتبعثر كلما توغل نحو الشرق ؛ وذلك بالطبع فى مصلحة المدافعين . أما إذا جاء الهجوم من الشرق ، فإن قوى الغزاة وأجنحة جيوشهم تتجمع وتتركز ويقابل بعضها بعضاً ويسند بعضها بعضاً كلما توغلت نحو الغرب . ولعل هذا هو السر الأكبر فى أن هجوم الروس المضاد بدأ فى شعب متفرقة ، لاقى بعضها بعضاً حتى بلغت غايتها متساندة متكاتفة ، على حين تفرقت ريح الألمان وطاشت سهامهم فى هجومهم المبعثر نحو الشرق .

والحق الذى تدل عليه كل القرائن أن هتلر وأعوانه عندما قرروا غزو الروسيا فى صيف ١٩٤١ لم يحسبوا للمسافات حسابها الدقيق ، ولم يحتاطوا لظروف المناخ والطبيعة الجغرافية إذا لم يتم النصر فى خلال أشهر أو أسابيع معدودات ، كما كانوا يقدرون — فيما يقال — . وقد دفع قادة الحرب الهتلرية والمسئولون عن خططها ثمن ذلك التقدير الخاطئ أرواحاً كثيرة بلغت عدة ملايين من الجانب الألمانى وحده ، وجعلت من ذلك الميدان الشرقى طاحونة الحرب الضروس التى كلفت الإنسانية من الأرواح أضعاف ما كلفها الميدان الغربى ، الذى قصد به فى أول الأمر أن يكون ميدان الحرب الأساسى .

وأما الحقيقة الجغرافية الثالثة التى غفل عنها المحوريون ، فهى أن الحرب العالمية مهما اختلفت أساليبها واتسعت ميادينها وتعددت جبهاتها ، لابد أن ترتبط فيها الخطط ، وأن يُنسّق الإشراف على تنفيذها فى مختلف الميادين والجبهات . ومع ذلك فقد ركز الألمان جهودهم أول الأمر فى ميدان واحد أو ميدانين اوربيين ، وغفلوا أو تغافلوا عما وراء ذلك من ميادين . فقد سيطرت عليهم فكرة الحرب فى ميدان واحد ، وتجنب الحرب فى ميدانين فى آن واحد ، إلى درجة ملكت عليهم تفكيرهم فى غير ذلك من فنون الحرب ومقتضياتها وأحكامها . ولذلك قد غفلوا عن ميدان إفريقية الشمالية أشهراً متلاحقة بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم حتى دفعوا ثمن إهمالهم غاليا فى النهاية . ذلك أنهم تركوا الإيطاليين يحاربون حربهم فى إفريقية الشمالية والشرقية حتى ضعفت قواعدهم وتضعضعت مراكزهم فى الحبشة بصفة خاصة ،

وحتى تمكن البريطانيون من أن يثبتوا أنفسهم فى مراكز قيادتهم وقواعدهم الهامة فى مصر وشرق إفريقية بل وفى الشرق الأدنى أو الأوسط عامة . وبعد أن تم كل هذا تنبه الألمان والتفتوا إلى حليفتهم ، وبعثوا بروميل ومدده إلى شمال إفريقية . ولكن موقف البريطانيين كان قد أصبح من الثبات ، وجناحيهم الجنوبى (الحبشى) والشرقى ، كانا قد أصبحا من الأمان بحيث استطاعت قواتهم وقوات حلفائهم الثبات أول الأمر ثم الاندفاع آخره ، حتى اكتسحت مواقع المحور فى شمال إفريقية ، وبلغ الحلفاء إيطاليا ، على نحو ما هو معروف .

وقد يحسن هنا أن نشير إلى ارتباط الحرب فى كل من شمال إفريقية وجنوب الروسيا . فقد التفت الألمان فيما يبدو إلى الشرق الأوسط ولو متأخرين ، ولكنهم بدلا من أن يسعوا إليه مباشرة عن طريق اليونان والدوديكانيز ثم لبنان وسوريا والعراق ، أرادوا أن يبلغوه دائرين فى حركة التفاف مزدوجة ؛ فمدوا ذراعاً إلى الروسيا الجنوبية والقوقاز ومدوا الأخرى إلى إيطاليا وشمال إفريقية وصحراء مصر . ولكن الذراعين كانتا من التباعد واختلاف الظروف بحيث لم يكن مستطاعاً رسم خطة مشتركة توحد بين حركات الجيوش المهاجمة فى كل منهما ، وتنسق تلك الحركات بحيث تستطيع إحدى الذراعيين أن تعين الأخرى فيما قد تتعرض له من شدة أو محنة ، شأن كل ذراعين تعملان معاً ومن أجل غاية واحدة . ولعلها لم تكن مجرد مصادفة أن تنكسر إحدى الذراعين فى ستالنجراد عندما انكسرت الذراع الأخرى فى العلمين . ولقد كانت هاتان الموقعتان على أبواب الشرق الوسيط ، نقطة تحول قاطع فى مجرى هذه الحرب العالمية .

وفوق ذلك فإن عدم ارتباط الخطط المحورية فيما بينها قد تمثل فى ناحية أخرى لا تقل خطورة عما سبق . . . ذلك أن اليابان حاربت إلى جانب المحور من أجل غاية مشتركة هى تحطيم الديمقراطية وسيطرتها العالمية ، ولكنها — فوق دخولها الحرب متأخرة شيئاً ما — حصرت نفسها فى ميدانها وعملت من أجل مصالحها الخاصة . وقد كانت مقتضيات الحرب الحقيقية تحتم أن تسعى اليابان لتتصل بالمحور فى الغرب عن أى طريق ؛ فتهاجم الروسيا فى الشرق مثلا ، وبذلك تخفف الضغط عن الألمان فى ميدانهم الشرقى ، وتسعى لأن يلتقى جناحا المحور أو يتقاربا على الأقل فى أرض الروس . أو توجه هجومها البحرى فى ناحية الهند وشرق إفريقية وجزيرة مدغشقر وبحر العرب ، على أمل أن تقترب شيئاً ما

من قوات المحور الممتـدة نحو البحر المتوسط والبحر الأحمر ، أو أن تقطع مواصلات الحلفاء البحرية فى غرب المحيط الهندى وبين جنوب إفريقية والهند والبحر الأحمر على الأقل . ولـكن الذى حدث هو أن اليابان فضلت أن تعمل منفردة ولحسابها الخاص فى ميدان المحيط الهادى ؛ وأن تركز قواتها فى احتلال جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى ، ثم تتجه نحو استراليا بدلا من أن تتجه نحو المحيط الهندى . وقد شتتت اليابان بذلك قواتها فى اتجاه لا يقربها من قوات المحور ومواقعها فيما وراء البحار . والواقع أن الحلفاء قد أفادوا من هذا الخطأ إلى أبعد حد ، حتى إنهم استطاعوا أن يرسموا خطتهم فى مرحلتين : أولاهما تقضى بالفراغ من الميدان الأوربى بتركيز الهجوم على إيطاليا وألمانيا ، مبتدئين بالأولى لأنها أضعف حلقات المحور ، حتى إذا ماانتهوا من الفاشيين والنازيين فرغوا — وفرغت معهم الروسيا ذاتها آخر الأمر — لليابان لحطموها على انفراد .

نخرج من هذا الحديث بأن قصة الحرب العالمية ، كما عرضناها فى هذه السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة ، قصة تستحق الدراسة والتفكير وإنعام النظر . وكلما تعمقنا فى دراستها برزت لنا نواحيها المختلفة ، واتضح لنا ارتباط نتائج النضال فيها بحسن تدبير الإنسان ومحاولة الاستفادة من الظروف الجغرافية العامة . والحق أن الحرب لم تعد مجرد قتال بين أقوياء تجمع لهم من القوة فوق ما يستطيعون التحكم فيه ، وإنما هى قد غدت علماً وفناً على السواء ، بحيث يستحيل على جاهل بعد اليوم أن يحارب بنجاح ، وبحيث لا يكتب الفوز بعد اليوم إلا لأولئك الذين يفكرون ويرسمون ويفيدون من عبر الماضى ، ويستجيبون لما تقتضيه ظروف البيئة التى يحاربون فيها . وويل لأولئك الذين يندفعون بعد اليوم فى حرب لا يدركون الغاية منها إدراكا صحيحاً ، ولا يحسنون ترسم الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه .

وقد يفيدنا وينير سبيل المستقبل أمامنا أن نحاول الخروج من هذه الحرب المنتهية بدرس أخير . ذلك أن هذه الحرب بجولتيها إنما قامت فى الأصل على أساس النزاع بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية . وقد أخفق الأولون لأنهم لم يرسموا خططهم كما ينبغى أن ترسم ، أو هم قد رسموها متأثرين

بعامل التحدى والاستفزاز بدلا من أن يتأثروا بعامل الفكر الرصين والترسم الهادئ لظروف الميدان . وقد نجح البريطانيون لأن خبرتهم فى الاحتكاك الدولى وسياسة القتال العالمى كانت أطول ، ولأن استجابتهم لظروف الطبيعة ومقتضياتها كانت أقوى ، ولأن عامل الزمن كان على الدوام فى جانبهم . . .

ولكن الشيء المهم الذى انتهت إليه هذه الحرب هو أن البريطانيين قد نجحوا هذه المرة فى إزالة عدوهم أو إبعاد خطره المباشر إلى أجل طويل . وقد يكون ذلك خيراً بالنسبة لبريطانيا ومستقبلها ... ولكنه قد لا يكون كذلك ؛ فقد كانت ألمانيا على الدوام عامل توازن فى قلب القارة الأوربية ؛ كما كانت مصدر خطر تألب لمكافحته أهل القارة فى الشرق والغرب . ففى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ مثلا اتفقت روسيا القيصرية ، رغم كراهيتها للحرية والديمقراطية ، مع بريطانيا التى كانت مهد الحياة النيابية ومبعث الديمقراطية التى تستند إلى الحرية . وفى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ اتفقت روسيا البلشفية مع بريطانيا الرأسمالية ، فكان الخطر الجرمانى باعث الوحدة بين متناقضات القارة الأوربية . . . بل كان نطاق الأمان الذى يعزل بين متناقضات لا يمكن إلا أن تصطدم أشد اصطدام إن هى تلاقت وجهاً لوجه ! والآن وقد زال هذا الخطر الجرمانى المشترك ، أو كمن إلى أجل طويل ، فهل ينتهى بزواله دافع الوحدة بين طرفى القارة ؟ وهل يختفى ذلك العدو المشترك فلا يجد الروس الصقالبة ، أو لا يجد الإنجليز السكسونيون أمامهم عدوًّا آخر غير حليفهم القديم ؟ وهل يجئ القدر لأوربا أن تنقسم الآن إلى معسكرين اثنين فى الشرق والغرب ، بعد أن كانت منقسمة إلى معسكرات ثلاثة فى الشرق والوسط والغرب ؟ وهل يكون التصادم بين طرفين أشد عنفاً ، وأكثر تخريباً ، وأدنى إلى الفناء والإفناء مما كانت عليه الحال بين أطراف ثلاثة ، يسهل أن يتفق اثنان منها على الثالث ، فيجئ النصر قبل أن يستحيل القتال إلى حرب فناء ؟ وهل يجىء فى أعقاب ذلك كله أن يختل توازن القارة وتترنح مدنية أوربا ، أو تدك معالمها ، فيداول الله الأيام بين القارات كما يداولها بين الناس ؟ أسئلة كثيرة قد لا يستطيع أن يجيب عنها إجابة صحيحة سليمة غير الزمن ! ولعل أبلغ حكم الله سبحانه وتعالى فى الخليقة أن الزمن يسير !

سليمان حزين

الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتى فى مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربها وملاهيها لألهو بعض الوقت، حتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها فى غرفتى بين الكتب. ولم يكن يعترينى من كل هذا ملل أو سأم؛ فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة فى مصر، وتعودت حياة الجد، ولم أكن لأغيرها بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفى فى كل مراحل حياة الدراسة. وكان أبى - رحمه الله - يفخر بى ويشجعنى على هذا ويصرفنى - بشتى المغريات وصنوف الحيل - عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية. وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالفنى، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة.

وفى يوم الأحد التالى لانقضاء هذين الشهرين كنت جالساً فى الغرفة أطالع كعادتى، وإذا بصاحبة المنزل تدق الباب وتستأذن فى الدخول، وقمت لاستقبالها؛ فدخلت وقالت لى وفى صوتها رنة العطف - وفى الحق أن هذه المرأة كانت لى فى هذه الغربة أمًّا مؤنسة:

— إنك يا مستر ريدى غريب الأطوار. إن أهالى ليدز فى مثل هذا اليوم يغادرون المدينة فتياناً وفتيات، أزواجاً وزوجات ومعهم أطفالهم، إلى الريف الجميل يستمعتون بمناظره الخلابة. وإنى لأعجب أن يقبع شاب فى مثل سنك فى غرفته يوم الأحد كما تفعل العجائز والمرضى، وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج فى مثل هذا اليوم لتجدد نشاطك. وقد تألمت لك وفكرت طويلا فيما قد يؤول إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده.

وها أنت ذا ترى منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فماذا أنت صانع بعد هذا ؟ يجب يا عزيزى أن تقرن الجد بشىء من اللهو البرىء . وكم يسعدنى أن يكون إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحـدائق أيام الآحاد والأعياد . وإنى موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ... فبعد سنوات قد تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة ، وحينئذ تفتش بين طيات الماضى عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف تذكرها ، وستظل تذكرها دائماً ؛ لأنك لا تستطيع إلا أن تذكرها . وإنه ليسعدنى أن أخرج بك من هذه العزلة وأدعو إلى منزلى يوم الأحـد القادم بعض الفتيات والفتيان ــ ومن بينهم فتاة من أسرة فى الريف كنت أسكن إلى جوارهم قبل تزوجى إلى المدينة ــ وقد اخترت لك هذه الفتاة لأنها جميلة ، وعلى شىء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم . فإن رغبت فى هذا فسأكتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لى بأن أضيفها عندى ليلة الأحد . وإنى إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً من السرور . فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لى أن أكتب لأدعو هذه الضيفة الكريمة ؟

ثم أمسكتْ . وفكرتُ من جانبى فيما قالت ، وتذكرت أبى وشدة حرصه على أن أكون ذلك الطالب الذى يصل ليله بنهاره بين الكتب ، وذكرت كذلك أن النجاح كان حليفى فى هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاح لى فى هذه الآونة خيالى فى المرآة ، فرأيت منظارى السميك وجسمى الهزيل ، وفى حركة عصبية قلت لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامى يشع من عينيها بريق فيه رحمة وفيه عطف كثير :

ــ إنى راض يا سيدتى عن كل ما تقترحين ، وإنى لك لشاكر .

وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمتُ مع الجماعة بأطيب وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضى به الأيام ، وخرجت أصحب الفتاة ، وركبت وإياها قطار الضواحى ، وتحادثنا كثيراً فى رحلتنا القصيرة ، فسألتنى عن مصر وعن آثارها وتاريخها . ومر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا ما أشرفنا على قريتها طلبت إلىّ فى أدب جم وفى شىء من الاعتذار ألا أصحبها إلى منزلها ؛ لأنها لا تود أن تظهر مع غريب فى طرق القرية الصغيرة ، وهى تخشى أن يؤدى ذلك إلى فسخ خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلوكها ألسنة السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجى بعد أن ودعتها فى المحطة .

نمت ليلتى نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلا فى تلك الفتاة الفاتنة . فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألتنى :

— كيف حالك الآن يا مستر ريد ؟

ثم أردفت :

— هل لك في أن أدعو صاحبتك مرة أخرى لتمضى عطلة آخر الأسبوع عندنا؟

فأجبتها على الفور أجزل لها الشكر وأقول لها افعلى بربك وادعيها كل أحد، وانحنيت وخرجت وهى تشيعنى بنظرات الأم العطوف، ولكن فى شىء من الخبث .

وحضرت نورا وكنت أخرج معها للنزهة فى الرياض ، واشتركت معها فى أندية رياضية عدة . ولكن ذلك كله لم يشغلنى عن الدرس والتحصيل ، وحمدت الله على ما آلت إليه حالى ، فقد زال عنى الهزال والضجر .

تعددت زيارات نورا لمنزلنا ، وتوثقت بينى وبينها صلات الود . وعندعودتى ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقبلنى بالباب لتقول لى إن والد نورا فى غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلتى ، فدخلت غرفتى وأنا أفكر فيما فجأتنى به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم تقدمه إلىّ ابنته ، وقد حظرت علىّ ألا أصحبها إلى منزلها ، فما الذى حدث وأنا لم أفعل شيئاً ألام عليه ؟ جال كل ذلك بخاطرى وشاعت الهواجس فى نفسى وأنا رجل شرقى أحسب حسابا لكل خطوة فى مثل هذه الأمور، وأعرف عواقب هذه المقابلات، وأنا ما زلت كذلك عضو بعثة وأخشى على مستقبلى ، فماذا عسى أن تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طفقت أفكر وأخذت رأسى بين يدى وجعلت ألعن صاحبة المنزل وألحى باللوم على نفسى أن قبلت اقتراحها ، وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بى لأنى حدت عن الطريق التى رسمها لى أبى .

وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتى، ولعلها استبطأتنى، وقالت :

— أسرع يا مستر ريدى ، فإن والد نورا فى انتظارك . . .

أفقت من أحلامى ، وبدلت ملابسى ثم استجمعت شجاعتى وسرت فى خطى ثابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلا فارع الطول ، يناهز الخمسين ، يخف لمقابلتى ويشد على يدى فى شئ من القوة ، ثم جلس وجلست ، وبعد فترة غير قصيرة قال لى فى هدوء :

— لقد أخبرتنى نورا كل شئ . . .

ولم يكد يتم كلمته حتى تصببت عرقا ، ولـكنه عاد يقول :

— إنك كنت كريما يا سيدى مع ابنتى ، وقد أخبرتنى عن عنايتك بها، وكيف أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك . وفى الحق يا بنى أنى لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتى فى جو يسوده الهدوء فى منزلنا الريفى ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نفر قليل من أهالى القرية ، ولم يكن شئ من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت خطبة ابنتى الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . وبرمت أسرتى بهذا الهدوء المطلق وبخاصة زوجتى ، فلم أجد بدًّا من أن أدعو أحد معارفى ليقيم معنا ونتقاضى منه أجراء فلا يستشعر خجلا فى ضيافتى التى قد تطول . وهذه عادة بلادنا نعمد إليها لنغير من جو الضجر ونقلل من هذا السكون الممل . وها قد عاد إلى بيتنا شئ من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل؛ لأنه سرّى عن زوجى وابنتى الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذى قمت به نحو نورا . . .

ووقف الرجل وسلّم وانصرف وأنا لا أصدق أنه ما حضر حقا إلا ليشكر ، وأخيرا انقشعت وساوسى وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتمم بعض البحوث الخـاصة برسالة الدكتوراه التى اعتزمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقطعت أخبار نورا عنى ولم نتراسل طوال هـذه المدة ، ثم عدت إلى ليدز وقابلت الفتاة مصادفة ، فقالت لى إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها الجديد فى المدينة وتركتنى مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها . ووقفت هنيهة أتبعها نظرى وأنا لا أفهم مما قالت شيئا ، ثم رجعت إلى غرفتى ، ودعوت صاحبة المنزل وأعدت على سمعها هذه الجملة التى قالتها نورا ، ورجوتها أن تفسر لى هذا اللغز وهل يستطيع الإنسان فى هذه البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد ؟ فضحكت وقالت لى :

— ليس فى هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك والد نورا أنه ضم إلى أسرته ضيفا ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج إلى زوجته ، وقد نمت إليه بعض إشاعات أو لعله لحظ شيئا من التغير فى سلوك زوجته ، فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ، والخير أن يطلبوا إليه

— بعد أن ينتحلوا له المعاذير — أن يخلى غرفته . ولعله لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك فى أمرها ، فتعلل بأن ابنتيه قد يتقدم من يطلب يد واحدة منهما ، واستحلفها بحبه أن تجيبه إلى طلبه . أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف . ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها ، وقال لها : « أنا إنما أتكلم عن رجل استأجر غرفة فى منزلنا ، لا عن عشيق يقيم تحت سقف بيتى بين زوجى وابنتى . وهل أستطيع أن أفهم من قولك هذا أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحينى بكل ما حدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم ما لبثت أن قالت لزوجها إنها تحب هذا الرجل ، وإنها لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة واحدة . فاعتلجت فى صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت تتناوبه ، وأخيراً انتصر عنصر الخير فى صدر الرجل الذى كان يحب زوجته ويعبدها ، فاعتدل فى مكانه وقال لها : « أواثقة ياعزيزتى أنه يبادلك هذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجاها زوجها أن تدعو الضيف إلى مقابلته على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ماحدث ، ويقول إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه فى حدة وصرامة، وقال له : « لقد عرفت كل شيء ولست ألومك أو ألومها على عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره، وليس لى إلا أن ألوم نفسى ، فأنا الذى مهدت لكل ما حدث، وقربت بين قلبين كانا بعيدين . ولست أفكر ياسيدى فى الانتقام من أحد بعد أن أربت سنى على الخمسين ، ولا أذكر أن فؤادى انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما كان ليعرف موجدة أو يكنّ حفيظة . ولندع الكلام فى هذا جانباً ، وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لى بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدنى على ذلك كرجل شريف ؟ فإنى أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تعيش خليلة .

وذهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، وزم شفتيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق . وخيم فى جو الغرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك ياسيدى . » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، ولعله حاول الكلام فلم يقو عليه ، وأخيراً ركع أمام الزوج وفى عينيه دموع وأجهش يبكى وطلب إليه أن يغفر له زلته . فتهره الزوج وقال له فى

خشونة : « ما لهذا طلبت الانفراد بك ، وإنى أطالبك الآن بأن تجيب على أسئلتى » . فوقف الضيف ومضى يتعثر واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : «أجل ! إنى أحبها وسأتزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج .» فتمتم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلى بينه وبين نفسه ليشد أزرها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج فى صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذى رسمه لزوجته ولهذا الرجل الماثل أمامه ، أو لعله فى صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين المخلوقين اللذين حطما منه قلباً كان عامراً بالعطف والحب لأسرته الوادعة .

وخرج الرجلان وافترقا دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمرا أصره فى نفسه ، وغادر منزله وعاد بعد أسبوع فقابل زوجه وقدم لها وثيقة وقال لها : « ستجدين فى هذه الوثيقة يا عزيزتى ما تقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى العهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشرتها بضعة أيام فى أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا فى الوثيقة — فما عليك إلا أن تتقدمى بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ، وستنزل علىّ لعنة القاضى ، ولكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأترك لك منزلى عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعد انقضائها .» ثم قبل زوجته وابنتيه ، وجمد الدمع فى عينيه وبرح المنزل بعد أن قدم لها هذه التضحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها.

وها أنت ذا ترى أن كل شئ قد تم — كما أراد الزوج وأرادت الزوجة — وها هى ذى نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ، وعاد الزوج القديم إلى منزله الريفى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله .

وسكتت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ، وما زالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجه وابنتيه ، والذى غير الجو الهادئ الممل ، والذى سلبه أخيراً قلب زوجه التى أحبها وما زال يحبها .

حسين فرج زين الدين

أحزان المساء

[مهداة إلى الروح الحبيب
من الروح الغريب .]

اشهدى يا نفس أطيافَ الغروبِ
وهى تفنى مثل أحلام القـــلوب
واندبى النور ، وضـجِّى بالنحيب
واهبطى فى هوَّة الليـــل الرهيب

غابت الشمس ، وكانت منذ حينِ
تسكب الأفراح فى قلبى الحــزين
فـيُـغَـنِّى القلب فيَّـاضَ الحنـــين
أغنيات الشوق ، والحب الدفـين

غابت الشمس ، وواراها المســـاء
فتولىَّ الصـــفوُ عنى والرجاء
وطوانى الليــل ، والليــل فنـاء
وحياة القلب فجر وضـــياء

هكذا تذبل فى النفس الأمانى !
هكذا تنأى عن القــلب الأغانى !
وأرى الأيام يطويهـــا زمانى
فيهـــز اليأس روحى وكيانى

هكذا يمضى عن الدنيـا الربيعُ !
فيجفُّ النبع ، والزهر البـديع !
والروابى الخضر يطويهـا الخشوع
وغناء الطير شَـجْوٌ ودموع !

هكذا يمضى عن القلب الشبابُ !
فإذا العـمر يغشِّيه الضـباب !
وإذا الآمـال وهمٌ وسراب !
وإذا الجنَّـات قفـرٌ ويبـاب !

أيها الليـل لقـد هجت انتحابى
فشربتُ الدمعَ ، والدمعُ شرابى
أفمـا يكفيك يأسى واكتئابى ؟
إن أكن أشكو بدمعى ، فلما بى

إننى يأيها الليـل وحيـدُ
ساهر ، والنوم عن قلبى بعيد
إن مضى همٌّ ، أتى همٌّ جـديد
آه لو عشت كما كنت أريد

آه لو عاش فؤادى كيف شاء
لملأتُ الكون شدواً وغنـاء
ويح قـلبى ! إنه ذاب بكاء
فهْو ينسـاب دموعا ودماء

إننى حى ، ولكنى دفينُ !
إننى حر ، ولكنى سجين !
أيها الليل : حياتى ما تكون ؟
أهى صمت ؟ أم غناء ؟ أم أنين ؟

من تراه طاف بالحزن علَيَّا ؟
فسقانيه ، وقد كنت صبيا !
ثم ألقى فى دمى همسا خفيا :
سوف تبقى هكذا ما دمتَ حيا !

من تراه يدرك السر المريعا ؟
من تراه يرأب الشمل الصديعا ؟
من تراه يبصر الروح الصريعا ؟
ويرى القلب ، وقد حال دموعا !

إننى أشتاق أن أحيا سعيدا
أترك السجن ، وأجتاز القيودا
وأرى عمرى ، وقد صار نشيدا
هائما فى الكون ، يرتاد الوجودا

آه لكنى أرى عمرىَ يفنى
وأرى قلبىَ فى الأسر مُعَنَّى
لست أدرى يا فؤادى لم جئنا ؟
كان أجدى لو بقينا حيث كنا

أين منى مجلسى بين الروابى ؟
فى مكانٍ ضمَّ أهلى وصحابى
وبه الروح الذى يُروى شبابى
بالرحيق الحلو ، والشُّهد المذاب

ذلك الروح الذى يرجو إيابى
ويريق الدمع حزناً لاغترابى
كلما وافيته بعد الغياب
بالحنان السمح ينسينى عذابى

اين منى مجلسى عند الغدير ؟
وضياء الفجر كالماء النمير
والرُّبى نشوى بأنفاس العبير
وأنا أصغى إلى شدو الطيور

أين أيامك ياعهد الطفولَه ؟
ومغانيك النديات الجميله
وأنا أهفو إلى كل خميله
أقطف الزهر ، وما للزهر حيله

ذكريات الأمس ما أجملَها !
وهى تُلقى فى حياتى ظلَّها
إن أحلام شبابى كلَّها
هى منها ، وإليها ، ولها

أين ؟ لاشئ سوى الحزن المُواتى !
وطيوفِ اليأس حَوْلى حائمات !
وأمانى القلب حيرى باكيات !
يا زمانى ... هذه كل حياتى !

غربتى طالت عن المَغْنَى الرطيبِ
غربتى طالت عن الروح الحبيب
وشباب العمر يفنى فى المشيب
آه لو وافيته قبل المغيب

فتحدثتُ إليه بشجونى
وتشكَّيتُ من الدهر الخؤون
ورأى السهد الذى حول جفونى
فسقانى الحب فى ظل السكون

غير أنى قد طوت عمرى القيودُ
والهوى فى مهجتى غضٌّ جديد
أترى الماضى الذى راح يعود ؟
فيغنِّى الحب ، والقلب يُعيد

قيدتنى ها هنا بؤسى الحياةِ
وهى تدرى أنها تقتل ذاتى
إننى طير حزين الأغنيات
يشتهى أفقا رحيب الجنبات

قيدتني وهي تدري أن عمري
لم يُرد قيدا ، ولم يرضَ بأسر
وهي تدري أن نفسي نفس حر
كضياء البدر يسري حيث يسري

أشتهي النور ، وأهفو للظلالِ
وأحب العيش في دنيا الخيالِ
وأرى الدنيا كما طافت ببالي
وأنا نشوان من خمر الجمال

ليس هذا العيش ما تهواه نفسي
ليس هذا الكون ما طاف بحسي
هات كأسي ، إنني أنسيتُ كأسي !
علها تُغرق آلامي ويأسي

هات كأسي ، ثم دعني أتمنَّى
فالمنى كم داعبتْ قلبي فغنَّى
وإذا ارتاح إليها واطمأنا
فانشر النوم علينا . . . ثم دعنا

إبراهيم محمد نجا

محادثة

بين الأسد البريطاني والدب الروسي

الأسد : — ألا يحزنك أيها الدب أن ترى ما آل إليه أمرنا فى الغابة من خلاف بعد وفاق ، وتباعد بعد تقارب ، ومعسرة بعد ميسرة ، وشك وحذر وتربص ، بعد إيمان وثقة وتفاهم ساد بيننا فى أثناء عراكنا المشترك مع الوحش حتى أمكننا التغلب عليه فى النهاية ؟ وجزى الله الشدائد كل خير ؛ فقد علمتنا أن نكون معاً فى الحرب ، ولعلها أن تعلمنا كيف نتفق فى السلم .

هيا أيها الدب ! تعال إلى كلمة سواء بينى وبينك ألا نؤمن إلا بالحق والحرية والتعاون على نشر السلام فى ربوع الغابة جميعا .

الدب : — إننى أيها الأسد لست من فصيلتك ، وليس بينى وبينك من المشاركة فى الصفات أو الصلات أو الطباع ما يساعد على إنشاء هذا التآلف الذى تنشده . وقد علّمنا آباؤنا وأجدادنا طوال القرنين الماضيين أن نكرهك ونمقتك ونكون على حذر دائم منك . وإذا كانت ظروف الحياة أو الموت قد أكرهتنا أن نشترك معاً فى الحرب الأخيرة زهاء أربع سنوات أو أكثر قليلا ، فلاتنس أنك شننت علينا فى منتصف القرن الماضى حرباً شعواء يذكرها التاريخ باسم حرب القرم ، نسبة إلى شبه الجزيرة التى دارت فيها رحى معاركها ، وهى المكان نفسه الذى اعتصم فيه الوحش فى الحرب الأخيرة . وقد ألّبتم علينا فى تلك الحرب دول أوربا ، فأرسلت قواتها تؤازر سلطان تركيا ضدنا وضد الصليب الذى طالما تشدقتم بدعوى نصرته . وكنا بمفردنا أمام عصابتكم تلك ، فانهزمنا وقاسينا من أهوال الحرب ألواناً لا يشبهها إلا بعض ما قاسيناه أخيراً . وفى النهاية لم يسعنا سوى طلب الصلح ، فأمليتم علينا شروطاً مذلة مالبثنا أن

تحرزنا منها وأنتم راغمون . على أن هذا لم يكن آخر عهدكم بمناوأتنا ؛ فقد دابتم على الكيد لنا ومعارضة مصالحنا بكل ما أوتيتم من قوة .

أنسيت أيها الأسد أنكم أنتم الذين رفعوا سعر التنين اليابانى فى السوق الدولية بتحالفكم مع اليابان سنة ١٩٠٢ ، وأن هذه المحالفة كانت مقدمة للحرب الروسية اليابانية التى قضت على سمعتنا الحربية والبحرية وأذلتنا فى نظر الدول جميعاً . وأقسم أنه لولا هذه الهزيمة وظهور قوة ألمانيا البحرية منافسة لكم فى أوائل هذا القرن ، مارضيتم أن تكفّوا عن مناوأتنا أو تأخذونا إلى جانبكم فى الحرب الماضية .

وهل يمكن أن ننسى ما قاسيناه على أيديكم أثر ثورتنا الكبرى وبعد الحرب العالمية الأولى من طرد وحرمان وإذلال وعدوان لا تزال آثاره ملموسة باقية إلى وقتنا هذا ؟ تلك حقائق قد وعاها العقل الروسى واختزنها فى أعماق أغواره فلا سبيل إلى نسيانها ألبتة .

لا أيها الأسد ! لاتحاول أن تخدعنا . إن التاريخ والسياسة قد تآمرا على إخفاق حركة التفاهم بيننا .

الأسد : — لاتنس أيها الدب أن الزمان قلّبٌ ، وأن السياسة لاتسير على وتيرة واحدة ، وأن الحكيم من لاءم بين سياسته وحاجات زمانه ، واحتاط فى يومه لمستقبله . وإذا كانت الظروف فى الماضى قد أكرهتنا على محاربتكم ذات مرة فقد علمتنا الحرب الأخيرة فائدة التعاون بيننا وبينكم . ولا إخالك تنكر مدى المساعدة التى قدّمناها لك أنا وابن عمى الأمريكى ضد الوحش الذى أنشب أظفاره فى عنقك ، وكاد يمزق جسمك أشلاء .

الدب : — تلك أكذوبة لم نسمع بها ولم نقرأ عنها . إنما قرأنا وتحدثت الركبان أن الوحش قد طاردكم حتى طردكم من أوربا ، وأنزل بكم فى دنكرك هزيمة منكرة لو أنه تابعها إلى عرينكم لبادت فصيلتكم ولدمرت جزيرتكم تدميرا .

الأسد : — ليس من ذنبنا أن تستهزئ بكم حكومتكم وصحافتكم ، فتخفى عنكم الحقائق الواقعة ، ولا تطلعكم من حقائق الموقف الدولى إلا على ما يوافق

أغراض زعمائكم . أما قولك إن الوحش قد هدد فصيلتنا بالانقراض فمردود عليك ؛ فقد كان موقفه معنا مجرد تهديد أجوف . أما موقفه معكم فكان حقيقة واقعة ؛ فقد داس أراضيكم وتحكم فى مواردكم وأخضع لسلطانه جزءاً من بلادكم . ولو قد استعمل الوحش ضدكم مخلبيه الأماميين والخلفيين جميعاً لفتك بكم فتكا ذريعاً ؛ ولكننا شغلناه عنكم فلم ينلكم منه إلا مخاب أو مخلبان فنجوتم .

الدب :— إذا كنت تقصد بقولك تلك الأجزاء من الأرض المقفرة التى غزاها فقد كان ذلك حقًّا ، ولكن كان باختيارنا وطوع إرادتنا حين ارتددنا عنها وتركناها يمسحها جيئة وذهاباً أكثر من مرة . ولكنه لم يستطع أن يغزو قلب الروسى قط . فليس فى العالم كله مثل الروسى فى صدق العزيمة وقوة التصميم والاعتماد على النفس فى أوقات الشدة . وأظن أن العالم سيتحدث جيلا بعد جيل عن بطولتنا فى موقفنا إزاء الوحش ؛ فقد قمنا بأعظم مجهود عرفه التاريخ فى سبيل التحرر ، وكسر شوكة ذلك الوحش الجبار الذى فرض كلمته على الغابة كلها قرابة خمسة أعوام .

الأسد :— اذكر أنك لم تكن وحدك ضد الوحش .

الدب :— أريد أن تقول إنه لولا مساعدتكم لوهن موقف روسيا أمامه . ألا فلتعلم أن الماديات وحدها لا تكسب الحرب ، وإنما المعول على القوة الروحية وعلى الأعصاب الفولاذية التى يتحصن بها الشعب جميعه فى كفاحه وتصميمه . وإنى لجد فخور بما أظهرته حكومتى من حسن تدبير وبعد نظر ؛ فقد نفذنا منذ سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس مرتين ، واستطعنا بتضحياتنا أن نحول روسيا الزراعية إلى بلاد صناعية هائلة ، فأسسنا المصانع الكبرى للإنتاج الحربى والاقتصادى ، وضللنا خبراءكم وخبراءهم وأعوانكم وأعوانهم ، وأخفينا مصانعنا فى بطون جبال الأورال بمنأى عن الأنظار وبمأمن من العدو . ولولا إنتاج هذه المصانع السرية ماأجدت علينا مساعداتكم شيئاً ولا أغنتنا فتيلا . ولقد توقعنا أنكم سترتبكون فى سياستكم وستخلطون وتتخبطون ، وأن أنفسكم الأمارة بالسوء ستوحى إليكم أن تغدروا بنا فتصرفوا أنظار الوحش عنكم إلينا وتوجهوه

ضدنا ، ينفرد بنا ، وإذ ذاك يحلو لكم أن تروا أعداءكم يتطاحنون وأنتم بمنجاة . ولا بد أن تكونوا قد قدرتم أن ينتصر الوحش علينا لفرط غفلتكم وظنكم به القوة ، وحينئذ ينجو العالم مما تسمونه شر الشيوعية ، ويخرج الوحش النازي منهوك القوى فلا يجسر على مهاجمتكم . ألم تهللوا في سنة ١٩٣٨ لاتفاق ميونيخ ؟ ألم تدق أجراس الكنائس في بلادكم شكراً لله على خلاصكم من الوحش ؟ فهلا فكرتم حينذاك في مصيرنا ! وهلا دعوتمونا إلى مشاركتكم ! ألم نكن خليقين بمقعد خامس معكم إلى جانب فرنسا وإيطاليا ؟

إن الأمر لواضح وضوح الشمس . لقد قررتم إنقاذ جلودكم ؛ لتدعونا طعماً شهياً للوحش .

الأسد :— الغلطة الكبرى التي ترتكبونها الآن هي التي ارتكبها الوحش من قبلكم . إنكم تظنون حبنا للسلام ضعفاً ، وتحسبون رغبتنا في المسالمة جبناً . إننا قوم طبعنا على تعشق الحرية الفردية ، وإنا لنمقت الحرب أشد المقت ، ونكره التسلط في كل مظاهره . فنحن لا ندين كغيرنا بالخدمة العسكرية الإجبارية ولا نبرر قيام الجيوش والقواد العسكريين إلا في الظروف القصوى . لذلك تروننا نتعثر ونرتبك ؛ وقد تصيبنا الهزيمة في أول الأمر كلما اشتركنا في حرب مفاجئة ؛ حتى إذا تأملنا في جو الحرب ومرنت عليه نفوسنا وعقولنا وصممت عليه عزيمتنا وإرادتنا ، بذلنا أقواتنا وضحينا بأرزاقنا وأعمالنا وسخّرنا للحرب بحوثنا وإنتاجنا ومعاملنا ومصانعنا ، وكل ما نملك من قوى مادية ومعنوية ؛ فإذا نحن أمة قد خلقت خلقاً جديداً . وما هي إلا فترة تطول أو تقصر حتى يتحول اليأس بأساً ، وتستحيل الهزيمة نصراً مبيناً .

لذلك أؤكد لك أيها الصديق أننا كنا صادقين في ميونيخ ، مخلصين في حب السلام إخلاصاً دفعنا إلى أن نبذل في سبيله من عزتنا وكبريائنا بل من شرفنا في نظر أصدقائنا .

الدب :— ولماذا كل هذه التعمية وهذا التضليل ؟ قل بالصراحة إنكم لم تكونوا مستعدين للحرب ، وإنكم آثرتم شراء السلم في سنة ١٩٣٨ بأي ثمن حتى تأخذوا أهبتكم للحرب ، وتحاولوا اللحاق بالوحش الذي سبقكم وتفوّق عليكم

درجات فى استعداداته . قل بالصراحة إن نفوسكم كانت خائرة ، وإن قلوبكم قد ملئت رعباً من الوحش . لقد كنا نعلم عنكم هذا وأكثر منه ؛ ولذلك لم نلق بالاً إلى بعثتكم السياسية حين بعثتموها إلينا فى أحرج الساعات تطلبون بها معونتنا .

الأسد :— لا . بل نطلب بها محالفتكم محالفة حرة ؛ لندرأ بالجهد المشترك خطر الوحش .

الدب :— حقًّا إنكم لدهاة فى السياسة ، ولديكم معين لاينضب من المصطلحات التى تكسون بها أغراضكم ؛ فتارة تسمونها محالفة ومعاهدة ، وطوراً تسمونها انتدابا أو وصاية ، وحينا تسمونها مجالس أمن أو دفاع مشترك — وكلها فى الحقيقة أغطية شفافة تحاولون بها أن تستروا أجساد أنانيتكم العارية .

لقد أردتم بمحالفتنا أن تتخذونا مخلب القط تلتقطون به من النار ثمر القسطل ، فتعرضوننا لضربة العدو ودفعته الأولى . وماذا كان يهمكم من أمر انتصارنا أو هزيمتنا وأنتم فى الغرب ونحن فى الشرق ؟ !

لذلك قابلناكم بسلاح من نوع سلاحكم ، فماطلناكم وأغويناكم ، وفتحنا باب المفاوضات مع العدو ، ووضعنا على رأس خارجيتنا وزيراً جديداً هو مولوتوف الذى عرفتموه اليوم جيداً ، ليدير دفة السياسة الجديدة . وكانت طِلبَةُ الوحش منا أن نلزم الحيدة إذا مانشبت الحرب ، وهى طلبة فى الغاية من السهولة إذا قيست بما عرضتموه علينا ، فقبلنا محالفته ورددنا كيدكم إلى نحوركم . وانتفعنا بمحالفة الوحش وهو منتش بخمرة النصر ، فضممنا دول البلطيق التى كانت جزءًا لا يتجزأ من أرض الوطن قبل الحرب العالمية الأولى ، واستردنا بسارابيا من رومانيا ، وعدنا إلى حدودنا القديمة فى بولندة ، وحاربنا فنلندة التى كانت تهدد لنينجراد . ولما آنسنا من الوحش الغدر والشروع فى الانتقاض علينا ، دبرنا أمورنا سرًّا فجهزنا معاملنا ، وعقدنا مع التنين اليابانى معاهدة الحيدة إذا هوجمنا ، فكانت ضربة سياسية بارعة أفسدت على الوحش مارسمه من خطط لاغتيالنا .

أرأيت أيها الأسد أن الدب لايقل عنك فى براعته السياسية ، وإنما الفرق بينى وبينك أنك خبيث وأنى صريح .

الأسد : — علم الله أني لست خبيثا ، ولا أضمر الشر لأحد في العالم . والخبث من شيم الضعفاء الذين تنقصهم الخبرة وحسن سياسة الأمور . وما كان نجاحي وما بلغته من مكانة في الغابة نتيجة لمكر أو خبث وُصِمتُ به ظلما ، ولكن الظروف واتتني ، وخدمتني المصادفات السعيدة في مختلف أرجاء الغابة . وإني لأكره أن أتكلم عن نفسي ، ولكن مادمت تدفعني إلى ذلك فإني أقول لك : إن الحظ + الشجاعة + الأخلاق = النجاح . فاحفظ هذه المعادلة .

وإذا كنت قد اخطأت كسائر البشر في تقدير موقفكم قبيل الحرب الأخيرة فاعلم أني وسكان الغابة جميعا كنا نعتقد جازمين أن ثورتكم قد هدّت من كيانكم وضعضعت نظامكم ، وقللت من حماسة رجالكم ، وأنكم إذا جد الجد لا تقوون على الوقوف أمام الوحش طويلا ، فلا يلبث أن يكتسحكم كما اكتسح غيركم من قبل .

ومن ذا الذي كان يظن أن نظاما أو تجربة كالبلشفية تستطيع أن تنتج مثل هذه المعجزة ؟

الدب : — يلوح لي أنك تنتقص فضل البلشفية وتسخر منها وتظن بها الظنون . وليس هذا بمستغرب منك ؛ فدولتكم تقوم على سيادة أصحاب رءوس الأموال وإن كنتم تسمونها ديمقراطية .

الأسد : — ودولتك تقوم على الدكتاتورية أو الفاشية ، وإن كنتم تسمونها حكومة الشعب .

الدب : — أتقول الفاشية ؟ هذه سبة ، ولست أسمح لك مطلقا أن تنتقص من قدر حكومتي ، وسأعلمك كيف تحترم . . .

وهنا حاول الدب أن يمد مخلبه ، فقام الأسد غاضبا وقال :

الأسد : — كنت أظن أن محادثتنا ستنتهي كما بدأت في اتزان وروية وحسن قصد متبادل . فأمّا وقد تقمصتك طباع الوحش الذي هزمناه ، فإني ذاهب لعرض أمري وأمرك على مجلس الغابة .

الدب :— إنى آسف . . .

الأسد :— حبذا هذه اللهجة ! ولست أدرى لماذا لا نصطنعها فى أثناء مناقشاتنا فى المؤتمرات واللجان التى نعقدها .

الدب :— دع العواء والزئير للمؤتمرات ، ولنكن الآن فى هدنة علمية وإلى اللقاء .

محمد رفعت

عود إلى مكياڤللى وأميره

فى كل وجهة ، وفى كل طريق من الحياة العامة فى أوربا — وفى غيرها من بلاد العالم — نجد اسم مكياڤللى مذكوراً ، فى الغالب ، فى معرض السوء . فإذا رأينا سياسة الجشع والأثرة تسير عليها الدول ، وصفنا هذه السياسة بأنها مكياڤللية . وإذا رأينا الدس والوقيعة قلنا إن هذه سياسة مكيافللى . وهكذا صار اسم هذا السياسى والأديب علماً على كل ما هو قبيح وعلى كل سيئات الحكم ومثالب النظم . وهكذا اكتسب هذا الرجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، وفى عصر النهضة فى إيطاليا ، شهرة غريبة على مر الأيام . ويغلب على الظن أنها شهرة باقية ما بقيت فى العالم أمم وما بقى للدول حكام ، وستظل هذه الشهرة قائمة وباقية بقاء النظم السياسية نفسها فى العالم .

لكن هل هذا الرجل جدير فى الواقع بكل هذه المثالب ؟ وهل هو رجل سوء حقًّا ؟ إن من يدرس حياة مكياڤللى وخدماته العامة للمدينة التى نشأ وعاش فيها ، مدينة فيرنزى — فلورنسا — لا بد أن يعلم حق العلم بأنه لم يكن رجل سوء ؛ فخدماته لتلك الدويلة الإيطالية الصغيرة ، وكانت إيطاليا عندئذ منقسمة إلى دويلات متحالفة ومتنافسة ، جديرة بكل تقدير ؛ وكان رجلا ذا ذهن متفوق ممتاز ، ومع ذلك ذاعت له هذه الشهرة السيئة لكتاب واحد من كتبه وضعه فى عزلته بعد أن ترك منصبه ، ورأى السلامة فى أن يقيم بضيعة صغيرة له ببلدة سان كاشيانو فى ضواحى فلورنسا . وقد اضطر مكياڤللى إلى هجر العاصمة بعد أن عاد الأمر فيها إلى أسرة مديتشى ، وتشتت أعضاء الحكومة التى كان يخدمها . ووضع هذا الكتاب بعد أن خدم دولته زهاء ثلاثين سنة خدمة جليلة ، وشاهد أحداث تلك الأيام الحافلة بالحوادث ، وعاشر الكثيرين من أبرز رجال عصره الحافل بالعظماء .

والواقع أن العصر الذى عاش فيه مكياڤللى كان عصراً عجيباً ، والمدينة التى

نشأ فيها كانت مدينة عجيبة[1] ؛ فقد كانت الدويلة التى عاصمتها فلورنسا من أهم الدويلات الإيطالية وأغناها ، وأكثرها تأثراً بالنهضة الأوربية التى عمت بلاد إيطاليا ثم بلاد أوربا فى ذلك العصر ، على أثر استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، وهروب العلماء البيزنطيين بما يحملونه من كتب ورثوها عن اليونان إلى البلاد الإيطالية . هذا ما يقوله المؤرخون عادة وإن كانت عوامل النهضة الأوربية ، وبخاصة فى إيطاليا ، أبعد مدى من هذا التاريخ ، وهى فى فلورنسا أبعد مدى من غيرها من البلاد . ألم يعش فى تلك المدينة العجيبة ، ويتجول فى أرجائها الشاعر دانتى قبل ذلك بقرنين ؟

ولد مكيافللى فى مدينة فلورنسا فى عصر من أزهر عصورها ، هو عصر لورنزو دى مديتشى[2] ، الذى كان أميرها وحاكمها فعلا ، وبالاسم فقط يعتبر المواطن الأول فى خدمة تلك الجمهورية ، وهو الذى بثرائه ومساهمته جمع العلماء والأدباء والمصورين والنحاتين وجعل مدينته فخر المدن الإيطالية ومركز الترف والرخاء ، وجعل منها مثال الحضارة بخيرها وشرها . ولكن ما لبثت هذه المدينة بعد موته أن اتجهت وجهة أخرى .

فقد عاش فى زمن لورنزو برز فى الحياة راهب اسمه سافونارولا[3] ، رأى تلك الحياة العابثة التى يحياها الأثرياء فى فلورنسا ، ورأى البذخ والمجون وتقليد العامة لهم ، فبدأ صوته يرتفع فى الكنائس داعياً الناس إلى نبذ الدنيا والعمل للآخرة ، مذكراً بالثواب منذراً بالعقاب ، وكان الناس يستمعون إلى عظاته فيبكون . فلقد عرف هذا الراهب القصير القامة الحليق الوجه ، كيف يجذب قلوبهم ويستولى على عقولهم . ولم يلبث الناس أن رأوا بعد قليل من الزمن هذا الراهب الصغير يستولى على امور المدينة ويحركها بين يديه ويقودها إلى طريق الخير ، خير الآخرة لاخير الدنيا ، فإذا مدينة الترف تنبذ الترف ، وإذا مدينة الحضارة تعود إلى التقشف ، وإذا المدينة تطرد أثرياءها وعيون أسرها ، وتنقاد المواعظ سافونارولا ولسحر حديثه ، وإذا المبشر يصير حاكما بأمره فى أمور الدنيا بالذات ، تلك التى يندد بها . وتسير الأمور فإذا به يصطدم مع البابا اسكندر السادس

(١) ولد نقولا مكيافللى فى ٣ مايو سنة ١٤٦٩ .
(٢) لورنزو دى مديتشى ١٤٤٨ — ١٤٩٢ .
(٣) ولد سافونارولا سنة ١٤٥٢ وأحرق سنة ١٤٩٨ .

صاحب السلطان الدينى الأكبر ويزداد بينهما الجفاء ، فيوقع عليه البابا وعلى مدينته عقوبة الحرمان الرهيبة ، فيقوى خصوم ساڤونارولا ومناهضوه ، وينفضّ الشعب من حوله ، ويسير هو حثيثا إلى نهاية عنيفة ، شأن مئات غيره من زعماء تلك البلاد المتقلبة ، أرادوا الخير وعملوا له ، فانتهت الحياة بهم إلى نهاية محزنة .

لم يعد آل مديتشى بعد نهاية ساڤونارولا ، بل أنشئت حكومة مجلس العشرة وهى التى شغل فيها الشاب مكياڤللى منصب سكرتير هذا المجلس .

خدم مكياڤللى هذه الجمهورية منذ تأليفها خير خدمة ، وعرف فضله فى المهمات التى تحتاج إلى لباقة وكياسة ونظر بعيد ، وكان يرسل إلى البلاد المختلفة ، فسافر إلى روما مرات عدة لتسوية خلافات كانت قائمة بين الجمهورية وبين الحكومة الدينية للمدينة الخالدة . وظل مكياڤللى فى خدمة مجلس العشرة إلى أن عاد آل مديتشى فتغلبوا مرة أخرى وطاردوا الجمهورية ورجالها . وحينئذ انقلب رجل النشاط والحركة والدهاء والسياسة ، رجل فكر ورجل قلم ، فأخذ يكتب ملاحظاته ويدون خواطره فى كتاب « الأمير » أولاً ، وهو كتاب يصف فيه مايجب أن يكون عليه الأمير ، وما يجب أن يتصف به من صفات حتى يكون ناجحاً محققاً لمراميه وأغراضه . وقبل أن ينفض يديه من هذا الكتاب ابتدأ كتاب « تعليقات على الحوليات العشر الأولى لتيتو ليڤيو[1] » وفيه يصف الجمهورية ومزاياها .

أما كتاب الأمير فقد اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكام من عصر مكياڤللى حتى الآن — ولا نقصد الأمراء بالذات ، بل نقصد الهيئة الحاكمة المسئولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لايحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطانها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى هذا الكتاب ؛ فهى لاتزال تسير على مبادئه ، تلك المبادىء السياسية التى فصل فصلا تاما بينها وبين الأخلاق ، فجلبت لصاحبها السمعة الشنيعة .

لنستعرض قليلا ما جاء فيه : إنه يبتدىء بالكلام عن نشأة الإمارات

---

(١) تيتو ليڤيو المؤرخ الرومانى الشهير (٥٩ — ١٩ ق . م .)

من وراثية ومحدثة مكتسبة ، ثم يصف كلا من النوعين ، ويأخذ فى بيان طريقة اكتساب الإمارات سواء أكان اكتسابها بالسلاح أم بالمصادفة الحسنة ، ويتكلم عن الذين اكتسبوا الإمارة بطرق الشر ، وكيف تقاس قوة الإمارات ، وما هى الإمارات الدينية ، وأنواع الجيوش والمرتزقة منهم .

ثم يأخذ فى الكلام عن الأمراء وفن الحرب ، وما يحمد الأمراء من أجله وما يذمون عليه ، وعن جود الأمير وشحه ، وعن قسوته وحلمه ، وهل الخير له أن يُحَبَّ أم أن يُخشى ، وكيف يجب أن يحافظ الأمراء على كلمتهم ويتجنبوا الكراهية والاحتقار ، وقيمة الحصون للأمير ، وكيفية الحصول على الشهرة . ثم يتكلم عن كاتمى أسرار الأمير وعن تجنب المرائين ، ولماذا خسر أمراء إيطاليا بلادهم ، وضرورة تخليص إيطاليا من المتوحشين .

وقد يرى مكيافللى فى أسوأ حالاته ، على الأقل فى هذا العصر ، عندما يسائل مثلا : هل الأفضل أن يُحب الأمير أم أن يُخشى ؟ ثم يجيب : لعل من المرغوب فيه أن يجمع الإنسان بينهما . ولما كان من العسير جمعهما لدى شخص واحد ، فمن الأسلم للأمير أن يخشى بدلا من أن يحب ما دام مضطرا إلى النزول عن أحد الأمرين . فالناس بوجه عام منكرون للجميل متقلبون خونة جبناء طماعون ، وهم معك ما دمت ناجحاً ، ويبذلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ما لم تكن لك حاجة إليهم ، فإذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

وفى رأيه أن كل إنسان يؤمن بأن من فضائل الأمير أن يكون وفيا وأن يعيش مستقيما بعيداً عن الخداع ، ومع ذلك تثبت تجاربنا أن الأمراء الذين أتوا أعمالا كبيرة لم يأبهوا كثيراً لإراقة الدماء ، وعرفوا كيف يحتالون على خداع الرجال ، وفى آخر الأمر انقلبوا على أولئك الذين وثقوا بهم . ويجب أن تعلم أن هنالك طريقين للنضال : أحدهما القانون ، والآخر القوة . والأول خاص بالناس والآخر بالحيوان . ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية فى أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى . لذلك كان من الضرورى أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان . . . والأمير إذ يضطر لمسلك الوحوش يجب أن يسلك مسلك الأسود والثعالب . فالأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب . . . ولكن من الضرورى

أن يعرف جيداً كيف يخفى هذه الصفة ، وكيف يكون خداعاً ومرائياً . ففى الناس بساطة كبيرة ، وفيهم شهوة للوصول إلى رغباتهم ، فمن يحاول أن يخدع فلا بد أنه واجد مخدوعاً . . . ليس من الواجب أن يكون الأمير حائزاً لجميع المزايا ، ولكن من الضرورى جدا أن يظهر بمظهر الحائز لها .

فى هذه الأقوال وفى أمثالها وجد الناس فى مكياڤللى سياسة شيطانية ، وأخذوا يلومونه ويرون أن ما جاء به مخالف للفضائل ولواقع الأمور . ولو سار الأمراء على مذهبه لضلوا ؛ ولكن مكياڤللى وجد الكثيرين من المدافعين عنه وعن آرائه .

أما الدفاع عن آرائه فيقوم على أقوال من الكتاب نفسه ، فهو ينطوى على آراء حكيمة وأحياناً نبيلة لا غنى عنها للأمير أو الحاكم ، مثل قوله : « لا أريد أن أترك جانباً هامًّا من هذا الموضوع ، فهو خطر لا يمكن حماية الأمراء منه إلا فى صعوبة إذا كانوا شديدى الحذر نافذى البصيرة هو خطر المرائين الذين يمتلئ بهم بلاط الملوك ؛ لأن الناس يتساهلون فى أمورهم ويخدعون بطريقة ما ، فلا تسهل وقايتهم من هذا الوباء ، وإذا حاولوا ذلك تعرضوا لخطر الوقوع فى الاحتقار . ولا سبيل لحماية أنفسهم من المداهنين ألا بتفهيم الناس أن إخبارهم بالصدق لا يضايقهم ، ولكن إذا ما أخبر كل واحد الأمير بالصدق ففى ذلك ما يقضى على الاحترام .

« لذلك كان على الأمير أن يجد سبيلا ثالثاً ، هو أن يصطفى العقلاء فى دولته ويسمح لهم وحدهم بحرية قول الصدق له ، وذلك فيما يسأل عنه وحده لا فى أمور أخرى . »

وفى صفحات عدة من كتاب الأمير ، وفى صفحات أكثر من كتابه المسمى « تعليقات على الحوليات العشر الأولى من تيتو ليڤو » تجد فى مكياڤللى النظرة الحكيمة المجردة ، ولكنها تدل أكثر من ذلك على روح الوطنية ، والأمل فى أن يجتمع شمل الدويلات الإيطالية فتؤلف وحدة كبيرة إيطالية ، تكون فى مركزها وخطرها مثل الدولة الرومانية فى أوج مجدها . هذا هو الحلم الذى كان يحلم به ، ولا يزال يحلم به دائما أبناء إيطاليا المفكرون ، وهذا هو السبب الذى أدّى برجل مثل مكياڤللى فى سلامة تفكيره أن يتخذ من طاغية

مثل شيزارى بورجيا ابن البابا اسكندر السادس[1] مثالا للأمير الذى يعمل لنجاح فى أغراضه . ذلك أن شيزارى بورجيا مع كل ما سجله له التاريخ من فظائع ، كان طامحاً إلى أن يجمع إيطاليا فى ظل سلطان واحد، ويعيد إليها وحدتها ويمنع عنها سلطة الفرنسيين والألمان الذين يسميهم الإيطاليون الوطنيون بالبرابرة ، وذلك بعد أن اقتطع له أبوه من أملاك الكنيسة ملكا .

عرف مكيافللى شيزارى بورجيا وخالطه حين أرسله مجلس العشرة فى بعثة سياسية ، وعرف مطامحه وآماله ، فرأى فيه قبل كل شىء الأمير الذى يحقق آمال نفسه وآمال كل مثقف فى إيطاليا . ثم سارت الحوادث سيرها ومات البابا اسكندر السادس على قوته فى وقت لم تكن تنتظر فيه وفاته ، وصادف أن أقعد المرض شيزارى فلم يستطع أن يتحكم فى انتخاب البابا الجديد ، فانتخب البابا بيوس الثالث الرقيق الحاشية ، ولكنه لم يعمر غير أشهر ثم مات ، وعلى أثر وفاته انتخب البابا يوليوس الثانى العظيم العنيف محب الفنون المكافح المقاتل ، عدو آل بورجيا ، فكانت النهاية التى أدت بشيزارى إلى الفرار ثم إلى الاعتقال فى إسبانيا ثم الهروب ثم الموت مقاتلا فى بلاد بعيدة .

كل هذه الأمور يستخلص منها سكرتير مجلس العشرة العبر وهو بمنفاه فى داره الصغيرة حيث ينفذ إلى مبادئ الأمور وأصولها فى السياسة بعد أن مارس السياسة لا ممارسة المضطر بل ممارسة الرجل الذى خلق لهذا العمل . وهو إذ انقطعت الأسباب بينه وبين السياسة إلى غير رجعة وإلى غير أمل ، بل ربما لم تنقطع عنه أسباب الأمل الذى يرى تحقيقه بعيداً ، يكتب فى عبارته الهادئة المنحوتة فى جلاء كنحت التماثيل اليونانية فى صفائها وإباناتها وتحديدها ، فيستخلص خلاصة الأشياء التى إن طبقتها فى كل زمن تجد الأمراء أو قل ذوى الأمر يسيرون عليها أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

لك أن تصخب وتقول إن طبيعة البشرية خير من ذلك ، ولكن تمعن قليلا فى أمور هذا العالم الحديث الذى لا يعرف الأمراء وإنما يعرف الدول وقس مسلك هذه الدول بمعيار من المعايير التى وضعها مكيافللى : إن هنالك طريقين للنضال ، أحدهما القانون والآخر القوة ، والأول خاص بالإنسان والآخر

(١) البابا اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وتولى عرش البابوية من ١٤٩٢ — ١٥٠٣ .

بالحيوان ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية فى أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى ؛ لذلك يجب أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان — عبارة مثيرة ، ولكن أليس يسير عليها أصحاب السلطان حتى اليوم ؟

قد يكون فى كأس الكاتب شىء كبير من المرارة ، والواقع أنه لم يخلد إلى هدوء الضيعة فى سهولة . وتستطيع أن تقرأ وصفه البديع لحياته فى رسالة كتبها فى الزمن الذى كان يحرر فيه كتابه « الأمير » لتعلم من أمره كثيرا ؛ فقد كان يستيقظ مع الفجر فى كل يوم ، فيرتدى ثياب الفلاحين ويذهب إلى عمله فى ضيعته وحساباته إلى المساء . فإذا كان الغروب قصد إلى المقهى حيث يجلس بين الفلاحين ليلعب الورق ويضحك ويصخب ويشاحن ، فإذا قضى هزيعا من الليل قصد إلى داره وخلع ثيابه الخشنة وارتدى ثيابا أنيقة هى التى كان يرتديها حين يقوم بعمله ويقابل الأمراء والحكام ، وفى هذه الثياب يجلس إلى كتبه وأوراقه ومحبرته ليعاشر قوما مهذبين، كما يقول .

كان سكرتير مجلس العشرة فى السنوات الأخيرة من حياته يأمل العودة إلى أعماله الإدارية والسياسية . وقد لاح له هذا الأمل قريبا ؛ إذ طرد آل مديتشى مرة أخرى . وفى هذه اللحظة عاجلته المنية وترك تراثه تلك الكتب — وفى مقدمتها كتابه الخالد عن الأمير — التى هى جديرة بالدرس فى كل وقت ، والتى تحتوى على حقائق تعتبر وستعتبر دائما أسس السياسة الحديثة .

محسن محمود

طريق الهجرتين والعقد الالهى

هجرة إلى الله وهجرة إلى الرسول . فقد قال تعالى فى كتابه العزيز : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . »

ألّف الإمام ابن القيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ فى هذا المعنى كتابا جعل عنوانه « طريق الهجرتين وباب السعادتين » بيّن فيه أن للعبد فى كل وقت هجرتين ، هجرة إلى الله بالطاب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه ، والافتقار فى كل نفس إليه . وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه .

ولابن القيم كتب أخرى كثيرة ، غير أن هذا أفضلها ؛ لأنه يصور رأيه فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان فى هذه الدنيا ، وفى صلة المخلوق بالخالق ، من الفقر إليه والغنى به ، وفى الخير والشر وكيف يكون الخير من الله والشر من أنفسنا ، وفى القضاء والقدر ، وفى نفاة التعليل والحكمة والأسباب ، وفى الإرادة الإنسانية والمحبة .

وهذه كلها مسائل دقيقة خطيرة شغلت بال المسلمين منذ فجر الإسلام ، وهى شاغلة لأفكار المؤمنين بوجود الله من أصحاب الأديان ، بل هى شاغلة لأذهان الكفار والمشركين مادام المجتمع الإنسانى فيه الخير والشر والعدل والظلم .

ولقد حاول الفلاسفة والمتكلمون والصوفية حل هذه المشكلات كل فرقة حسب منهجها ومذهبها ، فاختلفوا فى ذلك اختلافا كبيراً . وخُيّل إلى أصحاب هذه المذاهب أنهم ملكوا عنان البيان ، واختصوا بالمنطق والبرهان ، فسموا أنفسهم الخاصة وسائر أفراد المسلمين دهماء وعوامّ ، وأطلقوا على الجمهور أهل السنة ، والإسلام الصحيح لايعرف خاصة وعامة ، أو أرستقراطية فكرية واجتماعية .

وتصدّى من أهل السنة فى كل عصر رجال يجادلون الفلاسفة والمتكلمين

والصوفية ، ولكن أبرزهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ومثلهما فى تاريخ الإسلام مثل سقراط وتلميذه أفلاطون فى تاريخ الفلسفة ، كلاهما لاينفصل عن صاحبه .

أول مسألة يحسن تقريرها فى هذا الصدد علة احتياج العالم إلى الله . وقد بادر ابن القيم بعد خطبة الكتاب بنفى مقالة الفلاسفة والمتكلمين وإثبات دليل آخر غير دليليهما ، فقال : ولهذا كان الصواب فى مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين تذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ؛ فإن الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث . والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار . وفقر العالم إلى الله تعالى أمر ذاتى لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغنى بذاته .

ثم مضى بعد ذلك فلم يتعرض للفلاسفة والمتكلمين الذين عُنى بالرد عليهم فى بعض كتبه الأخرى . ولكنه اهتم بالصوفية ؛ إذ أن مذهبهم يرمى إلى الوصول بل الاتصال بالله ، وهو أليق المذاهب بالهجرة إليه ، واصطلاحاتهم فى ذلك تنم عليهم ، فهم يصفون المتصوف بالسالك والمسافر والسائر ، إلى آخر هذه النعوت المميزة لأرباب السلوك وأصحاب الطرق .

والصوفية أصناف ، منهم المعتدلون ومنهم المتطرفون ، ولهم رموز واصطلاحات لايفهمها إلا المريدون . ولقد رثى ابن القيم للصوفى الذى يحمله التصوف إلى ولوج باب الحلول، فيقول : «سبحانى أو ما فى الجبة إلا الله . ونحو هذا من الشطحات التى نهايتها أن يغفر له ، ويعذر لسكره ، وعدم تمييزه فى تلك الحال . » والحلاج هو المقصود من هذا القول : ما فى الجبة إلا الله .

يطعن ابن القيم التصوف فى الصميم ، ويبطل غاياتهم ، كالقول بالحلول والاتحاد والفناء ، ويسفه طريقهم ، ويناقش أئمتهم البارزين . أورد رأيهم فى الفقر وهو باب السعادة وبداية الطريق . قال أبو المظفر الفريسى : الفقير هو الذى لايكون له إلى الله حاجة . وعقب القشيرى على هذا القول بأن صاحبه يشير إلى سقوط المطالبات ، وانتفاء الاختيارات ، والرضا بما يجريه الحق سبحانه . واعترض ابن القيم عليهما فقال : « إنه كلام مستدرك خطأ ؛ فإن حاجات العبد إلى الله بعدد الأنفاس . . . وأما أن يقال لا حاجة له إلى الله فشطح قبيح . »

الواقع أن مرد الخلاف بين أهل السنة والصوفية فى طريقة التفكير . المتصوفة يحكمون الذوق ، ويدركون الأشياء بعين القلب لا بنور العقل . وأهل السنة يجعلون الشرع قبلتهم ، ويتبعون الكتاب والسنة ، وينفذون إلى الحقائق « بالعقل الصريح والفطرة الكاملة » . ولابن تيمية كتاب اسمه « موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح » رد فيه على مزاعم الطاعنين فى أهل السنة . وقال ابن القيم : إن تحكيم الصوفية مجرد الذوق، وجعل حكم ذلك الذوق كليًّا عاما، فهذا ونحوه من مثارات الغلط .

ونحن نوافق أهل السنّة فى هذا الرأى الذى يجمع بين النقل والعقل ويوفق بينهما ، ويجعل المعول على العقل فى تفسير النصوص والنظر إلى الأمور . والرجوع إلى العقل الصريح هو أول لبنة فى بناء مذهب ديكارت من الفلاسفة المحدثين ، وهو القائل : « العقل الصريح le bon sens هو أكثر الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى . »

أما الذوق وهو طريق الصوفية فهو منهج لا يتفق مع طبيعة الحياة ، ولا يفسر كل شىء ، ولا يتفق عليه جميع الناس ، ولا تقبله جميع العقول .

ولقد حكى أبو حامد الغزالى عن نفسه أنه طاف بجميع المذاهب فلم يجد بغيته أو شفتْ غُلّته ، فانتهى إلى التصوف الذى عدّه أفضل المذاهب وأليقها بالاتباع . واستطارت شهرة الغزالى ، ولقب بحجة الإسلام ، واتبعه كثير من الناس ، فكان الاقتداء به علة فى تأخر المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا من قبل فى مقالنا عن « قضية العلم بين الغزالى وابن رشد » . واعترض علينا الأستاذ العقاد فى مجلة « الكتاب » مدافعاً عن الغزالى ، ولكننا حين ذكرنا أنه إحدى علل تأخر المسلمين لم نكن نقصد إلى رأيه فى العلم فقط ، بل لأنه اتخذ التصوف مذهباً ، فجعل الجمهور يُقبل على التصوف ، ويتخذ الذوق لا العقل عماده ، وينصرف عن الدنيا ويزهد فيها .

قال ابن القيم يعترض على الصوفية : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل .

وقال الصوفية بالتوكل ورفضوا الأسباب ، فأجابهم ابن القيم : فهذا كما أنه ممتنع عقلا وحسًّا فهو محرم شرعاً ودينا ؛ فإن رفض الأسباب بالكلية انسلاخ

بين العقل والدين ، وإن أريد به رفض الوقوف معها ، والوثوق بها ، فهذا حق ، ولـكن النقص لايكون فى السبب ولا فى القيام به ، وإنما يكون فى الإعراض عن المسبب تعالى . فمنع الأسباب أن تكون أسباباً قدح فى العقل والشرع . وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح فى التوحيد والتوكل . والقيام بها وتنزيلها منازلها ، والنظر إلى مسببها ، وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد ، وبين الشرع والقدر ، وهو الـكمال . والله أعلم .

إذا كان الله هو الخالق المبدع ، وهو العليم القدير ، وهو الفعال لما يريد ، فلماذا يعاقب الناس على أفعالهم ؟ وإن قلنا الإنسان حر فاين إرادة الله ؟

هذه هى المشكلة الـكبرى : القضاء والقدر ، وحرية الإرادة . وكيف يمكن التوفيق بين القضاء والقدر ، وبين الأمر والوعد والوعيد ؟

تحيزت بعض الفرق للقدر وحاربت الشرع ، وتحيز بعضها الآخر إلى الشرع وكذب القدر . والطائفتان فى نظر ابن القيم ضالتان .

وآمنت فرقة ثالثة بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهى ، ولـكنهم جعلوا مشيئة الله وقضاءه دليلا على رضاه به ومحبته له ؛ إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينهم وبينه . وقال بعضهم إن الله يحب الـكفر والفسوق والعصيان ويرضى بهـا .

وهذه كلها أقوال مشهورة ؛ فالمعتزلة ينسبون الحرية للإنسان وبهذا يصح عندهم الوعد والوعيد . والجبرية يثبتون القضاء والقدر ويعطلون حرية الفرد . وجاء الأشاعرة فقالوا بنظرية الـكسب الأشعرى التى أصبح يضرب بها المثل فى الدقة والخفاء ، حتى ليقال أخفى من كسب الأشعرى . وخلاصتها أن أفعال العباد مخلوقة لله مكسوبة لهم ، فجمعوا بين الإرادتين .

أهل السنة يختلفون عن هؤلاء جميعاً ، وهم غير الأشاعرة . فإن قلتَ إن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة ، فلا تنافى بين الحنابلة وأهل السنة . أليس الإمام أحمد بن حنبل هو الذى ضرب حتى خُلعت كتفه فى محنة خلق القرآن ، ورفض الجواب وقال : القرآن كلام الله لا أقول مخلوقاً أو غير مخلوق .

ورأى ابن القيم فى القضاء والقدر يتلخص فى شيئين : أن هناك حكمة إلهية فى كل ما خلقه الله وأمر به ، وأن الخير من الله والشر من العباد .

الحـكمة من صفات الله والحـكيم من أسمائه الحسنى . ومن حكمته أنه خلق

هذا العالم مركباً من أضداد ، كالليل والنهار ، والبرد والحر ، والداء والدواء . وخلق الإنسان منه الطيب ومنه الخبيث .

فإن قيل : لم خلق الله الأضداد ، وهلا جعلها كلها سبباً واحداً ؟

قال ابن القيم : وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها ، وإيصال مايليق بكل منها .

وسأل ابن القيم أستاذه ابن تيمية : فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة من المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة . قال ابن تيمية : خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع ، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ، ولكان عالماً آخر غير هذا .

أما حقيقة نفس الإنسان فإنها جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله ، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها . فإن قيل لم لاتكون النفس خيّرة ، كان هذا بمنزلة أن يقال : هلا تجرد الغيث عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى ، وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم ؟

كمال القدرة بخلق الأضداد ، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ، والعالم هو الذى يربط القدرة بالحكمة ، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه .

الجديد فى مذهب ابن القيم مذهب المحبة ، بها يفسر جميع المشكلات السابقة . فقد خلق الله العالم ، وأحب من خلقه عبادته فقال ، : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» . قال ابن القيم : فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته . وهو سبحانه ، كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ، ويثنى عليه ، ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى .

فالله سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ، ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك .

ويذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا : فهناك عقد إلهى بين الله وعباده ثمنه الجنة . وفى ذلك يقول : فالله سبحانه خلق عباده له ، ولهذا اشترى منهم أنفسهم ، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم . وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له ، مصطفاة عنده ، مرضية لديه . فالسلعة أنت ، والله المشترى ، والثمن الجنة .

ومحبة الله من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعصيته : فإن المحب لمن يحب مطيع . وكلما قوى سلطان المحبة فى القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها .

وإذا اقترنت المحبة بالإجلال والتعظيم أدت إلى الانقياد .

والمحبة أنواع : طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء . ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل . ومحبة أنس وإلف وهى محبة المشتركين فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة . وهذه الأنواع كلها لا تستلزم التعظيم ، ولا يتعارض وجودها فى الإنسان مع محبة الله . ولهذا كان رسول الله يحب الحلواء والعسل ، وكان يحب نساءه ، وكانت عائشة أحبهن إليه ، وكان يحب أصحابه ، وأحبهم إليه الصديق .

اما المحبة التى لاتصلح إلا لله فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم . قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » .

والمحبة تقتضى إيثار المحبوب على غيره . والإيثار نوعان : إيثار معاوضة ومتاجرة ، وإيثار حب وإرادة . والمحبة الصادقة فى الإيثار الصادر عن الإرادة ، لا فى إيثار المعاوضة وطلب الحظوظ .

ولا محبة بغير إرادة ، فهى أساس العبودية الذى لاتقوم إلا عليه ، فلا عبودية لمن لا إرادة له .

أما التجرد عن الإرادة إطاعة لهوى المحبوب ، فهو عند ابن القيم باطل كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

والتحقيق عنده أن المحبة هى موافقة المحبوب فى إرادته ، بأن يبقى مراده مراد محبوبه . وهذا عند الصوفية نقص فى العبودية ، وهو عند ابن القيم من كمال الإسلام .

وعلى هذا النحو يحل ابن القيم مشكلة التوفيق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية ، لا بطريق الفلاسفة أو المعتزلة أو الاشاعرة أو الصوفية ، بل بطريق المحبة .

أحمد فؤاد الاهوانى

المرأة والخمر عند الأعشى

لو بحثنا فى شعراء الجاهلية جميعهم ، حتى الذين اشتهروا منهم بالعشق والحب ، لم نجد فيهم من وصف المرأة مثلما وصفها الأعشى ، ولا ذكرها وتحدث عنها مثلما ذكرها وتحدث عنها الأعشى . ولو أنا درسنا شعراء الجاهلية لم نجد فيهم من تحايل للوصول إلى المرأة والتقرب إليها كما تحايل الأعشى عن صدق يدفعه بطبعه ، وعن محرك يميل به فى فطرته . فهو يعتمد فى ذلك على زينته مثلا :

ولقد أرجِّل جمتى بعشية — للشرب قبل سنابك المرتاد
والبيض قد عَنست وطال جراؤها — ونشأن فى قن وفى أذواد
ولقد أخالسهن ما يمنعنى — عُصُراً يملن علىَّ بالأجياد

أو يعتمد على رسله :

فبعثت جنيًّا لنا يأتى برجع جوابها
فمشى ولم يخش الأنيسَ ، فزارها وخلا بها

وأحياناً أخرى يعتمد على شعره ومجده أو مجد قومه :

فإن شئت أن تُهدى لقومى فاسألى — عن العز والإحسان أين مصيرها
ولا تصرمينى واسألى ما خليقتى — إذا ردَّ عافى القدر من يستعيرها

وينتهز الأعشى لذلك الفرص ، ويختلس المناسبات فى الليل والنهار وبين الرجال والحراس ، وحين يغيب الأهل والأقارب :

قد بت رائدها وشاة محاذر — حذرا يقل بعينه أغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها — حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

فرميت غفــلة عينه عن شاته   فأصبت حبة قلبها وطحالَـها
حفظ النهارَ وبات عنها غافلا   فخلتْ لصاحب لذة وخلا لهـا

ويتهم الأعشى فى سبيلها كل ناصح ورشيد :

ومستدبر بالذى عنــده   على العاذلات وإرشادها

والأعشى طلب المرأة شابًّا ، وتحسر على فقدانها شيخاً .

رأت عُجُزاً فى الحى أسنانَ أمها   لداتى ، وشبانُ الرجال لداتُها
فشايعها ما أبصرت تحت درعها   على صومنا ، واستعجلتها أُناتها

وقال يعذر فتاة صدته فى شيخوخته :

ألا قل لتَيَّـاكَ ما بالُها   أللبين تُحـْـدَجُ أجمالُـها ؟
أم للدلال فإن الفتـا   ة حق على الشيخ إدلالها
فإن يك هذا الصبا قدذبا   وتطلاب تَـيَّـا وتسآلها

ثم يتمناها ويتمنى أن تحور إليه لمته فى آهة باكية :

فأَنى تحوَّل ذا لمــة   وأنىَّ لنفسك أمثالُها ؟

بل يريد الأعشى أن يتكلف فى طلبها أبلغ المشاق .

ولَوَ ان دون لقائها   ذا لِبدة كالزُّجِّ نابُه
لأتيته بالسيف أمــــشى لا أهد ولا أهابه

ولقــد وصف الأعشى المرأة : وصف جمالهـا ووجهها وجسدها وثيابها ومواكبها ورحيلها ، ولم يترك فيها موضعاً يوصف إلا وصفه ، وصوره ورسمه فى إجادة ودقة :

بيضاء جمــاء العظام لهـا   فرع أثيث كالحبـال رجلْ
إذ هى تصطـاد الرجال ولا   يصطادها إذا رماهـا الأبل
كأن طعم الزنجبيل وتفا   حًا على أرْىِ الدبور نزل

ثم يصف نساء يسارقن النظر من وراء الكلال :

السارقات الطرف من ظعن الـ ـحى ورقمٌ دونها وكَلَلْ
فيهن مخروف النواصف مسـ ـروق البغام شادن أكحل
رخص أحم المقلتين ضعيـ ـف المنكبين للعناق زجل

أو يصف امرأة فيقول :

وإذا غزال أحور الـ ـعينين يعجبنى لِعابه
حسن مقلد حَلْيه والنحر طيبـة مِلابه
غراء يبهج زولهُ والكف زينها خضابه

أو يصف نساء على الحدوج :

واستقلت على الجمال حدوج كلها فوق بازل موقوفه
خاضعات يظهرن أكسية الخزّ (م) ويبطن دونه بشفوفه
وحشَن الجمال يسهكن بالبـا غز والأرجوان خمل القطيفه

إلى مثل ذلك الجو العجيب الذى أحاط الأعشى المرأة به ، ورآها بينه وأرادها أن توجد فيه ؛ وهو جو سحرى جميل كجمال المرأة نفسها ، وهو جو عَبِق بالمسك والكافور والزنجبيل وأنواع الفواكه ، وجو مفعم بالأزهار والورود والأقحوان والزنبق ، وجو فيه رقص وغناء وزمر ، وفيه خمر وقمار ، وفيه عهر ومجون ؛ وهو الجو الذى تحاط به المرأة حين تقودها الدوافع التى تلقى بها فى أيدى مثل هذا الرجل أو أضرابه . فالأعشى إذاً قد بهرته المرأة وهاجت نفسه ، فهو يحسها بجميع حواسه إحساساً صادقاً قويًّا ، وإحساساً شرهاً بهيجاً ، وإحساس المتفتح للحياة وألوانها بكل نافذة من نوافذ نفسه .

ولكنا مع ذلك الوصف وتلك العناية وذلك الاهتمام ، ألا نستطيع مطلقاً أن نقول إن الأعشى أحب المرأة يوماً أو احترمها ، ولا أن نقول إنه قد عشق المرأة عشق الود الخالص أو تعلق بها تعلق العاطفة المشبوبة . فإذا قال الأعشى إنه عشق فقد بدأ يكذب . فهو لم يتصل بامرأة ما اتصالا عاطفيًّا ولا اتصالا نفسيًّا ، ولم تكن له وشيجة يمكن أن نطلق عليها آمنين اسما من أسماء الحب العذرى أو

الهوى البريء . ونستطيع بيسر وبغير كد أن نتصور للأعشى أكثر من علاقة واحدة ، وأكثر من موضوع واحد . فما أكثر اللائى تعرَّف إليهن الأعشى ومازجهن واختلط بهن فى وقت واحد !

لهذا لم نر فى شعر الأعشى أحوال العاطفة العاشقة وأطوارها وتجاربها ، ولم نعثر فى شعره على اختلاجات القلب الخافق ولا وساوسه ولا آماله ومخاوفه . ولم نلق فى غزله تلك العاطفة المجردة السامية ، أو تلك المعانى المثالية أو الأحاسيس العفة المخلصة الطاهرة المحرومة ، أو ذلك الهيام الذى ينزع فيه الكائن الحى بكل وجوده إلى المخلوقة التى تكمله نزوع الوجد الملتهب والحنين المستعر .

إنما كان الأعشى عاشق جمال حسى فى المرأة وصائد متعة جسدية مؤقتة .

ولو ان دون لقائها جبلا مزلقة هضابه
لنظرت أنى مرتقا ه وخير مسلكه عقابه .

لماذا ؟ ألأن الوجد البريء يدفعه أو الشوق النزيه يوحى به ، أو الوحشة النفسية تزجيه وتحمله ؟ كلا . وإنما لأن المحب فى نظره دَنِسٌ ثيابه :

لأتيتها إن المحب (م) مكاف دَنِسٌ ثيابُه

بل كان همه من المرأة أن يقول :

من كل بيضاء ممكورة لها بشر ناصع كاللبن
عريضة بوص إذا أدبرت هضيم الحشا شختة المحتضن
يصب لها الساقيان المزا ج منتصف الليل من ماء شن

والأعشى كان لذلك يطلب فى المرأة ألوانها الزاهية البراقة اللامعة ، وهو فى ذلك مستهتر متهتك لا يبالى ولا يخجل ، مسرف مبالغ لا يقنع ولا يرتوى ، حتى فى أيام شيبه وفى عهد كهولته نراه يتطلع بعين متشهية إلى الماضى الماجن ، ويعود بذا كرته إلى أحداثه الدابرة .

والغريب أن رجلا كالأعشى — وهو على إلحاحه هذا وراء المرأة — لا نجد عنده ذلك الضعف والوهن ، أو ذلك التخاذل وتلك الذلة التى تصحب فى العادة مثل هذا الصنف من المزاج ، أو تلازم أشباه هذا الضرب من الطبع . ولعل

ذلك كان راجعاً إلى نجاحه فيما يبغيه ، أو إلى أنه كان يجد الفريسة والشريكة — إن صح هذا التعبير — من غير مشقة . وبذلك لم تكن به حاجة إلى اصطناع الذلة أو اصطناع الخنوع .

ولقد كنا نود أن نصف بعض صلات الأعشى ، لولا أننا لا نجد المادة الكافية فى تاريخه وسيرته . وإذا نحن أردنا أن نعتمد فى ذلك على شعره لاضطررنا إلى أن نخترع له الحوادث ، وإلى أن نحمل عليه القصص والأخبار ؛ لأن الأعشى لا يزيد فى شعره على الوصف الكثير ، فإن هو ذكر حادثة فإنما يذكرها ذكراً مقتضباً عاما لكى يخلص بذلك إلى الوصف ؛ فقد كان يجد فيه ، على ما يخيل إلينا ، لذة ومتعة لا يعدلها إلا لذته ومتعته بنفس الجمال المادى الذى يصفه ويتوق إليه ، ولأنه مع ذلك كله لم تكن — فى الغالب — للأعشى صلة طويلة بامرأة معينة ، أو أن من طبعه ألا تدوم له علاقة مع خليلة من خليلاته .

ولقد كان من المنتظر والطبيعى لرجل عاشر المرأة وشاهدها فى أوضاعها المختلفة واختلط بها ومازجها — أن يعرف هذا الرجل شيئاً عن طبيعية المرأة وأن يخبر بعض أسرارها وخفاياها . ولكن الأعشى رجل على العكس من ذلك . فأغلب الظن أنه مات ولم يفهم المرأة ، ولم يعرف كنهها ولا طبيعة مزاجها وأنوثتها على الرغم من كل تجاربه وصلاته بها . والسر فى ذلك بسيط ؛ فالأعشى رجل غلبه مزاجه وامتلكته طبيعته حتى لم يدعا له الفرصة التى ينظر فيها إلى المرأة حرا من قيودها خالصاً من أسرها ، وكانت لذاته وشهواته تغمره وتغرقه فلا تتركه يخرج منها ليدرس أو يمحص ، ولا ليلاحظ أو يحصى ، وكانت نفسه الساذجة تحول بينه وبين ذلك أيضاً . فالأعشى رجل مقاهٍ وخدن منتديات ومجالس . إنما كان يحسن المظاهر العملية ويتقن الأساليب المستعملة فى بلوغ غرضه . وكل ما عرفه الأعشى عن المرأة أنها تهجر الشيوخ وتطلب الشبان ، أو أنها تعشق المال وتلفظ الرجل الخالى . وهذه قضايا لا قيمة لها إذا قيست إلى ما كان ممكناً أن يستخلصه من القضايا الأخرى ، ومن الأحكام التى غفل عنها أو غابت عنه أو لم يفطن إليها .

وخلاصة القول فى غزل الأعشى أنه كان عاشق جمال ، يصفه ويتبعه ويمدحه ويحيا به ، ولكنه الجمال الحسى المادى . وكان هذا العاشق عاشقاً يخون أحياناً ويغدر أحيانا أخرى ؛ لأنه لا يرجو من وراء ذلك إلا إشباع نزعاته ، ولكنه

كثيرا ما صور هذا الجمال فى صور بارعة فاتنة ، وأظهره فى مظهر مغر جذاب ، وأحاطه بضروب المباهج وبصنوف الأفراح ؛ لأن الجمال الحسى كان فى حياة الأعشى كل شىء ؛ فهو الذى شكل أخلاقه وطبع عاداته ووجه تصرفاته وأعماله ، ولأن الجمال الحسى كان الهدف القريب الذى تهدف إليه النفس الحية الزاخرة ، وينزع إليه الكائن الممتلىء بالحيوية المرهف نواحى الحس .

وأى شىء أحق هنا بالتحدث عنه بعد المرأة إلا الخمر ، والخمر عند الأعشى خاصة . والحق أن المرأة والخمر كالشىء وظله . ومن الذى يصف الخمر غير الأعشى ؟ ذلك الذى شربها فى أباريق الفضة وكئوسها ، بل قال فى أباريق الذهب :

إذا انكب أزهر بين السقاة ترامَوا به غرباً أو نضارا

قال أبو عبيدة : الأزهر هو الإبريق الأبيض ، والغرب هو الفضة ، والنضار هو الذهب .

وشربها فقيراً كما شربها غنيًّا :

على كل أحوال الفتى قد شربتها غنيًّا وصعلوكا وما إن أقاتها

وشرب الأعشى الخمر فى الصباح ، ولم يتركها فى المساء :

وذات نواف كلون الفصو ص باكرتها فادّمجتُ ابتكاراً
غدوت عليها قبيل الشرو ق إما نقالا وإما اغتماراً
فلم ينطق الديك حتى ملأ ت كوب الرباب له فاستزارا

ويشربها الأعشى حتى يهذى ويخلط بين المدركات :

شربت الراح بالقلتين حتى حسبت دجاجة مرت حمارا

لأنه مسرف مبالغ :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا وثمان عشرة واثنتين وأربعا
من قهوة باتت بفارس صفوة تدع الفتى ماكا يميل مصرعا

بل لقد أهلك الأعشى ماله فى هوى الخمر .

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت ... مالى وكنت بهن قدْماً مولعا
الخمر واللحم السمين مع الطلى ... بالزعفران ولا أزال مروَّعا

والأعشى انتجع فى سبيل الخمر البلدان واخترق الصحارى وزار الأديرة :

وكعبة نجران حتم عليـ ... ـك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح ... وقيساً هم خير أربابها
لهم مشربات لها بهجة ... تروق العيون لإذهابها

والواقع أن مجلس الخمر عند الأعشى كان مجلساً حافلا غنيًّا زاخراً : غنيًّا بالخمر والمال ، غنيًّا بالندماء والفكاهات ؛ فكان يشربها :

فى شباب كمصابيح الدجى ... ظاهر النعمة فيهم والفرحْ
لا يشحون على المال وما ... عوّدوا فى الحى تصرارَ اللِّقَحْ

كذلك كان هذا المجلس غنياً بالموسيقا والمأكولات وبالأزهار والرياحين وبالمسك والكافور ، وكان يحتسيها بين مناظر الطبيعة الغناء وبين ربوعها الفيحاء. وكان مجلسه آخر الأمر أو أوله عامراً بأهم شيء أو بالسبب الأول الذى كانت تقام هذه المجالس من أجله ، وهى القيان والراقصات والمغنيات أو المرأة :

وكأسٍ شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها
وشاهدنا الورد والياسميـ ... ـن والمسمعات بقصابها
ومزمرنا معمل دائم ... فأى الثلاثة أزرى بها ؟

وقال :

يا من رأى عارضا قد بت أرمقه ... كأنما البرق فى حافاته الشعلُ
لم يلهنى اللهو عنه حين أرقبه ... ولا اللذاذة من كأس ولا كسل
فقلت للشّرب فى دُرْنى وقد ثملوا ... شيموا . وكيف يشيم الشارب الثمل ؟
برقا يضىء على أجزاع مسقطه ... وبالخبية منه عارض هطل

ولكن الأعشى عندما يصف الخمر يصفها وصفاً ظاهريا، يصف وجودها الخارجي وألوانها وكؤوسها، ويصف مجالسها والحاضرين فيه، ويعين أوقات شربها وكمية هذا الشراب دون أن يزيد على ذلك وصف أثرها في النفس، ذلك الأثر المعنوي المجرد، ودون أن يذكر أحوال الخمار ومعاني السكر والغيبوبة أو أحاسيس الذهول والنشوة، وصلة ذلك كله بالحياة والوجود والموت.

ويحسن بنا أن نذكر وصفاً كاملا لمجلس من مجالس الخمر عندالأعشى، لنتبين حقيقة ما نقول:

وشمول تحسب العين إذا ... صُفِّقت وُرْدَتَها نور الذَّبَحْ
مثل ذَكِي المسك زاكٍ ريحها ... صبَّها الساقي إذا قيل تَوَحّ
ذات غور ما تبالي يومَها ... غرف الإبريق منها والقدح
وإذا مكوكها صادمه ... جانباه كر فيها فسبح
فترامت بزجاج معمل ... يخلف النازح منها ما نزح
تحسب الزق لديها مسنداً ... حبشيًّا نام عمداً فانبطح
ولقد أغدو على ندمانها ... وغدا عندي عليها واصطبح
ومغنٍ كلما قيل له ... أسمع الشَّرْبَ فغني فصدح
وثنى الكف على ذي عَتَبٍ ... يصل الصوت بذي زير أبح
فترى الشرب نشاوى كلهم ... مثل ما مدت نصاحات الربح
بين مغلوب كريم خده ... وخذول الرجل من غير كسح
وشغاميمَ جسامٍ بُدَّنٍ ... ناعمات من هوان لم تُلَح
كالتماثيل عليها حللٌ ... ما يوارين بطون المكتشح

وأخيراً لم يكن شرب الخمر في الجاهلية عيباً في ذاته، إنما كان العيب في الإدمان والإسراف. ولقد أسرف الأعشى حتى فاق سائر الناس. ونحسب نحن أن ما شجعه على ذلك وحفزه إليه إنما هو جريه وراء المرأة، وطلبه لها في أي صورة تكون وفي أي مكان توجد، وحرصه على أن يحيطها بأنواع اللذات وشكول المتع، مع إسراف الحس ومبالغة الرغبة الكامنة في طبعه ومزاجه.

علي ابراهيم الاُقطاسه

تصدع مبدأ سيادة الدولة

يكاد يجمع الفقه الحديث للقانون الدولى العام على أن السبب الجوهرى لإخفاق نظام السلامة المشتركة فى عصبة الأمم هو أن تلك العصبة كانت دولة بين الدول ولم تكن دولة فوق الدول ، وكان ميثاقها يتطلب فى إصدار قرارات المجلس أو الجمعية (مادة ٥ فقرة أولى) إجماع آراء الأعضاء الحاضرين فيما عدا حالات قليلة تتعلق بالإجراءات وغيرها وردت فى الميثاق على سبيل الحصر (المادة ٥ فقرة ٢ والمادة ١٥ فقرة ٤ وفقرة ١٠) .

ولقد لقيت قاعدة الإجماع هذه نقدا شديدا ؛ لأنها فسرت علما وعملا بأنه من حق أية دولة أن تمتنع عن المساهمة فى تنفيذ القرار الذى اتخذ متى ما رأت مصلحتها فى ذلك . وكان النص على هذه القاعدة فى الميثاق أمارة صارخة من أمارات تمسك الدول الأعضاء بمبدأ سيادة الدولة .

لسيادة الدولة وجهتان : وجهة داخلية ، ووجهة خارجية : أما الوجهة الداخلية فلازمة لا غنى عنها ؛ إذ ليس من يمارى فى أن الحياة البشرية لا بد لها من حكومة تشرف عليها وتدبر شئونها ، وهى على كل حال ليست محل بحثنا اليوم .

أما الوجهة الخارجية — وهى التى يدور عليها هذا المقال — فقد ظلت إلى اليوم عقبة كؤودا فى سبيل إقامة سلطة دولية فوق الدول ترسم للعالم السياسة العامة وتحول بذلك دون تصادم المصالح القومية ، على نحو ما رأينا تصادمها منذ إنشاء عصبة الأمم إلى أن اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية .

ولهذا رأينا الفقه الدولى يعلن الثورة على الأوضاع القديمة ،وينادى بمبادئ جديدة قوامها الحد من مبدأ سيادة الدولة وإخضاعها خارجيا لمقتضيات المجتمع العالمى . ويعلقون على ثورتهم السلمية تلك ، أمل إنقاذ الإنسانية جمعاء من هذه الحروب المتكررة ، ومن هاته الأزمات الاقتصادية الدورية .

وكان أول ما نادى به فقهاء القانون الدولى العام — من سنوات سابقة على نشوب الحرب الحالية — ضرورة إلغاء قاعدة « الإجماع » من عهد عصبة الأمم وما يتفرع عن ذلك الإلغاء من تقييد الأقلية برأى الأغلبية ، ومن فرض قاعدة إجبارية للتحكيم بدل القاعدة الاختيارية الأولى ، تكفل الالتجاء إليها ، وتنفيذ ما يصدر من قرارات مبنية عليها قوات دولية مندمجة ، إن تعذر إنشاؤها فورا ، فلا أقل من أن تجمع الدول كلمتها عليها حتى يهضم العالم ذلك المثل الأعلى ويسيغه .

وإن هذا الاتجاه الجديد لهو فى واقع الأمر صدى للحوادث التى تعاقبت من يوم أن انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح سنة ١٩٣٢ إلى يوم أن نشبت حرب سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٥ . ذلك أن تاريخ العالم فى هذه الفترة ينبئنا بأن الصراع الوحشى الذى شهدناه أخيرا من دول تقول إنها متمدنة ، لم يقم إلا بسبب تمسك الشعوب بمبدأ سيادة الدولة ، ولعدم اكتراث تلك الشعوب بما وقع من انتهاك متكرر للعهود والمواثيق مادامت مصالحها المباشرة لم تكن قد مست بعد .

لقد ظنت أن الأمر لا يعنيها إذا انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح سنة ١٩٣٢ ، ثم من عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ ، ولا يعنيها إذا هاجمت اليابان منشوريا معتدية على زميلتها الصين عضو عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ ، ولا يعنيها إذا احتلت إيطاليا الحبشة زميلتها فى العصبة سنة ١٩٣٥ ، ولا يعنيها إذا احتل هتلر منطقة الرين المجردة ناقضا اتفاقيات لوكارنو سنة ١٩٣٦ ، ولا يعنيها إذا اصطرعت الشيوعية والفاشية على أرض أسبانيا سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٨ ، ولا يعنيها إذا ضمت ألمانيا النمسا سنة ١٩٣٨ ، ثم بوهيميا ومورافيا وميمل سنة ١٩٣٩ ، وإذا احتلت إيطاليا ألبانيا سنة ١٩٣٩ . حتى إذا احتل هتلر دانتزج وغزا بولندة واقترب الخطر بذلك من انجلترا وفرنسا ، وأوشكت المصالح المباشرة أن تمس ، استيقظت الشعوب من سباتها قبل فوات الفرصة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ .

فلا عجب أن نرى مبدأ سيادة الدولة يتقوض إزاء ما رأيناه من اشتداد التنافر بينه وبين حقائق الحياة البشرية . ولا عجب أن نرى الفقه الدولى العام يقول إنه لانجاح لأية مؤسسة جديدة للسلام ، سواء اتخذت صورة مجرد اتحاد أوربى أو عالمى أو قارى ، أو صورة تشكيلات إقليمية تربطها عصبة أمم جديدة ، إلا أن تقتنع الحكومات ومن ورائها الشعوب بأن الدولة خاضعة بطبيعة الأشياء لمجتمع أوسع .

والاتجاه الفقهى الثورى اللافت للنظر هو تعديل مركز الفرد فى القانون الدولى العام. كان الفقه السائد قبل الحرب العالمية الثانية، أن الفرد ليس من أشخاص القانون الدولى العام. ولهذا رأينا القانون المذكور لا يلتفت إلى الأفراد التفاتا مباشرا، ولا يعنى بحقوقهم عناية مباشرة. وكان إذا حل بفرد ضرر من عدم تنفيذ دولة الالتزام الدولى، يلجأ ذلك الفرد إلى دولته لينال عن طريقها الترضية والإنصاف. وكانت النظرية السائدة إذ ذاك أن الحق الذى أهدر ليس حق الفرد ولكنه حق الدولة، حقها فى أن يلقى أفرادها المعاملة الحسنى من الدول الأخرى.

ولم يكن إذن للفرد، فيما عدا حالات نادرة قليلة الأهمية، حق الالتجاء مباشرة إلى المحاكم الدولية، وإنما كان ذلك من حق دولته. وكان عليها أن تتمسك بأن الحق المعروض هو حقها لتمتد إليه ولاية تلك المحاكم، ولطالما تعقدت الإجراءات وتراخى إحقاق العدالة.

ولهذا أشاروا بالتوسع فيما كان للفرد — من قبل — من حق المثول مباشرة أمام المحاكم الدولية: كان له ذلك أيام أنشئت «المحاكم المختلطة التحكيمية» سنة ١٩٢٩ لتنظر فى مطالب الأفراد والهيئات الناشئة عن حوادث الحرب فى سنة ١٩١٤ / ١٩١٨، وكان له أن يمثُل أمام «اللجنة الدولية المشتركة» بين الولايات المتحدة وكندا، وأمام غيرها من الهيئات التحكيمية الدولية المحدودة.

ولقد اعترض بعضهم على المبدأ بأنه يخشى منه أن ترهق المحاكم الدولية بنزاعات تافهة أو كيدية. ولكنه اعتراض مردود؛ لأنه يصدق على المحاكم الإقليمية، ومع ذلك فهو لم يمنع من إنشائها.

وحسبُ من يخسر دعواه تحمُّله بمصاريفها وبالتعويض إذا اقتضى الأمر؛ ليحسب حساب عمله قبل الإقدام عليه. كما أنه من الممكن أن توكل تصفية النزاعات إلى دولة الفرد المتقاضى أولاً؛ فتقدم منها إلى المحكمة الدولية ما تراه جديرا بالتقديم، على أن يكون هذا الإجراء موقوتا ولفترة انتقال يزول بانتهائها.

ومبدأ سيادة الدولة يقوم على التعصب الوطنى الذى يدفع بالمرء إلى تقديم المصالح المباشرة لدولته على المصالح غير المباشرة — البعيدة والمحققة مع

ذلك — للمجتمع الدولى ، والذى يغرس فى نفسه الإحساس بأن دولته هى الحكم ، والخصم ، فيما يشجر بينها وبين دولة أخرى من خلاف .

ولهذا يشير المتأخرون من فقهاء القانون الدولى العام بإجراء تغيير جوهرى فى عاطفة الولاء ، ويرون ضرورة نقلها من الدولة الوطنية إلى الدولة العالمية . والسبيل عندهم ، إلى ذلك الهدف المثالى ، أن تحذف من كتب طلبة المدارس المواد التى توحى الولاء للوطن وحده ، وأن يلقنوا بدلها مزايا المجتمع الأوسع . ومما يساعد على تجلية هذه الفكرة لأذهانهم وتقريبها إلى قلوبهم أن تلقى عليهم مبادئ عامة فى الاقتصاد السياسى تثبت لهم استحالة نظرية الاكتفاء الذاتى ، بل قصورها عن أن تحقق لشعوب العالم غنيها وفقيرها الرفاهية المنشودة .

ولا تحسبن تلك الثورة الشاملة التى أعلنها الفقه الحديث على مبدأ سيادة الدولة ثورة مخدوعة خداعة ؛ فإنك إذ تتتبع نشوء الدولة وظهور العاطفة الوطنية تلمس أن التصدع الحالى الذى نشهده فى ذلك المبدأ إن هو إلا طور انتقالى محتم يأمل الخير من ورائه أولئك الذين لم يفقدوا بعدُ كل ثقتهم فى الطبيعة الإنسانية .

تكونت الدولة من اندماج — اختيارى أو إجبارى ؛ فذلك لا يهم — للأسر والعشائر ، ونبتت فكرة الحكومة من إحساس عام بضرورة قيام سلطة مركزية تشرف وتنظم وتنتقص من حرية الفرد والقبيلة فى التصرف تصرفا قد يضر بالآخرين .

وتفريعا على هذه الحقيقة التاريخية قالوا إن تعلق الفرد بوطنه هو عاطفة اكتسابية صناعية . فالوطن الذى يحبه المرء بطبعه هو وطنه الصغير ، قرية كانت أو مدينة أو بقعة صغيرة من الأرض ، يعرفها بتفاصيلها وتربطه بها ذكريات شخصية عزيزة ، هناك ولد غالبا ، وهناك يقضى عادة فترة حياته .

أما الوطن الكبير فإقليم متسع — كثيرا ولم يكن دائما — ما تختلف بقاعه وطباع أهله بعضها عن بعض . ولست أعرف وصفا لعاطفة المرء أصدق من وصف فولتير ، قال : « كلما اتسع هذا الوطن تناقص حبك له . إن الحب الموزع يضعف ؛ إذ أنه من المحال أن تحب من قلبك أسرة كبيرة العدد لا تكاد تعرفها . »

وإنك لتزداد يقينا من صواب هذا النظر إذا ما تقصيت النظريات المختلفة

التى اعتنقها مختلف الباحثين فى تصرف عناصر الوطنية وأصل تكوينها ، مما لا يتسع المقام هنا لعرضه[1] .

ويزيدك يقينا على يقين أن تعود بذاكرتك إلى ما كان يفعله الجنود المرتزقة من محاربة دولهم وقتل إخوتهم « فى الوطن » ، وإلى ما كان يقع من دخول الموظفين المدنيين خدمة الحكام الأجانب ، وما كانوا يبذلونه لهم من الولاء والأمانة مما لا يتصور بذله إلا لما تعارف الناس — أخيرا وعلى الخصوص من بعد الثورة الفرنسية — على تسميته بالوطن .

ولم تقف ثورة الفقه عند المسميات بل تعدتها إلى الأسماء . فلم نعد نقرأ عن قانون ما بين الدول ، بل أصبحنا نقرأ عن قانون ما فوق الدول .

وإن هذا النقد المرير لمبدأ سيادة الدولة إن هو فى واقع الأمر إلا صدى لبحوث متشعبة مترامية الأطراف . فلقد أثبت رجال الاقتصاد فساد النظرية القائلة بالاستقلال الوطنى فى المسائل الصناعية والتجارية والمالية . وأوضح رجال الاجتماع أن رفاهية شعب من الشعوب تتأثر بفقر شعب آخر ، وأن حبل السلام يضطرب بسبب ذلك ، وأن ظروف العمال وحالتهم الصحية والمعنوية تتأثر بعوامل دولية لا تعترف بالحدود السياسية . ونبذ رجال التشريع اليوم نظرية القانون الدولى العام المبنية على سيادة الدولة إلى نظرية إخضاع التشريع القومى والأنظمة القانونية الوطنية لقانون الأمم .

ولقد كان المأمول أن تسير السياسة الدولية وفق ذلك الفقه الدولى الحديث ، مدفوعة على الأقل بعبرة الماضى ، وما ذاقته الدول من نتائج التعصب الدولى .

فإذا بميثاق الأمم المتحدة لا يعدل عن « قاعدة الإجماع » القديمة إلا عدولا وهميا ، دفع ببعضهم إلى الاعتقاد بأنه يمتاز فى هذا عن ميثاق عصبة الأمم .

والواقع ، مع شىء من إمعان النظر ، غير ذلك . فلقد نصت حقا المادة ٢٥ من ميثاق الأمم المتحدة على أنه « يتعهد أعضاء الأمم المتحدة بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق هذا الميثاق » . وهى بذلك النص تمتاز — حقا — عن ميثاق

(١) راجع فى تفصيل ذلك ص ٨٧ — ص ٩٢ من كتاب :
World Order in Historical Perspective, by Hans Kohn, Harvard University Press, 1944.

العصبة حيث كان لكل عضو أن يقرر أن يشترك أو لايشترك فى تطبيق الجزاءات التى تقررها عصبة الأمم فى حالة معينة على دولة قامت بعمل من أعمال العدوان .

ولكنها كما قلنا مزية وهمية ؛ لأن المادة ٢ فقرة ٣ من ميثاق الأمم المتحدة حتمت توافر أغلبية سبعة أصوات من أعضاء مجلس الأمن الأحد عشر فيما لايتصل بالمسائل الإجرائية، وحتمت إجماع الأعضاء الدائمين وهم روسيا والصين وفرنسا وبريطانيا وأمريكا ، أى الخمسة الكبار ، على ما يقولون عن أنفسهم أو يقوله عنهم الناس ، لا ندرى .

وبذلك عدنا إلى قاعدة الإجماع القديمة ؛ لأن كل السلطات الفعالة تركزت فى مجلس الأمن ، دون بقية فروع هيئة الأمم المتحدة ، ولأنه أصبح فى وسع الخمسة الكبار أن يفرضوا إجماعهم على العالم ، وفى وسع واحد منهم أن يشل قرارا اتفق عليه الأربعة الباقون .

ويحق لنا بعد هذا أن نسائل : فيم إذن كل تلك الدماء الغزيرة التى نزفها شباب العالم وزهرة سكانه ؟ أو لم يكفل ميثاق الاطلنطى ــ أغسطس سنة ١٩٤١ــ لدول العالم أجمع حقوقا متكافئة فى الحصول على المواد الخام ، وفى التحرر من العوز ؟ أو لم يكن مفهوما من نصوصه وروحه أنه قضاء على مبدأ سيادة الدولة ، حيث لم نتصور دولة تتمسك بحريتها المطلقة فى العمل غير مكترثة بما قد ينال دولة أخرى من ضرر ، وتطالب مع ذلك تلك الدولة الثانية بأن تفتح لها أسواقها ومواردها وطرق المواصلات فيها ؟

إن ربط رفاهية العالم وسلامة شعوبه بتخلى الدول عن سيادتها الخارجية هو من قبيل ربط الغُنم بالغُرم ، وهو بذلك لا يمكن أن يلقى اعتراضا من منصف. وإذا كانت الوطنية ــ لُباب مبدأ سيادة الدولة ــ شعوراً جميلا حقًّا ، وكان لخير العالم أن يبدأ بالدولة ، فمن الخطورة أن يقف عند حدودها ، فيذكى الأثرة ويولد التنافس الحقود بين الشعوب .

ولو عمل مؤتمر الصلح المقبل على تدارك ذلك العيب الجسيم فى ميثاق الأمم المتحدة ، لأسدى إلى قضية السلام يداً لن ينساها له الآباء والأمهات .

سامى عازر جبرائيل

فى الصيف

استقبلت الصباح نشيطة غاية فى النشاط ، مبتهجة أشد الابتهاج ، تنتقل بين أرجاء المنزل فى حركة خفيفة سريعة ، يرتفع صوتها من حين إلى حين بألحان عذبة مرحة .

نظرت إلى المرآة وأطالت النظر ، فابتسمت . وترفقت يداها الدقيقتان تجعّد من شعرها الأسود ، ترفعه تارة إلى أعلى ، وطوراً إلى أسفل ، ثم تنظر إلى طيفها وتطيل النظر ، وتدفع برأسها الصغير إلى الوراء ، فتتهدل خصلات من شعرها على جبينها ، فترتفع يدها تداعبه يمنة ويسرة . ترفعه إلى أعلى وتخفضه إلى أسفل. وأخيراً تركته للهواء يداعبه كيف يشاء . ثم عمدت إلى أجمل أثوابها فارتدته . ودارت على عقبيها أمام المرآة ، فانفرجت شفتاها عن ابتسامة عذبة فيها رضا واطمئنان ، وفيها رقة وجاذبية .

« سيرانى الآن على أحسن حال وأوفاه . . . ما أعمق نظراته . . . » اضطرب جسمها اضطراباً يسيراً عندما ألم بها هذا الخاطر . . . إنها تتعجب لشعورها نحو هذا الشاب الذى أتى منذ أيام قليلة ، يستأجر الطابق العلوى من منزلهم ، فاستقبلته على أحسن ما يستقبل به القوم الذين يفدون إلى الإسكندرية فى هذه الفترة من الصيف ، لكنها لم تكد تراه حتى اضطربت لنظراته النفاذة أعمق الاضطراب ، نظر إليها فأطال النظر ، وصافحها ، فضغط على يدها فى رفق ورقة زادتها اضطرابا .

طوّفت به حجرات المنزل . وهو لا ينطق إلا بالإعجاب ، ولا يبدى إلا الثناء . وسرعان ما وصل إلى اتفاق مع أمها . . . فقد أفهمها الدليل الذى صحب الشاب إلى المنزل ، أن الأسرة القادمة من القاهرة ، كريمة أصيلة ، ذات مركز مرموق . ولم ينس أن يضيف أن هذا الشاب غير متزوج و . . . وسرت كلماته فى نفسها مسرى السحر ، فأتمت عقد الإيجار فى لحظات يسيرة . . .

وقفت آمال فى شرفـة المنزل ترقب فى قلق ، تلك السيارات التى تمر مسرعة لاتلوى على شئ ، فينبض قلبها ، ويشتد ، ثم يشتد حتى يعلو أصواتها أو يكاد ، فتتبعهـا بنظرات تملؤها الحسرة حيناً ، والأمل أحيـاناً ، والأسف غالب الأحيان .

انتظرت فأطالت الانتظار ، فهمت بالانصراف . ولم تكد تخطو خطوات يسيرة ، حتى وقفت بغتة ؛ فقد وصلت الأسرة . . . قفز بصرها إلى باب السيارة يسترق النظر إليه ، ولـكنها لم تقو على الانتظار فأسرعت لتكون فى شرف الاستقبال . ألقت نظرة قلقة حائرة ، بين ابراهيم بك وزوجته الفاضلة وبين ابنه وابنته . . . على . . . أين على . . . ؟ ولـكنها أخفت اضطرابها واستقبلتهم بما يليق أن يستقبل به ضيوف كرام ، متمنية لهم أجمل الأمانى وأسعد الأيام .

حمد الله كثيراً ما وسعه الحمد والشكر . إنها العنـاية الإلـهية قد أعطته فأجزلت له العطاء ، فقد نال إجازته السنوية بعد طول التمنع والإباء . التمنّع من الرؤساء ، والإباء من كل من يمتّ إليهم بصلة . .

أخذ مكانه فى القطار السريع يطوى به الأرض طيًّا صوب الإسكندرية ، بلد الحب والجمال . . . ، وكانت تصعد زفرة حارة مع كل نسمة من أنفاسه يخفق لها قلبه ، فيعتدل فى جلسته ، ويلتفت يسرة إلى هذا الرجل الجالس أمامه يطمئن لعدم مراقبته إياه . . . ، يسرع ببصره إلى تلك الفتـاة الجالسة جواره يرقب ابتسامة حائرة بين شفتيها فيزداد اضطرابه ، فينصرف عنهـا إلى نافذة القطار يُسَرِّى عن نفسه بتلك المناظر التى تمر سريعـاً أمام عينيه ، فتنطلق روحه فى الفضاء حائرة بين القاهرة ، سريعة العـدو نحو الإسكندرية . إنه ماضٍ حزين ، مستقبل باسم ، يالها من بسمة تصل الماضى بالحاضر ! ياله من ماضٍ أوشك فيـه أن يصبح رب أسرة دعائمها الحب وأركانها الإخلاص !

أحب فتاة بادلته حُبًّا بحب ، وإخلاصاً بإخلاص ، فبنيا معا فى ومضات من هذا الفيض الرائق عش الأمانى . وما إن اكتمل بناؤه وتحددت أركانه حتى هبت ريح عاصف أطاحت به . نظر الشاب فى حسرة وألم إلى انهيار آماله . . . فتاته أصبحت تسـأم منه وتسخر من أفـكاره ، وقد كانت تتلهف إلى سماع نبرة من صوته العذب الرنين فى أذنيها . أعجبت بطبيب شاب عادها أثناء مرضها ، خدعها

منصبه وماله فهامت به ، فأطاحت بخطيبها بل بمستقبلها ، فلم تلحق حتى بهذا الذى مر فى طريقه لا يلوى على شئ . . .

انحدرت دمعة على خد الشاب وانفرجت شفتاه عن بسمة إن جاز للحزن والسرور أن يجتمعا فى لحظة . . . حزن لهذا الحب الضائع وسُر لطائف جميل ألم به . . . وإنه لطائف رقيق جميل يبعث على السرور حقًا . . . يصل الماضى بالحاضر . . . يبعث هذا الحب الضائع فى أمل مقيم . . . إنها فتاة الإسكندرية التى خفق لها قلبه عند رؤيتها فى اللحظة الأولى . . . فأصبح يقيناً لديه هذا المثل السائر « يخلق الله من الشبه أربعين » . لكن كفاه اثنان . . . صفحة قد طواها ، وأخرى أقبل عليها فى لهفة وأمل . . .

مالت الشمس للغروب ، وانحنت فى رفق وحنان على صفحة البحر الرائقة كالحسناء تقبل أعز مخلوق لديها قبلة هى الحب الخالص الذى يبلغ حد الهوس والجنون . . . والذى هو أيضاً آية فى صفائه ونقاوته . احمر وجهها خجلا فزادته الحمرة رقة وجاذبية وجمالا . . . شعرت أن شخصاً يراقبها ويُسر لتلك المراقبة . . . فأنهت الوداع وأسرعت فى الإختفاء وفى قلبها خفقة أمل فى لقاء قريب . . . تاركة وراءها أثراً قد نحت فى قلب محمود روعة هذا الجمال الذى صوره الخالق فأبدع تصويره .

هبت نسمة من هواء منعش أفاقته من أحلامه ورمته فى أحضان الحقيقة ، حيث أقبلت والدته تحمل أقداح الشاى ، فاعتدل فى جلسته . وترك ابراهيم بك جريدته وجلس ثلاثتهم يتجاذبون أطراف الحديث ، الذى شاركهم فيه بعد لحظات آمال وشقيقتها سعاد ، فأكسبتاه بهجة ومرحا . غنت سعاد ما وعت ذاكرتها من الغناء الذى تصحبه بحركات من جسمها يكسبها رقة ويضفى على كلامها جاذبية . فقد اعتادت آمال وسعاد أن تترددا فى الأيام الأخيرة على أسرة ابراهيم بك تسليانهم بأحاديثهما العذبة المرحة ، حتى ائتلفتا معهم وأصبح إبراهيم بك لا يطيب الجلوس له فى شرفة منزله المطلة على البحر ، إلا إذا نادى الفتاتين ، سعاد تغنى وآمال تمدها بالعون من نكاتها اللاذعة التى تشجعها على المضى فيما تقول .

مر الوقت سريعاً والجميع فى جلستهم تلك ، حتى أقبل عليهم على حاملاً

حقيبته التى سقطت فى حركة لاشعورية حين أقبلت عليه والدته تمطره وابلا من القبلات ، ووالده وشقيقه محمود يهنئانه بسلامة الوصول .

سكتت آمال حين رأته ، فلم تنفرج شفتاها إلا عن كلمتين أو كلمات تحمد الله على حضوره ، فشكرها وهو مضطرب غاية الاضطراب ، فالجميع يحفون به ، والجميع ينظرون إليه ، ولكن نظرة واحدة زادته اضطراباً ، فآمال حائرة تنظر إليه تارة وإلى الجمع تارة أخرى ، تتبع نظراته أينما سارت ، وتنصت لكلماته وتتلذذ بوقعها فى أذنيها ، وهو يختلس إليها النظرات ، ويوجه إليها من حين إلى حين بضع كلمات . وسرعان ما يحوّل حديثه عنها مداعبا سعاد أو متلطفا مع والديه وهو فيما بين هذا وذاك قلق النظرات قلق الأفكار مضطرب الحديث . . . فلاحظوا عليه ذلك فعزته والدته إلى تعبه من مشقة الطريق ، وطلبت إليه أن ينهض ليستريح ، فما نام . . . يفكر ويطيل التفكير ، فيما تطويه له الأيام المقبلة . . . سعادة أم شقاء ، مستقبل باسم أم ليال حالكة السواد . . .

أقبل عليها بقلبه وروحه ونفسه ، خفق قلبه لها ، وتعلقت روحه بها ، وهامت نفسه حولها . . . لم يقو على فراقها أو البعد عنها . وأنَّى له ذلك ، وقد استولت على عقله ووجدانه وتغلغلت فى أعماق كيانه ، خفيفة رشيقة ، عذبة الحديث ، فيها رقة وجاذبية ، وفيها جرأة . . . اضطرب لها وزادته حيرة وخجلا فلم يدر مكانه منها ، لكنه قد عرف ووعى أنها حاضره الجميل ، ومستقبله الباسم .

أخذ يمر على منزلها فى خروجه وعودته . وما أكثر ما كان يخرج ويعود ! ويمر عليها . . يخترع لذلك التعلات ، أخذ على نفسه شكرهم على حفاوتهم بأسرته وما أحاطوهم به من وسائل الراحة ، لكنه فكر فأطال التفكير . . . فلواجبات الشكر نهاية . . . فسارعوا إلى إنقاذه . . . أو هم قد سارعوا إلى إغراقه . . ، فرضى قلبه ، وطابت نفسه بطوق النجاة ، وحبل الأمل . . . سعاد تتهيأ لدخول الامتحان . . . ليعطيها دروساً . . . فكان الدرس ساعة أو بعض ساعة ، فصار ساعات أو هو جزء من نهار . . . فإذا هو النهار كله . . .

سُرَّ أحمد . . . لذلك أعظم السرور ، أو قل أحمد بك كما يلذ لأسرته أن

تدعوه بهذا اللقب ، ولم لا ؟ فهو لا يقل عن البكوات فى شئ ، فهو يمتلك عمارة فى أرقى أحياء الإسكندرية تدر عليه العشرات بل المئات من الجنيهات ، وإن كان كاتبا أو رئيس كتّاب ، فليس هذا فى نظرهم إلا منصبا حكوميا تكتنفه الهيبة والوقار . . .

إذن فقد سرّ أحمد بك لذلك أعظم السرور ، وشاركته زوجته فى ذلك ، فقد عَبَّدا الطريق لعلى فأجادا تعبيده . . . فليمش فيه إذن فى أناة ومهل حيث ينتهى به حتما إلى آمال . . . حيث هى فى انتظاره وفى انتظار الخطبة السعيدة .

أكرما عليًّا وزادا فى إكرامه ، بل أكرما إبراهيم بك وأسرته أعظم الإكرام . وخرج محمود من هذا بأوفى نصيب ، كان أقرب أفراد الأسرة لعلى فأشركه معه فى زياراته أحيانا بل غالب الأحيان ، فألفه أحمد بك وزوجته وأحبته آمال وسعاد لمرحه وخفته . . . ولضحكته تلك التى تبدأ فجأة وتنتهى فجأة ، عالية واضحة منفصلة المقاطع ، يخيَّل لسامعها أنها مفتعلة وأن صاحبها يجيد التمثيل . لكن محمود بطبيعته السمحة التى لا تعرف الخداع يُطلقها على سجيتها ، معبرة أقوى تعبير عن روحه المرحة .

لاحظ علىّ أن آمال تحيط محموداً ببعض حبها . . . فنفى ذلك من ذهنه ، فآمال له ، وله وحده تتجه له بكل حبها ، فهو فى نظر والدها الزوج المنتظر ، فلتحطه إذن بأعظم قسط من الحب ، وأوفى نصيب من العطف والحنان .

انتهت إجازة على . . . وحانت ساعة رحيله . . . فاضطرب لذلك أشد الاضطراب ، فقد نسيها وغاب عن ذهنه أن هناك نهاراً وأن هناك ليلاً يعقب النهار وأن هناك وقتاً ينقضى ويزول . . . استيقظ فجأة من أحلامه ليغرق فى أعماق آلامه . . . ترقرقت فى عينيه الدموع ، وخفق قلبه خفقانا شديدا ، بل هى دقات حزينة متصلة ، أخذت تعلو ثم تعلو حتى ضاق بها صدره ، فحاول أن يودعها بكلمات فخرجت من شفتيه زفرات تتخللها كلمات قليلة خافتة ، يعدُها بأنه سوف يعود قريباً ، فهو لا يقوى على فراقها لحظة . . . فاغرورقت عيناها بالدموع ...

وكانت سعاد أعظم اضطرابا من آمال ، فلم تقو على إخفاء ألمها لفراق أستاذها . . . فبكت وبكت طويلا ولم يكن إلى إسكاتها من سبيل . . . بكت لأنه علمها أصول الحب والغرام . . . فلم تكن الدروس جدًّا خالصا . . . بل فيها دعابة . . . أحب علىّ آمال ، فحال كل من اتصل بها آمال . . .

ولم يكن أحمد بك بأقل ألماً من ابنتيه أو زوجته ، ولـكنه اطمأن لوعوده ، وبها قنعت زوجته ، وإن كان قد ألم بها طائف تطيرت منه فطردته من فكرها شر طردة . . . فكل ما حولها ينبئ بالسعادة لابنتها . . . فتوجهت إلى الله أن يشملهم بعطفه ورعايته ورضاه .

أخذت تجرى وتتدافع ، مسرعة حيناً خفيفة السعى حيناً آخر ، تحاول اللحاق ببعضها ، ولـكن ليس إلى ذلك من سبيل ، فهى تعلو وترق وتندفع إلى الأمام فتصدم صخور الشاطئ فى قوة هائلة فَتَـتَـنْـتَـشِر ذرات الماء فى الهواء صغيرة دقيقة ثم تعود من حيث أتت خائبة مدحورة . . . بل أشد ما تكون قوة وعزيمة ؛ فهى لم تيأس ولن تيأس ، ولن يعرف الضعف إلى قلبها من سبيل . فهى تعاود الـكرة مرة ومرة مسرعة سريعة الجرى متدافعة أشد التدافع تصدم الصخر فى قوة ما بعدها قوة لا تضعف ولا تلين .

ابتسم محمود لهذه الخواطر التى ألمت به فى جلسته تلك من هذا الصباح الباكر ، يرقب الصراع المتصل العنيف بين قوى الطبيعة . فهذه ثابتة شامخة بأنفها فى السماء ، واثقة شديدة الثقة بنفسها ، وتلك فى هجوم وانكسار ، فى إقبال وإدبار تريد أن تشق طريقها وإنها لبالغته ، وما تلك النتوء المنتشرة وهذه الفجوات المبعثرة ، والممرات الطويلة إلا النصر المبين وإن طال الزمن وبعدت الشقة .

أرسل محمود الطرف إلى هؤلاء القوم الذين أسرعوا مبكرين إلى الشاطئ يمتعون أنفسهم بمياهه المنعشة وشمسه الهادئة ، قبل أن يغَصّ حلقه ، وتشتد شمسه فتلفح الوجوه وتحرق الأجساد ، وإذا بموجة هائلة تندفع إلى الشاطئ فى قوة ترتفع لها ذرات الماء عالية فى الهواء ، ثم مسرعة إلى أسفل ، فينهض محمود مذعورا جادا فى الهرب ، فترتفع ضحكة خفيفة رقيقة مرحة أشد المرح ، فيقف فى مكانه جامدا يضحك من نفسه ، ملتفتاً إلى هذا الصوت الذى رده إلى هدوئه. فتقدمت آمال فى خفة وقد ارتدت للبحر لباسه ، وتهدلت خصلات من شعرها فوق جبينها تخفى أطراف عينيها ، فتهز رأسها فى حركة رشيقة فيها خفة ودلال فيعود إليه انتظامه ؛ فيظهر ثغرها وقد افتر عن ابتسامة عذبة وصوت هو أقرب إلى الضحك تحييه تحية الصباح ، وتدعوه إلى مشاركتها فى حظها من الرياضة ،

فيعتذر . . . فتلح أشد الالحاح ، فيعدها بالاستعداد فى الصباح التالى ، فتبتهج أشد الابتهاج وتقول له إنها سوف تكون فى الانتظار فى هذا الموضع وذلك المكان . ثم تندفع فى المياه فى حركة رشيقة بديعة إلى حيث صويحباتها تشاركهن لهوهن البرئ ، ورياضتهن المرحة .

استرجع محمود أفكاره ، فأسف أشد الأسف لهذا الوعد الذى انطلق من بين شفتيه تحت تأثير فتنة هذه الحورية التى خرجت من أعماق المياه رفيقة السعى خفيفة رشيقة تدعوه وتلح فى الدعاء . . . لا شك أنها بلبلت أفكار على بهذا اللحظ وهذه الجرأة ، فاندفع بين يديها يرتل آيات الحب والإعجاب ، حتى ضاق به والداه ، بل ضاقت بهيامه الأسرة كلها ، فإبراهيم باك متبرم بعلى يرى فى هذا الحب الطارئ والزواج الوشيك الوقوع نكبة عليه وعلى الأسرة . يعجب لعلى ولأفكاره تلك التى هبطت إلى الدرك الأسفل . انحدرت بمستوى الأسرة الرفيع السامى إلى مستوى الكتّاب وأشباه الكتاب . . . فيعزم فيما بينه وبين نفسه أن لو تم هذا الزواج فسوف يقطع كل ما بينهما من صلة . . . ثم تنغص عليه هذه الخواطر أيامه ولياليه فيجهر بعزمه إلى أفراد الأسرة ، فيؤيدونه ، ويشاركونه فى الضيق والتبرم ، ويأتلفون جميعاً على مقاطعة على ، وأن يقفوا سداً بينه وبين هذا الزواج .

طافت بذهن محمود هذه الخواطر ، وألمت به هذه الأفكار ، ورأى السحب تتكاثف وتتراحم وتنذر بسوء المصير ، فوطد العزم على الحضور فى الصباح التالى لمقابلة آمال . . . بعد أن هَمَّ بالانصراف عنها وعدم الاهتمام بها . . . فعلىّ أعماه الماضى وأذهله الحاضر ، فهو لا يدرى إلى أين يسير .

— إنك آلمتنى وزدت فى إيلامى ، انصرفت عنى فتغاليت فى الانصراف وقلة الاكتراث ، فعذبتنى . . وأى عذاب هذا الذى تسقينيه على جرعات قليلة بطيئة . . . راقبتك من بعد فهامت روحى بك ، فسعيت إليك ، فما زدت إلا تعلقاً ، ولكنى كلما زدت قربا منك زدتَ بعداً عنى . أصبحت فى حيرة من أمرى بل فى حيرة من أمرك . . . أحاديثك إلىّ ، بل تلك الكلمات القليلة التى تتفضل بها علىّ من حين إلى حين ، لا زيف فيها ولا رياء . . . لا مكر فيها ولا خداع ... لم أعهدها من أحد حتى علىّ ... هذا الإخلاص وتلك الصراحة فى كل ما يصدر من قول وعمل . . . إن الصراحة على مر مذاقها تهدى سواء السبيل .

— لاتنظر إلىّ هكذا يامحمود فإنك تزيد فى إيلامى، فاستُ كما أقرأ فى نظراتك، وفى تلك الابتسامة الساخرة . . . بعيدة الإخلاص ، فاسدة الضمير . . . فحبى لعلى إن شئت أن تسميه حبًّا . . . بل صداقتى له كما وضحت لى الآن، لن تتجاوز هذا الحد فى يوم من الأيام . حقيقة لقد أقبلت عليه بكل جوارحى ، أسمع كلمات المديح والإطراء حتى خفّت ضربات قلبى فتبينت على نقاء ضميرك زيفه ورياءه. فهل لك أن تقبل صداقتى ، وتسمع تلك الخفقة الصادرة من أعماق قلبى ؟

— إنى لفى حيرة من أمرك يا آمال ، ولفى عجب أى عجب لهذا الطلب الذى تودين ، وهذا الأمر الذى أنت عليه عازمة وفيه راغبة . فمن يوم أن تعرفت إلى أسرتكم ، قدأحببت فيكم هذا المرح الذى يُذهب عنا متاعب الحياة ، وهذا الظرف الذى أنسانا مر الليالى وكر الأيام فلن أنسى ما حييت هذه الأيام بل تلك اللحظات التى مرت كحلم جميل .

— محمود . . . إن سمحت لك بشىء فلن أسمح إلا بأن تكون صديقاً لشخص واحد فقط . . . فصديق الجميع ليس صديقاً لأحد .

وكانت جالسة بعيدة عنه فاقتربت منه وهى تبتسم فى عذوبة ورقة ، نظرت إليه نظرات طويلة عميقة . . . خفض لها بصره . . . فضحكت فى مرح ودلال ، فقد كان خجلا أشد الخجل ، يعجب لهذه الجرأة فى الحديث بل الجرأة فى كل شىء . . . حتى شعر بأنفاسها الحارة الملتهبة . . . فازدادت ضربات قلبه عنفاً ، وشدة فترفق ساعداه فضمها إلى صدره يقبلها فى رفق لا يخلو من شدة . . . ولـكنه سرعان ما يفيق من هذه النشوة العابرة . . . فتبتسم له وتنصرف . . . ويبقى محمود حيث هو فى حيرة من أمره وفى عجب لهذه الفتاة ، ينكر نفسه أشد الإنكار ويعنفها أشدالتعنيف ، لا يدرى كيف بدأ هذا المشهد المسرحى ولا كيف انتهى ؛ فقد كان سخيفاً حقًّا ، يبعث على الضحك . . . الضحك من نفسه والضحك من آمال ، فقد أنـكر جرأتها أول الأمر . . . ولـكن دفعته نفسه بل دفعته غريزته إلى هذه القبلة التى أنـكرها أشد الإنكار .

انصرفت آمال شاردة الفكر ، تائهة فى بيداء لا أول لها ولا آخر ، فقد شعرت أنها تحب محموداً حبًّا ملك عليها نفسها ، فهى سعيدة أشد السعادة ؛ لأنها استطاعت أن تظفر به آخر الأمر . فسوف تسعد بعذب حديثه وتستأثر بعطفه ورعايته وحبه .

يصل علىّ فى هذه الليلة إلى الاسكندرية . قلقاً أشد القلق يمتلئ قلبه شغفاً لرؤية آمال ، فهو لا ينتظر حتى يصعد إلى أمه وأبيه ، بل يعرج عليها قبل أن يصعد إليهم . . . فتقابله مقابلة فاترة ، ينكرها أول الأمر . لكنها تمادى فى ذلك ، فلا يصدق عينيه ويكذب قلبه ، فيكلمها فى عتاب رقيق ، فتعتذر له بأن صديقاتها ينتظرنها على شاطئ البحر ، وتمضى مسرعة قبل أن يفيق من ذهوله .

يعجب علىّ لها أشد العجب ، ويزداد الأمر حرجا ، فما إن يراه والده حتى يعنفه بشدة لا رفق فيها ، وتنكر عليه أمه هذه الحب الذى لا رجاء منه ولا فائدة فيه ، ويعجبا لحضوره ولم يمض على سفره سوى أيام قلائل ، فيخبرهم والأسى يملأ قلبه ، بأنه حضر لبعض أعماله يومين أو ثلاثة ، وقد كان كاذبا فيما يقول ؛ فقد وطد عزمه وحزم أمره على أن يعتذر إلى رئيس عمله بخطاب يرسله إليه بأنه مريض ، وما هو بمريض . . . فإلى أن ترسل إليه المصلحة طبيبا يعوده ، تمر أيام لا تقل عن عشرة وقد تزيد ... إذن فسوف يمضى أياما سعيدة ويعود إلى عمله قبل حضور الطبيب ، فقد برأ من مرضه . . . شاكرا لله عطفه ورحمته .

فإذا الأمور تسير كما تهوى لا كما يشاء ويهوى . لاحظ على آمال إقبالها على محمود وانصرافها عنه ، فعاتبها برفق أول الأمر ثم بشدة لا تخلو من عنف ... فهو لم يحضر إلا لها ... ولم يعرض نفسه لكل هذا العناء إلا بسببها ، فتشكره على هذا العطف الزائد والحنان الفياض . . . فيود أن تكون له وله وحده ، فلا تحفل به . . . فيؤنبها فتنصرف عنه . . .

بدأ اليأس يتسرب إلى قلبه ، فلا يلتفت إليه ، فكله أمل أن تعود إليه ، فتكذب الأيام ظنه ، وتخيب أمله ؛ فآمال تحيط محموداً بحب خالص وعطف شامل .

يعود علىّ كاسف البال ، مظلم القلب ، شارد العقل والوجدان ، فيلقاه والده ضيقا به متبرما من وجوده ، فيحزم أمره بل يحزم أمتعته . . . ويعود إلى القاهرة غارقا فى بحر من الآلام والأحزان .

احمد كامل

تولستوي

ولد تولستوى عام ١٨٢٨ ، وهو العام الذى ولد فيه هنريك إيبسن . ومما هو خليق بالذكر أن كلا هذين العبقريين كان يكره الآخر ويحاربه فى أفكاره وآرائه . وليس فى هذا العداء المتبادل ما يدعو إلى الدهشة ؛ فتولستوى كان مالكاً لناصية الأفكار الحديثة، ويؤيد الجامعة المسيحية وينكر الفرد، فى حين كان هنريك إيبسن يؤيد الفرد وينكر حقوق المجتمع . فهما بذلك يتنابذان نزاعاً موروثاً منذ أجيال متعاقبة . ومع ذلك فكلاهما ثورى ؛ فهما ، من هذه الناحية فقط ، متشابهان ، أما فيما عدا ذلك فهما متباينان ؛ فلكل منهما طريقة خاصة فى إبداء استيائه من العالم تختلف كل الاختلاف عن طريقة الآخر . كما كان لكل منهما مذهب يتشيع له ويدافع عنه ويقول بأنه خير المذاهب . ليس شك فى أن لكل منهما نفوذه وتأثيره . ولما كانا غير متفقين على رأى ، فان المرء ليميل إلى الاعتقاد بأن تأثير أحدهما يتناقض مع تأثير الآخر ويتعارض معه . والواقع أن الأمر على نقيض ذلك ؛ فتناقض أفكارهما الشخصية ، مع انتشارها وذيوعها فى وقت واحد ، قد ضاعف من قوة الفوضى التى كانت سائدة إذ ذاك بين الكتاب والاضطراب المستحوذ على عقولهم .

قلنا إن تولستوى ثورى ، وكان الأجدر أن نقول إنه مصلح . فقد كان عدو الشدة والتعسف ، وكان يأبى أن تقاوم بمثلها ، ويبشر باللين والحلم كما وصفهما الإنجيل . أما إذا كان قد أثار الاضطراب والقلق وأشعل نيران الفتنة ، فمرجع ذلك إلى أنه كان يسعى إلى تحسين النظم القائمة وينادى بإصلاح المجتمع الإنسانى .

إن المصلحين والثوريين لعلى جانب عظيم من الخطر إذا هم حققوا غايتهم . على أن ضررهم يبدأ فى الظهور قبل أن يدركوا تلك الغاية كما يبدأ تأثيرهم السيئ فى الانتشار، فيضيفون إلى الفوضى القائمة فوضى من نوع جديد هى أفظع وأفتك ؛ لأنها تجمع بين القديم والجديد .

كان تولستوى بسيطاً جداً ، ولـكنه كان — فى بساطته المتناهية — مؤثراً . وكانت نفسه من النفوس المعذبة ، بل أشد النفوس عذاباً . وقد سعى إلى تخفيف ذلك العذاب وتسكين اضطراب نفسه ، بجميع ما أوتيه من نبوغ وذكاء . وكان لا بد من عبقرية فذة لتتمكن من تلك النفس ، وتهدئ من روعة ما تعانيه من الألم . ومع ذلك لم تفلح تلك العبقرية الفذة . لقد طالما بحث عن الحقيقة ونقب عنها فلم يجدها . على أنه قد وجد اليقين . فتلك الناحية من خلقه هى التى أثارت الدهشة من حوله . لقد انتزع الإيمان كل أثر للشك من صدر هذا الرجل ، فبدا مطمئنا هادئاً وديعاً . فـكيف استطاع هذا الجبار أن ينتزع عوامل الشك من صدره حتى أصبح لا يرتاب فى شئ على الإطلاق ؟ إن لنا عقائدنا واعتقاداتنا ، وهى قوية راسخة ، ومع ذلك فإنها تترك فى نفوسنا بعض الأثر للريبة والتشكك . أما تولستوى فقد كان ينظر إلى جميع المسائل التى تعرض له نظرتين مختلفتين : فينظر إلى بعضها نظرة هامة عاجلة ويعجل فى حلها خدمة لنفسه ، أو كما كان يقول : خدمة للإنسانية ، وينظر إلى بعضها الآخر نظرته إلى الأشياء التافهة الباطلة ولا يهتم بها . كان العلم فى نظره شيئاً تافهاً معدوماً . فالأخلاق وحدها كانت فى نظره بمثابة الحقيقة الراهنة للحياة ، فـكان ملماً بجميع خباياها بحيث لم يعد يشعر بشئ من الشك والتردد .

لقد طالما رغب تولستوى فى ذلك الإيمـان وبحث عنه حتى ظفر به فى النهاية ! ومع ذلك فقــد أجمع من عاشروه على أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب لا يخلو من القلق . وهذا فى الواقع ما كان يجعله مؤثراً ، وإن كان المذهب الذى نادى به ومات عليه مذهبا خاطئا سيئ العاقبة ، عظيم الضرر .

كان تولستوى من أسرة عريقة فى النسب . . . وعلى الرغم من أنه — وهو فى السبعين من عمره — أصبح رسول المساواة المطلقة بين جميع الرجال ، وزعيم فلسفة شعبية ، فإنه ظل محافظاً على نزعته الأريستقراطية تحت ثوب العـمال الذى كان يرتديه ، وظلت أنانية الـكونت تولستوى الشريف الروسى متجلية وراء مذهب الإصلاح أو الثورة الذى كان ينادى به .

أتم تولستوى دراساته فى جامعة قازان القائمة فى أعماق روسيا ، ثم التحق بالجيش ، أسوة بجميع أبناء الشرفاء ، برتبة ضابط فى المدفعية . وكانت فرقته معسكرة فى القوقاز فقضى عدة سنوات يعيش عيشة الترف والبذخ والحرية

المطلقة ، كما كان يعيش السادة فى عهد الرق والاستعباد . لم تكن له فى ذلك العهد عقيدة، فكان لا يؤمن بشىء غير اللهو والمرح. وقد كتب فيما بعد : «لقد عشت فى هذا العالم خمسة وخمسين عاماً — وإذا أنا استثنيت سنى طفولتى — فقد عشت فوضويا عدميا بكل معانى هذه الكلمة ، لا اشتراكيا ولا ثوريا بالمعنى الذى يطلق على هاتين الكلمتين ، ولكن « نهيليستيا » أى خارجاً « على كل النواميس والشرائع . »

كان مطلق الحرية فى القوقاز، فأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ثم اشتعلت نيران حرب القرم ، وهو فى السادسة والعشرين ، فأغرته نفسه الفتية بخوض تلك المغامرة ، وطلب أن يشترك فيها فأجيب إلى طلبه . كان موجوداً فى سباستوبول عند ما ضرب عليها الحصار ؛ فوصف ، فى ثلاث قطع ، صور الحوادث التى شاهدها، فكانت تلك القطع فاتحة مؤلفاته . وما إن عقد الصلح بين روسيا والدول حتى استقال من منصبه ، وترك الجيش وسافر إلى بطرسبرج وقضى فيها وفى موسكو ثلاث سنوات فى لهو وعربدة . كان مثال « الكونت » الصغير رشيق القامة رقيق الحاشية لبق الحديث، فكانوا يتوددون إليه ويلتفون حوله؛ لما كان يبدو على محياه من ذكاء وقاد، وما اشتهر عنه من النجاح فى المنتديات والأوساط الراقية بل فى بلاط القيصر . ومرت هذه السنوات وهو يتقلب بين أحضان الطيش واللهو ، ولكنها مع ذلك كانت غزيرة الإنتاج بفضل ما وقف عليه تولستوى من الحقائق المقنعة المستهترة، والمظاهر الخلابة الكاذبة . وفى سنة ١٨٦٠ تزوج ، فهدأت ثائرته وانقطع إلى قصره فى مقاطعة تولا .

لقد كتب، قبل ذلك التاريخ ، «القوزاق» ثم أعقبه بكتابه « طفولة وحداثة وشباب » وهو قصة حياته ، أودعها مع بعض التحريف ، جميع ذكرياته . لقد دلت هذه القصة على ما كان عليه ، وتنبأت بما سوف يصل إليه ؛ فقد كان يتمتع ببعد النظر، وينعم بموهبة الوصف والتصوير، وفى ذلك سر عبقريته . كان ينظر إلى الأشياء على حقيقتها ويراها كما يجب أن تكون عليه ، ويلم بجميع نواحيها ودخائلها ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ويصفها وصفاً شاملاً ، فيتناول فى هذا الوصف حياته ومعيشته ، ويتكلم عن حقيقة القرى والأشخاص والنفوس . فأشخاصه القوقازيون قد رآهم وعاشرهم ؛ لأنه قضى ردحاً من الزمن فى بلادهم وبين ظهرانيهم . لقد تخيل شخصية أولنين على شاكلته، فجعله يمل الحياة المضطربة

المائجة التى تمر فى المدن الكبيرة ، وجعله ينزح إلى تلك القرية الموحشة فى بلاد القوقاز ، وهناك يعلق قلبه بحب ماريان ابنة مضيفه . غير أنه لم يفلح — على الرغم من حبه العظيم لها — أن يروض نفسه ويجعلها شبيهة بنفس ماريان ، بسيطة ، ساذجة ، صريحة . سيحاول تولستوى فيما بعد أن يضرب على منوال أولنين ، ويبسّط حياته وقلبه وعقله ؛ لينزل بها إلى مستوى العمال والفلاحين الذين اختلط بهم . تلك كانت رغبته الصادقة ، ولكنه يظل على ما كان عليه من الإبهام والتعقيد بل أكثر مما كان عليه ، لأنه حاول ألاّ يكون مبهما أو معقّداً .

إن من يقرأ ذكريات حداثته يتبين أنها لاذعة شديدة الوطأة فيدهش . على أنه لا يلبث أن يراجع نفسه متى علم بأن تولستوى كان ينظر إلى الحقيقة نظرة غريبة قاسية . وهذا ما يتجلى عند قراءة كتابه الذى وصف فيه أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عربيداً سافلاً . أما أن يكون أبوه ذلك السافل العربيد ، وأن يكون قد رآه على تلك الصورة ، وأن تحمله صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك، فهذا دليل قاطع على ما كان عليه هذا الرجل الفذ من صفاء الذهن وقوة الإرادة التى تحمل على الدهشة ، بل تجرح الشعور ما دمنا قد تعودنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة خفية مستترة متساهلة إذا ما اتصل الأمر بذوينا . أما تولستوى فكان يعتقد بأنه يكذب لو أنه فعل مثل ذلك . ثم إن الواحد منا يعد نفسه ، كما يعده الناس طرّاً ، عابثاً ، عاقاً ، إذا وصف أباه ولم ينمق الوصف، فى حين أن تولستوى لا يحمل أى حقد لأبيه ولا يعتب عليه أو يلومه ، ولكنه يصفه لنا على علاته وصفاً دقيقاً . وهو أيضاً يصف لنا نفسه كما يراها . فها هوذا يصفها لنا إذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقد ضل وفقد إيمانه وبدأ حياته النهيليستية ، أو « حياة العدم » كما يعبر عنها بنفسه :

« إن المذهب الفلسفى الذى سحرنى أكثر من جميع المذاهب الفلسفية الأخرى ، هو مذهب التشكك . وقد قادنى ، ردحاً من الزمن ، إلى حالة قريبة من الجنون . فقد كنت أتخيل أنه لا يوجد ، ماعداى ، شىء أو كائن فى العالم ؛ وأن الأشياء ليست بأشياء ، بل هى مجرد مظاهر كاذبة أتصورها متى كنت فى حاجة إليها ، ثم تتوارى وتتلاشى متى تناسيتها أو كففت عن التفكير فيها . ففى بعض الأحايين كنت ، وأنا تحت تأثير تلك الفكرة الملازمة ، أفقد شعورى إلى حد أن كنت ألتفت فجأة وأنظر إلى الخلف عسى أن يقع نظرى على العدم قائماً حيث

لم أكن موجوداً . كان عقلى الضعيف لا يستطيع التغلغل إلى أعماق المجهول؛ فقد يفقد ، تحت تأثير هذا العمل المرهق ، ما كان عندى من العقائد واحدة فواحدة . وقد كان يجب علىّ أن أحافظ عليها لكى أحتفظ بسعادتى وهناءتى . تلك الجهود الفكرية أكسبتنى شيئاً من حدة الذهن وسرعة الخاطر ، وأضعفت عندى من قوة الإرادة بقدر ما أكسبتنى من الميل إلى التحليل الأخلاقى الذى أصبح عندى بمثابة عادة ، ونزع عن مشاعرى كل طراوة ، وحمل اللبس إلى آرائى . »

تلك ـ لاشك ـ صفحة غريبة . وهى تكشف لنا عن دخيلة ما انطوت عليه نفس فتى يافع قد اخترع لنفسه ـ لمجرد استعماله الذاتى أو ليكون سببا فى تعاسته وشقائه ـ مذهباً فلسفيا على غرار المذهب المثالى الذى قال به باركلى ولكن فى أقصى حالاته . وهـذا المذهب يقول بأن الأشياء على اختلاف أنواعها قائمة على إدراكنا الحسى لها ، ولذلك فإن حقيقتها المستقلة عنا لا بد أن تتلاشى وتختفى ، وأننا نعيش فى عالم من المظاهر تخلقه نحن لأنفسنا . ليس شك فى أن تولستوى ـ وهو فى السادسة عشرة من عمره ـ لم يقرأ باركلى ولم يرشده إليه أحـد . فالمخيلة التى أوجدها لنفسه هى من صنع قواه المدركة الحادة المرهفة .

وهاك مثلاً آخر من الهذيان الذى قادته إليه حساسيته ويتجلى فى كتاباته : « عند ما أتذكر عهد طفولتى والحالة العقلية التى كنت أتمتع بها آنئذ ، أدرك معنى الجرائم الفظيعة الوحشية التى ترتكب بغير ما غاية وبغير ما رغبة فى الإيذاء ، بل بدافع الفضول واللاشعور ، أو بدافع الحاجة إلى ارتكاب فعلة ما . ثم إنه تمر بالمرء أحياناً فترات من الزمن يرى فيها المستقبل فى ألوان قاتمة وأوضاع متباينة ، حتى ليخشى العقل أن يقف حيالها أو يتناولها بالتفكير فيغمض عينيه لكيلا ينظر إلى هذا المستقبل ، ويقف فعل العقل والتفكير ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه لن يوجد مستقبل ولم يوجد ماض . ففى تلك اللحظة التى يقف عندها الفكر عن مراقبة كل وازع من الإرادة ، وتصبح الغرائز المادية عماد الحياة ورائدها ، فى تلك اللحظة أدرك ما يرتكبه الطفل القليل الاختبار بلا تردد ، وأفهم لماذا يشعل النار ويذكى ضرامها بأنفاسه ، وينظر إليها بابتسامة ساذجة فضولية وهى تلتهم البيت الذى يرقد فيه إخوته وأبويه وكل الذين يحبهم حبًّا عميقاً . ففى تلك اللحظة التى تتوارى فيها الفكرة خلف حجب اللهو أو

النسيان والعدم ، يقف القروى اليافع إلى جانب الدكة التى يضطجع عليها أبوه الشيخ وهو ينظر إلى شفرة المعول التى تلمع فى يديه ، وفجأة ترتفع تلك اليد بما تحمل فى قبضتها وتهوى، وتتحول نظرة الفتى من المعول إلى الدم الذى يتفجر من الرأس المحطم . إن المرء ليجد ، إذ يكون فى مثل تلك الحالة ، نوعاً من اللذة فى الانحناء على حافة الهاوية السحيقة وترديد هـذه الفكرة : « لو أننى أنحدر إلى أسفل ورأسى إلى الأمام ! » أو أن يضع فوهة مسدس أو غدارة محشوة على جبينه ويهذى قائلا : « لو أننى أضغط على الزناد ! » أو أن ينظر إلى شخص عظيم الشأن محفوفاً بمهابة الجميع ويقول لنفسه : «لو أننى أتقدم إليه وأجره من أنفه وأقول له : « إيه ! أيها الرجل الطيب هلا أتيت معى ! ». يقيناً إنه لجنون وإن كان الوصف جذاباً . . . »

هذا ما ورد فى كتاب « القصة الروسية » للكونت دى ڤوجويه . وهو يقدر أن ذلك يعد نتيجة لإحساس روسى بحت أو « نوبة » شائعة فى روسيا باسم « أوتشايانييه » ومعناها « اليأس » . وإن كان من النوع الذى ينطوى على التعصب والوحشية والسخف المتعمد المقصود ، كما أنه نوع من السخط المشوب بالكآبة والحزن والاستسلام الذى يأباه تولستوى ؛ لأنه استسلام الذات والنفس والحياة لعوامل قوية مستترة خطيرة مغرية رائدها الخطر . أو بعبارة أخرى هو نوع من السحر المخيف المسف وإن كان فى ظاهره بسيطاً ساذجاً . . . ثم يستطرد ڤوجويه حديثه بقوله : « مسكينة روسيا ! تلك هى روحك وهى روح طائر مائى يحلق فوق العاصفة ويرفرف فوق الهاوية ! »

هذا ما كتبه ڤوجويه عام ١٨٨٦ . وإن تاريخ روسيا الحديث ، تاريخها عقب ثورتها الأخيرة ، كفيل بأن يعزز هذا التشخيص الدقيق لذلك الداء الوبيل .

لقد كان تولستوى ، مع ما كان عليه من عبقرية فذة ، روسيًّا بحتا وروسيًّا كبيراً . كان روسيًّا بكل قطرة من دمه ، فكان لا يخلو من أية حاسة أو أى شعور أو عقيدة أو نزعة أو سخافة روسية . وهذا ما جعله يصف روح بلاده وروحه ، ويعبر عن حقيقتها تعبيراً صحيحاً دقيقاً . إنه يصورها تصويراً حسيًّا يحمل على الدهشة والعجب . على أن هذا التصوير يخفف عناء البحث والتفكير على قارئه ويجعله يفهم خباياها ويشعر بها . إنها روح مستسلمة للأحلام ، فلا تجد فرقاً بيِّناً بينها وبين الحلم الذى تسبح فيه أو الحقيقة التى تلمسها . ومع ذلك

فتلك الروح تفكر وتعقل، ولكنها تناقش وتقيم البينات والحجج للتدليل على صحة خيالها أو على الحقيقة. هذه الروح تتمتع بكثير من الفضائل. وبين تلك الفضائل فضيلة ممتازة هى الصبر عند الشدائد. إنها أقدر من سواها على تحمل الألم والجلد. ويظهر أن استسلامها لا يكلفها شيئاً، وإن كان فى الواقع يحملها أشياء؛ لأنها لا تستطيع كتمان ما يعتريها من ثورات فجائية يتجلى فيها حقدها ثم ينفجر. إنها لا تنظر إلى الزمن والفضاء كما ننظر إليهما؛ فليست لها فكرة ثابتة عنهما؛ لأنها تضل وتتيه فى دياجير الزمن والفضاء. إنها روح ضالة شريدة معذبة تستسلم فجأة لنزعاتها ونزعاتها مهما كانت مسفة أو خطيرة. إنها روح مريضة. إن القصص الروسية التى لقيت رواجاً عظيماً، وبصفة خاصة قصص تولستوى قد كشفت عن صحة ذلك. تلك كانت روح روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى. وهى روح مترددة غير مستقرة. فقد خانت كل من وثقوا بها، كما خانت نفسها بسذاجة وجهل، وقد كان ذلك أشد خطراً عليها من أعدائها.

إن «حرب وسلم» و«أنا كارنين» أشهر مؤلفات تولستوى وأبدعها. ولكنه عند ما تحول من قصصى إلى رسول مبشر، أصبح يحتقر عمله كقصصى، وبصفة خاصة هذين المؤلفين. لاشك فى أنه أخطأ فى تحقير هاتين الدرتين الخالدتين، فقلّ أن يوجد فى الأدب ما يضارعهما، وقل أن يوجد بين الأدباء من وضع فى مؤلفاته من الحقائق، وضمنها من الوقائع، وكشف عن خفايا النفوس وأضاءها مثله. وقل أن يوجد من تناول الحديث عن خبايا تلك الآلة المتحركة، ووصفها فى دورانها السريع وحركاتها الظاهرة والخفية وذاتيتها ونزعتها الخاصة وخصائصها كما تناولها تولستوى. فكأنه كان يفكك أجزاء تلك الآلة لكى نقف على تركيبها وأسرارها.

إن كتاب «حرب وسلم» هو وصف للحياة الروسية فى بدء الجيل الماضى خلال حروب نابليون. إن تولستوى يبعث هذا الماضى من قبره. فأحد الأشخاص هو إمبراطور فرنسا، والآخر هو قيصر روسيا. إنهما ولا شك من العظماء وهما زعيمان. على أن تولستوى لا ينعم عليهما بهذا اللقب، فلا يوجد عنده زعيم. إن تولستوى عبقرى، وهو لذلك لا يكتفى بأن يرى، بين الحوادث البشرية، السبب الظاهر الجلى، على الرغم من أن هذا السبب قد يكون أحياناً أوضح

من الحقيقة . إنه يؤمن بالأسباب الصغيرة المتعددة فيبحث عنها بين الجماهير والجموع ؛ ولذلك رأى أن الذين رأسوا الحركة وتزعموها هم من العامة لا أهما . يوجد فى « حرب وسلم » شخصية بذت الأباطرة وسمت عليهم ، وتلك الشخصية هى الجموع والجماهير وعامة الشعب . وهذا ما يزيد فى ثروة تلك القصة ويرفع من مكانتها . وهذا ما يجعل التجانس كبيراً بين هذا الكتاب وبين الحقيقة الحية .

فى وسط تلك الجموع اختار تولستوى أشخاصاً يمثلون ، أو يمثل كل منهم إحدى خصائصها . فكلما ازدادت مظاهر هذه الجموع ازدادت الوحدات التى تؤلفها . وأحد هؤلاء الأشخاص الذين تعرض لهم تولستوى بكل دقة وإخلاص هو الكونت بطرس بزوكوف ، وهو روسى بمعنى الكلمة ، وهو ذكى عالم وديع سهل الانقياد متحفز للشهوة سريع الخاطر رقيق الحاشية جدير بكل تبذل وجنون ، ميال إلى الكسل كما أنه ميال إلى العمل المتواصل المرهق . وهو إلى هذا كله شريف لا يتقهقر أمام ارتكاب نقيصة أو جرم . كانت النار تلتهم موسكو دون أن يعلم أحد من أشعل ضرامها ، وكان بطرس بزوكوف فى قصره ، فغادره فى زى قروى واختلط بجموع الشعب . كان يحمل تحت معطفه خنجراً حاداً ؛ ربما كان يقصد قتل نابليون . وهو إن قتله فلكى ينتقم لروسيا . وهو يعلم ما كان ينتظره من وراء ذلك . على أنه لو قتل نابليون فغايته من ذلك التضحية . ومجمل القول أن ما كان ينتظره لم يثنه عن عزمه بل زاده حمية . إن قتل نابليون ، لو تم ، كان سبباً فى موته ، هو نفسه ، وهذا ما كان يبتغيه ، وهذا ما لم يفعله . إن البون شاسع بين ما يريده بزوكوف وبين ما كان يجب أن يقدم عليه . فبين إرادته وتنفيذ ما يريده يجثم كل ما فى نفسه من تشكك وتردد .

وقع بزوكوف أسيراً بيد الفرنسيين ، فكانوا يعاملونه بمنتهى القسوة والوحشية . لشد ما كان يتألم ! ولكنه يلتقى وهو فى الأسر بقروى يدعى أفلاطون كراتايف . وهو رجل معدم ونكرة بالنسبة له . وهو إلى جانب هذا عار عن كل فكرة بعيد عن كل تفكير ، إذا نزع حذاءه فاحت من قدميه رائحة كريهة حادة . وكان يجلس القرفصاء ويضم يديه إلى ركبتيه ويظل شاخصاً إلى بزوكوف . ماذا كان يريد من بزوكوف ؟ لاشئ على الإطلاق ، إلا أنه كان ينظر إليه . وبزوكوف من جانبه كان ينظر إلى كراتايف . فماذا كان يريد منه ؟ هل يريد درساً أم يريد نصيحة وإرشادا ؟ ولكن أى درس يمكن أن يرجوه بزوكوف العالم من هذا

الغبي الجاهل ؟ . . . هنا تتجلى الفلسفة التي سيعتنقها تولستوى ، وتصبح رائده وموضوع رسالته . إن بزوكوف قد اكتشف الحقيقة فى عقلية أفلاطون كراتايف البسيطة الساذجة . . . وأية حقيقة ياترى ؟ . . . طهر الكائن وزهده واستسلامه للقدر .

وتبادل بطرس بزوكوف بضع عبارات مع أفلاطون كراتايف . إلا أن ما قاله أفلاطون كراتايف لا يعدو حد السخف . . . بعض ألفاظ سقيمة عقب عليها بابتسامة وشرحها بما يفيد عجزه عن عمل أى شيء ، وأن الحال يجب أن تكون كما هى عليه ، وأن خير ما يعمل هو قبول ما لا يمكن رفضه ويتعذر تبديله . يجب الاستسلام لذلك بغير مقاومة . وأخذ التعب من أفلاطون كراتايف حتى لم يعد يقوى على السير ، فقتله الجند برصاصهم دون أن يبدى أية مقاومة أو تأخذه هزة اضطراب أوغضب . لقد مات وهو يتألم . واتخذ بطرس بزوكوف من كراتايف رائداً له . . . هذا مؤثر للغاية وهو سخيف أيضاً . وفى مثل ذلك دعاية إلى هدم التفكير وانعدام الفكرة . فهل يمكن أن تؤدى جهود الفكرة البشرية إلى مثل ذلك الانتحار للفكرة ؟ . . . الواقع أن ما فعله بزوكوف سيفعله تولستوى .

أما القصة الثانية «أنّا كارنين» فكانتها لا تقل عن مكانة « حرب وسلم » . فيها واقعة غرامية تنمو وتتطور بتطور الحوادث المزعجة التى تتخللها ، وفيها خاتمة . أما الفن فيها فيتساوى مع سابقتها كما تتساوى قوة الابتكار والتنبؤ التى يظهرها المؤلف فى معرفة النفوس وحيرتها واضطرابها . ويوجد فى «أنا كارنين» كما فى « حرب وسلم »شخص اودعه تولستوى بعض أفكاره الهامة . وهو فى هذه القصة بمنزلة بزوكوف فى القصة الأولى . هذا الشخص يدعى : ليڤين .

قسطنطين ليڤين رجل نبيل ، يعيش فى الريف طبقاً لعادات خاصة . وهو شريف النفس ، طيب السريرة ، كان يود أن يحسن حالة القرويين ، ويخفف عنهم وطأة الحياة ، ويحطم أغلال الاستعباد التى تقيدهم متأثراً بالأفكار الحرة التى كانت تشتعل فى نفوس بعض الروسيين . على أن تعصبه لمذهب الحرية المدنية والدينية لم يكسبه إلا المتاعب واليأس . مات له أخ كان يحبه ويقضى حياته بصحبته ، فأثر هذا الحادث فى نفسه تأثيراً كبيراً . وإلى جانب ذلك كان يقرأ شوبنهاور ، فلم يربح من تلك القراءة شيئاً ، وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وتملكت

الـكآبة نفسه، وتحولت تلك الـكآبة إلى نوع من الفاسفة والاستسلام . وصار يعتقد أنه ليس إلاذرة حقيرة ضئيلة تـكونت فى اللانهائى ، وسارت مع الوقت فى هذا الفضاء وتألبت مع المادة ولا بد أن تنفجر وتتلاشى كالفقاقيع التى تطفو على سطح الماء . « هذه الذرة هى أنا » . أزعجه ذلك القياس وتأثر منه كثيراً . ولما لم يكن إلا قياساً ، فإنه لم يلبث أن هجره ، وإذ ذاك ضل كل الضلال ولم يعد يعرف شيئاً إطلاقاً . وخاطب نفسه : «ما دمت لا أعلم من أنا، ولماذا أنا هنا فى هذه الحياة ، فإن الحياة تصبح أمراً مستحيلا . ولما كان المستحيل أن أدرك ذلك فلا شك فى أن الحياة مستحيلة . »

من السهل أن يقول المرء إن الحياة مستحيلة وهو مع ذلك يحيا . فلو أنه كان يتمتع بقليل من الإدراك العقلى لوجب عليه أن يقول : « إننى أحيا وإذن فالحياة ليست مستحيلة . » ولـكن هذا الإدرك العقلى لا يوجد . وهو عند ليفين أقل منه عند أى شخص غيره . ثم إنه يقول لمن يريد أن يستمع إليه ويقول كذلك لنفسه : « لا يجب أن يحيا المرء لنفسه ، ويجب أن يحيا لله . » ولما كان مظهره وهو يقول ذلك يدل على الثقة والطمأنينة والهناءة ، فهيئته هذه تدل على أنه على حق . لقد سُرّ ليفين لتلك الحقيقة، وانضم إلى فكرة فيدور وخاطب نفسه بقوله : «كل الشر ناتج عن سخف العقل ووضاعته ! »

لقد استعاض هذا الرجل بفيدور عن جميع الفلاسفة وشوپنهاور . لقد قرب الـكونت ڤوجويه فى كتابه « القصة الروسية » بين ارتداد بزوكوف وارتداد ليفين إلى الإيمان . وأضاف تلك الملاحظة : « فى ذات يوم التقى تولستوى وسوتائف ، كما التقى بزوكوف وكراتايف ، وكما التقى ليفين وفيدور الرجل الطيب » .

كان سوتائف قرويا من تفر . اخترع فلسفة أو دينا نادى ، به وأخذ ينشره فى نزهاته وأحاديثه . بدأ فيه بالإنجيل، فأخذ يفسره على طريقته بإخلاص وبغير تعقل . واستخلص منه مذهباً يدعو إلى الإخاء وتنظيم الحياة المشتركة والشيوعية. وهكذا كما رأينا بزوكوف وليفين يلتحقان بمدرسة كراتايف وفيدور الرجل الطيب ، نرى أن « مؤلف حرب وسلم » و « أنا كارنين » وفيما بعد مؤلف « اعترافى » و «دينى» ، و« ماذا يجب فعله ؟ » يلتحق بمدرسة سوتائف الرجل المتعصب .

وتغيرت جميع أساليب حياته .

ففي «ديني» يقص أنه بينما كان في موسكو مر بباب بوروفيتزكي ، فوقع نظره على شيخ متسول مريض مقطوع الساق ومعصوب الرأس ، وتأهب تولستوى ليحسن إليه ببعض النقود ، إلا أن المتسول وقف فجأة بقدر ما تسمح له حالته ، واندفع هاربا مذعوراً ، فقد رأى جندياً شابًّا فى أحسن الهندام جميل الوجه مقبلا عليه ومهدداً ، وطارده الجندى وهو يقذفه باللعنات ، فقد كان من المحظور على المتسولين الجلوس بباب المنزل الذى يقيم فيه بوروفيتزكي . وانتظر تولستوي حتى داناه الجندى وسأله :

— هل تعرف القراءة ؟

— يقيناً !

— وهل قرأت الإنجيل ؟

— بالطبع !

— وقرأت فيه تلك العبارة : « إن من يطعم جائعاً وما يتبعها . . . »

وكان الجندى يذكر تلك العبارة ، فبدا عليه الاضطراب وأخذ يسائل نفسه هل هو أخطأ مع أنه يقوم بواجبه العسكرى . وأخذ يبحث عن جواب يلقيه على نفسه وعلى تولستوى الذى يخاطبه . . . وفى النهاية قال لمحدثه :

— وأنت إذا كنت تعرف القراءة فهل قرأت اللائحة العسكرية ؟

واضطر تولستوى إلى الاعتراف بأنه لم يقرأها . فاستطرد الجندى :

— إذن اسكت !

وابتعد وهو يهز رأسه ، ومشى وهو يختال عجباً .

فلماذا كان يحاول أن يزعج أفكار الجندى ، ويحول بينه وبين القيام بواجبه ؟ لم يكن يتعمد ذلك ولم يفكر إلا فى هدايته إلى أرجح واجباته وأسماها . ولكن هذا الجندى كان يرى أن واجبه فى تلك اللحظة هو فى اتباع الأوامر . على أنه ليس من المعقول إلغاء لوائح البوليس والقوانين ؛ لأن الإنجيل يأمر بالإحسان . إن تولستوى يغالى فى تعاليمه ، والجندى كان على حق إذ يلاحظ هذه المغالاة ويرفض أن يحطم شعوره بواجبه مقابل مغالاته فى تطبيق سنة الإنجيل .

كان تولستوى يحب الحقيقة إلى حد الشغف والتدله . كان يحبها لأنه طالما رغب فيها وتمناها ، وطالما تألم بسببها قبل إدراكها . هذا هو التعليل الوحيد

الذى كان يقدمه هذا الرجل العظيم ويجيب به على كل من كان يعارضه فى رأيه . وهو تعليل عجيب . إن السبب فى كل ما وصل إليه ناشئ عن حساسية مرهفة كانت تلازمه منذ طفولته، ولم تضعف الأيام ولا السن من شوكتها بل زادت فى حدتها . إنه كان لابد له أن يكون رقيق الشعور مرهف الإحساس متيقظ الذهن إلى حد يؤثر فيه أدنى اعتراض لإدراكه العقلى ، لكى يتمكن من وصف شخصياته فى مختلف الأزمنة وتصوير نفسيتهم وشعورهم . ولكن مثل هذه الحساسية كانت عذاباً مستمراً ؛ فقد كانت تحوّل كل فكرة من أفكاره إلى قلق واضطراب . إن مذهب التشكك الذى طالما ارتاح إليه غيره ، كان عند تولستوى مصدراً لأفظع الأحزان والآلام . والحقيقة التى كانت فى نظر غيره موضع الفضول كانت محط أنظاره وسعيه يبحث عنها كما يبحث الغريق عن حبل الإنقاذ، ويحاول الوصول إليها عسى أن يدرك بوساطتها شاطئ الخلاص، حتى إذا أدركها قبض عليها بيديه القويتين، ولن يقوى إنسان — أيا كان — على أن يجعله يتخلى عنها أو ينكرها .

وليس أدل على تمسكه بمذهبه وارتياحه إليه من قوله يخاطب بعض أصدقائه : « إذا أنت أدخلت قطعة من القش بين آلات ساعة وقفت جميع أجزائها وكفت عن الحركة . ولكنك إذا انتزعتها عادت جميع الأجزاء إلى سيرها الطبيعى ، وهذا دليل قاطع على أن هناك ضرراً من وجود قطعة القش بداخل الآلات . والأمر كذلك إذا أنت أدخلت فى حياتك مذهباً خاطئاً . . . تسألنى لماذا أومن بأن مذهب المسيح هو المذهب الصحيح ، وتطالبنى بالدليل على ما يحملنى على الاعتقاد بهذا المذهب ؟ . . . إذن هاك الدليل : عندما تدخل الفكرة المسيحية الحقيقية إلى أعماق النفوس ، فإن الحياة بأسرها تنتظم وتصبح جلية هينة منسجمة ، ويتلاشى التردد وتزول الاعتراضات . . . إننى أعتقد بمذهب المسيح لأننى لا أعرف مذهبا آخر يستطيع أن يهب مقداراً من السعادة يضارع ما يهبه هذا المذهب إلى مثل هذا العدد العظيم من الناس إن لم يكن إلى الناس طرا . لا نزاع فى هذا اليقين ! إن السفسطائيين يحاولون عبثا طمس معالم هذه الحقيقة . والكتّاب أمثال نيتشه الذين يتبجحون فى تأييد نظرياتهم الفردية ، ويدعون بأن العطف والشفقة ضرب من الضعف ، لا يمكن أن يكونوا مخلصين . إن مذهبهم كاذب . والمذهب المعارض لمذهبهم واضح تمام الوضوح لمن يبصرون . »

لقد ذهب بعض الكتّاب — ومن بينهم الكونت دى ڤوجويه — إلى القول بأن تولستوى كان متصوفاً . على أن الذى يتبين من كتاباته وأقواله أنه لا يدين بهذا المذهب، وأنه « واقعى » أو — إذا شئت — اختبارى . فقد قام تولستوى بكثير من الاختبارات فى الحياة ، لم يفلح بعضها فأثار حزنه، وأفلحت الأخيرة ونجحت نجاحاً باهراً . أما فلسفته فليست — كما قيل — عوداً على المسيحية فى أول عهدها، ولكنها تفسير للمسيحية . إنها تؤمن وتدعى لنفسها الحقيقة ، وإن كانت بعيدة كل البعد عن المسيحية التى تقول بها الكنيسة الروسية بل الكنائس أجمع . ويكفى للتدليل على ذلك أن نقرأ النبذة الآتية :

« كل شئ كان يعزلى الحقيقة بالمعنى الذى وجدته فى مذهب المسيح ، ولكننى مكثت طويلاً دون أن أفهم السبب الذى جعلنى أكتشف شريعة المسيح كما لو كنت أكتشف شيئاً جديد العهد ، و إن كان قد مَرّ على تلك الشريعة ثمانية عشر قرنا توافر خلالها آلاف الناس ووقفوا حياتهم على دراسة هذا الإيمان . . . »

تلك أنانية مدهشة مع ما فيها من تواضع غريب . على أن ما يبدو على تولستوى من القلق ليس مستغرباً . لقد اكتشف ، أو اخترع المسيحية كما لو كانوا يكتشفون الآن أمريكا فيجدون أنها ليست كما كانوا يتوهمونها أو كما كانت عليه فى عهد كولمبوس ! أما كيف صنع تولستوى مسيحيته فواضح من حديثه لبعض أصدقائه : « عندما أقرأ عظة الجبل أتبين أن الحقيقة كما يجب أن تكون تتجلى فى عباراتها . فكل ما جاء فى الإنجيل مطابقاً لما ورد فى عظة الجبل ، فأنا أسلم به . أما الباقى فأنا أهمله أو أرفضه . » . وهكذا فإن العظة التى ألقاها المسيح وهو على الجبل ليس فيها ذكر ألوهيته ؛ ولذلك كان ينكر تولستوى ألوهية المسيح . هذا تعليل غريب . وإذا قيل لتولستوى إن هذه العظة أخلاقية ولا معنى إذن لأن تتضمن تعزيزاً لألوهية المسيح ، فإنه كان يتبرم لهذا الاعتراض ولا يجيب عليه؛ إذ كان شديد التمسك بعقيدته ولا يقبل أى اعتراض عليها .

ليس شك أن التفسير التولستوى لعظة الجبل لا يخلو من نزعة صبيانية . لقد فصل تولستوى تلك العظة عن الإنجيل ، وجعل منها إنجيلا له يفسره كيفما شاء ، ويريد أن يجعل منه برنامجاً لحياة من نوع جديد كان يطالب بتحقيقه .

يوجد نوعان من الحياة البشرية أو بعبارة أصح من الحياة فى المجتمع

ـــ لأن الحياة الفردية بمعنى الكلمة لم توجد ـــ وهذان النوعان هما الحياة الريفية والحياة العملية . فإذا أسف فيلسوف لاندفاع الناس فى معترك الحياة العملية فليس فى ذلك ما يؤاخذ عليه . وإذا أسف على الحياة الريفية فيمكن أن يقال عنه بأنه شاعر . وإذا كان يتوقع عودة الإنسانية إلى الحياة الريفية فيصح أن يقال عنه إنه حالم . أما إذا جاء هذا الحالم إلى ميدان الحياة العملية وأراد أن يفرض على من فيها العودة إلى الحياة الريفية ، فأقل ما يقال عنه إنه مخادع . فإذا خدع تولستوى نفسه فله عذره، وإن كان لا يخلو من الخطر؛ لأن تأثيره كان عظيما.

لقد أنكر تولستوى كل وطن باسم الاشتراكية البشرية . لقد كان للروس قبيل الحرب العالمية الأولى كثير من المعامين غير تولستوى . وقد ضللوا بهم حتى لقد انسحبوا من الحرب قبل نهايتها ؛ وما ذلك إلا عملا بتلك التعاليم الخطيرة .

إن مبدأ عدم مقاومة الشر هو أحد المبادئ الرئيسية التى يتضمنها برنامج تولستوى . وقد تذرع الروس بهذا المبدأ ليشتروا وهنهم وخورهم وانسحابهم من الحرب ، لم يقاوموا الشر الذى كانت تمثله ألمانيا فى ذلك العهد ، وكذلك لم يقاوموا الشر الذى استفحل فى بلادهم ، فظلت خلال سنوات عدة مسرحاً للفوضى وإراقة الدماء . وإذا كانت روسيا قد استعادت الآن مكانتها فلأنها تخلت عن هذه التعاليم بعد أن تبين لها خطؤها ، ووقفت فى وجه الشر وقاومته .

كان تولستوى يأبى أن ينظر إلى النتائج . وكثيرون من كتاب الروس من هم على شاكلته . لقد وضع مبادئ مذهب ، وهو يحافظ عليه مهما كانت نتائجه. يقيناً أنه كان لايرغب فى أن تصبح روسيا ــ فى بعض عهودها ــ مسرحاً للشر؛ فمذهبه ، كما فكر فيه ، لا يرمى إلى تلك الغاية ولا يذهب إلى هذا الحد ، على أنه كان سبباً لتلك النتيجة ، وهذا ما يستحق اللوم عليه .

كان تولستوى فذًّا فى عبقريته ، فذًّا فى تفكيره وبسط آرائه ، فذًّا فى معيشته . فقد كان يرتدى لباساً قيل إنه شبيه بلباس الموجيك أو القرويين وإن كان فى الواقع لباس العمال . كان هذا اللباس مؤلفاً من معطف أسود معقود عند المعصم ، وملتصق بالجسم عند الخصر بزنار من الجلد ، ومفتوح عند العنق تحت لحيته البيضاء المسترسلة على صدره . كان هذا اللباس ملائماً ومناسباً

وأكبر الظن أنه اختاره لنفسه مرضاة لراحته ، أو تشبها بتلك الشخصية التى نادى بها تطبيقاً لمذهبه . لقد كان هذا المذهب على شئ من الشدة ؛ فهو يفرض نوعاً من الحياة فى منتهى التقشف ، ومثيراً للضيق والألم . على أن الكونتس تولستوى كانت إلى جانبه ساهرة على راحته ، تستنبط الحيل للتوفيق ـ بقدر الإمكان ـ بين ما يفرضه هذا المذهب وبين ما تتطلبه الحياة العادية .

حدث أن ألم به مرض ثم أبل منه ، فأشار الطبيب بأن يعطى قليلا من النبيذ مع الطعام ، ليقاوم الضعف الذى خلفه المرض . وكان مذهبه يحرم شرب النبيذ فوجدت الكونتس حلاً مناسباً لإرضاء الطرفين ، إذ فكرت فى أن تستعيض عن النبيذ بعصير العنب المختمر . هذا العصير ـ وإن اختلف الاسم ـ ليس فى الواقع إلا نبيذاً ، ولكنه من نوع محلل لا لشئ ، إلا لأنه لا يحمل اسم النبيذ .

وحدث مرة ثانية أن فكر تولستوى ألا يتقاضى من ناشرى مؤلفاته جعلا ؛ لأن مذهبه يدعو إلى ذلك ، ولأن الفن ليس مهنة يمنح عنها أجراً . والمرء لا يكتب إلا لينشر فكرته ويقدمها هبة لإخوانه ؛ هذا ما يأمر به الإحسان وتدعو إليه الصداقة . وكشف تولستوى عن فكرته لزوجته ، فهالها ما سمعت واستاءت ، ولكنها تمكنت من معالجة الأمر وقالت له : « صحيح . هذا جميل ولكن فيما يتعلق بمؤلفاتك الحديثة ؛ فهى ملائمة لفكرتك النبيلة التى تقوم عليها مبادئ رسالتك ، وأنا أقرك عليها يا لييف نيقولائيفيتش ، أما قصصك التى نبذتها عنك وأنكرتها أمثال « حرب وسلم » و « أنا كارنين » ، فهى مؤلفات شعبية وضيعة لا تصلح للوعظ والإرشاد ولا لهداية أحد ، ولذلك فهى تختلف كل الاختلاف عن غيرها . » واستقر الرأى على ألا يتقاضى تولستوى كوبيكا واحداً من بيع مؤلفاته الأخلاقية ـ وتلك كانت لا تباع بطبيعتها ـ ويستمر فى تحصيل حقوق التأليف عن قصصه المنبوذة المحتقرة ـ إذ أنه كان ينبذها ويحتقرها ـ وتلك كانت رائجة وتباع بكثرة مدهشة . إنه اتفاق مدهش عظيم ومضحك فى ظاهره . ولكن هل هو مضحك فى ذاته ؟ إنه يوضح بجلاء أنه يصعب على الإنسان أن يعيش كما يريد ، وكما يقرر أن يعيش طبقاً للفكرة التى يكونها عن الجمال . . .

إن مثل هذا العيش كئيب لا يسر . ومما يزيد فى كآبته أن تولستوى نفسه كان يتألم منه مُرّ الألم . وخير دليل على ذلك هو موته . كان قد تجاوز

الثمانين، وكان يعيش فى مزرعته فى ياسنايا بوليانا محاطاً بذويه وعشيرته . وفى ذات يوم غادرهم خلسة . . . إلى أين عساه يذهب ؟ إلى مكان قصىٍّ مجهول ينشد فيه حريته . . . أية حرية ؟ . . . حرية العيش طبقاً لعقيدته وإيمانه . كان قد اعتزم أن يبتعد عن حياة تُنظم وتُعَدّ له بما يناقض مذهبه ويتعارض معه . وهكذا أصبح تولستوى العظيم الخالد مشرداً فى الطرقات ، يمشى فى العراء بعيداً ، ويفقد ما بقى له من القوة شيئاً فشيئاً . ثم يفاجئه البرد فيقضى نحبه فى العراء . . . مسكين ذلك الشيخ الهرم . . . لقد هجر كل شئ وترك كل شئ ؛ ليكون فى لحظة موته شيخاً مسكيناً . . .

سليم سعده

الريف فى مصر

ذكريات الصبا من الأزمان خلجات الأفراح والأحزان
صور مسّها فؤاد ذكور عاش فى أمسه طليق العنان
أين منى الملاعب الخضر فى الريـ ـف وهمس الأفنان والغدران ؟
يوم أمشى إلى الفَراش صيودا أخرسَ الخطو باديَ الإمعان
باسطَ الكف من رجاء وخوف لاهثَ الصدر فى البعيد المدانى
والسواقى على الفِراض تعانى ظمأً رغم مائها للدهان
فى أنين من الوجيعة باك صارخ البثّ ذائع التحنان
ساقها مُرْهَقٌ من الأين أعمى ساقه السوط فى مدى الدوران
يُثقل الخطوَ إن تمهّل عنه وإذا ثار همّ كالعجلان
كأسير فى عهد نيرون يشقى بهظته فظاظة الرومان
نُظُمٌ للقوىّ تحجل فيها خطوات الإنسان والحيوان

أين ذاك الصفصاف يا ريف يدنى هدباً من قضيبه الريان ؟
يمسح الماء فى الجداول بالرفـ ـق ويحنو عليه فى الجريان
يبسط الظلّ بارداً وظليلا ويلقّى الجليسَ طيبَ المكان

أين يا ريف فى الصباح عذارَى ساقيات يَمِسْنَ بالملآن ؟
راجعات وقد صدرن عن المـا ء بطرف مخالس وسنان
يتنادرن ساخراتٍ ويضحكـ ـن بثغر منظم جذلان
ويخافتن فى الحديث إذا ما عرض الوجد من هوى الفتيان
مُعْجَبات بخالد وسليم ساخطات على الفتى علوان

أين ياريف صيحة الديك فى الفجـ ـر تباعاً وصادحُ الـكروان ؟
وابتسام الجديد يذهب باللحـ ـظ إلى كل باسم فتـــان
لوحةٌ تجمع الظـــلال فتوناً نقشُها مفصح بغـــير لسان
خطّها الله مبدع الحسن والظر ف ورب الإحسان والإتقان
يتراءى جمالهـــا بَهِجات حافلات بساحرات المعـــانى

أين ذاك الأصيل يا ريف يبدو فى اصفرار كخالص الزعفران ؟
موعد اللهـــو والتطلع للغيـ ـد ولُقْيَا العشاق والإخوان
ورواح الأجير ينفض عنـــه عنت اليوم واحتمال المعـــانى
فأسه تنبت الرفاهة للنــــا س وإن طال عيشه فى الهوان
غبنتــــه أيامه وجحـــود نافر الـــبر عازب الإحسان
خسّ حظًّا وإن تعهد بالحظ (م) وفـــيراً وبالقطوف الدوانى
دهره الجهد والخصاصة والجهـ ـل ونبـــذ المرفَّه المبطان
حرّقت وجهَه الظهائر وانسا بت إليـــه فواتك الديدان
وتولى الطبيب عنـــه وعافتـ ـه أياد تهـــيم بالنسيان
لطف الله بالشهيد وبالبا ذل كل الفـــداء للأوطان

أين يا ريف ليـــلة البدر فى الصيـ ـف وجمعُ السمّـار والندمان ؟
ورقيق النسيم يحمـــل شدواً بثـه الحب فى رقيق الأغانى
من محب مكابد أرّقتـــه عقبات الهوى وميل الغوانى
وقديم من الحفاظ وسـعىٌ دلّسته عجائز الجـــيران
زهرة الحب والسكون حواليـ ـنا وخفق الطيور فى الأغصان
فتنة تمـــلأ النفوس جمالا وهيـــامٌ يشيع فى الوجدان

أين عهـد السراة والمجد يا ريـ ـف وعهد الأنصار والأعوان ؟
هجروا فى قراك جنـــة عدن وتولوا بقسمة الخسران
جذبتهم مبـــاهج خادعات زيّفتها حواضرُ البـــلدان
بهرجٌ صاخبٌ وصيحةُ مينٍ من كذوب معربد سـكران

دينه النقش فى القراطيس والنقـ ـد وزاه من اصـــفر رنان
وتراه وقد تمـَّلأ وفـــراً يشتكى حظه من النقصان
دائم الجهـــد والتطلع والخو ف حليف الهموم والأحزان
أين هذا الشقى منك رضيًّا غافلا عن مذاهب الأشجان ؟
قانعاً بالحيـــاة فى كنف الأمـ ـن قريراً بقسمة الرحمن

أحمد محفوظ

العناصر الثلاثة للقومية المصرية

أولا — الوجود المستمر للجماعة المصرية

إن أردت تصور القومية المصرية ، أو حاولت تصويرها ، فإنك واجد رمزها الرائع ، وتصويرها الجامع فى تمثال «مختار» .

الفلاحة المصرية ، تعتمد بيمينها على دعامة مصرية ، وهى ترمى ببصرها أقصى الأفق .

هذه الفلاحة هى الأم التى ولدت لمصر أبناءها وبناتها على ضفاف النيل ، جيلا بعد جيل ، فى خلال العُصر المتعاقبة ، وهى التى كانت نائمة فاستيقظت واستوت قائمة .

لم تنقطع صلتها بالماضى ، فإنها ما زالت تستند إليه ، ولا هى تقيدت بالحاضر ، راضية بالتلفت حواليها ، أو قانعة بالنظر تحت قدميها ، ولكنها تتطلع للأمام ، ناظرة إلى المستقبل .

إنها تربط الماضى بالحاضر ، وتصل الحاضر بالمستقبل
ولكن . . . ما الحاضر ، وما الماضى ، وما المستقبل ؟

أليس الحاضر لحظة مجردة من الامتداد الزمنى ، تجرُّد النقطة الهندسية من الأبعاد ؟

ثم ، أليس الماضى بدوره لحظة مجردة من الامتداد الزمنى ، كانت الحاضر ، فتراجعت لتحل مكانها — فى تصورنا — لحظة أخرى مثلها ، كانت المستقبل فأصبحت الحاضر ؟

وإذن ففى وسعنا أن نتصور أن الماضى والحاضر والمستقبل ، تلتقى وتندمج فى لحظة واحدة مجردة من الامتداد الزمنى .

ولئن صح هذا التصور بالنسبة لحياة الفرد — وهو صحيح — فإنه بالنسبة لحياة الأمة أكثر صحة ، وأوضح أثراً .

فالمصرى الذى يعيش اليوم ، ليس لَبِنَةً مستقلة فى بناء القومية المصرية الحاضرة ، منفصلة عن الماضى ، منقطعة الصلة بالمستقبل ؛ ولكنه لباب الماضى ومساك الحاضر ، ونواة المستقبل . مثله كمثل اللحظة الزمنية ، يلتقى فيه الماضى بالحاضر ، ويتصل عنده الحاضر بالمستقبل .

والأمة المصرية ليست أفرادها الذين يعيشون الآن ، ولكنها أفرادها الذين ماتوا ، والذين وُلدوا ، لا فى هذه الساعة وحدها ، (ومصر تلد فى الساعة حوالى ثمانين وتشيّع نيّفا وخمسين) بل فى خلال الأجيال الماضية كلها ، وأفرادها الذين سوف يولدون فى الأجيال القادمة جميعها .

ولئن قسنا عدد الأحياء من المصريين فى هذه اللحظة ، بعدد الذين عاشوا فى القرون الخوالى بأسرها ، وجدنا أن هذه الملايين من الأحياء ، التى تعد على أصابع اليد الواحدة ثلاث مرات أو نحوها ، لا تعدو أن تكون قطرة فى محيط زاخر بألوف الملايين ، بل بملايين الملايين ، ممن اشتركوا بالأمس ، أو ممن سوف يساهمون غدا فى تكوين القومية المصرية وتشكيلها وتلوينها ، على كرّ الغداة ومرّ العشىّ .

فالقوم الذين يعيشون اليوم فى مصر ، ويعرفهم العالم باسم المصريين ، ليسوا إذن مصريى القرن العشرين وحده ، ولكنهم مصريو الحقب الخوالى والعصور التوالى . هم مصر الغابرة ، وهم مصر الحاضرة ، وهم مصر المستقبلة .

والقومية المصرية ، أى الرابطة بين الفرد المصرى والجماعة المصرية ، شىء مركوز فى كيان الأفراد المصريين .

ذكريات كل مصرى ، وتقاليده ، ومعتقداته ، هى التى يتكون من مجموعها ذكريات الجماعة المصرية ، وتقاليدها ، ومعتقداتها .

فالقومية فى داخلنا ، فى صميم كل فرد منا ، ولكنها أسمى من تفكير أى فرد فينا ، وأوسع من فهم جميعنا .

عاش أجدادنا وآباؤنا على ضفاف هذا النيل منذ ألوف السنين ، يتلقون فيضه فى أجل معلوم ، وينعمون بشمس مصر يقطع قرصها الساطع سماءهم الصافية مرة فى كل نهار ، ويسعدون بالوادى الخصيب المنبسط ، لا تتبدل طبيعته ولا تتغير

معالمه . لا زلازل ولا براكين تهدم ما شادوه ، ولا صواعق ولا أعاصير تخرب ما عمروه ؛ فأخلاقهم موسومة بطابع الاستمرار والاستقرار ، وقلوبهم مشربة بحب النظام ، مفعمة بحب الأسرة ، مطبوعة على تذوق الجمال ، ونفوسهم فياضة بالولاء لنظم يجلونها ، ومؤسسات يؤثرونها ، ومعتقدات يدينون بها، جعلت منهم قوما متجانسا ، وقومية قوية لعلها أقدم القوميات وأمجدها وأخلدها .

فقد عرفنا الله وعبدناه ووحّدناه ، وأدركنا الروح والخلود ، وآمنا بالبعث فى اليوم الموعود ، واستأنسنا القمح واستنبتنا أنخر سلالاته ، وبنينا وشيدنا ، ونحتنا وصوّرنا ، وكتبنا ودوّنا ، وقسنا وأحصينا ، وحسبنا الشهور والسنين وشرعنا وطببنا ، وفكرنا وألّفنا ، حين كان البشر نياما ، وكانت الدنيا جهلا وظلاما .

وإن التاريخ ليدحض دعوى المتحاملين على القومية المصرية ، ويفنّد مفتريات القائلين بأننا قوم طال عهدنا بسيطرة الغزاه ، والخضوع لحكم الطغاه ، حتى فقدنا قوميتنا ، واستحلنا مجموعة من أفراد متعددة عناصرهم ، متنافرة مواردهم ومصادرهم .

فما هبط وادينا شعب ، مستوطنا أو فاتحا ، إلا طويناه وتمثلناه ، وطبعناه بطابعنا ، وصغناه فى قالبنا ، وأدمجناه فى قوميتنا .

صنعنا هذا بالهكسوس ، والاثيوبيين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والأتراك ، واحتفظنا دائما بأشكالنا وسحننا ، ومعظم تقاليدنا وعاداتنا . حتى المسيحية والإسلام ، لم يكد يغير دخولها البلاد من أخلاقنا القومية ، إلا قليلا .

أما الذين لم يتأقلموا ، فإنا لم نلبث طويلا حتى لفظناهم وتخلصنا منهم ، كما حدث مع الفرنسيين ثم الانجليز من بعدهم .

ثانيا — الشعور بالجماعة

وهو وجود فكرة الجماعة المصرية فى عقول أفراد المصريين ، وفهمهم طبيعتها وتكوينها وحقوقها ومطالبها .

وحَسْبُنا أن نضرب لهذا الشعور مثلا ، النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ .

لم تكن تلك النهضة مجرد اتجاه مجموع إرادة المصريين نحو الاستقلال ، بل كانت اتجاه إرادة جميع المصريين نحو الاستقلال ؛ إذ كان الدافع لهذه الإرادة الجماعية دافعا واحدا منبعثا من يقظة الشعور العام ، ولم يكن دوافع منوعة تختلف باختلاف الأفراد ، وإن اتجهت كلها نحو هدف واحد .

الفلاحة التي ظنوها ميتة ، كانت نائمة فصحت واستوفزت واستوت واقفة تتوكأ على ماضيها وتتطلع إلى مستقبلها ، بعد أن تأصلت فكرة الأمة في عقول الأفراد الذين تتكون منهم الأمة ، وأصبحت هذه الفكرة نواة لعاطفة قوية ، تحرك دوافع قوية ، وتتغلب على سائر الدوافع ، وتتحكم فيها وتسيطر عليها .

اضمحلت النزعة الفردية ، وانطوت المصلحة الشخصية ، فاندمجت في نزعة الجماعة ، وانضوت تحت لواء المصلحة العامة ، وأصبح المصري يرى نفسه جزءا لا يتجزأ من الجماعة المصرية ؛ وبعد أن كان شعور المصري « أنانيا » في شخصه أضحى شعوره «أنانيا» في الجماعة ، فجاوز حدود نفسه ، وتخطى نطاق أسرته ، وانبعثت فيه دوافع العمل لمصلحة قومه وأمته .

زادت معرفة الفرد المصري بالجماعة المصرية ، وتضاعف اعتزازه بلغته ، وقوي احترامه لتقاليده ، واشتد حرصه على محبة الأمة المصرية والاندماج فيها والتجانس معها ، ونشط للقضاء على ما عساه أن يشوب وحدتها من عوامل التفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو الفوارق الاجتماعية وما إليها .

شعر المصريون بأن للأمة المصرية عمراً أطول من عمر أفرادها ، وأنها وجدت قبل أن يولدوا ، وأنها مستمرة بعد أن يلقوا ربهم ، وأيقنوا أنهم باندماجهم فيها يعظمون ويخلدون ؛ فاتخذوا للأثرة الفردية فلسفة جديدة ، هي الأثرة الجماعية ، وطابت نفوسهم بالتضحيات حتى روّت دماؤهم شجرة القومية المصرية ، فإذا أصلها ثابت وفرعها في السماء .

وكانت يقظة « الشعور السياسي » أول ثمار هذه الشجرة المباركة ، فعم الجماعة المصرية بأسرها ، وسيطر على تصرفاتها . ولا غرابة ، فقد كان أجدادنا أسبق الناس إلى التأثر بالشعور السياسي ، فاتخذ هذا الشعور في عقلنا القومي مظهراً شبيهاً « بأساليب التفكير الدائم » .

ولربما ظل هذا الشعور خامداً عدة أجيال ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الظهور بكامل قوته ، حين توافرت له الظروف الملائمة . و « الوطنية » أهم مظاهر

« الشعور السياسى » ؛ فإن الطفل يحمل معه منـذ العصور المتوغلة فى القدم نزعة الولاء للجماعة التى يعيش فيها . ولئن صح ما يقوله علماء التاريخ الطبيعى من أن « الحقوق الإقليمية » معترف بها بين الحيوانات العليا ، فلا يبعد أن تكون الوطنية قد انتقلت إلينا بالوراثة من عصور ما قبل التاريخ .

وتنطوى الوطنية على « حب عاطفى لبلدنا » ، وهى عاطفة مركوزة فى العقل الانسانى ؛ لذلك لم يكن تشويه براجنا التعليمية ، ولا مسخ التاريخ المصرى فى مدارسنا ، ولا محاربة الوطنية فى نفوس الأجيال السابقة على الثورة ، ليؤثر فى محبة المصريين لوطنهم ، وقيامهم كفرد واحد للدفاع عن حقوقه .

وكما تنطوى الوطنية على حب عاطفى للبلد او الوطن ، فإنها تشـمل أيضا « الشعور بالولاء نحو الوطن ، والشعور بالولاء للمواطنين » . شعور بالولاء نحو الوطن ، شبيه بشعور الولاء للأسرة ، وشـعور بالولاء نحو المواطنين ، شبيه بشعور الولاء قبـل الزملاء فى الصناعة ، والإخوان فى المهنة ؛ فهو جزء من « غريزة الاجتماع » ولون من « غريزة المحافظة على النفس » ، أو هو على الأقل مرتبط بهما .

وهــذه الناحية من الشعور الوطنى ، أى هذا الولاء للوطن ، والولاء للمواطنين ، هو ضرورة لازمة لتكييف تصرفات المواطنين بإزاء الشئون العامة والمسائل السياسية ، وهو أصل شعورهم بالولاء نحو حكومة البلاد ، أى نحو العرش والدستور والبرلمان والوزارة .

فلم تكد تشب الثورة ، أى لم تكد تتحرك المشاعر السياسية للمصريين ، حتى اشترك أبناء البيت العلوى فى الحركة الوطنية ، واشتركت الحـكومة مع الوطنيين فى المطالبة بحقوق البـلاد ، وقويت الروابط إلى حد الاندماج بين ما كانوا يسمونه عنصرى الأمة ؛ إذ تبين أن الأمة ليس فيها عنصران ، بل عنصر واحد هو العنصر المصرى ؛ وضعف الشعور بالفوارق بين مصرى ومصرى ، سواء أكانت فوارق اقتصادية أم علمية أم اجتماعية ، وقوى الشعور بضرورة إزالة هذه الفوارق عن طريق رفع المستوى العـام للطبقات الفقيرة والجاهلة ، وأصبحت الوطنية دين الجميع ، والوطن قبلة الجميع ، والقومية المصرية شعار الجميع .

ومما يرتبط بالوطنية ويكاد يتحد وإياها ، شـعور اصطلحنا على تسميته « العزة الوطنية ، أو الـكرامة القومية » .

وهو شعور قد يظل كامناً عدة قرون ، فإذا صادف الحافز الملائم ، ورى شراره ، واندلع أواره ، وتأججت ناره ، حتى إذا تولته القيادة القوية الأريبة ، استكمل عناصره ، وصهر الروح القومية فصفى شوائبها ، وسما بها إلى عليين.

وما الكرامة القومية غير إحساس هدفه تحقيق الرضا القومى . وكما أن من مظاهر احترام النفس أن يسكن الإنسان الدار التى يختارها ، ويرتدى الملابس التى يجدها لائقة ، فإن من مظاهر الكرامة القومية أن يختار الفرد الحكومة التى يعيش فى كنفها ، ويدين بالولاء لها . على أن يكون رجالها من بنى جنسه ، يتكلمون لغته ويشعرون شعوره ؛ لأن المواطن ينظر عادة إلى حكومته كأنها جزء من نفسه ، وبضعة من حسه ، وقطعة من ماله وملكه .

وقد كان ليقظة شعورنا بالكرامة القومية ، الأثر البالغ فى حياتنا الوطنية ، فاستردنا استقلالنا ، وانطلقت أيدينا فى إدارة بلادنا وتمثيلها لدى الدول الأجنبية ، وأصبح لنا دستور وبرلمان واشتراك فعلى فى الحكم ، قوامه الاقتراع العام ، والمسئولية الوزارية .

ثم تلا ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فخلص بذلك شرفنا القومى من أذى المذلة أمام الأجنبى ، الذى كان يعيش بيننا دون أن يخضع لتشريعنا الجنائى أو المالى ، أو يحاكم أمام قضاتنا الوطنيين ومحاكمنا الوطنية .

وها نحن أولاء قد تخلصنا من ديننا الدولى ، الذى كانت مذلته تطوق عنق كل مصرى ، وأصبحنا على أبواب الحدث العظيم الذى نستكمل به استقلالنا تامًّا خالياً من كل شائبة .

ثالثاً — التنظيم والقيادة

هو العنصر الذى لا غنى عنه لأى جماعة تريد القيام بعمل قومى جماعى .

وقد أتيح لمصر فى فجر نهضتها الحديثة عدد من أبنائها ، مثلوا وحدة الشعب المصرى ، وعبروا عن شعوره الوطنى والسياسى ، واشتركوا فى تنظيم الحركة القومية ، وساهموا فى إذكاء روحها ، ونجحوا فى توجيهها وجهة مباركة .

ولئن صح لنا أن نحدد وقتاً معيناً لابتداء يقظة « الشعور بالجماعة » ، وهو ثانى عناصر القومية المصرية ، فإنا نرجح أن يكون سعيد باشا أول حاكم من

أسرة محمد على ، ربط مصلحته بمصالح شعبه باعتباره مصريًّا ، وقطع على نفسه العهد بأن يتولى المصريون تدريجاً جميع مرافق الدولة ، ونزل عن ملكية الأراضى المصرية للمصريين .

ولا ننسى للخديو إسماعيل ، دعمه شخصية مصر كدولة مستقلة ، بما استخلص من حقوقها ، وأن أول برلمان مصرى انتخب فى عهده ، وأنه أول من اعترف بمبدأ المسئولية الوزارية ، وفى أيامه جاءنا جمال الدين الأفغانى ، الذى تخرج عليه زعيم النهضة السياسية ، وزعيم النهضة الدينية ، وزعيم النهضة النسوية .

وهكذا مهّد عهد سعيد وعصر إسماعيل ليقظة الشعور القومى ، وقدّما لظهور عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول .

وها هو ذا صاحب الجلالة المصرية ، الملك فاروق الأول ، يضرب لشعبه المجيد المثل فى الوطنية ، والقومية المصرية .

هذه هى العناصر الثلاثة للقومية المصرية . وإنا لنرجو أن نتناول فى مقال آخر ، « نواحى الضعف فى القومية المصرية » .

رياض شمس

ابراهيم بن المهدى : حياته السياسية

إنما هذه شخصية موهوبة عبقت فى قصور خلفاء الدولة العباسية : هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وانتشر شذاها الذكى فى مجالس الأنس والسمر والطرب ، تشدو بأعذب صوت ، وتغرد بأشجى نغم .

وقد حفلت حياة هــذه الشخصية العبقرية بالطموح والإقدام ، وتفردت بالشجاعة والمغامرة ، واتسمت بتعــدد المواهب وخصبها ، وامتازت بتسنم ذروة الفن والفصاحة . فكانت زينة المحافل ، ونديمة المجالس ، وريحانة النفوس الصادية لارتشاف مناهل الفن والجمال ، وبهجة الأرواح الظمأى إلى همسات الوجد والغرام .

أنجب العصر العباسى الأول هــذه الشخصية الفذة فى مناحى حياتها الصاخبة ، الغارقة فى أحضان الهوى ، العابثة فى مجالس الخلفاء والقيان ، الساخرة من أحــداث الزمان ، الضاحكة من الهموم والأحزان . فـكانت ألذ شخصية وأغربها ، وأدعاها إلى الدرس والبحث والتحليل ؛ تلك شخصية إبراهيم بن المهدى اللحن الحائر الرائع .

أمه « شكلة » مولدة . كان أبوها من أصحاب المازيار ، يدعى شاه افرند ، قتــل مع المازيار ، وسبيت ابنته « شكلة » وأرسلت إلى المنصور ، فوهبها لـ « محياة » أم ولده ، فربتها عندها . ثم بعثت بها بعد ذلك إلى الطائف ، فترعرعت هناك وتفصحت . فلما شبّت ، أعيدت إلى « محياة » . أصلها من طبرستان ، وقيل إنها ابنة ملك طبرستان .

وذات يوم أبصرها المهدى عندها ، فأعجب بها ، فطلبها منها ، فمنحته إياها . وما لبثت أن ولدت منه إبراهيم عام ١٦٢ هـ . وهو ينسب إليها ويدعى إبراهيم ابن شكلة . وكان مثلها حالك السواد . وقد لقب بالتنّين لعظم جثته وضخامتها .

تولى إبراهيم بن المهدى : فى الثامنة عشرة من عمره ، إمرة جند دمشق سنتين كان خلالها مثال الحاكم الصالح .

على أن الرشيد عزله لهفوة بدرت منه ، وهو الفتى الحاكم ، وعين مكانه سليمان بن المنصور بن المهدى . غير أن الفتنة نشبت فى أثناء حكم سليمان ، ولم يطعه أحد من الشعب .

وغضب الرشيد على إبراهيم ، وحبسه مائة يوم ، ولم يسمح له بدخول قصره ، كما حظر على جعفر بن يحيى أن يذكر اسمه أمامه سنة .

بيد أن الأيام كانت كفيلة بعودة الصفاء والمودة بين هارون الرشيد وإبراهيم ، فكأن الرشيد أيقن أنه من العدل أن يفكر فى جفائه لأخيه ، فخيره أن يختار مدينة يوليه عليها ، فإذا بإبراهيم يحن إلى دمشق ومغانيها .

عقد لإبراهيم على إمرة دمشق ثانية ، ورحل إليها عام ١٨٦ معززاً . وبعد زمن أقاله الرشيد متذرعاً بجبنه ، وولى مكانه العباس بن محمد بن ابراهيم الإمام .

ولكن مالبث الرشيد أن ألغى ولاية العباس بن محمد ، وأعاد إبراهيم إلى ولايته ، وأثنى على حكمته ، وأجازه بثلاثين ألف دينار .

وبقى إبراهيم فى ولايته الثالثة على دمشق أربع سنوات ، قفل بعدها راجعاً إلى بغداد ، وهو فى ريق الشباب ، وقد اكتسب من الحكم خبرة ودراية انتفع بهما فى حياته المفعمة بالحوادث الجسام .

لما استقر الأمر للمأمون ، وولى الخلافة عام ١٩٨ ، بعد ما استعرت الحرب بينه وبين أخيه الأمين ، وردت فى الثانى من رمضان سنة ٢٠١ رسالة على عيسى ابن محمد بن أبى خالد ، من الحسن بن سهل ينبئه فيها بأن المأمون بحث عمن يليق أن يكون ولى عهده ، فلم يجد فى بنى العباس وبنى على أفضل وأروع وأعلم من على بن موسى بن جعفر بن محمد ، وقد دعاه الرضى ، وأمره أن يخلع الثياب السود شعار بنى العباس ، وأن يرتدى الثياب الخضر شعار بنى على ، وأن يأمر أصحابه والجند والقواد وبنى هاشم وأهل بغداد بأن يبايعوه ، وأن يتخذوا الخضرة فى ملبسهم وأعلامهم .

فقبل البعض ذلك ، ورفض البعض الآخر أن يخرج الأمر من ولد العباس ،

واحتدم الجدال بين أهل بغداد أياماً ؛ واضطرمت الفتنة ، واستعرت سورة الغضب بين الشعب ، فناوءوه وقاوموه .

اجتمع زعماء الثورة وبحثوا فى قضية المأمون ، فأنكروا عليه صنيعه ، فإذا بهم يجمعون على خلعه ، وتنصيب منصور بن المهدى خليفة ، ودعوه المرتضى ، وسلموا عليه بالخلافة ، ولكنه أبى ذلك . فعمدوا إلى أخيه إبراهيم ابن المهدى ، فبايعوه بالخلافة ، ولقبوه « المبارك المنير » وقلدوا ابن أخيه إسحاق بن موسى بن الهادى ولاية العهد . وكان ذلك فى ٢٥ ذى الحجة عام ٢٠١ .

لما انتزع إبراهيم بن المهدى الخلافة من المأمون ، أوفد إليه المأمون الحسن ابن سهل فى جيش ، فثبت له إبراهيم وقاتله فهزمه .

ودارت رحى الحرب بين إبراهيم وأهل بغداد ، وبين أهل الكوفة والسواد ، فتغلب إبراهيم عليهم وعسكر بالمدائن .

واستعرت الحرب سجالاً بين جند المأمون وجند إبراهيم ، وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وانقسم أهل بغداد إلى حزبين .

ومازال إبراهيم بن المهدى فى بغداد يدعى « أمير المؤمنين » ويخطب باسمه فى بغداد والسواد والكوفة ؛ إلى أن كان على بن موسى الرضى ولى عهد المأمون يأكل عنباً ، إذا به يموت لوفرة ما تناوله منه . فنزل موته على المأمون نزول الصاعقة ، وانتابه جزع عظيم .

وفى موت ولى عهده الذى احتدمت الحرب من أجله ، ونبذ السواد ، ولبس الخضرة بسببه ، أدرك المأمون أن لا سبيل له إلا أن يسلك سياسة الحكمة والمرونة . فإذا به يكتب بوفاته إلى الحسن بن سهل ، وإلى بنى العباس وأهل بغداد والموالى ، وأنهم إنما نقموا عليه لجعله ولىّ عهده . أما وقد زال السبب ، فإنه يرغب إليهم أن يدخلوا فى طاعته ، ولكنهم جابهوه بالرفض وأنهم لا يقبلون عن ابراهيم بن المهدى بديلا .

وبقيت الحرب مضطرمة زمناً بين المأمون وابراهيم بن المهدى . وما زال ابراهيم يخمد الفتن ، ويقف فى وجه خصومه ، ويدافع عن خلافته ، حتى انتشرت الفوضى . وقد نظم عيسى بن محمد بن أبى خالد مؤامرة على تسليم ابراهيم

إلى خصومه . وكان يتظاهر بالطاعة لابراهيم والاخلاص له . ولما نمى هذا الخبر إلى ابراهيم كتم الأمر فى نفسه .

وانضم بعض أنصار ابراهيم من القادة والجند إلى حميد الطوسى ، وسلموه المدائن ، كما هزم جند حميد جند ابراهيم وطاردوهم .

ولما رأى خاصة أهل بغداد انتصار حميد ، انضم إليه الفضل بن الربيع وعلى ابن ريطة . ثم بدأ العقد ينفرط من حول ابراهيم ، حيث تحول عنه الهاشميون والقواد إلى حميد تباعاً .

وهنا أدرك ابراهيم من انصراف أنصاره من حوله ، أنه خسر المعركة ، وأنه لا شك خاسر الخلافة . وإذا ببضعة من القواد يفاوضون على بن هشام على تسليم ابراهيم بن المهدى إليه . فلما علم ابراهيم بخيانتهم وخيانة قومه وأصحابه ، وأنهم قرروا تسليمه ، ولم يبق له نصير أو صديق ، دأب على ملاطفتهم فى حكمة ولين .

وفى عيد الأضحى عام ٢٠٣ سار موكب ابراهيم بن المهدى إلى الجامع ، مرتدياً زى الخلافة ، تحف به حاشيته بأبهة وعظمة ، وصلى بالناس صلاة العيد . وهو يشاهد معسكر على بن هشام . ثم عاد إلى قصر الرصافة ، واجتمع فيه بمؤيديه وأنصاره ، حيث درس وإياهم الموقف الراهن ، فوجد أنه فقد الخلافة ، ولا مناص له من الفرار من وجه المأمون ، كى لا يبطش به ، لأن أقل عقاب له كان القتل .

انسل ابراهيم بن المهدى من قصر الخلافة إلى داره ، حيث اختفى فى ليلة الأربعاء فى ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ .

وحاصر المطلب وابن الساجور وأصحابهما دار ابراهيم ، وأبلغا ذلك إلى حميد الطوسى وعلى بن هشام ؛ فقدما ودخلا دار ابراهيم ، فوجداها خالية منه . فأعلما المأمون بذلك .

وكانت خلافة ابراهيم بن المهدى سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً ، قضاها فى إخماد الفتن والثورات ، ومحاربة المأمون فى سبيل الاحتفاظ بالخلافة وتنازع البقاء .

دخل المأمون بغداد فى ١٦ صفر عام ٢٠٤ وكان مرتدياً هو وأصحابه الخضرة ،

كما كانت أعلامهم خضراً ، وثياب بنى هاشم وقواده وجنده وأهل بغداد خضراً .

وبعد مرور ثمانية أيام اتفق معه بنو العباس على نبذ الخضرة ، والعودة إلى ارتداء السواد .

وكان من الأسباب التى ساعدت المأمون على إعادة أهل بغداد إلى طاعته ، أنه أمر بإعفائهم من ألفى الف درهم من خراجها . وهكذا استمالهم إليه وملك قلوبهم مرة أخرى ، مما دل على مرونته السياسية ، وحنكته الإدارية .

ومالبث المأمون أن استأنف إدارة شؤون الدولة بما عرف عنه من الحكمة والحلم .

غير أن العلويين عمدوا إلى المشاغبة عليه ، بعد أن ضحى بما ضحى فى سبيلهم . فلما رأى منهم ذلك أمرهم بهجر الخضرة وارتداء السواد ، ومنعهم من الدخول عليه .

إن ما تحلى به المأمون من سماحة الخلق ، ورحابة الصدر ، والحلم القصى ، وحب التسامح ، وميله إلى التساهل ، وكرهه للانتقام ، وشغفه بالعفو ، أصبح مضرب المثل . فقد عفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، ثم أعقبه بعفوه عن عيسى وزير إبراهيم بن المهدى ، وكان هو والفضل بن الربيع من زعماء الانقلاب عليه .

وفى ربيع الآخر سنة ٢١٠ اعتقل إبراهيم بن المهدى ، وهو متنكر بزى امرأة .

وروى أبو المحاسن بن تغرى بردى يصف عفو المأمون عن عمه ابراهيم بقوله :

« ... وله فى هروبه واختفائه وكيفية الظفر به أمور وحكايات مهولة ؛ منها انه لما وقف بين يدى المأمون ، شاور فى قتله أصحابه . فالكل أشاروا بالقتل ، غير أنهم اختلفوا فى القتلة ؛ فالتفت المأمون إلى أحمد بن خالد وشاوره ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إن قتلته فلك نظير ، وإن عفوت عنه ، فمالك نظير . فأنشد المأمون:

فلئن عفوتُ لأعفُوَنْ جللاً ولئن سطوتُ لأُوهِنَنْ عظمى !

فكشف ابراهيم بن المهدى رأسه وقال : اللّه أكبر ! عفا عنى أمير المؤمنين ؟ فقال المأمون : ياغلمان ، حلّوا عن عمى وغيّروا من حالته ، وجيئونى به ... [1] »

وفى مثول ابراهيم بن المهدى بين يدى المأمون ، وفى الحوار الذى دار بينهما ،

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٤١

بلاغة وطرافة ومتعة تشف عن فصاحة ابراهيم وتوبته، وعن حلم المأمون وكرمه.

حدث ابن عساكر قال « . . . ولما طال عليه الاختفاء ضجر، فكتب إلى المأمون : «وليُّ الثأر محكَّمٌ، والعدل أقرب إلى التقوى . ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء، فمن عادية الدهر على نفسه . وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل ذى عفو، كما جعل كل ذى ذنب دونه . فإن عفا فبفضله، وإن عاقب فبحقه » . فوقع المأمون على الكتاب : « القدرة تذهب الحفيظة، وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شيء » . ولما دخل على المأمون قال :

إن أكن مذنباً فحظى أخطأ ت، فدع عنك كثرة التأنيب

قل كما قال يوسف لبنى يعـــقوب لما أتوه : لا تثريب

فقال له المأمون : لا تثريبَ، وقال له أيضاً لما أخذه : ذنبى أعظم من أن يحيط به عذر، وعفوك أعظم من أن يتعاظمه ذنب . فقال له المأمون : حسبك ! فإن قتلناك فللَّه، وإن عفونا فللَّه . . .[1] » « بل أعفو يا إبراهيم، فكبر إبراهيم وخرّ ساجداً [2] » .

إن عفو المأمون عن عمه ابراهيم بن المهدى، كان خيراً ومكرمة وذكراً عاطراً مدى الدهر . وقد ضرب به مثلاً عالياً فى الحلم والتساهل والتسامح ورحابة الصدر ونبل الخلق .

ومن أبلغ ما دار بين المأمون وابراهيم بن المهدى ما حدّث الفضل بن طيفور . « . . . وقال المأمون لابراهيم حين صفح عنه : لو لم يكن فى حق أبوتك حق الصفح عن جرمك، لبلغتَ ما أملت بتنصلك فى لطف توصلك . وكان ابراهيم قال له : إنه إن بلغ جرمى استحلال دمى، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغان عفوه . ولى بعدهما شفعة الإقرار بالذنب، وحق الأبوة بعد الأب . . . قال المأمون : . . . لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو ما حمدونى عليه : ولا أنابوا من ذنوبهم . فقال ابراهيم إما متمثلا وإما مخترعاً :

أمـــير المؤمنين عفوت حتى كأن الناسَ ليس لهم ذنوب[3]

وأضاف ابن العميد قوله : « ... فقال له المأمون : إنى شاورت فى قتلك،

---

(١) التاريخ الكبير ج ٢ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ١٧٦

(٣) كتاب بغداد ج ٦ ص ١٩٥ .

فأشاروا بقتلك ؛ إلا أنى وجدتُ قدرك فوق ذنبك ، فكرهتُ القتل[1] »

وعاد إبراهيم إلى مجلس المأمون عزيزاً مكرماً ، فنادمه المأمون ولاطفه . ثم طلب إليه أن يغنى ؛ فاعتذر بأنه نذر لله عند خلاصه نبذ الغناء . فألح عليه ، وأمر بوضع العود فى حجره فغنى :

هــذا مقام مشرد خربت منازله ودوره

نمّت عليــه عُداتُه كذبا ، فعاقبه أميره

ثم أمر المأمون بإعادة ما حجزه له من الأموال والضياع والعقار والدور والدواب ، كما أعاد مرتبته ، وأجازه بعشرة آلاف دينار فوراً ، وانصرف مكرماً على خيل المأمون .

وهكذا أنقذ بيان ابراهيم بن المهدى حياته من القتل ، ويرهن ذلك على كرم المأمون وسماحة طبعه ، وتقديره للأدب وأربابه . فلولا بلاغة ابراهيم وسرعة خاطره ، وذلاقة لسانه ، وقوة حجته ، ومضاء عزيمته ، لبطش به المأمون ، وجعله عبرة لسواه .

منير الحسامى

(١) تاريخ المسلمين ص ١٣٦

من هنا وهنالك

مرقص الشانزليزيه

حرصت باريس دائماً على أن تحتفظ للرقص بالمنزلة الممتازة التي يستحقها ؛ لأنها تراه فناً رفيعاً كأخته الموسيقا وكأخيه التمثيل وكعمه الأدب . وهو من أجل ذلك يلجأ إلى الأدب وإلى الشعر خاصة لينشئ له النص الذي يعتمد عليه ، كما يلجأ إلى اللحن والايقاع ليكونا شيئاً أكثر من الحركات والاشارات . وهو كالمأساة والملهاة والدرامة محتاج إلى التصوير والعمارة والنحت والتخطيط والبدع — الموضة — والاضاءة ، إذا أراد أن يظهر فى المناظر الملائمة ، وأن يكسو جسمه وأن يراه الرائى فيعجب به .

ومن أجل ذلك رغب كبار الشعراء وكبار الملحنين وأصحاب الصوت البعيد من الفنانين فى أن يتعاونوا لينشئوا آية بديعة من آيات الرقص. فاذا تحققت هذه الشروط الدقيقة العسيرة وأعان بعضها بعضاً أتيح للنظارة أن يشهدوا مناظر فنية رائعة نادرة تمتزج فيها لذة العين ولذة الأذن ولذة العقل والقلب . وهذا الانسجام الدقيق بين هذه اللذات هو الغاية الصحيحة للرقص .

ومنذ عرض سرج دى دياجيلف فى باريس قبيل الحرب العالمية الأولى المرقص الروسى ballet russe وأظهر العالم على عبقرية نيجنسكى عنيت العاصمة الفرنسية عناية متزايدة بفن الرقص . وليس من شك فى أن مسرح الأوبرا قد كان له رقصه التقليدى المقرر منذ وقت طويل ، ولكن أخذت حركة جديدة موازية تظهر فى أول القرن إلى جانب هذا الرقص التقليدى ، محاولة أن تحدث شيئاً جديداً وأن تنشىء موضوعات مبتكرة للرقص وخطوات لم يسبق إليها الراقصون من قبل . وهناك أسماء ستظل دائما مقرونة إلى هذا الجهد الخصب فى تجديد الرقص والخروج به عن أصوله المألوفة ؛ فالى جانب المرقص الروسى وجدت محاولات لوى فولير التى ابتدعت الرقص من وراء نقب تقبضها وتبسطها وتمدها وتردها عصا خفية . ووجدت كذلك محاولة أخرى للعودة أو لاحياء الرقص اليونانى القديم ، يستعان على ذلك بما يرى مرسوما على الآنية القديمة. وكانت إزادورا دونكان هى التى استأنفت هذه المحاولة . وقد حاول راقص روسى آخر بين الحربين سرج ليفار ان يعرض على مسرح الأوبرا مذهبه الخاص فى هذا الفن الجميل ، فكان نجاحه الرائع السريع مصدر سطوع عظيم لمراقص الأوبرا كلها . ولكن هذا الراقص العظيم قد حيل بينه وبين إعجاب الباريسيين بعد تحرير فرنسا ؛ لأنه اتهم بالتعاون مع العدو فحرم عليه الظهور على مسارح باريس. منذ ذلك الوقت فتن جماعة من الشباب الفرنسيين هذه المرة بفن ترِبسكورا إلهة الرقص عند اليونانيين وأخذوا يجمعون شملهم وينظمون عملهم تحت إشراف رولان بيتييه الذى لم يتجاوز بعد السابعة والعشرين من عمره ، واخذوا يعرضون طائفة من المناظر الراقصة فى ملعب الشانزليزيه الذى تسموا باسمه. وقد عرضوا مناظرهم أخيراً فى لوندره فظفروا عند نظارتها بفوز عظيم . ويظهر أن

وغيسهم لم يتح له ما أتيح لنيچنسكي من النبوغ ولا ما أتيح لسرچ ليفار من التفوق ، وإنما هو فى أكبر الظن متقن لفنه ولكنه راقص غير ممتاز قد منح جسما جميلا حسن الاتساق فأتاح له ذلك رضا النظارة عنه وحبهم له . وهو مع ذلك قد أحسن اختيار الجوقة التى تعمل معه من الراقصين والراقصات ولا سيما چان بابلييه وسولانج شوارتز . وبرنامج هذه الجوقة كثير متنوع ؛ فهى تبتكر موضوعات جديدة وتعرض بينها من حين إلى حين مناظر تقليدية قديمة كهذا المنظر المشهور شبح الوردة الذى خلده نيچنسكي والذى يعرضه فى رقصة رائعة الشاب الحدث بابلييه الذى لم يبلغ العشرين بعد ، والذى ينتمى إلى أب من كبار الأطباء فى باريس . وربما أخذ على رولان بيتييه وجوقته أنهم لا يعنون بالوحدة كما تعنى بها المراقص الروسية ، وإنما يذهب به الالهام مذاهب مختلفة متباينة بحيث يمكن أن يقال إن فى مراقصه إرضاء لكل ذوق . وهى خصلة يمكن أن تكون فى وقت واحد مزية وعيباً . فهو من هذه الناحية يكفل لنفسه جمهوراً ضخما من النظارة ؛ لأنه يتيح لكل فرد ما يلائم ذوقه الخاص من المتاع ، ولكنه من أجل ذلك نفسه لا ينشىء لوناً جديداً من الفن ولا يحدث ثورة حاسمة فى الرقص ، ولا يسبغ على مناظره من الخصائص ما يميزها تمييزا دقيقاً من مراقص سرچ ليفار مثلا الذى هو أرسخ منه فى الفن قدما وأشد منه للفن تعمقاً وأقدر على النهوض بما يقتضيه الفن من أعباء . فليس من الممكن إذن أن تدرس مراقص الشانزليزيه فى جملتها ، وإنما يمكن أن تبين الخصائص التى يمتاز بها هذا الراقص أو هذه الراقصة . هذا الافتقار إلى الوحدة وهذا التقصير فى تحقيق الملاءمة يلاحظ حتى فى ثنايا المنظر الواحد من مناظر الرقص حيث تصعب ملاحظة الوحدة فى الحركة ، وإن كانت وحدة الزمان والمكان تظل مفروضة بحكم قوانين المسرح . وينتج عن ذلك الشعور بأن كل فرد من أفراد الجوقة إنما يأتى ليظهر ما يستطيع أن يعرض ، كما ينتج عن ذلك أيضاً أن النظارة لا يشهدون حركة اجتماعية ولا منظراً تشترك فيه الجوقة على أنها كل ، وإنما يشهدون ألعاباً رياضية فردية وتمرينات شخصية .

وهناك عيب آخر خطير لهذا المرقص وهو أن الموسيقا ليست على انسجام دائم ملحوظ مع الرقص . وإنما هى تعلة صوتية توشك أن تكون عقبة دون فهم الرمز الذى يقصد إليه الرقص . فاذا سجلنا هذه الملاحظة فيجب أن نحمد لمرقص الشانزليزيه مشاركته فى الجهد الذى يبذل لاظهار الجمهور على مذاهب الشعراء المعاصرين من أمثال چان كوكتو وچاك بريڤرت والملحنين المحدثين من أمثال چاك إيبر وهنرى سوجيت وعلى التجديد فى فن المناظر مما يبتكره أمثال مارى لورانسان وڤاكفڤتش .

ولنختم هذه العجالة بكلمات قصار حول المنظر الأخير الذى عرضه مرقص الشانزليزيه منذ أيام ، وهو الشاب والموت . وهو عنوان كما ترى مستعار فى أكبر الظن من رباعية شوبرت : الفتاة والموت ، هذا المنظر يقصه الشاعر چان كوكتو على رولان بيتييه منشىء الرقص وعلى الراقصين چان بابلييه الفتى وناتالى فيليبار الفتاة وعلى ڤاكفڤتش منشىء المنظر وهو يعرض مقترنا بموسيقى چوف سبستيان باخ . فى غرفة حقيرة على سطح دار من دور باريس ينتظر المصور عشيقته التى يهواها وهى تأتى ولكنها لا تظهر له حباً وإنما تظهر له ازدراء . وما تزال به حتى تغريه بالانتحار وتدفعه إليه ، ثم تمضى والفتى يقتل نفسه خنقاً . هنالك تتطاير أجزاء الغرفة وإذا نحن على سطوح باريس أثناء الليل نرى من بعد برج إيفل ونرى فى كل مكان اضواء

تشب وتخمد ، ثم يظهر الموت — يرى الفرنسيون الموت دائماً فى شكل امرأة وتؤنثه لغتهم — مقنعاً قد اتخذ ثوب السهرة أحمر قانياً وهو يدنو من الفتى ، حتى إذا بلغه نزع قناعه وقنع به الشاب. فاذا نزع الموت قناعه تبين للنظارة أن الموت ليس إلا هــذه الفتاة التى كان يعشقها المصور ، ثم هى تقوده من سـطح إلى سطح .

فى هــذا المنظر أيضا تنقطع الصلة بين الموسيقا وبين هذا الرقص ، أو بعبارة أدق هذا التخييل . فكل شىء يؤدى بالاشارة والحركة . فالموائد تنهار والكراسى تتحطم والفتاة تلطم الفتى وتكزه وتشعل سيجارة والفتى يضع يده على قلبه ويتمرغ على الأرض . ويمضى المنظر على هذا النحو . والغريب أن جان كوكتو كان قد أعلن إلى الصحف قبل أن يعرض هذا المرقص أنه لا ينتظر له نجاحاً . وكانت نتيجة هذا الاعلان أن الشعب الباريسى أبى أن يتهم بالغباء فنجح المرقص فوزاً عظيما . أما النقــد فآثر التحفظ . أيمكن أن يكون تصريح كوكتو لوناً من ألوان الاعلان الذى يريد ظاهره شيئاً ويريد باطنه شيئاً آخر ؟

مؤنس طه حسين

أيام للعربية فى باريس

لمصر منزلة رفيعة فى باريس ، ولأبنائهـا مقام محمود وسمعة طيبـة لدى من يتصلون بهم فى حيـاتهم العلمية وحياتهم الخاصة . وزاد فى هذا وذاك وجود الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك بيننا فى عاصمة العلم والآداب هذه الأيام ؛ فقد ارتفع فيهـا بفضله صوت مصر والبلاد العربية عامة ، بمـا أقيم لحضرته من الهيئات الرسمية والعلمية وأبناء العروبة من استقبالات جمعت بين الجلال والجمـال ، وبما ألقى فيها من كلمـات قيمة فيها الاشادة بالعروبة والثقافة العربية بلسان العـالم الثبت الأديب ، وأسلوب لا يقال فيه أكثر من أنه أسلوب الدكتور طه حسين !

ولست أشير فى هــذه الكلمة إلا إلى ما شهدته بنفسى ، وأجد هذه الاشارة واجباً علينا لمصرنا والعروبة ، ونحن فى عاصمة كبيرة من عواصم الغرب دوى فيها صوت مصر والعربية ، وسمعه الكثير من العلمـاء والأدباء ، أساتذة السوربون وغيرهم من رجالات فرنسا .

١ — كانت جلسة طيبة ممتعة منتجـة « لاخوان الصفا » ، المتعاونين على العـلم والفلسفة والحق ، بباريس بدار أستـاذنا الكبير ماسينيون ، نعمنا فيها أثناء تناول الشاى والحلوى الشرقية بحديث من أحاديث الدكتور ، فيه توجيه محمود لجماعتنا الناشئة هنا ، بما أوضح وحدد من الغـاية ، ورسم من الطريق والمنهاج ، وذلك عصر الأربعاء الخامس من مايو .

٢ — وكان الخميس غداة هذا اليوم يوما مشهوداً من أيام مصر ؛ إذ دعا أساتذة وطلاب معهد الدراسات الاسـلامية بكلية الآداب بالسوربون صفوة من رجال العـلم والأدب لاسـتقبال فخم تكريماً للدكتور ولسماع محاضرة له عن خصائص الأدب العربى الجـاهلى .

وبعد أن افتتح الجلسة الأسـتاذ ليفى بروفنسـال ، ألقى الدكتور محاضرته القيمة باللغة العربية ، التى حدد فيهـا خصائص هذا

الأدب ومقوماته ، وأبان ما يرجع منهـا إلى الموضوع وما يرجع إلى اللفظ ، وخلص من ذلك إلى أن هذا الضرب من الشعر القـديم يوجد فى كل العصور ، حتى العصر الحـديث الذى نعيش فيه ، بوجود هـذه الخصائص فى بعض نتاج كل عصر .

ثم كان بعد أن هدأت عاصفة تصفيق الحب والاعجاب ، الشاى والحلوى التى قدمت بكرم عجبنا له ونحن فى باريس هـذه الأيام ! وفى خلال تناول الشاى كانت كلمات الترحيب من مندوبى الطلاب العرب النابهين .

وانتهى الحفل ونحن نحس السرور والفخر يتمشيان فى أعطافنـا ، لمحاضرة عن الأدب العربى ، تلقى من عميده باللغة العربية فى معهد من معاهد السوربون ، وبين نخبة من رجاله أساتذته الفرنسيين !

٣ — أما يوم الخميس الثالث عشر من هذا الشهر مايو ، الذى كانت أيامه أعياداً لنا هنا ، فقد كان يوم شمال إفريقية والأندلس الذى لا ينسى .

إن من الأمانى التى يحلم بها شباب شمال إفريقية الناهض أن يتصلوا اتصالا مبـاشراً برجال النهضة فى العلم والأدب فى مصر والعالم العربى عامة ، وقد حقق الله لفريق من هذا الشباب ، الذين هاجروا من بـلادهم إلى باريس فى سبيل العلم والجهاد لتحرير أوطانهم العزيزة ، أمنية من هذه الأمانى . لقد تفضل الدكتور وأجاب دعوتهم لحفلة شاى ، فكان ذلك من حسنات باريس ، كما أشار إليه رئيس نادى هؤلاء الطلاب وهو الأخ المهدى بن عبود وزميله الفاضل السيد محجوب بن ميلاد .

لقد تحدثا عن العقاب الكؤود التى تحول بينهم وبين الاتصال بالعـالم العربى ، هذا الاتصـال الذى يجب أن يكون دائماً لخير العروبة جميعاً « ولتحرير الحياة العقلية العربية من قيودها الحاضرة ، وبعث الشخصية العربية قوية جبارة رائعـة بين باقى الشخصيات الانسانية » . وهكذا قدر لهذا الشباب أن يبث إلى مصر والعالم العربى فى شخص الدكتور طه حسين بك آلامه ، وأن يزجى إليه آماله .

وأخيراً تكلم الدكتور ، وأفاض فى الكلام من كل قلبه ومشاعره وعقله ، عن مبدأ تعرفه إلى شمـال إفريقية والأندلس ، وعوامل حبه لمن أنجب هذا القطر من أقطار العالم العربى الاسلامى من علماء وأدباء ومؤرخين وفلاسفة على رأسهم ابن خلدون وابن حزم ؛ وكيفـ أنه كان يفر إلى مؤلفات هذين فى فورة شبابه وهو لا يزال طالبا بالأزهر ، فيجد فيها متعة العقل والقلب ! كما تحـدث طويلا عن فضل هذا القطر على العـالم العربى كله ، وعلى التفكير الانسانى عامة ، وعن غير هذا كله من الشؤون التى بعثت فى أبنـاء هذا القطر أكبر الآمال وأقوى العزائم ، لبعث بلادهم من جديد ، وإضافة الكثير من الأمجاد إلى مجدهم العظيم القديم .

ومن الطريف والقمين بالذكر هنـا أن أشير إلى أن الدكتور ، فى حفـل معهـد الدراسات الأسـلامية ، لم يحمـد موقف المتنبي كشاعر بين القديم والجديد ؛ إذ لم يرض لنفسه أن يكون محافظاً ، وحاول التـجديد فلم يأت بشيء . وكان بين الحضـور المعجبين الأخ مصطفى كامل ياسين ، وهو شاب نابه من شباب العراق جاء إلى باريس لاستكمال دراسته للقانون ؛ ويظهر أنه عتب على الدكتور فى نفسـه ، حتى إذا كانت حفلة طلاب شمال إفريقية ألقى كلمة شعرية لطيفة ممتعة فيها هذه الأبيات :

يافتى النيل بعض واديك نيـل زاهر الضفتين عـذب المواسم
أدب كابتسامة الفجر تخضل (م) بأنفاسها ثغور الـكمائم

هو آمال أمــة وتراث من رسالاتهـا بظلك سـالم
وسواء بالفضل رايـة فتـح خافق ظلها وآيـة عالم

يشتهي نقـدك العراق وإن كا ن على آية العراقين حائم
ولذكراك تنثني كوفـة الجنـ ـد وتنـدى معاهـد ومعالم
أو تنسى رسـالة المتنبي وسراياه والظبـا والمعالم
لست أدرى وإن فتنت بـآيا تك والسحر من بنانك ناجم
أخيـال من ابن عباد أم فيـ ض من الحق لا يرق لـلائم ؟

أنت يا ابن البيـان وحي عصور مشرق عهدها وفيض مكارم
تنطوى صفحة الزمان وأيا مك ميمونـة ومجـدك دائم

وقـد أعجب الدكتور بالشعر والشاعر وقربه إليه وأخذ يسأله عن حاله ودراساته هنا ، كما أعجب بذلك الحاضرون إعجابا شديداً .

٤ — وكان أخيراً ، بعد هـذه الأيام المشهودة الخالدة ، أن تفضل الأستاذ الدكتور بإجابة دعوة أبنائه المصريين إلى حفل يتحدث فيه إليهم حديث الأستاذ لتلاميذه المخلصين قبـل أن يترك باريس إلى الوطن العزيز . ودعى إلى هذا الحفل كثير من العلمـاء والأدباء والأساتذة الفرنسيين ، وعدد كبير يمثل البلاد العربية شرقها وغربها ؛ وكان ذلك يوم الأربعاء ٢٦ من هـذا الشهر ، في قاعة الحفلات بالمنزل الدولي بالمدينة الجامعية .

وقد بدأت الحفلة بتقديم منـدوب Le centre d'accueil à Paris إلى الدكتور وثيقـة رسمية من مـدينة باريس فيهـا اعتراف بفضله وتقديره كصديق من أصدقاء باريس ، ثم بكلمات طيبة من الاخوان والأساتذة : القصاص والشاوى وعنبر ، ثم أخيراً عزفت بعض قطع من الموسيقا الغربية .

وبعد كلمات الترحيب والشكر من الاخوان تحدث الدكتور إلينا بالفرنسية موصيا ناصحاً بضرورة فهم الحياة بباريس فهما دقيقاً من كل نواحيهـا وانتهاز الفرص الكثيرة المتاحة لنا لنصل إلى ما يجب من هـذا كله ، وبذلك تجنى مصر منا فيما بعد الكثير من الخير ؛ إلى غير ذلك من النصائح الحكيمة التي أمدته بها تجاربه الطويلة ، والتي تنبعث من عقله وقلبه لأبنائه المخلصين . كما شكر باسم المصريين ومصر عامة ما يلقاه هنا أبناؤها دائماً من حفاوة باريس وجهاتها الرسمية ، وعناية الأساتذة عناية شديدة خالصة ، تجمع بين عناية الأستاذ والأب الحكيم .

وكان بين الحضور الذين تفضلوا بإجابة دعوتنـا من الأساتذة الفرنسيين ، الأساتذة ماسينيون وبريسيه وليـڤى بروڤنسـال ، وغيرهم من أسـاتذة السوربون ومعهـد الدراسات الاسلامية والكولوليج دى فرانس .

هكذا كان مقام الدكتور طه حسين بك بيننا في باريس هذه الأيام ، عظيم الفضل محمود الأثر بفضـل الله على مصر والعروبة عامة . ونسأل الله الهداية والرشاد .

باريس في ٢٧ مايو ١٩٤٦

محمد يوسف موسى

شهريات

شهرية الاجتماع

أثر الحرب فى الإجرام

تعتبر الحروب من الظروف التى تمر بالمجتمعات فتغير من مجرى حياتها وتحدث أثراً واضحاً فى كافة اتجاهاتها الذهنية ومقاييسها الاجتماعية . ومما لاشك فيه أن الاجرام ، وهو ظاهرة اجتماعية أو على تعبير البعض سنة كونية ، يتأثر تأثراً واضحاً بالحروب ويصطبغ بها بألوان متعددة . . . والاجرام بعناصره يتكون من المجرم والجريمة ، ويضاف لذلك عنصر ثالث هو العقاب ، وهو جواب المجتمع على الخارجين عليه الكاسرين نواميسه .

والحرب فى نيلها كل مظاهر الحياة بالتغيير تنال الاجرام فى عناصره آنفة الذكر ؛ فهى تنال المجرم من ناحية بواعثه النفسية ومدى قداسة المعايير الخلقية عنده ، وتناله أيضاً من حيث نوعه وبيئته ، وفى نظرته إلى طائفة معينة من الجرائم والفصل بينها وبين الخطيئة والاستعانة بكل وسائل التبرير لابعاد بعض الجرائم عن دائرة الخطيئة .

وتتأثر الجريمة بالحروب ، فتنطوى تلك الظاهرة الاجتماعية تحت قانون العرض والطلب كما ردد ذلك الفيلسوف تارد ، فتكثر أنواع من الجرائم تقتضيها الظروف الطارئة ، أو بتعبير آخر يشتد الطلب عليها ، وتصطبغ أفعال ما كان يدور بخلد أحد أن تصطبغ بصبغة الجريمة . ويلابس الجريمة بصفة عامة صفة المبالغة فى الأداء أو على الأقل الأداء الاجرامى .

والعقاب وهو العنصر الثالث من عناصر الاجرام يظهر أثر الحرب واضحاً عليه فى تلك النظرة الحازمة التى توليها السلطة العامة بعض الجرائم ، وارتفاعها بدرجات العقاب فى بعض الحالات وبعض الظروف إلى درجة غير متصورة فى الظروف العادية .

وسنبدأ بشرح أثر الحرب فى المجرم وسنحاول الوصول إلى ماوراء العرض الظاهر لصانع الجريمة مقتفين دخيلة نفسه .

يصدر المجرم فى جريمته عن بواعث تحركه وعن بيئة اجتماعية تساعد فى تكوين هذه البواعث لديه . . . وفى الظروف العادية تعمل البيئة عملها فى تكوين البواعث الخاطئة . فهذا شخص يولد فى أحضان الفقر فتدفعه الحاجة وأخلاط السوء إلى ألوان من الاثم والجريمة . . . وهذا حدث من أقاصى الصعيد يقتل والده وتعمل البيئة الحارة التى تغلى بالانتقام عملها فى نفسه . . . ويضج بشماتة الناس وتعبيرهم ، فتنمو فكرة الانتقام عنده وتترعرع إلى أن ينفس عنها بالطريق الذى يختاره ، وبذلك ينخرط فى سلك المجرمين .

وفى الحرب تزداد البواعث الموجودة أصلا ، والتى تحرك الشخص لارتكاب الجريمة ، جلاء ووضوحا وقوة . فطبيعة الطفرات التى تلازم الحروب وترتفع بأشخاص من الفقر إلى الغنى العريض ، هذه الطفرات الواسعة تصلح حافزاً ضخما لدى كثير من الأشخاص

على ارتكاب جرائم الأموال وتوفر فى نفوسهم عنصر المقامرة التى قد يكون من نتائجها فيما بينهم وبين أنفسهم استواؤهم على عرش المال إن كفلت لهم حظوظهم النجاة من معقبات فعلهم. فمثلا فى جرائم الأموال، وهدف الشخص فيها وقصده الأول الحصول على مال مملوك للغير بطريق غير مشروع ، يزداد الدافع على ارتكاب هذه الجرائم فى أزمان الحرب وضوحا وقوة ، فيدفع المجرمين إلى اجتراح مثل هذه الأفعال دفعاً أشد عنفاً وأكثر جلاء من أزمنة السلم . وهذا ما ظهر فعلا فى عدد من المجرمين ؛ فكثير من موظفى الحكومة الذين كانوا فى مدة الحرب يحتكون بحكم عملهم بالتجار يرون بأعينهم الربح الذى ينعم به هؤلاء فيعملون آذهانهم فى مقارنات خاطئة بين حالتهم وحالة هؤلاء المجدودين . وكثيراً ما أنتجت هذه المقارنات لدى بعضهم بواعث على الجريمة . فتولد حالة الموظف المالية وما يتوقعه لنفسه من مستقبل تعس وما يرى عليه التجار الذين أسعدهم الحظ، كل هذا يولد عنده رغبة حائرة عاجلة فى الربح ، فيسعى نهماً وراء المال ، ويشعر بجوع مادى هو أول درجات الجريمة عند ضعاف النفوس . وقد وقعت طوائف متعددة من الموظفين فى المحظور بسبب هذا ، وأضيف إلى السجون شباب يانع سلبته الرغبة الجامحة فى الاغتناء نعمة الحياة الشريفة . وفى غير دوائر الموظفين كثيرون من ضعاف النفوس أذهلهم الغنى المفاجىء الذى حل بغيرهم ، فتولدت عندهم رغبة التسابق المندفع الذى لا يعرف الهوادة ولا يعرف القيود ، خلقية كانت أو قانونية أو اجتماعية . وولدت هذه الرغبة بدورها باعثاً جامحاً على الاغتناء ولو كان عن طريق الجريمة . فهذه الطفرات الواسعة التى ولدتها الحروب تعتبر مسئولة شيئاً ما عن أشخاص عديدين وقعوا فى الجرم وما كانوا ليقعوا فيه لو لم تسر الظروف على هذا النحو .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل إن بيئة الحرب تغير من نظرة بعض الأشخاص إلى المعايير الخلقية التى تواضع المجتمع عليها . ومن مقتضى هذه المعايير إدخال طائفة من الأفعال فى عداد الجرائم . والملحوظ أن الأخلاق تنهى عن الجريمة أيا كان لونها ، إما لأن اقترانها خطأ خلقى فى ذاته كالسرقة والاغتصاب ، وإما لأنها مجافية — وإن لم تكن مجافاة تامة — لقواعد الأخلاق كجرائم الاهمال ؛ فان فى ارتكابها تعريضاً للمركز الذى يحرص الرجل المحترم على التمتع به فى المجتمع . والحرب تؤثر فى هذا الوضع المريب الذى يحيط بالجريمة ، فتكاد تخرج بها فى نظر بعض الأشخاص عن دائرة الخطيئة إلى دائرة الأفعال المشروعة.. ففرص الاغتناء الواسعة ، وموجات الأموال التى تنفق بغير حساب ، وعمل الظروف غير المفهوم فى توزيع الأموال على أشخاص دون آخرين ، وزيادة الاعتقاد أن الحرب فرصة لا تعوض للاغتناء لا يكون وراء تركها إلا الندم ، كل هذا يغلب فى بعض النفوس رغبة انتهاز الفرصة ، ويلبس الجريمة ثوبا من أثواب المحاولات والكفاح فى الحياة لا أكثر، وتختفى تدريجياً المعايير الخلقية تحت هذا الستار فيصبح الشخص المقدم على الجريمة فى نظر نفسه ليس أمام عمل مشروع أو غير مشروع أو عمل ينال من مركزه الاجتماعى أو لا ينال منه، بل أمام اختيار الفقر أو الغنى ، انتهاز الفرصة أو تركها ، ولا شأن للأخلاق فى هذا الموقف . . . ولا محل لرقابة الضمير . . . ويندفع وراء هذا التصور الخاطىء مستعيناً بكل وسائل التسويغ إلى أن يصل بينه وبين وجدانه ، إلى أن مهارة الشخص فى انتهاز الفرصة وأن طعام الساعة هو عقل الساعة . . . ولا تترك له عجلة الحرب الهوجاء فرصة للتأمل والتدبر فى أوهامه وأخطائه .

في إحدى القضايا سئلت فتاة اندفعت في تيار الفساد عن حياتها قبل الوقوع في الرذيلة فأجابت بأنها كانت خادمة. ولما سئلت عن سبب إيثارها عملها الجديد على القديم وهو يمتاز بطهارة المسلك، أجابت بأنها خرجت من المقارنة بين الماضي والحاضر إلى أن في الحاضر يسراً وسهولة في سبل الرزق، ويسراً وسهولة في تجميع المال. وتفويت مثل هذه الفرصة قد يدعو إلى ندم العمر كله. وظهر أيضاً أن بعض الموظفين الذين انزلقوا إلى الرشوة كان يساورهم شعور خفي أن فعلهم هذا لم يكن إلا إقامة للعدل بينهم وبين غيرهم من المجدودين بسبب الحرب، وإصلاحاً للتوزيع الذي قامت به المصادفات بغير حساب، وهي علة مفهومة في نظرهم. بل إن كثيراً من الذين اقتطعت منهم مبالغ الرشوة ليذكرون أن هؤلاء الموظفين كانوا يصرحون لهم بذلك دون مواربة، موضحين أنه ليس غريباً ولا نابياً أن يخصهم شيء مما ينالون من أموال طائلة. ومن ذلك يبدو مقدار تأثر المعايير الخلقية بالحروب، ومقدار مزاحمة الفرص البراقة، وهي كثيرة جداً في زمن الحرب، للتراث الخلقي، ومقدار تداعي مبادئ الأخلاق أمام رغبة جمع المال.

هذا هو أثر الحرب في صانعي الجريمة، وهذا هو المدى الذي يتأثر به المجرم. وأما أثر الحرب في الجريمة فيتعين أن نبدأ قبل الكلام عنه بتعريف الجريمة:

يعرف رجال القانون الجريمة بأنها كل فعل أو امتناع يقرر له القانون عقاباً . . . والمفهوم بداهة أن القانون عندما ينهى عن فعل أو امتناع يستهدف في ذلك مقتضيات الزمان والمكان، فما يعتبر محرماً في وقت من الأوقات أو ظرف من الظروف قد لا يعتبر كذلك في وقت آخر أو مناسبة أخرى.

والمجتمع بحكم غريزته في المحافظة على نفسه دائم اليقظة، ويتحرى ما يهدد كيانه فينهى عنه ويوجب لأفعال التي يراها لازمة للمحافظة عليه. وأوقات الحروب أشد الأوقات تهديداً لسلامة المجتمع، ومن ثم تزداد حساسيته فيرصد العقاب في أفعال متعددة أحس بخطرها واضحاً. والحرب التي مرت بنا أرتنا بوضوح ذلك الحرص وتلك اليقظة التي تلابس المجتمع في المحافظة على نفسه؛ فقد نهى عن أفعال وهو لا يبغي من وراء نهيه إلا تلبية رد الفعل الجديد الذي وضعته فيه ظروف الحرب قهراً.

أحست الحكومات منذ البداية بأطماع الطامعين، ورأت شبح الجوع والغلاء يهدد كيان الشعوب، ورأت الميزان يختل بين مختلف الطوائف، ورأت توثب بعضها لبعض فاستجابت لذلك كله وأدخلت أفعالاً معينة في باب المحرمات وقررت لها عقاباً، ووضع الاتجار تحت الرقابة وأقيمت له حدود اعتبرت مجافاتها جرماً، وحرمت الأفعال الكثيرة لضمان تموين الشعوب وأخرى لضمان سلامة الدولة في أعمالها الحربية. وصفوة ما تقدم أن أفعالاً كثيرة انسحب عليها ثوب التحريم بسبب الظروف الطارئة، ومن ثم زاد عدد الجرائم زيادة ملحوظة.

وفيما عدا الجرائم التي نشأت لأول مرة بسبب الحرب، فقد اختل التوازن اختلالاً واضحاً بين الجرائم المحرمة أصلاً في زمن السلم. فبينما دعت ظروف الحرب إلى زيادة نوع معين من الجرائم بقيت أنواع أخرى في حدودها الطبيعية. ويصح أن نستهدي هنا بنظرية الفيلسوف تارد في إخضاع الاجرام لقانون العرض والطلب؛ فقد اقتضت ظروف الحروب وتجمع الجند في المدن لقضاء فراغهم والتماسهم الراحة عن طريق اللهو وعدم اطمئنانهم على حياتهم، مما يقلل حرصهم على المال . . . اقتضى كل ذلك زيادة عدد الجرائم الخلقية

وجرائم الأموال زيادة فاحشة . فوسائل تصيد المال ميسورة بالطرق غير المشروعة ، فقام هيكل ضخم من جرائم متعددة هدفها الأول ابتزاز أموال هؤلاء الجنود . وفى هذا الهيكل زادت الجرائم الخلقية وجرائم السرقة زيادة ملحوظة ودعا تجمع الجيوش وكثرة ما تنفقه وانتشار الجنود وقضاؤهم حاجاتهم وكونهم جنودا إلى حرص التاجر وجشعه فكثرت جرائم غش البضائع . ومجرد مطالعة الاحصائيات الرسمية يؤيد ما سبق أن ذكرنا من اختلال موازين الجرائم وازدياد بعضها ازديادا واضحا .

والحرب تعتبر بيئة صالحة لنوع من الجريمة يستتر دائما تحت ستار البطولة ، وهو الجريمة التى توجه ضد الدولة والتى تصطبغ بصبغة المغامرة التى يقوم بها المغامرون الطامحون . فجرائم الخيانة وجرائم الاتصال بدول الأعداء والمراهنة الايجابية العملية على مصاير الدول ، كل هذه الأفعال تظهر غالبا فى أيام الحروب ويقوم بها أشخاص تضيق صدورهم بالمطامع الواسعة والآمال العريضة ، وهم فى الغالب من الطوائف الممتازة ذهنيا لكن شدة أثرتهم هى التى تدفعهم إلى سلوك هذا السبيل .

وهناك أثر للحروب ينسحب على الجريمة بصفة عامة . فالعنف والتنظيم الذى يلابس الحرب يصبغ الحياة كلها ، ومن بينها الجريمة ، بهذه الصبغة ؛ فهى تتخذ شكلا منظما توحى به عقلية الحرب والميدان ، فتنتظم العصابات للسرقات والنهب ولابتزاز الأموال بالطرق غير المشروعة . . . وتجمع هذه العصابات وتنظيمها يؤدى بها إلى شئ من الثقة والجرأة ، ومن ثم تنشأ الجريمة التى تؤدى بشكل إجماعى عنيف .

هذا هو أثر الحرب فى الجريمة ، وهذا هو اللون الذى تصطبغ به . أما أثر الحرب فى العقاب ، وهو العنصر الثالث من عناصر الاجرام كما سبق أن أوضحنا ، فيمكن تلخيصه فى زيادة حساسية المجتمع فى الحفاظ على نفسه فيصدر من العقوبات ما يكون رد فعل للعنف الذى يبدو من المجرم والاتساع فى الجريمة . فالأثر عبارة عن عنف يقابل عنفا وشدة تقابل شدة . ومن ثم ترتفع العقوبات ويوجد القضاء العسكرى باجراءاته الصارمة وشدة أخذه للجناة . وما هذا كله إلا كما أوضحنا استجابة للظرف الجديد ، ظرف المبالغة والجنون فى كل شىء . هذا هو أثر الحرب فى الاجرام أحد مظاهر الحياة الاجتماعية ، وهو كما أوضحنا اندفاع من المجرم إلى آخر مدى تطيقه إرادته الاجرامية مع تبرير ومغالطة ترمى إلى تسويغ الجريمة ، واتساع واختلال فى ميزان العمل الخاطىء ، ويقظة وحرص واستجابة من جانب الحكومات لهذه الدواعى التى تهدد كيانها .

احمد مختار قطب

شهرية السياسة الدولية

بل شهرية وزراء الخارجية

كان مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة المنعقد بباريس هو الشاغل بال المعقبين على الشؤون الدولية طوال الشهر المنقضى ، وقد بدأ فى الخامس عشر من شهر يونيه وانتهى فى الخامس عشر من يوليه . وكان جدول أعماله متضمناً معاهدات الصلح مع إيتاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا ، كما كان متضمناً العرض قدر المستطاع لمعاهدة الصلح مع النمسا ولشؤون ألمانيا . وقد تراوح جو المؤتمر بالنسبة لأعضائه وبالنسبة للمتتبعين أعماله بين التفاؤل والتشاؤم ، وكان هذا التراوح يتمشى فى عمومه مع المواقف التى كان يقفها الرفيق مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية من زملائه وزراء بريتانيا العظمى والولايات المتحدة وفرنسا ، بل من زميليه وزيرى انجلترا وأميريكا وحدها ، تساهلا أو تشددا.

وقد خشى فى بعض الأحايين أن يبوء المؤتمر بالاخفاق وأن تحل بالعالم كارثة ، إن لم تكن هى كارثة حرب عالمية ثالثة ، فهى على كل حال كارثة قطع العلاقات الدبلوماسية أو وقفها أو توترها بين الكتلتين السلافية والانجلوسكسونية . لكن كتبت السلامة آخر الأمر للمؤتمر وتوجت أعماله بالنجاح ، ودعى مؤتمر الصلح إلى الانعقاد فى التاسع والعشرين من شهر يوليه يضم الاحدى والعشرين دولة التى كان قد تم التفاهم فى اجتماع من اجتماعات « الأقطاب الثلاثة » رؤساء المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، على قصر الدعوة عليهن ، وإن كانت مصر وإيران والعراق قد تقدمت بطلبات لحضوره ، وهن قد بذلن أثناء الحرب بالنسبة لطاقتهن ما يعتبرنه مساهمة فعالة فيها .

تريستا والمستعمرات الإيتالية

وكانت المسألتان الشائكتان خلال معاهدة الصلح الايتالية هما مسألة تريستا ومسألة المستعمرات الافريقية . أما جزر الدوديكانيز فقد تقرر بالاجماع عودتها إلى اليونان . ووجه الصعوبة فى مسألة تريستا أن إيتاليا تعتبرها إيتالية فتريد استبقاءها فى حظيرتها ، وأن يوجوسلافيا تعتبرها يوجوسلافية فتريد ضمها إليها . وقد انتهى الأمر بشأنها إلى اعتبار منطقتها « إقليما حراً » يحظى بنظامه البرلمانى الخاص المستند إلى مبدأ الانتخاب العام ويكون له حاكم يعينه مجلس الأمن بهيئة الأمم المتحدة بعد استشارة إيتاليا ويوجوسلافيا ويكون مسئولا أمامه بالذات . وهذا إلى تحديد التخوم بين إيتاليا ويوجوسلافيا بالخط المسمى « الخط الفرنسى » — ومندوب فرنسا هو الذى اقترحه — تحديداً يقضى على كثير من أسباب التنازع فى تلك المنطقة التى تقطن فيها جنسيات مختلفة إيتالية وسلافية وكرواتية ونمساوية ومجرية أيضا . لكن هذا الحل لم يرض الايتاليين ولم يرض

اليوجوسلافيين، فأعلن الايتاليون الحداد إذ فقدوا « تريستا » واحتجت حكومتهم الجديدة بل أعلنت خيبة أملها فى « العدالة الدولية » . وقامت حكومة بلغراد تعلن عدم رضائها عن قرار الأربعة الوزراء ، كما قام السلافيون من سكان الاقليم يحاولون الاقدام على حركة فعالة ، فقابلتهم السلطات الأميريكية بدعم قواتها العسكرية فيها .

وأما المستعمرات الأفريقية فقد انتهى المؤتمر إلى تقرير تأجيل البت فى مصيرها إلى ما بعد انقضاء عام على إبرام معاهدة الصلح الايتالية ، ولكن مع تحديد الأوضاع التى يتم على مقتضاها مصير تلك المستعمرات . وهى أوضاع الاستقلال أو الوصاية أو الادماج فى أقاليم مجاورة مع اعتبار الوعد الذى قطعته بريتانيا العظمى للسيد السنوسى بألا يعود النفوذ الايتالى إلى برقة بحال . ومعنى هذا إبقاء المشكلة كلها معلقة إلى وقت أنسب مع الاحتفاظ لكل من اصحاب الشأن بوجهة نظره . وبريتانيا العظمى تود أن تكون برقة بين مناطق النفوذ البريتانى ، والاتحاد السوفيتى يطالب بالمساهمة فى الوصاية على طرابلس وعلى أريتريا، وإيتاليا تسترحم كى تعود إلى طرابلس ويحظى استرحامها بتأييد الولايات المتحدة . وانجلترا تود لو خلقت الصومال الكبير من الصومال البريتانى والصومال الايتالى والصومال الفرنسى تحت وصايتها ، وأهل أريتريا يطالبون بالانضمام إلى الحبشة ، وإمبراطور الحبشة يطالب بمنفذ لبلاده إلى البحر . ومصر لا تريد أن تعاودها أزمة الاعتداء على حدودها الغربية والتوغل من ناحيتها فى أراضيها المستقلة ، والجامعة العربية تود لو تحظى طرابلس الغرب — وهى من بلاد العربية — باستفتاء أهلها جميعاً كى يقرروا ما يريدون لأنفسهم من مصير .

الحدود الفرنسية الايتالية

كذلك تم تفاهم وزراء الخارجية الأربعة على تعديل الحدود الجديدة بين إيتاليا وفرنسا ، فأدخلت فى الجمهورية الفرنسية بلاداً ظل أهلها يتكلمون الفرنسية على الرغم من ضمهم إلى إيتاليا وبقائهم تابعين لها عشرات عدة من السنين ، كما ادخلت محطات كبيرة لتوليد الكهرباء بفعل سقوط المياه من الجبال توفر لفرنسا الكثير من الوقود الذى يحتاج إليه صناعاتها فى تلك المنطقة من مناطق جنوبها الشرقى .

التعويضات

كما تم التفاهم على التعويضات التى فرضت على إيتاليا ، وهى الدولة المنضمة إلى ألمانيا فى الاعتداء . وكانت روسيا تستمسك بنصيبها فى تلك التعويضات كما كانت تستمسك بتعويض اليونان على ما أنزل بها الاعتداء الايتالى المفاجيء من رزايا ، فانتهى الرأى إلى قبول وجهة النظر الروسية فى الحالين ، وإن كانت قد اكتفت هى بأن يكون نصيبها من التعويضات أنواعاً من الانتاج الايتالى لا نقداً مراعاة لضائقة إيتاليا المالية .

الملاحة فى الدانوب

وكان تنظيم الملاحة فى الدانوب — أو كانت حرية الملاحة فيه — يحل تدافع فى مؤتمر وزراء الخارجية ، لكن الأمر انتهى إلى تغليب منطق الأشياء وتقررت هذه الحرية تحت إشراف الدول التى يجتازها النهر الأوربى العتيد . وبهذا سهلت الموافقة على معاهدات الصلح مع رومانيا وبلغاريا والمجر ، وسهل التفاهم على سحب القوات السوفيتية منها فى نفس المدى الذى تم التفاهم على سحب القوات الاميريكية والبريطانية فيه من الأراضى الايطالية، وهو مدى تسعين يوماً بعد التوقيع على معاهدات الصلح .

معاهدة فنلندا

وكذلك أقر المؤتمر معاهدة الصلح مع فنلندا — أو مشروعها — وهى التى تدنى روسيا قبل غيرها وإن كانت انجلترا قد ساهمت فيها كذلك بخلاف فرنسا وأمريكا، إذ لم تكونا محاربتين لفنلندا .

ألمانيا والنمسا

ولم يستطع الوزراء الأربعة أن يصلوا إلى تفاهم على شؤون ألمانيـا والنمسا ، فأجلوا بحثها إلى اجتماع آخر، على الرغم من احتجاج فرنسا التى كانت تود الانتهاء إلى تقرير نظام دولى لمنطقة الرور الغنية يفحمها يكرفى لها فيه مقام خاص .

وقد كان للرفيق مولوتوف فى هذا الصدد تصريح لم يرض الفرنسـيين ، إذ عارض فيه مبدأ تقسيم ألمانيا وأيد فكرة الابقاء عليها دولة موحدة ، وإن كانت محاولات تبذل فى سبيل عدول روسيا عن اتجاهها الذى أعلنه وزير خارجيتها فى تصريحه .

شيء من التفاؤل

ومهما يكن من شيء فقد غلب التفاؤل على أثر مؤتمر وزراء الخارجيـة فى نفوس المعقبين الدبلوماسيين ، وقد تجسم هذا التفاؤل بخاصة فى خطاب أذاعه مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة فى السادس عشر من يوليه بمجرد عودته إلى واشنطن من باريس بعد انقضاء أعمال المؤتمر ، وقـد أعرب فيـه عن عظيم سروره ، إذ توجت جهوده وجهود زملائه فى سـبيل تنسيق وجهات نظر الدول العظمى بالنجاح ، كما أعرب عن كبير أمله فى انسجام الاتجاهات بينهن فى مستقبل الأيام .

محمود عزمى

شهرية السينما

الجوهرة السوداء (أفلام مينرڤا) (١)

يخيل إلى مشاهد هذا الفيلم أن الجوهرة السوداء التى يحمل الفيلم اسمها ، تلعب دوراً مهماً فيه . وما تكاد تجرى حوادث القصة حتى نعلم أنها ليست ذات خطر وأن المؤلف لم يطلق هذا الاسم على قصته إلا لما فيه من غرابة . فالجمهور حين تحدثه عن جوهرة يتخيل فى الحال حجراً كريماً براقاً ، ولا يتبادر إلى ذهنه أن ثمة جواهر سوداء نادرة الوجود . فالجوهرة السوداء فى نفسها شىء فريد يثير الاعجاب لندرته ، فما بالك وهذا الاسم يطلق على قصة سينمائية ! فالمشاهد يسعى إلى دار العرض لاشباع فضوله الذى أثاره هذا الاسم الغريب ، ولكن سرعان ما يخيب ظنه ، فالفيلم ليس فيه من جمال إلا عنوانه ، وربما كان تمثيله أيضا .

اعتزم المسيو مترى ، وهو مدير أحد البنوك الكبيرة فى باريس ، أن يلحق بامرأته وطفلته على الساحل الجنوبى من فرنسا لتمضية عيد الميلاد مع الأسرة ، ولكنه عند وصول الطائرة إلى المطار لا يجد فى انتظاره إلا طفلته ومربيتها . كانت امرأته قد برحت القصر ذاهبة إلى طولون لأمر يجهله زوجها ، ولم تعد من رحلتها فى الوقت المناسب لمقابلة زوجها . ويطول انتظار الزوج لزوجته ، ثم يعلم أنها لقيت حتفها فى حادث سيارة . ويعيد البوليس إليه ما وجده مع الفقيدة فى السيارة . ومن بين هذه الأشياء عدة خطابات كتب على غلافها الخارجى هذه الجملة المثيرة : « تحرق عند وفاتى » .

يتردد الزوج طويلا فى إحراق هذه الخطابات ، وأخيراً يلقيها فى النار . وإذ يتأملها وهى تذوب فى اللهيب يقع بصره على هذه الجملة فى نهاية أحد الخطابات : « إن ابنتنا لا تعرف أباها الحقيق » . فيعتقد أن لامرأته عشيقاً ، وأن تلك الطفلة التى أحبها ودللها ليست ابنته بل ابنة غريمه . فينفر منها ويبتعد عنها ويهجر القصر ويحيا فى باريس حياة لهو وعربدة . أما الابنة فتلاقى من العذاب ألوانا ، فهى تعسة منذ وفاة أمها لأن مربيتها تريد أن تحل مكان والدتها فى المنزل وأن تبعدها عن القصر حتى تتمكن من مغازلة الأب والزواج به . والطفلة تكافح فى سبيل إحباط هذه المؤامرة ، حتى تضطر المربية أن تدخلها إحدى المدارس الدينية التى تديرها الراهبات . وهنا تتاح الفرصة للمربية أن تنصب شراكها لرب الدار وتحمله على الزواج بها ، ولكنه يرجىء هذا الزواج . وتعلم الفتاة بكل ما يحدث بين والدها ومربيتها فتزهد فى الحياة وتعزم على دخول الدير . وأخيراً يعلم الوالد من إحدى صديقات زوجته أن الخطابات التى أحرقها لم تكن خطابات زوجته بل خطابات تلك الصديقة . فيتحقق حينئذ أن الطفلة ابنته وأنه باعراضه عنها لم يثر إلا بغضها له وزهدها فى الحياة ، فيحاول أن يصلح خطأه . ويعاونه فى تلك المهمة الشاقة أحد أصدقائه . ويقع هذا الصديق فى شراك الحب للفتاة ، ولكن سرعان ما يتضح له أن

---

(١) Le Diamant Noir (*Films Minerva*).

الفتاة لا تحبه ، وإنما هى فى كلف شديد بشاب فى البحرية كان رفيق طفولتها . فلا يمانع الوالد من زواج ابنتــه بمن تحب . والقصة ، وقد استوفت حوادثهــا ، لا تنتهى إلى هذا الحد من المفاجآت العجيبة ، بل يضيف المؤلف إليها حادثاً مفاجئاً آخر وهو إعلان الحرب وانفصال العاشقين الصغيرين .

ونحن نجد أن القصة فى بداءتها متقنة تمام الاتقان فى دراستها للشخصيات وفى ترتيب حوادثها ، حتى يلجأ المؤلف إلى المفاجآت التى تغير مجرى الرواية ، مثل ظهور شخصية صديقة الزوجة واعترافها المفاجئ للزوج بأن الخطابات الغرامية هى خطاباتها ، وأنها قد أعطتها لصديقتها لتعيدها إلى عشيقها . ويسائل المشــاهد ما الذى حمل هــذه العشيقة على تسليم تلك الخطابات إلى صديقتها مع أن فى إمكانها هى أن تعيد بنفسها هذه الخطابات إلى عشيقها ؟ ويسائل كذلك : ما أهمية إعلان الحرب فى نهاية الرواية ، وما الدافع إلى هذا التطويل ويســائل أخيراً : ما الدور الذى لعبتــه الجوهرة الســوداء فى الفيلم ، وما أهميتها فى مجرى حوادثه حتى يحمل الفيلم اسمهــا ؟

وقد قام بدور الوالد المسيو شارل ڤانيل ، وهو ممثل قدير نجح أتم النجاح فى تمثيله . فهو لا يلجأ مطلقاً إلى العنف فى التعبير عن شعوره مكتفيا بنظرة أو بإيماءة ليعبر عن الحزن أو الغيرة أو الغضب . وقد تؤاخذه على اتباعه أحياناً أسلوباً مسرحياً فى أداء دوره ، ومع ذلك فلا يسعنا إلا الثناء عليه لتمثيله البارع .

ومدام جابى مورلى بالرغم من كبر سنها الذى لم يخفه الماكيياج فى هذا الفيلم ، فانها لم تغير من أسلوبها الفنى فى القيام بدور المربية . وقد أتقنت الأداء إتقانا يستحق هذا الاعجاب الذى نالته دائماً . فهى لا تتقن فناً واحداً ، وإنما تجيد تمثيل الدراما بقدر ما تتقن تمثيل الأدوار الهزلية . وحسبنا هذا ليكون دليلا على كفايتها الفنية الفائقة .

ورغم ضآلة الفيلم من حيث القصــة فهو يعــد إنتاجاً حسناً إلى جانب تلك الأفلام المتخاذلة التى تعرض علينا أثناء الموسم الصيفى فى مصر .

السابحات الفاتنات (مترو جلدوين ماير)[1]

و « السابحات الفاتنــات » من الأفلام الاستعراضية الملونة ، فيه من المناظر الخلابة والمواقف المضحكة الفكهة ما جعــله يحتل دار العرض منذ أربعة أسابيع .

والقصة هنا معدومة تماماً ، أو قل إن شئت إنها قليلة الشأن : شاب تزوج بفتاة رائعة الجمال ولــكن بعد مراسيم الزواج انفصلا لأنه نمى إلى الزوجة أن فتاها متزوج ، ولم يكن هذا صحيحا ، وإنما كانت وشاية أريد بهــا إقصاؤه عن محبوبته ، فيفرغ لعمله وهو التلحين . ولــكن الفتى ينصرف عن كل شىء إلا عن إرضاء زوجته واسترداد حبها .

ولم تكن القصة محور الفيلم ، فحوادثهــا قليلة جداً على حين كثرت خلال تلك الحوادث المنــاظر الراقصــة والموسيقــا الشــجية والاستعرضات الرائعة فى حمــام السباحة . وثمة عنصران احتلا المكانة الأولى فى الفيلم : عنصر الفكاهة وعنصر الرقص . وكان الممثل

---

(1) Bathing Beauty (*Metro Goldwyn Mayer*).

الهزلى رد سكلتون يتعهد العنصر الهزلى، وقد أثبت منذ أمد بعيد أنه فاق الممثلين الأمريكيين الهزليين أمثال لوريل وهاردى وإدى كانتور وإخوان ماركس من حيث تعمقه النفس الانسانية وإظهار عيوبها فى صورة مضحكة. وهو لا يلجأ إلى عناصر خارجية لاثارة الضحك مثل لوريل وهاردى، ولكنه يعنى بابراز الناحية الهزلية فى عاداتنا وأخلاقنا، معتمداً فى ذلك على ايحاءاته وتعبيرات وجهه. وأذكر له تمثيل شخصية الخجول فى أحد الأفلام الاستعراضية الماضية؛ فقد مثل فى شىء من المبالغة المضحكة كل ما يأتى به الخجول من حركات وما يبدو عليه من اضطراب حين يكون بين يدى فتاة جميلة. وأذكر له أيضاً فى «السابحات الفاتنات» هذا الموقف العجيب الذى يحاكى فيه ما تفعله المرأة عند استيقاظها فى الصباح. ومع أنه لا توجد الأشياء اللازمة لهذا المنظر من الاكسسوار مثل المساحيق والملابس النسوية، فقد أخذ يمثله فى إتقان تام. فهو بحركات أصابعه يفهم المشاهد أنه يتناول «البودرة» و «أحمر الشفاه» و «أحمر الخد» الخ من المساحيق التى تستعملها النساء فى التجميل. وهو على إحاطة تامة بتفاصيل هذا التجميل، فلم يهمل منها شيئاً من تصفيف الشعر إلى ارتداء الملابس الداخلية والجوارب. وأعتقد أن ممثلا يجد المادة الهزلية فى حركاته المبتكرة المفاجئة دون أن يحتاج إلى أن يستمد هذه المادة من الأشياء التى تحيط به أو المفارقات المضحكة أو النكات الموضوعة، أعتقد أن هذا الممثل جدير بالاعجاب لهذا الفن الرفيع.

والعنصر الثانى فى الفيلم هو عنصر الاستعراض. ومما يؤسف له أن هذه الاستعراضات التى توالت فى الفيلم فى مناظر خلابة تسر العين، لا نرى فيها ما يستحق الذكر إلا الاستعراض الأخير الذى قامت به فتيات شركة مترو جلدوين ماير فى حوض السباحة، وقد كان استعراضا فريداً فى نوعه؛ فلم نر قبل منظر الرقص المائى، إن صح هذا التعبير عن هذا الاستعراض؛ فقد استعاضت الراقصات عن حركات الاقدام بحركات أذرعهن وهن يسبحن فى الماء على نغم الفالس. وكانت الراقصات على أتم ما تكون الحركة انسجاما، وهن يظهرن فى أوضاع مختلفة تمثل تارة أهراما، وتمثل تارة زهرات.

وقد أتى المخرج فى آخر المنظر بما يشوهه تشويهاً بغيضاً، وذلك بنوافير الماء والنار التى انبثقت فجأة من حوض السباحة. والذى أراه أنه أتى بهذه الأشياء ليؤلف منها صورة الستار وهو يسدل على الرواية حين تنتهى. أما الاستعراضات الأخرى فلست أرى فيها ما يجعل الحديث عنها مستساغا.

أما موسيقا الفيلم فقد كانت مزيجاً من الفالس والسوينج وموسيقا أمريكا الجنوبية. وقامت بأداء هذه الألحان فرقتان موسيقيتان، يقود الاولى منهما كسافييه كوجيت وهو من ملحنى الرومبا المشهورين؛ ويقود الاخرى هارى جيمس من أحسن ملحنى السوينج. وساهمت بنجاح كبير هيلين فوريست العازفة على الأرغن، مهارتها فى العزف على هذه الآلة تدعو إلى الاعجاب والتقدير.

والفيلم فوق ذلك كله غنى بالمناظر الجميلة وبالألوان الطبيعية الخلابة وملابس الراقصات المنسجمة التى تدل على أن الذوق فى أمريكا قد أخذ يرتقى شيئاً ما. وقد يأتى يوم نرى فيه الذوق الأمريكى يضارع الذوق الفرنسى فى اختيار الملابس وألوانها.

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

نقد النثر

ألفه قدامة في سنة عشرين وثلثمائة

كان قدامة بن جعفر البغدادى ناقداً ، ملتهب الخاطر ، غزير المادة ، جيد الفطنة ، منظم الفكرة ، يقرأ الكتب بعين النقد ثم يسائل نفسه : هل أحاطت هذه الكتب بموضوعها أم لم تحط؟ فان وجدها كما يحب ويشتهى طاب بذلك نفسا ، وإن لم يجدها وفق ما يريد انبرى للتأليف فيما قصرت فيه ليتم النقص الذى لحظه . كما فعل حين ألف نقد الشعر . فقد رأى المؤلفين قبله قد استقصوا بيان العروض والقوافى ، وشرح الألفاظ الغريبة ، والمسائل النحوية ، وأفاضوا القول فى معانى الشعر ومقاصد الشعراء ، ولكنه لم يجد أحداً تصدى للتأليف فى نقد الشعر ، وبيان جيده من رديئه ، مع أن التأليف فى هذا الفن أولى وأجدى « فان الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم ، وقليلا مايصيبون . » (١) ولما وجد الأمر كذلك وضع كتابه نقد الشعر .

وكان قدامة مولعاً بالنظام أشد الولع وأعنفه ، يأخذ به نفسه فى كل ما يكتب وما يؤلف . ومن ثم كان يضيق أشد الضيق بكل كتاب يحيد عن جادة النظام ، ويندفع إلى معارضته بكتاب منظم دقيق يونق أبصار الناظرين ، ويروق بصائر المتوسمين . قرأ قدامة كتاب « الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ ﻫ فلم يرق فى نظره ؛ لأن الهمذانى فى إيراده للألفاظ لم يعن باستقامة وزن الكلمات المتعاقبة ، ولا باتساق السجعات المتقاربة ، فعارضه بكتاب « جواهر الألفاظ » .

وكذلك قرأ قدامة كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ فوجده لا يستحق هذا الاسم الخلاب ؛ لأن الجاحظ « لم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، وإنما ذكر فيه أخبارا منتخلة ، وخطبا منتخبة » (٢) فعارضه بكتاب أسماه كتاب « البيان » ذكر فيه كما يقول : « جملا من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدى معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه . لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه ؛ ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والايضاح فهمه . » (٣) ألف قدامة كتاب « البيان » هذا فى سنة عشرين وثلثمائة وعرضه على الوزير العالم على بن عيسى فقراه وأعجب به كما أعجب به كبار النقاد فى عصره، فشهدوا له بالاجادة والاحسان والتفرد فى وصف فنون البلاغة بما لم يشركه فيه أحد وشبهوا عمله فى هذا الكتاب بوضع الخليل

---

(١) نقد الشعر ص ٥ . (٢) نقد النثر ص ٣ . (٣) نقد النثر ص ٥ .

ابن أحمد الفراهيدى لعلم العروض . وانتشر الكتاب ، وسارت نسخه إلى بلاد المغرب ، ثم عبرت البحر إلى الأندلس . . . ودار الزمن دورته ، وبادت كتب قدامة الكثيرة فيما باد من كتب السلف فى تلك المحن المعروفة ، ولم يبق من كتبه غير « نقد الشعر » و« جواهر الألفاظ » و « الخراج » ونسخة وحيدة من كتاب البيان كانت فى ملك عالم نحوى أندلسى وهو أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد النافق البلنسى (٥٣٦ — ٦٠٨ هـ) (١) . وهذه النسخة محفوظة فى مكتبة الأسكوريال . وقد كتب على صفحتها الأولى هذه العبارة : « كتاب نقد النثر مما عنى به أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادى رضى الله عنه وأرضاه . للشيخ الفقيه المكرم أبى عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به . وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . والناظر فى هذه العبارة يلحظ فى يسر وسهولة أن صاحب النسخة أو ناسخها قد استحدث للكتاب اسم « نقد النثر » ؛ لأنه قد جعله مع نقد الشعر فى مجلد واحد ، وأن هذا الاسم لم يكن شائعاً ولا معروفاً كما يشعر بذلك قوله : « وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . قرأ بعض المستشرقين هذه العبارة فأخطأ فى فهمها ، وكان هذا مصدراً لخطأ جمهرة المستشرقين فى هذه المسألة الواضحة ؛ فقد أخذ درنبورغ صاحب فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالأسكوريال من هذه العبارة أن مادة الكتاب لقدامة ، وأن صياغتها لأبى عبد الله محمد بن أيوب ، وقال إنه لا يعرف شيئاً عن ابن أيوب هذا . وتابعه على ذلك بروكلمان وهيوار متابعة تامة . وبازاء ذلك ـ كما يقول الأستاذ العبادى (٢) ـ شك الدكتور طه حسين بك فى نسبة الكتاب إلى قدامة ، وقال فى بحثه عن البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر : « ينسب نقد النثر إلى قدامة . ولكن المطلع عليه يرى أنه لا يمكن أن يكون له ، بل هو فى الغالب لكاتب شيعى ظاهر التشيع قد صنف كتباً عدة فى الفقه وعلوم الدين يشير إليها ويحيل عليها فى شئ من الطمأنينة والارتياح . » (٣) وقد عهد الدكتور طه حسين إلى الأستاذ العبادى تحقيق هذه المسألة ، فكتب فى تحقيقه يقول : « أما نحن فبعد طول البحث ثبت عندنا أن الكتاب لقدامة كما جاء على الورقة الأولى من النسخة المخطوطة . » واستدل على ذلك بأن الكتاب لا بد أن يكون قد كتب فى عصر قدامة ؛ لأن أسلوبه وطريقته وروحه الفلسفى اليونانى « كل ذلك يشير فى جلاء ووضوح إلى أنه من آثار القرن الرابع ، ثم إنه ليس من بين الأعلام الكثيرة الواردة به علم واحد يمكن أن يقال إنه متأخر عن عصر قدامة تأخراً يذكر . والمقارنة الموضوعية بين كتابى نقد النثر ونقد الشعر ترى تقارباً عجيبا فى كثير من المعانى فضلا عن طريقة التعبير عنها مما يرجح أن الكتابين صدرا عن أصل واحد . » وضرب لذلك عدة أمثلة من الكتابين قارن بينهما ، وخلص منها بنتيجة تؤيد إثبات الكتاب لقدامة . ولكن الدكتور طه لم يقتنع برأى الأستاذ العبادى وما زال عند رأيه الأول من أن الكتاب « لا يمكن أن يكون لقدامة » بدليل أنه تحدث بعد ذلك بأعوام عن « كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة » وقال فى حديثه هذا : « والكتاب ليس لقدامة بيقين » (٤) .

وكان طبيعياً أن يشيع الشك فى نسبة

---

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٣ .
(٢) مقدمة نقد النثر ص ٤٢ .
(٣) مقدمة نقد النثر ص ٢٠ .
(٤) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٥ .

الكتاب . وأن يجزم كل من يعرض له بنفيه عن صاحبه . ومن أعجب ما رأيت أن بعض كبار الأساتذة قد استدل على أن الكتاب لم يؤلفه قدامة بأن مؤلفه قلد الجاحظ ، وقدامة لا يقلد أحداً ؛ لأنه مستقل فى آرائه ! وبأنه شيعى وقدامة بعيد كل البعد عن هذا الاتجاه ، وبأنه قد ألف فى علوم الدين كتباً ، وهذه ناحية بعيدة عن قدامة كل البعد ! وبأن منهجه فى البحث إجمالى وفى أسلوبه سجع وازدواج ، ومنهج قدامة تفصيلى وأسلوبه مرسل بعيد عن السجع والازدواج . وهى أدلة واهية كما ترى لا تثبت أمام النقد إلا بمقدار ما يلقفها . وقد كتب الأستاذ محمد كرد على بك فى مجلة المجمع العلمى كلمة عن الطبعة الثالثة من هذا الكتاب قال فيها : « ليس هذا الكتاب لقدامة كما ذكر فى الكتاب وأكده الأستاذ العبادى بل هو لرجل شيعى مجهول كما قال الدكتور طه ، ولا يزال الأستاذ العبادى مصراً على نسبته لقدامة ، وما أورد على ذلك ضعيف » . وأنا لا أوافق الأستاذ على رأيه فى أدلة الأستاذ العبادى ، وهى عندى قوية كل القوة كافية الدلالة على أن الكتاب لقدامة . بل كان يكفى فى نسبته له ما جاء على الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة ، ولم يكن هناك ما يسوغ الشك أو يدعو إليه . ولو ارتضينا الشك فى الكتب العربية على هذا النحو لنفينا كثيراً منها عن أصحابها ؛ لأنه ليس لنا من سند فى نسبتها إلى مؤلفيها غير وجود أسمائهم عليها .

والحق الذى لا مرية فيه أن هذا الكتاب المسمى بنقد النثر قد ألفه قدامة ، ويشهد بذلك معاصروه . قال أبو حيان التوحيدى — وهو أعظم مؤرخ ثقافى لعصره : « وما رأيت أحداً تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه . » قال لنا على بن عيسى الوزير : « عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على المختار المجتبى ، والمعيب المجتناب . ولقد شابه فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض . ولكنى وجدته هجين اللفظ ، ركيك البلاغة فى وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه ، وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه . وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور وتوارد المعنى وتقد الطبع وتصرف القريحة . ولولا أن الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذى سلكه والفن الذى ملكه ، والكنز الذى هجم عليه ، والنمط الذى ظفر به ، قد برز فى أحسن معرض وتحلى بألطف كلام ، وماس فى أطول ذيل ، وسفر عن أحسن وجه ، وطلع من أقرب نفق ، وحلق فى أبعد أفق . » (١) هذا هو الدليل الذى يفصل فى الأمر ويضع الحق فى نصابه ويريح الكتاب والباحثين من عناء الافتراض الظنى . ولكن قد يظن بعض الناس أن هذا النص وإن كان فاصلا فى أن قدامة قد ألف كتابا وصف فيه فنون البلاغة فأحسن الوصف وأجاد الابداع ، فانه غير فاصل فى أن يكون هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو الذى عناه أبو حيان وتحدث عنه الوزير ؛ لأنهما لم يذكرا اسم الكتاب الذى ألفه قدامة . ولكن عدم تسميتهما له لا يفيد من يظن هذا الظن شيئا ؛ فان وصفهما للكتاب الذى عنياه ينطبق على نقد النثر كل الانطباق . وإن من الصفات التى وصف بها ووجدت فى نقد النثر ما يقوم مقام الاسم الصريح

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٤٥ .

لأنه من الملامح الأصيلة والصفات اللازمة التي تغني بمجرد ذكرها عن تسمية الموصوف .

أليس مما وسم به كتاب قدامة أنه قد وصف النثر بجميع مانيه وعليه كما يقول أبو حيان ، وأنه قد تفرد بوصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد كما يقول الوزير ؟ بلى ! وإن تلك الأوصاف بعينها لهى أوصاف المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر . فقد قسم المؤلف وجوه البيان فى صفحة ١٠ بقوله : « والبيان على أربعة أوجه فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، ومنه البيان الذى هو نطق باللسان ، ومنه البيان الذى يبلغ من بعد أو غاب . » والكتاب كله تفصيل لهذه الأنواع ففى صفحة ٢٠ نجد المؤلف يقول : « باب فيه البيان الأول وهو الاعتبار . قد قلنا إن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين ، وتعبر بمعانيها لمن اعتبر . وإن بعض بيانها ظاهر وبعضه باطن . ونحن نذكر ذلك ونشرحه . . . » وفى صفحة ٤١ : « باب فى البيان الثانى وهو الاعتقاد . قد قلنا إن الأشياء إذا بينت بذواتها للعقول ، وترجمت عن معانيها وبواطنها للقلوب صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلماً مركوزين فى نفسه ، وهذا البيان على ثلاثة أضرب . . . » وكل بيان من البيانين يسمى منزلة فهاتان منزلتان . بقى من أقسام البيان الأربعة بيان اللسان ، وبيان الكتاب وقد جمعهما المؤلف فى منزلة واحدة وهى المنزلة الثالثة . قال فى صفحة ٤٨ : « باب فيه البيان الثالث وهو العبارة . . . » ونجده فى هذا البيان الثالث أو فى هذه المنزلة الثالثة يقول فى صفحة ١٠٥ : « باب فيه المنثور وما جاء فيه ، وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجاً أو حديثاً . ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه . » وقد فصل القول فى الخطابة والترسل من صفحة ١٠٥ إلى صفحة ١٣٢ ثم تكلم عن الجدل والمجادلة من صفحة ١٣٣ إلى صفحة ١٥٤ ، وأفاض فى الكلام عن الحديث من صفحة ١٥٤ إلى صفحة ١٦٦ التى ينتهى بها الكتاب . من هذا العرض المجمل يتبين أن المنزلة الثالثة من كتاب قدامة الذى تحدث عنه أبو حيان والوزير هى نفس المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر أو من كتاب « البيان » كما سماه قدامة حين ألفه ليعارض به الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . وكان لزاما على ناشريه الفاضلين أن ينشراه باسمه الأصيل ليحققا المقصد الذى أراغ إليه قدامة من التسمية التى ارتضاها لكتابه ولم يبغ عنها حولا . ولعلهما فاعلان ذلك عند إعادة طبع الكتاب للمرة الرابعة إن شاء الله .

السيد أحمد صقر

من وراء البحار

ماذا فى اليابان ؟

لسنا نعلم عن اليابان إلا القليل من الأنباء المقتضبة التى ترد فى البرقيات . على أن الصحفى الأمريكى بلبرفاليسر كتب فى العدد الأخير من « المجلة الجغرافية الأمريكية » (عدد يونيه) مقالا قيما عن اليابان وحالتها الحاضرة . قال: تخترق البلاد الآن آلاف من السيارات الأمريكية على حين يسير أهلها على الأقدام فى شوارع قديمة . وهم يرمون إلى أغراض جديدة ، فقد قبل اليابانيون هزيمتهم فى صبر وطاعة ، وهم مليئون بالرغبة فى أن يسلكوا ببلادهم مسلكا أحسن مما كان فى الماضى .

لقد ظن الأمريكيون عندما نزلوا إلى أرض اليابان أنهم سيقابلون بالكراهية والغدر ، فكانت دهشتهم شديدة عند ما تبينوا أن قول الامبراطور فى بيانه « يجب ألا نكره أعداءنا » قد قبل ونفذ حرفياً . ولقد صار الأمريكى يمثل القوة ، والقنبلة الذرية ، والأسطول القوى الساحق . وكان اليابانى يعتقد فى نفسه القوة ، ولكن الأمريكى هزمه ، فاستنتج فى بساطة أن طريقة الحياة الأمريكية خير من طريقته . وهو لذلك يقبل سلطة الأمريكيين ويخضع لارادتهم ويبذل كل مجهود لكى يتعلم ويتلقى الطريقة المثلى منهم . وهكذا نراه مثلا يعتبر الديمقراطية مرمى يقصد إليه ، لا وسيلة إلى غاية . ومما زاد من رغبة اليابانيين فى التعاون أنهم أحبوا الجنود الأمريكيين سريعاً . ذلك أنه لم يكن فى البلاد من الخمر إلا القليل، وعلى ذلك لم تحدث من الأمريكيين تلك الحوادث التى تصاحب عادة شاربى الخمر . وكان اليابانيون يتصورون الأمريكان وحوشاً ضارية ، فزال هذا الظن سريعاً .

وقد دهش الأمريكان عند ما رأوا أطفالا أو عجائز يقدمون كومة من الأوراق المالية تتراوح بين ٦٦ سنتا إلى دولارين لكى يحصلوا على علبة من السجاير . على أن الذى لم يفهمه الأمريكيون هو أن اليابانيين بالرغم من الهزيمة لا يزالون على شىء من الثراء . والسبب الحق فى ذلك هو أن اتساع قوة الشراء لم تقابل بوجود سلع يستطيع المستهلك أن يشتريها . ويدفع الأمريكيون الآن للعامل العادى ٨ ين (وهو ما يعادل ٣٥ سنتا) فى اليوم، ويتناول العمال المهرة أجراً قدره ١٢ ين وكان العامل من هؤلاء لا يتناول قبل وصول الأمريكيين أكثر من ٧ ين .

وقد اعتاد اليابانيون أن يعملوا بين ١٠ و ١٢ ساعة فى اليوم بغير عطلة إلا مدة يومين فى الشهر ، فنرى من ذلك أن اليابانيين سيكونون أحسن حالا فيما يتعلق بأحوال المعيشة من الأوروبيين .

ولقد أخذ اليابانيون يقلعون عن الكثير من معتقداتهم الراسخة . فلم يعد الامبراطور عندهم مقدساً بالدرجة التى كان عليها . وينتظم العمال فى نقابات تحميهم وهم يطيعونها كاطاعة الجندى قائده ، ولذلك كانت هذه النقابات غنية . وقد أخذ الأمريكيون يساعدون هذه النقابات ، ولكنهم يخشون أن تقوى إلى حد

قد يؤثر فى نظام الحكم .

وتقوم المدارس الآن بتعليم الديمقراطية ، ولكنها تقوم بذلك على أسلوب خاص باليابانيين فقد صدر أمر إمبراطورى بعدم الاستمرار فى التعليم الحربى والمبارزة والحركات العسكرية ، فقام المعلمون بذلك . وأمر المعلمون بأن يقلعوا عن التعاليم الحربية والجنسية . ولكن كتب التاريخ والجغرافيا محشوة بها ، فأقلعوا عن تعليم التاريخ والجغرافيا . ومع ذلك لاتزال تجد أنهم فى المدارس لا يتناولون نص أمر للامبراطور حتى يبادر المعلم بلبس القفاز ، وأنهم لا يزالون ينحنون أمام صورة الامبراطور كل يوم عند الصباح !

الحياة السياسية فى النمسا

فى مجلة « العالم اليوم » التى يصدرها المعهد الملكى للشؤون الخارجية (عدد يونيه ١٩٤٦) وصف للحالة السياسية الآن فى بلاد النمسا . ويقول كاتب المقال : إن مما يسترعى النظر فى الحياة السياسية لهذه الدولة هو الثبات الظاهر فى الرأى العام السياسى منذ خمسة عشر عاما . فقد دلت نتائج الانتخاب فى سنة ١٩٤٥ على أن نسبة قوة الأحزاب لم تتغير عما كانت فى سنة ١٩٣٠ ، ففى هذه الانتخابات نال حزب الشعب ٥٠ ٪ من الأصوات ونال الاشتراكيون ٥و٤٤ ٪ والشيوعيون ٥/٤ ٪ . أما فى سنة ١٩٣٠ فقد حصلت أحزاب اليمين على ٥و٥٤ ٪ والاشتراكيون الديمقراطيون على ٤١ ٪ والشيوعيون على ٦/٠ ٪ فنرى فى ذلك تحولا ولكنه غير قوى ، وهو أمر يسترعى النظر إذا اعتبرنا أن الحرية السياسية قضى عليها منذ سنة ١٩٣٨ عند اجتياح النازيين لتلك البلاد .

ويرجع هذا الثبات إلى أن هذه الأحزاب السياسية تمثل مصالح مهنية ، أكثر مما تمثل نظريات سياسية فلسفية ، ولما كان النظام الاجتماعى فى تلك البلاد لم يتغير كثيراً منذ نحو عشرين سنة (ففيها نحو ٤٠ ٪ من أصحاب الأجور ونحو ٤٠ ٪ من الفلاحين ونحو ٢٠ ٪ من المستقلين وأصحاب المهن الحرة) لم تتغير لذلك نسبة الممثلين للأحزاب .

ولكن إذا فحصنا قوة الرأى العام فى ضوء النتائج الانتخابية فى الخمس عشرة سنة الأخيرة وجب ألا يغيب عن الأذهان عامل هام هو قوة الاشتراكيين الوطنيين ، فهذا الحزب لم يحصل فى انتخابات سنة ١٩٣٠ على صوت واحد ، أما فى سنة ١٩٤٥ فانهم منعوا من الانتخاب ، على أنه كان يوجد فى سنة ١٩٣٠ عناصر الاشتراكية الوطنية فى الجناح الأيمن للأحزاب الأخرى . ولا ريب فى أن حزب الشعب يجد تأييدا بين صفوف النازى السابقين الذين منعوا من الانتخاب .

وحزب الشعب هذا هو وريث لعدة أحزاب ، أهمها الاشتراكيون المسيحيون الذى ألفه الدكتور كارل لويجر وكان يجد تأييداً من الكاثوليك ومن صغار أصحاب الأعمال المسيحيين ، ولكن هذا الحزب ضعف بعد وفاة زعيمه .

وإذا كان حزب الشعب الآن فى مركز أقوى من الأحزاب المماثلة له فى الانتخاب السابق فانه ينقصه الوئام بين زعمائه ، ولذلك لم تبد جبهته قوية بما يتناسب مع عدد أعضائه فى البرلمان ، واضطر إلى أن يعقد علاقات ود مع الحزب الاشتراكى .

أما مركز الحزب الاشتراكى فهو أكثر وضوحا ؛ لأنه بذاته الحزب الاشتراكى الديمقراطى القديم ، ولكنه بدل من اسمه

اعترافا بفضل الاشتراكيين الثوريين الذين قاوموا النازى ، وأنشأوا علاقات مع الاشتراكيين فى البلاد الأخرى . وكان هذا الحزب منذ أنشأه فكتور أدلر فى سنة ١٨٨٩ يعمل لمصلحة الطبقة العاملة فقط ، فهو لذلك موحد فى أغراضه ، ولا تتضارب مصالح أعضائه كما هو الشأن فى حزب الشعب . ولقد كان يشرف عليه فيما مضى زعماء من مثقفى اليهود نجحوا فى تحسين حال العمال . ولكن هؤلاء الزعماء اضطروا فى سنة ١٩٣٤ إلى الفرار من البلاد مما أضعف مركز الحزب ، وهجره عمال كثيرون وانضموا إلى الوطنيين الاشتراكيين.

وكان ماضى الحزب الاشتراكى مما يبعث على الاحترام ، لا لدفاعه عن مصالح العمال فحسب، بل كذلك لما أظهره من مهارة فى إدارة أمور بلدية فيينا. ثم إن هذا الحزب كان بعيداً عن فضائح الرشوة التى لطخت الكثيرين من زعماء الحزب الاشتراكى المسيحى . وأهم من ذلك أن هذا الحزب ظل على مبدأ واحد فى مقاومته للفاشية فى النمسا ، ولم يخضع إلا للقوة ، حين اضطر إلى أن يقبع فى تلك الدور العظيمة التى بناها لطبقة العمال ، والتى هى فخر له مقيم .

على أن الحزب الاشتراكى لم ينل فى الانتخابات الأخيرة الكثرة التى انتظرها كثيرون ، وقد زاد عدد الأصوات التى نالها فى الأرياف ونقص عددها فى فيينا . والسبب فى ذلك توزع الصناعات فى أنحاء البلاد أثناء الحرب ، وفرار اليهود من العاصمة النمساوية. ثم إن الحزب حمل فى انتخاباته حملة شديدة على النازيين فلم يجعل لهم سبيلا للعودة إلى أحضانه ، وقد أخذ الحزب يعدل عن مسلكه .

ويوجد فى النمسا حزب شيوعى ولكنه ضعيف . وكان المنتظر أن يقوى فى الانتخابات إلا أنه يظهر أن الاحتلال الروسى لم يفد فى تقوية هذا الحزب . وليس لهذا الحزب زعماء بارزون ولا هو خال من الخلافات الداخلية .

فيتبين من ذلك أن الحياة السياسية فى النمسا قائمة على حزبين. ويظهر أنهما عرفا كيف يعالجان الخلافات القائمة بينهما فى سبيل العودة ببلاد النمسا إلى الحياة الطبيعية النافعة .

قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى

قد يسر العلماء فى أنحاء العالم أن يعلموا بافتتاح قاعة المطالعة الشهيرة فى المتحف البريطانى ابتداء من شهر يونيه . وقد كتب الأستاذ أرنديل أزديل بهذه المناسبة فى العدد الأخير من نشرة أخبار الكتب البريطانية يقول : إنه عند ابتداء الحرب رأى أولو الأمر من الخطر بقاء هذه القاعة مفتوحة وهى غاصة بالقراء مع أن الغارات منتظرة فى كل وقت فقرروا إغلاقها ، وسمح للقراء بأن يقصدوا إلى المطالعة فى المكتبة الشمالية ، وهى الغرفة التى كانت مستعملة للاطلاع على الكتب النادرة ، بعد أن نقلوا إليها عددا من الكتب التى تعد مراجع فى بابها ، أما مجموعة الكتب النادرة والمخطوطات والآثار فقد نقلت إلى مخابئ ، أعدت لها منذ سنة ١٩٣٤ .

ولم تصب غرفة المطالعة الكبيرة إلا بضرر بسيط ، ولكن الجهة الشمالية من مكتبة الملك أصيبت إصابة مباشرة وتحطمت نوافذ قسم المخطوطات ، كما أصيبت مجموعة صحف القرن التاسع عشر والعشرين المحفوظة فى هويدن بخسارة كبيرة . وكانت أكبر كارثة نزلت بالمتحف البريطانى فى آخر غارة كبيرة فى مايو سنة ١٩٤١ عند ما احترق الجانب الجنوبى الشرقى

من البناء ، وطارت أجزاء من السقف المشتعل إلى المربع المجاور ، فاتصلت النار بمخازن الكتب المجاورة لغرفة المطالعة ، وتلف من الكتب ما يقرب من مائة الف مجلد. وقد عمد المتحف إلى البحث عن تعويض النسخ التالفة ، ولكنه قد لا يوفق فى تعويض بعضها أبدا .

وهذه الغرفة ، لا فى زوارها فحسب ، بل فى إنشائها كذلك ، هى مصداق للقول المأثور بأن العلم لا وطن له ؛ فقد وضع فكرتها وعمل على تحقيقها موظف أجنبى فى خدمة المتحف البريطانى هو انطونيو بانتزى الذى هاجر من مدينة مودينا الايطالية الى انجلترا فى سنة ١٨٢١ ، وكان أديبا عالما بالشعر القديم ولكنه أيضا رجل مجدد وإدارى قدير . فكان أول من فكر فى إنشاء مكتبة وطنية كبيرة بالمعنى المتعارف اليوم . وقد أخذ الرجعيون يناهضون فكرته ، ولكنه مازال يعمل حتى جمع نحو مليون كتاب بلغات مختلفة ونظم لها الفهرس الذى يستطيع به المئات أن يصلوا إلى هذه الكتب .

وقد زاد إصدار الكتب فى عهده بتقدم فن الطباعة ، فسلك سياسة حكيمة بشراء كل ما يمكن شراؤه ، ثم بعمله على أن يحصل المتحف على نسخة من كل كتاب يتم طبعه ، حسب قانون حقوق النشر الذى أصدره البرلمان الإنجليزى فى سنة ١٨٤٢ .

وضاقت مخازن المتحف البريطانى بالكتب وهى جزء من محتوياته ، فوضع بانتزى تصميم غرفة المطالعة الحديثة وابتدئت فى سنة ١٨٥٤ وتمت فى سنة ١٨٥٧ . وكانت القاعة فيما مضى ميسرة للجميع ، أما الآن فقد أنشئت مكتبات عامة وخاصة عدة يمكن الجمهور أن يقصدها ، ولذلك رئى من الواجب وضع بعض القيود ، محافظة على الكتب وضنا بالمقاعد على من ليسوا فى حاجة شديدة إليها ، فهى الآن وقف على طلاب المعرفة الحقيقيين من جميع الامم .

ظهر حديثا

نابليون لأميل لودفيج نقله عن الالمانية الأستاذ محمود ابراهيم الدسوقى ـ الجزء الثانى
(دار الـكاتب المصرى)

يعتبر كثير من الـكتاب بدء سـقوط نابليون وأفول نجمه منذ عـدل سافراً عن مبادئ الثورة ونظمها ونصب نفسه إمبراطوراً . وهم فى ذلك يتبعون رأى العدد الـكبير من الرجال المعاصرين الذين كانوا يناصرون قائد الثورة الشاب والقنصل الأول، فاذا به يحطم آمالهم إذ يحلم بتكوين عرش وأسرة مالـكة ، فانقلبوا عليه، وقبع بعضهم فى ديارهم وهم يتمنون لهذا العرش النهاية والزوال . واتخذ بعضهم الآخر موقفاً عدائياً صريحاً .

ولـكن نابليون سار قدماً فى سياسته لا يلوى على شىء ؛ فهو ثمل بانتصاراته وبالامبراطورية التى كونها ، وبذل فى سبيلها حتى قلبه ، فأقدم على طلاق جوزفين التى عرف فيها حبه الاول وربما كان الأخير ، وصاهر أسرة هابسبرج العريقة ؛ ليربط دمه الوضيع بدماء الملوك التى يقال إنها زرقاء .

ونحن فى مطلع هذا الجزء الثانى من الـكتاب الذى بادرت دار الـكاتب المصرى إلى نشره ، لـكيلا ينفرط عقد الحديث عن القارىء ، نجد صورة لنابليون إذ كان يستطيع أن يقنع بما كسب ، ويعمل على توطيد هذه الامبراطورية ، ويحاول أن يسترضى الدول المناهضة باللين والمهاودة حتى يخلدوا إلى النظام القائم ، وحسبه أن يكون لامبراطوريته اليد العليا فى أوربا ، ولـكن هل يمكن لعجلة السياسة أن تقف ؟ وهل يغير المرء من طباعه بين لحظة واخرى ؟ لقد كان نابليون عبقريا ، ولـكن هذا التغيير يتطلب عبقرية أخرى أى يتطلب أن يجمع المرء بين عبقريتين .

وعلى ذلك نشهد فى الجزء الثانى من هـذا السفر الشيق سيرة حياته خطوة فخطوة نحو النهاية المحتومة ، التى لا تبـدو عادة لأعين المعـاصرين ؛ إذ تخفيها المطامع والأهواء والمنـافع والآمال ، ويخفيها عنـه هو ما هو محاط به من حـاشـية ومنتفعين ومتملقين .

لقد كان نابليون عظيما فيما اتخذه من وسائل للوقوف فى وجه الأقدار ، فلم يكن يسوس إمبراطوريته وحدها بل كان يسوس تلك الدول التى أنشأها ونصب على عروشها أولئك الأقزام من إخوة وقواد قد يكونون بارزين فى الحروب ولـكن أنى لهم العلم بتدبير الملك وحكم البلاد !

ولم يفقد الامبراطور عبقريته فى الحرب حتى اللحظة الأخيرة من حياته ؛ فقد كان دائماً القائد الفذ فى انتصاراته المتوالية حتى ظن أنه لن ينهزم ، وهو لم ينهزم إلا لتـألب الظروف وتكالب الحوادث وتجمعهـا حتى جرفه التيار .

وفى الفصول الأخيرة من هذا الجزء نجد حياته فى منفاه ، بتلك الجزيرة الاستوائية النـائية ، وعيشته بين نفر قليل من خلصائه ولم يعد له من عمل إلا التفـكير فى ذلك الماضى القريب الذى خط فيه صفحات من المجد .

تقرير عن أعمال الجمعية العمومية العادية الأخيرة لعصبة الأمم وضعه الأستاذ محمود الدرويش بك (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦)

في هذا التقرير القيم نرى الفصل الأخير من حياة هذه المؤسسة التي علق العالم بها آماله نحو ربع قرن كامل ، وظن أنها خير أداة لمنع الحروب بعد أن اكتوى بنار الحرب العالمية الأولى ، ولكن — مع الأسف — لم تتحقق هذه الآمال، وانتهى الأمر بهذه الهيئة إلى الاخفاق ، وانتهى بالعالم إلى حرب عالمية ثانية ، لا تقل فظاعة عن الأولى .

لقد قابل الناس تأسيس عصبة الأمم بتفاؤل كبير لم تسوغه الحوادث، وهم يدخلون إلى عالم ما بعد الحرب الأخيرة وهم أكثر تحفظا نحو الهيئة التي حلت مكانها، بل يكاد شعورهم يبلغ حد التشاؤم . غير أن كل محب لخير هذا العالم يرجو أن تكذب الحوادث هذا الشعور فتكون الهيئة الجديدة أكثر مقدرة على معالجة المشكلات القائمة ، وأن تظهر لها شخصية مستقلة تكون أبعد من التأثر بأهواء أعضائها ومطامعهم .

هذا التقرير الذي وضعه رئيس مندوبي مصر في الجلسة الأخيرة لعصبة الأمم لا يبحث طبعا في مثل الأمور التي ذكرناها ، فهو تقرير رسمي كتب بكياسة الرجل القدير على تمثيل بلاده ، الذي لا يفوت فرصة دون أن يجر نفعا إلى وطنه أو يؤدي له خدمة ، مثال ذلك موقفه حين امتنع من التصويت على مشروع القرار الخاص بالانتدابات من أجل فلسطين ، فهو يقوم بواجبه ، ولو كانت الهيئة التي حضر اجتماعها في النزع الأخير .

مختصر تاريخ الحضارة الغربية في الأزمنة الحديثة للأستاذين جورج حداد وبسام كرد علي (يطلب من مكتبة العلوم والآداب بدمشق)

في رأيي أن كل كتاب يصدر باللغة العربية عن الحضارة الغربية ، هو كتاب جزيل الفائدة جداً في الشرق؛ إذ الواقع أننا لا نطمع في الأخذ بأسباب الحضارة ، وبلوغ درجة من التقدم مثل ما بلغته الأمم الأوربية ، إلا إذا قمنا بدراسة وجوه هذه الحضارة دراسة عميقة . فليس تقدم الغربيين هو على مايعتقده بعض الشرقيين تقدم في الماديات وحدها ، بل هو نهضة شملت نواحي الحياة جميعها من مادية وروحية . وقد ظهرت هذه النهضة جلية واضحة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في إيطاليا ، وانتقلت منها حتى عمت البلاد الأخرى ، وقامت هذه النهضة على أثر العودة إلى دراسة الآثار الفكرية لليونان والرومان .

وفي هذا الكتاب المختصر المفيد نجد صورة تكاد تكون كاملة لجميع نواحي التقدم الفكري ، قبل المادي ، في بلاد أوربا في القرون الأربعة الأخيرة . وقد لخص المؤلفان على اتساع موضوعهما هذه الحركة خير تلخيص ، فتكلما عن حضارة عصر النهضة ، ثم انتقلا إلى القرن السابع عشر وحياته الأدبية

والفنية ، ثم القرن الثامن عشر وخصصا فيه فصلين للحركة العلمية والانقلاب الصناعى . ثم تبسطا فى الكلام عن القرن التاسع عشر : حيث أضافا إلى الموضوعات التى درساها فى القرنين السابقين موضوع التطورات الاجتماعية والسياسية .

وقد أعجبنا من المؤلفين أنهما لم ينسيا الشرق فى تاريخهما ، فابتدآه بذكر فضل العرب فى حمل قبس الحضارة فى القرون الوسطى ، واتصال دراستهم وتفكيرهم بالدراسات اليونانية ، ومواصلتهم البحث والزيادة فى هذه الدراسات ، وبذلك ظلت الحضارة متصلة بفضل العرب ولم ينضب معينها إلى أن تلقاها الاوربيون منهم .

وإنا لنرجو فى القريب العاجل ان يقبل الادباء والمؤرخون على دراسة الحضارة الغربية وأسبابها ، ويعملوا على تزويد عالم الكتب العربية بهذه الدراسات التى لا يمكن أن تقل فائدة عن نشر كنوز الأدب والتاريخ العربى القديم .

فى موكب الشمس الجزء الأول تأليف الدكتور أحمد بدوى (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

عند ما عرف شامبليون كيف يحل رموز ذلك الحجر المحتوى تلك النقوش الغريبة التى هى أقرب إلى الصور ، والتى تمثل حروف لغة بائدة ، إذ وجد على الحجر نفسه سطوراً منقوشة باللغة اليونانية ، ورجح أنها ترجمة لما كتب بالحروف المجهولة ، وعند ما تمكن من الوقوف على شىء من سر هذه اللغة البائدة ، وبدأ الستار يرفع عن مدنية من أقدم مدنيات العالم ، وتاريخ مجيد من امجد التواريخ ، أخذ العالم يقرأ ماضى أمة — الأمة المصرية — هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة ، لو لم تكن تلك الآثار ملموسة وقائمة .

اجتذبت دراسة التاريخ المصرى العلماء من سائر الأجناس، فلم يمض قرن حتى كانت أمامنا صورة بارزة ، لمدنية مصر التى كان لها فضل كبير على الحضارة القديمة ، والتى اغترف منها اليونانيون والرومان وغيرهما من الأمم، ثم انتقل ميراثها إلينا نحن أبناء العصر الحديث .

ولقد اشترك فى بحوث التاريخ المصرى بعض العلماء المصريين ، من أمثال أحمد كمال باشا فى الجيل الماضى، ثم أنشئت الجامعة وأخذ طائفة من العلماء المصريين أمثال الدكتور سليم بك حسن والدكتور سامى جبره وإلى جانبهما عدد من أفاضل العلماء الأجانب ينشرون الدراسة التاريخية لمصر القديمة ، وسافرت البعوث من تلاميذهم إلى مختلف البلاد الاوربية .

وها نحن أولاء نجد ثمرة من ثمار التوفر على دراسة التاريخ المصرى القديم فى هذا السفر الثمين الذى يخرجه لنا اليوم الدكتور أحمد بدوى .

ونحن إذ نقرأ هذا الجزء الاول فى تاريخ البلاد المصرية والمجد القديم نشعر ولا ريب باغتباط كبير ، لا لأنه تاريخ أجدادنا فحسب ، بل كذلك لأن المؤلف ، وهو مصرى صميم فخور بوطنه ، عرف كيف يكتب هذا التاريخ فى تحمس وحرارة عاطفة ، مما بث فى ثنايا كتابه روحاً خاصة متوثبة ، وجعل منه سجلا حياً وطنياً ، فوق ما فيه من علم وثيق .

وقد صدر الكتاب بمقدمة للأستاذ محمد شفيق غربال بك المؤرخ المشهور ، ثم جاء

المؤلف يروى قصة الكتاب والحافز له على تأليفه، وتكلم عن مصر الخالدة، ثم ذكر لمحة سريعة لقصة التاريخ المصرى، وانتقل بعد ذلك إلى مصادر هذا التاريخ المصرى، ثم أخذ يشرح فجر هذا التاريخ، وعصر الأسرات الاولى وملوكها والعقائد الدينية فى الدولة القديمة، ثم تكلم عن الأسرات الثالثة، والرابعة والخامسة والسادسة عارضا آثارها وملوكها. وانتهى من هذا الجزء الأول بكلام عام عن الدول القديمة.

ولسنا نريد بعد هذا البيان العودة إلى التنويه بالكتاب وقيمته العظيمة. وكل ما نرجوه أن يعمل المؤلف سريعاً على إتمام كتابه ونشر أجزائه الباقية.

حسن محمود

نحل عبر النحل لتقى الدين المقريزى، نشره وحقق أصوله الأستاذ جمال الدين الشيال (مكتبة الخانجى القاهرة)

قلت لنفسى وقدألقى إلىأن الأستاذ الشيال معنى باخراج هذا الكتاب: من أين يا ترى تهيأت الرغبة للأستاذ الشيال فى نشر هذا الكتاب وهو شاب كل همه البحث عن التاريخ الاسلامىفى مصادره وموارده، وهذا كتاب ليس من التاريخ ولا يمت إليه بسبب قريب؟

ثم لم ألبث أن عرفت من أين عرضت للأستاذ الفاضل هذه الرغبة؛ فمؤلف هذا الكتاب هو المقريزى مؤرخ مصر الأول، أو الأشهر، فلا عجب أن يكون بينه وبين ناشر هذا الكتاب أسباب.

وهو كتيب لطيف الحجم كبير الفائدة، لعل فى غموض عنوانه ما يباعد بين القارئ العادى ومعرفة موضوع الكتاب؛ فعنوانه «نحل عبر النحل» بسكون الحاء المهملة فى الكلمتين المتماثلتين لفظاً وشكلا. أما الاولى منهما فمعناها النحج، وأما الثانية فالمقصود بها تلك الحشرة الرفافة التى تخرج لنا العسل. والعبر: جمع عبرة؛ فالمقريزىفى هذا الكتاب يريد أن يمنح قارئه العبرة فى درس النحل.

هذه هى دلالة العنوان كما أرادها المؤلف، وكما حققها الناشر، وكما يدل موضوع الكتاب.

والمقريزى من علماء هذه الأمة الذين ضربوا بسهم فى كل فن؛ فهو على شهرته فى التاريخ من أهل التحصيل والاجتهاد فى فنون شتى. وقد نشأ فى عصر زاخر بأهل العلم والفضل والنباهة نستطيع أن نسميه بمن اجتمع فيه من العلماء وبما اجتمع لكل منهم من طارف العلم وتليده وبما حاولوا من إذاعة العلم فى مؤلفاتهم التى لايكاد يبلغها الحصر — عصر الموسوعات؛ فلا عجب أن يتجه المقريزى إلى تأليف كتاب خاص فى النحل يلم فيه بكل ما يخطر على البال حين يذكر اسم النحل مما يتصل بموضوعه من العلم واللغة والحكمة والتاريخ وشئون الاقتصاد وغيرها، حتى لم يدع شاردة ولا واردة فى هذا الباب إلا عرض لها وأشبعها تحقيقاً ودرساً؛ فجاء كتاباً جامعاً لفنون شتى؛ ففيه من علم الحيوان، وفيه من فنون الأدب، وفيه من طرائف اللغة، وفيه فن المقريزى وذوقه ودقة تناوله.

وقد أخرج الأستاذ الشيال هذا الكتاب إخراجاً يحمد عليه ، فحقق أصوله وأصلح أخطاء النسخ فيه ، وجلى كثيراً من غوامضه وأشار إلى طائفة غير قليلة من مراجعه ، وألمع إلى بعض مايشبهه من مؤلفات السابقين ، وقدم له بمقدمة تستحق التنويه والذكر ، وألحقه بما لابد منه من الفهارس . وهو مجهود يقتضى المكافأة وحسن الجزاء .

صديق العائلة للدكتور مصطفى الديوانى (مكتبه النهضة المصرية — القاهرة)

ليس هذا أول كتاب للدكتور الديوانى يحاول به أن ينشر الثقافة الطبية ، أو الثقافة الصحية ، بين قراء العربية . والفرق عندى بين معنى الثقافة الطبية والثقافة الصحية قد يكون مفهوما من سياق العبارة ، فلست أعنى أن الدكتور الديوانى بكتابه هذا وبما سبقه من كتب فى مثل موضوعه يطمع أن يكون قراؤه أطباء ، وإنما يطمع أن يكونوا أصحاء ، يعرفون أسباب الوقاية والخطوات العلاجية الأولى التى تسبق دعوة الطبيب .

ونحن فى مصر محتاجون إلى الثقافة الصحية أكثر من حاجاتنا إلى كثير من أنواع الثقافات ، فنحن شعب مريض . قالوا : لو وزعت أمراض المصريين على جميعهم بالتساوى لكان نصيب كل مصرى منها بضعة أمراض ، أحسبها ثلاثة أو أربعة ؛ وإن شعباً ينتشر فيه المرض إلى هذا الحد لحقيق بأن نعالجه بنشر الثقافة الصحية قبل أن نعالجه بتخريج طوائف من الأطباء يزاحم بعضهم بعضا « فى السوق » لقلة « الزبائن » والمرضى فى بيوتهم يجهلون أنهم مرضى !

وكتاب « صديق العائلة » الذى أخرجه أخيراً الدكتور الديوانى بعد كتابه « حياة الطفل » يعالج نوعا من النقص فى ثقافتنا الصحية نحن فى حاجة إلى علاجه ؛ فما أحراه أن يكون فى مكتبة كل أسرة وفى رأس كل أب وأم !

وأنا « أب » قد تفردت بخصائص ليست فى كثير من الآباء ... والحمد لله على نعمائه ؛ فلعلى بخصائصى تلك أن يكون من حق أن أدعو الآباء والأمهات جميعاً إلى التزود من هذه الثقافة الأبوية الصحية التى يقدمها لهم الدكتور الديوانى فيما ينشىء من كتب .

على أن هذا الكتاب إنما يعالج نوعاً من تلك الثقافة هو أقرب فى بعض فصوله إلى الاجتماع منه إلى الصحة ، ولا تزال فنون الحياة يجاذب بعضها بعضا ويطغى بعضها على بعض — فهو يبدأ الفصول الأولى منه بالحديث إلى الآباء والأمهات عن أسرار الأبوة والأمومة ، وأدوار الحمل والوضع وما يتصل بها من حياة الطفل ، ويبسط الحديث فى بعض ما يكون بين الأزواج والزوجات مما يزاولونه عملا دون أن يعرفوه علما ، وما قد يحتاج الصبى أو الفتاة إلى معرفته حين تتفتح ملكاتهما ؛ وهو يدير الحديث فى هذه الفصول على طريقة الحوار بين بعض الأطفال وأمهاتهم ، فيرشد الأمهات ويعودهن كيف يكنين إذا تحدثن إلى بناتهن أو أبنائهن فى شئون لا ينطلق فيها اللسان صريحا .

ويتدرج بعد هذه الفصول فى الحديث إلى الآباء والأمهات فى مسائل تعنيهم كل العناية ولا يستغنون عن التماس أسباب علمها ، فيتحدث عن تغذية الأطفال وتربيتهم ، والأمراض التى تشيع بينهم ووسائل الوقاية منها

والخطوات الأولى لعلاجها . كل ذلك في أسلوب سهل مبسط لا يشق على قارئ ولا قارئة !

لقد كان الآباء والأمهات في الزمن القديم يقدمون لبنيهم وبناتهم وصايا يستحفظونهم عليها قبل أن يلجوا بيت الزوجية ، ليجدوا فيها عصمة من الخطأ ولتصحبهم تجارب آبائهم وأمهاتهم حتى بعد أن يصيروا هم آباء وأمهات . أما اليوم فلست أقصد الفكاهة إن أشرت على الآباء والأمهات أن يهدوا إلى أبنائهم وبناتهم قبيل الزواج نسخا من مؤلفات الدكتور مصطفى الديواني !

على الشاطىء المسحور ديوان شعر للشاعر اليمني الأستاذ محمد عبده غانم

(مطبعة فتاة الجزيرة بعدن)

هذا ديوان شاعر من «شعراء السابقات» وهو اسم أرجو أن يسره ، فقد اشترك — كما يقول في مقدمة ديوانه — في ست مباريات شعرية « فكان التوفيق حليفه في كل مرة » وظفر فيها جميعاً بالجائزة الأولى ، وقد أفرد لهذه القصائد الست الباب الثالث من ديوانه وسماها السوابق !

ويقول الشاعر في مقدمة ديوانه القصيرة إنه لم يكن على نية نشره لولا إلحاف أصدقائه ، فانه موقن بأنه لم يبلغ المنزلة التي تسمح له أن ينشر شعره على الناس . وهو شعور طيب نحو نفسه ، لأنه يأمل أن يبلغ في غد منزلة من الاجادة تحمله على الرضا عن نفسه ، وإننا لنأمل له مثل أمله !

على أني لا أريد أن أظلمه أو أغمطه بعض ما يستحق من الثناء ؛ فان فيه مخايل شاعر نرجو أن يتم تمامه في وقت قريب ، فان له أسلوبا وطريقة ولمحات من الشعر ! وإنه لحبيب إلينا أن يكون في اليمن الحديث شعراء وإن ينشد شعرهم في مصر ، ولهذا آثرت التنويه به على ازدحام مكتبي بدواوين الشعراء ، والذين يطمعون أن يكونوا شعراء !

والديوان أبواب ثلاثة : الخافقات ، والملحقات ، والسابقات ، أما السابقات فهي القصائد الست التي فاز بها الشاعر في المباريات ، وهي حقيقة بالفوز بين ما يقدم للمباريات !

وأما الخافقات فهي القصائد التي يعبر بها الشاعر عن خفقات قلبه . وأما الملحقات فهي محاولاته الشعرية للتحليق والسمو والنفاذ إلى ما وراء السموات ! . . .

ولا أحب أن ينتهي حديثي عن الشاطىء المسحور دون أن أنوه بقصيدته « حديث الجماجم » فهي محاولة شعرية تؤذن بما ينتظر أن يكون في غده إن شاء الله . ولولا ضيق المجال لآثرت أن أنشرها على القراء نموذجاً من فنه !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

الصحافة والأدب

فى العدد الرابع من مجلة « الفكر » التى تصدر فى دمشق مقال بهذا العنوان، للأستاذ محمد روحى فيصل، يتحدث فيه عما بين الأدب والصحافة من صلات، ومن فوارق، وعما بين الصحفى والأديب، فيقول:

« إنما تتميز الصحافة من الأدب بالانتاج، فالسرعة فى تهيئة الصحيفة، وإيصالها إلى يد القارئ، هى كل شىء فى الصحافة؛ على حين أن الأناة سمة الأدب ومناط قوته وجماله وخلوده ... »

ثم يسائل: هل يجتمع الأديب والصحافى فى إهاب إنسان واحد؟ ثم يقول:

« يجيب بول موران: نعم، ولكن على شريطة أن يكون الأديب قد كملت أدواته، وتمت ملكاته، وقويت شخصيته، وأدركت نفسه طريقها ... أما الأديب الذى لا يزال يتلمس مكانه فى دنيا المواهب فمن المحقق أن الصحافة خطرة عليه، تؤذيه فى صميم أدبه ولا يمكن أن يفيد منها كما يفيد الأديب المكتمل الذى استوى عوده على صعيد الانتاج الأصيل. »

ثم يسترسل الكاتب فى الحديث فيتحدث عن أدباء العربية الذين جمعوا بين الأدب والصحافة، ويخص بالذكر الزميلين المازنى والعقاد « فكانهما من الانتاج فى النقد والشعر والقصص والدراسات الأدبية على العموم معروف لا يرق إليه الشك ولا يختلف فيه اثنان. ربما أسقط الزمان شعرهما أو تجاوز عن بعض دراساتهما أو غربل جانباً كبيراً من قصصهما، ولكنه مع ذلك سوف يضطر إلى أن يسجل اسمهما بين صفحات التاريخ الأدبى ويقر بأثرهما فى توجيه الفكر العربى والأسلوب البيانى نحو القدرة على الابداع والامتاع فى كثير من القوة والجمال ... »

مجاعة أدبية!

ويعالج الأستاذ عبد الله المشنوق فى العدد السابع من مجلة « الأديب » اللبنانية الموضوع نفسه ولكن من جوانب أخرى، فيزعم أن انصراف طائفة من أدبائنا المعروفين فى الآونة الأخيرة إلى الاشتغال بالصحافة قد أحدث ما يسميه « مجاعة أدبية » فينحى باللائمة على الذين سماهم من أولئك الأدباء؛ ويبدو فى حديثه متشائماً ضيق الصدر بهذا المآل الذى انتهى إليه الأدب، لعدم عناية الأدباء المعاصرين بتسجيل المناسبات القومية فيما يبدعون من شعر ونثر من ناحية، ولانصرافهم من ناحية أخرى عن فنون من الأدب لانزال فى حاجة إلى المزيد منها — إلى الاشتغال بالصحافة والتدلى إلى مستوى رجل الشارع، فيقول:

« ورجل الشارع فى البلاد العربية فى

أدنى درجات السلم الثقافى ، فاذا بأحمد أمين يهجر فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام وعصر الاسلام ليكتب عن « المودة » فى مجلة « الاثنين » مقالا مزيناً بالصور والرسوم !

« وتوفيق الحكيم يهبط من برجه العاجى ويترك فيه شهر زاد وأهل الكهف ويوميات نائب فى الأرياف لينقد شريط « لص بغداد » فى مجلة « آخر ساعة » !

« وعباس العقاد يترك ابن الرومى ونيتشه والعبقريات ليكتب فى موضوع — كخادمة المنزل التى تصلح لجميع الغرف — وفى كل صحيفة يومية أو أسبوعية !

« وطه حسين يترك الأيام — أروع قصة حياة كتبها أديب عربى — وعلى هامش السيرة لينصرف إلى السياسة الحزبية ويكتب فى جريدة « البلاغ » مقالات يصف فيها خصومه السياسيين ! . . . »

كذلك زعم الأستاذ المشنوق فيما كتب ومن هذا الجانب تناول موضوعه . فليت شعرى هل أنصف الأستاذ المشنوق فى « الأديب » ؟ وهل أصاب الأستاذ روحى فيصل فى « الفكر » ؟

ضرائب المدنية !

وفى العدد نفسه من مجلة « الفكر » مقال للأستاذ روكس العزيزى بهذا العنوان يتحدث فيه عن هذا العصر المادى الذى نعيش فيه وعن مظاهر الحضارة التى ننعم بها ، ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن الضرائب التى تقتضينا إياها هذه الحياة المترفة التى نحياها ، فيعددها ويصف أسبابها ونتائجها ، ويوازن فى حديثه ذاك بين تلك المناعم وتكاليفها فيقول :

« نظرة فاحصة دقيقة ترينا شكوى البشر عالية ، وتسمعنا زفراتهم غير منقطعة ، وتعرض أمامنا دموعهم سيولا تجرى ، ولا تجد أحداً راضياً عن حياته ، ولو كاد يلامس حياة الغزالى فى تساميه ؛ فما سر ذلك ؟

« أنحن برمون بالمدنية ؟

« أنحن ساخطون عليها كارهون لها ؟

« لا لا ؛ فما نحن برمين بالمدنية ولا ساخطين عليها ، ولكننا ساخطون من الضرائب التى تتقاضانا إياها المدنية من وقتنا ، من أعصابنا ، من صحتنا ، من كرامتنا ، من أخلاقنا ، من عزة نفوسنا ، من عواطفنا ، من فصلها إيانا عن أمنا الرءوم الطبيعة ، من جنايتها على حياتنا العائلية المحتضرة ، من تدميرها لروح البساطة فى نفوسنا ، ولما أفاضت فى نفوسنا من فوضى وما أشاعت من غرور . وأعظم نكبة يصاب بها الانسان أن يسلب عواطفه ويتحجر قلبه ويرغم على أن يعيش بلا قلب . . . »

مستقبل الشرق

وفى السفر الثانى من سلسلة « اليقظة العربية » التى تصدر فى دمشق ، يرى الاستاذ محمد عابدين حمادة أن اتجاه مستقبل الشرق ذو شطرين : أولهما تطور قومى ، وثانيهما تطور ديمقراطى ، فيقول :

« أما التطور القومى فسيكون بتعزيز

فكرة الوحدة أو الاتحاد العربى ، رغم العقبات التى نراها الآن ، ورغم المشكلات الموجودة ضمن الكيان العربى نفسه ؛ ولابد من يوم تنتصر فيه فكرة الشعب العربى فى الوحدة أو الاتحاد ...

« أجل إن هذه « الجامعة » لاتشفى غليل الشعب العربى الظامئ إلى الوحدة أو اتحاد سياسى حقيق ، ولكن لا ينكر فى الوقت نفسه أنها خطوة حقيقية ، نسبة إلى الحقبة القصيرة من الزمن ؛ ونأمل فى المستقبل القريب أن تساير العروش إرادة الشعوب كما حدث فى إيطاليا وألمانيا حين تكوينهما .

« اما التطور الديمقراطى فمما نسر له أن تعميم الثقافة ساعد على الوعى القومى ، وبدأ الشعب يفهم الغث من السمين ، وهو واضح لا شك حداً للسلطات المطلقة وتسيير حكوماته وفقاً لارادة شعوبها ، وسيقضى على مالا يزال باقياً من الوضع الاجتماعى السابق الذى كان يجعل العالم العربى ألعوبة فى يد بعض الحكام والاقطاعيين ! ... »

بين الأدب والقومية

وفى مجلة « الأديب » أيضا مقال للأستاذ عبد اللطيف شرارة بهذا العنوان يقول فيه :

« ليس المهم فى الانتاج الأدبى نوع اللغة ولا نوع الثقافة ، ولا المهم أن نجعل قيمة « الفكر » فوق كل قيمة جعلا نظرياً صرفاً ، ولا المهم أن تكثر المدارس والشهادات والصحف ؛ وإنما المهم هو شعور الأمة بنفسها كوحدة وانطلاقها نحو تحقيق نفسها .

« هذا الشعور كاف لأن يخلق فيها الأدباء والمفكرين والفنانين من كل جنس ولون ؛ إذ لا بد أن تحاول التعبير عن شعورها ، وهى لا تثبت وجودها إلا بهذا التعبير . والأديب مهما استقل وتمرد وتجرد وانفرد عن أمته فانه يبقى جزءاً منها ، والجزء لا يفسر إلا بالكل ، ولا يكون أداة صالحة إلا حين يحتل مكانه من الكل .

« أما ما يطلب من الأديب فهو أن يكون « إنساناً » قبل أن يكون كاتباً أو شاعراً ، وأن يكون ذا رسالة يغلب فيها البناء على الهدم . هذان هما الشرطان الأساسيان ، ولا يهم بعدهما أن يقضى الأديب أيامه فى التغزل بالمرأة والتحدث عن الحب ، او فى التغنى بأمجاد الوطن وعبقرية الامة ، أو فى الدفاع عن الانسان والانسانية ؛ لأنه حر فيما يختار فلا يصح أن نفرض عليه مبدأ من المبادئ أو طريقة من الطرق ، وهو إنما ينتج — حين ينتج — ليفرض علينا لا لنفرض عليه ! » .

عبقرية اللفظ

وفى العدد الخامس من مجلة « البطحاء » التى تصدر فى بغداد كلمة للأستاذ حسين مروة عن عبقرية اللفظ يقول فيها :

« يحسب قوم أن اللفظة مادة هينة لاحياة فيها بذاتها ، ويحسب قوم أنها آلة صماء تتحرك ولكن دون وعى ولا حس ، ويتجنى آخرون على اللفظ فيتهمونه بألوان شتى من أمثال هذه التهم ؛ ثم يبنون على هذه الآراء

جميعاً أحكاماً فى البيان والأدب والفن . وما عجبي لشيء كعجبي لشيوع هذه الأحكام تنهض على تلك الآراء .

« وليس صحيحاً البتة أن جودة البيان وعبقرية الأدب وجمال الفن تصدر جميعاً عن ينبوع غير ينبوع اللفظ . ولقد يكون فى هذا الرأى صدمة عنيفة لأولئك الذين يهون عندهم شأن اللفظ حتى لينعتون الأدب الضعيف أكثر الأحيان بأنه أدب لفظ . . . وهم يحسبون أن الأدب يتجزأ فيكون منه لفظ ويكون منه معنى ؛ أما اللفظ عندهم فكالأنبوبة الفارغة ، وأما المعنى فكالسائل الذى تملأ به الأنبوبة . فاذا بدا لهم الأدب ضعيفاً هزيلا قالوا إنه ادب لفظ، وهم يعنون أن الأنبوبة فارغة من السائل الذى هو مصدر القوة فى الأدب والفن .

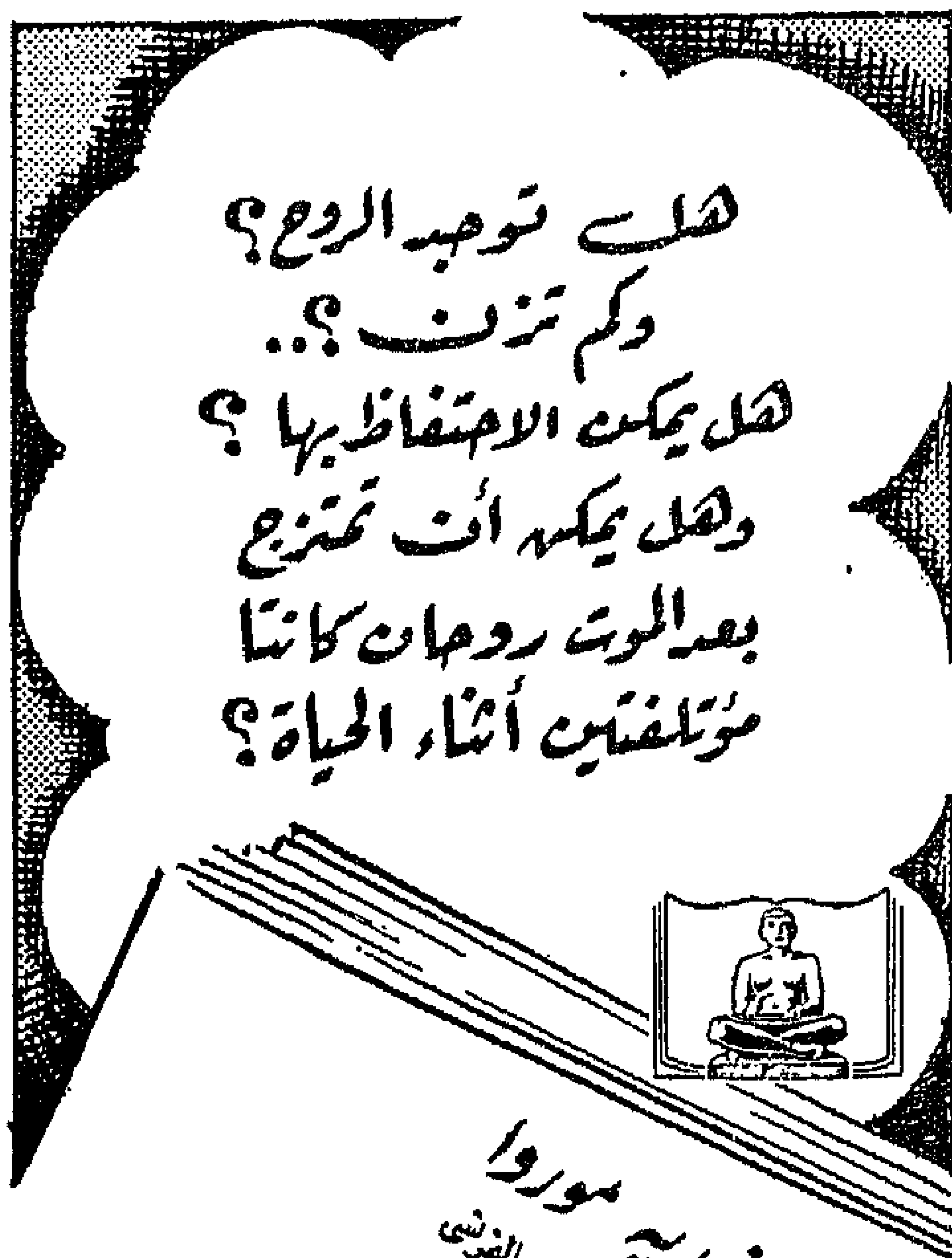
« أنا أنكر أشد الانكار أن يكون للفظ وجود مستقل عن المعنى ، بل أعجب أشد العجب كيف يتصور ناس أن يوجد لفظ دون معنى ، شرط أن يكون لفظاً من الألفاظ الموضوعة فى اللغة . وأزيد على هذا أن المعنى الذى أقصده أوسع مما تدل عليه هذه الكلمة عادة ؛ فالمعنى الذي يحمله كل لفظ إنما هو (شخصية) مركبة من حس ومنطق ومزاج وعاطفة ، كما تتركب (شخصية) الكائن الحى من الناس تماماً ... »



جنة على نهر العاصي

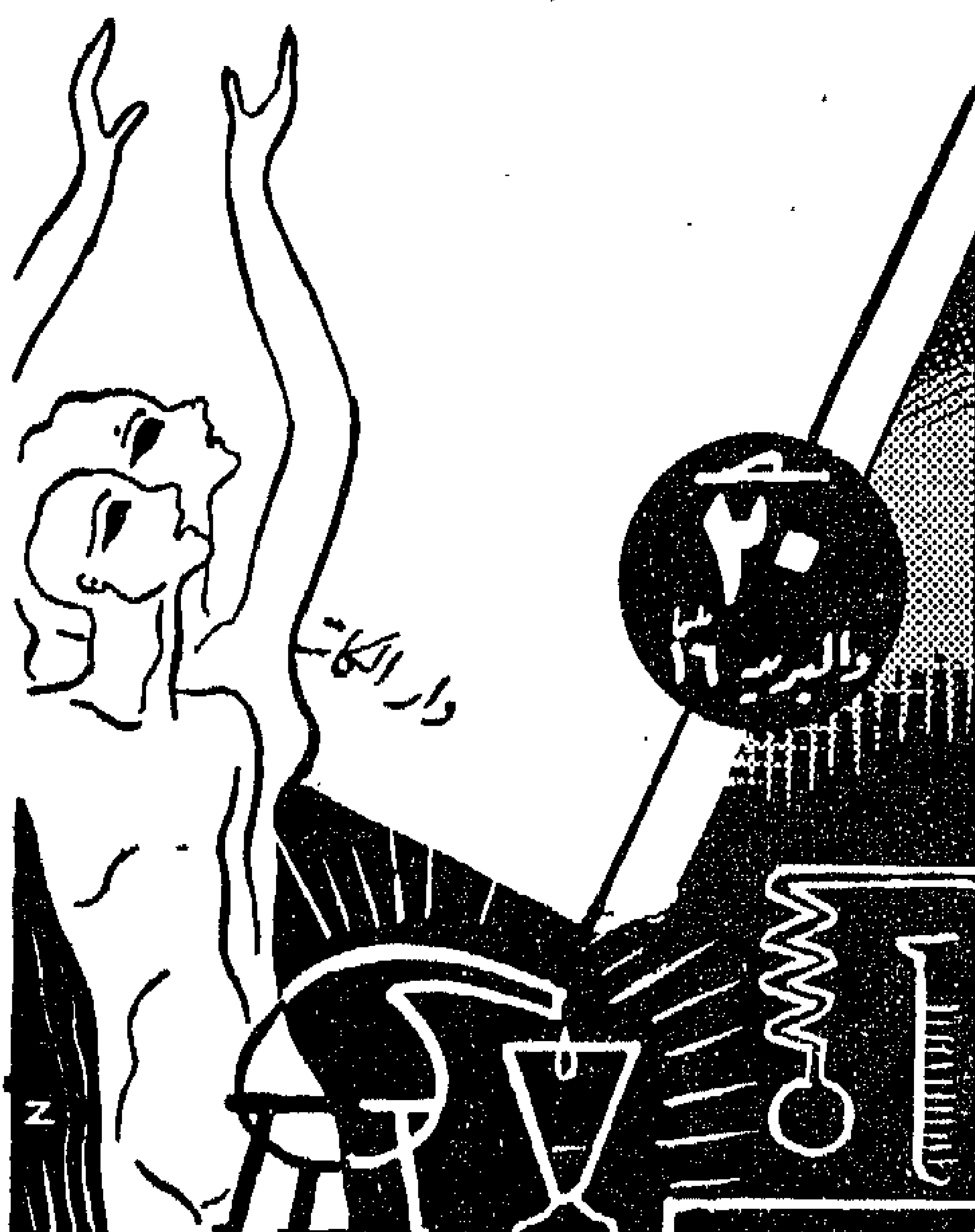
تعريب
محمد عبد المجيد عنبر وعبد المجيد عابدين





وادي الأرواح

تعريب عبد الحليم محمود





٢٥ ق

البريد ٢٠ مليمًا

محمد سعيد العريان

من حولنا

قصص مصرية

دار الكاتب المصري

جيل من الناس في أفراحهم وآلامهم ،
يرى كل قارئ في مرآته صورة من نفسه ،
أو صورة من حوله ، في إطار قصصي
رائع في بيانه وفي فنه





ليون دوديه

كليمنصو
وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه

٣٥ ملّيمًا وبالبريد ٢٤



آية فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد



صورة دوريان جراي

صراع بين الإثم والضمير
صورة تهرم بينما صاحبها محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
في مزاج من الهزل والجد



٣٠ م
والبريد ٤ مليما







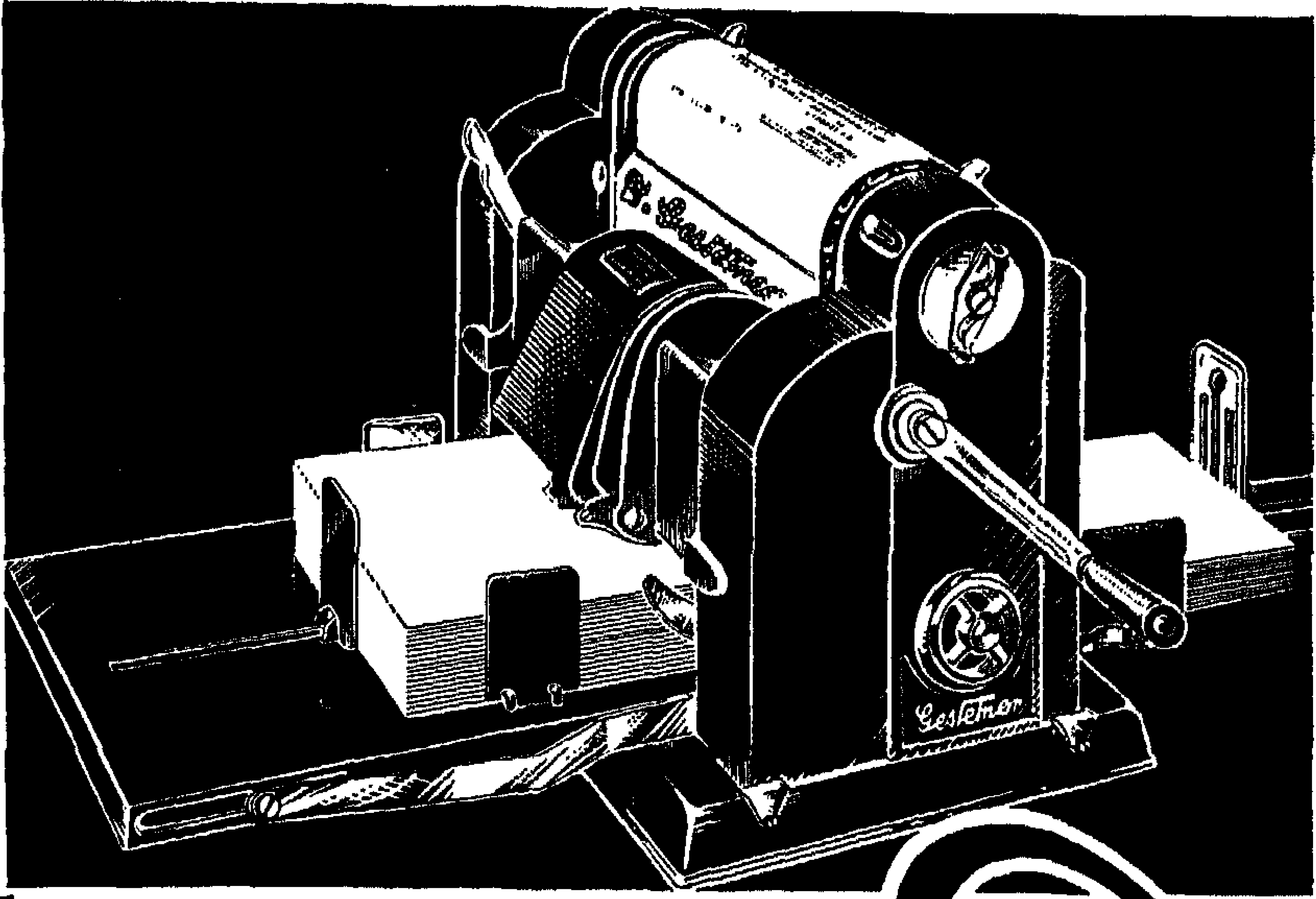
١٨ قرشا
والبريد ١٦ مليما

مظهر آخر لفن اوسكار وايلد

معامرات شبح يجول في ابهاء قصر عتيق
موازنة بين العقل الإنجليزي المحافظ والعقل الأمريكي المجدد.
قصة فكاهية مرحة



كتابان مزينان
بصور مختارة
من أفلام
م. ج. م



Z

جستتنر

Gestetner

آلات نسخ الصور ولوازمها



أن ما بلغتــه منتجات جستتنر من التفوق هو نتيجة للبحث المستمر والتحسين المتصل منذ سنة ١٨٨١ .

وصلت فى مصر آخر نماذج من هذه الآلات ولوازمها ، اطلبوا كافة الاستعلامات من الوكلاء الموزعين الوحيدين .

جستتنر

ضمان للثقة فى النوع

تحقق من هذا الاسم دائما



SCRIBE

الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب

القاهرة الأسكندرية بورسعيد

المركز الرئيسى بالقاهرة ، ٥ شارع قنطرة الدكة



في ارجاء العالم العربي

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية

مجلد ٣ — عدد ١٢

سبتمبر ١٩٤٦

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

القاهرة



كاردكس

— لتحسين الإنتاج في العمل



نظام **كاردكس** اختراع أمريكى فريد يتيح ترتيب بطاقات الأعمال ترتيباً أفقياً وليس رأسياً كالنظام العتيق ، وهو لذلك يضمن بطريقة عجيبة سرعة ترتيب تلك البطاقات وتسجيل البيانات فيها . وترى الطرف الأسفل لكل بطاقة — وهو الفهرس — ظاهراً بأكمله ، فيسهل عليك إيجاد البطاقة التى تبحث عنها فى الحال . وهنالك إشارات ملونة تتحرك على هذا الطرف الظاهر ، فتلفت النظر إلى الموضوعات التى تستدعى إجراء خاصاً . وهكذا يعطى نظام **كاردكس** لرجل الأعمال صورة منظمة سريعة عن حالة أعماله .

وفى أنحاء القطر المصرى ، يستعمل رجال الأعمال نظام **كاردكس** فى تسجيل أهم العمليات التجارية مثل الجرد ، والبيع ، والشراء ، والانتاج وغيرها من الأعمال . فاستعمال **كاردكس** يمكن صاحب العمل من « الرقابة » ... وامتلاك زمام عمله إذ يكون أمامه فى كل لحظة **رسم بيانى** للأمور يرشده فيما يتخذ من قرارات .

إنتاج مصانع الآلة الكاتبة رمنجتون راند

فنظام **كاردكس** يزيد من كفاية عمالك ، فيساعد على زيادة إنتاجك كما ساعد الشركات الأمريكية .

الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب
القاهرة الاسكندرية بورسعيد
المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع قنطرة الدكة



كتاب يعد فتحا جديدًا فى الأدب

أرض البشر

للكاتب الطيار انطوان دى سانت اكسوبرى

رائد من الرعيل الأول للطيارين ينظر إلى الكون خلال تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف، يصلنا بالآفاق الشاسعة ويضعنا فى صميم الخطر وفى صميم العمل ..

انطوان دى سانت اكسوبرى

أرض البشر

تعريب مصطفى كامل فوده

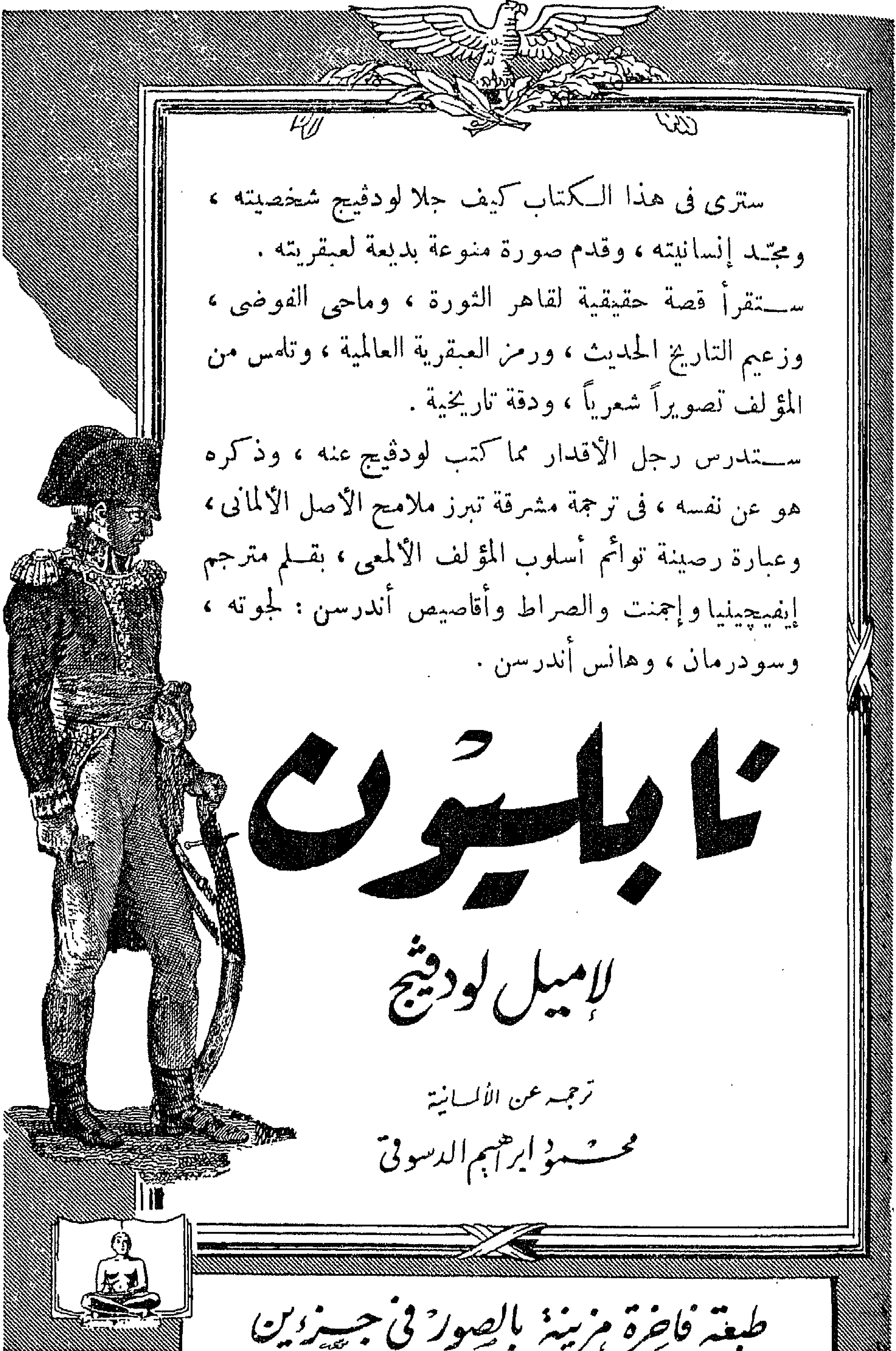
دار الكاتب المصرى

تعريب مصطفى كامل فوده

طبعة مزينة بالصور



٢٥ ص والبريد ٢٠ مليمًا


ستری فی هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ، ومجّد إنسانيته ، وقدم صورة منوعة بديعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، وماحى الفوضى ، وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتلمس من المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .
ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره هو عن نفسه ، فى ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانى ، وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعى ، بقلم مترجم إيفيجينيا وإجمنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ، وسودرمان ، وهانس أندرسن .
نابليون
لإميل لودفيج
ترجمه عن الألمانية
محمود ابراهيم الدسوقى
طبعة فاخرة مزينة بالصور فى جزءين



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.

5 Kantaret el Dekka Street

Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى



شوال ١٣٦٥ سبتمبر ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ١٢

الأدب المظلم

ليست حياة الناس كلها ورداً ، وليست حياة الناس كلها شوكاً . وقد أنبأنا شاعرنا القديم منذ عشرة قرون بأن العاقل يشقى بعقله فى النعيم ، وبأن الجاهل يسعد بجهله فى الشقاء . ومعنى هذا أن الحياة شوك بالقياس إلى العاقل الذى يحلل ويعلل ، ويحصى ويستقصى ، ويحاول أن يرد كل شىء إلى علته ، ويستخرج من كل شىء نتيجته ، وأن الحياة ورد بالقياس إلى الجاهل الذى يأخذها كما تساق إليه لا يحاول لها فهما ولا تأويلا . وتستطيع أن تعرض هذه القضية عرضاً آخر فتقول : ليست الحياة كلها مشرقة كما يشرق النهار ، وليست الحياة كلها مظلمة كما يدلهم الليل . وأكبر الظن أنها تظلم وتدلهم حين يريد العاقل أن يحياها عن بصيرة وفهم ، وأنها تشرق وتضىء حين يريد الجاهل أن يقبلها كما تهدى إليه . وأكبر الظن كذلك أن إشراقها بالقياس إلى الجاهل نفسه لا يخلو من ظلمة تغشاها بين حين وحين فتخفى معالمها وتشوه محاسنها وترد صاحبها على جهله إلى الحيرة حينا وإلى القنوط حينا آخر ؛ وأن ظلمتها بالقياس إلى العاقل لا تخلو من ضوء ضئيل نحيل ينفذ إليها أو ينفذ منها كما ينفذ السهم فتشرق له بعض جوانبها لحظات تقصر أو تطول .

وليس فى ذلك شىء من الغرابة ؛ فضوء الشمس يحجبه السحاب ، وظلمة الليل يجلوها ضوء القمر أو تخترقها أشعة النجوم . والناس كلهم يعلمون أن حياتهم مزاج من الخير والشر ، ومن السرور والحزن ، ومن الرجاء واليأس ، ومن الابتهاج والابتئاس . تختلف حظوظهم من هذه النقائض باختلاف

الطباع والأمزجة ، وباختلاف البيئة والظروف ، وباختلاف هذه المزايا التى ركبت فى نفوسهم والتى تعكس لهم الحياة نقية صافية حينا ، وكدرة قاتمة حينا آخر . ولكنهم بعد ذلك يختلفون ، أو قل إن أدباءهم وفلاسفتهم يختلفون حين يريدون أن يصوروا لهم هذه الحياة فيما يحدثون من فلسفة ، وفيما ينشئون من أدب . فبعضهم لا يصور من الحياة إلا صفوها وعفوها ، وما يشيع فيها من نقاء وجمال . وبعضهم لا يصور من الحياة إلا شرها ونكرها وما يجثم عليها من فساد وضلال . وبعضهم يتوسط بين ذلك فيصورها شائقة رائقة حينا ، ويصورها قاتمة بغيضة حينا آخر . وليس فى شىء من هذا كله جديد ؛ فمن الكتّاب من يتفاءل دائما ، ومنهم من يتشاءم دائما ، ومنهم من يأخذ من التفاؤل والتشاؤم بطرف . ولكن الجديد هو أن من الأوربيين من يلوّنون هذه الآداب المتباينة ألواناً مختلفة ، ويسمونها بهذه الألوان ؛ فالأدب الخالص للتشاؤم أدب أسود ، والأدب الخالص للتفاؤل ، والأدب الملائم بين التفاؤل والتشاؤم ، يأخذان ما يريد الكاتب أو المتحدث أن يسبغ عليهما من الألوان حين يريد العبث أو الدعابة . وهذا كله لا يزيد على أن يكون نحواً من أنحاء التحذق ، وفنًّا من فنون الإغراب .

ولأمر ما لا يكاد الأوربيون فى هذه الأيام يحفلون بأدب التفاؤل ، ولا بالأدب الذى يتوسط بين التفاؤل والتشاؤم ، وإنما يعنون العناية كلها بالأدب الأسود الذى يخلص للتشاؤم ، ويصور الحياة فى أبشع صورها وأقبح مناظرها ، لا يخفى ولا يحاول أن يخفى من ذلك شيئاً ، بل يجتهد فى إظهار الخفى وتوضيح الغامض ، واستكشاف مالا يهتدى الإنسان إليه من سيئات الحياة ، ومن ضعة الحظ الذى كتب للإنسان فى هذه الحياة . وأكبر الظن أن المحن التى امتحنت بها أوربا فى هذا القرن ، والخطوب التى صُبَّت على الإنسانية فى الحربين العالميتين ، وما تكشفت عنه نفوس الأفراد والجماعات من أثرة لاحدّ لها ، وضعة لا سبيل إلى وصفها ، وضعف أمام الأحداث ، وتخاذل أمام الكوارث كل ذلك قد أظهر الإنسانية على سيئاتها ، وكشف لها مخازيها ، وعلّمها أنها ليست من الرفعة والسمو ولا من الطهر والنقاء بحيث كانت تظن حين كانت حياتها مطمئنة راضية

وهذه الظاهرة التى نراها الآن فى أوربا ، ظاهرة الإقبال على التشاؤم ،

والإنتاج للآثار القاتمة ، والإعجاب بالأدب الأسود هذه الظاهرة نفسها ليست جديدة ، وإنما هى شئ ألفته الإنسانية منذ أقدم عصورها ؛ فهى متفائلة مبتهجة حين تكون حياتها راضية مطمئنة ، وهى متشائمة مبتئسة حين تعصف بها الخطوب ويشيع فى حياتها القلق والخوف . وقد نستطيع أن نسجل فى هذا الحديث السريع بعض الظروف التى بدت فيها هذه الظاهرة قوية جامحة توشك ان تكتسح كل شئ ، وتوشك أن تسبغ على الأدب بنوع خاص هذه الظلمة القاتمة ، وهذا السواد المخيف .

والأدب اليونانى بالطبع قد سبق إلى الخضوع لهذه الظاهرة فى القرن الخامس قبل المسيح حين اضطربت حياة العالم المتحضر فى ذلك الوقت بالاصطدام بين اليونان والفرس ، وحين اضطربت حياة اليونان أنفسهم بالاصطدام بين الأتينيين والأسبارتيين . وليس من شك فى أن الهول الذى انتشر فى بلاد اليونان بحكم هذه الحروب المتصلة قد حمل العقل اليونانى قبل كل شئ على أن يفكر فى الحياة ، ويحاول أن يعلل ما فيها من خير وشر ، ومن نعيم وبؤس . وهو لم يكد يعرض لهذا الموضوع حتى ثارت أمامه هذه المشكلات الإنسانية الخالدة التى تتصل بالعلاقة بين الإنسان والآلهة ، بل بين الإنسان والقضاء الذى يسيطر على حياته ويصرفها كما يشاء هو لا كما يشاء الإنسان . وليست المأساة اليونانية وآياتها الخالدة إلا مظهراً من مظاهر هذه الحيرة ، التى سيطرت على العقل اليونانى حين صوّر لنفسه هذه المشكلات ، وأراد أن يجد منها مخرجاً ويلتمس لها حلا .

وكان الجواب الأول الذى ألقاه العقل على الإنسان وصوّرته المأساة أروع تصوير ، هو أن هناك قوة قاهرة ماكرة ليس لأحد عليها سلطان ، لا من الناس ، ولا من الآلهة أنفسهم ، وهذه القوة هى القضاء المحتوم الذى لا يستطيع أحد لأحكامه نقضاً ولا تغييراً . وكل ما فى الأمر أن فى الوجود طبقتين تمايزان من جهة ، وتتشابهان من جهة أخرى : إحداهما طبقة الآلهة التى لا تخضع لغير القضاء ، والتى تمتاز بشئ من القوة ومظاهر من الحرية . والثانية هى الإنسان الذى لا يخضع للقضاء وحده أو قل لا يخضع للقضاء مباشرة ، وإنما يخضع له من طريق الآلهة الذين ينفذون فيه الأمر ويمضون فيه الإرادة المحتومة . فالأقدار مثلاً قد كتبت على أوديبوس أنه سيقتل أباه ، وسيتزوج أمه ، وسيكون

له منها ابنان يقتل كل منهما صاحبه فى موقعة حاسمة ، وابنتان تموت إحداهما فى سبيل أداء الواجبات الدينية لأحد أخويها حين يدركه الموت وتأبى الدولة إلا أن تتركه بالعراء نهباً لسباع الطير . وحظ الآلهة من القدرة إنما هو إنفاذ هذا القضاء ، تسخِّر الإنسان له تسخيراً ، تنصح له قليلا وتضلله كثيرا وتعبث به دائما . فهى توحى إلى لايوس ملك ثيبة أن سيكون له ابن يُرديه ، وهى تلقى فى رُوعه أنه إن استطاع أن يتخلص من هذا الابن حين يولد فقد يفلت من هذا القضاء المحتوم . وما تزال تغريه بذلك وتزينه فى قلبه حتى يدفع بالصبى حين يولد إلى أحد الرعاة ليقتله . وقد عاد الراعى إليه فأنبأه بأنه أنفذ إرادته ، فيطمئن الملك وينعم بحياة قوامها الغرور ؛ لأن الراعى لم ينفذ أمره ولم يصدُقه الخبر . ألقت الآلهة فى رُوعه حب الصبى والعطف عليه فلم يقتله ، وإنما تركه فى حيث استطاع راع آخر أن ينقذه ويكفل له الحياة .

وكذلك عبثت الآلهة بالملك فغرّته وأمْلَتْ له ، وعبثت بالراعى فزينت فى قلبه الحب والرحمة ، وأتاحت للصبى أن ينشأ وينمو ويبلغ أشده ويصبح قادراً آخر الأمر على أن يقتل أباه ويستأثر بعرشه ، ويتزوج من أمه وينفذ حكم القضاء . فحكم القضاء إذن ضرورة محتومة لا يفلت من سلطانها أحد ، وليس الآلهة أنفسهم إلا أدوات لإنفاذ هذا الحكم مهما يظهر من سلطانهم على الناس ومداورتهم لهم ، ولكنهم على كل حال يستمتعون بظاهر من الحرية يتيح لهم هذه المداورة .

وقد استطاع العقل اليونانى فى هذا الطور من أطواره أن يمنح الإنسان شيئاً من الحرية الظاهرة ، لا أقول فى تغيير حكم القضاء ، ولا أقول فى التخلص من سلطان الآلهة ، وإنما أقول فى الثبات لهذا القضاء ، والحزم أمام سلطان الآلهة . فأوديبوس لا يغير من الضرورة المحتومة شيئا لأنه لا يستطيع تغييرها . وهو ينخدع بوحى الآلهة ، فيفر من منفاه معتقداً أنه سيظفر بالحرية كل الحرية نتيجة لهذه المغامرة . وهو يحل اللغز الذى يلقيه عليه ذلك الكائن الغريب أمام مدينة ثيبة ، ويظفر بالعرش ، ويتخذ الملكة لنفسه زوجاً ، ويرى أنه قد ظفر بالسعادة كل السعادة ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن الآلهة إنما سلكت به هذه الطرق كلها لتنفذ على يده حكم القضاء فتضطره إلى قتل أبيه ، ثم لتنفذ فيه هو حكم القضاء فتضطره إلى أن يتزوج أمه ويعقب منها الولد .

لحريته إذن أمام القضاء وأمام الآلهة ليست شيئا ، ولكن له مع ذلك نصيباً من الحرية فهو يثبت للكارثة ، قد فقأ عينيه ، ونفى نفسه من الأرض ، ولكنه لا يتهم نفسه بشئ ولا يلومها على شئ ، فهو لم يأثم ، وإنما كتب القضاء عليه الإثم وضللته الآلهة حتى تورط فيه . ولو خير لاختار ، ولو عرف أن هذا الشخص الذى لقيه فى الطريق هو أبوه لما قتله ، ولو عرف أن هذه الملكة التى أهدت إليه نفسها وعرش زوجها هى أمه لما تزوجها . وإذاً فهو مجبر لامختار ، وإذن فهو لا يحتمل تبعة ولا يستحق لوما ، وهو فى حقيقة الأمر لا يعاقب نفسه حين يفقأ عينيه ويهاجر من وطنه ، وإنما ينفذ حكم القضاء ، ويخضع لسلطان الضرورة . لم يكن يملك إلا هذا ، ولكنه على ذلك ينكره ويثور عليه ، ويرى نفسه بريئاً أمام الآلهة وأمام القضاء

وكذلك نرى الإنسان يعرف نفسه أولاً ويعرف ضعفه ثانياً ، ويعرف أن هذا الضعف لا يأتيه من عند نفسه ، وإنما يأتيه من عند هذا السلطان الأعلى الذى يتحكم فيه ويصرف أمره كما يريد ، لا يستشيره ولا يستأمره ، وإنما يسخره لما يريد تسخيرا . والمهم بعد ذلك هو أن الإنسان يحقق هذا كله ، ويصارح القضاء بأنه غير ملوم .

ومهما يكن من شئ فقد ألقيت المسألة الخطيرة ، مسألة الصلة بين الإنسان وبين الآلهة ، بل مسألة الصلة بين الإنسان وبين القضاء . والذى يحدث بالقياس إلى أوديبوس هو بعينه الذى يحدث بالقياس إلى غيره من أبطال المأساة ، فهم جميعاً يمتحنون لا فى قدرتهم على الخير ولا فى ترجيحهم بين الحسنة والسيئة ، وإنما يمتحنون فى احتمالهم للمكروه ، وإذعانهم لحكم القضاء ، وثباتهم لما ينزل بهم من الملمات ؛ فمنهم من يذعن فى غير اعتراض ، ومنهم من يذعن فى شئ من المقاومة ، ومنهم من يود لو يثور ، فإذا أعجزته الثورة احتفظ بحريته كاملة بينه وبين نفسه ، وحمّل الآلهة والقضاء تبعة ما يتورط فيه من شر ، وما يجرى على يديه من أحداث .

فالمأساة إذن فى حقيقة الأمر ليست إلا لوناً من ألوان التشاؤم حين ينظر الإنسان إلى الصلة بينه وبين هذه القوة المتسلطة التى تحكم لا معقّب لحكمها . ومع ذلك فهذا اللون من ألوان التشاؤم ليس سواداً كله ، بل فيه شئ قليل أو كثير من الإشراق ؛ لأن فيه شيئاً قليلا أو كثيراً من الأمل الذى يأتى من

معرفة الإنسان نفسه ، ومن شجاعته عند البأس ، وقدرته على المقاومة ، وصبره على المكروه صبراً يأتيه من إرادته لا من شئ آخر . ومن هنا كانت المأساة اليونانية تصويراً لبؤس الإنسان من جهة ، ولبطولته من جهة أخرى .

وقد يخيل إلى الناس أن المأساة اليونانيــة هى وحدها الأدب الأسود فى الحياة العقلية اليونانية . ولكن شيئاً من التفكير اليسير يُظهرنا على أن السواد كان يجلل الأدب اليونانى كله فى ذلك العصر المجيد الذى أورث الإنسانية هذا التراث الخالد العظيم .

ففلسفة السفسطائيين فى القرن الخامس قبل المسيح لم تكن إلاّ نوعاً من التشاؤم ؛ لأنها كانت تنكر الحقائق ، وتقيم أمر الحياة كله على التخييل والخداع . لم يكن المهم عند الفلاسفة السفسطائيين أن يعرفوا الحق لأنهم يئسوا من معرفة الحق ، وإنما كان المهم أن يَلبِسوا الحق بالباطل ، ويخدعوا نظراءهم من الناس . وواضح جـدًّا أن الفلسفة التى تقوم على اليأس ليست من الإشراق ولا من السطوع فى شىء .

والملهاة اليونانية التى كانت تملأ الملاعب ضحكا وتخرج النظارة عن أطوارهم ، لم تكن فى حقيقة الأمر مشرقة ولا ناصعة ، وإنما كان إشراقها تكلفاً ونصوعها خداعا ؛ فهى كانت تُضحك النظارة من أنفسهم ، وتعبث أمامهم بما كانوا يكبرون من القيم ، وهى كانت تظفر منهم بالرضا وتضطرهم إلى الإعجاب . ومعنى ذلك أنها كانت تكشف لهم عما فى حياتهم الفردية والاجتماعية من السخف الذى لا يستحق منهم إعجابا ولا إكبارا ، وإنما يستحق منهم سخرية واستهزاء . فأرستوفان حين كان يُضحك الشعب من حكومة الشعب ، وحين كان يعبث بفلسفة الفلاسفة وسياسة الساسة وأدب الأدباء ، إنما كان يسخر ويحمل الأتينيين على أن يسخروا معه من هذه القيم الفلسفية والسياسية والأدبية التى كانوا يقدرونها ويكبرونها خارج الملعب صادقين فيما بينهم وبين أنفسهم أو كاذبين . لم يكن أرستوفان يزيد على أن يثبت للأتينيين أن ما كانوا يزهون به على المدن اليونانية ويزينون به حياتهم لم يكن إلا سخفاً وباطلا . ومن هنا نفهم ما يقال فى تاريخ الفلسفة من أن سقراط وتلاميذه إنما أنفقوا جهودهم الهائلة الخصبة ليقاوموا هذه النزعات السفسطائية التى تؤيس الإنسان من نفسه ، وتفسد الصلة بينه وبين آلهته ، وتدفعه إلى نوع من الفوضى لا ينتج له إلا العبث والشك

والاستهانة بكل شئ والانتقاض على كل سلطان . وليس يعنينى أن أبين الآن ما أتيح لسقراط وتلاميذه من الفوز بقدر ما يعنينى أن ألاحظ أن الجهود التى بذلها سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس لرد الإنسان إلى شئ من النظام والاستواء ، ولتنظيم الصلة بينه وبين هذه القوة العليا التى تدبر أمره هذه الجهود نفسها قد انتهت إلى الإخفاق . وقد يكون الأدب اليونانى فى عصر سقراط وتلاميذه بعيداً عن التشاؤم . ولكن الشئ المحقق هو أن هذا العصر قد انتهى آخر الأمر إلى تشاؤم الرواقيين والأبيقوريين وأصحاب الشك ، وعادت القضية الإنسانية سيرتها الأولى ، ووقف الإنسان من الآلهة موقفه القديم الذى كان يملؤه اليأس ، ويشيع فيه الإذعان الخالص أو الإذعان الذى تشوبه المقاومة أو الذى كان يدفع إلى الثورة الصريحة التى دفع إليها أبيقور وتلاميذه ، والتى أورثت الإنسانية فى العصر القديم أروع نماذج الأدب الأسود ، ذلك الذى يقطع الصلة بين الإنسان وبين آلهته ، والذى يعلّم الإنسان ألاّ يؤمن إلاّ بنفسه ، ولا يعتمد إلاّ عليها ، ولا يأمل إلاّ فيها ، والذى يعلّم الإنسان كيف يبرئ نفسه من الوهم ، ويخلصها من خوف الآلهة ، ويعصمها من رهبة الموت ، ويزهدها فى لذات الحياة ، ويأخذها بأن تنظر إلى حقائق الأشياء كما هى فى غير خداع ولا انخداع . والذين يقرءون « طبيعة الأشياء » للشاعر اللاتينى العظيم لوكريس يتبينون أن سقراط وأصحابه لم يقهروا الأدب الأسود إلا وقتاً قصيرا ، وأن هذا الأدب الأسود لم يلبث أن استأنف فوزه وانتصاره وتسلطه فى أشكال مختلفة متباينة على عقول الخاصة والعامة جميعاً . وواضح جدًّا أنى هنا لا أستقصى ولا أتعمق ، وإنما أكتفى بالإشارة والإجمال عن التلميح والتفصيل .

وقد يكون من الخير أن أتجاوز اليونانيين والرومانيين وأدبيهما العظيمين ، إلى أدب شرقى ما أظن أنه قد كان أقل منهما تصويراً لهذا الموقف الخطير ، موقف الإنسان العاقل من هذه المشكلة المعقدة ، مشكلة الصلة بينه وبين القضاء — وهو الأدب اليهودى . ويكفى أن يستمتع القارئ بالنظر فى سفر أيوب ليرى كيف ألقيت المسألة ، وكيف عرضت المشكلة ، وكيف ثار حولها الشك ، وكيف اقترحت لها الحلول ، وكيف انتهى أمرها بالإذعان لقضاء الله الذى لا يستطيع الإنسان أن ينفذ إلى أسراره ، ولا أن يتعمق حكمته البالغة

وليس أدبنا العربى بأقل من هذه الآداب القديمة حظًّا من الوقوف عند هذه

المشكلة والتأثر بها فيما أنتج الأدباء من الشعر والنثر ، وفيما أنتج الفلاسفة من الكتب والفصول . وكما ن الاضطراب الذى تعرضت له الأمة اليونانية فى القرن الخامس قد أنتج فيها الأدب الأسود الأول ، وكما أن الاضطراب الذى نشأ عن حروب الإسكندر وخلفائه وعن حروب الرومان قد أنتج الأدب الأسود الثانى عند أولئك وهؤلاء ، وكما أن المحن التى صُبّت على بنى إسرائيل قد أنتجت لهم الأدب الأسود فى عصرهم القديم ، فكذلك الاضطرابات التى تعرضت لها الأمة العربية بعد الفتوح بحكم الفتن والثورات قد أنتجت لها أدبها الأسود منذ القرن الأول للهجرة ، وظلت تنتجه لها إلى أن مات أبو العلاء[1].

فشعر الشيعة المضطهدين ، وشعر الخوارج الثائرين ، لا يروق لأنه يظهر الحياة جميلة خلابة ، ولا يعجب لأنه يظهر لنا محاسن هذا العالم ، وإنما يؤثر فى النفس لأنه يبين لنا أن هذه الحياة بعيدة كل البعد عن أن ترضى أو تسر ، قريبة كل القرب من أن تسخط وتسوء ؛ لأن الظلم عليها غالب والفساد فيها شائع ، ولأنها قد فقدت شيئاً خطيراً لا تطيب الحياة إلاّ به ولا تستقيم إلاّ عليه ، وهو العدل الذى يعطى كل ذى حق حقه ، ويسوى بين الناس فى مواجهة الحياة واحتمال خطوبها ، والاستمتاع بما فيها من نعيم ولذة ، والشقاء بما فيها من بؤس وألم . فالشيعة يطلبون العدل الذى يرد السلطان إلى مستحقيه من أهل البيت ، والذى يمكن الأئمة أن يملأوا الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً . وشعر الشيعة فى ذلك الوقت إنما يكتسب سواده وإظلامه من تصوير هذا الظلم الذى صُبّ على المختارين من أهل البيت ، لحرمهم الاستمتاع بحقهم ، وحرم الناس ما كانوا وحدهم قادرين على أن يشيعوه بينهم من العدل ، وعلى أن يسوسوهم سياسة تحملهم على الجادة ، وتسلك بهم السبيل الواضحة إلى نعيم الدنيا والآخرة جميعاً .

وشعر الخوارج بل أدب الخوارج كله ، لا يعجب ولا يروق إلاّ لأنه يصور ما ينقص حياة الناس من إقرار العدل فى الأرض ، وتحقيق المساواة بين المسلمين . وهم حين يتغنون بلاءهم فى الحرب ، وجهادهم لأصحاب السلطان ، وسفكهم لدماء المصانعين للحكام ، وبيعهم أنفسهم لله يجاهدون فى سبيله فيقتلون ويقتلون ،

(١) وأنا أحب دائماً أن أختم العصر الذهبى للأدب العربى فى الشرق بموت أبى العلاء . قد أكون مخطئاً فى ذلك أو مصيبا ، ولكنه موقف دفعت إليه ، ولعلى أن أبين ذات يوم مذهبى فيه .

لايصورون حياة ناصعة رائعة ، ولا عيشاً ناعماً سعيداً . والذين يؤثرون منهم القعود ، ويحاولون الاعتذار عن أنفسهم من إيثار العافية ، لايحبون الحياة لأنها خير فى نفسها ، ولا لأنها تتيح لهم نعيما يستحق أن يحرصوا عليه ، وإنما يؤثرون الحياة لأنهم يرونها وسيلة إلى دفع شر لايدفعه الموت ، وإلى تحقيق قليل من الخير قد لايعينهم الموت على تحقيقه . فهذا القاعد يؤثر الحياة بأن له بنات عاجزات يخاف عليهن البؤس والشقاء ، ويريد أن يعصمهن من الذل والابتذال . وهذا القاعد الآخر يؤثر الحيـاة لأنه يمتحن بها نفسه ويعوّدها احتمال المكروه ، والصبر على الفتنة ، والنفاذ من الخطوب . وهو يراها عبئاً ثقيلاً يتقرب إلى الله باحتماله ، ويتنقل بهذا العبء بين أحياء العرب فى البادية ، وبين مدنهم فى الحاضرة ، لعله أن يذيع فيهم كلمة الحق ، ولعله أن يحمل بعضهم على الخروج . فالحياة الواقعة بغيضة إلى الشيعة لأنها قائمة على الظلم . والحياة الواقعة بغيضة إلى الخوارج لأنها قائمة على الظلم أيضاً . وأولئك وهؤلاء ، وغير أولئك وهؤلاء ، يفكرون ويقدّرون ، ويلتمسون للظلم علله ، لعلهم يستطيعون أن يزيلوها فيتاح لهم إزالة الظلم . ويلتمسون إلى العدل سبله لعلهم يستطيعون أن يسلكوها فيتاح لهم تحقيق العدل . وهم حين يفكرون ويقدّرون يُلقون على أنفسهم هذه المسألة الخالدة : ما موقف الإنسان من القضاء والقـدر ؟ أحرٌّ هو فمن حقه ومن الحق عليه أن يحتمل التبعات ، ويخوض إلى الحق والخير والعـدل غمرات النضال والجهاد والموت ؟ أمجبر هو فينبغى له أن يستسلم وأن يذعن ، وأن يستقبل الحياة لا راضياً عنها ولا ساخطاً عليها ؛ لأنها لا تستحق رضا ولا سخطاً ، ولأن الرضا والسخط لا قيمة لهما إذا لم يصدرا عن إرادة حرة تستطيع أن تختار وأن تغير من شؤون الحياة مالا تحب ؟

وكذلك أُلقيت هذه المسألة على العـقل الإسلامى ، وشقى بها الناس قبل أن يتجاوز القرن الأول للهجرة ثلثيه .

فأما مسألة العدل ، فقد أُلقيت على العقل الإسلامى فى أيام النبى نفسه . وكان الإسلام هو الذى ألقى هـذه المسألة حين دعا إلى إنصاف الضعيف من القوى ، وإلى تحقيق المساواة بين المسلمين لاينبغى أن يتفاضلوا إلاّ بالتقوى . وقد عرض القرآن وعرضت سيرة النبى على المسـلمين صورة رائعة للعدل حببته إلى نفوسهم ، وزينته فى قلوبهم ، ودفعت فريقاً منهم إلى الغلو فى طلبه ؛

وإلى التشدد فى تحقيقه ؛ فوجد بينهم من أغضب النبى نفسه حين ألح عليه فى تحقيق العدل ، حتى قال له النبى : ويحك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ! ووجد بينهم من خاصم الخلفاء وأنكر سيرتهم وأذاقهم معارضة مؤذية ، ولقى منهم مقاومة مؤذية . فسعد بن عبادة ينفى نفسه من وطنه ويموت غريباً ؛ لأنه يرى أن الجماعة لم تعدل حين جعلت الخلافة إلى المهاجرين . وأبو ذر يضطر إلى أن يعيش وقتاً من حياته غريباً ، وإلى أن يموت غريباً ؛ لأنه ينكر سيرة عثمان وعماله فى أموال المسلمين .

وكذلك عرف المسلمون منذ القرن الأول للهجرة المشكلتين الخطيرتين اللتين شقى بهما الإنسان دائماً : مشكلة العدل الاجتماعى من جهة ، ومشكلة الصلة بين الإنسان وبين القضاء والقدر من جهة أخرى . وظهر أثر هاتين المشكلتين فى مقدار عظيم من الأدب الإسلامى ، حتى أصبح من الممكن أن نقول إن المسلمين قد عرفوا هذا الأدب الأسود قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة .

على أن هناك أدباً أسود آخر يستحق شيئاً غير قليل من العناية ؛ لأن مؤرخى الآداب العربية لم ينظروا إليه إلا هذه النظرة اليسيرة السريعة التى لا تحقق شيئاً ولا تتعمق شيئاً . فهذه الأزمة العنيفة التى ثارت بين الشعراء التقليديين فى العراق ، والتى أنتجت لنا هـذا الهجاء الرائع المروِّع بين الفحول الثلاثة ومن شايعهم من الشعراء . ما مصدرها ؟ وما غايتها ؟ وما طبيعتها ؟ أكانت لهواً سخيفاً يرجع كما يقول المؤرخون إلى هذه الخصومات السخيفة بين حيين من أحياء تميم ؟ أمن الحق أن الهجاء قد ثار بين الفرزدق وجرير لهـذا السبب اليسير البسيط الذى يذكره المؤرخون ؟ أمن الطبيعى أن تثار خصومة غير ذات خطر بين حيين من أحياء العرب فى البادية فتنشأ عنها هذه الأزمة الهجائية التى انتشرت فى بادية العراق وأمصاره ، كما تنتشر النار فى الحطب الجزل ، والتى فرضت نفسها على جميع البيئات العربية فى جميع أقطار الدولة ، ثم فرضت نفسها ، وما زالت تفرض نفسها ، على الأدب العربى كله إلى اليوم وإلى آخر الدهر ؟

ألا يمكن أن يكون هـذا الهجاء ظاهرة لما كان فى الحياة العربية فى ذلك الوقت من اضطراب خطير مصدره الانتقال من حياة جاهلية ساذجة إلى حياة إسلامية معقدة ، ومصدره أيضاً كل هذه المشكلات التى واجهها العرب حين أديل لهم من الفرس والروم ، وفتحت عليهم أقطار الدنيا ، وأتيح لهم سلطان

لم يكونوا يحلمون به ، وثراء لم يكونوا يستطيعون أن يحققوه فى أنفسهم ، ثم نظروا فإذا هذا السلطان تحتكره قلة ضئيلة من دون سائر العرب على ما كان لبعض قبائلها وأحيائها من سابقة فى الشرف والمجد ؛ ونظروا فإذا هذا الثراء الضخم يتاح لفريق دون فريق ، وإذا جماعة منهم ينعمون حتى يبطرهم النعيم ، وإذا جماعات أخرى منهم تحرم حتى يضطرها الحرمان إلى البؤس والاستجداء ، وإذا الحفيظة تملأ الصدور ، وإذا الغيظ يستأثر بالنفوس ، وإذا الحسد يفسد الصلات ، وإذا التنافس يجعل بعض الأصدقاء لبعضهم عدواً ؛ وإذا الحياة مظلمة يسبغ الحرمان عليها سواداً حالكاً بالقياس إلى بعض الناس ، ويسبغ الخوف عليها ظلمة قاتمة بالقياس إلى بعضهم الآخر ، وإذا بعض الناس يتتبع مثالب بعض ويحصى عليهم السيئات ، وإذا بعضهم الآخر يكيل لهم صاعاً بصاع ، وإذا الشر يشيع بين هذه الأحياء العربية ؛ لأن الله أخرجهم بالإسلام من الظلمات إلى النور ، ولكن الزمن لم يكد يتقدم حتى غشيتهم ظلمات جديدة من الفتن وما استتبعت من ظلم وعسف ، ومن تنافس حول أعراض الحياة ؟

وليس من الضرورى أن يكون الشعراء والذين كانوا يستمعون لهم حين ينشدون ، محققين لهذه المعانى كلها فى أنفسهم تحقيق الشاعر بها المسجل لها ، وإنما يكفى أن تكون هذه الحقائق واقعة فى نفسها مؤثرة فى نفوس الناس لتؤثر فى نظرتهم إلى أنفسهم أولاً ، وفى نظرتهم إلى الناس ثانياً ، وفى نظرتهم إلى الحياة كلها آخر الأمر . ولأمر ما يحرص العرب على أن يستقصى بعضهم مثالب بعض ، وعلى أن يحصى بعضهم على بعض السيئات ، وعلى أن يذكروا القديم ليحيوا منه ما يسوء الخصم ويسر الصديق ، فى نفس الوقت الذى بلغ فيه التنافس فى السياسة والسلطان وفى المال والثراء أقصى غاياته وأبعد آماده .

والشىء المحقق هو أن الفرزدق حين يهجو جريراً بهذه الخصلة أو تلك من الخصال البغيضة ، لا يريد شخص جرير وحده ، وإنما ينصب جريراً مثلا لقومه أولاً ، ولجميع الذين يتصفون بهذه الخصلة من الناس بعد ذلك . فهو لا ينحو نحو الفرد ، وإنما ينحو نحو الجماعة ونحو الجماعة فى أوسع حدودها . وتستطيع أن تقول مثل ذلك فى جرير حين يهجو الفرزدق ، وفى غير هذين الشاعرين من الهجائين فى ذلك الوقت . فهجاؤهم نوع من النقد العام ، ومن الاستقصاء لما كان فى الأخلاق من نقص ، ولما كان فى النظام الاجتماعى من عيب . وليس أدل على

ذلك من أن هذا الهجاء قد وجد صداه فى النفوس العربية كلها ، فتهالك العرب على روايته وحفظه واختصموا فى تقديره وفى تفضيل بعض الهجائين على بعض . وعنيت السياسة العليا للدولة بهذا الهجاء ، فآثر بعض الخلفاء وعمالهم جريرا ، وآثر بعضهم الفرزدق . واستطاع عبد الملك أن يؤثر جريراً على الفرزدق ، وأن يؤثر الأخطل على جرير . وليس لهذا كله معنى إلا أن تكون هناك صلة بين هذا الهجاء وبين حقائق السياسة التى كانت تدير فى قصور الخلفاء والأمراء .

فهذه العيوب التى يحصيها بعض الهجائين على بعض عيوبٌ اجتماعية لا فردية فى أكثر الأحيان . وهذه القصائد التى تفيض بهذا الهجاء ليست إلا صوراً قاتمة لحياة العرب فى العراق كما كان يراها الهجاءون . من هذه الصور ما يسوء ويملأ القلوب حزناً ، ومن هذه الصور ما يثير السخرية ويدفع إلى الضحك العريض . وقد رايت فى أول هذا الحديث أن الأدب الأسود ليس كله حزناً ، وأن من الملاهى المضحكة ما هو أشدُّ سواداً من المأساة . فالهجاء إذن فى ذلك العصر قد كان فنًّا من فنون الأدب الأسود ابتكره العرب الإسلاميون ابتكاراً قبل أن ينتصف القرن الأول . ولم يكن هؤلاء الهجاءون من الشيعة ، ولا من الخوارج ، وإنما كانوا من الجماعة المحافظة . وإذن فقد كان الأدب الأسود غالباً على حياة العرب أيام بنى أمية ، على عكس ما يقدِّر الذين يؤرخون الآداب العربية .

وما أريد أن أتجاوز العراق إلى الحجاز ، ولا أن أسأل عن لون الأدب الحجازى فى ذلك الوقت ؛ فقد بينت فى غير هذا الحديث أنه لم يكن صافياً ولا ناصعاً ، وأن غزل الغَـزِلين ولهو اللاهين إنما كان نوعاً من التسلى عن الهم ، والتعزى عن الخطوب ، والاستعانة بالحب الواقعى أو العذرى على نسيان ما كان أهل الحجاز يشقَـوْن به من فراغ فى الطبقة الغنية وحرمان فى طبقة الفقراء . ومعنى ذلك أن أدب الحجاز لم يكن أقل سواداً من ادب العراق .

ولم يكد القرن الثانى يتقدم حتى انتهت هذه الاضطرابات إلى غايتها ، فكانت الثورة ، وأُديل لبنى العباس من بنى أمية ، وأُديل للفرس من العرب . فهل خفى هذا كله على آثار الأدب الأسود وأنشأ مكانه أدباً أبيض ناصعاً جميلا ؟ مسألة فيها نظر ، وأحسبها تنتهى بنا إلى شك مريب ؛ فقد نشأ جيل جديد من الشعراء

والكتّاب ، استقبلوا فنوناً جديدة من الشعر والنثر . ولكن أكانت نفوس هؤلاء الأدباء مشرقة ؟ أكانت آثارهم صوراً لهذه النفوس المشرقة ؟ لقد لها أهل العراق فى القرن الثانى كما لها أهل الحجاز فى القرن الأول . وأكاد أعتقد أن لهو أهل العراق لم يكن أقل سواداً من لهو أهل الحجاز ؛ فقد خيبت الثورة آمال كثير من المثقفين الذين كانوا ينتظرون منها خيراً كثيراً . ومن أجل ذلك وجدت الدولة العباسية الجديدة مقاومة من أنصارها بعد أن ظفرت بخصومها ، مقاومة بالسيف أحياناً وباللسان دائماً . فالمنصور يقتل أبا مسلم ، ويمكر بعلى ابن عبد الله حتى يقتله . والشيعة العلويون يعارضون الدولة الجديدة بسيوفهم وألسنتهم كما كانوا يعارضون الدولة القديمة . والخوارج ماضون فى ثورتهم يظهرون ليستخفوا ويستخفون ليظهروا . والمطالبة بالعدل ما زالت قائمة ، والنظر فى المشكلات الفلسفية يزداد قوة وتعمقاً وانتشاراً . وبشار يهجو المنصور والمهدى . وابن المقفع يترجم الكتب فى التخويف من السلطان ، وينتهى أمره إلى موت شنيع . والزندقة تشيع فى أمصار العراق ، والدولة تنصب لهذه الزندقة وأصحابها حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، وكثير من المثقفين الممتازين يقدّمون وَقُوداً لهذه الحرب . وأظن أن شيئاً من هذا كله ليس من شأنه أن يدعو إلى إشراق النفوس ولا إلى إنتاج الأدب المشرق . ونظرة سريعة إلى الأدب الذى كان ينشأ فى ذلك الوقت تظهرنا على أنه لم يكن فى جملته صفواً ولا عفواً ولا رائقاً ؛ لأن حياة الأدباء لم تكن صافية ولا رائقة ؛ فقد قُتل بشار وقُتل ابن المقفع وقتل غيرهما وسُجن آخرون . فإذا رأيت ابن المقفع يخوِّف من السلطان ، وإذا رأيت بشاراً يهجو السلطان ، ويسخر من الرعية ، وينكر الدين ، أو يفضل النار على الطين والشيطان على الإنسان ، وإذا رأيت أبا العتاهية يزهِّد فى الحياة ويبغِّضها إلى الناس ، وإذا رأيت أصحاب المجون يسرفون على أنفسهم ويسخرون من كل شىء فى غير تحفظ ولا احتياط — إذا رأيت هذا كله فسل نفسك : أكانت الحياة رائقة تنتج أدباً رائقاً ، أم كانت قاتمة تنتج أدباً قاتماً شديد الإظلام ؟

وما ينبغى أن تخدعنا ظواهر الأمور عن حقائقها ؛ فنحن نرى فى الشعر مدحاً للخلفاء والوزراء وقادة الدولة وسادتها ، فنستنبط من هذا المدح ، كما تعود مؤرخو الآداب أن يستنبطوا ، أن الأدباء كانوا راضين عن الخلفاء والوزراء ،

وعن القادة والسادة ، وأنهم كانوا يهدون إليهم المدح مخلصين . ونحن نقرر فى الوقت نفسه أن المدح كان يشترى بالمـال ، وأن الشعراء كانوا يتنافسون فى إرضاء القادرين على منح الجوائز الضخمة . ثم نحن لا نلائم بين هاتين الحقيقتين الواقعتين، أو لا ننتهى من هذه الملاءمة إلى غايتها ، فنقرر حقيقة واقعة ثالثة وهى أن كثرة هذا المدح لم تكن إلاّ رياء ووسيلة إلى كسب الحياة ، وإلى كسب ما يحتاج إليه الأحياء من ألوان الترف والنعيم . وليس أدل على ذلك ، إن احتاج ذلك إلى دليل، من أن بشاراً كان يمدح الخلفاء والسادة ليأخذ جوائزهم ، وكان يهجوهم إذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه .

ونحن نرى فى شعر الشعراء فى ذلك العصر لهواً وعبثاً ومجوناً ، فنستنبط من هذا كله متعجلين أن الحياة كانت رائقـة شائقة وجميـلة خلابة ، وننسى أن الإسراف فى العبث والغلو فى المجون والإغراق فى اللذاتّ ، كل ذلك لا يدل إلا على اختلال الموازين وفساد القيم ، وانحراف الناس عن الجادة ، وحاجتهم إلى أن ينسوا أنفسهم ويتسـلوا عن همهم . وأقل ما يمكن أن تدل عليـه موجة الاستهتار التى اكتسحت بيئات الأدباء فى البصرة والكوفة وبغداد ، هو أن هؤلاء الأدباء كانوا قد اتجهوا إلى لون من ازدراء التقاليد والاستخفاف بالسنن الموروثة والاكتفاء أو الاستعانة بانتهاز الفرص على احتمال الحياة .

ونحن إذا استقصينا الشعر الذى كان يقال فى ذلك العصر رأيناه ينحل إلى مدح يصوِّر الرياء فى جملته ، وإلى هجاء يصور ما فى الحياة من خلال تستحق المقت ، وإلى مجون يصور الحاجة إلى الهرب من هذه الحياة والتخفف من أثقالها ، ثم إلى زهد يصور النظر إلى الحياة على أنها جِـدٌّ ولـكنه جد يشيع اليأس فى النفوس ، ويدفع العاقل إلى أن ينسى حاضره ويتسلى عن يومه ليفـكر فى غده ، وليستعد لما يهيأ له بعد الموت .

ومع هذا كله فقد أخذ العقل الإسلامى يظهر عناية شديدة بالمشكلة الفلسفية الـكبرى ، مشكلة الاختيار والجبر ، وما تستتبع من مشكلة الأمل واليأس ؛ كما أخذ العقل الإنسانى يتعمق النظر فى شؤون الحياة اليومية على اختلاف فروعها ، فينكر أكثرها ، ولا يكاد يعرف منها إلا القليل . ونـكاد نحس منذ هذا العصر أن التشاؤم قد أخذ يتصور مذهباً مستقلا له عماده الفلسفى ، وله فى الوقت نفسه وسائله الأدبية . فلم يكن بشار متفائلا ، بل لم يكن بشار من التفاؤل فى شىء ،

وإنما كان ساخطاً متشائماً ، يقيم سخطه وتشاؤمه على إخفاقه فى إرضاء عقله حين التمس إرضاء هذا العقل فى مذاهب الفلاسفة والمتكلمين ، فلما لم يظفر بشئ صار إلى هذا الشك البغيض .

وكل ما فى الأمر أن التشاؤم يكون باسما أحياناً ، وعابساً أحياناً أخرى ، وقد يتحول ابتسامه إلى ضحك شيطانى عريض ، وقد يتحول عبوسه إلى يأس من كل شىء وقنوط حتى من رَوْح الله ، يختلف هذا كله باختلاف المزاج والطبع والبيئة . وقد كان تشاؤم بشار هادئاً باسماً أحياناً ، وشيطانيًّا مقهقهاً فى أكثر الأحيان. وليس لهو بشار وتصويره لهذا اللهو فيما روى لنا من شعره إلا مظهراً لهذا التشاؤم . وأحسب أن العابثين من أصحاب بشار كانوا يذهبون مذهبه حين يحسون الإخفاق فى إرضاء العقل ، وينتهون إلى الشك فيستهزئون بكل شىء ، ويسخرون من كل شىء ، وينتهزون فرص الحياة . وما أرى إلا أن حماداً ، ومطيعاً ، ووالبة وأمثالهم من أصحاب الخلاعة والمجون ، قد تعرضوا لنفس الأزمة الفلسفية التى تعرَّض لها بشار ، وخرجوا منها على نفس النحو الذى نحاه بشار حين خرج من أزمته . ومن شباب هذا العصر من تعرَّض لمثل ما تعرض له بشار ، ولكنه لم يخرج من أزمته إلى اللهو والمجون والشك ، وإنما خرج منها إلى الجد ، فعنى بفنون من الحياة يستطيع العقل أن ينتج فيها دون أن يتعرض لمحنة ، أو يواجه هذه المشكلات التى لا حل لها . والمؤرخون يحدثوننا عن فقهاء وزهاد عاصروا بشاراً وأصحابه ، وسلكوا معهم طريقهم الفلسفية ، وكادوا يتعرضون لليأس ، فشغلوا أنفسهم بالفقه والزهد والنسك عن مواطن الزلل هذه .

ثم يتقدم القرن الثالث وإذا أمور المسلمين تزداد تعقداً ، ويشتد فيها الحرج ، وينتشر فيها الاضطراب . ثقافة ممتازة تتغلغل إلى بعض طبقات الشعب ، وثراء ضخم يزداد انحصاره فى أيدى قلة ضئيلة مستأثرة بالحكم ، وضعفٌ للسلطان السياسى ، وتعمق لمشكلات الفلسفة ، وشعور واسع عميق بهذا التفاوت المنكر بين الطبقات ، ثم تبرم بهذا التفاوت ، ثم إنكار له ، ثم ثورة عليه ، وإذا ثورة الزنج توشك أن تثلّ عرش الخلافة ، وأصحاب الأقاليم ينتهزون هذا الضعف فيستقلون بأقاليمهم ، والأدباء يرون هذا كله ويفكرون فيه ويتأثرون به ، ومنهم من شارك فى بعضه ، وإذا هم يصورون هذا فيما يقولون

من شعر وما يكتبون من نثر . وقد يكون ابن الرومى مضطرب الأعصاب ، فاسد المزاج ، قد خُلق مهيأ للتشاؤم ، ولـكن الشيء الذى ليس فيه شك هو أن الحياة من حوله لم تـكن تصده عن التشاؤم وتغريه بالتفاؤل ، وآية ذلك أنه أنفق حياته متشائماً ، وأن حياته هذه المظلمة قد انتهت به إلى أن يموت مسموماً . وقد يكون ابن المعتز قوى الأعصاب ، معتدل المزاج ، قد خلق مهيأ للتفاؤل ، وحاول أن يتفاءل ، ولـكن الشيء الذى لا شك فيـه أنه لم يجد فى الحياة من حوله ما يغريه بالتفاؤل العميق، وإنما وجد مايسليه عن هموم الحياة وأحزانها ، فتسلى بالشعر والعلم والأدب وشيء من الترف . ثم بدا له ذات يوم أن يواجه الحياة كما تعود بنو أبيه أن يواجهوها ؛ فلم يكد يفعل حتى أدركته حرفة الأدب وقُتل قبل أن تتم له البيعة بالخلافة .

ولا يكاد القرن الرابع يُظل العالم الاسلامى الشرقى ، حتى يكون الـكتاب قد بلغ أجله ، وحتى تصبح حياة المسلمين فى الشرق شرًّا كلها ، لا يتفاءل فيها إلا خفاف العقول ، أو الذين انتهى بهم الشك الفلسفى إلى أقصاه . فأما الذين لهم حظ من عقل راجح وبصيرة نافذة فمتشائمون ؛ لأن كل شيء يضطرهم إلى أن يتشاءموا . لم تكد ثورة الزنج تخمد حتى ثارت فى أعقابها ثورة القرامطة ، وإذا اللهب ينتشر فى الشرق العربى كله . وفى الوقت نفسه تنشأ دولة الشيعة فى شمال إفريقية ، ويكاد الشرق الأعجمى ينفصل عن الخلافة انفصالا . وما ينبغى أن نطيل فيما لا يحتاج إلى الإطالة . فقد كان كل شيء فى ذلك العصر يمهد لنشأة الشاعر المتشائم العظيم أبى الطيب المتنبى الذى لم يتشاءم بعقله ولسانه فحسب ، وإنما همّ أن يتشاءم بسيفه فلم يفلح ، وهو على كل حال مؤسس التشاؤم الفلسفى المنظم فى الشعر العربى . أسسه قبل أن يبلغ العشرين ، وأتم بناءه قبل أن يدركه الموت . نظر إلى الحياة اليومية فضاق بما كان يملؤها من فساد ، وضاق بالنظام السياسى والاجتماعى الذى كان يعرّض الناس لهذا الفساد ، ثم احتقر الناس لأنهم قبلوا هـذا النظام أو أذعنوا له ، ثم سمت همته المتشائمة إلى ما هو فوق الناس وفوق نُظمهم السياسية والاجتماعية ، وإذا هو يسأل عن الموت ، ويسأل عن الحياة ، ويسأل عن الحرية ، ويسأل عن الجبر ، وإذا هو ينكر الحياة إنكاراً ويراها شرًّا قد أكره الإنسان عليه إكراهاً .

فلم يكن أبو العلاء إذن تلميذاً للمتنبي فى فنه الشعرى وحده ، وإنما كان

تلميذاً له فى تشاؤمه الفلسفى قبل كل شئ . وقد بينت فى غير هذا الحديث أن أكثر أصول الفلسفة العلائية المظلمة قد سبق إليه المتنبى ، فألم به إلمامات قصيرة دون أن يحاول تفصيله أو تنفيذه . وجاء أبو العلاء بعد موت المتنبى بعشر سنين فلم يكد يفقه الشعر حتى قرأ المتنبى وتأثر به ، وجعل يلقى على نفسه الأسئلة التى كان يلقيها المتنبى على نفسه . وقد أحاطت بأبى العلاء ظروفه المعروفة ، فقاوم التشاؤم ما وجد إلى مقاومته سبيلا ، ولكنه لم يبلغ الثلاثين حتى خطا الخطوات العقلية والعملية التى لم يتح للمتنبى أن يخطوها ، وإذا هو يتخذ من التشاؤم عقيدة وسيرة فى وقت واحد ، وإذا هو يذهب فى تشاؤمه نفس المذهب الذى يذهبه كفكا المتشائم الأوربى الحديث فيما كتب بين الحربين العالميتين ؛ فيرى أن نفسه سجينة فى جسمه ، وأن جسمه سجين فى الأرض ، أو قل فى العالم . فأبو العلاء يحدثنا بأن الإنسان لا يستطيع أن يأبق من ملك الله ، فيخرج من أرضه وسمائه . فنفسه سجينة فى جسمه إذن ، وجسمه سجين فى هذا العالم المحدود مهما تتسع أرجاؤه وتبعد آفاقه . فما يمنع أن يجعل هذا السجن الفلسفى حقيقة عملية واقعة ، وأن يلزم نفسه سجناً ضيقاً لا يعدوه ، وأن يعيش فى هذا السجن هذه العيشة الغليظة التى يضطر إليها السجناء .

هذا الشعور العلائى هو الذى وجده كفكا وصوره فى كثير من آثاره تصويراً مشابهاً أشد المشابهة لتصوير أبى العلاء فى اللزوميات ، وفى الفصول والغايات ، ولكنه لم يلزم نفسه داراً ضيقة محدودة كما فعل أبو العلاء .

فأنت ترى من هذا كله أن التشاؤم الفلسفى فى الأدب بعيد كل البعد عن أن يكون ظاهرة موقوتة بعصر من العصور ، أو مقصورة على جيل من الأجيال ، أو محصورة فى أمة من الأمم . وأنت ترى أيضاً أن ما يسميه الأوربيون الآن أدباً أسود ليس له من الجِدّة والطرافة هذا الحظ الذى يتصوره بعض الكتاب الغربيين ؛ فقد تشاءم اليونان ، وتشاءم الرومان ، وتشاءم اليهود ، وتشاءم العرب . ولست أشك فى أنك لاتكاد تدرس أدباً من الآداب على اختلافها وعلى اختلاف العصور والبيئات والأجيال إلاّ رأيت فيه ظلاً من التشاؤم قويًّا أو ضعيفاً ، ممدوداً أو مقبوضا ، يختلف هذا كله باختلاف ما لأصحاب هذا الأدب من تعمق للثقافة ، ومحاولة لحل المشكلات الفلسفية الخالدة . ومصدر هذا فيما يظهر أن الفطرة الإنسانية مركبة من عناصر مختلفة يمتاز منها عنصران

متناقضان : أحدهما طموح لا حدّ له يدفعه إلى أمام ، والآخر قصور لا حد له يردّه إلى وراء أو يقفه فى مكان لا يعدوه ؛ فهو دائماً موضوع للنزاع بين هذين العنصرين . فإن كان غافلا أو محدود الثقافة قبل الحياة كما هى ، فاندفع حين تدفعه الظروف ، ورجع أدراجه حين تضطره إلى الرجوع ، ووقف مكانه حين تكرهه على الوقوف . وإن كان ذكىّ القلب ، نافذ البصيرة ، دقيق الحس ، بحث واستقصى ، وساءل عن مكانه من هذين العنصرين اللذين يتجاذبانه ، وساءل كذلك عن حريته أو عن حظه من الحرية التى تتيح له إن أراد أن يستجيب للعنصر الذى يقوده إلى أمام ، أو أن يستسلم للعنصر الذى يردّه إلى وراء ، أو أن يثور على العنصرين جميعاً فيمضى كيف يشاء وحيث يشاء . ولا يكاد يسأل عن هذا الحظ من الحرية حتى يدركه التشاؤم ؛ لأنه يرى أن هذه الحرية محدودة بحدود لا سبيل إلى تجاوزها ، منها ما يأتى من الطبيعة ، ومنها ما يأتى من الجماعة . وهو قد يحاول الثورة على هذه الحدود أو تلك ، ولكنه يرَدّ آخر الأمر مخذولا مدحوراً .

وقد لاحظ أبو العلاء كما لاحظ المتشائمون من قبله ومن بعده أنه دفع إلى الوجود دون أن يُستأمر أو يستشار ، وأنه يدفع إلى الموت دون أن يستأمر أو يستشار أيضاً . فسأل نفسه وسأل غيره ، كما سأل المتشائمون من قبله ومن بعده : لماذا دفع إلى الحياة ؟ ولماذا يدفع إلى الموت ؟ وما الذى يراد منه بين الحياة والموت ؟ وما الذى يراد به بعد أن يموت ؟ وهو لم يتلق على هذه الأسئلة جواباً يرضى عقله ويشفى حاجته إلى الوضوح ، فوقف موقف الحائر الذى يضيق بكل شئ ، ويضيق بنفسه قبل كل شئ ؛ لأنه لا يفهم علة ولا غاية لشئ من الأشياء .

وقد أراد أبو العلاء أن يمتحن حريته ليعرف أحقٌّ هى أم باطل ، ففرض على نفسه ألواناً من الشدة المادية والفلسفية والفنية ، وخيل إلى نفسه أنه إن احتمل هذه الشدة وصبر لها كما ينبغى فقد يدل ذلك على أن له من الحرية حظّاً . ولكنه لم يكد ينفق أعواما فى احتمال هذه القيود التى فرض على نفسه وتمرن على احتمالها ، حتى شك فى حريته ، ثم استيأس منها ، ثم اعتقد أنه دفع إلى هذه القيود بنفس القوة القاهرة التى دفعته إلى الحياة ، والتى تدفعه إلى الموت .

وقد يتاح لى ، وقد يتاح لغيرى من الدارسين لأبى العلاء ، أن نستقصى أصول فلسفته المتشائمة ، وأن نوازن بينها وبين فلسفة المتشائمين المحدَثين . وأكبر

الظن أننا سنصل إلى نفس النتيجة التى وصلنا إليها حين وازنّا بين الفلسفة العلائية المتشائمة ، وبين فلسفة المتشائمين القدماء ، وهى أن المحدثين لم يكادوا يزيدون على أصول الفلسفة العلائية شيئاً ، ولكنهم زادوها تفصيلاً وتوضيحاً ، كما أن أبا العلاء لم يزد على فلسفة المتشائمين القدماء شيئاً وإنما وضّح منها الغامض ، وفصّل منها المجمل . أتيح له من الثقافة والتجربة ما لم يتح للذين سبقوه ، كما أتيح للمتشائمين المحدثين من الثقافة والتجربة مالم يتح لأبى العلاء .

فالمشكلات التى تدفع إلى التشاؤم واحدة على اختلاف العصور والأجيال والبيئات . ولكن الوسائل التى تتخذ لمواجهتها ومحاولة حلها ، هى التى تختلف باختلاف حظ العقل من الرقى ونفوذه إلى أسرار الطبيعة ودقائق الحياة . والغريب أن هذه المشكلات لم تزل قائمة لم تجد لها الإنسانية حلاً على اختلاف ما أتيح للإنسانية من رقى العقل ، وتقدم العلم ، واتساع المعرفة ، واختلاف وسائل البحث والاستقصاء .

ومن يدرى ! لعل من الخير ان تظل هذه المشكلات غامضة ملتوية لا سبيل إلى حلها . فأقل ما لهذا الغموض من المزايا أنه أنتج لنا هذه المحاولات الرائعة ، وأتاح لنا هذه الآداب الرفيعة التى نفزع إليها كلما ضقنا بالحياة أو ضاقت بنا الحياة ، ونفزع إليها كلما غرّتنا الأمانى وكادت الآمال تخدعنا عن أنفسنا ، وكاد رقى الحضارة يورطنا فى البطر والأشر . فنحن محتاجون إلى أن نسعى وإلى أن نتقدم مبطئين ومسرعين ، ولكننا فى الوقت نفسه محتاجون إلى عاصم يعصمنا من الغرور ، ويمسكنا أن نندفع فى إيماننا بأنفسنا إلى غير حد . ولست أدرى إلى أى تهور تندفع الإنسانية ، لو أنها وجدت لهذه المشكلات حلولاً نهائية مقنعة يطمئن إليها الناس جميعاً . أكبر الظن أن الإنسانية إن أتيحت لها هذه الحلول فستضطر إلى حياة راكدة خامدة ، لا طائل فيها ولا غناء . وما قيمة الحياة إذا خلت من الإشفاق والخوف ، ومواجهة المشكلات ومحاولة التخلص منها ، وإلقاء الأسئلة والتماس الأجوبة لها ! وأى غناء فى هذه الجماعات الحية الميتة التى وجدت لكل مشكلة حلاً ، ولكل سؤال جواباً ، واطمأنت إلى حظ من العلم التقليدى المغلق الذى يتعرض للنقص ولا يتعرض للزيادة ! والغريب أن التجارب تمر بالناس ، وأن العصور تختلف عليهم ، وأن الرقى يتاح لهم ، وأنهم يظفرون بالتقدم بين حين وحين ،

ولكنهم على ذلك كله يقفون من الفلسفة المتشائمة مواقف متشابهة على ما بين الأجيال والعصور من الاختلاف .

فقد ضاق القدماء بتشاؤم أبيقور ، واشتد نقدهم له ونعيهم عليه . وضاق المسلمون بتشاؤم أبي العلاء فأكفره منهم من أكفره ، وما يزال كثير منهم إلى الآن يرى تشاؤمه شرًّا ، ويخاف منه على نشاط الأفراد والجماعات . وقد تعرّض المتشائمون الأوربيون لمثل ما تعرض له أبيقور وأبو العلاء ، فضاق بهم من ضاق وأنكرهم من أنكر ، وخيف من تشاؤمهم على عقول الناس ، وعلى نشاط الأفراد والجماعات ، وعلى إيمان الشباب بالحياة وما ينبغى أن يملأ قلوبهم من الأمل والثقة بالنفس .

ولعل الذى حملنى على إملاء هذا الحديث الطويل إنما هو من جهة مظهرٌ من مظاهر الفلسفة الحديثة فى التشاؤم ، ومظهر من مظاهر المقاومة لهذه الفلسفة من جهة أخرى . فقد يخيل إلىّ أن أوربا لم تشهد قط موجة تشاؤم كهذه الموجة التى كانت تلاعبها وتداعبها بعد الحرب العالمية الأولى ، والتى طغت عليها طغياناً جارفاً فى هذه الأيام . وهذا التشاؤم الأوربى الحديث هو الذى أنتج ما يسميه الفرنسيون فى هذه الأيام بالأدب الأسود . والحق أن هذا الأدب مختلف أشد الاختلاف ، متنوع أشد التنوع ، كما كان أدب أبى العلاء مختلفاً متنوعاً . فقد عرض أبو العلاء علينا تشاؤمه شعراً ونثراً ، وعرضه علينا فلسفة ووعظاً ، وعرضه علينا نقداً للسياسة والاجتماع ، ونقداً للأخلاق والديانات ، وعرضه علينا واقعاً وخيالا . ومن يدرى ! لعله عرضه فى ضروب أخرى من الفن لم تصل إلينا ؛ لأنا لم نحفظ من أدب أبى العلاء إلا القليل .

والأدب الأوربى مختلف على هذا النحو ، تراه يعرض فلسفة يسلك فيها طرق الفلاسفة ، وتراه يعرض تمثيلا يشهده النظارة فى الملاعب ، وتراه يعرض قصصاً منها الواضح الجلى ، ومنها الغامض الرمزى ، ومنها ما يكون بين ذلك فيه كثير من الوضوح وفيه كثير من الغموض .

وقد أنفقت أكثر الوقت الذى قضيته فى باريس معاشراً لطائفة من هؤلاء الأدباء السود ، لم ألق منهم أحدا ، ولكنى قرأت لهم كثيرا ، ووجدت فى قراءتهم اللذة العليا أحياناً ، والضيق الشديد أحياناً أخرى ، والاشمئزاز الذى تنقبض له النفس فى كثير من الظروف . وقد تعودت والحمد لله بفضل أبى العلاء أن أعاشر

المتشائمين ، فلا أضيق بتشاؤمهم لأنه مظلم ، أو لأنه يسئ رأى الناس فى الحياة . ولكن عند الكتّاب الاوربيين والأمريكيين لونا من التشاؤم بغيضاً حقًّا لا أدرى أيرفع الأدب أم يخفضه . وقد كدت أملى لا أدرى أيتصل بالأدب أم يبعد عنه أشد البعد . فمن التشاؤم الحديث ما يحاول عرض الحياة الإنسانية الواقعة كما هى ، يصورها فى أبشع صورها ، ويعرض منها لأشياء لم يكن الأدب يعرض لها من قبل إلاّ عند القدماء من اليونان والرومان والعرب . وقد كنا نظن أن الأدب العالمى الحديث قد استطاع أن ينقى نفسه من هذه الأوضار ويرتفع بها عن هذه النقائص ، وكنا نلتمس للقدماء العذر ، ونجد هذا العذر فى أنهم كانو قدماء لم يبلغوا من الحضارة ومن ترف العقل والشعور ما بلغه المحدثون . ولكن الأدباء المتشائمين فى هذا العصر يريدون أن يصوروا الواقع ، فلا يصدّهم عن تصوير هذا الواقع شئ ، ولا يجدون فى صدورهم حرجاً من أن يصوروا أشياء يريد الإنسان المتحضر عادة أن يخفيها على نفسه . ويكفى أن ينظر القارئ فى آثار چان پول سارتر الفرنسى ، وفى آثار ميلر الأمريكى ، ليبغض هذا النوع من الأدب الذى لا يعتمد على فن مترف ، ولا يتجه إلى ذوق مرهف ، وإنما هو أدب غليظ يصور حياة غليظة ، ويتجه إلى عقول لا تحفل بالذوق ، ولا بالفن ، ولا بالشعور .

وهناك أدب متشائم ولكنه رفيع ؛ لأنه لا ينحط إلى تصوير الطبيعة الغليظة ولا ينزل إلى تصوير الغرائز الجامحة ، وإنما يصور الواقع من حياة الناس فى غير مظاهرها البشعة ، كما يصورها غفلة الغافل ، وعقل العاقل ، وموقف هذا وذاك من المشكلات الفلسفية والسياسية والاجتماعية العليا . وأنت تجد هذا عند چان پول سارتر نفسه وإن كان يؤذيك ما تفجأ به بين حين وحين من هذا الأدب الغليظ الذى تَزْوَرّ عنه النفس وينبو عنه الذوق . وأنت تجد هذا عند ألبير كامو حين يعرض عليك تشاؤمه قصصاً وتمثيلا وفلسفة . وأنت تجد هذا عند كفكا حين يعرض عليك تشاؤمه فى قصصه الرمزى الغامض الرفيع ، وفى خواطره التى تملأ يومياته فلسفة وفنّا .

فهذا هو مظهر الاختلاف فى الأدب الأسود الحديث . فأما مظهر المقاومة لهذا الأدب الأسود فيشهده من يقرأ الصحف والمجلات الفرنسية . وربما كان من أطرف أشكاله هذا الحوار الذى اتصل بين الشيوعيين ، أو قل بين اليساريين

من جهة ، والمعتدلين من جهة أخرى ، حول آثار كفكا أتحرق أم لا تحرق .
وواضح جدًّا أن الإحراق هنا ليس إلا رمزاً . فالمسألة التى يختلف فيها الأدباء الفرنسيون اليساريون والمعتدلون هى هذه : أتباح قراءة كفكا للشباب أم تحظر عليهم .

فأما المعتدلون فيؤثرون الحرية على كل شيء ويثقون بقدرة الشباب على مقاومة ما يشيع فى آثار هذا الكاتب من اليأس الذى يثبط الهمم ، ويفل العزائم ، ويميت القلوب ، وقد يدفع إلى الانتحار . وأما اليساريون فيرون أن الحياة أمل كلها ، وأن تحقيق الآمال محتاج إلى الإيمان ، لا إلى الشك ، وإلى الإقدام لا إلى الإحجام ، وإلى العزم الصادق والهم البعيد ؛ وهم من أجل ذلك يشفقون على الشباب من هذا الأدب الأسود الذى يجعل الحياة كلها سواداً .

وواضح كذلك أن الكلمة الأخيرة ستكون للحرية دائماً ؛ فلم تفلح قوة من القوى فى محاربة الرأى ، ولم تستطع النار مهما تكن مضطرمة شديدة الالتهاب أن تحرق كتاباً ، وهى قد تحرق ورقاً وحبراً ، ولكن الدخان الذى يثور من هذا الحريق يضاعف الإغراء بالقراءة ، ويملأ القلوب فتوناً بهذه الكتب التى حرقت ولكن لم تمس روحها النار . ولست أعرف إغراء بالأدب أقوى من محاربته . ولست أعرف إحياء للرأى أقوى من اضطهاده . فلن يحرق كفكا ، ولن تحرق آثار چان پول سارتر ، وإن كانت آثار هذين الكاتبين قد دفعت بعض الشباب إلى الانتحار ، ودفعت بعضهم إلى اقتراف الجرائم . ولن يكون القرن العشرين شرًّا من القرن الثامن عشر والتاسع عشر ؛ فالناس يعلمون أن قصة ڤرتر قد دفعت غير واحد من الشباب إلى الموت ، ولكنها لم تحرق ، ولم تحظر على القراء ، والشباب يقرءونها الآن أو يشهدونها فى ملاعب التمثيل ، فلا تلقى فى نفوسهم يأساً ، ولا تحبب إليهم الموت ، وإنما ترسم على ثغورهم ابتسامات لعلها لا تخلو من بعض السخرية .

وكذلك يقاوم الأدب الأسود الحديث كما كان يقاوم الأدب الأسود القديم .

ولكنك توافقنى بعد هذا الحديث الذى طال حتى بلغ الإملال على أن التشاؤم الأوربى الحديث كغيره من التشاؤم القديم ، قد أنشأته ظروف متشابهة تخرج متشابهاً فى أصوله وصوره ونتائجه وموقعه من نفوس الناس .

وإذا كان لهذا الحديث كله مغزى يحسن أن أقف عنده ، وأن أتمنى أن

يتنبه إليه الأدباء المحدثون ، والقراء المحدثون أيضاً ، فهو أن الأدب الحديث مهما يختلف ومهما تتباين صوره ، ليس إلا امتداداً واستمراراً للآداب القديمة ، وأن الرقى الأدبى الصحيح محتاج إلى ألا يقطع الأدباء والقراء صلتهم بالقديم . ذلك أحرى أن يعصمهم من الغرور ، ويحميهم من أن يظنوا بأنفسهم الإعجاز والابتكار ، على حين أنهم قد أضافوا الشيء الكثير إلى ما ترك القدماء ، ولكنهم لم يعجزوا ولم يبتكروا ، وإنما جهلوا إنتاج من سبقهم فغلوا فى تقدير أنفسهم غلوًّا شديداً . ورحم الله أبا العلاء ؛ فقد كان شابًّا فى أكبر الظن حين قال :

وإنى وإن كنتَ الأخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

طه حسين

المصانعة

وسيلة جديدة للاستثمار الصناعى

فى العالم كله من الناحية الاقتصادية والاجتماعية غليان . وفى تلك البلاد التى اجتاحتها الحرب ، وأنزلت بمقوماتها الاقتصادية والخلقية أقسى ما أنزلت من التخريب والتدمير ، حركات إلى الخروج من المأزق خلال دعوة إلى جمعيات تأسيسية تصدر للجماعة دستورا جديدا ، لا من الناحية الساسية وحدها ، بل من الناحية الاجتماعية أيضاً ، واتجاهات جديدة تملها الانتخابات الأخيرة التى جاءت فى مواعيدها ، أو على أثر الحرب بعد أن طال انتظارها . وبين تلك البلاد المتلمسة إنقاذا مما حل بها ، فرنسا وانجلترا . وقد اتجهتا — أولاهما خلال انتخاباتها الجديدة لجمعية تأسيسية تضع لها دستورا جديدا لجمهوريتها الرابعة ، والأخرى خلال مجلس العموم الذى تمخضت فيه الكثرة الاشتراكية عن فوز حزب العمال فى الانتخابات العامة الأخيرة — إلى فكرة التأميم ونفذتاها فى بنك الدولة وفى وسائل توليد القوات المحركة كالفحم فى انجلترا ومحطات الكهرباء فى فرنسا .

ولا شك أن إجماع المفكرين لما ينعقد على هذا التيار الجديد ؛ فلا يزال للقديم أنصاره ، ولا يزال للقابضين على السلطان الاقتصادى من القوة مالا يتنحون به عن هذا السلطان إلا بشق الأنفس . وقد كان الإشكال دائما فى الحياة الاقتصادية وما ينشأ فيها من «متناقضات» إنما هو فى الموقف الذى يقفه رأس المال من العمل ، والعمل من رأس المال . وقد وقف كل منهما دائما من الآخر موقف العداء على رغم ما يحاول بعضهم أن يدخله على العلاقات بينهما من روح التفاهم أحيانا ، أو روح التعاون أحيانا أخرى . وقد أخذ الكتّاب والمفكرون وأصدقاء رأس المال والعمل ، من هؤلاء وهؤلاء يدلون هذه الأيام بمجهود فى سبيل التنسيق والتوفيق .

وفى فرنسا الآن اتجاه إلى «صهر» ر س المال والعمل فى إدارة المنشآت ... وتعالج المجلات الاقتصادية والاجتماعية هذا الاتجاه للتوفيق بين التيارات المتضاربة . ويستند أصحاب هذا الاتجاه هناك إلى أن الحادث البين طوال القرن التاسع عشر والثلث الأول من هذا القرن العشرين ، إنما كان تميز عنصر رأس المال فى المنشآت ؛ فكان ممثلو رأس المال وحدهم هم الذين يشرفون على إدارة المنشأة ، وإليهم وحدهم يعهد بتنظيم هذه الإدارة دون استشارة حقيقية ومنتجة للعمل وأصحاب الأجور . ورأس المال ضرورة من ضرورات خلق المنشأة وسيرها ، ولكن عناصر الأجور بنشاطها ومثابرة ذكائها وعملها تعاون بنسبة عالية فى إنجاح المشروع . ومن العدل المقرر فى السابق أن يعترف لأصحاب الأجور بنصيب من المزايا الأدبية والمادية التى تلحق بالمساهمة فى الإدارة والإنتاج .

ويتساءل العارضون لهذا الموضوع فى تلك المجلات الاقتصادية والاجتماعية الفرنسية : ما هى الفوائد التى تعود على المنشأة من مساهمة العاملين فى إدارة المنشآت ؟ فيجيبون بلا تردد أنها ستسمح بالإفادة من خبرة خير العاملين ومن توزيع المهمات على أرباب الكفايات ؛ لأن كل طائفة من العمال — بالمعنى الواسع من أصحاب الأجور — قادرة أكثر من غيرها على إعطاء الآراء والنصائح المستمدة من طبائع العمل ذاته . وكذلك فإن إشراك العمال فى إدارة المنشاة سيخفف من وطأة الخصومة القائمة الآن بين رأس المال والعمل ، وإن وجودهم فى مجالس الإدارة وفى اللجان سيسمح بتربية رؤساء العمال تربية اقتصادية تنقصهم فى الوقت الحاضر . وكذلك فإن اتصال رأس المال بمختلف الطبقات اتصالا أليفاً يساعد على تربيته التربية الاجتماعية . فأصحاب رءوس الأموال لا يعترفون عادة بأسس المطالب الاجتماعية التى يقدمها الذين « يؤجرونهم » ، ولا يرون فيها إلا رغبة فى زيادة أجورهم ، فى الوقت الذى تعتبر إجابتهم لها تحقيقاً لرغبة متصلة بالعزة النفسية . وإلى هذا وذاك فإن هذا التفاعل فى المعرفة والاتصال يسمح بانتقاء العمال الأكفاء ، واختيار الصفوة منهم التى تتبين فى كل فئة من الفئات الاجتماعية . والصفوة هى الواسطة الخيرة بين التقريب والتفاهم .

ويذهب الكتاب الاقتصاديون والاجتماعيون إلى الدعوة إلى تحقيق ذلك « الصهر » بين رأس المال والعمل عن طريق التعاون بينهما تعاونا صادقا .

ويقولون بتحقيق هـذا التعاون لا بمصادرة رأس المال ولا بإعادة توزيعه ، ولكن بتعديل حقوق المساهمة والمشاركة : المساهمة فى الإدارة والمشاركة فى الأرباح . ويقولون مثلا إن نسبة مساهمة العمال فى إدارة المنشأة تكون على قدر النسبة بين رأس المال وأرقام الانتاج . ويضربون لذلك مثلا : فإذا كان رأس المال المستثمر قد بلغ المائة وأرقام الإنتاج قد بلغت ألفا ، فإن تمثيل رأس المال والعمل فى إدارة المنشأة يكون بالتعادل والنصف تماماً . وإذا بلغ رأس المال خمسة وعشرين وبلغ رقم الإنتاج ألفا ، فإن نسبة رأس المال فى الإدارة تكون بالربع ونسبة العمل فيها بثلاثة الأرباع . وإذا كان رأس المال قد بلغ الأربعمائة ورقم الإنتاج ألفا ، فإن رأس المال يمثل بثلاثة أخماس والعمل بخمسين اثنين .

أما فى المشاركة فى الأرباح ، فيذهبون إلى تنويع العمال إلى فئات ، منها ماينتج إنتاجا من الدرجة الأولى ، ومنها ما ينتج إنتاجا من الدرجات التالية ، ويوزعونهم على العمال والرؤساء والمديرين . ويحددون مشاركة أقل أنواع العمال بحصة واحدة فى الربح ، ويحددون مشاركة المدير بمئة حصة ، وتتراوح حصص سائر العمال والرؤساء بين الفئتين .

وينصح أولئك الكتاب العارضون لهذه المعالجات الجديدة التى تمليها على النظام الاجتماعى الفرنسى هذه الأيام للسير بها سيراً وسطاً — أن تتدخل الحكومة لتنفيذ تلك الإصلاحات بالطرق التشريعية ، وبالطرق الإدارية التى تطبق القواعد على المنشآت التى تديرها الحكومة وتراقبها . ويؤكدون فى بحوثهم ومقالاتهم أن « عالم العمال لا يمكن أن يظل أجنبياً عن إدارة النشاط الاقتصادى[1] . »

وفى مصر مشكلة اجتماعية . هذا واقع لا ريب فيه . فالفروق بين مستويات المعيشة شاسعة ، والإحساس بالحاجات عند رقيقى الحال باد ، والتذمر بينهم آخذ فى التجسم ، وعدد المتعطلين من العمال فى ازدياد ، والشكوى لدى العاملين من قلة الأجور وكثرة ساعات العمل عالية ، والقلق من جراء ذلك كله يساور النابهين والمفكرين . ولاشك أن الحال تشغل كذلك بال الناعمين والحاكمين . لكن ماهو المجهود الذى يبذل فى سبيل الإصلاح ؟ وهل هو موصل حقا إلى الحل المنتج ؟

(١) مقال فى « المجلة الاقتصادية والاجتماعية » الصادرة بباريس بعددها الصادر فى شهر يونيه سنة ١٩٤٦ ص ٨ إلى ١٨ .

هناك بلا ريب اجتهادات ، لكن هناك كذلك بلا ريب تواكلا واستهانات . نعرف مثلا على سبيل الجزم أن تقارير قد صدرت منذ سنوات عن مسئولين لفتوا فيها الأنظار إلى المخاطر التى تترتب على ترك الأمور دون معالجة ، وتقدموا فيها باقتراحات متضمنة طرقا للوقاية من الكوارث قبل أن تحل فيستعصى أمرها على المنتج . ونعرف على سبيل الجزم أيضا أن تلك التقارير الصادر بعضها من أقرب موظفى الحكومة إلى الوزراء قد « ركنت » ، ولم تنل من المهيمنين ما هى جديرة به من الاهتمام . ونرى الآن حركات يحاول القائمون بها إيجاد عمل للمتعطلين وتقديم الإعانات لهم إلى أن يتيسر لهم العمل عن طريق السعى لدى الشركات ، أو عن طريق القيام بأعمال عامة كبرى .

وليس ما يطرأ على الاجتماع المصرى هذه السنوات جديداً فى العالم ، وليس ما يتخذ لمعالجته من طرائق مبتكرا فى مصر ، بل قد سبقنا غيرنا إلى استقبال المشاكل الاجتماعية ، ولجأ غيرنا إلى ما نحاول الالتجاء إليه لمعالجة هذه المشاكل . وقدأخفقت محاولات المحاولين عند غيرنا فى أن يقفوا بالمعالجة عند الوسائل السطحية التى لا تنزل إلى الصميم . والمشكلة أعمق من أن تكون مشكلة تعطل ومشكلة قلة أجور وكثرة ساعات عمل . وهى فى الحقيقة مشكلة النظام الاقتصادى الذى يستند إليه الكيان الاجتماعى فى مختلف الأمم .

ولقدكان النظام الاقتصادى الشائع إلى ما قبل قيام الحرب العالمية الأولى هو نظام الاستثمار الفردى الحر المستند إلى المنافسة السليمة الحرة . لكن ظروف الحرب العالمية الأولى ، وظروف ما بعد تلك الحرب العالمية الأولى ، ثم ظروف الحرب العالمية الثانية ، قد قضت على ذلك النظام الفردى فى عمومه وتركت التوجيه والتسيير والتحصيص تقص من أجنحته شيئا فشيئا حتى أصبح الاتجاه الحاضر ، اتجاه تأميم المرافق المالية والاقتصادية ذات الصبغة العامة — خطوة أولى فى سبيل التعميم بالتطبيق على سائر المنشآت والمشروعات .

والعالم الآن عالم متصل متفاعل ، ما تكاد الطريقة الاقتصادية أو الاجتماعية تلوح فذة جديدة فى جانب منه ، حتى تتجاوز مابين ربوعه من حواجز وحدود فتبذر بذورها فى كل موضع ، ويحاول الأخذ بها وتطبيقها فى كل مكان . وليست مصر بمعزل عن العالم ، وما هى إلا متصلة به ومتفاعلة . فماذا أعدت ، أو ماذا أعد القائمون بالأمر فيها لمواجهة الطرائق الجديدة من عُدة ، ولاسيما بعد أن

لاح فيها ما لاح من بوادر القلق الاجتماعى التى تتوالى أحداثه على الأيام ؟

لقد خطر لى خاطر ، وأنا أتأمل أحوال العمال ومن إليهم : ترى ماذا علينا لو أخذنا بنظام « المصانعة » ؟ لكن ما المصانعة أولا ؟ هى عندى « المشاركة فى الصناعة » . وقد اجتهدت فى أخذ التعبير عن « المزارعة » وهى المشاركة فى الزراعة . والزراعة معروفة فى مصر ، ومعرفة مصر بها عريقة . ولا تزال أقاليم تقيم العلاقة بين صاحب الأرض وفالحها على هذه الطريقة ، يقدم صاحب الأرض أرضه وما إليها من وسائل الرى ، ويقدم الفالح مجهوده ، ويجىء المحصول الناتج من الأرض بفضل مجهود الفالح فلا يستأثر به أحدهما ، ولا تصفى العلاقة بينهما بالمال ، ولكن يقتسم الاثنان المحصول بنسبة تتفاوت بتفاوت قدر المساهمة الأولى بين النصف والنصف ، وبين الخمسين والثلاثة الأخماس ، فتكون كما يجرى به عرف التعبير عند الفلاحين « مناصفة » أو « مخامسة » . وتنتج هذه الطريقة أحسن النتائج بالنسبة للعلاقات بين الملاك والفلاحين ، فلا يحس الفلاح أن صاحب الأرض مرهقه بالإيجار المرتفع أو أنه سالبه حين يتعاقد معه على تسديد إيجاره ، قناطير معدودة من القطن مثلا حين يتجاوز السعر حداً معيناً ، ولا يحقد المالك على المستأجر حين يقبض إيجاره المحدد ويترك له المحصول يبيعه لحسابه إذ تكون الأسعار مرتفعة ، بل يحس الاثنان معاً أنهما متضامنان وأنهما فى السراء والضراء سواء ، وأنهما فى « حمى الله » يخصهما معاً بما يشاء .

ترى ماذا علينا إذن لو أخذنا بمثل هذا النظام فى العلاقة بين العمال وأصحاب العمل ، وهو ما نجتهد فى تسميته بالمصانعة ، مع ما يقتضيه الطابع الصناعى الخاص من تحوير ؟ ماذا علينا لو أقمنا تلك العلاقة على مبدأ المشاركة فى الأرباح بين العمال وأصحاب الأعمال ، فتسير المصانع على نحو ما تسير عليه الآن من حيث امتلاك رأس المال ومن حيث استخدام العمال ، فإذا ما أقفلت حسابات المنشأة فى آخر العام ، وأخذ من الأرباح الشاملة ماينبغى أن يؤخذ عادة لحساب الاستهلاك والتجديدات ، ولحساب الاحتياطى اللازم لمقابلة مخاطر الخسائر وما إليها ، تحدد نسبة مئوية ثابتة تعتبر حداً أدنى لأرباح رأس المال المستثمر ، تتراوح بين ثلاثة وخمسة فى المئة ، ثم يوزع الباقى على أصحاب العمل والعمال بنسبة متساوية أو متفاوتة بين رأس المال وأصحابه من ناحية ، والعمال والقائمين به من ناحية ثانية ؟

ترى ماذا علينا لو اتجهنا هذا الاتجاه ؟ وما هو فى الواقع بالاتجاه الجديد المبتدع ، وكثير من المنشئات فى أوربا وفى أميريكا تخص عمالها آخر العام بحصة معينة فى الأرباح توزع عليهم بنسبة مرتباتهم وأجورهم . وهو مبدأ متواضع إلى جانب ما يبدأ تطبيقه فى انجلترا وفى فرنسا من مبدأ « التأميم » أو « المرافق المستصنعة » ؛ أو « صهر رأس المال والعمال » الذى يدعو إليه بعض الكتاب الفرنسيين . وتوافق الخواطر هو ظاهرة هذا العهد وقد اختفت فيه الحواجز والتخوم بين منتجات الفكر ، وستختفى فيه الحواجز والتخوم بين حاجات البشرية ، والحد الأدنى للحياة فى أية بقعة من بقاع الأرض .

محمود عزمى

محادثة (١)

بين الأسد البريطانى والدب الروسى

الأسد : — قل لى أيها الدب ! لماذا هذا التناقض الظاهر الذى يلحظه الناس بين آرائك وسلوكك السياسى ؟ فحين بدأتم ثورتكم الكبرى استنكرتم سياسة القياصرة القديمة ، ونددتم بخطط التوسع تنديداً أدى بكم إلى التبرؤ من المعاهدات التى كانت فى مصلحتكم ، كمعاهدة لندن السرية التى عقدناها معاً فى سنة ١٩١٥ وتعاهدنا فيها على أن تكون القسطنطينية ومنطقة المضايق من نصيبكم متى انتهت الحرب بهزيمة الوحش وزميله الذئب التركى ؛ فقد فضحتم حينذاك سر المعاهدة ، وأعلنتم زهدكم فى شروطها ، وكسبتم بذلك صداقة الذئب . وفعلتم مثل ذلك فى بلاد الفرس ، فنزلتم عن منطقة نفوذكم وعن امتيازاتكم فيها ، وقدمتم مؤسساتكم ومهماتكم هدية منكم للشعب الإيرانى . ثم ما هى إلا بضع سنوات حتى تنكرتم لمبادئكم تلك ، وبعثتم السياسة القيصرية القديمة من مرقدها ، وأصبحت سياستكم الخارجية ، سواء فى البحر المتوسط والمضايق أو فى شبه جزيرة البلقان أو فى خليج فارس أو فى غرب آسيا والمحيط الهادئ صورة طبق الأصل من سياسة التوسع التى كانت تسير عليها الحكومات الأوتقراطية فى عهد القياصرة .

الدب : — وما دخل مبادئ الثورة فى السياسة الخارجية للدولة ؟ إن من الحق أن تؤثر الآراء الثورية فى سياسة الأمة الداخلية ، فتصدر التشريعات وتسن القوانين مشربة بالآراء الحديثة . أما فى السياسة الخارجية فإن الاعتبارات الجغرافية والتاريخية الثابتة هى التى تتحكم فى توجيهها مهما كان لون الحكومة القائمة بالأمر قيصرية كانت أو بلشفية . . .

(١) الكاتب المصرى عدد ١١ (أغسطس ١٩٤٦) .

وهل تأثرت سياستكم الخارجية بتقلد العمال زمام الحكم بعد المحافظين ؟
إن الخطوط الرئيسية لسياسة العمال الخارجية هي نفس الخطوط التي رسمها تشرشل والمحافظون ، وإن اختلفت طرق تنفيذها والتفاصيل التي تشتمل عليها. وكذلك الحال في روسيا وفي سائر البلاد العريقة في تاريخها وتقاليدها — لا مندوحة لها عن التأثر بحقائق تاريخها وجغرافيتها . فمن الحقائق الجغرافية مثلا التي تسيطر على سياسة روسيا الخارجية مهما تغيرت نظم الحكم فيها ، أنها بلاد توشك أن تكون مغلقة ، بسبب تجمد مياه البحار المحيطة بها في معظم شهور السنة ؛ ولذلك تراها دائبة السعي للوصول إلى منافذ تطل منها على الخارج وتيسر لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشيطة في تجارتها الغنية بمواردها . ومن الحقائق التاريخية التي تمتزج بدماء الروس ولا تنفك مسيطرة على أذهانهم ، أن هناك شعوبا في البلقان تنتمي إلى الجنس السلافي أو الصقلبي الذي تنتسب إليه روسيا . وما فتئ الروس طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعطفون على تلك الشعوب ويدربونها ويمكنون لها حتى تخلصت من نير الأتراك ، ثم اطرد نموها وكمل استقلالها ، وباتت روسيا تعتقد أن من حقها على تلك الشعوب أن تخصها بمكانة تمتاز بها على سائر الدول .

وإذا كان دعم الثورة قد استدعى في أول الأمر أن نركز جهودنا في سياستنا الداخلية ، وأن نعتصم بالأناة والصبر إزاء ما فرضته علينا الدول من قطيعة وطرد وحرمان ، فإننا لم نر بدًّا من أن نطرق باب الشرق مادام الغرب قد أوصد أبوابه دوننا ؛ فعقدنا معاهدات الصداقة وحسن الجوار مع تركيا وإيران وأفغانستان . ولما لم تقبلونا أو تدعونا معكم في عصبة الأمم ، تفاهمنا مع الوحش المنهزم ، واتسعت مسافة الخلف بيننا وبينكم ، إلى أن اكفهر الجو في أوربا وتلبدت سحب الحرب الأخيرة ، فالجأتم إلينا ولكن بعد ضياع الوقت .

الأسد : — إذا كانت حقائق التاريخ والجغرافية هي التي تملي عليكم سياستكم الخارجية ، فما معنى المشاكل التي تثيرونها في إيران والبلقان والمضايق وفي تريستة ومستعمرات إيطاليا القديمة ؟ وأي اعتبارات جغرافية أو تاريخية تدعوكم إلى التدخل في شؤون دولتين مستقلتين كإيران وتركيا ، أو إلى المطالبة بضم طرابلس أو جزر الدوديكانيز ؟ فهل كان أهل إيران وتركيا من العنصر السلافي

الأرثوذكس ؟ وهل كانت جزر الدوديكانيز واقعة فى البحر البلطى أو هى لاتزال قائمة ، كما تعلِّم المدارس تلاميذها ، فى شرقى البحر المتوسط ، فليس يهم أمرها سوى اليونان ؟ وكيف انقلب الذئب التركى فجأة إلى وحش مخيف ، فأخذتم منذاتهينا من الوحش تحاولون الانقضاض عليه ظلماً وعدواناً بعد أن صادقتموه فى بدء ثورتكم ، ودافعتم عن مصالحه فى وجه الدول جميعاً ؟

الدب : — من الاعتبارات الجغرافية التى تتحكم فى توجيه السياسة الخارجية لدولة ما ، المواقع والنقط الاستراتيجية التى يتوقف عليها تأمين حدودها وسلامتها من العدوان . وبلادنا كما تعلم بلاد مترامية الأطراف ، إذا تهاونا فى حماية حدودها من الخارج انهار البناء كله من الداخل ؛ إذ لابد من أن يطمئن الشعب داخل حدوده حتى يستطيع أن يتفرغ للنهوض ببلاده . ونحن شعب حديث العهد بالحرية ، ولابد له من الاستقرار حتى يتعلم ويتدرب ويتقدم . وأنّى يتهيأ لنا الاستقرار إذا كنا فى الجنوب تحت رحمة تركيا : إن شاءت فتحت لنا المضايق وإن شاءت أغلقتها فى وجهنا وحبست عنا تجارة البحر المتوسط ؟ ومن أين لنا الأمان والسلامة وفى الجنوب الشرقى بركان من الأكراد لايهدأ ثورانه وإنما يخضع هؤلاء الأكراد لإيران والعراق وتركيا ؟ وكيف يهدأ لنا بال وفى الشمال الشرقى إقليم قارس وأردهان وأرتيڤان وقد كان داخلا فى حدود أرمينيا السوڤيتية قبل سنة ١٩١٩ وهو إقليم على جانب عظيم من الأهمية الحربية ؛ لأنه يتحكم فى الطريق إلى القوقاز ؟ أما من ناحية الغرب فقد أخذنا أمورنا بأيدينا ، وضممنا ولايات البلطيق كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى ، وأخذنا من بولندة وفنلندة أراضى كانت لنا فى الماضى أيضاً . ولو أنها بقيت فى أيدى غيرنا لتعرضت حدودنا الغربية للخطر .

ولا تنس أن الوحش قد هاجمنا مخترقا هذه الحدود مرتين فى مدى خمس وعشرين سنة ، وقد ذقنا من أهوال الحرب فى المرتين ألوانا لم ير العالم مثلها ، وقد راح ضحيتها ملايين من الشبان فضلا عن الخسائر المادية التى منيت بها البلاد . وإنه لإجرام فى حق الوطن أن نتساهل فى أمر قد نتعرض بسببه لهجوم ثالث قد لانقوى على احتماله مرة أخرى .

الأسد : — ولـكن تأمين الحدود ياصديقى يجب أن يكون من مهمة مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة التى تضافرت جهودنا على إنشائها، وبذلك يصبح التأمين عامًّا يصون السلم فى جميع الأرجاء . أما أن يكون التأمين مهمة فردية تتولاها كل دولة وفق مصلحتها الخاصة ، فإن مثل هذا التصرف لايلبث أن يؤدى إلى التنافس الحربى ، ومن ثم يكون سبباً إلى حرب عالمية ثالثة . وكما أن الحرب لاتتجزأ : إذا نشبت فى إقليم اندلعت منها شرارات الحرب العامة سريعاً ، فكذلك السلم يجب ألا تتجزأ حتى ينتشر لواؤها على العالم أجمع . ثم لماذا تخشون الوحش وقد تقطعت أوصاله وانهد بنيانه ! وأكبر الظن أنه لن تقوم له قائمة إلا بعد أجيال ، وبعد أن يكون العالم قد تطهر من أدران الحرب واتخذ عدته لإبادة جرثومتها . لابد أن يكون فى الأمر خبىء تعملون على كتمانه ، وإلا فضدّ من تريدون هذه التأمينات ، وتقيمون هذه التحصينات ؟

الدب : — إن أمرك أيها الأسد لغريب حقًّا . تسألنى ضد من هـذه التأمينات وأنت الذى ابتدعت النقط والقواعد الاستراتيجية ، واستمسكت بالمناطق والشرايين الحيوية ، ووضعت يدك على مفاتيح أهم المنافذ البحرية فى العالم ! ألست أنت المتسلط فى البحر المتوسط بقواعدك فى جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين وقناة السويس وعدن ، فضلا عما بيدك من أملاك وجزر وقواعد فى سائر أركان المعمورة ، وكل هذا لتأمين طريقك إلى أملاكك الواسعة . . . فلماذا تبيح لنفسك ما تأباه على غيرك ؟ الم يعلن ابن عمك الأمريكى أمام الملأ فى أثناء الحربين العالميتين أن فى مقدمة أغراضكم من الحرب إعلان حرية البحار ، ولاتزال مع ذلك مفاتيح البحار فى أيديكم إلى الآن !

الأسد : — إن لنا ظروفا خاصة لا إخال دولة أخرى فى العالم تشاركنا فيها ؛ إذ لايخفى عليك أننا نسكن جزيرة صغيرة لاتبلغ جزءاً من مائة من مساحة بلادكم ، وقد اجتزنا مرحلة الزراعة منذ ظهور حركة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح أساس ثروتنا الصناعة والتجارة ، وجل اعتمادنا فى غذائنا وخاماتنا على مايرد إلينا من أنحاء الإمبراطورية ومن الخارج ، لذلك نعتبر أسطولنا الحربى والتجارى خط دفاعنا الأول ؛ فإذا لم نحتفظ بتفوقنا فى

البحار تعذر علينا ضمان سلامة اتصالنا بأملاكنا وبالعالم الخارجى ، وأعوزتنا الخامات والأغذية ، وتعرَّض أطفالنا وأسرنا لخطر الجوع والحرمان .

هذا هو الفرق بينى وبينك وبينى وبين ابن عمى : كلا كما فى غنًى نسبى عن العالم الخارجى ؛ فلديكما الكفاية من موارد الخامات والأغذية ، وقد حبتكما الطبيعة بإنتاج وافر من مادة زيت البترول الذى يعتبر بحق عصب النشاط الاقتصادى والحربى ، فأنتم تنتجون منه مقدار ٦ر١٠ ٪ من إنتاج العالم . وأما الولايات المتحدة فتنتج ٣ر٦١ ٪ منه ، وهى ميزة لكما تفوق كل تقدير وتتيح لكما أن تنتهجا فى سياستكما خطة العزلة عن مجموعة الدول حين يبدو لكما . وأما نحن فنعيش عالة على غيرنا ؛ إذ نستورد من الخارج كل حاجتنا من زيت البترول اللهم إلا نسبة ضئيلة تنتجها كندا والهند . حتى زميلنا الديك الفرنسى يستطيع أن يعيش على موارده الخاصة وإنتاج أملاكه القريبة منه دون أن يتعرض للخطر مثلنا . من ذلك ترى أيها الصديق أن القوة البحرية وما يتبعها من قواعد البحرية هى مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا ، وفى اليوم الذى نتخلى فيه عن قواعدنا ونقطنا الاستراتيجية فى عرض البحار نكون قد نزلنا عن مكانتنا كدولة عظمى ، وأنكرنا تاريخنا وتقاليدنا ، وغمطنا حق ذرارينا وأسلافنا وبالاختصار نكون قد انتحرنا .

الدب : — لست أظن أن العالم يخسر كثيراً بذهابكم ، فقد انتهى زمانكم وأديتم رسالتكم على قدر ما سمحت به ظروف الجهل والفقر والضعف التى كانت تسيطر على العالم فى أثناء تفوقكم . وكفاكم أنكم أدخلتم النظم الديمقراطية النيابية فى بلاد العالم ، فأشعتم فيها الخلافات الداخلية ، وساعدتم على الفرقة والتنافر والتناحر الحزبى بين أبناء الوطن الواحد ، بقصد الوصول إلى كراسى الحكم وتأليف الوزارات التى ابتدعتموها . كفاكم أنكم جعلتم الشاى شراباً عالميا ، ولعب الفوتبول رياضة أممية ! وستذكر لكم الأجيال المقبلة حروبكم وما بذلتم من جهد فى سبيل استعمار إيرلندة والهند وأمريكا وإفريقية ، وفرض رقابتكم على البحار فى الحرب والسلم . أما الآن وقد فتحت الكشوف العلمية الهائلة آفاقاً جديدة لحياة جديدة مليئة بالنذر والاحتمالات ، فإن هذه الحياة تتطلب دما جديداً ودروساً جديدة يقوم بها أساتذة مدربون تدريباً جديداً

فى مدارس غير مدارسكم ، ووفق آراء وفلسفات غير آرائكم وفلسفاتكم .

الأسد : — قال القدماء أو المحدثون — لا أدرى — إن من لا يتطور يتقهقر. والسر فى بقاء فصيلتنا إلى الآن أننا نطبق نظرية التطور فى جميع نُظمنا وآرائنا السياسية والاقتصادية حتى الاستعمارية . وأحسب أنك تعلم أن مستعمراتنا وأملاكنا فى عرض البحار قد أصبحت مع التطور دولا مستقلة شكلا وموضوعا ، حتى إن بعضها قد قرر فى الحرب الأخيرة أن يلزم الحيدة ، ولو شئنا لأرغمناها على دخولها إلى جانبنا ، ولكننا آثرنا حرية الرأى على مصلحتنا الخاصة . وما مثل جنوب إفريقية فى أول الحرب وإيرلندة طوال مدة الحرب ببعيد . وإننا لنباهى بأننا منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن لم نزل ندافع عن حقوق الشعوب الصغيرة ، ونرعى مصالحها ضد قوى الاستبداد والرجعية ، فساعدنا على ظهور قوميات مستقلة جديدة تتمثل فى جمهوريات أمريكا وفى اليونان وبلجيكا وفى الشرق الأوسط . وأظن أن العالم سيذكر لنا جهودنا فى سبيل تحرير الرقيق ، وتكوين جمعيات الصليب الأحمر ، وتحرير المرأة ، ونظام الكشافة ، وحرية التجارة ، وحتى الانتخاب العام . وما دمنا مؤمنين بنظرية التطور والحرية ، فإن بريطانيا لن تموت ، وسترى أيها الرفيق أن العالم لن يفيد من الثورة والعنف بقدر ما يفيد من الحرية مع التدرج والتطور .

الدب : — إنى أمقت التباطؤ والتدرج ، وأدين بالثورة التى خلقت روسيا الجديدة ، وأعتقد أن النظام الديمقراطى بما ينطوى عليه من تراخ وضعف وتمييز بين الطبقات هو سبب ما يعانيه العالم الآن من قلاقل واضطرابات .

دعنى أنفّذ برنامج الثورة الشيوعية الدولية ، وسترى كيف يبرأ العالم من أدوائه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا

الأسد : — إنى أعتقد أن التطور هو النظام الطبيعى ، فالثمرة لا تنضج فى يوم وليلة ، بل لا بد لها من تربة صالحة ورى وغذاء وتقليم وتشذيب وتطعيم وتدخين حتى تطيب وتتدانى للآكلين . أما الثورة فظاهرة شاذة تقذف بالشعوب فى ألوف من التجارب والانقلابات العنيفة الدامية القاسية ، ثم

لا تلبث فورة الثورة أن تخمد ويعقبها رد فعل طويل من الضعف والإنهاك والإخلاد إلى التواكل والقناعة. قد تكون الثورات السياسية ضرورة طبيعية فى عصور الاستبداد والتسلط القديم. أما فى هذا العالم الجديد الذى يجب أن تتمتع فيه الشعوب باستقلالها والأفراد بحريتها فى حدود القانون — فنحن فى حاجة إلى ثورة من نوع آخر فى البحوث العلمية والاكتشافات الآلية الجديدة التى لا يقتصر تطبيقها على عتاد الحرب، بل يجب استغلالها لرفع مستوى البشر ولمصلحة الطبقات جميعاً لا لمصلحة طبقة دون أخرى. ولا أمل فى تحقيق ذلك إلا إذا تعاونت الشعوب، وأمنت العدوان عليها، ونعمت بكامل حريتها وسيادتها فى الداخل والخارج.

الدب: — هذه مجرد نظريات تتشدق بها.

الأسد: — كذلك كان الطيران مثلا، وكان التسامح الدينى، وكانت القنبلة الذرية — كلها كانت مجرد نظريات فى أول أمرها ثم أصبحت بالممارسة والتجربة حقيقة يفيد منها العالم أجزل الفوائد.

الدب: — وكيف توفق بين فكرة الاتحاد العالمى الذى تنشده وتمسك الدول بكامل حريتها وسيادتها؟

الأسد: — أريد أن يكون الاتحاد العالمى لمنع الحروب، وتيسير المواصلات والتجارة، ونشر الصحة والثقافة، وتوفير العمل بين شعوب العالم. أما فى الشؤون الداخلية، وحق الملكية، وحرية العبادة والتعبير، واختيار نوع الحكم، فنريد حرية كاملة فى حدود القانون دائما وسيادة تامة بحيث لا تتدخل دولة فى شؤون دولة أخرى. ولا يتحقق كل هذا — كما ذكرت لك — إلا بالتعاون واحترام الحريات.

الدب: — ألست عضواً متعاوناً معكم فى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن؟

الأسد : — حقًّا نحن جميعاً أعضاء ، ولكننا غير متساوين مع الآخرين .
وأساس التعاون المساواة ، فإذا انتفت زالت الثقة وحلت مكانها الريب والظنون .
وقد تذرعنا بحقنا كمحاربين غالبين فى الحرب الأخيرة ، وتمسكنا نحن الخمسة الكبار بحق الإجماع فى التصويت بيننا ، وانبنى على ذلك أن واحداً منا نحن الخمسة يستطيع أن يحول دون تنفيذ أى قرار يتخذه مجلس الأمن أو الجمعية العمومية للأمم المتحدة مهما عظم أمره ومهما بلغت الكثرة فى جانبه . وقد أثبتت الظروف أننا كنا على خطأ فيما قررنا ، فإننا بذلك قد فتحنا هوة عميقة بيننا وبين أمم العالم جميعاً . ويدهشنى أنكم تناهضون مبدأ المساواة بين الدول على حين تحض ثورتكم على المساواة بين الجميع .

إن مبدأ احترام المساواة يقتضينا أن نتنزل عن حق « الفيتو » ، وأن نؤمن بحق الكثرة . فإذا لم نتنزل عن هذا الحق الذى اغتصبناه لأنفسنا فلا مندوحة لنا من أن نعمل على كسب الأصوات بالحق وبالباطل ، وقد تؤدى بنا الحال إلى بعث قوة الوحش من جديد ليكسبه واحد منا إلى جانبه ، وحينئذ تتحقق نبوءة هتلر حين قال إنه إذا ذهب ، فإن الديمقراطية والبلشفية لا تلبثان أن تصطرعا ، وفى اصطراعهما فرصة ألمانيا وبعث للنازية من جديد . فلنكن على حذر . وأولى لنا أن نتفق ، ولا يصح أن يلدغ أحدنا من جحر أكثر من مرتين !

الدب : — كفى ! إنك تحاضرنى ! وما كنت أظن أن محادثتنا ستنقلب سريعاً إلى محاضرة من جانب واحد . فإلى اللقاء عندما يعود مولوتوف من الغابة .

محمد رفعت

صفحة مجيدة من تاريخ أمة عظيمة

ليس منا من يجهل عراقة الصين فى الحضارة والمدنية ، ولـكن القليل منا ينظر إلى أهل الصين اليوم بالعين التى تمليها تلك المعرفة . فلقد ظلم التاريخ الحديث هذه الأمة العظيمة فأشاح بوجه رضاه عنها ، فإذا هى تعسة بائسة مستضعفة تقاتل قتال الحق امام القوة . . . قتالا مجيداً رائعاً أعواما وأعواما كَلّ العالم كله فى القتال من نصفها عددا ، وتـكالبت الأمم القوية عليها... هذه انجلترا النائية ، وتلك اليابان جارتها ، فما وَنت ولا كلّت .

وهذه صفحة من صفحات هذا القتال العظيم تصور أول صفحة من هذه الحرب بين القوة والحق . ولقد نقل التاريخ إلينا هذه الصفحة فى مختلف ظروفها وعصورها ، فإذا هى على اختلافها تتحد فى ظاهرة واحدة ، هى تغلب الحق تغلباً زائفاً فى بدء المعركة ، تغلبا يعجب الأبطال وأشباههم ومن يطربون لسيرهم . ولندع التاريخ يقلب صفحات تلك الحرب العظيمة ويصور صورا مختلفة من مواقف القتال ونتائجه ، تتحد هى أيضاً رغم اختلافها فى أنها تنتهى أبداً بانتصار القوة المادية ، ولنقف نحن أمام هذه الصفحة الأولى نعجب ونطرب ، ونتساءل كيف أمكن لمثل هذه العظمة أن تطأطئ الرأس أمام القوة ولو إلى حين .

ترسم الصورة بلاط الملك چورج الثالث فى لندن آخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وقد جلس الملك العظيم على عرشه المـكين يستقبل رجالات الدولة ، ويصرف شؤونها فى وقار الملوك العظماء وهيبتهم . وهذا هو اللورد ماكارنى سفير الملك إلى بلاد الصين النائية ، وقد عاد من رحلته الطويلة الشاقة متعبا ولـكنه باسم مشرق الوجه لولا شئ من جمود فى حركاته ونظرته . وما كاد يدخل قاعة العرش بعد أن أعلن مقدمه حتى كاد الملك يخف لاستقباله لولا وقار من العرش ، وبرود من الطبيعة والدم . وأقبل السفير وانحنى أمام الملك ،

ونظر إلى الوزراء والحاشية من حوله وقد ملئت نفسه رضا وطمأنينة . نعم هذا هو الزخرف الحق وذاك هو جلال العرش وهيبته ، لا تلك القاعة الفاخرة في أقاصي الشرق التي زانها فن عجيب مسرف في زخرفه ، دقيق في نقشه ، يوحي بشيء من السحر الشاذ ، فيحس المرء أمامه أنه في عالم غريب عنه . ثم هذه الرائحة العطرية الثقيلة تنبعث من جوانب القاعة الكبرى ، فتدير الرأس ، وتسد منافذ النفس . ولم يطل خياله المقارنة بين وطنه وذلك البلد النائي العجيب . لقد أعد خطاباً رائعاً طويلا أخذ يلقيه الآن على آذان هؤلاء السامعين ، والملك العظيم منصت في شوق ولهفة .

« إن الصين بلد عظيم في مدنيته عريق في حضارته . وهو فوق هذا بلد غني بالخيرات ، قد أسبغ الله عليه نعمة لم يفزبها إلا الأقل من بلاده العديدة ؛ وذلك أنه قد كفى أهله وأغناهم عن غيرهم ، وهو مستطيع أن يكفيهم ويغنيهم ما شاء ، مهما تطورت المدينة الحديثة ، وتعددت مطالب العيش في ظلها . وسكانه يا مولاى قوم مثابرون على العمل ، مخلصون فيه ، لهم خفة الآلة سرعتها ، وفن الإنسان وحذقه . . . »

وطال حديث السفير عن هذا البلد الشرقي النائي العجيب ، فإذا الملك والقوم من حوله يكادون يستحثونه لينبئهم بنتيجة سفارته ، فقد بدأوا يملّون الإنصات إليه ، وأصبحوا يسمعون جملة وتفوتهم لشرود أذهانهم جمل .

« إني عاشرتهم فلم أجد أكثر منهم أدبا ، ولا أصدق منهم معاملة ولا ... » وشرد ذهن المنصتون إليه من جديد . قال الملك مقاطعاً بعد أن طال كلام السفير : « عسى أن تكون قد فزت من إمبراطورهم بالرد الحسن على ما طلبنا إليه . » فقال السفير وقد أدرك أنه أطال : « نعم يا مولاى . وإنه لرجل عجيب في مظهره ، ولكنه على خلق قويم كريم . ما قابلته إلا باسما راضيا متأدبا مجلا للناس من حوله ، فاستحق بذلك إجلال الغرباء وعبادة شعبه . وإنهم ليعبدونه بأخلص مما يعبد به شعبنا ربه الذى خلقه . » وتدفق بيان السفير من جديد ، فقال الملك مقاطعا : « ولقد نجحت سفارتك إليه . أليس كذلك ؟ » قال : بلى قد نجحت يا مولاى أي نجاح . ولقد حملنى إليك رسالة لم ينبئني بشيء مما احتوته ، ولكن الهدايا التى أرسلها إلى جلالتكم ، والمعاملة التى لاقيتها منه تنبيء جميعها بأنّا قد وفقنا لأكثر مما طلبنا . إنه لعجيب حقا ألا يحدثنى بشيء

فى صدد ما جئت به إليه ، بل كان يقول دائماً : رد الرسالة رسالة مثلها . أليس كذلك ؟ ثم يبتسم ابتسامة ناعمة هادئة . إنه لرجل عظيم . . . » وخشى الملك أن يتدفق بيان الوزير من جديد ، وقد عيل صبره ، فقال فى شئ من الحزم : « هات الرسالة إذن واتلها علينا . » وفض السفير ختم الرسالة الإمبراطورية ، فإذا بها تقول :

« إنكم أيها الملك تعيشون فى منطقة بعيدة نائية ، ولكنكم تريدون فى تواضع أن يمسكم من بركات حضارتنا خير ؛ لذلك أرسلتم سفيركم يحمل رسالتكم فى هيبة ووقار .

« إن فضل أسرتنا العظيمة وأمتنا المجيدة قد عم الآفاق وطبّقها ووصلت أخباره إلى كل أمة على الأرض ، فأرسلت إلينا ملوك العالم أجمع برًّا وبحراً هداياها وخراجها .

« إننا نحن الصينيين نملك كل شيء ، ولا يبهرنا من تلك التحف الجميلة التى عندكم شيء ، بل إن منتجاتكم وصناعاتكم لا محل لها فى بلادنا ، ولا فائدة منها عندنا . . . »

وبدأ الملك يوجس خيفة ، فظهرت أمارات الجد على وجهه البارد الجامد ، ولكنه فى لهفة التطلع إلى ما بعد لم يقاطع سفيره .

« ولقد قبلنا هداياكم التى أرسلتموها إلينا ، لا لشيء إلا لهذا الولاء والإخلاص اللذين أمليا عليكم إرسالها إلينا ونحن فى أقصى البلاد وأنآها . . . »

ولم يستطع الملك سكوتاً فقال : « ولاء وإخلاص ؟ لمن ؟ أكمل أيها السفير . » وبدأ يفهم أن السفير قد بالغ فيما ظن من نجاح سفارته .

« إنا لنحس من خطابكم تواضعاً محموداً خليقاً بأن يحترم . ولقد استقبلنا سفيركم خير استقبال ، ووهبنا له من عطايانا كثيراً ، وأرسلنا إليكم أيها الملك هدايا ثمينة تجد بها بيانا مرفقا بهذه الرسالة . ألا فلتقبلها فى إجلال واحترام . »

ولم يملك الملك نفسه من أن يضحك . بيان بالهدايا حتى لا يختص السفير العزيز نفسه بشئ منها ، فلقد وهب للسفير ما ظن أنه يكفيه ، ولكنه لم يأمن طمعه حتى بعد الشبع ، فأرسل هذا البيان بها . ألا فلأتقبلها فى إجلال واحترام . فى إجلال ! يا للغرور ، عرش مكين بلا جدال ، وحضارة عريقة قديمة بلا ريب ،

ولكن أى شعب اليوم ، وأى مكان بين الأمم فى هذا العصر . ألا رفقا بهذا التعاظم الفارغ الخدّاع . كم يخدع الماضى هؤلاء القوم عن حاضرهم . وجالت هذه الخواطر كلها بسرعة البرق فى رأس الملك العظيم لما توقف السفير هنيهه ليبتلع الإهانة التى أصابته من هذا القصير المزخرف العجيب ، إمبراطور الصين . ألا ما أكثر ما يخدع فيه المرء ! بيان بالهدايا ! وقال السفير تاليا الرسالة الإمبراطورية :

« وأما طلبكم أن تبعثوا من عندكم سفيراً ليعيش فى بلاطنا القدسى الهادى فإن مثل هذا المطلب لا يمكن أن يجاب ؛ فكل أوربى يعيش فى عاصمتنا پيكين محظور عليه أن يغادر الصين ، وأن يكاتب أحداً من بلده ؛ لذلك لسنا نرى كيف يمكن أن تفيدوا شيئاً بوجود سفير من لدنك عندنا . أضف إلى ذلك أن فى أوربا أمما كثيرة غير الأمة البريطانية ، فإذا طلبت كل منها ما طلبتم نخبرنى بالله كيف يمكننا أن نوافق على هذا الطلب ؟ أتريدون من أسرتى الملكية أو من أمتى المجيدة أن تغير من عاداتها أو من طباعها شيئا ، لتنفذ لكم ما تريدونه ؟ »

وتحققت مخاوف الملك . إن السفير قد خدع ولاشك بهؤلاء القوم ناعمى الملمس ناعمى الشعور . إن فى تلك الأجسام الضئيلة الخفيفة الحركة قلوبا مليئة بالغش والخداع . ولكنه أراد أن يتابع الرسالة ، فلم يعلق على سفيره بشىء . والسفير فى لهفة الدهشة أخذ يتابع القراءة مبهوتا .

« ولقد طلب سفيركم أيضا أن أسمح لبواخركم بالتجارة فى موانئ أخرى غير ميناء كانتن وهذا طلب مرفوض ، ولن نسمح بتجارة لكم فى أى ميناء آخر غير كانتن . »

ولن نسمح بتجارة لكم فى أى ميناء آخر غير ميناء كانتن ! فيم كان النجاح أيها السفير ! ولما كان هذا هو المطلب الأساسى الذى من أجله رحل السفير رحلته الطويلة الشاقة ، وانتظر الملك انتظاره المترقب المتاهف ، فإن الملك لم يملك نفسه فى مرارة السخرية من أن يقول : « نجاح عظيم بلا شك أيها السفير ! أكمل رسالتك . »

« وأما طلبكم إلينا بأن نسمح لتجاركم بأن يختزنوا بضاعتهم ، ويتاجروا فيها فى پيكين ، فهذا مالا يمكن أن ينفذ عمليا . إن عاصمتى هى المحور الذى من حوله تدور الأرض بأجزائها جميعاً . . . »

وضحك الملك يفرج آلام سخطه وغيظه . المحور الذى من حوله تدور الأرض ! أى غرور وأى تعاظم ؟ وممن ؟ من هؤلاء القوم صغار الأجسام صغار العقول . قال السفير وقد اغتاظ هو الآخر أشد الغيظ : « پيكين . إن أقذر مدينة فى بلدكم أيها الملك لأنظف من پيكين تلك التى هى محور الأرض وعاصمة الكون ! لكم خدعت فيك أيها الإمبراطور العظيم . . . أيها الشين لنج : إنك حقا لعظيم . فقال الملك حانقا هازئا : « لا تنس أن الصين يا مولاى بلد عظيم فى مدنيته عريق فى حضارته ، وأن سكانه قوم مثابرون على العمل مخلصون فيه . » فأكمل السفير قراءة الرسالة وقد كاد يقطع على الملك كلامه :

« وإن قوانين بلدنا للازمة صارمة . وقد حرمت هذه القوانين على الأجانب أن يتاجروا فى وطننا ، فلم يجسر أحد إلى الآن أن يفعل . لذلك ترانى أيها الملك مضطرا لأن أرفض هذا الطلب أيضا .

« إن سفيرك قد طلب إلىَّ أيضاً أن أسمح لكم بتعليم دينكم ونشره فى الصين . ولكن الأباطرة العظماء والفلاسفة الحكماء قد علموا الصين منذ فجر التاريخ دينا اعتنقته الملايين من رعيتى ؛ فلسنا فى الواقع محتاجين إلى تعلّم دين جديد . إن الطلب لشاذ ، وهو فى نظرى لايستند إلى أى حجة من منطق أو دليل من تعقل . »

وكرر السفير : «لايستند إلى أى حجة من منطق أودليل من تعقل.» ولكنه خاف أن يكون الملك قد فهم سر هذا التكرار فأسرع بالجملة التالية وكررها هى أيضاً .

« لقد نظرنا دائماً بعين العطف العظيم إلى السفارات التى كانت تأتينا محملة بالهدايا من الممالك التى كانت تتوق حقا إلى بركات مدنيتنا . ولكن طلباتكم تنافى عادات أسرتنا وأمتنا منافاة صارخة صريحة ، ولسنا نرى فائدة يمكن أن نجنيها من إجابتنا لها . إنه لمن واجبك أن تدرك عواطفى ، وأن تتبع فى احترام ووقار تعليماتى . »

قال الملك : «ثم ماذا؟» قال السفير: « انتهت الرسالة يامولاى . » فابتسم الملك هازئا ساخراً مغيظا ، وحنق الحاضرون . ولولا هيبة العرش ووقار الملك لعلّقوا كثيراً .

ولكن التاريخ يسرع ، فيسدل على هذا المنظر أستاره . وتتابعت فصول هذه الحرب بين القوة والحق ، فإذا مناظرها متشابهة وفصولها مكررة . ولكن أيمل التاريخ من التكرار ؟ كلا ! أيتعظ الإنسان من هذا التكرار ؟ كلا أيضاً . ومازالت الحياة مشوقة بأحداثها ، ومازال منا من يتحرق شوقا إلى أخبارها .

سهير القلماوى

المسألة الهندية

تعتبر الهند بحق أسطع جوهرة فى التاج البريطانى وأعظم وحدة فى الإمبراطورية البريطانية . وهى بمساحتها وسكانها ومواردها الضخمة تكاد تعدل قارة بأسرها . فمساحتها تبلغ زهاء مليونى ميل مربع ، ويبلغ سكانها أكثر من ثلاثمائة وخمسين مليونا . وتبسط بريطانيا على هذا الإقليم الغنى الشاسع سلطانها المطلق منذ أكثر من قرن ونصف قرن . ومنذ سنة ١٨٧٧ يزدان التاج البريطانى بشعار الإمبراطورية ، ويلقب ملك انجلترا بإمبراطور الهند ، وينوب عنه فى حكم الهند نائب الملك .

ولم يصطدم الحكم البريطانى فى الهند خلال هذه الفترة الطويلة بغير ثورة خطيرة واحدة هى ثورة سنة ١٨٥٧ . ولكن الهند تضطرم منذ ربع قرن بحركة قومية واسعة النطاق كشفت غير مرة عن قوتها وخطورتها بفورات عنيفة من العصيان المدنى وعدم التعاون والمظاهرات والمواكب الدموية . وما تزال السياسة البريطانية منذ ربع قرن تطاول وتداور وتبذل مختلف المحاولات لحل المسألة الهندية .

وليست المسألة الهندية إلا مسألة جميع الشعوب والأمم المغلوبة . وقد كان لاشتداد وطأة الحكم البريطانى فى الهند أثره فى إيقاظ الوعى القومى ، وحفز الشعب الهندى إلى المطالبة بحقوقه وحرياته التى طال الأمد على هضمها . وظهر عزم الهند جليا على النهوض إلى خوض غمار الكفاح الوطنى منذ أواخر الحرب الكبرى حيث كان للتضحيات العظيمة التى بذلتها الهند يومئذ لنصرة الإمبراطورية البريطانية أعظم الأثر فى تنبيه الشعب الهندى إلى أهمية الهند كعامل فى توطيد قوة الإمبراطورية ، وإلى المطالبة بحقوقه القومية المسلوبة .

وتعتبر الهند كلها من أملاك التاج البريطانى ، ولاتدخل فى عداد المستعمرات أوالحمايات . وتنقسم إلى وحدتين دستوريتين كبيرتين : الأولى الهند البريطانية وتبلغ مساحتها مليون ومائة ألف ميل مربع ، ويبلغ سكانها نحو ٢٧٠ مليونا وتشتمل على ولايات بورما وأسام وبنغالة وبهار وأوريسا والولايات المتحدة والبنجاب والولايات الشمالية الغربية وبلوخستان البريطانية وبومباى والولايات الوسطى ومدراس وجزائر أندمان ونيكوبار . وقد غدت بورما الآن وحدة منفصلة ذات نظام خاص . ويتولى حكم الهند البريطانية نائب الملك يعاونه مجلس تنفيذى هو مجلس الدولة ، وجمعية تشريعية ذات اختصاص محدود . والثانية هى الولايات الهندية المستقلة ، وتبلغ مساحتها أكثر من سبعمائة ألف ميل مربع ، وسكانها نحو ثمانين مليونا ؛ وتشمل الولايات الآتية : حيدر أباد ، وبارودا ، وميسور ، وكشمير ، وراچيوتانا ، والهند الوسطى وولايات بومباى وولايات مدراس ، والولايات الوسطى ، وولايات بنغالة ، والولايات المتحدة ، وولايات بنجاب وبلوخستان ، وسكيم والولايات الشمالية الغربية . وتعترف الولايات المستقلة بسيادة التاج البريطانى . ويتولى الحكم فيها أمير وطنى مطلق السلطان ، ولكل منها جيش خاص وميزانية خاصة ، ولكن يحد من سلطان الأمير وجود مقيم بريطانى إلى جانبه . ولا يحق للأمير أن يعقد معاهدات أو محالفات داخلية أو أن يعلن الحرب أو أن يسىء معاملة السكان . فإذا أساء إدارة الإقليم عزل وعين مكانه أمير وطنى آخر . ومعنى ذلك أن أمراء الولايات المستقلة لايعدون أن يكونوا حكاما محليين تابعين مباشرة للتاج البريطانى .

وقد اتخذت الأمانى الهندية منذ البداية صورة المطالبة بالاستقلال الذاتى ، واقترنت هذه الأمنية بسائر الحركات العنيفة التى اضطرمت بها الهند فى سبيل المطالب الوطنية منذ نهاية الحرب الكبرى . ولكن السياسة البريطانية ترى أن تعتبر المسألة الهندية مسألة دستورية فقط تتعلق بنظام الهند الدستورى والشكل الذى يتخذه هذا النظام فى ظل الإمبراطورية . وكانت هذه النظرة المتواضعة رائد السياسة البريطانية فى جميع ما اتخذته من خطوات لمعالجة المسألة الهندية حتى اليوم . ونستطيع أن نقسم محاولات السياسة البريطانية فى هذا السبيل إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى

وتبدأ المرحلة الأولى منذ أواخر الحرب الكبرى ، وذلك حينما اشتدت حركة المطالبة بالاستقلال الذاتى ، وشعرت بريطانيا بأن الوعى القومى الهندى بدأ يتخذ وجهة عدائية . فعندئذ رأت الحكومة البريطانية فى هذه المرحلة الدقيقة التى مازالت تواجه فيها الإمبراطورية أخطار الحرب أن تبادر إلى العمل ، فأوفدت فى سنة ١٩١٧ مستر مونتاجو (اللورد فيما بعد) وزير الهند إلى الهند للبحث فيما يجب عمله نحو إنشاء حكومة هندية ذاتية . وفى العام التالى صدر تقرير مشترك من اللورد شلمسفورد نائب الملك ومستر مونتاجو يقترح بعض إصلاحات دستورية وإدارية فى هذا السبيل ، فلقيت هذه المقترحات أشد معارضة من زعماء الجبهة القومية ، وبدأ غاندى دعوته الشهيرة إلى العصيان المدنى ، وتوالت الاضطرابات والمصادمات الدموية فى الهند فى الأشهر التالية . وعدلت المقترحات أثناء ذلك على يد لجنة برلمانية . وفى ديسمبر سنة ١٩١٩ صدر قانون الهند الجديد المعروف بقانون مونتاجو وشلمسفورد تحقيقاً لما وصفته السياسة البريطانية يومئذ بأنه العمل على ترقية نظم الحكم الذاتى فى الهند والسير بها قدماً فى سبيل إقامة الحكومة المسئولة . وأخص مافيه أن يجعل مجلس الدولة مجلساً تشريعياً ثانياً ، وأن تختص الجمعية التشريعية بإقرار الميزانية ، وأن تمنح بعض الضمانات الطائفية ، وأن يمثل الهند لدى حكومة لندن مندوب سام . وهكذا اقتصر التعديل على المظاهر الشكلية ، ولم يتقدم كثيراً فى سبيل إنشاء الحكومة الهندية المسئولة . بيد أنه نص فى القانون الجديد على « أنه لما كان التقدم فى تحقيق نظام الحكم الذاتى فى الهند البريطانية لايمكن إجراؤه إلا بمراحل متعاقبة ، فإنه يجب بعد عشرة أعوام أن تنتدب لجنة للبحث فى سير الدستور الجديد ، واقتراح مايجب إجراؤه فيه من التغييرات » .

المرحلة الثانية

وقطعت الهند بعد صدور الدستور الجديد بضعة أعوام مليئة بالاضطرابات والكفاح القومى . ولكن السياسة البريطانية لم تعدل عن خطتها المرسومة .

وفى سنة ١٩٢٨ حينما اقتربت نهاية الأعوام العشرة ندبت الحكومة البريطانية لجنة للإصلاح الدستورى الهندى برآسة السير جون سيمون، وذلك لكى تبحث «كيفية سير الإدارة الحكومية ونمو التعليم وتقدم النظم النيابية فى الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشؤون، ثم التقرير عن مبدأ الحكومة الذاتية: هل يُرْغَبُ فى تطبيقه، وإلى أى حد؟ وهل يجب توسيع أو تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتى القائمة؟»

وأنفقت لجنة الإصلاح الدستورى فى الهند بضعة أشهر فى البحث والدرس ثم أصدرت بعد عامين تقريرها الضخم، وفيه تنوه فى أكثر من موضع بعدم صلاحية الشعب الهندى لأى نوع من انواع الحكومات الذاتية المسئولة، وتقرر أن تجربة الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة القويمة التى تتبع. ويفيض التقرير فى التنويه بظروف الهند الخاصة من خلاف طائفى راسخ، وتقاليد دينية متضاربة، وتعدد لا مثيل له فى الأجناس والأديان واللغات والخواص الأخلاقية والاجتماعية. وأبدت اللجنة فيما يتعلق بالتوصيات بعض مقترحات أهمها أن يؤخذ بمبدأ التمثيل الطائفى فى كل إصلاح دستورى ينفذ، وأن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة تتكون من ولايات متحدة، وأن تعدل حدود الأقاليم الحالية، وأن يحصر حق الانتخاب فى طبقات معينة لا تتعدى عشرة فى المائة من مجموع السكان، وأن تفصل ولاية بورما عن الهند البريطانية؛ لأنها تكوّن وحدة مستقلة بذاتها. هذا إلى طائفة أخرى من الاقتراحات لإصلاح التعليم والنظم الإدارية. وهكذا جاءت توصيات لجنة الإصلاح الدستورى مخيبة لآمال الزعماء الهنود والشعب الهندى. واقترنت فترة نشاط اللجنة وظهور تقريرها بطائفة جديدة من الاضطرابات والقلاقل، وأضحى واضحا أنه يجب على السياسة البريطانية أن تلتمس لتهدئة الحركة القومية الهندية وسائل أخرى.

وفى ذلك الحين كانت وزارة العمال فى كراسى الحكم، وكان الأمل معقودا بأن تتخذ الحكومة البريطانية بعض خطوات عملية لحل المسألة الهندية. وأذاعت الحكومة البريطانية بالفعل على لسان نائب الملك فى الهند بيانا رسميا عن مستقبل الهند الدستورى، خلاصته أن الحكومة البريطانية ترى أن الوقت قد حان لتحقيق غاية الحكم الذاتى التى يشير إليها قانون حكومة الهند الصادر

فى سنة ١٩١٩ (قانون مونتاجو وشلمسفورد) وأنها ستعمل على عقد مؤتمر عام تمثل فيه الهيئات الهندية ذات الشأن كلها ، وتبحث فيه المسألة الهندية برمتها . وبالرغم من أن توصيات لجنة سيمون لم تكن طيبة ولا مشجعة ، فقد حافظت الحكومة البريطانية على وعدها فى عقد المؤتمر . وعقد هذا المؤتمر الذى عرف بمؤتمر المائدة المستديرة بالفعل فى أكتوبر سنة ١٩٣٠ فى لندن ، ومثلت فيه جميع الهيئات والطوائف الهندية ذات الشأن ، وشهده غاندى فى مراحله الأخيرة ، كما مثلت فيه الإمارات المستقلة . وقطع المؤتمر شوطا بعيدا فى الاتفاق على المبادئ العامة ، ولكنه اصطدم بالخلاف الحاد بين الهندوس والمسلمين على مبدأ التمثيل الدستورى ؛ فقد تمسك الهندوس وتمسك غاندى بأن يجرى هذا التمثيل على القاعدة القومية دون وزن للاعتبارات الطائفية ، وتمسك المسلمون بمبدأ التمثيل النسبى والطائفى ، وهو ما كانت تميل الحكومة البريطانية إلى الأخذ به ، وتمسك الأمراء المستقلون باستقلالهم المحلى وارتباطهم المباشر بالتاج البريطانى ، وانتهى المؤتمرون دون الوصول إلى اتفاق .

وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة البريطانية أنه ما دام الهنود أنفسهم لم يستطيعوا الاتفاق على مسائلهم الخاصة ، فانها لا ترى مناصا من أن تأخذ الأمر بيدها وفقا للسياسة التى قررتها فى شأن الإصلاح الدستورى . وفى سنة ١٩٣٥ صدر قانون جديد للهند ينظم أوضاعها الدستورية ، وهو ينص على أن يكون للولايات الهندية حكومات برلمانية مسئولة ، وأن تقوم جمعية تشريعية اتحادية تمثل الهند البريطانية والولايات المستقلة معا ، وأن توضع السلطة التنفيذية فى يد وزراء مسئولين أمام الجمعية التشريعية ، وأن يحتفظ الحاكم العام - نائب الملك - بالإشراف على شؤون الدفاع والشؤون الخارجية . على أن هذا القانون الذى يمثل أقصى ما ذهبت إليه السياسة البريطانية فى مسألة الاستقلال الذاتى لم يتح له أن ينفذ تنفيذا تاما ؛ لمعارضة أمراء الولايات المستقلة فى نظام الحكومة الاتحادية . وعلى ذلك فقد استمر النظام الدستورى القديم (نظام سنة ١٩١٩) نافذا فيما يتعلق بتشكيل الحكومة المركزية حتى قامت الحرب العالمية الثانية .

المرحلة الثالثة

وهنا يعيد التاريخ نفسه ، وتجد بريطانيا نفسها للمرة الثانية مشتبكة فى صراع مميت مع ألمانيا وحلفائها ، وتجد الهند نفسها للمرة الثانية وقد دُفعت إلى خوض حرب لم تردها ، وسخّرت مواردها ومئات الألوف من أبنائها لمؤازرة بريطانيا والدفاع عن الإمبراطورية البريطانية . وكان موقف الهند فى هذه المرة أخطر وأدق ، نظراً لخطورة الأحوال فى الشرق الأقصى ، وما تنطوى عليه خصومة اليابان لبريطانيا ، حتى قبل أن تقع الحرب بين الدولتين ، من الاحتمالات الخطيرة . وهنا بادرت السياسة البريطانية كما فعلت أثناء الحرب الكبرى إلى بذل وعودها المعسولة . ففى أغسطس سنة ١٩٤٠ أعلن نائب الملك اللورد لنلثجو أن الحكومة البريطانية تقطع على نفسها عهدا بأن تمنح الهند نظام « الدومنيون » أو الأملاك المستقلة ، ولكن بشرط أن يتحقق الاتفاق بين الطوائف الرئيسية ؛ لأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تفوض السلطة إلى أى حزب لا تعترف بسلطانه أقليات ذات شأن ؛ وأن هذا العهد الجديد الذى يمنح الهند الاستقلال الذاتى سوف ينفذ عقب انتهاء الحرب مباشرة ، وسيضطلع الهنود أنفسهم بوضع الدستور الهندى الجديد .

وبالرغم مما ينطوى عليه هذا العهد الجديد من تقدم واضح فى تحقيق الأمانى الهندية ، فقد بدا يومئذ فى ثوبه الحقيقى عهدضرورة ملحة كمعظم العهود التى تقطعها السياسة المرنة تحت ضغط الحاجة الطارئة . ومن ثم فقد استقبلته الهند بفتور ظاهر . ولما رأت الحكومة البريطانية أنها لم تصل إلى الغرض المنشود فى التهدئة أوفدت وزيرا لامعاً من وزرائها هو السير ستافورد كربس إلى الهند فى مارس سنة ١٩٤٢ ؛ ليروج للمشروع الجديد ، وليقنع الزعماء الهنود بحسن نية بريطانيا . وكانت الأمور قد تفاقمت يومئذ فى الشرق الأقصى . ولم يمض على إعلان اليابان الحرب على بريطانيا وأمريكا بضعة أسابيع حتى سقطت سنغافورة وجزائر الهند الشرقية ، وأخذ الزحف اليابانى فى البر والبحر يهدد الهند نفسها ، ولم تُجْد محاولات السير كربس فى الإقناع والتهدئة شيئا ، بل على العكس اضطرمت الهند بفورة جديدة من الاضطرابات والقلاقل ، وطالب حزب المؤتمر بإقامة الحكومة الهندية المسئولة فى الحال ، وهدد غاندى بالانفاق

مع اليابان كما هدد بالعصيان والثورة . فعندئذ بادرت الحكومة بالقبض على غاندى وزملائه واعتقلوا حتى نهاية الحرب . ولبث الموقف على خطورته مدى حين . وفى سنه ١٩٤٣ تولى اللورد ويفل منصب نائب الملك ، وحاول مرة أخرى أن يقيم حكومة هندية مسئولة من جميع الأحزاب ، ولكنه لم يوفق ؛ لمعارضة حزب الرابطة الإسلامية ، وإصراره على أن يكون جميع الوزراء المسلمين من أعضائه . وهكذا أخفقت جميع المحاولات البريطانية للبدء فى تنفيذ السياسة الدستورية الجديدة . وانتهت الحرب العالمية الثانية وقد بذلت الهند فيها أضعاف ما بذلته فى الحرب الكبرى من الموارد والرجال ، ولكنها ما زالت أبعد من أن تظفر بتحقيق شىء من أمانيها التى تكررت بشأنها عهود السياسة البريطانية .

الموقف الحالى

ولما تولى حزب العمال البريطانى الحكم فى يوليه سنة ١٩٤٥ صرحت الحكومة البريطانية الجديدة فى خطاب العرش بأنها ستبذل أقصى جهدها لتحقيق الحكم الذاتى الكامل للهند فى أقرب وقت . وفى شهر مايو الماضى أوفدت الحكومة البريطانية بالفعل إلى الهند لجنة وزارية جديدة برآسة لورد لورنس وزير الهند ، ومن أعضائها السير ستافورد كربس وزير التجارة ، وتقدمت هذه اللجنة إلى الهند بمشروع جديد ، خلاصته أن تؤلف فى الحال حكومة قومية مؤقتة للهند يتولى الهنود جميع الوزارات فيها ، وأن تقوم بوضع الدستور الهندى الجديد جمعية تأسيسية تمثل فيها الطوائف الثلاث الكبرى : الهندوس والمسلمون والسيخ ، كل بحسب نسبتها العددية فى سائر الأقاليم على أن يمثل كل نائب مليوناً من الأنفس . أما قواعد الدستور الأساسية فتتلخص فى وجوب إنشاء اتحاد هندى يضم الهند البريطانية والولايات المستقلة مع اختصاص مشترك فى شؤون الدفاع والمواصلات الخارجية ، وإنشاء مجلس تشريعى مشترك يضم ممثلى الهند البريطانية والولايات المستقلة ، وأن تحتفظ الولايات بالإشراف على الشؤون المحلية الأخرى الخارجة عن اختصاص الاتحاد ، وأن تؤلف حكوماتها الخاصة . ولكل ولاية أن تطالب تعديل الدستور الجديد بعد مرور عشرة أعوام وذلك بأكثرية الأصوات . ويستبعد الدستور الجديد مشروع «الباكستان»

أو مشروع الدولة الإسلامية المنفصلة التى تنادى به أغلبيـة كبيرة من المسلمين .

ولا بد لنا هنا أن نشير بكلمة موجزة إلى مشروع « الباكستان » هذا الذى كثر الحديث عنه فى الأعوام الأخيرة . فكلمة « باكستان » تتألف من الحروف الأولى لأسماء الولايات الهندية الإسلامية ، وهى بنجاب وأفغان وكشمير والسند وترمز «تان» إلى بلوخستان ، وتقع هذه المقاطعات كلها فى شمال الهند الغربى ، وتضم كتلة إسلامية تبلغ زهاء ستين مليوناً . وللمسلمين أغلبية نسبية أيضاً فى مقاطعتى أسام وبنغالة فى شرقى الهند . وترى الأكثرية المسلمة التى يمثلها حزب الرابطة الإسلامية أن تؤلف من هذه الولايات المسلمة دولة إسلامية منفصلة هى التى يرمز إليها بمشروع « الباكستان » ، وأن تحقيق هذا المشروع هو خير ضمان لحقوق المسلمين الطائفية ، وخير كفيل بحمايتهم من طغيان الأكثرية الهندوسية الساحقة . ويؤيد المسلمون تمسكهم بالضمانات الطائفية بأسباب أدبية ومادية . أما البواعث الأدبيـة فترجع إلى أن لهم تاريخاً مجيداً وحضارة إسلامية عريقة ترجع إلى أيام سلطانهم وسيادتهم على الهنـد كلها . وأما البواعث المادية فترجع إلى تجاربهم المرة مع الأكثرية الهندوسية كلما أتيح لها أن تعمل باسم الأغلبية ؛ فهى تعمل دائماً على غمط حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . وقد ظهر هذا الطغيان الطائفى بأجلى صورة منذ قيام حكومة حزب المؤتمر فى المناطق التى توجد فيها أكثرية هندوسية ، تطبيقاً لقانون الهند الجديد . ولا يريد المسلمون أن يتخلصوا من السيطرة الإنجليزية ليقعوا تحت سيطرة الهندوس الطائفية . فهذه البواعث كلها تحملهم على التمسك بمبدأ التمثيل الطائفى والضمانات الطائفية .

ولذلك لم يبد المسلمون حماسة فى تأييد المشروع الدستورى الجديد ؛ لأنه يأخذ بنظرية التمثيل العددى ولا يأخذ بمبدأ التمثيل الطائفى ، ولا يقدم أية ضمانة حقيقية للأقلية الإسلامية الكبرى التى تبلغ زهاء تسعين مليوناً . ولم تسفر المفاوضات التى دارت بين اللجنة الوزارية البريطانية وبين حزب المؤتمر الذى يمثـل الأكثرية الهندوسية ، وحزب الرابطة الإسلامية الذى يمثل الأكثرية المسلمة عن الاتفاق على وسائل تنفيـذ المشروع الجديد من إقامة الحكومة الهندية المسئولة والجمعيـة التأسيسية التى تتولى وضع الدستور

الهندى . ولا يبدو أن هناك أملا فى الاتفاق المنشود مادام الخلاف قائماً بين المسلمين والهندوس على مبدأ التمثيل الأساسى .

والظاهر أن حكومة العمال البريطانية إذا ما يئست من الاتفاق مع الهنود أنفسهم قد تعمد إلى مثل ما عمدت إليـه فى سنة ١٩٣٠ على أثر إخفاق مؤتمر المائدة المستديرة ، فتأخذ الأمر بيدها ، وتحاول أن تقوم بتنفيذ السياسة الدستورية الجديدة من جانبها معتمدة على بعض العناصر الهندية الأكثر اعتدالا .

تلك هى أطوار المسألة الهندية منذ بداءتها ، وهذا هو المدى الذى استطاعت السياسة البريطانية أن تذهب إليه فى محاولة حلها ، وذلك خلال ثلاثين عاماً أو تزيد تكررت فيها وعودها وعهودها المأثورة .

محمد عبد الله عنان

من ذكريات جبل رضوى

[الواقع فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة إلى الجنوب ، فى رحلة جلالتى المليكين المعظمين فاروق وعبد العزيز . وهذه القصيدة وصف لذكريات مباهج البادية فى صحراء تلك الرحلة الشائقة على شاطىء البحر الأحمر .]

طوينا إليك البيد حين نسير ... وفى الصدر منا لوعة وزفير
لسائل عن رضوى ، وما أنت قصدنا ... ولكن لنا بالسفح منك أمور
تشامخت فى الأعنان تبغى سماءها ... كأن لم يكن بالمأزمين « ثبير »[1]
كأنك فى تلك المنازل مفرد ... وما لك فى ذاك الشموخ نظير
ونحن نعد السير نطوى فيافياً ... وبيدا ، ويحوينا ضحى وبكور
فطورا بسيف البحر مالت ركابنا ... وطورا بأحقاف الرمال تغور
نسير خفافاً ننهب البيد تارة ... وطورا على وحش الفلاة نغير
فكم ربرب رعناه والسرب آمنٌ ... وكم جؤذر جئناه وهو يسير
مشينا إلى أسرابها وهى رُتَّعٌ ... نعاجلها بالقنص حين تحور
تروح الظباء الغر عنا تهاديا ... بها مَيَل فى عطفها وغرور
نراوحها ذات اليمين ، فإن أبت ... قراراً فمن ذات اليسار ندور
فما هى إلا لحظة ثم لحظة ... وأخرى ، وإذ بالسرب وهو أسير
يَقَرُّ به الصياد عيناً وغبطةً ... ويطعم منه جائع وفقير

لك الويل يا تلك الظباء ، فإنها ... شبيهاتها فى المحصنات بدور
ولا فرق إلا أن تلك كِناسها ... فلاة ، وتلكم فى المدائن دور

(١) ثبير : جبل مشهور فى منى .

وفى النفس ما فى النفس من صبواتها ... ومن عبث الأهواء حين تجور
وما العيش إلا صبوة أو علالة ... وما هو إلا نعمة وحبور

ولما بدا المخيام للركب أشرقت ... مباهج أنس جمة وسرور
تراءى كأسراب الحمائم جثماً ... طيور ، تباريها هناك طيور
تناثر فيه الكهرباء كأنها ... نظيم ، بلبات الحسان ، نثير
ففى الصبح وضاح الأسرة مشرق ... وفى الليل وهاج الأسرة نور

فياسفح رضوى جادك المزن والحيا ... وحياك منهل السحاب غزير
وياسفح رضوى كنت بالأمس مغفلا ... وما لك فى سمع الزمان عبور
وكنت وما فى الناس عنك مسائل ... وذكرك دون الأصغرين يسير
ولكنها الأيام فيما يرونها ... تداور أحداث الورى وتدور
فهاك يثار اليوم ذكرك خافقاً ... وكل إلى ما فى رباك يشير
تطلعت الأنظار نحوك فجأة ... وأصغى إلى نجوى رباك ضمير
أضفت إلى التاريخ سفراً مجدداً ... له فى سجل الخالدين سطور
فيا لك من واد فسيح منضر ... به روضة فياحة وغدير
ويالك من روض به السفح مونق ... بهيج بأعلى التلعتين نضير
فإن أنس لا أنسى بسيفك شاطئاً ... يقوم عليه سبسب وصخور
جواهره فى منظر العين تشتهى ... لتزدان منها أذرع وصدور
وأصدافه من خالص الحسن لؤلؤ ... تمنته من غيد الملاح نحور
جلسنا إلى نجواك نصغى لهمسها ... وما هى إلا ضفة وخرير
جلسنا وقرص الشمس يبدو اصفراره ... يجر إليك الذيل وهو كسير
فما هو إلا أن حوته لفائف ... من الموج ، فانثالت عليه بحور
وما هو إلا أن أطل مكانه ... من الأفق بدر فى السماء منير
فيا من رأى بحراً وبدراً كلاهما ... مع البيد فى ليل الربيع سمير

[مكة] ... فؤاد شاكر

بريطانيا وسر قوتها

من حق حليفتنا العظيمة علينا أن نتناولها بشيء من البحث بين حين وحين . فقد ارتبط تاريخنا القومى بتاريخ بريطانيا وإمبراطوريتها ارتباطاً مباشراً خلال هذه السنوات السبعين الأخيرة ، وارتباطاً غير مباشر فيما سبق ذلك من سنين . بل إن ما بيننا وبين تلك البلاد من أسباب إنما يرجع إلى أيام أن سعى البريطانيون إلى أرض مصر يحاربون على أبوابها أسطول نابليون أيام الحملة الفرنسية . . . ولقد كنا ننظر إلى بريطانيا خلال هذه السنوات الطويلة نظرات تختلف بين الصداقة حيناً والعداء أحياناً ؛ حتى استقرت بنا الحال آخر الأمر فاتخذنا منها حليفة عظيمة ، أخلصنا لها الصداقة فى كثير من أوقات المحنة وساعات الشدة ، وإن كانت لم تذكر لنا كل ما ينبغى أن تذكره أيام السلم وساعات الرخاء . ولسنا نود فى هذا المقال أن نتناول ما بيننا وبينها من أسباب قد يختلف فى تقديرها الناس ، فيرى فريق منهم أنها تقوم على أساس من المصالح الحقيقية والمنافع المتبادلة ، ويرى فريق آخر أنها تقوم على صداقة من ذلك النوع الذى قال فيه الشاعر إنه ليس منه بد . وإنما نود أن نسجل أن هذه الأسباب والصلات ، مهما يكن مردها ومرجعها ، فإنها تفرض علينا — ولمصلحتنا نحن — أن نحاول أن نتعرف شيئاً عن تاريخ بريطانيا الحديث ؛ لعلنا أن ندرك بعض مصادر القوة وأسرارها فى حياة هذه الحليفة التى كان لها أثر خطير فى توجيه كثير من شؤوننا القومية فى العهد الحديث . وخير لنا فيما نحن بسبيله من جهاد أن نكون بصيرين بهذه القوة التى ندافعها وتدافعنا من أن نغض الطرف عن أسرارها ، ولا نبالى بمعرفة شيء عنها .

وبريطانيا جزيرة صغيرة ، تجاورها جزيرة أخرى أصغر منها ، وعدد من الجزر المنتشرة حولها فى الجنوب والغرب والشمال . ولا تكاد تجاوز مساحتها جميعاً ١٢٥,٠٠٠ ميل مربع ، أو أقل من ¼ ٪ من سطح اليابس ؛ ولا يكاد

سكانها جميعاً يجاوزون ٥٠ مليوناً أو حوالى ٢½ ٪ من مجموع سكان الأرض. وتقع تلك المجموعة من الجزر فى منطقة نائية بالنسبة للعالم القديم ؛ فهى فى أقصى شمال أوربا الغربى ، بعيدة عن قلب العالم ، حيث نشأت الحضارات القديمة ، وحيث ظهر التاريخ وازدهرت المدنية فى وقت كانت فيه تلك الجزر فى دور بدائى ، وكان أهلها يعيشون على هامش الحياة ، يسكنون الكهوف أو ما يشبه الكهوف ، ويعيشون على صيد البر والبحر ، وعلى شيء قليل من الجمع والالتقاط ، قد انزووا فى جزرهم النائية بعيداً عن العالم ، وقبعوا هناك لايعرفون شيئاً عن الناس ، ولا يكاد الناس يعرفون عنهم شيئاً .

وبقيت الحال كذلك حتى عهد الكلتيين الذين سبقوا الرومان ووطدوا العلاقة بين بعض أجزاء بريطانيا الغربية وبين شمال فرنسا وغربها . ثم جاء الرومان أنفسهم فغزوا بريطانيا ، وفتحها يوليوس قيصر ، وامتد استعمار الرومان حتى أطراف أسكتلندة الجنوبية ، ونفذت معه بعض معالم المدنية الرومانية إلى الجزر البريطانية ، ثم تلا ذلك اتصال متعاقب بين الجزر والقارة ، فوصلت بعض موجات من الغزاة والفاتحين والمهاجرين من النرمنديين والسكسونيين وغيرهم . ومع ذلك كله فقد بقيت الصلة بين بريطانيا والقارة ضعيفة محدودة ، حتى جاءت النهضة الحديثة ، فأخذت بريطانيا معالمها عن القارة ، وعاصر ذلك إلى حد كبير ظهور الاستكشافات البحرية إلى أمريكا والهند وغيرها من بقاع الأرض فيما وراء البحار ، وسعت أوربا حثيثاً إلى أن تتصل بالعالم الخارجى لتتجر معه أو لتستعمره . وهنا برزت قيمة الموقع الجغرافى للجزر البريطانية كمحطة عند باب أوربا الخارجى فى عرض المحيط ، وبدأت بريطانيا رويداً رويداً تتزعم حركة التوسع الأوربى إلى الخارج ، فبنت قوتها البحرية العتيدة ، وتغلبت على الأسبان والهولنديين وغيرهم ممن حاولوا التحكم فى مخارج البحر ومسالكه . ثم جاءت فى أعقاب ذلك النهضة الصناعية المعروفة ، التى ساهم فيها العلم والتطبيق العملى ، فظهر لون جديد من المدنية المادية التى تستند إلى استغلال موارد القوى المحركة والصناعة الآلية فى نطاق متسع . وهنا أيضاً برزت قيمة بريطانيا التى جمعت إلى غناها بالموارد المعدنية الصناعية اتصالها الوثيق بالعالم الخارجى ، حيث يمكن استجلاب المواد الخام التى لا تنتجها أوربا ، حيث يمكن تصريف المصنوعات الحديثة فى أسواق لم يكن

من العسير استغلال أهلها فى تجارة ، لا يمكن أن يستوى فيها جهل المشترى وغفلته ، بعلم التاجر وفطنته . وهكذا انتهى الأمر بأن غدت بريطانيا دولة قوية ، بل نواة لإمبراطورية امتدت فيما وراء البحار ، حتى صارت أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ .

وقد لا يكون من اليسير تعليل هذا الدور الكبير الذى كتب لبريطانيا وجزرها الصغيرة أن تلعبه فى تاريخ العالم الحديث ، والذى لا يتناسب مع ما نعرف عن هذه الجزر من صغر المساحة وقلة السكان ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعرض لعدد من العوامل الأساسية التى مهدت لهذا الدور . وبعض هذه العوامل طبيعى ، يتصل بطبيعة الجزر نفسها وبمواردها الطبيعية ومناخها وموقعها الجغرافى وغير ذلك ، وبعضها الآخر بشرى يتصل بالسكان وتكوينهم ومقدرتهم على استغلال ظروف البيئة والموقع الجغرافى . بل إن بعض تلك العوامل لا يتصل ببريطانيا ذاتها ، ولا بأهلها وحدهم ؛ وإنما يمتد إلى خارج الجزر ، فى القارة المجاورة ، أو بعيداً عنها فيما وراء البحار .

والذى يدرس الجزر البريطانية دراسة مفصلة لا يلبث أن تأخذه حقيقة جغرافية رائعة . . . ذلك أن هذه الجزر على صغرها معقدة التركيب والتكوين إلى حد غريب ؛ فهى مكونة من صخور مختلفة ، يرجع أقدمها إلى أبعد الأزمنة الجيولوجية ، ويرجع أحدثها إلى الزمن الجيولوجى الأخير ، وهى تكاد تشمل الأزمنة والأعصر الجيولوجية جميعاً . ثم إن هذا التنوع فى أعمار الصخور وعصور تكوينها يزيد من تعقيده أن الصخور من أنواع مختلفة ، منها النارى والرسوبى والمتحول ، ومنها الطينى والرملى والجيرى وغير ذلك . وقد كان لهذا التنوع والتعقيد فى أنواع الصخور وأعمارها ، وكذلك فى تركيبها وبنيتها ، أثره الكبير فى غنى الثروة المعدنية وتوافرها . ومن المسلم به أنه كلما تباينت الصخور وتنوعت زاد احتمال العثور على المعادن ذات القيمة الصناعية بين طبقاتها . ولو أن بريطانيا كانت بسيطة التكوين نسبيًّا ما توافرت لها كل تلك الثروة المعدنية التى كانت أساس النهضة الصناعية فى العهد الحديث . . . بل ما توافرت لها بعض المقومات الاقتصادية الأخرى التى ترجع إلى التكوين الجيولوجى ، ومنها جودة التربة الركامية وغيرها فى المناطق السهلية ، والجهة الجنوبية الشرقية من انجلترا بصفة خاصة ، مما يسر لبريطانيا فى بعض فترات أن

تضاعف إنتاجها الزراعي في الأغذية ، كما حدث إبان هذه الحرب المنتهية .

وإلى جانب هـذا التنوع في التكوين الجيولوجي للبيئة البريطانية ، هناك تنوع آخر في التكوين البشري لسكان تلك الجزر . فبريطانيا وأخواتها جزر يفصلها عن القارة بحر ضيق ، عبرته دفعات متتالية من المهاجرين الذين استقرت بهم الحال هناك ؛ فهي لم تكن في تاريخ عمرانهـا الجنسي مجرد معبر أو طريق هجرات ، كما حدث في بعض جهات القارة ، وإنما تجمعت فيها العناصر المختلفة ، واختلط بعضها ببعض ، حتى إنه ليقال عن البريطانيين كما نعرفهم الآن إنهم يتكونون في الأصل من ثماني سلالات متباينة ؛ فمنهم النوردي الأشقر الممشوق القامة ، والذي أتى من اسكندناوة وأقصى شمال أوربا ؛ ومنهم الألبي الربعة العريض الرأس ، الذي أتى من وسـط القارة ؛ ومنهم عنصر البحر الأبيض المتوسط المعتدل القوام الأسمر الشعر والبشرة ، والذي أتى من جنوب أوربا الغربي ، ووصل بريطانيا دائراً مع البحر والساحل ؛ ومنهم السكسونيون والنرمنديون وغيرهم من العناصر المختلطة الدم والتكوين ، والتي لا يتسع المقام هنا لسردها وذكر أصولها وأنسابها وطرق هجراتها قبل أن تبلغ هامش القارة .

ولـكن الشيء المهم أن هذا التنوع الجنسي في تكوين البريطانيين معناه تنوع الملـكات والاستعداد بين سكان الجزر . ومع أن هذا التنوع والاختلاط كان مصدر تفكك وضعف بين السكان في العهود القديمة وبعض العهود الوسيطة ، فقد استحال بالتدريج إلى امتزاج وتزاوج بين العناصر المختلفة ، تحقق معه في العهد الحديث ما يسميه البريطانيون «الوحدة في التنوع» unity of diversity وبذلك صار تنوع العناصر واختلاف السـلالات بين سكان الأمة المتحدة أو المملـكة المتحدة في انجلترا واسكتلندة وبلاد الغال وإيرلندة (أو جزء منها) وبقية الجزر المتناثرة ، عامل قوة وتماسك في العهد الحديث ، بعد أن كان عامل ضعف وتفكك في العهود السابقة .

وهنا لابدّ لنا من أن نشير إلى نظرية جنسية كثر الـكلام عليها في السنوات الحديثة . تلك التي تقول بضرورة نقاء الجنس أو السلالة ليصبح التكوين القومي للأمة متجانساً قويـّا . وقد حاولت الفلسفة النازية في ألمانيا الهتلرية أن تطبق تلك النظرية في شيء كثير من المغالطة العلمية ؛ فادعت أن الألمان آريون ، أو أنهم على الأقل ينبغي أن يكونوا جميعاً من الآريين الخالصين . ومع أن لفظ

« آرى » هذا ليست له على التحقيق دلالة جنسية صادقة ، نظراً لاختلاط الدماء والسلالات بين المجموعة الآرية من بنى البشر ، فإن الألمان النازيين قد تمكنت منهم فلسفة النقاء الجنسى إلى درجة التعصب ، فعملوا على إقصاء كثير من العناصر غير الآرية ، بصرف النظر عما قد يكون لها من قيمة فى تكوين الأمة الألمانية . أما البريطانيون فقد كانت نظريتهم على نقيض ذلك تماماً ؛ فهم قد استمسكوا « بوحدتهم المتنوعة » ؛ وهم قد نظروا إلى اختلاط الدماء فيهم على أنه مصدر قوة يعتز بها ويحافظ عليها ؛ ولا بأس — بل قد يكون من الخير — أن يُداوم على تغذيتها بدماء جديدة من الخارج . ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الأيام والتجربة قد أثبتت صحة النظرية البريطانية ورجحانها على نظرية النقاء الجنسى . . . ولعل هذه الأيام والتجارب نفسها تزيد من إثبات نظرية الاختلاط والتنوع عندما يزداد بروز قيمة هذا العامل فى مستقبل بلاد كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى ، حيث تتنوع السلالات وتختلط الدماء إلى حد يفوق فى مداه ومقداره ماحدث فى بريطانيا على نطاق مصغر .

إذن كان هناك تنوع فى مظاهر البيئة الطبيعية فى بريطانيا ، يعادله تنوع فى سلالات السكان ومزاياهم ومؤهلاتهم . على أننا فى استعراض التكوين الجنسى لسكان هذه الجزر ينبغى أن نلحظ أثر البحر الذى يفصل بين بريطانيا والقارة ؛ فهو لم « يقطع » صلة الجزر بالقارة تماماً ، وإنما « نظّم » تلك الصلة ، وكان بمثابة المصفاة للعناصر والهجرات التى تقدمت من ناحية الشرق واتجهت غرباً ، حتى إذا ما وصلت إلى شواطىء أوربا وحافتها الغربية قعدت العناصر الخاملة والقانعة منها ولم تشأ أن تغامر فتعبر البحر إلى جزر لا تعرف من أمرها وظروف المعيشة فيها شيئاً ؛ أما العناصر المخاطرة والمغامرة فلم يقعدها البحر ، وإنما كان حافزاً لها على أن تستطلع ما وراءه . وهكذا كان البحر مصفاة كما ذكرنا ، فلم يصل إلى بريطانيا على وجه العموم غير العناصر المخاطرة التى لايخيفها البحر ولا تقعدها أخطاره . ولعلنا نجد فى ذلك مايفسر لنا نشاط أهل بريطانيا فى العهد الحديث ؛ فهم قد تجمعوا فى جزرهم ، حتى إذا ما تهيأ الظرف المناسب وحانت الفرصة المواتية بعد عصر الاستكشافات البحرية وظهور الاستعمار ، انتشر سكان بريطانيا المنحدرون من سلالة أولئك المخاطرين الأول ، فجابوا وجه الأرض ، وكوّنوا إمبراطوريتهم المترامية الأطراف فيما وراء البحار ،

وعمروا كثيراً من أقطار العالم الخالية إذ ذاك فى أمريكا الشمالية واستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب إفريقية وغيرها . . . ولو أن سكان بريطانيا كانوا كغيرهم من سكان الشواطىء المواجهة من أوربا الغربية ما استطاعوا أن يقوموا بذلك الدور الاستعمارى الفريد ، وعلى الوجه المعروف فى التوسع البريطانى ، الذى كان لابد أن يقوم به عنصر عريق فى المغامرة وركوب الأخطار .

وهناك عامل آخر كان له أكبر الأثر فى شحذ نشاط سكان بريطانيا ، وفى حفز هممهم على العمل والكفاح الذى يتطلبه العهد الحديث وحضارته المادية . ذلك أن المناخ هنا من ذلك النوع المعتدل البارد الذى يعين على النشاط الجسمانى ، ويستلزم الحركة الدائبة ؛ فلا هو مناخ حار يتراخى له الجسد ، وتخمد الهمة وتفتر الحركة ، ولو فى فصل من العام ؛ ولا هو مناخ قارس يجمد له الجسم وتشل الحركة ويقف العمل فى أشهر الشتاء ؛ وإنما هو مناخ بارد قد لطفه المحيط وتياراته الدفيئة ، بحيث أصبح مناسباً أشد المناسبة للعمل الدائب والجهاد الذى لايكاد يأخذه إجهاد . وفوق ذلك كله فهو مناخ ُقلّب ، تتنازعه مؤثرات القارة المتطرفة ومؤثرات المحيط الملطفة ، فيؤدى ذلك إلى كثرة التغيير فى ظروف الطقس من يوم ليوم ، بل من ساعة لأخرى ؛ كما يؤدى إلى كثرة الزوابع والأعاصير التى لايستقر معها الجو على حالة واحدة . وبهذا كله أصبح الطقس غير مضمون ، ولا يمكن التنبؤ به ؛ فعلّم ذلك السكان الحذر وبعد النظر ، بل عدم التواكل وشدة الاحتياط ؛ كما علّمهم الجلد والمصابرة وترقب الفرج مهما طال انتظاره . وهذه كلها صفات نلمسها فى الخُلق البريطانى ، إذا ما نحن درسناه عن كثب . . . والمدهش الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن البريطانيين فوق استجابتهم لمقتضيات مناخهم وطقسهم الخاص ، قد شعروا فيما بينهم وبين أنفسهم بما لهذا المناخ والطقس من قيمة ينبغى أن يُعترف بها اعترافاً شعبيًّا ؛ فصار الجو والطقس حديثهم اليومى المعتاد ، لايكاد يلقاك أحدهم حتى يبادرك بالتحدث عنهما ، حديثاً ملؤه التبرم الهادىء الرزين ، أو الرضا الذى لايجنح إلى إسراف ، أو الأمل المقتصد فى أن تتحسن الحال !

ثم عامل طبيعى آخر كان له أثره الظاهر هو الموقع الجغرافى لهذه الجزر على حافة المحيط فى شمال القارة الغربى . وقد أثر هذا العامل فى نواح ثلاث : أولاها ما كان من أن بحر الشمال ومياه المانش لم تقطع الصلة بين الجزر والقارة ، وإنما

« نظمت » الاتصال بينهما على نحو مافعلت الصحراء المصرية مثلا بين وادى النيل وبقية بلدان الشرق . . . وقد ترتب على ذلك أن بريطانيا أفادت من صلاتها بأوربا ، فوصلتها معالم المدنية الأوربية من جنوب القارة ووسطها وشمالها ، ولكن وصول تلك المعالم كان على دفعات متقطعة وبمقادير محدودة لم تطمس شخصية أهل الجزر ، الذين استطاعوا أن يحتفظوا على الدوام بطابعهم الحضارى الخاص . ولعل هذا هو السر فيما عرف عن البريطانيين من روح التحفظ بإزاء القارة ؛ فهم يتصلون بها ويأخذون عنها ويتدخلون فى شؤونها بين حين وحين ، ولكنهم مع ذلك لايندمجون فيها ، بل ينظرون إلى جزرهم على أنها ذات كيان مستقل وشخصية قائمة بذاتها ؛ فاتصالهم بأوربا يجب أن يبقى فى نظرهم داخل حدود معينة ونطاق مرسوم لايتعداه إلى خصائص الحياة البريطانية .

وأما الناحية الثانية التى أثر فيها الموقع الجغرافى للجزر البريطانية ، فتتمثل فى أنها تقع عند أبواب القارة البحرية فى الشمال الغربى . وقد انتقل مركز المدنية فى أوربا الحديثة إلى سهولها الشمالية ؛ وبذلك انتقل المدخل الأساسى للقارة فى احتكاكها مع العالم الخارجى من سواحل البحر المتوسط وأشباه جزره إلى سواحل الأطلسى فى شمال أوربا الغربى ، وتحكمت بريطانيا بفضل موقعها الجغرافى فى ذلك المدخل ؛ فكانت مثلاً فى أيام استعمار أمريكا محطة للسفن الخارجة من أوربا والمنطلقة نحو أمريكا تحمل المهاجرين ، ولتلك القادمة من الغرب تحمل السلع والمنتجات التى تفرغ فى موانى بريطانيا استعداداً لنقلها إلى سفن أخرى تتولى توزيعها على الموانى الأوربية . وهكذا تولت بريطانيا وموانيها مهمة الوساطة البحرية والتجارية بين أوربا وأمريكا من جهة ، ثم بين أوربا وبقية المستعمرات فيما وراء البحار من جهة أخرى . وقد عرف البريطانيون كيف يفيدون من هذه الوساطة إلى أبعد الحدود ، فنما أسطولهم التجارى ، وازدهرت موانيهم وأسواقهم ، ومنها لندن ذاتها التى صارت فيما بعد ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، مركزاً هامًّا من مراكز التسويق والمعاملات التجارية والمالية . . .

ومعروف أن التجارة والاشتغال بشؤون المال والقراطيس من أربح المهن وأبلغها اتصالاً بالحياة والعلاقات الدولية الحديثة . وقد استطاعت بريطانيا بسبقها فى هذه الشؤون أن تدعم مركزها العالمى بين الأمم إلى حد كبير ؛ وساعدها من ناحية التجارة والملاحة البحرية العالمية أن شعبها يجرى بحكم

تكوينه ، وأن شواطئها غنية بالمرافىء الطبيعية ، وبمصبات الأنهار الواسعة والصالحة للملاحة ، وأن تيار الخليج الدفىء يدور من حولها ، فيدفىء مياهها ويمنع تجمدها وعرقلة الملاحة فيها فى أشهر الشتاء . وبذلك كله كانت الطبيعة عوناً للإنسان فى بناء قوة بريطانيا الملاحية .

وأما الناحية الثالثة التى أثر فيها الموقع الجغرافى لجزر بريطانيا فهى الناحية العسكرية . ذلك أن البحر الذى يفصل بين الجزر والقارة أضفى على بريطانيا نوعاً من الوقاية والأمان . وقد كان على بريطانيا أن تشارك فى مشكلات القارة وحروبها الكثيرة فى العهد الحديث ؛ ولكنها بحكم إحاطة البحر بها ، وبما تجمع لها من قوة البحر وعُدّته ، كانت تلاقى أعداءها على صفحة الماء إن كان لهم من الأساطيل ما يشجعهم على تحديها أو محاولة قهرها ، كما حدث أيام حرب الأرمادا التى شنها الأسبان ، أو فوق أرض القارة وفى ميادين الأراضى الوطيئة وشمال فرنسا وأسبانيا وغيرها إن قعد العدو فى أوربا ولم يكن له من الأساطيل ما يناظر قوة بريطانيا سيدة البحار . ولذلك كله فإن أرض الجزر البريطانية ذاتها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوربية ، وإنما كانت بريطانيا تتخذ ميادينها البرية فى أرض غيرها من دول القارة التى أصابها الدمار والخراب مرة تلو مرة ؛ وحتى فى هذه الحرب المنتهية لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومرافقها العسكرية والمدنية على حد سواء . وهكذا استطاعت بريطانيا ، بفضل هذه الميزة الكبيرة ، أن تخرج من حروبها الكثيرة سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ، على عكس أمم أوربا البرية التى اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب فى الميدان ، والتى كان عليها عقب كل حرب أن تنفق السنين الكثيرة فى إصلاح ما خربته الحرب قبل أن تقف على قدميها وتجاهد جهاد الأقوياء .

بل هكذا كانت بريطانيا أسبق من غيرها إلى النهوض فى سنوات السلم ، واستعادة أسباب الرخاء والمنافسة القوية فى الشؤون الخارجية والتوسع الاقتصادى العالمى ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — وعلى وجه الإجمال — دون أن تمس أرضها أو مرافقها المادية بشىء يذكر ؛ فكأن كل حرب أوربية ساهمت فيها بريطانيا — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — كانت تضيف إلى

مقدرتها على المنافسة العالمية بالنسبة لغيرها من أمم أوربا المكافحة ، والتى كثيرا ما شغلتها شؤونها الداخلية فى أعقاب الحرب وألهتها ، ولو إلى حين ، عن أن تنافس فى ميدان التوسع الأوربى خارج القارة .

إلى هذه الأسباب جميعاً يرجع السر فى قوة بريطانيا وسبقها فى العصر الحديث . وهناك من غير شك أسباب أخرى — سياسية وتاريخية على وجه الخصوص — لم نحط بها ولم نشر إليها فى هذا المقال . ولكن ما أتينا به من المقومات الطبيعية والبشرية يكفى لنتفهم منه أن ما تجمّع لبريطانيا من القوة لم يأت نتيجة المصادفة ، وإنما هو قد ترتب على توافر عدد من العوامل والأسباب التى كانت تعمل متداخلة متكاملة ، والتى أتم بعضها بعضا حتى استطاعت هذه الجزر الصغيرة وسكانها المحدثون فى المدنية والمحدودون فى العدد أن يكوّنوا أمة قوية غنية ، قادرة على أن تسبق غيرها من الأمم الحديثة فى ميادين العمل والجهاد والتوسع والاستعمار ، بل قادرة أن تتخذ لنفسها مركز القيادة فى ميدان السيطرة العالمية ، فأنشأت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، جمعت فيها بين أهل الشرق وأهل الغرب ، وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، على نحو لم يسبق له نظير فى التاريخ . وقد ثبتت تلك الإمبراطورية لكثير من المحن والأزمات ؛ بل كانت فى الغالب تخرج من أزماتها أقوى مما دخلت . . . أو هى على الأقل كان هذا شأنها فيما مر بها من أزمات سابقة ، حتى جاءت هذه الحرب الأخيرة بأعقابها ونتائجها البعيدة التى لا يعلم مداها وأثرها النهائى غير الله !

ولكن ما لنا نتحفظ إلى هذا الحد ولا نحاول أن نستشف المستقبل فى موضوع نسعى الآن إلى أن نلجه من الناحية العلمية الخالصة ؟ ألأن هذا المستقبل مثقل بالاحتمالات التى لا ضابط لها ولا حاكم ؟ أم لأن هناك عوامل جديدة لا ترتبط بقوة بريطانيا ، وإنما تتصل بمصادر أخرى للقوى فى جهات أخرى من العالم ؟ أم لأن مبدأ السيطرة العالمية وقيامه على أساس التحكم فى اتصالات أوربا بالخارج لم يعد هو الحاكم الوحيد فى توازن القوى الدولية ؟ أم لأن الإنسانية أخذت تسير إلى غاية جديدة متلمسة طرقاً جديدة غير ما اعتادت أن تسير فيه خلال هذه الأجيال الأخيرة ؟ أم لأن بريطانيا التى كان

لها السبق فى ميدان السيطرة العالمية على غيرها من امم أوربا قد بدأت تفقد تلك الميزة ، فلحقت بها أمم جديدة بعضها فى أوربا وبعضها فى خارجها ؛ ولا بد من أن تلاحق الأمم بعضها بعضاً ، وأن يداول الله الأيام بين الناس على نحو جديد لن يكشف عن نتيجته غير الزمن ؟ قد تكون كل هذه الاحتمالات من الحقيقة فى شئ يسير أو خطير ؛ ولكن الشئ الذى نستطيع أن نستبينه — ومن الخير لنا أن نستبينه واضحاً جليًّا — هو أن الاتجاهات الحديثة فى اتصالات العالم ، وفى علاقات الدول والأمم بعضها ببعض ، قد أخذت تتبلور خلال هذا الجيل الأخير ، حتى اتخذت صورتها الواضحة مع نهاية هذه الحرب الأخيرة . وكل من يدرس النضال الحديث بين الأمم فى صورته الجديدة ، التى برزت للناس فى أواخر مراحل الحرب ، يدرك فى غير عناء أن الجماعات البشرية سائرة نحو التكتل ، وأن مستقبل القوة معقود لواؤه للأقوياء الكثيرين فى العدد والأغنياء فى الموارد ؛ ولم يعد هناك فى الحروب الكبرى التى توجه مصاير العالم شئ اسمه أمم صغيرة أو أمم متوسطة ، وإنما هناك أمم كبيرة تلتف من حولها أمم صغيرة وتتذبذب بينها أمم متوسطة أو شبه كبيرة . وقد خرجنا من هذه الحرب المنتهية — إلى جانب إقرار كيان الإمبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها فى بعض الأطراف — بأمتين كبيرتين ، ليس من اليسير حصر مواردهما الظاهرة والكامنة ، هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ؛ وبأمة أخرى قد يبدو شأنها خاملاً فى الوقت الحاضر ، ولكن المستقبل كفيل بالكشف عن قوتها الهائلة فى المال والرجال ، هى الصين التى تحتل مساحة تناهز مساحة أوربا بأسرها وتزيد عليها فى عدد السكان ؛ ثم بأمة أخرى عريقة فى المدنية والثقافة هى الأمة الفرنسية ، ولكن لن تبلغ ، هى وإمبراطوريتها ، من القوة المادية بعض ما بلغ الآخرون . على أن الشئ الذى لا يخلو من مغزى حقيقى هو أن بعض فلاسفة الوقت الحاضر وساسته الراسخين يرون بحق أن بريطانيا إذا انفردت عن إمبراطوريتها ، وتخلت عن سندها من الأمم الأخرى — أو تخلى عنها ذلك السند — فإنها لن تعدو أن تكون قوة متوسطة وأمة من المرتبة الثانية بين أمم المستقبل . ويظهر أن حلفاءنا البريطانيين ، رغم كل ما يقال من بطء إدراكهم وجنوحهم إلى التسويف بالوقت فى كثير من الأشياء ، كانوا أسرع الناس إلى إدراك هذه الحقيقة ، وإلى

العمل على تلافى مصدر الضعف الجديد الذى يهدد كيانهم الدولى والإمبراطورى . وإذا كان لنا أن نقرأ النتائج من المقدمات ، فإن ساسة بريطانيا يحاولون الآن رسم الخطة وتلمس الطريق إلى استكمال أسباب قوتهم المهددة ؛ فالإمبراطورية إن أرادت أن تقف أمام منافسيها فى المستقبل ، ينبغى أن تزيد من أسباب الترابط بين أجزائها ، وينبغى فوق ذلك أن تعمل على تكتل القوى فى مآخذ الإمبراطورية ومناطق الخطر فيها . وقد يكون الشرق الأدنى أو الأوسط مكمن الخطر الأكبر فى بناء الإمبراطورية . وبريطانيا محتاجة فى هذه المنطقة إلى أن تجمع من القوى وأن تكسب من الصداقات أكبر قدر تستطيع أن تجعله إلى جانبها . ومهما أظهر ساستها فى الوقت الحاضر من ألوان الصلف والاعتزاز ، ومهما تأثرت أقوالهم وأفعالهم بما يستشعرون فى هذه اللحظة من قوة مصدرها هذا النصر العظيم الذى أحرزته الإمبراطورية وحلفاؤها بأغلى ثمن ، فلا شك أنهم مدركون أن احتياج بريطانيا ، بحكم ما تمخضت عنه الحرب ، إلى الأمم الصغيرة والمتوسطة أكبر من احتياج تلك الأمم إليها . ولئن قيل فى وقت مضى إن قوة بريطانيا ضرورية للدفاع عن الشرق وأبوابه ومسالكه ، فإن من الحق أن يقال فى المستقبل إن صداقة هذا الشرق ألزم لسلامة بريطانيا وإمبراطوريتها من أية قوة تستطيع أن تخف بها إلى ميادينه . وليس من شك فى أن بريطانيا وساستها ، بل قادتها العسكريين أنفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، إن لم يعترفوا بها فى العلانية . وحقيق بأهل هذا الشرق وقادته أن يدركوا هذه الحقيقة على وجهها الصحيح ، قبل أن يحددوا موقفهم ، وقبل أن يرسموا خطتهم ، وينظموا علاقات بلادهم الدولية فى المستقبل . وقد يكون من الحق علينا لأنفسنا وللإنسانية جمعاء أن نعرف قدر أنفسنا وقد عرفه الناس ! بل قد يكون من الخير لنا وللإنسانية جمعاء — ونحن نعيش فى مهب العاصفة بين قوى العالم الجبارة — أن نترسم خطانا فى نور وتبصر ، وأن نتلمس سبيلنا إلى التعاون الدولى فى حزم واستقلال !

سليمان حزين

ذكريات

بعض الأدباء الذين عرفتهم (١)

عرفت جرجي زيدان مؤسس الهلال قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بإنجلترا ، وكنت قد ألفت رسالة « مقدمة السبرمان » وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كي تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إليّ بخطاب مسهب يشرح لي فيه وجوه النقد التي يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هذا قوله : « إنه لا بأس أن ننتقد المسيحية ؛ لأن المسيحيين قد ألفوا نقد دياناتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقاهم ؛ لأنهم لم يألفوا النقد » . وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها .

ولما عدت إلى مصر زرته واتصلت معرفتي به إلى وفاته ، وكنت بين مشيعيه إلى قبره . وكان جرجي زيدان عصاميًّا في ثقافته وثروته ، وهو أول من أرصد حياته في عصرنا لدراسة التاريخ الإسلامي ، وألف في ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الإسلامي . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التي استفاضت في العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجي زيدان أي اتجاه علمي . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هي أن البنات في الأقطار الحارة يبلغن سن النضج الجنسي في الحادية عشرة أو حوالي ذلك أي قبل اكتمال سن النضج الذهني . ولذلك لم تكن لهن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لي إن « الأسلوب يعجبني » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أني كنت مخطئاً في هذا التعليل البيولوجي ؛ إذ ليس هناك أي فرق في سن النضج الجنسي بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعي .

(١) هذه ذكريات الأستاذ ننشرها بالاسم كما كتبها لا نستبيح لأنفسنا أن نراجعه فيها فضلا عن أن نحاول الملاءمة بينها وبين آرائنا الخاصة فيمن ذكر من الأحياء والأموات .

وكان جرجى زيدان انبساطيا بديناً بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أتم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فانفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفى اليوم التالى شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأبينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤبنين . ولكن ما إن شرع فى إلقاء كلمته حتى صاح شقيق للمتوفى يقول: إنه رأى شقيقه يرمش وإنه لايزال حيًّا. وكانت المسألة لا تزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأبينا ، وترك حارس للجثة إلى الصباح . . .

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية ، وهى أقرب إلى التلخيص منها إلى الإسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل ، فكان يستوعب أكثر ما يستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت الجامعة المصرية كلِّف إلقاء محاضرات عن التاريخ الإسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحى . وقد تركت هذه الحادثة فى نفسه مرارة ، فكان لا يفتأ يذكرها فى حزن وألم .

وكان فرح أنطون يصدر « الجامعة » ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة « الجامعة » غربية ؛ فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصادق بين صاحبيهما . واتصلت صداقتى بفرح حين شاركته فى تحرير « اللواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة فى إحدى القهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو ما يقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسو . وقد اندمج بعد ذلك فى الحركة الوطنية المصرية . وكان حلبى الأصل ، ولذلك شق عليه اتخاذ اللهجة المصرية العامية . وكان انبساطيًّا مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأبسنت ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة .

وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره فى النهضة المصرية . فإن الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الإسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضارتهم ، كما فتح الثانى أبواب الدراسة للنهضة الأوربية . ومات الأول حوالى الستين ، ومات الثانى حوالى الأربعين .

وفى تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز

الستين . وأذكر أنه لأول مقابلة لى شرع يسألنى عن أصلى وهل أنا مصرى قح أم بى عرق أجنبى . وكان قد قرأ رسالتى « مقدمة السبرمان » . وبعد حديث طال فى العلوم عاد فجزم بأنى أجنبى ، وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بينى وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهور . فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألمانى الذى نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين فى العالم ، وأن شوبنهور لا قيمة له بتاتاً إلا فى « ملاطفات » أدبية أو مجازفات فلسفية . وكان « المقتطف » فى أيامه من المجلات القوية التى وجهت القراء العرب الوجهة العلمية وأنارت بصيرتهم . ولم يكن جافًّا فى إيراده للبحوث العلميـة ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربيـة مقالات جدية من المجلات الأوربية .

وفى إدارة المقتطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغويًّا عامى الذهن ، وقد وضع معجما بعد ذلك للحيوان لا يزال أحسن ما يعتمد عليه فى هذا الموضوع . واتصلت بينى وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبيل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحة كانت تجعل الحديث معه شاقاً ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته . فاشتغل فى السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل فى مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التى أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين . وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثمانى لا يطيقون ذكره . وإذا شرع أحدهم فى الحديث عنه لم يتمالك من الغيظ . ولم يكن وجدانهم وطنيًّا ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت ، وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الأولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية . وأظن أنهم كانوا على حق فى هذا .

ومن الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأديبة الكبيرة مى . وقد بقينا صديقين إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقليـة فى لبنان . ولم تكن مى جميلة ولكنها كانت

«حلوة» . وكانت تعرف الآداب الإنجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية فى أوربا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن فى المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفا ورقة . وقد استطاعت مى أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية أو السورية زينة أنثوية لا استرجالاً كريهاً . وكانت ، فى حياة أبويها ، تعقد بمنزلها اجتماعات « صالونية » حيث يكون السياسى والأديب والوجيه بعض ضيوفها . وكانت تشترك فى جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك فى معالجته . وتفعل كل ذلك فى رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر «الصالون» ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعزعت مى . ولم يكن ذلك ، فى ظنى ، لحزنها على والدتها التى ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها منتظراً . وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عند ما نعرف أن مى لم تتزوج ، وأن رفقتها لأمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شرقيًّا .

على أنى أظن أن السبب للتزعزع النفسى الذى أصاب مى كان انتقالها الفسيولوچى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوچى عند بعض النسوة . وقد ماتت مى منذ أكثر من سنة بعد سنوات قضتها فى مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى . وفتحت هى لنا الباب ، فرأيت شخصاً لا أعرفه . رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسدرت عينى ، فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى ! الآنسة مى ! فسلمت وتضاحكت ، ولكنها أدركت كل شىء . واستولى علىّ اكتئاب وخجل وجمود ، وارتسمت فى ذهنى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها . ولكن سرعان ما زال عنى الاكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فإن مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام . ثم ، وهنا الأسف والحزن ، كانت وهى تروى لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا

عنها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادى هذا عند ما أصرّت أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجاً ؛ فإنى بقيت طيلة المساء وأنا أفكر فى جمودى وكيف أنى لم أتنبه عند ما رأيتها بالباب ، فأحييها تحية اشتياق وتقدير ، وأنها لابد قد عرفت من جمودى أنها تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طيلة الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانشراح واضحين وهى تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! »

وشعرت أنى كفّرت عن جمودى فى الأمس . وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت ؛ إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلألأ فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلألؤ .

ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى مما كانت فى جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر ، ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث . وقد صدمتنى ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر ، هى قولها : « إن مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم . » وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هى أيضاً كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضمره .

وقد يسائل القارىء هنا : لمَ لمْ تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى . ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس

أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من عصريتهم ، لايزالون شرقيين ، ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها في صالون أدبي له حرية الصالونات الأوربية في المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : إن مى عاشت فيما قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقي صاحب مجلة «البيان» . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيي الأسلوب العربي القديم على نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » ، للمويلحى أو كما تفعل الآن مجلة «الرسالة» . وكان البرقوقى نقيضى فى أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة فى التعبير عن معنى مابكلمة مماتة . ويقول إننا يجب أن نحيي هذه الكلمة . ولم يكن يجدى احتجاجى عليه بأن الكلمة إنما أميتت لأسباب قوية استدعت موتها ، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعى قد انعدم . وكان صهره مصطفى صادق الرافعى أكثر إمعاناً منه فى خطة الإحياء للكلمات المماتة . وعرفت محمد السباعى وكان الكاتب الأول فى مجلة «البيان» . أما الكاتب الثانى فكان عباس حافظ . وكلاهما كان يعنى أكبر العناية بالأسلوب العربى القديم . ولم يكن بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفى ، ولذلك لم تعش طويلا .

وكان عبد الرحمن البرقوقى من أطيب الناس . وكان غربى الذهن ، قضت المصادفات بأن يكون شرقى التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشى فى الإسكندرية فيأخذ فى المقارنة بين الشوارع التى أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك الأخرى التى أقيمت إليها مساكن المصريين . ويستنتج من هذه المقارنة مايحمله على القول بأن الشرق كله مفلس . وكان قد عرف الشيخ محمد عبده وأدرك المغزى فى اتجاهاته وإصلاحاته .

وإذا كان حقًّا أن الخمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط التى تحول دون الصراحة ، فإنى أروى الحادث التالى الذى يدل على النفس الزكية التى كان يتسم بها البرقوقى . فقد كنا على قهوة فى الإسكندرية حوالى ١٩١٤ وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلسم فى رقته ونعومته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها فى اشتهاء ولذة . ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة

الشواء تسكن . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول ، وكان غاية فى القذارة والجوع والعفن ، فطاب إحساناً . فتأمله البرقوقى ثم نظر إلىّ كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . وأكل الرجل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوقى يسكن ، هو ومجلته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى أن نزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابى العظيم بها . فلما دخلنا عليه ، وجدت غرفته كأنها غرفة وزير فى سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدرى إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد ، ولكنى خرجت من هذه المقابلة الأولى وفى اعتقادى أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالى تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين . وكان أزهريًّا معمما ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات «الجريدة» . والتحق بالجامعة المصرية ونال دكتورية الأدب . وكان الفرح عاما بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصدر مجلة «المستقبل» الأسبوعية فى الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا فى اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هى أن مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول فى«الجريدة»على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون مع أنه ضرير هو معجزة . ولكن ثم معجزة أخرى هى أنه اتخذ مكاناً أماميًّا ثوريًّا مستقبليًّا فى الأدب ، مع أن الإنسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، أن يتخذ مكاناً تقليديًّا حيث يراعى « قواعد النحو والصرف » فى الأدب والاجتماع والسياسة . وقد يقال إن المعرى قد أثر فيه وبعث فى نفسه كراهة لقواعد «النحو والصرف » فى أسلوب الحياة . ولكن يبقى عندئذ سؤال هو : لماذا اختار طه حسين المعرى كى يكتب عنه ويسهب فى الكشف عن عقله وقلبه ؟ ولاعبرة بأن يقال إن الاشتراك فى العاهة باعث مقنع للقوة الجذبيـة التى وجدها طه حسين فى المعرى ؛ لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة لم يجذبوا

طه حسين . وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أقل الأثر فى التفات الأديب المصرى إلى أديب المعرة . وإنما الأثر الأكبر أنهما يشتركان فى الثورة ، وخاصة الثورة على المشايخ . فقد رأى طه حسين فى الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح ، ثم رأى عند المعرى مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح ، فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما . وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك ، بؤرة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية . ولكن اتجاهه الأول لم ينحرف .

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية . وهذه المهمة إنما هى عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجى الذى لا يتصل بالمشكلات العصرية . ولكنهم مخطئون ؛ لأن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا . وأعنى بالطبع السياسة العليا ، السياسة العالمية والقطرية . ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتباً نيرصد قلمه للدفاع عنه ظالماً أومظلوما . ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية . وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش فى البرج العاجى إنما يبتعد عن أهم الشؤون البشرية حين يبتعد عن السياسة . وكل أديب له وجدان بتطور العالم فى عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون عنصراً من عناصر هذا التطور . ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى .

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة ، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أتأمل الصدود الذى نلاقيه أحياناً فى بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقى لم يمارس الأدب الكفاحى ، ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب ، إلا فى فترات نادرة ، وأن إعجاب الشعب بحافظ إبراهيم ، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى ، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية . وحتى فى المستقبل بعد مائة سنة مثلا سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش ، زمناً غير قصير من حياته ، فى البرج العاجى .

ولم أعرف شوقى إلا فى السنوات الأخيرة من حياته . وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه . وقد فهمت مقداراً كبيراً

من سيكلوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لى فى إسهاب لماذا ألف درامة « كليوبطرة » . فقد زعم أنه أراد أن يزكى هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسيء إليها فى سمعتها . ودهش أكبر الدهشة منى عند ما ناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية . وكان فى ثقافته يصبو إلى كل قديم ، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكاسحة التى اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين . وقد ولد شوقى فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر ، فى بيئة الباشوات والبكوات التى كانت تكره عرابى ، ولم يقطع الحبل السرى الذى كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته .

أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم يصدم ويخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه . فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة . وكان وطنيًّا يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : « إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب » .

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقى وحافظ ومطران ؛ فإن دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتنافسة والمتناقضة فى المجتمع المصرى فى الخمسين من السنين الأخيرة . فإننا نحس أحياناً فى قصائد شوقى ومقطوعاته جو الترف المصري الذى أوشك على الزوال : السجاجيد الإيرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود ، والمقاعد الناعمة والحجاب ، حجاب المادة والروح . أما أشعار حافظ فصرخات المتألم ، وأحياناً مهاترات العاجز . ونحن نقرؤها فنصرخ معه ونهاتر فى ألم وعجز ؛ لأنه منا ونحن منه : شاعر مصرى بلدى . أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها ، ولكن ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحيها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت .

سلامه موسى

الماضى القريب والماضى البعيد

فى أمثال الرومان أن « الكابيتول قريب من صخرة تربيا » . أما الكابيتول فهو ذلك التل المرتفع من تلال روما الذى كان عليه موطن الحكم . وأما صخرة تربيا ، فهى صخرة إلى جانب من الكابيتول كان يلقى من فوقها المجرمون المحكوم عليهم بالموت ، فيلقون حتفهم . ويقصد الرومان بهذا القول أن الارتفاع يعقبه الوقوع .

هذا من أمثال الرومان . والناس فى هذه الأزمان يرتقون الكابيتول عن طريق ممهد ذى درجات عريضة ؛ ليشهدوا ما فوقه من قصور صارت متاحف ، وليطلّوا من خلف التل على المكان السحيق الذى كان يلقى فيه المجرمون . يرتقى الناس فى هذا الطريق وهم يذكرون هذا المثل ، وقد جذب أعينهم تمثال مرقس أوريليوس الإمبراطور الفيلسوف ممتطيا جواده . وقد سلم هذا التمثال من عصور التعصب والجهل ، أيام القرون الوسطى ؛ إذ ظن المؤمنون أنه تمثال قديس ، لما اتسم به من سكينة ووقار . وقد يشغلهم منظر هذا التمثال الرائع وهم صعود ، عن أن يلقوا نظرة عابرة على تمثال صغير من البرونز إلى يسارهم هو تمثال رينزى أو كولادى رينزى ، وقد يلقون نظرة عليه دون أن يأبهوا به ، مع أن صاحب هذا التمثال أقرب من يصدق عليهم مثل الرومان القائل إن الكابيتول قريب من صخرة تربيا ، وهو يمثل شخصية فذة لا تزال تتكرر وبخاصة فى تاريخ إيطاليا ، فى الماضى البعيد والماضى القريب ؛ ومسلك شعب روما نحوه ، هو دائما مسلك الإيطاليين نحو رجالهم الذين خدموهم من قبل ومن بعد .

فى أول القرن الرابع عشر الميلادى كان النزاع المستمر بين البابا والإمبراطور قد بلغ مداه ، ذلك النزاع على السلطة الدنيوية الذى ابتدأ فى القرن الحادى عشر واستمر إلى القرن الثالث عشر . فالبابا يرى أنه صاحب

الكلمة العليا فى جميع البلاد المسيحية ، وان سلطانه الدنيوى يشمل جميع المسيحيين كما يشملهم سلطانه الدينى . والإمبراطور ، وكان فى ذلك الوقت عادة من الأمراء الألمان ، يرى أن سلطان البابا مقصور على الأمور الدينية ، وأن الأمراء إذ يخضعون له فى هذه الأمور ، لا يتزلون عن سلطانهم الدنيوى . ومن هنا نشأ هذا النزاع الذى انتصر فيه البابوات أكثر من مرة ، وأذلوا أباطرة الدولة الرومانية المقدسة أكثر من مرة ، وهُزم فيه البابوات غير مرة ، ولم يتورع هؤلاء الأباطرة عن إذلالهم غير مرة . وكانت هذه الحرب السجال وبالاً على الإمبراطور وعلى الكنيسة . فالكنيسة تستعمل سلطانها الدينى على قلوب المؤمنين ، وتستعمل سلاح الحرمان الرهيب فى قتال الإمبراطور ، والإمبراطور يستعمل سلاح التنديد برجال الكنيسة وبالبابا نفسه ، ويشكك الناس فى طهارة معيشتهم . وينتصر للإمبراطور أمراء وملوك يرجون منه خيراً ، وينتصر للبابا أمراء وملوك منافسون للإمبراطور .

فإذا أهلّ القرن الرابع عشر كان هذا التنافس قد بلغ مداه بانتصار البابا فى الظاهر والقضاء على أسرة هوهنشتاوفن التى كان منها الأباطرة . ولكن هذا النصر لم يكن بلا ثمن ، فلقد انتصر البابا بفضل مساعدة ملك فرنسا ومؤازرته ، وفى سبيل النصر لم ينظر البابا إلى الثمن الذى كان عليه أن يدفعه .

جاء القرن الرابع عشر فإذا البابا لم يعد صاحب السلطان على المسيحية من عاصمة ملكه روما ، وإذا هو أسير أو كالأسير يعيش فى بلدة بإقليم متاخم لفرنسا . أما البلدة فهى أفنيون ، وأما الإقليم فهو جنوب فرنسا الآن . لم يكن هؤلاء البابوات الذين اتخذوا أفنيون مقاماً أسرى فى الحقيقة ، فهم الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوضع ، فلقد بلغ من سيطرة ملك فرنسا أن صار أكثر الكرادلة الذين ينتخب من بينهم البابا من الفرنسيين وصار البابوات ينتخبون من الفرنسيين كذلك . فالبابا كلمنتيو الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) . وهو أول من اتخذ أفنيون مقاما ، كان من أهل جسكونيا ، وقد أصغى إلى نصيحة فيليب الجميل ملك فرنسا فلم يطأ بقدمه أرض روما . وانتخب البابا جيوفانى الثانى عشر بعد أن ظل كرسى البابوية خاليا سنتين ، فلم يكتف بالإقامة ببلدة أفنيون كسلفه إلى أن يحزم أمره على العودة إلى عاصمة المسيحية ، بل اتخذ له مسكنا ، وزاد فى بنائه ، حتى جعل منه قصراً وحصنا ، وهو الذى

يشاهد فى تلك البلدة إلى اليوم . وهكذا شعرت روما بأنها لم تعد عاصمة المسيحية .

ماذا كان تأثير ذلك فى روما ؟ وماذا كان تأثيره فى إيطاليا ؟

أما إيطاليا فكانت غارقة كعادتها فى انقساماتها والتنازع بين إماراتها ودولها المستقلة ، فهى مسرح للحروب فى سبيل المطامع ، يقوم بالقتال رجال حرب مأجورون من رجال الشمال الأشداء : ألمان وسويسريون ومجريون ؛ وهم رجال أشداء ، ولكن ليس من صالحهم أن تنتهى هذه الحروب وقد اتخذوها مهنة . وإذا انتهى هؤلاء الأمراء الإيطاليون وانتهت هاته الجمهوريات من المشاحنة ، فما مصير هؤلاء الجنود ؟ وأى عمل يمتهنون ؟

إذن فلتستمر هذه الخلافات ، ولتبق هذه المطامع تعمى الأبصار عن الطريق السوى . ولكن بين الناس من ليسوا أمراء ، وبينهم من لا يتجهون اتجاه الأمراء فى المطامع ، وفى إيطاليا حول ذلك العصر زادت العيون تفتحا ، وأخذ الناس يقبلون على هذه الحياة الدنيوية ويحاولون فهمها ، وزاد الميل بينهم إلى الدراسة وإلى لذة الحياة العقلية ، فإذا هم يجدون بينهم كنزاً كان مطموراً . فهذه كتب اليونان والرومان بين أيديهم منها شىء كثير ، وفيها من الإنتاج الفكرى كل ما هو عظيم . وهذه آثار الرومان والتماثيل التى أخرجت من باطن الأرض تدل على مجد قديم ، فما أبعد الفرق بين الماضى المجيد ، والحاضر عندئذ ! ولكن ما السبب فى هذا الفرق ؟ ولماذا نزلت إيطاليا من عليائها وصارت نهبا للبرابرة من شعوب الشمال ؟ ألا يمكن العودة إلى ذلك المجد القديم ؟ بلى ! والبرهان على ذلك أن شاعرا حديثا أخرج معجزة من معجزات الأدب لا تقل عن آثار الأوائل . ألم يخرج دانتى فى تلك الأيام ملحمته « الكوميديا الإلهية » صاغها شعراً ، فأحيا الآمال فى قلوب المفكرين من أبناء وطنه ؟ فملحمته لم تكن شعراً نادراً بقدر ما هى عمل من أعمال الإرادة يدل على أن الإيطاليين ورثوا المجد القديم ، وأن لغتهم الحديثة قادرة على منافسة اللغات القديمة ، وفيها من الحياة ما قد يبلغ مبلغ القديم .

زاد إقبال الناس على الدراسات يستزيدون منها ، ويقارنون بين الماضى المجيد والحاضر وما فيه من تخاذل وانحطاط ، فظهر تياران من التفكير : فريق انصرف إلى الدراسات القديمة ، ونبذ كل تعاليم الكنيسة ، ورأى فيها سبب

الانحطاط ، ومجّد الوثنية وآثارها ؛ وإلى هذه الناحية اتجه مارسيليو وأوكام ، ويمثل هذه الروح فى عالم الأدب بوكاتشيو . وفريق رأى أن الدراسات القديمة لا تتعارض مع المسيحية ، وأن ما يؤخذ على الكنيسة من مساوئ إنما هو من عمل رجالها لا من فكرتها ، وفى طليعة الأدباء الذين نحوا هذا النحو فى ذلك العهد بتراركا .

هذا فى إيطاليا . أما فى روما فقد تأثر المفكرون بهذه النهضة الفكرية ، وظهر هذان التياران ، إلا أنه من الطبيعى أن يكون التيار الثانى غالباً . فروما لم تنس انها عاصمة المسيحية كما كانت عاصمة الدولة الرومانية العظيمة ، وقد ظلت روما ألف سنة عاصمة المسيحية ، وهى فى تلك الأيام لم تعد كذلك ، وقد هجرها هؤلاء البابوات الفرنسيون ، فالمدينة فقدت مجدها القديم ، وهى تكاد تفقد مجدها الحديث ، وقد سادتها الفوضى وصار أهلها بلا معين أمام أسر أشرافها المتنازعين المتنافسين ، المتقاتلين بالأجراء من جنود البرابرة . ولم تعد تخترق شوارع المدينة تلك المواكب الدينية العظيمة التى كانت تخفى ما فيها من مناظر الفاقة . ولقد استطاع البابوات أن يعيشوا فى أفنيون فى كنف ملك أجنبى ، ولكن الرومانيين لا يستطيعون أن يعيشوا بغير البابا ؛ ولذلك كانوا فى تلك الفترة يرسلون الوفود إلى بابوات أفنيون يلتمسون منهم العودة إلى مدينتهم الخالدة . ولكن هؤلاء البابوات يؤثرون الأمن والدعة فى حمى الملك الأجنبى ، على العودة إلى عاصمتهم وفيها الأحداث والاضطرابات ، وبين أشرافها النزاع والنضال .

كان فتى من فتيان مدينة روما ، فى نحو التاسعة عشرة من عمره ، يشهد هذه الأحداث ويفكر فيها ، فتتألم نفسه ؛ ولكن ماذا يفعل وهو صغير لا يقوى على شىء ، وهو فقير ليس فى يده شىء ؟ فوالده صاحب حانة صغيرة لا يمتلك إلا قوت يومه . إنه لا يستطيع أن يفعل غير ما يفعله الفتى الجاد لنفسه ، فهو يقبل على تثقيف نفسه ويقبل على الدرس إقبالا عجيباً ، فيعكف على دراسة المؤلفين القدماء من يونانيين ورومانيين ، ودراسة التوراة والإنجيل ، ويتعلم النحو منه والفلسفة والخطابة ، ويستظهر أقوال المؤلفين القدماء . وهو فى خلال ذلك يجوب أنحاء المدينة باحثاً عن آثار روما القديمة التى أخفاها الإهمال ، فاحصاً لها دارساً تاريخها ، ومن هذه الآثار كان يستوحى المجد الغابر ، ويشعر بالذل الحاضر .

بلغ ريتزى السن التى كان عليه فيها أن يتخذ له مهنة ، فجنح إلى مهنة القلم ؛ لأنها أقرب إلى مواهبه وقلبه ، وصار محامياً ، وكان بارعاً فى صناعة القلم ، بليغ العبارة . ولـكن الله وهب له موهبة كان لها تأثير بالغ فى حياته ، فقد كان ذلق اللسان ينفذ حديثه إلى القلوب ، ويتسلط بالقول على الجماهير . وكانت أحداث ذلك الزمن وما فى المدينة من فوضى واضطراب وإهمال وفاقة ، أكبر مجال للقول ، فهى تبعث أبناءها على أن يندبوا حظها ، ويقارنوا بين ما كانت عليه من عزة ورخاء ، وما هى فيه من ذل ومسغبة . وفى هذا المجال ظهر نجم ريتزى وأخذت شهرته تتسع ، وأخذ يجد السامعين والمصغين إلى أقواله ، فتجول فى نفسه خواطر وآمال استقاها من تاريخ تلك الأرض التى لا يزال يطؤها ، ومن تلك الدماء التى يظن أنها تجرى فى عروقه صافية ، كما يظن أهل روما .

كان أهم ما يشغل المدينة فى تلك الأيام خاصة ، كما يشغل أهل إيطاليا عامة ، عودة البابا إلى مدينته الخالدة . ولقد توفى البابا نديتو الثانى عشر (١٣٣٤—١٣٤٢) فى قصره بأفنيون ، وانتخب البابا كلمنتيو السادس (١٣٤٢—١٣٥٢) فرئى تأليف سفارة من كبراء المدينة ومتوسطيها وعامتها لتهنئته ولتسليمه السلطة الوطنية فى المدينة ، والالتماس منه أن يتولى كرسى القديس بطرس . وكان فى هذه السفارة شاعر النهضة العظيم بتراركا ، وكان فيها كولادى ريتزى . وما لبث بفضله أن برز صوت الشعب ظاهراً ؛ فهو يتكلم فى عبارة طلية ويذكر أنه مندوب الشعب ونائب الفقراء والأرامل والأيامى ، ويعرض الحوادث وما حاق بروما بسبب ابتعاد البابا عنها ، ويتحدث حديثاً قريباً إلى تلك المثل التى كان يحلم بها الشاعر بتراركا ، حتى لقد تصور الشاعر أنه مبعوث من العناية جاء ليحقق تلك الآمال الجليلة التى تجيش فى نفسه نحو بلاده فيرد إليها الحرية ، ويرد إليها النظام ، ويعود زعيم المسيحية إلى مدينته ، وتحيا الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت وليدة ، إرادة الشعب الايطالى ، وتصير روما بفضل ذلك سيدة العالم !

هكذا شعر الشاعر العظيم حين رأى نائب الشعب يتكلم ، وهكذا عقدت بينهما أواصر صداقة متينة .

وجد هذا الخطيب الجمهورى أذناً صاغية لدى البابا نفسه ؛ فقد تحدث إليه شارحاً ما فيه الشعب الرومانى من بؤس وضيق ، وما عليه النبلاء من صلف

وظلم . وكان البابا رجلا مثقفاً عليما بأصول الخطابة ، فقد كان أستاذاً للدراسات الدينية فى جامعة باريس ، وكان مستشاراً لدى فيليب دى ڤالوا ، فسُرَّ من الفتى الرومانى الذى يعرف فنون القول ، على أن أحد أمراء الكنيسة ، وهو الكردينال چيوڤانى كولونا ، كان حاضراً ، فلم يعجبه ما قاله الخطيب الشعبى فى حق بنى عمومته من أشراف روما ، فعرف كيف يباعد بين كولا وبين البابا ، وعرف كيف يغضب عليه البابا ، فمنعه من دخول القصر . وعاش كولا بعض الوقت فى تلك المدينة وقد هجره زملاؤه وتجافاه الناس ، فكان يقف كما يقول « فى الشمس مثل الكلاب » وكان رجال الكنيسة يقاطعونه ، وقد أضر به الجوع حتى كاد يسأل الناس .

على أن بتراركا ما علم بما وصل إليه الصديق حتى أخذ يسعى ويسعى ؛ ليزيل ما بنفس الكردينال منه ، حتى رضى عنه هذا السيد ، وتوسط له لدى البابا ، فعينه البابا عضواً فى المجلس البلدى بروما ، وحمله رسالة يثنى فيها البابا عليه وعلى إخلاصه وعلمه ، وحماه من الأشراف الذين كانوا يريدون مؤاخذته على ما فاه به عنهم .

كان مركز الزعيم يقوى لدى الشعب على مر الزمن ، وكان أعداؤه من الأشراف يزدادون . ففى ذات يوم من شهر إبريل سنة ١٣٤٤ كان المجلس ينظر فى أمر من الأمور ، فإذا الخطيب يقف فجأة ، وقفة شيشرون فى الماضى عندما أخذ فى اتهام كاتالينا ، وإذا هو يلقى خطاباً يحمل فيه على القضاة والحكام والأشراف ويقول : « لستم وطنيين . أنتم لا تبغون الخير بل تعملون للشر . إنكم تسفكون دماء الشعب ، وفى كل شارع وفى كل بيت تلجأون إلى النهب والعنف ، ترفضون كل نظام ، تدنسون كل مقدس ، تغتصبون الحقوق ، وتدَّعون الامتيازات ، وتتهربون من القوانين . . . »

سكت الأعضاء ، وقد أدهشتهم هذه الجرأة ، لكن أحد أفراد أسرة كولونا الشريفة ، قام فى التو وقصد إليه ولم يكلمه بل صفعه !

بعد هذا الحادث عدل الخطيب عن طريقته واتخذ طريقاً آخر ، فكان يلجأ إلى التلميح بدل التصريح ، وكان يفضل الإشارة ، فيعلق صوراً فى أمكنة ظاهرة من روما ترمز إلى مجد روما وعزها الماضى وذلها الحاضر .

وفى ذات يوم عثر على لوحة أثرية كتب عليها قانون ملكى ، فيه أمر من مجلس

الشيوخ الرومانى بمنح الإمبراطور فسبزيانو سلطة الإمبراطوريه ، فجمع أعضاء المجلس وحاضرهم فى هذا الأمر ، مظهراً ما كان لمجلس الشيوخ من عظمة ، وكيف كان سلطانه أقوى من سلطان الإمبراطور نفسه ؛ إذ كان منه يستمد الإمبراطور السلطة .

ثم عدل رينزى عن سياسته فى الحملة على الأشراف فصار يخالطهم وصاروا يدعونه إلى دورهم ، وأقلع عن تحديهم علناً . وكانوا يعتـدون بأنفسهم ، فلا يظنون أن أحداً يجرؤ على مناوأتهم . وزادت الخلطة بينه وبينهم ؛ ففى ذات مرة كان مدعواً إلى دار أسرة كولونا ، وقال له أحـدهم ممازحاً : « إنا لنمالئك إذ نرى أوداجك قد انتفخت ، وقد تعتبر دوقا إن لم تكن إمبراطورا . » فأجابه رينزى : « سأكون بلا ريب إمبراطوراً ، والويل عندئذ لـكم ! » وحينئذ دعاه الحاضرون إلى أن يلقى عليهم بعض القول صائحين : « ألق موعظة من مواعظك » ورفعوه فوق مائدة . فأخذ يخطبهم مؤنباً طاعناً فيهم وفى أعمالهم ؛ وكلما زاد فى التأنيب ازدادوا ضحكا !

مع كل هـذا ، وفى غفلة من هؤلاء الأشراف كان رينزى يدبر أموره ، ويعد العدة لعهد أمن وإصلاح فى روما ، فـكان يجمع الأنصار وينظم الرجال من بين قوم يريدون لبلدهم خيرا .

وفى ١٩ مايو سنة ١٣٤٧ ، وكان زعيم أسرة كولونا أقوى الأسر الشريفة خارج روما مع رجاله ، جمع الزعيم الشعبى أنصاره قبيل الفجر ، وكان قد أخذ فى الصلاة منذ منتصف الليل ، وخرج إليهم من الـكنيسة ، وقد لبس الدرع إلا أنه كان عارى الرأس ، وكان إلى جانبه مندوب البابا الذى انضم إليه ، وتبعه أنصاره فى حفل حاشد ، وعلى رأسه تخفق ثلاثة ألوية ترمز إلى روما والبابوية ، وسار فى موكب إلى قصر الحـكم حيث خطب الناس خطبة عظيمة ، ثم قرأ أحد أعوانه النظام الجديد الصالح الذى يراد به الخير ، والذى يكون فيه السلطان للشعب لا للأشراف ، حيث يؤخذ المذنب بجريرته دون نظره إلى مركزه الاجتماعى ، ويسود الأمن وتسود الطمأنينة .

وصاحت الحشود تضع السلطة فى يد الزعيم ، وله أن يختار من الألقـاب ما يشاء ، فليكن طاغية ، دكتاتورا فى سبيل الإصلاح ، فليكن دوقا ، دوتشى ، أو ما شاء . ولـكن الزعيم يقنع بلقب رومانى معروف هو « زعيم

الشعب » ليحمل لواء الحرية والعـدل فى الجمهورية الرومانية المقدسة .
هكذا تم هذا الانقلاب من غير أن يسفك دم . وأخذ رينزى يعمل فى الحال على تنظيم المدينة وحفظ الأمن . وترامت أنباء هذا الانقلاب إلى الخارج ، وأرسل رينزى الرسل ، والرسائل ليعلم من لم يعلم من الأمراء بهذا الانقلاب . ولم تكن يداه خاليتين من العمل داخل روما نفسها ؛ فمن البديهى ألاّ يرضى الأشراف عن هذا النظام . وكان ستفانو كولونا زعيم الأسرة أول من غضب حين ترامت إليه الأنباء وهو فى رحلته ، فعاد فى التو إلى روما ليطرد الدعى فى رأيه . وكان ستفانو حديديًّا شارف التسعين من عمره ، ومع ذلك يمتطى جواده بلا مساعد ، وله من الأولاد والحفدة عدد كبير ، ألفوا السلاح ورضعوا من دماء أسرة أورسينى خصومهم منذ نعومة أظفارهم . وقد مرت بستفانو أحداث كثيرة فى عمره الطويل ، فهل يهتم بجنون هذا المهرج !

عاد ستفانو قاصداً روما ، فما أشرف عليها حتى جاءه رسـول الزعيم يعلنه بالعودة من حيث أتى ، فـكان جوابه فى بساطة : « قل لهذا المجنون إنى إن غضبت عليه بعض الغضب ، فسألقيه من نافذة القصر » . وسمع الزعيم بهـذا التهديد فقرع أجراس المدينة ، وإذا الشعب يحتشد فى جموع هائلة ، وإذا ستفانو يضطر أن يتراجع أمام المجنون المهرج ويعود أدراجه .

أصدر الزعيم بعد ذلك أمراً إلى جميع الأشراف أن يلزموا ضياعهم وقصورهم واحتل رجاله الجسور والمواقع المحصنة ، ودمر ما أقامه الأشراف من متاريس وحصون داخل المدينة ، وقبض على رؤساء العصابات الإجرامية فى روما وفيما حـولها من بلاد ، وطلب إلى الأشراف أن يوافوه إلى مقر الحـكم حيث دعاهم إلى أن يقسموا بأن يخضعوا لقوانين الدولة ، ثم دعا من بعـدهم القضاة ثم المحامين ثم التجار ليقسموا يمين الإخلاص . وأقام محكمة العدل ؛ لتفصل فى الخصومات ، ولمعاقبة المجرمين ، فاستتب الأمن فى روما وفيما حولها من البلاد .

وكان الزعيم يعمل ليلا ونهارا للنظر فى أمور الدولة وفى مخاطبة الدول والأمراء ، وهو يملى على كتّـابه رسائل بليغة يشرح فيها أغراضه ومراميه لخير روما وإيطاليا شرحاً وافيا ، فهو يطلعهم على ما حققه لروما من سعادة ، وهو يرجوهم أن يرسلوا إليه مندوبين وخبراء للجمعية الـكبيرة التى تحقق إقامة الدولة الصالحة ، وتعمل فى روما على عقد معاهدة تحالف عام لتحرير البلاد الإيطالية

عامة من استعباد الأجنبى ، وكانت هذه الآمال التى كانت تجيش فى صدره تجيش فى صدر كل إيطالى . ولئن كان من العجيب أن تجد هذه الآمال من يدعو إليها ويعمل على تحقيقها فى زمن انقسمت فيه المدن والإمارات الإيطالية وتفرقت شيعاً ، وكان يحارب بعضها بعضاً ، مستعينين بالقواد والجيوش الأجانب . وكان بعض الأراضى الإيطالية تابعاً لملك فرنسا ، وبعضها تابعاً لملك أسبانيا ، وبعضها تابعاً للإمبراطور الألمانى ، فليس عجيباً أن تهز هذه الدعوة القلوب وأن يجد كولا دى رينزى شاعراً عظيما ومفكراً جليلا مثل بتراركا يقول : « أكرموا أيها المواطنون هذا الرجل . أكرموه فهو يكاد يكون رسول العناية ، ونعمة نادرة من نعم الله ، وابذلوا حياتكم فى سبيل سلامته . »

كان الأشراف يتربصون به السوء ، وكان الزعيم الشعبى وقد زادت سلطته يتحداهم . وقد أتى فى سبيل ذلك بأعمال تؤخذ عليه ، وتدل على القسوة ، وإن كانت ليست بالمستغربة فى عصره . فمن ذلك أن أحد الأشراف لزم قصره ولم يأت ليقسم يمين الإخلاص للدولة الصالحة ، لعجزه عن ذلك ؛ فقد كان مريضاً بداء عضال لا يقوى معه على الحراك ، فأمر الزعيم بأن يقتل لعدم طاعته ، حتى يكون عبرة لغيره من الأشراف .

وفى ذات يوم دعا ثلاثة من أكبر رجال أسرة أورسينى ، واثنين من أسرة كولونا من بينهم ستفانو زعيم الأسرة ، وتحدث إليهم فى أمر دولته ، فأغلظوا له القول ، فأمر باعتقالهم على أنهم خونة للدولة وعزم على قتلهم ، وأرسل إليهم قساً ليعترفوا له اعترافهم الأخير ، وتجمع أهل روما ليروا مشهد الفتك بهؤلاء الأشراف . ولكن الزعيم الشعبى أخذته الرأفة فى اللحظة الأخيرة ، فاندفع يخطب الجمهور فى أمرهم ويلومهم على كراهيتهم للنظام الذى أقامه وتدابيرهم فى الخفاء للقضاء على الدولة ، ثم أعلن الصفح عنهم ، وعينهم قواداً لحماية دولته .

مثل هذا العفو لم يكن إلا ليزيد حفيظتهم وكراهيتهم للزعيم ، فاتحدت كلمتهم على مقاومته والسعى للقضاء عليه .

بدءوا يقاومونه فعلا بأن التجئوا إلى ضياعهم ومدنهم الحصينة حول روما وعملوا على منع الأقوات من أن تصل إلى المدينة ، فأخذ القوت يقل فيها ، وعجز عامة الناس عن الحصول عليه ، وأخذ رينزى يعمل على مقاومة من أعلن العصيان

منهم علانية ، وينظم الجنود من أبناء روما لقتالهم . ومن الطبيعي أن يمر على الناس بسبب الضيق نوع من عدم الثقة فى الدولة الصالحة . وشعر رينزى بالعسر المالى حين اضطر إلى تجنيد الجنود من أهل روما ، ففرض ضريبة على الملح ضاق بها العامة ، فلم تعد عبارات الزعيم تؤثر فيهم ، ذلك الزعيم الذى كان مثلهم فقيراً معدما ، وهو الآن ينافس الأشراف فى ثرائهم ويظهر لهم كل يوم فى ثياب الحرير المزركشة بالقصب أو فى دروع مزخرفة بالذهب .

يقال لهم إنهم يقاتلون من أجل الوطن ، ولكنهم لا يرون فى تلك الحروب المتصلة مع الأشراف قتالا من أجل الوطن . وللأشراف بعدُ فضائلهم ، فهم إذا ظلموا العامة فإنهم يعرفون فى احتفالاتهم كيف يرضونهم ، وكيف يوزعون عليهم فى سخاء ما سرقوه ونهبوه منهم . وزعيم الشعب لا يعرف هذا الفن فى حفلاته ، وهو أجدر فى هذه الحفلات أن يسمى زعيم الكلام .

استغل خصوم رينزى هذا الانقلاب فى عقلية الجمهور كما استغلوا خلافا من نوع آخر أشد خطراً فى ذلك العصر ؛ فمن الطبيعي أن يحدث بين الزعيم القوى صاحب السلطان وبين نائب البابا خلاف على السلطة ، ومن الطبيعي أن ينقل نائب البابا هذا الخلاف إلى المجال الدينى ؛ ففى تصرفات رينزى وبطشه بخصومه ما لا يتفق مع سياسة الكنيسة ، وفى أفعال رينزى فى احتفالاته التى كانت مزيجاً من الاحتفالات الدينية والرومانية القديمة ما لا يتفق مع الكنيسة ، وفى الآراء التى كان يفوه بها ما لا يتفق مع الكنيسة ؛ وقد أدى ذلك كله إلى أن وقّعت الكنيسة عليه عقوبة الحرمان ، فانفض الناس من حوله ، فنزل عن سلطانه لنائب البابا ، وفر من المدينة .

فى شهر يوليه من سنة ١٣٥٠ وصل إلى مدينة براغ رجل فى ثياب راهب ، وقصد إلى قصر لودفج ملك هنجاريا ، وطلب مقابلته فى أمر خاص ، فوافق الملك على مقابلة الراهب المجهول . فلما مثل الغريب بين يديه تحدث إليه عن راهب يعيش فى مونتشللو اسمه الأب أنجيولا ، وقال : « لقد اختار سفيرين أرسل أحدهما إلى البابا فى أفنيون ، وأرسل الثانى إليك أيها الإمبراطور . »

فنظر إليه الملك الهنجارى بعينيه الواسعتين وقال له : « إذن تكلم » .

فتكلم الغريب طويلا ، فذكر أن العالم يدخل فى طور جديد تكون فيه سعادة

ويكون فيه رخاء ، وتكون فيه عزة للأمم المسيحية . وعرف الملك من الحديث بعض آراء صاحبه فقال : « إنى لأكاد أعرف من أنت » . فقال الغريب : « من تظننى أكون؟ » قال الملك :« أظن أنك الزعيم الشعبى لروما . » فقال رينزى : « أجل ! إنى كولا الذى كان من فضل الله عليه أن حكم فى سلم وفى عدل وفى حرية، مدينة روما . »

وتحدث كولا إلى الملك طويلا عن روما ومجدها القديم وما يريده لها من مجد حديث ، وعن الكنيسة وما ينتظر لها من رفعة فى ظل راع جديد يتوج الملك ، فيجعله إمبراطوراً وسيداً على بلاد الغرب ، ويعيد الزعيم الشعبى إلى روما ، فيمد سلطانها ، ويصير سيداً على الشرق . وكان الملك يسمع هذه الأحلام والآمال فى صمت ، ولكنه أرسل كولا دى رينزى إلى أسقف المدينة ، وعلماء الدين كى يباحثهم فيما عزته إليه الكنيسة من أقوال مثيرة اعتبرتها خروجاً على تعاليمها .

أقام كولا رينزى فترة من الزمن فى براغ يتردد على رجال الدين ، ويمضى أيامه فى مناقشتهم ، وقد أدهش علماء تلك البلاد بخصب تفكيره . وكان لا يعيش عيش التقشف ، بل يتبع الألمان فى كثرة أكلهم وشرابهم ، ثم نقله الملك إلى حصن على نهر الألب حيث بقى سجيناً عدة أشهر ، وكان الجو لا يلائمه ، ولم يكن واثقاً من مستقبله ، فكان يمضى الوقت فى كتابة الرسائل إلى الملك يرجوه أن يستحث محكمة رجال الدين على النظر فى مسألته ، فقرر الملك أن يرسله إلى البابا فى أفينيون فنقل إليها محروساً .

مثل رينزى أمام محكمة الكرادلة ، فلم يطلقوا سراحه كما فعلوا منذ زمن قصير بالملكة جيوفانا ملكة نابولى التى خانت زوجها ثم اشتركت مع عشيقها فى قتله ، بل قضوا بسجنه ، فوضع فى قلعة من أحصن قلاع القصر مكبلا بالأغلال ، وكان الغل مثبتاً فى جدار الغرفة .

ثم حدث فى هذه الأثناء أن توفى البابا القائم ، ووقع الاختيار على أسقف أوستيا ، فتولى عرش البابوية تحت اسم أنوسنزو السادس ، فعفا عن كولا وباركه وعينه مساعداً للكردنيال البورفوزو الذى عهد إليه بتهدئة إيطاليا وإعادة حقوق الكنيسة فى روما .

سافر رينزى إلى بروچيا وأقام فيها بعض الوقت إلى أن تمكن من مقابلة

الكردينال البورفوزو ، وفى حديثه الخلاب طلب إليه أن يعينه قنصلا على روما ، وهو يعرف كيف يعيد إلى الكنيسة حقوقها ، ويعيد الأمن إلى تلك المدينة ، فأجابه الكردينال إلى طلبه ، وعينه قنصلا على روما .

عاد إلى روما فى كوكبة من الرجال ، فقابله أهل المدينة كما يقابل الفاتح وزينت الشوارع والجسور وارتفعت أصوات الهتاف والتهليل إلى عنان السماء . فلقد عرف أهل روما فضله بعد ذهابه ، وذاقوا عذاب الفوضى والظلم . وقبض رينزى على زمام الحكم بقوة وعزم ، وأخذ يصرف الأمور بميزانه الذى لم يكن عدلا كله ، ولكنه فى ذلك العصر كان يعد ميزان العدل . وعاد الزعيم إلى كتابة رسائله وإرسالها إلى الملوك والأمراء كعادته يشرح فيها آماله من أجل روما وإيطاليا ، وما يرجوه لها من رفعة ومجد ، ويستحثهم على مؤازرته فى مقصده .

وحاول رينزى أن يخضع الأشراف للنظام والقانون ، فلم يستجيبوا له ، بل كانوا فى هذه المرة أشد عداء له ، وأكثر اتحاداً على مقاومته ، فعزم على كسر شوكتهم والقضاء عليهم وفى طليعتهم أسرة كولونا

اشتد رينزى على الأشراف ، وأخذ يقاتل الذين تحصنوا منهم فى حصونهم ، ويهاجم حصون آل كولونا وقراهم ، وسقط فى يديه بعض الأشراف من أسرة كولونا فما رحمهم ، بل نكل بهم تنكيلا ، متهما إياهم بالسرقة والنهب والعدوان . وكان من بين قواد الجيوش المرتزقة قائد كبير جمع ثروة كبيرة من الاعتداءات ومن تأجير عصاباته للأمراء ، وقد استعان رينزى بأخويه على قتال الأشراف فطالبا بزيادة أجرها فلم يلب رينزى طلبهما ، فدخل أخوهما ضواحى روما غازيا ، وكان رينزى يحاصر حصاراً شديداً مدينة باسترينا معقل آل كولونا ، فرفع الحصار . فأرسل القائد إلى رينزى رسولا يطالب المصالحة على أن يدفع مبلغاً من المال ، فرضى رينزى وأمنه على نفسه ودعاه لمقابلته ، فما جاء إليه حتى أمر بالقبض عليه وحوكم على أنه قاتل ، وقاطع طرق ، وناهب ، فحكم عليه بالموت وقتل على مشهد جمهور كبير من أهل روما ، وصودرت أمواله جميعاً ، فذهب بعضها إلى رينزى ، وذهب بعضها إلى نائب البابا ، وبعضها ذهب إلى خزانة البابا نفسه .

ثم فترت حماسة الجمهور الرومانى المتقلب ، وأخذوا يرمون الزعيم بالظلم والقسوة ؛ فمقاتلته الأشراف ليست إلا العمل للقضاء على أبناء روما ، وقتله

قائد الجيوش المأجورة ليس إلا الطمع فى أمواله . وبدلا من أن يجد الرومانيون فى قتل هذا القائد القضاء على عامل من عوامل الفساد فى الحياة الإيطالية ، فإنهم تأثروا لموته ، وعدّوه شهيداً أو كالشهيد . ووجدوا أسباباً أخرى لاستيائهم ؛ فقد زاد رينزى ضريبة الملح كى يتمكن من مقابلة النفقات المتزايدة لجنوده من أبناء روما ؛ فإن هؤلاء أصبحوا لا يقبلون الأجور الزهيدة على اعتبار أنهم إنما يعملون لخير وطنهم ، بل طالبوا بأن تكون أجورهم مثل أجور الأجانب الذين يعملون فى خدمة الأشراف . ألم يتغلبوا على الأجانب أكثر من مرة ؟ فلم ينقدون أجوراً أقل منهم ؟

تجمعت الأشياء كما تتجمع سحب الشتاء ، وشعر رينزى بهبوب العاصفة وأخذ الأشراف يستعدون للموقف الفصل ، وفى ذات يوم سمع رينزى فى قصر الحكم صيحة معروفة فى روما : « أيها الشعب ! أيها الشعب ! » وهى صيحة أسرة كولونا المعروفة فى الحروب وإلى جانبها صيحة خطيرة ترتفع من أفواه الجماهير : « ليمت الخائن الذى فرض الضرائب » وكانت الجماهير تهاجم القصر .

وقف الزعيم حائراً ، وفكر فى أن يرتدى درعه ، وأن يخرج مرة أخرى إلى الجمهور ، ويسلط عليهم سحر بيانه ، فارتدى الدرع وخرج إلى الشرفة ، ولكنه قوبل بالحجارة والنبال فارتد إلى الداخل ، وخلع درعه فى سرعة ؛ ولبس ثياباً حقيرة ، وعمد إلى أغطية السرير وربطها وتدلى إلى الشارع من خلف القصر ، وكان الجمهور بقيادة الأشراف يشعل النار فى الأبواب الخارجية للقصر ، فما اجتازها حتى وجد أمامه الأبواب الداخلية ، فأخذ يشعل النار فيها .

سار الزعيم فى طريقه ، وتمكن من اختراق النطاق الأول من الحراس الذى ضربه الثائرون حول القصر ، فما وصل إلى النطاق الثانى حتى عرفه بعض الحراس فقبضوا عليه ، وتصايحوا بأنهم قبضوا على الخائن وعاجلته الطعنات من كل جانب ، فخر صريعاً فى أيدى الجمهور ، وجره أتباع آل كولونا إلى قصرهم فى روما حيث بقيت جثة الزعيم معلقة بضعة أيام إلى أن أمر أعداؤه بدفنه .

وهكذا حدثت مأساة الماضى القريب ، فى ذلك الماضى البعيد ، رينزى الذى وصفه أحد المؤرخين فقال إنه كشهاب لامع فى سماء روما ، أضاء فترة ثم انطفأ ، فأعقب ظلاما .

حسن محمود

رياضة الجبل

كل رياضة لا ينمو بها الجسم والعقل والخُلق جميعاً تفقد ركناً من أركان القوة التى يجب أن تتوافر فى الرجل السليم . فإن اشتد ساعدُه وهانت بصيرته فما هو بسليم ، وإن نما عضده وعقله وسقطت همته فما هو بسليم ، وإن كبر عقله وتضاءل عزمه وجسمه فما هو بسليم . . . ولقد حسِبَ الذين أصابهم الكِبَرُ قبل أن يبلغوا أجله أن الرياضة لعب ولهو ، وأن الحياة وقار ، وأن الوقارَ جمود ، وحملوا بنيهم وبناتهم على أن يتخلقوا فى ربيع الشباب بخلق الشيوخ . . . ثم سئموا بعدها تكاليف الحياة واستذلهم العجز والخمول فلا ينهضون لخير ، وهرمت أمم مختارةٌ ، واستمتع غيرها بالشباب والقوة والنهوض والعزم . . .

ولقدسألت نفسى فى مطالع الجبل سؤالا أبدئ فيه ثم أعيد ، عسى أن أجد وجه الصواب فيه لا ظالماً ولا مظلوماً . . . كيف يبصر وجه الحياة من شبَّ مكتوفاً فى منازل العسر والجهل ، وإن أبصر وجه الحق ضاقت حيلته ، ولا يسمع مرشداً يحثُّه ولا هادياً يهديه . والإنسان معدن قد يغفل فيتراكم عليه التراب وقد يقدقد السيف فيكون حيًّا صارماً . . . وكيف يبصر جانب الحق شباب لا يسأل نفسه عن شيء ولا يسأله سائل عن شيء ، فركب من الحياة مركباً هيِّناً ، ونعم بنعمة الظل فى مطلع الربيع ، فذبلت زهرته التى لا تستقبل حرَّ الشمس ؟ . . . إن الإنسان فقير أبد الدهر إلى النور . . . فإن لم يأته نور من علم أومعرفة أوهداية أو تجربة ، نظر بعينيه فلا يبصر، وأصغى بأذنيه فلا يسمع ... وكان حقًّا على القوى أن يضىء ظلام الضعيف ، وعلى العارف أن يهدى سبيل الضال . « فمثل رجل رأى ضالا فهداه الطريق كمثل الذى يضىء للناس من مصباحه فيعيش الناس فى ضياء ، ولا يمنع ذلك مصباحه من أن يضىء » .

ومن أولى بنشر ذلك النور ممن تولى قيادة الإنسان ، ومَنْ أمسك بيديه مصير الإنسان ، أى الذين نهضوا لحكومته . فإن نسى هؤلاء أنهم أئمة السعادة والنور ، وذكر هؤلاء أنهم مُسَلطون أشداء ، تردَّى من يحكمون فى ظلمات الحياة ، وكان جزاؤهم أن يكرهوا مثلما يُكره التسلط الغاشم الظالم .

ومن أولى بنشر ذلك النور من عالم يحب الإنسان وسعادة الإنسان . فإن أمسك عليه علمه كان مصيره كالشجرة التى يسقط ثمرها فلا يحيا به الناس . . . وخير ما يُنْعِم به الحاكمون فى أمة على شبابها وما ينعمون به على نفوسهم من جميل — سفينة فى البحر تحمل تجارة الأمة وتحمل شباب الأمة إلى كشف حجاب الطبيعة ، فيعلمون ما يعجز عن كشفه كل كتاب ، ويقرءون ما يقصر عن بيانه كل معلم . فكل معرفة لا تأتى من صحف الطبيعة صدى ليس من ورائه حياة . وكثير منها غرور وظن . ولا يزيدهم ذلك إلا تعطشاً للدار التى شبوا فيها وحنيناً للأرض التى ولدوا فيها . فإن جاءوا ديارهم بعد هذا جاءوها بعلم وقوة ، ومنعوها وأعزوها بعلم وقوة ، ولا يسأمون تكاليف الحياة والشباب . وكيف يسأم تكاليف الشباب من انغمس مرة فى أثير السماء ، ومن كشفت قدماه الصخور التى تتفجر منها البحيرات والأنهار ، ومن ملأ عينيه بالبسمات التى لا تحصى والتى تتوج رءوس الموج فى البحار ، ومن نام فى أحضان الأرض التى ولدت كل شىء وسار فى موكب الشمس التى تبصر كل شىء . . . ونمى عقله وعزمه وساعده .

مما أنعم الله به على الإنسان نعمتان . . . نعمة النسيان والفكر ، فكيف يخرج الفكر من النسيان . . . أوتار فى النفس تهتز من صفو ومن صدًى ومن نعيم ومن شجى ، وترسل الزهرة الناعمة وجهاً محبوباً وسعداً ، ويوقظ الطير الوديع بدعائه وندائه أوتار السماحة والرضا ، وتطاوع هذه الأوتار ماتسمع من خرير الحياة الدافقة التى تهبط عند مرمى العين من شاهق ، والتى تتلوى تحت قدميك فى ضمير المراعى ، والتى تترامى ضافية حية ، فإن اعترضها صخر دفعته فإن ثبت لها الصخر جرت من حوله عن يمين ويسار . . . وحينئذ يستوى الفكر والنسيان كما تستوى نعمة الفكر والنسيان إن ثملت الأوتار بالنغم العذب . وما تزال تتراوح هذه الأوتار من صدى إلى صدى حتى يغلبك الطرب على جمود الوقار ، وتغنى كما يتغنى من بين يديك كل شىء .

وفى ضحى الشمس نسيم تهتز فى آثاره أعطاف الأشجار ، وأديم السماء صاف أزرق لا تختلط به الغيوم ، وفى وضح النهار بياض مصفًّى لا تشوبه شائبة ، وسكون وسلام وأمن . . . تقودك عصاك الطيِّعة من ظل الشجر إلى حر الشمس فوق الصخور التى يتبدل حولها ماء السحاب جليـداً ، والتى لا تبصر مكنونها العين ، والتى خلقت مهبطاً للنور . وترى عند أقصى لفتاتك لوناً لا يكاد يستقر تحت الأبصار حتى يتبدل تحت طيف الشمس شيئاً آخر ، وترسل الشمس ضوءها الوهاج فى قمم الصخور الباسقة فى كبد السماء ، وفى أودية الثلج الأبيض الممتد بين هذه الصخور والقمم ، وتشيع الشمس صفاء لاتدركه الأبصار وسلاماً لا يبلغه السمع ، ويخرج من ثدى هذه الطبيعة كل شىء حى ، وتنسيك الطبيعة كل شىء فلا تدرك خطو الزمان الذى يترك خطوه فى بعض الأرض الفناء . . . والهرم . . . ليس فى قلب هذه الطبيعة هرم ولا فناء ؛ إنما ترسل هذه الطبيعة الفتوة وتثير هذه الطبيعة السعادة الكاملة التى توحى إلى النفس الخلود . فوق هذه الصخرة التى تشرف على قطع من الجليد ، والتى يبلل جوانبها ماسال من قطع الجليد العليا إبر مدببة من رءوس الجبل عاتية مظلمة جرداء تعترض ضباب السحاب ، وتعترض ما وراءها من سلاسل جبال تعلو وتنحدر كأنها رءوس الموج فى بحر عاصف ، وتتلون هذه السلاسل بألوان قاتمة إذا حجب عنها ضياء الشمس . وإذا جلتها الشمس كشفت عما فى باطنها من مرعى أخضر تنفذ فى بساطه الأخضر القاتم كتل عارية من صخور حمر ، حتى تلقى عند مدى العين ساسلة كلون السحاب بيضاء قد كسا رءوسها الجليد الذى تمزقه صخور سود . ويعترض مدى العين جانب شاهق يُسلم العين إلى صفحة السماء التى جرى فوق لونها المخضر الأزرق خطوط بيض وقطع من سحاب أبيض لا تستقر فى قرار وإنما تمرُّ مترفقة كأنها على سفر ، ثم تهبط العين من شاهق السحاب إلى باطن الوادى فى هاوية تخضرُّ جنباتها ثم تكون صخراً مجرداً . واتخذت مياه القمم سبيلها من كل منزل واطىء إلى باطن ذلك الوادى . . . ولا تسمع فى رأس هذا الجبل سوى صوت مساقط المـاء وهى تدوى فى جوف الصمت دويًّا يبدد عنفه فضاء الوادى . . .

وليس أعجب فى هذا الجبل من فعل الماء . . . فهو كأنما يريد أن يغيث الناس من كل سبيل . . . فهو منبعث منطلق من شقوق الصخر ومن جيوب

الجبل . وإذا تجمع تدفق فأ كل باطن الصخر ، وهوى من صخر إلى صخر وبطون الصخر الأحمر والأبيض والأسود ملساء ناعمة لا تغير من بياض السيل شيئاً ، فهو صاف لا يخفى ما فى باطنه من شىء . وإذا لقى فى مجراه جندلا من جلاميد الصخر نفر فتناثر فوق رأسه بياض شاهق من فوقه رذاذ . فإن سد طريقه الجبل أكل ما استطاع من الأرض التى يستند عليها الجبل فيسقط مجرى السيل من رأس صخر سقط مما أكل السيل ، إلى رأس صخر هوى إلى ما انحدر من السيل . . . فهى مساقط بعضها فوق بعض فى أعماق تتزايد كلما ضاقت جوانب الجبل . وكلما تجمع مجرى السيل فى هذه المضايق العميقة انبعثت منه قوة لا يقف فى سبيلها شىء . . . ويتجمع فى مجراه الضيق كتل من صخر موحش استقبلت سبيل الماء ولم تتجرد من طبيعتها الأولى ، فهى تحمل فوق رأسها شجراً حياً هبط معها من جانب الجبل ، وكلأ أخضر ما يزال مزهراً .

والله يغفر الذنوب جميعاً ، فقد مكثت عشرين يوما أنظر فى ثنايا الجبل إلى رءوس الجليد ومساقط الماء ، وأصغى إلى نفسى وإلى ما تجده من نعيم فى كبد الصمت ، وإلى ما يملؤها من فيح النسيم . ومضيت جامداً لا ألوى على هذه الزهور التى تناثرت فى المرعى الأخضر وعاشت فى عروق الصخر الجامد . . . حتى قالت لى فتاة ذات صباح : « اجمع لى من زهر الجبل . . . » فأى نعيم فى هذه الحياة ينزل بنفوس الأحياء أنعم من هذه الساعة حين لا يبقى للنفس من شاغل سوى جمع الورد وتتبع الريحان والزهر . . . وتلفتُّ إلى هذا اللون الندى الأزرق الذى كسا رأس الزهر وتمايل فى ظلال الجبل مع النسيم . وتتلون الزهرات بحلى دَقّ عن كل وصف . . .

ثم يحجب الصخر سحراً وعلماً لا يبلغه سوى القوى الفتىّ . وإن من الصخور لصخراً يأخذ بالألباب ويدعو بدعاء جُزُر الموسيقا التى دعت فى الأساطير كل عابر : أيها العابر الغريب ، من أتانا طرب بما لم يطرب به أحد ورددناه إلى أهله بعلم . ومن جاءها هلك . ولا ينجو من التهلكة إلا من سد سمعه عن دعائها . وكذلك تدعو بعض الصخور : أيها العابر الغريب إنك لم تبلغ ضمير فِتْنتى وسحرى ، فمن أتانى طرب بصمت وسلام لم يبلغه سمع ، ورددته إلى قومه بعلم ، ورأى ليلا لم يشهده أحد ، وشهد مطلع الشمس بسحر لا يعلمه أحد . ودون هذه الصخور كتل وأودية من جليد .

واتخذ فتية الجبل مغنما من قيادة الرياضيين إلى تسلق هذه الصخور. وامتازت الرياضة فى الجبل بالصبر والتمهل والتعقل . . . والطريق البعيد خير دائما من الطريق القريب . . . وأثقلت أحذية الرياضيين بقطع من الحديد تثبت فى الصخر وتقى من الزلل وتعصم من خفة الأحلام . وحمل الرياضيون طعامهم وبعض ما يحتاجون إليه فى حقائب يشدونها إلى ظهورهم ، وفى أيديهم عصىٌّ تثبت فى الأرض بطوق من حديد مدبب ، ولها مقابض كهيأة الفأس أعدت لترفع ما عسى أن يعترض الطريق من ثلج ، وليحفروا بها موضعاً لأقدامهم فى الصخر الأملس والجبل القائم . . . ويقضون النهار فى مثانى مصعدة فوق الصخر الجامد والعشب اللين ، ويجتازون منازل السيل ثم يقضون الليل فى أكواخ عند أقدام أودية الجليد ، ليبرحوها قُبيل الفجر وراء الدليل إلى رأس الجبل ، وليشهدوا مطلع النهار والشمس .

ومن لم يأخذ لهذه الرياضة أهبتها ، ولم يتزود لها بالأناة والحكمة قد تزل به قدم إلى فج سحيق . . . وقد اخترت العزلة فى مطالع الجبل على تتبع الدليل ، ومشيت وحدى وسط النهار فى مثانى معلمة بخطى الذاهبين ، ولم أرد أن يكون لى صاحب يشغلنى بحديثه عما أرى وما أسمع ، فقد حرصت على أن أنفض عن قلبى فى صفو السكون ما عسى أن يكون قد اكتسب من ملالة بالناس فى حياة المدن . وكلما استقبلت بقلبى ما لم أكن أعلم من جمال وصحو أوت إليه الحياة والبشر والربيع والشباب ، وقرأت فى صفحة الطبيعة حكمة خفيت من قبل على قلبى ، وهى أن السعادة أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وأن الله قد ألزمها عنق الحياة حين قدّر الحياة للناس ، فنسيها الإنسان ونظر إلى حيث لا يشهد إلا الشقاء يوم استمسك بأهداب الطمع الذى أذل أعناق الرجال ، وبالمال الذى شتت الحبيبين . فمن استطاع أن يستقبل بملء جفنيه متهللا مستبشراً ثياب الفجر الوردية ويستقبل وجه الشمس بقلب سليم ، ويشرق قلبه كما يشرق الطير المغرد فى الصبح والزهر المتفتح فى مطلع النهار ، ومن استطاع أن يمشى فى الأرض تحت حرّ الشمس ، فيرى عند قدمه ظله حيًّا مشرقاً إذا فلح الأرض أو غرس الزهر أو مشى فى مناكب الأرض إلى معرفة وخير ، ومن استطاع أن يعمل نهاره فيثمر ما عمل وينمو عقله وعزمه وساعده نحو الخير ، ومن استطاع أن يطلق نفسه من كل عقال ، ويحرر قلبه من كل ذل مختار ، ومن استطاع أن يسير فى موكب الحياة

والشمس ، وأن يغمس قلبه فى آصيل الشمس ، ولا يحدثه الليل ببغيضة أو نقمة ويحدثه بالخير أبداً ، ومن استطاع أن يجمع ما غرست يمينه من زهور فيهديها للتى تحبه والتى لا تريد أن تحبه ، ومن استطاع ألا يفسد صفاء الليل بطمع وجمال النهار بجشع — من استطاع ذلك فقد كسب نعيم الحياة جميعاً ، وهو نعيم لم يختص الله به غنيًّا دون فقير ، ولا كبيراً دون صغير ، بل هو مال مشاع من سبقت إليه يده فهو له .

علی حافظ

النهضة السياسية فى أندونيسيا

دراسة تاريخية عن يقظة الشعب الأندونيسى

إن الوضع الجديد الذى اتخذه الشعب الأندونيسى لنفسه فى هذه الحياة ، منذ استسلام الإمبراطورية اليابانية فى شهر أغسطس ١٩٤٥ للقوات الحليفة ، قد أثار الرأى العام العالمى وأعجبه ! لأن علمه بحقائق الحياة الحديثة فى أندونيسيا لايؤدى إلى إشباع رغبة النفس فى التطلع إلى طبيعة النفس الأندونيسية التى اصطبغت بصبغة الحرية ، وتقمصت روح الاستقلال . ولو أراد الباحث أن يستقصى الأسس التى تركزت عليها الجمهورية الحديثة فى أندونيسيا لما استطاع أن يدركها ؛ لأن السياسة الاستعمارية قد ضيقت الخناق على الحركات الاستقلالية الأندونيسية خشية تسرب أنبائها إلى العالم . ونحن فى هذا البحث ندرس الحياة الأندونيسية الحديثة من الناحية السياسية دراسة تاريخية ؛ ليطلع العالم على القواعد التى بنيت عليها دعائم الجمهورية الأندونيسية منذ ١٧ أغسطس ١٩٤٥ .

منذ انبثق فجر القرن العشرين على أندونيسيا ظهر جيل جـديد فيها مشبع بالروح الديموقراطية ، متطلع إلى المثل العليا . وكانت الجامعات والمعاهد العليا الأندونيسية والهولندية تقذف إلى ميدان الحياة الاستقلالية شباب أندونيسيا ، الذين على نشاطهم المتدفق نهضت أندونيسيا فى حياتها الحديثة ، وعلى جهودهم العظيمة استطاعت أن تتمتع بالحرية السياسية التامة فى عام ١٩٤٥ ؛ ففى عام ١٩٠٦ أسس الدكتور وحيدين ناديًا للمعلمين انضم فى سلك عضويته طلبة الجامعات والمعاهد العالية ورجال السياسة والأدب والصحافة ، وزمرة ممتازة من أقدر الموظفين الأندونيسيين فى الحكومة الهولندية . وَهَدَفُ النادى نشر الآداب الأندونيسية الرفيعة بين طبقات الشعب ؛ لتستوحى منه الروح السامية التى خلقت شعبًا حيًّا كان له السيادة المطلقة فى المحيط الهادى والهندى فى عهـد إمبراطورية سريويجايا ومجاپاهيت الأندونيسيتين منذ القرن الثامن حتى القرن

الخامس عشر . وقد أبدى نادى المعلمين نشاطاً ملموسًا فى توجيه العقول نحو التجديد والابتكار لمسايرة التطور العالمى فى شؤونه العامة . وكان الاحتكاك الأدبى بين الجاليات الأوروبية وبين طبقات الشعب الأندونيسى قد أثر تأثيراً كبيراً فى حياته الأدبية والسياسية والثقافية ، فأنتج هذا الامتزاج الأدبى وضعاً جديداً فى حياة الشبان الأندونيسيين أعضاء نادى المعلمين ، فالتمسوا طرقا متنوعة لتحقيق المثل العليا لأندونيسيا المستعبدة . وكان خير الطرق وأيسرها قلب النادى إلى هيئة سياسية تسعى إلى تحقيق الاستقلال السياسى لأندونيسيا الكبرى بالطرق العلمية الحديثة . فكفاح الاستعمار لاينتج مالم تكن وسائله مبنية على الاطلاع التام بحقائق الحياة الغربية الاقتصادية والسياسية . واستعمال العلوم الغربية الحديثة فى الكفاح والنضال أس أولى لمقارعة السلاح بالسلاح ؛ إذ التضلع من العلوم الحديثة سلاح قوى فى أيدى الشعوب المستعمرة لاسترداد حريتها .

أصبح نادى المعلمين هيئة سياسية تسمت بأسمى المقاصد ، إشعاراً لنزعة الشعب الحديثة ، وتدليلاً على روحه الجديدة ، ورغبة فى تحقيق المثل العليا فى وضعه الحديث .

فما هو هذا الاسم الساحر ؟ وما هى تلك المقاصد السامية ؟

هو «النزعة الفاضلة» . النزعة إلى التجديد والابتكار فى طرق الحياة . النزعة إلى السمو فى العمل وفى مناهج أدائه . وقد قابل الشعب هذه النزعة السامية بعاصفة من الترحيب المشبع بروح الحماسة والمشاعر الملتهبة . ففى يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ استهل الشعب الأندونيسى حياته الجديدة تحت إرشاد جمعية Bœdi Œtomo — النزعة الفاضلة — فافتتحت أعمالها بنشر الروح القومية بين طبقات الشعب ؛ لتهيئة الأفكار لقبول الآراء الحديثة فى السياسة وفى الاقتصاد . فكانت عاصفة هوجاء عصفت بمعالم الاستعمار الهولندى ؛ إذ كانت الروح القومية قد اشتعلت والتهبت قبل أن تثير جمعية « بودى أوتومو » النفس الأندونيسية للجهاد فى سبيل التحرير السياسى . فطلب الزعماء الأندونيسيون من السلطة الهولندية تعديل النظام السياسى ، وتغيير سياستها الاستعمارية ، بإعطاء الشعب حقه فى إدارة وطنه ، واستغلال جهوده فى تنمية الإنتاج الصناعى والزراعى . وأسهل طريق لتنفيذ طلب الزعماء إنشاء حكومة أندونيسية

ترتبط بالتاج الهولندى أدبيًا ؛ كيلا تفقد هولندا مكانتها الممتازة ومركزها السياسى والاقتصادى فى الشرق الأقصى . واستند الزعماء فى أحقية مطالبتهم بالحقوق السياسية لأندونيسيا على غنى الوطن الأندونيسى بالأيدى العاملة والرءوس المفكرة . يدل على ذلك إنتاج الجامعات والمعاهد العالية ، والمدارس الصناعية والتجارية والزراعية العليا من الشبان المثقفين ثقافة عالية ، وانغماسهم فى ميادين الأعمال الحرة أو فى دوائر الحكومة الهولندية . فالمصانع الهولندية والشركات الأوربية المتحدة ذات المصانع والمعامل زاخرة بالأيدى الأندونيسية العاملة والرءوس المفكرة ، زيادة على المشتغلين بالمحاماة والقضاء والصحافة والسياسة والتجارة والصناعة والزراعة . وقد أنتج هؤلاء أعمالاً سياسية واقتصادية تثبت تضلعهم من مناهج الحياة الحديثة ومسايرة التطور العالمى فى السياسة والعلوم والاقتصاد . وإزاء هذه المطالب الأندونيسية واندفاع الروح التحررية فى ميدان السياسة لم تجد الحكومة الهولندية بدًّا من مسايرة التيار الأندونيسى وفسح المجال له كيلا تصطدم به ؛ لأنها أدركت أن المشتغلين بالحركات الاستقلالية ممن تثقفوا ثقافة عالية من الجامعات الهولندية والأندونيسية ، ونالوا ألقاباً علمية رفيعة منها يؤازرهم خريجو الجامعات الأمريكية . وهم على اطلاع واسع ومعرفة وثيقة بدقائق السياسة الاستعمارية الغربية وطرق مقاومتها . وقد أنشأ المستر فان دفنتر المحامى الهولندى وأحد الهولنديين الخلقيين مقالاً فى مجلة « الدليل » الهولندية الصادرة بلاهاى فى شهر مايو ١٩٠٨ حول اليقظة الأندونيسية ، وظهور الجمعية السياسية « بودى أوتومو » تقود الشعب الأندونيسى فى طريق السياسة الشائكة ؛ للوصول إلى تحقيق الأمل القومى للشعب الأندونيسى . وقد جاء فى هذا المقال الكلمات التى اختلجت فى مخيلة هذا الهولندى الذى نظر إلى موقف حكومته إزاء الحركات الاستقلالية الأندونيسية التى بدأت تتطور وتشمل كل الجزائر الأندونيسية ، فحفزته وطنيته إلى تبيين الخطة التى تستطيع بها هولندا أن تحتفظ بمركزها الاقتصادى فى أندونيسيا إذا انتهجتها ، وإلا انهارت إمبراطوريتها انهياراً تاما !

قال المستر فان دفنتر : « إننا نعجب من يقظة هذه الفتاة الجميلة ! فيجب علينا أن نحذر مستقبلها ؛ فقد تثير علينا روح البغض والكراهية لسيطرتنا عليها ،

فيثير هذا الشعور تياراً يجتث جذور استعمارنا . وليس الوقت الذى نجد فيه أنفسنا غير قادرين على مقاومة الروح القومية للشعب الأندونيسى ببعيد ، فيجب على السلطات الهولندية أن تتيقظ وتستعد للمستقبل ، المستقبل الغامض . إن مستقبلنا فى سياستنا الاستعمارية للشعب الأندونيسى يتركز على أساسين . الأول : الضرب بيد من حديد على الحركات التحريرية الأندونيسية للقضاء عليها . والثانى : مسايرة الشعب الأندونيسى فى حركاته ، وهى الطبيعة اللازمة لحياة الدول الاستعمارية . فالسير على الأساس الأول غير صحيح ؛ إذ يؤدى بنا إلى الاندحار فى ميدان الشرق السياسى والاقتصادى . وأما العمل على الأساس الثانى فهو السياسة الرشيدة ، وهو شرف لنا وتمكين لحياتنا السياسية والاقتصادية . وسوف نجد من الشعب الأندونيسى التعاون المشترك والحب المتبادل . ويجب أن ندرك أننا نحيا على الإنتاج الأندونيسى ، فإذا فقدناه فطريقنا ستؤدى إلى الفناء المحتوم ! »

أثار هذا الرأى الهولندى الحر الدوائر الهولندية فى أندونيسيا وهولندا ؛ لأنه كان بمثابة قنبلة ألقيت على النظام الاستعمارى الهولندى . وتجاه هـذا التحول الفكرى فى بعض ساسة هولندا اتخذت الحكومة الهولندية خطة قاسية للقضاء على الحركات السياسية الأندونيسية ، فألغت بعض الهيئات العلمية والرياضية والأدبية الأندونيسية ؛ لأنها رأت منها اتجاها نحو مناوأة الاستعمار المتمثل فى شخصية الهيئة الحاكمة الهولندية . وقد أبدى الشعب الأندونيسى جلداً وعزماً من هذه الضربة القاسية التى حطمت مؤسساته القومية ، فاستعد لتتابع النضال والدعوة إلى السياسة السلبية تجاه الحكومة الهولندية .

تشير برامج جمعية « بودى أوتومو » إلى العمل بكل الطرق الممكنة لتحرير أندونيسيا من الاستعمار ، وإلى تعميم الثقافة العالية بين طبقات الشعب ، ثم إلى إصلاح الحالة الاقتصادية . وقد سارت الجمعية فى تنفيذ هذه البرامج ، فأوجدت قسما إداريا عاملا لوضع السياسة القومية للمطالبة بالاستقلال ، ونشر المعلومات الدقيقة عن مستوى التربية السياسية للشعب ، ولجنة خاصة للدفاع عن حقوق الشعب المغتصبة والدفاع عن أعماله . وأنشأت أيضاً مدارس عالية ومكاتب وأندية للتهذيب العالى ، وأسست أيضاً مصارف ومحلات تجارية ، وساعدت الفلاحين وصغار المزارعين والتجار بإقراضهم الأموال لرفع مستوى أعمالهم .

فى عام ١٩١٢ ظهر فى المسرح السياسى الأندونيسى حزب Sjarekat Islam أو « الرابطة الإسلامية » برئاسة الزعيم المسلم الشهير شكرو أمينوتو . ظهر هذا الحزب ليؤدى الرسالة الإسلامية الإصلاحية مازجاً معها ما أنتجه العقل الغربى من علوم حديثة .

ويستدل من أعمال الحزب برنامجه القومى . وهو يدل على أداء العمل السياسى لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى ، ثم نشر التعليم العام مقروناً بالتهذيب الإسلامى ، ثم إصلاح الحالة الاقتصادية بتنمية الإنتاج الزراعى والصناعى وتحسين وسائله ، وإنشاء إدارات رئيسية لتتولى إدارة شؤون مختلفة من المصالح العامة لتكون حكومة مصغرة داخل الحكومة الهولندية . وأهم هذه الإدارات هى : إدارة المالية والاقتصاد والتعليم والشؤون الخارجية والزراعة والدين والرياضة . وأنشأ أيضاً السلطات الثلاث الكبرى — القضاء والتشريع والتنفيذ — لتدريب زعمائه ورجاله على أصول الحكم . وقد طلب من الحكومة الهولندية إنشاء حكومة أندونيسية ليشترك الشعب فى الإدارة والحكم . وكان قد سبر غور نفسه ومقدار كفايته فى إدارة الحكومة ، فالهيئة العاملة فيه من أقطاب السياسة والإدارة . ويدل هذا على استطاعة الحزب تكوين الإدارات الرئيسية فيه ، والسلطات الكبرى الثلاث .

وأبرز أعضاء الحزب السيد عبد المعيذ ، ويشغل وكالة الحزب ، وهو يمثل الناحية العصامية فى القوة النفسية والإدارية بين أعضاء الحزب ، والمستر أغوس سالم أكبر مؤرخى الجيل الحديث فى أندونيسيا ، ومن أشهر العلماء المفكرين . ويشغل جانباً كبيراً من الناحية السياسية والاقتصادية فى الحزب فيلسوف من فلاسفة القرن العشرين له مؤلفات كثيرة فى السياسة والاقتصاد ، أشهرها « الأسواق العالمية » و « تاريخ العالم » ، وقد مثل حزبه وزميله السيد عبد المعيذ فى المجلس النيابى فى دورته الثانية ، وفى عام ١٩٢٢ انتخب عضواً فى المؤتمر الدولى لنقابات العمال بجنيف ممثلا نقابات العمال الأندونيسيين . وقد استطاع بحنكته الإدارية والسياسية وتضلعه من العلوم الاقتصادية الحديثة وما يرتبط بها من فروع المعرفة أن يؤثر فى المؤتمرين تأثيراً كبيراً ، ويبنى لأندونيسيا مركزاً ممتازاً فى الاقتصاد . ومنذ أعلنت الجمهورية فى أندونيسيا فى ١٧ أغسطس عام ١٩٤٥ أصبح المستر أغوس سالم مستشاراً لرئاسة الجمهورية ، ثم متكلماً

باسم وزارة الخارجية فى وزارة الدكتور شهرير ، ثم عين وكيلا لوزارة الخارجية . ولا يزال يشغل هذه الوظيفة ويؤدى أعمالها بدقة أثبتت كفايته السياسية فى ظرف تجتاز فيه أندونيسيا أكبر عملية امتحان دولى ؛ لتثبت أحقيتها بحريتها السياسية واستقلالها التام .

انتهج الحزب السياسة التعاونية مع الحكومة الهولندية ؛ ليُفْسحَ للشعب مجال العمل فى ميدان أوسع حرية ؛ فقدم مذكرة إلى السلطة الهولندية تعرف باسم « مذكرة شكرو » ووقعها أبرز رجالات أندونيسيا . وقد ورد فى هذه المذكرة طلب إنشاء حكومة وطنية ذات برلمان ، فوعدت الحكومة الهولندية بلاهاى الزعماء الأندونيسيين بإنشاء الحكومة وبرلمانها حينما يصفو الجو الدولى وتضع الحرب أوزارها (الحرب العالمية الأولى) فقبلوا هذا الوعد . ولم تدفعهم سياستهم القومية إلى ختل السلطة الهولندية والقيام بثورة عنيفة تقضى على الاستعمار الهولندى فى ظرف أصبحت فيه المملكة الهولندية كريشة فى مهب الرياح !

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، أنشأت الحكومة الهولندية مجلساً نيابيًّا مختلطاً ، وانتخب أعضاؤه من الهولنديين والأندونيسيين والشرقيين . فعدت الأحزاب السياسية الأندونيسية هذا المجلس ملعباً هولنديًّا تمثل فيه المهازل السياسية ! فعدل حزب الرابطة الإسلامية سياسته ، واتبع السياسة اللاتعاونية ؛ لعبث الحكومة الهولندية بمطالب الشعب . ثم شرعت فى إرسال الزعماء وكبار المشتغلين بالحركات الاستقلاليــة إلى جزيرة غينيا الجديدة أو الأرض الحمراء ؛ ليلاقوا حتفهم جزاء بما كسبت أيديهم من مناوأة السياسة الاستعمارية !

إن السياسة الهولندية بعد الحرب العالمية الأولى كانت تفسح المجال لاندفاع الأندونيسيين فى ميدان التحرير السياسى . فالشعب الأندونيسى لم يرعبه منفى غينيا الجديدة أو السجون الحالكة ؛ لآرائه السياسية ، ومقاومته السياسة الهولندية . وأعظم ظاهرة لهذا الجهاد الأندونيسى ، انتشار فروع حزب الرابطة الإسلامية فى المدن والقرى ، حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثة ملايين عضو زعزعوا دعائم الاستعمار الهولندى وهزوا عرشه بالأرض المنخفضة ! ثم ظهور أحزاب سياسية لتحرير أندونيسيا من النظام الاستعمارى الهولندى . وأشهرها :

حزب أنسولندا أنشأه ثلاثة من زعماء أندونيسيا هم الدكتور دويز ديكر ، والدكتور شفتوماعون كسومو ، والبروفيسور ديوانتارا ، فى ٦ سبتمبر ١٩١٢ . وسياسته توحيد مواليد أندونيسيا الأوربيين فى الوحدة الأندونيسية ؛ ليشتركوا فى الدفاع عن أندونيسيا . ولما انتشرت روح الوحدة بين الطبقات الأوروبية حلت الحكومة الهولندية حزب أنسولندا ، ونفت زعماءه إلى الجزر الأندونيسية النائية ، ثم رُحِّلوا إلى هولندا ومكثوا ست سنوات بعيدين عن الأعمال والحركات السياسية . وفى عام ١٩٢٢ ترك البروفيسور ديوانتارا الاشتغال بالسياسة ، وخاض ميدان الثقافة ، فأنشأ مؤسسة ثقافية « تامن سيسوا » لنشر التعليم الحديث للجيل الجديد . وبلغ عدد المدارس التابعة لهذه المؤسسة فى عام ١٩٢٧ سبعمائة مدرسة من رياض الأطفال حتى العالية . وفى ابتداء سلطة الجمهورية الحديثة تولى البروفيسور ديوانتارا منصب وزارة المعارف .

ثم فى مايو ١٩١٣ هبت على أندونيسيا العاصفة الاشتراكية الكبرى ! فتأثرت بنظمها الحديثة فى الاقتصاد والسياسة . والشعب الأندونيسى شعب شرقى يلاقى الأمرَّين من السياسة الاستعمارية الهولندية . فحينما سارت التيارات الاشتراكية من أوربا تقبلتها أندونيسيا بصدر رحب ؛ لأنها ستقضى على الرأسمالية العالمية التى تؤيد السياسة الاستعمارية الهولندية ، فتستنشق نسيم الحرية وتحلق فى أجوائها .

سنفليت . . . اشتراكى هولندى ، أرسلته الهيئة الاشتراكية العالمية بالروسيا إلى الشرق الأقصى لنشر الروح الاشتراكية فيه . وصل إلى أندونيسيا فى عام ١٩١٣ ، فاتصل ببعض العمال والموظفين الهولنديين فى مدينة «سماراتج» وخاض معهم فى أحاديث ذات شجون ، واستطاع بخبرته الواسعة جذب نفوس العمال والموظفين إلى حظيرة الاشتراكية العالمية ، فبرز منهم عدد ذو ميول متطرفة . فأسس سنفليت بمساعدة الاشتراكيين الهولنديين والأندونيسيين الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، وأعلن برامجه وهى [١] إيجاد حالة اجتماعية واقتصادية جديدة للشعب الأندونيسى [٢] العمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى [٣] قلب نظام الحكم رأساً على عقب . وسعى الحزب إلى تنفيذ هذه البرامج بكل الطرق الممكنة ، فظهر فى محيط العمال

تأثير المذهب الاشتراكى الحديث ؛ فحدثت عدة إضرابات واعتصابات ، نتيجة لمطالب العمال بتحسين حالتهم من الهيئات المسئولة ورفضها الموافقة عليها . كما حدثت عدة تطورات فى ميدان السياسة أدت إلى وضع الحكومة الهولندية نظاماً داخليًّا يستطيع معه الشعب أن يبدى آراءه السياسية تجاه السياسة العامة للحكومة الهولندية فى أندونيسيا . ولما توسعت الحركة الاشتراكية وامتد نفوذها إلى الدوائر الهولندية الاستعمارية خشيت هولندا أن تتحول سياستها من استعمارية إلى اشتراكية وطنية تؤيد السياسة التحريرية الأندونيسية ! فقبضت على بعض زعماء الحزب الديمقراطى الاشتراكى من الهولنديين وأعادتهم إلى هولندا . وأما المستر سنفليت زعيم الحزب ، فقد مكث فى أندونيسيا يرقب عن كثب السياسة الاستعمارية الهولندية فى كفاحها الحركات الاستقلالية الأندونيسية . ولما تهيأ الجو الداخلى للسياسة الاستعمارية بالضرب على الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، حلت الحكومة الهولندية هذا الحزب . وبذلك فقدت الحركة الاستقلالية الأندونيسية عضواً عاملا أثبت عصاميته وثباته خلال أربع سنوات فى مقاومة السياسة الهولندية الاستعمارية ١٩١٣ — ١٩١٦ ، وكفاح الرأسمالية العالمية .

وفى شهر سبتمبر ١٩١٤ أسس بعض زعماء أندونيسيا حزباً سياسيا باسم حزب فاسوتدان ترأسه الزعيم الأندونيسى الشهير رادين إسكندر ديناتا؛ للعمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الغربى . وانضم إلى عضويته كثير من الموظفين ورجال التجارة والصناعة والصحافة وطلاب الجامعات والمعاهد العالية . ويعتبر هذا الحزب حزب الأرستقراطيين الأندونيسيين ، ومثّله فى المجلس النيابى زعيمه ديناتا . وقد اتبع السياسة التعاونية مع الحكومة الهولندية منذ نشاته حتى عام ١٩٢٢ ، ثم أعلن السياسية اللاتعاونية متضامناً مع سائر الأحزاب السياسية الأندونيسية .

وفى عام ١٩١٧ أسس رجال سومترا حزب شركت سومترا أو رابطة سومترا للاشتراك فى ميادين الجهاد المقدس لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى . وقد أنتج الحزب قوة سياسية داخلية هزت جزيرة سومترا وأقعدتها ، فأحرجت مركز هولندا السياسى فى هذه الجزيرة العظيمة .

وفى عام ١٩٣٥ اتحـد حزب شركت سومترا مع عدة أحزاب سياسية لتكوين حزب سياسى زاخر بالعقول المفكرة ، والرءوس المدبرة ، والأيادى العاملة .

وفى مايو ١٩٢٠ فاجأ الدوائر السياسية ظهور الحزب الاشتراكى الأندونيسى تحت رئاسة الزعيم الاشتراكى الشهير الدكتور سمعون . وقد ساعده فى إنشاء هذا الحزب المستر تان ملاكا والمستر دارسوتو والمستر عالمين . وأعلن الحزب برامجه السياسية بين وجل الحكومة الهولندية القاتل ، وبين فرح الشعب الأندونيسى العظيم ! فالحكومة الهولندية قد درست مغامرات زعماء الحزب الاشتراكى حينما كانوا أعضاء عاملين فى حزب الرابطة الإسلامية ، ولم ينفصلوا منه إلا لسياساتهم المتطرفة ، ومغامراتهم العظيمة فى ميدان الاستقلال ، وآرائهم الاشتراكية فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وأبرز منهج الحزب ، قوة اشتراكية قومية تطوح هيكل الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا ، وإيجاد حالة اقتصادية ترفع مستوى العامل والفلاح ، ثم القضاء على العادات والتقاليد البالية ، أو التقاليد الغربية المشبعة بروح التهتك والفساد .

احتل الحزب الاشتراكى المسرح السياسى دون غيره ؛ فهو قوى برجاله وماله . فقد انتسب إليه كثير من العلماء والأدباء والمحامين والصحفيين ، ورجال الأعمال وزعماء العمال من مختلف النقابات . كما انتسب إليــه الفلاح فى كوخه والعامل فى مصنعه والمرأة فى دارها والطالب فى معهده . وقد اعترفت بقوة الحزب الاشتراكى جميع الأحزاب الأندونيسية حيث لا يضع الإنسان قدمه فى أى مدينة أو قرية إلا يجد أمامه فرعا للحزب منظما تنظيما دقيقاً . وقد حدث بينه وبين حزب الرابطة الإسلامية صراع عنيف حول المبدأ . فالحزب الاشتراكى مبدؤه الاشتراكية المتطرفة التى تناقض الشريعة الإسلامية ، وحزب الرابطة الإسلامية مبدؤه الإسلام الذى وضح حقوق الإنسان . ولما ازدادت فورة الدم الاشتراكى الأحمر فى أعضاء الحزب تصدت الحكومة الهولندية لها ، فصارت تضرب على الحزب الاشتراكى بوضع الرقابة الشديدة على فروعه وعلى مؤتمراته وعلى اجتماعاته العامة ، فأثار هذا العدوان السياسى شعور الاشتراكيين الأندونيسيين ، فحملوا حملات شعواء على الحكومة الهولندية فى ميادين السياسة والصحافة والاقتصاد ، فقابلت ذلك بحملات مماثلة

لحملات الاشتراكيين ، فاتهمت الحكومة الهولندية الحزب الاشتراكي بأنه ينشر المذهب الشيوعي الروسي بين طبقات الشعب الأندونيسي ، وأنه يستمد سلطته المعنوية من الحزب الشيوعي بروسيا ، ثم شرعت فى اتهام بعض زعماء الحزب بإثارة الروح الثورية ، وإخلال الأمن العام ، فتوصلت بهذه التهم إلى القبض على أقطاب الحزب وزجهم فى غياهب السجون ، أو نفيهم إلى غينيا الجديدة ، بعد مشادات طويلة بين محامى المتهمين وبين القضاة الهولنديين الذين نصبوا أنفسهم فى آن واحد قضاة وحكاما . فما أغرب الحياة ! وما أكثر مهازلها ! قوم يعيشون فى وطنهم غرباء ! فإما أن يعيشوا هادئين ، وإما أن يخرجوا منه! فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

وفى يونيو ١٩٢٢ قام زعيم الحزب الاشتراكي الدكتور سمعون برحلة عالمية ، واتصل بأقطاب الأحزاب الاشتراكية فى أوربا وأمريكا وآسيا ، واطلع على دقائق النظم الاشتراكية الروسية ، وعلى مؤسساتها الصناعية والثقافية ونظام العمل . ثم مثّل حزبه فى المؤتمر الشيوعي العالمي المنعقد بموسكو خلال مكثه بها ، فأطلع الأوربيين على المجهودات الجبارة التى تبذلها أندونيسيا للتحرير السياسي . ولدى عودته ضجت الصحافة الهولندية من رحلة الدكتور سمعون وقيامه بشرح قضية وطنه لزعماء الأمم والشعوب . وقد أنتجت هـذه الرحله روحاً طيبة فى الدوائر السياسية العليا فى أوربا ، وتفاؤلا حسناً فى الأندية الأندونيسية .

الحزب الاشتراكي الأندونيسي يشرف على الحركات الاستقلالية ويديرها حسب سياسته القومية . فاضطرت الحكومة الهولنديه إلى استعمال القوة والبطش به ، فسعت للحصول على أعمال تسوّغ لها القبض على المستر تان ملاكا وبقية زعماء الحزب ، ولكنها لم تستطع ! فالأعضاء العاملون فى الحزب الاشتراكي من أقدر المحامين والسياسيين والصحفيين ، وهم على اطلاع دقيق على الأنظمة العالمية الخاصة والعامة . وبعد معارك سياسية عنيفة فى المسرح السياسي بين الحزب الاشتراكي والحكومة الهولندية رأت هولندا أن خير وسيلة للقضاء على الحزب الاشتراكي إثارة التهم واختلاق الأكاذيب حول سياسة زعماء الحزب . فشرعت فى تهيئة الوسائل العملية للقبض على تان ملاكا العمود الفقرى فى الحزب الاشتراكي . فشعر تان بما تنويه السلطة الهولندية من القبض عليه ، فقفز إلى جزيرة سنغافورة واشتغل محركا فى إثارة الرأى العام فى ملايا . ثم أسس الحزب الجمهورى

الأندونيسى للعمل لاستقلال أندونيسيا ، فضيقت السلطة المحلية عليه بسنغافورة حتى اضطرته أن يتركها ويحط رحاله فى الفيلبين . وهناك اشتغل فى الأعمال السياسية لتحرير أندونيسيا وبورما والهند الصينية وأندونيسيا من سيطرة الامبريالية العالمية . والمستر تان ملاكا سياسى مشهور فى شعوب الشرق الأقصى لما قام به من خير الأعمال لتحرير الشرق الأقصى من الاستعمار الغربى .

وخلال السنوات الطويلة التى مرت على الحكم الهولندى منذ خروجه من أندونيسيا حتى عام ١٩٤٢ كان المستر تان ملاكا متنقلا بين عواصم البلدان الشرقية للدعوة إلى الحرية والاستقلال . وكان يدخل إلى أندونيسيا مختفياً فى أشكال مختلفة من السمات والملابس . وفى عهد الاحتلال اليابانى كان تان ملاكا يشتغل عاملا فى أحد مناجم الفحم الحجرى بجاوة الغربية . ولم يستطع إبراز نفسه لأن الحكومة اليابانية تناوئ السياسة الاشتراكية المتطرفة . وبعد مرور ثلاث سنوات على استقلال أندونيسيا ظهر تان ملاكا فجأة فى ميناء جاكرتا ، فعلمت السلطات الجمهورية بذلك ، فرحبت به ترحيباً عظيما دلت به على تقدير أندونيسيا لخدمات أبنائها المجاهدين الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم فى سبيل تحريرها من النير الهولندى ، ثم عين مستشاراً للجمهورية ورئيساً لمائة واربعين هيئة سياسية أندونيسية تعمل لتقوية دعائم الاستقلال ، والدفاع عن كيان الجمهورية التى تضم خمسة وسبعين مليون نفس . وفى شهر يوليو ١٩٤٦ عين داعياً لنشر استقلال أندونيسيا التام فى أنحاء العالم .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٦ أشعل الحزب الاشتراكى الأندونيسى ثورة عامة للقضاء على الاستعمار الهولندى ، واستعمل الأندونيسيون القنابل اليدوية والديناميت والمسدسات والبنادق ، واستطاعوا فى ظرف وجيز السيطرة التامة على بعض المدن الأندونيسية الكبرى ، وكادت العاصمة تسقط فى أيديهم . وكان العامل الأساسى فى نجاح الثورة فى ابتداء أمرها ، التكاتف المشترك بين طبقات الشعب وهيئاته العاملة ؛ إذ أن نقابات العمال وسائقى السيارات والترام والقطر الحديدية ، ونقابات الحمالين واتحاد الموظفين فى دوائر الحكومة الهولندية ورجال البحرية الأندونيسيين ، ورجال الشرطة والحربية الوطنيين ، انتظموا فى سلك الثورة ، فصارت نيران القوات الأندونيسية تصلى جنود الحكومة الهولندية وتقضى على حياتهم . أما الهولنديون فقد استعملوا كل أنواع الأسلحة

الحديثة التى تحت سيطرة جنودهم ، وقذفوا بجيوش جرارة أتوا بها من أنحاء الجزر الأندونيسية إلى جزيرة جاوة حيث الثورة فى أشدها ، واستطاع البحريون الأندونيسيون من رجال الأسطول الهولندى السيطرة على البارجة الهولندية ستيفن روبنصون واستعملوها فى القضاء على بعض السفن الحربية الهولندية . ولما تيقظت السلطات البحرية الهولندية إلى مصير البارجة ستيفن روبنصون أرسلوا طائرة حربية تبحث عنها فى المياه الأندونيسية . وبعد لأى وجدوها سائرة نحو الشمال ، فأنذرت الطائرة رجال البارجة بالعودة إلى قاعدة الأسطول فرفضوا مضحين بحياتهم فى سبيل تحرير أندونيسيا ، ثم قذفت الطائرة قنبلة على البارجة وأتبعتها بأخرى ، حتى اشتعلت النار فى هياكلها وغرقت تودع حياتها بين حسرة البحرية الهولندية وبين حقدها على هؤلاء الرجال !

وفى نهاية شهر فبراير ١٩٢٧ انتهت الثورة الاشتراكية بانتصار الحكومة الهولندية ، فاكتظت السجون بالثوار الأندونيسيين ، كما غصت المحاكم بزعماء الحزب الاشتراكى ومحاميهم . ثم سجنت الحكومة الهولندية ٤٥٠٠ شخص من الاشتراكيين بعد محاكماتهم ، كما نفت إلى غينيا الجديدة ١٣٠٨ عضو ، بارز من أعضاء الحزب الاشتراكى ، وآلافاً أخرى إلى بعض الجزائر الأندونيسية النائية ، ثم أصدرت السلطة الهولندية نظاماً يمنع الاجتماعات وتأسيس الأحزاب وراقبت الصحافة الوطنية والهيئات العلمية والأدبية ونقابات العمال مراقبة دقيقة .

وأما زعيم الحزب الدكتور سمعون والمستر سرجونو فقد خرجا من أندونيسيا خفية وتابعا سيرهما حتى حطا رحالهما فى أوربا . فالدكتور سمعون اتخذ مدينة موسكو مقرًّا له ، وأما المستر سرجونو فقد أقام فى مدينة برلين ، ينشران الدعاية للحركة الاستقلالية الأندونيسية . وفى نهاية الحرب الأخيرة تخطى الدكتور سمعون البلدان الأوربية حتى وصل إلى بلدان الشرق الأوسط فعرفته قيادة القوات المتحالفة فقبضت عليه . ولما عرفت مكانته السياسية أعيد إلى روسيا .

بعد سقوط الحزب الاشتراكى مضرجا بدمائه حيًّا بروحه ، تسلّم راية الجهاد شاب فى الخامسة والعشرين من عمره طموح النفس رقيق الشعور قوى الجاذبية ، تلقى دراسته السياسية الأولى على يد الزعيم شكرو أمينوتو ، ثم

ولج ميدان السياسة فى عام ١٩٢٧ وأنشأ الحزب الوطنى الأندونيسى ، ذلك هو الدكتور سوكارنو رئيس الجمهورية الأندونيسية .

اشترك فى إدارة الحزب المستر سرتونو حاكم جزيرة جاوة اليوم . والمستر إسحق والمستر بوديترات والمستر سوجادى ثم الدكتور شفتو مانجون كسومو . ومبادىء الحزب : الجهاد الإيجابى لاستقلال أندونيسيا التام . فأنشأ فرقاً عسكرية للهجوم والدفاع ، وهيئات وطنية تشرف على الحياة الأندونيسية الاقتصادية والثقافية والسياسية والتجارية والصناعية ، فازدادت الحكومة الهولندية اضطراباً وقلقاً . فهذه حركات ثورية منظمة يديرها خريجو الجامعات الغربية وأقدر السياسيين ، تساعدهم الصحافة الوطنية لإثارة الرأى العام الأندونيسى على الاستعمار ، والدعوة إلى الجهاد العملى .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩ انقضّت الحكومة الهولندية بقضها وقضيضها على الحزب الوطنى للقضاء عليه ، فداهمت فرقة مسلحة من جنودها دار الدكتور سوكارنو ليلاً واعتقلته ثم ساقته إلى السجن انتظاراً للمحاكمة . وبينما كانت الأعمال العسكرية تجرى فى الهجوم على خمسين مدينة فيها فروع الحزب للقضاء عليها وجمع أوراقها ودفاترها ، كانت أعمال أخرى تسير فى تفتيش ثلاثمائة منزل فى مدينة باندونغ يملكها بعض أعضاء الحزب . فعمل الجنود فظائع تنفر منها النفوس ، وتشمئز منها الإنسانية . والسبب الأساسى لإجراء السلطة الهولندية هذا الهجوم المفاجىء ادعاؤها بأنها تلقت أنباء تشير إلى أن الحزب الوطنى سيقوم بثورة عامة فى مستهل عام ١٩٣٠ . وبعد تحقيقات طويلة استمرت سبع عشرة جلسة مع الدكتور سوكارنو وزملائه فى المحكمة الهولندية قررت الحكومة الهولندية سجن الدكتور سوكارنو أربع سنوات ، ومدداً مختلفة على المستر غاتوت والمستر ماسكون والمستر سوفريا . ثم أصدر الحاكم العام الهولندى المستر دى خرايف أمراً بسجن الدكتور سوكارنو عامين ، فقضى الزعيم الأندونيسى فى محبسه عامين لاقى الأمرين خلالهما . وفى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ خرج من السجن وانضم إلى الحزب الوطنى برئاسة المستر سرتونو ، فعمل على إصلاح برامجه وتنظيم أعماله ، ثم أسندت إليه رئاسة الحزب ، فقادها خير قيادة . وفى ٥ مارس ١٩٣٣ قبضت الحكومة الهولندية عليه للقضاء على حركاته السياسية ونفته إلى جزيرة فلوريس .

أقصت السلطة الهولندية الدكتور سوكارنو وزملاءه عن ميدان السياسة لعلها تستطيع القضاء على الحزب الوطنى . ولكن عزائم الرجال كالصخرة الصماء لاتؤثر فيها الضربات . فاستعاد المستر سرتونو رئاسة الحزب وسار قدماً به نحو الحياة الحرة ، ثم تنحى عن الرئاسة وأسندها إلى المستر سوديرا ، فعمل هذا بنشاط ملموس فى تقوية الحركات الاستقلالية .

فى عام ١٩٢٧ كونت الأحزاب السياسية : الحزب الوطنى ، حزب الرابطة الإسلامية ، حزب بودى أوتومو ، حزب فاسوندان ، حزب قوم بتاوى ، حزب شركت سومترا ، حزب شركت مادورا ، نادى المعلمين — هيئةً سياسية ، باسم « الهيئة السياسية الأندونيسية » لتوحيد العمل ، والوقوف صفًّا واحداً أمام السلطة الاستعمارية . وتولى رئاسة الهيئة المستر محمد حسنى تمرين . وبظهور هـذه الهيئة هبت على النظام الاستعمارى الهولندى عاصفة سياسية قوية . واستمرت هـذه الهيئة فى العمل حتى أدت واجباتها السياسية تجاه الاستقلال الأندونيسى .

وفى عام ١٩٣١ أنشأ الدكتور محمد حتى نائب رئيس الجمهورية والدكتور سوتان شهرير رئيس الوزارة حزب التربية الأندونيسى للعمل على تحقيق استقلال أندونيسيا . وحدثت بينه وبين الحزب الوطنى مصادمات عنيفة فى الميدان السياسى ، كما هى العادة الطبيعية فى الأحزاب السياسية . وفى ٢٥ فبراير ١٩٣٤ أمرت الحكومة الهولندية مدير الأمن العام بمدينة ماتارام بالقبض على الدكتور محمد حتى والدكتور شهرير والدكتور سوكيمى . ثم نفت الدكتور محمد حتى إلى جزيرة بندانيرا ، والدكتور شهرير وسوكيمى إلى غينيا الجديدة .

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ وحد الدكتور ستومو الزعيم الشرقى الشهير سبعة أحزاب سياسية وأبرز منها حزباً سياسيًّا كبيراً ، هو حزب أندونيسيا الكبرى . وغاية الحزب ، السعى لاستقلال أندونيسيا ، وتعميم الثقافه العالية ، ونشر الاقتصاد القومى

وللحزب مؤسسات ثقافية واقتصادية ، منها : المصرف الوطنى وفروعه ، وشركة التأمين على الحياة وفروعها ، وشركة الملاحة وفروعها ، ومعهد الزراعة والتعليم والمعهد الإسلامى ، وإدارة الصحافة والنشر ، وفرق الكشافة ، عدا دور للأيتام ورياض للأطفال . وله أيضاً جرائد يومية أشهرها « الرأى العام » و « الفكر » .

وفى عام ١٩٣٦ أنشأ الدكتور امير شرف الدين حزب النهضة الأندونيسيه لتحقيق استقلال أندونيسيا ، وانتشرت فروعه فى أنحاء أندونيسيا . وهذا الحزب يعد من أكبر الأحزاب السياسية ؛ إذ اشترك فيه كبار المشتغلين بالحركات الاستقلالية . وحين ظهرت الحكومة الجمهورية تولى الدكتور أمير شرف الدين وزارة الاستعلامات ، ثم وزارة الداخلية ، ثم وزارة الدفاع ، ولا يزال يشغلها حتى اليوم . وفى نفس هذا العام أنشأ المستر محمد يمين حزب الاتحاد الأندونيسى لتحقيق الحرية السياسية التامة لأندونيسيا . وبعد إعلان الحكم الجمهورى قبضت الحكومة الأندونيسية عليه لسياسته المتطرفة ؛ إذ كان يريد الإسراع فى القضاء على معالم الاستعمار الهولندى بالأسلحة الحديثة ، ثم أفرج عنه وعين حاكما لجاوة الغربية .

وفى عام ١٩٣٧ أنشأ المستر ويووهو الحزب الإسلامى واشترك معه الدكتور سوكيمان والدكتور سوكاردى والمستر كسمات والمستر ولى الفتح والمستر محمد رشيدى والمستر عبد القهار مذكر والأستاذ محمد منصور . واتبع الحزب دستوره القرآن والحديث النبوى . ولهذا الحزب عضوان فى الوزارة الأندونيسية بعد اندغامه فى الأحزاب الإسلامية التى كونت حزب ماسجومى أى مجلس شورى مسلمى أندونيسيا .

وفى ٢١ مايو ١٩٣٩ ظهر فى المسرح السياسى عامل جديد لتحقيق الاستقلال لأندونيسيا ، وهو تشكيل الأحزاب السياسية هيئة سياسية باسم « رابطة الأحزاب السياسية الأندونيسية » وتولى رئاستها المستر محمد حتى تمرين .

قامت الرابطة بحركات سياسية واسعة النطاق ، فنشرت دعايات قوية فى المجتمع الأندونيسى لإنشاء برلمان وحكومة أندونيسية . ولهذه الغاية أنشأت الرابطة ما يزيد عن مائة هيئة سياسية للدعوة لمشروع البرلمان فى أنحاء أندونيسيا ، ثم أقامت مؤتمراً قوميا لبحث مشروع البرلمان ووضع مذكرة ترفع للسلطة الهولندية العليا . وبعد انتهاء المؤتمر قدمت الهيئة مذكرتها إلى المجلس النيابى ، وهذا بدوره رفعها لحكومة لاهاى . فغضت الحكومة الهولندية نظرها عن هذه المذكرة . ثم اضطربت سياسة هولندا للاعتداء الألمانى على الأراضى المنخفضة . ثم فى ٩ مارس ١٩٤٢ احتلت القوات اليابانية الجزائر الأندونيسية ، وشكلت حكومة وطنية فيها ، وأجبرت الشعب على

التجنيد الإجبارى . وفى ١٧ أغسطس ١٩٤٥ أعلنت آندونيسيا الحكم الجمهورى واستقلالها السياسى التام .

لقد ظهر للعالم كيف نهضت أندونيسيا ، وكيف أنشأت الجمهورية ، وكيف تدافع اليوم عنها بدماء أبنائها وأرواحهم . وسيظفر الشرق بنصر مبين إذا وقف موقفاً سلبيًّا تجاه السياسة الاستعمارية الغربية .

محمد جندى

ابراهيم بن المهدى : حياته الفنية

كان إبراهيم بن المهدى من أنبغ المغنين وأخبرهم بالأنغام والوتر والإيقاع ، ومن أجملهم صوتاً ، وأطبعهم غناء ، جيد الصنعة ، حسن الأداء .

وهو أول من نبذ الغناء القديم وحوّره ؛ لأنه كان مقصراً فيه ، وابتكر الغناء الجديد ، وأصبح زعيم المذهب الجديد فى الغناء ، فى حين كان إسحاق الموصلى زعيم المذهب القديم ، والخصم العنيد ، والمنافس الخطر لإبراهيم ابن المهدى .

وكان المغنون ذوو الأصوات الجميلة فى العصر العباسى الأول : ابن جامع ، وعمرو بن أبى الكناب ، وإبراهيم بن المهدى ، وهم من الطبقة الأولى فى الفن .

أما من اتبع طريقة إبراهيم الجديدة ، فمخارق وشارية وريّق ويحيى المكى وحسين بن محرز وإسماعيل بن جامع وسواهم .

كانت صنعة ابراهيم فى الغناء لينة ورقيقة . وطالما نسب مايصنع إلى جاريتيه شارية وريّق لئلا ؛ يفسح مجالا للناس لانتقاده ولومه ، حتى قلت أغانيه بين الناس مع كثرتها .

وحينما كان يلام لتعديله فى الغناء القديم وتبديله وتجديده ما طاب له التجديد ، يقول : « أنا ملك وابن ملك ، وإنما أغنى على ما أشتهى وكما ألتذ . »(١)

ذكره ابن النديم فوصفه بقوله : « أول نابغ نبغ من بنى العباس . له ترسل وشعر ، وصنف كتباً . . . لم يُرَ فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ، ولا أشعر . وله مع ذلك صنعة فى الغناء يتقدم بها كل أحد . وكان إسحاق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ، ويتحاكم المغنون إليه فى صناعته . . . وله من الكتب :

---

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٦ .

كتاب أدب ابراهيم » و « كتاب الطبيخ » و « كتاب الطب » و « كتاب الغناء . » (١)

وبلغ من جمال صوته أن قال ابن أبي ظبية : « كنت أسمع ابراهيم بن المهدى يتنحنح فأطرب . » (٢)

وقال الأصفهانى : « . . . وكان رجلاً عاقلاً ، فهما ، ديناً ، أديبا ، شاعراً ، راوية للشعر وأيام العرب ، خطيباً فصيحاً ، حسن العارضة . وكان إسحاق الموصلى يقول : ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس ، رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهدى . فقيل له : مع ما تبذّل له من الغناء ؟ فقال : وهل تم فضله إلا بذاك ! » (٣)

وكانت أخته عُلَيَّة بنت المهدى ندًّا له فى الغناء والشعر ؛ فقد كانت على مقدار كبير من الحذق والنبوغ فى الشعر والتلحين والغناء . وكانت تتمتع بصوت رخيم عذب ، حتى قال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع : « ما اجتمع فى الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته عُلَيّة . وكانت تقدّم عليه . » (٤)

وقال ابن الطقطقى : « . . . وكان فاضلاً ، شاعراً ، فصيحاً ، أديباً ، مغنيًّا ، حاذقاً . وإليه أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله

منكم عُلَيَّة أم منهم وكان لكم   شيخ المغنين ، ابراهيم أم لهم (٥)

ويستطرد الأصفهانى بقوله : « . . . لو ذهبت إلى شرح سائر أخبار إبراهيم ابن المهدى وقصصه لما ولى الخلافة ، وغير ذلك من وصفه بفصاحة اللسان ، وحسن البيان ، وجودة الشعر ، ورواية العلم ، والمعرفة بالجدل ، وجزالة الرأى ، والتصرف فى الفقه واللغة وسائر الآداب الشريفة ، والعلوم النفيسة ، والأدوات الرفيعة ، لأطلت . . . فلذلك اقتصرت على ماذكرته من أخباره دون مايستحقه من التفضيل والتبجيل والثناء الجميل . » (٦)

---

(١) الفهرست : ص ١٦٨ .
(٢) الأغانى : ج ١ ص ١٠٧ .
(٣) الأغانى : ج ١ ص ٩٦ .
(٤) الأغانى : ج ١ ص ١٦٣ .
(٥) الفخرى : ص ١٦٠ .
(٦) الأغانى : ج ١ ص ٩٧ .

لم يكن إبراهيم يغنّى إلا في مجالسه الخاصة ، وفي مجالس الخلفاء . وكان يغنى سرًّا ترفعاً وأنفة ، أو إذا دعاه الرشيد أو الأمين . فلما ظفر به المأمون وعفا عنه ، أسرف في صنعة الغناء وشرب النبيذ في مجلسه ، وغدا يخرج من عنده ثملاً مع المغنين ، وذلك لفرط شغفه بالغناء . فانتهز المأمون هذه السانحة ، وشجعه على سلوكه ، وأذاع بين الناس أن عمه عزف عن المطالبة بالخلافة ، وأنه لا يصلح لها لمجونه

روى الأصفهاني عن جمال صوت إبراهيم بن المهدى ، أن الحسين بن إبراهيم ابن رياح قال : « كنت أسأل مخارقاً : أى الناس أحسن غناء ؟ قال : كان إبراهيم الموصلى أحسن غناء من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناء من إبراهيم الموصلى بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدى أحسن منى بعشر طبقات ... أحسن الناس غناء أحسنهم صوتاً ؛ وإبراهيم بن المهدى أحسن الجن والإنس والوحش والطير صوتاً ، وحسبك هذا . » (١)

وذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى عن تأثير جمال صوت إبراهيم وعذوبته قال : « ... وعن منصور بن المهدى : كان أخى إبراهيم إذا تنحنح طرب من يسمعه ، فإذا غنى أصغت إليه الوحوش ومدت أعناقها إليه ، حتى تضع رءوسها في حجره ، فإذا سكت نفرت وهربت . وكان إذا غنى لم يبق أحد إلا ذهل ويترك ما في يده حتى يفرغ . » (٢)

ذكر النويرى ما يدل على عبقرية إبراهيم في الغناء ، قال :

« وحكى عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : لما صنعت صوتى الذى هو :

قل لمن صدّ عاتبا ... ونأى عنك جانبا
قد بلغتَ الذى أرد ... تَ وإن كنتَ لاعبا
واعترفنا بما ادّعيـ ... ـتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآن ما أرد ... تَ فقد جئتُ تائبا

اتّصل خبره بإبراهيم بن المهدى ؛ فكتب إلىّ يسألنى عنه ، فكتبت إليه

(١) الأغانى : ج ١ ص ١٣٣ .
(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ج ٢ ص ٢٤١ .

الشعر ، وإيقاعه ، وبسيطه ، ومجراه ، وأصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج نغمه ، ومواضع مقاطيعه ، ومقادير أدواره ، وأوزانه ، فغناه . ثم لقينى ، فغنَّانيه ، ففضلنى فيه بحسن صوته . »(١)

غنى إبراهيم فى داره هذه الأغنية من نظمه وتلحينه :

وإذا تباع كريمةٌ أو تُشْـتَرَى فسواك بائعها وأنت المشترى
وإذا صنعتَ صنيعةً أتممتها بيدين ليس نداهما بمُكَـدّرِ

وكانت جارية رومية لا تفهم العربية ، تكنس فى جانب من الدار ، وكان إبراهيم يطرح هـذه الأغنية على جاريته شارية ؛ وإذا بالجارية الرومية تذرف دموعاً حارة . ولما ماتت الألفاظ فى حنجرة إبراهيم وتلاشت فى عالم العدم ؛ جفّ الدمع من عينى الرومية . فـكان صوت إبراهيم الشجى أثار فى نفسها ذكريات عزيزة ، ما تمالـكت معها عن صون دمعها الحبيس من الانطلاق من مكمنه ، فانسلّ من الأحداق سخيناً غزيراً ، حيث أطفأ جمرة تضطرم فى فؤادها الـكليم .

دخل إبراهيم يوماً نشوان إلى مجلس الرشيد ، وكان فى مجلسه إبراهيم الموصلى وابن جامع . فقال الرشيد فى دعة :

— بحياتى يا إبراهيم غننى !

فتناول ابراهيم العود ، ولم يلتفت إلى الموصلى وابن جامع ، وغنى فى شعر لجرير من تلحين ابن عائشة :

أسرى بخالدة الخيـالُ ولا أرى شيئاً ألذّ من الخيال الطـارقِ
إنّ البلية من تَمَلُّ حديثَه فانْقَعْ فؤادك من حديث الوامقِ
أهواكِ فوق هوى النفوس ، ولم يزل مذ بِنْتِ قلبى كالجناح الخـافقِ
طرباً إليك ولم تُبالى حاجـتى ليس المـكاذِب كالخليل الصـادقِ

فقال إبراهيم الموصلى لابن جامع ، وقد لمس تفوق إبراهيم وحذقه :

(١) نهاية الأرب فى فنون العرب : ج ٤ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

— لو طلب هذا بهذا الغناء ما نطاب ، لما أكلنا خبزا أبداً !

فأجابه ابن جامع متململاً :

— صدقت .

ولما انتهى إبراهيم من غنائه أجابهما قائلاً فى رزانة :

— خذا فى حقكما ودعا باطلنا !

كان الرشيد يحب أن يستمع غناء أخيه إبراهيم ، إلى أن تسنى له أن ينفرد به مرات . وذات يوم حضر مجلسه سليمان بن أبى جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم فى لين :

— عمك وسيد ولد المنصور بعد أبيك ، وقد أحب أن يسمعك .

فإذا بإبراهيم يغنى شعراً للأحوص من تلحين ابن سريج ، وهو :

سقياً لربعك من ربع بذى سلم ... وللزمان به إذ ذاك من زمنِ
إذ أنت فينا لمن ينهاكِ عاصيةٌ ... وإذ أُجرُّ إليكم سادراً رسنى

وقد بلغ من طرب الرشيد أن أمر له بألف ألف درهم .

قال هارون الرشيد ذات ليلة لأخيه إبراهيم ، وكان فى مجلسه جعفر ابن يحيى فقط :

— أنا أحب أن تشرف جعفراً بأن تغنيه صوتاً .

فغرد إبراهيم فى شعر الدارمىّ من تلحينه :

كأن صورتها فى الوصف إذ وصفت ... دينارُ عينٍ من المصرية العُتُقِ
أو دُرّةٌ أعيت الغواص فى صدف ... أو ذَهَبٌ صاغه الصواغ من ورقِ

فاهتز الرشيد وجعفر من الطرب ، حتى بلغ منهما الجذل أقصاه .

كان إبراهيم يحسن الإيقاع على الطبل والناى . وقد أوقع مرة على الطبل إيقاعاً أذهل الحاضرين بإتقانه . وطلب إليه الأمين يوماً أن يزمر ، فأجابه بأنه لم يحاول ذلك بعد ، ولن يحاول ؛ ولكنه سأل الأمين أن يحضر جارية من

موالى المهدى ، فأمرها أن تنفخ فى الناى ففعلت ، فأمسكه إبراهيم وشرع يمر بأصابعه على فتحاته كلما مر الهواء ، فى لباقة وتفنن ، حتى ملك لب الحاضرين . وقد بلغ من براعته إذ ذاك أن أجمع الحاضرون على أنهم لم يتمتعوا بسماع عزف على الناى أجمل من هذا العزف السحرى .

لما اخرج عيسى بن محمد بن أبى خالد من السجن ، وهو من أنصار إبراهيم فى خلافته ، وقد سجن لخيانته ، كان إبراهيم يغنى المأمون بعد ظفر المأمون به ، أغنية من شعره وتلحينه :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منى ... هوى الدهرُ بى عنها وولى بها عنى
فإن أبكِ نفسى أبكِ نفساً عزيزة ... وإن أحتسِبها أحتسبها على ضَن
وأفلتنى عيسى وكانت خديعةً ... حَلَلْتُ بها مُلكى وفلَّت بها سِنى

فأشفق عليه المأمون ، وقال له فى عطف ورقة :

— والله لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين ، فطب نفساً ، فإن الله قد أمنك ، إلا أن تُحدِثَ حدَثاً يشهد عليك فيه عَدْلٌ ، وأرجو ألاَّ يكون حدَثٌ إنْ شاء الله .

رغب المأمون إلى إسحاق الموصلى أن يغنى لحناً من شعر الأخطل :

يا قلَّ خيرُ الغوانى كيف رُغنَ به ... فشرْبُهُ وَشَلٌ منهن تصريدُ

فغناه إسحاق ببراعة ، فأعجب به المأمون . ثم سأل إبراهيم أهو لحن هذا الشعر ؟ فقال نعم ، وغناه غناء رائعاً . فغمرت المأمون نشوة لذيذة من الطرب ، وفضله على غناء إسحاق الذى لم يكن فى وسعه أن يفنده ، لحذقه فيه وتفوقه عليه .

غنى إبراهيم ذات يوم فى مجلس المأمون غناء ممتعاً ، فاستحوذ الطرب على أبى زيد ، وهو كاتب لطاهر ، فوثب وقبَّل طرف ثوب إبراهيم اعجاباً به وبصوته الرخيم . فرمقه المأمون شزراً مستهجناً فعله . فقال له فى حماسة :

— ما تنظر ! أقبِّله والله ، ولو قتلتُ عليه !

فلاحت بسمة لطيفة على ثغر المأمون ، وهمس فى دعة :

— أبيتَ إلا ظرفاً !

كان المعتصم يضم فى يده طاقة يانعة من النرجس ، فطلب إلى إبراهيم أن يقول فيها شعراً ويغنيه . فأطرق إبراهيم هنيهة ينكت فى الأرض بقضيب ، ثم ارتجل هذه الأغنية :

ثلاثُ عيونٍ من النَّرجسِ على قائمٍ أخضرٍ أملسِ
تُذَكِّرنى طِيبَ ريّا الحبيبِ فَيمنَعنَنى لذة المجلسِ

فأعجب به المعتصم وغمرته البهجة وتملكه الطرب ، فامر له بجائزة سنية .

وفى ٧ رمضان سنة ٢٢٤ سكت قلب إبراهيم بن المهدى عن الخفقان ، وخبا النور المتألق فى عينيه ، نخرست تلك الحنجرة الذهبية الشجية عن التغريد الحنون ، ومات عبقرى بنى العباس ، بعد أن ملأ الدنيا شعراً ونثراً وفنا ؛ وبعد أن فاض فصاحة وبلاغة وبياناً ، وغمر الحياة أنساً ومرحاً وطرباً ، وبعد أن زخرت حياته الصاخبة الوثابة ، بجلائل الأعمال والحوادث الجسام ؛ وأنتج من روائع عبقريته ما يخلده على تعاقب الأزمان ومدى الأعوام .

منير الحسامى

طرف من فلسفة القانون

القانون الطبيعي

لم يألف الناس أن يقرءوا في المجلات الأدبية الشائعة عندنا شيئاً عن القانون ، كما لم يألف المشتغلون بالقانون عندنا الكتابة إلى هذه المجلات . ولعل هذا أو ذاك راجع إلى مايعتقده الناس — عامتهم وخاصتهم — من أن القانون مادة جافة يستعصى على الكافة فهمها ، ويتعذر على أفهام غير الفنيين إدراكها والألفة بها . وتلك عقيدة هي إلى الوهم أقرب منها إلى الحقيقة . فليس من شك أن الأدب قوام القانون ؛ فهو للقانون لحمته وسداه . وشأن القانون في ذلك كشأن سائر العلوم ، لايجد القارئ متعة في قراءتها إلا إذا امتازت بطلاوة العبارة ، ومتانة الأسلوب ، وحسن انتقاء الألفاظ ، لتقريب المعاني إلى الأفهام .

وأخصب ميدان للأدب في نطاق القانون نجده في تلك الأسفار النفيسة التي ترد القانون إلى الفلسفة ، فتجرده من قيود النصوص وأغلال التشريعات ؛ لتسمو به إلى علياء المثل العليا التي توحيها الطبيعة وتكمن في سر الوجود . وهذا هو المعنى الذي تنطوي عليه فكرة القانون الطبيعي .

انبعثت فكرة القانون الطبيعي من فلاسفة اليونان . فقد استرعى نظرهم تشابه سلوك الناس في المجتمع ، على اختلاف ميولهم ومشاربهم ومناطق وجودهم ، فعزوا هذا التشابه إلى وجود مبادئ أساسية مثالية تسود في سائر المجتمعات ولا تتأثر باختلاف المكان ومر الزمان . تلك المبادئ هي التي يرمز إليها باسم الضمير والشرف والاستقامة والفضيلة ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ، ويخضع لسلطانها البشر في مشارق الأرض ومغاربها ، دون أن يكون لهم عليها أدنى سلطان ؛ لأنها أسمى من أن تساير الإرادة البشرية ، أو تخضع لسلطانها .

وقد تطرّق فلاسفة اليونان من هذه المشاهدات إلى البحث في أصل هذه المبادىء وعلة اتساقها وعدم تحولها . فلاحت لهم بارقة قانون أبدي ، لايتحول

أو يتبدل ، وإليه تشخص أبصار الذين حاق بهم ظلم من جراء تطبيق القوانين الوضعية . واستهوت هذه الفكرة شعراء اليونان ، فطفقوا يشيدون فى أشعارهم بمزايا هذا القانون وسمو مبادئه ، وقالوا عن هذه المبادئ إنها « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وإن كل انسان يولد على هذه الفطرة . وخلع فلاسفتهم على هذا القانون الذى يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الشر والبغى اسم « القانون الطبيعى » ، ونعتوه بأنه سمة « العقل المستقيم » ليس كمثله شىء ؛ لأنه من وحى الله ذى الجلال .

وتلقَّف فقهاء الرومان فكرة القانون الطبيعى، ونسجوا بصددها على منوال فلاسفة اليونان ، فوصفوه بأنه القانون الذى يهدى دائماً إلى سبيل العدل والخير ، ولا يتحول عن هذا السبيل . وهذا مايعنيه الفقيه Ulpian بقوله : « إن حدود القانون هى الاستقامة ، والكف عن الأذى ، وأن تعطى كل ذى حق حقه » .

وبذلك يبدو القانون الطبيعى فى ثوبه التقليدى كمجموع المبادئ التى يهتدى إليها المرء بفطرته ، وينساق إليها بإرشاد عقله وهوى سليقته . فهناك من مبادئ السلوك مايحس الفرد بطبيعته بوجوب التقيد بها فى علاقته بخالقه ، أو بأمثاله فى المجتمع ، أو فى محاسبته لنفسه . فيرى نفسه مدفوعا إلى إتيان بعض الأفعال التى تنسجم مع طبيعته كفعل الخير ومراعاة النظام ، أو منصرفا عن الأفعال التى ينفر منها بطبيعته أيضاً ؛ لأنها مجلبة للأذى أو مخلة بالنظام .

فالعبادة والخضوع والإيمان من مقومات السلوك فى علاقة الفرد بربه ، وكلها نتائج حتمية لحقيقة أساسية هى أن الانسان خلق ضعيفاً ومحتاجا إلى الرعاية ؛ فهو ينزع بطبيعته إلى أن يستمد من قدرة الخالق مايقوى به ضعفه ، ويلتمس منه أن يكلأه ويرعاه . كما أن حب ذوى القربى والوفاء بالعهد وطاعة أولى الأمر ، كحدود لعلاقة الفرد بأمثاله فى المجتمع ، تنسجم كلها مع كونه نزّاعا إلى الاجتماع بطبيعته ؛ فيهتدى بغريزته إلى أن القتل والسلب أمور تتنافى مع الطبيعة ، وتأباها النفوس السليمة .

أما فيما بين الفرد ونفسه ، فإن كبت جماح النفس عن الانغماس فى الشهوات ، وصرفها عن الانصراف إلى الملذات ، نتيجة حتمية لتنازع عنصرين هما الروح والجسد . ولما كانت الروح أسمى من الجسد ، كان تغليب العنصر الأدنى على العنصر الأسمى متنافراً مع مايجب أن يكون ، أى مع مقتضيات العقل السليم .

على أن الإجماع لم ينعقد بين أنصار القانون الطبيعي على مصدر هذا القانون. فمنهم من يجرده من كل صبغة دينية فيسنده إلى طبيعة الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا مدركا. وبذلك لايلزم للتسليم بوجوده الإيمان بالله؛ بل يستوى فى ذلك المؤمنون والملحدون. وفى هـذا يقول جروسيوس عن القانون الطبيعي إنه من «إملاء العقل السليم الذى يهدى إلى مايتضمنه كل فعل من خير أو شر تبعاً لتوافقه أو لتنافره مع الطبيعة المدركة نفسها.» ثم نراه يلقى بعبارته الجريئة «لو أن الله غير موجود لظل القانون الطبيعي فى الوجود.» وقد سرت هذه النظرية إلى أنصار الفكر الحر الذين نجد منهم فى فرنسا برودون وأوجست كونت وليترى وفوييى، وفى إنجلترا ستيوارت ميـل وداروين وهربرت سبنسر وهكسلى، وفى ألمانيا مولسخوت وبيخنر وهيجل وغيرهم.

أما الفريق الآخر من أنصار القانون الطبيعي، فإنهم يخطّئون الفريق السابق فيما زعموه من أن وجود القانون الطبيعي مستقل عن وجود الله. فهؤلاء يرون أن الطبيعة البشرية مع قدرتها على الميل إلى بعض الأفعال والنفور من بعضها الآخر، فإنها عاجزة بذاتها عن أن تجعل من ميلها أو نفورها قواعد ملزمة أو أوامر قطعية. فالتسليم بوجود القانون مع إنكار وجود المشرع هراء غير مفهوم. فلو محونا تدخل إرادة أسمى من إرادة البشر فى خلق القانون الطبيعي لاستحال أن نفهم الضرورة الأدبية التى تحمل الإنسان على اتباع مقتضيات العقل والحكمة. وقد يرد على ذلك بأن الإنسان إنما يتبع هدى العقل بدافع من مصلحته. ولـكن المصلحة الذاتية لاتصلح وحـدها أساساً لإلزام الفرد بأن يسير على مقتضى العقل؛ فقد يكون من سعة الحيلة أو من القوة بحيث لايخشى مغبة السير على هواه.

ويخرج أنصار هذا الاتجاه من هـذا التدليل بتقرير أن الله يملى القوانين الطبيعية ويبصّرنا بمكانها من الأشياء والأفعال بما يمنحه إيانا من نور العقل ووحى الضمير. ولا يسوغ أن نستنتج من القول بأن هذه القوانين مطبوعة فى قلوبنا، وكائنة فى ضمائرنا، أنها مستمدة من طبيعتنا، بل إن لنا مجرد القدرة على تحصيلها من مشاهدة الوقائع المختلفة واستخلاص مختلف النتائج من هـذه المشاهدات.

ومهما يكن من أمر الخلاف حول مصدر القانون الطبيعي، فإن فكرته استقرت فى نطاق القانون، فانتقلت من أيدى الشعراء والفلاسفة ورجال الدين

إلى أيدي علماء القانون الذين حاولوا — منذ القرن السادس عشر — أن يقابلوا بينه وبين القانون الوضعي . فقسموا القانون بمعناه العام إلى طبيعي ووضعي . وعرفوا الأول بأنه مجموع المبادئ الأزلية ، السابقة على خلق البشر ، والتي تفرض سلطانها على كل كائن حي ، دون أن تتأثر بالزمان والمكان ؛ لكونها مستمدة من طبيعة الأشياء ، ومن ثم لاتخضع لعوامل التحول . أما القانون الوضعي فهو مجموع التشريعات التي يضعها الإنسان بدافع الضرورات الاجتماعية . فالأول تالد سماوي على حين أن الثاني طريف بشري . واستطردوا من هذه المقارنة إلى القول بوجوب وضع القانون الطبيعي موضع الصدارة من القانون الوضعي ، وفرضوا على المشرع أن يستلهم قواعد الثاني من الأول ، وأن يحاول جهد الطاقة أن يكون تشريعه مطابقا للمبادئ السامية التي يتضمنها القانون الطبيعي ، وبذلك يكفل الخير للناس جميعاً ؛ إذ يبصّرهم بأنجع الوسائل لتحسين حالهم وتحقيق سعادتهم وهناءتهم .

على أنه إذا تم شيء بدا نقصه ؛ فما إن بلغ القانون الطبيعي قمة المجد بحيث أصبح عماد فلسفة القانون في القرن الثامن عشر حتى لقي مقاومة عنيدة من جانب بعض المفكرين . واشتدت هذه المقاومة حتى انقلبت إلى هجوم عنيف في منتصف القرن التاسع عشر ، حين تراجع القانون الطبيعي أمام هجمات المذاهب الوضعية الواقعية التي اجتذبت إليها كثيراً من فطاحل علماء القانون ؛ لما امتازت به من بساطة ووضوح مرجعهما استناد هذه المذاهب إلى الوقائع المادية الملموسة ، وإنكار تأثر القانون بما عداها من العوامل المعنوية أو المبادئ المثالية .

فمن معترض بأن القول بوجود قانون عام شامل لايتأثر بمرور الزمان ولا بتغير المكان ضرب من ضروب الخيال . وفي ذلك أرسل پاسكال عبارته المشهورة : «Justice en deça, injustice au delà des Pyrénées» التي أثارت ثائرة أنصار القانون الطبيعي ، فرموه بالمهاترة وإلقاء القول على عواهنه .

ومن منكر لوجود قانون مستقل عن إرادة البشر ومستمد من طبيعة الأشياء ، وهؤلاء هم فقهاء الألمان ومن نحا نحوهم من المفكرين الذين لايرون في القانون إلا حدثا بشريا ، ويرون أن البحث فيما وراء ذلك لايدخل في علم القانون ؛ إذ أنه من قبيل البحث فيما وراء الطبيعة ، وليس ذلك من شأن علماء القانون .

ويستندون فى ذلك إلى أن التاريخ لايحوى فى أى عصر من العصور مايؤيد هذه النظرية . بل إن القانون الرومانى والقانون الفرنسى القديم تضمنا أنظمة تتعارض تماما مع أخص المبادئ المعتبرة من القانون الطبيعى فى نظر أنصاره .

إزاء هذه الحملات المتكررة عمد بعض الفقهاء المحدثين من أنصار القانون الطبيعى إلى تناول فكرته ببعض التعديلات حتى تساير اتجاه الفكر الحديث . فأعلنوا أن أساس هذا القانون هو تلك المبادئ المستقرة التى لايعتريها التغيير ، والتى توحى وجوب تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع ، وتفرض على كل فرد أن يشعر أن من ألزم واجباته أن يحترم حقوق الأفراد الآخرين بالقدر الذى يقتضيه تحقيق العدالة الاجتماعية وكفالة النظام الاجتماعى . أما تحديد ذلك القدر ومقتضى تلك العدالة وحدود هذا النظام ، فأمور لاسبيل إلى وضعها على أساس مستقر ؛ إذ أنها مرتبطة بأحداث المجتمع ، وهى دائمة التطور والتغير والتحول ، كما أنها تتأثر باختلاف وجهات النظر فى تحديد معنى العدالة والنظام ، وتباين الأفكار عن حدود السلطة والحرية ، وعن حق الجماعة وحقوق الفرد ، ومايترتب على ذلك الاختلاف وهذا التباين من تغلب بعض هذه القوى المتعارضة على بعضها الآخر . فترجيح إحدى الكفتين على الكفة الأخرى لايخضع لمعيار ثابت ولا يسير على وتيرة واحدة . فكلما تبين الخطل من الانتصار لإحدى هذه القوى وتغليبها على الأخرى تغير الاتجاه وقُلبت الأوضاع ، وهو مايؤدى إلى تعديل جوهرى فى نظام المجتمع ، ثم إلى تغير حدود العدالة كرد فعل مباشر لهذا التعديل .

وما من شك فى أن هذا التحوير فى فكرة القانون الطبيعى — كما أورثتنا إياه التقاليد — يؤدى إلى مسخها . فكيف يتصور أن يتخذ هذا القانون نبراساً لهداية الإنسانية بعد أن أصبحت مبادئه عرضة للتبدل والتحول على هذا النحو ، فتجرد بذلك من أهم خصائصه ؟ أفلا يؤدى القول بتغير حدود القانون الطبيعى إلى تقويض دعائمه وهد كيانه ؟ وماذا يجدى المشرع أن يستلهم أحكامه من تلك المبادىء التى لايقر لها قرار ! ثم إن عيب هذا المذهب الأساسى هو فى إغفاله تعيين السلطة التى يؤول إليها أمر تحديد هذه الحدود المتغيرة بطريقة لاتقبل الجدل . فمن ذا الذى يخضع الحد القانونى الطبيعى لحالة اجتماعية معينة فى زمن معين ؟ لاشك أن كل هذه الاعتراضات كفيلة بالاعتراض عن مسايرة

أنصار « مذهب القانون الطبيعى ذى الحدود المتغيرة » فيما ذهبوا إليه من المباعدة بين هذا القانون وبين أصله التقليدى .

ولقد زادتنا الحرب الأخيرة حماسة لفكرة القانون الطبيعى كما بدت فى ثوبها التقليدى . فقد كشفت هذه الحرب الطاحنة عن الهاوية السحيقة التى تردت فيها الإنسانية من جراء ذلك العدوان الوحشى على أوليات مبادئ العدالة . فازدادت بذلك حاجتنا إلى مضاعفة الجهود بغية تحقيق العدالة بين الناس على وجهها الأكمل . ولعل أشد الناس عداوة للقانون الطبيعى لا يمارون فى وجوب أن يكون للإنسانية مثل أعلى تهدف إليه وتسعى جاهدة إلى تحقيقه . فيجب إذن أن تتركز كل الجهود حول تقريب النظام القانونى الوضعى من هذا المثل الأعلى ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وليس عسيراً أن نامس هذا المثل الأعلى فى فكرة القانون الطبيعى ، إذا عمدنا إلى تخليصه من تلك الأفكار الخيالية التى تلحقه بما وراء الطبيعة ، فتجعله بذلك فوق مستوى إدراك البشر .

فمن المسلم به أن جوهر القانون هو النظام الذى يكفله الحاكم . فليس ثمة من يجادل فى أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إلا على دعائم ثابتة من نظام مستقر . واستقرار النظام فى المجتمع يقتضى نوعا من التوجيه الذى يُفرض على الأفراد بدافع أسمى من إرادتهم . ففكرة النظام يجب أن تسبق فى وجودها وسائل تحقيقه . والقانون الطبيعى هو منبت هذه الفكرة ومستقرها ، فهو باعتباره قانوناً كامناً فى طبيعة الإنسان كفيل بأن يفرض نفسه كضرورة لإعداد الجماعة لقبول النظام ورسم الخطة الاجتماعية التى تهدى أعضاء المجتمع إلى الطريق القويم .

محمد علي عرفة

من تجارب الشعر

نهاية الأبطال

قصيدة فى خمسة أناشيد

[« وكان الملوك إذا أشرفت عليهم مناياهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا فى سفن ، ثم ترسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى . فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح ، تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها . وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا . . . »

توماس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١)

الأبطال وعبادة البطولة ، تعريب محمد السباعى]

توطئــــة

امتد العهد الوثنى فى البلاد الإسكندناوية إلى نحو سنة ألف للميلاد حين ثبتت المسيحية أقدامها فى تلك الربوع . وهذه البلاد الشمالية تمتاز بمنظر الشفق القطبى الرائع ، والجليد الذى يغطى أراضيها معظم أيام السنة ، ونهارها الذى يمتد طول أشهر الصيف ولياها الذى يستمر طول الشتاء .

شهدت البلاد الإسكندناوية فى عهدها الوثنى عصور صراع ونزال مجدت فيها القوة والبأس ، وألهت الحرب تأليهاً . تلك أيام الأبطال — الڤايكنج — المحاربين الأشداء الذين بلوا فنون القتال وغامروا فى البحار على متون سفنهم الشراعية ، وأغاروا على السواحل الأوربية قاصيها ودانيها ، فألقوا الرعب فى قلوب أهليها وعادوا بغنائمها وأسلابها واستوطنوا بعض أقطارها . وكان الإسكندناويون — كغيرهم من أقوام الشمال فى جاهليتها — يعبدون آلهة متعددة كبيرها « أودن » الإله الأب رب النصر والخلود ، الذى أعد للأبطال جنة عرفت باسم « ڤَلْهَلاَ » أى بلاط القتلى لا يدخلها إلا من مات

قتيلا . وكانوا يقربون للآلهة على المذابح قرابين من البشر — ولا سيما اسرى الحرب — حيناً ، ومن الخيول والثيران والكلاب والصقور أحياناً .

عرف الإسكندناويون فى عهودهم تلك بالقسوة والبسالة . وكان من عاداتهم أن البطل الذى غامر فى المعارك وألقى بنفسه فى المهالك فلم يلقَ حتفه ، إذا أدركه الهرم ودهمه مرض الموت أشفق على نفسه أن يذهب بعد وفاته إلى عالم الأشباح السفلى ، فانتحر بطريقة غريبة عديمة النظير ؛ لكى ينال الخلود ويدخل « ولهلا » فردوس الأبطال . فكان يُسَجَّى فى سفينة تزَيَّن له وتحمّل بعدة حربه ومتاعه وأسلابه ، ثم تطلق فى عرض البحر بعد أن تضرم فى شراعها النار . وهكذا يقضى البطل الهرم الذى لفظته المنية فيما خاض من الوقائع العديدة نحبه بين الحرق والغرق ؛ لكى يصيب السعادة الأبدية التى يصبو إليها ، سعادة الحروب العظيمة والمآدب الفخمة فى جنة « أودن » .

والقصة الشعرية التالية من وحى بلاد الشمال فى جاهليتها ، وقد وصفت طرفا من حياة الفايكنج رماتهم على حقيقتها فى تلك الأزمنة الهمجية :

النشيد الأول : ميلاد

شَفَقٌ حائل يَجُرُّ ذيولا　　شفّ فى لُمْعَةٍ تلاشت نُصُولا
وصل الأرض والسماء ببحر　　قد كساه الضّباب شبه هَيُولَى

رسمته شمس الصباح شُعاعا　　زائغاً ، فاتراً ، نحيلاً ، مُضاعا
فى نهار جَهْمٍ مَداهُ شهور　　كل ساعاته تلوح وَدَاعا

فى أقاصى الشمال حيثُ الأراضى　　ترتدى الثلج حُلّة من بياض
وتهُبُّ الرياحُ تحمل قرًّا　　جمّد الماء فى قلوب الغياض

أنشأ الربُّ موطنَ الأبطال　　« اودنُ » الرب ذو الحمى المتعالى
وهداهم إلى القتال فنونا　　ودعاهم إلى الوغى والنزال

وأعدّ الفـــردوس للشهـداء — « وَلْهَـلاَ » موئل السَّنا والهنـاء
لا ينـال الخلـودَ فى مُنْتداها — غيرُ رَهْـط قضى بسُوح الدماء

ما حياة الرجال غـــيرُ حِمـام — قد تسـامَى إلى العُـلا بالأنام
والذى مات فى الفراش ذليـلا — ليس أهـلا لدائم الإِكرام

هكذا قُـدِّر النظام قـــديما — حين كانت أرضُ الاناس سَـديما
قضت أعصرُ الزمن حِثاثاً — ومُدامُ الحـروب تحيي الرميا

وبيَوْمٍ صافى الأديم ، سعيد — أشرق الدهرُ فى جَبين وليــد
قد دَعوْهُ « سيغُـوْرد » لما ر وه — أيمنَ الوجه فى ســناء فريد

شبّ فى منبت الإمارة عزّا — وارتوى من فيض الفروسة نَهْـزا
فاذا ناهز الشبابَ زكـيًّا — بزّ كلَّ الأقران فى الفضــل بَزّا

فى ليــالى الصفاء والأسمار — أنشــد المُنشِدون حول النار
قد رَوَوْا اخبارَ البطولة قِدْماً — وحـديثَ الأمجـاد والأبرار

وفتانا أصـغى بسَمْع وقلبٍ — حالماً فى المنــام أحلامَ حَرْبِ
عقـد العَزْمَ أن يعيـدَ عهوداً — للمعـالى خلت بطعن وضَرْبِ

بلغ القصـدَ من فنون القتـال — فى طعان القَنَـا ورَمْى النبـال
وعنــاق السيوف تلمع وَهْجاً — وضِرابِ الفُـؤوس عند النضـــال

فى صِراع الفِتْيان أحرز مَجْدَا — وبراز الفُرســان فاز وأرْدَى
وبِساحِ الوَغَى أغارَ وجـلّى — وأسال النجيع يُرْوى الفِرْندا

حينما صال فى المجال وكـرّا — لابساً لأمة القتــال ، أغرّا

يعصُبُ الرأسَ مِغْفَرٌ لمَّاعٌ وعطوفُ الشــباب تهتز سكـرا

خاله الناسُ من كُماة السماءِ زُمْرةِ الخالدين آهل البهـاءِ
حـلَّ فى الأرض مرشداً لأنامٍ مارســوا فى الوَغى فنونَ العلاءِ

النشيد الثانى : قران

فـكرةٌ قد تمثلتْ فى الخيـالِ وتجلـت بغـير رَسْم مِثَـالِ
صَبَّها العـقلُ نُطفة عَـذْراءَ من رَحيـق الأهواء والآمال

وحبـاها من الأثير وجودا وكساها من الجـال برودا
وسـقاها ماء الشباب صبيباً فأنضاً فى دَمِ الحيـاة خلوداً

قد تروَّتْ من السماء بهـاء ومن الفجر روْعة وضـياء
ومن الورد رقة وأريجاً ومن الخمر نشـوة وصفاء

واستعـارت من النجوم عيونا شع منها نورٌ يشـيعُ فتونا
ومن الزَّنبَق النَّدىِّ خـدوداً أودعَ السِّحرُ فى جناها فنـونا

ومن الدُّرِّ ثغرَهـا الوَضَّاء ومن الغُصْن قامة هيفاء
نشرَ الشَّعْرُ فوقها سِترَ حُسْنٍ من خيوط التِّبْر المُشِعِّ سَناء

فإذا ما تجسمَّت بكيانٍ وأطلت على رسـوم الزمان
تخِـذَتْ شكلَ غادة وتبـدَّتْ فى حيـاء ورَوْنق للعيـانِ

برَزَتْ وسْطَ رَغـوة الدَّاماءِ ككَعاب من غانيات الماء
والأواذِى تزفُّهـا حامـلاتٍ مُنْيَةَ الأرض ، مَنْزِل الظلماءِ

زُهرةُ (١) اليونان ابنة الأمواج ... بُعِثَت في الشمال غُرّة تاج
دُعيت « إبرُنهيلد » حين أضاءت ... مثل شمس فَرَت حجاب الدياجي

نشأت في بحبوحة من نعيم ... مع لِدَاتٍ كدُرٍّ عقد نظيم
هيِّئَت للأمير خيرَ عروسٍ ... من كرامٍ قد زُوِّجَت بكريم

محَضَتْهُ الودادَ أنقى شعور ... وحبته بحبها الموفور
فأقاما في خفضٍ عيش طويلا ... زينةَ المجد والهوى والحُبُور

النشيد الثالث : أسى

سُنَّةُ الدهر من قديم الزمان ... لا يموت الشُّجاعُ موتَ الجبان
لا يموت الأبيُّ فوق سرير ... صاغراً في مذلّة وهوان

فاذا أخطأت حشاه السِّهامُ . ... وتحامَاهُ في الجِلاد الحِمامُ
خاف أن يترك الحياةَ مهيناً ... هرِماً ، مضّهُ الأسى والسّقام

ميتةٌ لا تليق بالأمجاد ... لم تحقْ بالكماة والأنداد
بعدها تشقى الروح في ظلمات ... من جحيم دَجا إلى الآباد

في مهاوي السكون والأشباح ... حيث لا ذكرَ للوَغى والسلاح
لا ولا ذكرَ للهوى وصبايا ... خالدات قد طُفنَ بالأقداح

وأبو الخالدين « اودنُ » أوَرَى ... للظى الحرب في الملاحم سعْرا
في حِمَاهُ العليَّ فوق الثريّا ... حيثُ يجرى فيضُ المجرة نهْرا

أقام البراز للأبطال ... في ميادينَ صولةٍ ونزال

(١) الزهرة : فينوس ربة الجمال .

لَيس يَهْوِى الصريعُ إلا لِيحيا ويعيدَ الكرّات غير مبالِ

ثمّ يَحْلُو للأقوياءِ الطِّعانُ في نعيم يَرُفُّ فيه الجَنَانُ
وانتشاءٌ بخمرة ورُضَاب وأناشيدَ رنّمتها القيانُ

أىُّ سَعْد بَدَا وأىُّ هناءِ فاق حُسْن الرؤى وطيب الرجاءِ
رَخُصَت فى سبيله - وهو حلم - زَهْرة العُمر والمنى من فداءِ

نَبِّئونى يا أيُّها الكُهَّانُ من حَبَتْهُم علومَها الأزمانُ
أخبرونى بكُنْه أمرى ورُدُّوا لى صوابى، فإننى ولهانُ

إننى مشفقٌ حزينُ الفُؤاد هل أذوقُ الفناء بَعْدَ الجهاد؟
هل ألاقى الرَّدَى ذليلاً معنَّى حَتْفَ أنفى فى غير سُوح الجلاد؟

من حياة الثَّرَى بلغت عِتِيًّا بعد عمر مضى هنيئاً رضيًّا
قد تَقَضَّى ما بين حرب وحب ورجاءٍ أطل عذباً نديًّا

ليتنى قد لقيت حُلو المنايا فى صِراع أفنَى عزيزَ البرايا
لم أخِفْ رَقْدة الظلام خلوداً لم أكابدْ إذن عناءَ الرزايا

هكذا وجَّه الأميرُ الخطابا فتلقَّى من الشيوخ الجوابا
أيُّها السيدُ المطاع المعلَّى خَلَّد الدهرُ مجدكَ الغلَّابا!

قد عَلِمْنا مشيئة الأرباب قُدِّرَتْ منذُ مبدأ الأحقاب
فدَع الكَمْدَ واطَّرِح إشفاقا إن نيلَ النعيم رَهْنُ الطِّلاب

إنْ أطالت بقاءك الآجال فستقضى كما قضى الأبطال
ليس بالسَّيف فى القراع ولكن فى ضِرام عنت لهُ الأجيالُ

مَوتُ حرّ ما بين نارٍ وبحْرِ ... يُطلِقُ النفسَ من شقاء وأَسْرِ
ويُنيلُ الخلود أعذبَ وِرْدٍ ... أو يغلو لأجله أيُّ مهرٍ ؟

النشيد الرابع : خلود

يا بلادَ الجليد ، أرضَ الشمالِ ... إشهدى اليومَ مِيتةَ الأبطالِ
أوْقدى النَّدَّ فى المذابح ناراً ... واحرُقى الطيبَ فى رُؤوس التلال

قرِّبى التَّقدِماتِ فوق الصخورِ ... من خيولَ وأبقُرٍ وصقورِ
قد أحبَّ الإله ريحَ قُتارٍ ... تتعالى ذكيَّةً بالنُّذور

واخرُجى فى مواكب تتبارى ... زَفَّت القَرْمَ باسلاً مِغْوارا
بزُمور شجيَّة وطُبُولٍ ... وتراتيلَ من شِفاهِ العذارى

زيَّنوا مركباً طويلَ الشِّراع ... جهَّزُوهُ كفارسٍ للقِراع
حمَّلوه من الغنائم وسْقاً ... وسِلاحَ الوَغى وخيرَ المتاع

ثم سجَّوْا «سيغُورْدَ» فوق الدروع ... قد جلَوْهُ كالشمس عند الطلوع
وإذا ما دَنا الأوانُ وشيكاً ... أجّجوا النار فى سَوارى القلوع

أطلقوا فى الخضم زَيْنَ الجوارِى (١) ... كلواءٍ هفَا بنورٍ ونار
فتهادت على أواذِىّ جَزْرٍ ... بين تهليلٍ هزَّ جَنْبَ البِحار

تبِعَتها القلوب والأحداقُ ... وأضاءت بنورها الآفاقُ
ومضت فى سنائها نحْو موت ... كتمتهُ فى صدرها الأعماقُ

---

(١) الجوارى : السفن ، جمع جارية .

نَمْ سـعيداً أيا فتى الهيجاءِ قد وَرِثْتَ الخلودَ بعد الفَناء
هذه الأرضُ ردّدت فى خشوعٍ : الوَداعَ الوَداعَ حتى اللقاء !

نشـيد

هـلى يا ربوع العـلا
والجـلال
هيكل المُصطَفَيْن الالى
برزوا فى الوغى والقتـال
وأراقوا دما واستباحوا حِمَى من عدو سَما
فى النزال
مجِّدى يا ذُرَى « وَلْهَلا »
مجدى البطـل الأمثـلا
زَيْنَ أهل الوغى فى الرجال

مجدى الفـارس المُجْتَبَى
فى الأنـام
من جَنَى فى العُلا الرتبـا
وسما بالفِعال الجِسـام
قد علا مَحْتدا وصفا موردا وأذلّ العِدى
بالحُسـام
وابتغى المجـد مُنْتَسَبا
وارتجـاه له سـبباً
للخـلود برُغْمِ الحِمام

هزأتْ روحُه العاتيـه
بالحتُـوف
فى حروب جرت داميـه
حصـدت أهلها بالألوف

لم يَهَبْ جمَّهـــا حينما أمَّهـــا نافثاً سمَّها
في الصفوف
أخطأتْه القـــنا العـــاريه
فأعِـــدُّوا له الجـــاريه
كيْ يموتَ مـــاتَ الأنوف

جَهِّزُوا للعُلا مَركبـــا
ذَا شِـــراع
زَيِّنـــوا للردى منصبا
أضرموا ناركم في القلاع [1]
وارفعوا عَلما في خِضم طَما قد حوى عَدَما
لِلشـــجاع
غنِّ يا بَحرُ لحنَ الرَّدَى
رجِّعى يا قِـــلاع الصَّدي
رَدِّدى اليومَ آى الوَدَاع

هللى يا ربوع العـــلا
والجـــلال
هيكل المُصطفَيْن الالى
برزوا في الوغى والقتال
وأراقوا دما واســتباحوا حِمى من عدوٍّ سما
في الـــنزال
مجِّدى يا ذرى « وَهْـــلا »
مجِّـــدى البطل الأمثـــلا
زين أهل الوغى في الرجال

---

(1) القلع : الشراع ، يجمع على قلوع وقلاع .

النشيد الخامس : وفاء

وَجْمةٌ خيَّمتَ على الأرجاء ... هَدأةٌ بعد فورة الضَّوضاء
كسكونِ جهمٍ تلا إعْصاراً ... كظلام ألمّ إثْرَ ضياء

رجع القوم من وداع الأمير ... وركابُ الموت اختفى فى السعير
فعيونٌ حسيرة ووجوهٌ ... كالحات وأنفسٌ فى هدير

إيه ! لكن أين الأميرة أينا ؟ ... فقدت من غُرٌ الأعزّة زَيْنا
خفّفوا لوْعة الكآبة عنها ... إن جِنسَ النساء أدمَعُ عينا

واصلُوا البحثَ فى البلاد زمانا ... دونَ جدْوى فأينَ حلَّتْ مكانا ؟
كيف غابت وأى سرٍّ طواها ؟ ... أين صارت ؟ ظل الورَى حيرانا

غيرَ أن الإله « أودن » يدرى ... بخفايا قد غيَّبتها وسِرّ
فهى فى « ولهلا » العلية تثوى ... نالت الخُلد بالوفاء الأبرّ

حين حُمَّ القضاء لا رَيْبَ فيه ... طالباً زوجها الذى تفتديه
قد عرتها هواجس وشجون ... أسْعَرَتْ فى الفؤاد وحشة تيه

هل تخون الوداد تنقض عهدا ... لقرين قضت بظليه عهدا ؟
شاركته فى نِعْمة وبُؤوسٍ ... قاسمته عزًّا رفيعاً ومجدا

أتراها تلسى الوصال وترضى ... ببعاد من المنية أمضى
أم تُرَاها ضنينةً بحياة ... فى التياع ووحدة الروح تُقْضَى

لم يكن ذاك شأنَ بنت القُرُوم ... من تبارَوْا فى كل مجد مَروم
فازلوا الموت باسمين خِفافاً ... وسَمَوْا فى العُلا سموّ النجوم

لم يكن ذاك خُلْقَها فى الإباء   لم يكن ذاك أمرَها فى الوفاء
لم يكن ذاك فِعْلها ، فلماذا   لا تضمُّ الِحمام يوم اللقاء ؟

عقدتْ بكرَةً على الموت عزما   وأسرَّت فى صدرها الأمرَ حزما
جَلدةً لا تعافُ ورْدَ المنايا   مع زَوْج يَعْنو له الموت رغما

فاذا سُجِّىَ الأمير الحليلُ (١)   فى ركاب له شَعُوبُ (٢) دليل
وتعالى الضجيج بين جموع   شُغلت بالحِمام — وهو جليل —

دلفتْ فى مَسرَّة وسُكون   نحو عُرْسٍ مُهيَّأً للمَنُون
وثوت فى سفينة النار تبغى   رِفْقةَ الزوج ـ شأنَ زوج حنون

صَعِدَت نحو « ولهلا » رُوحان   فى اوار اللهيب تصْطحبان
طابَ مَثْواكما بدار خُلودٍ   بين جَمع الأبطال والشُّجعانِ !

هـلى يا ربوع العلا
والجلال
هيكل المصطفين الالى
برزوا فى الوغى والقتال
وأراقو دما واستباحوا حمى من عدو سما
فى النزال
مجدى يا ذرى « ولهلا »
مجدى البطل الأمثلا
زين أهل الوغى فى الرجال

[بغداد]   مير بصرى

(١) الحليل : الزوج . (٢) شعوب : الموت .

مشكلات التعليم فى لبنان

كانت سياسة التعليم فى لبنان ورسم مناهجه ، وتوحيد برامجه ، وتحديد أغراضه ، من اعقد المسائل التى واجهها المشرفون على التعليم فى تلك البلاد . وكان حلها معجزاً إلى عهد قريب . فتركت أموره موزعة بين الطوائف والجمعيات ، تستقل بتصريفها ، ولا ضابط لها ولا رباط إلا ماكان من نظم صورية توحّد بينها شكلاً ، وإن لم تستطع أن تؤلف منها موضوعاً فتوجه الشباب وجهة وطنية صحيحة .

وقد يبدو ذلك عجيباً ، لولا أنا نعلم أن لبنان الكبير باسمه الصغير فى حجمه ، قد احتوت مساحته المحدودة جماعات مختلفة الأجناس والعقائد متعددة النزعات والمذاهب .

فهذا العدد اليسير من السكان الذى لايزيد على مليون ومائة وسبعة وخمسين ألفاً قد كثرت طوائفه وزادت مذاهبها على أربعة عشر مذهباً . ولكل جماعة عقيدتهم الخاصة ومبادئهم وتقاليدهم التى تؤثر فى اتجاههم ، ثم لهم نزعاتهم وميولهم وما خضعوا له من عوامل خارجية ،كان لوضع البلاد السياسى السابق وحالتها الاجتماعية والنفوذ الأجنبى فيه تأثير كبير .

نشأ من كل هذا أن التعليم فى البلاد لم تستطع الحكومة الاستقلال به ، أو السيطرة عليه سيطرة حقيقية ، بل إن مساهمتها فى نشره وتوجيهه أقل من القليل ، على حين كان من حظ الجمعيات الدينية والأهلية والبعثات الأجنبية النهوض بالقسط الأكبر .

وعلى ذلك نرى التعليم فى لبنان تتقاسمه ثلاث جهات : وزارة التربية ، والجمعيات الوطنية ، والبعثات الأجنبية .

أما وزارة التربية فلم يكن لها قبل عهد الاستقلال إلا عدد محدود من المدارس لايزيد على ٢٠٠ مدرسة ابتدائية و ٤ مدارس ثانوية غير كاملة تنتهى

عند الابتدائية التكميلية « الكفاءة » ، عدد تلاميذها لايتجاوز ٢٠ ألفاً فى حين كانت المدارس الحرة قد بلغ عددها نحو ١٦٠٠ مدرسة بين أجنبية وأهلية (ابتدائية وثانوية) كلها صرخت بها المفوضية العليا الفرنسية ، فهى وحدها التى كانت قبلا تمنح إجازات فتح المدارس الخاصة ، وطنية أو أجنبية .

وكان مجموع تلاميذ مدارس الجمعيات الوطنية نحو ٨٠ ألفاً ، وتلاميذ البعثات الأجنبية ٤٠ ألفاً تقريباً ، وقد تأثرت هذه الأرقام فيما بعد بعوامل مختلفة ارتفع معها رقم المدارس الرسمية حتى بلغ نحو ٣٠٨ مدارس وزاد عدد تلاميذها حتى جاوز ٣٠ ألفاً كما سيأتى بيانه .

وينقسم التعليم الابتدائى إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة سنتان ، الأولى قسم التجهيز ويبدأ بعد مدارس الحضانة . والثانية القسم الإعدادى . والثالثة القسم الوسط . ويتقدم التلميذ فى نهايته للشهادة الابتدائية الإعدادية ، ثم يقضى سنة فى الابتدائى العالى ، فسنتين فى الدراسة التكميلية ، لينال الشهادة الابتدائية التكميلية ، وبعد سنتين أخريين يتقدم للبكالوريا (القسم الأول) ثم سنة ثالثة للبكالوريا (القسم الثانى) .

وينبغى أن يلاحظ أن الكثير من الأقسام الثانوية بالمدارس الخاصة كامل يعد طلابه للبكالوريا بقسميها على عكس المدارس الرسمية كما قدمنا . وتستمد مدارس الوزارة مدرسيها من خريجى دار المعلمين التى يدخلها حامل الابتدائية التكميلية بعد امتحان مسابقة ، ويقضى فيها سنتين يمنح بعدهما دبلومها .

أما التعليم العالى فليس للحكومة منه شئ ، وإنما هو قسمة بين الجامعة اليسوعية الفرنسية والجامعة الأمريكية . وكان إقبال أبناء البلاد على الجامعة الفرنسية أكثر منه على الجامعة الأمريكية حتى بدأ النزاع السياسى الأخير ، فتحول الاتجاه شيئاً ما . وقد أنشأت الحكومة هذا العام قسما لدراسة الحقوق اللبنانية ، مدة الدراسة فيه سنة بعد الليسانس ، وألحقته بمعهد الحقوق الفرنسى ، فكان ذلك مثار نقد بعض الصحف الوطنية .

مما تقدم نرى أن أمر التعليم فى جملته كان متروكا للطوائف توجهه جمعياتها حسب ما يتفق وعقائدها ومذاهبها وميولها ، لايحد من حريتها شئ إلا النظام العام وبعض قيود صدر بها مرسوم بتنظيم التعليم الحر سنة ١٩٣٥ .

وإذا عرفنا أن المعلم بمدارس الحكومة ليس مطالباً بشهادة عليا حتى اليوم

(وقد ذكرنا نظام دار المعلمين) فهمنا السبب فى أن مرسوم تنظيم التعليم الحر لم يشترط مؤهلا لمزاولة مهنة التدريس بالمدارس الخاصة من أى درجة كانت إلا حصول المعلم على الشهادة الابتدائية ، واشترط فى مدير المدرسة الابتدائية أن يكون من حملة الشهادة الابتدائية التكميلية ، وأما مدير المدرسة الثانوية فيشترط أن يكون حاصلا على شهادة البكالوريا .

وهذا أهم قيد موضوع لمزاولة مهنة التدريس أو إدارة المدارس الخاصة ، وإن كان بعض المدارس الحرة يتخير فريقاً من الأساتذة من حملة الشهادات العليا .

وقد ترك للمدارس المختلفة الحرية فى اختيار أساليب التعليم وانتقاء الكتب ، كما ترك لها حرية التعليم الدينى، فموقف الحكومة منه موقف سلبى اكتفاء بالنص فى المنهاج على أنه يمكن القيام بالتعليم الدينى فى المدرسة ومنهاجه متروك لرأى السلطات الدينية .

وكانت البرامج متأثرة بالنظام الفرنسى إلى حد كبير ، ولا تكاد تختلف البكالوريا اللبنانية عن البكالوريا الفرنسية فى شىء إلا العناية بدراسة الأدب العربى أو الفلسفة الإسلامية للقسم الأدبى . ولهذا كان تدريس المواد المختلفة باللغة الفرنسية غالباً ، حتى تتاح للطلاب فرصة التقدم للشهادتين اللبنانية والفرنسية .

ظهر من البيان السابق أن نسبة المدارس الرسمية إلى غيرها من المدارس الحرة نسبة هزيلة جدا لا تكاد تبلغ ١٣٪ وقد تبدو غريبة ، على أنى أظن إمكان تعليلها :

ذلك بأن لبنان كان جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، التى كانت عنايتها بالتعليم محدودة أو قاصرة ، وكان للمدارس الرسمية المنشأة فى عهدها صبغة إسلامية فهى المدارس الوطنية المعترف بها فى نظرها ، فمن الطبيعى أن يختلف إليها من يريد من أبناء المسلمين .

أما أبناء الطوائف الأخرى فقد ألجأتهم الظروف أن يسعوا إلى طلب حماية دينية خارجية أو رعاية أجنبية ، وقد تم ذلك بمعاهدات عقدت فى فترات متعاقبة مع الدولة العثمانية كان من أثرها هذه البعثات التبشيرية والجمعيات الدينية المختلفة وما أسست من مدارس تمتعت بحريتها التعليمية وبالإشراف الدينى من هيئات أجنبية توطد بها مركز تلك المدارس الطائفية الوطنية والأجنبية .

وقد مر بتلك المدارس وغيرها أدوار من التطور ساير الزمن والظروف... فلما انفصل لبنان فى أعقاب الحرب الماضية عن الدولة العثمانية وخضع للانتداب

الفرنسى ورثت الدولة الناشئة تلك المدارس الرسمية التى أخذت تتحول إلى مدارس مفتوحة للجميع ، وإن ظلت الكثرة فيها للمسلمين .

وفى أثناء ذلك قوى سلطان المدارس الخاصة : وطنية وأجنبية ، وتغلغل نفوذها ، فكانت كل واحدة تعمل من جانبها على تنشئة طلابها على النحو الذى ترتضيه ويطمئن له رجالها الدينيون أو الجهات المسيطرة على التعليم فيها . . . وليس بينها من رابطة إلا الإعداد لشهادة البكالوريا يتقدم إليها من يريد من الطلاب . ولهذا انصرف أبناء الطوائف المختلفة عن المدارس الرسمية إلى مدارسهم الخاصة ، وقد حرص الكثير منها على أن يجعل له شهادة خاصة تمنح لخريجيها .

ولعل مما ينير سبيل البحث وندرك منه مبلغ الاضطراب فى سير التعليم حينذاك ، واتجاهه وجهات أخشى أن أقول إنها متعارضة من حيث الغاية ، أن نذكر أن الهيئات المشرفة على التعليم الحر الوطنى والأجنبى متعددة بالغة الكثرة .

فالمدارس الحرة تابعة لنحو ٢٠ هيئة دينية أو مدنية ليس منها المدارس الفرنسية التى يتولى الإشراف عليها جمعيات وهيئات مختلفة قد تبلغ العشرين وكلها يندرج تحت اسم واحد هو المدارس الفرنسية .

ويمكن أن نعد من هذه الهيئات البعثات التبشيرية والعلمانية فضلا عن مدارس الطائفة المارونية والمدارس الكاثوليكية والأرثوذكسية لكل من طوائف الروم والسريان ، والكلدان ، والأرمن ، والإليانس الإسرائيلية ، ثم مدارس الجمعيات الإسلامية .

فهذا العدد الضخم المتنوع من المدارس مهد لكل طائفة أن تبعث بأبنائها إلى مدارسها الخاصة بها ، حيث تشعر بكامل حريتها الدينية وإرضاء نزعتها الطائفية ، وعصبيتها المذهبية ، وإن أنتج من ناحية أخرى تنافراً بين بعض الطوائف وبعضها الآخر من جهة ، وبينها وبين المسلمين من جهة أخرى .

وقد شاءت الظروف السياسية أن تفرق بين جماعة المسلمين أيضاً ، فصاروا شيعاً ، منهم السنى ، والشيعى ، ثم الدرزى ؛ وقد تعددت جمعياتهم وهيئاتهم التعليمية تبعاً لذلك .

نذكر منها على سبيل المثال للسنيين : جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت ولها مدارسها فى العاصمة والقرى المسلمة وكلية للبنين وأخرى للبنات فى بيروت نفسها . وجمعية أخرى بهذا الاسم فى صيدا ولها كليتها ، وجمعية ثالثة

فى طرابلس ولها كلية التربية والتعليم . وللشيعة مدارس جمعية الإصلاح العاملية ، والجمعية العاملية الكبرى . وللدروز مدارسهم وكلية فى عبى (مدرسة الداودية) . . . وإلى جانب ذلك توجد فى بيروت كلية شرعية إسلامية تابعة لدائرة الأوقاف ويشرف عليها سماحة المفتى الأكبر للجمهورية اللبنانية، هى كلية فاروق الأول الشرعية .

وهذه الكليات والمدارس المنثورة فى القرى المسلمة وفى المدن لا تكاد تختلف فى نظامها عن غيرها من المدارس المدنية التى تعد للشهادات الرسمية إلا بالعناية بالثقافة الإسلامية وإذكاء الروح العربية فى نفوس أبنائها ما عدا كلية فاروق الأول الشرعية ، فإنها معهد دينى يعنى بتخريج الطلاب المثقفين ثقافة مدنية إلى جانب التخصص الدينى ؛ ليضطلعوا بأعباء الوظائف الدينية على اختلافها فى الجمهورية اللبنانية بعد إتمام دراستهم العليا فى كليات الأزهر أو جامعة فؤاد الأول .

ولو أردنا أن نكوّن فكرة واضحة عن توزيع أبناء الطوائف المختلفة من مسيحيين أو مسلمين على المدارس الرسمية وغيرها ، وأن نتعرف نسبة من يتعلمون فى مدارس غير مدارس طائفتهم إلى مجموع تلاميذ تلك المدارس ، لوجدنا بيان ذلك فى آخر إحصاء شامل صدر فى سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٠ .

ومنه يتبين أن الكثرة المطلقة لتلاميذ المدارس الرسمية من المسلمين ، فهى تبلغ نحو ٧٠ ٪ ، وأن نسبة من يختلفون إلى مدارس غير مدارس طائفتهم قليل جدًّا لا يكاد يصل إلى ٤ ٪ وأن عدد الذين يتعلمون فى المدارس الفرنسية (قبل عهد الاستقلال) يزيد على أربعة أمثال من يذهب إلى المدارس الأجنبية الأخرى ، وهو أمر طبيعى يفرضه الوضع السياسى الذى كانت عليه البلاد ، وهو السبب أيضاً فى أن ثقافة السواد الأعظم من المتعلمين فرنسية .

على أن هذا الاتجاه أخذ يتحول والميزان قد اضطرب بعد أن اشتدت المنافسة بين الفرنسية والإنكليزية وكثرت المغريات . . .

ثم نلاحظ أخيراً أن نسبة المتعلمين من المسلمين أقل من نسبة المتعلمين من المسيحيين . وربما أثر فى انخفاضها قلة المدارس فى المناطق التى يسكنها الشيعة .

وقد شعر المسلمون عامة بخطر هذه الناحية، خصوصاً حين رأوا أن للمسيحيين

الحظ الأوفر من وظائف الدولة الكبرى ، فشرعوا يتداركون هذا النقص بشدة الاقبال على التعليم العام والاتجاه إلى التعليم العالى خاصة ؛ كما أن هذا الوضع كان له اثره النفسى ؛ إذ جعلهم يشعرون فى العهد السابق انهم لا يستطيعون أن يتنفسوا كما يريدون بحكم الظروف ، فكانوا يتلفتون إلى غيرهم يستمدون منه العون ؛ ومن أجل هذا كانوا يحرصون على الانضمام إلى الكتلة العربية يستنفرون بها ويستشعرون العزة فى ظلها . فلما أهل العهد الجديد على البلاد وبسط عليها سلطانه اطمأن له الجميع وعملوا فى سبيله مخلصين متآزرين .

وقد صحب هذا الطور توسع فى إنشاء المدارس الرسمية وإقبال عليها من جميع الطوائف ، حتى بلغت بمقتضى إحصاء وزارة التربية لسنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥

عدد المدارس الرسمية	عدد التلاميذ	تقسيمهم بحسب الطوائف									
		مارونى	روم كاثوليك	روم أرثوذكس	مسلمون			بروتستانت	أرمن	[illegible]	مختلف
					سنى	شيعى	درزى				
٣٠٨ بنين وبنات	٣٠١٢٢	٥٤٤٠	١٦٠٨	٤٣٨٣	٨٧١٩	٧٤٦٢	٢٧٠٠	١١٠	٨	١٠	٧٣

أما طلاب المعاهد الخاصة وطنية وأجنبية فليس من الميسور إعطاء إحصاء دقيق عنهم الآن ، وكل ما يمكن ذكره على وجه التقريب ان عدد الطلاب فى لبنان أخيراً يتراوح بين ١٦٠ و ١٧٠ ألفاً منهم نحو ٣٠ ألفاً بالمدارس الرسمية كما ذكرنا و ٤٥ ألفاً أو تزيد قليلا بالمدارس الأجنبية عامة ، وباقيهم فى المدارس الخاصة الوطنية .

هذه كانت حالة التعليم واتجاهاته والمؤثرات التى أثرت فيه فى العهد السابق.

وقد أدرك رجال العهد الاستقلالى مبلغ ما فى هذا التبلبل والاضطراب من خطر على وحدة الأمة ، وشاهدوا آثاره البغيضة فى تفريق كلمتها وإضعاف شخصيتها فعملوا من طريق تغيير المناهج على التحرير من نير الاستعمار الثقافى وتوجيه الشباب وجهة وطنية صادقة .

من أجل ذلك ألفت وزارة التربية لجنة تنظر فى تعديل المناهج وتنقيحها واقتراح ما تراه كفيلا بتحقيق الأغراض التى يتوخاها العهد الجديد فى الجيل الجديد .

شرعت اللجنة تعمل — فى العام الماضى — وصادفتها عقبات مختلفة ثبتت

لها حتى أمكنها أن تضع مشروعاً لتنظيم التعليم العام ، وكانت تبغى من وراء ذلك هدفين :

أحدهما يتصل بنظام التعليم ونوعه ومدته فى المدارس المختلفة .

والثانى تحديد أغراضه وما ينبغى أن يرسم لتوجيهه وجهة صالحة لخير المجموع .

وقد انتهى الرأى إلى توحيد نظام التعليم الابتدائى وجعله عاما للجميع ، فلا تكون هناك مدرستان ابتدائية وأولية (كالنظام المصرى) . وقدرت مدته بخمس سنوات تبدأ من السادسة (بعد الحضانة) ثم يأتى التعليم الثانوى المتوسط فى أربع سنوات ، تليها مرحلة التوجيه وهى ثلاث . اثنتان للبكالوريا قسم أول ، وواحدة بعدهما للبكالوريا قسم ثان .

وعدل نظام التعليم الفنى بحيث أتاح لكل تلميذ ينتهى عند مرحلة من مراحل التعليم العام أن يتجه إليه . فبعد أن كانت هناك مدرسة فنية واحدة هى مدرسة الفنون والصناعات يدخلها الطالب بالابتدائية ليتعلم نوعاً من الصناعات على نحو ما كان بمدارسنا المتوسطة ، جعل منه نوع مهنى يدخله التلميذ بعد الابتدائية ويقضى سنتين يتعلم فيهما الصناعة أو الزراعة ليصبح زارعاً أو صانعاً أو عاملا فنيًّا .

ونوع ثان بعد المرحلة الوسطى ، ومدته ثلاث سنوات ، وينتهى منه الطالب بدبلوم كدبلوم المدارس الفنية المتوسطة فى مصر .

ثم نوع ثالث بعد البكالوريا ، ومدته ثلاث سنوات ، يمنح الطالب بعدها دبلوماً عالياً . وبذلك يمكن مواجهة حاجات البلاد الملحة وإمدادها بالزراع والعمال والصناع المهرة والمهندسين والإخصائيين .

كذلك لوحظ عند وضع المنهاج أمر أساسى يتصل بالجوهر هو التوجيه الوطنى والاتجاه العربى . من أجل ذلك اشتدت العناية بالجغرافيا والتاريخ القومى غير مرتبطين بجغرافية فرنسا وتاريخها (كما كانت الحال سابقاً) وأضيفت مادة جديدة إلى المنهاج هى التربية المدنية (التربية الوطنية فى مصر) كتوجيه وطنى يعرف منه الطلاب مقومات الدولة والسلطات المختلفة واختصاصها والحقوق والواجبات القومية والوطنية .

وإلى جانب هذا حرص المنهاج على العناية بالتاريخ العربى واللغة العربية عناية

صحيحة ؛ لما لهما من جليل الأثر فى بناء الشخصية وتعزيز الشعور بالقومية .

وقد أصبحت اللغه العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة لتدريس مواد العلوم جميعها فى المدارس الابتدائية وفى المدارس الثانوية أيضاً ، إلا أنه أجيز بصفة مؤقتة أن تدرس العلوم والرياضيات بلغة أجنبية فى المرحلة الثانوية فقط ريثما يتهيأ للأساتذة إعداد الكتب اللازمة لتدريس هذه المواد .

كذلك نزلت اللغة الأجنبية الواحدة عن عرشها فشاركها غيرها ، وأصبحت المدارس مخيرة بين إحدى اللغتين الفرنسية والإنجليزية يتقدم الطالب للامتحان فى إحداها كما يريد ، كما ألغيت الفرنسية من رياض الأطفال بعد أن كانت فرضاً عليهم. أما فى المدارس الابتدائية فقد بقيت اللغة الأجنبية فرنسية أو إنجليزية ، لاعتبارات فنية — فى رأيهم — لا يجوز التسامح فيها .

وشىء آخر له قيمته اهتم له واضعو المنهاج حتى تصطبغ المدارس كلها بصبغة واحدة . ذلك أن المناهج الجديدة أصبحت ملزمة لجميع المدارس اللبنانية على تعدد طوائفها ومذاهبهم ، ولجميع المعاهد الأجنبية على اختلاف جنسيتها .

ولتنفيذ هذا ألغى امتحان معادلة البكالوريا اللبنانية بالنسبة للبنانيين ، فأصبح على كل طالب أن يتقدم لامتحان البكالوريا اللبنانية إذا أراد الالتحاق بإحدى الجامعتين ؛ وبذلك تتيسر الرقابة على جميع المعاهد التى فى لبنان من غير تفرقة بين جنس أو دين .

على أن هذا الإجراء السليم لا يزال نظريًا ، ويحتاج فى تنفيذه إلى مفاوضات سياسية ليصبح أمراً واقعاً . فإن المدارس الأجنبية فى لبنان ، بل المدارس الخاصة الوطنية ، لا تخضع للحكومة اللبنانية ولا تملك الحكومة الإشراف عليها أو مراقبتها حتى اليوم ، وإنما هى تخضع لنظام يستمد قوته من معاهدة فرساى التى تنص على أنه يسمح للدول الموقعة على المعاهدة أن تعلم بحرية اللغة الأجنبية التى تريدها على النحو الذى تراه من غير أن تتعرض للمسائل الطائفية ، وقد وقّعت فرنسا هذه المعاهدة باسم لبنان (بوصفها دولة منتدبة) فكان لها حق التعليم باللغة الفرنسية فى مدارسها طبعاً ، فضلاً عما فرضه الانتداب من تدريس اللغة الفرنسية فى جميع المدارس الوطنية . واستفاد الإنجليز أيضاً من هذه المعاهدة باعتبارهم من الموقعين عليها . أما الأميركان فقد عقدوا معاهدة خاصة مع فرنسا منحتهم نفس الحقوق التى خولتها معاهدة فرساى .

فلما عدّل الدستور اللبنانى سنة ١٩٤٣ وألغى كل ماله علاقة بالانتداب، جدد الأميركيون معاهدتهم مع لبنان لحفظ حقوقهم المشروعة .

أما الفرنسيون فإنهم أرادوا أن يستفيدوا من ملحق معاهدة سنة ١٩٣٦ بينهم وبين لبنان (وهى المعاهدة التى لم يقبل الفرنسيون التصديق عليها حينذاك). فطلبوا تطبيق القسم الخاص بالاتفاق الجامعى ، وبه تمنح فرنسا مركزاً ثقافيًّا ممتازاً فتفرض اللغة الفرنسية فى سنوات معينة وبعدد خاص من الدروس ، وتكون نسبة النجاح فيها عالية ، وأن يفضل المتخرج فى المعاهد الفرنسية على غيره فى وظائف الدولة . فلما لم يظفروا بالموافقة على هذا الطلب رفضوا هم أيضاً أن يسلموا برقابة الحكومة على المعاهد الأجنبية والخاصة طائفية أو غيرها . فالإشراف على هذه المعاهد لا يزال وقفاً عليهم حتى اليوم ، وإن لم يمارسوه عمليا فى العهد الأخير .

من ذلك نرى أن الاتجاه نحو الإصلاح الوطنى والتحرر الثقافى من طريق المناهج أخذ سبيله نحو التنفيذ ، ولم يبق إلا أن يجتاز المراحل التشريعية ليصبح قانوناً يجب العمل به ويسرى على الجميع نظريًّا ، وإن بقى معلقاً عمليًّا بالنسبة للمعاهد الأجنبية حتى تحل العقدة السياسية

وإلى أن يتحقق إشراف الحكومة الكامل على جميع معاهد التعليم تبقى بعض مشكلات قائمة ومصاعب تعترض سبيل الاتجاه الوطنى السديد .

ولعل لجنة المناهج قاست الكثير من العناء والعنت حتى وصلت إلى هذا الحد من التعديل والتحوير ، وحتى ظفرت بإقرار مبدأ شخصية الدولة اللبنانية كأمة تحرص على قوميتها واستقلالها مع محافظتها على صلاتها الوثيقة بجيرانها . وهى فى ذلك تنزع نزعة وطنية خالصة من كل زيف متحررة من كل مؤثر أجنبى .

وبذلك يتبوأ لبنان المكانة الجديرة بشعب عرف بالنشاط والمثابرة والذكاء ، وساهم رجاله بجهود مشكورة موفقة فى خدمة الثقافة والعلم .

وإنه لحبيب إلى النفس أن نرى ذلك البلد — وقد اكتوى بنار التفرقة — أصبح يدرك نعمة الاتحاد ، فاجتمعت كلمته والتقى أبناؤه فى صعيد واحد بعد أن نبذوا الطائفية أو كادوا ، وتحرروا من العصبية فصاروا صفًّا واحداً نحو الهدف المنشود ، لا غاية لهم إلا أن يعيش الوطن عزيزاً كريماً ، مستقلاً حرًّا .

عبد العزيز أحمد

الأزمة الأولى

حنت الشفاه فالتقت وأبت أن تفارق الرحيق .

واستيقظت من نومى صارخاً :

— أحبها . . .

وطارت الأحلام فتحولت حياتى إلى أذنى . . .

صمت مطلق . . .

إذن فمن الهاتف بتلك الكلمة الحلوة . . .

وذهب الرعب بقلبى . إننى أهذى فى منامى ، وأهذى بصوت مرتفع يوشك أن يوقظ القرية بأسرها . إننى أهذى بتلك الكلمة التى لم أجرؤ أن أقولها فى النور ، بل لم أجرؤ أن أقولها فى اليقظة . إنها كلمة حلوة ولكنها رهيبة :

— أحبها . . .

وهل لفتى قروى فى السابعة عشرة من عمره أن يهتف بتلك الكلمة الساحرة الدنسة :

— أحبها . . .

ومن هى تلك التى أحبها ؟

استيقظ القلب ، وانطلق الخيال يسبح فى ضباب من الصور اللامعة المخدرة .

ثلاث سنوات قضيتها بالقاهرة بعد أن انتقل أبى إليها ، ولكن تلك المدينة العظيمة لم تحول من أخلاق الفتى الريفى ، ولم يستطع سحرها أن ينال من أخلاقه .

ثلاث سنوات . . . ثم هفا بقلبى حنين إلى قريتى ، فعدت إليها مع الصيف أحدث عهداً بمن بقى من الأهل ، وألتمس فى مراتع الطفولة حنان النشأة الأولى . وظفرت بالحنان .

ظفرت بماذا ؟

لست أدرى ! ولكنى أذكر فاطمة زوج قريبى وهى تحيطنى بدفء من رعايتها وبدفء من حنانها . لقد قبلتنى يوم أوبتى قبلة الأمومة . ثم قبلتنى فى اليوم الثانى فانتفض جسدى من القبلة الثانية . إن لها مذاقاً لم يكن فى الأولى .

وانقطعت القُبل . ولكنى لا أكاد أرفع بصرى حتى يلتقى بعينها الضاحكة ، فأحول بصرى ، ولكننى أشعر بعينها تجول فى صدرى ووجهى ، وتغمرنى بسيل من شعاع دافئ مخدر .

وتتابعت الأيام فأحسست شيئاً فشيئاً أننى لا أغادر المنزل ولا ألهو مع لداتى وصحبى . فأنا أسمر وأسمر مع فاطمة . ولم أكن كارها لهذا السمر ، ولكننى أيضاً لم أكن صاحبه ، فهى التى تتحدث ، وهى التى تمسكنى لديها وتربط حياتى بحياتها .

وما خطر لى السوء . وما كان لمثل قلبى الساذج أن يجول السوء به فى موقف يحوطه سياج من قداسة .

ولست أدرى أكان عفواً أم قصداً أننى لا أكاد أرمى ببصرى إليها حتى أشاهد ذراعاً عارية يلمع بياضها ويتفجر سحرها ، أو ساقاً ممدودة فى وضع فاتن يتراقص حوله الخيال . ولكننى أحس بأنها ما كانت قط تستر ذراعاً أمامى أو تغير من وضع ساقها إذا جال حولها بصرى .

وكان زوج فاطمة يدلف فى سرعة إلى شيخوخة مبكرة ، وكان كشأن الكثيرين من أبناء القرية لا متاع له فى الحياة إلا أن يسمر مع صحبه فى ليالى الصيف المقمرة فى ذلك المكان المرتفع بجوار مسجد القرية . ويمتد السمر عادة حتى يوشك صائح الصباح أن يهتف بدعوة النور .

وفاطمة امرأة لا تطيق الوحدة ، فهى تؤمن بالأشباح والأرواح الشريرة ، وتخشى عبثها وعدوانها بالليل ، فلا عجب إذا تعلقت بى ؛ لأسلى وحدتها حتى يؤوب زوجها .

واطمأن الزوج واستراح إلى وجودى ، فهو كفيل بأن يعفيه من الشجار الدائم بينهما بسبب سهرته الليلية .

وكنا إذا جن الليل سارعت فاطمة فبسطت على سطح المنزل فراشاً وثيراً ، ونادت أن أصعد إليها تحت شعاع البدر فى هواء الصيف الفاتن لنمضى فى سمرنا .

وعلمت من فاطمة ما هى الحياة .

إنها تحدثنى عن تلك الأسرار الخفية الحبيبة ، أسرار الغرام بتلك القرية الصغيرة . وهل لفتى مثلى أن يعرف أن فى القرى غراماً ونجوى ؟

كنت لا أومن بهذا ، ولكن فاطمة ذكرت لى ألواناً وساقت إلى شتيتاً من قصص عجب .

وكنت أستلقى وأسلم إليها أذنى ، ثم أحلق بخيالى فى تلك الدنيا السحرية التى أستمع إليها ، وأسبح فى أحلام اليقظة .

وهل هناك أشهى إلى قلب فتى من أن يستمع إلى مثل هذا الحديث ! وفاطمة تعجب لجهلى ، ويعلو ضحكها لسذاجتى ، وتعجب أكبر العجب من فتى عاش فى القاهرة بلد الهوى والجمال ، ولم يحب ، ولم يسمع أقاصيص المحبين .

وكنت أعجب أنا أيضاً لهذا ، ثم اطمئن قلبى بأنى فتى آثر النقاء على العبث والمجون . ألم أشاهد زكية تلك الفتاة العبلة الفاتنة التى سلبت نعمة البصر ، وهى ترفع ثوبها ، فلم أكد أنظر حتى غضضت بصرى وأغمضت عينى واستعذت بالله .

ولكن فاطمة تمضى فى حديثها ، فأشعر بدبيب غريب يتمشى فى قلبى ، وأشعر بشىء حى يتواثب فى صدرى بل فى جسدى كله . . . شىء حار متدفق ، ثم يغمر روحى خدر حنون فاتن حالم ، ثم يحتوينى ضباب أسبح فيه وأسبح ، فيصل إلىّ صوت فاطمة أشبه بهمس يأتى من عالم مسحور .

ثم يطرق الباب طارق ، فأعلم أن صاحب المنزل قد آب ، فتهبط فاطمة وأهبط معها لاستقباله ، ثم ينصرف كل منا إلى حجرته .

ولست أدرى هل نامت فاطمة ، وهل نام زوجها ؟ ولكننى أنا لم أنم ! إننى أحلم وأتخيل بل أشعر بيقظة فى جسدى ، يقظة متوثبة متمردة لا تطيق الفراش ولا يواتيها النوم .

القمر والنجوم وكل شىء فى الطبيعة يهمس بالحب والجمال . هكذا خيل إلى وأنا سادر مسحور ، وفاطمة منى غير بعيد يغمرها ضياء القمر ، ويتلألأ على وجهها وجسدها شعاعه ، وهى تقص علىّ قصة زوجها .

— إنه رجل بخيل مقتر ، ثم إنه عليل مريض ، ثم إنه . . .

ولكنى صرخت :

— كلا يا فاطمة ! إنه رجل نبيل ، إنه سيد القرية ورجلها .

قالت فى عبوس :

— إنه قريبك فلا عجب إن مدحته .

— قريبى ؟

أجل إنه قريبى ، وهذه المرأة زوجه تنال من كرامته بالقول وبغير القول .
وانهالت علىّ خواطر عجيبة عن الحياة وألوانها .

ولست أدرى أى صورة من صور الألم والغضب لبسها وجهى ، ولكننى سمعت صوت فاطمة تقول فى دلال :

— هل غضبت ؟

— كلا !

— لو ذكرت لك سرًّا فهل تبقى عليه ، ولا تغضب منه ؟

— إن السر عندى مقدس .

— قريبك يحب !

— ماذا ؟

— يحب !

فقلت ضاحكا :

— مزاح غريب منك !

فأقسمت بالأولياء والصالحين أنه يحب فلانة التى توفى زوجها ، وهو يزورها ويهدى إليها الهدايا .

فهتفت بها :

— سيدتى ، إنك تتخيلين الدنيا كلها حبًّا وغراماً ، فكل إنسان يحب حتى زوجك الكهل الشريف .

قالت :

— نعم ، كل إنسان يحب إلا أنت !

— كل إنسان يحب إلا أنا . . .

حقيقة كل إنسان يحب إلا أنا . . .

ألحت علىّ تلك الفكرة القاسية : كل إنسان يحب إلا أنا ، وأنا لماذا لا أحب ؟ ولكن من التى أحبها ؟

استعرضت حياتى . إنها خالية من النساء . إننى أحب أمى ، وأحب عمتى ، وأحب

خالتى ، وأحب ... كدت أذكر اسمها ، ولكن وجهى التهب وركبنى الخجل ...
وظل الخجل يلازمنى حتى أنقذنى الكرى .

ولكن هل نمت حقًّا ؟ كلا لقد انتقلت إلى دنيا غير دنياى ، دنيا أحلام وأمانٍ ، عربد فيها الحلم ، كما عربد الخيال .

وكانت يقظة الصباح رهيبة . أشعر بخدر يلف أعضائى ويمسك بروحى ، وأحس رهبة من أن أغادر فراشى . إن الفراش هو دنياى ، وأنا غريب إذا فارقته .

ومرت ساعات النهار بطيئة ثقيلة ، وقلبى معلق بسهرة المساء ، وروحى تحن إلى سمر الليل . . .

وصور هذا الجسد الفاتن تراودنى وتحادثنى ، وتتمثل لى فى أوضاع يلونها الشيطان ، وتلونها الأمانى . . .

وفسد مذاق الحياة فى فمى ، وكرهت حديث لداتى ؛ لأنه يقطع علىّ تصوراتى ، وعفت لهو أمثالى فى القرية ؛ لأنه يعطل أحلامى اليقظى . . .

غدوت فريسة للوجوم والذهول !

وجاء المساء . . .

وآن وقت السمر . . .

وتلون حديثنا بلون جديد . إنها تحدثنى عن موقف زوجها . إنه يصبو إليها ولكنها تصد ، لما أخذ يدركه من أعراض الشيخوخة والضعف . . . وهى الفتاة اللدنة الغضة التى اشتهى الزواج منها فلان وفلان ، وداعبها السيد العظيم ، وتمناها الرجل الكبير .

إنها ترثى نفسها بقصيدة نسوية معطرة بعبادة الجسم ، وترثى نفسها بدموع نسوية تثير الحنان وتثير القلب . . .

وأنا ، لى الله ، كنت أتقلب وأتلوى ، وأطوى جسدى وأنشره . تعصف بصدرى ريح عاتية أحس توثبها وثورتها . أحسها حبيسة تبغى الانطلاق والتدمير .

إن جسمى ثائر ، ونفسى تئن تحت ثقل الإحساس بالواجب . إننى أقاوم ثار الرجولة الأولى فى دمى ، وصيحة النداء العنيف القوى . . .

أقاوم وأحترق ، ويكاد يقتلنى الظمأ إلى الرحيق . . .

وتسلمنى الفراش خامد الروح ثائر الجسم ، وتلاحقت الصور فى رأسى وطارت الكلمات بقلبى . . .

ثم طاف بذهنى خاطر جديد . إن ملامح فاطمة فى خيالى صورة من المعانى لا صورة من عالم الحس . إننى إلى اليوم أرهب النظر الدقيق إلى عينيها . إن عينى لم تشبع من محاسنها . . .

آه . . . إننى ظامئ إلى جمالها . . .

هذا الحياء ، هذه المبادئ الجامدة البالية . إنها تصدنى وتردنى وتحول بينى وبين الفردوس .

— إننى ثائر . سأملأ عينى بجمالها . . .

ما هـذا الجحيم ؟ إننى أحس الحر ينضح من وجهى ، ويثب من أظافرى . دفء وحر . . . سعار من الجوع الملح العنيف . إن فى جسـدى زلزالا ، وأنا أسمع دمدمته ، وفى أعصابى بركانا أحس أزيزه . إننى قطعة من النار ، بل من الجحيم . . .

ومضى الليل بطيئا ثقيلا لم أنعم فيه بالـكرى ، ولم أهنأ بتلك الغفوة الجميلة المريحة التى هى نعمة كبرى من نعم الحياة لا يحسها إلا من فقدها .

وكان صباح أحببته وما تمنيته . إننى أريد الظلام . أريد الخلوة والابتعاد عن صخب الحياة . أريد أن أعيش فى عالم كل مافيه خيال فاطمة وإشارة يديها وضحكتها الجميلة المتكسرة ، وعينها المنادية المحرقة .

وازداد مذاق الحياة فسادا فى فمى . إننى أجلس إلى الطعام فأتصور فاطمة ، فيشرد خاطرى حتى ينبهنى إلى الوجود من بجوارى . وأجلس إلى صحبى أصم أبكم حتى يناديني مناد أو يسخر منى عاتب . ويعجب من أمرى من يعجب !

إن فاطمة هى حياتى .

ولـكن هل أحب فاطمة هـذا الحب الطاهر الساحر الجميل الذى يضيف إلى الانسانية عطراً من عالم الروح ؟

هل أحب فاطمة هـذا الحب الذى تخيله الشعراء إلهاما وأنغاما ، وتخيله الرواة والقصاصون عالما من المعانى العلوية ؟

كلا . . .

ليس ما أحسه أنغاما من موسيقى الفردوس ، ولست أشعر بذلك النور العلوى ، ولا بتلك الأجنحة الملائـكية تحملنى إلى سموات المعانى والجمال .

إننى أحس شخصها يزحم شخصى ، ونداءها يوقظ قلبي ، وأشعر بخيالى يحوم حول ذراع وساق . . .

لقد تفتحت رجولتى على إغراء وإغواء . . .

لم أعرف تلك السعادة التى يتحدثون عنها فى أقاصيص الحب وأشعاره ، ولم أر الفردوس المفقود ، بل أحسست الجحيم الموجود . . .

إنه اشتهاء جسم لا نداء روح . . .

وهذا الاشتهاء تثور عليه طفولة طاهرة ، وتثور عليه نفس لم تتدنس ، بل تنفر أكبر النفور من العبث ، وتنفر أكبر النفور من هذا اللون من الخيانة .

لقد كانت طفولتى سعيدة ساذجة عابدة حتى أيقظها من أحلامها ذلك النداء .

وإن كان جسمى صبا ، فإن روحى لم تستسلم بل قاومت وأصرت على الوفاء .

ولكن هل لروح فتى مراهق أن تتغلب فى مثل هـذا الصراع ؟ وهل تشعر فاطمة بتلك المعركة الرهيبة التى تمزق أعصابى وتحرق قلبي ؟ إنها أنثى تنشد الفوز ولا تعرف المعانى .

إنها أنثى كاملة : جسم ناضج دافئ حى ممتلئ بفورة الرغبة ، وقلب متوثب متطلع ينشد النعيم ويحن إلى التذوق ، وروح مرحة عابثة خفيفة ساحرة .

إنها أنثى كاملة ، ربطت حياتها إلى جواد كليل محطم كثير الأوراد والتسابيح .

أنثى ضاقت بها تقاليد القرية ، فأحاطتها بجدران من فولاذ لا تفارقها ، حتى ظفرت بى فكنت دنياها وكنت فريستها .

كنت أحس أنها تشعر بلذة فى إغوائى ، وتشعر بلذة حين ترانى مرتبكا خجولا ، وتشعر بلذة إذ ترى أنوثتها تغزو قلبى وتملك روحى ، وتتنفس فى أعصابى .

كنت المجال الحيوى لأنوثتها ، فتملكتنى فى عنف وحماسة .

وأسرفت فاطمة فى عبثها ، فما عادت تخجل أن تبدو أمامى متبذلة ، وما عادت تبالى ، فهى تضطجع أمامى ، وتتخذ ما شاءت من الأوضاع .

وأتى المساء وصعدت مع فاطمة إلى أعلى المنزل ، واحتوانا ظلام الليل الذى تضيئه أشعة باهتة من نجوم الصيف .

وللليل سحر على الروح والجسم ، وللحديث سحر على الروح والجسم .

وكان سمرنا بخوراً فى معبد الشيطان ، وأحسست أن فاطمة اعتزمت أمره وهيباً ، وأحسست أن روحى قد سرقت . . . سرقها جسمى ، فغدوت جسماً ملتهباً لا شأن للروح به .

وتشعب الحديث ، ومحور الدائرة واحد .

قالت فاطمة :

— أى النساء أحب إلى قلبك : أهى المرأة العبلة اللدنة الناعمة أم الغادة الهيفاء الرشيقة بدلها وتوثبها ؟ وأى العيــون أشهى وأجمل وأفتك : العيون المتكسرة فى استرخاء وأحلام واستسلام ، أم العيون المنادية فى تحد وعنف ورغبة ، أم العيون اللامعة الخاطفة فى خبث ومكر ، أم العيون الساذجة المانحة فى دعة وصمت ؟

وما كنت محدثاً لبقاً ، ولا ممهداً للهاوية التى تجذبنى فاطمة إليها . كنت أشبه بالصينى الذى فرغ من تدخين مخدره ، واستلقى يحلم ويسبح مع الأجسام السابحة فى دنيا أحلامه ونشوته .

وأدركت فاطمة بغريزتها حالتى ، فراحت تضحك وتسرف فى الضحك .

لم أكن ثائراً ، بل لقد هدأت تلك الفورة الجسدية الصارخة

وانقضى مساؤنا وعاد الزوج من سمره . ولست أدرى أى صورة كان عليها وجهى فلم أره فى مرآة ، ولــكن زوج فاطمة راعه أمرى وأخافه شحوب وجهى فأحاطنى بحناته ، وأخذ يسألنى عن صحتى ، فطمأنته فى تمتمة سريعة غامضة حاسمة وانسللت إلى حجرتى .

واستلقيت أحلم وأتخيل ، ثم انفجرت العاصفة . . . جن جسمى ، وجن عقلى .

ولم أطق الفراش فوثبت منه ، ولم أطق حجرتى فغادرتها ، وأخذت أحوم فى وَلَهٍ حول باب فاطمة ، وألهبتنى سياط لا ترحم ، فغادرت المنزل وأخذت اجول حول النافذة التى تنبعث منها انفاس فاطمة .

ثم أخـذت أغدو فى القرية منطلقاً إلى الحقول . أحسست بالغريزة أننى فى حاجة إلى نهك جسمى وتهدئة ثورتى .

وانتبهت على صوت المؤذن يدعو النفوس الحائرة إلى ربها فى فجر يومها الجديد ، فتسللت فى بطء إلى مسجد القرية .

طرق زوج فاطمة باب حجرتى ، ثم ارتد عنها لم يشأ أن يوقظنى . لقد سره أننى فى سبات عميق ، والنوم عنده علامة العافية .

والتصقت بالفراش وكرهت أن أغادره ، بل لقد اعتزمت أن أقضى به نهارى :

وما كان هذا ليرضى فاطمة ، وما تريده المرأة تريده الحياة ! أيقظتنى فاطمة فنهرتها للمرة الأولى فى حياتى ، فابتسمت ولمع البشر فى وجهها وخطف بصرها فى تيه وعزة . إنها تريدنى غاضبا . هكذا تقول فقد آلمها استسلامى وأدبى !

وألحت فاطمة ، وأصررت على البقاء ، فجلست على طرف الفراش ، وقالت :

— كيف كان نومك بالأمس ؟

— كان نوماً سعيدا .

فاستضحكت قائلة :

— إذن فمن الذى كان يحوم حول باب حجرتى ، ومن الذى كان يدور حول نافذتى ؟

وثبت من الفراش وثبة مجنونة ، وحملقت فيها فى ذعر ورعب صارخاً :

— من ! ...

وضحكت فاطمه ... وبكيت ...

طه عبد الباقي سرور

من هنا وهناك

هـ . ج . ولز

مات هـ . ج . ولز فى الثالث عشر من الشهر الماضى عن تسعة وسبعين عاما . وكان فى الأشهر الأخيرة يشكو من تفاقم مرضه القديم وهو الديابيطس أى البول السكرى . وقد لازمه هذا المرض أكثر من ثلاثين سنة . وكان يعزوه إلى حادث وقع له وهو يلعب مع زميل حين شطحت ساق هذا الزميل فأصابت ولز فى إحدى كليتيه وعطلتها . وكان هذا منذ أكثر من خمسين سنة . ويرجع ولز بذاكرته إلى هذا الحادث لان الطبيب الذى عالجه من إصابة كليته كان قد قال له إنه سيمرض فى المستقبل بالبول السكرى . ويبدو أنه كان لهذه الكلمة وقع فى نفسه حتى إنه كان لا يفتأ يذكرها . وعند ما صدقت نبوءة هذا الطبيب ألف ولز جمعيــة من المرضى السكريين أمثاله لبحث أسباب هذا المرض وعلاجه . وكان هو من أبرز أعضائهــا . ولا شك أن العناية العلمية التى كان يعيش بها ولز ويعــالج بها مرضه هى التى أبلغته إلى قراب الثمانين على الرغم من هذا المرض الوبيل .

وقد مضى على ولز نحو خمسين سنة وهو يؤلف وقد استهوى بقصصه قلوب العامة والخاصــة كما أنه كان يرشــد الطبقات المثقفة بمؤلفاته الاجتماعية ويوجههم نحو الآراء الجديدة التى يؤمن بها الكثيرون من الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين والسيكلوجيين فى جميــع أقطار العالم . وأثر ولز ليس كبيراً فى القارة الأوربية حيث تبنى الطبقات المفــكرة مستقبلها على الحركات الانفجارية والثورات الانقلابية . أما فى بريطانيا والأمم الاسكنداوية وهولندا وأمريكا الشمالية ، حيث تبنى الأمم مستقبلها على التطور والتدرج فان أثر ولز كبير جداً .

وقد ولد ولز فى القرن التاسع عشر . ولــكنه ، بخلاف كثير من الــكتاب الانجليز ، قطع الحبل السرى الذى كان يصل بينه وبين وليده القرن العشرين . بل هو ثار عليه فى عقوق وإنكار ، ودعا إلى نفض مؤسساته . ونفض عن عقله وقلبه غبار العصر الفكتورى . وعبارة « العصر الفكتورى » من العبارات المألوفة فى بريطانيا وأمريكا . ذلك أن الانجليز فى عهد الملكة فكتوريا التى تولت الحكم أكثر من ستين سنة كانوا ينبسطون على هذا الكوكب . فى توســع جغرافى وتجــارى ويزدادون رفاهية ومالا وسلطاناً . وكان الشعور العام بين الجمهور أن الارتفاء سنة اجتماعية وأن شعب الله المختار هو الانجليز الذين يستعمرون الدنيا ويملأونها خيرات وبركات ، وأن نظام الامبراطورية هو فضل ونعمة ينعم بهما الانجليز على سائر البشر الذين ينشرون بينهم الحضــارة — بل الحضارة المسيحية — ويقشعون عنهم الجهل والخرافات ويعممون بينهم الحق والعــدالة . وكان هذا العصر ، للنجاح المادى الذى يسود البلاد ، يلتزم العرف والعــادات الاجتماعية ويعد الخارجين عليها ناقصــين فى الكياسة أو متبطرين على نعم الحضارة . وكانوا من هذا الرضى على أنفسهم وعلى مؤسساتهم يكادون يعلمون العالم : أنه مادام لكل أمة ملكة مثل الملكة فكتوريا ، وديانة مثل الديانة المسيحية ، وتجارة حرة ، فان كل شىء يســير على

أحسن ما يرام وتنقلب الدنيا إلى جنات يعيش فيها الأسود فى صفاء مع الغزلان .

ولكن على الرغم من هذا النجاح المادى ، وهذا الرضا العام بين الطبقات الثرية ، كان هناك نفتت فى الأسس . فكان التعطل والفاقة والمرض كما كانت القسوة والفتك بل الخطف والنهب يفشو فى أنحاء المستعمرات كما يفشو فى أزقة لندن ومنشستر ، فى المصانع التى كان يعمل فيها الأطفال ، بل فى البيوت التى كانت تعمل فيها الأرامل اللائى كن يعملن فى النهار ويسهرن فى الليل فى كسب قوتهن بالأجر الضنين ، مما عبرت عنه قصيدة «أغنية القميص» التى شرح فيها مؤلفها كيف تتعذب هؤلاء الصانعات وكيف تتهرأ أصابعهن من الابر كى يحصلن لاعلى العيش المنتظم بل على ما يمسك الرمق يوما بعد يوم .

فى هذا الوسط ، وسط العصر الفكتورى ، حيث المجد والتلألؤ فى الظاهر ، والعفن والفساد فى الباطن ، ولد ولز وبرنارد شو وأمثالهما من الثائرين . وكان ولز يعيش مع أمه الخادمة فى بيت من بيوت الأغنياء . وكان أبوه مدربا قليل الكسب فى لعبة التنس أو الجولف . وقضى ولز طفولته ، كما كان الشأن بين العائلات الفقيرة فى « بدروم ». فلما أتم دروسه الابتدائية عمل فى أحد المخازن التجارية الصغيرة ثم اشتغل بالتعليم ودأب فى الدرس حتى حصل على شهادة بكالوريوس فى العلوم . وقد أخبرنى الدكتور هيوم الذى كان مديرا لمصلحة الطبيعيات فى مصر أنه كان يزامله فى تلك الدراسة ، وأنه كان يعرف فيه فى ذلك الوقت الجد والذكاء مع الفقر والحاجة .

وأول ما ألف ولز من الكتب هو كتاب فى تشريح الحيوان استعمل مدة طويلة بين الطلبة الذين يدرسون البيولوجية أى علم الحياة . ومن هنا نرى أن تربية ولز علمية وأنه لم يدرس الأدب . والواقع أنه جعل العلم يغزو الأدب . فانه بدأ حياته الأدبية بأن استأنف حركة جول ڤيرن فى الخيال العلمى بأن ألف طائفة من القصص وجدت رواجاً عظيما مثل « حرب العوالم » و « طعام الآلهة » ونحوها .

ونستطيع أن نقول إن ولز فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر شرع يرى رؤيا العلم فى التقدم البشرى الوشيك . كما أنه أيضاً استطاع أن يرى العفن والفساد فى مؤسسات العصر الفكتورى . ولكن بدلا من أن يعالج هذا والفساد بالثورة الماركسية كما هو الشأن فى مفكرى القارة الأوربية ، وجد هو العلاج فى الطريقة الانجليزية العريقة ، طريقة التدرج والتطور باستخدام العلم . وهو إذا كان قد بدأ قصصه بالخيال العلمى المسرف على طريقة جول ڤيرن ، فانه انتهى بأسلوب رصين فى التفكير العلمى لمعالجة مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذلك كثيراً ما هجر القصة إلى المقالة . ثم توسع فى المقالات حتى صارت كتبا فى دراسة الحضارة وعيوبها . حتى إذا كانت الحرب الكبرى الأولى شرع يتجه بقوة اتجاهاً علمياً ويقول بضرورة الحكومة الواحدة للعالم كله . وقد تطورت هذه الفكرة عنده ، ولكنها منذ ربع قرن وهى بذرية محورية فى جميع تفكيره

وأول تجاربه فى هذا الميدان هو « خلاصة التاريخ » الذى ألفه باعتبار أن هذا العالم أمة واحدة قد جاهدت وحاولت فى جهادها ، ولا تزال تحاول ، تحقيق الحضارة المثلى . ولأنه قصد إلى هذا الهدف ، فانه كاد يجعل التاريخ فناً إذ هو يستعرض حتى إنه يستصغر شأن إسكندر الأكبر ونابليون الأول ، كأنه يرى فيهما صورة غليوم إمبراطور ألمانيا الذى أشعل ، فى الزعم العام ، الحرب الكبرى

الأولى . ولكنا مع هذا الاستغراض نجد نبلا حين نراه يعرض لموكب الحضارة كأنه موكب بشرى وليس إنجليزيا أو ألمانيا أو فرنسيا . كما أننا نحس إحساسه ونجد عاطفته التاريخية تهز قلوبنا كما هزت قلبه حين يصف هذا العالم بأنه « قريتنا الكبرى » .

ومنذ الحرب الأولى إلى الآن وهو فى هذا الكفاح الثقافى يحمل على الوطنية كأنها رذيلة ويوضح لنا أن ربط العالم اقتصاديا يجب أن يربطه سياسياً وثقافياً . ويضرب لنا المثل بمقارنة بين القارة الأوربية التى تحفل ببابل من اللغات والأمم المتنازعة المتقاتلة وبين الولايات المتحدة الأمريكية التى يعيش سكانها أمة واحدة بلغة واحدة . ثم يعزو هذا الفرق لى أن السكك الحديدية قد ربطت الولايات المتحدة فصارت شبكتها التى تربط مواصلاتها سبباً لاتحادها ، هذا الاتحاد الذى حرمت منه أوربا لان السكك الحديدية لم تدركها قبل أن تستقل أممها وتنفصل أقطارها . ثم يستخرج المغزى فيقول إن الطائرات والبواخر والسكك الحديدية والراديفون والتلغراف والبريد الجوى والصحف التى تحملها الطائرات ، كل هذه تربط كوكبنا الأرضى ، كما لو كنا فى قرية صغيرة . ولم يعد هناك مجال لأن يتجزأ هذا العالم دولا ودويلات يعيش كل منها فى سياسة قروية وممارشة حزبية دون النظر للمصلحة العالمية الكبرى .

وقبل أن يكون ولز عالمياً كان اشتراكيا . ولكنه بسبب تلك الحزازات الحرفية التى تنشأ بين الكتاب والأدباء ، أنكر اشتراكية ماركس وطعن فيه ، واختصم بذلك جمهور الاشتراكيين الأوربيين الذين يعدونه مصلحاً معتدلا يرتق ويرقع . إنه بهذه المثابة ، أى بالرتق والترقيع ، يؤخر الثورة ويفسد الوجدان الطبقى بين العمال . والحق أن ويلز من ناحية المزاج الاشتراكى أقرب إلى حزب العمال الانجليزى الحاضر بل إلى حزب الأحرار منه إلى الأحزاب الاشتراكية الأوربية .

ومن السنين الأخيرة انبسطت له آفاق جديدة فى تفكيره العالمى . فدعا إلى إيجاد موسوعة كبرى تؤلف للبشر وليس لأمة معينة ، بحيث تبقى هذه الموسوعة مؤسسة عالمية لها كتابها الدائمون ومترجموها وسكرتيروها ومكتباتها ومطبعتها ، وبحيث تشترك فيها جميع الأمم ، وتترجم إلى جميع اللغات ، وتطبع على طريقة الورق السائب حتى يستطاع تحريرها وتغيير أوراقها عاماً بعد عام بل شهراً بعد شهر وهى بالبيت عند قرائها .

وفى حياة ولز مأساة هى تطوره الدينى . فقبل نحو ثلاثين سنة ألف نحو أربعة أو خمسة مؤلفات يدعو فيها بروح المرسل المتحمس إلى الايمان بالله . ولكنه بعد ذلك انقلب إلى تعطيل جامح حتى إن آخر مؤلفاته كان كتاباً فى نقد البابوية . ألحقه بآخر فى نقد التوراة . وكلمة « النقد » هنا ملطفة . لأننا لو وضعنا فى مكانها كلمة « نقض » لكنا أقرب إلى الغرض الذى قصد إليه . وقد أحزن هذا التحول كثيراً من الأحبار الذين كانوا فى بداية القرن يستشهدون بأقواله ويقتبسون منها كى يبرهنوا على أن عظماء المفكرين هم على الدوام من المؤمنين .

س . موسى

إلى المجهول

فى الظلام الحالك حيث يختفى كل شىء . . .
بين العواصف الشديدة والرياح الغاضبة
أسلك وحدى طريقا طويلة . . . إلى المجهول . . .

إنها طريق شائكة ، محفوفة بالأخطار
ولكن الحنين المنبعث فى قلبى إلى المجهول
يثير همتى ويضاعف نشاطى ويشد قواى
فأسرع فى سيرى هازئاً بالعواصف والرياح
غير عابئ بالأشواك تدمى قدمى . . .

ومن أعماق الظلام يشرق على نور ساطع
فأرى وجهاً مشرقاً تكتنفه هالة من نور
أثبت فيه عينى وأطيل فيه التحديق
فأرتعش منه وأضطرب اضطراباً شديداً
ويخفق قلبى خفقات قوية متزاحمة . .

ومن العواصف الهائجة اسمع صوتاً خافتاً
ولكنه ناعم ، له جرس رقيق يثير الأشجان
ويملأ صداه آذنى وقلبى المضطرب
وكأنه يدعونى ويلح على بالوقوف
لأترك طريقى وأتجه نحو الوجه المنير . . .

وأشعر بقوة خفية تشدنى بعنف
وكأن يداً خفية ناعمة تلامس يدى
لتقودنى إلى مشرق النور ومبعث الصوت . . .
إن جسمى يرتجف لهذا الاحساس الغريب
ولكن اليد تشدنى بقوة وعنف لا يقاوم . . .

وجه منير وصوت عذب ويد جبارة
تدعونى بل تدفعنى فى طريق جديدة
ألمح زهوراً ووروداً فرشت عليها
سماؤها صافية تتألق فيها النجوم
وجوها هادئ جميل لا يعكره شئ . . .

واقف متردداً دهشاً ، مضطربا
وأحاول أن أخطو وأنجو من الظلام
لكن صوتا جبارا ينبثق من أعماق نفسى
ارتعدت منه وارتجفت أضلعى لقوته
صرخ فى بقساوة . . . فى طريقك إلى المجهول . . .

فأمسح دمعتين تحدرتا على خدى
وأغمض عينى لئلا أرى ذلك الوجه
وأطبق يدى على أذنى كيلا أسمع الصوت
وأتحسس يدى لأنجو من اليد الجبارة
وأندفع فى طريق ، على الشوك ، وفى الظلام . . .

عيناى مغمضتان ورغم ذلك أرى وجها
وأذناى مسدودتان ومع ذلك أسمع صوتاً
ويدى طليقة ولكنى اشعر بقوة تشدها
أما قلبى ! فانه ليتقطع حزناً وهلعاً
ومع ذلك أندفع بقوة فى طريق المظلم . . .

يغمرنى ظلام مخيف ، وتلفحنى ريح عاتية
يدمى الشوك قدمى ، وأتعثر فى سيرى
يهزنى الألم ، وتفيض دموعى بغزارة
ولكنى أتابع السير لأن ذلك الصوت الجبار
لا يزال يصرخ بى : فى طريقك إلى المجهول . . .

[دمشق] شحاده الخورى

رسالة

« . . . قرأت ، كعادتى ، ما تفضلتم به على قراء العربية فى عدد أغسطس الأخير من مجلة «الكاتب المصرى» عن «الأدب بين الاتصال والانفصال » فكنت معجباً ، كعادتى أيضاً ، بهذا الأسلوب الرقراق الشفاف الذى يتناول مشاكل الفكر والحياة مترفقاً هادئاً ، فيوسع منها المضايق ، ويمهد العقبات، ويجلو الغياهب ، وإذا الحياة على يديه جنة تشيع فيها الأنوار وتعبق الرياحين ، حتى ينقلب المرء بها ، عند نهاية المطاف ، إلى حالة من الوجود ، يتنفس فيها ملء رئتيه ناعماً مطمئناً . . .

« ولكن لى حول ذلك الموضوع ملاحظة أحس أن إغفالها لا يرضيك ، بل يغضبك ، بل تجد فيه ضرباً من المصانعة ، ما زلت

تحمل عليها وعلى مصطنعيها ، فى كل فصل من فصولك النقدية التى تمور بحب الحقيقة والدعوة إلى خدمتها إن فى « حديث الاربعاء » وإن فى غيره .

« أما هذه الملاحظة فهى أن « وضع » المشكلة التى عرضت لها فى حديثك الشيق عن اتصال الأدب بالحياة الواقعة وانفصاله عنها ، جاء مغلوطاً . لأن صلة الأدب بالحياة قضية مفروغ منها ، فهى من الوضوح والبساطة بحيث لا تحتاج إلى نقاش وتقرير . فالأديب كائن حى يتأثر كغيره من الكائنات الحية بما يعتمل فى كيانه من جهة ، وبما يجرى فى محيطه من جهة أخرى ، وكل ميزته أن يعبر — مضطراً أغلب الأحيان — عن تأثراته بطريقة من الطرق !

« وحقيقة المسألة كما أحسب ، هى هذه الظاهرة فى طبيعة الأدباء — لا فى الأدب — التى وصفتها عند ذكر أبى العلاء بكلمة « وحشية » . فان أكثر الذين حفظ التاريخ أسماءهم من الأدباء والمفكرين ينزعون إلى العزلة ، ويتبرمون بالناس ، ويتحامون ولوج الحياة العملية وشؤونها المباشرة ، ويلقون متعتهم الكبرى فى التأمل الصامت . وقد لخص هذه الطبيعة شاعر قديم بقوله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

« ومن شأن هذه الطبيعة التى تنتظم الكثرة الساحقة من رجال الفكر والأدب أن تخلق الريب فى نفوس الجمهور وتمنعه من تفهم ما يلقى إليه من المعانى والأفكار ، فيأخذها على أنها محض خيال أو نتيجة شذوذ ، ويتجاوزها إلى ما اعتاد من حياته الخاصة وموحياتها الهزيلة . وهكذا تتسع الشقة بين الأدباء والحياة الواقعة وتزداد توتراً يوماً عن يوم ! هذا ما حدث لأفلاطون فى فجر التاريخ العقلى ، وهذا ما حدث لجان جاك روسو ، وهذا ما حدث للمعرى ، بل هذا ما يحدث اليوم لكل شاعر وأديب ومفكر .

« وكان المفكرون من قبل والأدباء ، يناضلون ويحرصون على رفع الجماهير إلى مستواهم الفكرى دون أن تستنزلهم الشهوات إلى مستوى الجماهير ، وكانوا يلقون فى هذا السبيل من عنت الحكام وجور الأيام قاصمات الظهور . ولكن المرحلة الراهنة من تطور الانسانية أغرت معظم أدبائها بالمظاهر فوقفوا عن النضال ، وحسبوا أن فى الصحافة والجوائز والمناصب تقديراً صحيحا ، وأن فى تأليف الكتب ونشر المقالات صيغة النضال المثلى . . . وهذا يعنى أنهم نزلوا عن رسالتهم ، وانتقضوا على تاريخهم ؛ فليس ثمة من سقراط يجوب الشوارع ويحتك بالعامة يهديها ، ولا من أريحى يقوم اعوجاج السلطان بحد السيف إذا اقتضى الأمر ، ولا من معرى يحتمل الأذى وينافح عن الحق ويبحث عن الحقيقة !

« فأديب اليوم بين أمرين أحلاهما مر : إما أن ينخرط فى الحياة الواقعة ويفقد رسالته ، وإما أن يعتزل فلا يستطيع تأديتها .

« هذه هى المشكلة الحقيقية التى تهز عالم الأدباء اليوم . هذا هو وجهها الصحيح ، وهذا ما أرجو أن تعالجوه فى المستقبل . »

[لبنان]

عبد اللطيف شراره

شهرية العلم

ثعبان البحر

عاش القدماء فى جو الأساطير ، وكان هذا هو العلم وقت ذاك ، إلى أن جاءت البحوث العلمية الحديثة ، فطهرت بعضها من الشوائب وقضت على البعض الآخر ، وخلفتها بعد ذلك للأدب . ولما كان العلم كريما لا يهاجم ، فقد أبقى على أسطورة ثعبان البحر ، التى شغلت أذهان المفكرين وما زالت محل عنايتهم ، حتى تنتهى بحوثهم الحديثة منها . ولقد لعب الخيال دوراً كبيرا مع ثعبان البحر ، فكثرت حوله خرافات لا يستسيغها عقل ولا يهضمها منطق ؛ فقد روى بعضهم أنه رأى ثعبانا من هذه الزواحف طوله مائة قدم وله رأس فى حجم البرميل . ومما يقيم دليلا على عدم صدق هذه الرواية أن ثعبان البحر على هذا النحو من المبالغة فى الطول لم يعثر عليه حتى الآن ؛ لأن الزواحف البحرية العظيمة قد انقرضت منذ أمد بعيد لم يشهده إنسان .

ومن العجيب ان هذه الخرافات ما زالت تحتل مكانا لائقا فى أدمغة البحارة ، ولم يتعرض لها العلم بشىء من التكذيب ما دام البحث وراء هذا الثعبان جاريا . ونستطيع أن نقرر أن روايات هؤلاء البحارة نشأت من رؤيتهم بعض الأسماك الطويلة التى تظهر عادة فوق سطح الماء مثل السمكة المجدافية والشريطية . ونظراً لندرة هذه الأسماك فقد اعتبرت من أسماك القاع رغم بهاء ألوانها ؛ قد عنى الشعراء بوصفها ونعتوها بلؤلؤة البحر . ويبلغ طول هذه الأسماك ستة أمتار ، وهى تشبه الشريط ولها القدرة على تخزين الهواء فى عضلاتها وعظامها كما أن جلدها قابل للتمدد . وعند ظهورها على سطح الماء لا يبين منها إلا رأسها وجزء من زعنفة الذنب ، فهى فى هذه الحالة أشبه ما تكون بالثعابين ، وقلما تقع فى الشباك سليمة ؛ لأن جسمها الطويل الرفيع يهشم بعضه عندما يمسك الصياد السمكة ، وذلك لتصلبها نتيجة لتمدد الجسم بما فيه من هواء . وتستطيع هذه السمكة الخروج إلى البر والمكث فيه بضع ساعات .

والواقع أن ثعبان البحر موجود فيه ، وأن ما عثر عليه حتى الآن لا يزيد طوله على أربعة أمتار . وهذه الثعابين توجد عادة فى جماعات كبيرة ، وقد تسير فى خط مستقيم ، حتى إذا مارأتها البحارة حسبتها ثعبانا واحداً له هذا الطول الذى زعموه . ولهذه الثعابين رئات كبيرة فيملؤها الثعبان بالهواء ويسد أنفه وينام على سطح الماء وقتا طويلا ، حتى إذا ما أحس مفاجأة أفرغ الهواء من رئتيه وثقل جسمه وهبط إلى القاع . وهو يستطيع المكث طويلا تحت الماء ؛ لأنه يتنفس الهواء الذائب فيه بواسطة الشبكة الدموية الموجودة فى اللثة .

ومما لاشك فيه أن هذه الثعابين كانت برية ، ويدلنا على ذلك وجود الصفائح البطنية فى بعض الأنواع التى لا تزال تصعد إلى اليابس وتزحف عليه .

وتعود إلى البحر بريشته فهو ما يزال يعمل فى هذه الزواحف الخطرة ، فضمرت منها الصفائح البطنية ، وانمحت فى أنواع كثيرة من هذه الثعابين ، وتفرطح منها الذنب وأصبح كالزعنفة ليساعدها على العوم ، حتى أصبحت لا تستطيع العيش على اليابس فتموت بعد مدة ليست بالقصيرة إذا خرجت منه ، كما هو الحال فى الحوت أو القيطس . وكثيرا مايقذف البحر بعد هياجه بآلاف من هذه المخلوقات السامة إلى الشاطئ ، فتموت هذه الثعابين وترتاح أحياء البحر من شرورها . وقد يساعدها الحظ فيأتيها الموج ، ويأخذها مرة أخرى إلى البحر بعد أن يتعذر عليها الزحف فوق الرمال . . .

وتلد هذه الثعابين صغارها فى الماء . ولهذه الصغار القدرة على العيش بمفردها ، ولو أن الأم تعتنى بها فترة من الزمن وتحميها . وهذه الثعابين ليلية أى أنها تندس فى الشقوق نهارا حتى إذا ما غربت الشمس خرجت تبعث الرعب بين ساكنى البحر وعماره . وهى كغيرها من الثعابين البرية كالناشر والبخاخ تقتل الفريسة بسمها وتبتلعها من رأسها ، وبذلك تستطيع أن تأمن أشواك الزعانف . وسم هذه الثعابين قاتل كذلك للانسان ، فقد حدث أن بحارة إحدى السفن أمسكوا واحداً منها وراحوا يلهون به ، فلدغ أحدهم فى سبابته فلم يهتم بهذا الحادث لأنه سمع من أحد الوطنيين فى بوغاز ملقا أن تلك الثعابين لا تضر أحدا وأنها ليست سامة ، وبعد نصف ساعة على الحادث تناول البحار فطوره وغير ملابسه وصعد على ظهر السفينة يمرح ويمزح ولم يشعر بأى تغيير على صحته . وبعد ساعتين سقط مغشياً عليه وضعف نبضه واتسعت حدقتاه وتصبب جسمه عرقا باردا ، وبدا وجهه كأنما حل به خوف ، وأصيبت القصبة الهوائية بشلل تعذر معه التنفس إلى حد كبير ، وتورم مكان الجرح وما جاوره ، وعم الورم الذراع حتى الرقبة وتلون الوجه بلون أرجوانى قاتم . وحاول طبيب الباخرة محاولات عدة مخفقة فى إعطائه أدوية ، ولكن المريض استطاع أن يتناول شيئاً منها بعد حمام ساخن ، ثم لفظ هذه الأدوية على شكل سائل داكن لزج . وبعد عشرين دقيقة اعترت جسمه هزات عنيفة ، وعم الاحتقان البطن كله ، وأصبح التنفس شاقا ، وأرغى الفم وفقد المريض وعيه تماما ، وقضى نحبه ولم يمض على الحادث أربع ساعات .

حسين فرج زين الدين

شهرية السياسة الدولية

مؤتمر الصلح

أهم حادث وقع في ميدان السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى إنما هو انعقاد مؤتمر الصلح فى التاسع والعشرين من شهر يوليه لسنة ١٩٤٦ . ولقد كان هذا الانعقاد مقرراً بمن يحضره من الاحدى والعشرين دولة ، فى اجتماع للاقطاب الثلاثة فى موسكو ، وكانت مهمته النظر فيما سيعرض عليه وزراء الخارجية الأربعة من مشروعات معاهدات الصلح مع « الأعداء » ، فيبدى فى اجتماعه التمهيدى ملاحظاته ، ثم تبلغ هذه الملاحظات إلى مجلس أولئك الوزراء ، ثم تستأنف دعوته للتوقيع على المعاهدات .

وكان المتفاهم عليه أن الدول المدعوة إليه لن تشترك كلها فى بحث جميع مشروعات المعاهدات ، ولكنها ستوزع على هذه المشروعات بنسبة إعلانها الحرب وقيام حالتها بالفعل مع الدولة التى ستوصل المعاهدة إلى إقرار السلام معها .

ولم تنته بعد أبحاث معاهدات الصلح مع النمسا ومع ألمانيا ، واذن فالمعروض على المؤتمر فى اجتماعه الأول انما هو البحث فى شأن مشروعات معاهدات الصلح مع ايتاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندة .

ولم تكن الدعوة الموجهة لحضوره إلا إلى الدول التى حكم « الاقطاب الثلاثة » أو « الدول الأربع » — بريتانيا العظمى ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى وفرنسا — بأنهن قد قاموا بواجب مادى واسع المدى فى الحرب ضد الأعداء . فتقدمت دول أخرى قالت إنها قد قامت بهذا المدى وطلبت أن تحضر المؤتمر ، وهى ألبانيا ومصر والمكسيك وكوبا . وقد انتهت مناقشات طويلة إلى قبولهن جميعاً لا كأعضاء فى المؤتمر يتناقشن فى قراراته ويصوتن على صدورها ، ولكن كمقبولات تتقدم كل واحدة منهن بالادلاء بملاحظاتها فى الموضوعات التى تتصل بمصلحتها القوية .

وقبل أن يتناقش المؤتمر فى مشروعات المعاهدات ، وأول هذه المشروعات هو مشروع معاهدة الصلح مع ايتاليا ، تناول بالبحث النصاب الذى سيتم عليه صدور القرار من المؤتمر : هل يكون هو نصاب الثلثين أو هو نصاب الكثرة المطلقة ، الأربعة عشر صوتا فى الحالة الأولى ، والأحد عشر فى الحالة الثانية ؟ وكان مجلس وزراء الخارجية الأربعة قد قرر بالاجماع نصاب الثلثين ، ولكن جاء المؤتمر يعارض هذا النصاب بنصاب الكثرة المطلقة . وأحست روسيا أن هذا التيار الجديد ضدها ، وكانت تحسب أن معها سبعة أصوات غير صوتها فلا يمكن أن يعقد نصاب الثلثين إلا بواحد من هذه الأصوات المكونة للكتلة السوفيتية . وحمل مندوب أستراليا على نصاب الثلثين ، وبعد مناقشات اشتدت فيها التعبيرات وافق المؤتمر على اقتراح بالتوفيق بين الاتجاهين : « أن يعرض على مجلس وزراء الخارجية القرارات الصادرة من الثلثين والقرارات الصادرة من الكثرة المطلقة العادية لينظر فى نوعيهما معا . »

ولكن المناقشة التى جرت حول هذا الاجراء التمهيدى قد كشفت ما بين الجبهتين الانجلوسكسونية والسوفيتية من خلاف .

ولعل الناحية الانجلوسكسونية كانت قد بيتت هذا الموقف؛ لانها نصحت لمستر بيفن وزير خارجية بريتانيا العظمى ألا يحضر ذلك القسم الأول الذى سيناقش فيه المؤتمر فى هذا الاجراء. وقد شاءت انجلترا أن تضع الخلاف صارخا بين الدولة الأميريكية والاتحاد السوڤيتى، فناطح مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة مستر مولوتوف وزير الخارجية السوڤيتية، ودعت أستراليا نفسها لمناصرة أميريكا، ولم تتدخل انجلترا إلا عند الضرورة القصوى. ولو كان مستر بيفن حاضرا، وهو لا يمتلك أعصابه إذا وقف أمامه الرفيقان مولوتوف وفيشنسكى، لكان موقف انجلترا هو الذى يكون فى الصف الأول من المعارضة للاتحاد السوڤيتى. ويلوح أن السياسة الانجليزية العليا تريد أن تترك الولايات المتحدة تخاصم روسيا، وتتدخل انجلترا فى الوقت المناسب للتوفيق، وذلك للاستفادة من الجانبين.

وعلى أى حال فقد تجلى هذا الدور الاجرائى الأول عن تضامن الأسرة الأنجلوسكسونية فى الحظيرة الدولية.

القضية الفلسطينية

وقد عيز هذا التضامن فى القضية الفلسطينية على الرغم من خلاف على السطح ليس غير. فمنذ عرفت انجلترا خلال تصريحات صدرت من الحزبين الجمهورى والديموقراطى الأميريكيين أن اليهود شأنا عظيما فى الانتخابات الأميريكية حاولت استقلال هذه الظاهرة بدل أن تدعها تضغط على السياسة الانجليزية فى فلسطين. فوجهت بريتانيا العظمى اهتمام الولايات المتحدة إلى الاشتراك فى اللجان التى تؤلف للتحقيق وللتوصية بخصوص النظام الجديد فى فلسطين، وتركتها تعنى بالناحية الاقتصادية، استدراجا لها فى الناحية العسكرية، وهى تميل إلى جعل فلسطين، بعد أن داهمتها ملابسات مصر والعراق ومواقف سوريا ولبنان، منطقة استراتيجية لها فى الشرق الأدنى. وقد انتهت فى توصيات لجان الخبراء إلى تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق: يهودية وعربية، وقدسية، ونجفية. والمفهوم من اليهودية أنها تكون دولة يهودية فى الاتحاد الفلسطينى، ومن العربية أن تكون الدولة العربية فيه، والقدسية أن «تكون المركز الانتدابى» البريتانى، وأن تكون النجفية هى المنطقة الاستراتيجية، وستوضع فيها جميع الثكنات، وتوضع فيها جميع المطارات. وهى واقعة بين مصر وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية والعراق ذاته، وقريبة جداً من سوريا ولبنان. وستكون هى كذلك على مقربة من أنابيب البترول المخترقة شرق الاردن وفلسطين والتى ستعبر قريباً من الحجاز إلى البحر المتوسط، وإذن فأنابيب الانجليز وأنابيب الأميريكان، وأولئك وهؤلاء مشتركون فى أكثر من شركة استثمار آبار البترول فى هذا الشرق الأوسط، وأغلب الظن أن الرئيس روزفلت كان قد وعد الملك عبد العزيز آل سعود بعدم إدخال تغيير على نظام فلسطين قبل أن يستشير العرب. وها هى ذى اجتماعات بلودان فى أوائل هذا الصيف قد انتهت إلى أن طلبت الدول العربية الدخول فى مفاوضات مع انجلترا لهذا التغيير، فجاءتها الدعوة إلى هذه المفاوضات. وقد سبقتها تصريحات وزير بريتانى مسئول أمام مجلس العموم أنها ستقوم

على أساس تقسيم فلسطين . وسيذهب ممثلو العالم العربى إلى لندن قريباً للاستشارة consult بعد أن كان وارداً فى الكتاب الأبيض الرسمى الصادر من انجلترا فى سنة ١٩٣٩ أن التغيير لن يكون إلا بموافقة العرب consent . واغلب الظن أنهم لن يوافقوا على التقسيم .

ولكن قد تمت إجراءات استشارتهم ، وإذن فسيكون تغيير النظام الفلسطينى على قاعدة التقسيم التحالفى . وهذا الذى سيكون إنما هو بتضامن الانجليز والأمريكان فى الشرق الاوسط ، وهو جزء من تضامن الدولتين البادى فى مؤتمر الصلح .

إيران

وكذلك يمتد شىء من « الالتهاب » بين السكسونية والسوفيتية فى جنوب إيران . فقد قامت إضرابات فى معامل الزيت الانجليزية — أو الانجلوسكسونية — فى جنوب إيران . فرأت إنجلترا أن هذه الاضرابات تدخل فيها اعتبارات سياسية آتية من جانب أنصار روسيا فى إيران وهم حزب تودة الذى قام بما قام من أعمال فى أذربيجان الايرانية . فأرسلت مدرعات إلى الخليج الفارسى أوقفتها خارج المياه المحلية ، وبعثت بجنود هنود من الهند إلى البصرة ، وهددت بانزال هذه الجنود إلى الأراضى الايرانية ، وبعثت حكومة طهران إلى حكومة لندن بالاحتجاج .

ومسألة تلك المنطقة الموجودة فيها معامل الزيت الانجليزى كانت لها تطورات طريفة . ذلك أن تلك المنطقة كانت تابعة للدولة العلية ، وأهلها من العرب ، وكانوا تابعين من قبل لولاية من ولايات العراق ، وكانت إنجلترا تعرف أن فيها آبار زيت يمكن استثمارها ، وكانت تركيا ترفض إعطاء امتياز البحث عن آبار الزيت فى أقاليمها إلى أجانب ، فدارت المداورات الانجليزية بين الآستانة وطهران ، وجعلت بعض الانجليز يقيمون فى بعض المناطق الجنوبية والشمالية فى إيران . وعقدت اجتماعاً رباعياً بين إنجلترا وروسيا وإيران وتركيا ، وهى فى ذلك الوقت ، نحو سنة ١٩١٠ ، تتفاهم مع روسيا على تحديد مناطق النفوذ فى إيران فتترك لروسيا الشمال وتختص بالجنوب . وانتهى الاجتماع الرباعى إلى تعديل بعض التخوم بين الدولتين الايرانية والعثمانية ضمت بمقتضاه المنطقة القائمة فيها الآن آبار الزيت الانجليزى فى جنوب إيران إلى إيران بالذات . ونالت إنجلترا ، أو شركتها الانجليزية ، امتياز البترول فى تلك المنطقة الايرانية الجديدة ، وقام العمل فيها على أكتاف السكان العرب .

وتريد إنجلترا فى هذه الأيام أن تحفز العرب من أهل هذه المنطقة ، وهم سكانها الأصليون ، إلى أن يطالبوا بالالتحاق بالعراق ، أو على الأقل بالاستقلال الذاتى على غرار ما كان أهل أذربيجان يطالبون به من شهور ، وإذن تحظى هى وحدها بالانفراد فى إدارة المنطقة مباشرة وبواسطة العراق إذا شاءت . . . وهذه هى قصة جنوب إيران ونزول قوات هندية فى البصرة . . . وسنرى ما سيطرأ عليه من تطورات .

المضايق

ويلوح فى الأفق إشكال المضايق بين روسيا وتركيا ، بل بين روسيا وإنجلترا . وينظم أحوال المضايق من الجهة الدولية اتفاق مونترو الذى عقد فى سنة ١٩٣٦ لمدة خمس سنوات تجدد من تلقاء نفسها إذا لم تطلب غير ذلك إحدى الموقعات على هذا الاتفاق عليها قبل انتهاء فترة الخمس السنوات . وكانت هذه المسألة قد أثيرت بين اجتماعات من الأقطاب الثلاثة ، فتم التفاهم فى بوتسدام على أن كلا من الدول الثلاث العظمى تتقدم إلى تركيا بمذكرة خاصة بمطالبها . وقد تقدمت الثلاث الدول بمطالبها فى الموعد المحدد قبل انتهاء هذه الخمس السنوات الثانية منذ أيام . والمفهوم أن المذكرة الروسية راغبة فى أن يكون الاشراف على الملاحة بين البحرين المتوسط والأسود ، مقصوراً على الدول التى لها شواطئ على البحر الأسود ، وهى روسيا ورومانيا وبلغاريا وتركيا . وكذلك طالبت بمنحها قواعد بحرية وجوية وبرية على الدردنيل بمجموع مساحتها نحو ٩٠٠ فدان، وتخويلها حق إنشاء مطار ، مشترطة ألا يكون عدد القوات أو السفن الروسية فى تلك القواعد محدوداً ، على أن تؤيد روسيا فى مقابل ذلك استقلال تركيا ، وتضمن لها حقها فى الدفاع المشترك عن المضايق.

ومعنى هذا إبعاد انجلترا واليونان ويوجوسلافيا وفرنسا واليابان اللاتى هن موقعات على معاهدة مونترو .

ويغلب على الظن أن روسيا تتقدم بمثل هذه المقترحات التى تعرف أنها غير مقبولة من تركيا ، مقابل ما لانجلترا فى قناة السويس من مركز ممتاز فى حدود سنة ١٩٣٦ . وهى ستطالب بمقتضى تلك المقترحات بامتيازات فى مواضع أخرى من العالم ، ولا سيما فى البحر المتوسط بعد أن وقفت انجلترا وأميريكا موقف المعارضة من اقتراحها الخاص بطرابلس وبجزر الدوديكانيز .

محمود عزمى

شهرية الفن

تصاوير أطفال

ماذا علىّ إن قلت لك إنى أصبحت اقصد إلى معارض الفن فى مصر ، ولا سيما المعرض السنوى أيام الربيع ، وأنا كاره مكره . أما أنى مكره فلأنى لا بد لى ، من جهة المبدأ ، أن أتابع القرائح وأساير المنازع ؛ وأما أنى كاره فلأنى لا أجد فى تلك المعارض شيئاً يأخذنى أو ينبئنى بأن مصوراً نبغ وأن فناناً جمع لمحات لمخيلته وشق مسالك لريشته . وليس فى تلك المعارض ما يخرج عن المستوى السائد ، وهو مستوى متثاقل . أجل ! إنك لتصيب معرفة بأصول الرسم ، وبصراً ببسط الالوان ، ودقة فى محاكاة الواقع . ولكنك لا يهتز شعورك لمعنى دفين ، ولا يسرح خيالك مع رؤيا من الرؤى الشوارد ، ولا يدهش عقلك إزاء طريفة من طرائف الاسلوب . حتى المبرزون من المصورين — ولا يزيدون على أربعة أو خمسة — تراهم اليوم كأنهم ثابتون حيث ابتدأوا ، والثبوت فى الفن من هرب القريحة وجمود الشخصية .

إن صناعة التصوير عندنا فى أول نشأتها ، وليس لها تقليد ترجع إليه أو تعول عليه . ومن هنا ضعفها . وهنالك سبب آخر أبعد خطراً وأشد فعلا ، وإن لم يعالج شأنه ظل التصوير عندنا فاتراً او ساقطاً . وهذا السبب يتلخص فى طغيان « القواعد » على « القرائح » أى فى غلبة الأصول الموضوعة للرسم والتصوير على لطائف الاحساس ولوامع المخيلة تعقبهما وثبات الريشة على الورقة أو اللوح .

هـذا الطغيان وتلك الغلبة لم أجدهما فى معرض مستطرف حقاً ، هو معرض تلاميذ المدارس الأولية وتلميذاتها فى الاسكندرية وهو المعرض الأول من نوعه ، دام من اليوم العشرين إلى الثلاثين لشهر يونيه من هـذه السنة .

ساقنى إلى هـذا المعرض الصديق المصور البارع محمود بك سعيد ، ولولا اطمئنانى إلى ذوقه ما ذهبت ؛ فقد كانت نفسى تحدثنى أنى سأشاهد تطبيقات لـ « علم الرسم » فشدما دهشت حين تصفحت التصاوير وفرزتها ! ذهبت إلى المعرض مرة وثانية وثالثة لاستمتع بالطرافة والطراءة . فقد أصبت تمثيلات قد أفلتت من قيود الأصول المحكمة وتخييلات نجت من الأوضاع المضبوطة . وجدت نفسى بين يدى الغريزة الطافرة والخاطر المبتكر ؛ وإنما هـذا باعث الفن وتلك مادته (أنظر شكل ١ ، ٢ ، ٣) (١)

سيثور بعض القراء ، وبخاصة من له إقبال على التصوير أو به انعطاف إلى الفن ، فيقول : ألم تر إلى هذه الأخطاء البديهية فى التخطيط والتجسيم ! أو لم تفطن للجهل بمبادئ « المناظرة » ! ثم كيف أعجبتك هـذه الوسوسات والتعتهات extravagances وهذه التلفيقات والمتناكرات incohérences ؟ إنما أولئك صبية يعبثون ويمخرقون .

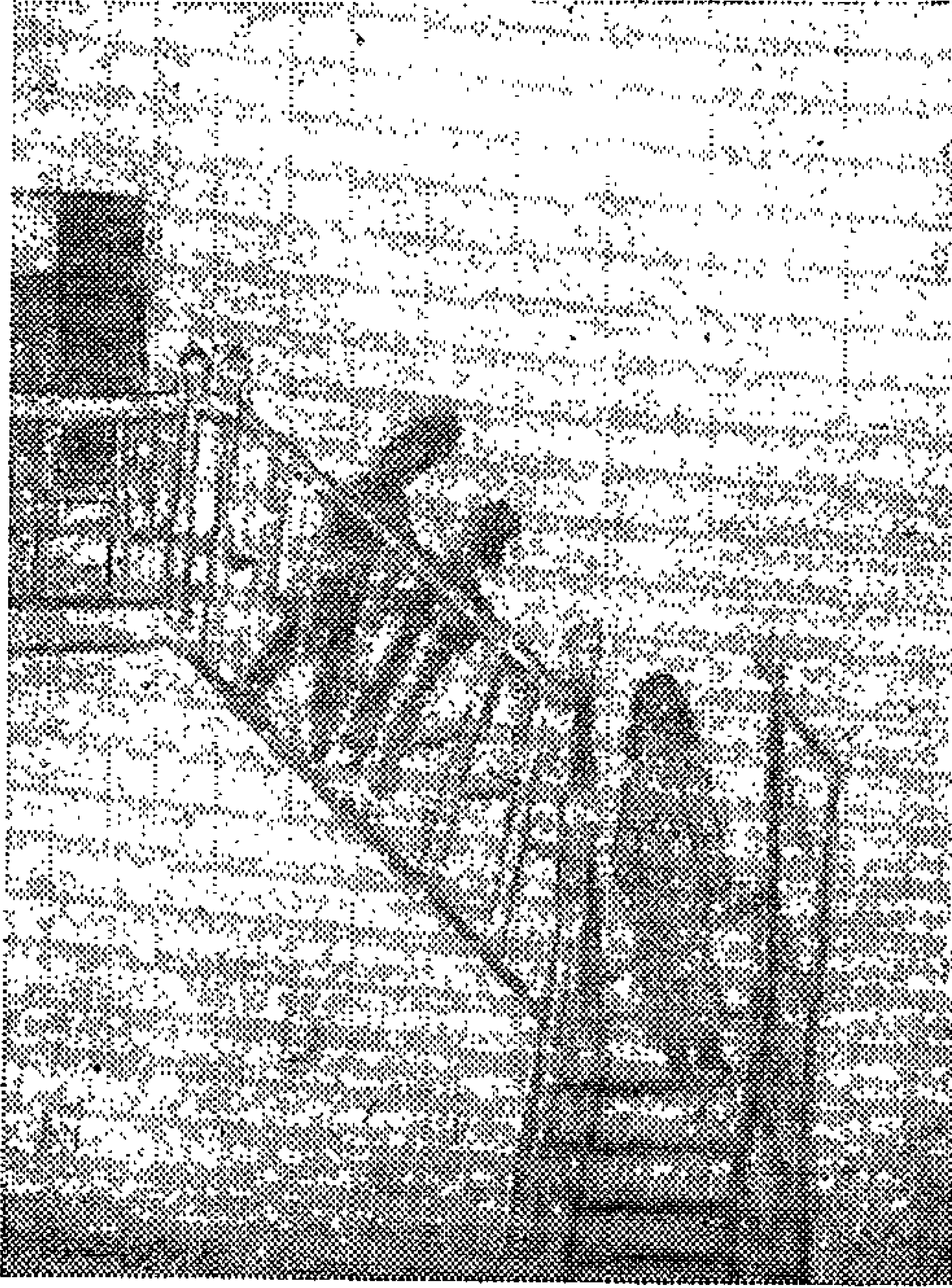
كلا ! ماهم بالعابثين ولا بالمخرقين . هم يرقمون على الورق ما يدور لهم من اللوائح

---

(١) صورها بالفوتوغرافية الاستاذ على رضا ، وقد اقتنى الصورة الثانية محمود بك سعيد ، والصورة الثالثة السيد زهار ، والصورة الأولى صاحب المقال .

والأفكار ، ولا تضييق من جهة الخط الذى يجب أن يكون مستويا ، والنقل الذى ينبغى له أن يكون أميناً ، والأسلوب الذى لا يقوم إلا إذا أحكم ، والصبغ الذى لا يحسن إلا إذا فنن . هم على بداهتهم وسذاجتهم primitifs . ومن هنا ظرافة تفكيرهم وطرافة تعبيرهم ، ومن هنا ، قبل كل شىء ، تلك الشخصية النقيــة التى كأنها تقفز من مطاوى الصورة . وهل ننسى أن من هذه الصــفات ما أنال التصاوير الاســلامية العربية شهرتها ؟ وهى التصاوير المنسوبة إلى مدرسة بغداد ، والتى بها تتحلى مخطوطات من مقامات الحريرى وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الأغانى وغيرها ، مبثوثة هنــا وهناك فى المتاحف والخزانات الوطنية .

هل أخبر المعترض أن أعلاما من التصوير الغربى الحديث جعلوا همهم الرجوع إلى البداهة والسذاجة ؟ حسبى أن أذكر ثلاثة لا يجهلهم أحــد ممن له اطلاع على مناحى التصــوير ؛ أذكر هنرى ماتيس Henri Matisse الفرنسى ، وراؤل دوفى Raoul Dufy الفرنسى ، ومارك شاجال Marc Chagall الروسى اليهودى : أما ماتيس (أنظر شكل ٤) فقد عدل عن التعاليم الجافة l'académisme وركض يبحث عن الفطرة يستردها حتى نجا مما هو متسق وبلغ ما هو بسيط ، فاستطاع أن يهمل الطوارئ والاضافات ليقبض على الجوهر الخفى والمعنى الخالص . وأما دوفى فنبذ المهارة إيثاراً لطريقة الجهلة بقواعد الرسم ، حتى إنه كان يخطط بيده اليسرى ، وكان لا يعبأ بمطابقة للواقع ؛ إذ كان يقول: « ما الطبيعة سوى افتراض » . وأما شاجال (أنظر شكل ٥) فهو المنطلق من الدنيا التى تضرب فى جنباتها إلى عالم موهوم كله رؤى فيها الغريب وفيها الشاذ ، لا يحبسها العقل فلا يدركها ، ولكن يتفهمها الاحساس الفياض .



شكل ١ : زيارة
فى معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية فى الاسكندرية (١٩٤٦)

هؤلاء الثلاثة وأمثالهم يلتقون بالأطفال على وجه العموم فى ميــدان البساطة الفطرية وإهمال الواقع والشرود مع الخاطر (وازن رقم ٢ برقم ٤ ورقم ٣ برقم ٥) .

بقى أن أقول كلمة فى مذهب هذه التصاوير ، فلتكن مختصرة حتى أعود إليها فى بحث طويل : لا أشك بعــد التأمل والتبصر أن هؤلاء الأطفال عمدوا من طريق الوراثة وبفضل البديهة إلى الأسلوب الشرقى فى التمثيل . وهذا الأسلوب نشأ منذ القرون المسيحية الأولى فى سورية والعراق وفلسطين ، ومنها امتد إلى آســيا الوسطى من جهة وإلى مصر من جهة أخرى حيث زحم المذهب الهلينى . وأول مظهر

لهذا الأسلوب تلك التصاوير التى كانت تعلو جدران الكنائس فى فلسطين والعراق وصحراء لوبيا ، ومثل التزاويق التى تضمها أناجيل ومزامير مخطوطة فى الديارات العراقية والشامية والمصرية . وقوام هذا الأسلوب — فى الجملة — التعبير القصصى narratif الذى يعنيه ما فى النفس من مجاهدات dramatique ثم التأليف الذى لا يبالى بالمطابقة والتشاكل assymétrique .

وبعد فلا يسعنا إلا أن نشكر للذين قاموا بهذا المعرض اللطيف تلك المتعة التى هيأوها لنا ، وأن نهنئ التلاميذ والتلميذات ونهنئ معلميهم . وإنى لأرجو من هؤلاء ألا يذهبوا بطراءة أولئك الصبية ، وألا يحدوا من قرائحهم ، ويبطئوا من خواطرهم ، وهم يلقنونهم الاصول والقواعد . بل يحسن بهم ان يتركوا للبديهة ، سواء كانت واعية أو غافية ، منافذها ومسالكها بل مقافزها ، حتى يخرج إلينا بعد حين أصحاب فن حى طريف مستمد من تقاليد بلدية . ولن نبالى إذن هل هو سار على نظام المرئيات موافق لتفاصيلها ، وهل هو محكم السبك متشاكل الأجزاء . فليس من هم الفن الصحيح محاكاة الواقع ولا تنسيق الحياة . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسق الحياة وكلها اضطراب ! وأما الواقع فمظهر يحف به الشك .

بشر فارس

ملاحظة

تجد الأشكال ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
فى الورقتين المصقولتين فى هذا العدد

شهرية المسرح

مسرحيات چان أنوى

لم يكن چان أنوى مجهولا قبل الحرب، ولكنه لم يكن يستمتع بالتقدير الذى تظهره له كثرة الشعب الفرنسى، كما أنه لم يكن يشغل المكانة الرفيعة التى يشغلها الآن بين كتاب الملعب الفرنسى. فما مصدر هذا الفوز الذى أتيح له الآن؟ مصدره أولا أنه شغل الفراغ الذى أحدثته وفاة چان چيرودو الذى يؤثر فيه أحيانا بظرفه وخفته وإن لم ينتسب هو فى صراحة إلى مذهبه. وثانياً لأن قصته الأخيرة « أنتيجون » قد جاءت فى الوقت الذى كانت فرنسا تخضع فيه لمحنتها القاسية إذ كان الصراع بين هذه الفتاة من أميرات تيبا وبين خالها الطاغية كريون مذكرا الباريسيين بما كان بينهم وبين العدو المحتل لمدينتهم من صراع اثناء ظفره المؤقت.

وقد عرضت فى أول الشتاء الماضى على الباريسيين قصتان مختلفتان لچان أنوى. فبينما كان ملعب لا تيلييه يدعو إلى شهود الحفلات الأخيرة لتمثيل « أنتيجون » كان ملعب كوميديا الشانزيليزيه يدعو إلى شهود تمثيل « النافرة » للمرة المتممة للثلثمائة. وكان المقرر أن يفتتح مؤتمر الصلح فى الخامس عشر من شهر يونيو الماضى فى باريس، فأعد الفرنسيون لهذه المناسبة ضروبا من الحفلات كان من بينها أن استأنف الملعب الصغير فى ميدان دنكور تمثيل مسرحية « أنتيجون ». وقد شهد أهل القاهرة هذه « المأساة » فى الفصل التمثيلى الأخير، عرضتها عليهم فرقة تمثيلية فرنسية فيما عرضت من المسرحيات التى تحدث عنها هذه المجلة (١). وليس من البعيد أن يشهد القاهريون فى الفصل المقبل ملهاة لچان أنوى، إن تحقق ما يقال من أن فرقة تمثيلية فرنسية ستزور مصر فى الشتاء.

وقد نشرت دار كالمان — ليڤى أخيراً القصص التمثيلية لچان أنوى فى مجلدين: جمع أحدهما « المسرحيات السوداء » وهى: « الهرمين » (١٩٣١)، و « النافرة » (١٩٣٤)، «والمسافر بغير متاع» (١٩٣٦) و « أوريديس » (١٩٤١)؛ وجمع ثانيهما « المسرحيات الوردية » وهى « مرقص السراق » (١٩٣١) التى يسميها الكاتب « ملهاة راقصة » و « موعد سان ليس » (١٩٣٧) و « وليوكاديا » (١٩٣٩).

فأنت ترى أن الكاتب قد عنى بالتمثيل منذ منذ وقت طويل وأنه كاتب خصب؛ فاننا إذ أضفنا إلى هذه القصص قصة « أنيتجون » كان إنتاجه قد منح الملاعب ثمانى قصص فى خمسة عشر عاما.

وقبل أن نعرض لدرس هذا الانتاج الضخم يحسن أن نلاحظ أن چان أنوى قد أتيحت له الممثلة البارعة التى تترجم عنه فى توفيق عظيم وهى مونيل ڤالنتان زوجه. وهى التى ابتكرت شخص أنتيجون ومثلت دور تيريز فى قصة « النافرة ». ونلاحظ أخيراً أن الكاتب يهيئ الآن ملهاة جديدة عنوانها « روميو وچانيت » وقد أعلن أن لا صلة بين هذه القصة وبين قصة شكسبير.

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٥ (فبراير ١٩٤٦) و ع د ٦ (مارس ١٩٤٦).

وستعرض هـذه القصة فى ملعب لاتيلييه حيث عرضت قصة « أنتيجون » وسيخرجها المخرج الشاب أندريه برساك تلميذ جاك كوبو.

وليس يكفى لتعليل ما أتيح لهذا الكاتب من نجاح ما قلناه من أنه ورث جيرودو فى نجاح متفاوت ، وأن « أنتيجون » قد ظفرت بفوز عظيم لأنهـا وافقت الواقع من حال الفرنسيين ، بل هناك علة ثالثة لهذا الفوز وهى توضح آثار الكاتب كلها توضيحاً كافيا. فسرحيات جان أنوى مرآة صادقة دقيقة للحياة اليومية كما يحياها ويشعر بها عدد ضخم من أوساط الفرنسيين المعاصرين ، أو بعبارة أدق كما كان الفرنسيون يحيونها منـذ عشر سنين . فقد غيرت الحرب من أطوار الفرنسيين شيئاً كثيراً ، فالأشخاص الذين يعرضهم علينا فى أكثر الاحيان من الطبقة المتواضعة ومن الذين يمارسون حرفا شاحبة منهم الموسيقيون الذين ينتقلون من مصيف إلى مصيف ؛ ومنهم الشبان الذين يتكلفون كثيراً من الجهد فى مغامرات غير ذات خطر ومنهم فى غير تحفظ « النشالون » الذين يجوبون الطرقات . وبراعة الكاتب تأتى من أنه يعرض هؤلاء الأشخاص على المسرح عرضاً حسناً ، ثم ينشئ الصلة بينهم وبين الطبقات التى مازال الناس يسمونها الطبقات العالية : فهنا دوقة شاذة تقدمت بها السن ، وهنا أمير شاب قد أيأسته الحياة ، وهنا أحيانا فتى من أبناء البيوتات الطيبة وإن كانت مثرية . وهى تحرص أشد الحرص على التقاليد والأوهام ، ومرة أخرى رجل خطير من رجال المال ، ومرة أخيرة رجل من رجال الفن الذين ظفروا بالثروة وعلو المكان . ينشئ الكاتب صلات بين هذه الطبقات المتباينة ، طبقات البائسين الذين لحوا النعمة من بعيد ، وقد كانوا أخذوا بطرف يسير من التعليم ، فهم يحسون بشاعة البؤس ويتجرعون مرارة الشقاء ، وهم يعلمون أن الفقر مذل للنفوس ، ولكنهم يجدون على ذلك شيئا من الكبرياء يأبى عليهم أن يخرجوا من أطوارهم هذه الوضيعة ، وطبقات أصحاب الترف المغرق فى القحة الذى يظهر كأنه طبيعى لاتكلف فيه والذى يحمله أصحابه كما يحملون أنوفهم وما يكسو رؤوسهم من الشعر ، ينشئ الكاتب صلات بين أولئك وهؤلاء ؛ ومن هذه الصلات يستخرج المأساة. فأولئك وهؤلاء قبل كل شئ يبذلون جهوداً مشتركة لالغاء المسافة بينهم بحيث يفهم بعضهم بعضا ويلبس بعضهم جلود بعض . ثم تأتى بعد ذلك الاستحالة الطبيعية التى تمنع من تحقيق هذه المحاولة وتبين لهم جميعاً أن ليس من سبيل إلى أن يتفاهموا ولا إلى أن يمحى مابينهم من الفروق . ومن هنا يأتى التشاؤم الأساسى فى هذا الفن الذى يلائم عصره الذى ينشأ فيه . وقد كتبت هذه المسرحيات أو أكثرها بين الحربين ، فصورت حياة جيل من الناس لم تقسم له السعادة . وجاءت أنوى يرى السعادة شيئاً مستحيلا بل شيئاً ليس من المصلحة ارتقابه حتى تصيح أبرع بطلاته فى قصة « النافرة » بهـذه الجملة : « إنكم لتؤذوننى جميعاً بسعادتكم هـذه التى تسرفون فى ترديدها . كأن ليس فى الأرض شئ آخر يبتغى غير السعادة . »

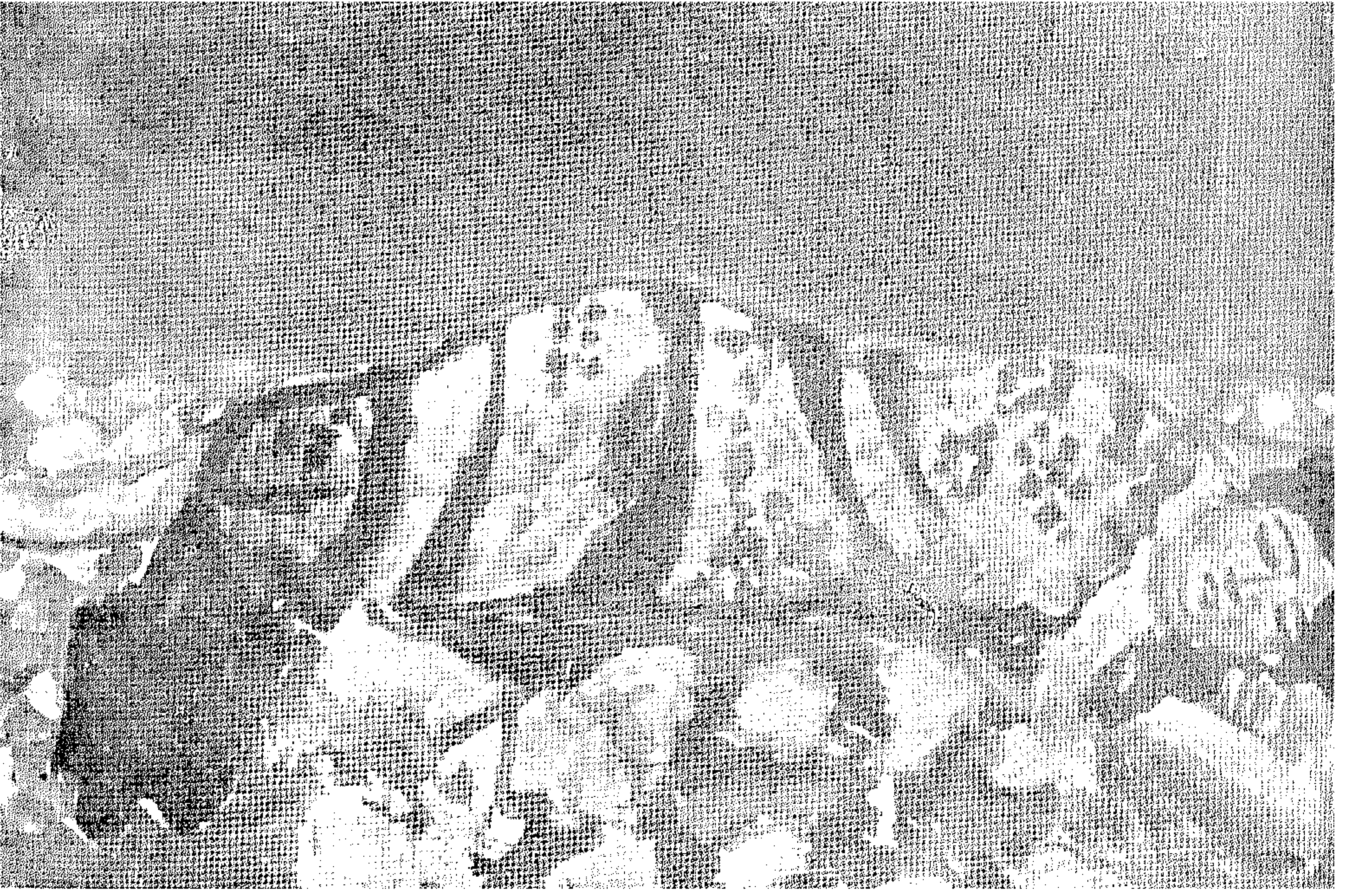
وهذا النوع من التشاؤم يتصل فى الوقت نفسه بالحياة الخلقية والاجتماعية ، وهو يزحم آثار الكاتب حتى يوشك ألا يترك فيها موضعا للشعر وجمال الفن . ومن أجل هـذا لا يكاد الناقد يظفر بشئ إن أراد أن يمتحن من قريب أسلوبه الكتابى أو مذهبه التمثيلى . فما أسرع مايلاحظ أن الأسلوب مهمل . فالكاتب لا يزيد أن ينقل إلى المسرح لغة الحديث اليومى من ألفاظ دارجه ، وجمل عامة ، وعبارات مألوفة متداولة . أما الفن الدقيق فلا وجود له . فللكاتب حظ من مهارة فى

شكل ٢ : من الحياة المنزلية من معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية فى الاسكندرية (١٩٤٦)

شكل ٣ : رقص من معرض تلاميذ وتلميذات المدارس الأولية فى الاسكندرية (١٩٤٦)



نظر مقال
بشر فارس
فى
نهرية الفن»
هـذا العدد



شكل ٤ : المرأة ذات الوشاح الأسود من ريشة هنرى ماتيس (١٩١٨)

شكل ٥ : الحظيرة من ريشة مارك شاجال (١٩٢٦)

الملاءمة بين فصول القصة . ليس في مسرحياته مناظر مختلفة وإنما ينهض الأشخاص بأدوارهم في اطراد منذ تبدأ القصة إلى أن تنتهى . وهو على ذلك لا يأتى بشئ جديد . وأداته للعرض بسيطة جداً فى أكثر الأحيان : غرفة استقبال فى قصر ريفى ، مقصف فى محطة من المحطات ، زاوية فى حديقة من الحدائق . لا تأنق ولا ابتكار فى الأزياء ولا فى الأضواء ولا فى زينة الممثلين . وليست العقدة فى مسرحياته عسيرة ولا مختلطة . ومن أجل هذا لا يجد المتفرج مشقة فى حلها قبل أن يرخى الستار .

فهذا الكاتب أقل تفوقا من چان چيرودو ومن چان كوكتو بحيث نستطيع أن نقول إن چان الثالث لم يستطع أن يرد الابتسامة إلى الملعب كما فعل الأول ولا أن يجدد للمسرح فن العرض والاخراج كما فعل الثانى ، وإنما أنتج آثاراً قيمة ستظل شاهدة بهذا العصر المضطرب الحزين الذى أخذت فرنسا تخرج منه فى هذه الأيام .

مؤنس طه حسين

شهرية السينما

انطباعات من السينما المصرية

أخذت صناعة السينما فى مصر أثناء السنتين الأخيرتين تتسع اتساعاً أدهش الذين يهتمون بشؤونها لعلمهم بأن وسائل تلك الصناعة محدودة جداً. فالاستوديوهات قليلة، والممثلون قليلون أيضاً، والمخرجون الفنيون شئ نادر فى مصر. ورغم هذه الصعوبات وجدنا الشركات السينمائية تظهر الواحدة تلو الأخرى: فكل ممثل فى مصر له شركته السينمائية وكل مخرج له أيضاً شركته الخاصة. وقد رأينا الأفلام تملأ دور العرض حتى فرضت الحكومة على أصحاب الدور الأجنبية أن يعرضوا الأفلام المصرية وقتاً منظماً معلوماً. وقد يكون هذا الاتساع دليلا على ازدهار صناعة الأفلام. وقد يكون دليلا على ازدهار فن التمثيل أيضاً. إلا أننا لاحظنا أنه لا يقوم على إتقان ولا على جودة، كما لاحظنا أن الدافع إلى تكوين الشركات لم يكن إعلاء شأن الفن التمثيلى، وإنما هو الاكتساب من هـذه التجارة المربحة. وقد نجم عن التنافس بين الشركات أن كثر إنتاج الأفلام كثرة لا تسمح للمؤلف ولا للمخرج ولا للممثل أن يتقن كل منهم فنه. فجاءت الروايات السينمائية ضعيفة قصة وإخراجاً وتمثيلا.

والمؤلف السينمائى فى مصر لا يفكر فى الابتكار والتجديد. وكيف يستطيع ذلك وهو يعلم أن الأدب الغربى غنى بالقصص، وأن الجمهور المصرى ليست له دراية تامة بهـذا الأدب. فاذا أغار المؤلف على قصة غربية فلن يدرى بهذا إلا القليلون. وقد يكون فى الاقتبـاس من الأدب الغـربى فائدة مزدوجة: فهو يلهى الجمهور ويثقفه، وهو يربح المؤلف ويثقفه أيضاً؛ ولكن إغارة مؤلفينا على القصص الغربية عدوان ينافى الحق والخلق أولا، ثم هو بعد ذلك يضر أكثر مما ينفع؛ لأنه يعطى الجمهور من الأدب الغربى صوراً مشوهة، وهو يشغل المؤلف عن إتقان فنه مع حاجته الشديدة إلى هذا الاتقان فالمؤلف يرى أن العبث بالفن والأدب ليس بشئ ذى خطر من جهة، وأنه — من جهة اخرى — أيسر من إجهاد العقل والخيال والقلم لانشاء قصة مبتكرة طريفة ترفع من شأنه ومن شأن فنه ومن شأن جمهوره. ولست أدرى إلى متى يدوم هذا العبث، ومتى يشعر هؤلاء المؤلفون بأن للفن والجمهور حقوقاً يجب أن تحترم وكرامة يجب أن ترعى. أليس من الحق عليهم أن ينظروا إلى السينما على أنها وسيلة إلى الترفيه ولكنها فى الوقت نفسه أداة للتثقيف وإصلاح الذوق؟ وسبيل ذلك ألا ينزل الفن إلى ذوق الجماهير، وإنما يرفع ذوق الجماهير إلى حيث هو أو يلقاه على الاقل فى منتصف الطريق. ألم يأن لمؤلفينـا أن يكفوا عن وضع أمثال هذه القصص: «ممنوع الحب»، «دموع الحب»، «الحب الاول»، «ليلى بنت مدارس»، «ليلى بنت الفقراء»، «ليلى بنت الريف»، «ليلى فى الظلام»، «الماضى المجهول»، «عودة القافلة» إلى غير ذلك من القصص الضعيفة التى ترمى إلى معالجة مشكلاتنا الاجتماعية فتخطئ السبيل إلى ذلك؟ فالمؤلف لا يترك للمشاهد أن يستنبط من الحوادث نفسها مغزى القصة، وإنما يلقى

عليه العظات بواسطة إحدى شخصياته . والعظات لا تجدى حينما تلقى فى شبه درس أو محاضرة فى الأخلاق ، وإنما تنفر منها النفوس ، وتضيق بها الأذهان .

وليس الحوار بأحسن حظاً من القصة . فالمشاهد يقاسى منه مثلما يقاسى منها . هذا إذا استثنينا الفيلم الوحيد الناجح فى هذا الموسم وهو « لعبة الست » للأستاذ نجيب الريحانى . أما الأفلام الأخرى فتجد فى المحادثات التى تدور بين شخصياتها من التكلف ما يسلمك إلى الملل . هذا عدا المواقف الكثيرة التى يبتعد فيها الحوار عن القصة نفسها ويسمعك المؤلف كثيراً من البديهيات التى يعتقد أنها فلسفية عميقة وهى أبعد ما تكون عن العمق والفلسفة .

ونصيب المخرج من الخطأ والتقصير يعادل نصيب المؤلف إن لم يزد عليه ، وخاصة إذا لاحظنا أنه يقوم بالمهمة الرئيسية فى الفيلم من اختيار الممثلين وإرشادهم إلى اختيار المناظر الخارجية والداخلية والاشراف على الاضاءة والتصوير . فهو يمثل حقا العنصر الأساسى فى إنتاج الفيلم ، ولكنه كزميله المؤلف يعبث بالجمهور وبالفن . فلا تجد الذوق فى اختيار الأثاث ولا تلمس التنسيق فى وضعه ، وإنما تزدحم الغرف بهذا الأثاث ، فتبدو كأنها أبهاء عرض أو قاعات مزاد . وهو يضع مثلا مكتب باشكاتب الدائرة فى بهو الفيلا الأنيق كما حدث فى « الماضى المجهول » مع أن فى هذا البهو نفسه من الأثاث ما يملأ ثلاث غرف . أما المناظر فالمخرج أحياناً لا يختار منها ما يلائم الموقف الذى يمثل . ففى فيلم « غرام الشيوخ » منظر فى فندق كان يجب أن يبدو أنيقاً جميلاً إذ أن نزلاء الفندق كانوا يرتدون ملابس السهرة لتناول العشاء . ولكن بدا المنظر زريا قبيحاً ؛ لأن الأستاذ محمد عبد الجواد مخرج الفيلم لم يختر ما يلائم الموقف الذى كان يصوره : من بهو أنيق فاخر أو درج من المرمر الأبيض أو ثريا من البلور البراق . . . إلى أمثال هذه الأشياء التى تضفى على المنظر لوناً من الأناقة والجمال .

وقد ينصرف المخرج أحياناً عن العناية بتفاصيل دقيقة قلما يلحظها المشاهد ، ولكن لها قيمتها الفنية . ففى « غرام الشيوخ » مثلا ترى فتاة تعمل راقصة فى حانة وطنية ، وهى فتاة لا تجد نقوداً تشترى بها دواء لأمها المريضة ومع ذلك كانت تلبس أساور من الذهب الوهاج . وفى « عودة القافلة » يستخدم المخرج مصباحاً كهربائياً متواضعاً فى منظرين مختلفين : أولا فى حجرة مدير شركة تأمينات وثانياً على مكتب محام ثرى . ويتمادى الاهمال من المتاع إلى ملابس الممثلين . ففى « عودة القافلة » فتاة ترتدى اللباس الخاص بركوب الخيل مع أن هذا اللباس لا يلائم ممثلة الدور مطلقاً . وحسبنا أن نذكر أنه أظهر ما هى عليه من بدانة لا تؤهلها لتمثيل مثل هذه الأدوار . وهذه الهفوات إن دلت على شئ ، فانما تدل على أن المخرج المصرى لم يتقن إلى الآن المهمة التى تقع على عاتقه عند ما يقوم باخراج فيلم سينمائى .

وثمة ظاهرة عجيبة فى الأفلام المصرية لم نرها فى الأفلام الأمريكية أو الأوربية ، وهى أنه لا يكاد يوجد فيلم مصرى يخلو من الرقص والغناء . فكأن الفتاة المصرية — مهما كانت طبقتها الاجتماعية — لا هم لها إلا أن ترقص فتسرف فى الرقص ، وإلا أن تغنى فتسرف فى الغناء ؛ فهى تغنى فى حجرتها ، وهى تغنى فى الحفلات العامة ، وهى تغنى فى الشارع إن شئت . وقد تكون هذه المناظر مما يناسب سياق الفيلم ويلائم حوادثه ولكننا نجدها فى كثير من الأفلام قلقة الموضع ، نابية الموقع . وذلك مثل ما حدث فى « عودة القافلة » حيث يقدم لنا المخرج

مرتين منظرا راقصاً لا شأن له بحوادث القصة ولا مكان له فى سياقها . إننا لا نريد إقحام الغناء والرقص فى أفلامنا المصرية على هذا النحو الشائع ، ولكننا نريد أن تخصص لها أفلام غنائية راقصة على نحو ما تفعل الشركات السينمائية فى أوربا وأمريكا .

أما الممثلون الذين يعملون فى الأفلام المصرية فهم يمثلون ثلاث طوائف لا ارتباط بينها . فمن الطائفة الأولى المطربون الذين لا عهد لهم بالتمثيل ولا دراية لهم به ، ولكن المخرجين يؤثرون أن يستغلوا شهرتهم فى الغناء ليروجوا بذلك أفلامهم . ومن المحقق أن اشتراك مطرب مثل الأستاذ محمد عبد الوهاب أو مطربة مثل الآنسة أم كلثوم فى فيلم من الأفلام كفيل لهذا الفيلم بالنجاح . ولكن هل يكفل له ذلك النجاح الفنى ؟ كلا ؛ لأن هذين المطربين ليس لهما من المواهب الفنية الطبيعية ما يساعدهما على إتقان فن التمثيل وإن كانا قد اشتركا فى أفلام عدة .

ومن الطائفة الثانية الممثلون الذين مارسوا التمثيل المسرحى سنوات طويلة ، ثم آثروا السينما على المسرح لأسباب بعضها فنى ، وكثير منها مادى . وبعض هؤلاء لم يفرق بين التمثيل المسرحى والتمثيل السينمائى فجعل يمثل فى السينما على النحو الذى يمثل به على المسرح ، وبين التمثيلين فرق فى طريقة الأداء ؛ وبعضهم فطن إلى ذلك ، فنجح فى السينما كما نجح فى المسرح ؛ ومن هؤلاء نذكر نجيب الريحانى ، وبشاره واكيم ، وإن كان الأول لم يمثل إلا أفلاماً قليلة نالت من الاعجاب ما تناله مسرحياته التى يمثل فيها بنجاح منقطع النظير .

وأما الطائفة الثالثة فمنها « الوجوه الجديدة » . واختيار هذه الوجوه لم يتم على الطريقة المثلى ، والنهج الصحيح ؛ لأن المخرجين آثروا فى اختيارهم وسامة الطلعة ، وأناقة المظهر على المواهب الذاتية ، وهى غير قليلة فى مصر . ولو تم الاختيار على هذا الأساس لظفرت السينما فى مصر بكثير من ذوى المواهب التى ترفع من شأن الفن السينمائى .

ومهما يكن من شئ ، فان السينما المصرية قد خطت إلى الأمام بعض الخطوات ، بفضل مجهودات فريق من المشتغلين بها ، وإن لم تكن هذه المجهودات موفقة كل التوفيق . ومن المؤكد أن السينما المصرية لو وجدت النقد النزيه الموجه الصالح ، لظفرت من الاتقان والنجاح بما لم يظفر به المسرح حتى الآن ؛ لأن العزم متوافر فى هذا المضمار ، ولأن مجال عرض الأفلام المصرية متسع جداً ، وخاصة فى الأقطار الشرقية . فليس على المشتغلين بالسينما إلا أن يراعوا الدقة فى اختيار القصة التى تصلح للتمثيل وأن يعولوا فى ذلك على النجاح الفنى أكثر مما يعولون على الكسب المادى ؛ وأن يعهدوا بالاخراج والتمثيل إلى ذوى المواهب والكفاءات من المخرجين والممثلين ، وأن يسندوا كل شأن من شئون السينما مهما صغر إلى من يجيده ويتقنه .

وما دامت مصر تزعم أنها تتبوأ المكانة الأولى بين البلاد العربية فى نواحى الثقافة والفن ، فليس من الخير أن نعرض باهمالنا سمعتنا الفنية للنقد والتجريح . ولنذكر دائماً أن علينا واجباً هو أن نحافظ على مكانتنا الرفيعة مهما كلفنا ذلك من بذل وتضحية .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة

للشيخ نجم الدين الغزى

إن كتب « الرجال » مما تفخر به الخزانة العربية. وليس هاهنا موضع سرد لأمهات تلك الكتب. والحق أن المئة العاشرة لم تكن تظفر من الكتب المطبوعة بسفر خاص بها جامع لرجالها، فليس « النور السافر عن أخبار القرن العاشر » لعبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي، المطبوع في بغداد سنة ١٩٣٤ بالكتاب المستوعب، وليس الجزء الثامن من « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » المطبوع في مصر سنة ١٩٣٢ لابن العماد بالمرجع الأوفى. إن القرن العاشر لم تزل به حاجة إلى سفر مثل كتاب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوي، أو « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي، وكلا الكتابين مطبوع في مصر.

واليوم يخرج الأستاذ جبرائيل سليمان جبور — أحد أساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الأميركية — كتاب « الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة » لصاحبه نجم الدين الغزى. ولد سنة ٩٧٧، ومات سنة ١٠٦١، وقد اشتغل بالتدريس والتأليف.

والكتاب في ثلاثة أجزاء. ظهر منه الجزء الأول في مختتم السنة الماضية، وهو يدور على تراجم الأعيان المتوفين من مستهل سنة ٩٠١ إلى آخر سنة ٩٣٣، وسيتلوه الآخران إن شاء الله. وفي الجزء الثالث ستطبع الفهارس والمسارد على أصنافها.

وقد اعتمد ناشر الكتاب نسختين، إحداهما في بيروت والأخرى في دمشق. وهنالك نسخة ثالثة في الجامع الأزهر بمصر لم يتمكن الأستاذ الناشر من الرجوع إليها. وهذا الجزء خارج خروجاً حسناً من جهة الدقة العلمية. ولسنا إلى النظر في ذلك نقصد بهذه الكلمة، ولكن نحب أن نخبر القارئ بما في سطور الكتاب فيطلع على مجرى الحياة في ذلك العصر.

إن المترجمين في هذا الجزء يغلب عليهم أمران: الأول الاشتغال بدراسة الفقه، والثاني الانقطاع إلى العبادة. والفقهاء بين مدرسين ومؤلفين للحواشي والتعليقات، والأولياء بين متصوفة و « مجذوبين » و « مكاشفين ». ولهؤلاء غرائب كرامات وخوارق مواجدات. والمؤلف يرويها مطمئناً إليها داعماً لها. من ذلك ما كان يحدث من جانب محمد الضيروطي (ص ٨٤ و ٨٥) « كان يتطور ويختفي عن العيون وربما كان يتكلم مع جماعة فيختفي عنهم وربما كانوا وحدهم فوجدوه بينهم وأشار مرة إلى سفينة فيها لصوص فتسمرت ثم أشار إليها فانطلقت. وله من المؤلفات شرح المنهاج للنووي وكتاب القاموس في الفقه وغير ذلك. » ومن ذلك أيضاً « سويدان المجذوب » (ص ٢١٣) « وكان من أولياء الله تعالى . . . وكان يتطور، فربما وجد في صورة سبع وفيل وفي صورة فقير وأمير، وكانوا يرونه مرة بمكة ومرة بمصر. »

والكتاب مشحون بأخبار هؤلاء الصالحين المتعبدين المستغرقين . ومن فوائده أيضاً أنه يبذل لنا صورة من أسلوب الانشاء فى ذلك العصر ، وهو فى الجملة ركيك قد داخلته ألفاظ عامية وأعجمية . وفى الكتاب إلى جنب هذا موضوعات تمس الحياة الاجتماعية ، من ذلك تعاطى بعضهم « الحشيش والكيف » (ص ٣٠٦) ومنشأ شرب القهوة على يد أبى بكر الشاذلى العيدروسى وما صار إليه العلماء من اختلافات فى ذلك (ص ١١٤) ثم أحوال المتصوفة والمتجردين ، وهى مبثوثة فى مطاوى الكتاب . وإلى جانب ذلك كله فوائد تاريخية مثل قصة أحمد باشا الطاغية فى مصر (ص ١٥٦ — ١٥٩) .

وبعد ، فالرأى أن ميزة هذا الكتاب فى تصويره لجانب من الحياة العقلية والاجتماعية فى عصره ، لا فى سرده لرجال ليسوا فى مقام الأولين من الرجال .

بشر فارس

نزهة النفوس ومضحك العبوس (١)

عرضنا فى مقال سابق لهذا الديوان النفيس ، وتحدثنا عما فيه من شعر هزلى يذهب مذهب الدعابة والفكاهة . ولكنا لم نتحدث عن جانب آخر فى هذا الديوان ، وهو جانب هزلى أيضاً ، غير أن ابن سودون لم يكتبه شعراً ، بل كتبه نثراً ؛ فقد عقد فى ديوانه للنثر بابين : أما أولهما فباب الحكايات الملافيق ، وأما الثانى فباب التحف العجيبة والطرف الغريبة . والبابان جميعاً كتبا باللغة المصرية الدارجة ، وهما من هذه الناحية لهما أهمية خاصة ؛ فان من يقرؤهما لا يحس بوناً بعيداً بين لغتنا الدارجة الحديثة ولغة ابن سودون فى القرن التاسع الهجرى . ولسنا بصدد الحديث عن هذه الناحية ، فهى لا تهمنا الآن ، إنما يهمنا أن نستعرض الأدوار المضحكة التى مثلها صاحبنا فى ديوانه ، وهى أدوار تقوم على المجون والهزل ، مستمداً ذلك من المفارقات المنطقية ، وهى مفارقات تعتمد قبل كل شىء على فنون من التباله وإظهار الغفلة ، فما نلبث حين نلم بالديوان أن نضحك ، ونغرب فى الضحك ؛ لأن ابن سودون يحسن كيف يتغابى ، وهو غباء ينتهى بنا إلى إهمال عقولنا ، فنضحك لا سخرية ولا استخفافاً ، ولا كما يقول بعض الأوربيين عقوبة له لأنه خالف منطقنا ، وأصبحنا نحس كأنه آلة جامدة ، بل لعلنا نضحك ؛ لأننا نريد أن نكافئه إذ استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا . ومن منا يذهب إلى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ؟ إننا نذهب لنسر ولنتمتع حقبة من الزمن بالانتقال قليلا من عالمنا إلى عالمه الذى تنعدم فيه — إلى حد ما — قيمنا المنطقية ؛ لتحل محلها قيم أخرى لا تستمد من منطقنا المألوف ، وإنما تستمد من منطق آخر ، إن صح هذا التعبير ، وهو منطق يقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من أعلى الشواهق ، وقدا تتكسب ، فأصبح أسفلها أعلاها فلا اتساق ولا انتظام ، وإنما تشويش واضطراب . واستمع إلى هذه النادرة التى يرويها ابن سودون فى باب الحكايات الملافيق :

(١) الكاتب المصرى عدد ١٠ (يوليو ١٩٤٦) .

« قال ابن غيدشة الزلابياني : كنت — وأنا صغير — بليداً لا أصيب في مقال ، ولا أفهم ما يقال ، فلما نزل بي المشيب زوجتني أمي بامرأة كانت أبعد مني ذهنا ، إلا أنها أكبر مني سناً ، وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست مني طعاماً حاراً ، فتناولت الصحفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ المكبة (غطاء الصحفة) ونسيت الصحفة ، فلما كنت في السوق تذكرت ذلك ، فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة ، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الاخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس ، فقلت : لا أشترى لها في هذه الليلة شيئاً ، ودعها تموت جوعاً ، ثم رجعت إليها ، وإذا هي تئن وإذا ولدها يستغيث جوعاً ، فتفكرت كيف أربيه وتحيرت في ذلك ، ثم خطر ببالي أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتي ويقذفه في فم ابنه ، وتكون حياته بذلك ، فقلت : لا والله : لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدى يذوق كاس الحمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته في فمي ، و نفخته في فمه فرادى وأزواجا ، أفواجاً أفواجاً ، حتى امتلأ جوفه ، وصار فمه لا يسع شيئاً ، وصار يتناثر من أشداقه ، فسررت بذلك وقلت لعله قد استراح ، ثم نظرت إليه ، وإذا به هو قد مات ، فحسدته على ذلك ، وقلت يا بنى : أما إنه قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ، لأنها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع ، وتركتهما ميتين ، ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط ، ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا . »

أرأيت كيف يستخرج ابن سودون منا الضحك بفكاهته ، وما يتقن وصفه من بلاهة صاحبه الزلابياني وغفلته . وانظر إليه كيف جعله ينسى المكبة ويأخذ الصحفة ، ثم ما زال بعد ذلك كلما أخذ واحدة منهما نسي الأخرى في تباله غريب ، وإنه لتباله يدفعنا إلى أن ننسى منطقنا ، فاذا بنا نضحك لأننا استرحنا قليلا من هذا المنطق الذى يتعبنا في حياتنا ، وأخذنا نضرب مع ابن سودون في عالمه الجديد.
أتظن أننا بضحكنا نحتقره أو نزرى عليه ، أو نحس برغبة في انتقام منه ، أو أننا نريد — كما يقول بعض النفسيين — أن نعاقبه فضحكنا تنفيس أو تعبير عن ذلك ؟ إن هذا في الواقع يعد في الخيال والتصور . ومالنا ولهذه المعاني السيئة ؟ لقد كنا نستطيع أن نؤمن بذلك لو أننا نحس بشيء من الموجدة على ابن سودون ، ولكنا لانحس بذلك ، بل نحس إزاءه بعطف ، بل بشيء من المودة ، فاننا نتمنى أن لو كان معنا الآن لنرى كيف يستغل حاضرنا في دعاباته وفكاهاته .
وانظر إلى ما يخلعه على الزلابياني من تباله ، إذ جعله يطعم وليده الجوز واللوز حتى قضى عليه قائلا إنه مات شبعاً في حين ماتت أمه جوعاً . ثم يذهب به لإحضار كفنين لهما جميعاً ! ولكن صاحبه سرعان ما ينسى البيت ، وتخونه ذاكرته فيفقد كل دليل يدل عليه . وكل ذلك يضحكنا لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون كما يزعم بعض النفسيين ، ولا لأننا نريد أن نكافئه كما نزعم نحن ، ولكن لأن مثل هـذا الحديث يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بانبساط ومن ثم نشعر بسرور فنضحك. وليس كل عدم اتزان يفضي إلى ضحك ، فاننا نألم أيضاً حين تصادفنا حادثة لنفس السبب إذ نفقد اتزاننا . وإذن ففقدان الاتزان يؤدى إما إلى ضحك وإما إلى بكاء . ومصدر هـذا التناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسى نألم ونحزن وقد نبكى ، وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانبساط النفسى نسر ونفرح وقد نضحك .
ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع

لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ، لا مسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن ينزل عقاباً أو ثواباً بالأشخاص الفكهين . ونحن لا نريد أن نفسد فكاهة ابن سودون بمثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى أدواره الهزلية ، ولنترك علماء النفس يفلسفون الضحك كما يريدون .

والحق أن ابن سودون كان جعبة فكاهة ، فأينما قلبت طرلك اندفعت تضحك ضحكا عاليا ، ونحن نسوق للقارئ إحدى نوادره في باب التحف العجيبة والطرف الغريبة ، وهى كتاب كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبيه فى مصر وهو يمضى على هذا النحو :

« قال هوتقة بن بطاطة بن كجيج : أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتاباً من الصعيد يقول فى عنوانه : يصل — إن شاء الله تعالى — إلى دربنا المحروس الذى ضبتو سنط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة الوالد ، وفى داخله السلام عليكم عدد ما فى نخيل البلد من أوراق ، وعدد أمواج البحر إن تكدر أو راق ، سلام كثير لا يسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاث أطواق ، من كل بدو سبب . . . والذى أعرفكم به إن كنتو لسع بالحيا أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على جوز وز فقس الصيف من ديك الوزة ، وأيضاً خروف أبلق وخروف بلا بلاق ، ويا سبحان الله ! تبقوا تتكلموا جزاف : أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل ، وقلتوا لنا على طوله ، وما قلتوا على عرضه ! وارسلتم تطلبوا كشك ، وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وإن طبخته ما يوصل لكم حتى يبرد . . . وطلبتوا قلالات والفلاحين ما زرعوا إلا قرع طويل ، فيكون ذلك فى خاطركم . من حقه بلغنى أن امرأتى حبلة ، فلا تخلوها تولد حتى أجى ، وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبى . . .

وجرت لى حكاية ، وذلك أنى غسلت قميصى ونشرته فى السطوح ، فقام بالأمر المقدور . ضربه الهوا ، فوقع من فوق لتحت ، وارتجفت بسلامتى رجفة . . . وعرفت أن ما هى بشارة خير ، وأنها تدل على موت أمى وأبويه والحمد لله كانوا فدايه ! وأنى صليت وصمت لله تعالى إللى ما كنت فى قميصى ، ولو كنت فيه كنت انكسرت ، فقلت : حوالينا ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى اللى تبقى ناحية المشد وقت أخرج من دارنا . والذى نعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يوم البستان أنا والخولى فرأيت فيه نخل شى طويل ، وشى قصير ، وشى ما يشبه شى ، فقلت له دى إيه قال بلح ، قلت ودى قال نبق ، قلت ودى قال جميز ، قلت ودى قال مشمش ، قلت ودى قال توت ، ورأيت يا أبويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصحفة ، فقلت له ودى إيه فقال لى موز ، فعجبنى قوى ، وقلت له الموز يطلع فى البستان ، فقال لى أيوه ، فقلت له والجبن المقلى يطلع فين ، قال : يطلع فى طاجن الجبان . وانت تعرف إن بيتنا على دكان الجبان ، وأنا كل يوم أجى وأطل من الطاقة وعمرى ما رأيت فى الدكان نخيل جبن مقلى ، وكابرت الخولى وراهنتو من دجاجتى الرقادة لنعجتو الحبلة ، فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى . والذى أعرفكم به كان أنى لما طلعت البلد ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة ، واشتريت لى حمارة سودة حتى لا تتوسخ . وبس كلام ، فانى لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين . بعد السلام على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كتير كتير ، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه ، وبالأمارة مطرت المطرة ، وأهل البلد كلهم يعرفوا ، إن شاء الله . »

وواضح أن ابن سودون كتب هـذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره ، وهي لا تختلف كثيراً عن لغتنا الدارجة الآن . وقد جاء فيه بلازمة معروفة لأهل الصعيد إذ أبدل الهاء في لسنه « عينا » فقال لسع ، وأيضا فنحن نجد فيه بعض لوازم أهل الشام كلمة « من هون » . وكأنما كان المصريون في عصر ابن سودون مثلنا الآن يضحكون من بعض اللوازم في لهجة إخواننا أهل الشام ، ومن أجل ذلك يستظهر ابن سودون هـذه اللوازم في بعض هزله . ولكن ليس هـذا هو ما يضحكنا في ديوان ابن سودون ولا في هذا الكتاب الذي أرسله فنين إلى أبيه ، إنما يضحكنا ما يعمد إليه من تباله ، وها هوذا يحاول بكل ما يستطيع أن يجعل صاحبه مثلا أعلى للبله والمغفلين ؛ فقد بدأ كتابه بهذا العنوان : « يصل — إن شاء الله — إلى دربنا المحروس الذي ضبتو سنط ولقية » ؛ وهذا هو كل ما استطاع فنين أن يجعله عنواناً لكتابه ، فقد عرف بالدرب الذي أرسله إليه ، وهو درب ضبة بابه سنط ولقية ، ونستمر في قراءة الخطاب ، فاذا هو يستشكل على أبيه ، إذ أرسل يطلب منه حبل غسيل ، وقد اكتفى بأن يذكر له طوله ، ولم يذكر له عرضه ! وكذلك أرسل في طلب كشك ، ولم يقل له كيف يرسله ، وهل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ ، وأيضاً فانه سأله بعض قلل ، وكأنه لا يعرف أن الفلاحين لا يزرعون قللا ، وإنما يزرعون قرعاً طويلا . وهذه كلها استشكالات تفسر تفسيراً واضحاً عقل فنين وما يسمه من بله وغفلة ، وهو يمضي على هـذا المنوال فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه ، وإنه ليسترسل في غفلته فاذا هو يتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه ! ويستمر فيذكر أنه ارتجف بسبب حادثة ثوبه رجفة رمدت بسببها عينه ، ويريد أن يقول اليمنى أو اليسرى فلا يسعفه بلهه ، فيقول إنها العين التي تكون بإزاء ناحية المشد حين خروجه من بيته ، ولا نصل إلى هـذا الموضع من الكتاب حتى تستهوينا هـذه الغفلة في فنين فنتابعه وإذا هو يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجاراً من أنواع شتى ، وقد ذهل حين رأى هذه الأنواع وأداه ذهوله أن يسأل الخولي أين يطلع الجبن المقلي ، كأنه تصور الجبن المقلي فاكهة مثل المشمش والموز . وسرعان ماعرف الخولي فيه هذا الذهول ، بل قل هذه الغفلة وذلك البله فتندر عليه قائلا : إن الجبن المقلي يطلع في دكان الجبان ، وذهب فنين ينظر في طاقة تطل على دكان الجبان ليرى تخيـل الجبن الذي حدثه به الخولي ، فلم يجد شـيئاً فذهب براهنه من دجاجته لنعجته . وإن ابن سودون ليستمر فاذا صاحبه يذهب إلى السوق فيجد الصابون مرتفعاً سعره ، حينئذ تسول له بلاهته أن يبيع فرسه ويشتري مكانها أتانا سوداء حتى لا تتسخ . وأخيراً يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش ؛ إذ يؤرخه بيوم عاشوراء السابع والثلاثين من جمادى الاوسط . فانظر إلى هذا الخلط في التاريخ ، وكل ذلك أراد به ابن سودون أن يصور تصويراً دقيقاً حال بعض أهل الريف في عصره ، وما هم عليه من غفلة ، فاختار فنيناً هـذا ليبلغ من هزله كل ما يريد . وكما يتندر ابن سودون على أصحاب الريف من أهل الصعيد في عهده نجده كذلك يتندر على الفقهاء وغيرهم من علماء عصره الذين كانوا يعنون بالمناقشات اللفظية وما يتصل بها من كثرة اعتراضاتهم وبيانهم لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع ، وإنهم ليبالغون في ذلك حتى ليصلون بين أشـياء متباعدة لا تخطر على بال أحد . وقد ذهب ابن سودون يتفكه ويتندر على هذا الصنيع في كثير من جوانب طرفه وتحفه ، فتارة يأتي بمثل نحو قول العامة : أبو قردان زرع فدان ملوخيا

وباذنجان ، ويشرحه شرحاً مفصلا على طريقة علماء اللغة ، فهو يتكلم عن ألفاظه ويخرجها من الوجهة الاشتقاقيــة تخريجاً كله هزل ودعابة ، وتارة اخرى نراه يقف ليوجه مسألة دقيقة ، ونحن نذكر مثالا لذلك هو حديثه عن الفرق بين المركب والفرس لينجلى لك هذا الجانب المضحك فى ديوانه :

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فرائق من كم وسن ، الفرق الأول أن المركب أثقل من الفرس بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ولو حملوا المركب على فرس ما قدرت الفرس تحملها ... الفرق الثانى أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لا يصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضا فان المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ما خطر له بخلاف الفرس . وأيضا فان المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر فظهر الفرس ما هى كده . وأيضا فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب ، فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها ، وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هى كده . الفرق الرابع أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون ، والمركب ما هى كده . ولا يرد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوايم ، ولا يندار ؛ لأن الكلام فيما يركب ، والسرير وإن كان يركب ، إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس أن بطن المركب معوقة فى الميه وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الافراق . »

وهذه الفكاهة لا تجد صداها فى نفس القارئ إلا إذا كان قد اطلع على حذلقة أصحاب الشروح والحواشى وعرف اعتراضاتهم وكثرة ما يورده المحشى على الشارح !

وما نظن أحدا بلغ من التندر على علماء العصور الوسطى وانشغالهم بالمناقشات اللفظية ما بلغه ابن سودون ، فقد ذهب يحاكيهم فى بعض حكاياته الفكاهية ينقل طرقهم ومصطلحاتهم ، وقد هيأ له ذلك أنه كان إماما ببعض المساجد وكان على حظ واسع من علوم القوم وفنونهم . وانظر إليه وقد استفتاه بعضهم عن الدجاجة هل هى من البيضة أو البيضة من الدجاجة ، فأفتاه على هذا النحو الذى نرويه برمته عنه إذ قال :

« لا نقل عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولا ثم باضت وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوتة المشهورة ، وهى أحدتك حدوتة ، بالزيت ملتوتة ، كان ما كان ، فى قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا نانا ، والنانا فى التنور ، والتنور يريدلو حطب ، والحطب فى الجبل ، والجبل يريدلو فاس ، والفاس عند الحداد ، والحــداد يريدلو بيضة ، والبيضة فى الدجاجة ، والدجاجة تريد لها لقط ، واللقط فى الحظيرة ، والحظيرة تريد لهــا مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايجى من الساعة لشق الصباح . فقال والبيضة فى الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة فى البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة بل الوزة كذلك أيضا . وإنما كتبت الحكاية هنا لعزتها . »

وواضح أنه يستخدم مصطلحات الفقهاء فى فتاواهم من مثل لا نقل عندى فى هذه المسالة ، والأمران محتملان ، والاظهر ، ولا يختص . وقد ذكر الاصطلاح المشهور فى لغتنا الدارجة عن من يحكون الحكايات إذ قال : أحدتك حدوتة بالزيت ملتوتة ، وقال أيضا : كان ما كان فى قديم الزمان .

أما الحكاية نفسها فلها صور كثيرة تشبهها في عاميتنا الحديثة . وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون في عصره كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين . ولم ينس أن يلهج بحديث لأحدب بغدادي حكى فيه لغته ولهجته في صورة هزلية بديعة ، وكذلك تمثل بشعر على طريقة بعض الأعاجم الذين كانوا يزورون مصر في العصور الوسطى وقد حشد في شعره بعض ألفاظهم كي يتقن دعابته . والحق أن ابن سودون كان فكها من الطراز الأول ، وقد لا نغلو إذا قلنا إنه أهم فكاهي ظهر بمصر قبل عصرها الحديث . وقد كان يتخذ منهجا واضحا في فكاهته وهو منهج كان يعتمد على المفارقات المنطقية من جهة ، كما كان يعتمد على كل ما يمكن من غفلة وبلاهة من جهة أخرى ، ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية، بل كان يعمد إلى واقع حياته ومجتمعه ، فيتخذ منهما ما يريد من هزله . والطريف أنه كان يجد فيهما دائما مادة غزيرة لفكاهته ودعابته ؛ إذ كان يعرف كيف ينقل أقرب الأنباء والموضوعات منه إلى أدوار هزلية مضحكة فاذا هي وقد تبدلت وجوهها وأصبح كل ما يتصل بها ينشر الضحك والفكاهة . وكان يسوق ذلك في طريقة خاصة ؛ إذ كان ما يزال يخرج من عبث إلى عبث ، ومن مألوف إلى مألوف ، ومن غريب إلى غريب ، ومن بله وغفلة إلى بله وغفلة ، حتى ليضطرب توازننا ، ونحس كأننا قد خرجنا من عالمنا إلى عالم اخر هو عالم ابن سودون ، وهو عالم تضطرب فيه الأشياء والأفكار اضطرابا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلي عصرنا الهزليين في أدوارهم الفكهة وصورهم المضحكة .

شوقي ضيف

من وراء البحار

ألمانيا ومستقبلها السياسى والاقتصادى

ما هو مستقبل ألمانيا بعد الهزيمة ؟ وماذا يكون نظامها ؟ لقد نشرت مجلة الأمور الخارجية الأمريكية (فى عدد يوليه) مقالين هامين مفصلين فى ذلك لا نستطيع إلا تلخيصهما وأولهما بقلم مسيو بيدو رئيس وزراء فرنسا . ويرى مسيو بيدو أن مشاكل العالم بعد أن أنهكته الحرب مثل الكرة المتشابكة الخيوط ، فلا يكفى أن يمسك المرء بطرف هذه الخيوط حتى يمكن تسويتها ؛ فهى مليئة بالعقد وأكبر عقدة هى ألمانيا .

قد يقال إن هذا الاعتقاد قائم على عقدة نفسية لدى فرنسا . ولقد كانت ألمانيا حتى الأمس مربى للحروب ، وهى اليوم حفرة عميقة لا يرى قرارها ، فهى فى الواقع أولى مشاكل العالم ، وإذا كان الفرنسيون يعمدون إلى تنبيه العالم إلى هذه المشكلة ، فليس ذلك لأنهم يقفون موقفهم العاطفى المعروف من العدو التقليدى . فنظرية الفرنسيين ليست قائمة على التعطش إلى الفتح ولا على الرغبة فى الأخذ بالثأر . والبرهان على هذا القول ان الحكومة المؤقتة للجمهورية رفضت سياسة الضم . وقد نقول فى التدليل على ذلك أن رئيس المجلس الوطنى للمفاوضة زار مستشفى مدينة باريس فى أثناء معركة تحريرها ليحيى الجرحى الألمان لأنهم كانوا حينئذ بين المهزومين . وفرنسا تعنى عناية كبيرة بالعدالة ، ولا تخلط بينها و بين الانتقام .

فالمسألة الألمانية فى نظر فرنسا هى مسألة سلامتها قبل كل شىء . وفى هذا المعرض لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرنسا من الوجهة الجغرافية والسياسية هى المركز العصبى لأوربا ، وأنها حين تمس ينشأ عن ذلك اهتزاز شديد . ولقد ثبتت صحة هذا القول بعد حربين عالميتين ، وكان يشعر بذلك سياسى بعيد النظر مثل تيودور روزفلت الذى قال قبل هاتين الحربين عند الأزمة المراكشية : « لو اجتاحت الجيوش الألمانية فرنسا لما استطاع الأمريكيون أن يسكتوا » .

فنى مجال السلامة الاجتماعية توجد خطوط تجب مراقبتها مراقبة دقيقة ، ويجب الاعتراف بأن البلاد الواقعة على هذه الخطوط قد استطاعت أن تكون آراء ثابتة عن الضمانات الواجبة لسلامتها ، فاذا رأينا فرنسا تصرح أن سلامتها ، أو بالحرى سلامة العالم ، تتطلب بعض الاجراءات ، فيجب على الأقل أن تفحص مقترحاتها بروح العطف ؛ فهذه المقترحات هى نتيجة تفكير طويل ، وهى مقترحات دائمة وليست هى آراء رجل واحد أو مناورات حزب من الأحزاب ، بل هى مطمح أمة ودولة .

لقد أعلنت الجمعية التأسيسية الوطنية فى ١٧ يناير سنة ١٩٤٦ أن سلامة أوربا والعالم ، تتطلبان حرمان ألمانيا نهائياً من وسائل الحرب التى تمثلها الموارد والخامات فى منطقة الرين ووستفاليا ، وأن تحرم مقاطعات الرين من ان تكون فيها بعد منطقة مرور ، ومخزنا وقاعدة للغزو .

ويجب أن تعاد إلى فرنسا المناجم التى نقلت بموجب معاهدة فرساى . وأن تكون هذه المنطقة تابعة فى نظامها الجركى والنقدى لفرنسا ، بحيث تكون متممة للنظام الاقتصادى الفرنسى .

أما منطقة الرور وهى الكنز الأوربى العظيم الذى يحتوى على مناجم الفحم والمصانع التابعة له ، وهى التى يعمل فيها فى الأوقات العادية خمسة ملايين من العمال ، فان الحكومة الفرنسية ترى لمصلحة الانسانية أن تعتبر وحدة سياسية مستقلة عن ألمانيا ، وتوضع تحت نظام دولى من الوجهتين السياسية والاقتصادية .

هذا هو رأى الجمعية التأسيسية . وقد يضاف إليه فيما يختص بأراضى الرين ، أن توضع قوات حربية كافية دائما فى الأراضى الألمانية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الرين ، وربما توضع كذلك على رءوس بعض الجسور فى الضفة اليمنى . ويجب أن تكون أراضى الراين من الوجهة السياسية غير تابعة لألمانيا ولا لفرنسا ، وأن تكون حرة فى تدبير أمورها على ألا يسمح لها بأن تتسلح ، وعلى أن تكون تحت رقابة حربية يشترك فيها الحلفاء .

هذا الرأى الفرنسى قد عرفته الدول وأخطرت به فى مناسبات عدة . ولم تقبل الدول حتى الآن هذا الرأى ولم ترفضه ، ولكن قد يكون من المستحسن البحث فى أسباب ما يرى من تردد فى قبول هذا الرأى . وهذه الأسباب تتعدى أحيانا دائرة المسألة الألمانية إلى مسألة الحالة العامة فى العالم ، وهذا مما يؤيد القول بأن المشكلة الألمانية ، هى فى آن واحد عقدة ومفتاح للمشاكل العالمية .

فمن الآراء التى تبدى رأى يتأثر بجانب إنسانى ، هو : هل يفرض على ألمانيا صلح « شديد » ؟ ومثل هذا الرأى جديد فى سياسة الدول ؛ فهى فى مؤتمر يالتا ، الذى لم تمثل فيه فرنسا ، قد قضت بفصل كوينجسبرج وشتتين وفرانكفورت وبرسلاو ، وهى من أقدم المدن البروسية ، عن جسم الدولة الألمانية .

ومع ذلك فهل يكون من الشدة منع المعتدى الذى لا يرعوى عن تكرار اعتدائه ؟ وهل يعتبر من التساهل والملاينة نقل جماعات كبيرة من السكان ، وهو الذى حدث بعد اقتطاع أراضى ألمانيا الشرقية ؟ إن مثل هذا لن يحدث فى ظل النظام الذى تقترحه فرنسا من فصل الرور سياسياً ؛ إذ أن النظام الدولى المقترح سيحتفظ بمستوى عال لمعيشة السكان .

إن فرنسا لا تريد أن تعامل ألمانيا بشريعة العين بالعين ، ولكن ليس من الضرورى أن نكون رفيقين بالألمان ، وليس معنى ذلك أن ننزل بهم العقاب الدائم ، فللألمان صفات وميزات ، وهم أصحاب جد ، ونظام وابتكار ، ولكن مما يؤسف له أنهم يميلون إلى استعمال هذه الصفات بطريقة خطرة . ولا يجب أن ننسى أنه لم يكن يرتفع بينهم صوت احتجاجاً على مساوىء نظام هتلر ، ولم يرفض جندى ألمانى واحد أن يطيع الأوامر الصادرة إليه بارتكاب الفظائع .

والآن بعد هزيمة النازية ماذا يحدث فى ألمانيا ؟ وماذا نرى فى تلك البلاد المحتلة الكئيبة ؟

يروى أحد المراقبين أن أول ما نراه فى تلك البلاد هو الاهتمام الكبير بوسائل المعيشة اهتماماً يسيطر على العلاقة بين المنتصرين والمهزومين . ثم إن الألمان لا يهتمون بوجه عام لمحاكمات نورنبرج ، ثم يصرح الالمان لمن يتحدثون إليهم أن تلك البلاد الواقعة بين ممل ونهر نيسن ، لا تنتج أنواع المأكولات وحدها ، بل قد أنتجت من قبل عباقرة مثل كنت وبوبهم واجيلوس سيليوس وأيشندورف الذين يمثلون أنبل صفات الذهن الألمانى ؛ وبين الأحياء من أعضاء الفهرماخت ، من لم يقلعوا عن الأوهام ، حتى إنهم لينتظرون حدوث مغامرة جديدة قد تشبه المعجزة . ويوجد فى كل مكان ما أسماه أحد الألمان مبدأ الطاعة ؛ لئلا يقول مبدأ الزعامة !

وقد وصف كريستريا درلنـد ، الخبير السويدى فى الأمور الألمانية ، حال فتية هتلر

عنـدما يعودون إلى وطنهم ، فذكر أنهم ينظرون فى يأس إلى الخراب المحيط بهم ، ثم يضعـون أيديهم فى جيوبهم ، ويلقون نظرات معناها ظاهر ، على مركبات الجنود المحتلة وهى تمر أمامهم فى الشوارع . وهم يحبون أن يذكروا حوادث الحرب والأوقات التى أمضوها فى البلاد المحتلة ، ويفوهون بألذع الفكاهات عن الديمقراطية الحديثة ؛ فالأجانب الذين عاشوا ببرلين قبل الاستيلاء عليهـا وبعده ، يعتقدون أن أنصار النازى اليوم أكثر من ذى قبل .

هـذه المشاهدات سبب آخر يضاف إلى الأسباب التى تقضى بمساعدة ألمانيا فى محنتها ، والخروج بهـا من المآزق إلى الديمقراطية الصحيحة ، وهى كذلك سبب فى ألا نستسلم للأوهام .

لقد سئل أحد الألمان فى الحرب السابقة : ماذا يعمل الألمان لو خسروا الحرب ؟ فأجاب : فى هذه الحال سننظم العطف . فيجب أن نعمل على ألا يعود الألمان إلى تنظيم العطف مرة اخرى ، فنرى جوبلز يخرج رأسه من حفرته ليقول لنا : ومع ذلك فقد انتصرنا نحن أيضاً !

فالمسألة إذن ليست إخضاع ألمانيا وإتعاسها بل هى العمل على نهضتها دون أن يؤدى ذلك إلى كارثة للعالم وللسلم .

لقد انتقد المشروع الفرنسى ؛ لأنه لا يؤدى إلى إيجاد إدارة مركزية فى ألمانيا فى أقرب وقت ، وإذا لم تنظم ألمانيا وهى تشغل وسط أوروبا ، فان ذلك يكون مصـدر خطر على أوروبا . وفى إدارة ألمانيا واحتلالها عبء ثقيل على الحلفاء ، فيتعين الخلاص منه بأسرع ما يمكن .

على أن النظرية الفرنسية لم يقصد بها بقاء ألمانيا غير منظمة ، فهذه الحفرة السوداء العظيمة ، لا يمكن أن تظل باقية إلى الأبد فى وسط أوروبا ، بل يجب أن نقرر كيف نسدها وأن يتم الاتفاق على مشروع لانشاء ألمانيا سياسيـاً من جديد ، وأى رجال يقومون بهذا العمل ؟

على أنه من المستحيل أن ترضى فرنسا بقيام سلطة ألمانية على أبوابها ، بينما أبعدت الحدود فى الشرق إلى المسافة التى يقتضيها الحذر ، لذلك ترغب الحكومة الفرنسية فى تجديد الحدود الألمانية الغربية فى الوقت الذى تقام فيه إدارة ألمانية ، وإلا نشأ عن ذلك موقف غريب : هو أن فصل المقاطعات الشرقية عن ألمانيا مما يؤدى إلى تحويل مركز الثقل فيها نحو الغرب ، ويزيد من ضغط ألمانيا على فرنسا .

يقـال إن القنبلة الذرية ، ستقضى على الحدود ، فلا يمكن فرنسا أن تضمن سلامتها باحتلال نحو ثلاثين ميلا من أراضى الرين واكتساب كوقاء من وراء حدودها . فلماذا لا يقال مثـل ذلك عن الحدود فى الجبهة الأخرى ؟

ثم يقال إن مركز قيادة الجنرال كلاى فى برلين قد قام بعملية حسابية فوجـد أن اقتطاع الرور من ألمانيا يكلف دافع الضرائب الامريكى مائتى مليون دولار فى السنة . ولكن هل يفضل دافع الضرائب هـذا أن يدفع أربعمائة ألف مليون دولار بعد سـنوات فى حرب جديدة كما فعل فى هذه الحرب ؟

إن فرنسا تقترح أن يحال بين ألمانيا وبين أن تجعل من الرور مصنعاً للسلاح على أن يقام فى تلك الجهة نظام إقتصادى يجعل من السهل تبادل السلع مع الشرق والغرب ومنها ألمانيا ، وإذا استعمل الرور وقتاً ما لسد جزء من حاجات ألمانيا فى ذلك الكفاية لكى لا تصبح ألمانيا عبئاً على الامم المتحدة وسيلتهى الامر بايجاد توازن إقتصادى بين الرور وألمانيا من جهة والعالم الخارجى من جهة أخرى .

لقد قام ممثلو مجلس الرقابة للدول المحتلة ببرلين بعمل تقدير للميزان التجارى لألمانيا فى سنة ١٩٤٩، فقدر الانجليز أن هذا الميزان سيكون متعادلا على حين قدر الامريكان والفرنسيون والروس أنه ستكون هنالك زيادة فى صالح ألمانيا .

ويستطيع إقليم الرور إذا صار دولياً أن يؤدى مساعدة ذات وجهين لألمانيا أحدهما تجارى والآخر متعلق بالميزانية .

فالرور أولا يستطيع أن يبيع ألمانيا الفحم والصلب ومنتجات المعادن والمنسوجات ، ويشترى منها أطعمة وحديداً وأخشاباً للمناجم وغزلا صناعياً ، وفى هذه الحالة يكون الميزان التجارى على الأرجح فى صالح الرور ، وحينئذ يكون على بلاد الرور أن تضع تحت تصرف ألمانيا جزءاً من المبالغ التى اكتسبت من جهات أخرى . وإذا ظهر عجز ألمانيا فى ميزانها مع الرور فيمكن لاقليم الرور أن يرسل إلى ألمانيا ما يسد حاجتها بلا ثمن ؛ كى يكون الميزان متعادلا ويكون بيع الدولة الألمانية منتجات الرور للمستهلك الألمانى، وهى التى حصلت عليها مجاناً ، مما يزيد موارد الميزانية الألمانية . ومن الممكن أن تتحمل الرور الديون الألمانية الخارجية .

فالمقترحات الفرنسية إذن لا تهمل الجانب الاقتصادى ، وتعنى بمستقبل ألمانيا المنهزمة .

ولو أن الحلفاء لا هم لهم إلا العناية بالاقتصاد الألمانى وحده ، دون أى اعتبار آخر ، لكان عليهم أن ينشئوا ألمانيا العظمى كما تصورها هتلر . أما القول بأن نهضة ألمانيا كدولة حربية أمر مستحيل، فهو قول لا يتفق مع الواقع كما يعرف الفرنسيون جيداً . وإن جميع المعاهدات لضمان السلامة فى الماضى كان الغرض منها اتقاء الخطر الألمانى الذى هو مسألة حقيقية لدى جيران ألمانيا وليس مجرد أمر نظرى . وإن غريزة الأمم لتدل على أن أثبت اتحاد فى السلم هو القائم على حقائق الحرب التى جمعت بينها .

هل فشلت سياسية أمريكا فى ألمانيا ؟

أما المقال الثانى فهو بقلم الأستاذ إدوارد ميسون ، وهو يستعرض أولا المبادئ الأساسية لاتفاق بوتسدام فيقول إن هذه المبادئ تقضى بما يأتى :

(١) تعتبر ألمانيا فى غرب خط الاودر ونيسن وحدة اقتصادية ، وتسير المناطق المختلفة على سياسة اقتصادية واحدة ، وتوزع السلع الضرورية توزيعاً عادلا ، وتنشأ وكالات اقتصادية مركزية لادارة النقل والمالية والتجارة الخارجية والمواصلات والصناعة .

٢) تجمع التعويضات بنقل المصانع والآلات من ألمانيا ووضع اليد على ما تمتلكه فى الخارج . وتوفى مطالب روسيا السوفيتية وبولونيا بنقل ما يوجد منها فى الشرق مع الاشتراك فى جزء من الغرب . أما مطالب الحلفاء الغربيين فتوفى بوضع يدهم على ما فى المناطق الثلاث الغربية .

(٣) يخفض الانتاج الألمانى بنقل بعض هذه المصانع وتدمير بعضها بحيث لا يزيد الانتاج عما يكفى لجعل مستوى المعيشة فى ألمانيا معادلا لمتوسط ما عليه الحال فى البلاد الاوربية الأخرى غير انجلترا وروسيا .

إن قرار تقسيم ألمانيا إلى مناطق للحصول على تعويضات يتناقض مع الرغبة فى جعل ألمانيا وحدة اقتصادية . ثم إن مؤتمر

بوتسدام لم يبين إذا كانت مطالب التعويضات تسدد من آلات المصانع أو من المعاملات التجارية الألمانية . وقد تقرر فى ذاك المؤتمر أن يكون للولايات المتحدة الأولية بالنسبة للمال الناشئ عن المعاملات التجارية الألمانية على سبيل التعويض ، ولكن لم يتقرر شيء بالنسبة للدول الأخرى .

ثم إنه بعد القضاء على ألمانيا كدولة صناعية كبرى، هل تعود الدول فتساعدها على النهضة الصناعية ؟ إن الحلفاء لم يتفقوا على ذلك ولا يظن انهم يتفقون ؟ فمسلك روسيا فى منطقتها لا يدل على أنها ترضى باقالة المانيا تدريجياً من عثرتها .

وفى هذه الأثناء قررت اللجنة المركزية للحلفاء ببرلين فى مارس من هذه السنة ، تبعا لقرارات بوتسدام ، مستوى ما يسمح لألمانيا باخراجه من الصناعات الثقيلة ، فمنع بالطبيعة صنع الآلات الحربية ، أما بعض المواد التى تمت إلى المواد الحربية بسبب مثل صناعة المطاط والأمونيا والبترول الصناعى والألومنيوم فقد سمح بها مؤقتا للاستهلاك الداخلى ، إلى أن تستطيع توريدها ، ثم سمح لها ببعض صناعات الصلب والحديد والمواد الكيمائية والآلات الصناعية والهندسية على نطاق ضيق ، أما الصناعات الخفيفة الأخرى وصناعات البناء فقد تركت ألمانيا فيها حرة .

وكانت المفاوضات فى هذا الموضوع صعبة وطويلة يريد حليف التساهل فى نوع من الصناعات ، فيأبى الآخر إلا التشدد .

فهل يمكن بعد تدمير المصانع ونقلها أن يصل إنتاج ألمانيا إلى الحد الذى يجعل معيشة سكانها فى المستوى الذى قرره مؤتمر بوتسدام ؟ وهل تستطيع ألمانيا أن ترسل إلى الخارج من صادرات صناعتها ما يعوض الواردات ؟ لو بقيت ألمانيا وحدة اقتصادية ولم توضع العراقيل فى سبيلها لما أثر نقل المصانع وتدميرها فى اقتصادها فى الوقت الحاضر . إن الصعوبات التى تعترض المانيا فى هذا الوقت ناشئة عن حاجتها إلى الطعام ، وهذا متوقف على محصولها ، على أن المانيا قد سمح لها بانتاج المخصبات التى تصنعها دائما ، ثم إن النقص فى الآلات الزراعية لا يؤثر فيها كذلك ، ولذلك ينتظر أن يتحسن حال الطعام فيها بعد محصول سنة ١٩٤٦ . أجل إن صعوبات التبادل بين المناطق ، والقضاء على الزراعات الواسعة فى الشرق قد يضر بمركزها الزراعى ، ولكن هذه الأمور غير قائمة على سياسة بوتسدام .

كذلك البرنامج الذى وضع للانقاص من قوة ألمانيا الصناعية لا يؤثر فى إنتاجها فى المستقبل القريب ولا يقف فى سبيل عودة الرخاء إلى ألمانيا بعد ١٥ أو ٢٠ سنة . فوسائل الاقتصاد الحديث تمكن الدول سريعا من عودة الرخاء إليها ، إذا لم توضع العراقيل فى سبيله لأغراض سياسية . ولن يشعر الألمان بعبء القرارات التى اتخذت فى بوتسدام إلا عند وصولهم إلى فترة متوسطة .

أما نقل الآلات والمصانع من ألمانيا فهو سيقلل من إنتاج ألمانيا ولكنه لا يزيد الانتاج كثيرا فى الجهات الأخرى من أوربا ، ولا ريب فى أن ألمانيا ستصاب بضرر كبير فى إنتاجها ، ولكن يجب ألا نبالغ فى هذا الأمر ، فانا لنعلم أن ألمانيا زادت آلاتها زيادة كبيرة حتى فاقت الولايات المتحدة فى ذلك ، ولكن هذا العمل كان فى أيام الحرب وأيام الاستعداد لها ، وهذا مالا تحتاج إليه فى السلم ، ثم إن أكثر مصانعها الضخمة غير اقتصادى ، فهو موزع لأغراض حربية كما ترى فى مصانع هرمان جورنج للصلب . فليس فى نقل هذه الآلات ضياع كبير من وجهة الكفاية ، ولكن يجب أن نلاحظ أن نقل الآلات والمصانع مع عدم إمكان استعمالها

فى مكان آخر ، مما يضر بالقارة الاوربية جميعها ولا ريب فى أن لهذا العمل تأثيراً حقيقياً على ألمانيا ، وهو يدل على أن الحلفاء فضلوا جمع التعويضات من المصانع والآلات بدلا من الانتاج الألمانى ، كما كان الحلفاء مدفوعين إلى هذا القرار لارضاء روسيا السوفيتيه كى توافق على الاشتراك فى سياسة بوتسدام التى تقضى بادارة ألمانيا على أنها وحدة اقتصادية . ومن الطبيعى أن روسيا السوفيتية تعتبر بقاء الصناعات الألمانية الكبرى فى الشرق مهددا لسلامتها . وإذا لم ينفذ برنامج نقل المصانع ، فان ذلك يؤدى إلى تقسيم ألمانيا ، وضم القسم الشرقى منها فيما وراء نهر الألب إلى منطقة السلامة الروسية .

ولقد نص اتفاق بوتسدام على الوسائل التى تؤدى إلى اتباع سياسة اقتصادية موحدة فى المناطق المختلفة ، بتوزيع السلع بين المناطق توزيعاً عادلا ، وإنشاء وكالات اقتصادية مركزية ، ولكن هذه النصوص لم تنفذ انتظارا لتعيين الحدود الغربية لألمانيا ؛ ففرنسا تأبى إنشاء إدارة مركزية اقتصادية قبل أن يبت فى مصير الرور وأراضى الرين . ويقال إن روسيا السوفيتية تحاول تأجيل إنشاء هذه الادارة المركزية حتى يتم نقل المصانع والآلات التى تعطى لها على سبيل للتعويض .

وقد اتخذ النشاط الاقتصادى والسياسى فى المناطق اتجاها متباينا، ففى المنطقة الروسية عمل على أن تكون الصناعات الباقية ملكا للدولة ، وأصرت السلطات على تكوين جبهة متحدة من الأحزاب ونقابات العمال ، وفى المنطقة البريطانية جعلت مناجم الفحم ملكا للدولة ، وأخذت السلطات تقاوم الحركات الثورية ، وشجعت إنشاء حزب اشتراكى ديمقراطى . وأظهر الأمريكيون فى منطقتهم همة فى القضاء على النظام النازى أكثر مما بذله الحلفاء الآخرون وأجروا انتخابات محلية . أما سياستهم الاقتصادية فسلبية .

وقد يكون السبب فى هذا التباين ناشئا عن النيات المتباينة للأمم المحتلة ، على أنه قد يكون أيضا نتيجة لظهور الميول التى تعتمد على القوة المحتلة ، ومهما يكن الأمر فان مثل هذه الخلافات لابد أن تؤدى إلى تقسيم ألمانيا ، إذا لم يتدارك الأمر .

ولقد صارت ألمانيا الآن عبئا على الدول المحتلة ، فعليهم تقع مسئولية إطعامها ، ولا يمكن التخلص من هذه الحال إلا إذا استطاعت ألمانيا أن تكون لها تجارة صادرات ، لسداد ما تحتاج إليه من واردات.

لقد كان سداد التعويضات فى الحرب العالمية الاولى قائما على القروض الأمريكية . ومن البديهى أن أمريكا فى هذه المرة حاولت نقل هذا العبء عن أكتافها ، فاذا لم تكن لألمانيا تجارة صادرات فان سداد ثمن الواردات يقع عبئه على الدول المحتلة ، أو بالحرى على لولايات المتحدة التى تقترض منها الدول ، أو على الأقل الدول الغربية — ما يكفى للقيام بتبعاتها فى ألمانيا . ووقوف ألمانيا على قدميها فى اقتصاد موحد اهم إذن من مسألة نقل المصانع والآلات . وكلما تأخر ذلك كلما زادت اعباء الولايات المتحدة . ويجب على الولايات المتحدة أن تعمل على تنفيذ الاتجاه الأساسى من سياسة بوتسدام ، وهو اعتبار ألمانيا وتنظيمها على أنها وحدة اقتصادية .

ظهر حديثا

مدونة جوستنيان في الفقه الروماني Institutes de Justinien نقله إلى اللغة العربية حضرة صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا (دار الكاتب المصرى)

فى مثل هـذه الأيام من الصيف الماضى تحدث إلى حضرة صاحب المعالى الأستاذ عبد العزيز باشا فهمى فى التليفون يسألنى ألا أستطيع أن أعيره معجما لاتينيا وكتابا فى نحو اللغة اللاتينية . قلت : وماحاجتك إلى هذا العناء فى هذا القيظ المحرق ! قال متضاحكا : إنى معنى ببعض مسائل الفقه وقد أنسيت ما حفظت من اللاتينية لبعد العهد بأيام الدرس . فان استطعت أن تعيرنى هـذين الكتابين شكرت لك هذا الفضل . وقد أعرت الأستاذ هذين الكتابين دهشا باقدامه على الغوص فى معاجم هذه اللغة القديمة ونحوها على حين كنت أنا أستكره نفسى استكراها على الغوص فى معاجم اللغة العربية وأدبها لشدة القيظ من جهة ، ولأن الحياة المصرية لاتعين على بحث أو درس من جهة أخرى .

ثم انقضت أشهر الصيف ولقيت الأستاذ فى بعض جلسات المجمع اللغوى ، فعلمت منه أنه نقل إلى العربية هذا الكتاب اللاتينى من كتب الفقه الرومانى ، وأنه يريد أن يتيح الانتفاع بما فيه من علم للذين يدرسون القانون فى كليتى الحقوق والذين يدرسون الفقه الاسلامى فى الأزهر الشريف وغيره من معاهد الدين .

ولست أصور دهشتى حين تلقيت من الأستاذ هذا النبأ ، ولست أصور إعجابى بهذه القوة التى لا تعرف ضعفا ، وبهذه العزيمة التى لا تعرف كلالا ، وبهذه المصابرة التى لاتعرف سأما .

لست أصور دهشتى ولا إعجابى ، فقد عودنى عبد العزيز فهمى ان يدفعنى إلى الدهش ويضطرنى إلى الاعجاب منذ عرفته حين كنت طالبا معمما ، وحين كان هو محاميا موفور القوة مستكمل النشاط . وما زلت أذكر إعجاب جيل الشباب به حين كان عضوا فى الجمعية التشريعية وحين انفق الليل كاملا متوفرا على درس الميزانية . وما زلت أذكر بعد ذلك انقطاعه لوضع مشروع الدستور وعكوفه على العمل أياما وليالى متصلة فى غرفته بفندق من فنادق الاسكندرية فى صيف عام من الأعوام ، لا يلقى الناس إلا ساعة حين ينصرف النهار ويقبل الليل ، يتحدث إليهم ويسمع منهم لحظات ، ثم ينصرف عنهم ليمضوا هم فى أحاديثهم وفكاهاتهم وليستأنف هو عكوفه على وضع مشروع الدستور . وما زلت أذكر امتناعه على النوم ليدرس هذه القضية أو تلك حين كان رئيسا لمحكمة الاستئناف ثم لمحكمة النقض ، بل ما زلت أذكر تعمقه لقصة الأدب الجاهلى وتحقيقه لما أثير حولها من خلاف حين كانت قصة الأدب الجاهلى ، وتعمقه لقصة الاسلام وأصول الحكم وتحقيقه لكل ماجاء فى هذا الكتاب ولما أثير حوله من خلاف ، ولموقف الدستور من هذا الكتاب وما أثير حوله من خلاف .

فالصورة المستقرة فى نفسى من عبد العزيز فهمى منذ عرفته أنه رجل جد مقدام ، لا يعرف تهاونا ولا ضعفا ولا فتورا ، ولا يستقبل

أمراً من الأمور إلا استقصاه ولا مشكلة من المشكلات إلا قتلها بحثاً ، وأبغض شيء إليه الدرس السطحي ، وأثقل شيء عليه نصف العلم . فهو يحب العلم كاملا ما وسع الانسان أن يكمله . ولست أدرى أيحب المتنبي أم يزور عنه ، ولكني أعلم أنه يشارك المتنبي فيما يرى من أن أقبح ما فى الرجل من عيب هو أن يكتفى بالنقص حين يستطيع الكمال .

من أجل هذا كله لم أدهش حين رأيت عبد العزيز فهمى يندفع فى غير أناة ولا مهل ولا رفق بنفسه فى درس قصة الكتابة العربية : ماقيل فيها منذ أقدم العصور إلى الآن ، لا يفوته من ذلك شيء ، ثم فى محاولة الحل لهذه المشكلة وفيما اقترح من إصلاح الكتابة ، ثم فى الدفاع عن رأيه والجهاد فى سبيله والرد على خصومه يستقصى ما يدور حول هذه القضية فى جميع أقطار الشرق العربى ، فيسجله ويحلله وينقضه لا يعرف فى ذلك هوادة ولا لينا . وقد عرض المجمع اللغوى لاصلاح النحو واختار عبد العزيز فهمى مقرراً لهذا الاصلاح ، وإذا هو يغرق فى النحو العربى إلى أذنيه ، وإذا هو يستخرج من دقائقه ويكشف من أسراره ما ينوء بالعصبة أولى القوة من الذين أنفقوا حياتهم فى درس النحو واستقصاء مذاهب البصريين والكوفيين فيه ، حتى استقر فى نفوس زملائه أنه أعلمهم بالنحو وأنفذهم فى مشكلاته . كل ذلك والرجل لم يفرغ لعلوم اللغة العربية ولم يأخذ نفسه بالتخصص فيها ، وإنما ألم بها إلمامات قصاراً كما يصنع الرجل المثقف الذى يحب أن يأخذ من كل شيء بطرف . ولكن عبد العزيز فهمى لا يحب أن يأخذ من كل شيء بطرف ، وإنما يؤثر الاستقصاء والتعمق وما يستتبعان من جهد على هذا العلم الناقص اليسير . فكيف به حين يعرض للفقه والقانون ، وهو قد أنفق صفوة حياته فى الفقه والقانون ؟

من أجل هذا تلقيت ما أنبأني به من ترجمته هذا الكتاب إلى اللغة العربية بما تعودت أن ألقى به أنباءه كلها من الدهش والاعجاب ، ولكني تلقيت هذا النبأ بشيء آخر غير الدهش والاعجاب ، بهذا الشوق الشديد إلى أن أنظر فى الترجمة واقرأ نتيجة هذا الجهد العنيف .

وعبد العزيز فهمى متواضع دائماً ، يرى أنه مقصر مهما يبذل من جهد ، ومهما يحتمل من مشقة ، ويرى دائماً أن همته أبعد من صحته وان آماله ومثله العليا أعظم وأضخم من طاقته المحدودة . وهو من أجل ذلك راض عن نفسه وساخط عليها فى وقت واحد ، راض عن نفسه لأنه لا يحملها أو لأنها لا تحمله إلا على ما يرضى ضميره وعلى ما يقتنع بأن فيه الخير والنفع لمواطنيه ، قد يخطىء وقد يصيب ، ولكنه متوخ دائماً للحق والخير والمصلحة كما يتوخى الرجل الكريم كل هذه الخصال . وساخط على نفسه لأنه يطلب إليها أو تطلب إليه فوق ما يطيق الانسان الضعيف مهما يكن حظه من القوة . فكيف إذا نيف على السبعين وقد اعتلت صحته وحملته السن اثقالها ؟

قلت إنه متواضع دائماً فلم يكد يرى دهشى وإعجابى حتى قال : هون عليك فانى لم أترجم هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية وإنما ترجمته من الفرنسية إلى العربية ، ثم قص على القصة التى تقرأها فى مقدمة الكتاب . ولكن الشيء المحقق الذى أشهد به مطمئناً هو أنه لم يؤمن للترجمة الفرنسية أو للتراجم الفرنسية التى اعتمد عليها إيماناً مطلقاً مطمئناً ، وإنما نقد واستقصى وراقب الترجمة واستقرى النصوص وقابل بين التراجم المختلفة ورجح بعضها على بعض ، ولولا ذلك لما استعار منى المعجم اللاتينى وكتاب النحو اللاتينى . فالذين يقرءون هذا الكتاب يجب أن يطمئنوا

إلى أنهم لا يقرءون ترجمة ثانية عن ترجمة أولى، وإنما يقرءون كتاباً ترجم عن أصله اللاتيني، وكانت تراجمه الفرنسية هاديا للأستاذ ودليلا ولا سيما إذا لاحظنا أن المترجمين الفرنسيين من الفقهاء الممتازين الذين يهتدى برأيهم فيما يكون من تأويلهم للنصوص وتعليق عليها.

ولهذه الترجمة العربية لكتاب لاتيني في الفقه الروماني خطرها العظيم من نواحي مختلفة أشد الاختلاف. فنحن نعلم أن سلفنا قد نقلوا من اليونانية إلى العربية، ونقلوا من الفارسية والهندية إلى العربية أيضاً، ونقلوا كذلك من السريانية إلى العربية، ولكنا لا نعلم أنهم نقلوا في الشرق العربي على الأقل من اللاتينية إلى العربية، فاذا لم أكن مخطئاً فعبد العزيز فهمي هو أول من نقل من هذه اللغة إلى اللغة العربية في بلاد المشرق. وليس هذا بالشيء القليل وأحسبه شيئاً كثيراً جداً ولاسيما حين نقرأ الكتاب، ونرى أن بين هذا الفقه الروماني وبين كثير من فقهنا الاسلامي تقارباً وتشابهاً واتحاداً أحياناً، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون نتيجة المصادفة وتوارد الخواطر. وهنا تنشأ المسألة الخطيرة الثانية كيف تأتى للمجتهدين من فقهائنا أن يظهروا على دقائق الفقه الروماني إذا كان هذا الفقه لم يترجم لهم كما ترجمت لهم فلسفة اليونان وثقافة الفرس والهند؟ وناحية خطيرة أخرى لهذه الترجمة هي أن طلاب القانون عندنا كانوا إلى الآن يدرسون ظاهراً من الفقه الروماني يسمعونه من أساتذتهم لا يستطيعون أن يرجعوا فيه إلى أصل معتمد. ويحزنني أن أقول إن الأساتذة أنفسهم لا يرجعون في هذا الفقه إلى أصوله الأولى، وإنما يرجعون إلى ما كتبه الفقهاء الأوربيون أو ترجموه، وهم يرجعون إلى ما كتبوا أكثر مما يرجعون إلى ما ترجموا. فالفقه الروماني الذي يصل إلى طلابنا في كلية الحقوق، إنما يصل إليهم شاحبا ممتقع اللون قد فقد كثيرا من خصائصه التي تمنحه القوة والخصب، لأنهم تلقوه عن اليد الثالثة أو عن اليد الرابعة لا عن اليد الثانية التي استقته من أصله اللاتيني. والمعروف أن أساتذة الفقه الروماني عندنا لا يحسنون اللاتينية، ولا يحفلون باتقانها، ولا يغرون تلاميذهم بدراستها، لا أكاد أستثني منهم إلا واحداً ترك مهنة التعليم. فهذه الترجمة ستتيح لطلابنا أن يقرءوا الفقه الروماني قراءة مباشرة، وأن يستخرجوه من معدنه ويستنبطوه من ينبوعه. ولا أشك في أن هذا سيفتح لهم آفاقاً لم تفتح لهم من قبل وسيغريهم بدراسات لم تكن تخطر لهم على بال.

وناحية أخرى لخطر هذه الترجمة، فطلابنا الأزهريون يتعمقون دراسة الفقه الاسلامي ولكنهم يدورون منه في غرفا مغلقة لا تنفذ إلا إلى المعروف من أصول الفقه الاسلامي. وهم سيقرءون هذا الكتاب وسيعلمون أن أمما أخرى قد تعمقت الفقه كما تعمقه المسلمون، وكان فيها مجتهدون يستعرضون المشكلات وينفذون منها وييسرون للناس ما تعرضه عليهم حياتهم اليومية من الأمور المعقدة. وكان هؤلاء المجتهدون يستقبلون هذه المشكلات كما كان المجتهدون المسلمون يستقبلونها، وكانوا يحلونها ويتصرفون فيها على أنحاء قريبة جداً من الأنحاء التي كان المجتهدون المسلمون يمدون إليها. فسيلقى طلابنا الأزهريون على أنفسهم أسئلة وسيجدون في أنفسهم أجوبة لهذه الأسئلة، وسيعلمون أن العزلة لم تقسم لشعب متحضر وأن الأجيال على اختلافها وتباينها لا تعدم وسائل لتداول الحضارة وعناصرها مهما يكن بين هذه العناصر من التباعد والاختلاف، وسيطالب الأزهريون بمزيد من العلم وسيحرصون لا على أن يعرفوا فقه الرومان وحدهم، بل على أن يعرفوا فقه أمم أخرى قديمة وحديثة، وستفتح لهم آفاق

ظهر حديثا.

أوسع جدا وأبعد جداً من الآفاق التي فتحت لطلاب الحقوق في الجامعتين .

وناحية أخرى تبين خطر هذه الترجمة وهي أن المترجم لم يكتف بالنقل الدقيق الأمين، وإنما كان فقيهاً وفقيهاً بأوسع معاني هذه الكلمة ، فقيها تعمق الفقه الإسلامي والفقه الحديث الأوروبي والشرقي ، وأراد في كثير من المواضع أن يدل على الصلة بين الفقه الروماني الذي يترجمه وبين هذه الألوان المختلفة من الفقه القديم والحديث .

فالذين سيقرءون هذا الكتاب لن يقرءوا ترجمة فحسب ولكنهم سيقرءون شروحا وتعليقات ، لعلها أن تكون أقوم من النص نفسه . وليس عبد العزيز فهمي مؤرخا لا للفقه الروماني ولا للنظم الرومانية . ولعلي لا أخطئ إن قلت إنه لم يقرأ من كتب التاريخ الروماني المفصل إلا ما يقرؤه المثقفون الذين يرتفعون بأنفسهم عن الجهل ، ولكن لعبد العزيز فهمي على هذا حدسا غريبا مدهشا حقا . فهو قد يلقى الكلمة اللاتينية أو الفكرة الرومانية قد اختلف الفقهاء الفرنسيون في تفسيرها وتأويلها ، وإذا هو يفسرها ويؤولها على النحو الذي انتهى إليه في هذه الأيام أشد المؤرخين والفقهاء تعمقا لفقه الرومان وتاريخهم . وهذا كثير جداً في الكتاب ، ولكني أضرب له مثلا بما فسر به عبد العزيز فهمي معنى الجنس ومعنى الولاء فقد كان الفقهاء الذين استعان بهم على ترجمته يختلفون في هذين البابين ويذهبون فيهما مذاهب لا يلائم بعضها بعضا ؛ لأن حقائق التاريخ الروماني لم تكن في عصرهم قد ظفرت بالجلاء الذي أتيح لها منذ أواخر القرن الماضي . لم يكونوا قد ظهروا على نظريات فوستل دي كولانج ومن جاء بعده في نظام « المدينة القديمة » وفي معنى الجنس والقبيلة ، ولم يكونوا قد قرءوا الفقه الروماني الخاص والعام كما عرضه مومسن ونظراؤه بعد أن استكشفت النقوش اللاتينية واليونانية التي لا تحصى ، وبعد أن وضعت موضع الدرس والنقد والمقارنة .

ومن المحقق أن عبد العزيز فهمي لم يقرأ من هذا كله شيئا ؛ لأنه لم يفرغ للبحث النظري ولم يخصص نفسه في تاريخ الفقه . ولكني حين رأيته يفسر الجنس كما فسره ويفصل أمور الولاء كما فصلها في تعليقاتها الكثيرة لم أشك في أنه قد رجع إلى هذه المصادر التاريخية ورجع على الأقل إلى المعجم التاريخي العظيم *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines* de Daremberg et Saglio.

فلما سألته في ذلك تبينت أنه لم يتكلف من هذا كله شيئا لأن صحته لم تتح له فيما يقول أن يؤدي لهذا البحث حقه . فاعجب إذن لهذا التوافق المدهش بين حدس عبد العزيز فهمي ونتائج البحث التاريخي الدقيق. أما أنا فلست أخفي عليك أني أسفت أشد الأسف لأن هذا الرجل لم يتخصص في درس التاريخ القديم ، ولكني أسفت أيضا أشد الأسف ذات يوم لأن هذا الرجل لم يفرغ للتخصص في اللغة العربية وعلومها . وعبد العزيز فهمي من الذين لا يكادون يعرضون لشئ حتى يشعروك بأنهم وقفوا حياتهم عليه وتفوقوا فيه تفوقاً رائعاً حقاً .

وناحية أخرى لخطر هذه الترجمة وهي أن الكتاب قد أصدره قيصر من قياصرة الروم في القرن السادس للمسيح بعد أن كلف لجنة من الفقهاء البارعين إعداده وعرضه عليه وبعد أن قرأ ما أعدت هذه اللجنة ونقده وغير فيه فحذف منه وأضاف إليه ، وهو من هذه الناحية خلاصة للفقه الروماني الذي اشتغل به أئمة الفقهاء الرومانيين أكثر من ألف عام خضعت فيها روما لنظام الملك وللنظام الجمهوري وللنظام الامبراطوري . وقد حرص

جوستنيان ، وحرص مترجموه من بعده ، وحرص المترجم المصرى على أن يبينوا فى إيجاز ما بين الأحكام التى اشتمل عليها هذا الكتاب وبين الأطوار المختلفة للتشريع الرومانى من صلة . فأصبح هذا الكتاب كتابا فى الفقه وفى تاريخ التشريع عند الرومان .

فالذين سيقرءون هذا الكتاب سيقرءون فقها وتاريخا معا . وكان جوستنيان نفسه مشرعا محبا لتتبع القوانين وإصلاح ما يحتاج منها إلى الاصلاح . وهو يصدر بهذا الاصلاح مراسيم ومنشورات أشير إلى بعضها فى الكتاب وترجم بعضها ترجمة كاملة ألحقت بالكتاب . ثم لم يكتف عبد العزيز فهمى بنشر الكتاب وملحقه هذا ، بل أضاف إليه ملحقاً آخر ترجم فيه طائفة صالحة من القواعد العامة لأصول التشريع عند الرومان .

وقد أصدر جوستنيان هذا الكتاب رفقاً بطلاب الفقه والحقوق . وترجم عبد العزيز فهمى هذا الكتاب خدمة لطلاب الفقه والحقوق . وما أظن أن عبد العزيز فهمى يقبل منى شكرا أو شيئاً يشبه الشكر على هذا الجهد ، ولكنه يقبل منى فى غير شك إقتراحاً يسيراً جداً وهو أن يضيف إلى الكتاب حين يعيد طبعه ثبتا بما فيه من الأسماء والمصطلحات ، مع ما قد تحتاج إليه هذه الأسماء والمصطلحات من شرح وتفسير . ذلك أحرى أن تتم الفائدة ويعم النفع ، ولا سيما بالقياس إلى الذين ليس لهم إلا حظ متواضع من ثقافة فى الفقه والتاريخ .

وقد أراد عبد العزيز فهمى أن ينفق ما قد يغله هذا الكتاب من ربح فى تشجيع طلاب الحقوق بجامعة فؤاد الأول . وتفضل فكلفنى القيام عنه بذلك . وهو لن يقبل من الطلاب على جهده وطيب نفسه إلا لونا واحدا من الشكر وهو قراءة هذا الكتاب فى عناية وتفهم . ولو أنى كنت مسموع الكلمة عند الأستاذ الأكبر وعند مديرى الجامعتين لألححت عليهم فى أن يكون هذا الكتاب مادة من مواد الدرس لطلاب الفقه والقانون على إختلافهم ، ومن يدرى لعلهم لا يحتاجون منى إلى هذا الالحاح . فهم أبصر بحاجة الطلاب إلى مثل هذا اللون من ألوان العلم .

طه حسين

القاهرة الجديدة قصة للأستاذ نجيب محفوظ (لجنة النشر للجامعيين — القاهرة)

قصة ، ومن يقرأ عنوانها تثب إلى رأسه معان كثيرة ولكن لا يخطر فى باله ألبتة أن يكون ذلك عنوان قصة ، وذلك بعض فن الأستاذ نجيب محفوظ ، والأستاذ نجيب محفوظ فنان مطبوع وقاص له خصائصه الفنية . وليست قصة «القاهرة الجديدة» أولى قصصه ولن تكون آخرها ؛ إن له عينا ترى ما لا تراه الأعين ، وله أذناً تسمع ونفسا وخاطراً ينفعل بكل ما يرى وما يسمع وما يحس ، ففى كل مشهد تقع عليه العين العابرة يجد الأستاذ محفوظ نواة قصة زاخرة بالحياة والفن !

ولكن لماذا اختار المؤلف لقصته هذا العنوان الموهم ؟ وهل قرأت له منذ قريب « خان الخليلى » ؟

لقد كان القدماء يعالجون الجغرافيا باعتبارها أرضاً وسماء ومناخاً وغلات وسكاناً من الناس أو من الحيوان ؛ ولكن عناوين بعض قصص الأستاذ محفوظ كأنما يعنى بها أن الجغرافيا

فى رأيه ، أو فى فنه ، هى جغرافيا الناس لا جغرافيا المكان ؛ فأنت تقرأ عنوان « القاهرة الجديدة » تلتمس أن تطالع حديثا عن الجغرافيا كما يعرفها القدماء ، فاذا بين يديك حديث آخر عن الجغرافيا كما يراها هذا الجغرافى الفنان : أرض الحادثة وسماء الفكر وجو الأعصاب ؛ وإذا رياح وعواصف ولكن مما يثور فى داخل النفس لا فى ظاهرة الحياة . . .

هى قصة إذن يصف بها « القاهرة الجديدة » على أسلوبه فى فهم جغرافيا الناس فى هذا الجيل من الشبان والشابات الذين يعيشون على ظهر هذه الأرض التى تسميها الجغرافيا القديمة « القاهرة » ، فى هذا « الجو » العاصف من الآراء والنزعات الجديدة التى تلف حياة الشبان والشابات ، بل الشيوخ والشيخات أيضا فى هذه الأيام !

ولكن ما هو موضوع القصة على التحديد ؟ هذا هو السؤال الذى أوثر ألا أجيب عنه الساعة ؛ لأدع لكل قارئ فرصة يلتمس فيها الجواب بنفسه بقراءة القصة ؛ وليس عبثا ما يضيع من وقت فى قراءة قصة من قصص نجيب محفوظ !

تمنيت لو خلت هذه التحفة الفنية البديعة من بعض الهنات فى أسلوب القول وفى الاعراب والبيان ، ولكنها هنات ضئيلة لا تبخس قيمة هذه التحفة التى تستحق التنويه والاعجاب !

رحلة الربيع بقلم الأستاذ فؤاد شاكر (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة)

الأستاذ فؤاد شاكر أديب وشاعر يحاول فى هذا الكتاب لوناً طريفاً من « أدب الرحلات» وهو يصف فيه رحلته وطائفة معه من أعيان الحجاز وأهل الرأى فيها إلى نجد ، تلبية لدعوة كريمة من حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وفى ركبه الميمون فى ربيع سنة ١٣٦٠ (شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١) وكانت رحلة ميمونة اقترنت بغيث هاطل فى نجد والحجاز أتى بأطيب الثمرات وحقق معنى الربيع ، ومن ثمة كانت تسمية الرحلة .

ولم يلتزم المؤلف فيما يصف من رحلته ورحلة أصحابه ما كان يلتزمه من قبل كتاب الرحلات من الاقتصار على وصف الديار والآثار والناس ، فانه لأديب وشاعر ، وإنه فى هذه الرحلة لضيف ملك كريم له مآثر مذكورة فى كل مرحلة من مراحل السفر وكل منزلة من منازل الاقامة ، ومن ذلك كان كتاب هذه الرحلة شيئاً طريفاً بين كتب الرحلات ، فيه إلى جانب المشاهدات الطريفة فى الرحلة من الآثار والديار نفحات أدبية رائقة ، وفيه شعر ونثر ، وفيه محاورات وطرائف ، وفيه تحقيقات تاريخية وأدبية ولغوية جاءت عفو الساعة لمناسبتها ، ولكن فيها تدقيقاً وبحثاً وآراء لها تقدير واعتبار ، وفيه إلى ذلك تعريف بطائفة من أعيان الجيل فى نجد والحجاز قد يكون فيه غداً مادة بحث اجتماعى وتاريخى .

وقد صدر المؤلف كتابه بمقتطفات رائعة مختارة من أحاديث وأقوال جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أيده الله ، وختمه بفصل فى الحديث عن أسرته وتاريخه وأعماله وبعض ما يؤثر عنه من خلال الخير وشمائل الأكرمين — وقدم له الأستاذ العقاد بمقدمة بليغة تحدث فيها حديثاً معجباً عن طبيعة التاريخ فى الأمة العربية .

وهو على الجملة كتاب يشتمل على فنون شتى ، ومن حق كل قارىء عربى يعنيه أن يتزود بجديد من العلم عن المملكة العربية السعودية الناهضة وعن نجد والحجاز موطن الشعر والحكمة — أن يلتمس زاده فى هذا الكتاب .

عاطفة الحب للدكتور محمد فتحى (مكتبة مصر ومطبعتها — القاهرة)

هذا كتاب شاب فى السادسة والعشرين من عمره ، وهذه الحقيقة هى أول سطر فى كتابه الذى بلغت صفحاته بضعا وثلاثين ومائتين كلها حديث عن الحب . أتراه حين يذكر تاريخ مولده فى أول سطر يكتبه ، ثم يتبعه ببضعة عشر سطراً فى الحديث من نفسه فى أول صفحة من الكتاب — يريد أن يدل بشبابه وصفاته ، ولكنه — فيما يبدو — ليس من أهل الادلال وإن يكن شاباً ؛ فهل تراه يريد — فى حديث ضمنى — أن يقدم للقارئ المبررات التى حملته على بذل الجهد فى تأليف شتات هذا الكتاب ، بذكر شبابه وصفاته ، ومن حق الشباب أن يتحدث عن الحب ! أم لا هذا ولا ذاك ولكنه يريد فى أول صفحة من كتابه عن عاطفة الحب أن يعرض « صحيفة أحواله » على من يعنيه أن يعرضها عليه ولا يعنيه أن يعرضها على سواه ؟ أعنى : أكانت هذه الصحيفة التى يتحدث فيها عن نفسه مقصودة لقارئ واحد من بين مئات القراء ، أو آلاف القراء ، الذين يقدم إليهم كتابه ، فهى رسالة خاصة إلى « محبوب » فى كتاب عام يقدمه إلى من يحب ومن لا يحب ؟

وكانت الصفحة التالية هى الاهداء :

« إلى من أحب
« وإلى من لا أحب
« وإلى الفتيات والفتيان فى كل عصر
« إلى الملائكة لئلا تنقلب شياطين
« وإلى الشياطين عساها تهتـدى . »

وهيهات !

ثم تتابع بعد ذلك صفحات الكتاب : بضعا وثلاثين ومائتى صفحة كلها حديث عن الحب !

هذا عناء لا يصبر عليه إلا عاشق ! فيا رحمة الله لمؤلفه وقارئه !

ولكنه كتاب أحسبه حقيقا بأن يقرأه الآلاف ، وأن يصبروا على قراءته ، بل أن يجدوا فى قراءته متاعاً ولذة ، وإن لم أجد لى أنا صبرا على قراءته ، ولم أجد فيما قرأت من صفحاته إلا آلاما شجية ؛ أما الآلاف الذين سيقرءونه ويصبرون على قراءته ويجدون فيما يقرءون أنسا وارتياحا ولذة فهم العشاق الذين لا يزالون فى اللجة ولم تقذفهم أمواج الحياة بعد إلى الساحل ، وأما أنا . . . ولكنى أوثر ألا أتحدث عن نفسى فى هذا الباب وقد قذفتنى الأمواج على الشاطئ جسداً طريحاً ليس فى يديه من ماضيه إلا ذكريات وآلام شجية وحوله من أشلاء أمانيه ثلاثة أطفال بلا أم !

ماذا أقول عن هذا الكتاب غير هذا الذى وصفت من آثاره فى نفسى ؟

لست أملك قولا بعد ، إلا أن أنصح كل مؤمن بالحب أن يقرأه ، فسيجد فيه نوعاً من التربية الوجدانية ترتفع به إلى آفاق الانسانية العالية ، من باب الملذات أو من باب الآلام !

الميثاق القومي العربي (منشورات مجلة عالم الغد — بغداد)

هــذا كتاب صغير ، على قدر راحة الكف ، لا يتجاوز بضع عشرة صفحة ، ولكن فيه — على صغره — صورة واضحة للعالم والسمات للنهضة العربية الحديثة ومايجيش فى نفوس أهل العربية جميعاً على اختلاف مواطنهم المحلية ونوازعهم الفردية .

هو ميثاق اجتمعت لتحريره ، أو لترجمته من لغة النفس إلى لغة الحديث ، طائفة من شباب العراق أرادوا أن يجعلوه تعبيراً صريحاً عما يخالج نفس كل عربى من أمانى تتصل بمعنى القومية العربية المشتركة ، وتصويراً للوعى القومى الذى تمخضت عنه الأحداث الأخيرة فى بلاد العرب ، وإنهم ليأملون بنشره وإذاعته أن يتخذه كل عربى هدفاً وقبلة، وأن يتواثق على العمل لتحقيقه كل أبناء العروبة ، ولذلك سموه ميثاقا .

ولقد يقع فى وهم بعض من لم يقرأ هذا الميثاق مكتفياً بالعنوان عما وراءه ، أنه برنامج محلى أو طائفى ، أو حزبى ، لجماعة يريدون أن يحملوا غيرهم على متابعتهم فيه ومشايعتهم على الايمان به والعمل له . وما هو كذلك فيما أرى ، ولعلى لا أعدو الحقيقة إن خرجت به عن مدلوله السياسى فسميته محاولة فنية موفقة لتصوير حقيقة ماثلة فى نفس كل عربى فهو تعبير لا إنشاء ؛ نعمل واضعيه هو عمل الفنان لا عمل السياسى .

ويقول الناشر فى مقدمتــه إن منشئيه قد ساخوا ستة أشهر فى تحبيره — على صغره — وهو قول يؤيده ما فى عبــارة الميثاق من الدقة والصدق وروح الاتزان ، فــكأنه فى معانيه المحدودة الواضحة معاهدة سياسية قد صاغ حروفها أبرع المفاوضين وأوسعهم أفقاً ، وأكثرهم إدراكا لشــتى الاحتمالات وما تقتضيه من أسباب التحفظ والاحتياط وتحــديد الألفــاظ لمدلولاتها ومعانيها .

وإنها لمناسبة طيبة أن ينشر هذا الميثاق فى هذا الوقت الذى يتحدث فيه العالم كله عن العرب وما يتنورونه من أهداف يأملون أن يبلغوها فى المستقبل القريب ؛ ليكون هذا الكتيب تعريفاً بالعرب فى نهضتهم ، وفى هذا الوقت الذى تحاول فيه جامعة الدول العربية أن يكون لها عمل إيجابى تتحقق به أمانى العرب فى الحرية والاستقلال وتحديد معنى القومية المشــتركة ؛ لتعرف « الجامعة » فى ضوء هذا الميثاق أى سبيل تسلك لتثبت وجودها الايجابى وتحقق الأمل المعقود بها ؛ وفى هذا الوقت الذى يخالج فيه نفس كل عربى شعور غامض بما عليه من تبعات وبما تفرض عليه عروبته من واجبات ينبغى أن يؤديهــا لأمته وإن لم يدرك ما هى على وجه اليقين والتحديد ؛ ليعرف كل عربى هدفه ويرى فى مرآة هذا الميثاق صورة نفســه وحدود واجبه .

ويتألف هــذا الميثاق من خمس وعشرين مادة ، تبدأ المواد الأولى منها بتحديد معنى العرب والوطن العربى ، وتنتهى بالمادة الخامسة والعشرين وهى مادة « القسم » الذى يجب أن يقسمه كل عربى يؤمن بعروبته ؛ وفيما بين المــادة الأولى والأخيرة يتحــدث الميثاق فى جلاء ووضوح وتحديد عن المقومات العربيــة والقومية العربية وخصائص الحركة القوميــة والنظام الســياسى والتشريع ، والشــئون الاقتصادية والمالية ، والأهداف الاجتماعية .

ألا ما أحق كل قطر عربى أن تتــألف فيه شعبة تعمل على التماس الأسباب لتحقيق

هذا الميثاق ! بل ما أحرى أن يكون فى كل حاضرة و بلد وقرية شعبة من هذه الشعب تتعاون كلها على العمل له وتثبيت معناه والتدرج به من مرحلة الفكرة إلى مرحلة العقيدة ؛ فلسنا نشك أن معانى هذا الميثاق فكرة قائمة فى كل نفس ، وليس ينقصها لكى تخرج إلى عالم الحقيقة إلا أن تكون إيماناً فى كل قلب !

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

الاشتراكية حركة رجعية !

يسائل الأديب عبد الغني شوق في العدد الثاني والعشرين من مجلة « النرى » التي تصدر في النجف : « هل الاشتراكية حركة علمية ؟ » ثم يحاول الاجابة عن سؤاله ، فينفي أن تكون الاشتراكية حركة علمية تقدمية ويزعم أنها — على العكس — حركة رجعية ، فليست هي كما يزعم أهلها حركة مبنية على التطور التاريخي للماضي والظروف الاقتصادية الحاضرة ، فيقول :

« إن التطور التاريخي يثبت أن الاشتراكية أبسط وسائل الامتلاك واحطها ، وأنها إذا كانت مطبقة في العصور الموغلة في القدم ، فلأن الامم التي طبقتها لم تخرج في ذلك الوقت من ظلمات الهمجية والبداوة إلى نور الثقافة والتحضر ، فقد كانت أرض كل قبيلة ومصايدها ومجاري مياهها مشتركة مابين أفرادها ... ويدلنا التطور التاريخي على أن نظام الملكية أخذ يتطور بنسبة ترقي الانسان في مدارج التحضر وأن ذلك النظام تغير من اشتراكية القبيلة إلى اشتراكية الأسرة ... والتغير الأساسي الذي حصل في نظام الملكية حدث عندما أخذ الانسان يزاول الزراعة . فالذين اهتدوا إلى الزراعة وأخذوا يعيشون من ثمرات مزارعهم لم يكونوا يشركون غيرهم فيها ، ومع هذا فان اشتراكية الأسرة بقيت ثابتة ... على أن شيوعية الأسرة لم تلبث أن محيت لدى الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة ، وتخلصت الملكية من النظام الاشتراكي العائلي إلى نظام الملكية الفردية التي أصبح بموجبها كل فرد يمتلك بمفرده ثمار أتعابه ونشاطه وذكائه ، سواء أكان زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو مخترعاً ... وعلى هذا يمكننا أن نقول إن دعوة الاشتراكيين والشيوعيين إلى إرجاع نظام الملكية إلى ما كان عليه في أحط أدوار التاريخ إنما هي دعوة رجعية دون شك وإن لقبوها بأنها تقدمية ! »

اسقنيها ذكرى !

في العدد الثاني عشر من مجلة «عالم الغد» البغدادية قصيدة فريدة للشاعر سليمان احمد العيسى ، نظمها لمناسبة ذكرى الثورة العربية الكبرى ، وضمنها خفقات قلبه النابض بأماني العروبة وأحلامها ، يفتتحها بقوله :

هاتها ... تلك خمرة الأمجاد — أنا صاد ... وأنت ياشعر ... صاد
اسقنيها ذكرى تدور بي الد — نيا على نخبها ... وأنسى رشادي !
وأرى الكون كله لمحات — من سنا عبقرية الأجداد !

ويقول فيها لمناسبة الجلاء عن سوريا :

أبلغ الشام وهى مأججة الأفـ راح نشوى من جرها المتهادى
وأغانى الجلاء تلعب بالعو د كما تشتهى . . . وبالعواد
والسكارى مرنحون مع الألـ حان والنيد زغردات وداد
قل لها والقفار تفصلنى عنـ ها وأطيانها مقيم وغاد :
لم يحن بعد موعد العرس فيحا ء ولا جر عاطر الأبراد
ما أرى الشمل فى التئام على الكأ س ولا مجلس الهوى فى اتحاد
هل سألت النادى وسامره الغا رق فى العيد عن شهيد النادى
قل لصهيون : دون أحلامك السو داء عض الشجا ولسع القتاد
لا يغرنك الهدوء على الغا ب وتطمعك هجعة الآساد
إن سبعين ألف ألف حسام عربى الحدين بالمرصاد !

الشعر السياسى فى العراق

ويعالج الأديب صلاح الدين خالص موضوع « الشعر السياسى العراقى فى مطلع القرن العشرين » فى العدد الثانى والعشرين من مجلة « الرابطة » التى تصدر فى بغداد ، فيصف حال الدولة العثمانية — سيدة العراق فى أوائل هذا القرن — ويتحدث عن أثر السياسة العثمانية فى الشعر العراقى ، فيقول :

« أما شعراء العراق فى هذا القرن ، فترى بعضهم ييأس من الاصلاح فى ظل الدولة العثمانية ويتجه اتجاهات مختلفة متباينة قد تدل على قصر نظر وقلة إدراك . . . وأعنى بذلك ما قاله الزهاوى فى قصيدة عنوانها ولاء الانكليز :

وجدت الانكليز ذوى احتشام أباة الضيم حفاظ الذمام !
إذا بهم احتمى المذعور يوما رأى منهم له أقوى محام !

« وهو رأى غريب فى بابه . . . وقد يكون للزهاوى فريق يؤيدونه فى رأيه ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن هذا لم يكن رأى الجميع ؛ فقد كان هناك فريق من الأدباء والشعراء فى مقدمتهم الرصافى يرون الدولة العثمانية دولتهم : فى عزها عزهم وفى خذلانها خذلانهم ، يتضح لنا ذلك من قوله يؤنب أهل مصر على الاحتفال بعرس كريمة الخديو فى الوقت الذى اندحر فيه الأتراك فى البلقان ، يقول :

« أيها المولمون فى مصر مهلا إن إيلامكم لنا إيلام !
أتغنيكم القيان بيوم قام فى مأتم به الاسلام ؟
أشماتاً بالمسلمين وقد دا رت عليهم بنحسها الأيام ؟
أم تريدون أن تكونوا كقوم أسكرتهم بين القبور مدام ! »

كنوز الفقراء !

وهذه مجلة جديدة من مجلات الشرق حقيقة بالتنويه ، أعنى مجلة « صوت المرأة » التى تصدر فى بيروت . وبين يدى اليوم منها عدد يوليو ، وقد كنت أتمنى أن يتاح لى أن أعرضها للقراء عرضاً مسهبا ليعرفوا أن فى العربية اليوم مجلة نسوية خليقة بأن توصف . . . لولا ضيق هذا المجال ، فحسبي فى وصفها أن أقتبس لقرائى فقرات من هذا العدد الذى بين يدى .

فهذه مقالة للمرحوم عمر فاخورى بعنوان « كنوز الفقراء » يحكى فيها بأسلوبه النابض أسطورة لبنانية ذائعة ، ثم يقول :

« ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا ، أو تصور وجود غير هذا الوجود العادى ، وقفا على وحى الأنبياء وخيال الشعراء ، فان للعامة فى هذا الخلق والابداع اليد الطولى ؛ بل لعل الأنبياء والشعراء يستقون من هذه الينابيع التى لاتفتأ تفيض فى كل عصر ومصر ولا يغيض ماؤها ابدا : الآداب العامية ؛ فاذا كان فى الأمر بعض الشك ، فان الشعوب بالأقل تلتقى مع أنبيائها وشعرائها فى صعيد واحد ، لكفاية الحاجة الانسانية العامة الدائمة إلى الخوارق والاعاجيب ، أى إلى كل ماهو « فى خارج » هذا العالم ونواميسه وحقائقه المألوفة . وإن فى الآداب العامية ، أو « الفلكلور » كما يسميها الافرنج لطرائف شائعة ممتعة غزيرة المعانى ، سواء الأقاصيص والأمثال أم الأساطير والعقائد . »

الحب فى الشعر العربى

وفى العدد نفسه من مجلة « صوت المرأة » مقال للآنسة مارى عجمى بهذا العنوان تتحدث فيه عن أدوار الحب وتطور معناه مع البشرية ، فتزعم أن الحب كان فى أول أطواره ماديا يقف عند حد التعبير الجنسى ، ثم انتقل مرحلة فصار بين المادية والروحية فهو يعنى تارة بوصف الجمال حيث كان ، وتارة بجمال العقل والخلق وطهارة النفس ، ثم انتقل مرحلة أخرى بعد هذه المرحلة حين أيقن الناس أن وحدة الجمال تجمع بين الخلق والخلق وأن الفصل بين العاطفتين عقم أو خروج عما رسمته الطبيعة للبشر . . . ثم راحت بعد هذا التمهيد تتحدث عن الحب بمعانيه الثلاثة فى الشعر العربى ، فتزعم أن العرب فى الجاهلية « الأولى » عرفوا الحب فى طوره الثالث ، وتستشهد لذلك بشعر للشنفرى الشاعر الفاتك ؛ أما شعراء الجاهلية « الثانية » فكانوا أكثر تشبيبا بجمال الوجه والجسم « وأنهم كانوا يفعلون ذلك محاكاة لليونان فى نحت التماثيل » ! فالنابغة الذبيانى حين يصف « المتجردة » امرأة النعمان ، وشاعر « اليتيمة » حين يصف صاحبته متسائلا : « هل بالطلول لسائل رد ؟ » والمنخل اليشكرى حين يتحدث عن قصته مع صاحبته فى « اليوم المطير » — كل أولئك فيما تزعم الكاتبة من شعراء الحب فى طوره الأول ، ومن المتأثرين باليونان فيما نحتوا من تماثيل !

وبعد أن تسوق الكاتبة طائفة من الأمثلة تقول :

« فما تقدم يتضح لنا أن شعراء الجاهلية الثانية لم يتجاوزوا طور الحب الاول . . . ولكن الشعر الاسلامى — على وفرة ما تضمنه من الوصف المادى — يتخلله الروحى . وأكثر الشعراء سموا هم شعراء البدو، وزعيمهم جميل بثينة . . . أما سائر الشعر الاموى الحضرى فمعظمه مادى ، ومثله الشعر فى الدولة العباسية . . . وفى أواخر العصر الأموى بدأت الدعابة فى الغزل ، وكثرت فى العصر العباسى حتى بلغت حد السفه والمجون ؛ قال أبو نواس :

« يا قمرا أبصرت فى مأتم   يندب شجوا بين أتراب
لا زال موتاً دأب أحبابه   ولا تزل رؤيته دابى ! »

لانقاذ الحضارة

وفى عدد أغسطس من مجلة « الأديب » البيروتية كلمة للأستاذ قدرى حافظ طوقان عنوانها « السبيل لانقاذ الحضارة » يقول فيها :

« إن الأمم لا تصلح بالعلم وحده ، وإن التقدم فى الاختراع والاكتشاف لم ينتج الانسانية مما حاق بها من مصائب وويلات ، بل الواقع أن هذا التقدم فى المادية زاد المشاكل تعقيداً وسلب العالم راحة البال وطمأنينة النفس ، وأثبتت الأوضاع أن التقدم العلمى وحده لم يستطع تثقيف الرغبات والنوازع الانسانية ، وهو يهدد بزوال ما بقى من معالم الحضارة وآثار الفكر والعقل .

ويرى فريق من كبار المفكرين أن الانسان إذا استمر فى عجزه على إدماج العلم بأغراض الروح والخلق فستبقى قوى العلم فى اتجاهها نحو التدمير والهدم وتزيد المشاكل وتتضاعف المتاعب ، فلايخرج من محنة إلا ويجابه محنة أشد وأنكى . »

المجاعة الأدبية !

وفى العدد نفسه من مجلة الأديب يناقش الأديب سهيل إدريس دعوى الأستاذ عبدالله المشنوق فى العدد الماضى من مجلة الأديب ، التى يزعم فيها أننا فى « قحط أدبى لم يسبق لنا أن شاهدنا له مثيلا فى ماضيات أيامنا . . . » لأن كبار أدبائنا — فيما يزعم — قد انصرفوا عن الأدب الرفيع إلى الصحافة ، وقد أشرنا إلى هذه الدعوى فى بعض ما اقتبسناه من الحديث فى العدد الماضى عن الأدب والصحافة .

ويعنف الاستاذ سهيل إدريس فى مناقشته لدعوى الأستاذ المشنوق فيقول :

« إن الكاتب يبتدئ هنا كمؤرخ للأدب ، والمؤرخ عالم ينبغى أن تتوفر لديه الرصانة العلمية ، والدقة فى البحث ، واستيفاء الموضوع من كافة نواحيه ، والنزاهة والبعد عن التحيز . ونعتقد أن البحث العلمى الرزين حين يتناول جيلا من الأدباء وتياراً من الأدب يجب أن يستغرق أكثر من صفحة واحدة مهما كان غنيا بالآراء الصحيحة والنظرات الصائبة . »

ثم يمضى الأستاذ سهيل فى مناقشة دعوى الأستاذ المشنوق فقرة فقرة ، رفيقاً حيناً وقاسيا حينا آخر ، مستشهداً بأمثلته من إنتاج الأدباء المعاصرين فى نقض دعوى الجماعة الأدبية ، مدافعا عن أدبائنا الكبار الذين وصفهم الأستاذ المشنوق بما وصف مما نقلنا بعضه فى اقتباساتنا للشهر الماضى ، ثم يختتم مقاله بالوعد بمعالجة الموضوع « فى جو من الدراسة والتحليل والنقد إذا شاء الأستاذ المشنوق . . . » أتراه بهذا الختام يعد أو يتوعد ؟

من يدرى ؟ لعلها بوادر معركة !

الشباب الراجع !

وفى عدد أغسطس من مجلة « الفكر » السورية مختارات من نظم الشاعر حليم دموس ، منها بعنوان « الشباب الراجع » :

سلبت يا دهر منى أعز شىء لديا
سلبت منى شبابى وكان غضًّا نديا
لكنه حن شوقاً وفر منك إليّا
فانظر ، أسلتَ تراه يا دهر فى ولديّا !

فهرس المجلد الثالث

يونيو — سبتمبر ١٩٤٦

دراسات أدبية

دراسات فلسفية

---

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو امريكيين .

(١) André Malraux, *Esquisse d'une psychologie du cinéma.*

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

قصص

شعر

من هنا وهناك

شهرية العلم

شهرية الاجتماع

شهرية السياسة الدولية [محمود عزمى]

شهرية الفن

شهرية المسرح

شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب

من وراء البحار

ظهر حديثاً

في مجلات الشرق

العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الازهر

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الازهر

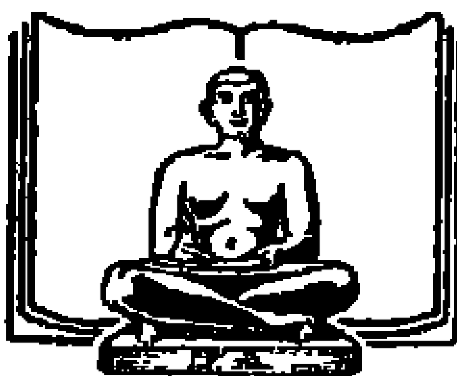
على حسن عبد القادر
دكتور فى العلوم الإسلامية
مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليما)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur : ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU SIXIÈME CAHIER

إن هنا فكرة
ستحدث ثورة فى عالم الأعمال !

يدأت الثورة فى غرفة فندق بمقاطعة نيويورك منذ أكثر من سبعين سنة ، كان مخترع الآلة الكاتبة يبحث عن منتج ، غير أنه كان من الخجل بحيث لا يحسن الدفاع عن فكرته بنفسه ، فأرسل اثنين من أصدقائه مع نموذج آلته الأولى ليكتسب تعضيد الصناع المشهورين لآلات الحياكة وآلات الزراعة رمنجتون وأولاده .

وجاء الأمل فى هذا التعضيد بسرعة وفى تحمس . وكفت ساعة قضوها فى تجارب ومناقشات لتخرج إلى حيز التحقيق صناعة الآلات الكاتبة . وفاه أحد موظفى شركة رمنجتون ، وكان أثقب نظراً من الآخرين ، بهذه الكلمات التنبؤية التى سرعان ما غدت حقيقة واقعة : « فكرة ستحدث ثورة فى عالم الأعمال » .

وفى كل السنين منذ ١٨٧٣ ، كانت آلة رمنجتون ، بفضل هذه الفكرة المبتكرة واتقان عجيب فى صنعها ، أشهر الآلات الكاتبة . وكانت التحسينات الكبيرة تصدر دائماً عن المعامل الهندسية لمنشئ هذه الصناعة .

هذا هو السبب فى الاقبال على شراء آلات رمنجتون أكثر من غيرها من الآلات الكاتبة .

وهذا هو السبب ايضاً فى أن آلة الغد الكاتبة حققت اليوم فى آلة رمنجتون راند الجديدة التى أثبتت جودتها باستعمالها فى ظروف الحرب العصيبة والتى بتحسيناتها الجديدة ، ملمس جديد أنعم وسرعة زائدة فى العمل ، توفر لك عملا سريعاً لم تعرفه أبداً .



Remington Rand

رمنجتون راند

الأولى بين الآلات الكاتبة

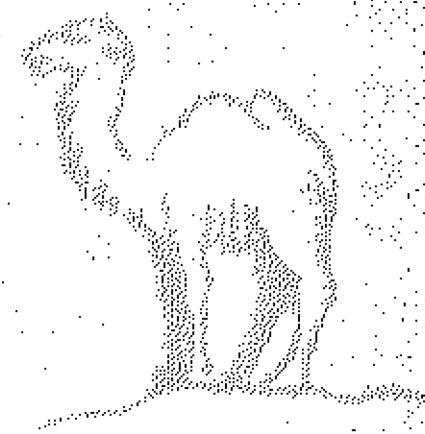


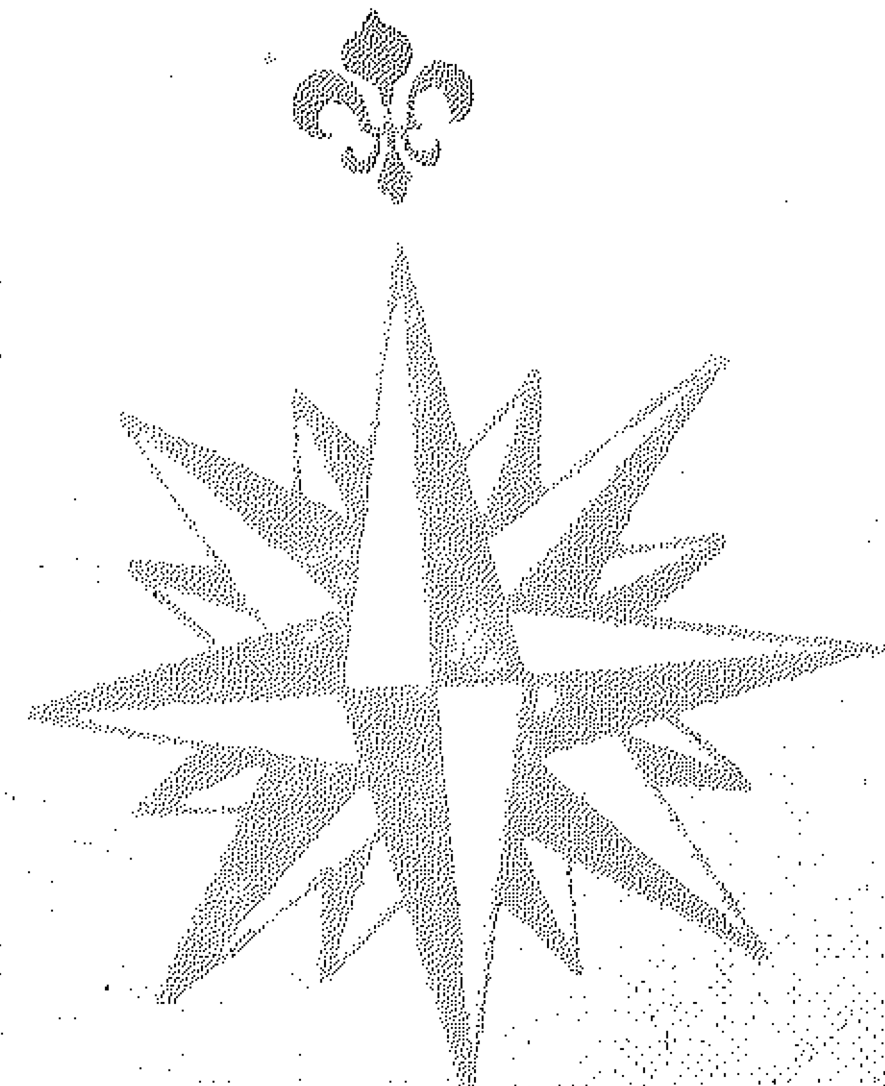
الوكلاء
الموزعون : **الكاتب المصرى** شركة مساهمة مصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب :
القاهرة الاسكندرية بورسعيد
المركز الرئيسى بالقاهرة - ٥ شارع قنطرة الدكة

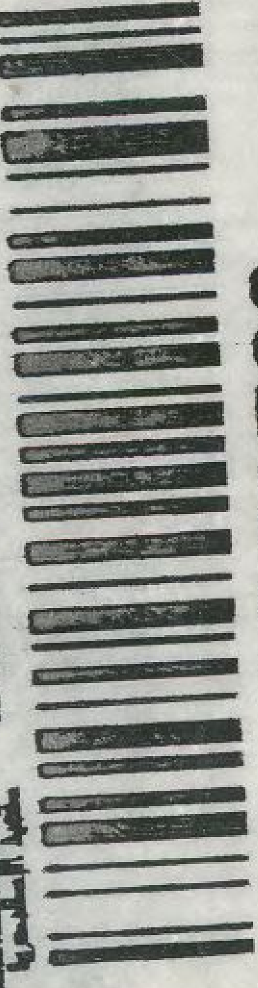
في ارجاء العالم العربي










Bibliotheca Alexandrina
0531700